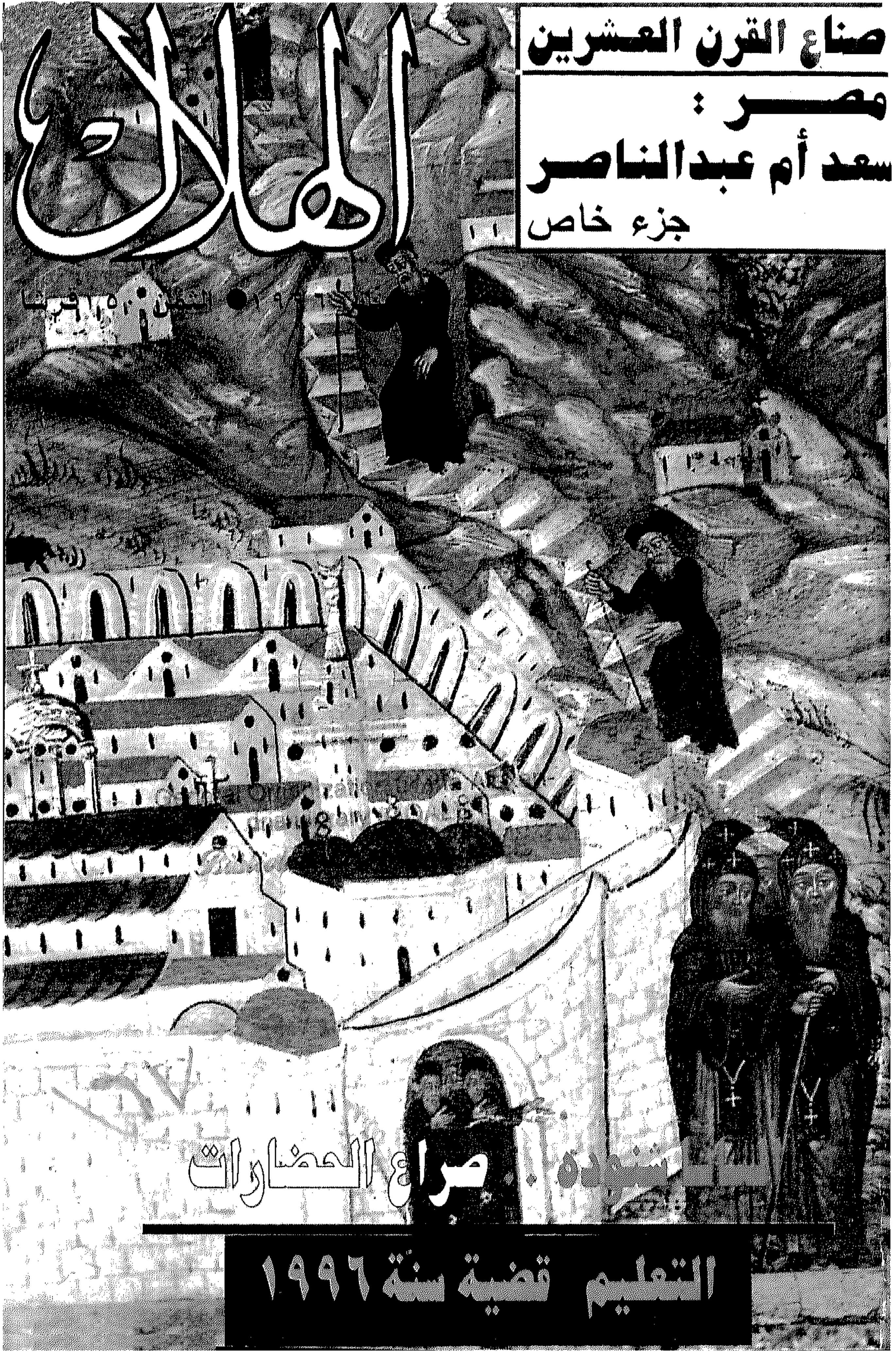

الهلال
صناع القرن العشرين
مصر :
سعد أم عبدالناصر
جزء خاص
صراع الحضارات
التعليم قضية سنة ١٩٩٦



المرأة الشـــــابة

لوحة للفنان الفرنسى ادجار ديجا (١٨٧٩) - المتحف الوطنى - لندن



مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢
العام الرابع بعد المائة

مكرم محمد أحمد رئيس مجلس الإدارة

عبد الحميد حمروش نائب رئيس مجلس الإدارة

الادارة القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت : ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) . المكاتبات : ص.ب : ٦١٠ - العتبة - الرقم البريدى : ١١٥١١ - تلغرافيا - المصور - القاهرة ج. م. ع. مجلة الهلال ت : ٣٦٢٥٤٨١ - تلكس : 92703 Hilal un فاكس : FAX : ٣٦٢٥٤٦٩

مصطفى نبيل رئيس التحرير

حلمى التونى المستشار الفني

عاطف مصطفى مدير التحرير

محمود الشيخ المدير الفني

ثمن النسخة سوريا ١٠٠ ليرة - لبنان ٣٠٠٠ ليرة - الأردن ١٢٠٠ فلس - الكويت ٧٥٠ فلسا، السعودية ١٠ ريالات - تونس ١.٧٥٠ دينار - المغرب ١٥ درهماً - البحرين ١ دينار - قطر ١٠ ريالات - دبى/ أبو ظبى ١٠ دراهم - سلطنة عمان ١ ريال - الجمهورية اليمنية ١٠٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس ١ دولار - إيطاليا ٤٥٠٠ ليرة - المملكة المتحدة ١.٥ جك

الاشتراكات قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ١٨ جنيها داخل ج م. ع. تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٢٠ دولارا. أمريكا وأوربا وافريقيا ٣٥ دولاراً. باقى دول العالم ٤٥ دولاراً

● وكيل الإشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيونى زغلول - ص ب رقم ٢١٨٣٣ - الصفاة - الكويت - ت/ 13079 ٤٧٤١١٦٤

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

فى هذا العدد



تفصيلة من « أيقونة » من طراز الفن السيناني - القرن الخامس عشر الميلادى من مجموعة مقتنيات دير سانت كاترين

فكر وثقافة

صناع القرن العشرين

جزء خاص

شعر وقصة

دائرة حوار

فنون

التكوين

الأبواب الثابتة

من الهلال إلى الهلال

عـزيــزى القـارىء

كل عام وأنت بخير .

فى سرعة يختفى وجه العام الذى عرفناه ، ويطل علينا وجه عام جديد، والعام الجديد بشير ونذير بملامح تاريخ جديد للجنس البشرى . والتغيرات فى العالم أسرع من الخيال وأعنف من كل التوقعات ، وبلغت معدلات التغير ما لم يشهده العالم من قبل. ووصلت التغيرات إلى كل شىء حولنا ، من لا يلاحقها أو يتوقف يسقط في بئر التخلف العميق . والباقى من الزمن أربع سنوات ، ونجد أنفسنا فى سنة ٢٠٠٠ ، ونخرج من القرن العشرين لكى ندخل القرن الحادى والعشرين .

ومع العام الجديد . نطل على حصاد الماضى ، نرى ماذا عملنا ، وما الذى علينا أن نعمله ؟ . ومن حرفتهم الكتابة ، فهناك الكلمة الفعل، وهناك كلمة مثل الحب الذى يبدر ثم ينتظر الحصاد .

ووقفة التأمل هذه لاتكتفى بالنظر إلى السنوات التى نعيشها بل تمتد إلى الماضى والمستقبل، فليس فى أيامنا هذه فرصـــة الخمـــول أو الرتابة.

ويواصل الهلال نشر أهم صناع القرن العشرين ويعرض أهم الأفكار والأشخاص من زوايا مختلفة ونفرد له جزءا خاصا، وسنواصل فى الأعداد المقبلة استعراض الشخصيات التى غيرت العالم، لكى نلمس حركة الزمن وندرك أبعاد المستقبل وكيف نتعامل معه.

ومن حصاد الماضى ، ما قمنا به عندما استكمل «الهلال» عامه المائة في سبتمبر ١٩٩٢ ، واتخذ الاحتفال مظاهر شتى ، من بينها إعادة اصدار السنة الاولى من الهلال وأصدرنا «سجل الهلال المصور» وهو مجلد ضخم

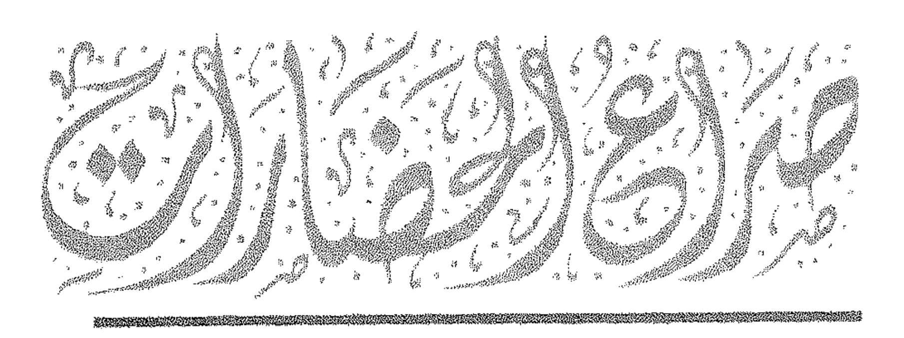
من جـزءين يحوى مئات الصفحات من الصور النادرة ، كما أصدرنا في جــزءين موسوعة أهم مائة كتاب كان لها أكبر الأثر في تفكير الانسان العربى ، وهى الكتب التى تبشر بالتنوير وأن يستبدل العقل بالنقل ، والعدل بالظلم ، والحوار بالاملاء ، والابداع بالاتباع ، وأحلام التقدم بأوهام التخلف.

وما نعتز به أشد الاعتزاز ، هو الدور الذى قامت به «الهلال» نحو الحى الذى نشأت فيه منذ خمسين عاما فى حى السيدة زينب ، أى أن الهلال قضى نصف عمره في هذا الحى الشعبى العريق ، وأردنا أن نقدم نموذجاً يحتذى ، يؤكد دور المؤسسة فى محيطها ، واقترحنا لذلك أن يتم ترميم الآثار التاريخية فى الحى ، واقترحنا ترميم مدرسة السنية أقدم مدارس البنات فى مصر ، وتبنى البنك الأهلى هذا المشروع ، واقترحنا إقامة مكتبة عامة فى الحى ، واستجاب بنك مصر لاقتراحنا ، وساهم فى المشروع صندوق التنمية الثقافية . وهى المكتبة التى افتتحت مؤخراً وأطلق عليها مكتبة طلعت حرب ، ومازالت دعوتنا إلى ترميم بيت السناري في حارة يونج تنتظر التنفيذ.

إن كل شىء فى العالم اليوم يحاول أن يفتح صفحة جديدة على مشارف قرن جديد ، ولعل وقفتنا تكون لفتح صفحة جديدة من الهلال تربطنا بالمستقبل ، فالقرن القادم يفتح ذراعيه ، ولا يجوز أن نرتد إلى الوراء .

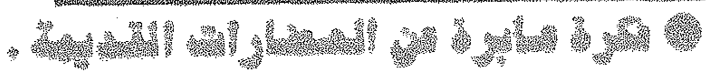
نحن أمة تبحث عن المستقبل ، تراثنا يمتد وراءنا آلاف السنين وسوف يذهب أدراج الرياح إذا جمدناه ولم نتخطاه. إن ماضى مصر والبلاد العربية يمتد إلى ماض بعيد ، ولكن ماذا يجدى هذا الماضى إذا كان حاجزا يقف بيننا وبين المستقبل .

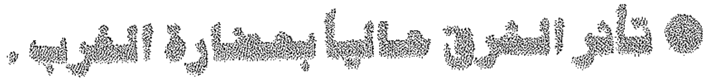
المحرر

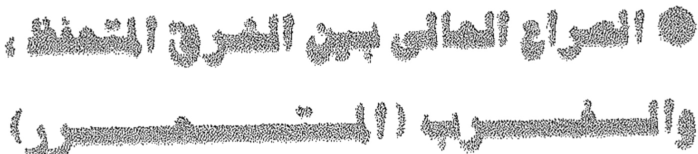


بقلم : البابا شنوده الثالث









الحضارات بدأت أولاً فى الشرق..

لعل أقدمها كانت الحضارة المصرية، ثم الحضارة البابلية . وحضارة أخرى فينيقية، وحتى الحضارة اليونانية كانت تعتبر شرقية أيضاً. كان انتماء اليونان إلى الشرق أكثر من انتمائها إلى الغرب . كما أن نصف قارات العالم التى فى الغرب (أمريكا الشمالية - أمريكا الجنوبية - أستراليا) ما كانت قد اكتشفت بعد . وكانت تسكنها شعوب بدائية.

قامت حضارة أخرى فى الهند، أساسها الفلسفة والنسك.

وعندما قامت الإمبراطورية الرومانية . وأزالت من أمامها إمبراطورية الإسكندر الأكبر ومن خلفه من البطالمة، قيل ذلك المثل المشهور «الرومان انتصروا على اليونان عسكرياً أو سياسياً، ولكن اليونان انتصروا عليهم ثقافياً».

على أن الرومان اعتبروا أنفسهم أرقى شعوب العالم، وكل الشعوب الأخرى برابرة. وكلمة Barbarus فى اللغة الرومانية تطلق على الأجنبى، وجمعها Barbari ومعناها أجانب. فماذا يسمون اليونان الذين كانوا يسيطرون على الثقافة فى العالم وقتذاك. ومنهم كبار الفلاسفة أمثال سقراط وأفلاطون وأرسطو والفلاسفة

الرواقيين؟... ماكان من الرومان إلا أنهم اعتبروا اليونان Semi Barbarians أى نصف برابرة ، أو شبه برابرة!

وانقسمت الإمبراطورية الرومانية العظمى إلى دولتين: الدولة الرومانية الغربية وعاصمتها رومه، واستولت على غالبية بلاد أوربا. والدولة الرومانية الشرقية وعاصمتها القسطنطينية، واستولت على تركيا، وبلاد الشرق الاوسط ومنها مصر والشام وفلسطين، وما يجاور تلك المنطقة من بلاد، وأثرت عليها.

وفى سنة ٤٧٦م انتصرت القبائل المتبربرة بقيادة «اودو أكد» على الدولة الرومانية ونعنى بهذه القبائل المتبربرة كما دعوها (أى غير الرومانيين): قبائل الإنجلز والسكسون والسلاف والفرنجة والجرمان والقوط. وتكونت من هؤلاء دول صارت دول الغرب العظمى . فالإنجلز كونوا إنجلترا، والسلاف الشماليون كونوا تشيكوسلفيا.. والسلاف الجنوبيون كونوا يوجوسلافيا، والفرنجة كونوا فرنسا، والجرمان كونوا ألمانيا، وهكذا.

الألمان اعتبروا أنهم من الجنس الآرى ، الذى رأوا أنه أرقى أجناس العالم.. وبلغ من مبالغتهم فى تمجيد جنسهم ، أن بعض علمائهم اعتبروا أن كل الشخصيات العظيمة فى التاريخ لابد أن اصلها كان من الجنس الآرى.

بعد ذلك اكتشفت قارات الغرب أى الأمريكتان وأستراليا، ودخلتها شعوب من أوربا، وأقامت فيها حضارات ظلت تنمو وتنمو، حتى صارت من أعظم الحضارات الحديثة ، وفاقتها علماً، كما فاقتها فى العمارة، وفى المخترعات. ودخلت فى منافسات مع حضارات أوربية كثيرة.

لكننا هنا لا نود أن نتكلم عن الصراعات في الغرب، إنما سنتكلم عن الصراع بين الشرق والغرب .

● التأثر بالغرب

ظل الشرق محتفظا بحضارته الخاصة المتحفظة إلى أن دخل إليه الغرب بطرق شتى وأثر عليه كثيراً فى مجالات متعددة لايمكن تجاهلها، وبخاصة بعد حكم المماليك الذى ساعد على تدهور الشرق.

لا ننكر أنه حدث بعد ذلك غزو حضارى، انتقل من الغرب إلى الشرق كان ذلك أولاً عن طريق العلم، بالمدارس التى أسسها أهل الغرب فى بلادنا، وبالبعثات

التى أرسلناها إلى جامعات الغرب، وتأثير ذلك كله فى انتقال تقاليد وعادات وثقافات، وفيما امتلأت به مكتباتنا من كتب ودوائر معارف، ما استخدم منها كما هو وما ترجم منها إلى العربية.

ولا ننسى الفترات التى سيطر فيها الغرب سياسياً على بلاد الشرق، وبخاصة بعد الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤، وما حدث بعدها من وقوع كثير من بلاد الشرق تحت الحماية أو تحت الانتداب لعشرات من السنوات، تركت فيها بصماتها الغربية فى عديد من نواحى الحياة.

بل قبل هذه الحرب، لاننسى الاستعانة بالغرب فى بعض مشروعات، حتى أننا نلاحظ أن الاحتفال بافتتاح قناة السويس التى قام بحفرها فردناند ديلسبس كان احتفالاً تسوده المظاهر الغربية. وكان الخديو إسماعيل يجاهر بأنه يريد أن تكون القاهرة كقطعة من فرنسا

وتوالى التأثير الغربي عن طريق وسائل الإعلام

هذه التى استطاعت نقله بما تنشره من أفلام وأوبريت وأغان وحفلات وأخبار، وما يمكن تقليده من كل ذلك. بل إن وسائل الإعلام نفسها هى من ضمن انتشار الحضارات الغربية . وبواسطتها أصبحت بلاد العالم فى حالة اختلاط مستمر، يؤثر بعضها فى البعض الآخر، بحيث من الصعب أن نقول إن هناك حضارة خاصة منعزلة تماماً عن حضارة أخرى.

المجتمع بدأ يتغير في الشرق وتطغي عليه الحضارة الغربية:

وفى مقدمة ذلك ما حدث من جهة تحرير المرأة، وما قام به قاسم أمين فى هذا المجال وبدء تعليم المرأة، وإنشاء مدرسة لذلك على يد البابا كيرلس الرابع، ثم انتشار المدارس للفتيات فى كل مكان. كذلك بتعليم المرأة، أخذت تلتحق بالوظائف وترتقى فيها، حتى وصلت إلى مرتبة الوزير . واشتغلت فى التعليم وصارت ناظرة لمدرسة، كما اشتغلت فى العلم الاجتماعى بكل أنشطته وفى الطب والمحاماة وعضوية البرلمان وغير ذلك.

وبتأثير الحضارة الغربية تغيرت ملابس الرجال أيضاً، واعترف المجتمع بذلك فأطلق عليها اسم الملابس الإفرنجية وملابس النساء تغيرت أيضاً، ودخلت فيما

يسمى باسم الموضة، وكلما تغيرت الموضة فى بلاد الغرب، تغيرت فى الشرق أيضاً.

وإذ ارتقى التعليم وتأسست الجامعات، عرف الشرق التعليم المشترك في الجامعات.

وأصبحت الشابة تتلقى التعليم إلى جوار الشاب فى كليات الجامعة، الأمر الذى لم يكن معروفاً فى الشرق من قبل. وبتفوق المرأة أحيانا، صارت ترتقى مناصب التدريس فى الجامعة، وتصل إلى درجة الاستاذية ورئاسة القسم، ويتتلمذ عليها شبان ورجال، وترأس اجتماعات مدرسين. وما كان الشرق يألف هذه الصورة قبلاً.

والحضارة الغربية ومجالات التعليم والخلطة، أثرت على اللغة أيضا فدخلت فى استعمالنا اليومى ألفاظ غربية لم تكن معروفة، مثل التليفون والتلغراف والراديو والتليفزيون، والمايسترو، والبار، والموضة، والماتش والجول والتنس والباسكت، وكما فى مجال الإعلام والرياضة، كذلك فى مجال الطب والدواء دخلت إلينا ألفاظ الڤيتامينات بأنواعها، والـ Anti Biotics بل أسماء العلوم نفسها دخلتها ألفاظ غربية مثل الجغرافيا والفلسفة والچيولوچيا، والمغناطيسية، والفيزياء، والكيمياء، وما إلى ذلك من ألفاظ.

هنا لا نستطيع أن نقول صراع حضارات، إنما تبادل المعرفة.

وهكذا دخلت فى حياتنا اليومية كثير من المخترعات بأسمائها مثل البوتاجاز، والڤيديو، والبولدوزر، والكاسيتات والكمبيوتر وألفاظ المونولوج والديالوج، يستعملها حتى العوام بألفاظها دون حاجة إلى ترجمة، ودخلت إلينا أنواع كثيرة من الفن.

ودخل التأثير أيضا فى البناء والعمارة والمواصلات

مضى عهد الأهرامات والمسلات، وأتى عهد ناطحات السحاب والأبراج والڤيلات. وبعد أن كان البناء بالحجر، أصبح بالحديد والأسمنت والخراسانة، وعرف الشرق أنساقا من البناء لم تكن معروفة. وأصبح هناك خبراء فى كل فنون البناء. المستشفيات منها لها تصميمات خاصة تتفق مع أغراضها الطبية، وكذلك المصانع والمدارس والمكتبات.

كذلك لاننسى التأثير الغربى فى المواصلات التى صارت شيئاً جديداً لم يعرفه الشرق من قبل. من الطائرة إلى القمر الصناعى إلى مركبات الفضاء، إن العالم فى كل ذلك يتعاون ويتسابق، ولا أقول أبداً يتصارع.

فى الحضارات الحديثة كل دولة تنتفع بما وصلت إليه الأخرى، وتحاول أن تزيد عليها

نقول هذا في كل مجالات العلوم والمخترعات التي تزيد كل يوم . وكذلك فى مجال الصحة العامة وما تصل إليه اكتشافات الطب والدواء، والتسابق فى خدمة الإنسانية ومعالجة الأمراض المستعصية، وتفادى الأوبئة، وإنقاذ ضحايا الكوارث الطبيعية.

● الخلاف والصراع ●

ومع رقى الغرب فى العلوم، فقد وجد خلاف بينه وبين الشرق فى أمور أخرى:

فمن نواحى الخلاف والصراع المفهوم الخاطيء للحرية وسوء استخدامها:

ولهذا الموضوع فروع عديدة، لأنه بسوء استخدامهم للحرية أفسحوا المجال لانحرافات خلقية واجتماعية ودينية كثيرة.

والواقع أنه لاتوجد حرية مطلقة يفعل فيها الإنسان كل مايريد بلا ضابط.. إنما الإنسان حر بحيث لايتعدى على حريات وحقوق غيره، وبحيث ليكسر النظام العام ولا يخرج على القانون، وأيضا في حريته لا يكسر وصايا الله، ولا يشذ عن القوانين المرعية والاخلاق العامة . فلا يجوز لإنسان مثلاً أن يمشى عارياً فى الطريق ويقول أنا حر.. أفعل ما أشاء!! ولا يجوز له أن يغتصب ما لغيره ويقول أنا حر آخذ ما أشاء! ولا يجوز له أن يفقد أدبه فى تعامله مع والديه، ويقول أنا حر أتعامل كما أشاء! ولا يجوز له أن يتعاطى المخدرات، ويقول أنا حر فيما أتعاطاه....

فى الغرب وصل سوء استخدام الحرية إلى فساد الخلق وانتشار الشذوذ الجنسى...

ونحن لا ننكر أن الشذوذ الجنسى خطيئة يمكن أن تحدث فى أى بلد، وبخاصة فى المجتمعات المغلقة . ولكن الأمر العجيب هو أن ينتشر هذا الشذوذ فى بلاد الغرب بكثرة لافتة للنظر، وأيضا فى علانية وعدم حياء. فيعلن أولئك الشواذ عن أنفسهم أنهم شواذ Homosexuals سواء أكانوا شواذ بطريقة سلبية أو إيجابية.. وأحيانا يلبس ذلك الشاذ حلقاً فى أذنه اليمنى أو اليسرى ليدل على نوعية شذوذه بلا خجل! وتنشر لأمثال هؤلاء صور فى المجلات!

وأكثر شراً من هذا أن يجد أولئك الشواذ من يدافع عنهم في شذوذهم!

إما باسم الحرية، باعتبار أن كل شخص حر فى أن يبحث عن متعته الشخصية بالأسلوب الذى يروقه! أو بأن كثيراً من هؤلاء قد ولدوا هكذا ، فالشذوذ جزء من طبيعتهم ومن تكوينهم الجسدى لا يلامون عليه.. ونحن نقول لهم إن كان الأمر خاصاً بخطأ عضوى فى جسده، فيجب أن يعالج طبياً، وإن كان فساداً فى خلقه، فيجب أن يؤدب ويقاد إلى التوبة..

ولكن على أى الحالات لا يجوز تبرير الخطأ، ولا يجوز للمجتمع أن يقبله.

ولا يجوز لإحدى المحاكم أن تبيحه وتصرح به كما حدث فى إحدى المحاكم بأمريكا التى أجازت زواج رجل برجل.. الأمر المشين والمخجل!!

وهنا يقع بعض الغربيين فى مشكلة اجتماعية أخرى، فى تعريف الأسرة وتكوينها.. فنحن فى الشرق نعرف الأسرة بأنها علاقة شرعية بين رجل وامرأة فى ظل الدين قد ينتج عنها نسل تثبت شرعيته أيضاً. ولكن هذا التعريف الواضح هو موضع نقاش فى بعض بلاد الغرب، فقد تتكون الأسرة فى نظرهم من اثنين مرتبطين لايشترط اختلافهما فى الجنس. وهذا فساد واضح يجد من يدعو إليه!

أما من ناحية الارتباط الدينى فى الزواج، فقد وجد الزواج المدنى ولا يشترط فيه دور رجل الدين فى عقده.. وللأسف زحف هذا النوع من الزواج الى بلاد المشرق.. ووجد إلى جواره أيضا الزواج العرفى!

إن الشرق بطبيعته هو حارس للمبادىء والقيم

ويمكن فيه لرجل الشرطة أن يقبض على أى إنسان يرتكب فى الطريق عملاً مخلاً بالآداب، كما يقبض على من يرتكب جرائم خلقية ولو فى مسكن مغلق. ولكن الحرية فى بلاد الغرب تسمح بأعمال نعتبرها فى الشرق مشينة، يمكن أن تحدث فى الطريق، ولا يعتبر مرتكبها مخطئاً. بل الذى ينظر إليه أو يلوم (حريته) هو المخطىء، فهذه من أموره الشخصية Privacies!!

ولذلك من الأمور العجيبة ليس فقط أن الشواذ يعلنون عن أنفسهم، بل أكثر من هذا أن يطالبوا لأنفسهم بحقوق كشواذ، يقرها المجتمع أو يجد من يدافع عنها. بينما فى الشرق إن وجد شواذ، فانهم يخجلون من وضعهم ويستترون.

من مساوىء استخدام الحرية فى الغرب أيضاً، فقدان الآباء لسيطرتهم فى الأسرة، وكذلك الأزواج!

فقد يستخدم الأب حقوقه على ابنه أو ابنته إلى سن معينة، ثم بعد ذلك لا حقوق له.. وهنا فالعقوق يحميه القانون. وما أسهل تمرد الأبناء على آبائهم باسم الحرية.. وكذلك تمرد الزوجة على زوجها، بأسلوب لايمكن قبوله فى الشرق.

إن عبارة رب الأسرة التي تطلق على الزوج أو الوالد فى الشرق، تكاد لا تستعمل إطلاقاً في الغرب!

ومن هذا المنطلق ساد تفكك الأسرة إلى حد بعيد، وانتشر الطلاق وكثرت أسبابه، وأيضا باسم الحق وباسم الحرية..

وباسم الحرية انتشر الإدمان، وكثرت الأمراض الناتجة عن الفساد الخلقى.

وعلى الرغم من أن الغرب حازم جداً فى قواعد مرور السيارات، فإنه لا حزم له فى مرور التيارات الفكرية والقواعد الخلقية..

فكل إنسان حر فى أن يفكر كما يشاء، وأن ينشر أفكاره، وبلا ضابط. ومن هنا وجد الكثير من البدع. وحتى فى مجال الدين، كل إنسان فى الغرب له أن يعتنق مايشاء، وأن يفسر الدين كما يشاء. وهكذا وجدت عشرات المذاهب، ولعل من أهم المذاهب الجديدة التى وجدت فى أمريكا وأنتشرت فى القرن العشرين.. شهود يهوه.. ويتبع هذا المذهب ملايين من الناس ، ويدعون إلى مذهبهم فى كثير من بلاد الشرق أيضاً. كذلك مذهب المورمون، وله أتباع بالملايين أيضاً. وهيئاته منظمة جداً. وغنية. كذلك مذهب السبتيين الأدفنتست. وكلها مذاهب حديثة ظهرت فى أمريكا وانتشرت.

إن الشرق يتميز بأنه محافظ، بينما يقال عن الغرب إنه متحرر

والبعض يحارب التحفظ بأسلوب مثير إذ يسمونه (الانغلاقية)! ولكن التحرر ليس معناه أن يتحرر الإنسان من القيم والمبادىء والأخلاقيات، وإلا فإنه يصل إلى التسيب وليس إلى التحرر. وبهذا يصل أيضا إلى الضياع واللامبالاة. أما القيم والأخلاقيات فإنها ليست قيودا على الحرية، وإنما هى ضوابط لها تحميها من الفساد الشخصى وإفساد المجتمع..!

لقد نشأ الوجوديون فى بلاد الغرب ، وأرادوا أن يسلكوا حسب هواهم فى كل خطيئة. ورأوا أن وصايا الله تقف ضد أهوائهم الخاطئة، فتمردوا على الله أيضا، وكأنما شعارهم هو «من الخير أن الله لا يوجد، لكى نوجد نحن» «فليبق الله فى السماء، ويترك لنا الأرض نوجد فيها».

إن القيم ووصايا الله تشبهان شاطيء النهر

لا تحدان حريته، إنما تضبطان مسيرة، حتى لا تنسكب مياهه على الأرض وتحولها إلى مستنقعات. أترى من حق النهر أن يثور على شاطئيه ويعتبرهما قيودا على حريته..

وهنا أختتم مقالى هذا بأن أقول:

ليست الحضارة هى مجرد العلم والمخترعات التى تميز بها الغرب، إنما الحضارة أيضا فى حفظ القيم والمبادئ. وتعريفنا للشعب المتحضر المتمدن، ليس فقط هو الشعب الذى أمكنه أن يستخدم كل الوسائل الحديثة التى تسهل الحياة وتعطيها رقيا اجتماعيا، إنما أيضا الشعب الذى يستطيع أن يحيا حياة راقية فى روحياته، وفى ضبط النفس عن الانحراف وراء الهوى.

فالذى يستطيع أن يتحرر من الهوى الداخلى، ويتحرر من الخطيئة والعادات الخاطئة، هو بلاشك الذى يستطيع أن يستخدم حريته الخارجية بأسلوب سليم.

كذلك فإن الخطأ الذى ينتشر فى المجتمع: إن لم نستطع أن نمنعه، فعلى الأقل لا نقبله ولا نشرعه..

وعلينا أن نحافظ على الجيل المقبل الذي يعيش في بلاد الغرب، ونعلمه معنى الحرية الحقيقية، ونحميه من أية انحرافات في المجتمع، سواء كانت انحرافات خلقية، أو انحرافات فكرية. وفى انبهاره بما وصل إليه الغرب من رقى فى العلم وفي المخترعات والانجازات، عليه أن يضع أمامه باستمرار المثل والقيم، ورقى الإنسان من داخل قلبه وروحه. فالإنسان الداخلى هو الأهم، وهو الذى يريده الله تبارك اسمه..

القفز على الأشواك

بقلم : د. شكرى محمد عياد

«قصائد للصغار والكبار»

يقول الشاعر نصار عبد الله فى آخر قصيدة من قصائد هذا الديوان «إلى الشاعر الذى لم يعد يكتب إلا للصغار» :

«أنت الذى سمى الهزيمة بالهزيمة
واستدار لكى يقول العار عار !
أنت الذى نفض الغبار عن القلوب
فلم يجد غير الغبار !
أنت الذى رفع الستار عن الستار عن الستار
هتك الإزار فكان أن لا قبلة ترجى
ولا قدس يزار !!
أنت الذى ما عاد يكتب غير للأمل المؤمل فى الصغار
مازال يكتب للصغار لكى يطهرهم
من الجن التي صاغت ملامحها أكاذيب الكبار».

وكان حق هذه القصيدة أن تكون مقدمة للديوان ، ولكن الشاعر استبقاها إلى نهايته - كما يبدو - حتى لا يكشف اللعبة ، من أولها ، فقد عودنا الشعراء الذين يكتبون للأطفال أن يرشدوهم إلى حكمة الحياة من خلال قصصهم المنظومة - غالبا- على ألسنة الحيوانات ، وربما دسوا فى بعضها شيئا من النقد لأعمال الساسة أو أحوال المجتمع ، فهم دائما يسلكون إلى غرضهم طريقا غير مباشر ، يكسون الدرس الأخلاقى ثوب القصة ، أو يشيرون بالقصة الخيالية البادية السذاجة إلى وقائع يدركها الكبار دون الصغار ، أما نصار عبد الله فيستخدم القالب الشعرى

نفسه بطريقة معاكسة ، إذ يعبر صراحة عن حقائق يتجاهلها الكبار ، وقد لا يخطيء فهمها الصغار . وإذا كان ثمة معنى يخفيه وراء هذه اللعبة ، فهو أن سبيل الشعر ، الذى يقول الحقيقة ، لم يعد هو سبيل الشعراء فى هذه الأيام .

هذا الديوان – إذن – يمكن النظر إليه على أنه محاولة لانعاش الشعر بالعودة به إلى لغة الفطرة بعد أن كاد يدبل فى آنيته الزجاجية التى صنعتها الثقافة . فالشعر الحر الذى كان فى انطلاقته الأولى تعبيرا عن وعى جديد بالحياة وتصور جديد لرسالة الشاعر ، لم يلبث أن اعتراه الخوف فانطوى علي نفسه يجسم أحلام الذات المعذبة ويأوى إلى غابات الرموز وهكذا أصبحت القصيدة لا تعنى غير نفسها ، ولا تستمد حياتها إلا بالنظر إلى مثيلاتها ، والنظر لا يغنى عن الحقيقة شيئا .

الشعراء هم الموكلون بإصلاح اللغة كلما فسدت . تتغير الأشياء وتبقى اللغة ، ومن ثم فإصلاح اللغة ، يعنى إعطاء الأشياء أسماءها ، والاسم نفسه يتغير معناه أو تتغير قيمته بتغير ما يطلق عليه ، وبذلك تتجدد اللغة . فاللغة لا تتجدد من تلقاء نفسها ، بل بتفاعلها المستمر مع الأشياء والقصيدة لا تتجدد بحوارها مع مثيلاتها ، بل بحوارها مع الحياة . قد تبدو القصيدة جديدة لأنها اصطنعت أسماء جديدة ، وهى نفس القصيدة القديمة وإنما ليست ثوبا آخر ، فقد استبدلت أسماء بأسماء ، لا علاقة لها بالحقيقة ، وقد تبدو القصيدة مجرد «معارضة» لقصيدة قديمة ، مع إنها قصيدة مختلفة ، لأن الأسماء اكتسبت معاني مختلفة .

● الأقوياء والضعفاء

تعال نتأمل معا هذه القصائد الثلاث التى أتحدت فى العنوان «الخيزران والبلوط» ، كما أتحدت فى الموضوع ، وهو المقارنة بين الأقوياء والضعفاء ولكن «توزيع الأدوار» بين الأقوياء والضعفاء فى المجتمع قد اختلف بين كل من الشاعرين الفرنسيين ، لافونتين فى القرن السابع عشر ، وجان أنوى فى النصف الأول من القرن العشرين ، والشاعر العربى نصار عبد الله فى زمننا هذا ، وبذلك اختلفت دلالة كل من البلوط الصلب الشامخ والخيزران اللدن القميء فبلوط لافونتين يسخر من خيزرانه الذى ينوء بحمل عصفور صغير ، وينحنى إذا لامسته أى ريح ضعيفة ثم يدعوه إلى أن يأتى ليعيش فى ظله ، متمتعا بحمايته . ولكن الخيزران راض بحاله ، فاذا كانت الطبيعة قد حرمته القوة ، فهى أيضا لم تحوجه الى استعمالها ، وها هو ذا لايزال فى مكان ،

تهب عليه الريح فينحنى حتى تعبر وينتهى أمرها ويظل هو باقيا ، وبينما هما في حوارهما إذ بريح شديدة قادمة من الشمال ، فتعصف بالبلوط وتقتلعه من جذوره ، ويبقي الخيزران الذى قابلها بالإنحناء . ذاك عصر بدت فيه العلاقة بين الطبقات ثابتة قد قررتها الطبيعة أو قررها الله ، ولكن الحكمة الإلهية قد جعلت لكل طبقة فضيلتها الخاصة ، وألزمت كل فرد حدود طبقته ، فكانت الحكمة التي علمها الشاعر للصغار والكبار هى ألا يغتر قوى بقوته ، ولا يأسى ضعيف لضعفه . أما جان أنوى الذى نشأ فى أوربا بين حربين طاحنتين ، ورأى تقلب الحظوظ بالأفراد والجماعات ، وشيوع النزعة الفردية التي جعلت «الذات» محور كل شيء ، ومشاعر الذات بديلا من الفضائل ، فيهزأ - على لسان البلوط - بالقصة القديمة البالية ، فهو يعرفها جيدا ، ولكنه لم يعد يرى فيها إلا دعوة للخضوع ، وهو يرفض أن يكون الخضوع فضيلة للبشر - هل خضع الفرنسيون لجحافل النازى حين اجتاحت أرضهم ؟ - والخيزران نفسه لا يتحدث عن الانحناء ، بل يزعم أن له طريقته الخاصة فى المقاومة: ونحن الصغار ، الضعفاء جدا ، الهزالى جدا ، الأدلاء جدا، الحذرين جدا ، الذين هم مهمومون دائما بحياتهم البسيطة ، أكثر قدرة مع ذلك على مقاومة كل عواصف العالم من بعض المغرورين الذين يتخيلون أنفسهم ضخاما»! وعلى خلاف لافونتين ، لا يجعل أنوى موت البلوط ونجاة الخيزران نهاية القصة ، بل يجعل البلوط العملاق مصرا على تحديه ، حتى وهو يعاني سكرات الموت ، فهو ينظر إلى الخيزران الشامت ويقابل نظرته التى التهبت غلا - وكأنه لايزال يحسد البلوط على قيمته النبيلة ! - يرد عليه بابتسامة عليلة جميلة - قائلا : ورغم هذا فمازلت بلوطا .

● الزلزال والبلوط

يضيف نصار عبد الله فصلا جديدا إلى القصة ، فلايزال الحوار ممتدا بين البلوط والخيزران ، الخيزران - كما تتوقع- يثرثر مفتخرا بسياسته الحكيمة التى مكنته من البقاء فى أرضه ، وكأن شيئا لم يكن ، والبلوط فى غضبه يسب الخيزران لأنه هو - البلوط - يموت ميتة الرجال ، ولا يعيش عيشة الغوانى ، وهنا يذكره الخيزران بانه لم يعد يستطيع أن يفخر بنبل ولا فضيلة . (الكلب الحى خير من الأسد الميت !) فربما أصبح خشبه نيرا على قفا الثيران ، أو سريرا ينام عليه الفجور ! وهنا تتدخل فى الحوار شخصية ثالثة ، برزت من خلال حادث جديد غير

منتظر ، فقد قام زلزال دحرج البلوط وعجن الخيزران ، وانفجر النجيل ضاحكا:

إنى أنا المنتصر الوحيد فى النهاية

أنا الذى أهمله الكبار فى الحوار

ولم تشر إليه أسطر الحكاية»

مرة أخرى تغيرت علاقات القوى ، فلم تعد القوة تنفع ولا السياسة تشفع ، فهناك زلزال قادم يمكن أن يطيح بالجميع ، وعندئذ تعود الحياة إلى نقطة البداية ، حيث لا مجال لقوة ولا سياسة . هل هذه نهاية «متفائلة» أو «متشائمة»؟ أرى أننا تجاوزنا حدود التفاؤل والتشاؤم ، إنما هو صوت نذير ، وبما أن الناس لم يعودوا يسمعون لصوت النذير ، إذن فليأتهم النذير فى هذا الصوت الساخر ، وأن كانت سخريته تبطن تعليقا موجزا بليغا علي حركة التاريخ .

وإلى هذا المعنى نفسه ، وبنفس الأسلوب الساخر إن كانت سخريته أشد إضحاكا وأشد مرارة ، تشير القصيدة الأولى فى الديوان ، «التيس والمرآة» ، وهي قصيدة قصيرة ، فلنستمع إليها كاملة :

«يوما ما

وقف التيس يحدق فى المرآة

فرأى التيس يحدق فى المرآة

هز التيس الرأس ..،

فهز التيس الرأس

ظن التيس بأن التيس الآخر يتحداه

ثار وهب وسب أباه ..

فثار التيس وهب وسب أباه

نطح التيس التيس

فانخلع القرن وشج الرأس

★ ★ ★

وقف التيس يحدق فى اللاشىء

فرأى .. لا شىء

تمتم لا بأس

قد فر التيس الرعديد أمام التيس الصنديد

لا بأس ....

حتى لو خلع القرن وشج الرأس

★ ★ ★

يا كل تيوس العصر

هذا ثمن النصر .. »

الخطاب هنا يعم العصر كله ، شرقا وغربا ، شمالا وجنوبا ، فلم يعد فى وسع

أحد أن ينكر أن الكارثة - إن وقعت - لن تفرق بين شرق وغرب ، أو شمال وجنوب ، وربما كان الوقت قد حان ليتكلم النجيل ! فالبلوط المتجبر والخيزران السياسى قد اتحدا فى تيس لا ينطح إلا نفسه ، ولا يهلك إلا نفسه ، ولكن لا تحسبن أن للنجيل وطنا يعيش فيه آمنا وحده ، بعيدا عن صراع التيوس ، فالصراع - وهو سنة الحياة من قديم - قد قسم البشر فى كل مكان قسمين غير متكافئين : فاما أن تكون آكلا وإما أن تكون مأكولا ، وهنا أيضا تلعب التثنية الخادعة - على المستوي الأسلوبى - دورا مهما إذ توحى إلى القارىء أن كل واحد من الاثنين يمكن أن يحل محل الآخر ، حسب اختلاف الأحوال . فهل تملك - حقا - أن تختار ؟ هذه هى المعضلة ، فإذا لم يكن لنا بد من أن نختار بين هذين الطرفين - وهما فى الحقيقة متداخلان - فليس ثمة خيار :

خنزيران التقيا فى حقل
دخلا من نفس الباب معا
وارتقيا درجات البهو معا
ومعا طافا بجميع الأركان
هذا أول ما كان
التقيا
وارتقيا
واستقيا صدر الديوان
أصبح ما بينهما شيران
ولكن الفارق شتان
الأول خنزير خنزير
والآخر خنزير إنسان
الأول فى عينيه النظارة ،
وفى فمه السيجار
والآخر مشوى منه تشع النار
خنزيران التقيا ذات مساء
أو ذات نهار
دخلا من نفس الباب معا
وارتقيا درجات البهو معا
لكن حين انفض الحقل وآب السمار
فرق بين الخنزير وبين أخيه
الخنزير مزاح الأقدار

★ ★ ★

قال الخنزير الآكل إذ أضناه التذكار
لابد لنا أن نختار
إما أن نأكل أو أن نؤكل
من ذا يملك ألا يختار
إلا الأحجار ..»

أنظر الي عمق السخرية فى هذين السطرين الأخيرين ، سخرية جعلت «المستحيل العادى» يقترب من «المستحيل العقلى» . فإذا كانت ظروف الحياة فى هذا الزمن تحتم علينا أن نختار بين أحد أمرين : إما أن نكون آكلين وإما أن نكون مأكولين ، فقد أصبح من المستحيل «عادة» أن نكون إلا واحدا منهما . ولكن هذه الاستحالة العادية جعلت الخيار ليس بخيار ، حين جعلتنا «مضطرين» إلى أن «نختار» ، أى أنها جعلتنا نجمع بين نقيضين يستحيل الجمع بينهما فى حكم العقل .

المستحيل العقلي

نصار عبد الله أستاذ للفلسفة ، يعرف جيدا الفرق بين المستحيل العادى والمستحيل العقلى ، ولكنه نويهما فى لغة شعرية سهلة يمكن أن يقرأها الأطفال ، ولكننى أحسبك تتساءل : هل أراد أن يحيرنا بين هذين الخنزيرين ، حين جعل «الخنزير الخنزير» في عينيه نظارة وفى فمه سيجار ، و«الخنزير الإنسان» مشويا تشع منه النار ؟ أم تراه خلط بين «الأول» و«الآخر» دون أن يقصد ذلك الخلط ؟

أنا لا أملك هنا إلا الحدس ، والمعنى الذى أحدسه – على تقدير أن الخلط مقصود – هو أن لفظ «الخنزير» لا يراد به مجرد الهجاء «الخنزير الخنزير» ، الذى يأكل ، هذا هجاء ، أما «الخنزير الآخر» ، الذى يؤكل ، بعد أن يشوى علي النار ، فهذا إنسان ، وتلك هى المأساة ، فليس فى أكل الخنزير شىء يثير الاهتمام (اذا أخرجنا الحكم الدينى من المسألة) ومن ثم يمكن أن يقال فيه شعر ، ولكن أكل الانسان (الخنزير) لأخيه الانسان ، كما يؤكل الخنزير ، هذه هى المصيبة !

★★★

المستقبل مطوى فى ظلمات الغيب ، ليس فى مقدور بشر أن يحدثنا عنه . يقول بعض الناس : العلم والتكنولوجيا سيحولان أحلام الماضى إلى حقائق . نقول لهؤلاء : الشعر وحده هو الذى يملك النبوءة ، في الحدود التي جعلها الله – أو جعلتها الطبيعة، قولوها كيف شئتم – للانسان – ونبوءة الشعر – عندما يرجع إلى لغة الفطرة – بشير أو نذير. ■



منطق العنف

بقلم : د . مراد وهبه

«ما لم يوجد بعد هو الحق» . هذه العبارة ، التى افتتح بها هذا المقال ، مناقضة لعبارة هيجل في مقدمة كتابه «فلسفة الحق» حيث يقول :

«إن مهمة الفلسفة هى فهم ما هو كائن ، لأن ما هو كائن هو العقل . والبصيرة العاقلة التى تصالحنا مع ما هو واقعى تدور على إقرار أن العقل هو مثل زهرة فى صليب الحاضر ، ومن ثم فهو الذى يمكننا من الاستمتاع بهذا الحاضر»

ومعنى هذه العبارة أن هيجل يضع العقل فى مستوى أفقى مع الواقع . وأنا أتفق معه ، ومع ذلك فأنا أفترق . الاتفاق من حيث أن العقل يتجه إلى إدراك الواقع. ولكن الافتراق هو فى أن هذا الإدراك للواقع لا يبدأ من الواقع القائم ، ولكن من الواقع القادم ، أى الواقع المستقبلى ، أى لا يبدأ مما هو كائن ، ولكن مما سيكون . وهذه البداية مردودة إلى التمايز بين الإنسان والحيوان فى علاقة كل منهما بالواقع . فالإنسان ، فى نهاية أى عمل ، يصل إلى نتيجة كانت قائمة فى مخيلته عند بدء العمل . ومعنى ذلك أن نشاط الإنسان ينطوى على فكرة «الغاية» ، وأن فكرة الغاية تتجاوز الواقع من أجل العمل على تغييره .

الكائن والممكن والصراع بينهما

ومن هذه الزاوية فان العبارة – مفتتح هذا المقال – تكشف عن مفارقة ، وأعنى بها أن الحقيقة لها علاقة عضوية مع ما هو ممكن وليس مع ما هو كائن . والنزاع قائم بين ما هو كائن وما هو ممكن منذ بداية الفكر الفلسفى . ففي الفلسفة اليونانية القديمة العقل هو الملكة العارفة التى تميز بين ما هو حق وما هو باطل ، من حيث أن الحقيقة هى شرط الوجود الواقعى . وبفضل هذه الوحدة بين الحقيقة والوجود الواقعى يعتبر الوجود أفضل من اللاوجود . فاللاموجود تهديد للوجود بل هو مدمر له .

أما أنا فأرى المسألة على عكس ذلك . فالوجود الواقعى أو الواقع القائم هو المهدد الحقيقى للا وجود، أى لما هو ممكن، أو لما سيكون ولهذا فعلى العقل أن يقيس الوجود باللاوجود ، أى يقيس الكائن بما هو ممكن . وإذا كان هذا المقياس مقبولا فإن ما سيكون هو البديل عما هو كائن .

وهكذا يتجاوز العقل الواقع القائم بمعنى أن العقل يتحرك مما هو ممكن إلى ما هو كائن . وهذه الحركة من شأنها أن تحدث تغييرا فى الواقع القائم من خلال الممارسة العملية . ولهذا فإن العقل عنيف، وبالتالى فإن العنف فعل عقلانى . ولكن ليس كل عنف عقلانيا فالعنف العقلانى هو الذى ينشد تغيير الواقع من أجل أنسنته ، أى يكون ، إنسانيا . وهذا هو العنف الإنسانى . وهو مضاد للعنف اللاإنسانى .

العنف الدموى والمواجهة المسلحة

فى بداية التسعينات من القرن التاسع عشر نشر المفكر الروسى بليخانوف مقالا بعنوان «السلطة والعنف» موجها ضد الفوضويين الذين يدفعون مفهوم العنف إلى حد العقيدة المطلقة . يقول : «إذا استعرضنا أية ثورة من ثورات القرن

التاسع عشر مثل ثورة ١٨٣٠ ، ١٨٤٨ فليس أمامنا سوى سلسلة من أفعال العنف الدموى والمواجهة المسلحة . وقد ضللت هذه الأفعال الفوضويين . ويمكن ايجاز ضلال هؤلاء على النحو التالى «حيث أن العنف شائع فى كل الثورات فالإهابة بالعنف كاف وحده لتفجير الثورة» .

خطأ الفوضويين إذن هو فى تصورهم أن العنف كوسيلة لهدم النظام القديم قد استحال إلى عقيدة مطلقة كافية وحدها لإحداث الثورة ، ومن ثم يقرر الفوضويون أن استخدام العنف يلزم منه نجاح الثورة، وهذا المنطق الفوضوى هو منطق الأصوليين ابتداء من سبعينيات هذا القرن، وهو المنطق الذى يتصور العنف على أنه القوة المبدعة فى التاريخ .

فالأصوليون – فى المجال الدينى – هم ملاك الحقيقة المطلقة على نحو ما أرى فهم يمزجون المطلق بالنسبى ، والحقيقة الأبدية بالحقيقة العابرة ، وبذلك يدافعون – بعنف – عن حقيقة لا هوتيّة وكأنها رسالة أبدية فيعجزون عن التعامل مع الواقع القائم ، ليس لأنهم مجاوزون لهذا الواقع ، وإنما لأنهم يتحدثون عن وضع ماضوى فيمنحون مصداقية أبدية لرؤية نسبية. وفى هذا السياق يصبح الأصوليون – على تنوع مللهم ونحلهم – ممهدين لما اسميه «صراع المطلقات» .

● صراع المطلقات

وصراع المطلقات لا تستقيم معه الدعوة إلى سلام العالم . فسلام العالم ليس ممكنا إلا بنفى ملكية الحقيقة المطلقة. وهذا النفي ليس ممكنا الا بنفى العلوم التي تزعم ملكية الحقيقة المطلقة. ذلك ان هذه العلوم تنفي مشروعية الرأى المخالف بدعوى انه مناف للحقيقة المطلقة. وهذه الدعوى مسايرة للمطلق من حيث انه لا يقبل التعدد والمفارقة هنا أن تعدد المطلقات مهدد للمطلقات.

ومن شأن هذا التهديد أن يقضى مطلق على باقى المطلقات، وهذا هو منطق المطلق اذا اريد به ان يحكم الواقع.

ومماهو جدير بالتنويه هو ان الأصوليين ـ علي تنوع مللهم ونحلهم ـ ممولون من الرأسمالية الطفيلية، وهي رأسمالية محصورة فى تجار الخلسة في سوق الاستهلاك، والوسطاء الذين يغرقون الأمة بسلع الترف المستوردة بالمشروع وغير المشروع، أو إن شئنا الدقة قلنا المستوردة بغير المشروع ليس إلا. ومحصلة العلاقة العضوية بين ملاك الحقيقة المطلقة والرأسماليين الطفيليين تدمير حضارة الإنسان . وهذا هو منطق العنف اذا تلامس العنف مع المطلق فى المجال الدينى .

أقــوال معاصرة


الاميرة ديانا


شيمون بيريز


البرتو سوردى

● « لن أذهب فى هدوء»

الاميرة ديانا زوجة الأمير تشارلز
ولى عهد انجلترا

● «التعصب القومي والدينى رافدان لظاهرة الأصولية التي ترجع الى حالة الاغتراب السائدة الآن»

المستشرق الألمانى
استيفان وايلد

● « فى وسع أى ممثل موهوب أن يكون مخرجا، ولكن ليس في وسع أى مخرج موهوب أن يكون ممثلا»

الممثل والمخرج
الإيطالى البرتو سوردى

● « البوسنة ليست حربا . فلا هى فيتنام ، ولا هى الصومال ولا هى لبنان!!

ريتشارد هولبروك
مساعد وزير الخارجية الأمريكية

● «كثير من الناس يعتقدون إنهم رسل الله، فى حين إنهم رسل الشيطان»

شيمون بيريز
رئيس وزراء إسرائيل

● « حصلت المرأة في مصر على كل حقوقها القانونية، ومع ذلك يلاحظ إنها تمتنع عن ممارسة تلك الحقوق»

السفيرة المصرية
ليلى عمارة

● « القتل أبشع أسلوبا من الرقابة»

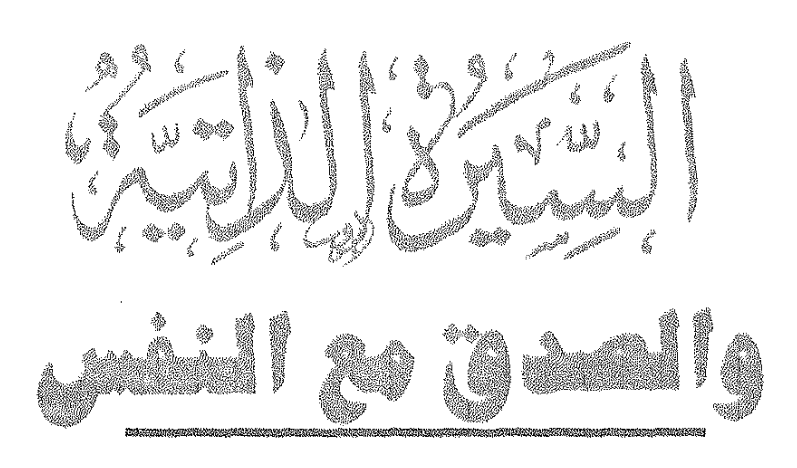
المسرحى الانجليزى
هارولد بنتر . تعليقا على
على اعدام المسرحى
النيجيرى كن ويوا

● « اذا كنت عاشقا حقا للعمل الذى تقوم به . فحياتك تصبح خارج الزمان»»

عارضة الأزياء
الامريكية كارمن

● « الثورات الاجتماعية يقوم بها الفقراء ، والمحرومون من العدالة لا الذين يعيشون مستمتعين بالرخاء»

المؤرخ الانجليزى
أيريك هويز بوم



والصدق مع النفس

بقلم : د. محمود الطناحى

كتب الأستاذ صلاح عيسى فى عدد الهلال «مايو ١٩٩٥» كلمة ، جعل عنوانها : «السِّيرة الذاتية ، السؤال الذى لم يجب عنه أحد» ، وقد عرض فى هذه الكلمة لقلّة كُتب السِّيرة الذاتيّة فى المكتبة العربيّة ، وردَّ هذا إلى أننا «نحن العرب نعيش فى ظلّ منظومة معلنة من القيم الخلقية الاجتماعية تتصف بالتزمت ، ونتظاهر جميعا باحترامها ، مع أنها تتناقض عادة مع منظومة القيم الخلقية الفردية التى يؤمن بها كلٌّ منّا ، ويمارس حياته على أساسها ، ومع ذلك فهو يحرص على أن يقدّم نفسه للآخرين فى الصورة التى تكفل رضاءهم عنه، بصرف النظر عن حقيقته ، حتى أصبح ذلك قاعدة يقننها المثل الشعبى الذى يقول : «كل ما يعجبك والبس مايعجب الناس» ، ثم استطرد بعد ذلك إلى صور من النفاق الاجتماعى ، قال عقبها : «وهذا هو الذى جعل الأدباء والسَّاسة العرب يعزفون عن كتابة سيرهم الذاتية بنفس الصراحة والصدق اللذين كتب بهما جان جاك روسو اعترافاته» .

وهذا كلام يردده الناس كثيرا ، ويعجبون به ، ويرضون عن قائله ، لكني قبل أن أستطرد إلى مناقشته وبسطه والزيادة فيه أحبّ أن أوضّح أن المثل الشعبي «كل مايعجبك والبس مايعجب الناس» ليس كما فهم الكاتب الفاضل مُسوِّغا «ولاتقل مبرراً» للنفاق الاجتماعي ، وإرضاء الناس ليس غير ، وإنما معناه عندي : أن يحرص الإنسان في ملبسه على رعاية الذوق العام ، وعدم مصادمة العرف الاجتماعي ، وإن لم يصح هذا الفهم والتفسير يكون الكلام ساقطا لا محالة ، لأن إنساناً مهما جهد واجتهد لايستطيع أن يلبس لباساً يرضى كلَّ الناس .

● مثل قديم

وقد ذكر هذا المثل أحمد باشا تيمور ، في كتابه الأمثال العامية ، صفحة ٤٠٤ ، وقال في تفسيره : «لأن ما تأكله تابع لشهوة نفسك ، وأمّا ما تلبسه فالمراد به التزين للناس ، فليكن على مايعجبهم» وأرى أن أحمد تيمور قد قصَّر أيضا في بيان حقيقة معنى هذا المثل ، حين أغفل قضيّة رعاية الذوق العام ، وعدم مصادمة العرف الاجتماعي ، وهما المقصد والغاية من هذا المثل .

فائدة : قد يظن بعض الناس أن هذا المثل الشعبي «كل مايعجبك والبس ما يعجب الناس» مثل معاصر ، أو قريب من المعاصرة ، والحقيقة أنه كلام قديم ، عُمره نحو «١٤٠٠» سنة ، فهو من كلام أبي عمرو بن العلاء ، إمام العربية ، وأحد القراء السبعة ، المتوفى «١٥٤هـ» ، مع اختلاف في بعض العبارات ، فقد روى أنه نظر إلى بعض أصحابه وعليه ثياب مُشَهَّرة ، فقال : «يابُنَيّ ، كل ما تشتهي والبس ما يشتهي الناس» والثياب المُشَهَّرة : الفاضحة المفضوحة ، وقد نظم هذا المثل بعض الشعراء القدامى ، فقال :

إنّ العيـــــونَ رمتْك مِنْ فجاَتِها   وعليـــــك منْ شُهرِ اللبـــاس لباسُ
أمّا الطعامُ فكُلْ لنفسكَ ما اشْتَهتْ   والبَسْ ثيابك ما اشـــــتهاه الناسُ

انظر المثل والشعر في لطائف الظرفاء ، للثعالبي ص ٥٢ ، وبهجة المجالس ، لابن عبد البر ٥٨/٢ ، والكشكول ، لبهاء الدين العاملي ٤٠٤/٢

★★★

ثم لنعد إلى مافتحه أمامنا الأستاذ صلاح عيسى ، فأقول : إن حبَّ النفس مركوزٌ في الطباع ، ثابت في أصل الخلقة ، فطرة فطر الله الناس عليها ، يستوي فيها العربيّ والعجمي ، ولا بأس على الانسان أن يستر عيوب نفسه ، مادام ذلك الستر لايضرُّ غيره بإبطال حق أو إحقاق باطل، وما أصدق كلمة الأستاذ إحسان عبد القدوس رحمه الله «إني لا أكذب ولكن أتجمل» فالتجمل مطلوب ، أما الكذب فمرفوض ، ومن أسوأ مظاهر الكذب : الكذب مع النفس ، بأن يطوى الإنسان نفسه على شيء ، ويقابل الناس بشيء آخر ، وهو داء معروف في كل الأزمان والعصور ،

لكنه زاد فى أيامنا هذه ، لأسباب ودواع كثيرة ، يعرفها الناس ولايجهلونها .

على أن بعض الناس قد يتظاهر بأنه يجرى فى طريق الإنصاف وهَضْم النفس ، فيزعم أنه يعرض على الناس شيئا من عيوبه ومساوئه ، ولكنه يترفّق فى ذلك ترفقا واضحاً ، بل إنه يخادع ، فيقول : إن من أشدّ عيوبى الثقة الزائدة بالناس ، أو إن من مساوئى التفريط فى حقوقى ، وبذْل حبّى لمن لايستحقه من الناس ، وهذه كلها ضروب وألوان من خداع النفس ، لأنه كلامٌ صدرُه ذكر العيوب والمساوىء ، وعَجُزه ضارب فى مدح الذات بعروقه ، فهو من باب تأكيد المدح بما يشبه الذم ، كما يقول سادتنا البلاغيّون ، ولعلّ كثيراً من السِّير الذاتية التى نقرأها فى هذه الأيام من هذا الباب ، فضلاً عمّا فى بعضها من ثلب للآخرين وتجريحهم .

على أننا لاننتظر ممن يكتبون سيرتهم الذاتية أن يكشفوا لنا عن عيوبهم الفاضحة ، ويطلعونا على عوراتهم ومساوئهم القادحة ، لأن هذا يصادم موروثاتنا الدينية وأعرافنا الأخلاقية ، ثم إنه من النُّبالة والمروءة أن تسكت أنت عن ذكر سوءاتك ، ويسكت الناس عن ملاحقتك واستنطاقك بما تكره ، وفى هذا وذاك نعود إلى موروث دينى :

فمن الأول : ما أخرجه مسلم فى صحيحه «باب النهى عن هتك الإنسان ستر نفسه من كتاب الزهد والرقائق» من حديث أبى هريرة ، يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «كلّ أمتى مُعافاةٌ إلاّ المجاهرين ، وإن من الإجهار أن يعمل العبد بالليل عملا ، ثم يُصبح قد ستره ربُّه ، فيقول : يافلان ، قد عملت البارحة كذا وكذا ، وقد بات يستره ربه ، فيبيت يستره ربّه ، ويصبح يكشف ستر الله عنه» صحيح مسلم ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى ص ٢٢٩١ .

ومن الثانى : ما أخرجه أحمد فى مسنده ، من حديث أبى برزة الأسلمىّ ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يامعشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه لاتغتابوا المسلمين ، ولاتتّبعوا عوراتهم ، فإنه من يتبع عوراتهم يتبع الله عورته ، ومن يتبع الله عورته يفضحه فى بيته» مسند أحمد ٤٢١/٤ ، وأخرجه مرّة أخرى من حديث ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بلفظ : «لاتؤذوا عباد الله ولاتعيّروهم ، ولاتطلبوا عوراتهم ، فإنه من طلب عورة أخيه المسلم طلب الله عورته حتى يفضحه فى بيته» مسند أحمد ٢٧٩/٦.

أما مايطلبه الأستاذ صلاح عيسى ، من أن يكتب العرب سيرهم الذاتية بنفس الصراحة والصدق اللذين كتب بهما «جان جاك روسو» اعترافاته ، فهذا ليس عدلا ، وليس إنصافا ، مع مافيه من إغفال للموروث الدينى ، فجان جاك روسو ومن إليه من

سائر القوم يرجع إلى بيئة مختلفة عن بيئتنا ، وأعراف اجتماعية مباينة لأعرافنا، وموروث ديني يغاير موروثنا .

وليس يخفى أن مصطلح «الاعترافات» عند القوم له دلالة خاصة ترتكز على أساس ديني ، وتتطلب اجراءات ووسائط يعرفها الناس ، أما في موروثنا الديني فالأمر في غاية اليسر والسهولة ، فما عليك إلاً أن تكاشف نفسك في لحظة صدق ، وحدك منفردا ، تبسط أخطاءك وخطاياك أمام عينك ، ناويا البراءة منها ، والخلاص من أثقالها ، طالباً من ربك ـ ليس بينك وبينه حجاب ـ العون على تجاوزها ، معاهداً له على عدم العودة إليها ، فإذا صح منك العزم واستجبت للبراءة والتوبة في ظاهر أمرك وباطنه ، خرجت من ذنوبك كلّها كيوم ولدتك أمّك ، وليس للناس بعد ذلك حاجة في أن يعرفوا ما كان منك وماصرت إليه ، فحسبهم منك الوجه الطيب والعمل الزاكي .

★★★

ويبقى في كلام الأستاذ صلاح عيسى ماينبغي الوقوف عنده ، والاحتفال به ، وهو «الصدق» فيما يكتبه الناس من سيرهم الذاتية .

والصدق فضيلة الفضائل ، وعنوان الشرف والكمال ، به يسموا الإنسان أمام نفسه ، وعليه يعظم في أعين الناس وإليه يعود صلاح المجتمع ، وجاء في الأثر : «الصادق يعطى ثلاث خصال: المُلْحة والمحبَّة والمهابة» والمُلْحة بضم الميم وسكون اللام: البركة يقال : كان ربيعنا مملوحا فيه : أي مخصباً مباركا ، النهاية في غريب الحديث والأثر ، لابن الأثير ٣٥٤/٤ ، روى شبيهه عن الزاهد الكبير يوسف بن أسباط ، قال : «للصادق ثلاث خصال : الحلاوة والملاحة والمهابة» سير أعلام النبلاء ، للذهبي ١٧٠/٩

وبعض الذين يكتبون سيرهم الذاتية يستطردون مع شهوة الحديث عن النفس إلى ذكر محاسن ومآثر لهم ، في مواقف ووقائع ، يضخّمونها وينفخون فيها ، غير مدركين أن هناك من الناس من شهد هذه المواقف ، وعاش تلك الوقائع ، وغير متنبهين إلى أنهم ربما نقضوا كلامهم ذلك في مكان آخر مما كتبوه في سيرهم الذاتية أو في غيرها ، فكان واجباً عليهم أن يتذكروا هذا المثل الحكيم من أمثال العرب «إن كنت كذوبا فكن ذكورا» ، ويروى «كن ذكورا إذا كنت كذوبا» مجمع الأمثال للميداني ٧٤/١ ، ١٧٣/٢ ، وقد نظمه شاعر فقال :

تكذب الكذبة جهلا ثم تنساها قريبا
كن ذكوراً للذى تحكى إذا كنت كذوبا

جمهرة الأمثال ، لأبى هلال العسكرى ٢/٣٩٦

★★★

وأعلى مراتب الصدق : الصدق مع النفس ، ومظاهر الصدق مع النفس كثيرة ، وجماعها ألاّ يخالف الظاهر الباطن ، وألاّ يصادم السرُّ العلن .

ويقرأ الناس فى تراثنا ، على اختلاف علومه وفنونه ، كلاماً كثيراً ، منظوماً ومنثورا ، عن الصدق وفضائله ، فى نصوص عالية موثقة ، لكنها تظل نصوصا مجردة ، يصدقها من يصدقها ، ويكذبها من يكذبها ، وتبقى ممارسات الناس وحدها شاهداً ودليلاً على التزامهم أبواب الصدق ، وتحريهم وجوهه ودروبه .

● الجزئى دون الكلى !

وهذه الممارسات مطروحة فى كتب التاريخ : تراجم وأحداثا ، وفى كتب الأدب والأخبار ، بل فى سائر ما كتبه العرب فى علومهم المختلفة ، ومن المؤسف أن هذه الممارسات التى تمتلىء بها كتبنا ومعارفنا لايقف الناس الآن عندها كثيراً بحُسْن التأمل والنظر ، بل إنها عند بعض الناس ألوان من النوادر والمسامرات التى تستخرج الضحك ليس غير ، بل إن بعضهم قد يُسرف فى «التفلسُف» فيرى أنها ممارسات مصنوعة ، فى أخبار يراد بها إضحاك الخلفاء والملوك ، للحظوة عندهم وأخذ عطاياهم ، وأن هذه الممارسات والأخبار إن صدقت فهى لاتخرج عن اهتمام العقل العربى بالجزئى دون الكلّى ، وهو كلام قد مللنا من الردّ عليه ، وهو فى جملته لايدلّ إلاّ على عدم المعرفة بكتبنا وتاريخنا .

ولو أردت أن أكتب لك أيها القارىء الكريم ما وقفت عليه من هذه الممارسات المطروحة فى الأخبار ، لاحتجت إلى مجلّدات وأسفار ، فحسْبى أن اجتزىء هنا ببعضها ، لكن لى عليك أيها القارىء العزيز شرط واحد : هو أن تعطى هذه الأخبار حظّها من التأمل والتدبّر ، وأن تتنبّه لذلك الخيط الذى يربط بينها ، وسيُفْضى بك هذا الخيط - إن شاء الله - إلى روح هذه الحضارة العربية القائمة على الصراحة والوضوح ، وشرط آخر : ألاّ تظن أنى أريد أن أسليك أو أضحكك بهذه النوادر ، وإن كنت أدعو لك أن يُضحك الله سنك ، ويبسط أساريرك .

وبعض هذه الأخبار ممّا وعتْه صدورُ الرواة من عربيّة الجاهلية ، وكثيرا منه من عربية الإسلام

وإذا كانت مظاهر صدق النفس كثيرة ، وصورها شتىّ ، فإن أولاها بالعناية وأحقها بالتأمل : مايتصل منها بالاعتراف بالخطأ والرجوع إلى الصواب ، والإنصاف فى الحكم ، ولو كان مما يجرّ إلى الانتقاص من النفس ، وهو مايسميه

الناس الآن : الموضوعية ونقد الذات.

ومن أقدم ماعُرف من صور الإنصاف في تاريخنا الأدبي ، مايسمى في تاريخ الشعر بالمنصفات ، ويسميها الجاحظ «الأشعار المنصفة» البيان والتبيين ٤/٢٣ ، والأشعار المنصفة : «هي القصائد التي أنصف قائلوها أعداءهم فيها ، وصدقوا عنهم وعن أنفسهم فيما اصطلوه من حرِّ اللقاء ، وفيما وصفوه من أحوالهم في إمحاض الإخاء» خزانة الأدب للبغدادي ٨/٣٢٧.

فالشاعر المنتصر لايغرُّ انتصاره فيُنسيه ماراه من عدوّه من بسالة في الطعن والضرب والرمي ، فهو يزهو بانتصاره ، لكنه يعترف لعدوّه بالثبات والجلد ، وهذا هو خلق الفرسان ، وقد جمع الأستاذ عبد المعين الملوحي ستّ قصائد من هذه الأشعار المنصفة ، ثم ضم إليها بعض المقطوعات الشعرية في الإنصاف ، وقدّم لذلك كلّه بشيء من الدراسة التحليلية لهذا اللون من الشعر العربي ، وقد صدر هذا العمل عن وزارة الثقافة والسياحة والإرشاد القومي بدمشق ١٩٦٧م أما الاعتراف بالخطأ والرجوع إلى الصواب ففي تاريخنا منه الكثير مكتوبا في أخبار . وممارساً في وقائع ، واكتفي هنا بخبرين من تاريخ الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه : الأول من رسالته الشهيرة في القضاء التي بعث بها إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ، وهو على قضاء البصرة ، وفيها يقول : لايمنعنك قضاء قضيته اليوم، فراجعت فيه عقلك وهديت فيه لرشدك ، أن ترجع إلى الحقّ ، فإن الحق قديم ، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل» الكامل للمبرد ١/٢٠ .

فهذا خبر عن عمر ، في الاعتراف بالخطأ والرجوع إلى الصواب ، ثم تأتي ممارسة عمر نفسه تصديقا له في ذلك الخبر الذي يرويه المفسرون في سياق تفسيرالآية «٢٠» من سورة النساء ، وأصحاب السُنن في أبواب النكاح . فقد رُوي أن عمر خطب يوما فقال : «لاتغالوا صداق النساء ، فإنها لو كانت مُكْرَمةً في الدنيا أو تقوى عند الله ، كان أولاكم وأحقكم بها محمد صلى الله عليه وسلم ، ما أصدق امرأة من نسائه ولا أصدقت امرأة من بناته أكثر من اثنتي عشرة أوقية وإن الرجل ليُثقل صدقة امرأته «أي مهرها» حتى يكون لها عداوة في نفسه» ، فقامت إليه امرأة، فقالت : ياعمر ، يعطينا الله وتحرمنا ! أليس الله سبحانه وتعالى يقول :

(وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا) فقال عمر : أصابت امرأة ، وأخطأ عمر ، وفي رواية : «فأطرق عمر ، ثم قال : كلّ الناس أفقه منك ياعمر!» ، وفي أخرى : «امرأة أصابت ورجل أخطأ ، وترك الإنكار» تفسير القرطبي ٥/٩٩ ، وسنن ابن ماجه (باب صداق النساء ، من كتاب النكاح) ص ٦٠٧ ، والمصنف لعبد

الرزاق بن همام الصنعانى (باب غلاء الصداق ، من كتاب النكاح) ١٧٥/٦ .

★★★

وهذا باب آخر من أبواب صدق النفس ، وهو الصبر على تلك الأجوبة المسكتة التى يواجه بها مشاهير الرجال ، من أوساط الناس وضعفائهم ، وفى تلك الأجوبة أحيانا ما يكون مثل لذع النار أو نهش الأفاعى ، يصبر لها كبار النفوس ، لأنها تردهم إلى الحق ، وتعيدهم إلى الصواب ، وبعض من ذلك يسميه الناس الآن : الديمقراطية ، يكتب الناس عنها كثيرا ، ويمارسونها قليلا .

ومن ذلك ماورواه الزمخشرى ، قال : حبس عمرو بن العاص عن جنده العطاء (أى الرواتب) فقام إليه رجل حميرى ، فقال : أصلح الله الأمير ، اتخذ جُندا من حجارة لايأكلون ولايشربون ! قال عمرو : اسكت ياكلب ، قال : إن كنت كذلك فأنت أمير الكلاب ! فأطرق عمرو ، وأخرج أرزاقهم (أى رواتبهم) ربيع الأبرار ٦٩٠/١

وحدث محمد بن حبيب ، قال : أخبرنى ابن الاعرابى ، قال : شهد أعرابى عند معاوية بشهادة ، فقال له : كذبت ! فقال الأعرابى : الكاذب المتزمل فى ثيابك ! فقال معاوية وتبسم : هذا جزاء من عجل . الهفوات النادرة للصابى ص ٣٥٥ ، وربيع الأبرار ٦٦٥/١.

وروى عن الفرزدق أنه قال : مااستقبلنى أحد بمثل ما استقبلنى به نبطى ــ والنبط : جيل من الناس كانوا ينزلون سواد العراق ، ثم استعمل فى أخلاط الناس وعوامهم ــ قال : أنت الفرزدق الذى يمدح الناس ويهجوهم ويأخذ أموالهم ؟ قلت : نعم قال : أنت فى الكنيف من قدمك إلى أنفك ، قلت : لم حاشيت العينين ؟ قال : حتى ترى هوان نفسك ، يقول الفرزدق : فبهت . ربيع الأبرار ٧١١/١ .

وروى عن الجاحظ ، قال : «ما خجلتنى إلا امرأة ، حملتنى إلى صائغ ، فقال : مثل هذا ، فبقيت مبهوتا ، فسألت الصائغ ، فقال: هى امرأة استعملتنى (أى طلبت منى أن أعمل) صورة شيطان ، فقلت : لا أدرى كيف أصوره ، فأتت بك ، فقالت : مثله» أى اصنع مثله . ربيع الأبرار ٨٥٣/١ ، ومعلوم أن الجاحظ كان دميماً قبيح الوجه .

● صحة العقل

وروى أن المحدث الجليل سفيان بن عيينه بكى يوما ، فقال له يحيى بن أكثم : ما يبكيك يا أبا محمد ؟ قال : بعد مجالستى أصحاب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بليت بمجالستكم ! فقال له يحيى ــ وكان حدثاً ــ : فمصيبة أصحاب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم من مصيبتك ! فقال : ياغلام ، أظن

السلطان سيحتاج إليك ، ربيع الأبرار ٦٦٩/١ ، ويريد سفيان أن يصف يحيى بصحّة العقل حين أحسن الدفاع عن نفسه وعن أبناء جيله ، ثم ردّ المذمة عليه ، وأن مثله جدير بأن يتخذه السلطان عوناً وسندا ، وفي رواية أخرى أن يحيي بن أكثم حين سمع هذا الكلام من سفيان بن عيينة قال له: أتنصف يا أبا محمد ؟ قال : إن شاء الله ، قال له : والله لشقاء من جالس أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بك أشدّ من شقائك بنا ، فأطرق وتمثل بشعر أبي نواس :

خـــــل جنبيك لرام وامضـــــي عنه بسلام
مت بداء الصمت خير لك مــــــن داء الكـلام

تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ١٩٣/١٤.

وقد ألف غرس النعمة أبو الحسن محمد بن هلال الصابى المتوفى (٤٨٠ هـ) كتابا سماه «الهفوات النادرة» جمع فيه أخباراً عن سقطات الناس وأخطائهم التى أوقعتهم فيها الغفلة وسوء التقدير ، وكان أول خبر يورده من ذلك ماوقع فيه هو نفسه، يقول : «فأول ما أبدأ به ماخصني منه ، وهو أنني كنت جالساً وإلى جانبى أبو سعد القادسى ، أحد المتفيهقين المتشدقين ، وجرى ذكر بعض ثقلاء الزمان المتعسفين ، فقلت مسرعاً متبرعا : إنه ليشبه ابن القادسى فيما يتعاطاه ، مما يتجاوز فيه الصواب ويتخطاه ، ثم استيقظت من رقدة زلتى ، وانتبهت لهفوتى ، ثم ذكر بعد ذلك استدراكه على هذا الخطأ بتوجيه القول بعيدا عن ابن القادسى» .

ولم أر فى أدباء هذا الزمان من يكثر من الاعتراف بخطئه ، والتنويه بمن دله على وجه الصواب ، من شيخنا أبى فهر محمود محمد شاكر ، وهو كثير عنده ، ومنه ما ذكره فى المستدرك بآخر كتاب إمتاع الأسماع بما للرسول من الأنباء والأموال والحفدة والمتاع ، للمقريزى المتوفى (٨٤٥ هـ) ، فقد صحح ماورد في ص ٢١٦ من الجزء الأول ، من قوله : «لم أجد ذكر أبى عامر الفاسق فى حديث بعد خبره يوم أحد، إلا خبر موته عند هرقل ، وذلك عام حجة الوداع» فقال فى الاستدراك : «وهذا خطأ منى ، فيه نسيان وعجلة ، إذ ليس يخفى خبر أبى عامر الفاسق فى أمر مسجد الضرار» ، فلم يكتف بنسبة الخطأ إلى نفسه حتي ضم إليه النسيان مقروناً بالعجلة ، وهذا منهج شيخنا فى كتاباته كلها ، وفى تحقيقاته أيضا ، وإنما ذكرت هذا المثال بعينه ، لأن كلام شيخنا هذا كان فى سن الشباب ، وهو زمن الخيلاء والتيه ، فقد صدر الجزء الأول من كتاب المقريزى سنة ١٩٤٠م .

نواصل فى العدد القادم كلام الناس ، وصدقهم فى الإبانة عن دخائل نفوسهم .

الخصوصية الإسلامية

للاستخلاف فى الثروات والأموال

بقلم : د. محمد عمارة

فى البعد الاجتماعى لنظرية الاستخلاف الإسلامية ، تكون الملكية الحقيقية ـ ملكية الرقبة ـ فى الأموال والثروات لله ، سبحانه وتعالى .. فهو خالقها ومالكها وهو المفيض لها فى الطبيعة ، نعما مسخرة للإنسان .. وللإنسان ، كإنسان ، فى هذه الأموال والثروات ملكية خاصة .. ملكية المنفعة ، يحوز .. ويستثمر .. ويتمتع ، من الحلال ، وفى الحلال ، ومع التوسط والعدل ـ دونما إسراف ـ وذلك وفق بنود عقد وعهد الاستخلاف .. فكما استخلف الله الانسان «وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة» أخبره بأنه مستخلف فى الأموال والثروات «آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير» .

وبهذه الفلسفة الإسلامية المتميزة فى القضية الاجتماعية ، تميزت مضامين العدل الاجتماعى فى الإسلام عن المذاهب التى غالت فى الفردية ، والأخرى التى غالت فى قهر الفردية .. فلقد توسط الإسلام ، فلم يجرد الإنسان من حق الملكية للثروات والأموال .. وأيضا لم يرفع الضوابط عن حريته فى التملك والتصرف.. وإنما وقف بهذه الحرية عن «حرية الخليفة» المحكومة بإرادة وأوامر ونواهى المالك الحقيقى للأموال والثروات ، سبحانه وتعالى .

وفى معرض الإشارات إلى هذه الوسطية الإسلامية الجامعة بين الملكية الفردية وبين المصلحة العامة .. بين الفرد والطبقة والأمة فى إطار عدالة الإسلام ـ دين الجماعة ـ نبه علماؤنا على دلالة إضافة القرآن لفظ «المال» إلى ضمير «الجمع» فى سبع وأربعين آية ، وإلى ضمير «المفرد» فى سبع آيات .. ودلالة



ذلك على مذهب الإسلام فى التكافل الاجتماعى ، الذى تتأسس على قواعده العدالة الاجتماعية الإسلامية .. وقالوا إن الله سبحانه وتعالى قد أراد أن ينبه بذلك على «تكافل الأمة فى حقوقها ومصالحها، فكأنه يقول : «إن مال كل واحد منكم هو مال أمتكم» ! .. وقالوا فى تفسير آية الاستخلاف فى الأموال «وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه» .. إن مراد الله هو أن يقول للناس : «إن الأموال التى فى أيديكم إنما هى أموال الله ، بخلقه وإنشائه لها ، وإنما نوّلكم إياها وخولكم الاستمتاع بها ، وجعلكم خلفاء فى التصرف فيها ، فليست هى أموالكم فى الحقيقة ، وما أنتم فيها إلا بمنزلة الوكلاء والنواب فأنفقوا منها .. وليهن عليكم الإنفاق منها كما يهون على الرجل النفقة من مال غيره» .

☆☆☆

وهذا العدل الذى يبلغ به الإسلام إلى حيث يجعله اسما من أسماء الله الحسنى.. يرى علماؤنا أنه المراد «بالأمانة» التى حملها الإنسان دون المخلوقات «إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان» .. فقالوا إنها أمانات الأموال والعدل بين الناس فيها .. قد جعله القرآن الكريم من معايير وجوب طاعة الأمة لولاة أمرها أو سقوط هذه الطاعة فى التعاقد الدستورى بين الأمة وولاة أمورها «إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ، إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعا بصيرا».

وهو فريضة عامة وشاملة .. فرضها الله ، سبحانه وتعالى ، حتى على المعصوم، صلى الله عليه وسلم : «فلذلك فادع واستقم كما أمرت، ولاتتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب ، وأمرت لأعدل بينكم» .. تبدأ ميادينه من العدل مع النفس والبعد عن ظلم الإنسان حتى لنفسه .. «إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى

أنفسهم قالوا : فيم كنتم ؟ قالوا : كنا مستضعفين فى الأرض ، قالوا : ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها؟ فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا .. إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لايستطيعون حيلة ولايهتدون سبيلا . فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم ، وكان الله عفوا غفورا» .

وحتى هؤلاء «المستضعفين» فرض الله على القادرين الجهاد لتحريرهم من الاستضعاف «ومالكم لاتقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا».

وتمتد فريضته ـ العدل ـ من ميدان «النفس» و«الذات» إلى ميدان الأسرة ـ لبنة الاجتماع والأمة ـ من بر الوالدين .. إلى العدل بين الأبناء .. «أعدلوا بين أبنائكم» .. حتى يشمل كل ميادين الحياة .. «المقسطون عند الله يوم القيامة على منابر من نور عن يمين الرحمن ، عز وجل ، وكلتا يديه يمين ، الذين يعدلون فى حكمهم وأهليهم وما ولوا» .. ففى كل ألوان الحكم وميادينه .. ومع الأهل .. وفى كل الولايات، يجب إقامة العدل والقسط بين الناس .

بل لقد امتد الإسلام بآفاق فريضة العدل لتشمل «العدو» بعد أن شملت «الأولياء» .. فللأولياء «النصرة» ـ أى الإعانة ـ أما «العدل» فهو واجب حتى مع الأعداء «ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله ، شهداء بالقسط ولايجرمنكم شنئان قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون».

☆☆☆

وأمام هذا المنهاج الإسلامى فى العدل الشامل ، تبرز المفارقة الشاذة بينه وبين الواقع المعاصر للمسلمين .. فغير النهب الاستعمارى لثروات الأمة ، والذى يمثل خللا فاحشا فى عدالة العلاقات الاقتصادية بين البلاد الإسلامية وبين مراكز الهيمنة والاستغلال الغربية .. نجد الخلل فى موازين العدل داخليا ، وبين أبناء الأمة أيضا .. فعندما يتفاوت دخل الفرد عبر دار الإسلام ، فيكون لدى مسلم مائة دولار ، ولدى مسلم آخر ثلاثة وعشرون ألف دولار ؟! .. وعندما تدفع الفاقة قطاعات من المسلمين فيتخلون عن إسلامهم لقاء رغيف خبز أو جرعة دواء؟! .. بينما تدفع التخمة ودولة المال شريحة من المترفين إلى حياة يتخلون هم فيها أيضا عن حقيقة الحياة الإسلامية ؟ .. وعندما تتسول الأمة غذاءها ، فتفقد لذلك كرامتها واستقلال إرادتها وتستورد أغلب ماتستهلك ، تاركة موادها الخام تنهب بأرخص الأسعار ، معطلة بذلك ملكات الزراعة والصناعة بين أبنائها ، ومشيعة

البطالة فى صفوف ملايينها ؟ .. على حين تستلب من أثريائها الفوائض النقدية ، بالترغيب وبالترهيب لتصادر حينا .. وتجمد حينا آخر .. ولتوظف فى دعم الأعداء فى كل الأحايين ؟ وعندما يحال بين الأمة وبين صناعة سلاحها .. ويطلب منها التخلى عن عقيدة الجهاد - بل وحتى مصطلحه - ثم يفرض عليها استيراد السلاح بأرقام فلكية ، شريطة ألا تستخدمه ضد أعدائها، وأن يكون وقودا فى منازعاتها الداخلية المصنوعة والمصطنعة ؟

أمة جسد واحد

عندما تكون هذه بعضا من جوانب الصورة الاجتماعية للأمة .. الأمة التى أرادها الله بالتكافل الاجتماعى ، جسدا واحدا ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى .. والتى أراد الله لعزتها أن تكون من عزته ، سبحانه ، وعزة رسوله ، عليه الصلاة والسلام «ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين» .. فإننا نجد أنفسنا أمام فريضة إسلامية معطلة ، هى فريضة العدل الاجتماعى ، وعلى الأمة الجهاد لإقامتها وأمام مظالم اجتماعية يورد بقاؤها الأمة موارد الهلاك فى الدنيا وفى الآخرة .. فرسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يقول : «أيما أهل عرصة - مجتمع .. أو قرية .. أو حى - أصبح فيهم امرؤ جائع فقد برئت منهم ذمة الله تعالى » .. وهذا هو الواقع الظالم الذى يعيشه ملايين المسلمين اليوم .. جماهير معدمة .. وقلة مترفة ، يكرس ترفها أغلال الاستضعاف «وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا» .. وهذا الاستقطاب الاجتماعى الحاد يهدد وجود الطبقة الوسطى التى تمثل العمود الفقرى للتوازن الاجتماعى ولتوحيد الأمة ، ولحمل الرسالة الحضارية ، ومواجهة التحديات .

إن إقامة فريضة العدل الاجتماعى ، تتطلب مواجهة هذه السيطرة المستبدة لدولة الأغنياء «ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، كى لايكون دولة بين الأغنياء منكم» .. ومواجهة «فردية الاستغناء» التى أثمرت هذا «الطغيان المالى .. «كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى» وضبط «الحرية الاقتصادية» التى شابهت حرية قوم نبى الله شعيب الذين «قالوا : ياشعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا مانشاء».

وأن ننقذ فقراء الأمة ، بالعدل الاجتماعى من الكوارث التى تخل بتوازنهم ، فتذهلهم عن الدين والدنيا معا!؟ وتحولهم إلى غثاء كغثاء السيل ، وعبء على حاضر الأمة ومستقبلها

وهذا العدل الاجتماعى يستلزم :

١ ـ تحرير ثروات الأمة من الاستغلال الأجنبى .

٢ ـ تحقيق التكامل للاقتصاديات الإسلامية المستقلة .

٣ ـ إحداث تنمية اقتصادية إسلامية شاملة .

٤ ـ توزيع العائد من التنمية وفق العدالة التى تحقق التوازن بين الطبقات .

تلك كانت ولاتزال هى مقاصد حركة الإحياء والتجديد الإسلامى فى التحرر الاقتصادى والتنمية الشاملة ، والعدالة الاجتماعية .. منذ أن أعلن جمال الدين الأفغانى عن «الغاية الاقتصادية» لحركة «الجامعة الإسلامية» والتى قال إنها أن تكون:

● ثروة المسلمين للمسلمين وثمرات التجارة والصناعة فى جميع المعمور الإسلامى هى لهم يتنعمون بها وليست لأبناء الغرب يستنزفونها .

● ونفض اليد من رءوس المال الغربية والاستعاضة عنها برءوس مال إسلامية.

● وتحطيم نواجذ أوربة ، تلك النواجذ العاضة على موارد الثروة الطبيعية فى بلاد المسلمين ، تلك الموارد التى مادامت خارجة من أيدى العالم الإسلامى فسيظل عالة على الغرب».

وإقامة العدالة الاجتماعية الإسلامية .. وذلك :

١ ـ بإصلاح الواقع القائم والمتمثل فى التفاوت العظيم والبون الشاسع والفرق العظيم بين الطبقات المختلفة فى هذا الشعب والذى أدى إلى وجود«ثراء فاحش وفقر مدقع ، والطبقة الوسطى تكاد تكون معدومة» إصلاح هذا الواقع «بتقريب الشقة بين مختلف الطبقات ، تقريبا يقضى على الثراء الفاحش والفقر المدقع»

٢ ـ ومحاربة الربا .. وجمع الزكاة .. وفرض ضرائب اجتماعية على النظام التصاعدى بحسب المال لا بحسب الربح ـ يعفى منها الفقراء طبعا ـ وتجبى من الأغنياء الموسرين وتنفق فى رفع مستوى المعيشة بكل الوسائل المستطاعة .. والتوسط بين الأغنياء الغافلين والفقراء المعوزين بتنظيم الإحسان وجمع الصدقات لتوزع فى المواسم والأعياد .. وذلك حتى يشعر الفقراء المعدمون بأنه قد أصبح لهم فى هذا الوطن مايعنيهم أمره ، ويهمهم شأنه.

☆☆☆

إن الإسلام دين الجماعة ـ دون إنكار التمايز المشروع ، المؤسس على الكفاءة والجهد ـ لكنه يقيم العلاقة بين مكونات الجماعة ـ الأمة ـ على التوازن ـ العدل ـ .. فالأمة فى الرؤية الإسلامية، واحدة «إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون» وعلاقة مكونات الأمة الواحدة ـ أفرادا وطبقات وشعوبا وقبائل ـ بالكيان الواحد للأمة هى علاقة الأعضاء المتعددة والمتميزة ـ فى القوة، والعطاء والأهمية ،

والاحتياجات - بالجسد الواحد الجامع لهذه الأعضاء .. وعن هذه الحقيقة يعبر حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى يقول «مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم ، مثل الجسد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى».

ولقد أطلق الإسلام مصطلح «الفريضة» و«الحق» على مختلف أوجه الإنفاق فى النفع العام .. ولم يقف بذلك عند فريضة الزكاة .. وقال المفسرون فى الإنفاق الذى تحدثت عنه الآية الكريمة «ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو ، كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون» .. قالوا : إنه «العفو» أى «ما فضل عن العيال. فالمعنى أنفقوا ما فضل عن حوائجكم ولم تؤذوا فيه أنفسكم فتكونوا عالة» .

وعلى هذا فإن توظيف الثروات الإسلامية فى التنمية الإسلامية على النحو الذى يحرر الأمة الإسلامية من وضع العالة على أعدائها هو فريضة إسلامية ، الأمة بأسرها آثمة حتى تقيمها فى اقتصاديات عالم الإسلام.

إن زكاة أموال المسلمين وزروعهم وتجاراتهم .. وزكاة الثروات المستكنة والمركوزة فى باطن الأرض - الركاز - وهى الخمس - «فى الركاز الخمس» .. كفيلة بأن تقيم «صندوقا» لتنمية عالم الاسلام فتحرر تنميته من الديون الأجنبية التى غدت قيودا ونزيفا يستنفد صادراتنا فى خدمة هذه الديون .. مع بقاء أصولها ، والجديد منها أخطبوطا يرهن إرادة الأمة ويورثها المذلة والهوان.

إنها فريضة إسلامية على حركة الإحياء والتجديد الإسلامية أن تنهض بها:

تحرير اقتصاديات الأمة وثرواتها .. وتنمية هذه الثروات .. وإقامة العدل الاجتماعى الإسلامى فى ديار الإسلام .

إن فى المسلمين ملايين ، بل عشرات الملايين لا يجدون الكفاف .. وهذا يقطع بعدم شرعية الملكية للثروات التى غدت «دولة» بين الأغنياء .. فإذا جاع مؤمن فلا مال لأحد !.

والغنى المباح إسلاميا لايفتح بابه إلا بعد تحقيق «حد الكفاية» لسواد الأمة .. وليس «حد الكفاف» .. وإذا كان فى ثروات الأمة مايسع أبناءها ، ويحقق لهم الكفاية بل و«الغنى» فإن ماينقصنا هو تحقيق العدل الاجتماعى ، الذى هو، أيضا، سبيل حفز الأمة لتنمية ثرواتها وتحريرها من براثن النهب والاستغلال .

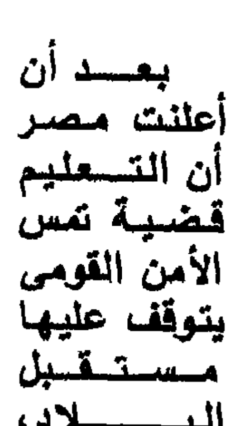


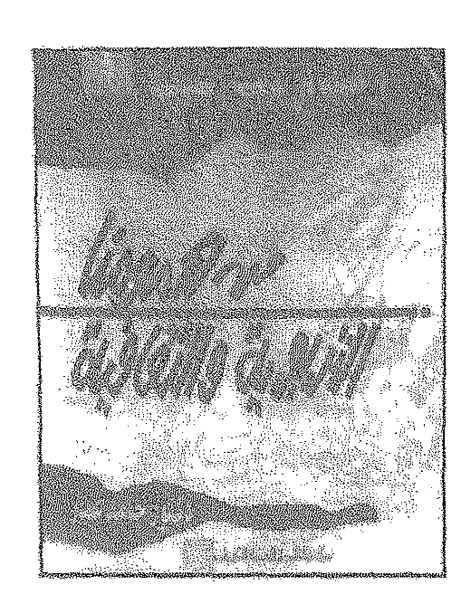
قضية سنة ١٩٩٦

بقلم : مصطفى نبيل

يقول الشيخ حسن العطار فى مطلع القرن التاسع عشر «إن مصر لابد لها أن تتغير، ولايمكن أن تتغير، إلا بأن نعلم في مصر من العلوم ما ليس فيها»







بعد أن أعلنت مصر أن التعليم قضية تمس الأمن القومى يتوقف عليها مستقبل البلاد، كقاطرة النهضة ، ونقطة البدء فى التقدم أو النكوص ، وبعد أن طرح وزير التعليم د.حسين كامل بهاء الدين قضية التعليم للحوار كقضية رأى عام تحتاج إلى مشاركة الذين سيتحملون أعباءها والذين يتمتعون بنتائجها ، وينادى بألا يقتصر الحوار على أروقة وزارة التعليم ولجانها وإنما يمتد إلى كل من تشغله قضية التعليم .

فهل يصل الرأى العام إلى الإتفاق العام والإرادة الموحدة حول أهداف ومتطلبات التعليم ، حتى يعطى قوة دفع إلى تطوير التعليم ، وحتى تتحول الأفكار والآراء إلى حقائق ووقائع .



قضية سنة ١٩٩٦

لقد عبر الجميع عن عمق الأزمة التى يعانى منها التعليم ، يقول د.حسين كامل بهاء الدين .. «لقد تظاهر المجتمع بأنه يوفى هؤلاء المعلمين أجورهم، وهم بدورهم تظاهروا بأنهم يؤدون عملهم ، والتظاهر المتبادل حقق كارثة !» ويقول د.حامد عمار .. «إن التعليم بصورته الحالية، يضر أكثر مما ينفع»!

وأمامنا ثلاثة كتب صدرت عن التعليم خلال شهر واحد ، يمثل كل واحد منها ورقة للبحث والمناقشة ، وهى لثلاثة خبراء وأساتذة أجلاء لكل منهم خبرته الواسعة فى التعليم ، أحدهما صدر عن كتاب الهلال ، «التعليم فى مصر» للدكتور سعيد اسماعيل على ، والثانى «التعليم فى زمن الانفتاح» للدكتور عبد العظيم أنيس ، والثالث «عن همومنا التربوية والثقافية» للدكتور حامد عمار ، والكتب الثلاثة تعكس اهتماما كبيرا بالتعليم ، وتقدم فرصة لحوار جاد شامل ، وخاصة مع بداية عام جديد ، وعلى مشارف القرن الواحد والعشرين .

● تحديث مصر

يلاحظ المتابع لتاريخ مصر الحديث ، المكان البارز الذى أعطته الحركة الوطنية للتعليم ، فتوسلت الحركة الوطنية بالتعليم لتحديث مصر أيام محمد على ، وبعدها تعلقت الحركة الوطنية بالتعليم كأداة لمناهضة الاحتلال البريطانى ، ووجدت مصر فى التعليم مخرجاً عندما تواجه حالة انحسار وطنى ، ولعل حياة الشيخ محمد عبده تقدم نموذجاً للعمل فى ظل أزمة طاحنة ، فهو أبرز المصلحين الذين جعلوا من تطوير التعليم هدفاً رئيسياً من أجل النهضة ، فبعد أن اشترك فى الثورة العرابية ، ورأى أحلامه وهى تنهار ، ورغم السجن والمنفى ، لم يكف عن العمل



الثورى ، وأصدر مع جمال الدين الأفغانى مجلة «العروة الوثقى» من باريس ، ودخل مصر سراً ، وفشلت محاولاته مرة أخرى، وأكاد أتخيله وهو فى المنفى ، وقد أرهقته حدة الانقسامات فى صفوف الحركة الوطنية ، وخيبة أمله بما يكتشفه من اختراق الدول الأجنبية لصفوف الحركة الوطنية ، فوقر لديه اقتناع بعقم المحاولات السياسية ، وضرورة الاعتماد على إعداد الشعب للنهضة وتسليحه بالعلم والمعرفة ، فطلق «السياسة» بمعناها المباشر ، وأخذ يردد لتلاميذه «إن السياسة ضيعت علينا أضعاف ما أفادتنا ، وأن جمال الدين الأفغانى كان صاحب اقتدار عجيب لو صرفه ووجهه للتعليم لأفاد أكبر فائدة ، وقد عرضت عليه حين كنا فى باريس أن نترك السياسة معا ، ونذهب إلى مكان بعيد عن مراقبة الحكومات ونعلم ونربى من نختار من التلاميذ ، فأجابنى جمال الدين .. إنما أنت مثبط !»

وترك لنا الشيخ محمد عبده تسجيلا لرأيه وتصوراً كاملاً عن التعليم كمدخل للإصلاح ، وأخذ يبشر به ، ونجح فى تحقيق جزء منه والخاص بإصلاح التعليم فى الأزهر الشريف ، وفى مقال له بعنوان ماهو الفقر الحقيقى ؟ تجد لب فكرته عن التلازم بين الثروة الطبيعية والثروة البشرية ، فالمسألة ليست وجود معادن ومزارع ، وإنما هى مسألة الأيدى التى ستستعمل هذه الثروة ، .. «وليس كل ماذكرته بكاف وحده فى الغنى والثروة ، والعزة والشوكة ، بل لابد أن ينضم إليه حسن استعمال هذه الأسباب ، الجليلة ، ورشاد الرأى فى استخدامها ، فإن ضلت الآراء وساء الاستعمال ، فهذا هو الفقر المدقع الذى يعسر علاجه ، لعدم سريان روح التربية الشرعية العقلية التى تجعل إحساس الإنسان بمنافع بلاده كإحساسه بمنافع نفسه ، وشعوره باضرار وطنه كشعوره باضرار ذاته..» الوقائع ع/ ١٠٧٣ / ـ الأعمال الكاملة.

● تناغم فلسفة التعليم

اتفق الخبراء الثلاثة على أن أزمة التعليم فى جوهرها ، هى أزمة فكر ، قامت عند غياب فلسفة واضحة للتعليم ، فالفكر الواضح يؤدى إلى ممارسة صحيحة ، أما تخبط الفكر واضطرابه فينعكس على تخبط خطواته واضطراب وتناقض ممارساته .

وتتسم هذه الفترة التى نعيشها من حياة العالم ، باهتزاز القيم وتناقض الأفكار ، وإنكار الفلسفات والأيدلوجيات، والحيرة بين صراع الحضارات أو تبادل الثقافات ؟ ، لايعرف العالم إن كان فى نهاية التاريخ أو بدايته ، والحيرة شديدة بين القديم والجديد ، بين مايجرى فى العالم المتقدم ومايعانيه العالم الثالث ، وتنعكس هذه الحيرة على الأفكار التى تتناول تطوير التعليم ، ولامخرج من هذه الحيرة إلا بمعالجة عدد من المعضلات الفكرية ، وإقامة هذه المعالجة على مفاهيم محددة ، ونظرة منهجية تجيب على الكثير من الأسئلة مثل ، ماذا نعلم ؟ ولماذا نعلم؟، وتقدم الإجابة فى مجموعها نسقا منطقيا

قضية سنة ١٩٩٦

متماسكا ، عندها نصل إلى نظرية تعليمية تقودنا إلى الابتكار ، وتربط بين التعليم والتنمية ، لا التعليم والمكانة الاجتماعية وحدها ..!

لذا لم يكن غريبا أن قادة الفكر ـ فى العقدين الأخيرين ـ يهتمون بالتعليم ويعتبرونه قضية أساسية ، وأدرك الجميع أن المجتمع المتعلم يعرف مدى حاجته إلى التقدم والارتقاء ، ويدرك أفضل الطرق وأحسن الوسائل لتحقيق نهضته .

وعلى الجانب الآخر ، أقام المستشار البريطانى «دنلوب» نسق التعليم فى مصر، من أجل إخراج موظفين يتلقون التعليمات ويعجزون عن الابتكار والابداع والمبادرة !

وأمامنا الدور المهم الذى لعبه د. طه حسين فى التعليم ، كانت البداية وضع تصوره للتعليم فى كتاب «مستقبل الثقافة فى مصر» ، وضمنه مشروعاً كاملاً لإصلاح التعليم وتطويره ، ووضع الأسس التى تقوم عليها السياسة التعليمية التى تحظى باهتمام من يشغلهم مستقبل الأجيال الجديدة ومستقبل مصر كلها ، وجعل الأفكار التى تناولها فى كتابه موضع حوار كل القوى الاجتماعية .

وكان أهم الموضوعات التى تناولها ، كيف يصبح التعليم بوتقة تصهر الأمة جميعا وتجعلها أمة متماسكة ، وطالب بأن يدخل جميع التلاميذ مهما اختلفت طبقاتهم تعليم عام واحد ، وهاجم وجود مؤسسات تعليمية منفصلة ، ومايؤدى إليه ذلك من مخاطر على التماسك الوطنى والاجتماعى .

ونجح فى تطبيق هذه الأفكار ، وجعل التعليم كالماء والهواء عقب توليه مسئولية وزارة المعارف ، أما اليوم فكثير من إنجازاته أخذت تذروها الرياح ، وظهرت من جديد الازدواجيات التى حذر منها ، ازدواجية بين التعليم الدينى والمدنى، وبين المدارس الحكومية والخاصة، بين التعليم الثانوى والفنى ، كما ظهرت مدارس اللغات ذات المصاريف الباهظة، والخطر الأكبر هو تضارب المناهج وغياب الفكر التربوى الواحد ، مما يؤدى إلى تحويل المجتمع إلى جزر منفصلة يتعطل بينها الحوار والاتصال ، ويكاد سكان هذه الجزر لايفهمون بعضهم بعضا .!

إذن الفكر الواضح وحده القادر على اختيار الأولويات ، ويحدد من أين نبدأ .؟ وأن يقدم الإجابة على الكثير من التساؤلات منها :

- كيف نطبق مجانية التعليم ونحقق تكافؤ الفرص مع نقص الموارد ؟
- كيف نوفق بين العالم المتسارع الخطى والذى أصبح كل بيت فيه مركزا الكترونيا للتعليم ، وارتفاع نسبة الأمية فى بلادنا ..؟
- كيف يرتبط التعليم بالتنمية والبيئة؟

● كيف نحقق استقلال الجامعة ، وحرية البحث العلمي ؟ ، وغيرها من الأسئلة .

فبعد الوصول إلى الفكر الواضح تقوم المؤسسات الثابتة التى تنفذ هذا الفكر ، وتراعى اسلوب تجديد أو تغيير هذه السياسات ، التى لاتعتمد على الأشخاص، ولاتتغير بتغيرهم .

● إرادة التغيير !

وأزمة التعليم سريعاً ما تقودنا إلى قلب مشكلاتنا العامة ، فتدهور التعليم جزء لايتجزء من تدهور الخدمات العامة خلال الأعوام السابقة ، فلا يمكن عزل التعليم عن المستوى الاجتماعي العام ، ولايمكن تجنب التأثيرات السلبية الناتجة من تزايد الفجوة بين الأجور والأسعار ، ولا يجوز عزل المدرسة عن القيم والمفاهيم السائدة، ولا عزلها عما تبثه أجهزة الاتصال من صحافة وإذاعة وتليفزيون .

وتؤكد جميع الدلائل على أنه لايمكن إصلاح التعليم وحده ولكن من الضرورى إصلاح العديد من الأوضاع المرتبطة بالتعليم فيتأثر التعليم بالضرورة بالمحيط الاجتماعي ، ومشاكله تعود إلى أخطاء تفرض نفسها على التعليم وتعوق تطوره .

وهل يمكن تطوير التعليم مع تجاهل الحاجة الماسة لزيادة إمكانياته وبالتالى زيادة نفقاته ؟ فى وقت يطرح فيه الإصلاح الاقتصادى الذى يعنى سياسة انكماشية، ويهدف إلى علاج العجز فى ميزان المدفوعات عن طريق ضغط الانفاق العام ، وتصرف معظم ميزانية وزارة التعليم على «الباب الأول» ، أى الأجور والمرتبات ، وليس على المعامل ووسائل الايضاح والكتب والمكتبات.

ولعل دراسة اليونسيف ـ التى أوردها د. عبد العظيم أنيس ـ تقدم نموذجاً واضحاً على التأثير المتبادل بين التعليم والتنمية ، تقول : «إن أى محاولة جادة للتغلب على الآثار السلبية فى ميدان التعليم لايمكن أن تقتصر على التعليم وحده ، وإنما ينبغى أن تتعداه إلى مجمل السياسات الاجتماعية والاقتصادية ، وبمعنى آخر فإن ترك تعميم التعليم الإبتدائي وإكساب الأطفال مهارات حقيقية للسياسات الراهنة وقوى السوق ينطوى على خطر أكيد على التنمية البشرية وبالتالى على قضية مستقبل التنمية بأكملها » .

ويتناول د.عبد العظيم أنيس علاقة الفقر بالتعليم ، يقول : «مع التأكيد على أن هناك اعتبارات تشد التعليم إلى الخلف لا سيطرة لوزارة التعليم عليها ، فمثلا لايكفى زيادة نسبة الانفاق على التعليم بل لابد من تحسين أحوال الفقراء لكى يمكنهم الاستمرار فى التعليم .»

ويؤكد فى موضع آخر قناعته .. «إن إصلاح التعليم إصلاحاً حقيقياً ، أمر شبه مستحيل ما لم يجر موازيا له إصلاح قطاعات وطنية أخرى ، مثل الصحة ، وقطاع الأجور ، والبطالة ، فنظام التعليم ليس إلا نسقاً جزئيا ضمن النسق الاقتصادى الاجتماعى العام فى مصر ، يتأثر كل يوم وكل ساعة بهذا الذى يجرى

قضية سنة ١٩٩٦

فى النسق الاجتماعى والاقتصادى العام ويؤثر فيه ، لذلك فكل إصلاح جاد للتعليم ينبغى أن يكون ضمن خطة للإصلاح والنهوض الشامل» .

حقا .. إن الكثير من أحلام التربويين لايمكن تحقيقها ، لأنها جزء من الواقع فى مجموعه ، وهى تحتاج إلى عمل شامل على جميع الجبهات .

● مجانية التعليم

تقف قضية مجانية التعليم فى مقدمة القضايا التى تشغل التربويين ، فالوصول إلى صيغة تحافظ على مبدأ المجانية فى حدود الإمكانيات المتاحة ، هى قضية أساسية يتوقف عليها مستقبل التعليم ، بل ومستقبل المجتمع ، وجعله مجتمعا منتجا مواكبا للعصر .

فقد حقق المجتمع بعد طول صبر مكسبا مهما باقراره مجانية التعليم ، والتى أكدها الدستور ، إلا أنه ترتفع بين وقت وآخر صيحات ترى أن المجانية هى التى أدت إلى إنخفاض مستوى التعليم.! متجاهلين أن حق الجميع فى التعليم يمثل الأداة الوحيدة لتحقيق المساواة وتكافؤ الفرص ، ومن أجل سد الفجوة بين قمة الهرم الاجتماعى وقاعدته ، بين الفقراء والأغنياء ، وهى أحد فرص المجتمع لاكتشاف الموهوبين وانتشالهم من قاع المجتمع إلى قمته وإعطاء فرصة للحراك الاجتماعى .

ومن يدرس التاريخ الاجتماعى للشرق، لايفوته أن يلحظ استقرار قيمة توفير التعليم لمن يطلبه ، وقد استقرت هذه القيمة فى الوجدان العام ، ففى عصر كان يأتى ساعيا من أعماق الريف من تنذره عائلته للتعليم ، فيصل إلى الأزهر الشريف، فيتوافر له علاوة على التعليم الإقامة والجراية

وهو ما أتيح لمعظم رموزنا الفكرية من عمر مكرم إلى محمد عبده .

لذا لم يكن غريبا أن أبرز ثلاثة حظى التعليم باهتمامهم ، وهم على مبارك ومحمد عبده وطه حسين ، خرج ثلاثتهم من أعماق الريف ، كما جاء فى سيرتهم الذاتية ، ولم يكن لأحد منهم إبعادية أو عزوة عائلية ، وإنما ترعرعوا فى عائلات تعرف قيمة العلم ودور التعليم .

ولابد من تناول قضية مجانية التعليم بصراحة وإجراء حوار حوله يشترك فيه جميع المهتمين ، ولايجوز مجرد الغمغمة ، وإنما لابد من الكلام الواضح ، حتى لايبقى شعار مجانية التعليم شعاراً مجرداً، بعد أن كاد يخسره أصحابه ، فلم يعد التعليم مجانا ، وأصبحت الدروس الخصوصية هى بديل ما يدفع للمدرسة من مصاريف ، مما جعل التعليم صعبا على الفقراء ، وحان الوقت للوصول إلى إتفاق عام حول هذه القضية .

ويغيب عن المتحاورين ، وخاصة أولئك

الذين يتصورون إمكانية تطبيق قوانين السوق على التعليم ، وأولئك الذين يرون فى الولايات المتحدة المثل الأعلى ، أن من أوائل الدول التى جعلت التعليم إلزامياً ومجانياً حتى الجامعة هى الولايات المتحدة الأمريكية ، مما أدى إلى تطورها الصناعى الكبير ، وجعل العامل الأمريكى أكثر تقدما من سواه ، كما أن أغلب طلاب الجامعات الأمريكية يحصلون على منح دراسية من مؤسسات مالية كبرى .

ويقول د. سعيد اسماعيل على حول هذه القضية .. «موارد تطوير التعليم هى الصخرة التى تتحطم عليها الكثير من الآمال فى تطوير التعليم ، فقد ناقشت الاستراتيجية ـ استراتيجية التعليم فى مصر عام ١٩٨٧ ـ عدداً من جوانبها وفى مقدمتها مجانية التعليم ، وماتقوم عليه من مبررات ، إلا أن هناك حقيقة لابد من الإشارة إليها والتحسب لها ، فإذا كان التمويل يتزايد بالفعل عاما بعد عام وبمعدلات كبيرة ، فإنه لايمكن مضاعفة هذا التمويل لمواجهة الطموحات التى تقتضيها استراتيجية تطوير التعليم ، لما يمثله من عبء اقتصادى كبير .

وقد لوحظ أن التعليم المجانى سوف يزيد من الضغط على مؤسسات التعليم ، وأن الغنى هو الذى يستفيد من هذه المجانية لأنه قادر على أن يوفر تعليما أفضل لأبنائه ..»

ويؤكد د. عبد العظيم أنيس أن أهم مايستثمر فيه المجتمع أمواله هو التعليم .. «إن بلادنا محدودة الموارد الطبيعية ، ولذلك فإن الاستثمار فى تكوين البشر قد يكون من أهم نقاط قوتنا إذا أحسنا استغلاله وانتبهنا أيضا إلى احتياجات بقية الوطن العربى.

وينتهى إلى أنه .. «فى عصرنا الحاضر لا توجد جماعة جيدة التعليم وفقيره ، كما لاتوجد جماعة أمية وليست فقيرة» .

ويشاركهما رأيهما د. حامد عمار ويقول : «أوضحت العديد من الدراسات العلاقة بين التحصيل الدراسى والإنجاز المدرسى من ناحية وبين الأحوال الاقتصادية والثقافية للأسرة من ناحية أخرى» ويزيد .. «يرى معظم المفكرين التربويين أن تكافؤ الفرص التعليمية وعدالة نظم الامتحانات باعتبارها المعيار المنصف الذي يحكم على الجميع سواسية، إنما يمثل وهما اجتماعيا وحضاريا .. فلا يمكن تصور نجاح أى سياسة اجتماعية تهدف إلى عدالة فى توزيع الدخول دون أخذ فرص التعليم بعين الاعتبار من أجل الوصول إلى الوفاق الوطنى حول أهداف التعليم وغاياته العليا والمضامين والقيم والوسائل الملائمة لتنمية طاقات المواطن والوطن إلى أقصى مايمكن أن تبلغه» ، ولايمكن تصور النجاعة فى أى سياسة اجتماعية تهدف إلى عدالة فى توزيع الدخول دون أخذ فرص التعليم بعين الاعتبار ..»

وهاهم ثلاثة من أهم خبراء التعليم يؤكدون ضرورة الحفاظ على مجانية التعليم ، فكيف تبقى المجانية مع تناقص

قضية سنة ١٩٩٦

الإمكانيات المتوافرة ؟ .

وهذه قضية لايجوز فيها الفمغمة ، ولكن لابد من الكلام الصريح الواضح ، فسريان مجانية التعليم على أولئك الذين لاتؤهلهم قدراتهم على ذلك التعليم تخالف مبدأ تكافؤ الفرص ، وحرمان القادر على التعليم لعدم توافر المنشآت تخالف أيضا تكافؤ الفرص .

يقول د. حسين كامل بهاء الدين وزير التعليم فى كتاب «مبارك والتعليم نظرة على المستقبل» ، «فى المرحلة الثانوية والجامعية تكون المجانية للطالب الملتزم ، الذى يأخذ وظيفته الاجتماعية كطالب على محمل الجد ، ويبذل الجهد المطلوب فى أن يحقق نجاحه المتواصل ، أما من يتخذ المجانية شعاراً لسلبيته وتهاونه وإهماله باعتبار أن الدولة ملزمة بالانفاق على تعليمه مهما تعددت مرات رسوبه فالدولة لايمكن أن ترعى فشله ، وعليه أن يدفع نفقات تعليمه» وتبقى المشكلة فى المعيار الذى يميز بين الطالب الملتزم والطالب المتهاون؟ ، وحتى هذه الفكرة التى أعلنها الوزير لم يتم تطبيقها حتى اليوم .

وتتركز مخاوف العديد من التربويين فى أن تعالج قضية مجانية التعليم على الطريقة نفسها التى عولج بها موضوع حق المواطنين فى العلاج المجانى ، عندما رددت الحكومة تمسكها بتوفير العلاج المجانى ثم أخذ العلاج المجانى فى الإنهيار نتيجة نقص الاعتمادات ، ثم بدأت المستشفيات المجانية تجهز أقساماً بها أحدث تكنولوجيا على أن يدفع المرضى المترددون عليها ثمن علاجهم ، على أن تنفق هذه الأقسام على العلاج المجانى ، ولكن سرعان ماتغلب العلاج الجديد ، وتلاشى بالتدريج العلاج المجانى .

وكان الأولى بواضعى السياسة العلاجية ، أن يواجهوا نقص الموارد ، بأن يقصروا العلاج المجانى على من يحتاجه ولايملك نفقاته .

إن مجانية التعليم هى صمام الأمان فى المجتمع ، ويظل المطلوب الابتكار فى الحفاظ على المبدأ فى حدود الامكانيات المتوافرة .

فمنذ انتهاء الحرب العالمية الثانية ، اعتبر التعليم مفتاح التقدم ومؤشراً أساسياً للتحديث ، واستطاعت كل من ألمانيا واليابان أن تغير أوضاعها وتتجاوز هزيمتها وانجاز السبق الاقتصادى عن طريق التعليم ، وكلما واجهت دولة عقبة ، عادت تنظر فى نظام التعليم ، ونجد الولايات المتحدة تلجأ إلى تغيير وتعبئة نظامها التعليمى لكى تواجه السبق الذى حققه الاتحاد السوفييتى عندما نجح القمر الاصطناعى الروسى سبوتنيك فى الإنطلاق إلى الفضاء عام ١٩٥٨.

وأخذت المنافسة بين الدول تتحول إلى منافسة فى كفاءة النظم التعليمية ، ومن يملك نظام تعليم أفضل هو الذى يكسب الجولة فى القوة الاقتصادية .

● التعليم والانفتاح

وبهذا المعنى كتب د. عبد العظيم أنيس كتابه التعليم فى زمن الانفتاح ، وهى مجموعة مقالات كتبها عن التعليم خلال الأربع عشرة سنة الأخيرة ، والخيط الذى يجمعها هو ضرورة الحفاظ على مجانية التعليم ، وأن أحوال التعليم تتدهور باستمرار منذ سياسة الإنفتاح ، ويحكم الدكتور أنيس على التعليم باستخدام معيارين ، أحدهما ديمقراطية التعليم ، والثانى مدى تحديثه ، والديمقرطية تعنى اتاحة فرصة التعليم للجميع ، وهى ليست قضية عدالة اجتماعية فحسب ، وإنما هى من أصول التنمية الاقتصادية الحقيقية ، فالتعليم هو مفتاح المستقبل ، ولم يعرف التاريخ تجربة واحدة للتنمية الاقتصادية دون توسع حقيقى فى قاعدة التعليم الإلزامى لمدة تسع أو عشر سنوات .

ويقدم إلى أولئك الذين يحلو لهم دائما التغنى بأمجاد مصر ، دون أن يقدموا إليها أى جهد عام ، بعض الأرقام الكاشفة ، «نسبة الانفاق على التعليم الإجمالى من الناتج القومى تصل فى مصر إلى ٢,٥٪ بينما تصل فى الأردن إلى ٧,١٪ والمغرب ٧,٩٪ والجزائر ١٠,٨٪ ، وقيمة الانفاق الجارى على الطالب فى مرحلة التعليم الأساسى فى مصر ٨٨ دولاراً بينما تصل فى تونس إلى ١٧٦ دولاراً وفى الأردن ٢٦٠ دولاراً وفى اسرائيل ٨٧٧ دولاراً !»

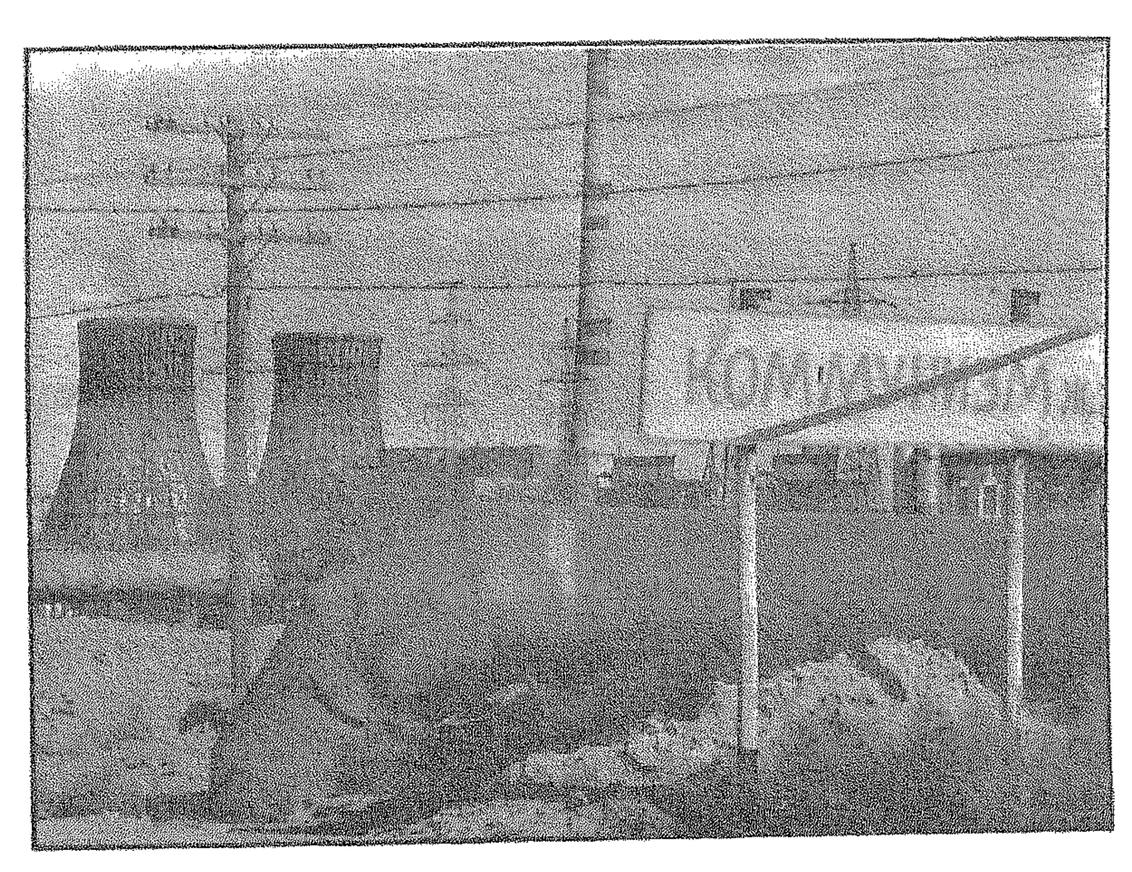
ويتساءل د. حامد عمار فى كتابه «دراسات فى التربية والثقافة» هل ما يحدث من تغيير ــ فى التعليم ــ هو تغيير مظهرى أم حقيقى ؟ ، أم هى فى الكثير من الحالات إجراءات لمجاملة بعض الفئات الاجتماعية أو لخدمة مصالحها أو لتهدئة الخواطر لدى أولياء الأمور أو الطلاب من أبناء الطبقات الوسطى والعليا ومن لف لفهم من الطموح والحراك من أبناء الشرائح الاجتماعية الأخري» .

وهذا المقال لايعدو أن يكون ملاحظات وتساؤلات ، على هامش قضية تطوير التعليم ، فحقا ، إن تطوير التعليم هو القضية الأساسية سنة ١٩٩٦ ، ولعل ماطرحه الأساتذة الكبار د. عبد العظيم أنيس ود.حامد عمار ود. سعيد اسماعيل على ، يمثل بداية حوار شامل ، ووفاق وطنى حول التعليم ومستقبله .



هل من الضرورى إقامة مفاعل نـووى متوسط فى مصر ؟!

بقلم : د. حسين عبدالله *



● الكاتب وكيل اول وزارة البترول سابقا وممثلها لدى الاوبك ١٩٧٤ - ١٩٩٢ واستاذ اقتصاديات البترول ١٩٦٩ - ١٩٧٤ .

استثمرت مصر مبالغ وجهوداً طائلة على مدى سنوات عديدة لإعداد طاقة بشرية لا يقل عددها عن ٥٠٠ خبير وفنى فى مجال الطاقة النووية . ومن مقتضى الحكمة أن نحرص على ألا تتخلف تلك الطاقة البشرية الثمينة عن ركب التطور العلمي والتكنولوجى فى هذا المجال، وفي غيره من المجالات المرتبطة به ، وكلها مجالات حساسة وتقف على مشارف الثورة العلمية والتكنولوجية التي يتوقع ان يشهدها القرن القادم باعتباره امتدادا للقرن العشرين. واذا أخذنا فى الاعتبار ان احتياطيات مصر من البترول والغاز الطبيعى قد لا يمتد عمرها إلى ما بعد عام ٢٠١٠ فان احتمالات التوصل إلى حلول للمشكلات التى تواجه الطاقة النووية، وخفض تكاليفها تبعا لذلك ، قد يجعل منها مصدرا للطاقة، اقتصاديا وغير محدود . ولذلك نرى ان يقام فى مصر مفاعل نووى متوسط الحجم لكي يواصل فيه هؤلاء الخبراء بحوثهم وتجاربهم، ولكي تستمر عن طريقه مواكبتهم للتطورات العالمية الحديثة في هذا المجال . ولكن ينبغي ان يتخذ من الاحتياطات ما يكفي لحماية ذلك المفاعل من عوامل التخريب ، سواء كان مصدره محلياً أو خارجيا .

تلقى الطلب على المفاعل النووى دفعة قوية نتيجة لارتفاع اسعار النفط خلال النصف الثانى من السبعينات، مما شجع الدول النووية الكبرى وغيرها على التوسع فى برامجها النووية. وانعكست نتائج ذلك التوسع عندما دخل الخدمة خلال عقد الثمانينيات فيض من المفاعلات النووية التى بدأت اقامتها فى ظل ارتفاع اسعار النفط واستغرق انشاؤها فترة طويلة. غير أن اقتصاديات الطاقة النووية لم تلبث أن انتكست ، فقد كان من الصعب خلال السنوات الأولى لانشاء المفاعلات النووية وضع تقدير سليم للنفقات والتكاليف علي مدى فترة تزيد على ٤٠ عاما وهى العمر الافتراضى للمفاعل . كذلك لم تقدر بدقة، فى ذلك الوقت ، نفقات التخلص من المفاعل بعد توقفه وخروجه من الخدمة Decommissioning بما فى ذلك التخلص من هيكله غير المنقول . فلما ظهر خلال السنوات الاخيرة، وبصورة أكثر واقعية، حجم وخطورة تلك المشكلة، ارتفعت تقديرات التكلفة كثيرا فوق ما كان متوقعا فى بداية ازدهار الطاقة النووية وخاصة خلال السبعينيات .

ومن ناحية أخرى ، فان تراخى الإحساس بالأزمة النفطية بعد انهيار اسعار النفط إلى أقل من النصف عام ١٩٨٦ وإلى ما يقرب بالقيمة الحقيقية (أى بعد أستبعاد اثر التضخم) من مستواها قبيل حرب اكتوبر، اضافة إلى ما وقع من حوادث نووية جسيمة وبصفة خاصة حادث ثرى ميل ايلاند TMI فى الولايات المتحدة عام ١٩٧٩ وحادث تشيرنوبل فى الاتحاد السوفييتى عام ١٩٨٦ ، جعل

مفاعل نووى متوسط فــى مصــر

العديد من الدول التى أقبلت على الطاقة النووية تراجع خططها التوسعية ، فأخذ البعض يبطىء فى تنفيذها وقام البعض بتجميد أو إلغاء برامجه النووية بالكامل .

دورة الوقود النووى :

لا تختلف محطة لتوليد الكهرباء بالطاقة النووية عن محطة حرارية تدار بالفحم أو بالنفط أو بالغاز الطبيعى سوي ان التفاعل النووى يكون المصدر الحرارى المستخدم فى توليد البخار الذى يدير توربينات توليد الكهرباء، ويستخلص الوقود النووى عادة من اليورانيوم الذى يوجد في الطبيعة بنسبة تتراوح بين ١ - ٤ ارطال لكل طن من الركاز أو المادة الخام المستخرجة. وتتكون تلك المادة من نظيرين أحدهما اليورانيوم ٢٣٥ الذى يقبل الأنشطار المتسلسل Fissile Isot-pe باستخدام الجيل الحالى من المفاعلات الحرارية . ولا تزيد نسبة تركز هذا النظير فى المادة الخام عن ٠,٧٪ ولذلك يلزم اغناؤه Enrichment لرفع النسبة إلى نحو ٣٪ حتى يصلح كوقود نووى .

ونظرا لارتباط عملية الاغناء بانتاج السلاح النووى فقد حرصت الدول النووية الكبرى على الاحتفاظ بها تحت اشراف أو رقابة الحكومة لضمان عدم انتشار الاسلحة النووية . ذلك أن صنع سلاح نووى يتطلب استخدام يورانيوم تتجاوز نسبة اغنائه ٢٠٪ أو استخدام البلوتنيوم الذى يمكن استخلاصه من الوقود النووى قبل أو بعد استخدامه . ووجه الخطورة بالنسبة للبلوتنيوم أن العالم لم يتوصل بعد إلي وسيلة يمكن بها إبطال صلاحيته لصنع السلاح النووى .

وتثير دورة الوقود فى المفاعلات النووية عددا من المشكلات أهمها :

١ - إنه على حين لاتتجاوز تكلفة المادة الخام ١٠٪ من التكلفة الكلية للوحدة (كيلو وات ساعة) ، فان تكلفة اغناء الوقود النووى - والذى تتركز امكانياته فى عدد محدود من الدول - قد تصل إلى ١٨٪ ولا تزيد تكلفة الصيانة والتشغيل على ١٠ - ١٥٪ بينما تتراوح التكلفة الرأسمالية بين ٥٧٪ في أوربا الغربية واكثر من ٧٠٪ فى المواقع الصعبة فى الدول الصناعية وفى الدول النامية حيث لاتتوافر البنية الاساسية اللازمة لاقامة تلك الصناعة . وعلى الدول النامية الساعية لاستخدام الطاقة النووية ان تأخذ ذلك التوزيع فى الاعتبار عند حساب المكون الاجنبى فى تكلفة بناء وتشغيل المفاعل . وفى تقديرنا أن المكون الاجنبى فى تلك الدول والذى يشمل قيمة التكنولوجيا والمعدات والوقود بعد اغنائه قد لايقل فى مجموعه عن ٧٠٪ من اجمالى التكلفة وقد ينطوى على الارتباط بدولة المصدر لفترات طويلة .

٢ - يستغرق التحلل الكامل لبعض المواد المشعة المستخدمة فى التوليد النووى آلاف السنين ، ولذلك تثير تلك الصناعة مشاكل خطيرة من اهمها كيفية التخلص

من نفايات الوقود المشعة - Nuclear Waste والتى قد يستمر خطرها الاشعاعي لآلاف السنين .

٣ - إن تكلفة اعادة تصنيع الوقود النووى المستهلك لاتدخل فيما يعلن من تكلفة الطاقة النووية ، شأنها شأن تكلفة تفكيك ودفن المفاعل ونفاياته المشعة. وكان الطلب للاغراض العسكرية على البلوتنيوم الناتج من تلك العملية يخفف من تلك التكلفة، ولكن انفراج الحرب الباردة قد يؤدى إلى انكماش ذلك الطلب وبذلك يتحتم على الكهرباء النووية أن تتحمل بالكامل تلك التكلفة .

اقتصاديات الطاقة النووية :

مرت اقتصاديات الطاقة النووية منذ الخمسينيات بمراحل عديدة الا أنها مازالت للآن غير مستقرة ويرجع عدم استقرارها إلى عوامل عديدة من أهمها أن جانبا كبيرا من التكلفة لا تتضح معالمه بدقة الا عندما ينتهى العمر الانتاجى للمفاعل (٣٠ - ٤٠ سنة) ويتم تفكيكه ودفنه واتخاذ الاحتياطات الكفيلة بعدم تسرب اشعاعاته لمدد طويلة جدا .

وتتفوق المحطة النووية على المحطات الحرارية التى تدار بمصادر الطاقة الحفرية من حيث انخفاض تكلفة الوقود، ولكنها تختلف عنها من حيث ارتفاع التكلفة الرأسمالية حيث تعتبر تلك التكلفة أهم عنصر فى تكلفة الطاقة النووية إذ قد تصل فى مفاعل الماء الخفيف إلى ٧٠٪ بينما لاتتجاوز التكلفة الرأسمالية فى محطة تدار بالفحم ٣٥ - ٦٥٪ تبعا لموقع المحطة من منجم الفحم وسعره .

وتتفاوت التكلفة الرأسمالية فى المفاعل النووى تفاوتا كبيرا تبعا لعناصر عديدة مثل حجم المشروع، وموقعه ، وما اذا كان الموقع يضم وحدة نووية أو وحدتين مما يخضع بالضرورة لحجم الطلب على الكهرباء كما تتفاوت التكلفة تبعا للشركة القائمة بالمشروع وما تتلقاه من دعم حكومي ، وايضا تبعا لطول أو قصر المدة التى يستغرقها اقامة المفاعل . فتكلفة وحدة كبيرة من حجم ١٣٠٠ ميجاوات قد لاتزيد بأكثر من ٥٠ - ٧٥٪ عن تكلفة وحدة حجمها نصف هذا الحجم . كذلك قد تنخفض تكلفة الوحدة الثانية فى حالة المحطات المزدوجة بنحو ١٠ - ١٥٪ عن تكلفة الوحدة الأولى .

ومن المسلم به أن الطاقة النووية لا تحقق أعلى عائد لها ، اقتصاديا وفنيا، الا اذا استخدمت لمواجهة حمل الأساس Base load ، وهو الحد الأدني من الطاقة الكهربائية التى تستهلك فى أى وقت من النهار أو الليل وتستلزم استمرار تشغيل المفاعل بكامل طاقته دون توقف . أما حمل الذروة Peak load فلا يستلزم تشغيل المحطة اكثر من ساعات قليلة كل يوم وهو ما يتعارض مع طبيعة المحطة النووية . وكان المتوقع اذا استخدمت الطاقة النووية لمواجهة حمل الأساس الا يقل معامل السعة Capacity factor عن ٨٠٪ فى المتوسط ، غير أن نتائج التجربة الطويلة فى الدول النووية الرئيسية جاءت مخيبة لتلك التوقعات . ففى خلال الفترة

مفاعل نووى متوسط فـــى مصـــر

منذ بدء استخدام الطاقة النووية فى أواخر الخمسينيات وحتى نهاية ١٩٩٠ اثبتت التجربة أن ذلك المعامل لم يتجاوز ٦٢,٨٪ فى المتوسط (المرجح بحجم التوليد) وذلك فى الدول الاربع التى قامت بتوليد حوالى ٧٢٪ من اجمالى الكهرباء النووية فى العالم خلال الفترة المذكورة وهي الولايات المتحدة وفرنسا واليابان والمانيا .

وتواجه معالجة النفقات المقارنة لمصادر الطاقة الكثير من المشكلات لان ما ينشر منها كثيرا ما يخضع لاعتبارات سياسية واقتصادية متحيزة ، وقد لا ينشر معها من التفاصيل والأسس التى بنيت عليها ما يكفى للتحقق من سلامة التقدير . ومع ذلك فسوف نحاول فى الجدول التالى تقديم صورة معقولة للمدى الذي تتراوح خلاله الكلفة الفنية Technical cost لأهم المصادر المستخدمة فى توليد الكهرباء وهى الفحم وزيت الوقود (المازوت) والطاقة النووية :

غير أن القراءة الصحيحة لهذه التقديرات ينبغى أن تأخذ فى الاعتبار عددا من التوضيحات المهمة والتى نوجزها فيما يلى :

١ - إن تكلفة الطاقة النووية لا تتضمن تكلفة التخلص من المواد المشعة اثناء تشغيل المفاعل ، كما لاتتضمن تكلفة تفكيك ودفن المفاعل بعد انتهاء صلاحيته . وثمة خلاف كبير حول حجم تلك التكلفة ، وذلك لعدم وجود نموذج واقعى كامل لتفكيك ودفن مفاعل تجارى كبير . وقد قامت الولايات المتحدة فى عام ١٩٧٤ بتفكيك ودفن مفاعل صغير قوته ٢٢ ميجاوات مما اقتضى دفن نحو ٣٦٠٠ متر مكعب من المواد المشعة والملوثة وتكلفت العملية نحو ٦ ملايين دولار (بدولارات عام ١٩٧٤) وهو ما يعادل تكلفة بناء المفاعل ذاته ولم يكن قد انقضى على تشغيله اكثر من ٤ سنوات . ومن هنا يمكن أن نتبين حجم المخاطر والتكاليف التى تحيط بالتخلص من مفاعل تجارى كبير تصل قوته إلي اكثر من ١٠٠٠ ميجاوات بعد تشغيله لمدة ٣٠ عاما، مع العلم بان درجة الخطورة تتزايد مع زيادة الحجم ومع طول

	الفحم	زيت الوقود	طاقة نووية
كفاءة التوليد (٪)	٣٣	٣٣	٣٢
النفقة الرأسمالية (سنت / kwh)	٢ - ٤,٣	٢ - ٢,٥	٣,٨ - ١٠
النفقة الكلية (سنت / kwh)	٣,٨ - ٦,٩	٤,٨ - ٥,٧	٥,٣ - ١١,٨
المدة اللازمة للتشييد (سنة)	٣ - ٥	٣ - ٥	٤ - ١٢
التأثير السلبى على البيئة	عال	متوسط	موضع خلاف

زمن الاستخدام . وما زالت المشاكل التكنولوجية التى تكتنف التخلص من المفاعل ومواده المشعة بدون حل شامل وآمن ، كما لاتزال تكلفة هذا التخلص موضع خلاف حيث تتفاوت تقديراتها بين ٥٠ مليون دولار و ٣ مليارات دولار للمفاعل الواحد ، ويميل الرأى الغالب إلى انها لن تقل عن تكلفة التشييد .

٢ - إن التقديرات التى يتضمنها الجدول تعبر عن المشروعات التى تم التعاقد عليها فى مستهل عقد التسعينات لكى يكتمل بناؤها في أواخر العقد المذكور كما سحبت التكلفة علي اساس قيمة الدولار فى عام ١٩٩٠ .

٣ - إن التكلفة الرأسمالية قد قدرت فى المتوسط بنحو ١٥٠٠ دولار لكل كيلوات KW نووى وبنحو ٨٠٠ دولار لكل كيلو وات KW حرارى (فحم أو زيت وقود) .

٤ - إن تكلفة الوقود قد قدرت بنحو ٤٠ دولاراً لطن الفحم وبنحو ٨٠ - ١٠٠ دولار لطن زيت الوقود ، وهى الاسعار السائدة فى التجارة العالمية لهذين المصدرين .

٥ - إن سعر الخصم أو معدل الربح المفترض قد قدر بنحو ٨٪ صافٍ بعد خصم الضرائب بمعدل ٥٠٪ من الربح الاجمالى.

٦ - إن النفقة الكلية تشمل بالإضافة إلى النفقة الرأسمالية تكلفة الوقود ونفقات التشغيل والصيانة ، وذلك على اساس تشغيل المحطة بحمل اساسى للنظم الثلاثة بمتوسط ٧٠٪ .

٧ - إن التكلفة الموضحة بالجدول لا تتضمن نفقات حماية البيئة . فبالنسبة للفحم قد تزيد التكلفة الرأسمالية بنحو ١٥٠ - ٢٠٠ دولار لكل KW قدرة مركبة اذا استخدمت المعدات اللازمة لتنقية غازات العادم من ملوث مثل ثانى اكسيد الكبريت وفى تلك الحالة يمكن أن ترتفع التكلفة الرأسمالية بنحو ٢٠٪ وهو ما يؤدى إلى زيادة التكلفة الكلية بنحو ١٠٪. ومؤدى ذلك أن الفحم الخالى من ذلك الملوث يمكن أن يتمتع فى سعره بعلاوة تصل إلى ٢٠ دولاراً للطن . أما تكلفة حماية البيئة من الاشعاعات المرتبطة بالتخلص من النفايات النووية أو من هيكل المفاعل غير المنقول بعد خروجه من الخدمة فما زالت موضع خلاف كما ذكرنا .

٨ - إن التنميط فى بناء المفاعلات النووية Standardization يتفوق اقتصاديا على بناء النموذج المتفرد Unique design فالنظام الفرنسى الذى يأخذ بالتنميط ويطلق عليه «نظام القافلة» لتماثل وحداته يتفوق فى تكلفته الرأسمالية بنسبة ١ إلى ٣ على النظامين الامريكى والانجليزى ، وكلاهما يقوم على التفرد فى التصميم تبعا لاختلاف الموقع .

٩ - إن توافر البنية الاساسية كالطرق ومستلزمات البناء فى موقع معين يساعد علي خفض النفقة الرأسمالية، بينما قد يؤدى افتقار الموقع لتلك البنية إلى مضاعفة التكلفة . ومن الامثلة الشائعة وجود فجوة كبيرة بين الكلفة

مفاعل نووي متوسط في مصر

الرأسمالية فى الدول النامية وبين نظيرتها فى الدول الصناعية المتقدمة التى تتوافر فيها البنية الاساسية . ويمكن ايضا ان نلاحظ مثل هذا الاثر نتيجة لاختلاف نسبة ما يدخل فى بناء المحطة من عمالة ومستلزمات محلية ، وكذلك نتيجة لتذبذب معدلات تحويل العملة المحلية إلى العملات الاجنبية اللازمة لاستيراد المكون الأجنبى فى المشروع والذى تمتد فترة انشائه إلى سنوات طويلة .

١٠ - كذلك تتأثر التكلفة بسعر الخصم أو معدل الربح الذى تحدده الجهة القائمة بالمشروع ويتأثر عادة بالفرصة البديلة لاستخدام رأس المال المتاح للاستثمار ، كما يتأثر بسعر الفائدة فى حالة الاقتراض ، وبغير ذلك من العوامل غير النقدية مثل التفضيلات والقيود الاجتماعية والسياسية والاقتصادية الحاكمة فى كل مجتمع .

وفى ظروف تتسم باللايقين حول اتجاه اسعار الوقود فى المستقبل ، أو مدى خطورة و تكلفة التخلص من المواد المشعة يغلب أن ترتفع درجة المخاطرة بالنسبة للطاقة النووية ويرتفع معها بالضرورة معدل الخصم والتكلفة الكلية بالتبعية .

(١١) لايدخل فى تقدير النفقات المقارنة ، وبالتالى لا يدخل فى أسباب التفاوت بين حديها الأعلى والأدنى ما ينتج عن اختلاف الكفاءة فى استخدام الوقود ، أو في كفاءة الإدارة والتنفيذ ، أو فى اختلاف أذواق المستهلكين وتفضيلاتهم . كذلك لايدخل فى تلك النفقات ولا فى أسباب تفاوتها نفقات نقل وتوزيع الطاقة الكهربائية والتي تصل في العادة إلى نحو ٥٠ - ٦٠٪ من نفقات التوليد فى موقع المحطة .

ولكن التفاوت بين الحدين الأعلى والادنى يعكس التفاوت الناتج عن : (أ) اختلاف الموقع ، حيث لوحظ فى الولايات المتحدة خلال السنوات الأخيرة أن التكلفة تتفاوت بنسبة ١ إلى ٥ نتيجة لاختلاف الموقع .(ب) اختلاف التكنولوجيا المستخدمة ، حيث تبين أن استخدام كل من فرنسا واليابان لنظام التنميط قد وضع النفقة فيهما قريبة من الحد الادني (ج) ادخال تعديلات اثناء بناء المفاعل : ومن الامثلة الحديثة على ذلك ارتفاع التكلفة الرأسمالية للمفاعل البريطانى Sizewell B خلال عامين من ١,٧ مليار جنيه استرلينى إلى ٢ مليار منهما حوالى ٢٠٠ مليون جنيه نتيجة لادخال تعديلات علي التصميم وادخال معدات اضافية أثناء التفيذ .(د) اضافة هامش معقول فى تقدير النفقات لمواجهة عوامل اللايقين Uncertainty اللصيقة بتقدير النفقات .

ونخلص مما تقدم إلى أن التكلفة الفنية للطاقة النووية قد لا تتفوق على نظيرتها فى حالة التوليد الحراري إلا إذا تجاوز سعر المازوت ١٠٠ دولار للطن

وسعر الفحم ٧٠ دولاراً للطن . ولا يدخل في تلك المقارنة نفقات تفكيك ودفن المفاعل بعد انتهاء صلاحيته كما لا يدخل فيها تكاليف التخلص من النفايات المشعة أثناء تشغيله .

انكماش الطاقة النووية :

بلغت القدرة النووية المركبة عام ١٩٦٢ نحو ٣٢٩ ميجاوات موزعة على ٤٢٤ مفاعلا في ٣٠ دولة وبذلك حلت الكهرباء النووية في عام ١٩٩٤ محل ما يمكن توليده باستهلاك ٥٧٣ مليون طن من النفط، وفي مواجهة عوامل الضعف التي اخذت تحيط بمسيرة الطاقة النووية، وخاصة بعد حادثي TMI وتشيرنوبل وبعد انهيار اسعار النفط عام ١٩٨٦ واستمرار تدهور تلك الاسعار من حيث القيمة الحقيقية ، اخذت الدول التي تحمست في البداية للطاقة النووية وتوسعت في بنائها تبطيء أو تلغي تنفيذ ما سبق اصداره من أوامر ببناء مفاعلات جديدة ، كما عمد البعض إلى وضع برامج للتخلص مما تم بناؤه وتشغيله بالفعل .

ففي الولايات المتحدة ، وكنتيجة لحادث TMI لم يصدر منذ ١٩٧٩ وعلى مدى ١٥ عاما ، امر ببناء مفاعل جديد ، كما توالى الغاء بعض الطلبيات التى سبق صدورها . كذلك اعيدت ، فى اعقاب TMI صياغة النظم والاشتراطات الحكومية . التى تمنح على أساسها التراخيص النووية بحيث صارت أكثر صرامة وابهظ كلفة، وهو ما انعكس فى ارتفاع التكلفة عموما. ولا ينفى ذلك أن الصناعة قد شهدت خلال تلك الفترة بعض التحسينات التكنولوجية التى خفضت النفقة فى بعض مكوناتها، ومن ذلك استخدام اسلوب الانتشار الغازى Gas-eous diffusion بدلا من اسلوب الطرد المركزى Centrifuge فى اغناء الوقود.

وفى الكتلة السوفيتية سابقا أدى حادث مفاعل تشيرنوبل فى ١٩٨٦ إلى تركيز الانظار على مخاطر المفاعل الذى تعرض للحادث وهو من نموذج RBMK الذى كان يمد الاتحاد السوفيتى بحوالى نصف الطاقة النووية المولدة فيه وينتشر أيضا فى دول شرق أوربا. كذلك تبين عند فحص المفاعل السوفيتى WER فى المانيا عقب توحيد شطريها، وهو المفاعل الذى كان يمد المنطقة السوفيتية بنحو٣٥٪ من الطاقة النووية، أنه غير آمن Un-safe. ومازالت الزوبعة التى اثارها تشيرنوبل تلاحق الصناعة من زوايا مختلفة، ومن ذلك وقف بناء ١٣ مفاعلا من المفاعلات الثمانية عشر التى كانت تحت الانشاء لحساب دول الكومنولث المستقلة.

وكانت اوربا الغربية من اسبق المناطق فى التوسع فى استخدام الطاقة النووية، حيث بلغ نصيبها فى عام ١٩٩٢ نحو ٣٦٪ من الطاقة النووية فى العالم، كما بلغ نصيب الطاقة النووية نحو ٤١٪ من اجمالى الكهرباء المولدة فى اوربا الغربية فى العام المذكور. غير أن مظاهر الانكماش النووى اخذت تظهر في اغلب دول اوربا الغربية بحيث لم يعد لأية دولة اوربية مفاعلات تحت الانشاء سوى فرنسا (٩ مفاعلات)، بل واتجهت بعض الدول إلى التخلص تدريجيا مما لديها بالفعل مثل السويد وسويسرا. كذلك اوقفت اسبانيا استكمال ٥ محطات نووية كانت قد صدرت الاوامر ببنائها، وتواجه الطاقة النووية معارضة قوية فى دول أوربية أخرى مثل المانيا وهولندا والنرويج وكانت بريطانيا من اسبق الدول فى أوربا الغربية

مفاعل نووى متوسط فى مصر

فى تنفيذ برنامجها النووى، ولكنها اخذت تتباطأ فى التنفيذ بعد اكتشاف النفط فى بحر الشمال وايضا نتيجة لضغط نقابات عمال الفحم الذى يستخدم فى توليد الكهرباء. وقد نجحت بريطانيا عام ١٩٨٨ فى خصخصة قطاع الكهرباء باستثناء قطاع الطاقة النووية الذى اخفق فى اجتذاب الاستثمارات المطلوبة لعدم قدرته على منافسة الطاقة المولدة بالمصادر التقليدية.

ويرتبط بما تقدم ما يثار من شكوك حول مدى كفاية احتياطيات اليورانيوم لمواجهة احتياجات العالم إذ يرى البعض أن الاعتماد على تكنولوجيا الجيل الحالى من المفاعلات، وهو المفاعل الحرارى المحول Converter سوف يؤدى إلى نضوب احتياطيات اليورانيوم خلال فترة قد لاتتجاوز أعمار المفاعلات العاملة حاليا وما هو تحت البناء، ومن هنا اتجهت بعض الدول الى تطوير المفاعل المولد السريع Fast breeder reactor وهو المفاعل الذى يولد من الوقود أكثر مما يستهلك منه إذ يرفع المستخدم من الوقود النووى بنحو ٦٠-٧٠ مرة مثل المفاعل الحرارى، ولكن تكنولوجيا المفاعل المولد السريع مازالت للآن أكثر تعقيدا وأشد خطورة وأعلى كلفة من المفاعل الحرارى ولذلك تكاد الدراسات تجمع على أن ذلك المفاعل لن يدخل الخدمة على مستوى تجارى واسع خلال المستقبل المنظور .

محاولات إحياء الطاقة النووية :

لم يستسلم انصار الطاقة النووية للهزيمة رغم ما حاق بها من انكماش. من هذا المنطلق بذلت ومازالت تبذل جهود حثيثة بقصد احيائها والدفاع عن دورها، ولو فى المستقبل البعيد، وسنحاول فيما يلى ان نرصد أهم مظاهر المساندة التى تلقاها تلك الصناعة فى الوقت الحاضر :

١- تتجه الجهود العالمية الى تحسين مستوى الامان فى المفاعلات النووية، والاعتماد على أسلوب التنميط Stan-dardization فى التصميم والتشغيل ووضع معايير متجانسة لنظم واشتراطات الامان، ومن ثم يمكن تحسين الاداء فنيا واقتصاديا. ومن ناحية أخرى تستهدف تلك الجهود تحسين كفاءة التمويل والادارة وذلك بتشجيع الشركات العاملة فى هذا المجال على الاندماج، أو اشتراك أكثر من شركة فى الوحدة النووية بدلا من اسنادها الي شركة واحدة. وقد أنشئ عدد من الهيئات المحلية والدولية للمعاونة فى تلك التحسينات ففى الولايات المتحدة انشئ معهد تشغيل الطاقة النووية INPO لدراسة مشكلاتها ووضع الحلول المناسبة لها. وفى أعقاب حادث تشير نوبل انشئت فى عام ١٩٨٩ الرابطة العالمية لمشغلى الطاقة النووية WANO وذلك بهدف تعظيم مستوى الامان فى جميع المفاعلات من خلال تبادل المعلومات والاتصالات بين اعضائها. ويساند هذه الجهود ما تبذله هيئات الطاقة النووية المحلية فى كل دولة وما تبذله أيضا الوكالة الدولية للطاقة الذرية IAEA والتى يحاول أعضاؤها توسيع اختصاصها فيما يتعلق بأمور السلامة والامان النووى.

٢- تضمنت سياسة الطاقة الامريكية التى أعلنت فى خريف ١٩٩٠ أن الطاقة النووية سوف تصبح مصدرا مهما من مصادر الطاقة فى الولايات المتحدة بحلول

عـام ٢٠٣٠، وان كـانت لم توضح كـيف سيتحقق هذا الهدف.

وقـد صـدر فى عـام ١٩٩٢ القـانون الذى تبنى سـيـاسـة الطاقـة الأمـريكيـة مـسـتـحـدثا نظامـا جـديدا لإصـدار التـراخـيص النووية وهـو مـا يؤدى إلى خفض المخاطر المالية وتحسين اقتصاديات المشروع النووى وتبدو أهمية هذا الاجراء فى حالة الولايات المتحدة إذ تتفاوت فيها التكلفة بنسبة واحد إلى خمسة نتيجة لاختلاف الموقع وللتفرد فى التصميم.

ومن ناحية أخرى يقوم معهد بحوث الطاقة الكهربائية EPRI فى الولايات المتحدة باعداد دراسة تستهدف تنميط المفاعلات وخفض نفقاتها. ويساند المعهد في جهده برنامج مفاعل الماء الخفيف المحسن ALWR الذى تتبناه كل من وزارة الطاقة الامريكية وصناعة الطاقة النووية.

٣- وفى خط مـواز للخط الامـريكى تقوم أوربا الغربية بتشجيع التنميط وتحسين نظم التشغيل. ومن ذلك ما يقوم به المشروع الفرنسى الالمانى المشترك Nuclear power international لتصميم وبناء الجيل الجديد من مفاعلات الماء الخفيف ويستهدف هذا المشروع بالاضافة الى التحسين التكنولوجى ازالة المنافسة القائمة حاليا بين مختلف المفاعلات الاوربية، وهو ما يؤدى الى تخفيف المخاطر وخفض النفقات، ومن ذلك ايضا ما يقوم به البرنامج الاوربى لمستلزمات شركات الكهرباء EUR مستهدفا توحيد نظم واشتراطات الامان فى كل الدول الاوربية . ومتى تحقق هذا الهدف ولقيت الشروط الموحدة قبولا عريضا فى اوربا الغربية أمكن اقناع دول الكتلة السوفيتية باستخدام معايير مماثلة وبصفة خاصة دول شرق ووسط اوربا التى تسعى للانضمام للاتحاد الاوربى.

ومن ناحية أخرى، فقد انتهت مفوضية الاتحاد الاوربى من اعداد تقرير شامل استغرق عدة سنوات ويعالج صناعة الطاقة النووية فى اطار السياسة العامة للطاقة فى الاتحاد الاوربى.

ويتضمن التقرير مشروع بروتوكول الطاقة النووية الذى سيلحق بميثاق الطاقة الأوربى European Energy Charter والذى يضم ٥٠ دولة من بينها دول الكتلة السوفيتية. كذلك يتضمن التقرير مقترحات لتحسين مستوى الامان فى مفاعلات المنطقة السوفيتية ويناقش أنواع المفاعلات التى ستستخدم فى دول الاتحاد الأوربى خلال القرن القادم.

٤- وتقف اليابان موقفا فريدا فى تبني الطاقة النووية والتوسع فى استخدامها ، وهو أمر يجد ما يبرره فى ارتفاع درجة اعتمادها على الاستيراد لتوفير احتياجاتها من الطاقة، وبصفة خاصة النفط الذى تستهدف خفض درجة اعتمادها عليه من نحو ٥٥٪ حاليا إلى ٤٧٪ بحلول عام ٢٠١٠.

ويلحق باليابان فى الاقبال على الطاقة النووية كوريا الجنوبية، وفرنسا التى قاربت أن تبلغ نقطة التشبع النووى، ثم عدد من الدول النامية مثل الهند وتايوان والبرازيل وكوريا الشمالية واندونيسيا ورومانيا وارمينيا، ولكن لا يتوقع أن يكون لحجم الطلب فى الدول النامية تأثير كبير فيما يتعلق بانعاش الصناعة بعد ان تخلى عنها كبار المستهلكين على نحو ما أوضحنا .



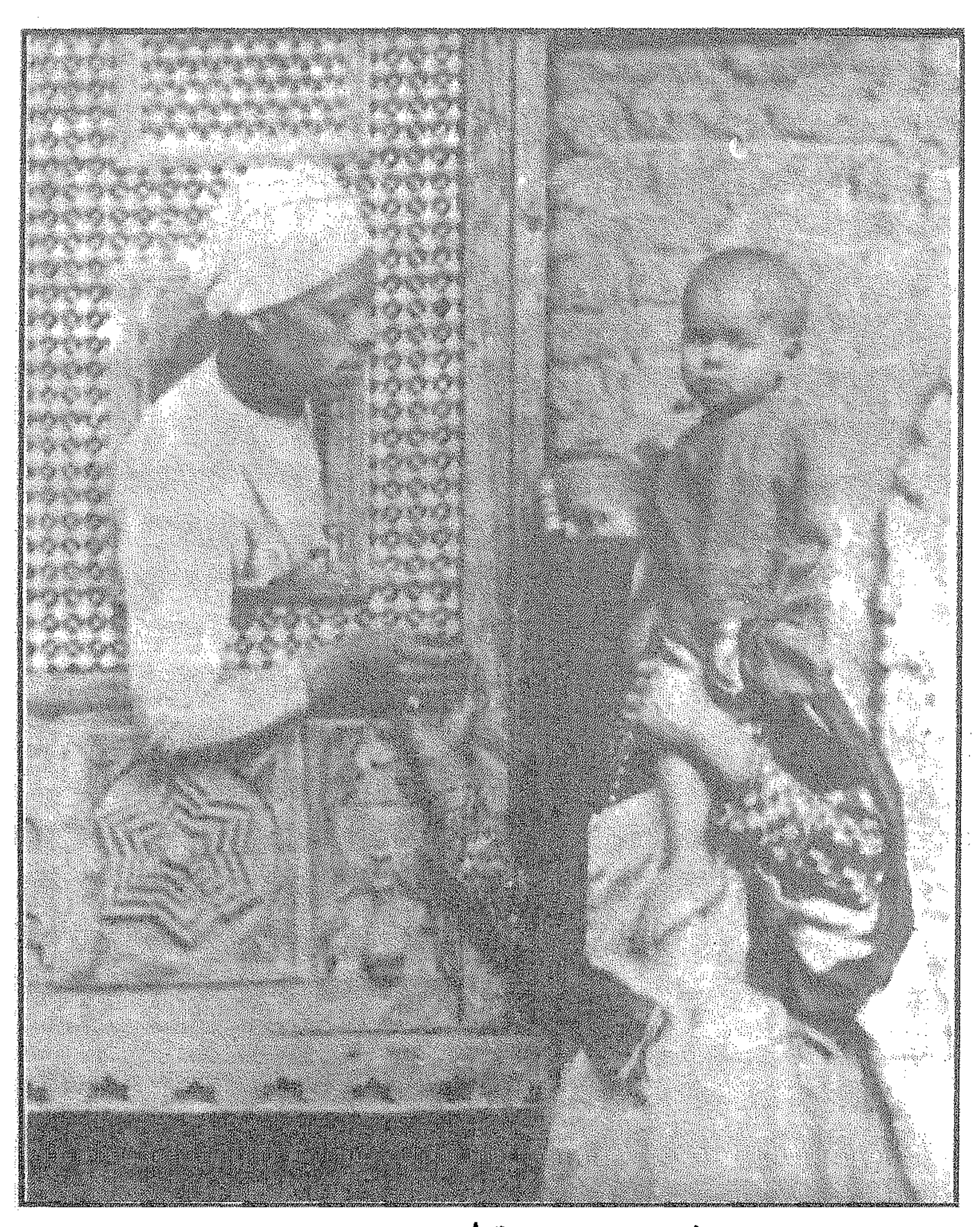
مصر في عام ١٩٠٠

بقلم: د. عاصم الدسوقي

يعد عام ١٩٠٠ حدا فاصلا بين القرن التاسع عشر والقرن العشرين. وفي هذا العام الذي اعتبره مجمع القرنين، كانت مصر تخلع رداء القرن التاسع عشر وتودعه، وتستقبل القرن العشرين في ثوب مختلف، تختلط فيه الألوان الجديدة بالألوان القديمة، وتتقاطع فيه الخطوط الرأسية بالافقية بالمتعرجة. وفي السطور التالية محاولة للتعرف على ملامح هذا الثوب بين العام المشترك والخاص المتفرد.

مع أواخر القرن التاسع عشر كانت بعض التحولات في مجمل الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية قد اكتملت، وأصبحت تمثل الملامح التي دخلت بها مصر عالم القرن

وفى مقدمة هذه التحولات تبلور طبقة اجتماعية من ملاك الأراضى الزراعية، من خلال عدة قوانين وقرارات خاصة بتنظيم الانتفاع بالارض الزراعية منذ أواخر عصر محمد على (١٨٣٧م) أنتهت مع أزمة الديون فى عصر إسماعيل بإقرار حق الملكية القانونية.. وكانت الشريحة العليا من هذه الطبقة (كبار الملاك) قد بدأت العمل السياسى بشكل محدود ومحدد فى إطار الحياة النيابية التى شجعها الخديو إسماعيل كركيزة له فى مواجهة التدخل الأجنبى فى إدارة البلاد.. ثم تعاظم هذا الدور بعد عزل إسماعيل وتعيين ابنه توفيق حاكما وعندها بدأت القوى الأجنبية وخاصة إنجلترا تسفر



لمسة حب علي طريقة أول القرن العشرين

عن حقيقة نياتها فى احتلال البلاد متكئة على مصالح الدائنين. وعند ذلك التقت مصالح العناصر المصرية داخل الجيش مع أصحاب المصالح الزراعية الجدد، وبدأت الحركة الوطنية التى عرفت بالثورة العرابية (١٨٨١ - ١٨٨٢) والتى انتهت بالاحتلال البريطانى.

كان الاحتلال البريطانى يعد إنهاء «استقلال» مصر الذى استطاع محمد على أن يحققه للبلاد بشكل أو بآخر منذ انفراده بالحكم ١٨٠٥، وعلى هذا بدأت المطالبة بالجلاء والاستقلال والمقاومة. وبعد فترة من التهدئة التى فرضتها ظروف الرقابة البريطانية على الحركة السياسية، وشعور المصريين بعمق مأساة الهزيمة ونفى الزعماء إلى سيلان بالهند، ظهر مصطفى كامل على مسرح الحياة الوطنية بشكل محدود وغير ظاهر فى عام ١٨٩٠ وهو لايزال بالمدرسة الثانوية من خلال صحافة المدرسة ومن خلال ما كان يبثه من مشاعر وطنية فى خطاباته إلى أصدقائه.. ثم بشكل معلن منذ عام ١٨٩٤ فى فرنسا ومصر من خلال اللقاءات مع رجال السياسة فى عصره، ومن خلال الخطب السياسية فى كافة المنتديات والتجمعات.

● تناغم بين الوطنية والسلطة

وفى عام ١٨٩٨ والقرن التاسع عشر يوشك على المغيب التقى مصطفى كامل بالخديو عباس حلمى الثانى حاكم البلاد، فأصبح للحركة الوطنية بعد متفرد ومغاير عن طبيعتها أيام أحمد عرابى، إذ توحدت المشاعر بين الزعامة الوطنية الممثلة فى مصطفى كامل وبين قيادة البلاد الممثلة فى الخديو الحاكم، وذلك على عكس التنافر الذى كان قائما بين أحمد عرابى والخديو والذى نفذت من خلاله القوى الأجنبية إلى مصر.. وكان الخديو عندما تولى الحكم فى ١٨٩٢ وهو فى ريعان الشباب قد راعه أن يرى الإنجليز وقد سيطروا سيطرة تامة على الإدارة فى البلاد، فاعتزم أن يضع حدا لهذا الأمر.. ومن هنا وجد فى مصطفى كامل الذى كان فى عمره (ولد الاثنان فى عام ١٨٧٤) ضالة منشودة يتكىء عليه فى مقاومته للاحتلال البريطانى.. ورغم أن مصطفى كامل قطع علاقته بالخديو بعد الوفاق الودى بين بريطانيا وفرنسا



صورة من شرفة القصر للخديو عباس (من اليسار) والأميرة خديجة اسماعيل والامير محمد على

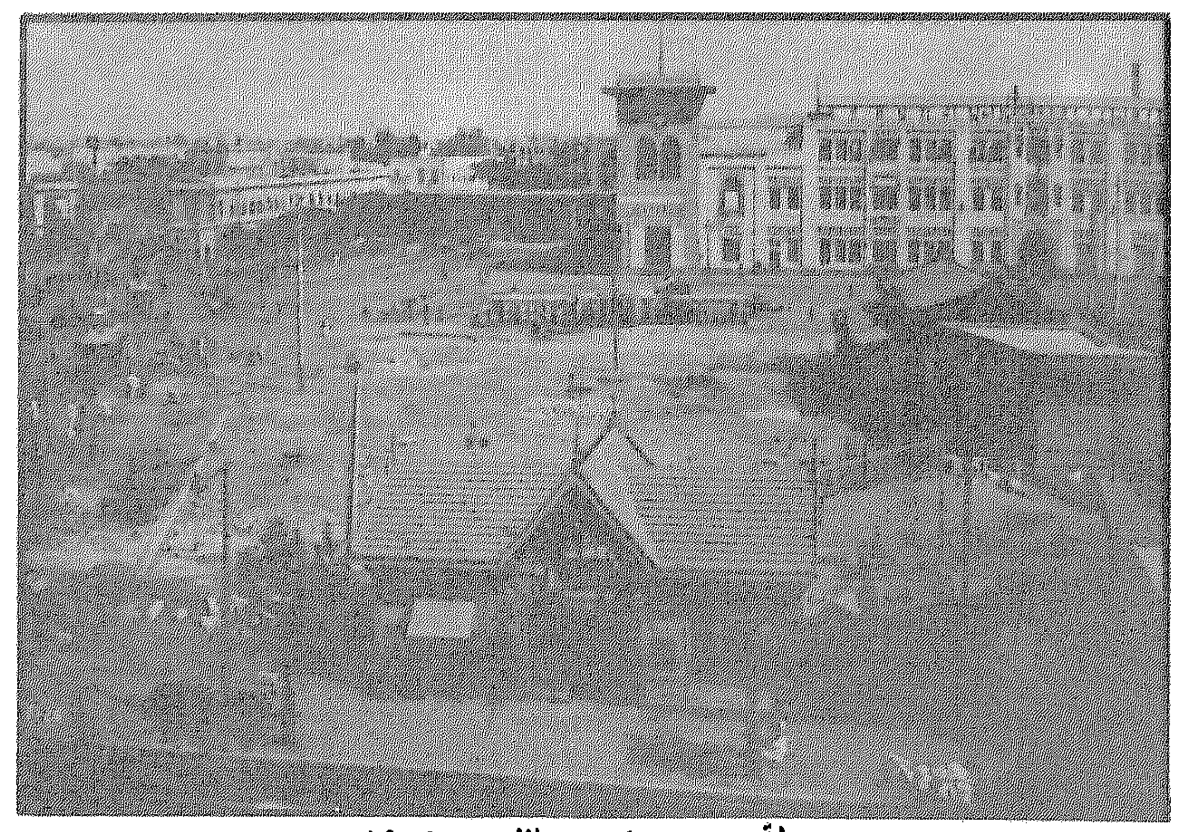
١٩٠٤ وتخلي الخديو عن فكرة المقاومة، فإن ما يعنينا فى هذا الخصوص ان مصر دخلت القرن العشرين والتناغم قائم بين صوت الوطنية ممثلا فى مصطفى كامل وسلطة الحكم الممثلة فى الخديو عباس حلمي ضد الاحتلال البريطاني.. وفى الوقت نفسه كانت الحركة الوطنية ترى فى فرنسا حليفا طبيعيا لها بسبب التناقض الفرنسى البريطاني حول السباق الاستعمارى.. ومثلما كان مصطفى كامل يستند إلى فرنسا، فقد كان يرى فى الدولة العثمانية أيضا سندا قويا، وكان قدرها عنده عظيما إذ قال فى أبريل ١٨٩٧ «أنه وإن كان المصرى لا يعرف إلا وطنا واحدا وهو مصر فمن الأمور الطبيعية المحضة أن يساعد المصريون جيش دولة الخلافة ويظهروا بذلك امتنانهم لها لأنها لم ترد أن تكون آلة فى يد الإنجليز».

وفى عام ١٩٠٠ كان مصطفى كامل قد أنشأ جريدة اللواء اليومية وكذا مجلة اللواء الشهرية. كما ألقى أشهر خطبه السياسية بتياترو زيزنيا بالإسكندرية (٢ يونية ١٩٠٠) والتى شرح فيها الحالة السياسية فى مصر وشحذ عزيمة المصريين بالنضال من أجل استقلال الوطن.

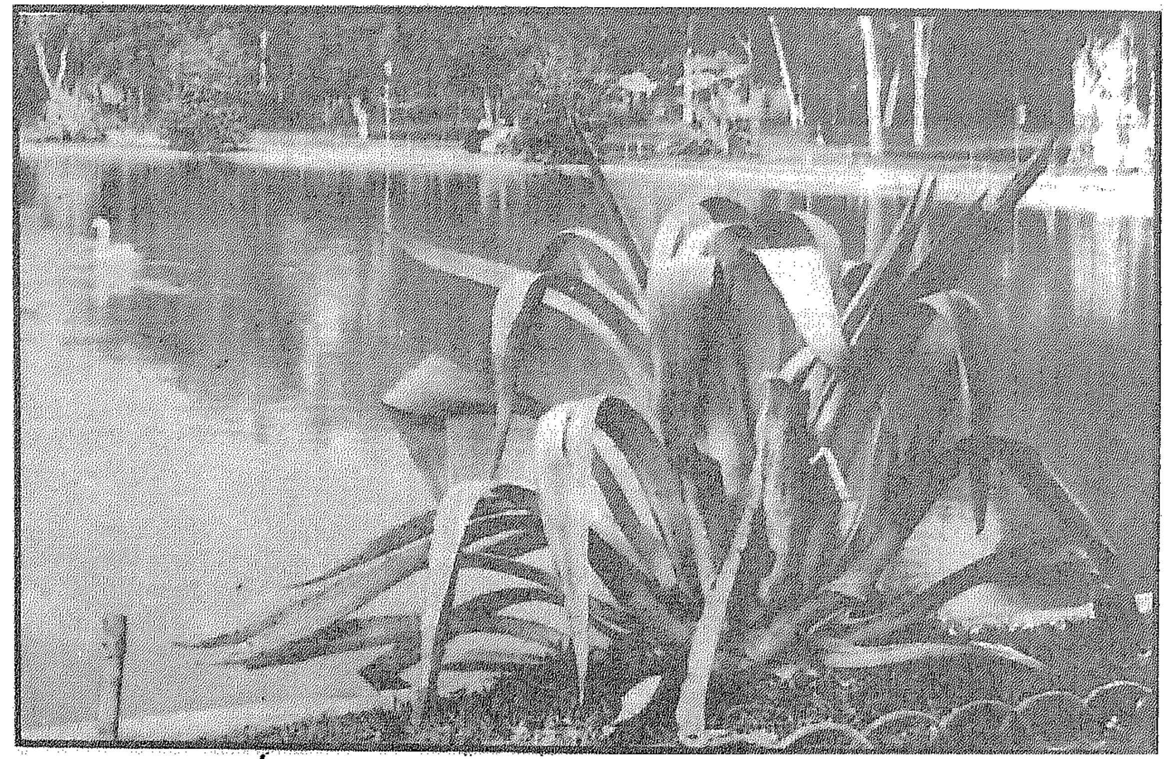
وبتأثير ثقافة مصطفى كامل القانونية اصطبغت الحركة الوطنية بالصبغة القانونية التى كان أصحابها يرون أن الإحتلال الإنجليزى لمصر إجراء غير قانونى ويطالبون من ثم بتطبيق القانون دون ادراك ان الاحتلال إجراء غير مشروع أصلا.. ويجب الا ننسى أن مصطفى كامل التحق بمدرسة الحقوق لأنها تعلم الإنسان حقوق الأفراد والأمم.. وقد امتد تأثير هذه الصبغة على الحركة الوطنية حتى ثورة ١٩١٩.

مجلس شوري القوانين

ولقد نمت هذه الحركة بطبيعة الحال خارج إطار المؤسسة التشريعية فى مصر والتى كانت تخضع آنذاك لارادة المعتمد البريطاني. والحقيقة أن الاضطرابات السياسية التى وقعت فى مصرمنذ ١٨٧٩ وحتى وقوع الاحتلال قد عصفت بمجلس شورى النواب الذى كان إسماعيل قد أنشأه فى ١٨٦٦ وكان بمثابة الظهير للثورة العرابية ضد التدخل الأجنبى.. وفى أعقاب الاحتلال وحتى لا تبدو بريطانيا



محطة مصر .. كوبري الليمون ١٩٠٤

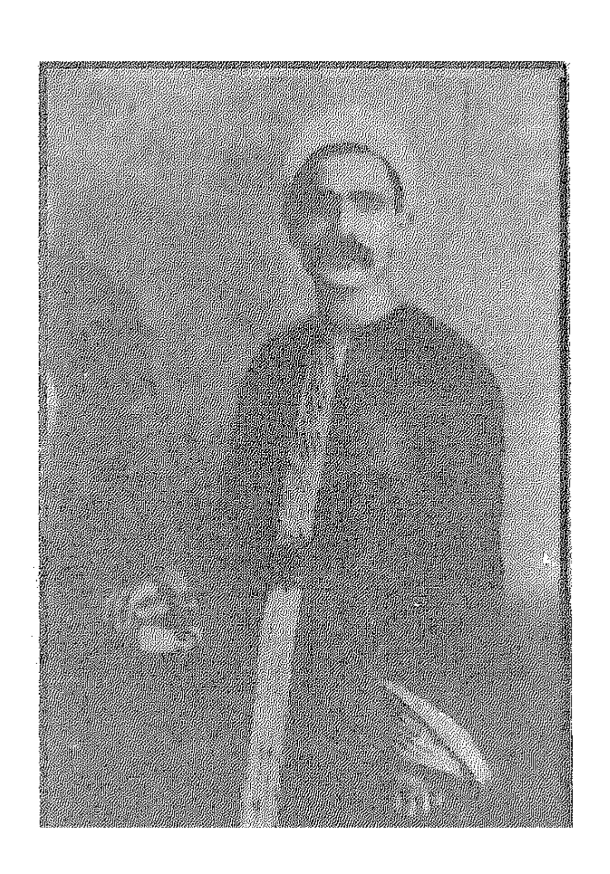


حديقة الازبكية فى أوائل القرن الحالي

«الديمقراطية» معادية للديمقراطية فى مصر، بادرت بإنشاء مجلس شورى القوانين فى العام التالى للاحتلال (أى فى ١٨٨٣) كان نصف أعضائه بالتعيين (١٦ عضوا من ثلاثين عضوا). ولم يكن لهذا المجلس كما يبدو من اسمه، سلطة قطعية فيما يعرض عليه من الشئون، بل أكثر من هذا تميز دور انعقاده لمدة عشر سنوات تقريبا (حتى ١٨٩٢) بالخضوع التام والاستسلام للإرادة البريطانية.. ثم بدأت الحياة تدب فى المجلس نسبيا مع تولى الخديو عباس الثانى الحكم وتبنيه للروح الوطنية، وإن كانت على استحياء ودون تشدد، إذ بدأ المجلس يعارض تقارير الموازنة العامة التي يضعها المستشار المالي الإنجليزي ويعارض اقرار نفقات جيش الاحتلال، وإن كان يقر كل الأمور فى النهاية.. ويبدو أن هذه المعارضة كانت بتأثير رئيس المجلس إسماعيل باشا محمد (رئاسته من ١٨٩٨ - ١٩٠٢) الذى كان من خاصة أصدقاء مصطفى كامل.

والواقع أنه مع نمو طبقة ملاك الأراضى الزراعية وقيادة الشريحة العليا منها للعمل السياسى كانت ثمة طبقات اجتماعية أخرى تتبلور وتتشكل بتأثير مجمل التحولات الاقتصادية التى شهدها المجتمع المصرى خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر فبعد القضاء على سياسة الاحتكار التى أقامها محمد على ، أصبح المنتج المصرى حرا فى العملية الإنتاجية وفى التصرف فى منتجاته، وانفتحت السوق المصرية أمام رأس المال الأجنبى . وكان لهذا التحول تأثيره على طبيعة الشرائح الاجتماعية التى كانت قائمة فى ظل قاعدة الاحتكار، إذ تدهورت طوائف الحرف ولم تستطع منافسة الواردات الأجنبية ، واستقطبت عناصرها للعمل فى مشروعات رأس المال الوافد ، بل لقد ألغيت الطوائف كتنظيمات مهنية فى عام ١٨٩١ ، وانشطرت الطائفة إلى شريحتين: شريحة تضم أصحاب المشروعات (النقابة المهنية)، والأخرى تضم العمال (النقابة العمالية) .

وكانت الشريحة الأولى تمثل بذرة طبقة أصحاب رءوس الأموال التى نمت فيما بعد والتحق بها المغامرون من الأجانب الذين وفدوا مع مناخ (الانفتاح) وكونوا شركات صناعية



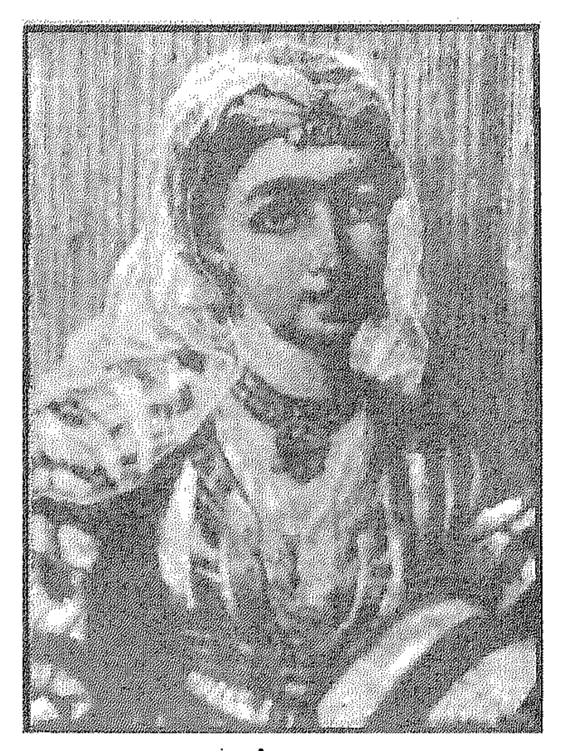
الشيخ سلامة حجازي



الخديو عباس حلمي الثاني



مصطفى لطفي المنفلوطي



المطربة ألمظ

وتجارية وزراعية وبنوكا للتمويل وتجميع المدخرات وقد ضمت هذه الطبقة نسبة كبيرة من كبار ملاك الأراضى الزراعية من المصريين الذين بدأوا فى نقل جزء من ريع الأرض إلى مجال الاستثمارات التجارية والصناعية .

أما الشريحة الثانية من طائفة الحرفة فقد أصبحت تمثل أساس طبقة العمال الصناعيين من الصبية والأسطوات ، وكانت تتسع تدريجيا بفعل تركز رأس المال.

كما بدأت الطبقة الوسطى تتكون بفعل سياسة التعليم المدنى الحديث وتوظيف المتعلمين ، وأصبحت تضم المهنيين من المتعلمين وكذا الموظفين.

● تمصير الوظائف

وعند نهاية القرن التاسع عشر كان دور الأتراك فى مستويات الإدارة والسياسة والذى كان قائما فى مصر منذ فجر الغزو العثمانى يقترب من الانتهاء وذلك من خلال سياسة تمصير الوظائف التى بدأها محمد على ووسع الخديو إسماعيل دائرتها، ومع إحلال اللغة العربية محل التركية فى الدواوين ونمو الطبقة الوسطى من المتعلمين المصريين وتوقف ورود عناصر تركية من الأناضول ، ازدادت العناصر التركية فى مصر تمصرا وانتهى وجودها كطبقة متميزة وذاب أفرادها فى طبقات المجتمع المصرى كل حسب موقعه .

وقبيل أن ينتهى القرن التاسع عشر كانت مصر قد بدأت سياسة تحرير الرقيق حيث تم تحرير أكثر من عشرين ألف عبد عند نهاية القرن . وقد أفاد هذا التحرير سوق العمل الحر مع تغلغل الاستثمارات الأجنبية .

والحق أن الطبقات الاجتماعية الجديدة فى مصر قد استوعبت فى صفوفها عناصر غير مصرية بتأثير حرية انتقال الأجانب إلى مصر مع انكسار سياسة الاحتكار الاقتصادى وقد كان لهذا تأثيره على حركة هذه الطبقات التى كانت نهبا لعدة ولاءات وفى نهاية القرن كانت مصر قد عرفت طريق الاضرابات العمالية فى المؤسسات التى كانت تضم الأجانب بشكل أساسى وعرفت أسلوب المواجهة الطبقية .

أما من الناحية الثقافية فقد كانت مصر فى عام ١٩٠٠ (عام مجمع



صحن الجامع الأزهر

الدفعة الأولي من مدرسة السنية والصورة تضم التلميذة نبوية موسى



القرنين) تزخر بصفوة من المثقفين من رجال الأدب والسياسة والعلم والفن وكان هذا بتأثير المناخ الفكرى الذى أشاعه الخديو إسماعيل . فمن المعروف أن إسماعيل بعث النهضة العلمية من مرقدها فأحيا التعليم المدرسى بمختلف مستوياته وكان قد تجمد فى أعقاب القضاء على تجربة محمد على وأخذ فى التدهور حتى لقد وصف خلفاؤه بكراهيتهم للعلم والتعليم . وبادر إسماعيل بإعادة ديوان المدارس وأعاد سياسة البعثات ، وشجع إنشاء الجمعيات العلمية والأدبية ، وشجع إنشاء الصحف وقد أدت هذه المؤسسات دوراً فعالاً فى تنمية المجتمع المصرى ثقافيا وسياسيا .

وعلى هذا ففى عام ١٩٠٠ كانت هناك عدة مدارس عالية وثانوية وابتدائية وصناعية ومدارس للبنات، ومدارس أوربية لأبناء الإرساليات الدينية. ومن الهيئات العلمية التى كانت قائمة فى ذلك العام: المجمع العلمى الذى كان قد أنشىء أيام الحملة الفرنسية، وجمعية المعارف لنشر الثقافة من خلال التأليف والطباعة والنشر، والجمعية الجغرافية للعناية بالأبحاث الجغرافية والعلمية وتدوينها ونشرها .

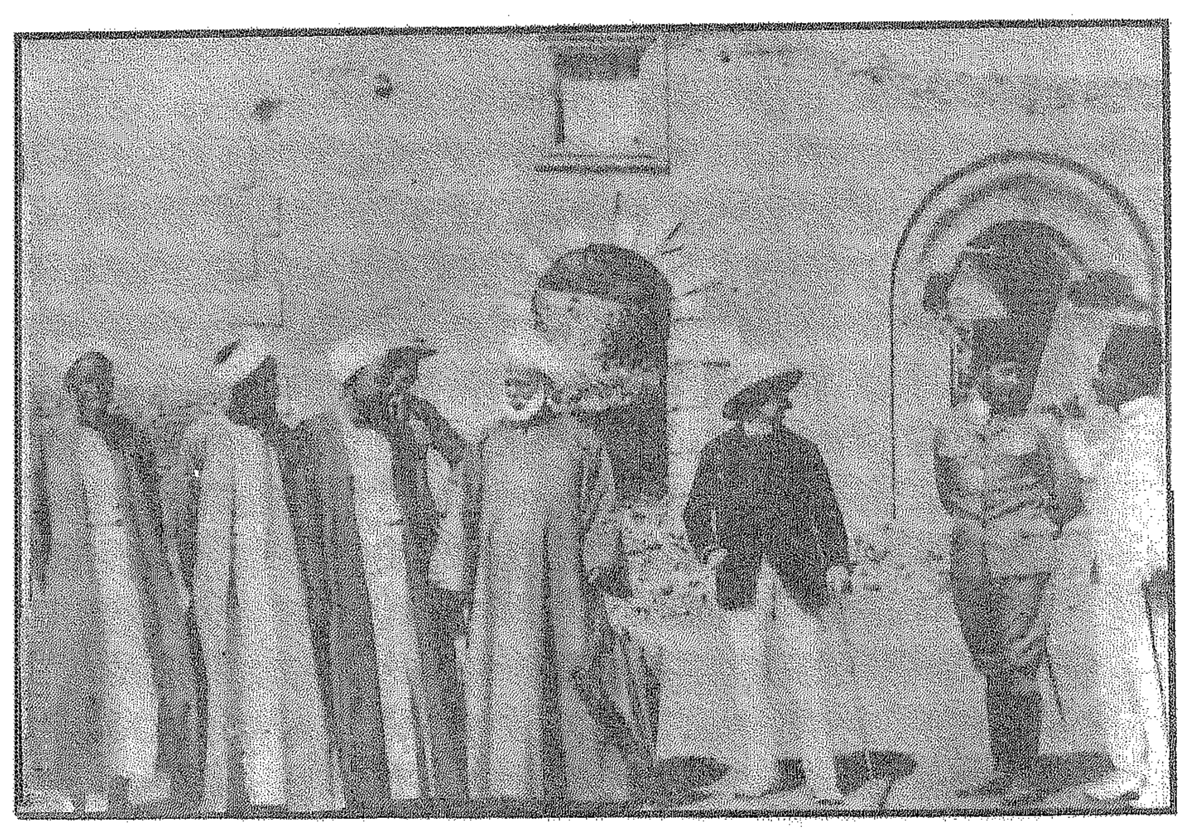
● منابر سياسة فكرية

وبتأثير المناخ الثقافى الذى أوجده إسماعيل عرفت الصحف العلمية والأدبية والسياسية طريقها إلى مصر وقد تولاها نخبة من العلماء والأدباء المصريين والسوريين. وكان أبرز هذه الصحف فى عام ١٩٠٠: الأهرام، والوطن، والكوكب المصرى، ومرآة الشرق، والمقتطف، والمؤيد والهلال، والمقطم، واللواء، وأبو نضارة.. فضلا عن الوقائع المصرية. وكانت جميعها بمثابة منابر سياسية وفكرية التقت على صفحاتها مختلف التيارات الفكرية والسياسية التى كان لها دورها فى إنضاج الشخصية المصرية ووضعها على عتبات القرن العشرين .

وبدأ المثقفون العائدون من البعثات يفرضون وجودهم على ساحة الحياة الفكرية وقد تأثروا بطبيعة الحال بالحياة الأوربية التى أطلوا عليها من حيث حرية الرأى فى ظل حياة نيابية دستورية كانوا يتطلعون إليها فى بلادهم المحتلة . وقد وجد هؤلاء طريقهم إلى الصالونات الفكرية

نساء المدينة جئن من الريف فى أوائل القرن

الشيخ محمد عبده فى اسوان عام ١٩٠٠



والمنتديات الأدبية التى انتشرت فى مصر خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر، من ذلك صالون لطيف سليم باشا ، ومنتدى السيد البكرى وصالون أحمد تيمور وصالونات السيدات عائشة التيمورية والأميرة نازلى هانم فاضل والأميرة الكسندرة وعلى يد هؤلاء المثقفين تمت عملية نقل الأعمال الفكرية الأوربية إلى اللغة العربية بما تحمله من رؤى وأفكار وقيم.

وبتأثير هذا المناخ الثقافى والفكرى كانت مصر فى عام ١٩٠٠ قد قطعت شوطا عظيما فى رحلة الاستنارة وكانت كتابات مدرسة الطهطاوى خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر قد ملأت الأسماع وأحدثت تراكما معرفيا بدرجة ملحوظة . وكانت الكتب ومقالات الصحف وأحاديث المنتديات الأدبية تدور حول النظرية السياسية وسلطات الدولة، والتعريف بأنواع الحكومات، والفصل بين السلطات، والحقوق المدنية ، والفرق بين الحاكم المقيد والحاكم المطلق، وأفكار التسامح الدينى ، وإمكانية أن يكون العقل مصدرا للحكم، وكتابات عن العدل والاستقرار بين الناس واعتبارهما معيار الحكم الصالح، وارتباط أخلاق المحكومين بأخلاق الحكام فى اعتلالها واستقامتها (راجع هنا كتابات الطهطاوى: تخليص الإبرين، ومناهج الألباب، وأيضا كتابات على مبارك فى علم الدين ، ونخبة الفكر).

كما كان البحث فى وحدة التاريخ المصرى واستمراريته رغم تعاقب الشعوب الوافدة والغازية قد بدأ قبيل أن ينتهى القرن التاسع عشر بسنوات قليلة (راجع كتاب اتربى أبو العز: الدر المنتخب فى تاريخ المصريين والعرب ١٨٩٤ ، وكتاب ميخائيل شاروبيم : الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث ١٨٩٨-١٩٠٠).

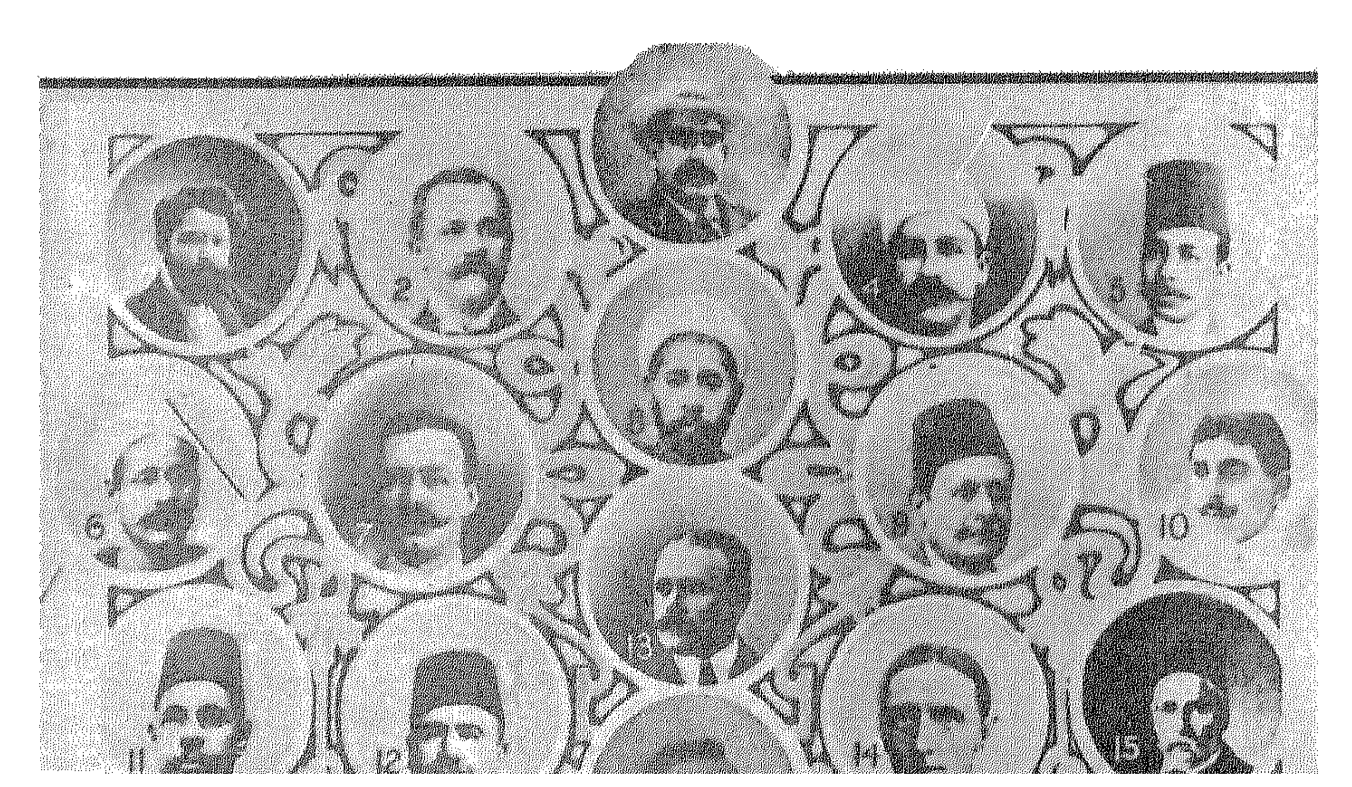
● الهوية المصرية

وفى تلك الفترة كان الجدل محتدما بين عدة مفاهيم وشعارات حول الهوية المصرية والشخصية الوطنية .. وهل يكون للوطن عقيدة واحدة يلتزم بها الجميع .. وأهمية أن يعيش الجميع فى تسامح فى ظل وئام وطنى. ولقد كان السبب المباشر لهذا الجدل المثير شعار الجامعة الإسلامية الذى أطلقه جمال الدين الأفغانى وتلقفه السلطان

عبدالحميد ووظفه سياسيا فى إطار صراعه مع الغرب الأوربى (المسألة الشرقية). ومن الكتابات التى كانت ملء الأسماع والقرن التاسع عشر فى نهاياته ما كتبه أحمد لطفى السيد الذى رفض تأسيس الوطن على مذهب دينى واحد وقال إن الدين ليس بكاف وحده ليجمع بين الأمم إذ لايجمع بين الناس سوى المنافع ، وإن دار الاسلام ليست للمسلم بوطن ذلك أن وحدة الاعتقاد الدينى ليست كافية لإقامة التضامن الوطنى (المؤيد ١٨٩٢)، وشاركه فى هذا الرأى الشيخ على يوسف فى جريدة الآداب قبل أن يصدر جريدة المؤيد .

وقد طرح آخرون البديل المتمثل فى حرية المعتقد واختياره لأن الدين مرجعه إلى يقين صاحبه إذ كان للناس اختيار حتى فى أشد البلدان استبدادا (أخنوخ فانونس فى جريدة مصر ١٨٩٦) . ومن ناحية أخرى تم التأكيد على أن المصريين من ذرية واحدة ، وأن المسلمين منهم ليسوا إلا أقباطاً اتخذوا الإسلام دينا لهم (المؤيد ١٨٩٤)، وهو ما قاله مصطفى كامل نفسه فى ١٨٩٧ حين أكد أن القسم الأكبر من مسلمى مصر مصريون من

مجموعة من أبرز الصحفيين فى مصر . يظهر فى الصورة مصطفى كامل والمنفلوطى والشيخ على يوسف وعبد العزيز جاويش و د. صروف صاحب جريدة المقطم وصحفيون أجانب عملوا فى الصحف المصرية الناطقة باللغات الأوربية



نسل الفراعنة الأولين، وأن اعتناق الإسلام لايغير الدم المصرى .

ومن ناحية أخرى اقترب دعاة التنوير من الوضع المتدنى للمرأة فى مجتمع القرن التاسع عشر الذى كان مجتمع الرجل ، وتكلموا كثيرا عن حقوقها كفرد فى إطار الجماعة وحريتها التى يجب ألا تتجزأ ومساواتها بالرجل . وهكذا .. والقرن التاسع عشر آخذ فى الانتهاء ومن وحى مناخ فكر الاستنارة كتب قاسم أمين مجموعة مقالاته فى جريدة المؤيد عام ١٨٩٩ والتى نشرها فى كتابه الشهير «تحرير المرأة».

فى هذا المناخ الثرى ظهرت شخصيات مرموقة فى عالم السياسة والأدب والفن كانت تمثل وصلة بين الأجيال ومدخلاً لعالم القرن العشرين ويكفى أن نذكر أنه فى عام ١٩٠٠ كانت الناس تردد أسماء مصطفى كامل باعث الروح الوطنية، وأحمد لطفى السيد، وسعد زغلول وكان قاضياً بمحكمة الاستئناف ومن رواد صالون نازلى فاضل، وقاسم أمين، والشيخ محمد عبده أكتب العلماء وأعلم الكتاب كما وصفه لطفى المنفلوطى فى مختاراته، وإبراهيم المويلحى أستاذ المدرسة الحديثة فى الأدب، وعائشة التيمورية طليعة اليقظة النسوية كما وصفتها الأديبة مـي، ومحمد طلعت حرب رجل الاقتصاد، وأحمد شوقى، وحافظ إبراهيم، وإسماعيل باشا صبرى (وكيل وزارة الحقانية ١٨٩٩)، وأحمد محرم نابغة البحيرة كما وصفه مصطفى كامل.

وفى مجال الموسيقى والغناء والتمثيل كانت دار الأوبرا قائمة، وكذا المسرح الكوميدى بالأزبكية ومسرح زيزنيا بالأسكندرية .

وهكذا .. دخلت مصر القرن العشرين وهي تقاوم الاحتلال البريطاني سياسيا من خلال حياة نيابية غير مكتملة ، وبأقلام نخبة من المثقفين الذين حملوا لواء العقل وأشاعوا فكر الاستنارة في الصحافة والجمعيات والمنتديات للتأكيد علي تحرير العقل ، وتحرير الإنسان ، وتحرير المرأة ، ووحدة الوطن . وكانت تلك الشخصيات منارة هادية لجيل القرن العشرين .



اسكندر فرح

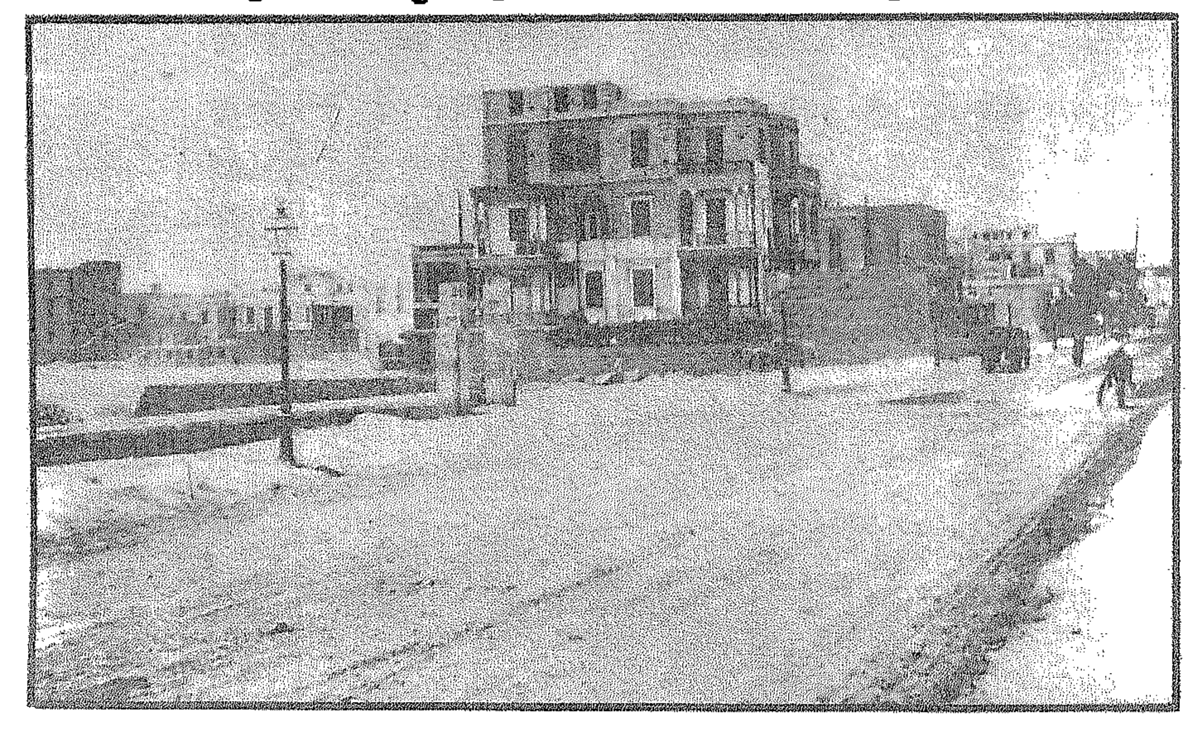


زوجة قاسم أمين



مدام ميشيل اول
محامية مصرية

شارع عباس الذى تحول بعد ذلك إلى شارع الملكة نازلى



صناع القرن العشرين

جزء خاص

رجل القرن

سعد أم عبد الناصر ....؟

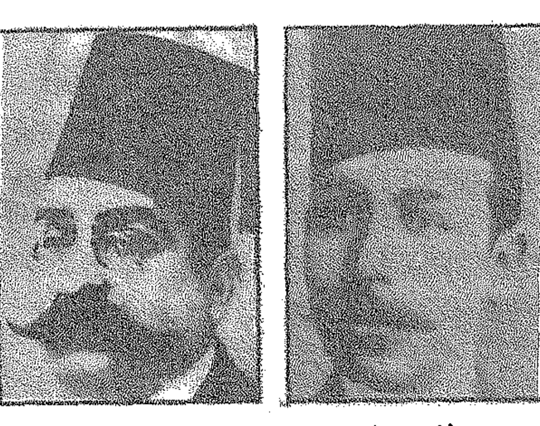
بقلم

د. يونان لبيب رزق



..والقرن العشرون قد آذنت شمسه على مغيب. وبينما ينكب باحثو المستقبليات على استشراف آفاق القرن الجديد.. الواحد والعشرين، فإن الباحثين فى التاريخ ينقبون فى أوراق القرن الراحل باعتبارهم باحثين عن الماضى. هذا من جانب. ولضرورة عملهم للمتطلعين للمستقبل الذين يؤسسون تصوراتهم على مجريات هذا الماضى، من جانب آخر.

والتنقيب فى أوراق الماضى فى مصر، وعلى امتداد نحو مائة عام يفرز مجموعة لا تنتهى من صور الرجال الذين صنعوا المسار التاريخى العام لهذا القرن.. بعضهم بقبعات وآخرون بعمائم أو طرابيش وآخرون بكابات (!)، الأمر الذى يتوجب البحث عن جملة من المعايير يتم من خلالها اختيار ما آثرت «الهلال» أن تسميه برجل القرن!





مصطفى كامل — محمد فريد

أول هذه المعايير تتصل بادراك البديهية التى قد يتغافل عنها حتى بعض العاملين فى حقل البحث التاريخى وهى أن عظمة الشخصية ترتبط فى العادة بقدرة صاحبها على استيعاب معطيات العصر الذى عاشه و'تلاؤم معها من جانب. وقيادتها من جانب آخر. مما يجعله فى النهاية صانعا لحركة التاريخ وليس لمجرد ترس من تروسها!

المعيار الثانى أن يكون الحكم على هذه الشخصية فى إطار عصرها فلا نطلب من عرابى أن يكون مصطفى كامل ولا نطلب من سعد زغلول أن يكون جمال عبدالناصر. فلكل عصر رجاله ولا يعرف التاريخ ذلك التوصيف الذى أطلق على المفكر والسياسى الانجليزى المشهور. السير توماس مور.. توصيف «رجل لكل العصور»!

معيار أخير متصل بسابقه فإن المفاضلة بين من يمكن أن نوصفهم برجال القرن لا تتطلب بالضرورة تغليب شخصية على أخرى وهى آفة من آفات السياسة انتقلت لسوء الحظ لكتابات المؤرخين مما خلق تناحرا ظاهرا بين حقب العمل الوطنى المصرى.

فالحركة الوطنية التى تنامت ضد الاحتلال أواخر القرن الماضى ومطلع القرن الحالى، والتى قادها كل من مصطفى كامل ومحمد فريد قد أدانت بشدة عرابى ورفاقه تأسيسا على سببين:

أولهما : أن سوء إدارة هؤلاء للعمل الوطنى هو الذى أفضى فى النهاية الى وقوع البلاد تحت هيمنة الاحتلال البريطانى . وثانيهما: الموقف المتخاذل الذى اتخذه زعيم الثورة خلال فترة منفاه فى جنة آدم المسماة بجزيرة سيلان. حين بعث بخطاباته المتتالية للملكة فيكتوريا يلتمس منها العفو. الأمر الذى انعكس على استقباله فى محطة القاهرة بعد أن عاد الى ارض الوطن حيث لم يجد فى انتظاره الا بضعة أفراد لا يزيدون على أصابع اليدين!

دام هذا التناحر بعد طى صفحة الحركة الوطنية السابقة على الحرب العالمية الأولى، بوفاة زعيمها الأول مصطفى كامل (١٩٠٨) وبعده محمد فريد الذى توفى فى المنفى (١٩١٩) فى نفس توقيت اشتعال الثورة المصرية الشهيرة ، وكانت مصادفة غريبة، وإن كانت لها دلالات، ويبدأ أهم تلك الدلالات فى حالة التواصل التى عرفتها الحركتان.

ولم يأت الرفض هذه المرة من الحركة الوطنية الوليدة التى احتفت احتفاء ظاهرا بعودة جثمان محمد فريد من المنفى وإنما جاء من الزعامات الجديدة للحزب الوطنى، أحمد لطفى ثم حافظ رمضان التى ارتأت أنها قد قدمت التضحيات والوفد قطف الثمار.

وقد بدا هذا الرفض فى مسلك الحزب الوطنى بطول الفترة الممتدة حتى عام ١٩٥٢، حين تحالف مع كل القوى المعادية للوفد بدءا من القصر فى عهدى، فؤاد

وفاروق. ومرورا، بعهد صدقى بكل ما عرف عنه من سوء سمعة، وانتهاء باستخدام ثورة يوليو فى سنيها الأول لبعض شخوصهم، كان أشهرها سليمان حافظ، للقضاء على ما تبقى من الوجود الوفدى.

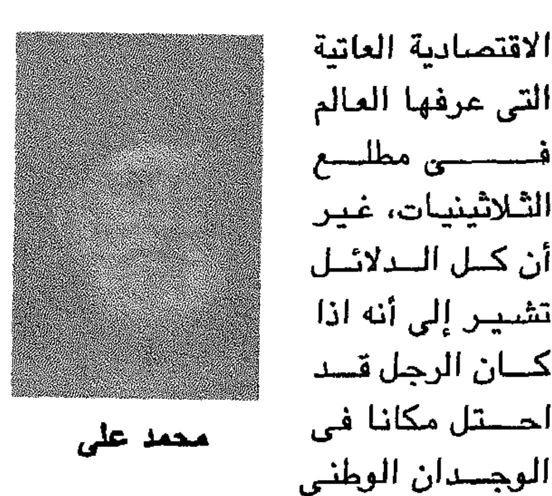
لعل ذلك يقودنا للحركة الوطنية فى مرحلتها الأخيرة.. حركة ما بعد يوليو عام ١٩٥٢ والتى قام زعماؤها بكل الوسائل بنفى وجود الآخرين. خاصة الحركة الوطنية فى مرحلتها السابقة، ومعلوم أن بعضا من ضيقى الأفق من رجالها كانوا كثيرا ما يرددون هذه المقولة الآثمة فى حق التاريخ وهى أن «تاريخ مصر قد بدأ عام ١٩٥٢»، وهى مقولة عانى منها كثيرون من المشتغلين بالكتابة التاريخية. وإن كان قد استثمرها آخرون من هؤلاء المشتغلين!

تأسيسا على كل هذه المعايير يمكن ان ننطلق بحثا وتنقيبا عن رجل القرن فى مصر.

★ ★ ★

مصطفى كامل. سعد زغلول ، جمال عبد الناصر، يكاد يتفق المؤرخون على أنهم يشغلون مكانة متميزة فى الوجدان الوطنى العام للمصريين، وإن لم يكن هذا رأى بعض المشتغلين بالكتابة التاريخية!

بعض هؤلاء يختارون اسماعيل صدقى باعتباره شخصية متميزة لم تسع الى تملق مشاعر الجماهير. وانه نجح فى ذات الوقت من خلال سياسة عملية محددة أن يخرج بمصر سليمة من الأزمة الاقتصادية العاتية التى عرفها العالم فى مطلع الثلاثينيات، غير أن كل الدلائل تشير إلى أنه اذا كان الرجل قد احتل مكانا فى الوجدان الوطنى المصرى، فقد كان فى البقعة المظلمة من هذا الوجدان!



محمد على

البعض الآخر يغلب الاعتبار الاقتصادى على اختياراته فيضع رجل البنوك الشهير طلعت باشا حرب فى مكان الصدارة، ومع أن تلك الشخصية كانت ، ولاتزال ، تحتل مساحة واسعة من الوجدان الوطنى المصرى، ومع إنه لم يبق من آثار جميع رجال القرن الذى كاد ينصرم ما بقى من طلعت حرب، فإن المقارنة لا تجوز بين الزعماء السياسيين وبين رجال الاعمال فلكل منهم أدواته. ولكل منهم منطقه، وإن اتفقوا فى النهاية فى الدور الفعال الذى يؤدونه فى خدمة الوطن.

وحتى لا نغفل أيا من وجهات النظر فهناك من رجال الفكر السياسى من لعبوا دورا يرى البعض معه إنهم يستحقون أن يحظوا باللقب. لقب رجل القرن ويضعون فى الطليعة من هؤلاء استاذ الجيل الاستاذ أحمد لطفى السيد.

وينبغى هنا التمييز بين صنفين من العاملين فى الحقل السياسى، ذلك

الصنف الذى تعامل مع الوقائع بمنطق فهم الحاضر واستشراف المستقبل، وهو الصنف الذى حظى بالقدر الاكبر من الشعبية والمكانة الاوسع فى التاريخ، وقسم آخر انصرف للمستقبل دون أن يلقى بالا كافيا للحاضر، ويندرج فيه الاستاذ . ولعل التجربة التى خاضعها فى انتخابات الجمعية التشريعية عام ١٩١٣ تقدم الدلالة على ذلك.

● عطف العقلاء!

فرغم الشهرة العريضة التى كانت للرجل فقد سقط فى تلك الانتخابات أمام أحد عمد الدقهلية . وكانت البرقية التى وصلته من سعد زغلول فى تلك المناسبة وجاء فيها «لئن سقطت فى الانتخابات فلك عطف العقلاء» تعبر بدقة عن ماهية هذا النوع من الرجال.. النوع الذى يكتسب مكانة خاصة بين الصفوة الذين اسماهم زغلول بالعقلاء. ولكن لا تمتد الى القطاع العريض من المصريين المهتمين بالسياسة.

يبقى أخيرا التنبيه الى رؤية غير مصرية لرجل القرن فى مصر، فعديد من أصابع الكتاب الانجليز تشير الى اللورد كرومر الذى استمر معتمدا لبلاده فى مصر لنحو ربع قرن (١٨٨٣ ـ ١٩٠٧)، وقد رأى هؤلاء أن ذلك السياسى هو الذى أخذ بيد المصريين وادخلهم القرن العشرين من خلال جملة الاصلاحات التى أدعى فى كتابه المعروف «مصر الحديثة» أنه ادخلها على البلاد. حتى أن بعضا من هؤلاء قد اطلقوا عليه التوصيف الذى طالما اطلق على محمد على .. مؤسس مصر الحديثة The Founder of Modern Egypt ، بيد أن هذه الرؤية تبقى مقصورة على هؤلاء ولا تمتد الى الوجدان الوطنى العام الذى استمر ينظر للرجل من منظور مختلف.. الاستعمارى الذى مكن للوجود الاحتلالى فى البلاد.

ومن خلال كل هذه المقارنات يبقى من جملة رجال القرن العاملين فى حقل السياسة ثلاثة يؤدى وضعهم تحت الفحص التاريخى لانتقاء أحدهم الى لعبة أقرب الى لعبة الكراسى الموسيقية (!). مصطفى كامل. سعد زغلول وأخيرا جمال عبد الناصر.

ومع أن الأول يبقى فى ضمير الأمة المصرية ذا مكانة خاصة للدور المتميز الذى قام به فى بث حركتها الوطنية بعد فترة كمون اعقبت فشل الثورة العرابية غير إنه يخرج مبكرا من المنافسة على كرسى «رجل القرن» ولجملة من اسباب.

فالفترة القصيرة جدا التى قضاها فى العمل السياسى خلال هذا القرن والتى لم تبلغ السنوات الثمان انهارت فيها جملة الركائز التى اعتمدها فى صياغة الحركة الوطنية إبان تلك الفترة التى نحكم عليه فى إطارها..

ركيزة أولى: الاعتماد على صاحب العرش، عباس حلمى الثانى، لضخ اسباب الحياة فى تلك الحركة، وهو الاعتماد الذى كان مرهونا بحجم العداء بين الخديو وبين دار المعتمد البريطانى ، ومعلوم انه ما أن

بدأ هذا العداء في الانحسار حتى سحب عباس من تأييده للحركة الوطنية. بكل ما استتبع ذلك من صراعات داخل هذه الحركة كان اظهرها الصراع الذى احتدم بين الحزب الوطنى الذى قاده كامل وبين رجال الخديو على رأسهم الشيخ على يوسف صاحب المؤيد، الصحيفة الواسعة الانتشار فيما جرى فى القضية المعروفة باسم قضية الزوجية التى حدثت عام ١٩٠٤.

الركيزة الثانية: والتى انهارت فى ذات العام تمثلت فى توجه الحركة الوطنية فى ظل زعامة الرجل الى تدويل القضية المصرية بالنظر الى ما وراء الحدود.. خاصة الى فرنسا، وكان ماجرى فى نفس العام ١٩٠٤ من الاتفاق الفرنسى - الانجليزى المشهور الذى غل يد حكومة باريس من التدخل فى الشئون المصرية ضربة قاضية لهذا الاتجاه سببت احباطا شديدا للعاملين فى الحركة الوطنية المصرية عبر عنه مصطفى كامل فى خطبة مشهورة ألقاها على مسرح زيزينينا بالاسكندرية واعرب فيه عن رأيه بان هذا الاتفاق المشئوم ضربة جديدة لوطننا العزيز ولم اكن انتظر من فرنسا مجاراة انجلترا فى نسيان الوعود والعهود!

الركيزة الثالثة : بدت فى اعتماد الرجل للعثمنة باعتبارها طوق الانقاذ للوطن المصرى، وهو فى ذلك عانى من انفصام غريب بينه كممثل لهذا الوطن، وكأحد رموز التيار العثمانى . وكان فى ذلك مشدودا للماضى أكثر منه مستشرفا للمستقبل . الامر الذى ادخله فى محاولة تلفيقية للتوفيق بين النقيضين.


أحمد لطفى السيد

وصل هذا التلفيق الى حد الأزمة خلال الحادثة الشهيرة المعروفة بطابا، حين واجه الرجل خيارين أحلاهما مر، بين أن يقبل التفريط فى قطعة من التراب الوطنى لحساب العثمانيين وبين أن يتمسك بها ويبدو منحازا لذات الموقف البريطانى . وقد آثر الخيار الأول الامر الذى عرضه لانتقادات شديدة وأدى فى نهاية الامر الى بروز تيار جديد فى الحركة الوطنية، هو التيار الذى مثلته مجموعة من اسموا انفسهم اصحاب المصالح الحقيقية . والذى أصدر فيما بعد «الجريدة» وشكل «حزب الأمة» الذى قام على اتهام الرجل بالتفريط.

كان معنى ذلك ببساطة أن جملة الرهانات التى وضع عليها مصطفى كامل كل حاضره السياسى جاءت رهانات خاسرة، وإن بدت خلال عصر الرجل رهانات رابحة، بمعنى آخر ان الرجل راهن على الحاضر اكثر مما راهن على المستقبل . واحتلال مكانة خاصة فى التاريخ للرجال الذين راهنوا على الاثنين الحاضر والمستقبل . ولعل ذلك ما ادى الى انحسار هذه المكانة لمن راهن على

١٩١٩

الحاضر فقط (كامل) ، أو لمن راهن على المستقبل فقط (لطفى السيد) بينما من راهن على الاثنين توفر فى التاريخ المصرى للرجال قليلين.

بخروج مصطفى كامل من حلبة السباق لا يبقى من زعماء القرن سوى اثنان وكرسى واحد.. سعد زغلول وجمال عبدالناصر . ونجرى أولا وراء الأول قبل أن نلهث وراء الأخير!.

ليس صحيحا ما هو شائع من ان زغلول قد خرج من صفوف الشعب المصرى ليصنع هذه الزعامة الاسطورية، فالدراسة الحقيقية لتاريخ حياة الرجل تؤكد إنه قد خرج من قلب النظام.

على المستوى الاجتماعى كان أحد كبار ملاك الأراضى الزراعية وصهرا لرئيس النظار مصطفى باشا فهمي الذى كان يمثل آنئذ قمة من قمم الطبقة التركية الحاكمة.

وعلى الصعيد السياسى وزيرا للمعارف (١٩٠٦ ـ ١٩١٠) ، ثم وزيرا للعدل (الحقانية) خلال العامين التاليين. ورغم استقالته من هذا المنصب فقد نجح في الانتخابات التى جرت عام ١٩١٣ التى أدت ليس فحسب الى دخوله الجمعية التشريعية وإنما الى أن يصبح وكيلا لهذه الجمعية.

بيد أن ما أكسبه هذه المكانة المتميزة داخل ذلك النظام أصوله المصرية القحة الامر الذى دعا كرومر الى تقديمه للوزارة باعتباره أحد هذه الوجوه فى مواجهة تعالى أصوات الاحتجاج من رجال الحزب الوطنى بان «المصريين غرباء فى وطنهم».

احتل هذه المكانة أيضا بسبب المعارك التى خاضها ابان احتلاله لمنصب وزير المعارف مع المستشار البريطانى للوزارة.. المستر دوجلاس دنلوب خاصة حول قضية التعريب والانجليز . الأمر الذى اكسبه شعبيه كبيرة حتى بين صفوف الحزب الوطنى، بيد انه أفقده فى نفس الوقت تأييد دار المعتمد البريطانى.

وقد قاد ذلك الرجل فى نهاية الأمر الى أن يخوض معركة الانتخابات للجمعية التشريعية عام ١٩١٣ عن دائرتين فى القاهرة فيفوز بهما. ولأن يخوض بعد ذلك معركة الوكيل المنتخب داخل الجمعية فيفوز بها ايضا، وهو الفوز المزدوج الذى اضفى عليه من أسباب الشرعية الشعبية ما مهد له الطريق لقيادة ثورة عام ١٩١٩. والحركة الوطنية بعدها وحتى وفاته عام ١٩٢٧.

ويبدو عمر زغلول فى احتلال مكان الزعامة المصرية قصيرا إذ لم يزد على ثمان سنوات الا قليلا، وكانت سنوات عاصفة لمصر وعاصفة لسعد.. وبكل المقاييس.

فمن بين تلك السنوات الثمانية قضى سعد نحو عامين فى المنفى، صحيح أن الرجل كان فى خاطر المصريين، وعلى نحو غير مسبوق خلال تلك السنوات، غير إنه فى النهاية كان اسيرا فى إحدى

مستعمرات الامبراطورية .. مالطة أو سيشل أو جبل طارق.

من مظاهر الحدة ايضا تلك العلاقة الساخنة بين الرجل والسلطة ولا نقصد بها هنا سلطة الاحتلال فحسب بل سائر أطراف السلطة.. قصر عابدين. الوزارة . البرلمان.

السلطان فؤاد الأول. والذى اعتلى عرش مصر بلقب الملك بعد عام ١٩٢٢، استمر يبث العراقيل فى وجه «الزعامة الزغلولية» وبمختلف الوسائل . خاصة بعد النجاح الساحق الذى أحرزه الرجل والوفد فى الانتخابات التى جرت أواخر عام ١٩٢٣

المعارك بين الرجلين حول تشكيل الوزارة سواء ما اتصل بتمثيل الاقباط أو ما تعلق بالمكانة الاجتماعية لبعض الوزراء الذين اختارهم سعد والتى ارتآها الملك لا تتفق مع مكانة الوزارة (الغرابلى).

معركة أخرى حول تطبيق الدستور فيما حدث فى قضية تعيين خمسى أعضاء مجلس الشيوخ، وهى المعركة التى وصلت الى حد قبول التحكيم من قاض بلجيكى فى المحاكم المختلطة (فان دن بوش)، والتى انتهت بفوز زغلول، وهو الفوز الذى لم ينسه فؤاد للرجل.

لم يكن ثمة غرابة إذن أن يقتنص الملك فرصة حادثة اغتيال السردار أواخر عام ١٩٢٤ التى انتهت الى استقالة الوزارة الزغلولية تحت وطأة الإنذار البريطانى ، ليأتى بوزارة ملكية . هى وزارة أحمد زيور التى صرفت كل همها لطعن الزعامة الزغلولية وفيما تطوله من أنحاء جسدها !.

● عداء لسعد زغلول !

يقودنا ذلك إلى المؤسسة الثانية التى وإن كان زغلول قد ترأسها لنحو عام أو أقل قليلا فإنها بقيت بامتداد السنوات الثمانية معادية لزعامته سواء وقد تألفت من أنصار للملك، فيما حدث فى عهد الوزارة الزيورية «١٩٢٤ ـ ١٩٢٦»، أو من المنشقين عليه الذين أسسوا حزب الأحرار الدستوريين، والذى بلغ ذروته خلال العامين السابقين على تأليف وزارة الشعب برئاسته عندما بدا وكأن الأمة قد انقسمت بين سعديين وعدليين، وكان المستهدف الحقيقى من وراء هذا الانقسام ضرب الزعامة الزغلولية.

وينسحب ما جرى فى هذه المؤسسة على آخر المؤسسات التى شهدت تحديا لقيادة الرجل، ونقصد به الوفد نفسه، الذى عرف انشقاق مجموعة الأحرار الذين استمروا يشكلون أكبر الأحزاب السياسية المنافسة لفترة غير قصيرة وشاركوا فى كل المحاولات الساعية الى ضرب قيادة زغلول، ولو اقتضى الأمر التواطؤ مع من رأتهم الأمة أعداءها، سلطات الاحتلال أو قصر عابدين فيما تكرر فى اكثر من مناسبة خلال تلك السنوات القصيرة.

ورغم هذه التحديات المتعددة للقيادة الزغلولية فانه يبقى لهذه الشخصية دورها الشديد التميز فى الضمير الوطنى المصرى الذى قد لا يعدله سوى دور عبدالناصر رغم اختلاف الظروف

واختلاف الشخصيتين، وهو تميز تؤكده مجموعة من السمات.

فطريق الرجل امتلأ بالعثرات .. النفى، محاولات الاغتيال الجسدى والمعنوى ، خصومة أعتى القوى على مسرح السياسة المصرية، ولم يكن له من سند فى أغلب أوقات توليه قيادة الزعامة الوطنية سوى المساندة الشعبية، الأمر الذى يمكن القول معه إنه قد احتل مكانته بمساندة من لم يثق فيهم خصومه أو منافسيه وأثبت انه قد اختار الطريق الصحيح.

على الجانب الآخر يقدم سعد زغلول نموذجا فريدا للصلابة الوطنية وهى السمة التى اشترك فيها المتسابقون الثلاثة على كرسى «رجل القرن» بيد أنها كانت عند زغلول أقوى مما كانت عند رفيقيه ولأسباب نراها..

فقد تفرد فى جانب بنجاحه خلال سنى حياته الأولى فى الانخراط فى الارستقراطية المصرية، وهو ما لم يكن قد توفر لزميليه اللذين كانا من أبناء الطبقة الوسطى، وبالنسبة لعبد الناصر الشريحة الصغيرة منها، مما كان يجرد صلابته من أى طموحات شخصية.

يزداد هذا الامر تأكدا بملاحظة انه بينما دخل المتسابقان الآخران ميدان النضال الوطنى بكل تبعاته وهما فى ريعان الشباب، كامل فى العشرينات، وعبدالناصر فى الثلاثينات. فان زغلول قد دخله وهو فى الستينات مما يجعل صلابته محل تقدير لاشك فيه.

وبقدر العلاقة العدائية مع السلطة التى جسدها زغلول فان آخر المتسابقين على كرسى «رجل القرن»، جاء من أقوى مؤسساتها.. المؤسسة العسكرية.. جمال عبد الناصر، وكان يمكن أن يخرج من مجال السباق من أول دورة لولا انه قد تمرد عليها، هذا فى جانب واستخدمها لدفع عجلة التاريخ من جانب آخر، وهو الاستخدام الذى كان نعمة فى أحد جوانبه ونقمة فى الجانب الآخر!

التمرد على السلطة بدا فى ضربه لأهم رموزها . فيما جرى فى دوره فى التخلص من القصر، بعزل الملك ١٩٥٢ ثم بالغاء الملكية ذاتها خلال العام التالى.

بدا أيضا فى النجاح فى التخلص من قوات الاحتلال البريطانى بعد أكثر من سبعين عاما، فى اتفاقية الجلاء الشهيرة فى أكتوبر عام ١٩٥٤ والتى مهرها بتوقيعه الى جانب توقيع السير رالف ستيفنسون سفير المملكة المتحدة فى العاصمة المصرية.

بدا ثالثا فى ضرب طبقة الباشوات والبكوات التى استمرت تحكم مصر خلال ما يزيد على قرن من خلال سياسة قص الاجنحة.. الاجتماعية فيما بدا فى قانون الإصلاح الزراعى الشهير، والسياسية بجملة المحاكمات التى أجراها لهم خلال الأعوام الاولى من الثورة. وبحل الأحزاب.

وقد اتاحت المرحلة التاريخية التى تصدى فيها عبد الناصر لقيادة الامة

المصرية للرجل أن يصنع زعامته الاسطورية.

فقد عرفت تلك المرحلة انتهاء الاستعمار القديم وتآكل الامبراطورية العجوز بعد أن كانت الجيوش البريطانية قد جلت عن درة التاج، الهند، عام ١٩٤٧، وما تبع ذلك من جلاء تلك الجيوش عن سائر البلدان المحيطة مما وفر الفرصية للظهور البيئة السياسية التى صنعت الزعامة الناصرية..

جانب من هذه البيئة بدأ فى ظهور عالم الدول الصغيرة التى تحررت من الاستعمار والتى ارتأت حماية تحررها من خلال شكل من اشكال التنسيق بدأ منذ مؤتمر باندونج الشهير والذى كان بمثابة الميلاد لصناعة الزعامة الناصرية على مستوى العالم الثالث. وهى صناعة تضاف فى النهاية لرصيده كأهم المتسابقين حول الكرسى!

جانب آخر صنعته الحركات الوطنية فى العالم العربى التى لم يقف الرجل منها موقف المتفرج مما قاده الى الصدام الشهير مع الدولتين الاستعماريتين العتيدتين. انجلترا وفرنسا. عام ١٩٥٦ ، وهى الحرب التى خرج منها بطلا للعالم العربى بغير منازع.

● عبد الناصر زعيم بلا حدود

ونظن أن عبدالناصر كان الزعيم الوطنى الوحيد فى العصور الحديثة الذى تخطت زعامته الحدود المصرية، وهو بذلك قد اكتسب مكانة لم يكتسبها أى من الزعماء المصريين بمن فيهم زغلول ، الذى لقى اعجابا عربيا لكنه لم يرق الى حد الزعامة

والملاحظ أن الرجل فى كل ذلك قد استخدم آلة الدولة المصرية لصنع زعامته الوطنية والعربية، وهى وإن كانت قد وفرت له الوسيلة السهلة فإنها قد قادت فى نهاية الامر الى إمكان ضرب مشروعه القومى بكل ما صحب ذلك بعدئذ من التشكيك فى الانجاز الذى قدمه لوطنه والذى سعى الكثيرون خاصة بعد هزيمة ١٩٦٧ الى تشويهه.

ومن ناحية أخرى فقد أفضى هذا الاستخدام الى تركيز السلطة فى ايدى الرجل على نحو غير مسبوق فى التاريخ المصرى، ربما منذ عهد محمد على باشا. وهو التركيز الذى نتج عنه على المستوى السياسى ظاهرة مراكز القوى. وترتب عليه على المستوى التاريخى اتهام الرجل بضرب الديمقراطية حتى انه لا يحلو لخصومه التاريخيين أن يقدموه فى صورة أكثر من صورة عدو الديمقراطية.

ومن ناحية أخيرة فقد عني ضرب الدولة التي توحد معها الرجل فيما حدث عام ١٩٦٧ ضرب زعامته . خاصة وأن أكثر ما تعرض للضرب كان المؤسسة العسكرية التي خرج منها عبد الناصر.

يبقي أخيرا ونحن نلهث وراء المتسابقين الرئيسيين في لعبة الكراسي الموسيقية أن نعترف انه علينا أن نلهث الي ماشاء الله فمن الصعب أن يحدد مؤرخ مهما كان قدره من الذي يمكن أن يفوز منهما بلقب رجل القرن !.

جزء خاص

جورج أورويل

ضمير القرن العشرين

بقلم : د . جلال أمين

●● إذا زعم أحد ، كما سأزعم أنا ، أن جورج أورويل هو بلاشك «أحد صانعي القرن العشرين» ، وواحد من أكبر المؤثرين فى فكر هذا القرن ، فإن قلة من الناس قد تعترض، وكثيرين قد يوافقون ، ولكنهم سيعطون لذلك تفسيرات مختلفة قد لا تكون كلها صحيحة وغرضى من هذا المقال أن أبين حجم هذا الأثر الذى تحقق لأورويل فى فكر هذا القرن ، وما أعتبره التفسير الحقيقى لهذا الأثر ●●

لقد ولد جورج أورويل فى مطلع هذا القرن (١٩٠٣) ، ومات فى منتصفه بالضبط (١٩٥٠) ، وكانت روايته التى نشرت قبل أقل من سنة من وفاته والتى سماها (١٩٨٤) ، قد أحدثت دويا شديدا وتحقق أورويل من نجاحها قبل أن يموت ، ولكنى لا أظن أنه كان يتوقع أن تظل هذه الرواية مقروءة ومطلوبة ومؤثرة طوال الخمسين عاما التالية ، وما أظن أنه كان يتوقع أن أعماله بوجه عام سوف تحظى باهتمام متزايد مع مرور الزمن ، وأن تزداد شعبيته سنة بعد أخرى بدلا من أن تخبو وتنطفىء ، وأن تصبح عبارة «عالم جورج أورويل» أو «العالم الأورولى» تعبيرا مشهورا ومستقرا فى الفكر السياسى ، يفهم الناس المقصود منه إذا ذكر فى أى



چورج اورويل

١٩٨٤

جزء من العالم .

لقد اختار أورويل اسم الرواية (١٩٨٤) ، كما يقال باعتباره الترتيب المعكوس لرقمى السنة التى كان يكتبها فيها (١٩٤٨) ، وكان قد اختار لها اسم «آخر رجل فى أوربا» ، ثم غيره ، وربما كان هذا الاسم الذى اختاره فى البداية أقرب إلى مقصده : فبطل الرواية رجل يظل حتى آخر لحظة يقاوم تسلط الدولة على حياة الناس وعقولهم ومشاعرهم ، ويحاول محاولة مستميتة الاحتفاظ بفكره المستقل ضد جبروت الدولة وطغيانها ، ولكن الرواية تنتهى بفشله ، وكان بهذا «آخر رجل فى أوربا» يحاول هذه المحاولة، ويمكن للقارىء أن يتصور كيف يكون العالم بعد فشل هذه المحاولة الأخيرة : عالم رهيب ، هو ما يقصد الآن بعبارة «العالم الأورولى» يفقد فيه الناس أى قدرة على التصرف أو التفكير باستقلال ، وتسيطر فيه وسائل الإعلام سيطرة تامة على عقول الناس ومشاعرهم ، وتوجههم فى أى اتجاه ترى الدولة أن من مصلحتها توجيههم إليه .

عالم من الناس وقد تحولوا إلى قطيع متجانس تمام التجانس ، فاقد لأى قدرة على الإبداع أو التخيل ، بل وللقدرة على الحب والكراهية ، إلا على النحو الذى تقرره الدولة وتبثه وسائل الإعلام

كانت فكرة رائعة ، ظلت تدور فى ذهن أورويل وترهق جسمه العليل سنوات طويلة قبل أن يجلس لكتابتها ، وعندما أتمها وأعاد قراءتها أصابه الابتئاس إذ رأى فيما كتب «فكرة جيدة أفسدتها» على حد تعبيره ، وكان يقصد أن تنفيذ الفكرة كان أقل بكثير من مستوى الفكرة نفسها

وربما كان أورويل على صواب فى هذا إلى حد ما ، فالرواية تتسم أحيانا بالشطط والمبالغة ، وتتحول أحيانا من رواية إلى بيان سياسى . ولكنها مع ذلك لا تفقد أبدا عنصر التشويق ، وتظل بالطبع تعبيرا عن فكرة رائعة وخيال خصب ، وأهم من هذا وذاك أنها تعبر عن مصدر حقيقى للقلق على مستقبل البشرية .

⊙ أحد كبار صانعى القرن

هذا القلق المخلص والصادق مائة بالمائة على مستقبل البشرية هو فى رأيى السمة الأساسية التى تميز جورج أورويل عن غيره ، وهو ما يجعله، فى رأيى، أحد كبار صانعى القرن العشرين ، وواحدا من أكبر المؤثرين فى فكر هذا العصر ، وهو الذى ضمن لرواية (١٩٨٤) وللرواية الأصغر والسابقة عليها مباشرة (مزرعة الحيوانات Animal Farm) هذا

النجاح الباهر والانتشار الواسع حتى هذه اللحظة .

لقد قيل فى الروايتين ، «مزرعة الحيوانات و١٩٨٤» ، حين صدورهما فى سنتى ١٩٤٥ ، ١٩٤٩ ، على التوالى ، أن أورويل كان يقصد بهما نقد الاشتراكية السوفييتية . وأظن أن هذه النظرة سطحية للغاية . أما الاشتراكية فلا أعتقد ان أورويل غير رأيه فيها طوال حياته ، منذ أن كتب كتابه الذى يصعب تصنيفه هل هو رواية أم مجرد تسجيل بديع لحياة التشرد والضياع فى باريس ولندن (Down and Out in paris and-London) ، (نشر فى سنة ١٩٣٣) ، وحتى روايته الأخيرة (١٩٨٤) ، مرورا بمحاولته رسم صورة دقيقة بقدر الإمكان لما تعنيه البطالة فى الواقع فى كتاب (The Road to Wigan Pier) المنشور فى سنة ١٩٣٧ . إن كل كتابات أورويل تقريبا تكشف عن تعاطفه القوى مع الفقراء ، واحتقاره ونفوره الشديد من الطبقات الطفيلية فى المجتمع الإنجليزى ، التى كان هو نفسه ينتمى إلى إحداها وفضل أن يهجرها إلى الأبد وان ينضم إلى فريق المتشردين الضالين فى شوارع لندن وباريس على أن يساير طبقته الاجتماعية فى نفاقها وإعجابها بنفسها بل ربما كان هذا النفور من طبقته الاجتماعية ، وما كان يرى فيها من رياء هو الذى دفعه إلى تغيير اسمه من «إيريك بلير» (Eric Blair) وهو اسمه الحقيقى إلى جورج أورويل وهو اسمه المستعار الذى اشتهر به ووضعه على كل كتبه ، وربما كان هذا هو السبب الذى دفعه أيضا إلى البحث عن وظيفة فى بورما بعيدا عن حياة الطبقة الوسطى الإنجليزية، ولكنه فى بورما عانى من نفس الشعور بالنفور والاحتقار لحياة الاستعماريين الإنجليز هناك وطريقة معاملتهم لأهل البلاد التى أتوا لاستغلالها، فكتب روايته الجميلة «أيام فى بورما» (Burmese Days) (نشرت فى سنة ١٩٣٤) .

هذا التعاطف القوى مع صغار الناس والمستضعفين فى الأرض لم يفقده أورويل طوال حياته ، ولكنه منذ اشتراكه فى الحرب الأهلية الأسبانية فى الثلاثينيات ، فقد ثقته فى الماركسيين والشيوعيين والدولة السوفييتية ، ومن المؤكد أيضا انه فقد إلى الأبد أى وهم يتعلق بالاعتقاد بأن حل مشكلة الفقر يمكن أن يأتى على يد «الدولة المستبدة» .

وشيئا فشيئا أصبحت الدولة المستبدة هى شغله الشاغل وهمه الحقيقى ، ومع ما

رآه من تطور سريع فى التكنولوجيا خلال الأربعينيات ، أخذ يسيطر عليه أكثر فأكثر، الخوف من أن يؤدى التقدم التكنولوجى إلى أن تصبح الدولة القوية التى تملك القدرة على التحكم فى وسائل التكنولوجيا الحديثة ، خاصة فى مجال الإعلام ، هى أكبر الأخطار التى تهدد حرية الإنسان واستقلاله الفكرى وكرامته عبر عن هذا فى البداية بطريقة عابرة ولكنها مؤثرة فى رواية صغيرة اسمها «محاولة لاستنشاق الهواء» (Coming up for Air) (نشرت فى ١٩٣٩) ، ثم عبر عنه بقوة أكبر بكثير فى «مزرعة الحيوانات» ، ثم استجمع كل قواه للتعبير عن مخاوفه من الدولة التكنولوجية الحديثة فى روايته الأخيرة (١٩٨٤) .

لاشك فى أن «مزرعة الحيوانات» كانت مستوحاة استيحاء مباشرا من تجربة الاتحاد السوفييتى ، ولكن من المؤكد أن رواية ١٩٨٤ كانت ترمى إلى شىء أبعد بكثير ، وكان أورويل يريد بها أن يلفت نظر الناس ، بأقصى ما يستطيع من قوة، إلى ما يهددهم من أفكار غسيل المخ فى ظل الدولة الحديثة ، أيا كانت الشعارات التى ترفعها هذه الدولة : اشتراكية أو رأسمالية أو فاشية والذى يعرف نمط الحياة فى بعض الدول الرأسمالية المتقدمة تكنولوجيا ، كالولايات المتحدة مثلا ، يستطيع أن يرى فى كثير من مظاهر الحياة فيها ما يذكره بشدة برواية أورويل (١٩٨٤) . يكفى فقط أن تقارن التليفزيون الأمريكى وعاداته ونوع أثره فى الناس ، بجهاز «التليسكرين» فى رواية (١٩٨٤) ، واللهجة الهستيرية التى يستعملها المذيعون هنا وهناك ، ودرجة غسيل المخ التى يخضع لها المشاهد فى الحالين .

☆ ☆ ☆

على أنه لا يعرف أورويل حقيقة من لم يقرأ مقالاته . وأنا أميل ، مع كثيرين ، إلى الاعتقاد بأن مقالات أورويل أهم بكثير من روايتيه الشهيرتين . هو أولا كاتب مقال متميز وفريد ، ولا يكاد ، فى رأيى ، يكون له مثيل فى الأدب الحديث . وأنا لا أقصد فقط ولا أساسا سلاسة أسلوبه المنقطعة النظير ، ووضوحه التام ، وجمله القصيرة الخالية من أى لغو ، وأنك تقرؤه فتحس دائما بأن إنسانا من لحم ودم يكلمك ويصدقك القول ، وعدم ارتياحه للفصل بين

العام والخاص ، الموضوعى والشخصى ، بسبب شعوره بأن هذا الفصل ينطوى على تضحية بجزء من الحقيقة ، وهو يريد الحقيقة كاملة بقدر الإمكان . لا أقصد هذا فحسب أو فى الأساس ، وإنما أقصد ذلك الخيط المستمر فى كل مقالاته ، والذى يجعلك تشعر بأنك بانتقالك من قراءة مقال له إلى مقال آخر ، مهما كان اختلاف الموضوعين ، لا تغير الموضوع فى الواقع ، وإنما فقط تنتقل إلى جزء آخر من الصورة ، على أمل أن تظفر فى النهاية بالحقيقة الكاملة . هذه الوحدة الفريدة فى كتابات أورويل ، تنجم فى رأيى عن شيئين: الأول هو صدقه الدائم مع نفسه ومع قارئه ، والثانى شدة انشغاله ببعض الهموم الفكرية العامة والتى تأبى أن تفارقه. صحيح أنه كان متعدد الاهتمامات : يحب الطبيعة حبا جما ، وعاشق للفن والأدب ، ومشغول فى نفس الوقت بقضايا السياسة الدولية وقضيتى الحرية الفردية والفقر .. الخ ، ولكن عمق اهتمامه بهذه القضايا وقوة شعوره بها حولاها من قضايا عامة إلى قضايا شخصية ، فإذا به وهو ينتقل من تناول قضية إلى أخرى لا يدعك تشعر بأنك تنتقل من موضوع إلى آخر بل بأنك مستمر فى صحبة هذا المرشد العاقل والحكيم ، تتفرج على الدنيا من خلال رؤيته الخاصة لها .

● القطيع والغرائز

اقرأ مثلا مقاله «مقتل فيل» (Shooting an Elephant) هل هو مقال أم قصة قصيرة ؟ لا ندرى بالضبط ، ولكن أيا كان الأمر فإنه وصف رائع لشعور أورويل بمشكلة استمرت معه منذ كتب هذا المقال على الأقل (المنشور فى سنة ١٩٣٦) ، وحتى آخر رواية له ، وهو خضوع الفرد لتأثير «القطيع» سواء كان هذا القطيع هو «الرأى العام» الذى تحركه غرائزه أكثر من عقله ، «الرأى العام» الذى خلقته وشكلته وسائل الإعلام وتختلف أساليب غسيل المخ فى الدولة الحديثة .

★ ★ ★

جاء فى وصية جورج أورويل بند يتعلق بالكتابة عنه بعد موته ، إذ أوصى بألا يكتب أحد تاريخ حياته . وقد ظل هذا الجزء من الوصية محترما حتى سنوات قليلة مضت ، عندما بدأت تظهر بعض الكتب التى تترجم لحياته ، ومن هذه الكتب تظهر بوضوح شخصية أورويل : رجل أقرب إلى الحزن وأسرع استجابة لدواعى الاكتئاب منه لدواعى الفرح ، رقيق وبالغ الحساسية بمشاعر الناس بل

والحيوانات ، شديد الحاجة إلى الوحدة ، وقد يقضى شهورا فى جزيرة منعزلة لايكاد يرى فيها أحدا ، وإن كان يراقب بالساعات حركة الطيور ، قليل النجاح مع النساء ، ربما بسبب خجله وحبه للوحدة ، أو ميله للحزن أو بسبب شعور دفين منذ الصغر بأنه ليس وسيما أو جذابا للنساء ، قليل الاحتفال بالمظاهر وشديد الاحتقار لأى صورة من صور النفاق ... أهم شيء عنده الصدق ، وهو أم الفضائل فى نظره، بل لعله الفضيلة الوحيدة ، ومن ثم فإنه يرى مهمة الكاتب أن يتجاوز ويتغاضى عن كل ما يحجب حقيقة الأمور ، كل ما يتظاهر به الناس ويحاولون به حجب الحقيقة : ما يرتدونه من ملابس أو مجوهرات ، التشدق بما ليس فيهم ، الأسلوب المعقد والملتوى فى الكتابة ، العاطفية الزائدة والمصطنعة فى التعبير عن النفس ، الشعارات السياسية الكاذبة.. الخ . كل هذا يجب أن يهمله الكاتب ويتغاضى عنه حتى ينفذ مباشرة إلى حقيقة الأمور : حقيقة الناس والمشاعر، وحقيقة النظم السياسية ، وحقيقة الكاتب نفسه .

كتب عنه كتاب اسمه «الروح البللورية» (The Crystal Spirit) قصد به مؤلفه أن يصف نفس أورويل بأنها صافية كالبللور ، وقال عنه الفيلسوف البريطانى الشهير ألفرد إيير (A . J . Ayer) أنه واحد من هؤلاء الناس الذين إذا اعتقدت أنهم يقدرونك ، زاد تقديرك لنفسك . وأنا أعتبر أن من الأوصاف التى يمكن أن تطلق عليه ، كما يمكن أن تطلق أيضا على غاندى ، أنه كان «ضمير القرن العشرين». إن صانعى القرن العشرين كثيرون : من ستالين وهتلر إلى أينشتين وبيكاسو ، ولكن قليلين هم من عبروا عن ضمير هذا القرن : الذين كرهوا العنف وشجبوا الحرب ، ووقفوا إلي جانب الفقراء ، واحتقروا الكذب والدعاية السياسية ، وغضبوا لأى مساس بكرامة الناس ، ولم يروا أى مبرر للتمييز بين الأبيض والأسود، أو لتفضيل الأوربى على الآسيوى أو الأفريقى ، أو للرجل على المرأة ، وحلموا بمستقبل جميل للجميع ، وعبروا عن كل ذلك بفصاحة مؤثرة وفعالة. هؤلاء هم ضمير القرن العشرين ، ولابد أن يأتى جورج أورويل قريبا جدا من رأس القائمة □

عام جديد

شعر : جليلة رضا

ياعام كم عام سواك مضى وخلف لى دجاه
ومشيت فى سردابه وخطاى تعثر فى خطاه
وشربت ملح الدمع من قمم الثلوج على الشفاه
وخرجت مثخنة الجراح لكى أعود الى سواه
ياهذه الأكذوبة الكبرى التى ترعى الحياه .. !

★★★

إنى لأعلم ما تخبىء فى الطريق وما تدارى
خطوات عمرك كلها محفورة فوق الجدار
الصيف يمضى كالشتاء ، مع المساء مع النهار
أنا قد أراك وإنما كم أنت مجهول القرار
ماذا وراء الغيب ياربى وما خلف الستار ؟

★★★

من ألف عام جئت تغرس فى حنايا الروض ورده
هل كان لهوا ما صنعت أم انتقاما . أم موده
وتركتها للريح تلطمها بإصرار وشده
الوردة البيضاء ألبسها الشتاء الجهم برده
لن تستطيع اليوم أناملك الرقيقة أن تصده



★★★

ياعام انك كائن حى وعملاق مديد
أخشاك حين تهل ثم أزف مقدمك السعيد
أبكى الذى ولى عجوزا . ثم احتضن الوليد
فإذا شببت ، اذا هرمت أعود أسأل من جديد
ستعود ! وى ! ستعود للدنيا .. ولكن هل أعود

★★★

(جزء خاص)

برتراند رصل

الفيلسوف المتمرد

بقلم: د. أحمد أبوزيد

لم يشغل أحد من فلاسفة القرن العشرين الرأي العام العالمى وأوساط المثقفين والهيئات الأكاديمية على السواء لفترة طويلة امتدت لما يقرب من ثلاثة أرباع القرن مثلما فعل الفيلسوف البريطانى الشهير برتراندرصل الذى يحب معظم مؤرخى الفلسفة فى بريطانيا الإشارة إليه باسم «لورد رصل» للإشارة إلى أصله الأرستقراطى وللإعتزاز والفخر بعلمائهم ومفكريهم وأدبائهم الأرستقراطيين .

فلقد أثار رصل اهتمام كل هذه الهيئات والأوساط خلال هذه المدة الطويلة ليس فقط بأفكاره الفلسفية وتحليلاته المنطقية وكتاباته فى فرع من أصعب فروع الفلسفة وهو المنطق الرياضى، ولكنه أثار ذلك الاهتمام أيضا بكتاباته السياسية والاجتماعية المتمردة، وبمشاركته فى حركات الاحتجاج، والعصيان المدنى والخروج فى المسيرات والمظاهرات والإسهام فى الدعوات المختلفة لتحقيق حقوق الإنسان . وربما كان أقرب مثل إلى رصل فى ذلك هو الفيلسوف الفرنسى الذى لا يقل عنه شهرة وهو جان بول سارتر ، مع الأخذ فى الاعتبار الفوارق بين الاثنين فى الأصل والنشأة ونوع التربية والتعليم والمؤثرات الاجتماعية والسياسية والتجربة الفلسفية والحياة الفكرية التى خضع لها كل منهما ، بل إن سارتر ليس حالة فريدة فى تاريخ الفكر والمفكرين الفرنسيين ، وذلك على اعتبار أن الفلاسفة الفرنسيين كانوا يشغلون أنفسهم فى أغلب الأحوال بأحداث



مجتمعهم وشئون العالم كله ، بل والمشاركة الفعالة فى الحياة الفكرية والسياسية والاجتماعية العامة مما ساعد على انتشار آرائهم وذيوعها بين عامة المثقفين بحيث لم تعد مقصورة على الأكاديميين والمشتغلين بالفلسفة وحدهم ، وهذا وضع يختلف كل الاختلاف عن السائد فى بريطانيا بشكل عام ، فالفلاسفة البريطانيون المعاصرون يميلون فى الأغلب إلى اعتبار أنفسهم (مفكرين محترفين) على مايقول أنتونى مانسر أستاذ الفلسفة بجامعة ساوثهامبتن ، ولذا فإنهم يقصرون جهودهم على مناقشة المشكلات الفلسفية الخاصة الصعبة والمعقدة دون أن يشغلوا بالهم كثيراً بالتفكير فى أمور الناس العاديين ، اعتقاداً منهم أن ذلك (الترفع) عن الانشغال بالأمور العادية سوف يرفع من شأن الفلسفة ويساعد على استمرارها وبقائها وصمودها فى عصر العلم . ولذا تعتبر حالة برتراندرصل حالة استثنائية إلى حد كبير . وليس من شك فى أن إسهامات رصل فى كل هذه الجوانب المختلفة والتى قد تبدو متناقضة ومتنافرة هى التى تجعل منه واحدا من كبار مفكرى القرن العشرين الذين يصعب إغفالهم أو التغاضى عنهم فى أية محاولة جادة للتأريخ للفكر فى هذا القرن الذى كاد ينصرم ويدخل هو ذاته فى سجل التاريخ.

١٠ - تمرد برتراندرصل

والواقع أن أهم ما كان يميز حياة برتراندرصل هو التمرد على كل شيء بما في ذلك رفضه قبول كثير من المسلمات التى يقبلها المجتمع البريطانى سواء أكان ذلك فى مجال الفلسفة أو الحياة الاجتماعية والسياسية أو حتى المعتقدات الدينية ، على أساس أن كل شيء يجب أن يخضع لحكم العقل وحده وأن يكون موضع مناقشة وفحص، وأدى به ذلك إلى الصدام مع الدولة ومع أصدقائه من اليمينيين واليساريين على السواء ومع رجال الدين ومع الأكاديميين فى الجامعة سواء فى بريطانيا أم فى أمريكا إلى طرده أكثر من مرة من أكثر من جامعة بما فيها الجامعة التى تعلم فيها وارتبط اسمه بها على الأقل فى أكثر من فترة من فترات حياته كأستاذ للفلسفة وهى جامعة كيمبردج . ولكن القضايا التى كان يفجرها والحركات التى كان يساندها ويشارك فيها نقلته خارج حدود النطاق الأكاديمى الضيق ووجدت تجاوبا مع الرأى العام العالمى فى كثير من الأحيان كما أنه أفلح فى أن يخرج بالفلسفة ذاتها إلى خارج ذلك النطاق الذى يضربه معظم الفلاسفة حول أنفسهم وأن يقرب كثيرا من الموضوعات الفلسفية إلى أذهان المثقفين غير المتخصصين .

وربما كانت ظروف حياة برتراندرصل المبكرة مسئولة عن هذا التمرد الذى امتازت به حياته الطويلة التى امتدت إلى مايقرب من قرن ، فقد ولد عام ١٨٧٢ وتوفى عام ١٩٧٠ وهو فى الثامنة والتسعين من العمر . وقد ظل فكره على حالة عالية جدا من اليقظة والنشاط والإنتاج إلى وقت غير بعيد من وفاته بحيث يؤلف كتابا بعنوان «هل للإنسان مستقبل؟» عام ١٩٦١ وهو يقترب من سن التسعين مما يبين مدى انشغاله بمصير الإنسانية وهى المسألة التى شغلت فكره خلال كل حياته وانعكست فى كثير من أعماله .

فعلى الرغم من أنه ولد فى عائلة أرستقراطية يتميز معظم أفرادها بالميل إلى التفكير الحر التقدمى فإن مرحلة طفولته لم تكن سعيدة تماماً أو سهلة وإنما كانت تتميز بالانطواء بل والعزلة والابتعاد عن الناس والرغبة فى الانفراد مع الذات ، وامتد ذلك إلى مرحلة شبابه حتى التحق بجامعة كيمبردج. فقد كان جده هو اللورد جون رصل الذى تولى رئاسة الوزارة مرتين، وكان أبوه الروحى بعد مولده هو الفيلسوف البريطانى الشهير جون ستيوارت مل إذ كان والداه على درجة عالية من الثقافة والتحرر الفكرى بحيث كان أبوه من أنصار الدعوة إلى تحديد النسل وهى دعوة مفرطة فى التقدم بل وثورية بمعايير ذلك العصر ، ولكن

برتراندرصل نفسه حرم من الوالدين جميعا قبل أن يصل إلى سن الرابعة ، وكان الأب قد أوصى قبل وفاته بأن يتولى أهل زوجته شئون تربية أولاده على اعتبار أن عائلة الأم كانت تعتنق نفس الأفكار التقدمية المتحررة والمستقلة عن قيود المجتمع الأرستقراطى فى بريطانيا حينذاك ، ولكن لم يؤخذ بهذه الوصية وبذلك احتفظت عائلة رصل بأبنائها وتولت شئون الأطفال بذلك جدتهم لأبيهم فأخضعتهم لنوع من التربية الصارمة التى تأخذ فى الاعتبار بشدة المعايير الأخلاقية والاجتماعية والدينية السائدة فى الطبقة العليا من المجتمع البريطانى وقد تلقى (برتى) الصغير - كما كانوا يدعونه - تعليما خاصا فى البيت على ما كان عليه العرف السائد فى بريطانيا فى القرن التاسع عشر حيث كان أبناء الطبقة الأرستقراطية يتلقون تعليمهم فى بيوتهم على أيدى مدرسين خصوصيين وبذلك لم يخرج إلى التعليم الرسمى إلا حين التحاقه بجامعة كيمبردج ، وإذا كانت الوحدة والعزلة والابتعاد عن الناس مسئولة إلى جانب التربية والمعاملة الصارمة من الجدة عن متاعب برتراندرصل الشخصية فى بداية حياته ، فإنها كانت فى الوقت ذاته وراء تنمية الميل إلى التفكير الجاد فى أمور الحياة والمجتمع ، كما كانت مسئولة أيضاً إلى حد كبير عن ذلك التمرد الذى صبغ حياته كلها . والغريب أن الجدة لم تكن تحب أن تتكلم معه عن والديه، والمرة الوحيدة التى سألها فيها عن أبويه كان جوابها أنه يجب أن يحمد الله لأنه لم يعرفهما ، ويقول هو نفسه فى ذلك إنه أحس أنها كانت تغار منهما وقد عرف فيما بعد من الآخرين أنهما كانا على درجة عالية من الرقة وسمو التفكير وحرية الفكر وإن كان أبوه يعانى من الصرع .

وقد امتد ذلك التمرد إلى رفض الدين وتعاليمه وكانت الجدة تؤهله لدراسة اللاهوت فى الجامعة ليصبح من رجال الكنيسة ، ولكنه بدلا من ذلك اتجه إلى الفلسفة والمنطق وإلى الرياضيات ، وكان منذ البداية يناقش تعاليم المسيحية بل وفكرة وجود الله ذاته وإمكان الخلود وكان يرى أن عقله يرفضها جميعا . وحين سئل ذات مرة عن موقفه من الدين أجاب : «أقل مما يعتقده معظم الناس ، فقد أدى بى اشتغالى بعملى إلى أن أرفض كل المعتقدات المتعلقة بكل الأديان المعروفة، وإلى أن أتشكك فى كل الفلسفات التى تستخدم بطريقة فضفاضة مفهوم الكائن العضوى الحى» ، بل إنه أصدر عام ١٩٢٧ كتابا يعبر فيه عن موقفه من الدين وكان عنوان الكتاب هو «لماذا أنا غير مسيحى» ولكنه يذكر فى الوقت ذاته أن إحدى الهدايا الثمينة التى تلقاها من جدته فى إحدى المناسبات كانت نسخة فاخرة من الكتاب المقدس وأنها نقشت

بخط يدها على الغلاف من الداخل بعض الاقتباسات التى نقلتها عن بعض الإصحاحات، ويعترف بأن هذه العبارات أثرت تأثيرا قويا فى نفسه بما تحمله من قيم اجتماعية وأخلاقية وسلوكية وأنه ظل يسترشد بها طيلة حياته فى سلوكه وفى علاقاته بالآخرين .

بيد أن هذا التمرد ظهر بأقوى صوره - فيما يتعلق بحياته الفكرية وموقفه الفلسفى - فى تمرده بل ورفضه المنطق الأرسطى الذى كانت له السيادة منذ عهد أرسطو وبدلا من أن يتقبل المنطق الصورى تحول إلى المنطق الرياضى الذى اعتبره أكثر دقة وانضباطا . ولقد كان رصل يرى فى الرياضيات مخرجا ومهربا له من واقع حياته المؤلمة منذ الصغر ، وكان قد عرف هندسة أقليدس من أخيه الأكبر وهو لايزال فى الحادية عشرة من عمره وتعلق بالرياضيات منذ ذلك الحين. وحيت ذهب إلى كيمبردج على أمل أن يدرس اللاهوت درس الرياضيات والفلسفة ولكنه تمرد أيضا على نوع الفلسفة التى كانت تسود مدرسة كيمبردج وهى فلسفة هيجل المثالية وتحول منها تحت تأثير زميله الفيلسوف جورج إدوارد مود - وكان يصغره بسنة واحدة - إلى فلسفة أكثر واقعية ، وكان يعطى كل جهده فى دراسة المنهج الفلسفى والأخلاق والإدراك الحسى، ولكن رصل لم يلبث أن رأى فى ذلك الاتجاه تطرفا شديدا فى واقعيته وماديته ، ولم يكن يرضى بالمثل عن الأسلوب أو الطريقة التى تدرس بالرياضيات فى كيمبردج ويرى فيها إهانة كبرى للتفكير المنطقى وأن مايقوله هيجل عن الرياضيات كان مجرد هراء صادر عن عقل مشوش ومرتبك ونابع من عدم الفهم علي مايقول الأستاذ شيلب Schilp فى كتابه عن فلسفة برتراندرصل الذى صدر عام ١٩٤٤ . ولم يجد مفراً إزاء ذلك كله إلا أن يلجأ إلى الرياضيات وإلى المنطق الرياضى، اشترك مع استاذه ألفرد نورث هوايتهيد فى وضع الأسس المنطقية للرياضيات وأدى ذلك فى آخر الأمر إلى تأليف كتاب (برنكيبيا ماتيماتيكا) الشهير وأصبح رصل يعرف فى المحل الأول بين الكثيرين بهذا الكتاب لدرجة أن اسم هوايتهيد يكاد يتوارى بجانب اسم رصل . وقد صدر الكتاب على أية حال فى ثلاثة مجلدات فى الفترة بين ١٩١٠-١٩١٣ .

اهتمامه بعالم الرياضيات

ولكن اهتمام رصل الحقيقى بالرياضيات وإقباله على الكتابة فيها يرجع فى الحقيقة إلى عام ١٩٠٠ حين أتيح له حضور مؤتمر فى باريس واستمع إلى عالم الرياضيات الإيطالى جوزيبى بيانو الذى ملك عليه أمره بطريقة تفكيره وعرضه لأفكاره عن الرياضيات وإسهاماته

فى ذلك المجال . وقد يكون رصل متأثراً فى إعجابه بهذا العالم الإيطالى فى تأليفه لكتاب عن مبادىء الرياضيات صدر عام ١٩٠٣ أى قبل أن يعكف مع استاذه وصديقه هوايتهيد مع تأليف كتاب برنكيبيا ماتيماتيكا بسبع سنوات ، وكان ذلك الكتاب خطوة مهمة نحو إقامته لنظريته عن التكوينات المنطقية التى لم تلبث أن عبر عنها بعد ذلك بسنوات فى الشعار الذى كان ينادى بضرورة إحلال هذه التكوينات المنطقية محل الاستدلال والاستنتاج من كيانات غير معروفة تماما

ولقد بلغ من اهتمامه وانشغاله بالرياضيات وعلاقتها بالمنطق كما ظهرت فى البرنكيبيا أن سيطرت الرياضيات على ذهنه بحيث يصف هو نفسه ذلك بقوله أنه حين عكف على الكتابة عن نظريته عن الأنماط بعد أن اكتشفها والتى يقوم عليها تفكيره المنطقى أخذ يكبت حماس زائد وكان يتوقع أن ينتهى من العمل كله فى وقت معقول ولكن العمل استغرق كل وقته وجهده بحيث كان يعمل عشر إلى اثنتى عشرة ساعة يوميا لمدة ثمانية شهور فى السنة لمدة ثلاث سنوات . وحين انتهى من الكتاب كان قد أرهق ذهنيا وعاطفيا أيضا بحيث جفت ينابيع الحب تماما نحو زوجته.

وليس من شك فى أن كتاب برنكيبيا ماتيماتيكا أو أسس الرياضيات كان له تأثير قوى لسنوات طويلة على الفلاسفة البريطانيين ومنهم فتجنشتاين . ولكن هناك من مؤرخى الفلسفة من يقول إن ذلك الكتاب رغم أهميته التى لايمكن إنكارها لم يؤخذ على أنه نموذج يمكن لغيره من الفلاسفة والرياضيين والمناطقة أن ينهجوا على نهجه وأنه لم يفلح فى إرساء المثال والنموذج الذى يمكن أن تقوم عليه أسس رياضية بعد ذلك .

وقد لايهم هذا الكتاب وكتاباته الأخرى فى الرياضيات إلا المتخصصين ، ولكنها مع كتبه الفلسفية العديدة تؤلف ثروة فكرية خليقة بأن تضعه بين كبار مفكرى القرن العشرين فقد شملت أعماله الفلسفية خارج نطاق الرياضيات بعض الموضوعات الأخرى الصعبة العميقة كما هو الشأن بالنسبة لكتابه عن «عرض نقدى لفلسفة لايبنتز» (١٩٠٠) وكتابه «فى معرفة العالم الخارجى» (١٩١٤) وكتابه عن «تحليل العقل» (١٩٢١) وكتابه عن «تحليل المادة» (١٩٠٦) وغيرها ولكنه إلى جانب هذه الأعمال التى يمكن ألا تسترعى اهتمام سوى الفلاسفة المتخصصين، حاول أن يدخل الفكر الفلسفى إلى نطاق أوسع من المثقفين من خلال سهولة العرض ولكن دون إسفاف أو تنازل عن المعايير التى يتمسك بها كبار العلماء والمفكرين فى كل مايصدر عنهم ، ومن هنا كان كتابه عن «مشكلات الفلسفة» (١٩١٢) وكتابه الذى ذا ع ذيوعا كبيرا جدا فى أوساط المثقفين عن «تاريخ الفلسفة الغربية» (١٩٤٥) وكان مصدر دخل كبير له خلال سنوات طويلة صعبة ، بل إنه كاد يكون هو المصدر الوحيد للدخل خلال تلك الفترة العصيبة التى وجد نفسه

وفيها بدون عمل فى الجامعات ، وعليه التزامات مالية إزاء اثنتين من الزوجات السابقات ، ثم اتسع نطاق اهتماماته وكتاباته بالتالى بحيث شملت عددا كبيرا من مشكلات الحياة والمجتمع والسياسة والتعليم والأخلاق وغيرها ، فكان كتابه مثلا عن «الزواج والأخلاق» (١٩٢٩) وكتابه عن «الطرق إلى الحرية» (١٩١٨) وكتابه «الحرية والتنظيم فى الفترة من ١٨١٤ - ١٩١٤» (١٩٣٤) وكذلك كتابه عن «السلطة والفرد» (١٩٤٩) بل إن اهتماماته بالسياسة ظلت تلازمه حتى أواخر حياته بحيث أصدر عام ١٩٦٣ وهو فى الحادية والتسعين من عمره كتابه عن أفكار سياسية ، وكان الاهتمام بالسياسة دائما أحد هواجسه منذ بداية حياته العملية والأكاديمية بحيث نجد أن أول أعماله فى ذلك المجال كان عام ١٨٩٦ وهو فى الرابعة والعشرين من عمره وبعد تخرجه من كيمبردج بقليل ونعنى بذلك كتابه عن «الديمقراطية الاجتماعية الألمانية».

● دخوله معترك السياسة

وقد حملته اهتماماته السياسية إلى خوض معترك السياسة على المستوى الواقعى وتمثل ذلك من ناحية فى إقدامه مرتين على ترشيح نفسه لعضوية مجلس العموم البريطانى دون أن ينجح فى الحالتين، وكان يعلن فى برنامجه الانتخابى عن مناصرته لحقوق المرأة وحقها فى الانتخاب وهو ماكان يرفضه الكثيرون من اليمينيين والمحافظين فى المجتمع البريطانى حينذاك ، كما تمثل فى معارضته للحرب ودعوته إلى السلام ومشاركته الفعلية فى الحركات الداعية لذلك ، وكلفه ذلك الحكم عليه بغرامة مالية أولا ثم السجن لمدة ستة شهور ، كما كلفه فقدان وظيفته فى الجامعة حين كتب عام ١٩١٦ كتابا عن فلسفة عدم اللجوء إلى الحرب. ولكنه على الصعيد الآخر لم يتردد فى إغضاب أصدقائه اليساريين حين اطلع على الأحوال فى الاتحاد السوفييتى وكتب عام ١٩٢٠ عن «البلشفية بين الممارسة والنظرية» كشف فيها عن مساوىء الحكم الشمولى وصدرت عنه بعض أحكام تحققت إلى حد كبير أيام حكم ستالين، وتكرر معه الموقف المعادى للحرب والدعوة إلى السلام وصدر عنه ما أغضب الحكومة البريطانية إزاء دعوته للإضراب وجلوسه فى الميادين مشاركة منه فى العصيان المدنى وتكررت أيضا إسهاماته فى المسيرات والمظاهرات وحركات الاحتجاج وقدم للمحاكمة للمرة الثانية لمواقفه السياسية . وهذا يذكرنا بمواقف سارتر السياسية وأوجه الشبه بين الفيلسوفين ولكن مع اختلاف مغزاه ، فحين أريد محاكمة سارتر للحكم عليه بالسجن رفض ديجول ذلك وقال عبارته الشهيرة «إن سارتر هو فرنسا» ولكن يبدو أن الحكومة البريطانية لم تكن تعتبر رصل هو بريطانيا وحكم القضاء البريطانى عليه

بالسجن لمدة شهرين ، ولكن من الإنصاف أن نذكر أن المدة تم تخفيضها إلى ستة أيام فقط أمضاها رصل فى المستشفى نظرا لتقدمه فى السن ولسوء صحته وربما أيضا احتراما لمكانته العلمية ومراعاة للشعور العام .

هذا التمرد نفسه وجد طريقه إلى نظرته إلى نوع التعليم الرسمى التقليدى فى بريطانيا وكتب فى ذلك فى مرحلة مبكرة نسبيا من حياته حين أصدر عام ١٩٢٦ كتابه «فى التعليم» ثم حاول أن يطبق آراءه المتحررة بشكل عملى فقام بمعاونة زوجته الثانية بإنشاء مدرسة تسير وفق مبادئه فى التحرر ليس فقط فى إبداء الرأى بل وأيضا فى الحب وألحق بها اثنين من أولاده هو نفسه ، ولكن لم تلبث سمعة المدرسة أن ذاعت وتكشفت الأمور عن بعض الفضائح العاطفية فى حياة رصل وزوجته نفسيهما، انعكس ذلك كله على حياته الأكاديمية ذاتها وانفصل رصل عن زوجته التى ظلت تشرف على المدرسة لعدة سنوات. وعلى أية حال فإن هذه التجربة باءت فى آخر الأمر بالفشل بعد أن أساءت إساءة بالغة إلى مكانة رصل بحيث رفضت إحدى الجامعات الأمريكية إتمام التعاقد معه على العمل فيها بعد أن كانت الاتصالات والمفاوضات حول ذلك قد تمت بالفعل .

وربما يكون الكثيرون من المثقفين قد انصرفوا بالفعل عن قراءة كتابات رصل بعد تصارع الأحداث والتغيرات الهائلة السريعة التى طرأت وتطرأ على الحياة الاجتماعية والسياسية وتغير الظروف والأوضاع فى العالم بحيث لم يعد يبقى الكثير من أعماله سوى جانبها التاريخى الذى يسجل آراءه فى الأوضاع التى كانت سائدة على أيامه . وكان هو نفسه يعترف بالتغيرات التى طرأت على حياته واهتماماته الفكرية التى تحولت من ميدان الفلسفة إلى ميدان السياسة إلى الأدب وكتابة القصة حيث صدرت له بعض القصص ومنح جائزة نوبل فى الآداب عام ١٩٥٠ وقد كتب رصل عن نفسه عام ١٩٥١ يقول إن ذكاءه كان يتدهور باطراد منذ سن العشرين ، فحين كنت صغيرا أحببت الرياضيات ولكن حين أصبحت الرياضيات صعبة بالنسبة لى تحولت إلى الفلسفة ، وحين أصبحت الفلسفة صعبة بدورها بالنسبة لى لجأت إلى السياسة ومنذ ذلك الحين ركزت اهتمامى على القصص البوليسية . ولكنه مع ذلك وحتى أواخر حياته كان يرفض قبول أى شىء على علته ويناقش كل شىء ويثير حوله الشكوك ويخضعه لأحكام العقل وهو القائل على أية حال حين تقدمت به السن «إننى أعتقد أنه ينبغى علينا أن ندخل إلى أفكارنا وآرائنا قدرا معينا من الشك» . وهذا القدر من الشك الذى يدفع إلى فحص ومناقشة حتى الأمور التى يسلم بها الفرد والمجتمع هو بعد أن يزول كل شىء وبعد أن ينسى كل شىء ـ هو أيضا القدر الباقى إلى الأبد من أحكام وأفكار ومواقف برتراندرصل ■

اللولب المزدوج

قصة اكتشاف تركيب مادة الوراثة كما رواها «جيمس واطسون»

بقلم : د. أحمد مستجير

لم يسبق أن أثار بحث بيولوجى من الضجة العلمية مثلما أثار بحث واطسون وكريك الذى نشر عام ١٩٥٣ ، والذى وصف التركيب الجزيئى لمادة الوراثة : الدنا ، لقد فتح هذا البحث الصغير ـ المؤلف من ٩٠٠ كلمة ـ آفاقا لم يفكر فيها الإنسان قبلا ، بل ولم يكن يحلم حتى بها ، لقد أشعل ثورة علمية يزداد تأجج نيرانها منذ ظهرت وحتى الآن ، ولن تهدأ هذه الثورة لقرن يأتى ، فلقد فتحت لنا الطريق بالهندسة الوراثية وغيرها كى نبحث حتى عن كنه الإنسان ذاته ، ربما كان لنا حقا أن نقارن هذه الثورة العلمية بالثورة التى أشعلها يوما تشارلس داروين عندما نشر عام ١٨٥٩ كتابه «أصل الأنواع» ، سوى أن ثورة وطسون وكريك قد وجدت المناخ العلمى والتكنولوجى كى تتخذ مجراها سريعا نحو التطبيق العلمى .

لقد بدأ التداخل بين علوم البيولوجيا وعلوم الفيزياء يؤتى أُكُله ، وحدة المعرفة ، الحلم الذى طالما راود عقول العلماء ، والذى تجلى من قبل عندما كتب إرڤين شرودجر ، الفيزيائى الألمانى العظيم ، كتابه الصغير «ماهى الحياة» عام ١٩٤٤ والحرب مازالت مشتعلة .



واطسون وكريك

والكتاب الذى نحن بصدد عرضه (اللولب المزدوج ، تأليف جيمس واطسون ، ١٩٦٨) لايعرف له مثيل فى أدبيات العلوم ، فيه يحكى واطسون الأمريكى قصة كشفه الخطير بكل تفاصيله يتحدث بصراحة غير مسبوقة عن العلماء كبشر : طموحاتهم ، آمالهم ، صراعاتهم الخفية ، نزواتهم ، أحزانهم إذ يخسرون

جولة فيحتشدون للتالية ، أفراحهم عندما ينتصرون على منافسيهم ، بل وحياتهم الخاصة ، كتاب تقرأ فيه جملا من قبيل : «إنك لايمكن أن تصبح عالما ناجحا إذا لم تعرف ، أن عددا كبيرا جدا من العلماء ليسوا فقط بلداء ضيقي الأفق، وإنما هم أيضا جد أغبياء !» ، ياله من سباق مجنون ، وهكذا كانت القصة حقا ، حتي ليكتبها كريك هو الآخر فيما بعد تحت هذا العنوان ، سباق يشعرك بأن ثمة ثمرة كانت قد نضجت وكأنما تبحث عمن يقطفها ، كان واطسون يدرك أن أول من يصل إلى حل التركيب الجزيئى لمادة الدنا سيحصل لاشك على جائزة نوبل ، ولقد وصل إلى الحل مع كريك ، وحصلا على الجائزة ، وخلَّدا اسميهما في عصرنا هذا لم يعد العلم يُوالى فقط من أجل إشباع فضول الإنسان وحبه للمعرفة ، وإنما أيضا من أجل جائزة نوبل ، ثم من أجل التطبيق العملى وبراءات الاختراع وما تدره من أموال ، لم يعد العالم هو ذلك المتبتل فى المحراب ، العائش بعيداً في برج عاجى ينظر من عل !

● موريس وروزى

عندما كتب شرودنجر كتابه كان هناك اتفاق عام على أن الجينات ــ وحدات الوراثة ــ هى صور خاصة من جزيئات البروتين ، لكن عالم البكتريا إيفرى بمعهد روكفلر أعلن فى نفس ذلك الوقت تقريبا أن الصفات الوراثية يمكن أن تنتقل من بكتيرة إلى أخرى عن طريق جزيئات من الحامض النووى الديوكى ريبوزى (الدَّنا) والدَّنا موجود بكروموزومات كل الخلايا ، ربما كانت الجينات جميعا إذن مكونة من الدَّنا ، ومن ثم لن يأتى حل لغز الحياة بحل البروتينات ، وإنما بحل الدنا . كان العمل على الدنا بإنجلترا فى ذلك الوقت هو الدائرة الخاصة بالفيزيائى الأعزب موريس ويلكنز ، بكلية الملك فى لندن ، ومن ثم لم يحاول فرانسيس كريك ــ بمعمل كافنديش بكامبريدج ــ أن يتدخل فيه ، بل أن موريس نفسه كان يثبط همة فرانسيس باستمرار إذ لم يكن يظهر الحماس الكافى للدنا ، وإنما كان يحكى عما تسببه مساعدته روزاليند فرانكلين له من متاعب.

لقد عيَّنها لحاجته إلى من يعاونه فى أبحاثه على إنحراف الأشعة السينية فى الدنا ، لكنها اعتبرت الدنا موضوعها الخاص ، ولم تعتبر نفسها مساعدة ، لو أنها فقط وجهت بعض الاهتمام إلى ملابسها ! لو أنها استعملت يوماً أحمر الشفاه ليتلاءم مع شعرها الأسود ! لو أنها تذكرت أنها أنثى ! كلا ، كانت متزمتة وهبت حياتها للعلم ، كانت ذات طبيعة عدوانية ، ولم يستطع موريس المهذب أن يجد طريقة مهذبة لرقتها !

كان يعمل فى حمية فى دراسة الدنا وقد وضع نصب عينيه لينوس بولنج فى

كال تيك ، أكبر علماء الكيمياء الأمريكان ، لاشك أن بولنج قد أدرك أهمية جزىء الدنا ، وإلا فلماذا أرسل إلى موريس خطابا يطلب نسخة من صور الأشعة السينية للدنا المتبلر ؟ فيضطره إلى الرد قائلا إنه « يود لو تفحص بياناته قليلا قبل أن يرسل الصور» ! أصبحت مشكلة موريس هى روزى ، وأصبح من الصعب عليه أن يتجنب فكرة أن أفضل مكان تعمل فيه النساء هو معمل شخص آخر !

● البطل يظهر على المسرح

فى ربيع عام ١٩٥١ كان جيمس واطسون فى كوبنهاجن يدرس الكيمياء الحيوية مع هيرمان كالكر ، فى منحة دراسية بعد الدكتوراة ، كان اهتمامه بالدنا قد ازداد بسبب رغبته فى دراسة ماهية الجين ، رغبة كانت معه منذ كان طالبا بالجامعة ، وعندما أصبح طالبا بالدراسات العليا بجامعة إنديانا ، كان يأمل أن يُحل سر الجين دون أن يضطر إلى دراسة الكيمياء ، وقد نمت هذه الرغبة، جزئيا عن الكسل فقد كان يكره الكيمياء والفيزياء ، ثم وجد أن الحل الأمثل لمشكلة جهله بالكيمياء هى الرحيل إلى خارج الولايات المتحدة ، دفعه إلى ذلك أستاذة الميكروبيولجى سلفادور لوريا، الذى كان يمقت كل الكيماويين ، كان لوريل يعمل على تكاثر فيروسات البكتريا «الفاچات» بعد أن بدأ الشك فى أن تكون شكلا من الچينات العارية ، وكان يرى أن الحل الحقيقى يتطلب فحص التركيب الكيمياوى للفيروس الچين ، ولما كان لايستطيع أن يدرس الكيمياء ، فقد رأى أن يشجع واطسون ، أول طلبته الجادين ، على التوجه إلى معمل أوربى ، فى ذلك الوقت كانت تجربة إيفرى قد أوحت بأن الدنا هو مادة الوراثة ، ربما كان تفسير التركيب الكيماوى للدنا إذن هو الخطوة الرئيسية نحو معرفة طريقة تضاعف الجينات ، كانت الحقائق الكيماوية عن الدنا قليلة ، ولم يكن معروفا سوى أن الأحماض النووية جزيئات عملاقة ، تُبنى من وحدات أصغر هى النوتيدات ، كان كل من يعمل على الدنا من علماء الكيمياء العضوية ممن لايهتمون بعلم الوراثة ، لم يقم واطسون فى معمل كالكر بأى عمل يمكن أن يقدم شيئا عن ماهية الچين وكيفية تضاعفه ، كان عليه أولاً أن يصبح كيماويا !

سافر فى رحلة إلى نابولى ليحضر اجتماعا عن «تركيب الجزيئات البيولوجية العملاقة» ، هناك نجده يقول «كنت فى بعض الأحايين أحلم فى يقظتى باكتشافى سر الچين ، لكننى لم أصل أبداً إلى أوهى فكرة محترمة ، فى هذا الاجتماع استمع إلى موريس ويلكنز وهو يعرض صورة للدنا مأخوذة باستعمال انحراف الأشعة السينية «وفجأة أثارتنى الكيمياء»، وابتدأ يفكر فى الإنضمام إلى ويلكنز ثبتت صورة الدنا فى خياله ، كان من

المستحيل أن يبعد عن ذهنه مفتاحا محتملا لسر الحياة.

○ لولب ألفا

فى طريق عودته مر بچنيف ليتحدث مع عالم الفاچات السويسرى چين فاجيل، الذى كان قد عاد لتوه من كال تيك حيث استمع إلى محاضرة أعلن فيها لينوس بولنج عن آخر مبتكراته : لولب ألفا ، الذى يحل - جزئيا - تركيب البروتينات ، كان بولينج يحاضر كما لو كان قد عمل طول عمره على المسرح ، وظل يخفى نموذج اللولب حتى قرب نهاية المحاضرة عندما كشف الستار بفخر عن آخر منجزاته ، لم يكن ثمة مثيل للينوس ، كان يقفز إلى أعلى وإلى أسفل على المنصة ملوحا بيديه كما لو كان «حاويا» ، لو أنه أظهر بعض التواضع !

وجد الحاضرون أن نموذج ألفا جميل حقا ، كان لينوس هو أول من اقترح نموذجا صحيحا عن تركيب جزىء بيولوجى عملاق . لكن ، أفلا تصلح طريقته هذه للتطبيق على الدنا ؟

عاد واطسون إلى كوبنهاجن ، وفى لهفة قرأ بحث لينوس عن لولب ألفا ، ثم أعاد قراءته ، كان البحث أعلى من مستواه ، عليه أن يدرس انكسار الأشعة السينية فى الجزيئات العملاقة ، ليس غير كامبريدج كتب إلى لوريا ليزكيه ، فوجد له مكانا هناك .

○ الوصول إلى كامبريدج

وفى ذات يوم من أيام الخريف عام ١٩٥١ وصل الشاب جيمس واطسون إلى معمل كافنديش بجامعة كامبريدج كان قد بلغ الثالثة والعشرين ، دخل بعد الغذاء إلى مكتب ماكس بيروتس - وهذا كيميائى نمساوى الأصل يعمل على إنكسار الأشعة السينية فى بلورات بروتين الهيموجلوبين ، يعاونه فى ذلك السير لورانس براج مدير المعمل وحامل جائزة نوبل وأحد مؤسسى علم البلوريات . قابله السير لورانس العجوز ورحب به ، كان فى وضع المتقاعد. كيف له أن يهتم بالچينات !؟ عاد واطسون إلى كوبنهاجن وجمع حاجياته ورجع ، استأجر شقة لم يمكث بها أكثر من شهر ، فقد طردته صاحبة المنزل لأنه لايخلع حذاءه عندما يدخل البيت بعد التاسعة مساءً ، الساعة التى يأوى فيها زوجها إلى فراشه ، كما أنه كثيرا ما كان ينسى تعليماتها بعدم شد السيفون بعد هذه الساعة ، عرض عليه زميله چون كندريو حجرة صغيرة بمنزله - حجرة رطبة ، بشكل غير معقول . قَبِل العرض ، بالرغم من أنه كان يبدو «دعوة مفتوحة للإصابة بمرض السل»! ، ثم اكتشف بعد فترة قصيرة فى المعمل جمال الحديث مع فرانسيس كريك .

◎ فرانسيس

لم يكن فرانسيس كريك متواضعا ، لا سمح الله ، هكذا يقول واطسون «ربما

كان كذلك في صحبة آخرين ، ولكنني لم أشهد هذا يوماً فأحكى عنه» ! كان في الخامسة والثلاثين عندما وصل واطسون معمل كافنديش ، كان مغمورا تماماً ، ذا صوت جهوري ، يتكلم بشكل أسرع ويصوت أعلى من أي شخص . فإذا ما ضحك ضج المعمل بأصداء ضحكاته ، كانت مناقشاته تزعج السير لورانس ، وكان صوته سببا كافيا لأن يترك براج المكان إلى حيث يجد الهدوء ! كان فرانسيس ينجذب إلى كل ماهو مهم ، فيشاكس زملاءه ويقترح عليهم على الفور تجارب يثبت بها آراءه ، ولم يكن يتورع عن أن يحكي أن فكرته الذكية ستدفع العلم إلى الأمام ، ونتيجة لذلك فقد كان ثمة خوف مكتوم منه ، يخافه الأصدقاء الذين قد ينجح في أن يفضح للعالم عقولهم المشوشة «التي تتخفى تحت السلوك المتحذلق الحذر لكليات جامعة كامبريدج».

◎ النوتيدات

لم يكن هناك عقبات تمنع واطسون من أن يتحدث مع فرانسيس بضع ساعات كل يوم ، علم منه بسرعة أن نجاح بولنج إنما يكمن في اعتماده على القوانين البسيطة للكيمياء التركيبية ، لم يكتشف لولب ألفا بالتحديق في صور الأشعة السينية ، إنما بالسؤال عن أي الذرات تحب أن توجد متجاورة ، كانت أداة عمله الرئيسية هي مجموعة من النماذج تشبه لعب الأطفال . لماذا إذن لايحُل الدنا بنفس الطريقة ؟ ما عليه إلا أن يصنع مجموعة من النماذج الجزيئية ثم يجلس يلعب بها حتى الحل ! صحيح أن لولب الدنا لابد أن يكون أكثر تعقيدا من لولب ألفا ، فهذا الأخير هو مجرد سلسلة من الأحماض الأمينية تنثني في تنظيم لولبي متماسك عن طريق روابط هيدروجينية . أما محيط جزئي الدنا فهو أسمك من أن يكون سلسلة واحدة من النوتيدات ، لابد أنه مكون من عدد من مثل هذه السلاسل.

يتألف جزيء الدنا من أربعة أنواع من النوتيدات هي الأدنين والجوانين ، والسيتوزين والثايمين ، هو ليس جزيئا منتظما إنما هو جزيء شديد التعقيد ، لم تكن النوتيدات مختلفة تماما ، فكل منها يحتوي على نفس المكونات السكرية الفوسفاتية ، إنما يكمن تمايزها في قواعد النتروجين التي يحتويها كل منها ، فهذه قد تكون بيورين «أدنين أو جوانين» أو بيريميدين «سيتوزين أو ثايمين» ، ولما كانت الروابط بين النوتيدات تشمل فقط مجاميع السكر والفوسفات ، فمن الممكن الفرض بأن الركيزة السكر فوسفاتية منتظمة تماما ، أما ترتيب القواعد فسيكون بالضرورة شديد التعقيد .

آه لو كان للدنا ، مثل لولب ألفا ، تركيب لولبي ! آه لو تمكن واطسون وكريك من صور الأشعة السينية الموجودة لدى موريس ويلكنز أو روزي !

لم يجد فرانسيس صعوبة في إقناع موريس بزيارة كامبريدج ، ولم يكن من الصعب اقناعه لما أتى بأن للدنا تركيبا لولبيا ، فلقد توصل وحده إلى ذلك بتفحص مالديه من صور انكسار الأشعة السينية للدنا ، كان يتوقع أن يكون للدنا تركيب من ثلاث سلاسل ، لكنه لم يكن يثق فى إمكان الوصول إلى حل باستخدام لعبة بولنج فى بناء النماذج .

ثم أخذ يحكي عن مضايقات روزى له، وكيف أنها ترفض الآن حتى أن تطلعه على نتائجها الجديدة ، وكيف أنه لن يتمكن من معرفة نتائجها إلا بالاستماع إلى محاضرتها التى ستلقيها بعد أسابيع ثلاثة ، ثم أنه قد رحب بواطسون إن رأى أن يستمع إلى المحاضرة ، وانهمك من ثم واطسون يدرس بعض البلوريات حتى يستطيع أن يفهم ماستقوله الآنسة !

● خناقة مع السير لورانس

فقد فرانسيس لفترة اهتمامه بالدنا بسبب خناقة حامية الوطيس مع السير لورانس ! كان بيروتس قد أعطاه بحثا له مع السير لورانس يعالج شكل جزىء الهيموجلوبين ، لاحظ فرانسيس أن جزءاً من المناقشة يعتمد على فكرة له كان قد طرحها وأذاعها على الجميع منذ نحو تسعة أشهر ورغم ذلك فلم يكن بالبحث ثمة شكر له ، أسرع إلى مكتب السير لورانس يطلب توضيحا ، إن لم يكن اعتذراً ، أنكر الأستاذ أن تكون له أية معرفة بفكرة فرانسيس ، وأحس بالإهانة البالغة من التضمين بالاحتيال وانتحال أفكار الآخرين لم يصدقه فرانسيس ، وقال له مايعنى ذلك ، قال له براج فى غضب وهو يصرفه من مكتبه إنه سيظهر جديدا فى أمر السماح له بالاستمرار فى العمل فى كافنديش بعد الانتهاء من الدكتوراة .

أسرع الزملاء بالتوسط لدى الأستاذ ، وبعد أن هدأ وضع على الرف مؤقتا فكرة رحيل كريك ، قال إن كريك يسبب له طنينا فى أذنيه ، لقد أمضى خمسة وثلاثين عاماً لاينقطع له حديث ، ورغم ذلك فلم ينتج عنه شيء ذو قيمة !

● أول نجاح لفرانسيس

بعد أيام قليلة من المشادة مع براج ، وصل إلى المعمل بحث لعالم البلوريات فى ث. ڤاند به نظرية عن كسر الجزيئات اللولبية للأشعة السينية ، كانت اللوالب آنئذ مركز اهتمام المعمل ، اكتشف فرانسيس على الفور عيبا جسيما فى محاولة ڤاند وانشغل على الفور يضع نظرية صحيحة ، ظل فرانسيس بقية الصباح صامتا وقد غرق حتى أذنيه فى المعادلات الرياضية ، ثم توقف بعد الغداء عن العمل ليصطحب أوديل ــ زوجته الفرنسية ــ إلى حفل لتذوق النبيذ ، وجده مملا ، عاد فى صبيحة اليوم التالى ومعه الحل ، ومثله أيضا توصل بيل كوكران إلى

نفس الحل إن يكن بطريقـــة أبسط ، ثم أنهما قاما بمراجعة لولب ألفا بالفحص النظرى لرسوم الأشعة السينية ، وكان التوافق من الجمال ليؤكد ضرورة أن تكون نظريتهما ونموذج لينوس صحيحين، وفى ظرف بضعة أيام كانا قد أعدا بحثا محترماً أرسل إلى مجلة «نيتشر» ، وصورة منه إلى لينوس ، كان هذا البحث هو أول نجاح أكيد لفرانسيس .

● محاضرة روزى

فى الوقت المنتظر لحديث روزى كان واطسون قد درس فى علم البلوريات مايكفى لتتبع محاضرتها ، كان يريد أن يفهم ما إذا كانت صور الأشعة السينية الجديدة التى ستعرضها تعضد التركيب اللولبى أم لا ، جلس فى قاعة المحاضرات يستمع إليها وهو يتخيل كيف ستبدو لو أنها خلعت نظارتها واهتمت قليلا بشعرها! كانت هى واثقة تماما من أن علم البلوريات هو الوسيلة الوحيدة لفهم تركيب الدنا ، لم تكن تهتم اطلاقا بنماذج لعب الأطفال التى يلعب بها بولينج ، فمن الممكن فقط لعبقرى كبولنج أن يلعب كصبى فى العاشرة ثم يصل بالرغم من ذلك إلى الحل الصحيح !

بعد المحاضرة اصطحب موريس واطسون إلى المطعم ليؤكد له أن التقدم الذى أحرزته روزى كان محدوداً ، وإن كانت صور الأشعة السينية التى عرضتها أفضل مما لديه .

● فى الطريق إلى اكسفورد

فى صبيحة اليوم التالى كان واطسون مع كريك فى القطار متجهين إلى اكسفورد لمقابلة دوروثى هودجيكين ـ أفضل العلماء الإنجليز فى علم البلوريات ، كان فرانسيس يريد أن يتباهى أمامها بنجاحه مع بيل كوكران فى وضع نظرية الانكسار اللولبى. سأل فرانسيس واطسون عن محاضرة روزى فلم يتذكر إلا القليل ، لقد كان الشخص غير المناسب لسماع روزى ، لكن البعض من هذا القليل قد أشار عند فرانسيس إلى أن النتائج تتمشى ظاهريا مع سلسلتين أو ثلاث أو أربع ، كانت القضية كلها تتركز فى الزاوية ونصف القطر عند التواء سلاسل الدنا حول المحور المركزى . قررا إذن الاهتمام بالنماذج التى تكون فيها الركيزة السكر فوسفاتية فى مركز الجزىء ، فهى وحدها الملائمة للتركيب الذى يعطى الانكسار البلورى الذى لاحظه موريس وروزى ، لكن ما الذى يعادل الشحنة السالبة لمجاميع الفوسفات فى ركيزة الدنا ؟ ليس فى العالم من هو أفضل من لينوس بولنج فى فهم ترتيب الأيونات غير العضوية فى الأبعاد الثلاثة ، نزلا من القطار ليتجها على الفور إلى مكتبه ، اشتريا كتاب بولنج «طبيعة الروابط الكيماوية» ، لم يكن للقاء دوروثى أهمية تذكر !

● نموذج السلاسل الثلاث

اكتشفا عند عودتهما إلى كافنديش أن النماذج الجزيئية ليست مرضية تماما ،

سيستغرق الأمر أسبوعاً لبناء نماذج جديدة ، هناك امكانية للوصول إلى حل فى ظرف يوم أو نحوه ، ابتدأ واطسون يضيف قطعا من الأسلاك النحاسية إلى بعض نماذج ذرات الكربون ليحيلها إلى ذرات فوسفور كبيرة الحجم ، ثم رأى فرانسيس أن المشكلة قد تحل بمجرد التركيز على أفضل الطرق لطى النوتيدات، تركه واطسون وانهمك فى تجميع نماذج السلاسل ، كلّ من بضع نوتيدات ، وعلى الغذاء ، نحيًا فكرة لولب وحيد السلسلة فهو لايتوافق مع البراهين الجديدة ، وبعد محاولات طويلة توصلا إلى نموذج من ثلاث سلاسل تلتوى حول بعضها بطريقة ينتج عنها تكرر بلورى كل ٢٨ أنجستروم على طول محور اللولب ، وهذا أمر تتطلبه صور موريس وروزى ، انتهى العمل فى النموذج صباح اليوم التالى ، كانت الخطوة المنطقية التالية هى مراجعة النموذج على مقاييس روزى الكمية بسرعة اتصل فرانسيس بموريس تليفونيا وأخبره أنه قد توصل إلى حل ، وأنه يود لو جاء ليراه ، قرر موريس أن يصل فى اليوم التالى ليرى النموذج وسيصطحب معه روزى وأحد طلبتها ، وصل الضيوف وتفحصوا النموذج ، كان ماتذكره واطسون من محاضرة روزى عن المحتوى المائى لعيناتها خاطئا ، لابد أن يحتوى النموذج الصحيح للدنا على عشرة أضعاف كمية الماء الموجودة فى النموذج المعروض ، النموذج لايصلح ، لابد أن يبدأ من جديد !

سمع السير لورانس بما حدث ، فأصدر قراراً بأن يتوقف كل من واطسون وكريك عن العمل فى أبحاث الدنا ، لايعقل أن يظل مسئولاً عن التهريج المشين لعبقرى فاشل ! غير أن أحدا لم يحاول تنفيذ القرار .

● فيروس الطباق الموزايكى

عليهما أن يبدأ من جديد ، النموذج الذى توضع فيه الركيزة السكر فوسفاتية فى قلب اللولب سيدفع بالذرات لتصبح أقرب إلى بعضها مما تسمح به قوانين الكيمياء ، انهمك واطسون فى التدريب على استخدام كاميرا الأشعة السينية ، إن الأمر سيتطلب بضعة شهور قبل أن يتمكن من تمييز اللولب ، بدأ يعمل على فيروس الطباق الموزايكى ، لم يتصور أحد أنه سيتمكن ذات ليلة من الحصول على أشكال أشعة سينية تثبت أن الحامض النووى لهذا الفيروس لولبى ! صباح اليوم التالى كان جالساً فى انتظار فرانسيس لم يتطلب الأمر منه أكثر من عشر ثوانٍ ليكتشف هذه الحقيقة !

● قانون شارجاف

أصبح الوقت مواتيا للتفكير فى بعض التناسقات المثيرة فى كيمياء الدنا التى اكتشفها إرفين شارجاف فى جامعة كولومبيا ، كان شارجاف قد اكتشف أن عدد جزيئات الأدنين فى كل تحضيرات الدنا يماثل عدد جزيئات الثايمين ، كما أن عدد جزيئات الجوانين معادل عدد جزيئات السيتوزين . كانت نسبة الأدنين ـ ثايمين

تختلف باختلاف الكائن الحى ، بعضها تزيد فيه هذه النسبة وبعضها تزيد فيه نسبة الجوانين ـ سيتوزين ، نبه واطسون كريك إلى هذه الحقيقة فلم تثر اهتمامه ، ثم لمع في ذهنه الشك في أن هذه التناسقات قد تكون مهمة .

● النسخ الذاتي للجين

القانون البيولوجي المضبوط هو قدرة الجين على أن يعطي نسخة منه طبق الأصل عند تضاعف الكروموزومات أثناء انقسام الخلية ، إن التضاعف يحتاج إلى إنتاج صورة مكملة «نيجاتيف» تعمل لتمثيل صورة جديدة أصلية ، كان فرانسيس يشعر أن تضاعف الدنا يشمل قوى جذب معينة تحدث بين الأوجه المسطحة للقواعد ، واتضح من جدله مع المتخصصين أن الأدنين يمكن أن يلتصق بالثايمين عن طريق أوجههما المسطحة ، وسيحدث نفس الشيء أيضا بالنسبة للقاعدتين : الجوانين والسيتوزين .

هذان هما زوجا القواعد التي لاحظ شارجاف وجدد فردي كل منهما بكميات متساوية ، لم يعد هناك سبب لاستبعاد فكرة أن أصل التناسقات التي لاحظها شارجاف تكمن في الشفرة الوراثية ، لابد أن بعض مجاميع النوتيدات تدل على أحماض أمينية معينة ، تساوى الأدنين والثايمين كان بسبب دور لم يكتشف بعد لترتيب القواعد .

تسلط على ذهن فرانسيس شعور بأن في قواعد شارجاف يكمن المفتاح الصحيح ، فحاول أن يثبت تجريبيا وجدد قوى تجاذب في المحاليل المائية بين الأدنين والثايمين ، وبين الجرانين والسيتوزين ، لكن جهوده لم تسفر عن شيء .

● خطاب من بولنج

كان بيتر بولنج ، ابن لينوس بولنج ، يدرس في كافنديش في ذلك الوقت ، تلكأ ذات يوم في منتصف ديسمبر ووضع قدميه فوق المنضدة ، وأخبر واطسون كريك أن خطابا قد وصله من والده يخبره فيه أنه قد توصل إلى تركيب الدنا ، ياللّه ! والتفاصيل ؟ ليس ثمة تفاصيل بعد ، أخذ فرانسيس يمرر الخطاب إلى واطسون ليقرأه ثم يعيده ثانية ، حلت الكارثة ، ستُهان المعامل الإنجليزية مرة أخرى على يد الأمريكان ، سيسرق بولنج جائزة نوبل منهما لكن ... ألا يمكن أن يكون لينوس خاطئاً ؟

حل الكريسماس ، ولم ترد أنباء جديدة ، ارتفعت معنويات واطسون وكريك. لو أنه قد توصل إلى الحل لملأ الدنيا كعادته ضجيجا ، لكن .. كيف يستطيع بولنج أن يصل إلى الحل وهو يجهل تماما ما تم في لندن ؟ وحتى لو كان قد اقترب من التركيب الصحيح فالأغلب أنه لن يقترب من سر تضاعف الجين.

مرت عطلة الكريسماس ، وبحث واطسون عن بيتر بولنج يسأله عن الأخبار، لاشيء لقد كتب والده بحثا عن تركيب الدنا ، وسيرسل منه نسخة إلى بيتر قريبا .

في الأسبوع الأول من فبراير وصلت نسخة من البحث إلى السير لورانس

١٠ - لولب

وأخرى إلى بيتر سلمها إلى واطسون وكريك ، كان النموذج لولبا ذا ثلاث سلاسل تقع في مركزة الركيزة السكرفوسفاتية ، النموذج لايشبه إلا المحاولة المجهضة لهما في العام السابق ، النموذج لاشك خاطيء! مجموعات الفوسفات فيه ليست متأينة . الحامض النووى ليس حامضا ! السلاسل بشكلها الموجود في النموذج ستنفصل مباشرة ويتلاشى التركيب !

أمعقول هذا ؟ لقد نسى العملاق مبادىء الكيمياء ! لكنه لن يتوقف الآن بعد أن يعرف الخطأ ، لابد أنه سيعمل ليل نهار - حتى يصل إلى التركيب الصحيح ! في المساء توجه فرانسيس وواطسون إلى مطعم يشربان معاً في صحة فشل بولنج ، لم يحصل بولنج بعد على جائزة نوبل ، عليهما أن يسرعا في العمل .

أسرع واطسون إلى موريس في لندن يخبره بأن نموذج بولنج للدنا خاطيء ، أكد له موريس أنه يظن أن اللولب حقيقة ، لكن المشكلة تكمن في عدم وجود أية نظرية بنيوية تسمح بتعبئة القواعد بشكل منتظم داخل اللولب ، الأمر الذى يعنى بالطبع صحة فرض روزى بأن القواعد لابد أن تكون في مركز اللولب وأن تكون الركيزة خارجة .

وفي القطار أثناء العودة قرر واطسون أن يبدأ في بناء نماذج ذات سلسلتين . العناصر البيولوجية لاتوجد إلا في أزواج أليس كذلك ؟

في اليوم التالى أخبر واطسون السير لورانس بكبوة بولنج ، فابتهج ولم يعترض على أن يقوم المعمل ببناء النماذج للقواعد الأربع ، وفي حديثه فيما بعد مع فرانسيس أكد واطسون علي ضرورة أن تكون القواعد معبأة فوق بعضها في وضع عمودى على ركيزة اللولب .

بعد أيام ثلاثة كان الميكانيكيون وقد جهزوا ذرات الفوسفور المطلوبة ، وحاول واطسون أن يبنى نموذجاً ذا سلسلتين مع ركيزة في القلب ، لم يكن النموذج مرضياء بدأ في اليوم التالى في تجريب نماذج ذات ركائز خارجية ، الموضوع لايزال صعبا .

● هيدى لامار تخطر عارية

مضى واطسون يتردد على دور السينما وهو يحلم في غير وضوح بأن الحل قد يصله فجأة في أية لحظة ، ذهب ليشاهد فيلم «النشوة» أملاً أن يرى هيدى لامار وهي تخطو عارية ، لكن مشهد السباحة الوحيد الذى تركه الرقيب الإنجليزى كاملا، كان هو صورتها العارية معكوسة على سطح ماء البحيرة ! امتلأ جو السينما بتعليقات للطلبة لاتقال ! مضى إلى مسكنه وقد أوغل الليل يحاول ولايزال حل سر القواعد التى ملأت حياته حتى وهو جالس في السينما جلس في مكتبه وأخذ يرسم صوراً صغيرة للقواعد ، محاولاً أن ينظمها بشكل يجعل الركائز الخارجية منتظمة ، حاول أن يطرد فيلم «النشوة» من ذهنه بالروابط الهيدروجينية التى تحفظ السلسلتين مجدولتين سويا ، لم يفلح فنام.

● الشبيه مع الشبيه

ولم تظهر فكرة معقولة إلا في منتصف الأسبوع التالى ، عندما أدرك واطسون التضمينات الرائعة لتركيب للدنا يكون فيه

الأدنين روابط هيدروجينية تشبه الموجودة فى بلورات الأدنين النقى ، ألا يجوز وجود إنزيم متخصص للأدنين «وأيضا للقواعد الثلاث الأخرى» يتسبب فى وجود الأدنين دائما فى مواجهة أدنين آخر على شرائط اللولب .

لو أن هذا كان هو تركيب الدنا فإن وجود سلسلتين مجدولتين سويا لهما تتابع قواعد متماثل لن يكون مجرد صدفة ، وإنما سيشير إلى أن إحدى السلسلتين كانت هى القالب الذى مُثلت عليه الأخرى، تحت هذا النظام تُنسخ الجينات بانفصال السلسلتين المتطابقتين ليمثل عليهما شريطان جديدان ، فينشأ جزيئان من الدنا مطابقان للجزىء الأصلى ، فكرة رائعة ، تركيب ينسخ ذاته ، هل يمكن أن تكون مثل هذه الفكرة الجميلة خاطئة ؟!

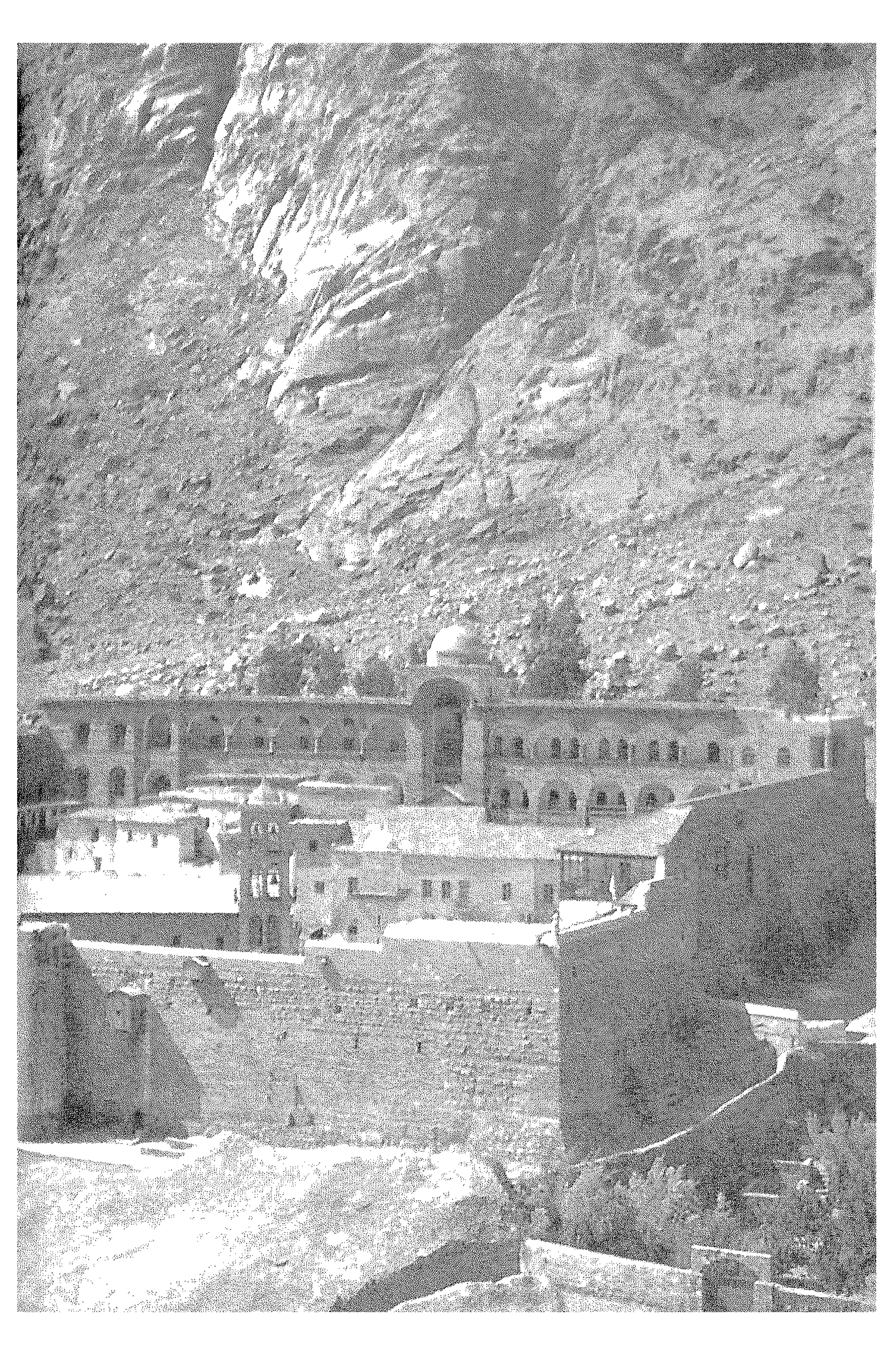
لكنها رغم ذلك تمزقت إلى شظايا ظهر اليوم التالى عندما أكد جيرى دوناهيو عالم البلوريات إن الفكرة لاتصلح بسبب خطأ فى تحديد أشكال القواعد ، حاول واطسون بعدئذ مع فرانسيس أن ينقذ فكرة الشبيه مع الشبيه ، لكن الأخير أكد أن هذا التركيب لايتفق مع النتائج البلورية ، ثم أنه لايعلل قواعد شارجاف القائلة إن الأدنين = الثايمين وإن الجوانين = السيتوزين !

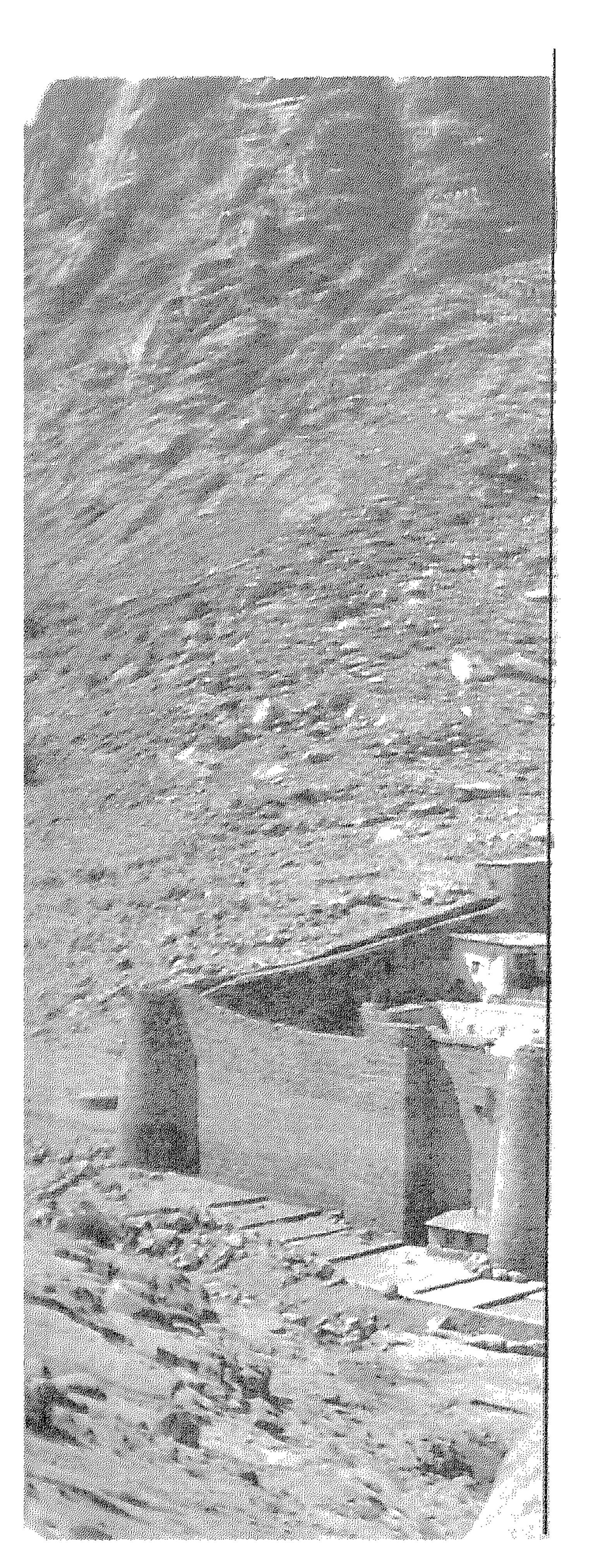
● الوصول إلى الحل

كان المكتب خاليا عندما وصل واطسون صباح اليوم التالى ، بسرعة أخذ يحرك القواعد إلى الداخل فى كل الأشكال الزوجية المحتملة ، فجأة لاحظ أن زوج الأدنين ــ ثايمين ، الذى تربطه رابطتان هيدروجينيتان ، يماثل فى الشكل زوج الجوانين ــ سيتوزين . بدا أن الروابط تنشأ طبيعيا ، إن متطلبات الربط الهيدروجينى تشير إلى أن الأدنين سيزدوج دائما مع الثايمين فقط ، بينما للجوانين أن يزدوج فقط مع السيتوزين ، فجأة ظهرت قواعد شارجاف كنتيجة لتركيب لولب الدنا المزدوج ، ثم أن هذا النموذج يشير على الفور إلى نظام تضاعف مقنع تماما ، فهو يعنى أن تتابع القواعد فى السلسلتين المجدولتين سويا مكمل لبعضه ، فإذا أعطينا تتابع سلسلة تحدد التتابع فى الأخرى أوتوماتيكيا يمكننا إذن أن نتصور سلسلة مفردة تعمل كقالب تُمثل عليه سلسلة أخرى ذات تتابع مكمل .

عندما دخل كريك واستمع إلى واطسون وتفحص النموذج جيدا ، وافق عليه ، وأضاف أن النموذج يقول إن ركيزة أى من السلسلتين لابد أن تجرى فى اتجاه مضاد لرفيقتها ، فى مساء ذلك اليوم أعلن فرانسيس بكل فخر أنهما قد توصلا إلى «سر الحياة» ! إن تركيبا له مثل هذا الجمال لابد أن يوجد ، وصل بولنج إلى كامبريدج وهو فى طريقه إلى بروكسل ، ألقى نظرة على النموذج ، وفى كياسة قال رأيه : نعم ، لقد توصل معمل كافنديش إلى الحل !

كتب واطسون وكريك البحث وأرسلاه لينشر فى مجلة «نيتشر» يوم الثلاثاء ٢ أبريل سنة ١٩٥٣ ، كان واطسون قد بلغ الخامسة والعشرين ، وفى عام ١٩٦٢ حصل ومعه كريك وموريس على جائزة نوبل، ثم كان لعلوم البيولوجيا جميعا أن تتحول إلى طريق جديد واسع . ■





المكان الذى تحدث فيه الرب إلى موسى

سانت كاترين

بقلم : عرفة عبده على

عندما تشرق الشمس على دير «سانت كاترين – St. cathrine» على قمة جبل طور سيناء ،تنكشف لنا نقوشاً لذكريات ، كتب لها أن تدوم إلى الأبد !..

أثر خالد .. وسجل تاريخى لمن يريد أن يستطلع سر الذين شيدوا للخلود ، ويستحضر صور الرهبان الذين أحلوا «سر المحبة» محل الخوف من مواجهة ما يجل عن الوصف «الله محبة» .

سانت كاترين

فهناك من المعالم والمشاهد ، ما يمكننا أن نجوس خلاله ونتأمله ، ومنها ما نكتفي بالمرور به ، وأخرى نحب أن نمكث ونعيش فيها ، وكلها تتميز بدرجة من الروعة .. بيد أن المعالم التي نحب أن نعيش فيها : هي أسمى من غيرها .ودير سانت كاترين من بين هذه المعالم !

وتروى الأساطير أن الدير قد شيد فى ذات المكان الذى آنس عنده موسى - عليه السلام - ناراً ، فأراد أن يأتى منها بقبس بالقرب من شجرة «العليقة» .. على قمة الجبل الذى صعد إليه موسى ، ليتلقى ألواح الشريعة الموسوية ، وعلى تل «الصفصافة» القريب ، صنع السامرى لبنى إسرائيل عجلاً من ذهب ليعبدوه ، فأضلهم عن ذكر الله !

● القديسة كاترين

عاشت القديسة كاترين بمدينة الأسكندرية ، فى عهد الأمبراطور «مكسيمانوس ٣٠٥ - ٣١٣م» نشأت في أسرة نبيلة ثرية ، كان عمرها ثمانى عشرة سنة ، حينما أبت أن ترتد عن المسيحية ، بل سعت إلى إقناع بعض العلماء فاعتنقوا المسيحية ، فما كان من الأمبراطور الطاغية إلا أن أمر بإحراق أولئك العلماء ، ثم أمر بتعذيبها أشد العذاب ، فربطوها فى عجلة التعذيب ، فتحملت آلاماً فاقت طاقة البشر ، وظلت ثابتة على إيمانها ، حتى أمر بقطع رأسها فاستشهدت عام ٣٠٧ .

وبعد مضى نحو خمسمائة عام ، رأى أحد الرهبان رؤيا ، بأن الملائكة قد حملت جسد القديسة ، ووضعته فوق قمة الجبل الذى يطلق عليه الآن «جبل كاترين» .. وأطلق اسمها على الدير ، بعد أن كان يعرف باسم دير العذراء .

ويرى بعض المؤرخين أن «كاترين» ليس اسماً للقديسة الشهيدة ، وإنما لقبت بهذا اللقب الذى يعنى فى الإغريقية «الطاهرة» .. وقد انتقلت شهرتها إلى الغرب ، وفى «الأسطورة الذهبية» كان حديث أحد رهبان مدينة روان بفرنسا ، الذى رحل إلى سيناء، فى القرن الثامن الميلادى ، وانقطع للعبادة بالدير سبع سنوات ، حتى انفصل اصبع من يد القديسة ، فحمله معه إلى ديره بمدينة روان .

ثم أسطورة «ريتشارد الأول» دوق نورماندیا ، الذى حملته الملائكة فى الرؤيا إلى هذا الدير ، حيث أدى الصلاة لله وسجد للقديسة كاترين !

ومن مدينة روان ذاعت سيرتها فى كل أرجاء أوروبا ، ورويت الحكايات عن «الأصبع الذى يخرج منه زيت مقدس يأتى بالمعجزات» ..!

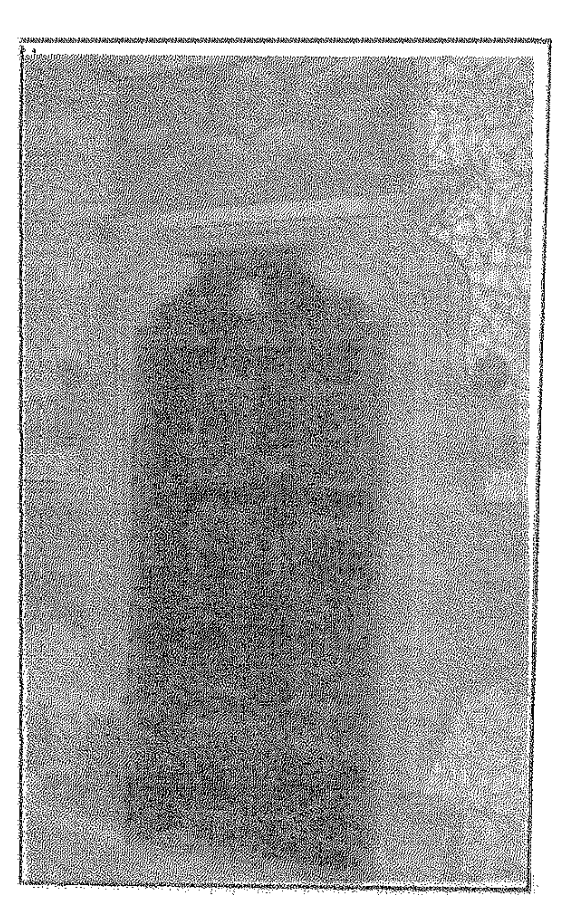
وروى فى تاريخ «جان دارك» شهيدة فرنسا ، أن القديسة كاترين قد ظهرت لها وشجعتها لتتحمل آلام الموت حرقاً !

● الدير

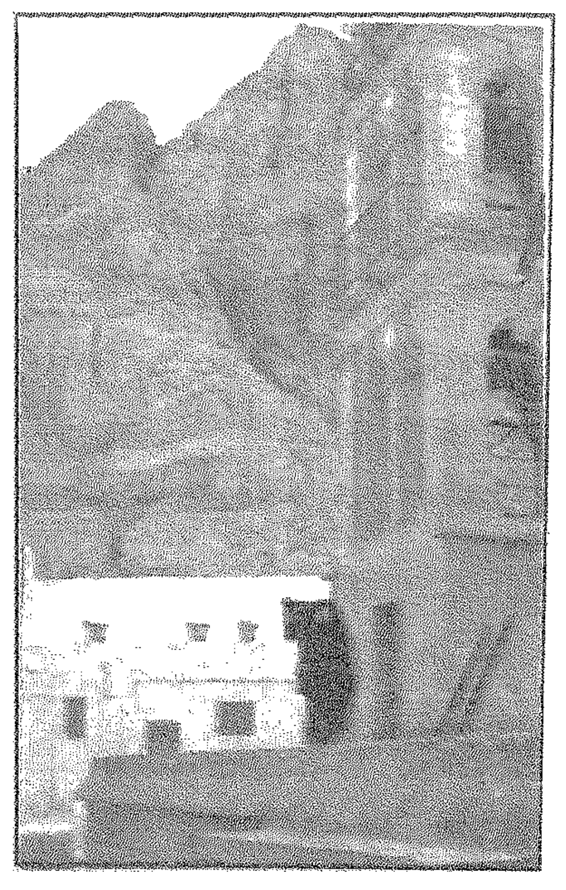
يقول «بروكوب» المؤرخ البريطانى : «فى المنطقة التى كانت تسمى بلاد العرب، وتسمى الآن فلسطين الثالثة ، صحراء واسعة لازرع فيها ولا ماء ، يوجد جبل ناء لايمكن الصعود إليه إلا بشق الأنفس ، قريباً من البحر الأحمر ، يسمى جبل سيناء ، يسكنه رهبان ونساك نذروا حياتهم للصلاة والصوم والتأمل والتفكر فى الآخرة .. ولما رأى الامبراطور «جوستينيان Justinian» أنه ليس باستطاعته أن يمدهم بأية مساعدة ، لزهدهم فى المال ومتاع الدنيا ، قرر أن يبنى لهم معبداً باسم السيدة العذراء ، وفى سفح الجبل شيد لهم حصناً عام ٥٢٧م ،وخصص لهم قوة من الجنود لحماية الحصن وتأمين الطريق إلى الأراضى المقدسة بفلسطين ، كما أمر ببناء كنيسة فى هذا المكان المقدس كانت تعرف بكنيسة «التجلى» ..

وتذهب بعض الروايات إلي عصر أكثر قدماً ، فتقول أن الامبراطورة «هيلانة Helena» والدة القيصر قسطنطين ، عقب زيارتها لفلسطين ، قد توجهت عام ٣٤٢م لزيارة رهبان جنوب سيناء ، فتأثرت كثيراً بزيارة الشجرة المقدسة عند سفح جبل موسى ، فأمرت ببناء كنيسة فى نفس هذا المكان عرفت باسم العذراء مريم ، كما أمرت ببناء حصن يحتمى به الرهبان من هجمات البدو .

وللدير سور عظيم مشيد بأحجار الجرانيت ، يرجع جزء منه إلى السور الأصلى الذي شاده جوستينيان ، ويحيط السور بعدة أبنية داخلية ، بعضها فوق بعض ، تصل أحياناً إلى أربعة طوابق ، تخترقها ممرات ودهاليز ، ومن اختلاف أشكال الأبنية ، يستدل الزائر على أنها شيدت في عصور مختلفة ، ويتراوح أرتفاع الجدران بين ١٢ و١٥ متراً ،



أحد أبواب الكنيسة الكبرى



راهب هبط من البرج بعد قرع الجرس



كتابات تذكارية لبعض الحجاج
على جدران الجامع



الجانب الايسر للكنيسة من الخارج

سانت كاترين

وسمكها نحو المترين وربع المتر ، وبالأركان أبراج ، فيبدو الدير شبيهاً بحصون القرون الوسطى .

وأهم المنشآت التى يضمها الدير : الكنيسة الكبرى ،كنيسة العليقة ، مسجد من العصر الفاطمى . مكتبة ، قلايا الرهبان والزوار ، معصرة ، مخازن للحبوب والمؤن ، مطابخ ، طاحونتان ، وعدة آبار .

والكنيسة الكبرى ، والتى تعرف بكنيسة «الاستحالة» شيدت على طراز «البازيليكا» الرومانية : رواق فى الوسط ، وجناحان بالجانبين الأيمن والأيسر ، يفصلهما صف من الأعمدة ، وبها منبران من الرخام ، أحدهما مخصص لمطران الدير ، وهيكل رائع بنى على شكل نصف قبة مرسوم عليها صورة للسيد المسيح ، وصور للرسل والأنبياء ، منها لوحة لموسى وهو يتناول الوصايا العشر من يد امتدت إليه من أعلى ، ولوحة لموسى وهو يخلع نعليه ، وصورة للملكة تيودورا ، وأخرى للامبراطور جوستينيان .. ونقوش باليونانية والعربية ، تخلد ذكرى من أسهموا فى ترميم الدير أو نذروا له الأموال ، بالإضافة إلى مجموعة نادرة من الأيقونات تزدان بها الجدران ، أقدمها وأثمنها أيقونتا العذراء وكاترين ، كما تجذب الأنظار مجموعة من القناديل النفيسة ، وعند الباب الجنوبى ، إلى يمين المذبح ، صندوق من الرخام الفاخر ،تحفظ فيه جمجمة القديسة ويدها التى تزينها عدة خواتم ثمينة من هدايا الزوار .

وفوق باب الدير ، لوحتان من الرخام ، منقوش عليهما بالعربية واليونانية هذا النص التذكارى :

«أنشأ دير طور سيناء وكنيسة المناجاة الفقير لله الراجى عفو مولاه الملك الرومى المذهب يوستينيانوس ، تذكاراً له ولزوجته تاوضورة ، على مرور الزمان حتى يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين ، وتم بناؤه بعد ثلاثين سنة من ملكه ، ونصب له رئيساً اسمه خولاس ، وجرى ذلك سنة ٦٠٢١ لآدم الموافق لتاريخ السيد المسيح ٥٢٧» .

وقد زار الدير ، خلال القرن التاسع عشر ، عدد من الرحالة والعلماء والفنانين

المستشرقين ، منهم الإيطالى «بيترو ديللافالى» والفرنسى «ريفو» والفنان البريطانى الأشهر «دافيدروبرتس» والعالم الألمانى «بوركهارت» الذى زار الدير أكثر من مرة ، وكان أول من وجه البحث العلمى نحو الوثائق والمخطوطات النادرة التى اشتهر بها الدير ، إلا أنه لم يتمكن من حصر كل محتويات المكتبة ، وقد وجه اهتمامه إلى دراسة المخطوطات العربية التى كان يبلغ عددها حتى ذلك العام ١٨٢٣ نحو سبعمائة وثيقة ، وقد أقام العالم «تيشندورف» عدة مرات بالدير فى الفترة من ١٨٤٤ إلى ١٨٥٩ ، وتمكن من الاستيلاء على عدد من المخطوطات والوثائق ،كان أشهرها المخطوط المعروف باسم «Codex syriacus» التوراة مكتوبة بالإغريقية ، يعود تاريخها إلى القرن الرابع الميلادى ، وقد نجح فى تجميع الصحف ، الواحدة تلو الأخرى حتى عثر على النصوص كاملة ، ثم أهدى هذا المخطوط الفريد إلى قيصر روسيا ، وفى عام ١٩٣٣ ، اشترته الحكومة البريطانية بمبلغ مائة ألف جنيه استرلينى وأهدته إلى المتحف البريطانى .

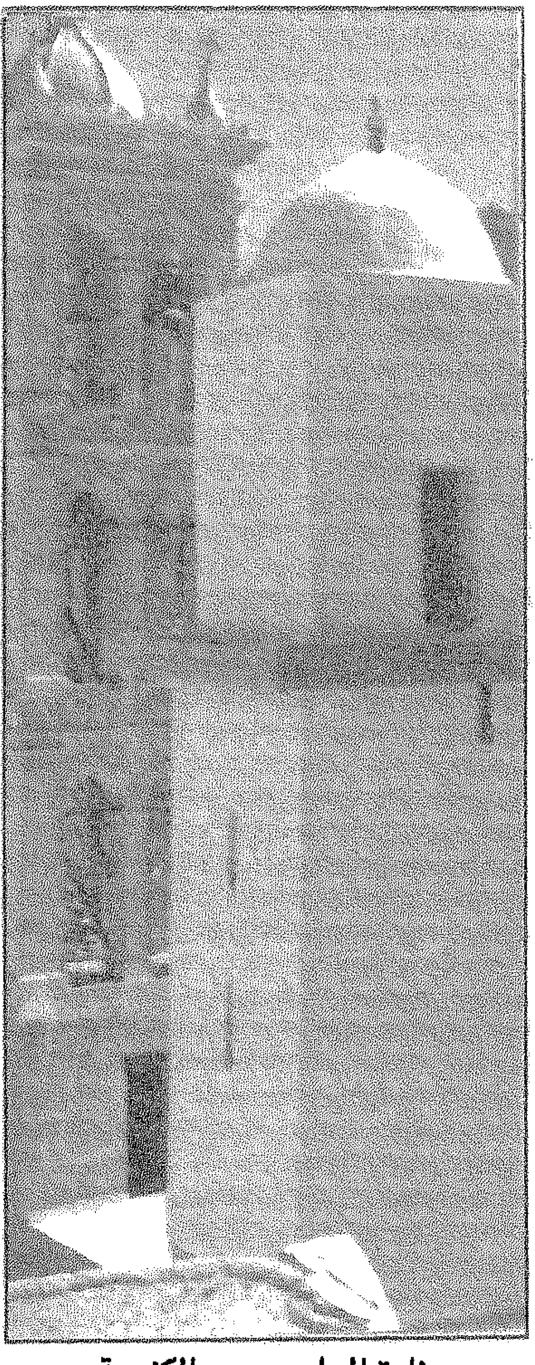
وتجدر الإشارة إلى ما سجله الشاعر والروائى اليونانى الأشهر «نيكوس كازنتزاكيس» فى يوميات رحلته إلى مصر عام ١٩٢٧ ، خلال زيارته لدير سانت كاترين ، فكان حريصاً أن يلزم نفسه بما توحى به مشاعره ، فى انطباعاته عن تلك الحياة الفطرية التى حفظت للشرق القديم الغامض سحره وفتنته .. فيقول :

«.. بعد رحلة استمرت ثلاثة أيام ، فى هذه الصحراء العابسة ، وجدت قلبى يثب لحظة مشاهدتى أشجار اللوز المزهرة ، تجولت بين واحات النخيل التى تحيط بالدير ، أصبحت إنساناً شرقياً ، فأنا هنا وسط هذه الجبال التى ذكرت فى الكتاب المقدس ، أقف على هذا المشهد الرائع الذى ورد ذكره فى العهد القديم ، حيث يرتفع أمامى من جهة الشرق «جبل المعرفة» المكان الذى ثبت فيه موسى «الأفعى النحاسية» .. وإلى الغرب سلسلة جبال سيناء والقمة المقدسة : المكان الذى تحدث فيه الرب إلى موسى ..

لم يتغير شىء فى موروثات وتقاليد الرهبان منذ آلاف السنين ، إنهم يعيشون كما كانوا فى عصر شعيب وموسى .. داخل كنيسة الدير، يبهر المرء لهذه الثروة، فالمشهد يزدحم بالشمعدانات الفضية ،

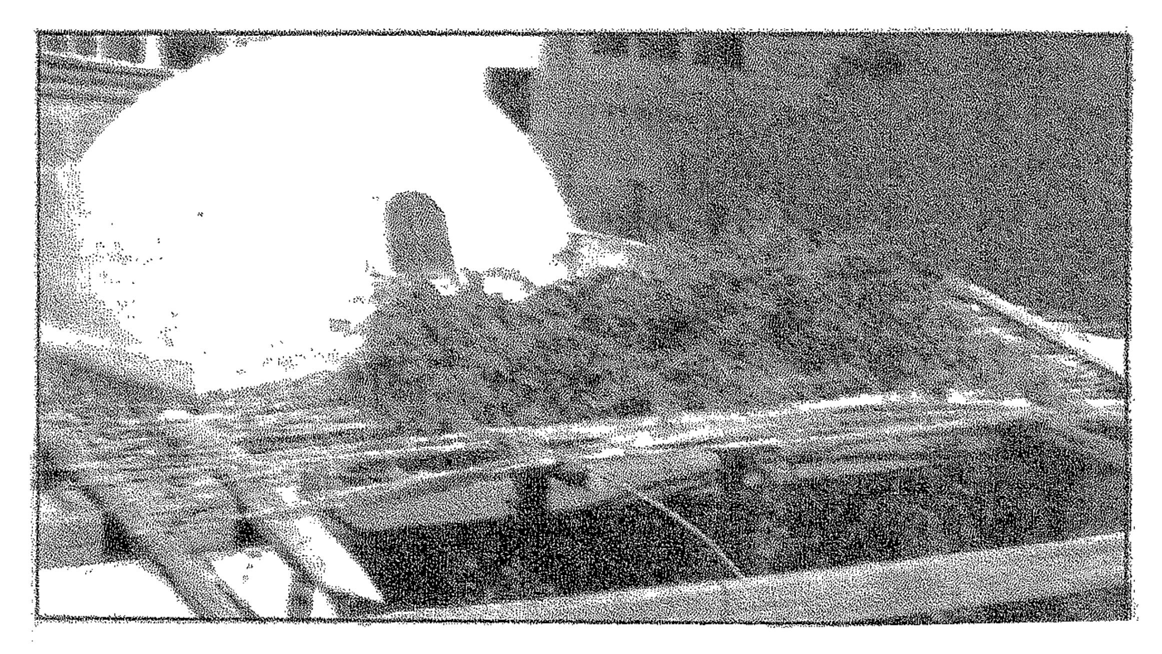
سانت كاترين

والأيقونات الذهبية تسمو فى أبهة وفخامة، تزدان بها الجدران والأعمدة ، وفى غرفة المقدسات تكدست أمامى صناديق الذخائر الضخمة ، وما تحويه من تذكارات مقدسة، أردية كنهوتية ذهبية و زخارف فخمة من الفن البيزنطى مغطاة باللآلى ، تيجان تتألق بالأحجار الكريمة ،تحف عاجية ، صلبان ثمينة ، تعاويذ وصولجانات .. كل هذا الكنز النادر حفظ بعيداً فى هذه الصحراء ، منذ قرون عديدة، متحف فريد لسير القديسين فى العالم .. أضاء «أمين غرفة المقدسات» الشموع ، وبدأ يصلى ، وبخشوع فتح التابوت الكبير ، الذى يسجي فيه جثمان القديسة كاترين ، كانت يدها محلاة بالأساور ، والتاج الملكى يزين رأسها .. فى الخارج ، ألقيت بنظرات رفيقة علي سور الدير وأبراجه ، تتوسطه الكنيسة ، وإلى جانبها ترتفع منارة جامع أبيض صغير ، وشعور عميق بأن الضمير الإنسانى السامى يتشكل هنا .. وهنا تنتصر الفضيلة على الصحراء !



منارة الجامع وبرج الكنيسة يتآخيان داخل الدير

واجهة الكنيسة الكبرى



شجرة (العليقة) المقدسة


كتاب
الهلال
يقدم
حريق
القاهرة
فى الوثائق
السرية البريطانية
بقلم:
مجدى نصيف
يصدر
٥ يناير - ١٩٩٦

تحية إلى مصر

في يوم التضامن العالمي مع الشعب الفلسطيني

شعر : هارون هاشم رشيد

(١)

ونأتي مرة أخرى   نحيِّي من هنا مصرا
نحيِّي أمة لاتعرف   التسويف والغدرا
نحيِّي شعبها الطيب   نسمو باسمه فخرا
نحيِّي العلم والايمان   والابداع والفكرا
نحيِّي الأزهر الشامخ   يطلع أنجما زهرا
تضيء الكون كل الكون   تهدى النور والخيرا

(٢)

هنا باسم فلسطين   التى لاتعرف النكرا
هنا الأقصى مآذنه   هنا تستعجل الأمرا
هنا القدس التى منها   محمد جاشها أسرى
تنادي ، ترفض الإرهاب   والأغلال والأسرا
هنا نحن على العهد   حفظنا عهدنا عمرا

(٣)

فيا مصر وإن طال   المدى بنضالنا صبرا
فمنك هنا لأمتنا   تجيء وتشرق البشرى
تضامنك الذى يبقى   لدعم نضالنا ذخرا
يشاركنا .. يؤيدنا   يشد لشعبنا أزرا
فأنت بحبنا أولى   وأنت بحبنا أحرى
معا شوقا إلى القدس   نصلى ، نرفع الذكرا
ولا نرضى لطهر القدس   أن يسلب أو يشرى
فيا مصر بكل الحب   شكرا مصرنا شكرا

قصة قصيرة

عودة الأسير



قصة : بثينة الناصرى

رسوم : سميحة حسنين

قبل كل شىء لم يكن المنزل الذى عاد إليه بيته ولا المرأة زوجته ولا الأولاد أبناءه.

أخذته السيارة إلى دار ذات طابقين مطلية باللون الأبيض تحيطها حديقة واسعة فى حى لم يطأه من قبل فى أطراف المدينة.

فى الداخل كانت ثمة امرأة نحيفة تتحرك عروق رقبتها بعصبية وينكمش جبينها بتقطيبة لم تفلح فى إزالتها الابتسامة التى غطت وجهها وهى ترحب به. اندفعت نحوه أول ما وضع قدمه داخل الدار ثم بدا وكأن شيئا ما قيّد اندفاعتها، فتوقفت ومدت له يدها.

أما الأولاد فقد جلسوا مسمرين على الأرائك داخل الصالة محرجين يبدو عليهم الاضطرار لالتزام السكون والأدب، وكأنهم فى حضرة ضيف سيغادر بعد قليل. كان يعرف ثلاثة منهم وإن كان عليه الآن أن يستعيد أسماءهم ويتأكد مَنْ منهم مَنْ .. أما الرابع أصغرهم فلم يتعرف عليه من قبل ولا يعرف حتى اسمه وكان قد ترك أمه حاملا به قبل عشر سنوات.

ابتدأ التعارف بأسئلة عامة منه وأجوبة مقتضبة منهم، وانتهى إلى صمت حرج معلق فوق الرءوس.

وسأل المرأة دون أن يستطيع رفع عينيه فى وجهها:

– متى اشتريتم المنزل؟

حتى صوتها تغير.. ازداد خشونة وهى تقول:

– لم نشتره جاهزا. لقد بنيته شبرا شبرا. بعت القديم واقترضت من البنك، وقد وقفت بنفسى على العمال. كان وقتا عصيبا.. مع مسئولية تربية أربعة أولاد. قال وهو يتلفت محدقا بالجدران والسقف:

– لقد أنجزت عملا رائعا.

قالت :

– وسددت آخر قسط من القرض العام الماضى.

– لم يدر فى خلدى أبدا أنكِ قادرة على الوقوف على قدميك. المرأة التي أتذكرها كانت تعتمد عليّ فى كل شىء.. عندما كنت أفكر بكم هناك كان هذا الشعور يعذبنى.

– كان وقتا عصيبا.. وعشر سنوات ليست بالقليلة.

– كلا

– والأيام تُغير الإنسان.

– نعم.

قالت بحماس :

– هل تحب أن تتفرج

علــى البيت؟

– كما تحبين.

* * *

غرفة النوم لم تتغير. الشيء الوحيد الذي لم يصبه التغيير، وأحس بالعرفان لها، فها هو الدولاب ذو الأبواب الأربعة وتاج الخشب المحفور بالورود والطيور ومنضدة الزينة بالمرآة المربعة التي يتوقف أمامها الآن فلا يرى الوجه الذي عرفه في هذه المرآة منذ عشر سنوات خلت. لقد ازداد نحافة، وبرزت عظام وجهه وابيض الشعر، وانحنى الكتفان بهمٍ يضيف سنوات زائفة إلى عمره الحقيقي.

عندما حان وقت النوم.. كان السرير هو نفسه الذي ضم أحلامهما معا في الماضي من زمانهما والذي طالما حلم أن يعود للنوم عليه، ولكن المرأة والرجل كانا غريبين. حاذر أن يمس جسدها وهو يغرق في جانبه من الفراش الوثير وأحس بها تنكمش بعيدا. حدق في سقف الغرفة يضيئه شعاع القمر المترامي عبر الشباك وراحت أفكاره تسبح ألوف الأميال.. تعبر الحدود إلى معسكر الأسر.. رأى وجوه من بقي من زملائه.. تخيلهم يفترشون الأرض غارقين في نوم ثقيل بعد عناء اليقظة، ترف على محياهم ابتسامات خاطفة وهم يحلمون بالعودة إلى البيت.

تصطك الأبواب الحديدية فجأة، ويصرخ بهم الحراس بخشونة: «انهضوا».

ينتبهون من أحلامهم ليجدوا أنفسهم يُدفعون بعصى غليظة إلى باحة المعسكر. يقعي في الطابور الطويل ويداه أعلى رأسه. يتمشى بينهم ضابط لم يتبين وجهه. كان يتحدث برتابة.. «لقد تخلى عنكم وطنكم.. إنكم هنا معنا إلى أن تتعفنوا».

تزداد أشعة الشمس لهيبا.. يحس بتشنج ذراعيه وساقيه وجفاف حلقه، وأنه لن يستطيع التحمل لحظة واحدة بعد الآن.. يقع على الأرض.. يتكالب عليه الحراس بالعصى ويسحب على الأرض من يديه حتى تكادان تنخلعان.. يُفتح باب زنزانة صغيرة مثل القبر ويرمى بها ويُغلق الباب باصطفاق يرن في دماغه. يرفع رأسه.. يجد أن سقف الزنزانة لا يسمح إلا بأن يجلس مطويا. يتكور في الظلمة وهو يئن أنينا متواصلا مثل حيوان جريح.

يسمع اسمه يتردد بإصرار. يفتح عينيه على سعتهما في الظلام.. ثم فجأة يغمر نور باهر المكان فيغمض جفنيه تألما.

– هل أنت على مايرام؟

– ماذا حدث؟

– لقد كنت تئن.

– كنت أحلم.

يحرك لسانا جافا في فمه وهو يضيف :

تأتى له المرأة بقدح ماء يعبه بلهفة.. ثم يستند على ظهر السرير. لم يعد يشعر بالرغبة فى النوم.

- هل تتصورين؟ كنت هناك أحلم كل ليلة بالبيت والآن وأنا فى البيت وعلى سريرى أحلم بالمعسكر.. يبدو أن العذاب لم ينته بعد.

- إذا كنت تريد أن تتحدث فإنى مصغية.

- كنت أريد أن أسألك لماذا لم تبعثى لى بطاقة أو رسالة طوال هذه السنوات؟

- لم نكن نعرف أنك على قيد الحياة.

- لماذا لم تحاولى أن تعرفى عن طريق الصليب الأحمر كما يفعل الجميع؟

- لقد حاولت فى البداية وقيل لي إن اسمك لم يكن مسجلاً لديهم.

قال بحدة :

- لو كنت بذلت جهدا أكبر لعرفت طريقى.. ولكنكم تخليتم عنى.

ارتفع صوتها وهى تقول :

- ليس لك أن تلومنى. كان ظرفا عصيبا وكان عندى من الهموم مايكفينى.. وقد اعتبرك الجميع مفقودا.

- من الواضح أن ظهورى مرة أخرى غير مرغوب فيه.. فها أنت ترفعين صوتك على.. والأولاد لا يعرفوننى.. فلم يكن عندك وقت لتحدثيهم عنى.. كنت مشغولة ببناء البيوت.. ماذا كان يعيب بيتنا القديم؟

نهضت من السرير وهى تقول بحزم :

- لن أرد عليك.

وغادرت الغرفة وهى تصفق الباب بشدة.

تلفت حوله مثل حبيس، شاعرا أن الجدران تضيق والسقف يهبط حتى لايستطيع أن يرفع رأسه.. فيكور جسده على السرير وقد ملأه إحساس أنه لم يغادر أسره وأن كل ما حوله زائف.. وكأنه يرى كابوسا لا ينتهى.. منزل واسع يكاد يطبق عليه.. أولاد غرباء.. وامرأة لايستطيع أن يمد نحوها إصبعا.

***

انسل مع نور الصباح محاذرا أن يحدث صوتا.. خرج إلى الحديقة.. هز غصن شجرة قريبة فتناثر الندى على وجهه وملابسه.. حانت منه التفاتة إلى جانبه فرأى أصغر أبنائه يجلس على السلالم المؤدية إلى المنزل. كان يضع رأسه بين كفيه الصغيرتين مستغرقا فى التفكير أو التأمل أو الحزن.

جلس إلى جانبه فبدا على الولد كأنه أُخذ على حين غرة فابتعد قليلا عن الرجل الذى سأله:

- ماذا تفعل هنا فى هذا الوقت المبكر؟

- أفكر.

- أليس عليك أن تذهب إلى المدرسة؟

- لا أريد أن أذهب إلى المدرسة.

- إذن لا داعي

للذهاب إلى المدرسة.. أنا أيضا أريد أن نجلس مع بعضنا لنتعرف أكثر.

- ولكنى لا أريد الذهاب لسبب آخر.

- لابد أنه سبب وجيه.. هل لى أن أعرفه؟

- بسبب صديقى.

- ماذا فعل؟

- إنه جارنا أيضا ولابد أنه عرف برجوعك وسيخبر الجميع فى المدرسة بذلك.

- وما ضير ذلك؟ ما العلاقة بين أن يعلم الجميع برجوعى ورغبتك فى الغياب؟

أحنى الولد رأسه وتمتم :

- لأن الجميع يعتقد أنك مت شهيدا منذ عشر سنوات.

ألجمته المفاجأة فوجم.. ثم تساءل بعد فترة صمت طويلة :

- هل أنت الذى أخبرتهم بذلك؟ ما الضير أن أكون أسيرا؟

لزم الولد الصمت.

- هل كنت تفضل أن أكون ميتا؟

اندفع الولد يتكلم بسرعة وقوة وكأنه يكرر درسا محفوظا :

- أصدقائى يقولون إن الشهيد يموت وهو يدافع.. أما الأسير فإنه جبان يستسلم من أجل أن يعيش.

ابتلع ريقه وهو يقول :

- فى الحرب الحقيقية الأمور ليست دائما على هذا النحو.. فليس كل أسير "استسلم لأنه جبان.. فقد يكون هناك خطأ ما فى خطة قائده.. أو تكون الذخيرة نفدت أو ربما بسبب تكاثر الأعداء على غير المتوقع.

هز الولد كتفيه غير آبه وقال :

- كنت أريدك أن تظل شهيدا فى عيون أصدقائى.. كيف أريهم وجهى بعد اليوم؟

- كنت تفضل أن أكون ميتا.

هز رأسه غير مصدق ما سمعته أذناه.. وازداد إحساسه بالمرارة واليأس.

ها هو أصغر أبنائه يتمنى ربما فى أعماقه لو لم يعد.. أن يظل رهن الأسر نسيا منسيا لئلا تحرجه عودته أمام أصدقائه.. ماذا عليه أن يفعل؟ هل يبحث عن حرب يقاتل فيها حتى يقتل؟ نهض فجأة وكأنه عزم على أمر، وصعد السلالم إلى باب المطبخ فالتقت عيناه بعينى زوجته التى كانت واقفة فى الباب وفهم من نظراتها أنها استمعت إلى المحاورة مما زاد من شعوره بالعار وبأنه غير مرغوب به فى هذا البيت. اخترق المطبخ بعزم وثبات إلى الصالة ومن هناك ارتقى السلم إلى غرفة النوم.

* * *

«نهض من جانب ابنه واتجه إلى المطبخ التقت عيناه بعينى بنظرة بدت لى مليئة باللوم والعتاب. ثم أخذ طريقه عبر المطبخ

إلى الصالة وصعد السلم إلى غرفة النوم. قلت فى نفسى: لندعه يهدأ ويعود إلى طبيعته. كان الأولاد قد ذهبوا إلى مدارسهم ما عدا الصغير.. وانهمكت بعدها فى تحضير الغداء فلم أفطن لشيء غير عادى.. حين رجع الأولاد.. هيأنا السفرة لتناول الطعام وجلسنا على المائدة كالعادة، لم نفتقده إلا بعد أن قال ابنى الكبير:

– أين هو؟

ولم يقل «أبى» فطلبت منه أن يذهب ليناديه. بعد قليل رجع قائلا : لا أحد يرد من خلف الباب المغلق. عندئذ شعرت بالانزعاج حقا وخطر لى خاطر لا أدرى من أين جاء : أن يكون قد فعل بنفسه شيئا.. فإنه منذ أن عاد لم يكن طبيعيا. هرعت أقفز على السلم يتبعنى الأولاد. دفعت الباب بقوة لأجد نفسى وسط فراغ الغرفة.

– أين أبوكم يا أولاد؟

– لعله فى الحمام؟

وذهب أحدهم إلى الحمام فلم يجده أيضا.

وكررت السؤال :

– أين أبوكم يا أولاد؟

قال الكبير :

– لقد اختفت حقيبته التى جاء بها.

قال الصغير :

– ربما عاد إلى حيث كان.

نهره آخر :

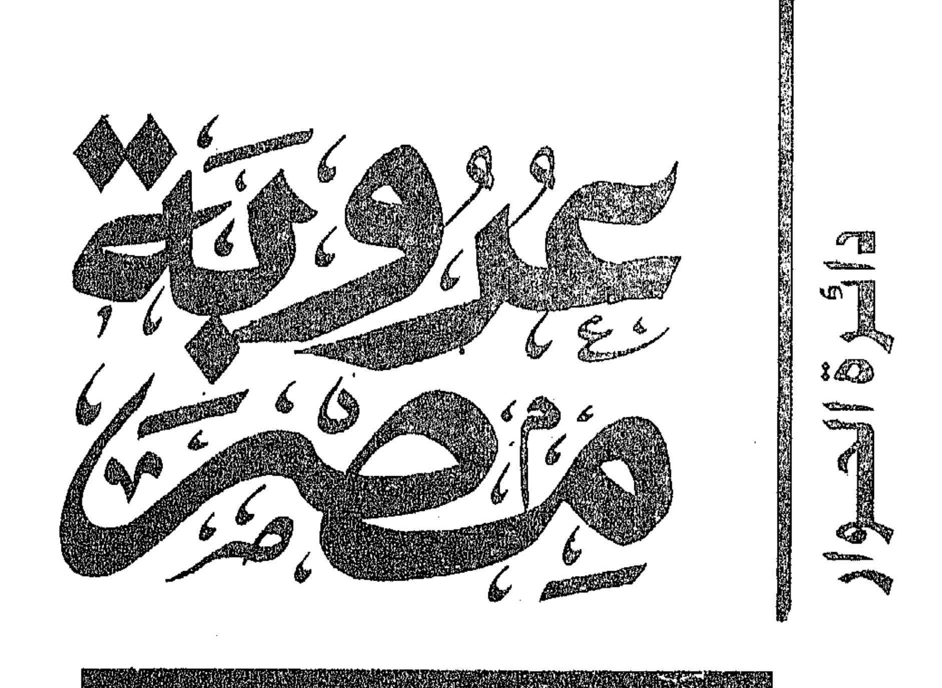
– اسكت يا غبى.».

***

«نهض من جانبى وهو يهز رأسه. كانت أمى تقف على باب المطبخ. تزحزحت من طريقه فاختفى فى الداخل.

وبعد لحظات دخلت وراءه. لم يكن فى أى مكان. ذهبت إلى غرفتى وأخرجت مجلاتى التى قرأتها مرارا وجلست أتصفحها مرة أخرى فلم يكن لدى ما أفعله غير ذلك. بعد قليل سمعت صوت أقدام تروح وتجيء فى الغرفة العليا. ثم توقفت مليا حتى ظننت أنه جلس أو نام على السرير ولكن بعد حين سمعت ما يشبه صوت أقدام متلصصة على السلم. واربت باب الغرفة وأخذت بعين واحدة، أرقبه وهو يهبط السلم حاملا حقيبته الصغيرة التى جاء بها البارحة تلكأ قليلا قرب المطبخ مترددا ثم تسلل خارجا من الباب الخلفى.. مشيت وراءه بخفة ملتصقا بالحائط، ومن فتحة باب الحديقة رأيته يتوقف وسط الدرب متحيرا، يتلفت يمينا تارة ويسارا تارة أخرى، ثم هز حقيبته وكأنه استقر على رأى، وسار يمينا فى اتجاه الشارع الرئيسى. تابعته بعينى وهو يبتعد.. ذلك الرجل النحيل ذو الشعر الأشيب والظهر المحنى الذى قدم إلينا بالأمس وبات الليل فى بيتنا وحدثنى قليلا هذا الصباح تابعته حتى تلاشى فى الأفق».

■



بقلم: د. محسن خضر

من كلمات سعد زغلول المحيرة حول إضافة «الصفر إلى الصفر» فى إشارته إلى جدوى العمق العربى لمصر، ووصولا إلى استجاباتنا لإجلاء العمالة المصرية من ليبيا مؤخرا، كيف يتعامل العقل المصرى مع مسألة العروبة؟

تظل الحالة الفكرية متجددة وملحة فى فتح ملف الهوية القومية لمصر، وبالتحديد على مستوى النخبة والتى يشكل خطابها موجه البوصلة السياسية عند صناع القرار: بالقوة أو بالفعل ويشهد الخطاب الفكرى المطروح بين المثقفين المصريين استقطابا حادا - أحيانا - بالنسبة للمسألة القومية، والموقف من عروبة مصر، وتبعاته، ومسئولياته، ومن علاقة السياسى بالثقافى فى هذا الصدد، وخاصة مع تداخل وتشابك الخطابات القطرية والقومية والإسلامية والليبرالية.

وسبق لنا أن بينا فى كتابنا «تعريب مصر السياسى» تطور هذه العلاقة، وتطور المسألة القومية فى الوعى المصرى الحديث منذ الثورة العرابية وحتى ما بعد كامب ديفيد، وبينما تقدم السياسى الثقافى فى المسألة القومية فى الحقبة الناصرية، فإن البرجماتية الرئاسية والشعبية قد ميزت الحقبة الساداتية كيف ينظر المفكر المصرى المعاصر إلى الإشكالية؟

موقف زكى نجيب محمود

كشف حوار السبعينيات الشهير (١٩٧٨ - ١٩٨٠) عن قناعة المثقف المصرى المعاصر القوية بعروبته، وبهويته القومية، رغم غلبة النزعة القطرية على الخطاب الرسمي، وما رفده من مناخ القطيعة العربية بعد رحلة القدس الشهيرة، وبينما انفرد توفيق الحكيم وحسين فوزى ولويس عوض بالتأصيل الثقافى للنزعة القطرية فإن عشرات المثقفين المصريين الذين شاركوا فى الحوار حاصروا هذه النزعة، وعملوا على امتصاص تردى المناخ والعداء الرسمى لالتزامات مصر القومية، ومجددين التأكيد على هوية مصر العربية، وإن كان هذا الحوار قد أفرز اتجاها فكريا خصبا لم يتم تعميقه أو الانتباه إليه بشكل كاف فى الخطاب الفكرى المنتج، وهو التأكيد على «العروبة الثقافية» فى مقابل «العروبة السياسية» التى تعرضت لتشكك وانتقادات حادة فى ظل القطيعة العربية لمصر، وهى حسبما عبر عنها زكى نجيب محمود «العروبة ثقافة لا سياسة - فى مساجلته بحوار السبعينيات المشار إليه - والتى أكد فيها على أن عروبة العربى هى وجوده الثقافى المتميز فهى لا تمنح بقرار كما يتوهم الواهمون، والوجود الثقافى عنده هو المقوم الأساسى للعروبة، وهذه العروبة كسب ثقافى يعيشه فى حياته اليومية، وهى خصائص ومناخ وتكوين



زكى نجيب محمود



جمال حمدان

يتمثل فى القيم ولقاءات وطرائق النظر كان زكى نجيب محمود يعبر عن احباط المثقف الليبرالى من فشل التكامل العربى أو الاندماجية من ناحية، أو الصيغ السياسية التضامنية كجامعة الدول العربية، ولذا كان تركيز هذا الرافد من المثقفين على فصل السياسى عن الثقافى، والتأكيد على تجذير وتدعيم العروبة الثقافية فى مقابل العروبة السياسية، ومن المهم فى هذه الرؤية، إلى جانب ما سبق، أمران: الأول تحديده لأبرز الخصائص الثقافية التى تجمع العرب، وهى: اللغة العربية، والميل إلى القفز السريع من الجزء إلى الكل، ومن التفصيلات إلى العموميات، وتكثيف

المعنى أى باختصار الميل إلى التجريد، والميل إلى الادراك بالقياس.

والأمر الثانى فى رؤية زكى نجيب محمود بمبدأ التضايف، أو التنوع الجدلى الخلاق بالنسبة لتعدد الانتماءات، فلا تناقض بين عروبة العربى من جهة ومميزاته الإقليمية من جهة أخرى، ويشبه الأمر بالدوائر المتداخلة من الأضيق إلى الأوسع، وأنه ليس هناك انتماء واحد، يقول فى ذلك «أننى مصرى عربى فى آن واحد، ولمصريتى ميزات انفرد بها دون سائر العرب، ولعروبتى خصائص أشترك فيها مع سائر العرب على أن مصريتى وعروبتى كلتيهما ترتد آخر الأمر إلى نسيج ثقافى بعينه. وقولى أننى مصرى عربى معناه هو أننى أعيش ثقافة دائرتها الداخلية هى المميزات المصرية الخاصة ودائرتها الأوسع هى الخصائص المشتركة بين العرب أجمعين».

ولكن تبقى رؤية زكى نجيب محمود رغم خصوبـتها فى الابقاء على الأرضية المشتركة بين العرب، ورفع الانتماء القطرى إلى دائرة أوسع دون أن تلغى الأولى بل تستوعبها وتعتز بها، فإنها دعوة سكونية جامدة لا تسعى لتحويل عناصر المواءمة والاتفاق والتوحيد إلى مشروع توحيدى بالفعل أو كيان واحد، فهى تشبه مجموعة من المستمعين العرب المختلفى الجنسيات فى حفل لفيروز أو أم كلثوم، فهم يصلون إلى نفس الحالة المزاجية أثناء الحفل، ولكن بعد انتهاء الحفل يمضى كل إلى غايته، دون أن يفكر فى أن يحول هذه الحالة الإنفصالية المشتركة إلى توحيد واقعى حقيقى ومستمر.. إنها رؤية مسالمة، عقلانية تقنع ما هو كائن، وكان دون أن تفكر فى تجاوز هذه الوضعية إلي وضعية أشمل وأكثر استدامة. مرة ثانية ينعكس كفر المثقف الليبرالى العربى بالجدوى السياسية للعمل العربى ولكن هذه الرؤية تحتفظ بالمقومات الثقافية المشتركة بعيدا عن اخفاقات وانتكاسات التجارب السياسية الفاشلة فى أغلبها

● رؤية جمال حمدان

وعند مفكر مصرى بارز كجمال حمدان للمسألة، ينبغى أن يكون الحديث عن الشخصية المصرية انغلاقا وتشبثا إقليميا بالمصرية إزاء «العروبة» فيتعامل مع المسألة من منظور علمى، فلا يعتبر الحديث عن الشخصية الإقليمية لمصر أو المغرب أو العراق يتضاد مع العروبة، ولا يعنى ردة إلى الفرعونية والبربرية والآشورية، ولا يتعارض القول بوجود عبقرية مكان خاص بكل أو بأى قطر عربى مع دعوة القومية والوحدة العربية، فالتأكيد على الفروق الطبيعية لا يستدعى تجاهلها فى سبيل تجانس طبيعى باهت موهوم، ولا يجدى فى مواجهة الفروق الجغرافية بين الأقطار العربية علميا أو قوميا تجاهلها فى سبيل وحدة جغرافية منمطة، فالشخصية الإقليمية عند جمال حمدان تشبه الشخصية الإنسانية مكونة من سمات وعناصر عديدة، ولا يعنى

التفرد فى الشخصية لكل قطر أى تنافر أو تضاد بينها ويؤكد على معنى الوحدة والتكامل، وتداخل القطرى والقومى فى الشخصية الثقافية لكل قطر عربى، فيقول:

«فمن الخلط إذن الحديث عن تفرد الشخصية الجغرافية وعبقرية المكان لهذا القطر أو ذاك يعنى تدعيم الدعوة الإنفصالية. وأن القول بتفرد أى أو كل قطر عربى هو تبرير للتجزئة السياسية أو سند للانفصال يتعارض مع القومية والوحدة العربية. وحقيقة الأمر أن الوحدة السياسية لا تأتى بالضرورة من الوحدة الطبيعية، وإنما من الوحدة البشرية تأتى. فالعبرة فى قيام دولة موحدة دستوريا هى وحدة الناس أى وحدة القومية بمعنى تجانسهم فى المقومات الأساسية من لغة مشتركة وتاريخ ملتحم ومصلحة وعقيدة سائدة، وهذه جميعا أركان متوافرة فى القومية العربية ربما كانت لا تتوافر فى قومية أخرى معروفة. والوحدة الوظيفية وحدة وظيفية تأتى من التنوع التركيبى لا من الوحدة التركيبية، وليس مما يضير قضية الوحدة العربية أو يحزب حركة القومية العربية أن تكون لكل قطر من أقطارها شخصيته الطبيعية المتبلورة بدرجة أو بأخرى داخل الإطار العام المشترك». - شخصية مصر ص ١٣ - ١٥

تكشف شهادة جمال حمدان عن القناعات التالية:

عروبة مصر


توفيق الحكيم


أحمد عبدالمعطى حجازى

١ - يتفق مع رأى زكى نجيب محمود فى نظرية تعود حلقات الانتماء للإنسان العربى فالانتماء القطرى حلقة أساسية داخل حلقة أو دائرة أكبر هى الانتماء القومى، ومما يثرى الشخصية العربية العامة تنوع البيئات الجغرافية والشخصية الإقليمية.

٢ - إن تفرد الشخصيتين الجغرافية والثقافية لكل قطر عربى يعنى التعدد، ولا يتعارض مع التكامل القومى الأوسع.

٣ - إن الوحدة الثقافية هى ركيزة الوحدة القومية لا غيرها، وهو فى ذلك يقترب من طرح زكى نجيب محمود السابق.

٤ - إن مكونى التاريخ والجغرافيا أهم مقومات الوحدة الثقافية العربية والتى بدورها أهم مقومات الوحدة العربية السياسية.

٥ - إن شخصية مصر المتفردة، والعبقرية لا تكتمل بمفردها، ولا تنغلق بذاتها بل تمتلك فضاء أوسع من فضائها وهوية أعرض هى هويتها القومية العربية، وبالتالى أزال حمدان حساسية الانكفاء القطرى عن المثقف المصرى، وحل اشكالية التعارض المزعومة بين القطرى والقومى.

● تراجعات التسعينيات

وفى التسعينيات انتقلت المسألة القومية فى مصر إلى أرضية جديدة قوامها الثابت فى تفاعله مع الطارىء والمتحرك والمستجد، ظلت العروبة الثقافية هى الضامن الأكبر، وحائط الصد الأخير أمام حدة الانكفاءات القطرية، والاتهامات العربية ضد المصريين، وخاصة فى ظل ما أحدثته أزمة الخليج الثانية من استقطابات حدة فى الرأى العام العربى قد أضعفت قناعات شرائح عديدة من المثقفين العرب ناهيك عن المواطن العادى بإمكانية محتملة أو مستقبلة للبعد السياسى للمسألة القومية وإمكانية إحراز نجاح فى هذا الصدد، ناهيك عن تصاعد المد الدينى فى الحوار العربى المطروح على حساب الهوية القومية منذ عقدين على الأقل.

وشجعت حرب الكويت - فى تطور أخر - وما تبعها من تصاعد النفوذ الأمريكى، والعجز العربى عن الاتفاق حول حل موحد أو تقديم حل عربى، شجعت على حدوث تراجعات ملحوظة لدى قطاع من المثقفين المصريين، وخاصة مع انهيار الاتحاد السوفييتى وتداعى المنظومة الاشتراكية والانتصار المؤقت للحل الرأسمالى والليبرالية العربية التى مثلتها دعوة «نهاية التاريخ»، والضعف الواضح فى موقف الأنظمة العربية الراديكالية، وتقدم فى هذا المناخ بمعطياته الجديدة تيار من الانكفاء القطرى، أو إحياء الدعوة إلى الانتماء إلى الثقافة المتوسطية الأوربية، والجهر بالعداء للقومية والتشكيك فى حقيقتها وجدواها وإمكان تحققها مستقبلا.

إنه حوار جديد يشبه حوار السبعينيات الشهير ولكنه يتم فى هذه المرة فى مناخ مختلف، وأرضية متغيرة نسبيا، ليس عامل القطيعة العربية لمصر هذه المرة، بل الضعف العربى ككل، واخفاق النظام العربى وتوفير الحد الأدنى من فعالية سياسية عربية.

● المسألة عند أحمد عبدالمعطى حجازى

يتمثل تحليل مثقف مصرى بارز هو أحمد عبدالمعطى حجازى معطيات المناخ الجديد وتحولاته..

إن حجازى القادم من «الرحلة الباريسية» لا يمتلك رؤية «وليدة» كرؤية الطهطاوى التنويرية، ولكن رؤيته «متحولة» عن رؤية قومية سابقة ومختلفة.

يقول حجازى فى حوار أخير «أعطينا

كل شيء للقضية العربية بما في ذلك الديمقراطية لأن ١٩٥٢ لم يكن يحدث لولا هزيمة الجيش في فلسطين ضمنيا بالنظام الديمقراطي وقبلنا بفكرة المستبد العادل لكي يسلم الشرف الرفيع. ثم أهدرت كل ثرواتك المادية لكي تحقق فكرة العروبة، تحرر اليمن من نظامه المتخلف وتساعد سورية والجزائر إلخ، ثم أعطيت رمال الصحراء دماء أبنائك مرات عديدة متتالية والآخرون يتفرجون، والآخرون يستثمرون هذه الدماء، الآخرون يزدادون ثراء وتتحول دماؤك إلى بترول وزيادة في الأسعار. الآن الأمر اختلف خرجت بهزيمة واقتصاد ضعيف وثقافة تأثرت وقبلت بفكرة التسوية لكن أية تسوية تلك التي تسوى بين مصر وجزر القمر في الجامعة العربية.

لا أقول أكف عن أكون عربيا ولكن ينبغي أن نتحدث رابطة ثقافية. هذه العروبة تحرمني من الحديث عن أجدادي الفراعنة، وتحرمني الحديث عن آبائي الأقباط لأنني في الوقت الذي يتحدث فيه الآخرون عن البابليين والآشوريين وهزيل وحمير. أنت ممنوع من الحديث عن رمسيس الثاني واخناتون. إن بعض القوى الفاعلة العربية يستند إلى طبقات لها مصالحها في أن تنهض مصر أو لاتنهض.

لقد انخرطت بكل ذرة من كياني في المشروع الذي قاده عبدالناصر وكل انحراف عن واجب الحاكم إزاء المحكومين الذين أعطوه كل شيء، رغم هذا، أنا معتز



حسين فوزي

لويس عوض

كل اعتزاز بما بذلته لأنني بذلته بصدق مصر كانت منخرطة بكل ذرة في ترابها مع هذا المشروع. كان مشروع شعب كل ما هنالك أننا كنا ناقصي وعي. وأعني نفسي وغيري ممن انخرطوا في هذا المشروع، وهو خطأ تقع فيه كل الشعوب غيرنا عندما تضحي بالديمقراطية، فالتضحية بالديمقراطية لا تحقق شيئا على الإطلاق».

من المهم أن نتذكر أن حجازي كان في بداية رحلته الباريسية قد أصدر كتابه المهم «رؤية حضارية طبقية لعروبة مصر» خلال سنوات القطيعة العربية والنبرة القطرية في الحقبة الساداتية، فكان أحد حراس الهوية العربية لمصر في هذه المحنة.

عروبة مصر

ولكن حجازى بتاريخه الناصرى العربى يعود لينقد فى حدة الحقبة الناصرية وموروثها الأيديولوجى.

يتفق حجازى مع زكى نجيب محمود وجمال حمدان فى إيمانهما بالركيزة الثقافية للعروبة، ناقدا بشدة وجهها السياسى متفقا مع زكى محمود فى هذا البعد، ولكن تبقى مسألة القطرى والقومى مهتزة عند حجازى، فانتماؤه القطرى الوطنى كمصرى يطل بقوة ناقدا سنوات «إخفاء كل خصوصية» وهو يعكس إخفاقه النظرى فى حل التناقض المحايث للاشكالية، ومقابل موقفى زكى محمود وجمال حمدان اللذين نجحا فى رفع التناقض السابق ببساطة من خلال ما أسمياه تعدد حلقات أو دوائر الانتماء، أو ما نسميه فى اجتماعيات الثقافة بالثقافة الكلية والثقافة الفرعية، Sub- Culture فلم ير زكى محمود وجمال حمدان حرجا أو تعارضا فى الاعتزاز بالانتماء القطرى المصرى، والانتماء العربى كغيرهما من الأدباء والكتاب المصريين.

وسبق أن قرأنا مثل هذا النقد عند جمال الغيطانى ومحمود السعدنى وغالى شكرى.. وهى حقيقة لا يجب أن نتغافل عنها، وهى تعود فى رأيى إلى ضعف الانتماء القومى، والخطاب العروبى فى العقدين الأخيرين، إلى جانب ما أثارته الحقبة النفطية من تعارض المصالح وجاذبية الغنائم، ولا تعود إلي تناقضه القطرى والقومى فى نفس الوقت.

ألا يجمعنا نجيب محفوظ وأم كلثوم ونزار قباني والطيب صالح أكثر ما يفعله «بيت العرب» ذاته أو المجالس الإقليمية فى المشرق والمغرب؟ ويبقى أن حجازى فى رأيه السابق يضع يده على مكمن الضعف فى مسألة العروبة وهى افتقاد القومى الديمقراطى، وينبه إلى أهمية ارتقاء الوعى القومى إلى إيمان عميق بالديمقراطية، نظرية وممارسة، حيث يحمل هذا الغياب - للديمقراطية - مسئولية فشل العمل القومي فى العقود الأربعة الأخيرة «فالتضحية بالديمقراطية لا تحقق شيئا على الإطلاق)

إن حجازى ينبهنا مجددا - برؤية المثقف التقدمى - إلى ما أسماه توفيق الحكيم من قبل «غياب الوعى» ودعوته إلى (عودة الوعى) وإن كان الحكيم يصفى حساباته بشكل أو بآخر مع الحقبة الثورية القومية العربية ككل وبوجهها الناصرى خصوصا.

ولكن تبقى القضية «المسكوت عنها» فى خطاب عبدالمعطى حجازى هى تلك العلاقة المذبذبة بين الرباط الغائم الذى يسوى بين الجميع ولا يميز بين (بداوة) و(حضارة). إن المفكر المصرى اليوم يؤكد على الطابع الثقافى للعروبة، وينفر من بعدها السياسى متأثرا بالانتكاسات المتتالية فى المسألة العربية، داعيا إلى فصل السياسى والثقافى، وتأسيس القومى على الثقافى وحده، ويرى فى المضمون الثقافى للعروبة المهمة الجديرة بالنضال، وهى دعوة تعبر عن العقلانية النقدية للمثقف المصرى المعاصر، ومراجعته الكبيرة للثوابت نفسها.

دائرة حوار

بقلم: د. عبدالوهاب المسيرى

اليهود وعقلية التذاكر

أدورنو وهوركهايمر والصراع العربى الإسرائيلى

كتب الدكتور مجدى يوسف فى مجلة الهلال عدة مقالات يدور معظمها حول مدرسة فرانكفورت، بعد أن لاحظ أن الحديث عنها باللغة العربية قد كثر هذه الأيام. ومع هذا ، لم يشر الكاتب إلى أى من هذه المقالات ، حتى نقرأها معه ، وحتى نعرف مضمونها الحقيقى ونشاركه فى الحوار ، خاصة وأنه يضيف قائلا : «وبلغ البعض من حماسه لتلك المدرسة أن تمنى لو وضع على رءوس أصحابها عقالا عربيا» . وهذه صورة أقل ما توصف به أنها خفيفة الظل، ولتتخيل معى هوركهايمر وأدورنو وقد لبس كل واحد منهما عقالا عربيا ، وكأنهم سياح فى الهرم أو بجوار ملهى ليلى ! ومع هذا تظل هذه الصورة خالية من أى معنى أو مضمون لأنه لم يتنازل ويفصل معنى الصورة .

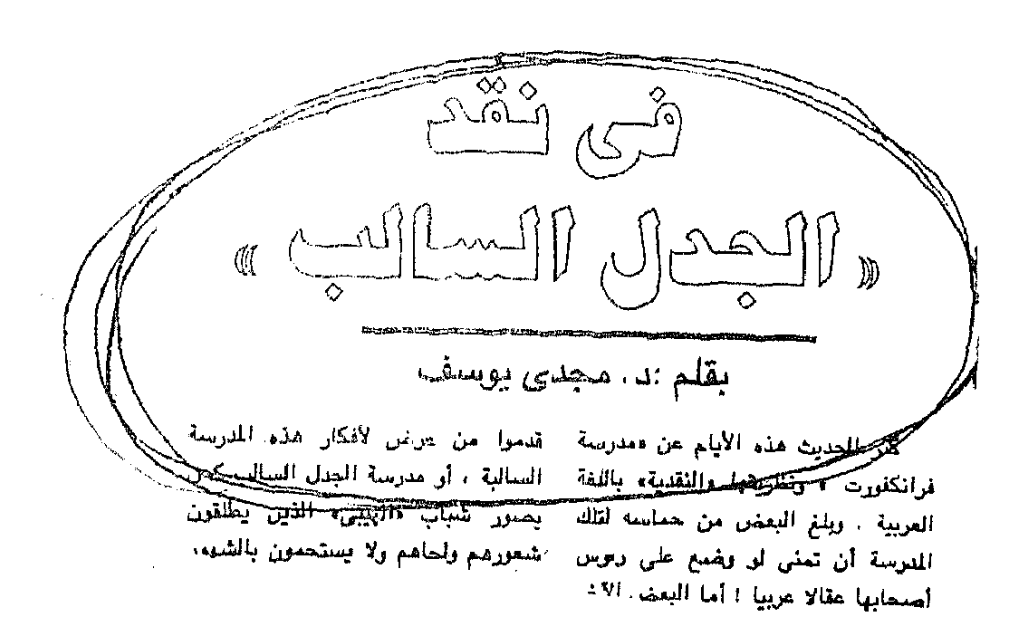
ويعض ما جاء في مقالات الدكتور مجدى يوسف يستحق الرد والبعض الآخر يتطلب التوضيح . ولأبدأ بنقطة وردت في مقال له بعنوان «في نقد الجدل السالب» (الهلال سبتمبر ١٩٩٥) . فقد أراد الدكتور أن يتناول موقف أحد مفكرى مدرسة فرانكفورت (أدورنو) من الصراع العربى الإسرائيلى ، ولكن بدلا من أن يعطينا صورة كاملة مركبة (وهو كما يخبرنا يجيد الألمانية والاطلاع على المصادر الأصلية) ، فقد اكتفى بأن أخبرنا عن مقابلة تمت بينه وبين أدورنو عام ١٩٦٨ ، حين أخبره أدورنو «بعضمة لسانه» أنه تعاطف مع إسرائيل . ويخبرنا الدكتور أنه بناء عليه ، وبعد هذه الواقعة الخطيرة المذهلة ، فقد الرغبة في الكتابة عن أدورنو!

قضية خطيرة

وطريقة تناول الدكتور مجدى يوسف لقضية بمثل هذه الخطورة والتركيب تثير الدهشة . لا بأس من أن يذكر الكاتب تجربته الشخصية ، ولكن أن يختزل فكر واحد من أهم كتاب القرن العشرين وأكثرهم أهمية بخصوص قضية بمثل هذه الأهمية في عبارة واحدة قالها صاحبها في لحظة عابرة ، فهذا يدل على جسارة اختزالية . فموقف أدورنو وهوركهايمر من المسألة اليهودية والصراع العربى الإسرائيلى مرتبط برؤيتهم للكون وللعقل الأداتى والعقل النقدى (أنظر مقالنا في الهلال أبريل ١٩٩٥) ولا يمكن أن تصل إلى فهم هذا الموقف إلا من خلال عملية تفكيكية تركيبية ، تتجاوز التلقي المباشر لعبارة واحدة قالها صاحبها !

كان اهتمام هوركهايمر وأدورنو باليهود واليهودية كبيرا ، ولكنه لم يكن مركزيا ، إذ إنه ينبع من اهتمامهما العميق بقضية أشمل وهى قضية القمع والتسلط (التى تشكل الانشغال الأساسى بالنسبة لهما) . فالعداء لليهود ليس ظاهرة مستقلة من وجهة نظرهما ، وإنما هو جزء من التعصب ضد الأقليات والعداء للديمقراطية على وجه العموم ، والعداء للرأسمالية في بعض الأحيان ، فاليهودى لا يسقط ضحية عداء خاص موجه نحوه هو بالذات (ومع هذا في كتاب الشخصية التسلطية يوجد مقياسان، واحد لقياس التسلطية، وآخر لقياس درجة العداء لليهود).

وظاهرة القمع ذاتها مرتبطة في فكر هوركهايمر وأدورنو بالعقل الأداتى وبرغبة الإنسان الغربى في السيطرة على الطبيعة، بل إن الحضارة بالنسبة للإنسان الغربى إن هى الا طقوس الهيمنة الكاملة



في نقد «الجدل السالب»

بقلم: د. مجدى يوسف

كثر الحديث هذه الأيام عن «مدرسة فرانكفورت» ونظريتها النقدية» باللغة العربية . وبلغ البعض من حماسه لتلك المدرسة أن تمنى لو وضع على رءوس أصحابها عقالا عربيا ! أما البعض الآ قدموا من عرض لأفكار هذه المدرسة السالبة ، أو مدرسة الجدل السالب كل يصور شباب «الهيبي» الذين يطلقون شعورهم ولحاهم ولا يستحمون بالشهو،

على الطبيعة، ولذا فهي في واقع الأمر ليست حضارة وإنما مدنية وحسب. ويربط أدورنو وهوركهايمر بين العداء لليهود من جهة والعقل الأداتي من جهة أخرى، أي أن ظاهرة العداء لليهود تخرج من نطاق الاقتصادي والسياسي لتدخل في نطاق المعرفي والحضاري . والعقل الأداتي عقل يود السيطرة الكاملة على الطبيعة، وهو اتجاه يتصاعد مع الفاشية . ولكن هذه الرغبة في السيطرة غير المحدودة تولد عند صاحبها إحساسا بالذنب، ولذا فالفاشي يسقط طموحه وطمعه على اليهودي فيحوله إلى الباحث عن السيطرة الكاملة.

ولكن لا يكتفي هوركهايمر وأدورنو بهذا التفسير بل إنهما يتعمقان في القضية . فهما يذهبان إلى أن من يحاول السيطرة على الطبيعة لا يرى سوى القوة، ولذا فصورة السعادة بلا قوة أو سلطة او هيمنة تستفزه إلى درجة لا يمكنه تحملها، لأن مثل هذه السعادة ستكون سعادة حقيقية (على عكس السعادة الزائفة التي تستند إلى القوة). واليهود - حسب رأي هوركهايمر وأدورنو - يتمتعون بسعادة لا تستند الي أي قوة أو سلطة، بل إنه يتم خلط اليهود بالطبيعة ذاتها في الوجدان الغربي فهم يتقاضون أجورا بلا عمل، ولهم منزل ووطن بلا حدود، ودين بلا اساطير. ولكن المفارقة الكبرى تكمن في أن اليهودي رمز الطبيعة هو أيضا رمز المدنية في الوجدان الغربي، والمدنية معادية للطبيعة. فاليهودي مرتبط دائما بعمليات الريادة والتقدم والهيمنة على

الطبيعة. ولذا حينما تمردت الطبيعة على الحضارة (أى المدنية) كما حدث مع ظهور اللاعقلانية فى الغرب، أصبح اليهود هم موضع الكره. فالفاشية تجعل الثورة ضد قمع الطبيعة آلية لقمع الطبيعة. وهكذا تمت التضحية باليهود الذين كانوا آلية الهيمنة على الطبيعة، من أجل آلية اكثر شمولا للهيمنة عليها . إن هوركهايمر وأدورنو يذهبان إلى أن ظاهرة العداء لليهود ليست انحرافا عن الحضارة الغربية فهى مرتبطة بظهور العقل الأداتى الذى لا يضطهد اليهود وحسب بل وكل البشر والطبيعة بأسرها ولذا فإنهاء ظاهرة العداء لليهود لن يتحقق إلا مع محاولة قمع الطبيعة ذاتها.

ولكن بعد عام ١٩٤٧ وبعد سقوط هتلر أضاف هوركهايمر وأدورنو بعدا جديدا لإدراكهما لظاهرة العداء لليهود. فقد بدأ يريان أن العداء لليهود ليس مرتبطا بالعقل الأداتى وحسب، وإنما مرتبط بالعقلية الاختزالية «عقلية التذاكر» ككل. والفكر الفاشى «فى تصورهما» ليس مهما فى ذاته وإنما تعود أهميته إلى أنه تعبير عن هذه العقلية التى تتسم بالإسقاط الزائف ومحاولة إلغاء الموضوع تماما وتصفية الآخر. فالعداء لليهود متجذر فى اتجاه العقل الغربى نحو إنكار ما هو ليس شبيها لى «الآخر» والذى بشجع النزعة الشمولية نحو الهيمنة للحضارة الغربية. واليهود بهذا المعنى برفضهم أن يندمجوا فى هذه الحضارة يشكلون عقبة أمام عملية دمج البشر وإدخالهم فى شبكة السببية والهيمنة والإدارة الرشيدة حتى أصبح المجتمع الإنسانى مجتمعا ذا بعد واحد.

ثم بدأ هوركهايمر يحاول تفسير بعض جوانب فكره ورؤيته للكون بالعودة لبعض العناصر الأساسية فى العقيدة اليهودية. فصرح بأن رفض مدرسة فرانكفورت أن تصف المجتمع المثالى هو المعادل الحديث للخطر اليهودى القديم على النطق باسم الإله. وفى محاولة للتفريق بين فكره وفكر ماركس يرى هوركهايمر أن ماركس تأثر بالمشيحانية اليهودية «التى تركز كثيرا على فكرة المجتمع الطوباوى». أما هو فيرى أنه تأثر بتحريم تصوير الإله. ولكن رغم هذا التحريم يظل الإله هو محل التطلع والتشوق.

عنصر النفي

إن ما يحاول هوركهايمر قوله هنا هو إن فكر مدرسة فرانكفورت لم يسقط فى عقلية نهاية التاريخ المشيحانية على طريقة ماركس، بل احتفظ بالنسق مفتوحا وبالتجاوز حقيقة لا نهائية . وهو يرى أن

ذلك هو الترجمة العلمانية لبعض المفاهيم اليهودية «مثل تحريم نطق اسم الإله وتحريم تصويره». وإذا أردنا ترجمة هذا المصطلح شبه الدينى إلى مصطلحنا الفلسفى لقلنا إنه بينما ورث ماركس الحلولية اليهودية والنزعة نحو التجسد فيها، فقد ورث هوركهايمر النزعة التوحيدية اليهودية التى ترى الإله منزها عن المادة «الطبيعة والتاريخ» لذا لا يمكن أن يتجسد الإله وينتهى التاريخ، وينغلق الجدل وينتهى التجاوز. ويرى هوركهايمر أن اليهود فى علاقتهم بالبشر بهذا يمثلون عنصر النفى «بالمعنى الفلسفى» وهو ظاهرة صحية إيجابية، إذ إنه بدون هذا النفى يصل التاريخ إلى نهايته وتسود الشمولية.

وتطور موقف هوركهايمر من اليهود هو تعبير عن تطور موقفه من الماركسية. فقد انتقل من الإيمان بالبروليتاريا كآلية استرجاع الكل إلى الإيمان بأن أكثر ما يمكن أن يؤمل فيه الإنسان هو الاحتفاظ بجيوب من النفى، ومن ثم تزايد اهتمامه باليهود وبالمسألة اليهودية وبالعقيدة اليهودية. ومن هذا المنظور أصبح المفكر صاحب العقل النقدى «فى مقابل العقل الأداتى» هو اليهودى الذى يرفض أن يستوعب فى آليات المجتمع وأصبح العداء لليهود هو تعبير عن تلك الاتجاهات فى المجتمعات التى تنحو نحو الشمولية والسيطرة على الطبيعة والإنسان.

لكل هذا كانت استجابة هوركهايمر لتأسيس الدولة الصهيونية مبهمة للغاية، فاليهود بعد أن كانوا جيبا من جيوب النفى الأساسية ورمز أمل تحقيق العدل فى نهاية الزمان تحولوا إلى مجرد أمة مثل كل الأمم لها دولة قوية يتبعها جيش له قياداته العسكرية وأصبح يتبعها صناديق الجباية الخاصة بها «أى أن هوركهايمر كان يرى، شأنه فى هذا شأن روزنزفايج أن اليهود «شعب غير تاريخى» وأن دخوله التاريخ ومعترك السياسة هو تصفيته لهويته اللاتاريخية هذه!».

إن الصهيونية فى تصور هوركهايمر هى تعبير عن عدم الإيمان بالتعددية السياسية والثقافية، فإسرائيل هى مجرد دولة، قد تكون دولة مضطهدة تأوى المضطهدين ولكنها مع هذا ليست صهيون التى وردت فى العهد القديم حيث يعيش كل الأتقياء من كل الشعوب فى سلام.

أزمة سينما وموجة مهرجان

بقلم: مصطفى درويش

●● مع نهاية عام ١٩٩٥ ، لم يبق على بداية الألفية الثالثة سوى ستين شهرا.

إذاً نحن على مشارف ذلك العصر الذى سيتحول فيه كل بيت فى بلاد الغرب، وبعض بلاد الشرق إلى مركز الكترونى كامل شامل للترفيه والتعليم.

مما يؤذن بتغييرات عميقة فى حياة الناس، من شأنها حتما أن تنتهى إلى صورة حضارية جديدة نراها الآن فى طريق التكوين كما قال بحق رائد الموجة الجديدة الفرنسية «جان لوك جودار». ●●

والآن والألفية الثانية تدنو سريعا من غايتها أخذ صانعو الأطياف يتساءلون عما يمكن أن يكون لهذه المتغيرات من أثر فى الحياة السينمائية، وفيما ينتجون من أفلام.

وأخذ بعضهم يتنبأ بما ستصير إليه الحياة السينمائية من قوة أو ضعف، ومن رقى أو انحطاط ومن تطور قد ينتهى بها إلى النمو أو ينتهى بها إلى الانقراض.

● الإعصار المميت

ومما زاد من أهمية التساؤلات والنبوءات أنه منذ عقد أو يزيد والسينما تعانى فى جميع أنحاء العالم فيما عدا هوليوود، حيث مصنع الأحلام، من أزمة حادة، أشبه بإعصار يكاد يعصف بها، بسبب موجة من الاختراعات لعل أهمها الفيديو والكمبيوتر والهوائيات.

وبطبيعة الحال لم تكن السينما



ليلى علوى وإلهام شاهين وهالة صدقى (يا دنيا يا غرامى)

المصرية بمنجاة من ذلك الإعصار.

حقا عمرت بضعة عقود، واختلفت عليها فى أثنائها أحداث كثيرة متباينة وجهتها ألوانا من التوجيه، وأخضعتها لضروب من التطور.

وحتى عهد قريب كانت لاتزال حية، قوية تستمد حياتها وقوتها من أنها السينما الأولى مولدا فى الوطن العربى، فضلا عن أنها السينما الوحيدة على أرض الوطن التى استطاعت أن تقيم بنية تحتية لصرح عال، انتهى إلينا بتراث عظيم من أفلام متباينة، مختلفة، فيها لذة، وفيها متعة فضلا عن أن بعضها يرتفع الآن إلى مرتبة الآثار الرائعة التى يستمد منها المتفرج العربى غذاء القلب والعقل والروح.

● مقومات البقاء

على أنه، ولأول مرة فى تاريخها، تجد السينما المصرية نفسها محاصرة بخطر فقدان المقومات الثلاثة الأساسية، التى بدونها لا عاصم لفن وصناعة السينما من الجدب والعقم والإعدام.

تلك المقومات هى توافر المواهب والإسراع بتطبيق الاختراع فى صناعة الأفلام وحرية التعبير فالعصر الذى نعيش فيه، عصر انتشار الفيديو والهوائيات، قد عرض أصحاب المواهب السينمائية عندنا لمحنة الاستجابة لمقتضيات المسلسلات

والإعـــلانات، مما كـان سـبـبـا فى إضعـاف فنهم، ثم استهلاكه وابتذاله فى نهاية المطاف والحديث عـمـا تعانيـه صناعـة السـينمـا من تخلف في مـجـال تطبيق الاختراع حديث يطول.

اتساع الهوة

وهنا يكفى أن نلقى نظرة طائرة على تاريخ السينما منذ أن جاءت إلينا بفضل الأخوة لوميير، وإلى يومنا هذا، حتى يتبين لنا أن المسافة الزمنية بين تطبيق الاختراع فى الخارج وتطبيقه عندنا تتسع على مر الأعوام.

فعندما اخترعت السينما قبل مائة عام، وتحركت الصور على شاشة بيضاء فى أحد مقاهى باريس، لم يمض سوى أحد عشر شهرا على هذا الحدث الكبير. إلا وكان المصريون يشاهدون نفس الصور تتحرك فى الاسكندرية، ثم فى القاهرة بعد أيام.

وعندما تكلمت السينما لأول مرة فى بلاد العم سام. يوم السادس من أكتوبر لعام ١٩٢٧ لم تتكلم السينما عندنا إلا بعد ذلك التاريخ بحوالى خمسة أعوام.

وعندما أخذت أفلام هوليوود تتزين بالألوان بدءا من منتصف عقد الثلاثينيات، بقيت الأفلام عندنا على حالها، مقتصرة على اللونين الأبيض والأسـود حـتى مشارف عقد الخمسينيات.

وعندما تقدم الصوت فى السينما العالمية بخطى سريعة. انتقلت به من الاستريو إلى الدولبى قبل ربع قرن من عمر الزمان، ثم قفزت به إلي النظام المسمى «تى اتش إكس» فالديجيتال الآن.

لم يتقدم الصوت عندنا خطوة واحدة، فحتى هذه الساعة، لم يخرج إلى النور فيلم مصرى واحد مسجل بالصوت الدولبى.

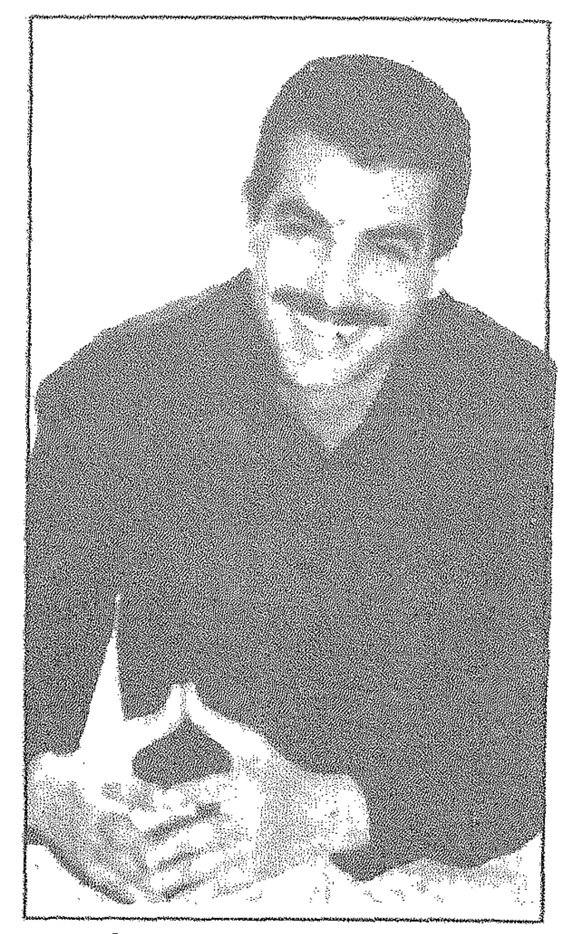
ولم تجهز به يطول وعرض مصر، سوى دار واحدة، وربما دارين.

وبدءا من منتصف عقد الستينيات والحديث لا ينقطع عن رداءة الصوت فى الأفلام، حتى أنه فى بعض الأحيان يصعب، ولا أقول يستحيل فهم الكلام.

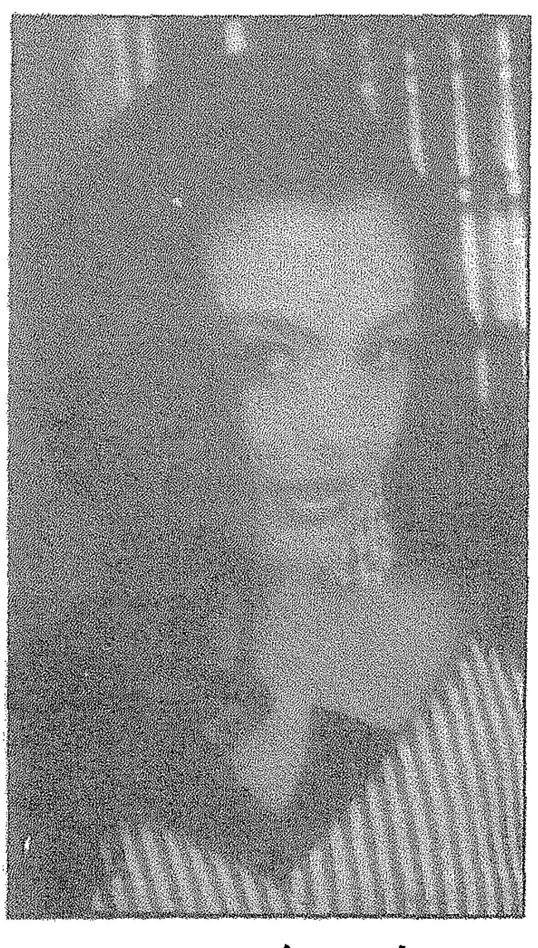
رداءة الصوت!

وفى مهرجان القاهرة السينمائى الأخير كانت رداءة الصوت هى القاسم المشترك بين «يا دنيا يا غرامى» و«إشارة مرور» و«ميت فل» و«عفاريت الأسفلت» و«التحويلة». أى بين جميع الأفلام المصرية المتنافسة على جوائز المهرجان.

وكانت تلك الرداءة معرة وسط الأفلام القادمة إلينا من بلاد، بعضها ليس للسينما فيه، ما للسينما المصرية من تراث.



أحمد عبدالعزيز ضابط شرطة فى فيلم التحويلة



شريهان فى ميت فل

تبقى حرية التعبير سينمائيا، وعندها أقف قليلا لأقول أنها مثل الصوت، لم تتقدم خطوة واحدة إلى أمام، بل لعلها هى الأخرى تقهقرت خطوات إلى وراء.

● الماضى المجهول

فمعروف أن تلك الحرية مكبلة عندنا بقيود منذ أن فرضت بريطانيا العظمى حمايتها على مصر، قبل ثمانين عاما.

وبعد تلك الحماية بحوالى أربعين عاما، وبالتحديد فى ٣١ من أغسطس لعام ١٩٥٥ صدر القانون رقم ٤٣٠ بتنظيم الرقابة على الأشرطة السينمائية ومصنفات فنية أخرى

وبدءا من الثالث من سبتمبر لعام ١٩٥٥، تاريخ نشره فى الجريدة الرسمية، عمل بأحكامه التى ظلت سارية المفعول دون أى تعديل زهاء سبعة وثلاثين عاما، وذلك إلى أن تنبه أولو الأمر فى مجال الثقافة والإعلام إلى أن تلك الأحكام لا تنصرف إلى أشرطة واسطوانات الفيديو. إذ كانت لاتزال فى رحم الغيب، قبل أربعين عاما إلا قليلا، فكان أن سارعوا إلى إصدار قانون تحت رقم ٣٨ لعام ١٩٩٢، عمل به اعتبارا من الرابع من يونيه من ذلك العام، وجاء متضمنا



تعديلات تسد ذلك النقص فى أحكام الرقابة على السينما.

وحتى ٢٨ من ابريل لعام ١٩٧٦ كان يكمل قانون الرقابة تعليمات من إدارة الدعاية والإرشاد التابعة لوزارة الشئون الاجتماعية صادرة في شهر فبراير لعام ١٩٤٧، أى فى عهد حكم السراى والاحتلال.

ويلاحظ على هذه التعليمات أنها لم تترك صغيرة أو كبيرة لها اتصال بالدين أو بنظام الحكم القائم أو بالجنس إلا وضعته فى باب الممنوعات.

وقد جرى نسخ تلك التعليمات بموجب قرار وزير الإعلام والثقافة رقم ٢٢٠ لعام ١٩٧٦ بشأن القواعد الأساسية للرقابة على المصنفات الفنية.

وأهم ما يلاحظ على ذلك القرار الوزارى أنه اقتصر على دمج المحظورات الوارد ذكرها فى تعليمات وزارة الشئون الاجتماعية، وعددها أربعة وستون محظورا، بحيث تقلص بها إلى عشرين محظورا.

وليس من شك أن السينما عندنا، فى ضوء تلك المحظورات، تواجه رقابة مجحفة بحق مبدعيها فى حرية التعبير.

الوهم والخيال

وهذا فى وقت تستلزم فيه ثورة المعلومات التحرر من عقلية أهل كهف. يعيشون فى وهم وخيال أن الأمن يتحقق فى حماية سور الصين العظيم.

ولعل تدخل شرطة الآداب لمنع عرض عدد من الأفلام فى مهرجان القاهرة الأخير، يلقى بعض الضوء على استمرار تلك العقلية متحكمة فى صناعة الأطياف.

فمعروف أنه من الحق لذلك المهرجان، ألا يخضع لأحكام الرقابة، شأنه فى ذلك شأن جميع المهرجانات العالمية.

وأن يجرى استثناؤه منها أمر سهل يسير، يكفى له قانون أو ربما قرار رئاسى أو وزارى من مادة واحدة لا تزيد.

ولكن عقلية أهل الكهف تأبى ذلك الأمر السهل، اليسير، مؤثرة عليه التعقيد بإخضاع جميع أفلام المهرجان للرقابة.

فتمنع بعضها منعا باتا كما حدث مع «الغريزة الأساسية» وكعب عال، قبل ثلاثة أعوام.

وتقتصر مشاهدة بعضها على الصحفيين، وتحصر مشاهدة بعضها الآخر فى نفر قليل من النقاد.

وعادة مثل هذه التصنيفات التحكيمية لعروض الأفلام. لا تحمل على محمل الجد، فلا أحد يلتزم بها.

المسخ الكبير

وفى غفلة من الرقابة تتسلل تلك



القمر المرّ :
الفيلم الذى حقق
للمهرجان إيرادات خيالية

الأفلام الممنوعة من العرض العام إلى دور السينما، حيث يجرى عرضها، على حساب الأفلام الوارد ذكرها فى برنامج أسبوعى المهرجان. فتسود، نتيجة لذلك، فوضى وغوغائية يصعب معهما على المتفرج الجاد متابعة الأفلام.

فهو ببراءة يذهب إلى دار سينما، مسترشدا بالبرنامج ليرى فيلما ما، فلا يجده، وبدلا منه يجد فيلما آخر من ذلك النوع الحار المقصور مشاهدته على الصحفيين أو النقاد.

ويحضرنى هنا فيلم القمر المر لصاحبه المخرج رومان بولانسكى.

فقبل عامين، كنت لا أتوجه إلي دار سينما لمشاهدة فيلم ما من أفلام المهرجان، إلا وأرانى مطاردا بالقمر المر فأعود من حيث أتيت محبطا.

ومن بين ما يقال عن نجاح هذا الفيلم، أنه حقق، خلال أيام المهرجان إيرادات فاقت كل خيال.

المهم هو أن المهرجان بإخضاع أفلامه للرقابة وتصنيفاتها التعسفية، قد عرض عروضه لحالة من الفوضى والغوغائية، تؤذن لو كتب لها الاستمرار، أن تجعل منه مسخا بين المهرجانات.



ثقافة المهرجانات فى مصر

بقلم : محمود قاسم

بين شقى العامين، المنصرم، والجديد، يستعد جميع المهرجانيين لإقامة دوراتهم الجديدة بعد نجاح كافة الدورات الأخيرة للمهرجانات الفنية فى مصر وتحقيق أهدافها.

يعكس هذا النجاح مدى التغير الذى حدث لهوية الثقافة المصرية فى الأعوام الأخيرة، حيث تغيرت الموازين، وأصبحت المهرجانات هى العنوان الرئيسى للأنشطة الثقافية بكافة أشكالها.

وباعتبار أن معرض الكتاب سيقام مبكرا هذا العام، وفى الرابع من هذا الشهر، فإن ميلاد هذه المهرجانات قد بدأ قبل موعده المألوف الذى اعتبرناه فى السنوات السابقة، وبلا شك سوف تتحول أيام المعرض إلى احتفالية مهرجانية بالكتاب من ناحية، وبالقضايا الثقافية من ناحية أجرى،

كما ستمتلىء أرض المعارض بعشرات من باعة لعب الأطفال.. والكاسيت، وما إن ينتهى المعرض وفعالياته، حتى تبدأ ليالى رمضان الثقافية وعقب عيد الفطر سيتأهب المهرجانيون للاحتفال بتدهور أحوال السينما من خلال المهرجان الثانى للسينما الروائية، ثم مهرجان الإسماعيلية، ويستعدون فى نهاية الصيف للذهاب إلى الإسكندرية والعودة إلى القاهرة مع بداية ديسمبر.

وفيما بين هذه المهرجانات تتشابك الاحتفاليات بالمسرح التجريبى، والمسرح الحر ومسرح الهواة، والفنون الشعبية، والفن التشكيلى ، من صالون الشباب، إلى البينالى، ثم مهرجانات للأغنية، والموسيقى، والحرف الشعبية، وسوف تتعدد أماكن إقامة هذه المهرجانات، من القلعة إلى قاعة المؤتمرات، وشواطىء البحار، وسوف تأتى كاميرات التليفزيون، وسيأتى الصحفيون للحصول على الأخبار، وستتم فعاليات، وسيقوم مسئولون بقص الشرائط، وتعقد الندوات، وتنطلق التصريحات، وفى الليلة الأخيرة، ستعلن الجوائز وستطلع الصحف لعدة أيام تنشر أخبار هذه الجوائز، وحيثيات المنح، وما حدث فى الكواليس.

وفى أغلب الأحيان، فإن أى مهرجان سوف يجبه مهرجان آخر، بمعنى أنه ما إن ينتهى مهرجان حتى يجد الناس أنفسهم فى فعاليات أخرى، وفى أحيان كثيرة سوف يجد المهرجانيون أنفسهم وسط فعاليات مهرجانيين أو أكثر، مثلما يحدث عادة فى أوائل سبتمبر، حيث تتداخل فعاليات مهرجانا الإسكندرية السينمائى، ونظيره للمسرح التجريبى

وبهذا المنظور،فإن الأيام المهرجانية فى مصر، يزيد عددها عن أيام السنة، ولا شك أن هذا يعكس مدى البهجة التى يعيشها الناس، فالمهرجانات مرتبطة بحفلات افتتاح، واستقبال، وموائد، ورحلات نيلية وبحرية للوفود، وتكريمات للنجوم، والمخضرمين، ومطبوعات، وتصفيق وآلاف المدعوين، وعشرات الجوائز الورقية، والمعدنية، وأحيانا ألوف الجنيهات للفائزين، فضلا عن ميزانيات ومكافآت للذين كانوا وراء المهرجان، وفعالياته..

كـم هـو رائـع أن يـكـون لـديـنـا مـــهـــرجـــان، أو كل هـذا الـعـــدد من المهرجانات، بعد أن استقبل الناس أول مهرجان سينمائى فى عام ١٩٧٦ بكل هذه الحفاوة. وسرعان ما تم اكتشاف مدى سحر المهرجانات فزاد عددهاسنة وراء أخرى..

ومـا توقـعناه لعـام ١٩٩٦ هـو من خـريطة أنشطة العـام المنصـرم، ومن المتوقع أن يزيد عدد هذه المهرجانات بالطبع عن العام الماضى تبعا للنجاح، وللإقبال الذى حدث مؤخرا لكل منها.. وبالتـالى سـوف تزداد عـدد الليـالى المهرجانية التى نعيشها.

لا يوجد عاقل واحد فى هذه الدنيا يمكنه أن يقف ضد بهجة الناس أو أن يحـاول إيقـافـهـا، فـلاشك أن كل هذه الأنشطة مرتبطة بشعور ما من البهجة لدى المقـبلين، أو المشـاركين فى هـذه الفـعـاليات، وإنما على هذا العـاقل أن يوازن بين ما يحس به الناس من إقبال على الحـيـاة، وابتـهـاج ، وبين ثقـافـتـه باعتبار أن الثقافة تنعكس على سلوك الأشخاص، وأن الفنون تعمل فى المقام الأول على تصفية الناس من همومـهم الخاصة وتنقيتـهم من الجوانب المعتمة فى داخل كلا منهم.

وبالتـالى فـإنه بالنظر إلى عـلاقـة ثقـافـة الناس بهـذه المهـرجـانات، فـإننا سوف نجد هوة شاسعة بين الفعاليات، وبين ثقـافـة جمـاهير هذه المهرجانات، وإذا كانت السينما تجذب أكبر عدد من الناس باعتبـارها الأكثر شـعبية ، فقد أفردنا لحصاد مهرجانات السينما فى مـصـر مـقـالا فى هـلال يناير عـام ١٩٩٥ . وإن كنا نؤكد أن مـا جـاء فى المقـال يناسب مـا سـوف يحـدث فى مـهرجانات السينما بمصر أيضا عام ٢٠٠٥ ومـا بعدهـا، باعتبـار أن الأشياء تتـغير كثيرا بمعدلات حادة فى بلادنا، بدليل أن إيقاع مـهرجانات السينما فى بلادنا منذ عـشـرة أعـوام لم تتـحـرك كثيرا عما حدث منذ أسبوعين.

وقـد أشـرنا فى مـقـالنا هذا أن بلادنا التى بهـا كل هـذا العـدد من المهرجـانات السينمائية السنوية تخلو من مجلة واحدة متخصصة فى هذا الفن، بل إن الصحف السيارة تتعامل مع السينما باعتبار أخبار نجومها. وما يحصـدون من جـوائز أمـا مـسـاحـات

الثقافة السينمائية الحقيقية، فبالغة الضيق ، قياسا إلى مساحات الأخبار

ونحن لا نود المقارنة بين نسبة المهرجانات لدينا، وبين عدد المطبوعات المتخصصة، أو المساحات المخصصة لمتابعة أنشطة أفلام السينما مع دولة أخرى فى أوربا، ولكن لماذا لا نقارن أنفسنا بدول عربية قريبة، فلدى سوريا مجلة «الحياة السينمائية»... وفى تونس «الفن السابع» وفى ليبيا «المسرح والخيالة». ورغم أن بعض هذه المجلات قد تعثر فى انتظام صدروه، لكنها مجلات تتكلم أساسا بلسان فن السينما، وهناك فى لبنان مجلة «فن» التى يحرر أغلب مادتها فى القاهرة، ونقصد هنا مجلات السينمابصرف النظر عن المجلات الفنية التى تتابع أنشطة النجوم على اختلاف أنشطتهم.

هذا عن حال السينما، ومهرجاناتها، فماذا عن المسرح. فمن الواضح أن مهرجانات السينما لا تكلف الدولة مبالغ طائلة، باعتبار أن عوائد الأفلام، وكافة أنشطة المهرجان، تجعله يغطى تكلفته ، ويحقق أحيانا بعض الأرباح، عدا مهرجانى الأفلام الروائية، ومهرجان الإسماعيلية، اللذين تنظمهما وزارة الثقافة، ففى الأول ترصد مكافآت عالية للحاصلين على الجوائز، والمهرجان الثانى يدعو ضيوفه وأفلامه من أنحاء شتى من العالم.

تجريب.. فى أرض غير مؤهلة

أما مهرجان المسرح التجريبى على سبيل المثال، وهو من أنشطة وزارة الثقافة، فتأتى إليه عشرات الفرق المسرحية من كل أنحاء العالم. ونعنى بالفرقة هنا الممثلين، والطاقم الفنى، والإدارى، والديكورات، وأحيانا النقاد، والصحفيين، وإذا كان بعض أفراد هذه الفرق يأتون على نفقتهم فإن الإقامة لأكثر من عشرة أيام تتم فى مصر وعلى نفقة الدولة، وكعادة كل المهرجانات، فهناك فعاليات مكررة، من افتتاح وحفلات استقبال، وعروض يحضرها إلا الهواة، وأسعار رمزية للتذاكر فإن ما يرتبط ثقافيا بهذه الأنشطة يستوجب المراجعة.

فعلى سبيل المثال، تقوم إدارة المهرجان بإصدار مجموعة من المطبوعات تتعلق بالتجريب فى المسرح، فضلا عن نشرة يومية تعكس فعالياته،

وتتم فيها متابعة ندواته حول العروض المسرحية، ويأتى كل هذا النشاط فى دولة ازدهر فيها المسرح السياحى بكافة أشكاله، وتراجع فيها المسرح الجاد التقليدى، فما بحال التجريى منه، وأصبح لدى جمهوره مفاهيم أن المسرحية تعنى مجموعة من القفشات والنكات، والتعليقات التلميحية.

أى أن المسرح التجريبى يأتى فى أرض غير مؤهلة لاستقباله ثقافيا، وفكريا، وعدد المتابعين له، والمستوعبين للاتجاهات الحداثية فيه، لا يتناسبون مع كل هذه الاحتفاليات، ومصاريفها الباهظة. وتأتى فى شعب أغلبه أمى فى الثقافة المسرحية، وأبجديات هذا الفن شبه مجهولة لديه.

والثقافة المسرحية فى بلادنا أقل شعبية من مثيلتها السينمائية، فإذا كانت بعض الصحف تخصص صفحات أسبوعية للسينما، تنشر فيها إعلانات عن الجديد من العروض، فإن العروض المسرحية تنشر فى بعض الصفحات الإعلانية التى قلما ينتبه إليها القارىء وإذا كانت هيئة الكتاب تصدر مجلة فصلية للمسرح، فإنها لا تتناسب مع كل هذه العروض المسرحية التى يشاهدها الناس طوال العام، عددا، ولا نوعيتها.

أى أن الأنشطة المهرجانية فى بلادنا فى واد، والثقافة المسرحية فى واد آخر، وليس مهرجان المسرح التجريبى هو الوحيد من نوعه فى مصر، فهناك المسرح الحر ومسرح الهواة ومسرح الأقاليم، والملتقى العربى الذى عقدت منه دورتان حتى الآن، وعدد ليالى هذه المهرجانات يقترب من الشهرين . وإذا كانت هذه المهرجانات تزدهر بين عام وآخر، فإن المطبوعات المتعلقة بالثقافة المسرحية تنكمش، مثل مجلة «تياترو» التى ما لبثت أن توقفت بعد صدورها بأعداد قليلة. كما أن مجلة «المسرح» التى تصدر أربع مرات فى العام لا تكفى وحدها لمتابعة هذه الأنشطة كما أن أرقام توزيعها تعكس عدد المهتمين فعليا بالمسرح فنا وأنشطة وثقافة ومن المفترض أن الكثير من هذه الأعداد يقرأها طلاب المعاهد الفنية بأكاديمية الفنون، ويعكس هذا الأرقام الحقيقية للمهتمين لوجه الله بفن المسرح.

تقليد جميل.. من الماضى

لو عملنا بمنطق أن الناس تهتم بهذه الفنون خالصة دون القراءة عنها،

أو متابعتها من خلال وسائل المعرفة والاتصال المعروفة، لسلمنا بأن المهرجانات ثقافة مستقلة، تتمثل فيما تقدمه من أنشطة ، ولعل هذا يكون سببا للمطالبة بتخصيص وزارة متخصصة للمهرجانات، باعتبار أن هذا النوع من الأنشطة قد توزع فى العام الماضى بين وزارات عديدة، كأن تقوم وزارة السياحة بالإشراف على مهرجان التليفزيون، بل إن هناك صحيفة كبرى أعلنت منذ أسبوعين عن قيامها بإعداد مهرجان سينمائى ابتداء من العام الجديد.

ولو آمنا بهذا المنطق،من خلال عدم الإقبال على المطبوعات المتخصصة، وعدم وجودها فيما يخص الفن التشكيلى والمسرح، لقمنا بتلخيص دور وزارة الثقافة، باعتبار أن مؤسسات غير حكومية قد نجحت فى إقامة مهرجانات كبرى، والدليل على ذلك أن مهرجان القاهرة السينمائى يقوم على أكتاف شخص واحد، وكذلك مهرجان الإسكندرية ، وقد شجع هذا فى العام الماضى بعض الأشخاص لإقامة مهرجانات أخرى آخر ما مثل المهرجانات الذى تم فيه تكريم عدد من رواد الصحافة المصرية والعربية.

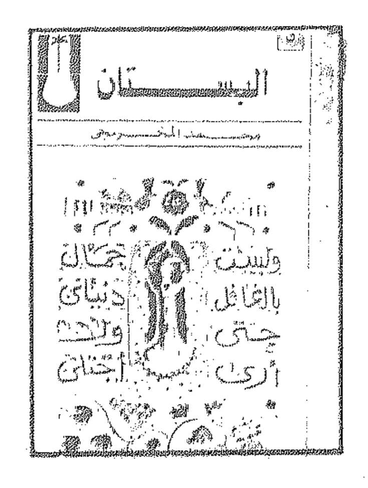
ولعل الثقافة الجماهيرية هى الجهة التى قامت بإحداث توازن بين ما نسميه ثقافة المهرجانات، وبين ثقافة المطبوعات، فإلى جانب الاحتفاليات المتنقلة بين المدن والنجوع والمحافظات، تدفقت المطبوعات خلال عام ١٩٩٥ من كتب عن الفنون المختلفة، كالفن الإيقاعى، والمسرح، والسينما ، وروايات ودراسات أدبية، وسلسلة الأدب العالمى، فضلا عن سلاسل دورية ومجلات.. ويبدو بذلك أن هناك توزنا بين الثقافتين متمثلا فيما نتابعه من إصدارات، وما يتم من ملتقيات ومؤتمرات. ولكن يبقى سؤال هل يتم اقتطاع ميزانيات المطبوعات من ميزانية المطبوعات من ميزانية أنشطة الثقافة الجماهيرية؟.

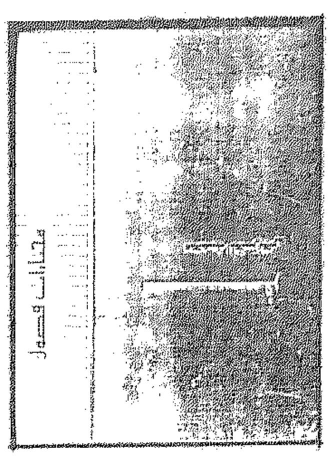
تحدث مثل هذه الاحتفاليات، فى بلد أصبح فيه تكريم الحائزين على جوائز الدولة التشجيعية فى كافة أشكال الإبداع يتمثل فى وعوتهم لحضور حفل كبير تحضره القيادة السياسية بينما كان أقرانهم الحائزين على نفس الجوائز التشجيعية فيما قبل يحصلون على وسام من الدرجة الأولى، وبراءة لهذا الوسام، ومن الواضح أن مثل هذا التقليد قد أصبح شيئا من الماضى.

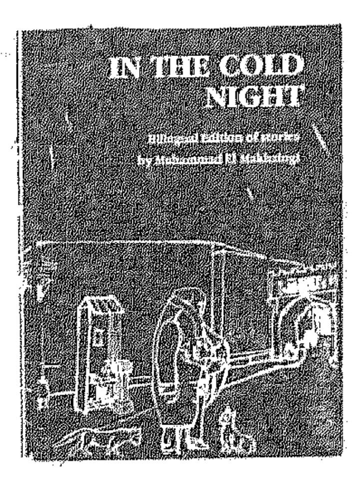
محمد المخزنجى

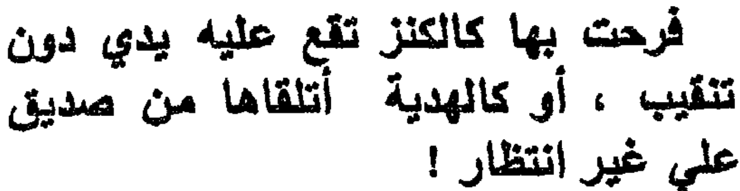
والانسان الحزين

بقلم : مها محمود صالح









فرحت بها كالكنز تقع عليه يدي دون تنقيب ، أو كالهدية أتلقاها من صديق علي غير انتظار !

إنها «الموت يضحك» أول مجموعة قصصية أقرؤها للقاص د . محمد المخزنجي . بدأت القراءة بحياد تحول بالتدريج الي إعجاب ثم حماس دفعني الي البحث عن مجموعاته القصصية الأخري وهي «الآتى ١٩٨٣» ، «رشق السكين ١٩٨٤» ، «سفر ١٩٨٩» ، «البستان ١٩٩٢» ، وتتوسطهن «الموت يضحك» ١٩٨٨ .

وما السطور التالية إلا محاولة منى – كقارئة – لفهم ذلك العالم الآسر الذي دخلته وانا أقرأ قصص المخزنجي .

يحتل الانسان .... الفرد .. بؤرة اهتمام د . محمد المخزنجي. الانسان الحزين ، أو الوحيد ، أو المعزول داخل شرنقة المرض أو خلف جدران السجن ، المتلهف في كل تلك الحالات على التواصل مع الآخرين والوثاب دائما لتخطى أزماته وآلامه !

تأكيد الوجود الانساني

المخزنجى مولع باستعراض أحوال الانسان العادية والاستثنائية – علي حد سواء – وكأنما هو مكلف بتأكيد الوجود الانساني المتفرد في مواجهة آلة المجتمع .. المضغة .. المكتسحة !

هكذا نجده يقتنص مواقف بسيطة تمر بالانسان العادى مرة ومرات فيصنع منها بأسلوبه المتميز ولغته المكثفة قصة أو أقصوصة جميلة ! من منا لم تراوده الرغبة في البكاء والجرى صارخا ما استطاع كما في قصة «هذه اللحظة» حيث يقول الراوى «شعرت على نحو مفاجيء أننى افتقد الحياة ، افتقد الحياة حقا منذ أمد بعيد ، وغشاني اليقين أنني كنت أحيا سنيني الأخيرة ميتا على نحو ما . شعرت بحاجة هائلة للبكاء ، المحرق ، وودت لو أجرى صارخا ما استطيع ، دون ان يتعرف على أحد في هذه الظلمة .

من لم يقف لحظة في خضم انشغاله بحياته ليتذكر أصدقاءه الذين لم يرهم منذ زمن رغم أنه لايفصل بينه وبينهم سوي عرض الشارع ، كما في قصة «الريحانة التى في الركن» ونفس الشيء يقال عن قصص «بقايا النار» و«وسط المائدة» و«الجزء والكل » ، و«سيد في البلد» وغيرهم .

لكن حياة الانسان ليست هي فقط تلك المواقف البسيطة العادية .. وإنما هي أيضا اكتشافات قد تكون رائعة ، أو مروعة ، أو كلاهما معا ، يمثل منحنيات مهمة في حياة الانسان فلا يكون بعدها مثل ما كان قبلها !

وعلى لسان الاطفال يقدم لنا المخزنجى بعض هذه الاكتشافات ، فى قصة «أمام بوابات القمح» طفولة تقف على اعتاب المراهقة. وعندما تواجه هؤلاء الأطفال مشكلة فما أسهل ، كعادة الأطفال ان يروا فى موت الغريم حلا لمشكلتهم . لكن زمزم ، الصبية التى تريدون قتلها ، تقاومهم وتنتصر عليهم بأنوثتها الوليدة التى تفتح عيونهم على شيء جديد لم يخطر لهم علي بال !

أقرأ القصة فتأخذنى تلك العذوبة التى يصف بها المؤلف جسد الانثى كما يكتشفه الأطفال فيها ليل وفيها شروق فيها لين وفيها شدة .. فيها نزق وفيها اصطياد .. فيها طراوة ، فيها ملامسة ، فيها رحابة . فيها حنو ، فيها دفء ، فيها دعوة غامضة الي عالم غريب لم نعرفه من قبل .

وفي قصة «حيث الناس والبيوت» طفل يحكى كيف تعذبت أمه بالمرض حتي ماتت، وهو يبكى تحت سريرها يناجى الله ويرجوه ان يترك له أمه ويتوقف هو عن كل

الأشياء «الحرام» التي كان يفعلها. يقول الطفل كنت سلخة من بدنها الذى كان ضاويا ومهانا ، وفهمت مرارة قبل أوان المرارة : أن الموت ، هذا الطائر الجارح الاسود الخطاف البشع الذى لاقلب له يريد أن يخطف مني أمى التي كنت أحبها. بحجم الدنيا التى كنت أعرفها كلها يتكشف للطفل ، ونحن معه ، أن الموت ، ذلك القدر المفزع ، يهاجم أحباءنا فجأة بلا رحمة.. فنتألم ونبكى وما أن تجف الدموع حتي يتبدى لنا جمال الحياة .. بهيا.. وضيئا .. تصعب مقاومته ! وهكذا بعد أن كان الطفل يحبس أنفاسه فى محاولة لان يموت ويلحق بأمه ، أصبح حبس النفس لعبة جديدة يتميز بها عن أقرانه ويشعر بالدفء والتواصل مع الناس.

● **الاحتفاء بالحياة.**

يسرى في أعمال المخزنجى تيار من الاحتفاء بالحياة، تيار لامرئى يشف أحيانا حتى لا يكاد يبين ويتكشف أحيانا حتي يكاد يتجسد .. لكنه ابدا لايختفي !

من ذلك مثلا إنه رغم ازدحام عالم المخزنجى بضحايا القهر او المرض أو الوحدة ، فإنهم في توق دائم الى جمال الحرية ، وقوة الصحة ، ودفء الصحبة . وهو يختار ، في اطار قيمة الاحتفاء بالحياة تلك ، ألا يشغل نفسه او يشغلنا معه بتفاصيل معاناة هؤلاء المأزومين ، وإنما ينصب اهتمامه علي تلك اللحظات النادرة ، وقد تكون الوحيدة أو حتي الاخيرة التى يرفضون فيها الاستسلام الكامل لعذاباتهم واحباطاتهم ويصرون علي المقاومة وتزخر مجموعتا «الآتى» و«رشق السكين» بمثل تلك اللحظات الكاشفة ! فى قصة «عنبر البنات» فتاة مشلولة تشغل وقتها بتطريز اسمها مع كلمة «للذكرى» ، على ذيل ثوبها ، بعد أن رحلت زميلاتها عن العالم. وفى قصة «بضع زهرات» نجد مريض السل الذى يحاول اعادة ماء الحياة الي جسده بقطف زهرات حمراء يانعة ووضعها على مقربة من وجهه . وفي قصة «فى حضرة الجذام» تقرأ عن مريضات بالجذام يتصورن خطأً أن طبيب الأمراض الصدرية جاء للفرجة عليهن !

تبدأ المريضات محاصرة الطبيب ويحاولن لمسه بأجزاء أجسامهن التى شوهها المرض ! لكن الحصار يتحول الى رقصة مجنونة مشتعلة !

أما القصص التى تستعرض لحظات التحدى والمقاومة داخل السجن فهى كثيرة ومنها على سبيل المثال قصص :

«يوم للمزيكا» ، «الاسوار» ، «بشر الاقفاص» ، «١٣» ، لكن اهتمام المخزنجى لايقتصر على الانسان ! هو كما يبدو مغرم باستكناه لحظات الصمود في مواجهة الصعاب بل ومقاومة الموت في حياة الانسان والحيوان ايضا !

فلا تكاد واحدة من مجموعاته تخلو من قصة أو أكثر عن طيور وحيوانات وأحيانا حشرات ! من هذه النوعية

قصص «ذبابة زرقاء» ، و«مذبحة النوارس» و «اليمامة المضروبة» و«الذئب» و«عصافير الجليد» و«فوق سطح ساخن» ، فى قصة «ذبابة زرقاء»

أما قصة «فوق سطح ساخن» ففيها نملتان تسقطان على جسم غلاية تسخن على نار موقد مشتعل . ترتبك النملتان باحثتين عن مهرب من الموت المحدق بهما : جسم الغلاية يزداد سخونة، والماء يغلى على الفوهة ، والنار مشتعلة أسفل الغلاية !

إحدى النملتين تنجو ، اذ تخاطر وتقفز في الهواء مبتعدة عن الخطر ثم تنضم الى بقية النمل . اما النملة الثانية فهى : «تسكن مستسلمة .. تتقلص محترقة ، وتتفحم - تصير نقطة رفيعة سوداء ، تتلاشى .. تتلاشى».

ولعل قصة «ومع ذلك .. ورغم ذلك » تجسد بوضوح ، وبجمال ايضا ، قيمة الاحتفاء بالحياة .. تدور القصة حول انسان يعاني من الوحدة ، يمضه الارق فإذا نام تحولت أحلامه كوابيس ، لكنه يقاوم ميله الى الانتحار ويحدث نفسه قائلا:

مع ذلك ، ورغم ذلك ، يظل وجودنا فى هذه الحياة على تكاثر آلامها وتضاؤل وابتعاد أصغر الاماني فيها .. يظل جديرا ببعض الفرح .. على الاقل فرح التنفس من هواء الصبح الطازج كل يوم من جديد» .

نفس المعنى يتكرر فى قصة «الريحانة التي في الركن» حيث يقول الراوى: «كان شعورا فياضا بالفرح ان اكون موجودا في هذه الحياة التى تغمرها هذه الشمس ، ففتحت الشبابيك وخرجت الي الشرفة ، وسقيت الريحانة التى كنت قد نسيتها في الركن» .

الحياة إذن لا تخلو من الفرح .. وهي عند المخزنجى لاتخلو أبدا من المعنى ، فلا محل في رأيي للحديث عما يمكن تسميته عبثية الحياة أو لاجدواها أو غياب المعنى عن احداثها وعلاقاتها، في عالم المخزنجي، عكس ذلك تماما هو الصحيح!

فى قصة «وسط الزحام» طبيب شاب يلتقى ، بالصدفة ، بامرأة في الطريق ، هي أمه فيفاجأ انها تحاول التملص منه .

يتوهم عندها انها غاضبة لكن الحقيقة تتضح في كلمتها الاخيرة له قبل أن تذوب في الزحام : يابنى روح انت في طريقك وسيبنى. هدومى مش قد كدة ياضناية».

أما في قصة «حضن» فالراوي يحكي كيف ركع وصالح ابنته التى يسميها «يمامة روحى» «فرص الأخير» اذا انه وهو يلاعبها وبدون قصد «ثنيت جلد الصغيرة الرقيق فوق أضلعها ، وضغطت وأنا أضم فكانت الفرصة !»

أما الطبيعة ، فان القارىء لقصص د. محمد المخزنجى لايفوته اهتمام الكاتب وابرازه لعناصر الطبيعة المختلفة مثل طلوع الصبح ونزول الليل وتغير الفصول وزقزقة العصافير واختلاف انواع والوان الزهور ، المؤلف أيضا يلفت انظارنا الى

أن الاتصال بالطبيعة يجعلنا أكثر توافقا مع انفسنا ومع العالم ، بينما العداء للطبيعة يمكن ان يؤدى بنا الي كوارث ، وأكثر من ذلك فانه ، اي العداء للطبيعة ، قد يستوجب العقاب !

فى قصة «البعيد» قارىء يفقد اتصاله بنص يقرؤه وكأنه كتب بلا معني . لكنه ما ان يرنو من نافذته ويمعن النظر في عناصر الطبيعة حتى «عاد المعني يتصل بى وأتصل به»

وفي قصة «ذئاب» تتعرض قرية لهجمات ملتاثة من الذئاب .

ويتكشف لأحد الصحفيين المتابعين للأحداث أن السبب في حالة الالتياث هو ان الكهوف التى تأوى اليها الذئاب بها مواد تجرد الجزئيات المستقرة من الكترونياتها فتؤينها ، وقد يكون السبب في ذلك ان نفايات مشعة تم دفنها سرا في هذه الكهوف .

أما قصة «العميان» فتحكي عن قطع شجرة الكافور الضخمة التى تضم بين أوراقها الملتفة شذرات من تاريخ مصر لقد وقف اولئك الذين ارتبطت الشجرة بذكريات طفولتهم وصباهم يشاهدون سقوط الشجرة دون أن يحركوا ساكنا. وبعد السقوط المروع ، انطلقت العصافير ، التى افتقدت أعشاشها فوق الشجرة ، تنهش عيون المتفرجين كأنما تعاقبهم علي سلبيتهم اما القدرة علي الحلم ، فهي ليست وسيلة للهروب من الواقع .

انها تجاوز له ، تسامى عن الخضوع لمشكلات الواقع وأزماته. الحلم يجعلنا اكثر قدرة علي الاحتمال .. ويعطينا املا افضل في التغيير !

الانسان والمجتمع :

لعله من الضرورى ان نلفت النظر الي ان القاص د. محمد المخزنجي لايتجاهل تناول مشكلات المجتمع التى يعيش فيه ولايتهرب من مناقشتها ، ولكنه في اطار تركيز الاهتمام علي الانسان الفرد، يتناول تلك المشكلات من حيث وقعها علي الانسان وتاثيرها فيه ومن القصص التى تناقش مشكلات المجتمع «المخالسة» و«الموت يضحك» و « الفئران» و «حرب» و«على أطراف اصابع الاقدام » فى قصة المخالسة يطرح المؤلف موضوع التشدد في التدين من خلال طبيب نفسى يحيره التناقض بين التركيبة النفسية الهشة للمنقبات ومايبدينه من قوة في التعصب، ويغرق الطبيب في البحث عما يسميه «سيكلوجية التخفي» حتي تنتهي به الحال في قسم الشرطة مقبوضا عليه للاشتباه !

اما قصة «الموت يضحك» فهى تدور حول اسرة يكتشف افرادها في منتصف ليلة شتوية مطيرة ان منزلهم يتهاوى ! لقد سقطت قطعة من سقف الحمام فعلا والباقي منه على وشك السقوط !

ويقرر أفراد الاسرة بعد قليل من التشاور البقاء في اسرتهم في انتظار الموت تبدو ورغم النهاية التى تدعو الى

مقاومة الموت حتى اللحظة الاخيرة تبدو القصة فى أسلوبها مختلفة الى حد كبير عن باقي قصص المؤلف فالشخصيات متعددة ومتساوية في الأهمية ويكتفى المؤلف بالوصف الخارجى لها ولردود افعالها ، في مواجهة الحدث الرئيسى وهو سقوط المنزل، ويلعب الحوار دورا رئيسيا في القصة على خلاف معظم اعمال د . المخزنجى التى تعتمد على السرد.

ويتميز الحوار بالاغراق في العامية مع شىء من الخفة .. مما يعطي انطباعا بما يمكن تسميته الكوميديا السوداء وعلي عكس ذلك نجد قصة «على أطراف أصابع الأقدام» بدون كلمة حوار واحدة ، يقدم لنا المؤلف قصة بسيطة محكمة تطرح قضية الجمود الفكرى والدينى ومايمكن ان يؤديا اليه . تدور القصة حول زوجين شابين أغلقا باب الشقة بالقفل من الخارج ، ثم شرعا يرقبان من وراء زجاج النافذة المطلة علي الميدان رجالا بلحى كثيفة يعملون من مناشيرهم الكهربية في تمثال أمرأة ممتطية جوادا يبدو منطلقا عكس اتجاه الريح وإن كان الزوجان لايملكان تغيير ذلك الواقع الذى يضيقان به بل يكرهانه ، الا انهما لايستسلمان له تماما

سفر : .

يخطو القاريء داخل العالم القصصى لمحمد المخزنجى فيشعر انه يقتحم عالمه الشخصى ليس فقط لان استخدام ضمير المتكلم في السرد يغلب على اعماله، وانما ايضا لان الراوي كثيرا مايتشابه في ملامحه مع ملامح المؤلف . هو في كثير من الاحيان طبيب واذا عرفنا اسمه اى الراوى ، فهو محمد ، بل ومحمد المخزنجى بالتحديد كما فى قصة «لعلها تنام» يضاف الى ذلك ان لهجة المؤلف ، حتى عند استخدام ضمير الغائب ، لاتعرف الحياد! إنها لهجة عامرة بالتعاطف .. والرغبة في التواصل .. ولم لا أقول بالحب !

تلك الحميمية التى يصبغ بها محمد المخزنجي علاقته وأبطاله وبقارئه ايضا تتبدي في تخصيص المؤلف لإحدى مجموعاته ، بالاضافة الي قصص متناثرة في مجموعات أخري ، للحديث عن تجربة الغربة التى خاضها . تلك بالطبع هي مجموعة «سفر» يتأكد في تلك المجموعة ولع د . محمد المخزنجي باستعراض أحوال الانسان المختلفة . سواء العادى منها أو الاستثنائى !

تبدأ المجموعة بقصة «نافذة قرب الجناح» حيث يستعرض المؤلف اللحظات الاخيرة للراوي قبل مغادرة الوطن. في البداية يطربه شعور الانعتاق من هموم إنسان فقير في العالم الثالث ، ثم يستبد به الشجن فيكاد يجهش بالبكاء ، والطائرة تستعد للاقلاع، تتوالى بعد ذلك

وتتعدد الخبرات التى يمر بها المغترب . مثلا ، الحنين الموجع للوطن شعور يسرى عبر المجموعة كلها لكنه يظهر أكثر في قصص مثل «الحلول» ، «استغراب» ، «صوت الشباب» ايضا تحسس عناصر الطبيعة الشمالية المختلفة والتأثر بها واضح عبر المجموعة لكنه يتضح أكثر فى قصص منها «الغابة» ، «عصافير الجليد»، «موقف الحديقة» ، «لغة جديدة» والمقارنة المباشرة أو المستترة بين الوطن والبلاد الشمالية البعيدة فهى واضحة في قصص مثل : «شمس على جليد» ، «حين مالت» ، «نصف راحة» ، «استغراب» ، «عطش» ، اما قصص «صوتك» ، «كمنجة البحر» «نجوى الشجر» فهى تضم مشاعر حب رقيقة يغلفها الشجن اذ يتنازع الراوى حنينه للوطن من ناحية وحبه لفتاته من ناحية أخرى وقرب نهاية المجموعة ، ينكشف للراوى ، في قصة «صدفة القلب» ان قلبه رغم الراحة والوفرة ليس على مايرام انه «لايمتلىء حتي تمامه ولايضخ بكل العافية ويقرر الراوى ان يعود : «ستعود العين ترى الهموم ، نعم وسيعود القلب يوجع. ولعله سيكون وجعا اشد ، بعد هذا البعد ، هذا الرغد . الذي كان «لكن ذلك القلب رغم الوجع سيكون قادرا علي الامتلاء حتي تمامه وضخ الدم في العروق غزيرا».

ماذا عن لغة د . محمد المخزنجى ؟

هى لغة متميزة ، تجمع بين البساطة والعمق ، بساطة التركيب وعمق التاثير .

اما البساطة فأظنها واضحة في تلك النماذج التى قدمتها من أعماله اما عمق التأثير فلعله يرجع الى انصاف تلك اللغة بما يسميه استاذنا يحيى حقى «موسيقي النثر» . يقول يحيى حقى في كتاب «عشق الكلمة» ص ٢٤٠ - ٢٤١ مقارنا بين موسيقى الشعر وموسيقى النثر «موسيقى الشعر ناطقة يتذوقها اللسان والاذن معا . اما موسيقى هذا النثر فتحتانيه ، جوانيه ، لا علاقة لها بالاذن واللسان» .

هل تلك الموسيقى هى التى تدفع القارىء الى اعادة قراءة النص القصصى ليستمتع بجمال اللغة ، تماما كما يعاود قراءة قصيدة شعرية جميلة ؟ وهل تحمل تلك الخاصية الموسيقية بعض النقاد على تسمية قصص د . محمد المخزنجى «قصص شعرية» ؟ لا أظننى أملك الاجابة المؤكدة علي تلك الاسئلة فلست الا قارئة ، تلقى بها قصص المخزنجى ، كما يفعل الشعر الجميل ، على تلك الحافة المدهشة بين السكون .. والترقب ، بين الرضا والتملل .. بين الواقع ... والحلم !!



صـــ ١٦٣



تليفزيون

العرض مستمر .... للعام الخامس والثلاثين !

☐ كل الأخبار والتنبؤات التى تنشرها الصحف عن برامج التليفزيون خلال شهر رمضان لهذا العام تؤكد أنه لا جديد على الخريطة .. ولا تجديد فى ماسبيرو ، وأن ماستعرضه قنوات التليفزيون الثمانية خلال الشهر الفضيل ، هو نفس ما عرضته فى رمضان الماضى ، وكل رمضان منذ خمسة وثلاثين عاما .. هى عمر التليفزيون ! .

ولأن الالتفاف حول الشاشة الصغيرة ، فى الفترة بين الإفطار والسحور ، قد أصبح ـ لأسباب اقتصادية واجتماعية ـ أحد طقوس الشهر الكريم ، ما يضمن درجة عالية من كثافة المشاهدة ، التى تجمع بين ثقافات كثيرة التنوع ، وأذواق شديدة التباين ، فقد تكونت تدريجياً ، تشكيلة خاصة من الفنون التليفزيونية ، أصبحت تعرف باسم «ثقافة رمضان» تتوجه إلى أعرض مساحة من مشاهدين التليفزيون ، وهم ـ أصلاً ـ أكبر الفئات التى تستهلك السلع الثقافية وليس فى مصر وحدها ، بل فى العالم كله .



وهذه التشكيلة تنطلق من تصور ثابت بأن رمضان هو ـ أولاً ـ شهر للعبادة ، فلابد من تقديم برامج وعظية تضم عدداً من الأحاديث الدينية التقليدية ، وما لايقل عن أربعة مسلسلات دينية لاتخلو حلقة منها من عبارات مثل «ياقوم» و«خسئت» و«ثكلتك أمك» .. وهو ثانيا سهر للتسالى ، فلابد من تقديم برامج للمنوعات ، تسلى الصائم ، وتجمع بين المسابقات والحوارات والفوازير التى تتبادلها «نيللى» و«شريهان» ، ومجموعة من المسلسلات الدرامية يفضل أن يكون من بينها واحد يدور الصراع غير الدرامى فيه ، بين المخابرات المصرية والموساد ، وواحد تدور حوادثه فى «الحلمية» أو «المنيرة» أو «بين السرايات» ، أو غيرها من أحياء العاصمة ! هذا فضلاً عن البرامج التى لا هى منوعات .. ولا هى مسلسلات ، ولكنها من «المخللات» ! .

وبهذه التشكيلة الجاهزة والثابتة ، يفوز ماسبيرو ـ فيما يتوهم ـ برضاء الرب والعبد .. وبدعاء الوالدين ! .

وبسبب حرص التليفزيون على أن تتضمن «تشكيلة رمضان» ما يظن أنه أفضل ما لديه ، والصراع الضارى بين صناع الفنون التليفزيونية على عرض أعمالهم خلال شهر الفرجة الكثيف ، يحدث ذلك الاختلال المزمن فى خريطة برامجه، التى تزدحم فى الشهر الفضيل بتلال من العروض يختلط فيه الغث بالثمين ، ومايستحق العرض بما لايستحق إلا الضرب ، على نحو يصيب المشاهدين بالتخمة وعسر الهضم .. فتتضارب مواعيد إذاعة البرامج بحيث يتطلب الأمر كمبيوتر للتنسيق بينها وتختلط حوادث حلقات المسلسلات ـ التى تصل في المتوسط إلى عشر حلقات من مسلسلات مختلفة يوميا ـ وتتداخل أسماء أبطالها ، وتشتبك جمل الحوار فى الفوازير التى لاتقل ـ فى العادة ـ عن خمس عشرة فزورة فى اليوم ، فتقول «نيللى» لـ «شريهان» : خلاويص .. وترد عليها : «ثكلتك أمك» .

وبانتهاء الشهر الكريم ، تخلو مائدة ماسبيرو مما يستحق المشاهدة ، بعد أن قدم أهم ما لديه ، بينما ينصرف المشاهدون إلى علاج أنفسهم من «الانتفاخ العقلى» !.

وبصرف النظر عن مدى نجاح أو فشل تشكيلة رمضان ، فإن ثباتها لمدة ثلاثين عاما ، يكشف عن أن عباقرة ماسبيرو مصابون بتشكيلة من الأمراض ، من بينها نقص الابتكار وضحالة الخيال ونضوب القريحة ، وإلا لأدركوا مدى التأثير البالغ للجهاز الذى يديرونه فى بلد يكاد معظم الناس فيه يقتصرون عليه فى تثقيف أنفسهم ، وفى شهر أصبح الالتفاف حول التليفزيون من طقوسه الثابتة ، ومارسوا مسئوليتهم الحقيقية ، فابتكروا أشكالاً جديدة من الفنون التليفزيونية ، تجمع بين الفرجة والفكر ، وبين الجاذبية والعمق ، وتعالج مايواجهه الوطن من مشاكل معقدة ، من التطرف إلى السلبية ، ومن انهيار القيم إلى ضياع الذاكرة ، ومن ضعف الانتماء إلى تدهور القدوة ! .

فلعل هذا العام يكون الأخير الذى يكرر فيه التليفزيون - للعام الخامس والثلاثين على التوالى - عرض تشكيلة رمضان من المسلسلات والمنوعات والمخللات ! .

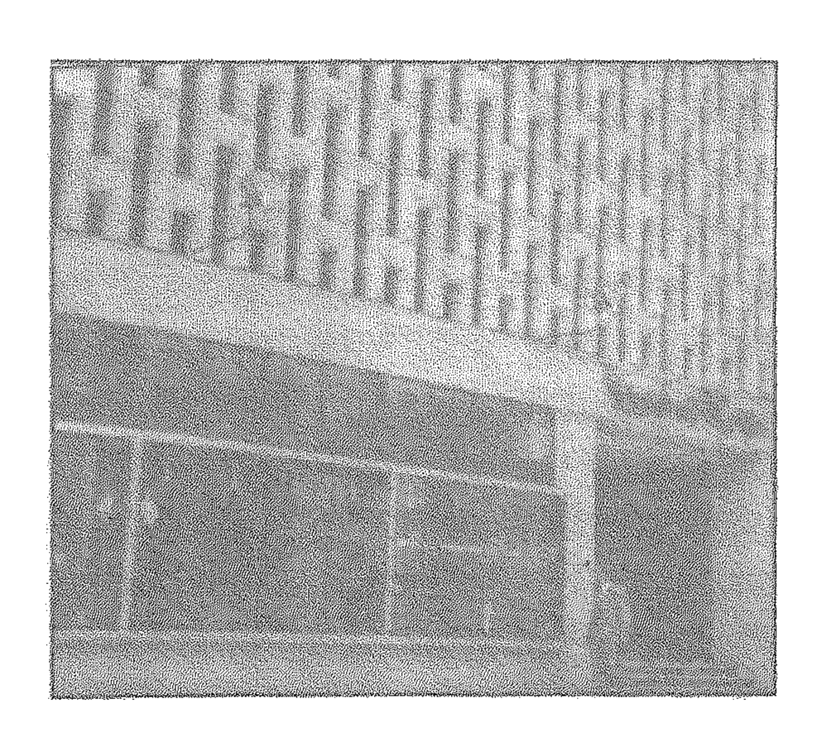
● صلاح عيسى

مسرح

مسرح الجمهورية

فى حى عابدين يقع مسرح الجمهورية الذى افتتحه رئيس الوزراء فى الشهر الماضى ، وهذا الحى ضم طائفة من مسارح مصر . ففيه تقع دار الأوبرا المصرية القديمة ومسرح «اسكندر فرح» بشارع عبد العزيز والذى تشغل سينما أوليمبيا مكانه حاليا . وقد ظلت فرقة اسكندر فرح تقدم عروضها على امتداد ١٨ عاما ، وكان الشيخ سلامة حجازى هو نجمها ومطربها ، ويضاف الى هذه المسارح المسرح الكوميدى الفرنسى الذى شيد عام ١٨٦٨ وافتتحه الخديو فى يناير ١٨٦٩ وكان يقع بجوار هيئة البريد بالعتبة وكان مخصصا للفرق الأجنبية .

أما مسرح الجمهورية فقد شيده لبنانى يدعى اسبرو فى يناير من عام ١٩٢٩ كدار سينما «رويال» وتم افتتاحها فى العام



نفسه كدار عرض من الدرجة الأولى نظرا لفخامة عمارتها وأناقة أثاثها ، وشهدت نشاطا غير عادى مع اختراع السينما الناطقة ودخول مصر مجال الانتاج السينمائى سنة ١٩٢٧ ثم تحولت إلى دار عرض مسرحى عام ١٩٦٠ باسم «مسرح الجمهورية» ، وتم تطويره من الداخل على أسس هندسية علمية ليصبح مناسبا لتقديم العروض المسرحية .

استوعب المسرح ٣٥٠ مقعدا فى الصالة ، ٨ بناوير ، ١٥ لوج أول ، لوج ثان ، ٢٠٠ مقعد بلكون .

وفى الرابع من يناير ١٩٦١ تم افتتاحه بأوبريت «يوم القيامة» الذى كتبه بيرم التونسى ولحنه الشيخ زكريا أحمد وسيد مصطفى وعبد الوهاب حلمى وأخرجه زكى طليمات ، وكانت البطولة فيه لحورية حسن وابراهيم حمودة .. وقاد الأوركسترا والتوزيع عبد الرحيم على

وظل المسرح منذ افتتاحه حافلا بالأنشطة المتنوعة ، إلى جانب العروض التى كانت تحييها الفرق الرسمية التى تعاقبت عليه ، وفى بداية ١٩٧٩ انهى مسرح الجمهورية نشاطه الشتوى

مبكرا بعد أن تقرر الشروع فى تجديد المبنى وتطويره وتجميله ليصبح بديلا عن دار الأوبرا التى احترقت عام ١٩٧١ ، وبلغت نفقات التجديد فى ذلك الحين ٧٠٠ ألف جنيه . وفى أكتوبر ١٩٧٩ تم افتتاح المسرح واطلاق اسم الجمهورية عليه بدلا من مسرح يوسف وهبى الذى كان قد التصق به .

توقف العمل بالمسرح مرة أخرى عام ١٩٩١ ، وبناء على دراسة علمية مفصلة قامت بها الادارة الهندسية بدار الأوبرا ، بدأ مشروع تطوير المسرح عام ١٩٩٤ ، بعد صدور قرار الحاق مسرح الجمهورية على دار الأوبرا . وكانت أولى خطوات التطوير هى التخلص من مشكلة المياه الجوفية ، وتغيير نظام الصالة ، واضافة «باسطة» مرتفعة إلى أرضية «الألواج» .. حتى تسهل على الجالسين فى الخلف مشاهدة المسرحية دون مشقة . وتعديل نظام التكييف . وتزويد خشبة المسرح بأجهزة إطفاء الحريق والتى يعمل بعضها أوتوماتيكيا . كما أزيلت البرانق التى تتخلل الشرفات الواقعة بين الأعمدة أسفل الأقواس هذا بالاضافة إلى تحديث نظام الصوت فى المسرح .

فى الشهر الماضى بدأ نشاط المسرح من جديد بأوبريت «ليلة من ألف ليلة» تأليف بيرم التونسى والحان أحمد صدقى واخراج محسن حلمى وبطولة يحيى الفخرانى وعلى الحجار وأنغام ومحمد كامل ولطفى لبيب وميمى سالم ومنير مكرم وعبد الحميد حسن وشارك فى هذا العمل الضخم مالكوم رايت خبير الخدع الاسترالى و٢٥٠ فنانا بين ممثل وموسيقى وراقص . ليتضافر مجهود مخرج العرض محسن حلمى وأبطاله والفرقة القومية العربية للموسيقى بقيادة سليم سحاب ، وفرقة باليه أوبرا القاهرة باشراف د . عبد المنعم كامل .

● ابراهيم داود

أحمد صدقى



المسرح فى «ليلة من ألف ليلة»

أوبريت تأليف: بيرم التونسى
لحن : أحمد شوقى
اخراج : محسن حلمى

محسن حلمى

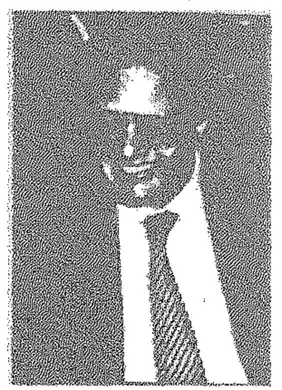


جميل أن تنظر الأوبرا بعين الرضا إلى تراثنا الغنائى المسرحى ، فتعيد تقديم أوبريت «ليلة من ألف ليلة» الذى كتبه بيرم التونسى ولحنه أحمد شوقى . فالابداعات الفنية تاريخ لا يموت فى كل أمة . ولهذا الأوبريت جماليات بدائية بعضها مرتبط بفن الأوبريت الذى ينشد التبسيط الذى قد تطوله الفجاجة الميلودرامية ، فإن حاولت أن تنمقه أو تعمقه ربما أتلفته تماما . وبعضها نابع من عيوب عادة ما ينظر اليها بعين العطف باعتبارها درجة من درجات التطور التاريخى ، وهو ما يبرر خفة الفصل الأولى وانضباط إيقاعه حيث يتوازن الممثل والمغنى ، وتظهر براعة بيرم التونسى فى طزاجة الحوار والأغانى الشعبية ، بينما يتمدد الفصل الثانى فى نسب غير منضبطة بين هذين العنصرين ، مما ينعكس بالضرورة على تكرار ايقاعات موسيقية وحركات راقصة بعينها بعد تألق الفصل الأول .

ويأتى الديكور والملابس ملمحين محيرين داخل العرض فعندما تتجمع الراقصات والراقصين فى المشهد الأخير بعد أداء المجموعات لرقصات مختلفة عبر الفصل الثانى ، تبدو دقة وتناسق اللون وكأن المصمم بدأ باللوحة الأخيرة ليوزع مفرداتها على مساحة الفصل . وتتفرد ملابس كل من يحيى الفخرانى وأنغام باتساق منطقها وجمالها على امتداد المسرحية فيراعى فى الأول درامية الشخصية وبهلوانيتها ويراعى فى أنغام بهاؤها وجمالها حتى وهى فى استعراض الشحاذين الأول .

وبينما يتناغم الديكور المرسوم والملابس فى الفصل الأول سواء أمام الجامع حيث الملابس الكاحلة للشحاذين مع الحى العتيق أو فى منزل الشحاذ ، يبدو الفصل الثانى وكأنه لمصمم آخر . فتتنافر نسب الأسود والأحمر فى زخرفة قصر الوزير

يحيى الفخراني





بيرم التونسى

(محمد كامل) مع ردائه الأسود فى ذهبى ورداء زوجته (ميمى سالم) الأحمر . ولا يعبران عن القبح داخل القصر بقبح يؤذى عين المتفرج !

وكم كان جميلا لو أن الأوبرا فكرت فى تلك الخطوة وحشدت لها هذا الحشد الفنى دون الوقوع فى فخ الاحتفالات والافتتاحات . فقد فتشت الأوبرا فى دفاترها القديمة لافتتاح مسرح الجمهورية ، فتذكرت مشروعا صمم له خبراء إيطاليون الملابس والديكور منذ ست سنوات كان سيخرجه كرم مطاوع ، فمنحته هذا العام يومين من وقتها الغالى . ولكنها عادت فأعادت النظر وربما وجدت أن المخرج «محسن حلمى» استطاع ان يجمع فى ضربة واحدة نجم الغناء «على الحجار» ومستقبل الغناء «أنغام» والعظيم «يحيى الفخرانى» والممثل الخبيث «لطفى لبيب» الذى تجد صعوبة فى التعرف عليه فى الفصل الثانى بعد ان غير من صوته وهيئته تماما كما ظهر فى الفصل الأول ولحساب تغير موقف الشخصية .

أما الجميل حقا فهو تأمل تلك العلاقة التى تجمع بين يحيى الفخرانى «الشحاذ» و«ابنته» أنغام ، فنرى فى أنغام مستقبل بطلة لاوبريتات حديثة . أراها ست الحسن ونعيمة مع حسن الشاطر والمغنواتى . فما من أحد يخطىء شوقها للتمثيل كما تبدى فى أغنياتها المصورة ، وحضورها المسرحى فى هذا العرض .

وليحيى الفخرانى سجلت الذاكرة المسرحية عندى كيانا مسرحيا ممتعا . فمن الغريب أن «ليلة من ألف ليلة» تقدم شحاذا نصابا وساحرا قاتلا منتقما جبارا ، بينما أدى يحيى الفخرانى نفسه عام ١٩٩٣ شخصية عطوة أبو مطوة لألفريد فرج وإخراج سعد أردش .

وفى عام ٨٨ قدم «بهلوان» يوسف إدريس المزدوج : حسن الغرباوى رئيس تحرير ، وزعرب بهلوان السيرك» ، اخراج عادل هاشم .

فى تلك الشخصيات الثلاث يحتفظ يحيى دائما بتلك القدرة

الطفولية على الدخول فى الشخصية والتعليق عليها ، وعلى روح الكوميديا حيث ان اخطاءه دائما يمكن الرجوع فيها ، فالعنصر المسرحى الطاغى فى أدائه يذكرنا بأننا أمام مسرح ستنتهى حكايته الليلة فهو ممثل شكسبيرى مثالى بهذا المعنى .

ولذلك فهو يقتل وينتقم فى «ليلة من ألف ليلة» لكننا نظل نضحك على صوته واستعباطه وهو يستعطف الوزير أو الحاكم على نمط الشحاذين . ويخيل إليك ان على الوزير الذى قتله ويستلقى ممدداً على الأرض ان يفيق فورا وقبل ان يدخل الكواليس ليقول : هيه ضحكت عليكم .

أعتقد أن يحيى الفخرانى مهرجا معاصرا مصريا عظيما ليس من حقه أن يغيب عن خشبة المسرح ، ولا يبخس أحد قيمة المهرج ، فهو المحتفل بالحياة ومجددها وفيلسوفها المتألم أيضا لنزداد وعيا به .

كتب

كتابات جديدة أم حساسية جديدة ؟

● مايسة زكى

يثور السؤال عن تناول كتابات جديدة لعدة كتاب لم يتجاوزوا العقد الثالث من العمر، أصدروا كتابا مشتركا كأحد خيوط على دوائر (دار شرقيات) بنوع من شجاعة المواجهة - أو التضامن بإزاء المواجهة: هل هذه حساسية جديدة أخرى، بعد أن مر نحو ثلاثة عقول على رسوخ الظاهرة التى عرفت بـ «الحساسية الجديدة»؟

واقترح، من الأول، أن هذه الكتابات لا تمثل نقلة أساسية فى تقنيات ورؤى ما عرفناه باسم الحساسية الجديدة التى لعلها قد أصبحت كلاسيكية الآن وأنها ببساطة تطوير وتعميق لتيار محدد من تلك الحساسية، هو تيار النظرة أو الحياد أو التشيؤ أى تلك الكتابة التى تعتمد من حيث الشكل لغة باردة هادئة النبرة ليس فيها احتدام أو حرارة العضوية والتورط، ومن حيث الرؤية تعتمد نظرة العين الصاحبة التى ترصد «الأشياء» من الخارج على نحو «موضوعى» لا تتدخل فيه «الذات» ولا يختلج بالانفعال.

كتابة وائل رجب تذهب إلى آخر الشوط فى هذا التيار التقريرى أو النظر الميكروسكوبى للأشياء ورصدها باستخدام مصطلحات الفيزياء والميكانيكا والهندسة لكى ينقل الحياة العضوية بحيث يجردها من كل حيوية وتدفق وعفوية، بل يجسمها فى داخل



مواصفات تكاد تكون «علمية» جامدة ومحايدة.

يشاركه إلى حد ما فى هذا كل كتاب المجموعة: أحمد غريب، أحمد فاروق، علاء البربرى، نادية شمس وهيثم الوردانى.

من السمات العامة لهذه الكتابة ما اسميه كتابة «الفيديو كليب» حيث يغلب أن تأتى اللقطات الخاطفة الثقافية – كما يحدث فى الفيديو كليب، بومضات يؤلف بينها – أو لا يؤلف – تكنيك المونتاج السينمائي، ولكن المهم فى ذلك هو هل ثمة دلالة حقيقية فى هذا النوع من الكتابة؟ هل هذه الآلية، والشيئية، و«الخارجية» رفض كامل للتورط، تعبير عن «اللامبالاة» الأساسية التى أخذت تتسلل إلى وعى هذا الجيل، وعن انقطاعهم تماما عن كل مرجعية سياسية أو اجتماعية أو أيديولوجية؟ ولكن هذا الحياد – هذا الانقطاع هو فى نهاية الأمر موقف من المجتمع ومن الأيديولوجيا – وخاصة بعد ما عانيناه جميعا من انهيار الشعارات والقيم التى جلجلت فى الخمسينيات والستينيات ثم تكشفت عن خواء وخداع أو على الأقل عن إخفاق عدو وانجازات قليلة.

فإذا كان تيار «الحياد» الظاهرى عند كُتّاب مثل بهاء طاهر وإبراهيم أصلان ومحمود الوردانى، فى كتاباتهم الأولى – إنما يعنى فى التحليل الأخير تورطا حتى العنق وانشغالا عميقا بهموم اجتماعية في المقام الأول، معبرا عنها بحيلة الرصد الخارجى البارد الذى من شأنه أن يثير الغضب والانفعال لأنه نابع بالضبط منها، فإننى أخشى أن يكون فى قصص الفيديو كليب هذه ما يقترب من المعيشة (أى اللامبالاة) أو العدمية.

فى مناقشة مع بعض هؤلاء الكتاب، رفضوا هذا التصور، وأرجعوا أسلوب التحييد إلى ما أسموه تغييب الوعى أو تحويله إلى المعنى المسكوت عنه، مما يعنى فى النهاية إنكارهم لمقولة اللامبالاة أو العدمية. يبقى فى ذلك التبرير أن النصوص – فى معظمها – لا تؤيده، وقد يحتاج الأمر إلى مرانه فنية أكبر وأنضج، علي ما فى كتاباتهم من نضج وتحقق لاشك فيه.

من الخصائص الواضحة عندهم ذهابهم فى تناول المشاهد العضوية والجنسية إلى مدى لم يذهب إليه أحد ممن سبقهم، بمعنى أن تغليف هذه المشاهد بنوع من الشاعرية أو غمرها فى ضوء شفيف كان من الحيل الفنية التى لجأنا إليها – نحن المخضرمين – أما هم فإنهم يكسرون الطابع ببساطة ودون تعمد ودون أى جبن، يأخذون «المحرمات» مأخذ السلم به، من حيث اللغة أو التصور على السواء، وفي هذا مغامرة منعشة تدخل بالهواء الطلق إلى مناطق ظلت مغلقة ومحبوسة منذ أن تركها القدامى التراثيون.

أستطيع أن أدرج معظم هذه الكتابات فى سياق «الكتابة العابرة

للأنواع» أو «عبر النوعية» وعلى الأخص باستخدامها تقنيات السينما (والفيديو) بحرية وبراعة ومقدرة من لقطات مقربة أو مكبرة أو عريضة أو دائرية ومن تعاقب للمشاهد (وللمسامع) على أسلوب كتابة السيناريو، ومن إضاءة مركزة أو تعتيم خفيف أو مطبق، دون نظر - بطبيعة الحال - إلى الحبكة التقليدية أو الشرح الاجتماعى والنفسى أو التوازن المفروض قديما من بين عناصر القص من حوار وتعليل ووصف وتحليل إلى آخر معطيات الحساسية القديمة.

إن الرصد الخارجى الدقيق لتفاصيل المشهد اليومى المبتذل العادى قد يحمل دلالة نفى الإنسان عن العالم أى استنكار الأشياء و«الموضوعات» بالمركز وتنحية الحياة الداخلية تماما عن مواقع الضوء.

وقد يحمل دلالة متناقضة إذا رأينا فيه استعارة أو مجازا حذف منه أحد طرفيه - بحيث يومئ هذا التحييد إلى نزوع النصوص الجديدة نحو إنكار هذه الآلية - وهو ما يطلقون عليه تقنية «تغييب الوعى».

إن اللارومانسية التامة فى هذه الكتابات قد تشى بحنين مفقود إلى الرومانسية، ليس فى كتاباتهم، مثلا كلمة «حب» كأنها كلمة ألغيت من المعجم الشعورى إلغاء تاما، والعلاقات بين رجل وإمرأة - غالبا لا اسم لها ولا هوية - هى علاقات آلية، دون متعة ودون اشمئزاز، دون نشوة ودون إحساس بالذنب، مثل شرب كوب من الماء (ليس باردا ولا حارا بل فى درجة حرارة الغرفة!)

مما ينقذ هذه الكتابات من هوة العدمية أو العبثية المطلقة إن فيها قدرة على السخرية - بالنفس الآخر - ومن الدعابة التى قد تكون سوداء وقد تكون غير جارحة.

هؤلاء كُتّاب جديرون لا بالترحيب فقط بل بالتقدير وبالدراسة المتأنية، فهم أصحاب مواهب ومقدرات لاشك فيها، وأصحاب رؤى وأساليب جديدة

● إدوار الخراط

نحو اختلاف نوعى فى القصة القصيرة

إن حالة من الإحساس بحصار خانق، نجدها فى كتاب «خيوط على دوائر» الذى صدر كمجموعة قصصية لستة شباب جدد، وشعور بقهر شمولى تسرده هذه الكتابة، يطرح (علاء البربرى) هذا القهر بشكل برئ، إنه يصطنع سذاجة وبساطة لكى يؤكد المفارقة، كل تفاصيل

الحياة واقفة بالمرصاد لتعطيل أى فعل، حتى لو أراد أخذ (دش) فإن بالوعة المجارى تنسد بسرعة، فيكتفى بغسل الشعر، وتمرير يده المبللة على الوجه والرقبة والجزء العلوى من الصدر، ويواصل البريرى طرح مفردات القهر فى قصته (كراكيب) التى توحى بالوجود كله كما لو كان مجرد كراكيب، فيتحدث عن خوفه من أن يرفته رجل الأعمال على الرغم من أنه يسخره بإرساله إلى مشاويره القذرة، ابتداء من شراء قروش الحشيش إلى الاتفاق مع خادمات المناطق الزاقية، وتحصيل المديونيات من السوق، وينهى الكاتب القصة بأحلام اليقظة الخائبة، فيتخيل نفسه نائما فى المصيف، يأكل ويعوم ويلعب إنها حالة من الحصار والقيد، يحل فيها (أحمد فاروق) مشكلته عن طريق التخيل أيضا، فيتخيل فى بداية قصته (حكاية عن صديق) أن يأتى اليوم الذى يتعلم فيه الرقص، وأنه سيرافق فتاة شقراء جميلة من بلد لا يعرف العيب ولا الحرام، ويظل الكاتب فى قصته يرصد بشكل متواز القيود الأخلاقية من جهة، والاحتياجات الجسدية والحسية البسيطة التى يحتاجها جسده الشاب من جهة أخرى.

هناك معاناة شديدة تفضى إلى حالة من الاغتراب، يجسدها (هيثم الوردانى) بشكل مباشر، فى قصته (اختفاء الشخص) من خلال هذه القذارة التى تغطى المكان، والناس القليلون الكسالى فى محطة القطار، لا ينظر أحدهم فى وجه الآخر، وينتهى العمل بافتقاد حقيبته،

واختفاء البشر جميعا من المكان، وعدم القدرة على اللحاق بالقطار، والإحساس بالوحدة الشديدة وعودته إلى النقطة التى بدأ منها، وكأن شيئا لم يحدث أصلا.

تجسد هذه الأعمال مواقف عينية محسوسة بشدة، الأشياء يمكنك أن تضع يدك عليها، لا مكان للغيبى أو للميتافيزيقى، أو الخيالى التركيبى. ويصدر (وائل رجب) قصة له بمقولة بول فاليرى: (على الفنان الحديث أن يضيع ثلثى وقته فى محاولة أن يرى المرئىء وعليه ألا يرى اللامرئى).

السخرية الشديدة أداة انتقاد لكل ما هو مستتب على جميع المستويات، وعند وائل رجب قصة (الدود والديدان) وهى سيرة ذاتية فاضحة، لأنها تركز على عمليات الجسد الحيوية الحيوانية، بداية من ابتلاع الطعام، حتى خروجه من الجسد الذى هو اسطوانة دودية ملتهبة بالدبابيس الحارقة من الخارج، يجسد الكاتب هزلية الحياة بصورة كلية، ويحول التفاصيل الصغيرة إلي تناقضات مضحكة وعبثية، وها هى ذى أمه تضع الخضراوات فى الخلاط لتصنع له الطعام، فيتحول المخلوط إلى عجينة سميكة يمكنها أن تلصق أى كائن بشرى بكرسيه!

تشير هذه الأعمال إلى حس إنسانى جديد، يوحد بين البشر جميعا، ويؤثر فى معنى الهوية التى أخذت طابعا جديدا، وها هو ذا (علاء البربرى) فى بداية قصته (عبقرية) بعد أن شاهد فيلما انجليزيا فى برنامج (أوسكار) يقف على كرسى الطقم الجديد، ويقول بانجليزية

واضحة: (هذه هى حياتى)، كما تتكرر رموز بعينها تؤكد الدلالة نفسها، فالجيتار الكهربائى، الذى تعلو صرخاته من الكاسيت فى هذه القصة، نجده عند (نادية شمس) فى قصتها (Love Story) يتجاوب مع موسيقى الروك، حتى يهتز كل شئ: الزجاج والكتب والأوراق والجسد.

تدفع هذه الكتابات الذهن إلى الأشياء الصغيرة التفصيلية، كما لو كان الكاتب ينوى أن يبدأ الحياة والكتابة من جديد.! إن الأشياء فى قصة (سكك حديدية خطرة) التى كتبها هيثم الوردانى ووائل رجب معا تشعرك بالتفاصيل الجزئية، حيث نقطة مركز فى البطانية تنبع منها كل الخيوط، وقطارة ممتلئة باللبن لإرضاع القطة الصغيرة التى تموت، ونجوم تكون شكل مغرفة وهكذا.

وتشتمل القصص كلها على تفاصيل صغيرة شديدة الواقعية، محايدة دون أى تركيب سابق مما يوحى بطزاجتها وتفاعلها تفاعل التجاور وليس التداخل.

مثلما افترضت هذه المقالة فى بدايتها، فهذه الملامح التى رصدت. بشكل سريع ستظل تمثل - بشرط اجتماعها- ملمحا من ملامح الكتابة الجديدة التى تختلف جذريا عن طبيعة الكتابات السابقة التى قد تحتوى على بعض أو كل هذه الملامح ولكن بعد إدخالها فى منظومة رؤيوية تدفع بمتلقيها نحو الاستعارة الرؤيوية داخل التنويعات الحداثية التى لا نهاية لها . أما الكتابة اليوم فهى تخترق اليقين السابق وتفتح مجالا جديدا لتأكيد شهادة مختلفة نوعيا.

● أمجد ريان





غالبت التردد أياما عديدة قبل أن أكتب السطور الأولى من هذا المقال، استجابة لدعوة كريمة من «الهلال».. ذلك أننى أحس بحرج شديد وأنا أتحدث عن نفسى .. إيمانا بأن لدينا جميعا من السنين والشجون العامة ، ماهو أولى من حديث الفرد ـ أى فرد – عن نفسه .. وإحساسا بأن مواطن النقص والقصور التي لا يعرفها غير صاحبها ، جديرة بأن ترده عن مزلق اصطناع القدوة لغيره وادعاء الفضل فى أمور هو أعلم الناس أنه ليس له فيها مزية ولا فضل .. ولكن الذى أخرجنى من هذا التردد ، ورفع عن كاهلى ذلك الاحساس بالحرج .. أننى أجد فى الحديث عن الثقافة وروافدها وأعلامها متعة لا تعدلها متعة ، كما أننى – فوق ذلك بل قبله أرد كثيرا من مشاكلنا السياسية والاقتصادية القائمة إلى أزمة الثقافة التى يعانى منها جيل الشباب المعاصر ، والتى تفسر كثيرا من أزماتنا التى أعيتنا محاولات الخروج منها .. كما أن حديثى عن الثقافة ليس فى حقيقته حديثا عن ثقافة الكاتب وحده وإنما هو – فى كثير من عناصره حديث عن ثقافة جيل أنتمى إليه ويشاركنى أكثر أفراده فيما أنا بسبيل الحديث عنه.

إذا استراحت الأمة إلى الخرافة أو التفكير العشوائى، فلا أمل فى النهضة

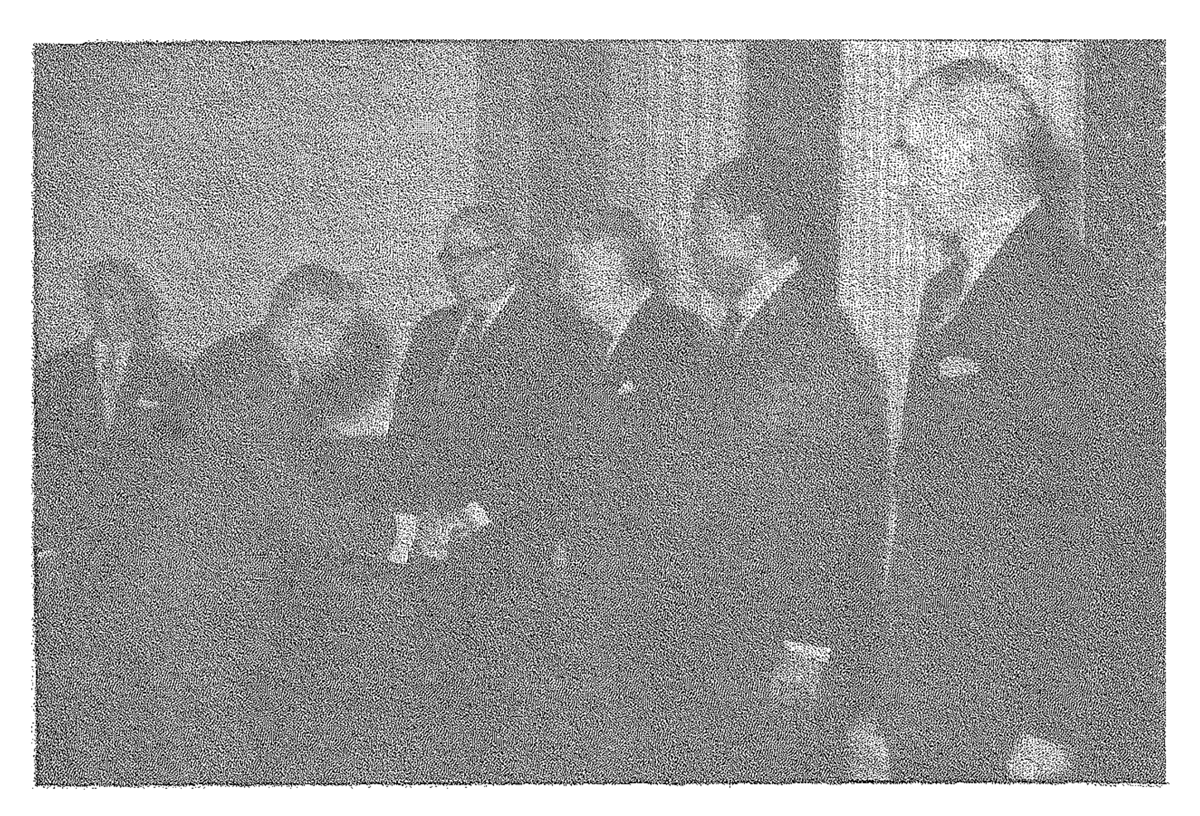
د . أحمد
كمال
أبو المجد



● روافد مهمة للمعرفة

نشأت كما نشأ أكثر أفراد جيلى فى أسرة تنتمى إلى ريف مصر، ولا تزال جذورها وكثير من أفرادها مقيمين فى ذلك الريف، فى قرية بنى عدى (أو بنى عديات) القريبة من منفلوط فى محافظة أسيوط .. وكان للأسرة توجه دينى ظاهر تمثل فى انتساب عدد غير

قليل من أصولها إلى الأزهر الشريف، دارسين فيه أو من علمائه وأساتذته .. وفوق ذلك ، فقد كان الوالد رحمه الله قاضيا ونائبا لرئيس المحكمة العليا الشرعية ، التى كانت - حينذاك - تمثل فى قضاء الأحوال الشخصية ماتمثله محكمة النقض فى القضاء المدنى ... واتصلت - فى صباى - بهذا التوجه من خلال متابعة لقاءات الوالد رحمه الله مع جلة من علماء الأزهر ورجال القضاء الشرعى ، أذكر منهم الآن المرحوم الشيخ عبد المجيد سليم والشيخ عبد الرحمن حسن ، والشيخ حسنين مخلوف ، والشيخ محمد فرج السنهورى ، والشيخ أحمد شاكر، والشيخ حمروش .. وكانت مجالسهم تجمع بين المناقشات فى أمور الفقه والشريعة ، وبين الأحاديث العامة والخفيفة ، وكثيرا ما كنت أدعى لاحضار كتاب من مكتبة الوالد رحمه الله وقراءة فقرات منه عليهم انتهى بهم الحديث إلى مراجعتها .. وإلى جانب هذا الالتفات المبكر للعلوم الاسلامية ، والاتصال بمراجعها ومؤلفاتها ، كان هناك اتصال - مبكر كذلك - باللغة وعلومها .. فقد ألزمنا الوالد أنا واخوتى وأخواتى لحفظ متن الأجرومية فى النحو ، وحفظ بردة المديح النبوى للبوصيرى .. كما كان يستدعينا - امام ضيوفه - ويسألنا إعراب عبارات نثرية أو شعرية معقدة ومركبة .. وكثيرا ما كان يطلب منى مراجعة كلمة معينة فى القاموس المحيط .. أو البحث عن أبيات شعر يراجع حفظه لها فى كتاب «الأغانى» وهكذا كان التراث الاسلامى ، والتراث اللغوى رافدين أساسيين تحددت بهما معالم «البنية الثقافية الأساسية» لى ولجيلى من الشباب .. وحين انتهى بى الأمر إلى الدراسة الثانوية ، وانتقل الوالد إلى رحمة الله اندفعت مع أبناء جيلى إلى التعرف النهم إلى ساحات أخرى من ساحات الثقافة .. وكان أكثرها - حينذاك - يدور حول كتب الفلسفة والأدب والتراجم .. فقرأ جيلنا كتب أحمد أمين وزكى نجيب محمود ، وعبد الهادى أبو ريدة ، فضلا عن كتب طه حسين والعقاد والمازنى الذى كان اكتشاف الجهل بواحد منها سبة ومنقصة لا علاج لها إلا بالتدارك السريع ... وكان شارع الفجالة مزاراً متصلا لأبناء هذا الجيل ، كما كان سور الأزبكية مزارا آخر يجمع ألواناً واشكالاً من الكتب القديمة والحديثة .. وحين بدأ عبد الرحمن بدوى يكتب مؤلفاته وتراجمه عن شوبنهور ونيتشه واشبنجلر تسابقنا إلى التهامها وتفاخرنا بالقدرة على فهمها واستيعابها رغم صعوبتها وتعقيدها بل كنت ممن زعم حينذاك أننى طلعت على رسالته فى «الزمان الوجودى» واننى فهمتها. والواقع أن الاطلالة على الحضارة الغربية وآدابها خلال هذه



المرحلة قد تمت عبر كتابات طه حسين والعقاد والحكيم - ومدرستهم .. وعلى رغم الفضل الكبير الذى ينبغى الاعتراف به لتلك المدرسة ، فإن أكثر أبناء جيلنا قد حصروا إطلالهم على الحضارة الغربية فى كتابات أولئك الرواد المصريين والعرب ، ولم يعن أكثرهم بدراسة تلك الحضارة من مظانها ومصادرها الأصلية .. ولم يكن ذلك أمراً تفرد به ذلك الجيل من المصريين .. ذلك أن العالم - حينذاك - لم يكن قد أزال حواجز الانتقال والاتصال التى أزالها فى أيامنا هذه - الثورة الكبرى التى تتابعت حلقاتها فى تلك الميادين .. وإنما كان الاتصال المباشرمقصوراً على فئة قليلة أتيحت لها فرصة السفر للدراسة والتحصيل فى ذلك البلد الأوربى أو ذاك .

ولابد أن اشير هنا إلى عناصر ثلاثة اضافية ساهمت فى تيسير اتصال جيلنا براوفد العلم والثقافة المختلفة .

العامل الأول : أن التليفزيون لم يكن قد اخترع بعد ، وكان الارسال الإذاعى محدودا فى ساعات بثه .. فكانت القراءة تكاد تكون وسيلة الاطلاع المعرفى الوحيدة فضلا عن اتخاذها لونا من ألوان الترويح والمتعة .

العامل الثانى : أن أسعار الكتب كانت فى متناول أكثر الراغبين فى الاطلاع ومتابعة الانتاج الثقافى .. حتى كان أكثر

الطلاب يشترون هذه الكتب كلها من «مصروفهم» اليومى الذى كان بالغ الضآلة .. ولذلك كون أكثر شباب تلك المرحلة «مكتبات» خاصة كانوا يتفاخرون بها كما تتفاخر الأسر ، اليوم باقتناء التحف والأثاث الفاخر ..

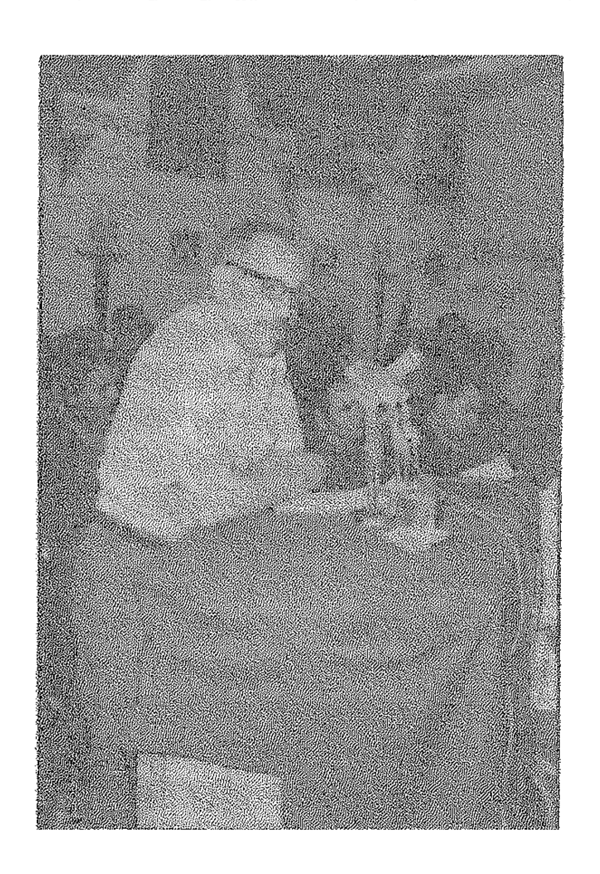
العامل الثالث : أن المجلات الثقافية كانت متعددة فإلى جانب مجلتى، الرسالة، والثقافة .. ظهرت خلال الخمسينات مجلات أدبية وسياسية عديدة وكانت مجلة «المختار» من ريدز دايجست ، نافذة ميسرة ومشوقة على الحضارة الغربية ، والثقافة الأمريكية بوجه خاص .

● السفر لاستكمال الدراسة

ومن المؤكد بعد ذلك أن سفرى لاستكمال الدراسة العليا فى القانون فى فرنسا أولا ثم فى انجلترا ، ثم فى الولايات المتحدة عام ١٩٥٩ قد فتح لى أبواب أفق جديد للمعرفة .. لعل قيمته الحقيقية لا تكمن فيما تيسر لى - ولزملائى فى هذه الأسفار والبعثات - من إتقان أصول البحث العلمى ، ولا فيما أتيح لنا من معرفة مضامين علمية جديدة فى ميادين بحثنا ، كل فى تخصصه وإنما تمثلت القيمة الحقيقية الكبرى لهذا الاتصال المباشر بالثقافة الغربية فى أننا جميعا تعلمنا معنى جديدا للثقافة يتجاوز المحافظة على التراث ولا يتأبى على الاستفادة من خبرات الآخرين ، كما يدرك حقيقة الترابط والتكامل بين فروع المعرفة والثقافة المختلفة .. هناك فى هذه الدول الغربية تفتحت أعيننا على جوانب من الثقافة لم تكن لنا بها فى مصر عناية تذكر .. تعلمنا قيمة الفنون ، وأخذنا زيارة المتاحف ومتابعة العروض المسرحية مأخذ الجد ، كما تفتحت أعيننا على حقيقة الارتباط الوثيق بين حرية الكلمة وحصانة البحث العلمى وبين فرص التقدم الحقيقى للأمم والشعوب .. والذى لاشك فيه - مع ذلك ، أن توجهى للتخصص فى القانون الدستورى ، وما أتاحه لى من اطلاع واسع على نظم الحكم والسياسة فى أكثر بلاد العالم ، قد وضعنى فى تعامل يومى مستمر مع قضايا العدل والحرية وحقوق الانسان وعمق ادراكى للحقيقة الأولى من حقائق العلم الدستورى وهى أن «سيادة القانون» فوق إرادات الحكام والمحكومين هى ضمان العدل والأمن والاستقرار ، وأن غياب تلك السيادة يفتح أبوابا لا سبيل إلى غلقها من الفساد والظلم وتراجع الأداء الوطنى الفردى والجماعى فى جميع الميادين .

● الاطلاع على ثقافات الشعوب

ولا شك - بعد ذلك كله - فى أن الاطلاع على هذه الجوانب من ثقافات شعوب أخرى .. قد فتح أمامى فرصاً



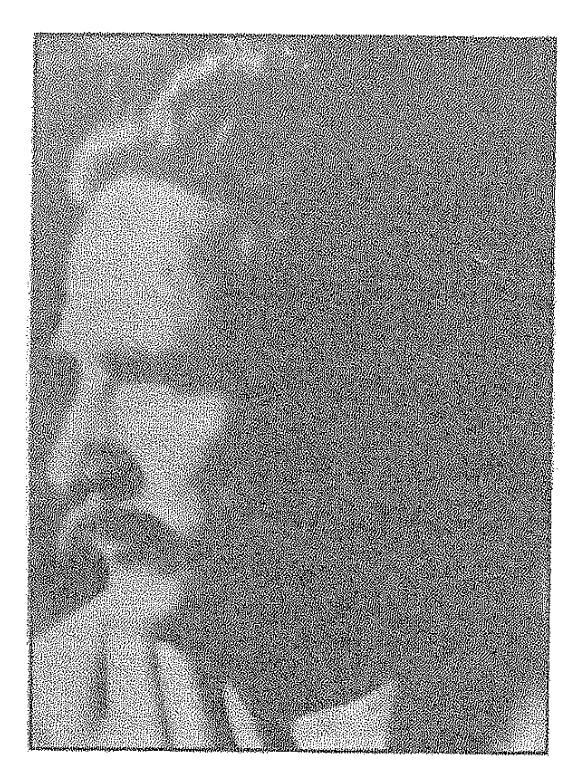
حقيقية للتناول النقدى لكثير من جوانب حياتنا ومن جوانب ميراثنا الثقافى الذى تلقينا عناصره كلها فى صبانا وشبابنا الأول تلقيا لا مكان فيه للتأمل النقدى أو للاستدراك والمراجعة .. وليس من شك كذلك فى أن استقرار عناصر البنية الأساسية للثقافة العربية والاسلامية التى نشأت معها وفى إطارها ، قد سمح لى أن أقف من بعض عناصرها موقف التعامل النقدى والاستعداد النفسى والعقلى لمراجعة بعض عناصر الثقافة الموروثة ، دون أن أتهم نفسى أو يتهمنى الآخرون – بسهولة – بأننى جاهل بتراثنا الثقافى ، أو رافض له ومتمرد عليه .. فقد نمت وتطورت عندى مسيرة هذا التعامل النقدى تحت ظلال انتماء مستقر وراسخ للثقافة العربية الاسلامية ، وإيمان بأن «منظومتها القيمية» كانت ولا تزال صالحة تماماً لتحقيق مهمتين كبيرتين متجاورتين : الأولى تحريك الأمة على طريق نهضة شاملة . والأخرى : الاسهام مع ثقافات أخرى معاصرة فى ترشيد حركة شعوب هذا العصر عن طريق تزكية «القيم الحافظة» لجوهر الخير والتواصل وتبادل العطاء ، وهى القيم التى أوشكت أن تهزها فى حياة الناس اليومية إفرازات التقدم المادى المصاحب للثورات العلمية وللتقدم الاقتصادى الذى توجهه وتتحكم فيه قيم المنافسة التى لا سقف لها فى مقام الاقتصاد الحر الخاضع لما يسمى «قوانين السوق».

وأعود – بعد ذلك كله – فأقول أن جيلنا ، شأن كل جيل ، لم يحدد لنفسه توجهاته الثقافية تحديداً انتقائيا بعيداً عن الواقع الاجتماعى والاقتصادى الذى يحيط به ، أو منفصلا عن مكان أمته بين سائر الأمم، أو منعزلا عن مرحلة التطور العامة التى يمر بها التاريخ الانسانى .. وإذا كانت أعين جيلنا قد تفتحت على واقع أمة تفض عن كاهلها بقايا الاستعمار السياسى والاقتصادى ، وتحاول التمسك

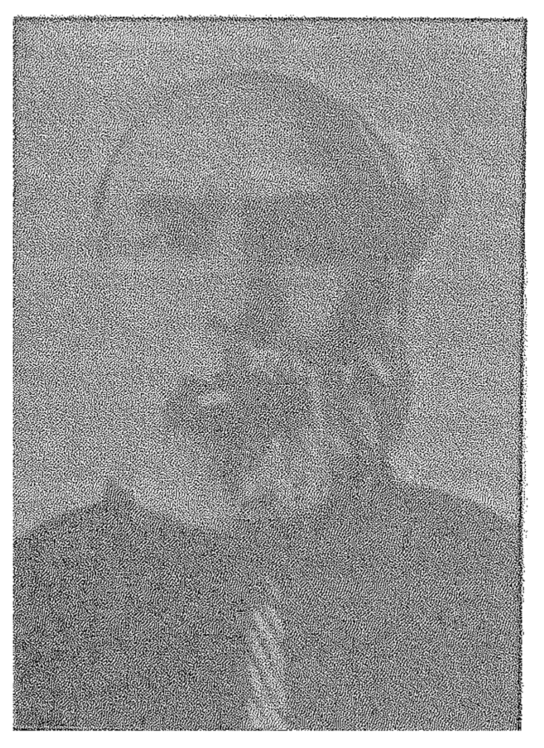
بهويتها فى مواجهة محاولات تذويب الخصوصية الثقافية، كما تحاول التمسك باستقلالها فى مواجهة بعض صور الاستعمار الجديد فقد كان طبيعيا أن تتوجه ثقافة الجيل كله نحو توكيد الذات الثقافية للأمة : ورفع شعار الاستقلال الثقافى فى «مواجهة تيارات التغريب» ورفع شعار «الأصالة» فى مواجهة تيار الغلو والاسراف فى المناداة بالعصرنة والتجديد .. ومعنى هذا كله أن التوجه المحورى للثقافة قد كان توجهاً «محافظا» يهدف إلى تثبيت خصائص الأمة الثقافية .. ويصل فكره - فى المقام الأول - بالمصادر الأولى لتلك الثقافة ، سواء كانت تلك المصادر متصلة بالاعتقاد الدينى والأخلاقى أو كانت متصلة بالتراث الأدبى شعره ونثره .

● هزة كبرى

ولكن التطورات التى شهدها تاريخ الانسان منذ منتصف هذا القرن كان لابد لها أن تحدث «هزة كبرى» فى هذا التوجه .. فقد تتابعت - فى سرعة متزايدة - الثورات العلمية والصناعية وأخرجت للناس أدوات جديدة ذات كفاءة غير مسبوقة ، فى تقريب الناس بعضهم إلى بعض ، وفى نقل الأفكار والقيم وأنماط السلوك من أقصى الدنيا إلى أدناها .. وفى امتداد الأطماع والمصالح عبر الحدود التقليدية التى كانت كحاجز بين الشعوب ، وتبقى عليها معزولة داخل كياناتها السياسية والثقافية التى اعترف لها بها النظام الدولى والقانونى القائم آنذاك .. وبدأ - تدريجيا - انتقال «الرؤية الانسانية» بكل جوانبها من «المحلية» إلى «العالمية» .. وصار الجيل لا يقيم ثقافته وأدائه اليومي بوضعهما فى مقابل ثقافة وأداء الأجيال السابقة من أجيال أمته . وإنما صارت المقارنة معقودة دائما بين ثقافة الجيل الحاضر وأدائه وقدرته كلها وبين أداء الأجيال المعاصرة من أصحاب الثقافات المختلفة وأبناء الأمم الأخرى .. أى أن المقارنة والمواجهة لم تعودا تجريان على محور زمنى رأسى وإنما صارتا تعقدان عبر محور أفقى ومكانى .. واستجابة لهذا التطور العالمى الذى لا فكاك منه لأحد بدأ جيلنا يدرك أبعاد «الجمود» و«التخلف» اللذين أحاطا بأمتنا كما بدأ يدرك أبعاد الانطلاق والحركة ، والنهضة التى حققتها من حولنا شعوب أخرى .. وإذا كانت فرص التنقل والسفر والاتصال المباشر بمظاهر هذه النهضة وذلك الانطلاق قد تحققت لأفراد من جيلنا - أنا واحد منهم - أكثر مما تحققت لكثيرين ، فإن هؤلاء الأفراد كانوا - لذلك - أسبق إلى الانتباه للحاجة الكبرى إلى تكوين البنية الثقافية للأمة تكويناً جديداً يجرى فيه من جديد تقييم عناصر تلك الثقافة ، وفتح الأبواب لاكتساب عناصر



محمد إقبال



محمد عبده

جديدة تؤهل الأمة للانبعاث والنهضة وتمكنها من دخول ساحة المنافسة العالمية التى فرضتها الثورات العلمية فى ميدانى الانتقال والاتصال وما تقدمه – كل يوم – من وسائل اختزال المسافات وهدم الحواجز ، وتقريب الناس والثقافات .

ولقد كنت – ولا أزال – واحدا ممن استجابوا لدواعى هذه «الثورة الثقافية» .. التى تعتمد منهجا ذا شعبتين أو رافدين :

الرافد الأول : رافد المحافظة على الهوية الحضارية ، وتوثيق الصلة العقلية والنفسية بالاطار المرجعى للثقافة القومية .. إيماناً بأن هذا الاطار هو الذى يحمل «منظومة القيم» الأخلاقية للأمة ، وهى المنظومة التى تحمل خصائص الأمة وتحدد «بصمتها الثقافية» كما تمثل اسهام الأمة فى ترشيد الحضارة العالمية ..

الرافد الثانى : رافد «الانفتاح» أمام الجديد النافع من عناصر الثقافات الأخرى، إيماناً بأن الله تعالى قد وزع الحكمة بين الناس والشعوب ، وأنها فى منطق أمتنا ، وبعبارة الحديث الشريف «ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها» وأنها لذلك تستحق أن تطلب «ولو فى الصين» .. وأن التعدد والتنوع فى الثقافات والأعراف وطرائق الحياة مدعاة للتنافس والتسابق إلى الخير .. وأن هذا



د. احمد كمال أبو المجد محاضراً فى واحدة من ندواته الفكرية

التسابق هو حكمة الله الكبرى فى خلق هذا التنوع بين الثقافات والشعوب ولذلك تجد آيات القرآن الكريم ، أكبر وأوثق إطار مرجعى لأمتنا العربية والإسلامية ، لا تكاد تذكر التنوع والتعدد إلا وتردفه بقوله تعالى : «فاستبقوا الخيرات» وعلى أساس من هذا المنهج توجهت - فى نهم شديد واحساس بأننا مع العالم كله فى معركة استباق للخيرات ، لاينال الفوز فيها إلا من أخذ بشروط النهضة ، وحاز أدواتها .. كما توجهت كذلك - إلى محاربة عناصر الجمود ودعاة الانغلاق .. وإلى حفز همم الذاهلين عن حركة الدنيا من حولهم المنكفئين على الماضى وحده .. والمنادين بالانقطاع عن مسيرة الناس وحركة التاريخ .. ومن خلال القراءة الغزيرة والاتصال المباشر بحركة الشعوب الأخرى وهى تمارس الخروج من المحلية إلى العالمية .. واتصال مباشر كذلك بمعاناة أمتنا وهى تحاول التحرر من أغلال الجمود وتثاقل الخطى وثقافة السكون والانحصار فى الماضى ..من خلال ذلك كله بدأت ، مع آخرين مسيرة جديدة ودعوة عالية النبرة إلى ضرورة «التحقق بشروط النهضة» وإلى الخروج بالأمة كلها من «المحلية إلى العالمية» دون انخلاع من هوية الأمة وثقافتها الخاصة ، التى تحمل - مثل غيرها - أسباب قوة ونهضة آن الأوان لتوظيفها وتسخيرها

لخدمة هذا الانطلاق المأمول كما تحمل عناصر «ضعف» ينبغى - بلا حرج - نبذها وتخليص مسيرة الأمة من آثارها المعوقة والمدمرة ..

وإذا جاز لى - دون خروج عن الإطار المحورى لهذه السطور - أن أشير إلى أهم عناصر هذا التوجه الثقافى الجديد فإننى أذكر محاور ثلاثة صارت عندى وعند كثيرين مثلى ، أهم معالم هذا التوجه الثقافى الجديد .

المحور الأول : محور الحرية التى هى بشهادة الواقع والتاريخ شرط النهضة ، وشرط كل إبداع إنسانى ، والتى كانت ، ولا تزال إلى مدى كبير ، الفريضة الاسلامية الغائبة «عن حياتنا» والتى يحتاج الجيل بسبب هذا الغياب إلى أن يتعلمها وأن يربى على إحترامها ..

المحور الثانى : محور «العقل» الذى أنزله عن «عرشه» التفكير الغيبى فى أمور الدنيا التى تحكمها القوانين والنواميس ذلك أنه إذا عطلت العقول ، واستراحت الأمة إلى «الخرافة» أو إلى التفكير العشوائى الذى لا يعترف بالحدود المنطقية ولا يكاد يقيم وزنا لقانون السببية .. فلن يكون هناك أمل فى نهضة ، ولا فرصة فى لحاق بالآخرين .

المحور الثالث : محور العمل ، الذى تكون به ، بعد الفكر، كل حركة ، والذى يتم من خلاله - كل تغيير . والعمل الذى ينبه إليه هذا التوجه الثقافى الجديد هو فى المقام الأول عمل كثير ، وفى المقام الثانى عمل «مجود» ذو مستوى نوعى رفيع تعبر عنه ثقافتنا بحسن الأداء أو «اتقان العمل» أو «الاحسان فى كل شىء».

المحور الرابع : محور الابداع .. بالاضافات المبتكرة لما هو قائم والتوجه المستمر لطلب الكمال الممكن ..

وبهذه التوجهات كلها كان لابد أن تضاف إلى الثقافات التراثية المحافظة ، عناصر جديدة متنوعة فى مصادرها متعددة فى مضامينها ، متوجهة إلى المستقبل .. وإذا كان بعض الأفراد قد أوتوا حظا خاصا بهم مكنهم من السبق إلى طلب هذه العناصر وحيازة الكثير منها .. فإن الجيل كله قد وضع أمام حقائق هذا العصر الجديد .. وصار مطالبا بتأهيل نفسه لمشاركة شعوب الدنيا هذا السباق الجديد كما أن مؤسسات المجتمع قد صارت مطالبة - قبل الأفراد - بريادة هذا التوجه الجديد ، وتمكين الجيل من ممارسة وحيازة شروطه وإذا كان هذا التوجه يضع على عواتقنا جميعاً، أفراداً ومؤسسات أعباء باهظة ، فإننا لا نملك إلا أن نقول .. «هذا أو الطوفان» ولنا أن نذكر أنفسنا بعبارات الشاعر المجدد الكبير محمد اقبال حين ذكرنا بأن النسور - وهى ملوك الطير - لا ترضى لنفسها بالتحليق عند السفوح وإنما هى لا ترى إلا محلقة هناك فى الذرى ، وعند قمم

دفاعا عن «قراقوش»

فى مقاله المتميز المعنون بـ «الكتابة المصرية الساخرة» أمتعنا الأستاذ / إبراهيم فتحى بدراسة جادة واعية ، والتى جاءت ضمن ملف مجلتنا الغراء (الهلال) عن «الساخرون والضاحكون» والذى كان إضافة متفردة كما عودنا (الهلال) دائما .

لقد ورد فى هـذا البحـث حديثـه عن الكتب التى كتبت عن (قراقوش) والذى يقول عنه د . أحمد شلبى فى كتابه «موسوعة الحضارة الإسلامية : ٥ / ١٦٩» عندما تحدث عن «رجال صلاح الدين» «ومن رجال صلاح الدين كذلك وزيره بهاء الدين قراقوش ، وقد تحدثت الأساطير عن تعسفه واضطرابه ، ولكنه فى الحقيقة ليس كذلك» .

ويقال إن «قراقوش» تعنى الغراب (الأسود) باللغة التركية ، و«قراقوش» الذى كتب عنه ابن مماتى كتابه الشهير «الفاشوش فى حكم قراقوش» كان مهندسا ضليعا فى فن العمارة والبناء ، ونعرف من تاريخه أنه كان المسئول عن بناء قلعة صلاح الدين ، وكان جادا دقيقا فى عمله ، يضرب بيد من حديد على هؤلاء الذين يغشون فى مواد البناء ، أو الذين لا يلتزمون بالجدية فى عملهم ، ويبدو أن المقاولين الذين كان يوكل لهم العمل فى بناء القلعة هم أول من أطلق عليه الشائعات ، واتهموه بالتعسف والظلم ، وحبكوا حوله الأساطير ، والحقيقة غير ذلك فقد خدم الرجل الدولة الأيوبية بكل التفانى والإخلاص ، ويبدو أن شيئا ما كان بين الأسعد بن المهذب المعروف بابن مماتى (ت ٦٠٦هـ) والوزير (قراقوش) وهو الذى دفع الأول إلى كتابة كتابه الذى استشرى فى الوجدان الشعبى لدرجة أنه حول قراقوش إلى ملك أو سلطان من الظالمين المتجبرين .

ويجدر بالذكر أن ابن مماتى كان مسئولا عن ديوان المال أيام صلاح الدين ، ثم اُتهم فى ذمته المالية فتقرر عزله ومصادرة أملاكه ، فهرب إلى حلب السورية .

هذه كلمة متواضعة جدا أردنا أن ننصف بها «قراقوش» البناء العبقرى الجاد فى عمله والذى ظلمناه .

وشكرا لكاتب المقال وشكرا للهلال الغراء .

● يسرى عبد الغنى

بين الضحك والكتابة !

أعجبت أشد الإعجاب بالجزء الخاص الذى أصدرته الهلال فى الشهر الماضى «الساخرون والضاحكون» ، وقد أعجبت بكل الموضوعات التى نشرها الهلال وتعليقا على مقال الكاتب الكبير الأستاذ مصطفى أمين «السخرية فى حياتنا من رخا إلى أحمد رجب» فقد أعجبتنى هذه العبارة الجميلة التى وردت فى المقال وهى «من السهل جدا أن يسرد الشخص منا ، لكن من الصعب الاختصار»!

نعم ما أسهل الهدم ، وما أصعب البناء .. يقول الكاتب الكبير محمد زكى عبد القادر رحمه الله «الضحك كالتأمين على الحياة ، وكلما كبر الإنسان ، كبر التأمين ، وأعتقد أن رصيدنا من الضحك قليل ، وأننا فى الطريق إلى الموت كآبة .

وإننى أتمنى ألا تحرمنا مجلتنا الحبيبة «الهلال» من هذه الجرعات الساخرة ، التى تعيد إلينا الابتسامة من جديد .

عاصم فريد البرقوقى –
الإسكندرية

الضاحك الباكى !

تعجبت كثيرا أن تنشر الهلال فى عدد ديسمبر ١٩٩٥ جزءا خاصا عن السخرية والضحك ، ولا تتضمن مقالات هذا الجزء ، مقالا عن الكاتب الكبير فكرى أباظة ، وهو من أعلام الصحافة فى مصر . وأحد أبرز الصحفيين بدار الهلال ، ورئيس مجلس إدارتها الأسبق ، فضلا عن أنه من أكثر الناس خفة ظل ، وسخرية فى كثير من كتاباته الضاحكة وهو صاحب كتاب «الضاحك الباكى» !

عاطف صابر – الاسماعيلية

الهلال

– لاشك أن الراحل الكبير فكرى أباظة أثرى حياتنا الأدبية بكتاباته الساخرة ، ونقداته اللاذعة للمجتمع المصرى ، الذى تميز بعادات يحار المرء فيها ، وكانت كتابات فكرى أباظة معبرة كل التعبير عن وجدان الشعب المصرى ، متضمنة هذه السخرية البديعة

ونحن ياعزيزى لا يمكن أبدا ان ننسى هذا الدور الكبير لشيخنا فكرى أباظة يرحمه الله ، فهو يعيش فى عقولنا ووجداننا ، ولكن كما قرأت فان الشخصيات الساخرة التى تناولها العدد اقتصرت علي الأحياء من الساخرين وهم الأساتذة محمود السعدنى ، أحمد رجب ، أحمد بهجت ، محمد مستجاب .. أمد الله فى أعمارهم

أنتِ والهلال

ياحلوتى

اسق حبيبك من شفاهك سكرا
ودعيه ينشق من عبيرك عنبرا

فى وجنتيك الورد فى أكمامه
قد مسه طل الصباح فأزهرا

شاء الإله بأن تكونى فتنة
ويحار فيك الشعر مهما أبحرا

زعموا قصيدى فيك جذوة عاشق
لما رأوك خطرت قالوا : قصَّرا

تتنقلين فراشة فى خاطرى
أىُّ الدروب بها سلكت تعطُّرا

ليلى وصبحى فى هواك تنافسا
فالصبح وجهك والخيال له الكرى

ياحلوتى يا أهتى إن الهوى
قدر جرى ونعمت فيما قُدِّرا

محمود عبد العزيز عبد المجيد
كفر الشيخ

دور مهم للمجلات الفكاهية

كانت مصر زاخرة فى الجيل الماضى بالمجلات الفكاهية وكان رائدها الأول هو يعقوب صنوع الصحفى المصرى ، صاحب مجلة (أبو نظارة) وتلاه عبد الله النديم ، خطيب الثورة العرابية ، صاحب (التنكيت والتبكيت) وبيرم التونسى الزجال المعروف صاحب (المسلة) وغيرهم . وكان آخر هذه المجلات هى مجلة (البعكوكة) لمنشئها محمود عزت المفتى ، وكانت أكثرها ذيوعا وانتشارا ولم يكن الهدف من هذه المجلات هو مجرد الإضحاك ، وإنما كان الهدف الرئيسى منها هو نقد أوضاع المجتمع السائدة فى ذلك العصر، وخصوصا عصر إسماعيل ، بقصد اصلاحها .. ويرجع السبب فى رواج هذه المجلات ، وإقبال الشعب المصرى

المصرى عليها ميله الطبيعى الى حب الفكاهة ، ليروح عن نفسه فى مجتمع طبقى يسوده الظلم ، ويجثم فوق صدره المحتل ، كما انه يحسن اصطياد القفشة ، ليحارب بها التصلب فى بعض العادات الاجتماعية بقصد تقويمها .

والآن تخلو الساحة الصحفية من المجلات الفكاهية ، التى ساهمت بسلاح السخرية والنقد اللاذع الذى عرفت به فى إصلاح المجتمع الذى طفحت – بكثرة – على سطحه فى هذه الأيام سلوكيات غريبة . كالاحتيال والنصب على أموال البسطاء والسذج من المواطنين ، تحت ستار مشروعات استثمار وهمية بحيث يتخفى البعض منهم بعباءة الدين ، وحتى يفيق هؤلاء الناس من سذاجتهم وغفلتهم . كما نشهد الآن الكثير من حوادث السلب والنهب والاغتصاب العلنى ، ورفع الأسعار بشكل مبالغ فيه ، وهى تصرفات لا يفلح فى علاجها إلا كشف أصحابها وتعريتهم تماما عن طريق الأسلوب الصريح والتبكيت العلنى الجرىء ، وهو ما تجيده صحافة الفكاهة .

مصطفى محمود مصطفى
كفر ربيع – منوفية

الثمانون عشتها .. كيف ؟

مد لى الله فى سماحة عمرى
الثمانون أوشكت فى ذراها
كلما جد فى الحياة جديد
كل يوم يمر يعطى ادخارا
كم دروس وعيتها فى حياتى
الثمانون خلتها لمحات
خلجات الإحساس نور وفيض
لا أرجى الحياة غير جهاد

أشكر الله .. بين عسرى ويسرى
تصطفى حكمة الحياة وتغرى
زخرت رؤيتى وضوعف برى
لتجاريب ، قد أضيفت كسحر
وأضفت الكثير من سماحة فكر
فى ضمير الزمان ومضة سحر
عاشه المرء بين جهد وصبر
صادق الوعد ، يستثاب بأجر

أنت والهلال

علم النفس أن تعيش ازدهارا ... بين فأل الزمان ، أو صبابة فجر
ابتسم للحياة واجمع جناها ... وأمنح الناس حكمة صنو در
ليت شعرى ؛ متى يعيش انبهارا ... كل فذ غدا نصيرا لفكر
كن حفيا بالجد فى كل فن ... وتنقل بالصدق فى سماحة يسر
وبناء الإنسان مثل بناء الصرو ... ح ، فى ذمة ووعد وبر
حسبى الله أن أكون ملما ... بأصول الحياة بين أمر وأمر
عش كما عاشت النجوم انبهارا ... واسع للفضل إذ تفيض وتثرى
كل فذ لابد ان يتبارى .. ... فى مدى فنه بحذق وأجر
دع صغار النفوس فى نية وهم ... واحتدم أنت فى احتمال وصبر
وخذ الأمر بالسواعد والجهـ ... ـد ؛ وبذل الآراء نهضة فكر
واحسم الرأى فى البلاء إذا ما ... حزب الأمر ، وانطلق غيث قطر
واحتفال الإنسان بالناس ذكرى ... حيث كانوا ، والرأى بالرأى يغرى
ودع الملك للإله يصرفـ ... ـه ، بما شاء فى اقتدار وجبر

عبد العزيز بيومى على
مدير سابق بالمدارس الثانوية

ابن تغرى بردى والنجوم الزاهرة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة لجمال الدين أبى المحاسن يوسف بن تغرى بردى ، واعم علم التاريخ فى نشأته نشأة الأمة العربية فكان حديثا عن أنساب الناس حين كانوا قبائل مترحلة لم تستقر الأماكن تحت أرجلها كما كان حديثا من ايامهم ومآثرهم حيث تشاحنوا على مواقع الحياة حيث الخصب ، وحين ظهر من بينهم الانجاد و الأمجاد .. وعندما استوت لهم مدن ، كان حديثهم عنها يمثل التاريخ الجامع لشئونهم الكثيرة وشاعت عصبية الوطن بعد ما اختفت عصبية النسب وإذا هذه الأوطان يختصها المؤرخون بكتب خاصة ، ومن أقدم ما انتهى الينا من ذلك ، اعنى الحديث عن البلدان ، اخبار الحيرة لهشام

ابن محمد الكلبى ٢٠٤ هـ وقد أخذ مؤرخو كل اقليم منذ القرن الثالث فى جمع ما يتصل بتاريخ اقليمهم فكان من ذلك تاريخ مصر والاسكندرية للواقدى ٢٠٧ هـ واخبار مكة للأرزقى ابى الوليد محمد بن عبد الله ٢٢٣ هـ ، ثم فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم ٢٥٧ هـ .

وما أن أهل القرن الرابع الهجرى حتى انضمت الينا هذه المدرسة التاريخية ، مدرسة اخرى تعنى بالحديث عن خطط البلاد ، وكان أول من ألف فى ذلك أبو عمر محمد بن يوسف الكندى (٣٥٠ هـ) . ومضت هاتان المدرستان التاريخيتان بالمدن تستعين بكثير من القرون اللاحقة وكان ممن كتبوا عن مصر فى الجانب التاريخى .

- ابن يونس الصدفى (٣٤٧ هـ) وله كتابان عن أهل مصر وعن الغرباء الواردين عليها
- أبو عمر الكندى ٣٥٠ هـ فضائل مصر المحروسة .
- ابن زولاق الدليل على تاريخ الصدفى . وغيرهم كثيرون .

وعن مدرسة الخطط بعد الكندى (٣٥٠ هـ)

- ابن زولاق ٣٨٧ هـ خطط مصر
- القضاعى (٤٥٤هـ) المختار فى ذكر الخطط والاثار .
- على مبارك (١٣١١ هـ) الخطط التوفيقية .

●●●

ابن تغرى بردى

بالقرب من مدرسة السلطان حسن (حى القلعة الآن) وفى دار كانت للأمير سنجك اليوسفى وفى حدود سنة ٨١٢ هـ كان مولد مؤلفنا يوسف بن الأمير تغرى بردى .

كان أبوه تغرى بردى مملوكا روميا جميل الطلعة اشتراه السلطان برقوق ، وجعله من مماليكه ، وحين شب أعتقه وضمه إلى احدى فرق المماليك السلطانية ، وبعد أن توفى برقوق وتولى ابنه فرج بن برقوق الأمر مكانه ونبه بشأن ابن تغرى بردى فتولى نيابة دمشق إلى ان كان دخول تيمور لنك إلى الشام ، وانهزام فرج بن برقوق بجيوشه ، ورجوع تغرى بردى معه، ثم عاد تغرى بردى الى نيابة دمشق للمرة الثانية بعد خروج التتار من دمشق ، غير انه مالبث ان اتهم بالخيانة العظمى ، فهرب الى التركمان وبقى هناك الى ان عفا عنه السلطان ، وتزوج من كبرى بناته فاطمة ، وولاه نيابة دمشق للمرة الثالثة وبقى إلى ان وافته منيته سنة ٨١٤ هـ ، وحين ترك هذا الأب دنياه خلف من وراءه أبناء ستة ، كان أبو المحاسن أصغرهم كان فى الثانية من عمره ، نشأ أبو المحاسن يتيما ، فذاق اليتم مبكرا ، وتولى تربيته زوج اخته بيرم قاضى القضاة ناصر الدين محمد بن النديم الى ان مات ابن النديم سنة ٨١٩ هـ تولى تربيته الزوج الثانى لبيرم وهو قاضى القضاة جلال الدين بن عبد الرحمن البلقينى فأخذ فى تحفيظه القرآن الكريم وحفظ مختصر القدورى فى فروع الحنفية ، ودرس النحو

أنت والهلال

والصرف والحديث ، وعلم التاريخ وأجاد الفروسية بكل ألوانها وفنونها ، ولقد جاء القرن ٩ الهجرى من أهم القرون التاريخية حتى أصبح ابى المحاسن من جملة مشهورى المؤرخين فى مصر .

ولأبى المحاسن بن تغرى بردى أكثر من ١٦ مؤلفا منها النجوم الزاهرة يقع فى ١٨ مجلدا ظهر المجلد الأول سنة ١٩٢٧ حتى سنة ١٩٦٩ المجلد الثامن عشر ويؤرخ لمصر منذ الفتح الإسلامى الى الدولة الأشرفية سنة ٥٨٧ هـ مع استطرادات كثيرة فى اخبار البلاد المجاورة وهو مرتب على السنين وفى اخر تراجم من مات فيها وزيادة النيل ونقصانه .

رجب عبد الحكيم الخولى - حلوان

أناشيد حب

كارتسام النجوم فوق مياه
حلوة الموج عذبة رقراقه
كالنسيم العليل يطرح ليلا
ذكريات لدى الدجى مشتاقه
مثل ذاك الكافور مد غصونا
فوق نهر رمى به أوراقه
مثل عصفور عاد يوما لعش
عاد بالحب إنه الحب ساقه
عاد فى ليلة الرياح إليه
عاد للعش والزمان أعاقه
مثل شوق الطيور عند غروب
تبتغى عشها يرد فراقه
أنت ذاك الجمال والشوق كل
الشوق والنور إذ يكبُ اشتياقه
أنت زهر الرياض أنت نسيم
قد أتى والهوى على أراقه
أنت مثل العراق عند حياتى
أيبيع الحجاج يوما عراقه ؟



سامح النجار - فارسكور

عربى مذهول

حزم الأمر وأزمع أن يرى الأشياء أروع
أن يرى للفجر نورا ويرى للصبح مطلع
ما له سارت خطاه نحو فلك لم يشرًع
يرهب الإعصار دوما ومن الأمواج يجزع
وإذا قارب شطا أو إلى الصحراء أسرع
كاد لا يفقه شيئا أهو للإلهام ودع
شارد الذهن نهارا ليله عينان تدمع
يبصر الماضى فظيعا ويرى الحاضر أفظع
هل يجارى كل غاف ولسوط الذل يخضع ؟
هل ينادى ياشبابى أشباب اليوم يسمع ؟؟
أم يكن عبدا ذليلا تابعا ؟ ، اذ كان يتبع
وإذا ما مات قهرا إلى الجنات يرجع ؟!
هكذا قد راودته نفسه ، ما كان يمنع ؟>
قال يوما أين نحن هل لنا فى العصر موضع ؟!

عبد الله حبورى - اليمـن

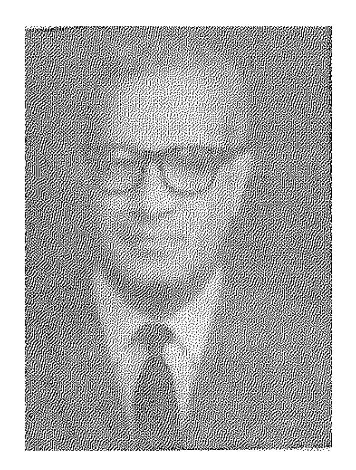
إلى الأصدقاء

● **الصديق أحمد كامل علي ـ جامعة القاهرة فرع الفيوم**
«قصيدتك : لاتلمنى يازمانى» جيدة، ولكن بعض أبياتها مكسورة ، رجاء مواصلة الكتابة والاهتمام بالوزن.

● **الصديق : علي منصور ـ الجزائر**
نرحب بك صديقا لمجلة الهلال ، ونشكرك على كلماتك الرقيقة حول ماتضمنه من زاد فكرى لك ولأبناء العرب فى كل وطن عربى .

● **الصديق : مصطفي عوض ـ مدينة نصر القاهرة**
وصلت إلينا مساهمتك الشعرية «قررت الحياة» وعليك أن تقرأ جيدا ، وتحاول الكتابة مرات ومرات فلابد للشعر أن يكون موزونا ومقفى

ونشكر الأصدقاء :
إبراهيم مهدي «الإسكندرية» ـ بكري مصطفي «الكويت» - عدنان ثامر «سوريا» ـ حمدان حمد «السعودية» - سامي داود «المنصورة»
ونعد بنشر الإنتاج الجيد لأصدقائنا في الأعداد القادمة



ليست الكلمة الأخيرة

محمود أمين العالم

● عذرا لمجلة «الهلال» ولقرائها الاعزاء لمعارضتي لعنوان هذه الصفحة التي أملؤها بهذه الكلمة غير الأخيرة ! أعرف أن المقصود بالعنوان هو الكلمة الأخيرة في كل عدد من أعداد «الهلال» . ولكن .. ما أقسى اليقين المطلق النهائي الذي يوحي به هذا العنوان ! وما أكثر ما في حياتنا من يقول بأن كلمته هي الكلمة الأخيرة ، وهو يعني بها احتكار الرأي والحقيقة ، ورفض كل من يعارضه إلى حد التزييف أو الاغتيال الفكري بل والجسدي ! لست أقصد التعصب الديني فحسب، بل التعصب والتزييف عامة ، السياسي والسلطوي والفكري والاجتماعي والثقافي . ولست أقصد بكلامي هذا الدعوة إلى التوفيقية أو تعليق الحكم أو التوقف عن اتخاذ المواقف وتحديد الآراء ، بل هو دعوة إلى احترام الاختلاف والتنوع وتفهم الرأي الآخر وإتاحة المساحة الجديرة به ، دون التوقف عن الدفاع عما نراه حقا ، بالحوار المجتمعي والتدقيق الموضوعي والاختبار العلمي والعملي .

كل كلمة أخيرة في النظريات العلمية أعقبتها دائما كلمة أخرى خالفتها أو أضافت إليها وكلمة أخيرة في الفكر الفلسفي والسياسي والاجتماعي والثقافي عامة ، واجهتها كلمة أخرى ناقضتها أو عدلتها وطورتها إلى ما هو افضل .

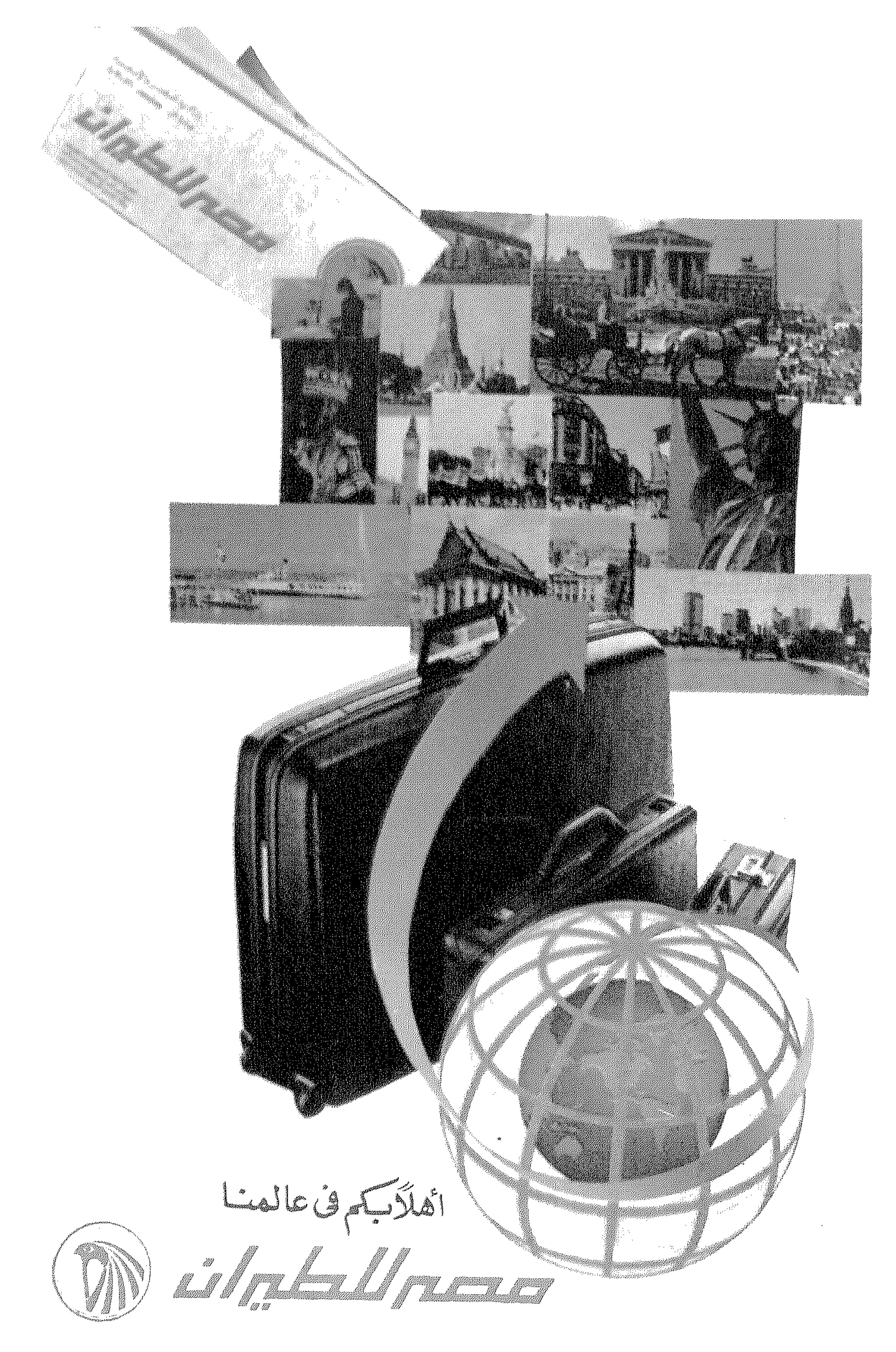
والذين زعموا ان النظام الرأسمالي العالمي هو الكلمة الأخيرة في التاريخ ، سرعان ما فضح الواقع ما في هذا النظام من أزمات قاتلة وطبائع شرسة، وأن الاشتراكية- رغم كل ما حدث لنموذجها السوفييتي - لا تزال أفقا انسانيا ينبض بالامكان المتجدد . خلاصة الامر ، هو حاجتنا الى الوعي التاريخي بالحقيقة . فلكل شئ تاريخ . وكل تاريخ هو حركة وتفاعل وتغير . ووعي الانسان وارادته هما جزء فاعل في التاريخ نفسه. هل قال عام ١٩٩٥ كلمته الأخيرة لنا ؟ أبداً... فلا تزال حروف كلمته تبحث عمن يكتبها في قلب عامنا الجديد ١٩٩٦.

وهل صحيح ما يقال عن تفكك النظام العربي ولا سبيل إلى وحدته وتجدده؟

أبداً.... فلا تزال حوافز الوحدة وضروراتها أقوى من عوامل التفكك. وهل قال النظام العالمي الجديد كلمته الأخيرة؟ أبداً.... لا يزال الصراع العالمي محتدما لتحديد معالم نظام إنساني جديد.

ولهذا فالسؤال الذي ينبغي أن نسأله ليس عن كلمتنا الأخيرة وإنما عن كلمتنا التي نستخلصها من دراسة الواقع، وحوار العقول ومصالح شعبنا، وأن نسعى لاختيارها وتحقيقها بالفكر والديمقراطية والانتاج والإبداع الجماعي في إطار حقائق عصرنا.

وأطيب الأمنيات لمصرنا ولأمتنا العربية وللعالم أجمع بعام جديد اكثر أمنا ومشروعية وتقدما.



أهلاً بكم في عالمنا
مصر للطيران

لمسات

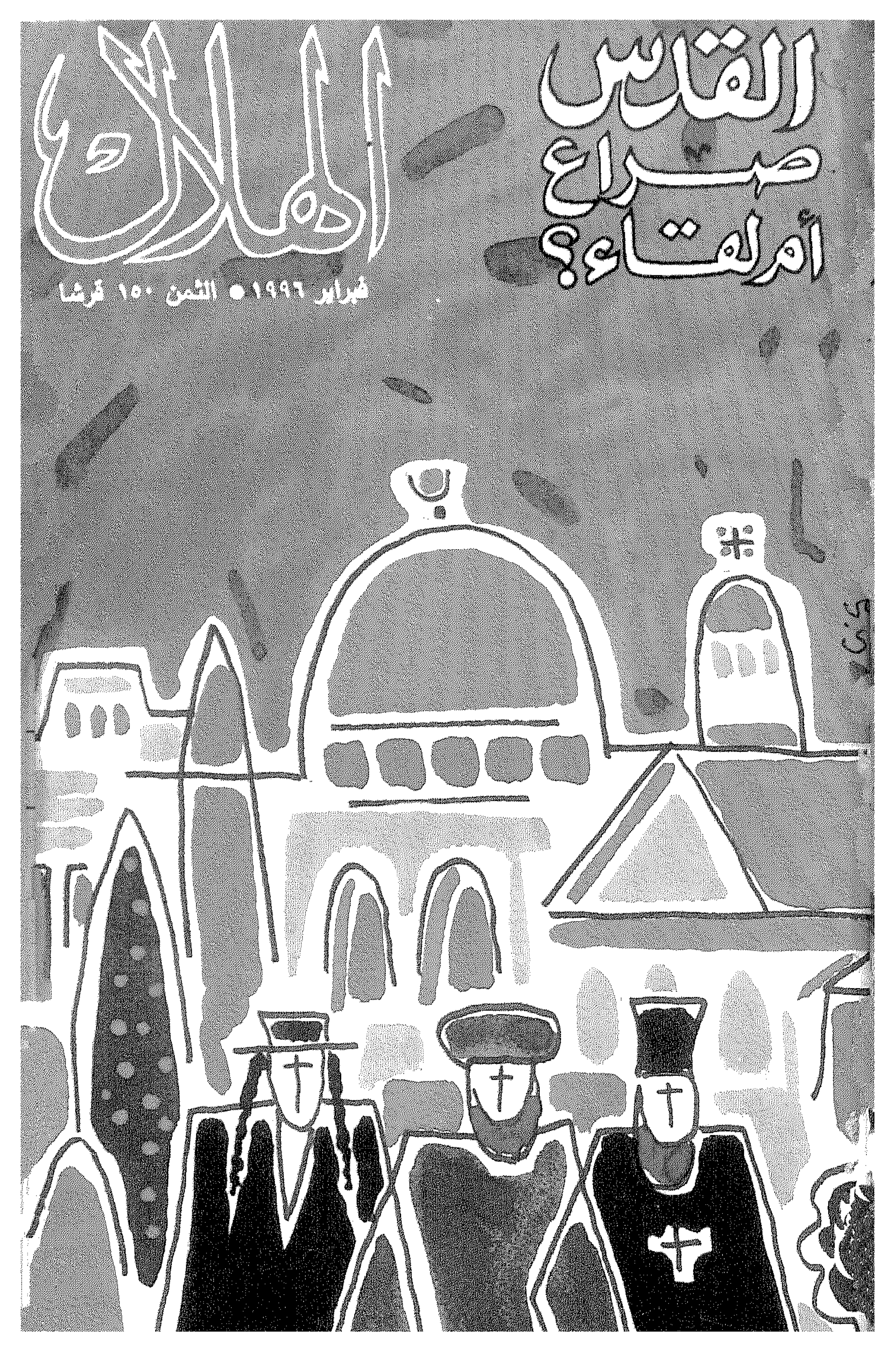
نبع الآداب والثقافة المعاصرة

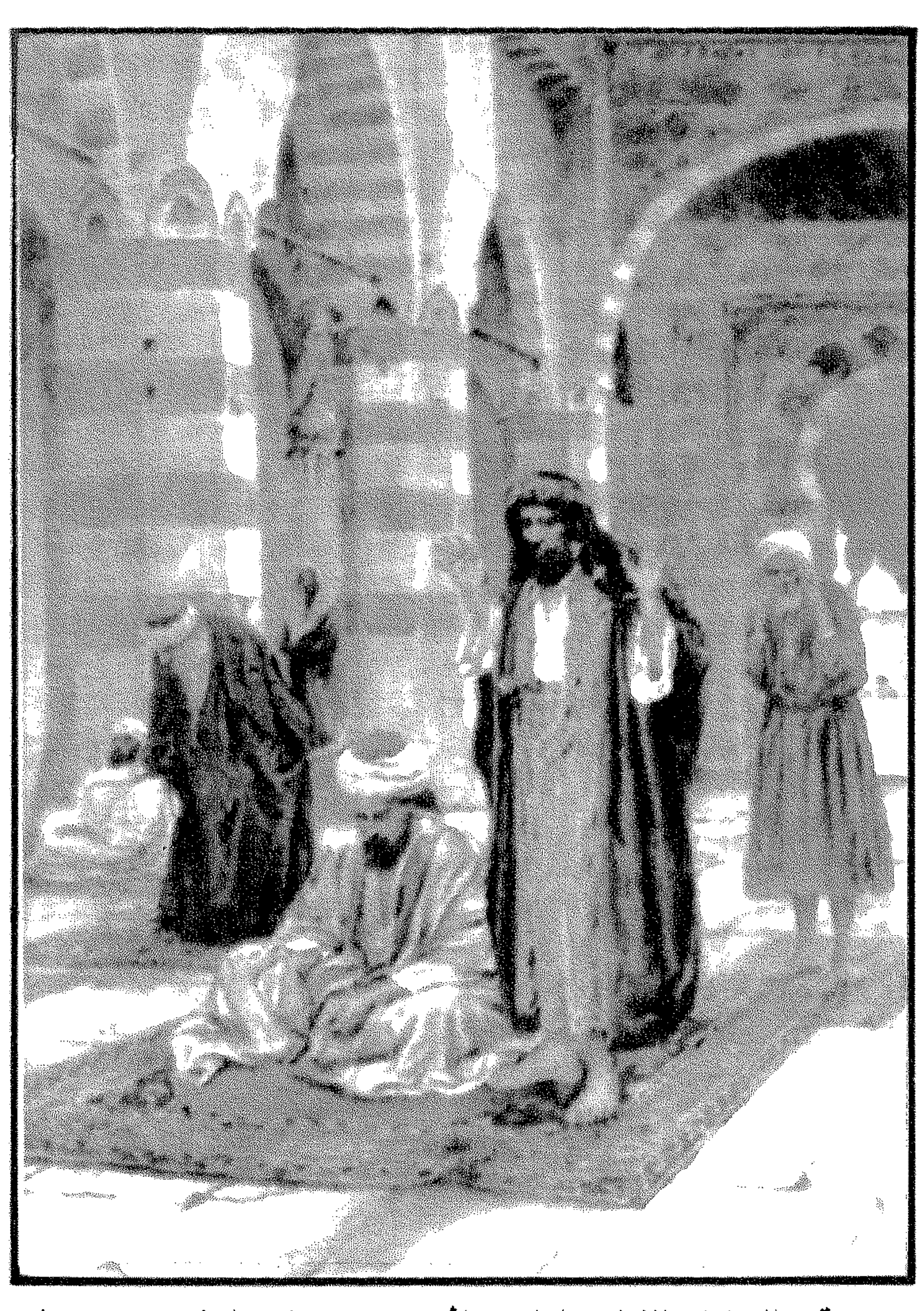
من : أدب ، وقصة ، ودراسة ، وسير ، وبحوث ، وفكر ، ونقد ، وشعر ، وبلاغة ، وعلوم ، وتراث ، ولغات ، وقضايا ، وتاريخ ، واجتماع ، وعلم نفس ، ورحلات ، وسياسة ... إلخ .

صدر من هذه السلسلة :

- الإنسان الباحث . — طيبة أحمد الإبراهيم
- الحياة مرة أخرى . — نوال مصطفى
- التنويم المغناطيسى . — يوسف ميخائيل أسعد
- نوم العازب . — محمد حسن الألفى
- من شرفات التاريخ جـ ١ . — د . محمد رجب البيومى
- أم كلثوم . — مجدى سلامة
- المرأة العاملة . — سوزان عبد الحميد أغا
- قادة الفكر الفلسفى . — يوسف ميخائيل أسعد
- الملامح الخفية (جبران ومى) . — لوسى يعقوب
- عبد الحليم حافظ . — مجدى سلامة
- انقراض رجل . — طيبة أحمد الإبراهيم
- الشخصية المتطورة . — يوسف ميخائيل أسعد
- محمد عبد الوهاب . — مجدى سلامة
- الشخصية السوية . — يوسف ميخائيل أسعد
- الشخصية القيادية . — يوسف ميخائيل أسعد
- الإنسان المتعدد . — طيبة أحمد الإبراهيم
- الشخصية المبدعة . — يوسف ميخائيل أسعد
- فكر وفن وذكريات . — لوسى يعقوب
- ساعة الحظ . — محمد حسن الألفى
- سيكولوجية الهدوء النفسى . — يوسف ميخائيل أسعد
- الإعلام والمخدرات . — د . نوال محمد عمر
- من شرفات التاريخ جـ ٢ . — د . محمد رجب البيومى
- الشخصية المنتجة . — يوسف ميخائيل أسعد
- الأسرة مشكلات وحلول . — مجدى سلامة
- ظلال الحقيقة . — طيبة أحمد الإبراهيم
- شعرة معاوية . وملك بنى أمية . — عرفات القصبى قرون
- مذكرات خادم . — طيبة أحمد الإبراهيم

طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع - المطابع ٨ ، ١٠ ، ١٢ شارع ١٧ المنطقة الصناعية بالعباسية - المكتبات ١٠ ، ١١ شارع كامل صدقي بالفجالة - ١ شارع الإسحاقي بمنشية البكري - روكسي بمصر الجديدة - التليفونات : ٤٨٣٤٤٤٤ - ٤٠٨٢٤٤٤ - ٥٨٦١٩٧ ج . م . ع / الفاكس - 2596650


الهلال
فبراير ١٩٩٦ • الثمن ١٥٠ قرشا
القدس
صراع
أم لقاء؟



وقت الصلاة، للفنان باولينو بافيسى ● متحف داهش - نيويورك



مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجى زيدان عام ١٨٩٢
العام الرابع بعد المائة

الادارة القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت : ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) . المكاتبات : ص.ب : ٦١٠ - العتبة - الرقم البريدى : ١١٥١١ - تلغرافيا - المصور - القاهرة ج. م. ع. مجلة الهلال ت : ٣٦٢٥٤٨١ - تلكس : 92703 Hilal un فاكس : FAX : ٣٦٢٥٤٦٩

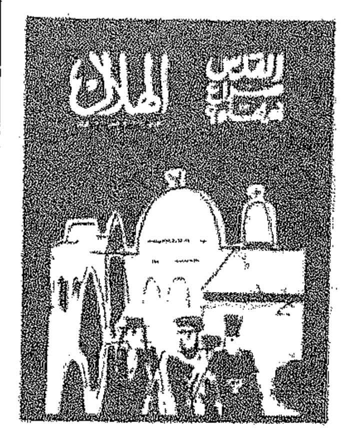
ثمن النسخة سوريا ١٠٠ ليرة - لبنان ٣٠٠٠ ليرة - الأردن ١٢٠٠ فلس - الكويت ٧٥٠ فلسا، السعودية ١٠ ريالات - تونس ١,٧٥٠ دينار - المغرب ١٧ درهماً - البحرين ١ دينار - قطر ١٠ ريالات - دبى/ أبو ظبى ١٠ دراهم - سلطنة عمان ١ ريال - الجمهورية اليمنية ١٠٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس ١ دولار - إيطاليا ٤٥٠٠ ليرة - المملكة المتحدة ١,٥ جك

الاشتراكات قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ١٨ جنيها داخل ج م. تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٢٠ دولارا . أمريكا وأوربا وافريقيا ٣٥ دولاراً . باقى دول العالم ٤٥ دولاراً

● وكيل الإشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيونى زغلول - ص ب رقم ٢١٨٣٣ - الصفاة - الكويت - ت/ 13079 ٤٧٤١١٦٤

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

في هذا العدد



تصميم الفنان
حلمى التونى

فكر وثقافة

شعر وقصة

القدس

جزء خاص

فنون

التكوين

الأبواب الثابتة

من الهلال إلى الهلال

١٩٩٦ عام القدس

□ ظلت القدس زمنا طويلاً بوتقة تصهر كل الثقافات والحضارات فى سبيكة واحدة تتسم بالتسامح والمحبة والإخاء.. فالمدينة المقدسة لها مكانة خاصة عند أصحاب الأديان الثلاثة اليهود والنصارى والمسلمين تستقبلهم وتفتح لهم قلبها وهى تحت سيطرة أهلها من الفلسطينيين.

فهى قبلة المسلمين الأولى ومصدر وحى ورمز لقاء.. وهى ثالث الحرمين.. سرى إليها الرسول الكريم محمد بن عبدالله (صلى الله عليه وسلم).

وقدرها اليوم أن تكون المحك الرئيسى الذى يكشف مدى صدق دعاوى السلام، وحقيقة إمكانية تحقيق المصالحة التاريخية بين الثقافات والحضارات والأديان.

فالقدس هى المحطة الأخيرة للتسوية بين الفلسطينيين والاسرائيليين، فقضية كل من القدس والمستوطنات واللاجئين مؤجلة حتى نهاية الشوط فى منتصف عام ١٩٩٦، فى طريق لايمكن الوصول الى نهاية له إلا على أساس العدالة والحقوق التاريخية للشعب الفلسطينى.

لقد كان من أول القرارات التى اتخذتها السلطات الاسرائيلية بعد حرب يونيو ١٩٦٧ هو الاستيلاء على القدس، وتحويل سكان القدس العرب الى مقيمين أجانب فى بلادهم، ومن أيامها وهى تؤكد كل يوم اصرارها على تهويد القدس، وأخذت تعبث بالمدينة التى لكل حجر فيها تاريخ، ولكل درب فيها معنى.

تعرضت جغرافيتها للتبديل والتغيير والمسخ، وشهدت عملية واسعة للاستيطان الاسرائيلى، وصاحب ذلك عمليات تغيير ديمغرافى ومعمارى واسع، وتم قهر الفلسطينيين من المسلمين والمسيحيين وأثقلت كاهلهم الغرائب والقيود، واحاطت المدينة المستوطنات الاسرائيلية واتسعت المدينة لتصل الى حوالى ١٢٥٠ كيلومترا مربعا، وتم تدمير أجزاء منها مثل حارة المغاربة، وقام أحد المتطرفين باشعال الحريق فى المسجد الاقصى، وأخذت اسرائيل تصادر الأراضى داخل القدس وحولها، وقامت القدس الكبرى التى يقع ثلاثة أرباعها فى أراضى الضفة الغربية، وغطت حركة البناء تلال القدس ووديانها، وارتفع بدل التلال الخضراء الفنادق والمبانى التى تخفى الأسوار التاريخية القديمة والمعالم الاثرية للمدينة المقدسة.

واذا كان للقدس مكانة خاصة لدى اليهود، فلها أيضا مكانة أعظم فى التاريخ الإسلامى والتاريخ المسيحى، فهى مهد السيد المسيح عليه السلام، والحق العربى الفلسطينى فى القدس قائم على أسس من الحضارة والتاريخ.

ومع كل هذا، حصلت اسرائيل أخيرا على مساندة الكونجرس الأمريكى بقراره نقل السفارة الامريكية من تل أبيب الى القدس!

وتظل القدس خط الدفاع الأول فى الصراع من أجل حق تقرير المصير للشعب الفلسطينى، ويجب أن يتجمع عندها كل الجهود التى تتوق وتسعى للعدل، وهناك ترسانة من القرارات الدولية التى تؤكد حق الشعب الفلسطينى، وهناك أيضا لجنة أقامها المؤتمر الإسلامى برئاسة الملك الحسن الثانى، مهمتها الوحيدة الدفاع عن القدس، والمهمة العاجلة لها طرح تصور سياسى لمستقبل القدس.

حقا.. إن طريق السلام شاق وطويل، إلا أن تداعيات التسوية وآلياتها الجديدة أقوى من نوايا وتدبير حتى من بدأها.

اقرأ جزءا خاصا عن القدس ص ٧٠

المحرر

حياتنا بين المحاكاة والإبداع

بقلم : د. مصطفى سويف

□ المحاكاة والإبداع كطريقين إلى حفظ البقاء هما التوجهان الرئيسيان اللذان تتردد الحياة بينهما. لا فرق فى ذلك بين تجلياتها جميعا، البيولوجية والنفسية والاجتماعية. هذه واحدة من أهم مسلمات الوجود الحى، الإبداع لشق طريق جديد، والمحاكاة لمواصلة السير فيه. فعلى المستوى البيولوجى نجد أسلوب المحاكاة متمثلا فى البرمجة التى تنظمها عوامل الوراثة وتحملها نواة الخلية الحية لتحفظ للنوع استمراره عن طريق الاستنساخ، ونجد أن أسلوب الإبداع هو الطفرات التى تطرح فتوحات جديدة فى الخصائص البيولوجية للكائن، وفى قدراته على التكيف أو التوافق من أجل البقاء. وعلى المستوى النفسى هناك المحاكاة (على غرار النموذج)، محاكاة الفرد لنفسه فيتكرر من خلال ذلك نمط معين من أنماط الفعل، ومحاكاة الفرد لأفعال الغير فتنتشر بذلك سلوكيات بعينها بين أعداد متزايدة من الأفراد.

وهناك الإبداع (على غير مثال)، تتشكل من خلاله سلوكيات جديدة تطرح آفاقا جديدة للتوافق بين الفرد وسياقات حياته، وعلى المستوى الاجتماعى هناك الاقتداء بتوجيهات التلقين، والامتثال (بالتشكل) أمام محاولات التشكيل، وهناك فى مقابل ذلك أنواع الإبداع الاجتماعى التى تتبلور فيما يسمى بالتيارات أو الحركات الجديدة أو الثورات الاجتماعية الشاملة هذا ما تشهد به حواسنا، وتعيه عقولنا، وتوثقه علومنا الحديثة. وفى هذا الصدد تستوقفنا عدة أمور نستخلصها فيما يلى:

أولا: إن عمليتى المحاكاة والإبداع بجميع افصاحاتهما ضروريتان لبقاء الحياة.

ثانيا: إن عمليتى المحاكاة والإبداع تلتقيان فى نهاية المطاف فى خدمة عملية أكثر شمولا هى عملية تكيف الكائن الحى أو توافقه مع عوامل البيئة التى تحيط به. ولما كانت مكونات البيئة لاتكف عن التغير لأسباب لا دخل لرغبات الكائن الحى ولا لإرادته فى تنشيطها أو تعطيلها فقد أصبح حتما عليه تشغيل آليات المحاكاة والإبداع دائما لملاقاة متطلبات الحياة فى استقرارها وفى تغيراتها.

ثالثا: إن المحصلة المترتبة على ذلك تأتى محملة بدلالة واضحة ومحددة، مؤداها أن أى عرقلة جذرية لأى من عمليتى المحاكاة والإبداع من شأنها أن تصيب الحياة بقدر من التخريب قد يقضى عليها تماما.

رابعا: إن مايهمنا فى هذه الاستنتاجات، وفى المسلمة الأساسية القائمة وراءها بوجه خاص هو مايتعلق بالإنسان فى حياته كفرد وكمجتمع، وهذا ماسينصرف اليه حديثنا.

خامسا: ما نلاحظه من استقراء أحوالنا أن الغالبية منا يكونون على استعداد لأن يقبلوا هذا الكلام فى حدود البيولوجيا. ولكن عندما ننتقل بهذا الكلام لنوضح أنه ينطبق كذلك على سلوك أفراد البشر ينخفض حجم المتقبلين له انخفاضا ملحوظا، اذ يكتشف الآباء فى نفوسهم توجسا من إبداع الأبناء، والشيء نفسه يساور المربين أمام احتمالات ابداع التلاميذ، كما يقلق الرؤساء إزاء إبداع المرءوسين. فإذا تقدمنا بالقول نفسه لنعممه على مؤسسات المجتمع وعلى المجتمع فى جملته فإن حجم المتقبلين له (اقتناعا وارتضاء) يتضاءل بصورة خطيرة، فتصبح الكثرة الغالبة من أنصار المحاكاة (تحت شعارات ودعاوى لا آخر لها)، وتمسى فى الوقت نفسه من أشد المقاومين لمقتضيات الإبداع ضراوة على مستوى الفعل والفكر والوجدان. وانطلاقا من هذه النقطة الأخيرة (أى خامسا) سوف نكرس هذا المقال على وجه التحديد.

● التغير حقيقة مفروضة علينا ●

من حقائق الحياة التى لا حيلة لنا فيها أن مكونات البيئة لاتكف عن

التغير لأسباب لا دخل لرغبة الكائن الحى ولا لإرادته فيها. ومن ثم كان عليه (لكى يتصل بقاؤه) أن يستمر فى تجديد مسعاه للتوافق معها، أى مع المكونات مدخلا فى حسابه ماطرأ عليه من تغيرات (وهو مانسميه الآن بالمستجدات). هنا يلزمنا أن ننظر عن كثب فى مفهوم التغير. ومن شأن هذا النظر أن يتيح لنا وضوح الرؤية وسلامة الحكم ومايترتب على الحكم من تفكير وتدبير، فى هذا الصدد ينبغى لنا أن نفرق بين أصناف متعددة من التغيرات. ويمكن اختزال هذه الأصناف فى نوعين رئيسيين: تغيرات محسوبة أى أننا نعرف توجهها الأساسى ومراحلها الكبرى (ويتحقق ذلك غالبا من كثرة ما ألفناها) وأخرى غير محسوبة (لأنها غالبا غير مألوفة). وتزخر حياتنا بأمثلة لا حصر لها من التغيرات التى تنتمى الى كل من النوعين، فمن أهم الأمثلة على النوع الأول مايطرأ علينا وعلى أبنائنا من تغيرات فى مراحل العمر المختلفة (عضوية ونفسية ونفسية اجتماعية) ومايطرأ على مستوى نشاطنا يوميا خلال دورة الليل والنهار، ومايطرأ على الأجواء من تحولات فى ثنايا فصول السنة الأربعة .. الخ. أما الأمثلة على التغيرات غير المحسوبة فتضم الأحداث والتحولات التى تفاجئنا (الأحداث بوقوعها، والتحولات بمساراتها) من ذلك مثلا سقوط الاتحاد السوفييتى سنة ١٩٩١، وزلزال اكتوبر سنة ١٩٩٢، ومنها كذلك ماشهدنا ونشهد من تحولات طرأت ولاتزال تطرأ على النظام الدولى، وتلك التى تتوالى على جوانب الحياة الاجتماعية فى مصر وخاصة خلال العقود الأربعة أو الخمسة الأخيرة.

وجدير بالذكر أن التداخل بين النوعين من التغيرات (المحسوبة وغير المحسوبة) أمر وارد، ولكننا لاندخل فى هذا المستوى من الحديث المفصل عن دقائق التغيرات المختلفة حتى لانزيد الصورة تعقيدا دون مبرر معقول، فما يهمنا فى المنظور الذى نقدمه هو أنه يقوم أمامنا باعتباره القاعدة العريضة التى يجب أن نوزع على أساسها جهودنا فى سبيل التوافق الذى ننشده سعيا إلى البقاء. فليس المفروض علينا هو التغير فحسب، ولكن المفروض هو أنواع من التغير. وفى محاولتنا التوافق

لابد وأن ندخل فى اعتبارنا تصنيف أنواع التغير هذه الى أنماط محسوبة وأخرى غير محسوبة، وأن نعطى لهذه الأنماط أوزانا أو درجات مختلفة على مانتصور إنه مقياس يمتد بين كونها محسوبة وكونها غير محسوبة، وعلى هذا الأساس نتوجه فى تعاملنا معها، فكلما بدا التغير أمامنا محسوبا (أو مألوفا) اعتمدنا فى التعامل معه على آليات المحاكاة، وكلما بدا جديدا غير محسوب تحولنا الى استنهاض آليات الإبداع.

● الواقع والرؤية ●

والسؤال المطروح الآن هو هل نرى الواقع فعلا برؤية واقعية؟ هذا أحد الاسئلة الاستراتيجية التى يحسن بنا أن نثيرها من حين لآخر، وخاصة فى أوقات الأزمات الاجتماعية، والإجابة الأمينة عن هذا السؤال هى أن رؤيتنا للواقع يشوبها قصور شديد، ويمكن تلخيص هذا القصور فى عيبين رئيسيين أحدهما إننا نعجز فى معظم الاحيان عن إدراك التغير غير المحسوب (لأنه يتولد فى رحاب تغيرات محسوبة أو مألوفة) والعيب الثانى يتمثل فى أننا فى الأحيان القليلة التى نراه فيها فإننا ندركه على أنه مقطوع الصلة بما قبله، وبتعبير آخر يمكن القول بأننا أبعد مانكون عن التعامل مع التغير غير المحسوب، نحن نتعامل مع أحد بديلين: الاستمرار، فكل ماحولنا مستمر (على سبيل الثبات أو على سبيل التغير المحسوب)، وكل ما فى الأمر أن هناك لحظات أو نتوءات شاذة تطرأ على هذا الاستمرار (هكذا نرى وهكذا نقنع أنفسنا). والبديل الآخر هو الجدة التامة فهذه الظاهرة (أو هذه الأحداث) تفاجئنا وكأنها جاءت بلا مقدمات، أضرب مثلا لإصرارنا على التعامل مع مقولة الاستمرار بدءا من مرحلة ادراك المشكلة وانتهاء بمرحلة إصدار القرارات التى نتصور أنها ستحل المشكلة: تضخم مدينة القاهرة. فجميع القرارات التنفيذية التى تصدر بهدف الاسهام فى حل هذه المشكلة قرارات تغلب عليها النظرة الجزئية. وهو مايشير بكل وضوح الى أن الإدراك السائد هو أن هذه المشكلة مستمرة، أى أن التغير الذى تواجهنا به تغير مألوف، وكل ما فى الأمر أنه يزداد فى حجمه، كأن المسألة اضافة

حياتنا بين المحاكاة والإبداع

أجزاء فوق أجزاء. ومن ثم يكون التناول الذى نسميه التناول الجزئى، أو مانسميه أحيانا بالترقيع (وترقيع الثوب أن ترقعه فى مواضع) فهذا قرار لحل اختناقات المرور فى كذا وكذا من أحياء المدينة، وهذا قرار ثان للتخفيف من أزمة التليفونات فى هذا الحى أو ذاك، وقرار ثالث بإزالة العشوائيات من الجزء الفلانى، وقرار رابع بإنشاء مدينة سكنية جديدة على مقربة من القاهرة ثم قرار خامس وسادس. الخ.. ووراء هذه القرارات جميعا جذر ادراكى مشترك مؤداه أن الأمر فى حقيقته لايخرج عن كون شكاوى المواطن حول هذا الموضوع قد ازدادت عددا، كانت مائة شكوى فأصبحت ألفا أو مائة ألف. أما أن هذه الزيادة تخلقت معها جوانب جديدة للمشكلة وعلاقات جديدة بين هذه الجوانب بحيث أصبحنا (بمعنى ما) أمام مشكلة جديدة فى ابعادها الرئيسية وفى دلالاتها فهذا أمر غير وارد. وعلى ذلك فليس واردا أيضا ان ننظر الى هذه المشكلة على أنها تندرج تحت فئة التغيرات غير المحسوبة اى تلك التى تقضتينا مواجهتها اللجوء الى التفكير الابداعى للوصول الى حلول مبتكرة تكافىء ما فى المشكلة من تعقيدات غير مسبوقة. هذا مثال واضح الدلالة يعنى أن هناك انفصاما بين واقعنا وادراكنا هذا الواقع. وهو يكاد يتكرر (من حيث هيكله أو بناؤه الأساسى) فيما يتعلق بجميع مضامين واقعنا الحى وما يثيره أمامنا من مشكلات. الواقع ليس جزئياته فحسب، لكنه الجزئيات منسوجة فى شبكة علاقات. وشبكة العلاقات هذه ليست ثابتة فى لحظة ولكنها متحولة وصائرة على الدوام من خلال عملية لاتتوقف ابدا، وما لم ندرك شبكة العلاقات فى اطار التغير فلا قيمة لادراك الجزئيات هكذا مبعثرة من حولنا.

● مشكلات تنتظر الإبداع ●

سوف أكرس الجزء الباقى من هذا المقال لأعرض على القارىء نماذج لمشكلات تعترض مسيرة حياتنا الاجتماعية وستظل تعترضها وتصيبها فى حاضرها بما يشبه الشلل، وسوف تصيبها كذلك فى مستقبلها بالكثير من الخلل ما لم نصحح رؤيتنا إياها تصحيحا جذريا لنرى التغير ونتعامل معه كتغير لا كمجرد استمرار أو وجه

اخر للاستمرار، ومن ثم نصحح توجهنا فى محاولات الحل التى نطرقها.

من بين مشكلاتنا الصارخة مشكلة تدهور العملية التعليمية تدهورا كاد يبلغ تمامه. ويتمثل ذلك فى أداء الطلاب، والمعلمين، وفى أداء الأسرة للأدوار التى لابد لها من القيام بها مساندة لهذه العملية، وينسحب التدهور أيضا على الأدوات التعليمية وفى مقدمتها الكتاب، كما يمتد ليشمل المبانى التى تحتوى هؤلاء جميعا. والجدير بالذكر أن هذا الوصف ومايتطوى عليه أو يوحى به من أحكام يصدق على جميع مراحل التعليم لدينا بدءا من مرحلة الحضانة ورياض الأطفال الى مرحلة الجامعة والدراسات العليا الجامعية، وهناك أمثلة لا حصر لها على هذا التدهور المتكامل، ولكنى اكتفى بذكر ما اعتبره لمحات دالة، فجرائدنا تتحدث باسهاب عن الرسائل الجامعية المسروقة جزئيا أو كليا، وعن تستر بعض الاساتذة على أمرها وأمر سارقيها، أو اغماض العين عنهم، وكنا من قبل نعرف بأمر الرسائل التى تزيف فيها النتائج باسم البحث المعمل أو الميدانى. وجرائدنا تتحدث كذلك عن رياض الأطفال والمدارس الابتدائية التى تدار لحساب تيارات سياسية لا علاقة لها بتوجهات المقررات التعليمية كما تضعها الدولة عن طريق خبرائها التربويين، بل وتعادى هذه التوجهات، وكلنا نعرف أن معظم المبانى التعليمية لا تضم فى رحابها المرافق التى لابد منها لكى يمارس الطلاب فيها مجموعة من النشاطات التربوية لابد منها لكى تكتمل مهمة المدرسة فى تنشئة التلاميذ، ناهيك عن مئات المبانى المدرسية التى تصدعت على أثر زلزال أكتوبر سنة ١٩٩٢ والتى لا نزال نقرأ عن تصدع المزيد منها بين الحين والحين، وكلنا نعرف بأمر الكتاب المدرسى الذى يجمع بين سوء الطباعة ورداءة الورق. ومساوىء التأليف، وهى عيوب تمتد لتلقى بظلالها على الكتاب الذى يقدم لطالب الجامعة، لكن هذا الكتاب الجامعى لايقتصر أمره عليها بل يضم كذلك مجموعة من العيوب ينفرد بها، أهونها تقديمه فى صورة ملازم قد لاتكتمل لدى الطالب، وأسوأها أن تكون مادته مسروقة من مؤلفات زميل مصرى أو أجنبى مما

يجعل أثر الكتاب على الطالب يتخطى مستوى تضاؤل الفائدة ليصل به إلى مرحلة الضرر الاخلاقى المحقق فاذا نظرنا الى الكتاب فى الجامعات على أنه رمز للخدمة المكتبية آثار هذا الرمز فى نفوسنا تداعيات حول هذه الخدمة نرى فيها نموذجا للكيفية التى تتخلق بها الكوارث الاكاديمية. ثم نأتى الى أداء أسرة التلميذ لخدمة المستقبل التعليمى لابنائها. فهل يذكر القراء ماطالعتنا الصحف به فى عدد من مواسم الامتحانات عن سلوكيات أهالى التلاميذ وهم يتحلقون حول اللجان التى يمتحن فيها أبناؤهم وكيف أنهم يحاولون مساعدة أبنائهم على الغش بطرق شتى يصل بها القبح الى مستوى تركيب مكبرات الصوت قريبا من لجان الامتحان واذاعة الاجابات بواسطتها ليكتب التلاميذ مايملى عليهم من خلال هذه المكبرات. ومن أداء الأسرة الى أداء المعلمين ياقلبى لاتحزن، فقد أصيب مرفق التعليم بداء الدروس الخصوصية التى انتشرت فى جميع مراحله بما فى ذلك مرحلة التعليم الجامعى، سواء فى ذلك كليات القمة والسفح والقاع وفى التعليم الجامعى ادواء أخرى أصابت أداء أعضاء هيئة التدريس وأصابت صورتهم المترتبة على هذا الأداء فى نظر طلابهم بدءا من مستوى تمكن الكثرة منهم من الدراية بالعلم الذى يقدمونه (وهو ما تكشف عنه بحوثهم التى يتقدمون بها للترقى) الى مستوى سلوكياتهم ومضامين طموحاتهم التى يعرضونها عن قصد أو غير قصد أمام طلابهم. ثم نأتى إلى أداء الطلاب، وربما يذكر بعض القراء اننى كنت قد نشرت مقالا فى هذا الموضوع على صفحات هذه المجلة الوقورة، مجلة الهلال الغراء،. منذ حوالى سنتين (فى نوفمبر سنة ١٩٩٣) وذكرت فى هذا الصدد نسبا مئوية لأنواع بعينها من انحرافات الطلاب تصيب فى الصميم دورهم فى مسار العملية التعليمية، وكان من بين هذه الانحرافات الغش فى الامتحانات واساءة السلوك فى قاعة الدرس بما يستدعى طردهم خارجها، والتطاول الخطير على اساتذتهم. وكانت المعدلات التى ذكرتها من واقع بحوث ميدانية رفيعة المستوى المنهجى أجريت سنة ١٩٨٧ تحت الرعاية الأدبية والمادية للمركز القومى

للبحوث الاجتماعية والجنائية. فهل يعرف القراء ماذا حدث بعد ذلك؟ أجرينا أنا وزملائى بحوثا ميدانية جديدة مماثلة سنة ١٩٩٢ لكى نتابع بعد خمس سنوات خط سير هذه الانحرافات بين تلاميذ المدارس الثانوية (البنين) وفيما يلى أقدم للقارىء بعض نتائجنا الموجزة والبليغة فى آن معا: معدل الغش كان ٤٢٪ فى سنة ٨٧، فأصبح ٥٢٪ فى بحث ٩٢، وسوء السلوك فى قاعة الدرس بدرجة تستتبع الطرد كان ٣٠٪ فصار ٣٧٪ والتطاول على المدرسين الى حد الاعتداء عليهم كان ١٣٪ فصار ٢٣٪ هذه لمحات من الانحرافات المؤذية مباشرة لأداء التلمذة الذى هو جزء لايتجزأ من العملية التعليمية كما تجرى فى مدارسنا الثانوية العامة، وقد توفر لدينا من المعلومات مايشير الى ان معدلات الانحرافات لمناظرة بين تلاميذ المدارس الثانوية الفنية (البنين) لاتقل عن نظائرها فى الثانوية العامة بل تزيد احيانا. وخلاصة القول ان معدلات انحرافات التلاميذ المهدرة لجهود التعليم آخذة فى الزيادة.

هكذا تتجمع معالم الصورة المركبة لتدهور العملية التعليمية لدينا، لتبرز امامنا الاسهامات الخطيرة لكل مكون من مكوناتها البشرية والمادية. وغنى عن البيان ان كل ملمح من ملامح الصورة كما أوردتها ليس سوى اشارة شديدة الايجاز تقوم من ورائها اقدار من الحقائق اقل ماتوصف به انها فاجعة، ولايعنى ذلك إنكار ان محاولات كثيرة بذلت فى السنوات الاخيرة لتحسين هذه الصورة، وغنى عن البيان كذلك ان كلاما كثيرا يكتب وينشر علينا فى هذا الصدد، لكن هذا الكلام وتلك المحاولات فى واد والصورة نفسها فى واد، هنا فى هذا المقال مشهد واضح لنوع بعينه من المشكلات لن تجدى فى التغلب عليه اية حلول تقليدية. ولابد اذن من اعادة النظر فى رؤيتنا نفسها ابتغاء تصحيحها، ومن ثم يمكننا أن نصحح توجهنا الاساسى فى التفكير فى الحل لنسقط من حسابنا الاساليب التقليدية ونبدأ السير جادين فى الطريق الى الحلول الابداعية.

ومع ذلك فمشكلة التعليم كما قلت فى بداية هذا الجزء من الحديث ليست سوى مثال واحد لفئة بكاملها من

المشكلات التى تعترض مسيرة حياتنا الاجتماعية وستظل تعترضها وتشل إمكاناتها فى الحاضر والمستقبل لأنها تستعصى على الحلول التقليدية. فإذا أردنا أن نتذاكر معا أمثلة أخرى تقع تحت الفئة نفسها فلنتذكر فى هذا الصدد مشكلة تضخم بعض المدن لدينا وفى مقدمتها مدينة القاهرة، وهو ما أشرت اليه فى بدء حديثى، ومشكلة تلوث البيئة من حولنا، ومشكلة تلوث مياه النيل بوجه خاص، ومشكلة تعرض المواطنين لآثار ثورة الاعلام والاتصالات وماينجم وماسينجم عن ذلك من تغيرات فى سلوكياتهم وطموحاتهم، ومسألة الهجرة الصريحة والمقنعة الى خارج الوطن.. إلـخ. وغيرها . وغيرها .. مشكلات ستظل تسد أمامنا المنافذ الى الحياة الكريمة ما لم نتنلولها بالحلول الابتكارية.

وأخـيرا

أرجو ألا يساء فهم مقصدى من هذا الحديث، فهذه المشكلات التى أتيت على ذكرها، وتلك التى تحدثت عنها بقدر من التفصيل ليست من صنع حكومة بعينها، ولا من سوء أداء حاكم بشخصه، هذه مشكلات اسهمنا جميعنا فيها بأنصبة متفاوتة كل على قدر موقعه ومسئولياته وقد اسهمنا فيها نشوءا وتراكما وتعقدا، وجاء اسهامنا كأفراد وجماعات وأجيال. ومن ثم فلا معنى للخروج من هذا المقال بتساؤل أو اتهام حول المسئول عن هذا الوضع الذى لا نحسـد عليه ولكن المعنى كل المعنى انما يكمن فى الكشف عن الجذر المشترك وراء جنبات هذه الصورة، وهو أن حلولنا فى معظم الأحوال حلول تقليدية، مع أن كثيرا من المشكلات التى نواجهها تكاد أن تكون جديدة كل الجدة، ثم انها تسرع الخطى نحو مزيد من التعقيد فى انسجتها واجنحتها، ولاسبيل الى اللحاق بها ما لم نتمكن من اتقان مهارات الابتكار،. وهو الأمر الذى مازلنا نتعثـريدونه، وهذا بالضبط هو التحدى الذى قصدت ان ابرزه فى هذا المقال، ومن ثم يصبح السؤال الذى يلزمنا الخروج اليه فى هذا الموضـع، هو: ولماذا لا نفكر ابداعيا؟ ماذا يعوقنا عن التفكير الابداعى؟ هذا هو ما أرجو أن أعالجه فى مقال تال.

أقوال معاصرة


جيمس بيكر


د .شكرى عياد


مارادونا

● «المتوسط محيط الماضى، والأطلس محيط الحاضر والهادى محيط المستقبل!».

جيمس بيكر
وزير خارجية الولايات المتحدة الأسبق

● «المقياس الحقيقى لوجود حياة ثقافية حقيقية هو مشاركة جمهور المتعلمين».

الدكتور شكرى عياد

● «الختان عملية غير إنسانية، أطالب باصدار قانون يجرمها!!».

الدكتور محمد فياض
أستاذ أمراض النساء والولادة

● «الثورة الديموقراطية الكونية لايمكن تجاهلها من جانب بعض قادة حركة عدم الانحياز».

ناراسيما راو
رئيس وزراء الهند

● «انتظر نهاية السينما متفائلا».

جان لوك جودار
المخرج ورائد الموجة الجديدة الفرنسية

● «كنت ، ومازلت، وسأظل مدمنا للمخدرات!!».

دييجو مارادونا
لاعب الكرة الأرجنتينى

● «التراث الوطنى لايعدو أن يكون مفهوما مجردا، إن لم يكن المال اللازم لحمايته متوافرا».

أبو بكر دياتى
مسئول عن الشئون الثقافية فى جمهورية مالى

● «في وسع الكلمات والعيون أن تكون مثيرة، دونما حاجة إلى تعرية الأجسام».

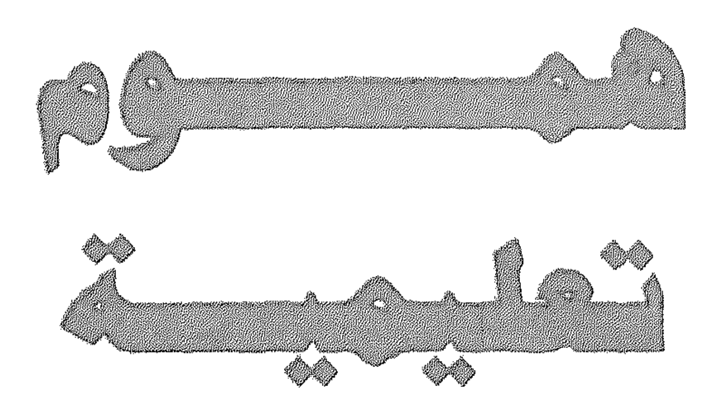
الممثلة الأمريكية ميج رايان

● «أستطيع أن أمثل دور كاميلا باركر عشيقة الأمير شارلز، لأننى استطيع بسهولة أن أجعل وجهى يبدو قبيحا».

الممثلة الإنجليزية جوان كولنز

● «الأضواء والفلاشات والألوان المنبعثة من التليفزيون تؤثر سلبا على الأطفال».

الدكتورة سالى ورد
أخصائية الطب النفسى بمدينة مانشستر



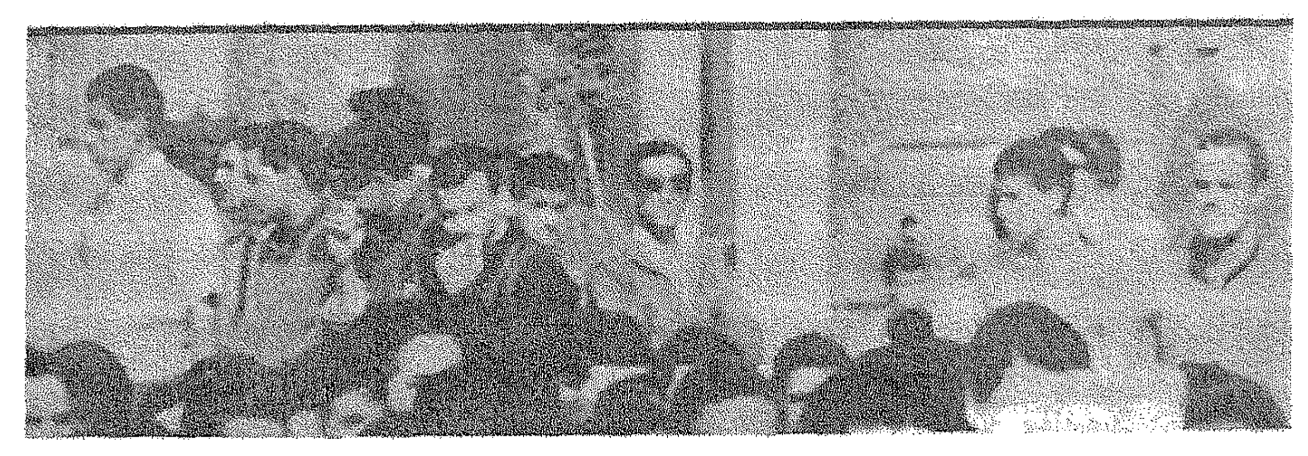
هموم تعليمية

بقلم : د. عبدالعظيم أنيس

□ تثقل صدرى هموم تعليمية عديدة، بعضها حديث والبعض الآخر قديم فى نظامنا التعليمى. وقد فكرت أخيرا أننى إذ أكتب عنها للقارىء وأسأله المشاركة فى التفكير فيها والبحث عن الحلول لها، فربما يخفف عنى هذا بعض ما أحسه من ضيق وهم بسبب هذه الأوضاع فى نظمنا التعليمية.

وسوف أقتصر فى هذا المقال على ثلاثة هموم حديثة مؤجلا الحديث عن الهموم الأخرى القديمة إلى مناسبة أخرى.

وأول هم أتحدث عنه هنا هو ماجرى فى امتحان الثانوية العامة هذا العام، والقضايا التى رفعها المئات من الطلبة أو أولياء أمورهم أمام مجلس الدولة طاعنين فى نتيجة امتحان الثانوية العامة الخاصة بهم. ومجلس الدولة عندما يبحث هذه القضايا فإنه لايتعرض لتقييم الإجابات المكتوبة على ورقة الإجابة وإنما ينحصر فحصه فى التأكد من صحة مجموع الدرجات في كل سؤال وفى ورقة الإجابة كلها، ثم بحث ما إذا كان هناك سؤال أو جزء من سؤال لم يجر تصحيحه أصلا. والمسألة لاتقارن بماحدث فى سنوات ماضية من طعون أمام



مجلس الدولة كانت بالآحاد وقد جرى رفضها من المجلس فى معظم الحالات، أما هذا العام فقد قدرت بعض الصحف القومية حالات الطعن أمام مجلس الدولة بأكثر من ألف حالة، وقدرتها صحف أخرى بأربعة آلاف حالة، فى عموم القطر.

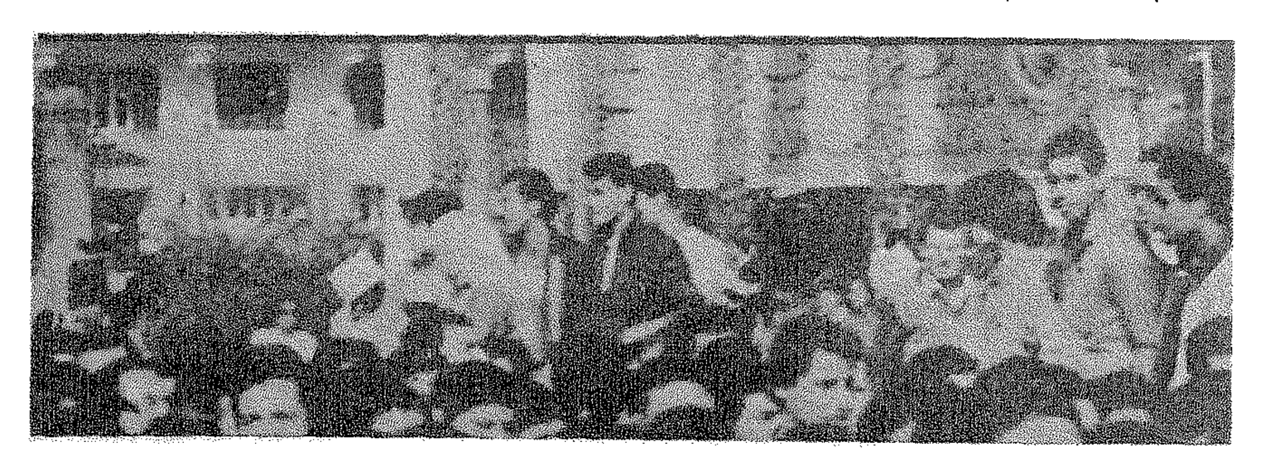
واللافت للنظر أن مجلس الدولة قد أنصف الطلاب فى معظم الحالات إذ تبين له أن جمع الدرجات فى حالات عديدة كان خاطئا وأن هناك أسئلة أو أجزاء من أسئلة لم يجر تصحيحها أصلا..! وكانت نتيجة أحكام مجلس الدولة أن نجح طلبة كانوا راسبين وفق إعلان الوزارة، وأن أضيفت درجات إلى مجموع درجات بعض الطلاب وصلت إلى عشرين درجة فى بعض الحالات، الأمر الذى يسمح لبعض هؤلاء الطلاب بالالتحاق بكليات لم يكن مجموعهم الذى أعلنته الوزارة يسمح به.

إن هذا الوضع المحزن يرقى إلى مستوى الفضيحة، وهو يهز ثقة مصر والوطن العربى فى الثانوية العامة المصرية التى بقيت سمعتها طوال السنين الماضية فوق مستوى الشبهات، ولابد أن يتحمل مسئول ما فى وزارة التعليم مسئولية هذا الذى جرى.

والسؤال المرتبط بهذا هو: كيف جرى هذا؟.

إشراف الجامعة على الامتحانات

فى الماضى كان هناك إشراف من الجامعة على امتحان الثانوية العامة، وكان المرحوم الأستاذ الدكتور محمد مرسى أحمد وزير التعليم العالى السابق رئيسا للجنة امتحان الثانوية العامة سنين طويلة، ثم خلفه فى هذه المهمة الأستاذ الدكتور محمد النادى أستاذ الفيزياء النووية بجامعة القاهرة والعالم المصرى المرموق، لكن شيئا ما حدث فأعاد الإشراف على امتحان الثانوية العامة إلى أحد وكلاء الوزارة، وانقطعت صلة الجامعة بالموضوع. ولابد من أن نقول إنصافا ان أعداد المتقدمين إلى الامتحان هذا العام هو ضعف الأعداد التى كانت تتقدم فى الأعوام الماضية، ولكن لابد من الإشارة أيضا إلى أن نظام الثانوية العامة الجديد



كان له أثره على امتحان هذا العام، رغم أن هذا الامتحان هو وفق النظام القديم. وتفسير ذلك بسيط، إذ أصبح هناك لأول مرة امتحانان عامان فى مايو، وامتحانان عامان فى أغسطس، وبالتالى كان لابد من استعجال إعلان النتائج حتى يستعد الراغبون فى دخول دور أغسطس ويجدون الوقت لذلك. ومن هنا جرى الاستعجال فى التصحيح والاستعجال فى المراجعة الأمر الذى ارتفع أحيانا إلى مستوى الإهمال. والدليل على هذا أن نتيجة الثانوية العامة هذا العام أعلنت فى النصف الأول من يوليو، بينما جرت العادة قبل ذلك على إعلانها فى أواخر شهر يوليو، بعد الاحتفال بذكرى الثورة فى ٢٣ يوليو.

كيف يمكن تدارك هذا الوضع حتى لايتكرر؟

محاسبة المسئولين

أعتقد أن من أوائل الضروريات محاسبة المسئولين بالوزارة عن امتحان الثانوية العامة، تماما كما فعلت الدولة عندما عزلت رئيس مصلحة السكك الحديدية بعد أحداث تصادم القطارات المتلاحقة فى الأشهر الأخيرة، فما جرى فى الثانوية العامة هذا العام لايقل خطورة عن حوادث القطارات. وربما يكون من المفيد إعادة بحث تكليف الجامعة بالإشراف على امتحان الثانوية العامة من جديد، أقول ربما وإن كنت لا أدرى هل تجاوزت الظروف هذا النوع من الحلول.

●●●

أما الهم الثانى فيتعلق بموضوع مناهج الرياضيات فى الثانوية العامة الجديدة. ولقد كتبت فى أعداد سابقة من «الهلال» عن كتابين صدرا فى الغرب حديثا يتعلقان بقضية تعليم الرياضيات والعلوم فى المرحلة قبل الجامعية كأحد العناصر الضرورية فى تحقيق تنمية اقتصادية ناجحة، أما الكتاب الأول فهو كتاب «رأسا برأس: اليابان وأوربا وأمريكا» لمؤلفه الكاتب الأمريكى ليستر ثرو، وفيه ينعى المؤلف كيف أن بلاده مهددة بالتخلف وراء اليابان وأوربا فى القرن الواحد والعشرين لأسباب عديدة شرحها من بينها تخلف تعليم الرياضيات والعلوم فى مراحل التعليم العام على الرغم من تفوق العديد من جامعات الولايات المتحدة، وإشارة المؤلف هنا إلى القصور فى أمريكا فى توفير الكوادر الوسطى فى عملية الإنتاج والمؤهلين تأهيلا جيدا بسبب ضعف إعداد التلاميذ فى مرحلة ماقبل الجامعة من ناحية الرياضيات والعلوم عموما.

أما الكتاب الثانى فقد صدر منذ نحو عام للكاتب الفرنسى ميشيل ألبير وعنوانه «رأسمالية ضد رأسمالية»، وفيه يقارن المؤلف بين الرأسمالية الأمريكية والرأسمالية الأوربية «الألمانية خصوصا» ويبرز كيف أن ألمانيا متفوقة على أمريكا فى مسألة تأهيل الكوادر

الوسطى تأهيلا جيدا من ناحية الرياضيات والعلوم. والمقصود بالكوادر الوسطى فى عملية الانتاج هؤلاء الذين يعملون كفنيين فى المصانع إثر حصولهم على الثانوية العامة أو مايعادلها ولايذهبون عادة إلى الجامعة.

● وضع شاذ!

والآن نعود إلى وضع الرياضيات فى الثانوية العامة المصرية الجديدة. هناك مقرران للرياضيات : الأول فى السنة الثانية الثانوية ويحتوى على أولويات أساسية فى الرياضيات مثل حساب اللوغاريتمات، وتعريف الدوال، وحساب المثلثات،... إلخ، والمقرر الثانى فى السنة الثالثة الثانوية وهو بالطبع أكثر تعقيدا.. ووجه الغرابة فى النظام الجديد أن الطالب يستطيع أن يختار المقرر الثانى «فى السنة الثالثة» دون أن يكون قد درس المقرر الأول فى السنة الثانية، مع أن الكثير مما يُدرس فى المقرر الأول لازم لفهم المقرر الثانى، ولا أدرى من الذى استطاع أن يقنع الوزارة بقبول هذا الوضع الشاذ؟!

ليس هذا فحسب بل إننى أزعم أن كل طالب فى كلية جامعية غير أدبية سواء أكانت كلية العلوم أو الزراعة أو الطب.. الخ فى حاجة إلى أن يكون قد درس المقرر الأول فى المرحلة الثانوية لأنه سيفيده كثيرا فى مقررات كثيرة يدرسها بالجامعة.

والأكثر من هذا أن درجة الرياضيات فى الثانوية العامة الجديدة قد هبطت من ١٢٠ فى النظام القديم إلى ٦٠ درجة الآن. وكل هذا لايدل على أن وزارة التعليم تعطى موضوع الرياضيات مايستحقه من عناية واهتمام. ولا أدرى لماذا هذا الموقف؟ هل بسبب الخوف من موضوع الدروس الخصوصية؟ إن كان هذا التخمين صحيحا فإننى أحيل المسئولين إلى أوائل الثانوية العامة هذا العام الذين أقروا فى التليفزيون جميعا وبدون استثناء أنهم كانوا يتعاطون الدروس الخصوصية طوال العام! فحل موضوع الدروس الخصوصية يحتاج إلى أسباب وقرائن ودواع أخرى للقضاء عليها.

ولقد حاولنا فى «جمعية الرياضيات المصرية» التى أنشئت منذ سنوات قليلة الإعداد لندوة لمناقشة هذا الموضوع، واتفقنا على دعوة بعض مدرسى وموجهى المرحلة الثانوية للاشتراك فى الندوة، واتفق على موعد الندوة ومكانها فى دار الضيافة بجامعة عين شمس ثم فوجئنا بطلب تأجيلها بناء على رغبة بعض المسئولين فى وزارة التعليم!

●●●

والهم الثالث التعليمى الذى أريد أن أتناوله هنا لا يتعلق بالتعليم العام وإنما يتعلق بالتعليم الجامعى وماحدث فى بعض الكليات فى جامعتى القاهرة وعين شمس من تدريس المقررات باللغات الأجنبية بدلا من اللغة العربية كما كان الحال طوال السنين منذ إنشاء هذه

الكليات. وأنا أشير إلى كليات التجارة فى جامعات عين شمس والقاهرة وحلوان التى افتتحت أقساما للتدريس باللغة الانجليزية أو الفرنسية، ويحصل من طلاب هذه المجموعات مصاريف باهظة للالتحاق بهذه الأقسام، بل يتنافس الطلاب وأولياء أمورهم على دخول هذه المجموعات وبذل الوساطات من أجل ذلك لأنهم يعتقدون أن هذا سوف يؤهل أبناءهم للعمل فى البنوك والسياحة.... إلخ.

● متاهة تعليمية جديدة

وجه الكارثة هنا أن العديد من طلابنا الجامعيين لايجيدون كتابة خطاب باللغة العربية، فإذا بنا ندخل بهم إلى متاهة محاولة إجادة لغة أجنبية دون أن يكونوا قد أجادوا لغتهم القومية.. وأين؟ فى كليات ظلت طوال عمرها تدرس باللغة العربية ككليات التجارة.

أفهم أن ندعم تدريس اللغات الأجنبية بالجامعة عن طريق زيادة ساعاتها، لكن هذا شىء آخر غير تدريس مقررات كلية التجارة باللغة الفرنسية أو الانجليزية، والنتيجة العملية التى سوف ننتهى إليها هى أننا سنخلق داخل الجامعة الواحدة والكلية الواحدة صنفين من الطلاب.. أبناء القادرين على دفع مصاريف هذه المقررات «وتصل إلى مئات الجنيهات» وأبناء غير القادرين الذين يدرسون باللغة العربية، أى أننا سادرون فى هذا الازدواج الذى جرى منذ الانفتاح، رغيف للأثرياء وآخر للفقراء، تعليم للأغنياء فى المدارس الخاصة وتعليم للفقراء فى المدارس المكتظة، لغات أجنبية للقادرين واللغة العربية لغير القادرين.... وهكذا.

● تعريب المقررات أولى

والغريب أنه بينما تثبت دراسات جامعة الأمم المتحدة فى طوكيو أن تعليم التكنولوجيا باللغة القومية هو أحد عناصر النجاح فى زرع التكنولوجيا فى مجتمع ما، وبينما يدرس الصينيون واليابانيون والروس والألمان والفرنسيون.... إلخ فى جامعاتهم بلغتهم القومية، نأتى نحن فى آخر الزمان ندرس المقررات فى كليات التجارة باللغات الأجنبية بدلا من أن ينصرف جهدنا إلى التركيز على تعريب المقررات فى كليات الطب وفى كلية العلوم «السنة الثالثة والرابعة التى لاتزال منذ كنت طالبا عام ١٩٤٠ إلى اليوم تدرس باللغة الانجليزية» فإذا بنا نجد عمداءنا يتسابقون فى إدخال هذه المقررات باللغة الأجنبية «لأنها توفر للكلية دخلا ماليا جيدا» ونجد الموضوع يزحف من كلية التجارة إلى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة، حيث تحولت السفارات الأجنبية فى بلادنا إلى مورد للأساتذة الذين يفدون من لندن أو باريس لإفادتنا عن أفضل الطرق لتدريس هذه المواد بلغتهم لا بلغتنا.

وهكذا أصبحنا غرباء فى بلادنا، وعدنا من جديد إلى الغزو الأجنبى لجامعاتنا دون سبب واحد معقول.

فمتى يتدخل المسئولون فى التعليم لوضع حد لهذه المهزلة؟. ☐

الفداء

شعر : بدر توفيق

باسم من :
كل هذى الحياة التى دمدمت في إهابك،
حين طوقت بالديناميت ذراعيك،
ساقيك ، خصرك ، صدرك ، ظهرك ،
وانفجرت بأعوامك العشرين،
فتلاشيت من هيئة البشر الفانين ،
وصعدت السماء كعاصفة من حمم اليقين ،
لترد الأيادى الى زرعها،
والغصون الي جذعها ،
والعيون الي دمعها .

●●

يالهذا السحر وهذا العطر !
لكأنك بركان ماء تفجر في الصخر ،
بعد سم الصبر وكى القهر،
أيها الزمزمىّ الذى شق صحراء نا ،
فروانا وهشم أغلالنا :
أى أم سقتك وأى أب سلحك ،
ففقوت السياق الأصيل ،
وازدهرت على أفق الروح قوسا من الزهر ،
وندى من رحيق الفجر،
وتجاوزت في سرعة الضوء أفكارنا ،
واشتعلت لتدفئنا وتطهر بالنار أعضاء نا،
وتعيد اللون لأسمائنا ،
بينما نحن منكمشون ، ومرتعشون،
فى ضلوع العمر ،
ورقاب السنين !

القفز على الأشواك

بقلم: د. شكرى محمد عياد

زمن الغربة

□ظهرت فكرة «الاغتراب» في الانتاج الأدبي العربي ، علي اختلاف فنونه وأفكاره ، بصورة واضحة منذ الستينيات . ولاشك أن سيطرة الفكر الوجودى على الثقافة العالمية بعد الحرب العالمية الثانية ، منافسا للاتجاه الماركسى ومتفاعلا معه احيانا، كان لها بعض التأثير لدى عدد غير قليل من أدبائنا، ولكننا نخطىء إذا حسبنا الأمر مجرد «غزو ثقافى» أو مجاراة لبدعة سائدة . إنما تبدو لنا المسألة فى هذا الضوء الخادع عندما نعالجها بطريقة المقارنة الحرفية بين انتاجنا الأدبى والانتاج المعاصر له ، أو السابق عليه قليلا فى الأدب العالمى، وعندما يتدخل النقاد الأكاديميون - على وجه الخصوص - مسلحين ببعض المفاهيم المستمدة من الثقافة الغربية، ليطبقوها بحذافيرها على الأعمال التى يتوسمون فيها مشابهة لهذا الاتجاه أو ذاك ، والنتيجة - غالبا - هى الحكم بأن هذه الأعمال ليست إلا محاكاة - إن لم تكن سرقة - لعمل معين صدر فى الغرب ، ويصاحب هذا الحكم عادة حكم آخر بأن هذا الأديب المحاكى أو الناقل لم يحسن فهم العمل الأصلى . وكأننا يجب أن نفترض بداهة أننا لسنا إلا مقلدين أو ناقلين.

وإذا نظرنا إلى موضوع الغربة بالذات، وهو من الموضوعات التى أدخلها كثير من الباحثين تحت مفهـــوم «الاغتـــــراب» الوجودى، وجدنا أن غربة المثقف العربى واقع يعيشه يوميا ، بل إنه قد يعيش معظم حياته «مغتربا» بالفعل ، أى بالمعنى المادى، دون اختيار منه ، ومن المشكوك فيه كثيرا أن يكون هناك بعض «المستغربين» الدين اندمجوا ، قلبا وقالبا ، فى الثقافة الغربية . إنما الواقع أن أقطارنا العربية شهدت فى النصف الثانى من هذا القرن تحولات مهمة أوقعت المثقف، دون قصد وأحيانا دون وعى ، فى مأزق الاغتراب ، لا شك أن منها ظاهرة الانتشار الثقافى التى أصبحت سمة من سمات العصر ، ومنها أيضا اتساع الفجوة - وقد يكون المثقف نفسه مسئولا عن ذلك الى حد ما - بين الطبقات المثقفة وعامة الشعب ، ولكن أهمها - كما يبدو - سيطرة الاتجاه القومى أو الوطنى على الفكر الرسمى ، وفرض الواحد أو الآخر على المثقفين بأساليب التجويع أحيانا والقمع السافر ، الذى يصل إلى حد التعذيب النفسى والبدنى أحيانا أخرى .

إن ناجى العبد الله، بطل رواية «مرايا النار» لخيدر حيدر (١٩٩٢ - ولعلها أحدث أعماله المنشورة) يحلم بالسفر ليتم دراسته فى السربون ، هذا الحلم الذى لم يكن يعنى لدى الأجيال السابقة أكثر من الشوق الغريزى إلى الترحال ورؤية العالم، إلى جانب رغبة حقيقية وجادة فى أخذ العلم من منابعه ، يبدو لدى والده المحافظ محفوفا بالخطر ، خطر فقدان هويته العربية الإسلامية . والشيخ له عذره ، فكثير من المثقفين أصبحوا يشاطرونه هذه النظرة - ألم يصف لنا يحيى حقى - فى عمل كان بدون شك أقوى أعماله تأثيرا فى الأجيال التالية ، أعنى «قنديل أم هاشم» كيف كاد الطبيب «إسماعيل» ينسلخ حقا من عقيدة قومه ، لولا أن زلزالا عاتيا - لا ندرى إن كان قد خسفه أرضا أو قذف به - عاليا - أعاده إلى «حظيرة الإيمان» بكل ما اختلطت به من خرافات ؟

ولكن «ناجى العبد الله» ، على كل حال، لا يذهب إلى السربون ، بل يجد نفسه - فجأة وحيدا وهاربا . إن حربا شرسة مجنونة حسمت الخلاف بينه وبين أبيه المتدين ، وحبيبته المتعلقة بمثل القومية والوطنية ، أما الحبيبة فقد اغتصبها الجنود ثم قتلوها وألقوا جثتها فى النهر ،

وأما الأب فقد قتل مع جميع أفراد أسرته حين هاجم السفاحون مسكنهم الآمن بالقنابل ، ولم ينج إلا ناجى (لعل اختيار الاسم ذو معنى) قذفه الانفجار إلى منور البيت فبقى فيه مختبئا مثل الفأر .

ياللسخرية ! لم يكن «الغرب» الذى ذهب إليه ناجى منارة علم أو حرية ، بل كان مدينة عربية أخرى ، مدينة صغيرة على شاطئ الأطلسى ، ومع ذلك فقد كان فيها «غريبا» أيضا ، بل كان فيها أشد اغترابا مما لو نزل ببلاد الأجانب ، فهذا المجتمع التقليدى الضيق ينظر بشك بقرب من الاتهام إلى كل من يأتيهم من الشرق «العربى» أيضا وخصوصا إذا كان مثل «ناجى» مجهول الهوية ، مجهول التاريخ ، مجهول الغرض ، وإن ادعى ، بين وقت وآخر ، أنه ينزل إلى العاصمة بحثا عن عمل ، لعل هذه النظرة العدائية نحو الغريب هى التى ساقته إلى أسرة مغتربة، قادمة من مدينة «مغتربة» أيضا – إلى جانب الحاجة المادية للأسرة ، فيشغل حجرة صغيرة فى مسكنها الصغير ، ومع أن الأجرة التى سيدفعها لابد أن تكون صغيرة كذلك ، فهى تسد جانبا من احتياجات هذه الأسرة التى تعيش على عمل الزوجة بماكينة الخياطة ، والمعونات التى يرسلها أخو الزوج المقيم فى أسبانيا .

● هاربة من موطنها !

وليست الأسرة التى نزل بها ناجى العبد الله شبيهة له فى الغربة فقط ، بل هى مثله هاربة أيضا . هاربة من موطنها الأصلى «مليلية» تلك المدينة التى لا يزال الاسبان يتمسكون بالسيادة عليها مع أنها جزء من التراب المغربى ، فأهلها «مغتربون» ، جملة وتفصيلا ، بالنسبة لأسبانيا وللمغرب على حد سواء . أما السر فى هرب هذه الأسرة من موطنها ففضيحة عائلية ، فشقيق الزوج الأصغر – وكلاهما أيضا ابن عم للزوجة – قد افتض بكارة الزوجة وهى بنت خمس عشرة سنة، ممنيا إياها بالزواج ، ثم تركها وهاجر الى أسبانيا ، حيث أتم تعليمه وتزوج وأنجب (الصورة «الناجحة» للمغترب الذى يصبح مندمجا). ويظهر أن الحبيبة الصغيرة المعذورة أخذت تتسلى عن غياب حبيبها الغادر بمعرفة رجال آخرين ، وفى الوقت نفسه كان ثمة جنين آخر يعلن عن قدومه ،

فكان الحل الموفق السعيد أن يتزوجها ابن العم الآخر ، شقيق زوجها والذى كان يكبرها بعشرين سنة ، وأن يتركا موطنهما الأصلى إلى هذه المدينة الصغيرة ، وغبار الزمن كفيل بستر الفضيحة – المأساة .

هكذا قايضت الزوجة بأنوثتها الحارة «تضحية» الزوج الذى قبل أن يلغ فى طبق سبق أن تذوقه أخوه ، وجاءت ثمرة الحب الأول طفلة لم تكن تعرف عمها إلا على أنه أبوها ، إلى هنا لم تكن ثمة مشكلة كبيرة، مقايضة مقبولة ، وتغاض متبادل ، يمكن أن يحصنهما التناسى فالنسيان ليكون الناتج أسرة «سعيدة» أو على الأقل راضية أو مستسلمة ولكن الزوج يصاب فى حادث سيارة ، وينجو بنصفه الأعلى الذى لا يزال يجيد حساب الدخل والمنصرف ، أما نصفه الأسفل فقد أصبح مشلولا ، وزوجته عارمة الأنوثة ، عارمة الفتوة – لم يستطع أن يعارض فى قدوم «المستأجر» الغريب ، وود لو استطاع، ولكنه فقد سيطرته على البيت منذ أصبح قعيد كرسى متحرك ، أصبحت الصفقة خاسرة بالنسبة إلى الزوجة ، ولم يعد فى وضع يسمح له بها فعلا حين تضطره الظروف الى ذلك: ورقة التقاليد التى تسمح بقهر الزوجة مهما تكن الأحوال

ليست دميانة – زوجته – ليدى تشاترلى أخرى ، المسكن ضيق وكل شئ ظاهر ، لا يمكنه تجاهله ، بل أن خياله ليسبق الحقيقة ، فالحقيقة هى أن الغريب الطارئ كان يحلم بامرأة المدينة البعيدة ، الساحرة المشتهاة ، كما أن الزوجة الأسيرة كانت تحلم بالرجل الغامض ، القوى، الملئ بالأسرار ، ولكنهما حين التقيا كان الرجل الذى هرب من مذبحه ، واختبأ فى منور ، مثل فأر ، مسكونا باحساس العار ، وجنون الثأر ، ملتحفا بحياده الظاهرى ، وإن كان داخله يغلى ، وكان عليها أن تتصدى ، وتراوغ ، وتنسج حبائلها بصبر ، كالعنكبوت ، حتى تسلمه الصدفة المحضة إلى الموت اللذيذ فى كهف أنوثتها .

هذه هى القصة . وأنت لا يمكنك أن تقتل رواية، مما تكن عظيمة، بأحسن من تلخيص قصتها. سوف تتذكر ولاشك قصصنا كثيرة مشابهة لعلك تتذكر همفرى بوجارت فى كازابلانكا. ولكن ماذا يمكن أن يصنع كاتب بمثل هذه القصة وليس فى يده إلا ورقة وقلم ، أين هو من فتاكة همفرى بوجارت أو دلال ريتا هيوارث؟

الكاتب وحيد مع عمله هذا يعنى أيضا أنه السيد الوحيد لهذا العمل ، أنه يملك الفكرة ولايسمح لأحد بأن يشوشها عليه، ويملك أدواته فهو يوظفها لخدمة الفكرة. وهو بعد أن يعطيك النص يترك لك المسرح لتملأه أنت بنفسك بخيالك أليست هذه متعة لا تقل عن متعة المشاهدة؟.

وحيدر حيدر يعدك بهذه المتعة من أول أربعة أسطر:

«بداية، لنقل إنها حكاية غريبة، حدثت لرجل غريب فى مدينة غريبة ليست موجودة على الخريطة. أو هى حكاية مسلية لرجل يسافر وحيدا فى قطار. رجل يستعيد وقائع الزمن على شكل دوائر فى سهب فسيح ، كما طائر يعبر فضاء.».

سر هذه التسلية، أو أحد أسرارها، أن الكاتب ينقلك من السؤال الساذج ! وماذا بعد ؟ إلى سؤال أخر أكثر ذكاء كيف كان ذلك؟ فالرواية مقسمة إلى «أزمنة» لا إلى «فصول» «زمن الحكاية» ، «زمن الورد» ، «زمن العار» ، «زمن الهروب» ، «زمن الغيرة» .. وستعرف مجمل القصة من الزمن الأول، هذا الذى يدعى أنه ما كتب إلا ليسليك. ولكن السؤال كيف؟ سيظل يتكرر خارجا على إطار «المعرفة» ، معرفة الحدث، إلى إطار «الفهم».

بينما يفتنك الكاتب كلما لوح بقصة المرأة الغريبة والرجل الغريب فى البلد الغريب ، سيلقى فى ذهنك بذور أسئلة كثيرة تبحث لها عن جواب، إن لم تجده فى «زمن الحكاية» ، فقد تجده فى زمن تال سيئول لك مثلا:

المرأة الغريبة فى المدينة الغريبة تلك التى تحلم بالغريب المعرى من الاسلاك والفخاخ والماضى الموحل ، والرجل الباحث فى ارشيف الظلمة عن امرأة الزمان المشع.

إنها هنا ، تخفق كالطائر الخطاف فى سماء بلون البحار وصفائها . المرأة الملعونة، هدية الرجل الملعون فى زمن العواصف والاضطراب .في الزمن الراوئى (ص ص ١١- ١٢)

● إمرأة ملعونة

لعلك ، رغم هذه الفتنة الغامضة ، تتساءل : لماذا؟ أو كيف؟ لماذا كانت «امرأة الزمان المشع» التى تخفق كطائر الخطاف هذا (إن كنت لا تعرفه مثلى فتكفيك خطفة اسمه) فى سماء بلون البحار وصفائها، هى فى الوقت نفسه امرأة ملعونة؟.

سنقرأ ونقرأ، وتظل تتساءل وتتساءل ، ولن يجيبك الكاتب، بل سيضاعف من حيرتك، سيصفها مرة بانها امرأة مريضة استوطنها فيروس لعين لايسمعه، ولكنك تخمن أنه فيروس الشبق الأنثوى. وسيصفها مرة أخرى بأنها قديسة. سيترك لك الفصل فى القضية، ولكنه سيضع بين يديك حيثيات الدفاع، فهو ليس كاتبا محايدا (أين هو الكاتب المحايد؟) ولكنه أيضا ليس متورطا ، إن كان له موقف فهو موقف الرثاء لقدر الانسان، الانسان مطلقا، والانسان فى هذا العصر بالذات ، وإنسان هذا العصر العربى بوجه أخص.

لست ادرى هل تألف الفن الحديث أو لا تألفه . هل تعلمت أن تفك شفرة الرواية الحديثة أو تريد أن تتعلمها. أوافقك على أنك يجب أن تقتنع أولا بضرورة هذه الشفرة لبعض الكتاب، أو لبعض الموضوعات على الأقل.

وحين يعرض عليك كاتب روائى قضية ملتبسة كهذه، يجد نفسه مضطرا لأن يستلهم الفن الحديث، أو يستخدم شفرة الرواية الجديدة. فإلى وقت غير بعيد ، لم تكن قضايا الوجود الانسانى ملتبسة كما هى اليوم. لقد تخلى كتاب الرواية أو معظمهم، منذ أوائل هذا القرن ، عن أسلوب «الراوى العليم بكل شئ» وهو أسلوب مستمد من كتاب التاريخ، أو كتاب التاريخ القدماء بالذات ، كتاب الحوليات وما يشبهها. أسلوب يفترض ضمنا أنه سمع الخبر من مصادر موثوقة ، ولذلك فإن الحادثة، بتسلسلها الزمنى ، هى التى تنظم عقد الرواية، والكاتب وراء الحادثة ، يتتبعها من شخص إلى شخص ومن مكان إلى مكان. حين ظهر هنرى جيمس علم الروائيين من بعده مسألة وجهة النظر. الحقائق نسبية، ولتكون قريبا من الحقيقة ما أمكن، عليك إن تقص قصتك من وجهة نظر إحدى الشخصيات ويجب أن تفترض فى قارئك الذكاء ، إلى الدرجة التى تمكنه من تمييز الصدق والكذب فيما تزعمه هذه الشخصية.

بعض الكتاب توسعوا فى هذا الأسلوب، فجعلوا يروون القصة الواحدة من وجهات نظر متحددة، كما فعل فتحى

غانم – مثلا فى الرجل الذى فقد ظله

⊙ تراجع الزمن

اختفت القصة أصبحت كالسقالات التى يرفع بواسطتها البناء، وحين يقوم البناء، لاتعود تراها. ومع اختفاء القصة تراجع الزمن أيضا ، أصبح «زمنا روائيا» عبر عنه بعض كتاب الرواية الجديدة بأنه هو الزمن الذى يقضيه القارئ فى قراءة الرواية «لا أكثر ولا أقل» .

ينبهك حيدر حيدر من أول الأمر إلى أنه لن يحكى لك الحكاية بترتيب زمنى مادمنا نريد أن نتسلى فلنكن كركاب قطار، ترد علينا الذكريات بلا ضابط ونحكيها بلا ترتيب مسبق، القطار فقط ضابط ايقاع، مثل الحياة نفسها تتعاقب عليه المحطات كما يتعاقب الليل والنهار.

ليس هذا فقط، فوجهة النظر لم يعد لها وجود . لم يعد الروائى يؤمن بحقيقة نسبية، وجود الحقيقة نفسه أمر مشكوك فيه وإذن فلتعرض الرواية نفسها دون هذا الزعم البالى، زعم البحث عن الحقيقة أو مشابهة الحقيقة. يذكرنى اختلاط وجهات النظر فى الرواية الجديدة وبصورة امرأة لبيكاسو، ترى منها البروفيل والوجه والصورة الجانبية والصورة الأمامية – متداخلين مختلطين.

حيدر حيدر فى هذه الرواية يقص بطريقة مشابهة فأنت لا تعرف من الذى يقص، أهو الراوى (المجهول) ، أم الغريب، أم الزوجة ، أم الزوج ، أو بالاخرى كلما بدأت بواحد منهم فوجئت بثان ثم ثالث ، وهكذا .

يجب أن تكون مستعدا لهذه الانتقالات، حتى فى الفقرة الواحدة وإذا سألت الكاتب ما الذى جعله يعمد إلى هذه الطريقة؟

فلعله يجيبك إن التضية الملتبسة لايمكن أن تعرض إلا بطريق الفن. ولا يمكن أن يعرض الفن إلا بطريقة ملتبسة.

ثم دعنا نتفق على أن نعفيه من سؤال أخير، قد يخطر ببالك أو ببالى، ما الذى جعله يضيف إلى الرواية هذا «الملحق» كما سماه زمن التنوع ومرايا الظلمات؟ فهذا الملحق مقال سياسى، وأنا وأنت نعرف كيف ، ولماذا، تكتب المقالات السياسية. □



روايات الهلال
تقدم
حكايات الدنش في كفر عسكر
بقلم
أحمد الشيخ
تصدر
١٥ فبراير ١٩٩٦



بقلم: د. أحمد عبدالرحيم مصطفي

امتلأ التاريخ الإسلامى بالكثير من الحركات التى انتفضت على الأوضاع القائمة ، إما كرد فعل ضد ممارسات السلطة ، أو طمعا فى الاستيلاء على الحكم لصالح فئة معينة أو خدمة لنشر مذهب معين تصور أنصاره أنه هو الحق وأن غيره باطل، وبالتالى فمنذ الفترة الأولى من الحكم الإسلامى شهدت دار الإسلام كثيرا من الصراعات الدامية التى مزقتها شر ممزق وشغلتها عن تحقيق الآمال التى تعلق بها المسلمون ، وممن رفعوا لواء التمرد، على سبيل المثال لا الحصر ، الخوارج والقرامطة والشيعة والحشاشون، و«المهديون» - هذا بالاضافة الى الصراعات القبلية بين عرب الشمال العدنانيين والقحطانيين وغير ذلك ، وفى التاريخ الحديث ظهرت المهدية والسنوسية والوهابة وغير ذلك بالإضافة إلى أهم الحركات الحديثة والمعاصرة المعروفة باسم «الإخوان المسلمين» التى كانت رد فعل لتغلغل الأفكار والقيم الغربية بشتى اتجاهاتها فى البلدان الإسلامية بوجه عام وفى مصر بوجه خاص.



حسن البنا





مصطفي النحاس

عزيز المصرى

فقد تغلغلت القيم الغربية نتيجة للتدخل الاستعمارى الغربى ووجدت تجاوبا من جانب بعض المسلمين الذين انبهروا بالمنجزات الغربية فى المجالين المادى والفكرى ، فى الوقت الذى أثارت فيه رد فعل دفاعى لدى المتمسكين بدينهم باعتباره بؤرة الكيان الذاتى.

وقد ظهرت جماعة الإخوان المسلمين فى مصر فى أواخر العشرينيات من القرن الحالى كان مؤسسها «المرشد العام» الشيخ حسن البنا الذى وجه نشاطها حتى مقتله فى عام ١٩٤٨ . ولقد عرف البنا بتدينه ومقدرته الخطابية وجاذبيته الشخصية وذكائه . وقد بدأ نشاطه فى الاسماعيلية فى منطقة قناة السويس حيث وجدت جاليات أجنبية كثيرة كانت تعيش حياة رغدة فى الوقت الذى كان فيه المصريون الموجودون فى المنطقة من رقيقى الحال. ولاشك فى أن تعارض وضع المصريين مع وضع الجاليات الأجنبية كان له أثره فى توجيه أفكار المرشد العام الذى مالبث أن نقل قاعدة نشاطه إلى القاهرة وقام بافتتاح شعب لجماعته فى مختلف أنحاء مصر. وبعد أن تولى الحكم الملك فاروق تقرب منه البنا فى الوقت الذى تشكلت فيه التنظيمات الفاشية والنازية فى ألمانيا وايطاليا وبرز حزب مصر الفتاة فى مصر وهو الحزب الذى كان زعيمه أحمد حسين مناوئا لحزب الوفد أقوى الأحزاب المصرية وأكثرها جاذبية للشباب، وكان حزب مصر الفتاة هو الآخر متأثرا

بالاتجاهات النازية التى تأثر بها البنا الذى أنشأ فرق الجوالة التى كانت تدين له بالولاء والطاعة وتأخذ بمبدأ الزعيم والتابع فى الوقت الذى قامت فيه جماعة الاخوان المسلمين التى اتصفت بجمود زعامتها وتنظيم هيئاتها التنفيذية ووحداتها وإن تكن قد نجحت فى اجتذاب فئات اجتماعية مختلفة شملت المهنيين والطلاب والفلاحين بالإضافة الى البورجوازية الدنيا فى المدن

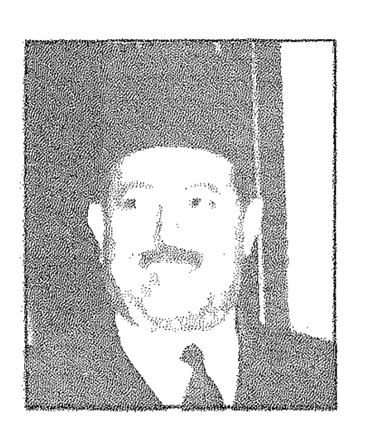
● دعوة للإصلاح الدينى

وكان نجاح الإخوان المسلمين فى اجتذاب جماهير الأحزاب التقليدية مرتبطا بدفاعها عن الإسلام فى الوقت الذى شهد انتعاش المشاعر الدينية وضيق قاعدة المثقفين وتعثر الممارسات الديمقراطية على النمط الغربى التى لم تحظ بنجاح كبير خاصة وقد جرى استيرادها من الغرب الذى اقترن لدى الجماهير بالتحلل وفساد الأخلاق ، فى الوقت الذى اعتبر فيه الغرب عدوا تقليديا للإسلام. يضاف إلى ذلك أن حركة الاخوان المسلمين كانت رد فعل عنيفا للفشل الايديولوجى الذى منى به قادة المثقفين وتعثر النظام الليبرالى فى المجالات السياسية والاجتماعية فى حين تبنت دعوة الاخوان اصلاحا دينيا سلفيا ولوحت للفقراء بقرب تحقيق العدالة والمساواة ولوحت للواعين سياسيا والوطنيين بأنها تسعى إلى تحقيق الاستقلال التام وتؤكد المبادىء العالية للإسلام الداعية إلى الإخاء المصحوب بالقيم الروحية خاصة أنها أعلنت أن غايتها القصوى هى إعادة بناء المجتمع فى اطار جامعة اسلامية عصرية تلعب دورها فى تحقيق سلام العالم وبناء الحضارة الإنسانية على أساس التناسق بين المادة والروح – وهكذا قدم الإخوان المسلمون أنفسهم باعتبارهم بديلا لحكم الساسة العلمانيين وبالتالى للنمط الغربى المستورد فيما يتعلق بالحكومة والمجتمع

على ماهر



محمود النقراشي



وهو النمط الذى رفضوه جملة وتفصيلا بما فى ذلك قيمه ونظمه ورغم ذلك لم توفر جماعة الإخوان المسلمين برنامجا محددا للمشاكل التى كانت تواجه المجتمع المصرى، بل إنها لم تسع إلى فهمها وكان تأكيدها على أن القرآن يوفر أساسا لقيام مدينة فاضلة اسلامية .

يقوم على العقيدة لا على الاثبات العقلى، فنجاحها فى أعقاب الحرب العالمية الثانية كان راجعا الى عجز الحكومات المتعاقبة عن حل المشكلات السياسية والاجتماعية وبالتالى دفعت خيبة الأمل الى صفوف الجماعة اعدادا ضخمة من المصريين الذين رأوا أن مسئولية الانهيار الفاجع لآمالهم تقع على كاهل النظام القائم، يضاف الى هذا أن من أسباب نجاح الحركة جهود «علماء» الأزهر وتوقف نشاطهم عند حدود معينة من التفسيرات والشروح وبعدهم عن اهتمامات الجماهير فى الوقت الذى كانت تحلم فيه بضرورة الاصلاح الاجتماعى بعد ان تزعزعت القيم الموروثة بظهور فئة اغنياء الحرب الذين اقترن سلوكهم بالفساد والانتهازية وبالتالى رأى البعض ان الإخوان يمثلون ضرورة لملء الفراغ القائم بين القيادات السياسية الحاكمة والجماهير التى كانت تبحث عن قيادات تعبر عن تطلعاتها ومن ثم كان من السهل عليها أن تقع تحت تأثير حسن البنا الذى كان محور مناقشاته يدور حول فساد الحياة السياسية وضرورة الالتزام بأسس الإسلام وان مجتمعا يقوم على القرآن والسنة بإمكانه أن يضع حدا لأمراض المجتمع فى الوقت الذى لم يكن فيه الإخوان واعين حقيقة لما يجب عمله لبناء المجتمع الاسلامى. ولما لم تكن لديهم فكرة واضحة عن المشكلات المرتبطة بنمو مجتمع عصرى فقد كانوا على استعداد لاعتبار كل من يخالفهم عدوا للإسلام من الواجب القضاء عليه. ذلك أن عقيدتهم كانت قائمة على الإيمان أكثر منها على الفكر المنظم ومن ثم فإنها انحصرت فى اطار حركة متعصبة تلهمها وتحركها النوازع الوطنية السلبية ويقويها الشعور بالبؤس الاجتماعى الذى كانت تشعر به غالبية الجماهير

● الاستيلاء على السلطة

ولكى يحقق البنا تصوره للدور الواجب على جماعته القيام به فقد تطلع لأن يلعب دورا مهما فى المجتمع المصرى

فإزاء اتساع نطاق حركته بصورة مذهلة حول دعوته بالتدريج من طور الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إلى «دعوة سلفية صوفية سياسية رياضية علمية ثقافية اقتصادية اجتماعية، ولم يخف أن هدفه هو الاستيلاء على السلطة اللازمة لاقامة المجتمع المثالى دون أن يشير الى وسيلة تحقيق ذلك، ومن قوله إن الإخوان لايطلبون الحكم لأنفسهم ان وجدوا من الأمة من يستعد لحمل هذا العبء وأداء هذه الأمانة والحكم بنهج اسلامى قرآنى .

فهم جنوده وأنصاره وإخوانه فإن لم يجدوا فالحكم فى منهاجهم وسيعملون لاستخلاصه من كل حكومة لاتنفذ أوامر الله» المخطط شكل تنظيمات الجوالة وبدأ تدريب مجموعات صغيرة ، يتكون كل منها من عشرة أعضاء وفي أوائل عام ١٩٤٣ تم تشكيل النظام المعروف بالجهاز السرى خاصة بعد أن اصطدمت جماعته بالسلطة بعد نشوب الحرب العالمية الثانية ولعبت دورها فى الدفاع عن الحركة فى مواجهة البوليس والحكومة المصرية وكانت الجماعة قد سبق لها أن أفادت من تولى على ماهر رئاسة الوزارة فى اغسطس ١٩٣٩، خاصة انه كان يمقت حزب الوفد فى الوقت الذى ضمت فيه وزارته اشخاصا من أمثال صالح حرب رئيس جمعية الشبان المسلمين وعبدالرحمن عزام الذى سبق له ان تطوع لمحاربة الايطاليين بعد احتلالهم لليبيا قبل الحرب العالمية الأولى بالاضافة الى عزيز على المصرى الذى كان له نشاطه السابق فى الجمعيات القومية السرية العربية. ولما كان هذا الأخير قد تلقى تدريبه العسكرى على أيدى ضباط ألمان فإنه أسفر عن ميول المانية ولم يخف مقته للأحزاب البرلمانية والنظام الديمقراطى على النمط الغربى، وقبل أن يرأس على ماهر الوزارة كان قد عقد صلات بالاخوان الذين استقبلوه استقبالا حارا بعد عودته من لندن (مارس ١٩٣٩) بعد ان اشترك فى مؤتمر المائدة المستديرة الذى بحث شئون فلسطين وبطبيعة الحال كانت وزارة على ماهر ذى العلاقات الوطيدة بالسراى وبالألمان معادية للإنجليز الذين جاءوا بالوفد الى الحكم فى فبراير ١٩٤٢ وحينئذ أعلن البنا رغبته فى الترشيح لمجلس النواب باعتباره ممثلا للإخوان ولو أن رئيس الوزراء مصطفى النحاس اقنعه بالعدول عن ذلك فى مقابل تلبية بعض مطالبه ومنها

السماح للإخوان بعقد الاجتماعات واصدار المطبوعات وغير ذلك - وحينئذ كانت قد تشكلت فرق الجوالة التى قامت بحماية المؤتمرات الاخوانية واستقبال «المرشد العام» «حسن البنا» بعد عودته من احدى جولاته ومالبث الاخوان ان لجأوا الى تشكيل قوات مسلحة مستغلين الاضطرابات التى احتدمت نتيجة للموقف فى فلسطين التى وضح أن لليهود اطماعا فيها وقد تطوع بعض الاخوان لمواجهة هذا الخطر وانتهزوا الفرصة لجمع الأسلحة وتوسيع قاعدة قواتهم الناشئة كما اشتد نشاطهم ضد القوات البريطانية المتمركزة فى منطقة قناة السويس وغيرها وبخاصة بعد تعثر المفاوضات بين الحكومة المصرية والانجليز فى سبيل الجلاء كما برز نشاط الإخوان فى مجال التنظيمات الطلابية فى الجامعة حيث بدا انهم يسعون الى السيطرة عليها.. كما قاموا ببعض التفجيرات ومحاولات اغتيال خصومهم.

● حـــــل جماعـــة
الإخوان ومطاردتهم!

وكانت اهم محاولاتهم الناجحة فى مجال الاغتيالات قتلهم لأحمد الخازندار الذى حكم بالسجن على اخوانى هاجم الجنود الانجليز فى نادى الاسكندرية - وكان قاتلا الخازندار من افراد التنظيم السرى وحكم عليهما بالسجن المؤبد مع الأشغال الشاقة وردت الحكومة على ذلك بحل جماعة الإخوان وتدبير مقتل حسن البنا فى أواخر عام ١٩٤٨ ردا على قتل رئيس الوزراء محمود فهمى النقراشى على يد أحد الإخوان ثم بدأت مطاردة الإخوان والزج بهم فى المعقتلات والسجون ولو أن الجماعة واصلت نشاطها واشركت الجماهير فى الكفاح المسلح ضد الانجليز وبخاصة بعد إلغاء معاهدة ١٩٣٦ وبدء العمل الفدائى ضد القوات البريطانية المرابطة فى منطقة قناة السويس وتدهور الموقف الداخلى فى البلاد بعد حريق القاهرة يناير ١٩٥٢ وبدا أن الموقف لابد أن يتمخض عن شىء مهم. وحينئذ بدأ نشاط بعض الفئات الساخطة التى تطلعت الى التغيير ، ومن هؤلاء ، تنظيم «الضباط الاحرار» الذين استولوا على السلطة في يوليو ١٩٥٢ ، وكان منهم بعض الإخوان المسلمين الذين وجدوا أن الفرصة قد سنحت للاستيلاء على الحكم وتطبيق برامجهم ، ولو أن

مجلس قيادة الثورة الذى كان يضم فئات وطنية لايجمعها هدف واحد لم يتح لهم فرصة لتحقيق احلامهم ، ثم مالبث أن اصطدم بهم بعد محاول أحد الاخوان اغتيال جمال عبد الناصر في عام ١٩٥٤ ، وقد فشلت هذه المحاولة التى استتبعت استعمال العنف مع الاخوان والتنكيل بهم بصورة لم يسبق لها مثيل ، وهرب من هرب لمتابعة أهداف الجماعة في الخارج ، ولم تلبث ان ظهرت قيادة جديدة تولاها سيد قطب الذى كان قد رحب بانقلاب ١٩٥٢ وأيده الى حين ثم انفصل عنه وتوصل فى أواخر الخمسينيات الى صياغة استراتيجية جديدة للحركة الإسلامية ببناء حزب انقلابى اسلامى تسنده صفوة عقائدية مقاتلة تعلن كفر

سيد قطب



النظام والمجتمع وشمول الجاهلية للعالم كله.

● سيد قطب وفكر جديد

طرح سيد قطب فكرة إعادة بناء الإسلام وتولى قيادة تنظيم للإخوان من الشباب الذين اختاروه قائدا لهم ونشر فكرة الحاكمية التى دمجت الدين بالسياسة وأعلنت شمول الجاهلية وضرورة بناء حزب انقلابى اسلامى بإمكانه ان يزيل الأنظمة والحكومات التى تقوم على حاكمية البشر للبشر وعلى عبودية الإنسان للإنسان بحيث تكون العبودية كلها لله ثم يلى ذلك نشر الدعوة الإسلامية بصورة شبيهة بما حدث فى الماضى حيث نجحت الحركة على يد الرسول والصحابه الأول، وقد عزا سيد قطب فشل «الضباط الأحرار» فى خدمة الهدف الإسلامى - فى رأيه - إلى انهم لم يقوموا بتوظيف التطهير والدكتاتورية لصالح البرنامج الأخلاقى الإسلامى بالتعاون مع الإخوان المسلمين وتبنى أفكارهم فاذا اريد للإسلام أن يعمل فلابد له أن يحكم وذلك بعد اعادة بنائه. وقاد

تنظيما اخوانيا من الشباب الذين تأثروا به وبأفكاره واختاروه قائدا لهم وارسل افكاره الى التنظيمات الاخوانية فى البلدان العربية. ودفع سيد قطب حياته فداء لأفكاره، ثم جرى التنكيل باتباعه الذين هاجروا الى الخارج وباشروا نشاطهم فى المنافى، وفى أعقاب وفاة عبدالناصر فى عام ١٩٧٠ تولى الحكم أنور السادات الذى شرع فى تعديل أسس نظام سلفه فخفف الضغط على الإخوان وتصدى لمواجهة التيارات اليسارية وتصفية بقايا النظام الناصرى فأخرج الاخوان من المعتقلات بشرط أن يتعهدوا بعدم اللجوء الى العنف فى مقابل السماح لهم بنشر دعوتهم فقبلوا بالتعددية الحزبية وخاضوا الانتخابات واعترفوا بشرعية الدستور المصرى وباتفاقه مع قواعد الإسلام ورغم مطالبة الاخوان بتطبيق الشريعة فورا تطبيقا كاملا فقد تنازلوا عن هدف اقامة الدولة الإسلامية كما تخلت الجماعة عن شعارات العدالة الاجتماعية التى سبق لها ان تبنتها وشارك سيد قطب فى صياغة افكارها فى الوقت الذى ازداد اندماجهم فى مجالات الاقتصاد والسياسة داخل النظام وقد ترتب على ذلك أن ابتعد الشباب الأكثر سخطا عن خط الاخوان واتجهوا الى التيارات الراديكالية وهاجموا الاخوان هجوما شديدا فى الوقت الذى حرص فيه الاخوان على التبرؤ من نشاطات الجماعات الراديكالية والتزموا بخطة اصلاح النظام والضغط عليه وتجنبوا الاصطدام بالمتشددين محملين الظروف مسئولية تطرفهم. وقتل السادات على أيدى مجموعة من المتطرفين الذين سعوا الى اسقاط النظام القائم ولكن سلطات الأمن تمكنت من افشال هذا المخطط . وجاء محمد حسنى مبارك الى الحكم وواصل مساعيه لاجهاض مخططات المتطرفين الذين حاولوا قتله فى العام الماضى وهو فى زيارة الى اديس أبابا ولاتزال المواجهة مستمرة بين المتطرفين والسلطات على مختلف الأصعدة، ونأمل الا يطول امد المواجهة التى كان لها أثرها فى المجالات الاقتصادية وغيرها، وان تخرج مصر منها فى أقرب وقت حتى تتفرغ للبناء وحل المشكلات التى تواجهها.●

هرولة فى اتجاهات شتى

بقلم : جميل مطر

☐ يبدو أن الهرولة علامة من علامات نهاية القرن العشرين، فقد أصبحت سلوكاً متكرراً من سلوكيات الدول فى علاقاتها الخارجية، وسمة من سمات إنسان العصر.

في كل ركن من أركان العالم هرولة نحو شيء أو آخر. وفى بعض الأركان يهرول أناس نحو أشياء متعددة فى آن واحد. فى الشرق الأوسط مثلا يتعدد المهرولون ولكن تتعدد أيضا أهداف الهرولة. توجد أهداف لها خصوصية إقليمية عربية، مثل الهرولة فى اتجاهات وتنظيمات إقليمية جديدة وشراكات متنوعة وأفكار متضاربة. وتوجد أهداف نشترك فيها مع غيرنا من سكان هذا الكوكب، فبعضنا يهرول فى اتجاه ما يسمى بالعولمة أو الكونية، أى فى اتجاه الكوكبة. وبعضنا يهرول فى اتجاه معاكس لاتجاه الكوكبة. هذا البعض استصعب رحلة الكوكبة، أصابه قليل أو كثير من عواقب التحولات الهائلة الجارية من حوله. لاحظ الهرولة وراقب المهرولين، واستشعر غرابة أو اغترابا وإذا به فجأة يهرول فى اتجاه الخلف، أى فى اتجاه العودة إلى الأصول بحنين شديد إلى الماضى ورغبة عارمة فى العثور على خصوصية يسترد بها أنفاسه ، وتسنده فلا يقع تحت أقدام المهرولين فى اندفاعهم المحموم نحو الكوكبة.

حول هذا الموضوع، موضوع الهرولة، فتح باب النقاش فى معظم الدول العربية، علما بأن الهرولات في الشرق الأوسط ليست كلها تنابذا وخصومات وسباقات، فهناك كما ذكرت من قبل هرولة نحو الكوكبة أو الكونية، وهرولة نحو خصوصيات متميزة أو متطرفة. ولايوجد على مستوى الدول - أى الحكومات - العربية من يتهم الدول الأخرى بأنها تهرول فى اتجاه الكوكبة، أو تهرول فى اتجاه الماضى. ولكن يوجد على مستوى الدول من يتهم الآخر بكثير من الدبلوماسية والرقة بأنه يهرول فى اتجاه كيان شرق أوسطى، أو فى اتجاه كيان بحر - متوسطى، وحتى الاتهام الرقيق بالهرولة فى اتجاه التطبيع، يزيده رقة التحفظ بأن الهرولة فى هذا الاتجاه لاتجوز إذا حدثت بشكل منفرد أو إذا حدثت قبل تحقيق مزيد من التقدم على أصعدة أخرى فى مسيرة السلام بين عرب بعينهم - وهم عرب الحرب - وبين إسرائيل.

لذلك ليس مهما أن يدور نقاش على مستوى الدول العربية حول موضوع الهرولة بشكل عام، أو الهرولة فى حيزها الأضيق، أى فى حيز العلاقات مع إسرائيل. فالهرولة فى الإطارين ـ العام أى الكوكبى والخاص أى الشرق أوسطى ـ أمر واقع مهدت له ظروف خارجية وفرضته ضغوط دولية وإقليمية وداخلية وجماعات مصالح محلية. ولا أتصور أن رجال السياسة كانوا يتمتعون بكل حريتهم عندما تعاملوا مع مواقف معينة وثيقة الصلة بتطورات كونية أو إقليمية. وعلى كل حال ـ وفى ظل هيمنة التطورات ذات الصفة الكونية ـ لم يعد يوجد زعيم سياسى فى دول الشمال أو فى دول الجنوب يستطيع أن يزعم أنه يتخذ جميع قراراته ويضع جميع سياساته بحرية كاملة أو حتى شبه كاملة. ومع ذلك فقد يكون من الضرورى أن تعود بعض مجالات الهرولة تطرح للنقاش على مستوى الدول العربية فتتفادى أن تدوس إحداها على قدم الأخرى أو تتسبب فى إصابتها إصابة شديدة خلال هرولتها فى اتجاه الكونية، أو فى اتجاه إسرائيل، أو فى اتجاه شراكة مع أمريكا أو شراكة على أمريكا.

ولكن النقاش الأهم هو هذا النقاش الدائر حالياً على مستويات أخرى غير مستوى الدول والحكومات، وأطراف هذا النقاش غير معنيين ـ كما يبدو ـ باتجاه أو بهدف الهرولة، بقدر ما هم معنيون بمعدلات الهرولة أياً كان اتجاهها. ثم هم أيضاً معنيون بحجم الفاقدين المادى والنفسى نتيجة الهرولة، ومعنيون بعواقب تخبط وتخابط المهرولين، وآثار السرعات المفاجئة أو الفائقة التى ينتقل بها المهرولون من حال إلى حال ومن درجة إلى درجة أخرى. وهناك أمثلة عن محاور النقاش الدائر.

لاينكر أحد أن الشغل الشاغل هذه الأيام لمعظم دول شمال أفريقيا هو اختيار المستوى أو الشكل الإقليمى الأنسب لتتقولب فيه سياساتها الخارجية. ويبدو أن مستويين أو شكلين معينين يحظيان بالرعاية الأوفر وبالأفضلية من جانب صانعى السياسة والقرار فى هذه الدول، وإن اختلفت درجة الرعاية ونسبة التفضيل من دولة إلى أخرى. وعلى كل حال يبدو من النقاش الدائر أن حظوظ المتوسطية فى معظم دول شمال أفريقيا أكبر من حظوظ الشرق أوسطية. ويبدو أيضا أن الاهتمام الذى تحظى به المتوسطية والشرق أوسطية وانشغال وزارات الخارجية بهما تسبب فى أن هذه الدول المنتمية بكل الجغرافيا وبعض قديم التاريخ وحديثه إلى القارة، الافريقية صارت تهمل هذه القارة رغم أن هناك علاقات ومصالح استراتيجية وربما مصيرية تفرض على

أكثر هذه الدول ألاّ تهمل فى تنمية علاقاتها الافريقية. ولكن يبدو أنه توجد اعتبارات أخرى غير الجغرافيا وبعض التاريخ تلعب دوراً خطيراً ومعاكساً الدور الذى يمكن أن تلعبه الجغرافيا ويلعبه التاريخ. لاحظنا مثلاً خلال تجارب الهرولة الحديثة فى الشرق الأوسط أن من ملحقات الهرولة التوتر وأحيانا الغيرة. لذلك لا أستبعد أن تقلق دول وجماعات فى أفريقيا السمراء وهى ترى دولا فى شمال أفريقيا تدير لها ظهرها لتنعم وحدها بخيرات حقيقية أو متصورة وافدة من الشمال الأوربى للبحر المتوسط. ولاأستبعد أن تكون الهجرة من مناطق جنوب الصحراء إلى دول شمال أفريقيا هو رد الفعل المناسب من جانب هذه الدول والجماعات الأفريقية وإذا استمر هذا الإهمال من جانب العرب الأفارقة وإذا تأكد السمر الأفارقة من أن الفجوة الاقتصادية التى تفصل بين أفارقة الشمال وأفارقة الوسط والجنوب مستمرة فى الاتساع . بمعنى آخر، تكون أوربا التى تسعى بالمتوسطية والشراكات العربية إلى إيقاف أو منع هجرة أهل شمال أفريقيا إليها قد تسببت بدون وعى فى إطلاق شرارة هجرة إلى شمال أفريقيا من مناطق أخرى فى القارة السمراء.

ولكننى أتوقع تطورات أخرى ربما تكون أشد خطرا على سلام واستقرار الدول العربية الأفريقية. وأعتقد أن مسئولية وقوع هذا التطور أو ذاك تقع على المعدل الفائق فى سرعة هرولة دول شمال أفريقيا فى اتجاه أوربا، وفقدان هذه الدول لعنصر التوازن السياسى الدقيق - سواء كان التوازن الداخلى فى كل قطر أو التوازن الإقليمى ضمن المجموعة المغاربية، أو التوازن القارى بين الشمال الأبيض والجنوب الأسمر - نتيجة اختلاف سرعات التبدل فى السياسات، ونتيجة اللهفة الواضحة على اللحاق بالكونية عن طريق أوربا.

● ضياع القيم

المثال الآخر على عواقب هرولة نهاية القرن العشرين هو التطورات فى روسيا. نتذكر أنه بعد أن فوجىء حكام وشعوب روسيا وأوربا الشرقية بسقوط الشيوعية حدثت هرولة فى اتجاه حرية واقتصاديات السوق. ولم يترو أولو الأمر. فهرولوا مع الفئات المهرولة. هدموا القديم ولم يبنوا الجديد فضاعت القيم. لم يضعوا أولويات فانتشر البؤس، ولم ينسقوا بين قواعد تحكم صراعات المهرولين فارتفعت معدلات الجريمة. هرولوا ولم يصلوا إلى ما هرولوا من أجله. لم يصلوا إلى اقتصاد السوق ولا إلى مستوى بيئة أفضل، ولا إلى استقرار سياسى واجتماعى، ولا إلى تجديد مكانة روسيا. ولكن كانت وراءهم آلة الإعلام الأمريكية الجبارة، والآلة السياسية الاقتصادية الألمانية البالغة

التأثير، كل منهما تحثهم على تسريع الهرولة، فالهدف فى انتظارهم أقرب مما يتصورون.

وكلما لاحظت ازدياد معدل تدهور أمور روسيا ودول أخرى كثيرة من الدول المهرولة تذكرت الكاتب المعروف جيمس جولد سميث الذى يقول فى أحدث كتاب له صادر تحت عنوان (المصيدة)، «لقد أقنعنا أنفسنا (يقصد الأمريكيين) أنه لايوجد فى هذا العالم سوى نموذج اقتصادى واجتماعى واحد، وهو النموذج (الأمريكى). وخلال محاولتنا فرضه على العالم، صدرنا لكل ركن من أركان العالم أمراضنا وهى : الجريمة، المخدرات، الكحوليات، وانفراط الأسرة وأحياء الفقر المحيطة بالمدن وسوء استغلال البيئة». ثم يقول فى مكان آخر من كتابه، «لقد أصبحت حرية التجارة العالمية مبدأ مقدسا من مبادىء النظرية الاقتصادية الحديثة. وهو مبدأ كفيل بأن يدمر الطريقة التى كان يتم بواسطتها توزيع فائض القيمة بين رأس المال والعمل. إن الانقسامات الاجتماعية التى تنتج عن هذا المبدأ وما تسبب فيه من تدمير سوف تكون أعمق من أى انقسامات تخيل ماركس أنها قد تقع فى يوم من الأيام».

● هرولة روسيا !

فى هذا الاتجاه تهرول روسيا، وتهرول دول أخرى كثيرة فى عالم الجنوب، ومازال النقاش دائرا. يحتد أحيانا عندما يعود الشيوعيون إلى الحكم فى بولنده. ويهدأ عندما تتناقض السياسة القطرية مع السياسة الكونية. مثال على ذلك حين تضع الولايات المتحدة قيوداً على الصين أو تضع شروطا على اليابان أو تجدد حصارها على دولة أو أخرى وتحرم عليها التجارة الدولية ثم يحتد عندما تشتعل الاضرابات والمظاهرات وتهتز قواعد الانسجام الاجتماعى في فرنسا. أو يحتد بشدة عندما تبدأ فى الظهور نتائج الانتخابات البرلمانية فى روسيا، وخصوصاعندما يعلق أحد الخبراء الأمريكيين عليها فيقول إن الولايات المتحدة لايجوز لها أن تقلق لأن البرلمان الروسى عديم القيمة والفعالية. يريد أن يقول إن الهرولة فى اتجاه اقتصاد السوق ستستمر لأن الرئيس يلتسين وأنصاره باقون ومتمسكون بالهرولة وإن رفضها أغلبية الناخبين الروس. يقول ما معناه إن الديمقراطية غير مهمة إذا وقفت عائقا ضد مبدأ حرية التجارة واقتصاد السوق. ثم إننا نعرف ونراقب بكثير من الإشفاق كيف وصلت الهرولة فى بعض دول الجنوب إلى حد مطالبة ذوى المصالح الخاصة من المهرولين بتطبيق هذا المبدأ على الثقافة. ويستند هؤلاء المهرولون إلى نيسوت جنجريتش رئيس مجلس النواب الأمريكى أثناء دفاعه عن مشروعات الحزب الجمهورى لإصلاح العجز فى الميزانية الأمريكية حين قال إن الثقافة يجب أن

تخضع لقانون العرض والطلب. فإذا كان الطلب على العنف شديداً فإنه يتحين على المنتج السينمائى أو التليفزيونى إنتاج أفلام عنف. يقول المهرولون فى اتجاه حرية السوق والداعون إلى تخلى الدولة عن معظم واجباتها إنه حتى إذا كان الطلب شديدا على كل ما هو ساقط فنيا وأدبيا فى الثقافة، فالدولة عليها أن تحترم قدسية قوى السوق، أى لا تتدخل . يقولون، لا سلطة فوق إرادة مستهلكين وإن كان مطلبهم الساقط ورغبتهم فى السقوط.

وأتصور أن الانتخابات البرلمانية الأخيرة فى مصر كانت فى جانب منها نوعا من الهرولة، لم تكن على كل حال عملا سياسيا عاديا أو سباقا بين مبادىء وبرامج. لم تكن اختيارا شعبيا لسلطة تشريعية أو تفويضا ديمقراطيا للمشاركة فى الحكم. أو على الأقل لم يقل معظم المحللين والمراقبين لعملية الانتخابات أنها كانت شيئاً من هذا. أجمعوا على أنها أعنف انتخابات شهدتها مصر، وأنها دارت بين أشخاص أكثرهم لايمثلون اتجاهات أو سياسات ولايعبرون عن جماعات منظمة للمصالح. كانت ـ ربما ـ تجسيداً أو شكلاً من أشكال الهرولة فى اتجاه هيمنة مبدأ الفردية المادية المتوحشة. كإحدى أهم القيم المتضمنة فى حملة الترويج لمنظومة القيم الكونية الجديدة.

وبمتابعة النقاش الدائر حاليا حول الهرولة وعواقبها يشعر المتابع بتعاطف مع إنسان نهاية هذا القرن. فالتحولات الحادثة فى كل قطاع من قطاعات الحياة هائلة، ومعدلات التغير هائلة، والسرعة فى تبديل سرعات التغيير هائلة، وضخامة عائد أو ناتج التغيير هائلة. ولكن الإنسان هو الإنسان، بمعنى أن الإنسان كان دائما متدرج التطور. هو صانع التغير أو التحول فى كل العصور، ولكنه الصانع المتيقظ دائما لأن يكون التغير أو التحول متناسبا مع قدرته ـ كإنسان ـ على استيعاب هذا التغير أو التحول. وكان الصانع الحريص دائما على أن يصنع التغيير ولكن يصنع معه فى نفس الوقت آليات التحكم والتقييد بحيث لا يفلت منه التغيير أو يتجاوز حدوده أو يستقل عن إرادة الصانع. ولكنى أتصور هذا الصانع العظيم للتقدم والتطور يدخل القرن الحادى والعشرين فاقدا الآليات اللازمة للتحكم فى تداعيات ما صنع من تحولات وتغييرات . لقد صنع ماردا وانطلق المارد مستقلا عن إرادة الإنسان يصنع من تلقاء نفسه مردة آخرين، وانطلق هؤلاء المردة يصنعون تحولات هنا وتغيرات هناك، حتى طالت الخيوط وتشابكت ولم يعد الإنسان ـ وربما للمرة الأولى منذ قرون ـ ممسكاً بخط التطور والتقدم ولا بأى خط آخر. فإذا بهرولة فى كل ركن من أركان

الكوكب، وإذا بالإنســان العــادى يقلق ويتوتر، وإذا بأنسجة إجتماعية وأخلاقية تتمزق، وإذا برجعيات ـ من كل لون ونوع ـ تنتعش وتنتشر، فالشيوعية تنتعش والفاشية تنتشر والعنصرية تزدهر والأصوليات تتعدد وتتقدم الصفوف.

أعتقد أنه لايوجد خلاف كبير داخل النقاش عن أسباب وطبيعة حال الهرولة الدولية السائدة، ولكن معظم الخلاف يتركز حول سرعة المهرولين. فالسباق بين البشر كنوع من المنافسة سلوك طبيعى وضرورى لتطور الإنسانية وتقدمها، ولاخلاف حول هذا الأمر. ولكن ما نراه يختلف عن هذا السلوك الطبيعى، أى يختلف عن المنافسة المعتدلة. فقد تصاعدت درجة المنافسة إلى حد النزاع أو الصراع، وتخللت هذه المنافسة درجات عليا من التوتر بين المتسابقين، ثم أدت المنافسة فى شكل الهرولة إلى خلق مسافات شاسعة بين السابقين واللاحقين، وتسببت هذه المسافات الشاسعة فى خلق توتر اجتماعى أو دولى، وأثارت نزعات عنف أو تصرفات عدمية أو انتحارية ومن ناحية أخرى أدت الهرولة على مستوى الكوكب إلى نهاية صناعات عملاقة قبل أو انها، وتضخم هائل فى البطالة وزلازل فى الهياكل الاقتصادية والمالية. نعيش مرحلة تتضخم فيها كل الفوائض، إ صار العالم يحصل على الأكثر من الأقل، وما بينهما من فائض يتراكم فى شكل مخيف. أنظر إلى ما يسمونه فائض البشر فمن أجله أو من أجل التخلص منه عقدت مؤتمرات للسكان. وعبأت المنظمات الدولية وعشرات الدول إمكانات وموارد هائلة لحض النساء على ألا يضفن إلى فائض البشر. لاحظ الفائض المتزايد بين فئة المديرين والمثقفين، وبين العاملين فى تخصصات متعددة. ثم لاحظ أن الفلاحين، باتوا بأى عدد وبأى دولة، فائضاً، وأن أرقام البطالة بين العمال الصناعيين وخريجى الجامعات قد تجاوزت كل الحدود أى أن طبقة العمال من ذوى الياقات الزرقاء أصبحت فائضاً بشرياً مقلقاً للاستقرار السياسى.

● توعية المهرولين

كل هذا وأكثر منه مما نراه على سطح العلاقات الدولية والعلاقات الاجتماعية الداخلية يحدث بسبب هرولة الدول والجماعات والأفراد، من هنا أتصور أن الواجب يدعونا إلى توعية المهرولين على كل الأصعدة وفى كل المسارات بأهمية تخفيض سرعات التغيير وتخفيف درجة حرارة كوكب محموم، وتهدئة توتر وقلق بلايين البشر، وصنع مواءمة وتناسق وربط ـ لاأقول بين الماضى والمستقبل ولكن على الأقل ـ بين آخر خطوات الحاضر وأول خطوات المستقبل. فنحن لا نرى الآن سوى صدع شديد ـ ويزداد اتساعاً ـ فى كل ما نفعله أو نستعمله أو نستهلكه فى أى لحظة . أكثرنا يعيش فى وقت واحد حياتين، وبينهما تناقض وتنافر شديدان.



بعد ست سنوات على سقوط حائط برلين :

ألمانيا الموحدة بين التاريخ والمستقبل

بقلم : د. محمود مرتضى

■ تتصدر ألمانيا الموحدة، منذ بداية ظهور توحيدها في الأفق في نهاية عام ١٩٨٩ ، وتحقق التوحيد الرسمى للألمانيتين في الثالث من أكتوبر عام ، قائمة الأولويات والانشغالات الأوربية. فألمانيا تشغل فى التاريخ الأوربى مكانة متميزة، قوية أو ضعيفة، مقسمة أو موحدة، وذلك يعود في المقام الأول لاعتبارات جغرافية وتاريخية وثقافية خاصة بالتشكل التاريخى للأمة الألمانية. فألمانيا التي تتوسط أوربا من الناحية الجغرافية، قد واجه تشكلها وتوحدها مشكلات ذات طبيعة خاصة، ارتهنت بالتكوين الاجتماعى لألمانيا. أما على الصعيد الثقافى، فإن مفهوم الشعب «فولك» ومفهوم الأمة، قد صاغهما الرومنطيقيون الألمان استنادا إلى تعريف الفيلسوف «فيختة» الذى يرتكز إلى محورية اللغة فى تشكل الجماعة القومية، وإلى الأهمية الحاسمة للقوى الجماعية للأمة.

ولا شك أن هذه العناصر، تمثل ما يمكن أن نسميه بالاستمرارية التاريخية فى تاريخ ألمانيا، وهى تمثل الخلفية التاريخية العميقة فى الذاكرة الأوربية الجماعية التى تفسر تلك السلسلة الطويلة من الهواجس الأوربية إزاء الوحدة الألمانية. فارتكاز هذه الوحدة على المفهوم القومى المستند إلى اللغة طرح مخاوف مطالبة ألمانيا الموحدة لضم الأقاليم الأوربية التي تقيم فيها الجماعات الجرمانية بالذات فى بولندا وتشيكوسلوفاكيا السابقة، والذين يقدر عددهم بأربعة ملايين ناطقين بالألمانية. فكان لابد لألمانيا المقبلة والمندفعة صوب الوحدة، أن تهدىء من روع جيرانها الأوربيين وأن تمنحهم ضمانات واتفاقيات تحافظ على الأوضاع التى قامت عقب الحرب العالمية الثانية، إذ وازنت ألمانيا بين القبول بهذه الأوضاع التى تمتزج فى حلوق الألمان بالمرارة، وبالتالى الامساك بالفرصة التى بدت تاريخية لتوحيد ألمانيا، وبين التشبث بإعادة النظر فى الأوضاع التى أسفرت عنها الحرب والهزيمة، وما يترتب على ذلك من احتمالات المقامرة بفقد هذه الفرصة المواتية لوحدتها. ومع ذلك ومنذ أن هبت رياح التغيير التى أطاحت بحائط برلين، فإن ثمة قلقا واسعا ينتاب أوربا الغربية والعالم كله، من الدور القادم لألمانيا الموحدة، التى سوف تفرض هيمنتها الاقتصادية خلال فترة قصيرة من الزمن، ليس على أوربا الشرقية وحدها، وإنما على أوربا الغربية أيضا، ذلك لأن ألمانيا بهيكلتها التصنيعية الضخمة وقاعدتها المالية تشكل ثالث أكبر قوة اقتصادية فى العالم منذ السبعينات.

ألمانيا الموحدة

● سياسة ملء الفراغ

فبعد انهيار الاتحاد السوفييتي تعمل ألمانيا بجهد على أن تحل محله فى الجزء الشرقى من أوربا، وكانت خطواتها الأولى فى اتجاه كرواتيا وسلوفينيا، لتبدأ من هناك تحركها السياسى والاقتصادى والمالى فى اتجاه باقى البلدان الشرقية لتملأ الفراغ الذى نتج عن غياب الدور السوفييتى السابق. كما يلاحظ حرص قيادة بون على التمايز بقراراتها وانفرادها بمواقفها عن السياسات الغربية، وهو ما بدا واضحا فى مسألة تفكيك الاتحاد اليوجوسلافى، حيث سارعت إلى جر أوربا والولايات المتحدة إلى الاعتراف بكرواتيا كدولة مستقلة حالما اعلنت زغرب انفصالها، وما كان من تداعيات تلك الخطوة التى قادت إلى الكارثة التى لحقت بالمسلمين فى البوسنة والهرسك.

وتلك الاستراتيجية الألمانية الجديدة التى تحقق لها بالوسائل الاقتصادية ما عجز هتلر عن تحقيقه بالوسائل العسكرية إنما تستدعى من ألمانيا القيام بدور دولى

أكثر فعالية ليحمي ويساند تحركاتها الإقليمية، وهو ما تطلعت إليه ألمانيا وتحركت في اتجاهه بالفعل من خلال العمل على إزالة كل المعوقات القانونية التي فرضتها عليها ظروف تسويات اتفاقية «يالتا» والتحرر من عدم الفاعلية الدولية التي تم فرضها عليها في السابق.

كما أعلنت ألمانيا في هذا السياق وبوضوح عن رغبتها في الحصول على مقعد دائم في مجلس الأمن، وكان من الطبيعي أن تسعى ألمانيا أيضا للمشاركة في العمليات العسكرية التي تقوم بها الأمم المتحدة لتخلق بذلك لدى قواتها المسلحة عقيدة عسكرية جديدة ترتبط بشعارات حفظ السلام وترسيخ الديمقراطية وحماية الأقليات، وتستند من حيث الدافع والهدف على رغبة الألمان في الانتقال من حالة «التابع» إلى حالة «الشريك».

وإذا بحث الأوربيون في ذاكرتهم عمن هم الألمان، فإنهم على يقين أن الألمان يمتلكون مثل الشعوب الأخرى صفات، يمكن قراءتها من ماضيهم وتشير في الوقت ذاته إلى الطريقة التي يتعاملون بها مع المستقبل. وإذا كان الأوربيون يعترفون بأن للألمان فضائل بكل تأكيد، فإن ما يهمهم قبل كل شيء هو التعرف على الجوانب السلبية، التي قد تؤثر على تطور القارة الأوربية من جديد. ومن أبرز هذه الجوانب في الشخصية الألمانية هو ضعف الحساسية في مواجهة مشاكل الآخرين، والخوف والعدوانية، والعجرفة، وحب الذات، والشعور بعقدة النقص، والعاطفية، والعنصرية، هذه الصفات قد تتداخل مع بعضها أو توجد منفردة، ولكن ما يؤثر في السلوك السياسي بصورة خاصة، هو قلق الألمان تجاه المستقبل وميلهم إلى المبالغة التي تجعلهم يتجاوزون الحدود، ومن ثم يخطئون في الوصول إلى الحكم الصحيح. فقد اعتقد الألمان مثلا بأن انتصارهم على الفرنسيين في عام ١٨٧١، كان بسبب تفوقهم الأخلاقي والثقافي العميق، وليس كما هو معروف في الواقع، بسبب تقدمهم الجزئي وقتها في التكنولوجيا العسكرية.

○ ألمانيا بعد الهزيمة

ومع أن الكثير من الأوربيين يعتقدون بأن الألمان قد تغيروا كثيرا في ظل الظروف التي مرت بهم، فإن تاريخهم مازال حاضرا منذ بسمارك وحتى عام ١٩٤٥ ذلك التاريخ الذي أثر على تطور أوربا كلها، ففي زمن الرايخ الألماني. اندفعت ألمانيا كلها بشكل مرضي نحو تأكيد الذات ونحو النظام الاقتصادي المغلق، ونحو الثقافة الشوفينية. فهزيمة عام ١٩١٨، التي اعتبرها الألمان غير عادلة، لم تترك تأثيرا عليهم، وظل الموقف الألماني على ما هو عليه، وواصل الألمان إيمانهم بالرسالة التاريخية الخالدة لألمانيا. ولكن الأمر كان مختلفا في عام

١٩٤٥ ، فبعد الهزيمة التى ألحقت بألمانيا تغيرت أساليب التربية وتغير منهج كتابة التاريخ، ولم يعد الجيل الجديد يشعر بالمسئولية تجاه الأخطار التى ارتكبتها الأجيال السابقة، وبصورة ما ضعف الشعور بالخطر الألمانى.

وفى الحقيقة، فإن المخاوف المطروحة حاليا من الوحدة الألمانية لا تمتد إلى الفترة النازية وحدها، وإنما إلى الفترة كلها بعد بسمارك، مثيرة عدم الثقة. ويقول المتشككون إن الطريقة التى يسلكها الألمان فى السيطرة على المجموعة الأوربية، لا تدع مجالا للشك فى أن الألمان لم يتغيروا كثيرا.

وحول العلاقة بين تحقق الوحدة الألمانية وبين الشكوك الأوربية فيما يحتمل أن يقود إليه انفجار التطرف القومى الألمانى من تداعيات خطيرة على مجمل الوضعين القارى والدولى، يمكن القول إنه ومنذ أن طرح توحيد ألمانيا على جدولى الأعمال الأوربى والعالمى، حتى بدا وكأن القارة الأوربية تعيش ذاكرتها التاريخية أكثر من الواقع المعاش، كما استعادت الذاكرة الأوربية شبح ألمانيا القوية الطموحة الباحثة عن «مجال حيوى»، وبدت الوقائع المرئية العيانية هزيلة التأثير مقارنة بما تحتفظ به الذاكرة.

ولعل ما ساعد على تنشيط الذاكرة الأوربية وانعاش ما تنطوى عليه من شكوك ومخاوف، تلك الحقائق ذات الأهمية الفائقة التى رافقت عملية استعادة الوحدة الألمانية، واهمها ما يتمثل فى التزاوج الواضح بين السلعة والاستهلاك والفردية

ألمانيا الموحدة

وبين الهوية القومية والجموح القومى بل وربما كانت القومية الألمانية هى السياق والقناع الذى تخفت فيه السلعة والاستهلاك والفردية، فالتطلع إلى مستوى الحياة والاستهلاك الألمانى الغربى من جانب الألمان الشرقيين، لم يكن ليتم دون تفجير المشاعر القومية. ذلك أن الحسابات الرأسمالية كان من شأنها أن تحول دون تحقيق هذا المشروع باهظ التكاليف وبهذه السرعة المجنونة، بغير بعث الأسطورة القومية. وما كان لخوف الألمان الغربيين على مستوى معيشتهم واستقرارهم وحرصهم على الحيلولة دون تزايد البطالة، أن يتلاشى أو يتهامش، لولا اندراج هذه العناصر فى إطار شحنة قومية عالية تبرز ذلك وتسوغه. والحقائق هنا واضحة، فألمانيا الغربية هى التى مولت الحملة الانتخابية التى تمت فى ألمانيا الشرقية قبل شهور من الدوى العظيم، وتحملت تكلفة الوحدة الألمانية اقتصاديا، والتى بلغت فى أكثر التقديرات تواضعا مئات إن لم تكن آلاف البلايين من الدولارات لتقريب مستويات المعيشة وفرص العمل وتحمل الأعباء النقدية نتيجة توحيد العملة.

وهكذا تبين ابعاد عملية المقايضة والتبادل بين الألمانيتين. فألمانيا الغربية، بسبب تفوقها المادى قامت بدفع ثمن الوحدة اقتصاديا، بينما قامت ألمانيا الشرقية بدفع ثمن الوحدة سياسيا، وفى الحالتين امتزج الاقتصادى بالسياسى، والتاريخى البعيد بالتاريخى الآنى بشكل فاق توقعات جميع المراقبين .

● النازية الجديدة

وإذا كانت الوحدة الألمانية التى تعكس جميع الأشكال والمظاهر والممارسات ماتقوم به من عملية تعميق للوعى القومى والهوية القومية والتى تعتبر أعمال العنف العنصرية وتنامى قوى النازية الجديدة فى كل أنحاء ألمانيا الموحدة ، أبرز هذه الأشكال والمظاهر والممارسات التى غدت احداثا يومية فى الحياة الاجتماعية الألمانية ، فإن هذه الوحدة الألمانية تنطوىَ فى ذات الوقت على دلالات مهمة ينبغى تأملها . أول هذه الدلالات، أن حقائق التاريخ تسفر من حقائق السياسة ، فالأولى راسخة ، بينما الثانية تبدو وكأنها عارضة رغم تداخلهما ، فتاريخ ألمانيا هو فى الحقيقة ليس سوى تاريخ أمة تبحث عن دولة . فالتقسيم القسرى الذى أعقب الحرب رغم استمراره أربعين عاما ، والذى كرس إرادة القوى المنتصرة فى الحرب ، لم يمكنه أن يؤثر فى حقائق الجغرافيا والتاريخ والثقافة ، أو بكلمات أخرى كان من المستحيل عليه أن ينال من النسيج القومى الذى تشكل فى معمل التاريخ . أما ثانى هذه الدلالات فهى أن القوة الاقتصادية التكنولوجية فى نهاية القرن العشرين تقوم بذات الدور التوحيدى الذى تكفلت به الجيوش والمعارك فى القرن التاسع عشر ، لإنجاز الوحدة وتحقيق الذات القومية .

ولكن ..و بعد مضى خمس سنوات على الوحدة الألمانية يبدو من التحليل الموضوعى للوقائع أن المحاذير والمخاوف من انطلاق العملاق الألمانى من القمقم ، يلزمها على الأقل جيل أو أكثر لتصبح حقيقة ملموسة . فالواقع أثبت أن تحطيم حائط برلين الذى أقيم قبل خمسة عقود وكنتيجة للحرب الكونية الثانية ، ليس بكاف فى حد ذاته لتجاوز معوقات الاندماج بين شطرى ألمانيا . إذ يسود اعتقاد يكاد يكون عاما لدى السياسيين بضرورة العمل على سرعة اتخاذ خطوات مهمة وفعالة لتقليص الفجوة النفسية بين الجانبين الشرقى والغربى من ألمانيا ، وبأهمية المراجعة الجذرية للرؤية المسطحة التى اعتمدت فى عملية الدمج .

ولاريب أن مشكلة الوحدة الداخلية بين شطرى ألمانيا وأسس معالجتها ستكون المقياس لمدى فاعلية ألمانيا على

التكيف فى مرحلة مابعد الحرب الباردة إذ يرى بعض علماء الاجتماع أن النجاح فى معالجة هذه المشكلة مبكرا سيكون القاعدة الراسخة لنجاح ألمانيا فى مواجهة التحديات فى القرن المقبل الذى يصوره القادة الألمان على أنه «قرن العظمة الألمانية» فى التاريخ الحديث .

ويرى المحللون أن قدرة ألمانيا على التكيف وفهم ضرورة التغيير مبكرا فى المسار الاقتصادى هى مسألة ضرورية جدا لتحقيق النجاح المطلوب فى محاولة إنجاز الوحدة الأوربية وإنشاء فيدرالية واسعة لدول القارة يتم بموجبها احتواء دول الكتلة الشيوعية السابقة فى البناء الأمنى والاقتصادى للقارة الأوربية على اتساعها. ولاشك أن تحقيق تعاون أوثق ضمن الاتحاد الأوربى سيكون صعبا تحت أية ظروف من دون ذلك التغيير الاقتصادى الداخلى فى ألمانيا ، لاسيما فى ضوء مايرصده المراقبون الاقتصاديون من تراجع فى أداء الاقتصاد الألمانى خلال العقدين الأخيرين قياسا بخطوات النمو السابقة . إلى جانب تكلفة الوحدة الألمانية الباهظة ووطأة تداعياتها الفادحة على أداء الاقتصاد الألمانى .

ولكن إذا كان من المؤكد أنه ما من أحد يشعر بالقلق تجاه القيادة الألمانية الحالية ، فإن التساؤل يظل معلقاً حول الكيفية التى ستكون عليها الأمور خلال عشرة أو خمسة عشر أو عشرين عاماً، وحول الإمكانية العملية الواردة فى عودة مظاهر معينة من الماضى إلى الحياة ؟ إذ يشير الكثير من المراقبين إلى أن الزمن القريب سوف يولد الميل إلى طرح مفهوم «إحياء أوربا الوسطى» من جديد ، بحيث تقوم ألمانيا بدور الوسيط الذى يعمل على تحقيق التفاعل بين شرق وغرب هذه القارة العجوز ، بل ان هليموت كول يتحدث الآن بالفعل عن شركائه فى الشرق والغرب

ألمانيا الموحدة

من ثم تظل الحقيقة الثابتة فى مواجهة كل المتغيرات أن الوحدة الألمانية التى تحققت فى الثالث من أكتوبر عام ١٩٩٠ قد أدخلت أوربا كلها فى مرحلة جديدة من تطورها، سوف تتسم بدور ألمانى بارز ، ليس فى أوربا وحدها وإنما فى العالم كله ، وهو دور سوف يؤثر بالتأكيد على مسار السياسة الدولية فى عالمنا المعاصر ، كما سوف يسهم فى صياغة مستقبل جديد لهذا العالم .

شرق
وغرب

لى كوان يو

والنموذج الآسيوى

بقلم: مصطفى نبيل



☐ يظل لى كوان يو رمزا مهما على مايؤديه الفكر والثقافة، فيما تحقق من إنجاز في سنغافورة، وهو أحد تجليات الفكر ومن إبداعات الثقافة.

فها هو ذا العمل الكبير يتحقق فى جزيرة صغيرة، يقطنها سكان شديدو البأس، في بلد لاتزيد علي أن تكون «الدولة المدينة» أو «الدولة الجزيرة»،

لايتجاوز عـــدد سكانـها المـليونين ونصف، ولاتملك مثل قطر أو الكويت ثروة نفطية كبيرة، ومع ذلك نافست دولا كبري، وبلادا ذات موارد واسعة..

وتمثل التجربة ورائدها، نموذجا واضحا ورمزا حيا، علي كيفية الوصول إلى الحداثـــــة، وإنجـــاز تطـور تكنولوجـــي ضخـــــم، مع المحافظة على الثقافة المحلية والهوية الوطنية، فلم يأخذ «يو» الغرب كحزمة واحدة، يأخذ حضارته كلها أو يتركها كلها، وإنما يأخذ ما يناسبه، ويوظف الثقافة والهوية من أجل مزيد من التقدم والنمو، ومن أجل التميز والتفرد. فإذا كان يأخذ بقواعد السوق وبالنظام الليبرالي، فإن منابع تجربته تمتد إلى القيم الكونفوشيوسـية وإلى النموذج الآسيوي.

ويؤكد «يو» أن هذه القيم هي سبب ماتحقق من إنجاز اقتصادي، بعد أن أعاد تشكيل المجتمع طبقا لرؤيته..

وقصة سنغافورة فى حقيقتها هى حكاية لى كوان يو... الزعيم صاحب الرؤية الخاصة والإنجاز الكبير الذى حققته سنغافورة. والذى حول البلاد من بلد زراعى يعتمد على المطاط والغابات إلى بلد صناعى، ثم انتقل بها إلى آفاق بعيدة، ونقلها من الفقر إلى الغنى خلال جيل واحد، من سنة ١٩٦٥ حتى سنة ١٩٩٠، وتضاعف الدخل مايزيد على خمس مرات، وسجل إجمالى الناتج القومى نموا وصل إلى ١٤٪ فى السبعينات، و٧٪ فى التسعينات، وارتفع مستوى معيشة شعب سنغافورة، والذى يقترب متوسط دخل الفرد فيه إلى ٢٠ ألف دولار، وهو دخل لايفوقه سوى مستوى معيشة اليابان فى آسيا، كما يزيد نصيب الفرد فى الإنتاج القومى فى سنغافورة عن نصيب الفرد فى بريطانيا، دولة الاستعمار القديم!

واستطاع لى كوان يو أن يقود التجربة الاقتصادية بنجاح كبير، وهو يمسك بالدفة منذ الكفاح من أجل الاستقلال الذى حققه عام ١٩٥٩ وحتى اليوم.

وسنغافورة خلية نحل، الكل فيها يعمل، ابتداء من الحرف اليدوية إلى تصنيع أجزاء الكمبيوتر، وتسيطر على أحد أهم الموانىء العالمية الذى يصل بحر الصين بالمحيط الهندى، وتملك ثالث أكبر معمل تكرير للنفط، وأهم مركز مالى وصناعى، وتعتبر مطارات سنغافورة أفضل مطارات وبها أفضل سوق حرة فى

العالم، والجزيرة تمثل بستانا كبيرا تختلط فيه المبانى بالزهور. والجسور بالأشجار الخضراء، ويعجب الجميع بمدى نظافة البلدة.

وبعد أن تحقق هذا الإنجاز الكبير تخلى «يو» عن كل مناصبه، واكتفى بمركز شرفى، ويؤكد الجميع أنه مازال يمسك بكل الخيوط بين أنامله، وهو على مايبدو أحد سمات الزعامة فى آسيا.

وأظن أن هناك جانبا يعنينا فى تجربة لى كوان يو، وهو استخدام التراث والهوية كأدوات من أجل تحقيق التقدم، وليست عقبات أو صعوبات فى طريقه.. وعندما نستعرض أفكاره تظهر أمامنا رؤية متميزة، تمس فى كثير من جوانبها الجدل العام القائم اليوم فى مصر والبلاد العربية.

دور الزعامة!

ولى كوان يو هو أحد بقايا قيادات التحرر الوطنى فى الخمسينات والستينات، ولد سنة ١٩٢٣، وكانت تربطه علاقة وطيدة مع عبدالناصر، وهو مثل نهرو خريج جامعة كمبردج، وهو صديق قديم للأمير سيهانوك، وبدأ حياته السياسية كمناضل ضد الاستعمار البريطانى، وعرف عنه من يومها أنه سياسى حاذق، ونافذ البصيرة، ومخطط أريب، زلق اللسان، ولاحق الفساد حتى قطع دابره من البلاد.

يقول عنه هنرى كيسنجر: «إنه أحد الزعماء الذين تفوق قدراتهم إمكانات بلادهم فهو لايقل كفاءة إذا ظهر فى زمن آخر ومكان آخر.. عن تشرشل أو ديزرائيلى أو جلادستون..»

وهو من دعاة الحرية منذ منتصف الخمسينات، فهو القائل: «إذا كنت تؤمن بالديمقراطية، فعليك أن تؤمن بها كاملة وبلا شروط، فالإنسان خلق حرا، له حق تشكيل التجمعات بحرية، وله حق التمتع بحرية التعبير، فالحرية لاتتجزأ..».

ويعود ويقول فى عام ١٩٨٧.. «إننى أتهم عادة بالتدخل فى حياة المواطنين الخاصة، حسنا.. إذا لم أفعل لما حققنا هذا الانجاز الاقتصادى، فإذا لم نتدخل لمنع الضوضاء، فماذا يمكن أن يحدث لجارك، أو ماذا يحدث لو لم يمنع إلقاء الفضلات فى الطريق، فلن تتجنب البلاد التلوث، ولن تصبح مدينتنا نظيفة، فنحن نسعى إلى ما هو صحيح وصالح..»

ويرفع شعار «الدولة قبل المجتمع، والمجتمع قبل الفرد....»، كما يدعو إلى الأخذ «بالإجماع بدلا من الجدل والفرقة».

ووضع نصب عينيه هدفا، أن يصبح شعبه له هوية مميزة يعتز بها، والذى يتكون من ٧٧٪ من السكان صينيين و١٥٪

ملاويين و٦٪ هنود، وبذل جهده ليجمعهم على لغة واحدة، ففرض اللغة الماندية على الجميع، وجعل لغة التعليم هى اللغة الانجليزية، ويعبر عن هذه القضية بقوله: «إننى صينى بالقدر نفسه الذى يكون فيه الرئيس كيندى ايرلندى».. تأكيدا للهوية الواحدة، لبلد صغير يقع وسط عمالقة، بين الصين واليابان وأندونيسيا..

الغرب والشرق

ويأخذ عليه الغرب، أنه فرض الانضباط الاجتماعى عن طريق حكومة أبوية صارمة، وهو ليس ليبراليا بالقدر الكافى، وأنه رغم سيادة قوانين السوق فإنه لا يراعيها كما ينبغى، فالحكومة تسيطر – سواء ملكت أو لم تملك – على الحياة الاقتصادية، وبها قطاع حكومى كبير، وتملك بالكامل أو بنسبة كبيرة عددا من المؤسسات، وهى التى تقوم بضبط حركة السوق وتنظيم إيقاعه، ولايعنى ذلك وجود مركزية الاقتصاد، وتعفى الحكومة الشركات متعددة الجنسية من الضرائب والرسوم، وأصبحت الجزيرة مركزا للوكالات ومكانا لتوزيع التجارة العالمية، تنشط فيه الخدمات المالية والمصرفية، والمكان المفضل لشركات تجميع الكمبيوتر وغيره من الأجهزة الالكترونية، وظهر أن أهم عناصر الجذب هو مايتمتع به عمال سنغافورة من كفاءة وتفان فى العمل، ويكاد يختفى بها الفساد والمضاربة، والكثير من الأمراض الأخرى التى تعانى منها المراكز المالية الأخرى.

فمثلا المنشأة فى أمريكا هى مجموعة أسهم قابلة للبيع، أما المنشأة فى سنغافورة فهى أكبر من ذلك، فهى أحد ركائز المجتمع، وتقوم علاقة حميمة بينها وبين العاملين فيها.

ودأبت الصحافة الغربية على الهجوم على سنغافورة، بسبب الضوابط الموضوعة على حرية النشر والتعبير، رغم كل ما يقال عن الحرية وحقوق الإنسان، فمثلا لايسمح لمواطنى سنغافورة تركيب «الدش» أو استخدام «الكابل» لاستقبال المحطات الفضائية، وإذا رفض كتاب من السلطات، يوجد مكدسا عند المكتبات ولايقبل على شرائه أحد، فالمصلحة الجماعية تتغلب على المصلحة الفردية.

كما يؤخذ عليها أيضا هيمنة الزعيم «لى كوان يو» وحزبه، حزب العمل الشعبى، على البلاد منذ عام ١٩٥٩، وأن التعدد والحرية لم يصبحا بعد جزءا أصيلا من التجربة، ويتجاهلون أن «لى كوان يو» ليس له أى منصب رسمى، وأن سنغافورة نجحت بالفعل فى خلق توازن اجتماعى خاص بها، فيشارك المواطنون بإيجابية فى الحياة العامة، وتظل معدلات الإقبال على التصويت مرتفعة نسبيا، وهو

مجتمع أقرب إلى المساواة، فالتدرج فى الدخول أقوى مما هو عليه فى الغرب.

الآخر.. هو الشيطان!

ويبدو أن العقل الغربى لايتصور أن هناك طريقا غير طريقه، ولا أساليب سوى أساليبه، ولم تستطع الحضارة الغربية الانفتاح على غيرها من الحضارات، طوال تاريخها، وأظهرت دائما استعدادها للاستغناء على ماعند الآخر، وكان الغير عند الرومان هم البرابرة، وعند الفرنجة هم الشياطين، ولم يستطع العقل الأوربى فى القرنين التاسع عشر والعشرين أن يسبغ على سكان المستعمرات سوى وصف«الأهالى»!

وينظر الفكر الغربى إلى الفرد على أنه الأصل ، ولكن «النموذج الآسيوى» ينظر للفرد على أنه لم يوجد وحده، ويرى الفرد داخل الجماعة، وفى الغرب تقوم العلاقة بين القوى الاجتماعية على أساس حتمية الصراع، ولكنها فى سنغافورة والشرق بأسره تقوم على احتمال الوفاق، وإمكانية التوفيق بين الفرد والمجتمع قائمة، والتوفيق بين حرية الفرد وحرية الجماعة قائمة..

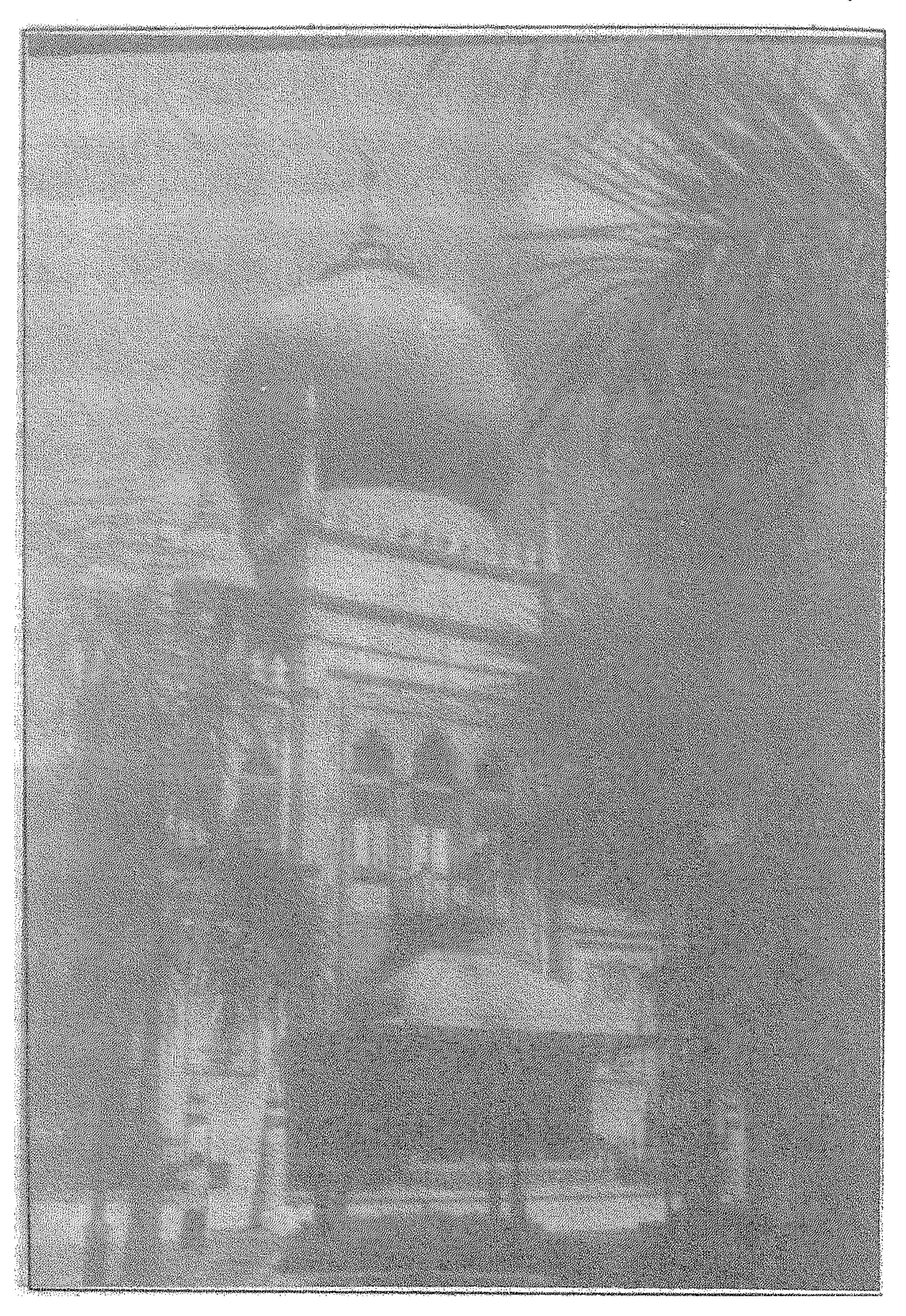
وقامت ضجة كبيرة فى الإعلام الغربى، عندما قامت سلطات سنغافورة بتوقيع العقوبة على صبى أمريكى قام بتشويه إحدى السيارات، ورفضت هذه السلطات التمييز في تطبيق القانون.

الثقافة والمصير

ولنلقى نظرة على آراء «لى كوان يو»، فأفكاره من ذلك النوع الذى يحرك العقل ويدعو للتأمل، وقد تحول إلى نجم فى الصحف والتليفزيون الأمريكى، يدلى بالأحاديث موجها النقد اللاذع لطريقة الحياة الأمريكية مع مقارنتها بالنموذج الآسيوى، ويحذر مما يراه خطرا على الشعب الأمريكى والعالم.

يقول فى حديث مع مجلة فورين أفيرز «مجلد ٧٣ عدد ٢».. «إن مايرفضه فى أمريكا هو العنف والجريمة والمخدرات، وانتشارها أحد نتائج المبالغة فى الحقوق الفردية، فالهدف الرئيسى فى الشرق هو إقامة مجتمع منظم يستطيع كل فرد ممارسة حريته، ولايمكن أن يمارس حريته إلا فى مجتمع يحكمه النظام والقانون، وضرب مثلا يبين الفرق بين الطريقة الأمريكية والطريقة الشرقية، فى معالجة بعض المشكلات، تواجه العالم مشكلة انتشار المخدرات، تواجه أمريكا هذه المشكلة بمساعدة الجهات فى البلاد المختلفة التى تكافح المخدرات، وتسعى إلى تجفيف المنابع ومنع زراعة المخدرات، ووصل بها الأمر إلى القبض على نوريبجا رئيس جمهورية بنما وتقديمه للمحاكمة فى

سجد السلطان بسنغافوره



فلوريدا.

أما مقاومة انتشار المخدرات فى سنغافورة، فليس لدينا هذا الاختيار الأمريكى، وكل مانستطيع أن نعمله هو أن نسمح لرجال الأمن عندنا، بالتحليل للمشتبه فى أنهم تحت تأثير المخدر، وإذا ثبت تعاطى أحدهم المخدرات، يدخل فورا مصحة للعلاج، ويعتبر مانقوم به عند الأمريكان مساس بالحرية الفردية واعتداء على حقوق الإنسان، ولايتفق مع القوالب المعروفة. أما القبض على رئيس دولة أجنبية ومحاكمته فهو لديهم أمر مألوف!!

ولم يظهر دليل واحد على أن الطريقة الأمريكية ستحل مشكلة المخدرات، وربما لايحل أيضا أسلوب سنغافورة المشكلة، ولكن على الأقل لقد بذلنا كل مانستطيع من أجل حلها.

ومن ناحية أخرى، لم يشغل الغرب طرق الحفاظ على القيم الرئيسية فى المجتمع، وأقام الغرب نظمه على أنه يمكن حل المشكلات بواسطة حكومة رشيدة، أما نحن فى الشرق فلا نعتقد أن ذلك كاف، ومسئولية الحفاظ على تلك القيم تقع على المجتمع.

والفارق الجوهرى بين المجتمعات الغربية والآسيوية يمكن تلخيصه فى رؤية كل منهما للمجتمع، فبينما رؤية الشرق أن الفرد جزء من الأسرة، والأسرة جزء من العائلة، والمجتمع هو مجموع هذه العائلات، ولاتملك الحكومة أن تقدم للفرد أفضل مما تستطيع أن تقدمه له العائلة، فتأتى الحكومة وتذهب، وتبقى القيم الراسخة فى وجدان الناس، أما لدى الغرب فالمسألة مقلوبة، تدعى الحكومة أنها سوف تحل كل المشكلات إذا حصلت على تفويض بذلك، وتذهب الإدارة وتأتى غيرها والمشكلات بلا حل.

ولابد أن يفرض النظام أولا فى أمريكا، ويختفى كل من العنف والجريمة والمخدرات، وهى الآفات التى تهدد المجتمع، فمثلا عندما يظهر العنف فى المدارس سيتراجع ويختفى بالضرورة التعليم، وتحتاج أمريكا ، لكى تحافظ على مستواها ، إلى التعليم وتدريب الأجيال المقبلة، ولكى يقوموا بذلك عليهم التوقف عن التمسك بالوصفة السحرية التى تقول.. إن كل المنجزات تتم وتأتى من أعلى.

وتستخدم العائلة فى سنغافورة كقوة محركة للحياة الاقتصادية، ونوظف طموح الفرد نحو عائلته من أجل تحقيق الخطة الاقتصادية، ودورنا يقوم على خلق قاعدة مدربة قادرة عن طريق نظام التعليم والتدريب، ويتحرك الدولاب الاقتصادى ويستطيع الشعب تحقيق أهدافه، وفى النهاية الشعب هو الذى يحقق الإنجاز أو الإخفاق، وتأتى الموروثات فتساعد الثقافة والمعتقدات الآسيوية على إعلاء قيمة العمل والولاء للأسرة والعمل على إسعادها،

ونظام القيم الكونفوشيوسى والنموذج الآسيوى يساعدنا، وهو مايختلف عن ثقافة التجربة والخطأ، ويلاحظ اشتراك دول شرق آسيا فى تقاليد النظام الصارم، واحترام المعلم، وهذا ساهم فى وضع الأساس الراسخ للوصول إلى تكنولوجيا جديدة متقدمة، وعلى تحقيق إنتاجية أفضل.

البنك الدولى والثقافة الأمريكية

ويرى «لى كوان يو» أن المؤسسات الدولية صبغت بالثقافة الأمريكية، والبنك الدولى يقوم بمهمة صعبة وغير منطقية، عندما يتجاهل العوامل الثقافية والحضارية فى الدول التى يتعامل معها، وهى التى تلعب دورا مهما فى المسألة الاقتصادية، كما أن نتائج عمل البنك الدولى فى حقيقتها هى جزء من المصالح الأمريكية . ويتعامل البنك الدولى على أساس أن كل البشر متساوون وهذا ليس صحيحا، وأن الشعوب فى الدول المختلفة هى نفس الشعوب ، وهذا أيضا غير صحيح، ومايقوم على خطأ يؤدى إلى نتائج غير صحيحة.

ولعل اليابان تقدم مجتمعا صناعيا يقوم على النموذج الآسيوى، فقد حافظت على العلاقات الإنسانية بين الأفراد، واستوعبت وطورت ، بلا حدود ، العلم والتكنولوجيا، ورغم مايحدثه العلم والتكنولوجيا من متغيرات، فى العقول وفى منظومة القيم مما سيغير نظام الحكومة بالقطع، ولكنه لن يأخذ مسار أمريكا أو بريطانيا أو فرنسا أو ألمانيا، نعم تحولت سنغافورة من مجتمع زراعى إلى مجتمع صناعى، وزادت فى الوقت نفسه المعابد والكنائس.

وبقى أن أقول: إن سنغافورة ، تلك المدينة ذات تكنولوجيا وتجارة وأعمال متقدمة ، هى جزء من الظاهرة الآسيوية التى تتمثل فى كوريا وتايوان وهونج كونج، وهذه الدول جميعا تحيط بالصين وتقع فى حوض المحيط الهادى، وبينها جميعا قسمات مشتركة، استثمرت فيها اليابان جزءا كبيرا من الفائض الرأسمالى لديها، وتشجيعها فكرة «الطريق الآسيوى الخاص».

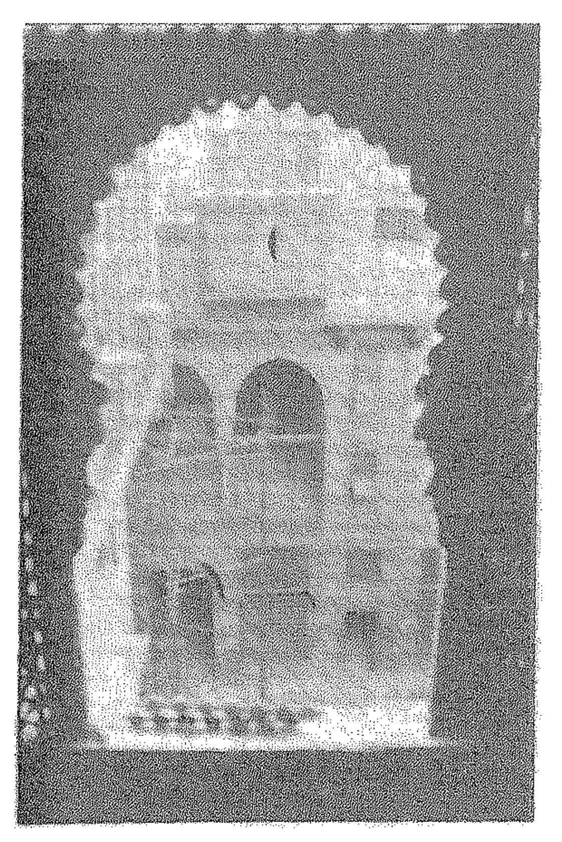
وتظل سنغافورة هى أقربهم إلى الولايات المتحدة وأهم شركائها التجاريين، ولها منفذ مستقبل إليها.

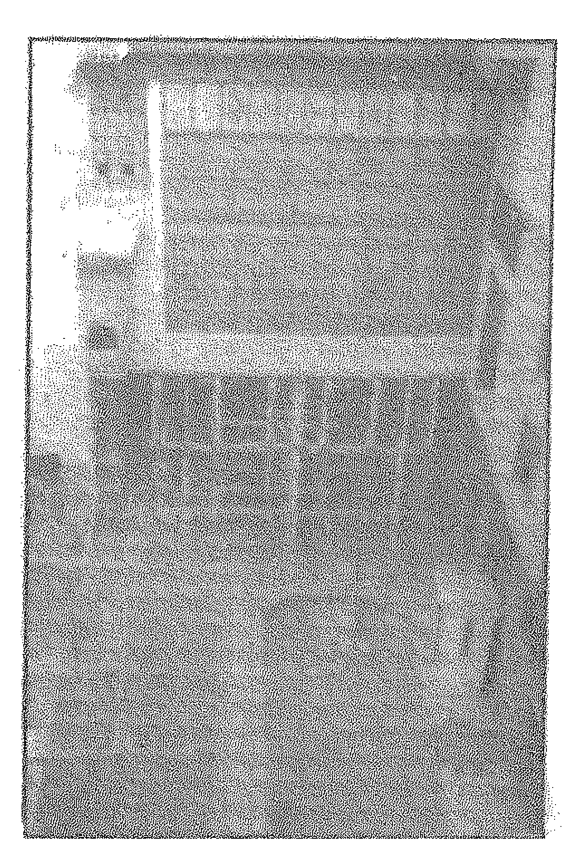
أى أن سنغافورة رمز لرفع مستوى المعيشة وزيادة الإنتاج، ولى كوان يو رمز الأفكار والمبادىء القائمة وراء هذه النهضة، والتى تدور حول مسائل عديدة هى : من يستطيع أن ينتج أفضل؟.. ومن يستطيع أن يرفع مستويات المعيشة بمعدل أكبر؟... ومن يملك أفضل قوة عمل مدربة ومتعلمة؟..

وأخيرا... من ينظم بشكل أفضل؟.. .

ومن تساعده ثقافته على تحقيق هذه المبادىء فسيدخل بالفعل القرن الحادى والعشرين.







إنقاذ بيت السحيمي

يبدأ ترميم مجمع الفنون الإسلامية على أحدث الأسس العلمية

بقلم : أحمد أبو كف

بيت السحيمي تخطيط ونموذج متكامل العناصر للمنزل الإسلامي، بفنائه المكشوف ومدخله المنكسر، فيه خصوصية تتمثل في غابة من المشربيات التي تري الداخل ولايراها هو.

مجمع فنون إسلامية بمشربياته المتميزة، وقاعاته بالفساقى المرخمة والمزخرفة . فيه أيضا ملقف الهواء، نظام التكييف فى العصر الإسلامي، لإدخال وتجديد الهواء.

يحتوي علي شخشيخات، تنير الظلام، وتنظم التهوية أيضا تنظيما محكما، كما استخدم فيه بكثرة الشبابيك الجصية المعشقة بالزجاج الملون، والتى تكون زخارف نباتية وهندسية تبهج الأنظار.

خشب الخرط فيه غريب بوحداته الزخرفية، وأنواع مختلفة من الخشب الفاتح والداكن وعناصر كتابية بالنسخ والرقعة، تكتب بلون داكن، يبرز الإبداع الفنى للتشكيل الإسلامى، بالإضافة إلى دواليب حائطية وخزانات خشبية لحفظ محتويات المنزل. أيضا يتميز بيت السحيمى بوجود أماكن الكنز تحت البلاطة، يخفى فيها صاحب البيت مايريده من مال وأشياء ثمينة فى أكثر من مكان.

كان بالمنزل خزف إسلامى عثمانى نادر تم التحفظ عليه لحين انتهاء الترميم.

وكما يقول د. فهمى عبدالعليم رئيس قطاع الآثار الإسلامية، أن بيت السحيمى نموذج كامل متكامل فيه كل عناصر الفن الإسلامى، ويبدأ الترميم على أحدث الأسس العلمية.

هيئة الآثار تشرف على مشروعه الذى أوشك على الانتهاء ليبدأ الترميم على مراحل، ومسئول الصندوق العربى د. أسعد نديم يستعين بالخبراء المتميزين، وهو رجل مميز فى الحرف اليدوية والفنون الشعبية وأعمال الخشب الخرط والمشربيات، أما الأعمال الأخرى فيستعين فيها بالمتخصصين والمكاتب الاستشارية والخبراء، وهو عاشق للمنزل، وهو الذى كان وراء الصندوق العربى الكويتي لكى يتبرع بـ ٩٠٠ ألف دينار من أجل ترميم المنزل

أكبر وأهم أثر إسلامى

ومنزل السحيمى أكبر وأهم أثر إسلامى متكامل من العصر العثمانى .. وكان مزارا سياحيا، وتوقف بعد أن تدهور حاله،

والبيت له خصوصية أثرية وتاريخية مهمة، بالإضافة إلى أنه يمثل النموذج المتكامل الوحيد المتبقى لبيوت وقصور القرنين السابع عشر والثامن عشر، ويقف شاهدا على تاريخ اجتماعى وثقافى، فهو يقدم مجموعة كبيرة من الحلول العبقرية التى توصل إليها الفنانون والحرفيون الإسلاميون، والتى كانت نتاج خبرات طويلة فى التصميم والممارسة العملية التى توارثتها الأجيال. لا يحتاج البيت إلى عمليات ترميم فحسب، وإنما يحتاج إلي دراسة توثيقية دقيقة لكل عناصر المبنى، بحيث يمكن بعد ذلك الرجوع إلى كل التفاصيل وايجاد وثائق كاملة للمبنى فى وضعه الحالى، مع التوصيات الخاصة بالترميم وخطواته التنفيذية، فمع إحياء البيت من الناحية المعمارية والأثرية، يتم إحياء تقاليد توثيق عمليات الترميم، حتى يمكن الاستفادة منها كتجربة علمية تهدف إلى ترسيخ منهجية الترميم، وقد تم ذلك بالفعل.

ومنهج تنفيذ عملية الترميم كما يقول لى د . أسعد نديم، يأتى بالمحافظة على

العناصر الأثرية وعدم المساس بها أو استبدال أى شيء قديم إلا فى حالة الضرورة، وفى مثل هذه الحالات تستخدم نفس الخامات الأولية أو أقرب مايكون إليها، مع أفضل الحرفيين والفنانين التقليديين، والذين ينفذون كل منهم فى مجال إبداعه وتخصصه.. أى استبعاد «المقاول العمومى» فى مثل هذه الأعمال.

وبيت السحيمى يقع فى حارة الدرب الأصفر بحى الجمالية، وهو لايحمل اسم منشئه الحقيقى، وإنما اسم آخر من سكن البيت. والذى بناه فى العصر العثمانى اثنان، أحدهما بنى جزءه الجنوبى واسمه الشيخ عبدالوهاب الطبلاوى عام ١٦٤٨م، أما القسم الثانى فقد بناه الحاج إسماعيل شلبى، عام ١٧٠٣م، ثم فتح البيتان على بعضهما، وكان آخر من سكنه هو الشيخ محمد أمين السحيمى، شيخ رواق الأتراك بالجامع الأزهر عام ١٧٩٦م.

نموذج عثمانى فريد

والمنزل نموذج للمبانى العثمانية الطراز، التى تتكون فى الغالب من ٣ طوابق على مساحة مستطيلة، مثل بيت الهراوى والست وسيلة، وزينب خاتون، ويتكون البيت من طابق السلاملك الذى يضم غرف استقبال الرجال، والثانى يعرف بالحرملك، ويشتمل على سكن العائلة وقاعات النساء، ويتوسط البيت صحن أو فناء، تطل عليه معظم القاعات والغرف بمشربيات من خشب الخرط بحيث ترى من فى الفناء ولا يرونها.. خاصة أيام الحفلات التى كانت تقام.

ويميز المنازل العثمانية بأنها لم يكن لها شبابيك وفتحات على الحارة، وان تصادف وجودها تكون على ارتفاع كبير بل تكون بحيث ترى من فى الحارة ولايراها هو، وغالبا ماتكون الفتحات بالطوابق العلوية من خلال مشربيات.

يشتمل المنزل العثمانى أيضا على مقعد صيفى يطل على فنائه، وبابين أحدهما رئيسى والآخر فرعى، كما يوجد خلف المنزل عادة حديقة كبيرة وتختبوش، وبأحد أركان الحديقة ساقية للمياه تزودها بما يحتاج إليه أهل البيت من المياه، ثم طاحونة للغلال والحبوب، ثم اسطبل، وغرفة سكن الحارس.

وتتميز الواجهات بأنها ثلاثة، إحداها رئيسية فى الناحية الجنوبية الغربية والأخريان فرعيتان فى الشمال الشرقى والجنوب الشرقى.

وواجهة بيت السحيمى تشرف على حارة الدرب الأصفر، يتوسطها المدخل الرئيسى ومبنية بالحجر الجيرى والآجر ويؤدى المدخل إلى دركاة مربعة فرشت أرضيتها بالبلاط الحجارى، وتتصدرها مصاطب حجرية، غطيت بسقف من عروق

خشبية، ومطبقة بألواح من الخشب.

وفى الواجهتين الشمالية والغربية عدة أبواب تؤدى إلى ملحقات منزل إسماعيل شلبى، وغرفة ضريح الشيخ نصرالدين، ويؤدى باب آخر إلى حجرة صغيرة تستخدم كمخزن، والباب الثالث يؤدى إلى سلم حجرى يفضى إلى الطوابق العلوية، أما الرابع فيؤدى إلى السلاملك ببيت اسماعيل شلبى وإلى ملحقات أخرى بالمنزل، وهناك قاعة لتلاوة القرآن، ومطابخ وحمامات وغرف للخدم ثم قاعة طعام وأخرى للاستقبال، التى تتوسطها فسقية رخامية.

أرضيات المنزل أغلبها رخام، أو بلاط معصرانى، أو بلاط حجارى..

والزخارف متنوعة، منها زخارف نباتية، وزخارف وأطباق نجمية، وحشوات مطعمة بالعاج، وتنتشر الخورنقات المزينة بزخرفة المفروكة والحشوات المجمعة كما تنتشر الأيوانات بالإضافة إلى أحجبة من خشب الخرط، وازارات خشبية عليها كتابات مثل اسم المنشىء وتاريخ الإنشاء.

وأهم مايميز قاعة تلاوة القرآن دكك من خشب الخرط مخصصة للمقرئين.

كما أن المقعد الصيفى به مشربيات جميلة وخشب خرط، وبعضه معشق بالزجاج الملون، وإزار خشبى وجص عليه آية الكرسى.

وأهم ماتزود به المنازل العثمانية الحمامات، وهى مستطيلة الشكل، وينزل إليها بدرجات رخامية وفيها كراسى للراحة، وكل حمام مقسم إلى ٣ حجرات : ساخنة، ودافئة، وباردة، والأخيرتان أرضيتهما من البلاط الرخامى، وسقوفها قباب جصية بها فتحات يغطيها زجاج ملون.

وهناك بالمنزل خزانة كتب تلحق بالحرملك، وهى حجرة صغيرة مستطيلة الشكل وكان الاهتمام بالتواليت أو كما يسمى كرسى راحة، ثم مخازن واسطبلات وحظائر وخزانات تحت البلاطة.

البيت مجمع للزخارف

والمنازل العثمانية، ومنها بيت السحيمى تعتبر مجمعا للزخارف والكتابات التى اتخذت أشكالا مختلفة، وقد استخدم فيها الفنان العناصر الهندسية ممثلة فى زخارف المفروكة، والأطباق النجمية والحشوات المجمعة، والزخرفة الزجزاجية والدالية، كما استخدم الفنان العناصر البنائية ممثلة فى القرنفل، وزهرة اللآلة وأطباق الفاكهة وأشجار السرو، بالإضافة إلى نوعين عرفا فى العصر العثمانى وهما زخرفة الهاتاى، والرومى«الأرابيسك».

وكان للزخارف الكتابية دور بارز فى زخرفة أخشاب وحوائط المنزل وبعض

أسقفه.. مابين آيات قرآنية، ونصوص إنشائية، وأبيات شعرية، وخاصة أبيات من بردة البوصيري، وانحسر استخدام الفنان المسلم في استخدام نوعين من الخطوط، هما النسخ والرقعة، وكانا هما السائدان في العصر العثماني على النحو التالي:

فهناك نص أعلى مصراعي باب قاعة الاستقبال بالضلع الجنوبي للمنزل يقول:

«نصر من الله وفتح قريب، «وبشر المؤمنين يامحمد» و«كتب السعد على أبوابها» و«ادخلوها بسلام.. سنة ١١٤٣هـ.

وهناك نص على إزار المقعد الخشبي أسفل السقف يقول: «بسم الله الرحمن الرحيم، الله لا إله إلا هو الحي القيوم... إلى قوله تعالى وهو العلي العظيم». أنشأ هذا المكان المبارك من فيض الله وأنعامه، العبد الفقير الراجي عفو ربه ومغفرته، الشيخ الفاضل عبدالسلام الطبلاوي في عام ثمان وخمسين وألف».

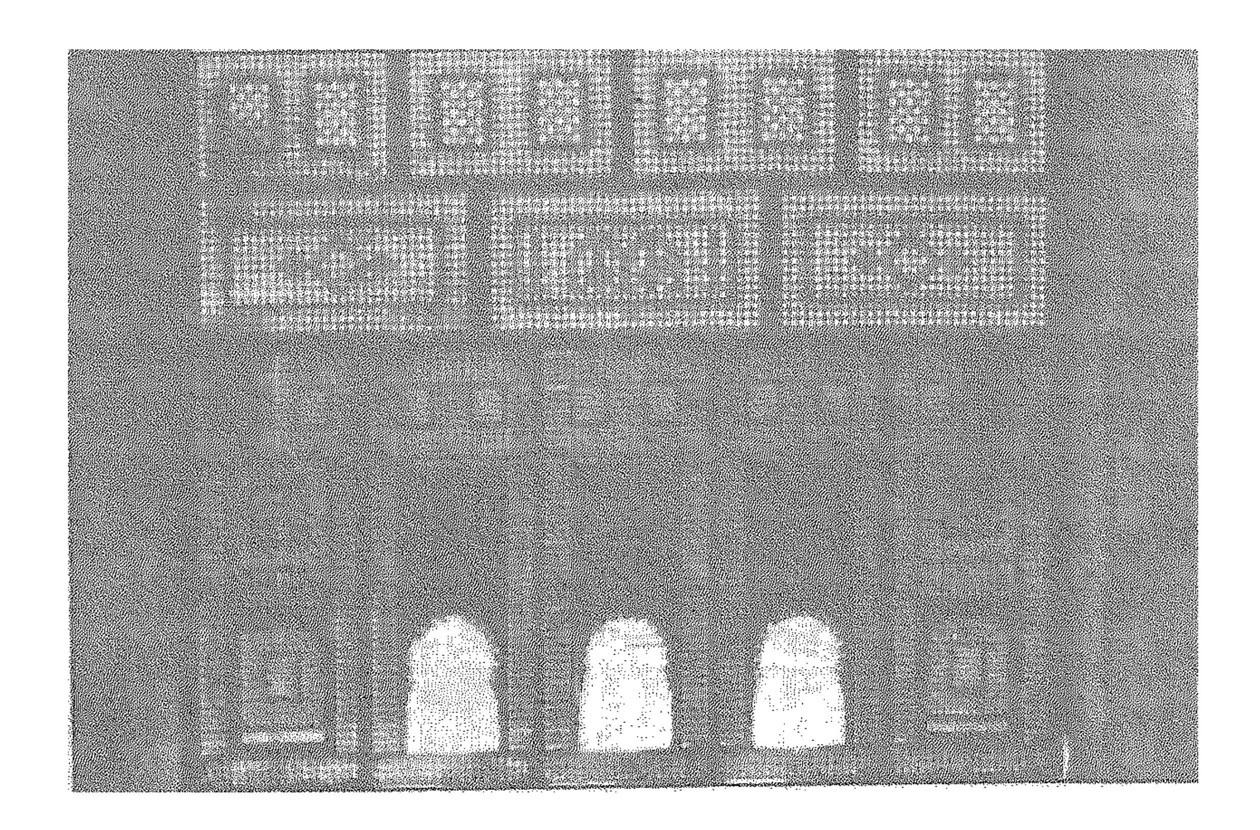
ونص آخر على الأزار الخشبي المحيط بجدران المقعد يحتوي على أبيات من بردة البوصيري، وهي سبع أبيات، ويلاحظ أنها غير مرتبة ومخالفة للقافية.

ونص آخر على الحرملك الخاص بزوجة منشيء بيت الطبلاوي، بالإيوان الشمالي الغربي، أسفل السقف مباشرة، وعلى أزار خشبي آيات قرآنية من سورة الفتح، وفي الضلع الجنوبي الشرقي للحرملك الخاص بزوجة الطبلاوي يوجد أسفل السقف ازار خشبي عليه آية الكرسي. أما الضلع الجنوبي الغربي أعلى المشربية فتوجد على نافذة من الجصيتين المعشق بالزجاج الملون كتابه نصها «وبشر المؤمنين، صدق الله العظيم»، كما يحيط بجدران الحرملك أيضا ازار خشبي كتبت عليه أبيات من بردة البوصيري والضلع الجنوبي الغربي للحرملك، نجد على نافذتيه الجصيتين أعلى المشربية كتابة تقول: «جدده محمد ابن شيخ الأتراك بالأزهر ١٣٢٥هـ».

وصف للجزء الثاني

أما الجزء الثاني من البيت الذي بناه اسماعيل شلبي، ففي قاعة السلاملك تجد أسفل السقف مباشرة أزاراً خشبيا عليه آية الكرسي. وفي الضلع الجنوبي الشرقي فتحة مستطيلة غشيت بحجاب من الخشب الخرط، يعلوها ازار خشبي عليه كتابة «نصر من الله وفتح قريب، وبشر المؤمنين يامحمد». كما نجد آيات من سورة الفتح في الإيوان الشمالي الغربي للسلاملك، وخطوط في الضلعين الجنوبي الشرقي والشمالي الشرقي.

أما الدرقاعة الخاصة بالسلاملك فنجد كتابة تقول: «.... أنشأ هذا المكان المبارك من فضل الله تعالى.... آمين».



وفى قاعة تلاوة القرآن كتابة على عتب رخامى عبارة عن ٤ أبيات شعرية نصها:

هذه روضة المحاسن فادخل

بسلام وفرحة وحبور

واغتنم فيها فرصة العمر هنا

بالحظ والأنس في المساء والبكور

قاعة صانها المهيمن لطفا

عن رقيب وحاسد وكفور

فاخلع الهم عندها أرح

قاعة جاءك أنسها والسرور

ويتضمن الشطر الأخير من هذه الأبيات تاريخ الإنشاء وهو بحساب الجمل ١٢١٦هـ.

وكان فى الشخشيخة الخاصة بقاعة تلاوة القرآن تنور زجاجى عليه كتابة توضح اسم الصانع وهو «درويش مصطفى.. أزار سنة ١٥٧٢.. وهو تاريخ السنة القبطية المصرية.. وهذا التنور تم الاحتفاظ به لحين الانتهاء من الترميم. كما يوجد بقاعة الطعام فى هذا البيت بالناحية الجنوبية الشرقية بعض الكتابات، وفى الايوان الجنوبى الغربى وأسفل السقف مباشرة إزار خشبى عليه آيات قرآنية من سورة الفتح، وكذلك الشمالى الشرقى تكملة للسورة.. أما السدلة الجنوبية الشرقية للايوان الجنوبى الغربى فعليها ٦ أبيات شعرية تبدأ بالبيت الذى يقول:

إن الطعام يقوى شهوة النهم

والنفس كالطفل أن تهمله شب على

إلى البيت الأخير الذى يقول:

فرب مخمصة شر من التخم

ويحيط بقاعة الطعام ازار خشبى عليه أبيات من بردة البوصيرى عددها ١٣ بيتا.. وتبدأ بالبيت الذى يقول:

أمن تذكر جيران بذى سلم

مزجت دمعا جرى من مقلة بدم

إلى أن يقول:

فإن أمارتى السوء ما اتعظت

من جهلها بنذير الشيب والهرم

بدء الترميم

والترميم يبدأ الشهر القادم من حيث انتهت دراسات كثيرة وبحوث متعددة، وتقارير تفصيلية دقيقة ودراسات مستفيضة مزودة باللوحات والصور، ومسجلة على ديسكات الحاسب الآلى، بحيث يمكن توصيفها، وكما يقول د . أسعد نديم ان الدراسات تشمل، دراسة تاريخية وأثرية، كما تشمل الرفع المساحى للأغراض الإنشائية، والرفع المعمارى، ورفع التفاصيل والعناصر الزخرفية، والرفع المساحى لأساسات البيت، ودراسة شبكات المرافق العامة وعلاقتها بالمبنى الأثرى، ودراسات عن الموقع وطبقات التربة ومناسيب المياه الأرضية، واختبارات مواد البناء الإنشائية والخامات الزخرفية، والأعمال الإنشائية، والظروف الجوية.

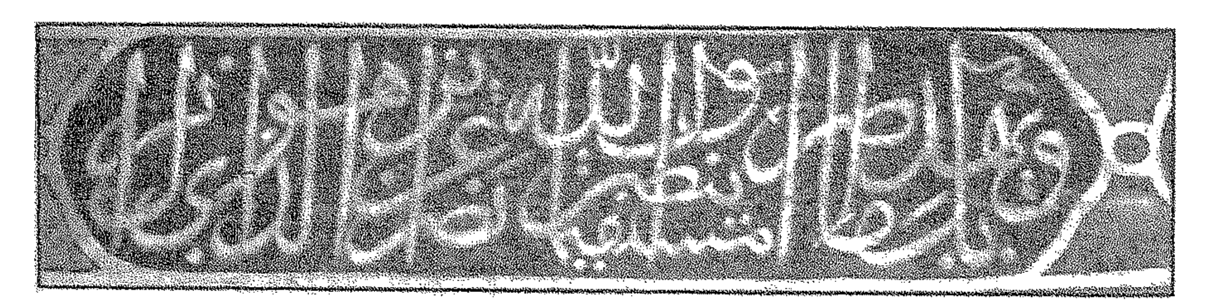
بالإضافة إلى أننا حفرنا ٢٨ حفرة، لاستكشاف نوع التربة ونوع الأساسات، وتقشير أجزاء البياض للتعرف على خامات البناء والحوائط والشروخ الأصلية.

ظل بيت السحيمى ضمن البيوت الأثرية الرائعة، التى تحتاج إلى اهتمام، وكانت الأموال هى المشكلة ، تقدم د . أسعد نديم خبير الفنون التقليدية بمشروع لترميمه عام ١٩٨٩ إلى الصندوق العربى للإنماء الاقتصادى، وكان له صديق كويتى هو عبداللطيف الحمد زيارة لمصر، وقد زار الحمد فى بيت السحيمى وأعجب به وتحمس لمشروع ترميمه، وصدر قرار من الصندوق العربى للإنماء، بمنحة قدرها ٩٠٠ ألف دينار كويتى لأعمال الترميم لبيت السحيمى الذى يربو عمره على ٣٥٠ عاما، وبدأ التعاون مع المجلس الأعلى للآثار والصندوق العربى للإنماء، بحيث صار للبيت لجنة للإشراف على العمل تضم المتخصصين فى المجلس الأعلى للآثار، ونائب محافظ القاهرة، ورئيس حى الجمالية، وكان لابد من إخلاء المنزل من شاغليه ومنع الزيارة، وحماية الأثر، وفصل المياه والصرف الصحى عنه.

السهل الممتنع

وكما يقول د. أسعد نديم: إن من عادة بناء البيوت والقصور فى مصر العثمانية، أن يستخدم فى بناء البيت كثير من





نماذج متعددة من التراث الإسلامى فى

الخطوط داخل بيت السحيمى

مختلف مواد البناء، مثل الأحجار والآجر ومونة التثبيت، فالأحجار الجيرية استعملت فى مداميك أفقية فى بناء الواجهات الخارجية للمنزل وكذلك بعض قاعات وغرف الطابق الأول.. ومونة التثبيت كانت من الجير والرمل والحمرة. بنسب معينة، كما استخدمت الأحجار كبلاطات لكثير من أرضيات المنزل وقاعاته وحجراته وايواناته، أما الآجر فقد استخدم فى بناء معظم غرف وقاعات وملحقات المنزل بالطابقين الثانى والثالث.

وكان للخشب دور بارز فى مواد البناء حيث استخدم فى معظم الأسقف، والأبواب والشبابيك والمشربيات والدكك، والخورنقات والأرفف ودرابزين السلالم، وكذلك الساقية والطاحونة والشخشيخات.

واستخدم الجص المعشق بالزجاج الملون بالنسبة لمنزل الطبلاوى فى عمل النوافذ فى قاعة الطعام، والحرملك، كذلك فى نوافذ الحرملك الخاص بمنزل اسماعيل شلبى، فى أماكن تعلو التختبوش بالضلع الشمالى الشرقى المطل على الفناء، وكذلك فى القبتين اللتين تسقفان كلا من الحجرة الساخنة والباردة فى الحمام، وأيضا سقف الحجرة الدافئة فى حمام منزل اسماعيل شلبى، كما استخدم الجص أيضا فى النوافذ التى تعلو قاعة الاستقبال بالناحية الشمالية الشرقية المطلة على الحديقة الخلفية، وكذلك نوافذ الحرملك.

أما الرخام فاستخدم كمادة بناء داخل بيت السحيمى فى أماكن كثيرة، مثل الأعمدة وأرضية الدرقاعات وغرف الحمام الثلاث، والعتب الذى يعلو مدخل قاعة تلاوة القرآن الكريم.

أما المعادن فقد اقتصر دورها على استعمالها كحجاب من السلك الرفيع لفتحات سقف الدرقاعة التى بقاعة الطعام، وكذلك فى عمل أحجبة من السلك للنوافذ بقاعة الاستقبال .

والقاشانى استخدم على شكل بلاطات مختلفة الزخارف والرسوم، وفى كسوة جدران قاعة الحرملك فى بيت اسماعيل شلبى.. كما استخدم الزجاج فى عمل الدّلف الزجاجية التى تعلق على نوافذ قاعة الطعام وكذلك فى نوافذ الجص المعشق.

وحول البياض والدهانات، فقد استخدم فى كسوة الجدران للغرف والقاعات وملحقات المنزل بلاط ذو لون أبيض، أما البلاط الأزرق فقد استخدم فى جدران الحرملك بالطابق الثانى.

البيت المرصود

ولأهمية بيت السحيمى وروعة فنونه أولته لجنة حفظ الآثار العربية رعايتها

وعنايتها، وأهتمت به وأجرت كثيرا من الترميمات على مدى المائة عام الأخيرة ومنذ عام ١٨٩٠م.

فبدأت عام ١٩٠٦ بعمل مقايسة بمبلغ ٦ جنيهات لتقوية سقف قاعته الكبيرة، بقضبان حديدية حتى تمنع الانحناء الحاصل فيه، وقد حدث وقتها نزاع بين اللجنة وساكن البيت في ذلك الوقت، والذى رفض عملية الترميم. .

وفى عام ١٩٣٠ قررت اللجنة اعتماد ٨ آلاف جنيه لشراء المنزل ومنقولاته وخاطبت فى ذلك مصلحة التنظيم لتعديل التنظيم المار بالمنزل، بحيث تكون واجهته القبلية على خط التنظيم، ولقد فتح اعتمادا اضافيا عن طريق مجلس الوزراء وقتئذ لشراء المنزل وإصلاحه بمبلغ ٧ آلاف جنيه.

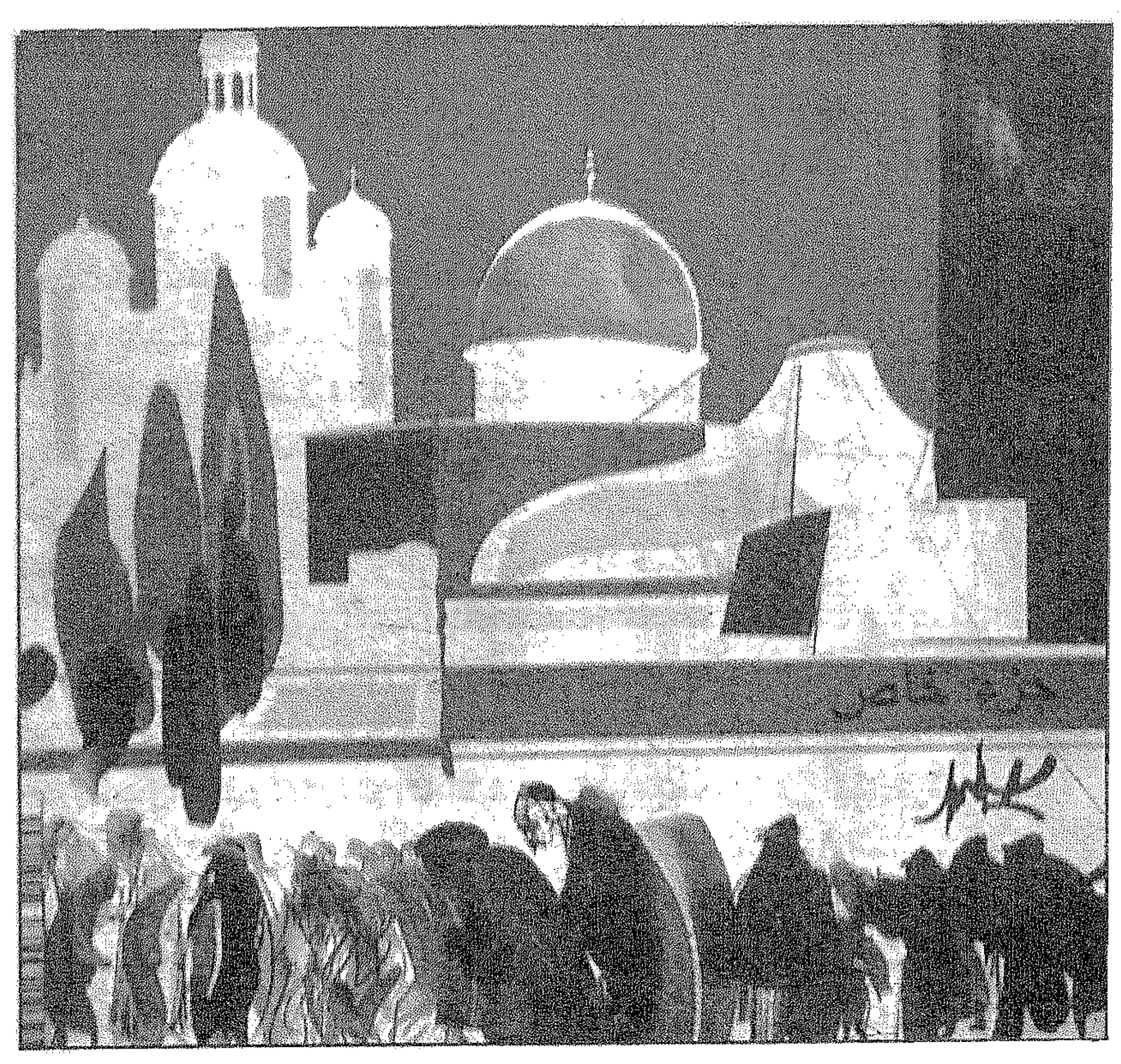
وفى عام ١٩٣٢ خصصت لجنة حفظ الآثار العربية مبلغ ٣٠٠ جنيه لترميم المنزل، و٢٠ جنيها لإصلاح الحديقتين، و٢٥ جنيها مصاريف صيانة سنوية، وقد نظفت جميع أخشاب المنزل، وسلمت الباب القديم للمنزل لدار الآثار العربية.

وفى عام ١٩٣٤ فرشت دار الآثار العربية المنزل بالأثاث التاريخى، وأجرت ترميمات بمبلغ وصل إلى ٥٠٠ جنيه، كما خصصت فى العام الذى يليه ٢٠٠ جنيه لتبليط الحديقة وطرقاتها والتخبيش، وإصلاح النجارة واستبدال شخشيخة إحدى القاعات.

وظل الترميم مستمرا فى أعوام ٣٦، و٤٠ و٤٥ ، حيث قررت إشغال جميع القاعات والغرف بالتحف فيما عدا ٥ قاعات لا تصلح لهذا الأمر، وفى عام ١٩٥٤ قررت وزارة الأوقاف استبقاء الأرض أمام المنزل فضاء.. أمام واجهة هذا البيت الأثرى.

لكن بعد هذا التاريخ شغل البيت الحارس وبعض السكان، وكان استخدام المياه والمجارى يؤثر على البيت، لكن تقرر أخيرا إجلاء من فى البيت لترميم المرحلة الأولى بين الصندوق العربى والمجلس الأعلى للآثار.

وكما يؤكد د. فهمى عبدالعليم رئيس قطاع الآثار الإسلامية، وسيد رشاد مدير عام الآثار الإسلامية فإن ترميم بيت السحيمى سيكون نموذجا علميا لما ينبغى أن يكون عليه الترميم، وهما يهيبان بالقادرين التبرع للصرف على بيوت إسلامية أخرى نادرة. فعمليات الترميم الكثيرة تقصر عنها جهود الدولة، وعلى القادرين أن يبادروا ويساهموا فى الإبقاء على هذه الآثار، بالتبرع لترميمها ■



هل حقا بنى داود مدينة القدس منذ ثلاثة آلاف عـــــام ؟!

بقلم : أحمد عثمان

أعلنت الحكومة الإسرائيلية عن إقامة مهرجان ذى طابع عـالمى ، بعنوان «القـدس ٣٠٠٠» - الذى سيستمر أكثر من عام - قيل إنه يمثل الاحتفال بذكرى تأسيس مدينة القدس ، على يد الملك داود، كعاصمة لمملكة إسرائيل.

وبما أننا الآن في أول عام ١٩٩٦ بعد الميلاد، تكون المناسبة التي يحتفل بها الإسرائيليون قد تمت قبل ثلاثة آلاف عام في ١٠٠٥ قبل الميلاد . وهكذا حول الإسرائيليون حدثا رمزيا ذا طبيعة دينية إلي حقيقة واقعية، حددوا لها تاريخا. ونحن نعرف أخبار النبي داود من الكتابات التي جاءت عنه في المصادر الدينية، مثل القرآن والتوراة والإنجيل . لكننا لا نعرف أي شيء عن الملك داود من مصادر التاريخ. فبالرغم من قيام رجال الآثار العالميين - والإسرائيليين كذلك - بالحفر في كل شبر من أرض فلسطين، فإن واحدا منهم لم يعثر ولو علي قطعة صغيرة من الفخار تشير إلي هذا الملك . كيف نعرف الوقت الذي عاش فيه داود، وأين كان مسكنه، والأهم من ذلك ما هو الدليل - بخلاف ما ذكره كتبة اليهود - علي أنه استولي علي مدينة القدس عام ١٠٠٥ قبل الميلاد، أو أنه قام ببناء أي جزء فيها. فالأدلة الأثرية - ليست فقط تجهل هذه الأحداث - ولكنها تختلف معها صراحة. وهكذا نري أن السلطات الإسرائيلية تريد أن تبيع الأسطورة علي أنها تاريخ ، ثم تطلب من العالم كله أن يصدق هذه الأسطورة.

وبحسب رواية العهد القديم، فإن الاعتقاد السائد هو أن الفترة التاريخية التى عاش فيها داود كانت عند بداية القرن العاشر قبل الميلاد، فالدليل الوحيد الذى استند إليه رئيس وزراء إسرائيل الراحل، اسحق رابين للقيام بهذا الاحتفال، لم يرد فى أى من مصادر التاريخ - ولا حتى في التوراة أو الإنجيل أو القرآن - وإنما ورد فى سفرين من العهد القديم قام الكهنة بكتابتهما . فقد جاء فى سفر صموئيل الثانى وسفر الملوك الأول - وهما رقم ١٠ و١١ من العهد القديم - أن الملك داود أقام إمبراطورية تمتد حدودها بين النيل والفرات، وجعل القدس عاصمة لها. أما الأدلة التاريخية التى تم العثور عليها حتى الآن، فهى تشير إلى أن داود العهد القديم، كان ملكا يرأس تحالف القبائل الإسرائيلية التى كانت تسكن فى الهضاب الفلسطينية، وكانت معاركه الرئيسية فى مواجهة الملوك الفلسطينيين القادمين من الساحل.

والقصة التى وردت فى الإصحاح الخامس من صموئيل الثانى بخصوص استيلاء داود على مدينة القدس، تقول إن داود قام بالاستيلاء على مدينة القدس التى كانت محصنة :

«ذهب الملك ورجاله إلى أورشليم إلى اليبوسيين سكان الأرض ... وأخذ داود حصن صهيون «و هى مدينة داود» ، وعاش داود فى الحصن وبنى تحصينات جديدة حوله «وارسل حيرام، ملك صور فى لبنان، رسلا إلى داود وخشب أرز ونجارين وبنائين فبنوا لداود بيتا» .

والمقصود بـ «الملك ورجاله» أن داود لم يعتمد على جيش قام بجمعه من بين قبائل بنى إسرائيل ، وإنما أخذ جيشه الخاص الذى يبلغ عدده حسب بعض الروايات ٤٠٠رجل و٦٠٠ رجل حسب روايات أخرى. كما أن المقصود بـ «مدينة داود» هنا مدينة «القدس» والمفروض أن الملك بعد ذلك أقام خيمة للعبادة فى موضع قبة الصخرة، وضع فيها التابوت، كما يقال إن سليمان قد بنى حولها معبده بعد ذلك ولا يوجد أى دليل - فى المصادر الأخرى - على صحة هذه الواقعة .

ومع أن الرواية لا تعطى تفاصيل المعارك التى خاضها داود مع اليبوسيين الذين كانوا يعيشون فى مدينة القدس حتى يتمكن من الاستيلاء عليها، فإنها تشير إلى أن الطريقة التى استعملها الملك لدخول المدينة - التى كانت محصنة - اعتمدت على الخدعة إلى جانب القتال .

وبما أننا لم نحصل على تفاصيل هذه القصة المنسوبة إلى داود من أى مصدر تاريخى ولم ترد الإشارة إلى داود بنى إسرائيل - بالاسم أو بالكتابة - خارج الكتب الدينية، فقد كان من الطبيعى أن يحاول الأثريون فى العصر الحديث العثور على الأدلة التى تؤكد صحة هذا الجزء من القصة كما وردت عنه فى سفر صموئيل الثانى، من كتب العهد القديم. فالقصة تخبرنا بأن داود تمكن من الاستيلاء على مدينة القدس بعد معركة حربية، ثم قام ببناء استحكامات جديدة للمدينة . فإذا ماتم العثور على دليل أثرى يثبت إصابة أسوار القدس ببعض مظاهر الدمار، عند بداية القرن العاشر قبل الميلاد، وعلى إعادة بناء بعض الاستحكامات فى تلك الفترة، فلسوف يكون هذا كافيا لتصديق كل ما ورد فى هذه القصة بخصوص داود بنى إسرائيل . ولكن الذى حدث هو عكس ذلك تماما، فقد عجز الأثريون فى العثور على أية بقايا تدعم هذه الرواية.

● عمر يدخل القدس

تقع القدس على بعد ٥٦ كيلو مترا شرقى البحر المتوسط فوق هضبة جبلية ترتفع ٧٤٣ مترا عن سطح البحر، كانت مدينة صغيرة فى الأزمنة القديمة. أما المدينة القديمة الحالية، والتى تحيط بها الأسوار فلها سبع بوابات وتضم الأماكن المقدسة للمسلمين والمسيحيين واليهود، فقد بناها السلطان سليمان العثمانى فى النصف الأول من القرن السادس عشر الميلادى . ثم اتسع القسم العربى خلال القرن العشرين شمال أسوار المدينة فى اتجاه رام الله بينما امتد القسم اليهودى إلى الغرب . وتبع العثمانيون النظام الذى استخدمه الرومان عندما قام الإمبراطور الرومانى هادريان بإعادة بناء القدس عام ١٣٥ بعد أن تم حرق المعبد وحرمان اليهود من دخولها . فقد بنى الرومان معبدا لجوبيتر مكان المعبد اليهودى الذى

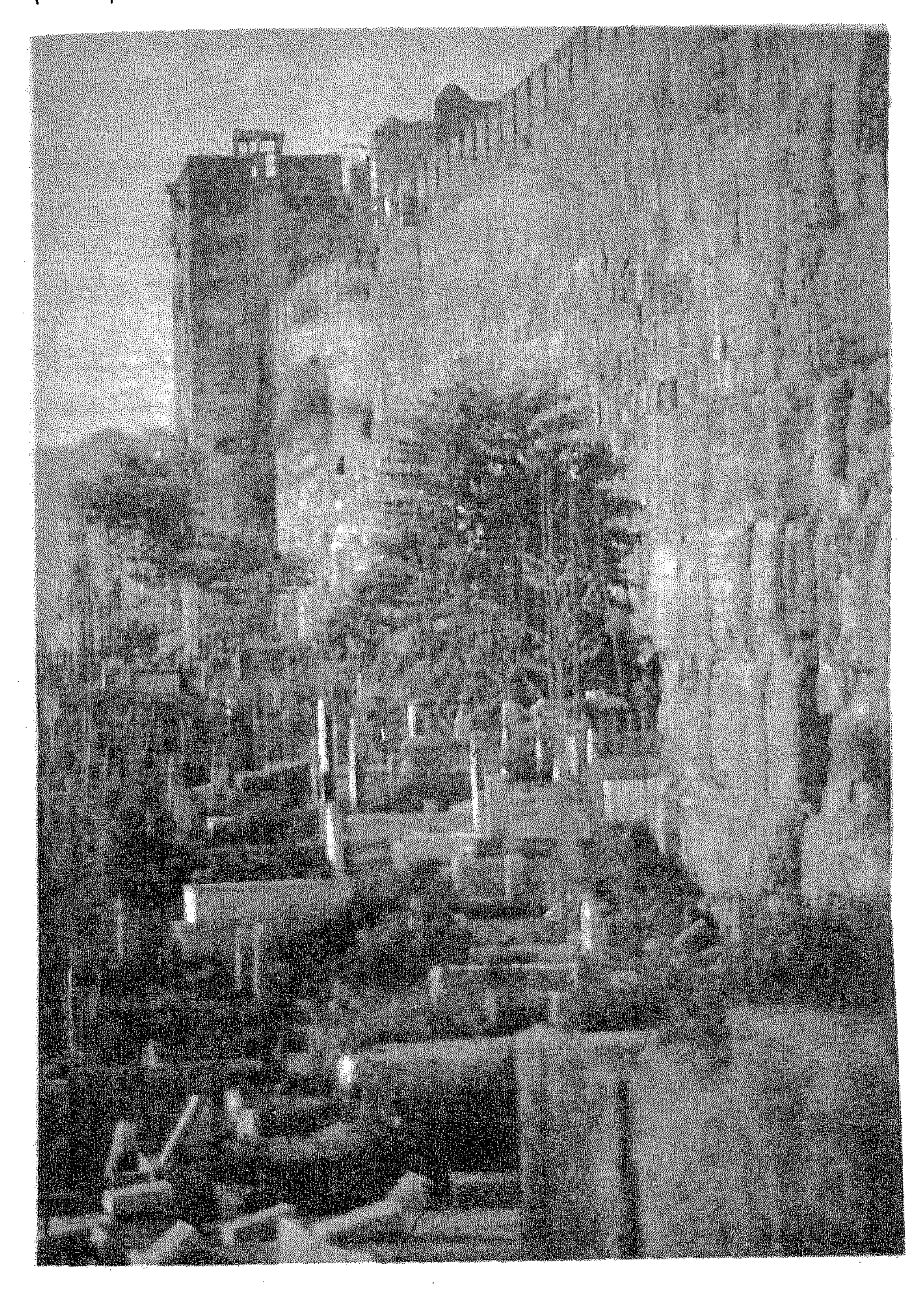
أحرقوه عام ٧٠ ميلادية، وفرضوا عقوبة الإعدام على أى يهودى يضبط داخل المدينة. ودخل عمر بن الخطاب مدينة القدس سلميا ، ولما وجد موقع صخرة المذبح مهجورا، فقد أقام عليه عمر مسجدا. وتقول كتابات اليهود إن عمر عرض عليهم أولا إعادة بناء المعبد فرفضوا حيث إنهم يعتقدون أن مسيحهم - الذى مازال منتظرا مجيئه - هو الذى سيقوم بإعادة بناء المعبد . وعندما أراد عبد الملك بن مروان أن يمنع أهل الشام من الذهاب إلى مكة للحج بعد أن صار ابن الزبير سيد مكة ، أقام الخليفة الأموى قبة فوق مسجد عمر، وبنى مسجدا آخر إلى الجنوب الغربى منه أطلق عليه اسم «المسجد الأقصى» .

أما المدينة التى كانت قائمة فى زمن داود على شكل قلعة تحيط بها الأسوار - لا تتجاوز مساحتها ٤٤ ألف متر مربع أو حوالى عشرة أفدنة - تحتل الجزء الجنوبى الشرقى فقط من المدينة القديمة الحالية . وهى على شكل مستطيل أكثر أجزائه اتساعا لايتجاوز عرضه مائة متر، يحده من الشرق وادى كدرون ومن الغرب وادى حنوم ، الذى ينحنى شرقا جنوب المدينة ليلتقى مع وادى كدرون. أما الأرض المقدسة - وهى المسطح الذى تقام عليه الآن قبة الصخرة والمسجد الأقصى، والذى يقع على جزء أكثر ارتفاعا خلف مدينة الأزمنة القديمة - فقد كان يقع خارج أسوار القدس ولم تكن عليه أبنية فى ذلك الزمان ، وإنما كانت الصخرة التى أقيمت فوقها القبة، تعتبر مذبحا لليبوسيين الذين سكنوا القدس فى تلك الحقبة من الزمان .

وعين الماء التى يتحدث عنها سفر صموئيل هى عين العذراء - أو عين أم الدرج - الحالية ، والتى كانت تقع أسفل شمالى شرق المدينة كما تمكن الأثريون من العثور على البئر التى حفرها اليبوسيون للوصول إلى نبع الماء. وقد عثر الأثريون كذلك على أجزاء كبيرة من الأسوار واستحكامات القديمة، ولكنهم لم يجدوا ما يدل، لا على أثر تحطيم أى الاستحكامات، ولا لبناء استحكامات جديدة فى عصر داود، خلال القرن العاشر قبل الميلاد. وإن كانوا قد عثروا على ما يثبت تجديد بعض الأسوار قبل ذلك بأربعة قرون، وبينما الاسم العربى للمدينة هو «القدس» أو «بيت المقدس» نسبة إلى أماكن العبادة التى أقيمت بها، فإن اليهود يسمونها «أورشاليم» أى «مدينة السلام»، فكلمة «أور» تعنى «مدينة» وكلمة «شليم» تعنى «السلام».

وعلى ذلك فإن القصة التى وردت فى سفر صموئيل الثانى بدخول داود بنى إسرائيل إلى مدينة القدس عند بداية القرن العاشر ق. م وتحويله منطقة الصخرة المقدسة إلى مركز للعبادة لبنى إسرائيل، ليس لها أى دليل من المصادر

أسوار القدس التى أعاد بناءها صلاح الدين الايوبى عام ١١٩١م



التاريخية، وتكون مدينة القدس قد ظلت في أيدى أصحابها الأصليين في تلك الفترة من الزمان.

وتتفق القصة القرآنية مع قصة العهد القديم في أن سليمان كان من «آل داود» كما «ورث سليمان داود» . ولكن القصة القرآنية تختلف اختلافا جوهريا عن قصة العقد القديم، في أنها لا تذكر لنا أى شيء عن أن سليمان كانت له مملكة تمتد حدودها بين النيل والفرات ، ولا بأنه هو الذى قام ببناء معبد القدس . فنحن لا نجد في القرآن ذكرا للقدس أو بيت المقدس أو المسجد الأقصى ، في الروايات المتعلقة بسليمان أو بداود أبيه .

فكل الأدلة المتوافرة الآن تؤكد أن بنى إسرائيل لم يدخلوا مدينة أورشليم ولا هم قدسوا في معبدها، وكان اليهود العائدون من بابل هم أول من فعل ذلك بعد سقوط الإمبراطورية البابلية على يد قورش الفارسى. وإنما أضيفت هذه المعلومات التى لا أصل لها من التاريخ إلى أسفار العهد القديم فيما بعد، لتعطى صفة شرعية لاستيلاء اليهود على القدس . فمن المعروف أن كتب التوراة الخمسة الأولى - المنسوبة إلى موسى - هى فقط التى تمت كتابتها خلال القرن السادس قبل الميلاد، أما باقى أسفار العهد القديم فهى لم تأخذ شكلها الحالى إلا بعد ذلك بثلاثة قرون فبينما كانت سياسة البابليين تقوم على تهديم أماكن العبادة للشعوب التى تخضع لهم، ونقل أصنام المعبد وأوعيته إلى بابل، جاءت سياسة قورش مخالفة لذلك تماما . فهو قد أمر بإعادة بناء المعابد المهدمة في أنحاء الإمبراطورية، وإعادة أصنامها وأوعيتها إليها.. على أن يتم الدعاء له عند أداء الطقوس الدينية في كل هذه المعابد، وسمح لمن يريد العودة من الأقوام المسبية بالرجوع إلى أوطانها الأصلية .

ولما كان معبد اليبوسيين في القدس من بين المعابد التى تقرر إعادة بنائها فقد أمر قورش واحدا من موظفيه «شيش بصر» ، وهو - كما هو واضح من اسمه - فارسى الأصل، بالذهاب إلى القدس للإشراف على بناء المعبد ، كما أصدر أوامره إلى المشرف على الخزانة بأن يسلمه أوعية المعبد لأخذها معه. وفى الوقت نفسه عاد بعض اليهود إلى مدنهم تحت قيادة رئيس لهم يسمى زروبابل، وبحسب الأسماء الواردة للعائدين في سفرى عزرا ونحميا فإنهم كانوا ينتمون إلى حوالى ١٧ موقعا مختلفا ، وليس منهم من ينتمى إلى مدينة القدس ذاتها. وفى القدس اقتصرت مهمة المندوب الفارسى شيش بصر على إعادة بناء المذبح فقط، فهو لم يهتم باستكمال بناء المعبد. وبالرغم من أن اليهود كانت لهم عدة مراكز للعبادة في بعض الأماكن الجبلية التى تقع شمالى أورشليم، مثل «مذبح» و«شكيم» و«بيت

إيل» ، فإن مذبح الصخرة في القدس – حتى قبل بناء المعبد حولها منذ مئات السنين – كان يعتبر أهم مكان للعبادة ليس فقط لكل الأقوام التي سكنت أرض كنعان ، وإنما كذلك للعمونيين الذين كانوا يسكنون شرقي نهر الأردن . وبمجرد إعادة بناء المذبح بدأت كل هذه الأقوام – يمن فيهم اليهود – زيارة القدس للعبادة .

لهذا فعندما قرر اليهود بقيادة زروبابل استكمال بناء الهيكل، أرادت الأقوام الأخرى المشاركة في هذا العمل:

منع اليهود من بناء المعبد

وبالفعل نجح اعتراض الشعوب الفلسطينية في منع اليهود من إكمال المعبد وحدهم، واستمر الأمر كذلك باقي أيام قورش وطوال أيام قمبيز خليفته، ولكنهم أعادوا المحاولة في بداية حكم داريوس الذي تلاه، وفي هذه المرة كذلك قرر الوالي الفارسي لمنطقة عبر الفرات منعهم من الاستمرار في البناء وأرسل يستشير الملك ماذا يجب عمله. وكان البلاط الملكي الفارسي يحتوي على عدد كبير من اليهود الذين نصحوا داريوس بالموافقة على قيام أهل يهودا ببناء المعبد حتى يقوموا بالدعاء له هناك. فوافق داريوس على قيام اليهود بإكمال بناء معبد القدس على أن تتحمل خزانة عبر الفرات كل التكاليف، بما في ذلك تكاليف العبادة نفسها، حتى يؤكد الطبيعة العامة لهذا العمل. ويلاحظ أن ملوك الفرس لم يذكروا اسم «يهوه» إله يهودا عند التحدث عن معبد القدس، وإنما كانوا يسمونه «رب السماء» .

وأكمل اليهود بناء المعبد في أيام داريوس الفارسي، ومع ذلك – ونظرا لأن المعبد قد تم بناؤه والإنفاق عليه من المال العام – فهو قد أصبح مزارا لكل الأقوام التي تسكن في المنطقة وليس لليهود وحدهم. فكانت الخطوة التالية لليهود هي محاولة بناء أسوار حول المدينة حتى يتمكنوا من منع الآخرين من دخولها، كما أنهم كانوا يهدفون إلى إعادة بناء مدينة القدس نفسها وجلب اليهود لتسكينهم فيها ولكن الأقوام الأخرى اعترضت على هذا و رسلوا خطابا للملك .

وهكذا فشلت محاولة اليهود الأولى للاستيلاء على مدينة اليبوسيين ولكن هذا لم يمنعهم من إعادة الكرة . وكانت المحاولة الثانية أكثر نجاحا من الأولى حيث إنهم حاولوا التأثير على الملك الفارسي نفسه. فقد اختلف الملك احشويروش مع زوجته الملكة، فتركها وتزوج من فتاة يهودية اسمها أستير أصبحت هي الملكة الجديدة، وأحبها الملك حبا كبيرا وكان راغبا في عمل كل ما يرضيها. وكان أول ماأرضاها وعملت في

تحقيقه هو طرد هامان وزير أحشويروش الأول – والذى كان ينصح الملك بعدم السماح لليهود بالاستيلاء على القدس – وتعيين عمها مردخاى مكانه .

وأراد يهودي آخر ، هو نحميا خصى الملك الذى كان يعمل ساقيا له، الحصول على فرمان ملكى يصرح لليهود ببناء القدس فدخل على الملك، وكانت أستير الملكة تجلس بجانبه .

«فحملت الخمر وأعطيت الملك. ولم أكن قبل مكمدا أمامه. فقال لى الملك لماذا وجهك مكمد وأنت غير مريض . ماهذا إلا كآبة قلب. فخفت كثيرا جدا وقلت للملك ليحيى الملك إلى الأبد. كيف لا يكمد وجهى والمدينة بيت مقابر آبائى خراب وأبوابها قد أكلتها النيران . فقال الملك ماذا طالب أنت ... قلت للملك إذا سر الملك وإذا أحسن عبدك أمامك ترسلنى إلى يهودا إلى مدينة قبور آبائى فأبنيها . فقال لى الملك والملكة جالسة بجانبه إلى متى يكون سفرك ومتى ترجع . فحسن لدى الملك وأرسلنى فعينت له زمانا. وقلت للملك إن حسن عند الملك فلتعط لى رسائلي إلى ولاة عبر النهر لكى يجيزوننى حتى أصل إلى يهودا».

وهكذا استطاع نحميا اليهودى خصى الملك ، بتأثير من أستير اليهودية زوجة الملك ومردخاى اليهودى الوزير الأول للملك، أن يحصل على فرمان من إمبراطور فارس بتعيينه واليا على يهودا والسماح له ببناء مدينة القدس، وعبثا حاول سكان فلسطين منع نحميا من إكمال العمل، فهو كان قد حصل على أمر إمبراطورى فى هذه المرة . وبعد أن استكمل نحميا بناء أسوار القدس ، قام ببناء بيوتها، ثم أجبر قبائل يهودا على أن ترسل كل منها نسبة ١٠٪ من تعدادها ليسكنوا مدينة اليبوسيين فتصير لهم.

هذه هى القصة الحقيقية لاستيلاء كهنة اليهود على مدينة القدس التى كانت ملكا لليبوسيين حتى حطمها البابليون عن آخرها، فى القرن السادس قبل الميلاد وظلت خرابا أكثر من قرن من الزمان ، حتى حصل اليهود على تصريح من الفرس بإعادة بناء المعبد فاستولوا على المدينة كذلك. وعلى هذا فإن الاحتفال الذى تقوم به السلطات الإسرائيلية الآن، ما هو إلا محاولة جديدة لتدعيم فكرة الحق التاريخى لليهود فى مدينة القدس، عن طريق تحويل الأساطير القديمة إلى حقائق تاريخية. ■

القدس

والحروب الصليبية

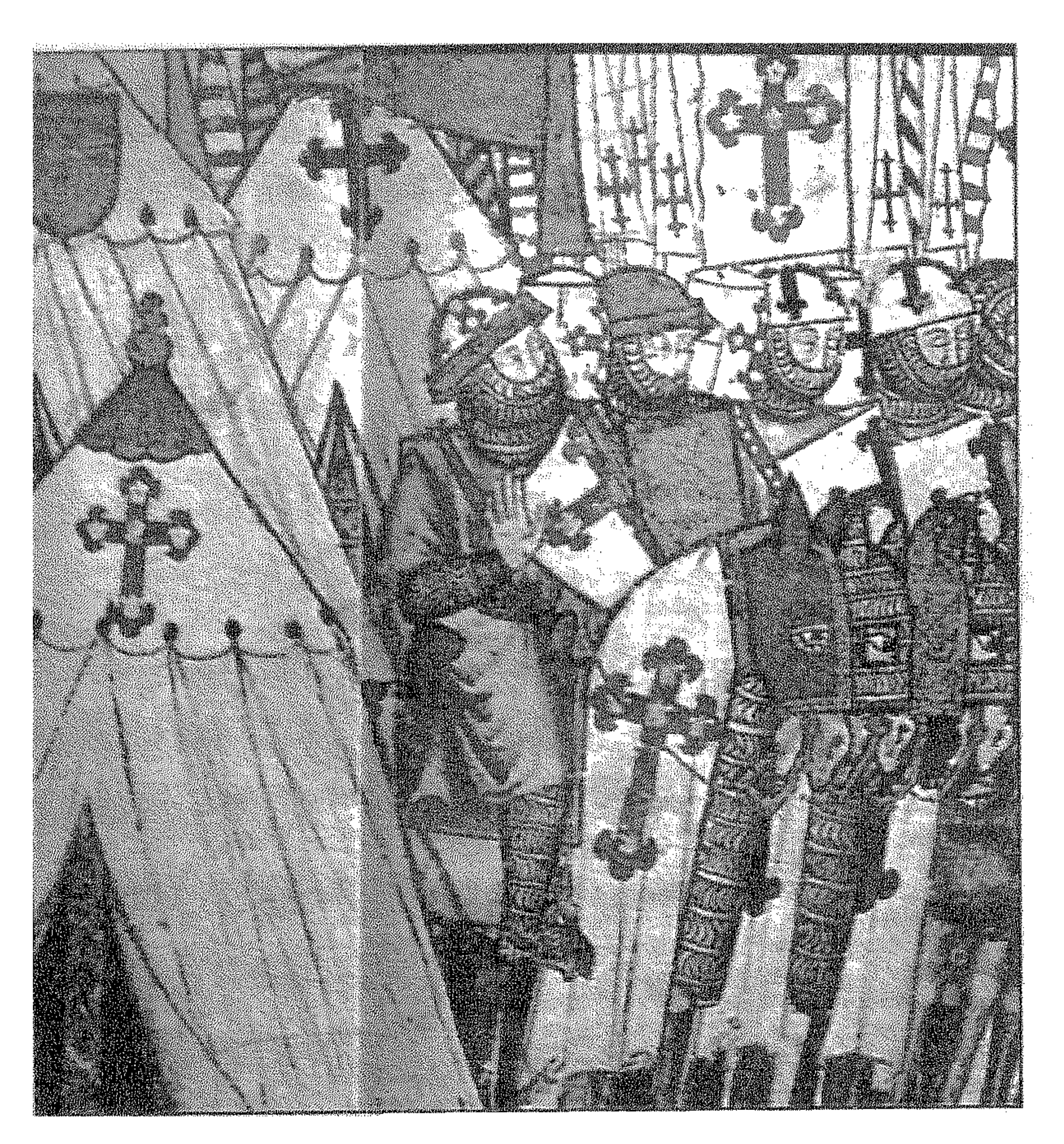
بقلم : د . قاسم عبده قاسم



ليست القدس مجرد مدينة مثل مئات المدن المنثورة فى أرجاء الأرض. والقدس ليست مجرد «حالة ديموجرافية» ، أو «ظاهرة تاريخية» ، أو «موقع جغرافى» ، وإنما هى ذلك كله وما يتعدى ذلك كله. فالقدس رمز فى الصراع الذى بدأ منذ قرن أو أكثر، ببداية الدعوة الصهيونية ، ولايزال مشتعلاً حتى الآن بين العرب والصهيونية. والقدس رمز للصراع الحضارى ، صراع الوجود الذى يخوضه العرب ، بدون نجاح كبير حتى الآن ، ضد الصهيونية وظهيرها المساند فى أوربا وأمريكا.

فالقدس عروس العروبة ودرة الإسلام ، ثالث الحرمين وأولى القبلتين ، وهى قطعة حية من تاريخ الحضارة العربية الإسلامية التى عاشت عطاء للعالم عمراً يزيد على ألف سنة .

القدس العربية فردت جناح الرحمة والتسامح لكل الذين عاشوا فى رحابها منذ تسلم عمر بن الخطاب مفاتيحها من البطريرك صفرو نيوس حتى داهمها الغزو الصليبى بأقدامه الغليظة مرة، ودهمها الغزو الصهيونى مرة أخرى. وبين المرتين مضى أكثر من ثمانية قرون ونصف، بيد أن هدفهما فى المرتين كان واحداً، كما أنهما قاما على نفس فكرة الأرض الموعودة وشعب الله المختار. وعلى الرغم



لوحة للجنود الصليبيين محفوظة فى المكتبة الوطنية بفلورنسا

مما قد يبدو هنا على أنه مفارقة، فالحقيقة التاريخية تؤكد أن العنصر التوراتى فى الأيديولوجية الصليبية والأيديولوجية الصهيونية كان واضحاً بالقدر الذى لايمكن إغفاله، كما أن هذه الحقيقة التاريخية ذاتها تؤكد أن القضاء على الكيان الحضارى للمنطقة العربية، بتراثها الإسلامى العربى وثرواتها، كان هدف الحركة الصليبية ولايزال هدفاً للحركة الصهيونية. والمثير أيضاً أنه فى الحالين جاءت الحشود العسكرية من أوربا تواكبها وتسير فى ركابها حشود المستوطنين يزرعون المستوطنات، وينشرون نار الحرب والتعصب والخراب.

وعلى الرغم من إغراءات موضوع العلاقة بين الحركة الصليبية والحركة الصهيونية فاننا سوف نقصر حديثنا عن الحروب الصليبية، وعن القدس فى خضم أحداث المواجهة بين المنطقة العربية والغرب الأوربى بشكل أكثر تحديداً.

ولنبدأ القصة من أولها...

بدأت أحداث الحركة الصليبية فى مدينة صغيرة بالجنوب الفرنسى فى السابع والعشرين من نوفمبر سنة ١٠٩٥م، أى منذ ألف سنة وشهور قليلة.

كان البابا الكاثوليكي إربان الثانى قد أعد خطبة احتفالية بمناسبة انتهاء أعمال مجمع كليرمون ويبدو أن البابا كان قد أعد العدة لهذا الاحتفال بشكل جيد، فقد تمكن الأساقفة والرهبان الفرنسيون من إقناع كبار الأمراء الإقطاعيين لسماع خطبة البابا وكانت الاستجابة مرضية إلى حد كبير، إذ اجتمع حشد غفير من الناس، كنسيين وعلمانيين، لسماع البابا فى حفل فسيح بين تلال أوفرينى خارج مدينة كليرمون. وقد جاءت خطبة البابا لتداعب أوتارا حساسة لدى جميع الحاضرين.

وعلى الرغم من أننا لانملك نصاً موثقاً لخطبة البابا إربان الثانى، فإن دراسة روايات المؤرخين من شهود العيان ومن المعاصرين للحملة الصليبية الأولى تجعلنا نرجح أن الخطبة تضمنت الدعوة إلى حملة «مقدسة» بأمر الرب، إلى فلسطين والقدس عاصمتها.

● رحلات الحج المسيحى

والحقيقة أن أهمية القدس بالنسبة للمسيحيين نمت نموا شبه عضوى مع تزايد أهمية الحج المسيحى إلى المدينة المقدسة وفلسطين منذ بداية الوجود التاريخى للمسيحية، فعلى الرغم من أن الحج ليس فريضة دينية على المسيحيين، مثلما هو الحال فى الإسلام، فإن الجذب العاطفى نحو الأرض التى شهدت قصة المسيح ظل يشد المسيحيين على نحو متزايد مع مرور الزمن. ففى أيام المسيحية الأولى كانت رحلات الحج المسيحية إلى فلسطين نادرة لأن السلطات الرومانية الحاكمة كانت قد دمرت القدس فى حوادث سنة ٧٠م إلى أن أعاد الامبراطور هادريان بناءها وأقام بها معبداً للربة فينوس. وفى القرن الميلادى الثالث صار الكهف الذى شهد مولد المسيح معروفاً. ومع ذلك كانت حركة الحج المسيحية محدودة إلى القدس وفلسطين.

وبعد انتصار المسيحية بفضل الامبراطور قسطنطين الكبير فى بدايات القرن الرابع الميلادى زادت حركة الحج من أوربا إلى فلسطين، ثم جاءت هيلينا أم الامبراطور «القديسة هيلانة فيما بعد» إلى

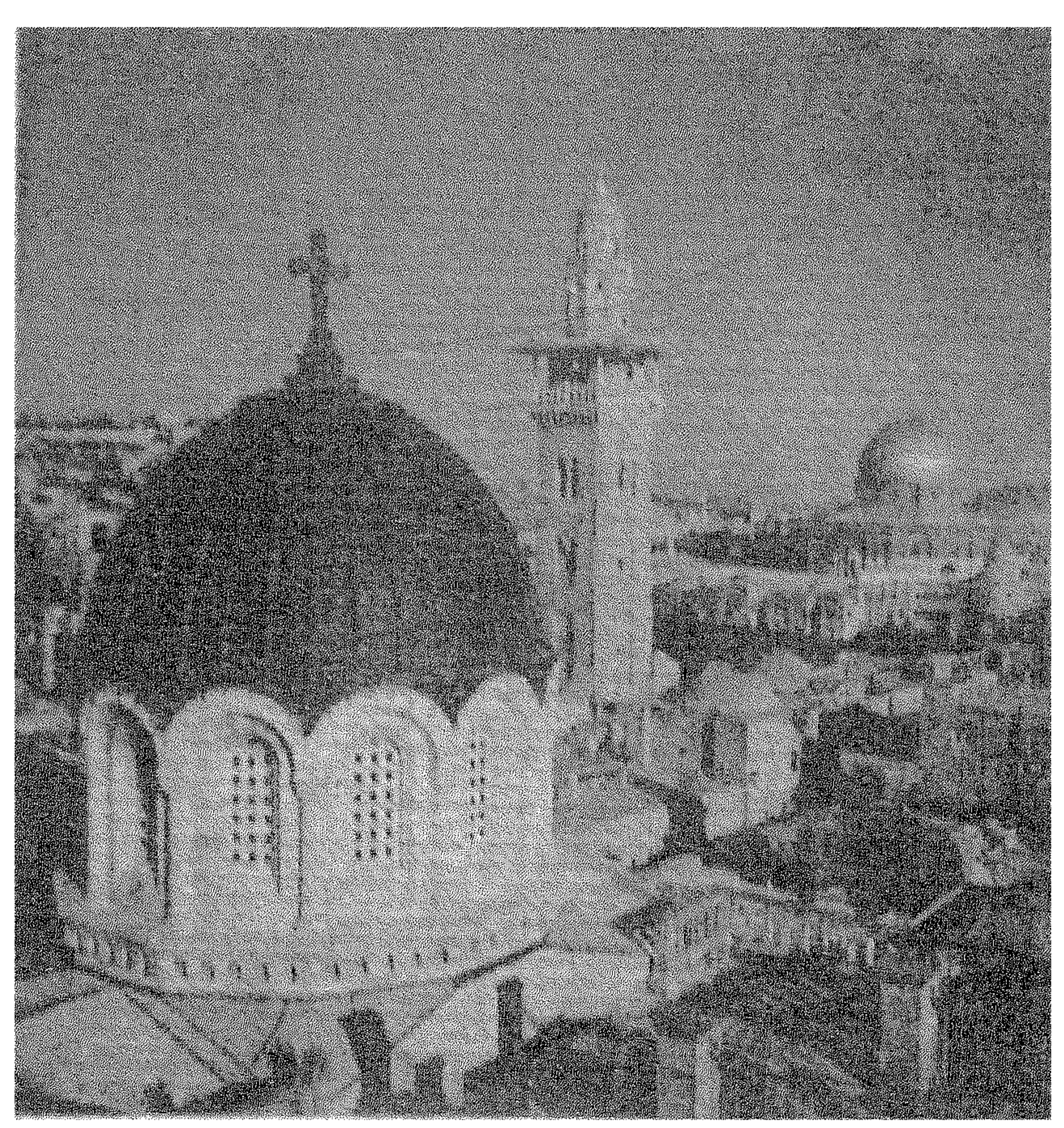
فلسطين حيث قيل إنها اكتشفت خشبة الصليب الأعظم وبنى ابنها الامبراطور كنيسة الضريح المقدس. ونتيجة لهذا زادت رحلات الحج من أوربا إلى فلسطين، واتخذت شكلا فردياً فى بداية الأمر وهكذا كان المسيحيون الذين زاروا القدس وفلسطين فى القرون المسيحية الأولى يريدون أن يقتفوا خطوات المسيح وحوارييه وخطوات الأنبياء على أرض فلسطين وكان الهدف استعادة أفضل الذكريات والقصص الواردة فى الكتاب المقدس. ولذلك كان بعض هؤلاء يحرصون على الأكل فى كهف أكل فيه المسيح مع حوارييه، كما كانوا يحرصون على الاستحمام فى مياه نهر الأردن التى تم فيها تعميد المسيح.

وتزايدت أعداد الحجاج القادمين من غرب أوربا، وقامت الأديرة ونُزُل الضيافة باستقبال هذه الأعداد المتزايدة، وبعد الفتح الإسلامى لفلسطين ظلت الأعداد المتزايدة من حجاج بيت المقدس تفد إلى فلسطين، إذ إن الحج إلى بيت الله الحرام من الفروض الإسلامية «لمن استطاع إليه سبيلاً»، ومن ثم تسامح الحكام المسلمون تجاه رحلات المسيحيين الأوربيين.

وزادت حركة الحج الأوربية إلى القدس وفلسطين أهمية حين ربطت الكنيسة الكاثوليكية بين الحج والتوبة، فقد رأت الكنيسة أنها غير قادرة على منع الحج المسيحى وحولته إلى أداة من أدوات التكفير عن الذنوب داخل نظام وضعته وأشرفت على تنفيذه. كان أهم ملامح هذا النظام أن تكون التوبة، أو العمل الذى يكفر به الفرد عن ذنبه مساويا لهذا الذنب. وتم وضع قوائم بالأعمال التى يكفر بها المذنبون عن خطاياهم، وكان الحج إلى أحد المزارات المقدسة لدى الكاثوليك واحداً من أهم هذه الأعمال التى تجلب الغفران. بيد أن فكرة الغفران لم تصبح فعالة حقاً سوى بعد أن ارتبطت بفكرة الحج إلى القدس. وكانت فكرة الرحلة إلى القدس تحتل مكانة خاصة، كما كانت لها قيمتها السامية بين رحلات الحج إلى المزارات المسيحية الأخرى.

● القدس وقصة المسيح

حقيقة أن القدس كانت ذات جاذبية طاغية بسبب ارتباطها بقصة المسيح وقصص العهد القديم، فضلاً عن طول الرحلة وصعوباتها، ولكن يبدو أن السعى إلى الكمال كان أهم حافز للقيام بهذه الرحلة، فقد ساد الاعتقاد بأن من يقوم بهذه الرحلة يكرس نفسه للرب من جديد، ليبدأ حياة جديدة لاتشوبها الذنوب والخطايا. وإذ أرست الكنيسة الكاثوليكية الاعتقاد بأن رحلات الحج إلى القدس هى طريق الخلاص تزايد إقبال الناس على



قبة الكنيسة تعانق قبة الصخرة فى القدس

المشاركة فيها. وكان القرن العاشر الميلادى بداية عصر الحج الكبير من أوربا إلى فلسطين، بسبب رسوخ مفاهيم التوبة والغفران من ناحية، واستقرار الأوضاع فى حوض البحر المتوسط من ناحية أخرى؛ فضلاً عن قيام العلاقات التجارية بين الجمهوريات الإيطالية، والامبراطورية البيزنطية، ومصر والشام، وما فرضته من ضرورات السلام والهدوء.

● أوربا والغزو!

وعلى الرغم من كل ما ذكرناه عن الحج، فإن الفكرة الصليبية كانت نتاجاً

لمجتمع يعانى من مشكلات النمو والتحول. وكان عجز أوربا عن إعالة أبنائها من أهم أسباب التوجه نحو الغزو والتوسع على حساب الآخر. وكان الآخر آنذاك هم العرب خاصة والمسلمين بشكل عام، ولم تكن هناك إيديولوجية مناسبة لتبرير الغزو والتوسع أفضل من الإيديولوجية التى تقوم على أساس الدين. وكانت العوامل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية هى أكثر العوامل حسماً فى ظهور الحركة الصليبية التى شغلت مساحة من الزمن زادت على قرنين من الزمان فى أدوارها النشطة، كما كان مداها الجغرافى شاسعاً امتد من الجزر البريطانية حتى أعالى الفرات، بيد أن هذا موضوع آخر.

ولنعد إلى القدس. لقد كانت الأفكار والتطورات التاريخية التى جرت على أوربا منذ اعتناقها المسيحية حتى ذلك اليوم من أيام نوفمبر سنة ١٠٩٥م تمهيداً للمشهد التاريخى المثير. فقد ذكر البابا أن هدف «الحرب المقدسة» التى يدعو إليها تحرير الأرض المقدسة من قبضة المسلمين، هذه الأرض التى قال الكتاب المقدس إنها تفيض باللبن والعسل، ووصفها البابا بأنها ميراث المسيح ووعد المشاركين فيها بالغفران لذنوبهم، كما لوح لهم بالمكاسب الدنيوية.

على أية حال سرعان ما تبلورت الاستجابة الحماسية لخطبة إربان فى نوعين من الجيوش: جيوش الفلاحين والعامة التى عرفت باسم «الحملات الشعبية»، وجيوش الأمراء. وبينما كان النبلاء يبحثون عن الموارد اللازمة لتجهيز جيوشهم تجمعت حركة شعبية ارتبطت باسم بطرس الناسك الذى جمع بين الفصاحة وقوة البيان من جهة، والمظهر المزرى من جهة أخرى. فقد كان ذلك الراهب الفصيح حافياً رث الثياب بينه وبين حماره شبه عجيب...

● فشل مزر

وبعد رحلة الألف ومائتى ميل باءت الحملات الشعبية الصليبية بفشل مزر جسد الحقيقة التاريخية القائلة بأن طلائع الصليبيين مرغت «المثال الصليبى» فى طين أطماعهم ووحشيتهم. فعلى طول الطريق كانت القرى المحترقة، والقتلى والجرحى دليلاً ناصعاً على أن «جيش الرب» مرٌ من هنا.

ثم بدأت جيوش الأمراء رحيلها صوب القدس فى أواخر سنة ١٠٩٦م وقد تكونت عدة جيوش على أساس من التقسيمات اللغوية والجنسية من ناحية وعلى أساس من الروابط الاقطاعية من ناحية ثانية ولسنا هنا بصدد تفاصيل تلك الحملة التى توصف عادة بأنها «الحملة الصليبية الأولى»، وإنما يكفى أن نشير إلى أن هذه

الحملة وصلت إلى «أرض العدو» بعد عدة تطورات كشفت عن أن العامل الدينى قد توارى خجلاً أمام العوامل السياسية والاقتصادية والنفسية التى حركت قادة جيوش الحملة الأولى. وكانت نزاعاتهم المسلحة مع الامبراطورية البيزنطية وخصوماتهم الداخلية من أهم أعراض هذه الحال.

لقد أفاد الصليبيون كثيراً من التشرذم السياسى فى المنطقة العربية. إذ كانت الكيانات السياسية العربية والسلجوقية كلها متورطة تماماً فى الحروب والمنازعات على مدى قرن كامل قبل قدوم الصليبيين، وعندما قدموا لم يكن لدى حكام المنطقة العربية سوى ميراث طويل من الشك والمرارة تجاه بعضهم البعض.

كانت تلك ظروفا مثالية للتقدم الصليبى، ووصل الجيش الصليبى إلى أنطاكية التى تقع على منحدر قريب من البحر المتوسط وعلى منحدر يؤدى إلى وادى نهر العاصى الخصيب. وفى الحادى والعشرين من اكتوبر سنة ١٠٩٧م فرض الصليبيون حصارهم على المدينة. ولم يتمكنوا من الاستيلاء عليها سوى عن طريق الخيانة فى الثالث من يونيو سنة ١٠٩٨م. واختلف الزعماء الصليبيون حول ملكية أنطاكية فكادت الحرب تنشب بينهم، وتجسد الإفلاس الإيديولوجى للحملة ، وهدد العامة بإحراق المدينة. وهنا تذكر القادة القدس هدف رحلتهم... فتحركوا صوبها فى يناير سنة ١٠٩٩م.

كان الفصل الأخير فى الحملة الصليبية الأولى هو الحصار الذى فرضه الصليبيون على القدس على مدى خمسة أسابيع من ٧ يونيو إلى ١٥ يوليو ١٠٩٩م ولم يكن هناك ما يلائم هذا الموقف سوى تلفيق بعض أخبار الرؤى والأحلام المقدسة.

وفى يوم الجمعة الخامس عشر من يوليو تمكن الصليبيون من اقتحام المدينة المقدسة، وأعقب ذلك مذبحة فظيعة، وأبيحت المدينة للسلب والنهب والقتل عدة أيام، وفاض الدم، وظلت الجثث مطروحة فى شوارع القدس عدة أيام.

فى هذا الجو الموحش الكئيب اجتمع الصليبيون فى كنيسة القيامة لأداء صلاة الشكر ولاتزال أيديهم ملطخة بدماء الضحايا. وهكذا كان سقوط القدس إعلانا لزرع الكيان الصليبى تحت سماء المنطقة العربية وانتهى المشهد الأول فى قصة القدس والحروب الصليبية.

القدس .. درة التاج

أما المشهد الثانى فى قصة القدس والحروب الصليبية فكان بعد ثمانية وثمانين عاماً كانت المدينة المقدسة أثناءها

أسيرة الفرنج الصليبيين الذين اتخذوها عاصمة لمملكة بيت المقدس. وعلى الجانب الآخر لم يكن المسلمون ليتركوا القدس غنيمة باردة لأولئك الغرباء القادمين للغزو والاستيطان على أرض المنطقة العربية وإن تخفوا وراء شعار الصليب، رمز التضحية بالذات لخلاص الآخرين .

لقد كانت القدس ، ولا تزال ، درة التاج وواسطة العقد فى حضارتنا العربية الإسلامية التى ضمت اليهود والنصارى. العرب فى رحابها ، ومن ناحية أخرى لم يكن العرب ، مسلمين ونصارى ويهودا ، ليغضوا الطرف عن وجود الكيان الصليبى فوق الأرض العربية .

وعلى الرغم من تخاذل حكام المنطقة العربية فى مواجهة الخطر الفرنجى الصليبى منذ البداية ، فإن المصادر التاريخية تحدثنا عن أن الحرب لم تتوقف ضد الفرنج. بيد أن الحكام كانوا على حال من التنازع والأنانية وقصر النظر السياسى بحيث عجزوا عن وقف المد الصليبى إلى أقصى اتساعه فى غضون خمسين سنة بعد نجاح الحملة الأولى.

ولكن الرأى العام داخل المنطقة العربية والعالم الإسلامى بدأ يضغط بكل قواه على الحكام. وبدأ يظهر فى الأفق دليل على أن شيئا ما قد أخذ يتغير داخل المعسكر الإسلامى، وجاء هذا التغيير من جماهير المسلمين الذين أدركوا مدى فداحة الخطر الصليبى من جهة، ومدى فشل وعجز حكامهم من جهة أخرى.

لقد كان الرأى العام يطلب محارباً يقود الأمة فى نضالها ضد الفرنج الصليبيين، وفى ظل هذا البعث الإيديولوجى ظهر عماد الدين زنكى ليقود حركة الجهاد على محور الموصل - حلب، بعد فشل محور القاهرة - دمشق بسبب الضعف السياسى والتفكك الذى عانت منه مصر والشام تحت حكم الفاطميين والسلاجقة فى تلك الفترة وما لبث عماد الدين زنكى أن صار أقوى مسلم فى زمانه لأنه طوع مواهبه وقوته وسلطانه فى خدمة المطلب الشعبى العام، أى الجهاد ضد الفرنج، ولم يلبث عماد الدين زنكى أن تغلب على النعرات الانعزالية ووحد شمال الشام وأعالى العراق والجزيرة، وبات الطريق ممهداً أمامه لتوجيه ضربة قوية ضد الصليبيين.

وجاءت هذه الضربة سنة ٥٣٩ هـ - ١١٤٤م حين تمكنت قوات زنكى من استعادة إمارة الرها من الصليبيين بعد حصار دام ثمانية وعشرين يوماً فقط. وكان ذلك نذير شؤم للصليبيين والمغرب الأوربى لأن الرها كانت أول كيان صليبى تم زرعه فى المنطقة العربية، وعلى الجانب الإسلامى برزت الجوانب الإيجابية العديدة

لاسترداد الرها، إذ خضع وادى الفرات كله للمسلمين، كما ضمن زنكى السيطرة على طرق المواصلات بين الشام والجزيرة والعراق.

وبعد عماد الدين زنكى، جاء ابنه وخليفته نور الدين محمود ليواصل سياسة أبيه فى توحيد الجبهة الإسلامية ضد الفرنج، ولكن محور القاهرة - دمشق كان خارج نطاق سيطرته بشكل جعله عاملاً سلبياً فى حسابات القوة، ولم تلبث تداعيات الأحداث أن جعلت دمشق تتخلص من حاكمها الذى قبل نوعاً من التعايش السلمى مع الصليبيين، وترتمى بين ذراعى نور الدين.

هكذا تم توحيد الجبهة الشمالية. وبسبب تماسكها وهجمات المسلمين المستمرة فى الشمال ضد الصليبيين اتجه هؤلاء صوب الجنوب حيث كانت الظروف مواتية لتركهم. وكان هذا هو التمهيد الحقيقى للمشهد الثانى فى قصة القدس والحروب الصليبية.

كانت مصر آنذاك، تحت الحكم الفاطمى، بمثابة «الرجل المريض» الراقد على ضفاف النيل، ينتظر الجميع وفاته لتقسيم تركته. إذ كانت الخلافة الفاطمية ظلاً باهتاً يحكى عن مجد غابر وقوة ذابلة بعد أن أنهكتها كوارث الطبيعة والحكام. وبسبب السعى نحو كرسى الحكم دون سواه توالى تغير الوزراء، أصحاب السلطة الحقيقية فى ظل الخلفاء الضعاف، فى إيقاع سريع من الفتن والقتل والمؤامرات وازداد منحنى التدهور فى قوة الدولة الفاطمية بشكل أغرى الصليبيين على مهاجمة أملاكها فى فلسطين، ثم مهاجمة مصر نفسها سنة ١١٦١م. وكان ذلك تعبيرا عن اختلال موازين القوة على الجبهة الجنوبية لصالح الصليبيين.

وأخيراً، حانت فرصة التدخل الصليبى والوصول إلى القاهرة دونما معارك بسبب النزاع بين شاور وضرغام المتنافسين على كرسى الوزارة، فقد حث شاور خطاه نحو بلاط نور الدين محمود يستنجد به، على حين لجأ ضرغام إلى طلب نجدة «عمورى» الملك الصليبى. وخلال السنوات الست التى تلت قام الفرنج بغزو مصر خمس مرات.

● الانتصار على الصليبيين

وإذا كان الصليبيون قد طمعوا فى ضم مصر، أو تحييدها، ضمانا لكسر الجبهة العربية الإسلامية، فلا شك فى أن نور الدين محمود قد أدرك أن ضم مصر هو السبيل الوحيد لتحقيق انتصار كامل على الصليبيين، ودار القتال على الأرض المصرية بين المسلمين والفرنج، واختار المصريون الوقوف إلى الجانب العربى الإسلامى بطبيعة الحال. ومن ثم اضطر

الصليبيون إلى الانسحاب وإن ظلت مصر سراباً يجذبهم نحوه بين الحين والحين.

استجاب نور الدين محمود لطلب شاور وأرسل معه جيشا يقوده أسد الدين شيركوه معه ابن أخيه صلاح الدين يوسف الأيوبى، بطل المشهد الثانى فى قصة القدس والحروب الصليبية.

ويشكل عهد صلاح الدين الأيوبى واحدة من تلك اللحظات النادرة والمثيرة فى تاريخ الإنسانية، إذ إن هذا القائد المسلم الفذ - بما تمتع به من أخلاق إسلامية مثالية وشجاعته الاخلاقية وإيمانه بحق أمته - نجح فى أداء دوره التاريخى الذى كان فى حقيقته استمراراً لدور عماد الدين زنكى وابنه نور الدين محمود. وواجه صلاح الدين مشكلات عديدة فى بداية حكمه، بعد أن صار وزيراً لآخر الفاطميين، ثم حاكماً تابعاً لنور الدين محمود بعد موت الخليفة الفاطمى. ولكنه نجح فى المواجهة .

ثم ازدادت قامة صلاح الدين السياسية طولاً بعد وفاة نور الدين محمود، وزاد تعلق الناس بزعامته بعد أن نجح فى توحيد المنطقة العربية تحت رايته. وبدأ الاستعداد للمواجهة ضد الصليبيين. وجاءت الفرصة تسعى إلى صلاح الدين والمسلمين بعد هجوم «أرناط» حاكم الكرك الخبيث الأحمق على إحدى القوافل التجارية القادمة من الشام إلى مصر، وهكذا صارت الحرب حتمية.

وبدأ صلاح الدين يجمع جيوشه من جميع أنحاء المنطقة العربية. وعلى الجانب الآخر تجمع جيش صليبى ضخم وفى أول شهر يوليو ١١٨٧م عبر صلاح الدين نهر الأردن ثم عسكر فى اليوم التالى فى التلال الواقعة على بعد خمسة أميال من بحيرة طبرية. وعشية المعركة كان الصليبيون يعسكرون فوق الهضبة التى تعلو حطين مباشرة. وأمضى الصليبيون ليلة حالكة السواد، وأزعجتهم أصوات المسلمين وهم يكبرون. وعندما أشرق فجر يوم السبت الرابع من شهر يوليو كان الجيش الصليبى محاصرا بحيث لاتستطيع قطة أن تنفذ من هذا الحصار.

وسرعان ما بدأ الهجوم الإسلامى، وتساقط الفرسان الصليبيون. وعندما وصل الفرسان المسلمون المنتصرون إلى أعلى الهضبة، كان الفرسان الصليبيون يرقدون متهالكين حول ملكهم، لا يكادون يقدرون على رفع سيوفهم لكى يستسلموا لقوات صلاح الدين. وفى الخيمة السلطانية استقبل صلاح الدين أسراه وعلى رأسهم الملك الصليبى. ثم قام بقطع رأس الأمير الصليبى أرناط الذى اشتهر بحماقاته وعدم وفائه.

ما حدث بعد حطين كان أشبه بنزهة عسكرية، وفى أواخر جمـادى الثانية

٥٨٣ هـ سبتمبر ١١٨٧ هـ اتجه صلاح الدين صوب القدس، رمز النصر فى هذه المواجهة الطويلة المضنية. وفى ٢٠ سبتمبر عسكر الجيش الإسلامى أمام المدينة المقدسة، وبدأت القوات الإسلامية تهاجم الأسوار الشمالية والغربية للمدينة. ولكن حرارة الشمس والمقاومة العنيفة جعلت الهجوم الذى استمر خمسة أيام يسفر عن لا شىء. ونقل صلاح الدين الأيوبى معسكره، وظن الصليبيون أن الجيش الإسلامى قد رفع الحصار. ولكن صباح السادس والعشرين من سبتمبر أكد لهم أن أمانيهم قد ساقتهم بعيدا صوب الخيال. إذ كان جيش صلاح الدين قد عسكر من جديد فوق جبل الزيتون الذى يطل على المدينة.

● شروط صلاح الدين

وحين أدرك الصليبيون عبث المقاومة ذهب قائدهم بنفسه إلى معسكر صلاح الدين طالبا تسليم المدينة وليسأل صلاح الدين عن شروطه. وكانت شروط القائد المسلم كريمة تجسد أخلاقه المثالية، إذ تعين على الصليبيين أن يدفعوا فدية عن أنفسهم فى مدى أربعين يوما، وخرج البطريرك الصليبى ومعه كل الذهب والفضة والأموال التى كانت بالكنيسة ولم يدفع سوى فديته الشخصية وقدرها عشرة دنانير. ولا شك فى أن الجنود المسلمين الذين نهاهم قائدهم عن المساس بأى مدنى قد غاظهم منظر ذلك البطريرك وهو يخرج محملا بتلك الكنوز التى نهبها الصليبيون من المسلمين ومن المسيحيين الشرقيين.

لقد قارن المؤرخ الانجليزى ستيفان رنسمان بين هذا المشهد الإنسانى وبين مشهد الجريمة البشعة التى ارتكبها الصليبيون ضد المدنيين – رغم عهد الأمان – بعد أن استولوا على المدينة المقدسة قبل ثمان وثمانين سنة.

هكذا تحررت المدينة المقدسة وأقيمت صلاة الجمعة فيها بعد طوال غياب عن المسجد الأقصى، وبدأت الحياة العربية الإسلامية تنتعش من جديد فى المدينة العائدة وأنشأ صلاح الدين الأيوبى بعض المدارس فضلا عن المستشفى «البيمارستان» الذى أنشأه.

كان المشهد الثالث فى قصة القدس والحروب الصليبية مزيجاً من الأسى والعجب والإحباط. لقد أحدثت وفاة صلاح الدين فراغا سياسيا كبيراً فى المنطقة، إذ أن دولته تفككت وتوزعت بين خلفائه. ولم يواصل الأيوبيون سياسة المبادرة والهجوم التى سار عليها مؤسس دولتهم، وإنما كان موقفهم دفاعياً فى مجمله، وشهد عصر الأيوبيين تغيرا فى سياسة الصليبيين العسكرية، إذ بدأت دلتا نهر النيل تحل محل ضفاف نهر الأردن فى خطط الصليبيين، وتجسدت هذه الرؤية فى الهجوم الذى شنته الحملة الصليبية

الخامسة على مصر من ناحية، وفى عرض السلطان الكامل التفاوض مع الصليبيين، من ناحية أخرى لقد عرض عليهم الانسحاب من دمياط مقابل حصولهم على بيت المقدس وبعض مناطق فلسطين. كان عرض ذلك السلطان على الفرنج غاية فى الكرم والسخاء والتخاذل والهوان، ومع ذلك رفض الصليبيون عرضه. لأنهم يريدون مصر والمنطقة العربية.

وهكذا أسفر المشهد الثالث عن حيرة القدس بين سلطان مسلم متخاذل يريد أن يسلمها للفرنج هرباً من مسئولياتها، وقادة صليبيين لا يريدونها، وعندما هاجم الجيش والبحرية المصرية الفرق الصليبية، اضطر الفرنج إلى أن يتخلوا عن أحلامهم فى حكم مصر وسط أوحال الدلتا.

وبقيت القدس على حيرتها...

ولكن الحيرة لم تدم طويلاً، فقد كان السلطان الكامل مصراً على إثبات كرمه أمام «الصديق» الصليبى، كان الامبراطور فردريك الثانى، الذى اشتهر بلقب «أعجوبة الدنيا»، قد تولى العرش سنة ١٢١٥م وقام بحملة صليبية، عرفت بالحملة السادسة، أخذ فيها بيت المقدس دون نقطة دماء واحدة، والطريف أنه قام بحملته الصليبية وهو تحت عقوبة الحرمان الكنسى التى وقعها البابا عليه.

كانت أهم نتائج هذه الحملة العجيبة التى تجنبت إراقة الدماء أن عقدت هدنة مدتها عشر سنوات بين الجانبين، على أساس أن يتسلم الإمبراطور مدينة القدس وبيت لحم، وشريطا من الأرض يصل بين عكا والقدس، ويتبقى فى حوزة المسلمين المسجد الأقصى وقبة الصخرة والمناطق الريفية، وفى مقابل ذلك يتعهد فردريك بمنع أية حملة صليبية طوال عشر سنوات من أوربا وعادت القدس أسيرة من جديد، لقد تخلى عنها السلطان مقابل «راحة البال» من ناحية أوربا ولكى يتفرغ للقتال ضد أشقائه!!

أما العالم العربى الإسلامى، فقد رأى بحق أن الهدنة التى عقدها الكامل الأيوبى كارثة حقيقية. وكان رد الفعل الشعبى عنيفا ضد السلطان.

وقد تمكن الملك الناصر داود الأيوبى حاكم الكرك من استعادة بيت المقدس من الصليبيين فى ديسمبر سنة ١٢٣٩م، ثم استولى عليها الصالح نجم الدين أيوب حاكم مصر سنة ٦٤٢ هـ - ١٢٤٤م . وكانت تلك الاستعادة الأخيرة لبيت المقدس وظلت بيد المسلمين حوالى سبعة قرون قبل أن يدخلها جيش أوربى آخر وقبل أن يحتلها الصهاينة.



القدس

أمانة عمر ..
تنتظر صلاح الدين

بقلم د. محمد عمارة

فى الألف الرابعة قبل الميلاد ، بنى الكنعانيون - أهل فلسطين - مدينة «يورد سالم» أو «يوروشالم» . ومن اسمها هذا جاءت تسميتها الغربية Jerusslem† فى اللغات اليونانية واللاتينية والألمانية والفرنسية والانجليزية وغيرها .. ومن هذا الاسم ، أيضا ، جاءت تسميتها فى «العهد القديم» بـ «اورشليم» ..

ولقد بدأ تاريخ العبرانيين الاتصال بهذه المدينة الكنعانية ، عندما استولى عليها داود، عليه السلام، فى القرن العاشر قبل الميلاد ، أى بعد نحو ثلاثة آلاف عام من تأسيسها على يد الكنعانيين! .. ولم تدم هذه السيطرة العبرية على هذه المدينة لأكثر من أربعة قرون - (٤١٥ عاما) - .. أى إلى التاريخ الذى هدمها فيه البابليون ، الذين أزالوا «مملكة يهوذا» من الوجود سنة ٥٨٥ ق . م ، وبدأوا حقبة «السبى البابلى» للعبرانيين .



القدس بمبانيها القديمة وآثارها الشهيرة .. ظل الصراع للسيطرة على المدينة المقدسة وكان أشرسها ما شهدته أثناء الغارات الصليبية ..
القدس التى حررها صلاح الدين الأيوبى، مازالت أسيرة تنتظر صلاح الدين الجديد !

وحتي بعد سماح الفرس لبعض العبرانيين بالعودة إلي أرض كنعان ، كانت عودة الذين عادوا منهم إليها ، عودة استيطان، بلا دولة ، وبلا سيادة علي مدينة «أورشليم» ..

لكن هذا «الوجود اليهودى » قد عاد وأثار حفيظة الدولة الرومانية، فدمروا هذه المدينة مرتين ، الأولى على يد الامبراطور «تيطوس» Titus (٣٩ – ٨١ م) فى سنة ٧٠ م .. والثانية على يد الامبراطور «حدريانوس» سنة ١٣٥ م، وذلك عندما محاها محوا تاما ، بل وغير اسمها الى «ايليا كابيتولينا» – أى إيليا العظمى – وهو الاسم الذى ظل علما عليها حتى الفتح الإسلامى لها (١٥ هـ ، ٦٣٦ م) فى خلافة الراشد الثانى الفاروق عمر بن الخطاب (٤٠ ق . هـ – ٢٣ هـ ، ٥٨٤ – ٦٤٤ م) .

وفى السنوات الاربعمائة . التى سيطر فيها العبرانيون على هذه المدينة ، احتكروا قداستها لمقدساتهم وحدهم ، دون غيرهم من الشعوب التى كانت تقطن أرض كنعان فى ذلك التاريخ ، وهى الشعوب التى بنت هذه المدينة قبل ثلاثة آلاف عام من دخول داود عليه السلام إليها .. وظلوا يمارسون هذا الاحتكار ، بل والاضطهاد ، مع النصرانية والنصارى ، منذ بعثة المسيح عيسى بن مريم ، عليه السلام .

وبعد تدين الدولة الرومانية بالنصرانية – (فى القرن الرابع الميلادى) – كانت قدسية هذه المدينة «ايليا» وقفا على النصارى ، الذين اضطهدوا اليهود ، وجعلوا أماكن «هيكلهم» – بعد هدمه – مجمعا للقمامة والقاذورات ، تجلب اليه من داخل المدينة وخارجها ! .. حتى لقد طلبوا من عمر بن الخطاب ، عند تسلمه للمدينة ، بعد فتحها، أن يضمن لهم « ألا يساكنهم فيها أحد من اليهود » ! .

ذلك هو تاريخ هذه المدينة قبل الاسلام.

★★★

لكن فتح الإسلام والمسلمين لهذه المدينة – « يورو سالم – أورشليم – ايليا» كان بداية عصر جديد ..

فالإسلام والمسلمون هم الذين أعطوا لهذه المدينة القداسة والقدسية ، حتى فى اسمها الجديد ، فسميت بـ «بيت المقدس» و «القدس» منذ ذلك التاريخ .. ولأول مرة فى تاريخها الدينى ، تصبح قداستها عامة لجميع أمم الرسالات السماوية – اليهودية.. والنصرانية .. والإسلام – وليست حكرا لأبناء دين دون غيرهم من

ابناء الديانات الأخرى ..

فأماكن المقدسات اليهودية المهدومة منذ قرون ، والتى جعلها النصارى - فى العصر الرومانى - « مجمعا للقمامة والقانورات» ذهب اليها عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، بعد أن تسلم المدينة ، وعقد مع أهلها «العهد العمرى» الشهير ، « فوجد على الصخرة زبلا كثيرا ، مما طرحه الروم غيظا لبنى اسرائيل ، فبسط رداءه ، وجعل يكنس ذلك الزبل ، وجعل المسلمون يكنسون معه الزبل ، وتتبع المسلمون أماكن عبادة الانبياء السابقين واحدا واحدا ، ابتداء من ابراهيم الى آخر من دفن منهم فى فلسطين وبيت المقدس ، فأقاموا فيها المساجد ، وحافظوا على قدسيتها ، وطهروها تطهيرا» - (د. اسحاق موسى الحسينى « مكانة بيت المقدس فى الإسلام» كتاب المؤتمر الرابع لمجمع البحوث الاسلامية - ص ٥٧ ، ٥٨ - سنة ١٩٦٨ م).

● عمر يتسلم أمانة القدس

لقد أحل المسلمون هذه المدينة مكانا فريدا تميزت به عن كل المدن التى فتحوها، وذلك عندما لم يتسلمها القائد الفاتح - وهو « أمين الأمة» أبو عبيدة بن الجراح (٤٠ ق هـ - ١٨ هـ، ٥٨٤ - ٦٣٩م) وكان تسليمها للخليفة عمر بن الخطاب ، الذى ركب من «المدينة المنورة» إليها ليتسلم امانتها، وليعقد بنفسه «العهد العمرى» مع بطريركها «صفر ونيوس» (١٧ هـ ، ٦٣٨م) .. ولتكون لها ، بهذه الخصوصية، مكانة « امانة الفاروق عمر» لدى أمة الإسلام ! .. وهو شرف لم تحظ به مدينة من المدن التى فتحها المسلمون ، عبر تاريخ الفتوحات .

ويتغير اسم هذه المدينة ، الى «القدس» و «بيت المقدس» ، رفع المسلمون عليها رايات القدسية والتقديس ، ويتحرج عمر بن الخطاب - عندما كان يجلس مع «صفر ونيوس» فى كنيسة القيامة - من أن يصلى فى الكنيسة ، رغم دعوة البطريرك ، كى لا تكون لمسلم شبهة حق فى أرض الكنيسة يقيم فيها مسجدا .. بهذا الموقف العمرى أضفى عمر بن الخطاب تقديس الاسلام لمقدسات النصارى .. ولم يكن عمر فى ذلك «مبتدعا» ، بل ولا حتى «مجتهدا» ، لأنه هو المؤمن بالعقيدة الإسلامية ، التى لا تكتمل اركانها إلا بالإيمان بسائر الرسل وجميع الرسالات وكل الكتب التى سبقت رسالة محمد ، صلى الله عليه وسلم ، على درب علاقة السماء بالإنسان (ذلك الكتاب

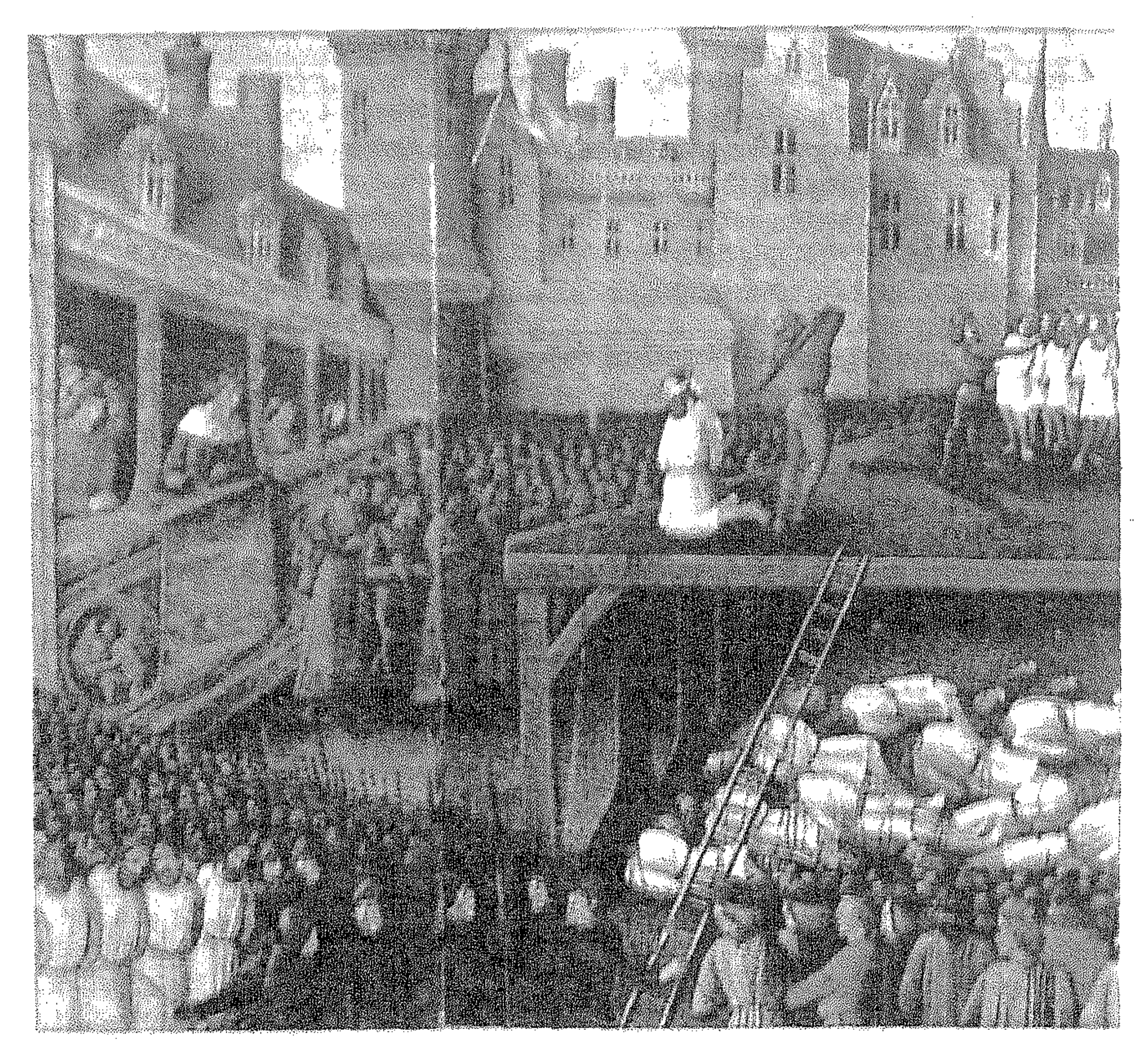
لاريب فيه هدى للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون ، أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون) البقرة ٢ - ٥ . (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله) البقرة ٢٨٥ .. وهو - عمر - الذى يتعبد بالقرآن الكريم ، الذى عرض لمقدسات امم الرسالات السماوية جميعا ، فبدأ بالصوامع وانتهى بالمساجد (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ، ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز) الحج - ٤٠ .

بهذا الموقف العمرى ، بدأت الحقبة الإسلامية فى تاريخ المدينة ، فغدت قداستها عامة لعامة ابناء رسالات السماء .. فكنيسة القيامة قدس خاص بالنصارى .. ومواطن المقدسات اليهودية ، أعاد اليها عمر والمسلمون الطهارة عندما رفعوا عنها القمامة والقاذورات .. وارتفعت فى المدينة عمائر المساجد الإسلامية .

صنع المسلمون ذلك ، لأنهم أمة الرسالة الخاتمة ، التى ورثت كل مواريث الانبياء والمرسلين ، فكانت رسالة رسولهم اللبنة التى تممت بناء دين الله الواحد ، وحملت امانة الحفاظ على سائر لبنات هذا البناء ، فأمة الشريعة التى اكملت الدين الإلهى الواحد ، هى الحاملة لأمانة الحفاظ على مقدسات سائر شرائع هذا الدين، لأنها وحدها التى تعترف بشرعية سائر شرائع هذه الاديان ..

★★★

والمسلمون صنعوا ذلك مع «القدس» تحديدا ، لأن قرآنهم الكريم قد جعل الرباط بين «القدس» وبين «الحرم المكى» - الذى هو قبلة الأمة الخاتمة - آية من آيات الله ، وليس مجرد رباط سياسى أو إدارى، يقيمه فاتحون وينقضه غزاة ! .. (سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير» الإسراء : ١ .. فكان الإسراء - إسراء الله بعبده ورسوله من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى - وعروجه من الصخرة الى سدرة المنتهى ، الإعلان الإلهى عن ختم هذه الرحلة القدسية لخطوات الانبياء والرسل على طريق الله ، وعن حمل أمة الرسالة الخاتمة امانة الجهاد فى سبيل الحفاظ



ريتشارد قلب الأسد يحضر تنفيذ الاعدام فى الحجاج المسلمين

على مقدسات كل الرسالات ، تلك التى تجسدها مدينة القدس قبل غيرها ، وأكثر من غيرها من المدن والبقاع ..

ولقد شهد التاريخ الإسلامى للقدس ، بأحرف من نور ، على وفاء الأمة الإسلامية بهذه الامانة ، التى ارادها الله، والتى رمزت اليها رحلة الاسراء ، والتى سلمها اياها عمر بن الخطاب .. فغدت القدس ، منذ ذلك التاريخ ، مشاعة القداسة ، مفتوحة الأبواب لكل ابناء رسالات السماء .. ازدهرت فيها ، إلى جانب المساجد الإسلامية ، كنائس

النصارى .. وأخذ اليهود يعودون الى سكناها ، بعد أن حرموا من ذلك فى العهد الرومانى ، الوثنى والنصرانى على حد سواء ! .. بل لقد تولت الأسر المسلمة المقدسية «نظارة الأوقاف » التى أوقفها النصارى على كنائسهم ، اختارهم النصارى لذلك ، فرعوا هذه المقدسات النصرانية على امتداد التاريخ الإسلامى .

وشاء الله أن تظل هذه «الامانة» من خصائص الأمة الاسلامية ، والدول الاسلامية دائما وأبدا ..

وشاء الله أن تظل هذه «الأمانة» من خصائص الأمة الإسلامية ، والدول الإسلامية دائما وأبدا .

فعندما جمع البابا الذهبى «إربان الثانى» (١٠٨٨ ـ ١٠٩٩) فرسان الاقطاع الأوربيين ـ الذين كانوا يتناحرون على الإمارات والجبايات ـ ليوجه طاقاتهم القتالية ضد العالم الإسلامى ، وفى سبيل احتلال القدس ـ وبعد أن ضمن تمويل الحملات الصليبية من قبل المدن التجارية الإيطالية ، مقابل استيلائها على طرق التجارة العالمية المارة بالوطن العربى؟!.

وخاطب البابا هؤلاء الفرسان ـ فى «كليرمونت» بجنوبى فرنسا سنة ١٠٩٥م ـ فقال لهم : « أنتم فرسان أقوياء ، ولكنكم تتناطحون وتتنابذون فيما بينكم ، ولكن ، تعالوا و حاربوا الكفار «المسلمين ؟!» ، يامن تنابذتم اتحدوا ، يامن كنتم لصوصا كونوا الآن جنودا ، تقدموا إلى البيت المقدس ، انتزعوا تلك الأرض الطاهرة ، واحفظوها لأنفسكم ، فهى تدر سمنا وعسلا ؟! ، إنكم إذا انتصرتم على عدوكم ورثتم ممالك الشرق..»؟!.

● اللصوص والمدينة المقدسة

فلما حدث واجتاح هؤلاء «اللصوص الذين صاروا جنودا» ! ، المدينة المقدسة سنة ١٠٩٩م ، ماذا صنعوا بها ؟! ، لقد صنعوا ما وصفه المؤرخ المسيحى «مكسيموس مونروند» فى كتابه «حرب الصليب» ، فقال ـ بلغته وعبارته ـ :

«انعقد ديوان المشورة العسكرية الصليبى ، فقرر أن يُمات ـ «يقتل» ـ كل مسلم باق داخل المدينة المقدسة »!!

واستمرت المجزرة أسبوعا كاملا ، ومن هرب فى البيوت والأقبية ، قبضوا عليه وقذفوا به من أعلى البيوت والأبراج فى النار ؟! ، أماالذين احتموا بجامع عمر ابن الخطاب ـ الذى سبق وتحرج من مجرد الصلاة فى كنيسة القيامة !! ـ فلقد غدت دماؤهم سيلا «علا إلى حد الركب ، بل إلى حد لُجم الخيل» ـ كما يقول «مكسيموس» ـ ! ، وفى الرسالة التى بعثوا بها إلى البابا ، يبشرونه بما صنعوا، قالوا مفاخرين : «إذا أردت أن تعرف مايجرى لأعدائنا ، فثق أنه فى

معبد سليمان. كانت خيولنا تغوص إلى ركبها فى بحر دماء الشرقيين»؟!

وأبادوا المسلمين ، وكذلك اليهود ، وحولوا المسجد الأقصى إلى كنيسة لاتينية، وانفردوا بالمدينة المقدسة، بعد أن حفظ المسلمون قداستها بين أبناء كل الديانات!

لكن ذاكرة الأمة لم تنس ، للحظة واحدة ، هذه المدينة المقدسة ، بل لقد اتخذت منها ثقافة الأمة ، والتى كان الشعر لسانها المعبر وإعلامها المفصح ـ الرمز لذلك الصراع الذى دام مع الغزوة الصليبية على امتداد قرنين من الزمان (٤٨٩ ـ ٦٩٠هـ ـ ١٠٩٠ ـ ١٢٩١م).

وكانت الأمة تدرك أن فك أسير القدس، وتحرير الأقصى ، واستعادة الأرض السليبة ، لاسبيل إليها إلا بوحدة مصر مع المشرق العربى، لتطويق الكيانات الصليبية المغروسة قسرا فى قلب وطن الأمة ، ولذلك كان التذكير بالقدس مصاحبا لكل خطوة تتحقق على طريق هذا التوحيد .

فعندما تدخل جيوش السلطان نور الدين الشهيد (٥١١ ـ ٥٦٩ هـ ، ١١١٨ ـ ١١٧٤م) إلى مصر ، بقيادة أسد الدين شيركوه ، ومعه ابن أخيه صلاح الدين الأيوبى ـ فتبدأ بذلك خطوات وحدة مصر بالمشرق العربى ، نجد «العماد الكاتب» ، وهو يهنىء أسد الدين شيركوه ، مذكرا إياه بالمقصد الأسمى : القدس والمسجد الأقصى ، فيقول لأسد الدين :

فتحت مصر ، وأرجو أن تصير بها
ميسرا فتح بيت القدس عن كثب .

فإذا توجه بالتهنئة إلى السلطان نور الدين ، رأيناه يحدثه عن أن شروط تحرير القدس قد بدأت تجتمع – بوحدة مصر مع المشرق – فيقول :

أغز الفرنج فهذا وقت غزوهم
وأحطم جموعهم بالذابل الحطم
فملك مصر وملك الشام قد نظما
فى عقد عز من الإسلام منتظم

فانتظام وحدة مصر والشام فى «عقد الإسلام» هو شرط التحرير للقدس الأسيرة والأقصى السليب !

ونفس «الفكر الاستراتيجى» ، يعبر عنه «الشعر» ! ، عندما يعلن الشاعر ابن عساكر بن الحسن هبة الله ، أن لاعذر عن تأخير المعركة الفاصلة ، طالما تحققت وحدة مصر والشام فى «عقد الإسلام» ، فيوجه الحديث إلى السلطان نور الدين قائلا :

ولست تعذر فى ترك الجهاد وقد
أصبحت تملك من مصر إلى حلب
وصاحب الموصل الفيحاء ممتثل
لما تريد ، فبادر فجأة النوب!

وعندما يستكمل صلاح الدين الأيوبى (٥٣٢ ـ ٥٨٩ هـ ، ١١٣٧ ـ ١١٩٣م)

مقومات معركة التحرير ، ويحرز انتصاره على الصليبيين فى «غزة» ، نجد الشاعر ـ العماد الكاتب ـ يحدثه عن أن فتح القدس هو الباب لتحرير سائر البقاع التى احتلها الصليبيون ، فهى الرمز للصراع كله ، وهى البوابة لتعميم الانتصارات! يعبر العماد الكاتب عن هذه الاستراتيجية الإسلامية ، شعرا ، يتوجه به إلى صلاح الدين الأيوبى ، فيقول :

غزوا عقر دار المشركين «بغزة»
جهارا ، وطرف الشرك خزيان مطرق
وهيجت للبيت المقدس لوعة
يطول بها منه إليك التشوق
هو البيت ، إن تفتحه ، والله فاعل
فمابعده باب من الشام مغلق!

هكذا كانت «القدس» : الرمز ، والمقصد ، والمفتاح ! ، ولاتزال !

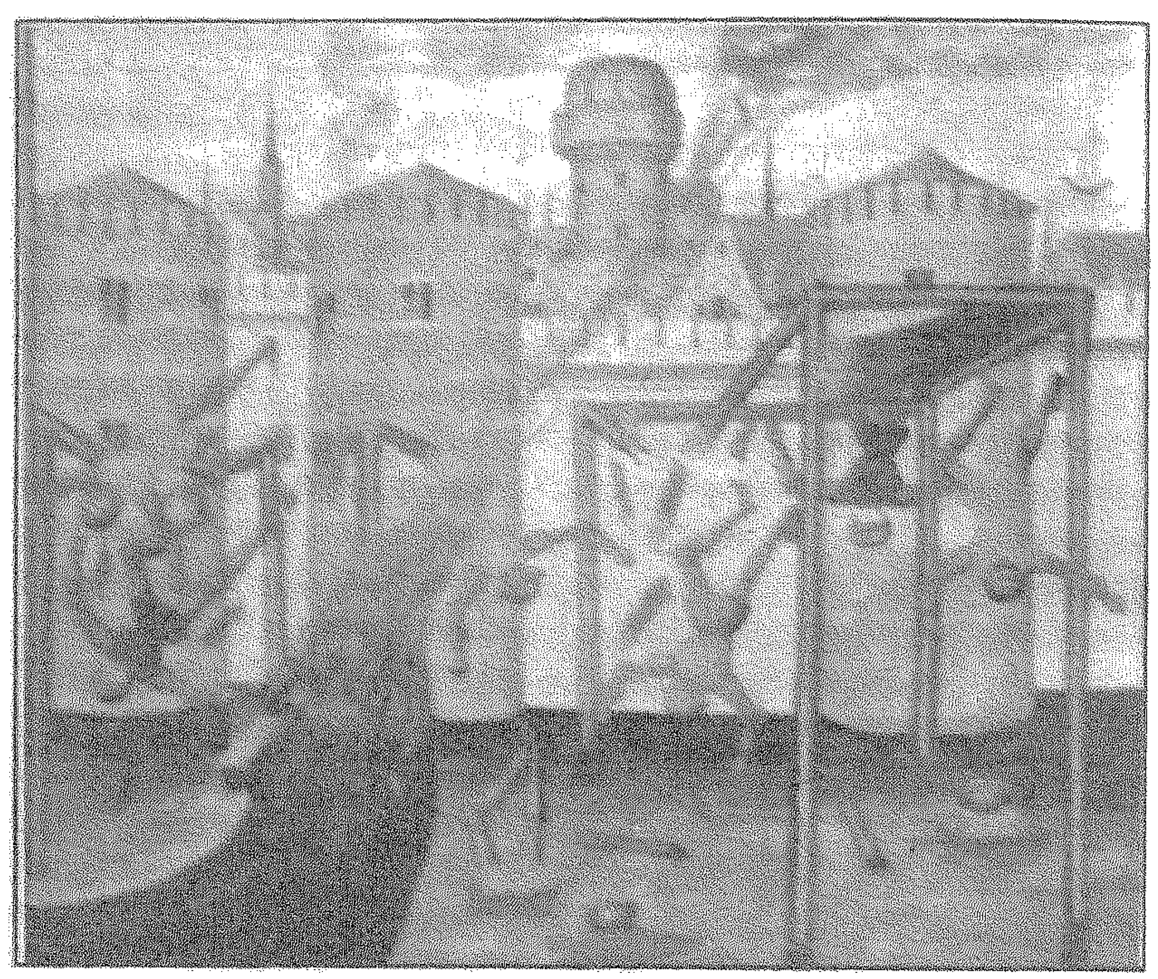
وعبر «حطين» ، التى كانت ـ بلغتنا «المعركة المصيرية» ، المقررة «لوجود المنتصر» و «عدم المهزوم» ـ والتى تحدث عنها الأمير الفارس المؤرخ ـ الذى عاصرها ـ ابن شداد (٦١٣ ـ ٦٨٤ هـ، ١٢١٧ ـ ١٢٨٥م) فقال : «لقد علمت كل طائفة أن المكسورة منها مدحورة الجنس معدومة النفس» ! . عبر «حطين» وصلت جيوش صلاح الدين إلى أسوار القدس ، فحررها فى ذكرى الاسراء والمعراج ـ ٢٧ رجب سنة ٥٨٣ هـ ٢ أكتوبر سنة ١١٨٧ م ـ ليعيدها إلى «عقد الإسلام» الذى انتظمت فيه منذ أن أسرى الله برسوله ، صلى الله عليه وسلم ، من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى بارك فيه وحوله ـ أرض فلسطين .!

وبعد تحرير صلاح الدين الأيوبى للقدس ، لم يبق ـ كما قال الشاعر ـ «باب من الشام مغلق» ، فتحررت الكثير من المدن والقلاع والحصون التى سبق واستولى عليها الصليبيون .

وبهذا التحرير، عادت القدس ، كما كانت قبل الغزوة الصليبية : المدينة المقدسة ، والمشاعة قدسيتها ـ تحت السلطة الإسلامية ـ لسائر أبناء كل أمم رسالات السماء !

★★★

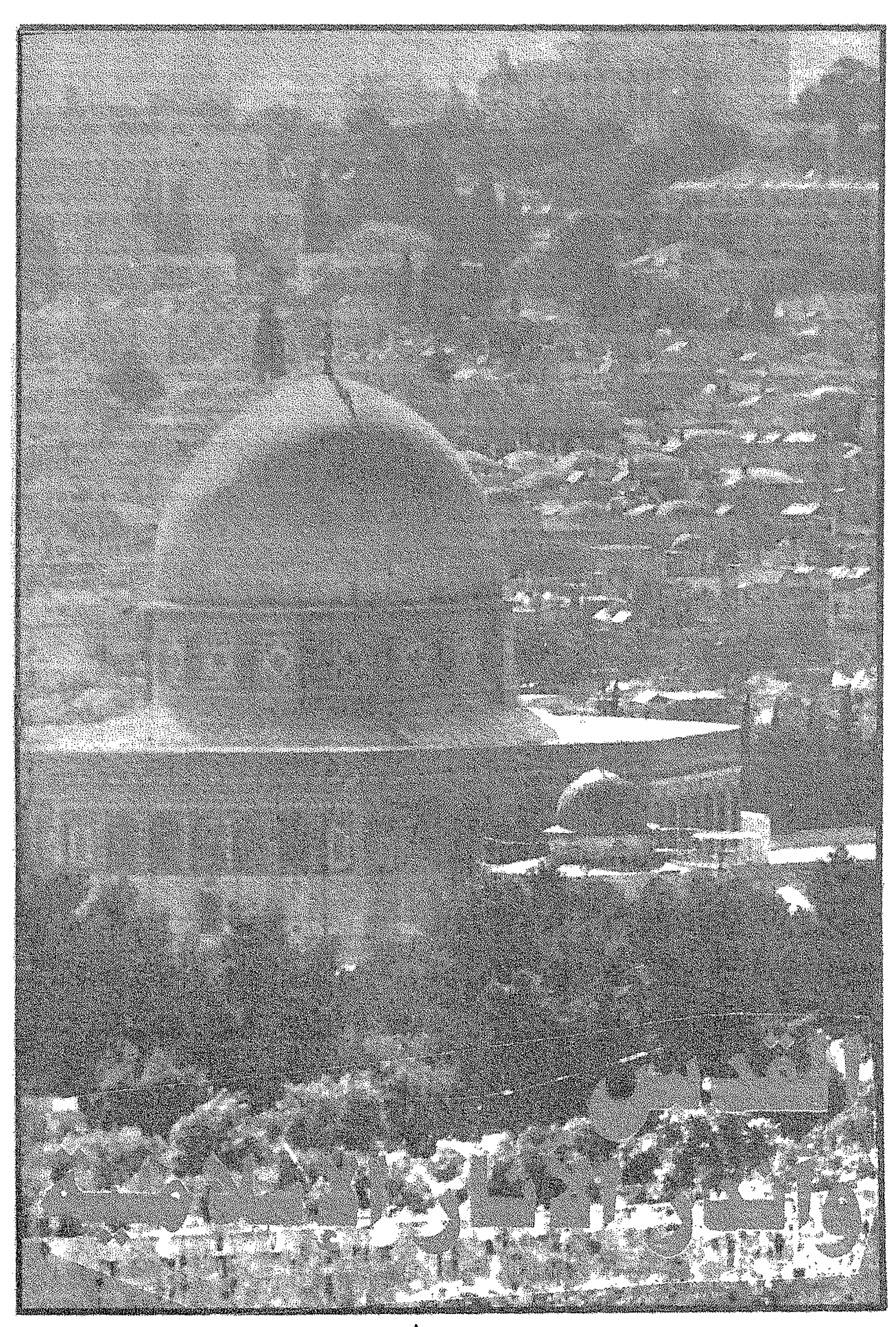
لكن القوى الغربية ، التى حركت ونظمت ومولت وقادت الغزوة الصليبية ، قد عادت ، فى مرحلة لاحقة ، وفى طور جديد ، لتحقيق ذات المقاصد : « انتزاع الأرض التى تدر سمنا وعسلا» !! فبدأت ، بعد سقوط غرناطة (٨٩٧ هـ، ١٤٩٢م) ، مرحلة تطويق العالم الإسلامى ، عبر اكتشاف البرتغاليين لرأس الرجاء الصالح (٩٠٣هـ، ١٤٩٧م) ومحاربة الجيش المصرى على سواحل الهند (٩١٠ هـ، ١٥٠٤م) ، لتسلم إلى مرحلة ضرب قلب هذا العالم الإسلامى التى بدأت بحملة بونابرت على مصر (١٢١٣هـ، ١٧٩٨م) ، ولتؤسس منذ ذلك التاريخ ، «الشراكة» بين المشروع الغربى وبين



منمنة تصور حصار تيرو من مقتنيات المكتبة الوطنية بباريس

المشروع الصهيونى ، فمن نداء نابليون ليهود العالم كى يتعاونوا معه لإقامة امبراطوريته الشرقية لقاء أن يعيد إليهم «ملك بنى اسرائيل» ، إلى وعد بلفور (١٣٣٦ هـ ١٩١٧م) إلى إقامة اسرائيل (١٣٦٧هـ ١٩٤٨م) إلى اغتصاب كامل القدس (١٣٨٧ هـ، ١٩٦٧م) ، والذى بدأت به مرحلة تهويد المدينة المقدسة ، واحتكارها دون الذين حملوا أمانة قداستها ، وعمموها لكل أبناء الديانات، لأكثر من أربعة عشر قرنا !

وإذا كانت ذاكرة الأمة ـ بواسطة ثقافتها ـ قد ظلت واعية بمكانة القدس فى هذا الصراع التاريخى المتعدد المراحل والحلقات ، مكانة «الرمز ، والمقصد ، والمفتاح» ، حتى جاء فحررها صلاح الدين الأيوبى ، فإن مهمة ثقافتنا ـ الوطنية ، والقومية ، والإسلامية المعاصرة ـ هى إبقاء ذاكرة الأمة على وعيها الكامل بمكانة هذا القدس الشريف ، وذلك حتى يطلع الفجر الجديد بالناصر : صلاح الدين الجديد !



بقلم : د. محمد حمزة إسماعيل *

تعد القدس ثالث المدن العربية الاسلامية المقدسة بعد مكة والمدينة، فإليها أسرى بالرسول محمد صلى الله عليه وسلم، ومن فوق صخرتها عرج به إلى الأفق الأعلى ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى، وبذلك بلغ الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام عند ربه مقاما لم يبلغه الخليل ولا الكليم عليهما السلام، ولا وصل إليه ملك مقرب ولا نبى كريم.

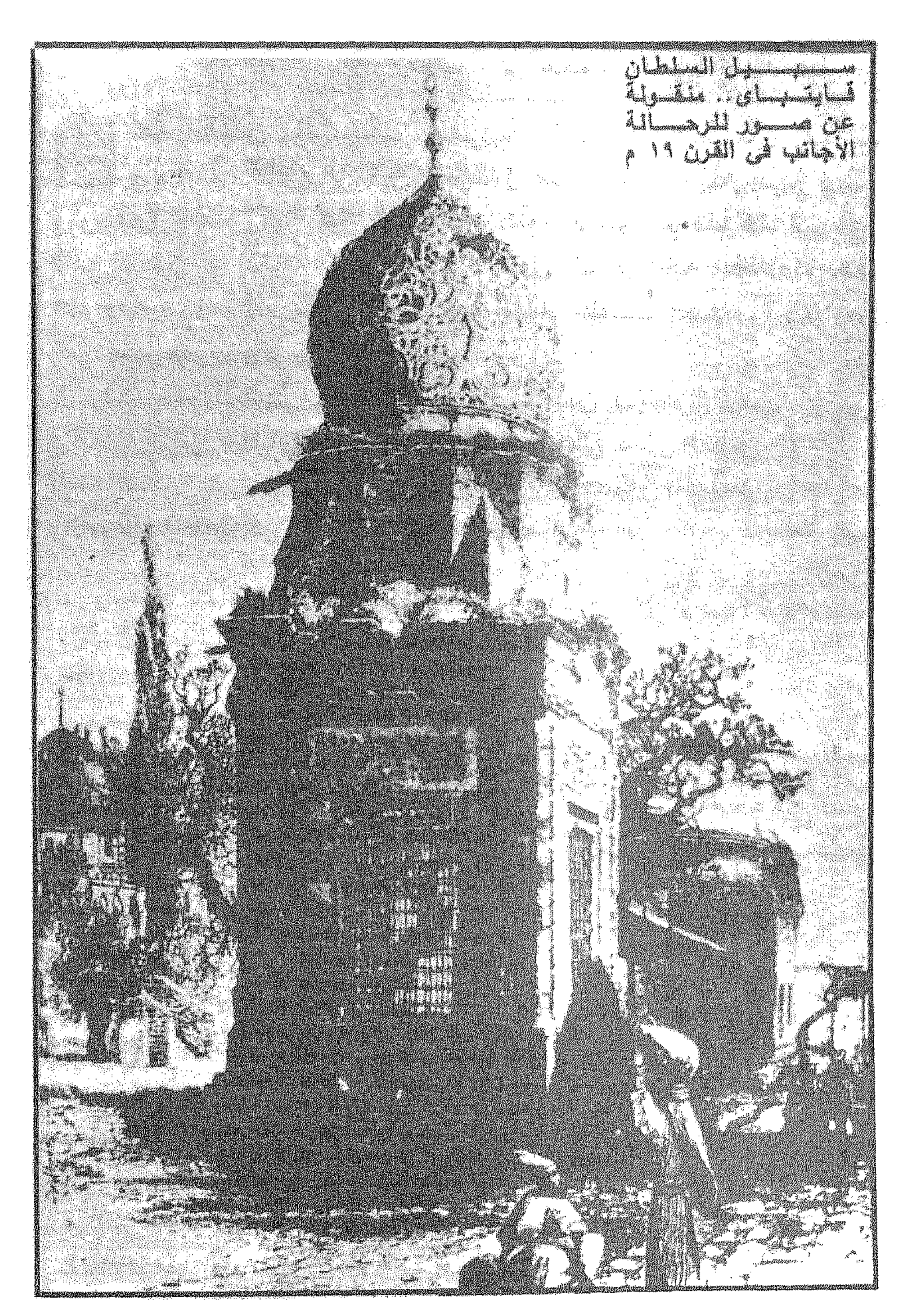
وقد اهتم الكثير من الخلفاء والسلاطين والأمراء بحركة البناء والتعمير التى شهدتها هذه المدينة الخالدة على مدار العصور الاسلامية المتعاقبة، بدءا بالعصر الأموى ومرورا بالعصور العباسى والفاطمى والأيوبى والمملوكى وانتهاء بالعصر العثمانى.

وتحتفظ القدس بمجموعة كبيرة من الآثار الاسلامية المعمارية المتنوعة والمتعددة دينية كانت أو جنائزية أو مدنية أو حربية.

وبذلك فمن الممكن دراسة هذه العمائر ومعرفة طرازها المحلى ومراحل تطوره ومدى ارتباطه بالطرز المجاورة له والقريبة منه، سواء فى المدن الشامية المختلفة أو فى مدينة القاهرة.

كذلك فإن مشاهدات الرحالة المسلمين والأجانب الذين زاروا القدس ووصفوا آثارها المختلفة، تعد من أهم المصادر التى تعتمد عليها الدراسات الحديثة المتعلقة بالعمارة الاسلامية من قبل العلماء والباحثين العرب والأجانب، كما أن الوثائق المختلفة وبخاصة وثائق الوقف وسجلات المحاكم الشرعية تعد مصدرا أصيلا صادقا ومعينا لاينضب سواء فى دراسة التطور العمرانى والطوبوغرافى للمدينة من جهة، أو فى دراسة العمائر المختلفة ومعرفة التغيرات التى طرأت عليها وإجراء الترميمات اللازمة، حتى يمكن إعادتها إلى الحالة التى كانت عليها وقت إنشائها فى ضوء الوصف المعمارى والزخرفى المفصل والدقيق، الذى يرد غالبا فى العديد من هذه الوثائق، فضلا عن تزويدنا بالمصطلحات الفنية المتداولة بالقدس، ولايتسع المجال لمثل هذا النوع من الدراسات التحليلية المتعمقة ولذلك سوف نكتفى بالإشارة إلى أشهر الآثار الاسلامية المعمارية الباقية بالقدس مع إبراز أهميتها.

* أستاذ مساعد العمارة والآثار الإسلامية كلية الآثار - جامعة القاهرة



سبيل السلطان قايتباي.. منقولة عن صور للرحالة الأجانب في القرن ١٩ م

وبداية يمكن أن نحصر الآثار الاسلامية المعمارية الباقية بالقدس، والتى يربو عددها على مائتى أثر، فى عدة أنواع وهى :

١ – العمائر التذكارية : وتتمثل فى نموذج فريد فى العالم أجمع وهو قبة الصخرة المشرفة (٧٢هـ / ٦٩١م) .
(شكلا ١ – ٢) لوحة رقم ١

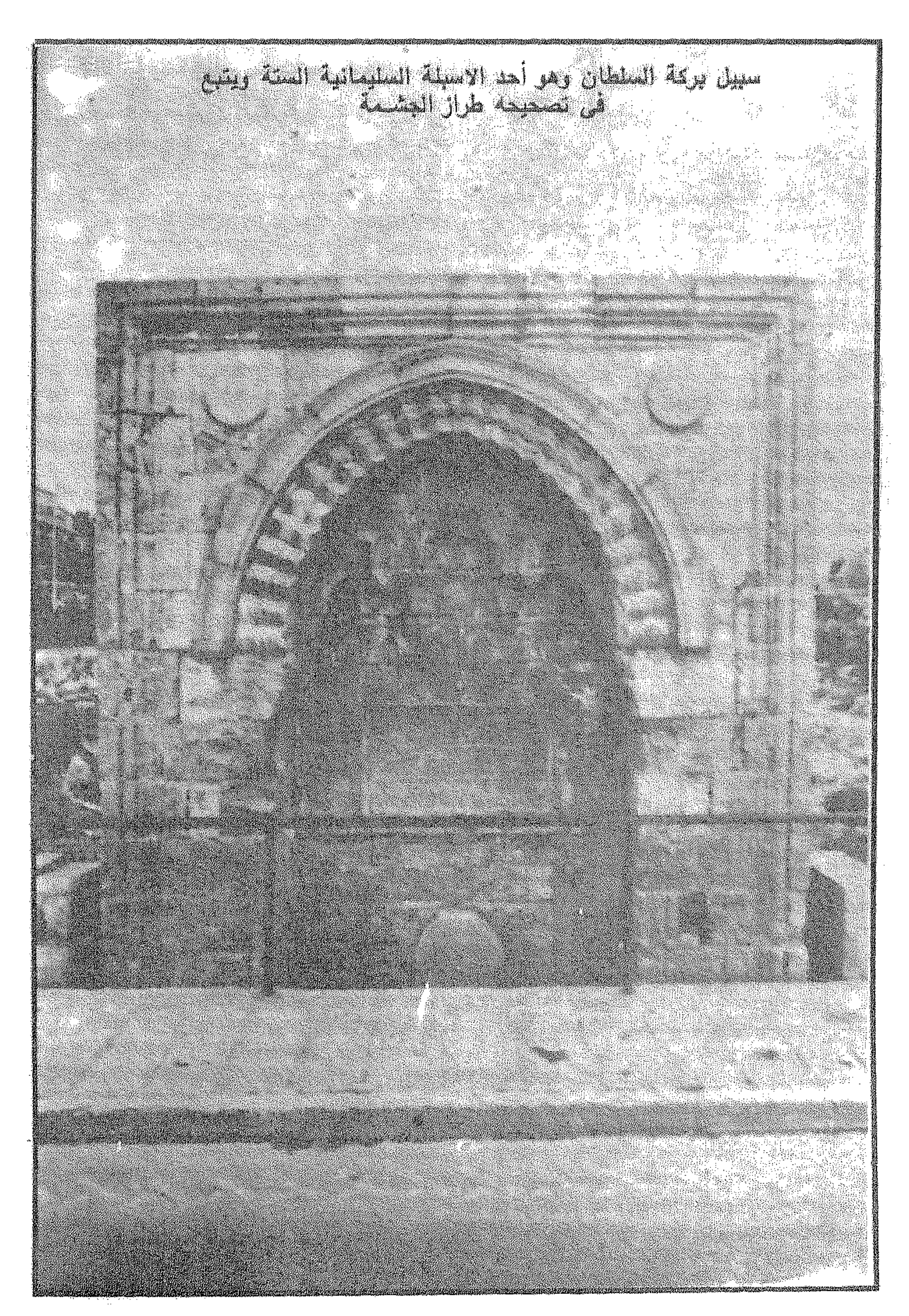
٢ – العمائر الدينية : وتتمثل فى العديد من المساجد والجوامع والمدارس والخوانق والزوايا والأربطة والتكايا ، ويعد المسجد الأقصى أشهر هذه العمائر على الإطلاق ، وكذلك الخانقاه الصلاحية والمدرسة الصلاحية والمدرسة المعظمية من العصر الأيوبى، وكل من الرباط المنصورى والخانقاه الدوادارية ، والمدرسة السلامية والمدرسة الجاولية ، والمدرسة التنكزية، والخانقاه الفخرية، والمدرسة الملكية والمدرسة الفارسية ، والمدرسة الطشتمرية والزاوية الأدهمية ، والزاوية البسطامية والمدرسة الحنبلية والمدرسة الخاتونية من عصر المماليك البحرية وكل من المدرسة الكاملية والمدرسة الباسطية والمدرسة العثمانية والمدرسة الجوهرية والمدرسة المزهرية والمدرسة الأشرفية من عصر المماليك الجراكسة أو البرجية وكل من جامع المولوية ومسجد الشوربجى والزاوية النقشبندية وتكية خاصكى سلطان من العصر العثمانى .

٣ – العمائر الجنائزية: وتشمل الترب والمدافن والقباب ومن بينها تربة أمراء الدولة الاخشيدية (الربع الثالث من القرن ٤ هـ/ ١٠م) ، وتربة بركة خان بعد ٦٤٤هـ / ١٢٤٦م والتربة الأوحدية ٦٩٧هـ / ١٢٩٧م والتربة الكيلانية ٧٥٢هـ/ ١٣٥٢م وتربة تركان خاتون ٧٥٣هـ/١٣٥٢م وتربة الست طنشق المظفرية (أواخر ٨ هـ /١٤:م) وقبة مؤرخ القدس مجير الدين الحنبلى المتوفى ٩٢٧هـ/ ١٥٢٠م وغير ذلك

٤ – البيمارستانات (أى المستشفيات) مثل البيمارستان الصلاحى ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م .

٥ – الأسبلة :وهى نوع من الأبنية الخيرية التى أنشئت بغرض توفير المياه العذبة، الصالحة للشرب كل يوم، وعلى مدار العام كله كى ينتفع بها فى سقى الناس ، وقد أوقفت هذه الأبنية من قبل منشئيها سبيلا لله تعالى – أى بغير أجر – رغبة فى التقرب إلى الله سبحانه وتعالى وأملا فى ثواب الآخرة ، ولذلك عرفت هذه الأبنية واشتهرت باسم الأسبلة أو السقاية ، ويبلغ عدد الباقى منها حتى الآن نحو ٢٨ سبيلا من أشهرها على الإطلاق سبيل السلطان قايتباى فى ساحة الحرم فوق البئر المقابلة لدرج الصخرة ٨٨٧ هـ/ ١٤٨٢م من عصر الجراكسة وأسبلة السلطان سليمان القانونى الستة ٩٤٣هـ / ١٥٣٦م من العصر العثمانى .

٦ – الحمامات : ومنها حمام الشفا



سبيل بركة السلطان وهو أحد الاسبلة السليمانية الستة ويتبع
فى تصحيحه طراز الجشمة

وحمام باب الاسباط أو حمام السيدة مريم، وحمام العين الذى يعد من أشهر حمامات القدس فى القرن الأخير وهو الحمام الوحيد الذى ظل يعمل حتى عام ١٩٨٢م .

٧ - الخانات : ومنها خان السلطان ٧٨٨هـ/ ١٣٨٦م ويعد من أشهر خانات القدس وقد وصفه مجير الدين الحنبلى بأنه خان عظيم وقف على مصالح المسجد الأقصى حيث يؤجر فى السنة بأربعمائة دينار وكانت تباع فيه أصناف البضائع ومنها خانات سوق القطانين ، وخان الزيت.

٨ - الأبواب : بالقدس أبواب عديدة لايزال الكثير منها باقيا فى موضعه حتى الآن، ومنها باب الناظر وباب العتم وباب حطه وباب المطهرة وباب الغوانمه وباب المغاربة وباب السلسة وباب الاسباط وباب الخليل (باب يافا) وباب النبى داود (باب صهيون) وغير ذلك .

٩ - الأسوار والقلاع : لاتزال بعض أسوار المدينة باقية حتى الآن فضلا عن بعض الأبراج والأبواب .

أما عن أشهر الآثار الاسلامية الباقية بالقدس فيمكن أن نلم بجانب منها :

● جوهرة القدس

١ - قبة الصخرة : تعد أقدم أثر إسلامى باق فى تاريخ العمارة الاسلامية عامة وفى القدس خاصة كما أنها من أبدع وأروع العمائر الباقية على وجه البسيطة بل إن البعض ذكر أنها من أجمل الآثار التى خلدها التاريخ ، وقد أمر بإنشائها الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان ورصد لبنائها خراج مصر لسبع سنين وتم بناؤها سنة ٧٢هـ / ٦٩١م . (شكلا ١ - ٢) لوحة ١ .

ولهذه القبة أهمية خاصة فى دراسة العمارة الاسلامية سواء من حيث تخطيطها الفريد من جهة أو من حيث عناصرها المعمارية والزخرفية من جهة أخرى وهذه القبة اعتبرها بعض المؤرخين جوهرة القدس الأولى .

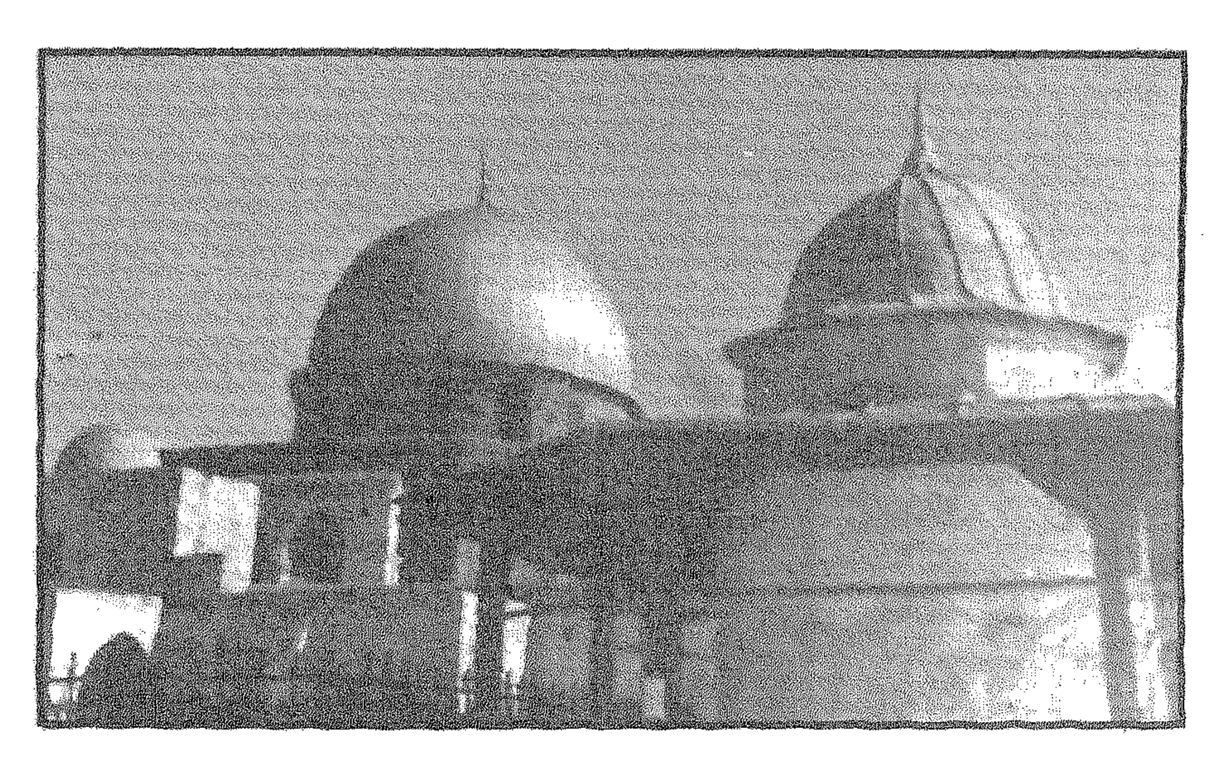
٢ - المسجد الأقصى شكلا ٣-٤ : هو معهد الانبياء ومتعهد الأولياء وثانى البيت الحرام فى البناء وأول القبلتين حال الإبتداء على حد قول ابن فضل الله العمرى فى مسالك الابصار فى ممالك الامصار .

ولهذا المسجد أهمية عظمى فى دراسة العمارة الاسلامية وبخاصة تخطيط المساجد والجوامع (شكلا ٣-٤) إذ إن تخطيطه يمثل الصورة الثانية التى صممت على أساسها المساجد والجوامع الاسلامية.

وهذا المسجد اعتبره بعض المؤرخين جوهرة القدس الثانية (شكلا ٣ - ٤) .

٣ - المدرسة الأشرفية : عرفت هذه المدرسة أيضا بالمدرسة السلطانية أو المدرسة الأشرفية السلطانية نسبة الى السلطان الأشرف قايتباى (٨٧٢

مشهد لبلدة القدس القديمة عام ١٩٣٧م ويرى فى الساحة فى الوسط بباب الساهرة



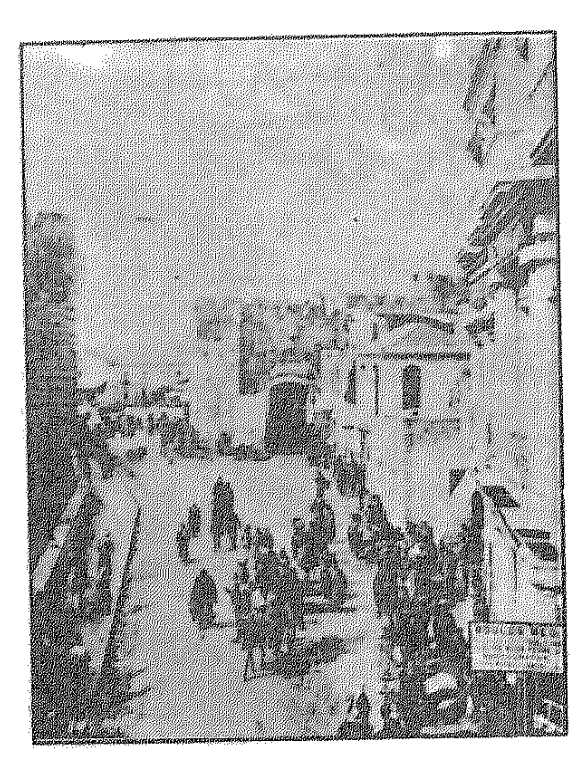
قبة الصخرة وسبيل قاسم باشا ٩٣٢ هـ

-٩٠١هـ) (١٤٦٢-١٤٩٥م) وقد اعتبر بعض المؤرخين هذه المدرسة الجوهرة الثالثة فى القدس بعد كل من الجوهرتين السابقتين قبة الصخرة والمسجد الأقصى.

وترجع أهمية هذه المدرسة من الناحية المعمارية إلى أنها تمثل استمرارا وامتدادا لأسلوب الطراز المصرى على أرض شامية وهى القدس .

٤ - سبيل السلطان قايتباى : (لوحة ٢) يعد من أشهر أسبلة القدس وأجملها وهو يقع فى الساحة الكائنة بين باب السلسلة وباب القطانين وعلى بعض خمسين مترا من جدار الحرم الغربى بين درج صحن الصخرة الغربى الأوسط والمدرسة العثمانية (دار الفقيانى) ، وهو يقوم على مسطبة مكشوفة يوجد فى الزاوية الشمالية الغربية منها محراب .

٥ - الأسبلة السليمانية : (لوحة ٣) أمر بإنشائها السلطان العثمانى سليمان القانونى أو سليمان المعظم (٩٢٦ - ٩٧٤هـ / ١٥٢٠ - ١٥٦٦م) والذى كان قد أولى مشكلة المياه المزمنة فى القدس عناية كبيرة فأمر بإنشاء المنشآت المائية وإصلاح وصيانة القنوات والبرك والعيون ومن أشهرها عين سلوان وقناة السبيل وبركة السلطان وغير ذلك فضلا عن الأسبلة ويبلغ عدد الباقى منها ستة وهى سبيل بركة السلطان (لوحة ٣) وسبيل باب السلسلة وسبيل طريق الواد وسبيل باب الناظر وسبيل باب العتم وسبيل ستنا



باب الخليل من داخل بلدة القدس القديمة وهو احد أبواب مدينة القدس السبعة

مريم ، وقد أقيمت هذه السبل الستة كلها فى عام ٩٤٣هـ / ١٥٣٦م ، وهى تعد من أشهر أسبلة القدس بعد سبيل السلطان قايتباى .

٦ - حائط البراق : ويعد هذا الحائط من بين أشهر الآثار الاسلامية الباقية بمدينة القدس ، وقد حظى بمكانة مقدسة ومنزلة رفيعة فى قلوب المسلمين إذ يروى أنه ربط بهذا الحائط البراق الذى عرج به سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم إلى السموات العلا، ومن ثم فقد سمى بحائط البراق .

أما اليهود فيدعون أحقيتهم بهذا الحائط ويذكرون أنه هو حائط المبكى

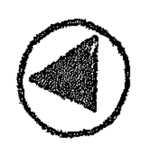
التجديد في الإسلام

بقلم : د. علي جمعة

❝ كلمة «التجديد» المتعلقة بالدين وردت فى حديث النبى - صلى الله عليه وسلم . فقد روى الطبرانى فى كتابه (المعجم الأوسط)، والحاكم فى كتابه (المستدرك)، والبيهقى فى كتاب (معرفة السنن والآثار) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة عام من يجدد لها دينها»، وهو حديث صحيح، ولقد فسره العلماء بتفاسير كثيرة منها أن التجديد يعنى نقل الدين من جيل إلى جيل آخر، وذلك بتعلم العلم وتعليمه، ومنها أن التجديد يعنى الاجتهاد فى الأمور الحادثة والإفتاء فى الوقائع المتجددة حتى يحافظ للشريعة على رونقها، ويحافظ على المقاصد الكلية التى راعتها (حفظ النفس والعقل والدين والعرض والمال).

ومنها إعادة الدين فى نفوس الناس جديدا قويا، حيث جرت سنة الله فى خلقه أن تتحول العبادة عند التعود عليها والإلف بها إلى عادة فتفقد جل قضيتها ورونق بهائها فى نفوس عموم الناس، ويحدث التناقض المشهور حيث ترى الإنسان العابد ليس متحققا بالأخلاق السامية التى كانت منتظرة منه ❞

★ أستاذ أصول الفقه جامعة الأزهر



ونرى فى أحاديث أخرى إشارة إلى تلك المعانى فأخرج الطبرانى عن عبدالله ابن عمر قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إن الإيمان ليخلق فى جوف أحدكم كما يخلق الثوب، فاسألوا الله تعالى أن يجدد الإيمان فى قلوبكم» وروى أحمد بن حنبل عن أبى هريرة قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - «جددوا إيمانكم، قيل يارسول الله وكيف نجدد إيماننا؟ قال: أكثروا من قول لا إله إلا الله».

وذهب كثير من العلماء والمفكرين المسلمين إلى أن المجدد ينبغى أن يتصف بصفات الاجتهاد وحقيقة الاجتهاد عندهم إدراك النص وإدراك الواقع والتمكن من إيقاع هذا على ذاك يقول عبد الرءوف المناوى فى كتابه «فيض القدير» فى وصف المجدد ان يكون مجتهدا قائما بالحجة ناصرا للسنة له ملكة رد المتشابهات إلى المحكمات وقوة استنباط الحقائق والدقائق والنظريات من نصوص الفرقان وإشاراته ودلالاته واقتضاءاته من قلب حاضر وفؤاد يقظان».

ولقد رأينا أبا حامد الغزالى (ت ٥٠٥ هـ) يشير باسم كتابه الى هذا المعنى حيث سماه «إحياء علوم الدين» ورأينا السيوطى (ت ٩١١ هـ) يهتم بحصر من له اسهام فى التجديد عبر قرون الإسلام.

إلا أن الدعوة الى التجديد فى العصر الحديث والتى بدأت فى أواسط القرن التاسع عشر ارتبطت بمعان أوسع من هذا المعنى.

فنرى الدعوة الى تجديد العلوم الشرعية بصفة عامة تظهر فى كتابات رفاعة الطهطاوى فى كتابه «القول السديد فى التجديد والتقليد» الذى طبع بمصر سنة ١٢٨٧ هـ فى حياته وقبل وفاته بثلاث سنوات، ولقد ظهر هذا العنوان فى المقالات التى نشرها فى جريدة الروضة إلا انه نشر فى صورة كتاب تحت عنوان «القول السديد فى الاجتهاد والتقليد» وهو يعنى ان التجديد مرادف للاجتهاد فى فكر الطهطاوى، والذى كان يدعو فى كتبه إلى اعادة النظر فى طريقة التدريس وعرض المادة العلمية والاستفادة فى ادراك الواقع بتجارب الآخرين، وقام بالترجمة والتعريب كما هو معروف.

● التجديد فى القرن العشرين

ثم برزت دعوة التجديد بصورة منظمة فى أوائل القرن العشرين على يد مدرسى مدرسة القضاء الشرعى ودار العلوم وكان المراد بالتجديد عندهم

التجديد فى الإسلام

تجديد الأسلوب وطريقة العرض، فألف محمد الخضرى كتابه فى أصول الفقه وهو مجمل محاضراته التى بدأها من سنة ١٩٠٦ وطبع كتابه ١٩١١، وهو يعرض المادة العلمية لعلم أصول الفقه بطريقة جديدة خرجت عن طريقة الحواشى والتقارير التى شاعت فى القرون الأربعة السابقة عليه، وإن كان قد سبقه فى هذا المضمار سلطان محمد على من مدرسى دار العلوم بكتابه «خلاصة الأصول» والذى طبعه فى ١٩٠٦م.

ونرى محمد الخضرى ايضا يؤلف تاريخ التشريع ويؤلف فى التاريخ بطريقة مبتكرة تمثل اتجاها بدأ يشيع فى عصره، وتلاه جيل محمد بك ابراهيم ثم عبدالوهاب خلاف وأبوزهرة وعلى الخفيف، والذين مثلت كتبهم تجديدا فى الاسلوب والعرض مخالفا ومتطورا عن السابقين.

ومن ناحية المضمون حدث التجديد فى طريقة الاختيار وعدم التقيد بمذهب واحد سواء أكان ذلك فى العلوم الشرعية أو فى الحياة الأدبية.

وبعد ذلك أخذت دعوة التجديد معانى أخرى فنرى إقبال فى «تجديد الفكر الدينى فى الإسلام» وهو المحاضرات التى جمعت وخرجت فى كتاب بالانجليزية (Reconstruction of religion thought in Islam) نراه يتلمس طريقه بصوة غير واضحة مترددة بين الدعوة الى حركة اجتهاد لاعادة بناء الشريعة من جديد على ضوء الفكرة والخبرة فى العصر الحديث حيث تتفق مع روح الإسلام وبين الخشية من الانبهار بالحضارة الغربية والوقوع فى إسارها.

● الدعوة إلى العصرانية

ويسبقه فى الهند سيد أحمد خان بدعوة يمكن أن نسميها الدعوة الى العصرانية Modernism وهى وإن سماها بعضهم دعوة الى التجديد، فإننا نرى أن نعالجها فى إطار آخر غير اطار التجديد الذى يمتد عبر الزمان، والذى سار عليه الفكر الاسلامى عبر القرون ويعاصر اقبال مدرسة جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ورشيد رضا بمصر، وهى مدرسة اكثر انتاجا وأوضح فكرا، دعت إلى تفعيل التوحيد فى حياة الناس والى استمرار العطاء الفكرى

التجديد فى الإسلام

واعتبار الوحى والوجود معا مصدرين للمعرفة وهو منهج سديد بغض النظر عن الأخطاء الجزئية التى يمكن ان تصنف تحت عنوان «خطأ المجتهد» عند استعماله لمنهجه وهى تلك الجزئيات التى لاقت اعتراضات كثيرة ألهت الناس عن رونق المنهج وأهميته.

وقد رأينا بعد ذلك فى النصف الثانى من القرن العشرين دعاوى كثيرة للتجديد داخل المفكرين المسلمين نادت بتجديد أصول الفقه باعتباره ممثلا للفلسفة الاسلامية او باعتباره (الميثودولجى) الاسلامى (المنهج والأداة)، وهذه الدعوى من التجديد كانت على أنحاء شتى وقوبلت بدرجات متفاوتة من الرفض والقبول.

نراها عند مصطفى عبدالرازق تلميذ محمد عبده فى كتابه (التمهيد فى الفلسفة الاسلامية)، وعند تلميذه سامى النشار فى (مناهج التفكير عند المسلمين)، ثم عند تقى الدين النبهانى وعبدالله الغمارى، وهى اتجاهات لم تحدث حولها ضجة او رفض مطلق، وعند جمال عطية وطه جابر والشيخ الغزالى وأحمد حمد. وهى اتجاهات مازالت فى سوق الفكر تؤثر وتتأثر به وهناك من لاقى رفضا من المتخصصين كنصر أبوزيد وسعيد العشماوى وحسين أحمد أمين.

إن قضية التجديد فى رأيى لابد لها من ضوابط تتمثل فى نظرة معرفية (ابستمولوجية) للإطار الذى لابد ان تتم فيه. وهذه النظرة المعرفية لابد أن تأخذ بجانبى الوحى والوجود كمصادر للمعرفة البشرية، وتعتبر فى ادراكها للواقع الجانب المتغير فى حياة البشر حيث لم يعد الأمس معاشا فى اليوم بعد ثورة الاتصالات والمواصلات والتقنيات وما استلزم من ذلك من سرعة الوقائع وتشابك العلاقات مما يحتاج معه إلى آليات اخرى غير تقليدية لإدراك الواقع وكيفية ايقاع النص عليه بما يمكن ان نسميه بطريقة (الطلب) وليس (الهرب) الذى يدفع الكثيرين الى إلغاء النص ولو بالتأويل او الغياب عن الواقع بالسطحية او اغفاله او العزلة عنه وطريقة الطلب هذه تمثل مفاهيم اساسية تنبثق فيها النظم عن الرؤى الكلية للإنسان والكون والحياة بعيدا عن فلسفة (ليس الا) الموغلة فى المادية.

السيرة الذاتية

والصدق مع النفس

بقلم: د. محمود الطناحى

● أثار الأديب صلاح عيسى سؤالا محدداً حول «السيرة الذاتية»، وهو السؤال الذى لم يجب عليه أحد، وتحدثنا فى العدد الماضى من الهلال عن مدى الصدق مع النفس من الذين يكتبون سيرهم الذاتية، وهل يذكرون العيوب والنقائص بجانب ذكرهم للمحاسن والمآثر، واستعرضنا ألوان السير الذاتية وصور الاعترافات ومدى صدقها من زيفها.

وفى هذا المقال نتناول نماذج من كلام الناس وصدقهم فى الإبانة عن دخائل نفوسهم، ومدى حرصهم على الحديث عن جوانب الضعف والقوة فى شخصياتهم ●

ونترك باب الأجوبة المسكتة، وباب الاعتراف بالخطأ والرجوع إلى الصواب، ودلالة ذلك كلّه على صدق النفس، وننظر ونتأمل فى كلام الناس عن ذواتهم، وصدقهم فى الإبانة عن دخائل نفوسهم وماتنطوى عليه قلوبهم، غير هيابين ولا وجلين، ولو كان ذلك فى ظاهره مما يصادم العقيدة، أو يخالف المذهب:

روى أن عبد الله بن الزبير قطع ذِكْر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى خطبة الجمعة جمعاً كثيرة، فاستعظم الناسُ ذلك، فقال: إنى لا أرغب عن ذكره، ولكن له أُهَيْل سوء (تصغير أهل) إذا ذكرته أتْلَعُوا أعناقهم (أى مدوها ورفعوها) فأنا أحب أن أكبتهم» شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ١٢٧/٢٠، وروى أنه قال: والله ماتركت ذلك علانية إلا وأنا أقوله سرا وأكثر منه.

ومن هذا الباب أيضا ماروى أن علويا قال لأبى العَيْناء: أتبغضنى وقد أمرت بالصلاة علىَّ؟ تقول: صلى الله على محمد وآله. قال أبو العيناء: إنى أقول: «الطيبين الأخيار» فتخرج أنت. ربيع الأبرار ٧١٧/١.

وأبو العيناء هذا: اسمه محمد بن القاسم، كان أديبا فصيحا، من ظرفاء الدنيا، ومن أسرع الناس جوابا، اشتهر بنوادره ولطائفه، وكان ذكيا جدا، حسن الشعر، مليح الكتابة والترسل، خبيث اللسان فى سبّ الناس والتعريض بهم، نشأ بالبصرة

وتوفى بها سنة (٢٨٣) كف بصره بعد بلوغه أربعين سنة ، قال عنه الخليفة العباسى المتوكل : لولا أنه ضرير لنادمته ، فبلغه ذلك فقال : إن أعفانى من رؤية الأهلة وقراءة نقوش الفصوص ، فأنا أصلح للمنادمة ، وفيات الأعيان لابن خلكان ٣٤٥/٤ ، والأعلام للزركلى ٢٢٦/٧ .

وروى عن الجاحظ أنه قال : كان رجل من أهل السواد ـ والسواد : ناحية بالعراق افتتحها المسلمون فى عهد عمر بن الخطاب ، سميت بذلك لكثرة الزروع والنخيل والأشجار بها ، والعرب تسمى الخضرة سوادا ـ كان هذا الرجل يتشيع ، وكان ظريفا ، فقال ابن عم له : «بلغنى أنك تبغض عليا عليه السلام (أى تدعو الناس إلى بغضه وكراهيته) والله لئن فعلت لتردن عليه الحوض ولايسقيك!

قال : والحوض فى يده يوم القيامة؟ قال : نعم ، قال : وما لهذا الرجل الفاضل يقتل الناس فى الدنيا بالسيف وفى الآخرة بالعطش ؟ فقيل له : أتقول هذا مع تشيعك ودينك ؟ قال : والله لاتركت النادرة ولو قتلتنى فى الدنيا ، وأدخلتنى النار فى الآخرة» معجم الأدباء لياقوت الحموى ص ٢١٠٨ (طبعة الدكتور إحسان عباس ، وهى طبعة عظيمة فاقت الطبعتين السابقتين : طبعة مرجليوث ، وطبعة فريد رفاعىَ).

ومن باب الصدق مع النفس أيضا قول دعبل بن على الخزاعى ، الشاعر المعروف ، المتوفى (٢٤٦ هـ) : «ما كانت لأحد قط عندى منة إلا تمنيت موته» الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى ١٣٧/٢٠ ، ولاتستبشع هذا القول من ذلك الشاعر ، فهو رجل صادق يستثقل منن الناس عليه ، ويراها قيوداً علي لسانه وعقله ، وكثير من الناس يستصحب هذا الشعور ، دون أن يصرّح به ، بل إن بعض الناس يأنف من السؤال ويطوى نفسه على الحرمان مخافة المنع والخذلان ، تقول الصوفية الكبيرة أمّ على امرأة أحمد بن خضرويه البلخى المتوفى (٢٤٠هـ) «فَوْتُ الحاجة أيسر من الذل فيها» كتاب ذكر النسوة المتعبدات الصوفيات لأبىْ عبد 'لرحمن السلمى ص ٧٧ ، وقال شاعر :

لاتحسبن الموت موت البلى وإنما الموت سؤال الرجال
كلاهما موت لكن ذا أشد من ذاك على كل حال

الحيوان للجاحظ ١٣١/٣ ، ودلائل الإعجاز لعبد القاهر ص ٢٥٦ .

ويبقى أن تلاحظ أيها القارىء الكريم ـ رجوعاً إلى الخبر السابق ـ أن أبا الفرج الأصبهانى ودعبلاً الخزاعىّ كلاهما شيعىّ ، ولم تمنع هذه الجامعة بينهما أبا الفرج من ذكر ذلك الخبر الذى قد يسىء إلى صاحبه على نحو ما . وهذا من باب الصدق أيضا .

● الصراحة الكاشفة

وهذا أبو العباس المبرد المتوفى (٢٨٥ هـ) وهو أحد أئمة العربية ، كان معروفا بالبخل ، وكان هو يظهر ذلك للناس ولايكتمه ، يقول الوزير القفطى «وكان المبرد ممسكا بخيلا ، يقول : ما وزنت شيئا بالدرهم إلا ورجح الدرهم فى نفسى ، هذا مع السعة التى

كان فيها» إنباه الرواه على أنباه النحاه ٢٤٩/٣

وقصة المبرد هذه مع ما يشاكلها تعطيك دلالة أخرى: لأن الذى يتحدث عن نفسه بهذه الصراحة الكاشفة يصدق فى كل مايلقيه عليك بعد ذلك، لأن الشخصية لاتتجزأ ، كما يقول الناس فى هذه الأيام ، ومن هنا تثق فى كل ماكتبه أبو العباس المبرد : فى كتابه الكامل فى الأدب والأخبار ، وكتابه المقتضب فى النحو، وكتابه فى التعازى والمراثى.

ومع تظاهر كثير من الناس بالزهد فى المال وعدم الحرص عليه ، نرى الإمام الجليل سفيان بن سعيد الثورى المتوفى (١٦١ هـ) وهو إمام الحفاظ ، وأمير المؤمنين فى الحديث، يقول : لأن أخلف عشرة آلاف درهم ، يحاسبنى الله عليها أحب إلىَّ من أن أحتاج إلى الناس» ، وروى أنه سئل عن مسألة وهو يشترى شيئا ، فقال : «دعنى فإن قلبى عند درهمى» ، وروى عنه أنه قال : «كان المال فيما مضى يكره ، فأما اليوم فهو ترس المؤمن» ، ونظر إليه رجل ، وفى يده دنانير ، فقال : يا أبا عبد الله ، تمسك هذه الدنانير ؟ قال : اسكت ، فلولاها لَتَمنْدل بنا الملوك.

«كأنه يريد : اتخذونا مناديل يمسحون بها وجوههم وأيديهم» سير أعلام النبلاء ، للذهبى ٢٤١/٧ ، يقول سفيان الثورى هذا كله ، وهو سيد العلماء العاملين فى زمانه، وهو القائل أيضا : «ماوضع رجل يده فى قصعة رجل إلا ذل له » .

وهذا الأحنف بن قيس ، العالم الكبير المتوفى (٧١ هـ) وهو أحد من يضرب بحلمه وسؤدده المثل ، يقول : «كذبت مرة واحدة ، سألنى عمر بن الخطاب عن ثوب: بكم أخذته؟ فاسقطت ثلثى الثمن» سير أعلام النبلاء للذهبى ٨٩/٤ .

وكان للأحنف هذا ولد ، يقال له : بحر ، وبه كنى ، وكان مضعوفا (أى قليل العقل خاملا) «فقيل له : لم لاتتأدب بأخلاق أبيك ؟ فقال : الكسل» وفيات الأعيان لابن خلكان ٥٠٦/٢ . وهذا من باب الصدق مع النفس أيضا .

وهذا رجل يحب الشهرة وبعد الصيت ، ولو ركب لهما الصعب فيروى عن الحسن بن أحمد بن عبد الله بن البناء ، المقرىء المحدث الحنبلى المتوفى (٤٧١ هـ) أنه قال : «هل ذكرنى الخطيب البغدادى فى «تاريخ بغداد» فى الثقات أو مع الكذابين ؟ قيل : ماذكرك أصلا . فقال : ليته ذكرنى ولو مع الكذابين» سير أعلام النبلاء للذهبى ٣٨١/١٨ ، والإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ، لشمس الدين السخاوى ص ٢٣.

على أنه ينبغى التنبه الدائم للفرق الدقيق بين صراحة هؤلاء الناس ، وصدقهم فى الإبانة عن أنفسهم ، وبين كشف العيوب القادحة ، ونشر المساوىء الفاضحة ، التى تدخل فى باب العورات ، وهو مانهينا عن الحديث عنه ، أو تتبعه واستقصاءه ، كما ذكرت فى صدر هذه الكلمة ، وضم إليه ذلك الحديث العظيم الذى أخرجه الإمام مالك ، وهو حديث

من اعترف على نفسه بالزنا ، وفى آخره يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من أصاب من هذه القاذورات شيئا فليستتر بستر الله ، فإنه من يبد لنا صفحته نقم عليه الحد» الموطأ (باب ماجاء فيمن اعترف على نفسه بالزنا . من كتاب الحدود) ص ٨٢٥ .

★★★

ومن أحلى وأعذب صور الصدق مع النفس وإرسالها على سجيتها : قصة ذلك المحدث الجليل ابراهيم بن سعد بن ابراهيم عبد الرحمن بن عوف . أبو اسحاق القرشي الزهري العوفى المدنى ، المتوفى (١٨٣ هـ) كان حافظا كبيرا ، وإماماً ثقة حجة ، يقول الحافظ الذهبى فى ترجمته من سير أعلام النبلاء ٢٧٢/٨ «وكان ممن يترخص فى الغناء على عادة أهل المدينة ، وكأنه ليم فى ذلك ، فانزعج على المحدثين ، وحلف أنه لايحدث حتى يغنى قبله » أى قبل التحديث .

وروى الخطيب البغدادى هذا الخبر ، برواية أخرى ، قال : «وسئل عن الغناء فأفتى بتحليله ، وأتاه بعض أصحاب الحديث ليسمع منه أحاديث الزهرى ، فسمعه يتغنى ، فقال : لقد كنت حريصاً على أن أسمع منك ، فأما الآن فلا سمعت منك حديثاً أبداً . فقال : إذاً لا أفقد إلا شخصك ، علىَّ وعلىَّ - يقصد الحلف بالطلاق - إن حدثت ببغداد ما أقمت حديثاً حتى أغنى قبله .. وذكر أن هذه القصة بلغت الرشيد ، فاستدعاه ، ودعاله بعود فغناه :.

يا أم طلحـــة إن البيــن قــد أفــدا

قل الثــواء لئن كــان الرحــيل غدا

تاريخ بغداد ٨٤/٦ ، وهذا البيت لعمر بن أبى ربيعة ، وروايته فى ديوانه ص ٣٩١ ألم بزينب إن البين قد أفدا ، ومعنى «أفد» دنا وقرب موعده .

فهذا محدث فنان. ومما يشاكل هذا الباب ماوراه الذهبى أيضا ، عن على بن حرب الطائى المتوفى (٢٦٥ هـ) قال : سمعت أبى يقول : أحب أن تكون لى جارية فى غُنج سفيان بن عيينة إذا حدث» سير أعلام النبلاء ٤٠٤/٨ (والغنج فى المرأة : حسنها وتدللها وترققها فى الكلام) .

ومثل هذه الأخبار ينبغى أن تفهم على حقيقتها ، وهى أن القوم الذين كانوا يروون حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كانوا يروونه بانبساط نفس ، وانشراح صدر (يعنى فى تعبيراتنا المصرية : يروونه بمزاج) أما الورع الكاذب ، والخشوع المصطنع فلا وجود له فى عقيدتنا ولا فى حضارتنا ، واقرأ إن شئت كتاباً واحدا فى آداب وأعراف التحديث بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو كتاب «أدب الإملاء والاستملاء ، لأبى سعد السمعانى المتوفى (٥٦٢ هـ) وتأمل على سبيل المثال مايذكره عن وجوب نظافة المحدث وحسن ثيابه وتطييبه بالعطور حين يجلس لإملاء الحديث ، ومانقله عن علماء

الحديث من التعوذ من الثقل والثقلاء .

★★★

وهذه صورة من صور الصدق مع النفس ، تسجلها كتب التاريخ والأدب ، مع أن هذه الصور تجرى فى ذرائع الشر ومكروه الأخلاق ، لأن هذه الكتب وثائق تسجل واقع البشر ، فهى لاتنتقى من الأخبار مايرضى الناس فحسب ، وتحجب عنهم مايسوؤهم، إن كتبنا فى التاريخ وسائر المعارف شهود صدق وقضاة عدل:

فهذا «دُوَيْد بن زيد بن نَهْد» معمر جاهلى قديم ، وشعره من قديم الشعر العربى، تقول كتب التاريخ والأدب إنه جمع أولاده عند موته ، ثم قال لهم : «أوصيكم بالناس شرا ، لاتقبلوا لهم معذرة ، ولاتقيلوهم عثرة ، أوصيكم بالناس شرا ، طعناً وضربا ، وما احتجتم إليه فصونوه ، وما استغنيتم عنه فأفسدوه على من سواكم ، فإن غش الناس يدعو إلى سوء الظن ، وسوء الظن يدعو إلى الاحتراس» راجع أيها القارىء العزيز كتاب المعمرين لأبى حاتم السجستانى ص ٢٦ ، وطبقات فحول الشعراء لابن سلام ص ٣١ ، وأمالى الشريف المرتضى ١/٢٣٦.

ومن وصايا الشر أيضا التى سجلتها الكتب : ماوصى به أبو النجم العجلى الراجز الشهير المتوفى (١٣٠ هـ) بناته الثلاث ، قال للأولى :

أوصِيتُ من بِرَّة قلباً حُرّا بالكلب خيراً والحَماة شرّا
لاتسأمِي ضرباً لها وجرّا حتي ترى حلو الحياةَ مرّا
وإن كستكِ ذهباً ودرّا والحىَّ عمِّيهم بشرٍّ طُرّا

وقال للثانية :

سُبِّى الحَماةَ وابْهتِي عليها وإنْ دَنَتْ فازْدلفى إليها
وأوْجِعى بالفِهْر رُكبتيها ومرْفقيها واضربى جنبيها

يقال : بهته بهتاً : أخذه بغتة ، ولعلماء اللغة فى قول أبى النجم «ابهتى عليها» كلام كثير أنظره فى الصحاح للجوهرى والتنبيه والإيضاح عما وقع فى الصحاح لإبن برى والتكملة والذيل والصلة للصاغانى ، وكلها معاجم لغوية .

الفِهْر ، بكسر وسكون الهاء : الحجر يملأ الكف .

وقال للثالثة :

أوصيك يابنتي فإنى ذاهبُ أوصيك أن تحمدك القرائب
والجار والضيف الكريم الساغبُ لايرجع المسكين وهو خائب
ولاتنى أظفارك السّلاهبُ منهن فى وجه الحماة كاتب
والزوج إن الزوج بئس الصاحب

والأظافر السلاهب : الطويلة.

وروى أن هشام بن عبد الملك الخليفة الأموي سمع هذا الشعر من أبى النجم ثم قال له : ماهكذا أوصى يعقوب ولده ! قال أبو النجم : ولا أنا كيعقوب ، ولا بنى كولده ! راجع الكامل للمبرد ص ٩٩٨ ، والأغانى لأبى الفرج ١٠/١٥٦

هكذا وصى دويد بن زيد ، وأبو النجم ، وسبحان خالق الطباع ، ومصرف القلوب . وما أصدق كتبنا ومؤرخينا فى تسجيل الحياة بخيرها وشرها وحسنها وسيئها .

فياأيها القارىء الكريم ، أنار الله بصرك وبصيرتك ، إقرأ وتدبر ولاتعجل فترمى هذا الكلام بالوضع والانتحال ، فقد عرفنا فى زماننا هذا من يوصى أولاده بسوء الظن ، والاستيحاش من الناس ، والإمساك دونهم ، والحرص على المال بتزيين البخل، فلازلنا نسمع هذه الأمثال كل يوم : اللى معاه قرش يساوى قرش ـ اللى معاه قرش ابنه يزمّر ـ القرش الأبيض ينفع في النهار الأسود ـ وأنا مالى ياعم هو أنا خلفته ونسيته ـ ويبقى ابنى على كتفى وأدوّر عليه ؟ ـ ويالله نفسى نفسى ـ وياروح ما بعدك روح ـ واللى يعوزه البيت يحرم على الجامع ـ وخالتى وخالتك واتفرقت الخالات، بل سمعنا أشد من ذلك كله فى تسويغ البخل والإعراض عن نجدة الناس والبر بهم ، والنظر إلى المصلحة الذاتية فقط ، وهو قولهم : «عيش ندل تموت مستور» فهى هى طبائع البشر فى كل زمان ومكان، وإن اختلف التعبير عنها.

أما وصية أبى النجم فى التشديد على الحماة والإغلاظ للزوج ، فمازلنا نسمع من هذا وذاك الشيء الكثير ، وأظن أنه لايغيب عنك : يا مآمنه للرجال يا مآمنه للمّيه فى الغربال ، ولازلت أذكر ماكنت أسمعه من نساء حىّ الدرب الأحمر ـ وهو الحىّ الذى نشأت فيه ـ فتقول الأم لابنتها قبل انتقالها لبيت الزوجية : خلّى بالك من المرة القرشانة اللى اسمها أمه ، إديها على دماغها أول بأول كده ، متسكتلهاش أحسن تركبك» أو تقول لها عن زوجها : «إوعى منه ، ربنا يستر ، والله أنا خايفة ، دابايِن عليه ابن أمه» .

أما التوصية بنتف ريش الزوجة حتى لايطير ، فلم يعد لها مكان الآن ، لأن الزوج أصبح لاريش له بعد اشتراك الزوجة معه فى الوظيفة ، ومساهمتها فى دخل البيت ومزاحمتها له فى اتخاذ القرار ، وربنا المستعان ، وحسبنا الله ونعم الوكيل !

★★★

ثم نعود إلى أخبار الصدق مع النفس : فمع حرص خلفاء المسلمين على أن يظهروا للناس وجه العفو والمسامحة ، فإن بعضهم كان صادقا مع نفسه كل الصدق حين أظهر الحزم والمخاشنة وسوء المعاملة ، فقد روى أن عبد الصمد بن على بن عبد الله بن العباس ابن عبد المطلب قال للخليفة العباسي المنصور ـ وكان ابن أخيه ـ «لقد هجمت بالعقوبة حتى كأنك لم تسمع بالعفو ! قال :

لأن بني مروان ـ يعني الأمويين ـ لم تبل رممهم، وآل أبي طالب ـ يعني العلويين ـ لم

تغمد سيوفهم ، ونحن بين قوم قد رأونا أمس سوقة ـ أي من عامة الناس ـ واليوم خلفاء، فليس تتمهد هيبتنا في صدورهم إلا بنسيان العفو، واستعمال العقوبة» تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٢٦٧، وهو كلام عال نفيس، فاقرأه مرة أخرى.

أما حديث الشعر في الصدق مع النفس فهو كثير جدا ، ومنه قول حارثة بن بدر الغداني التابعي الجليل المتوفي «٦٤ هـ »، وهو ما رواه أبو الفرج الأصبهاني، والشريف المرتضى، قالا: «اجتاز حارثة بن بدر الغداني بمجلس من مجالس قومه من بني تميم، ومعه كعب مولاه، فكلما اجتاز بقوم قاموا إليه وقالوا: مرحبا بسيدنا، فلما ولي قال له كعب: ما سمعت كلاما قط أقر لعيني، ولا ألذ بسمعي من هذا الكلام الذى سمعته اليوم، فقال له حارثة: لكني لم أسمع كلاما قط أكره لنفسي وأبغض إليَّ مما سمعته! قال: ولم؟ قال: ويحك ياكعب، إنما سودني قومي حين ذهب خيارهم وأماثلهم، فاحفظ عني هذا البيت:

خَلَت الديارُ فسُدت غيرَ مُسوَّد ومِن البلاء تفَرُّدي بالسُّؤدَد

أرأيت موضوعية وصدقا ونقدا للذات أبرع من هذا؟ وما أحرى كثيرا من أصحاب المناصب الآن أن يتمثلوا بهذا البيت لو رزقوا الصدق مع أنفسهم.

وانظر الخبر في الأغاني ـ ملحق الجزء الثامن ص ٤٢٤، من طبعة دار الكتب المصرية، وأمالي الشريف المرتضى ٣٨٨/١، ثم إنظر شرح الحماسة لأبي على المرزوقي ص ٨٠٧، ففيه كلام عن التوجيه النحوي للبيت، إن كنت تحب النحو، وأود لك أن تحبه.

وهذا البيت الحكيم الذى أنشده وتمثل به حارثة بن بدر، هو من قطعة أوردها أبو تمام في حماسته، ونسبها لرجل من خثعم، لم يذكر اسمه ـ راجع الموضع المذكور قريبا من شرح الحماسة للمرزوقي ـ ونسبه ياقوت الحموي، ضمن ستة أبيات، إلى عمرو بين النعمان البياضي. معجم البلدان ٧٠٣/١، في رسم «البقيع». ونسبه الجاحظ إلى حارثة بن بدر، فجعله منشئه لا منشده، في الحيوان ٨٠/٣ ، والبيان والتبيين ٢١٩/٣ ، لكنه في ص ٣٣٦ من ذلك الجزء أنشده من غير نسبة .

وقد كثر تمثل أهل العلم بهذا البيت ، فيذكر ابن عبدربه في العقد الفريد ٢٩٠/٢ عن الهيثم بن عدى ، قال : لما انفرد سفيان بن عيينة (١٩٨هـ) ومات نظراؤه من العلماء تكاثر الناس عليه ، فأنشأ يقول : خلت الديار ... البيت . وذكر ابن خلكان في وفيات الأعيان ٢٢٠/٤ ، في ترجمة «أبي بكر محمد بن أحمد الحسين الشاشي الفقيه الشافعي (٥٠٧هـ) أنه يوم جلس على كرسي التدريس بالمدرسة النظامية ببغداد – وكان قد سبقه إلى التدريس فيها فحول العلماء – وضع منديله على عينيه وبكى كثيرا ، وأنشد : خلت الديار .... البيت ، قال ابن خلكان : «وهذا إنصاف منه واعتراف لمن تقدمه بالفضل والرجحان عليه» .

وروى أن التابعي الجليل إبراهيم بن يزيد النخعي (٩٦هـ) قال: لقد تكلمت ، ولو

وجدت بدأً ما تكلمت ، وإن زماناً تكلمت فيه لزمان سوء» ثم أنشد البيت : خلت الديار ... عيون الأخبار لابن قتيبة ١/٢٦٨ ، والخبر رواه أبو نعيم الأصبهاني هكذا : «وإن زماناً أكون فيه فقيه الكوفة لزمان سوء» حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ٤/٢٢٣ .

★ ★ ★

وللشعراء وأهل الأدب كلام كثير ، في فضيلة كتم السر وصونه وعدم إذاعته ، لكن بعض الناس يضيق صدره عن كتمان السر ، ويحس أنه يحمل هما ثقيلاً على صدره ، أو جبلا ضخما على ظهره ، فهو يريد أن يتخلص من عبئه ، فيدور به على الناس ، لايبالى أين يقع منهم ، وليس بالضرورة أن يكون إفشاؤه السر لغاية من إفساد أو سعاية ، ولكنها الثرثرة ليس غير ، وإراحة النفس من هم مغالبة الكتمان ومرافعة الحفظ ، وقد ترجم عن هذا شاعر، في لحظة صدق عالية ، فيقول سِحيم الفقعسي (لم أعرف تاريخه ، وانظر من اسمه سحيم من الشعراء في خزانة الأدب للبغدادي ١/٢٦٦) ، يقول سحيم هذا :.

ولا أكتم ِالأسرار لكنْ أُذيعهـا ولا أترك الأسرارِ تغلي علي ِقلبي
وإنّ قليلَ العقل من بات ليله تقلبه الأســرار جــنباً إلي جنْبِ

وأنشد الأصمعي ، قال : أنشدني أعرابي :

ولا أكتم الأســـــرار لكن أبثها ولا أدع الأســـــرار تقتلني غما
وإن سخيف الرأي من بات ليله حريبا بكتمان كأن به حـــمي
وفي بثك الأسرار للقلب راحة وتكشف بالإفشاء عن قلبك الهما

وقال ثالث :

وأمنع جارتي من كل خير وأمشي بالنميمة بين صحبي

أنظر هذه الأشعار في الحيوان للجاحظ ٥/١٨٥ ، وعيون الأخبار لابن قتيبة ١/٤١ ، والكامل للمبرد ص ٨٨٤ ، وبهجة المجالس لابن عبدالبر ١/٤٦٠ وذكر الجاحظ أن ضيق الصدر بكتمان السر من أخلاق الصبيان والنساء ، ومن أخلاق الخصي أيضا - والخصي : هو المقطوع الخصية - قال في الحيوان ١/١٣٥ «ويعرض للخصي سرعة الغضب والرضا ، وذلك من أخلاق الصبيان والنساء ، ويعرض له حب النميمة ، وضيق الصدر بما أودع من السر ، وذلك من أخلاق الصبيان والنساء» .

ومن رقيق شعر عزيز باشا أباظة قوله من قصيدته «همسة حائرة» :

يبيت يودع سمع الليل عاصفة ضاق النهار بها ستراً وكتمانا

فأثبت للنهار أيضا ضيقاً بكتمان السر ، كالإنسان سواء بسواء .

وبعد : فهذه صور من الصدق مع النفس : سلوكاً وكلاماً منثوراً ومنظوما ، امتلأت بها كتبنا وآثارنا التي تعرض الحياة كلها بخيرها وشرها ، وبياضها وسوادها ، وتلك طبيعة الحضارات العظيمة .

وتحية إلى الأستاذ صلاح عيسى ، الذي فتح لنا هذا الباب من القول . ☐

أفلام سير المشاهير ولعبة السياسة

بقلم: مصطفى درويش

هوليوود جزء من حياتنا العقلية منذ سبعين سنة أو يزيد ، بما يعرض من أفلامها على الدوام ، وبوسائل الدعاية لتلك الأفلام عن طريق وسائط الأعلام الجماهيرية ، وما أكثرها فى هذه الأيام ومن بين تلك الوسائل الترشيحات لجوائز الكرة الذهبية والاوسكار فما أن تبدأ السنة الجديدة، حتى يعلن اتحاد الصحافة الأجنبية فى لوس انجلس ترشيحاته لجوائز تلك الكرة .

وعادة الفائز بها من الأفلام ومبدعيها، يجرى ترشيحه بعد أسابيع لجائزة الاوسكار .

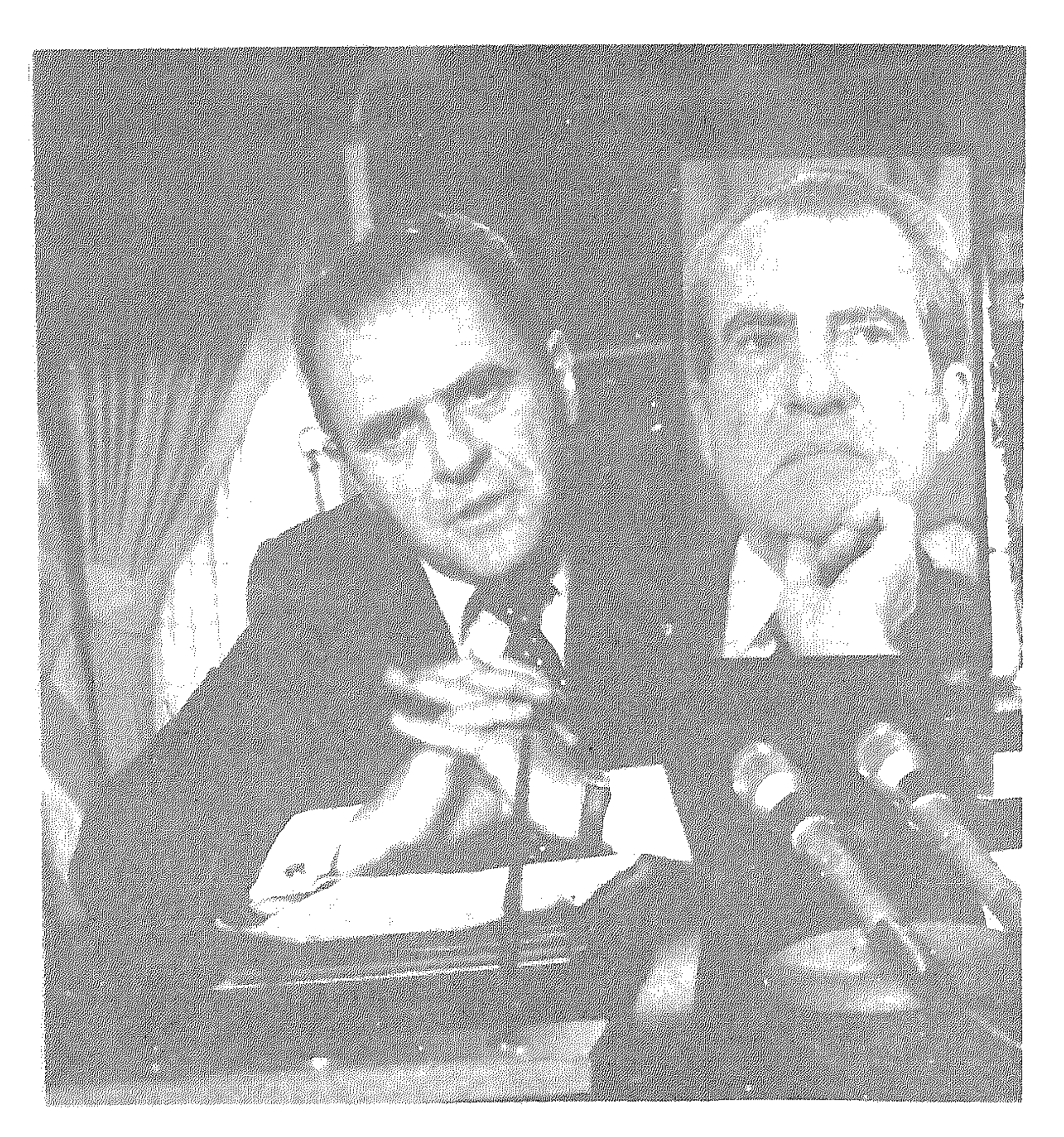
وغالبا ما يعلن فوزه بها هى الأخرى فى حفل ساهر زاخر بعروض شيقة ، تسر الناظرين الى شاشات التليفزيون، وعددهم ألف مليون أو يزيد .

وأول ما يلفت النظر فى ترشيحات ذلك الاتحاد التى جرى إعلانها على الملأ فى الأيام الأولى من شهر يناير ، أن الافلام التى كان لها بعض حظ من الترشيحات عددها كبير ، وصل إلى واحد وثلاثين فيلما من بين ما جرى عرضه داخل الولايات المتحدة خلال السنة الماضية ، وهو لا يتجاوز المائة وثلاثة وخمسين فيلما.

وقد لا أكون بعيدا عن الصواب إذا ما جنحت الى القول بأن الافلام المرشحة ، فى طليعتها «العقل والاحساس» و«أبوللو ١٣» و«نيكسون» و«القلب الشجاع» .

● سر الاهتمام

فهذه الأفلام الأربعة تتقاسم ، فيما بينها ، ثلاثة عشر ترشيحا ، من بين اثنين وستين ، هى كل الترشيحات وذلك يعنى فوزها ، رغم قلة عددها ، بنصيب الأسد من الترشيحات ، لا سيما إذا وضع فى الاعتبار أن أغلب الجوائز المرشحة لها، هى جوائز أفضل فيلم وإخراج وسيناريو



● أنطونى هوبنكنز فى دور نيكسون

وتمثيل رئيسى ، أى أهم الجوائز دون أدنى شك .

وإذا ما استثنينا «العقل والإحساس» المأخوذ عن رواية بنفس الاسم للاديبة الإنجليزية «جين اوستن» فالافلام الثلاثة الأخري مستوحاة من سيرة كل من رائد الفضاء الامريكى «جيم لوفيل» والرئيس الامريكى الراحل «نيكسون» و «ويليم والاس»ذلك البطل الاسطورى الذى قاد مقاومة الشعب الاسكتلندى للاحتلال الانجليزى ، قبل سبعة قرون من عمر الزمان .

أفـــلام سـيـر المشاهير

وإذن فـهى من ذلك النوع السـينمـائى المسمى بأفلام السيرة

وبالتالى ، فليس غريبا أن تحظى بذلك القدر الكبير من الاهتمام .

فمصنع الأحلام فى عاصمة السينما ، لايكف ، منذ البـدايات ، عن تناول سـيـر المشـاهـيـر فى العـديد من الافـلام .. كـيلوباترة، قـيـصـر ، نيـرون ، ابراهام لينكولن، باستور ، توماس اديسون ، أميل زولا ، دريفوس فان جوخ ، تولوز لوتريك ، زاباتا ، لورانس العرب ، فرويد، تشرشل ، غـاندى ، الملاكم جـاك لامـوتا، مـالكولم اكس، وكينيدى ، وغيرهم كثير .

● التمجيد لمن ؟

حـتى سـيـر زعـمـاء العـصـابات الاجرامية، من امثال آل كابون و «بجسى» الذى تحول بجزء من الصحراء القاحلة إلى مدينة عالمية للقمار تبهر الأبصار بالأنوار، اسمـها لاس فيجاس ، حتى هذه السير اكتشف مصنع الأحلام إنها كنز لايفنى .

فكان أن عمل على ترجمتها ، أكثر من مرة إلي أفلام ، بعضها عرض لحياة هؤلاء الزعماء المجرمين ، على وجه انطوى على قـدر غـيـر قليل من الإشـادة ، ولا أقـول التمجيد.

وأعـود إلى الأفـلام الثـلاثة لأقـول إن العـرض لسـيـرة «جـيم لوفـيل» فى فـيلم «أبوللو ١٣» ، هو الآخر قصد به التمجيد، غير أنه ، فى هذه المرة، تمجيد لا لمغامرات مـجـرمين ، وإنما لبطولات رواد فـضـاء أمـريكيين ، تعـرضـوا لمحنة كـبـرى فى الفضاء ، خرجوا منها منتصرين .

ويلاحظ أن «رون هوارد» مخرج الفيلم لم يختر من سيرة «لوفيل» سوي ستة أيام من حـيـاته سنة ١٩٦٩ ،تلك الأيام التى قـضـاها مـع زمـيليه «فـردهـيـز» و «جـاك سوريجرت» فى مركبة الفضاء أبو للو ١٣ المنطلقة بهم فى الفضـاء ، للنزول بها على سطح القمر .

● كارثة ونجاة

وفى البـدء سـار كل شـىء فى المركبـة على خـيـر مـا يرام ، إلى أن انفـجـر أحـد خـزانات الأوكـسـجين، مما افـقـد المركبـة الطاقـة والقـدرة على مـواصلة الرحلة صعوداً إلي القمر

فمنذ ذلك الانفجار والقرار الذى اتخذ بقطع الرحلة والعودة سريعا إلى الأرض ،



فارس يحارب من أجل
الحرية والاستقلال

والفيلم يدور وجودا و عدما حول صراع «لوفيل» مع زميليه من أجل البقاء إلى أن تكتب لهم ، بفضل رباطة الجأش وحسن التصرف ، النجاة فى نهاية سعيدة على طريقة هوليوود فى معظم الأفلام .

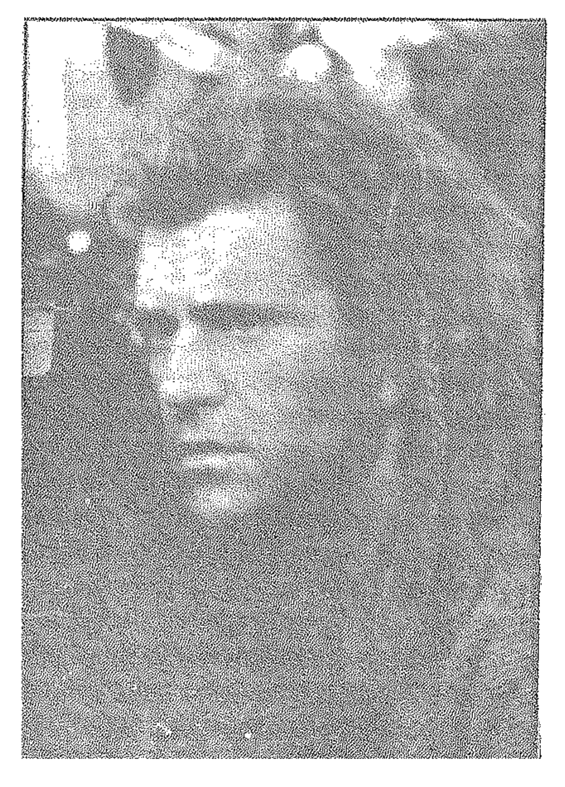
وقد تحمس الجمهوريون للفيلم ، ولم لا؟ وهو يمجد من شأن بطولات هزت العالم . فى عصر كانوا فيه مع «نيكسون» سادة البيت الأبيض

● مفاتيح الشخصية

وهنا انتقل إلى فيلم «نيكسون» لأقول أن مخرجه «أوليفر ستون» صاحب «مصرع كينيدى» وثلاثية فيتنام، آثر ألا يتناول فيه من سيرة الرئيس الامريكى الراحل «ريشارد ميلهاوس نيكسون» وهذا اسمه بالكامل ، إلا ما كان منها متصلا بفضيحة ووترجيت التى انتهت به فاقدا الرئاسة ، مطرودا من البيت الأبيض، مطاردا بالخزى والعار .

فالفيلم يبدأ بسباكى ووترجيت ، وينتهى بالرئيس مستقيلا .

وفيما بين هاتين الواقعتين يرتد الفيلم من حين لآخر إلى وقائع من ماضى «نيكسون» ، فى محاولة للعثور علي مفاتيح لشخصيته الشديدة التعقيد ، بما يتجاذبها



ميل جيبسون .. مخرجا وممثلاً

من طموح عنيد ، وعيوب مدمرة للذات.

ومن بين تلك المفاتيح ، بل لعله أهمها هاجس الموت المستبد به إلى حد دفعه إلى الاعتقاد بانه ما صعد إلى الرئاسة إلا بفضل موت شقيقيه «أرثر» و «هارولد» الأول وهو فى السابعة، والثانى بمرض السل ، وهو فى الثالثة والعشرين، الأمر الذى اتاح لوالديه فرصة استثمار مدخراتهما الضئيلة وآمالهما فى تعليمه .

وقريبا من النهاية بفضل مصرع الشقيقين «جون» و «روبرت» كينيدى ،

الامــــر الذى مــــهــــد له طريق الفـــوز برئاسة أغنى وأقوى دولة فى العالم

ولعله من المناسب هنا أن أذكــــر أن فيلم «ستون» عن «نيكسون» بدأ العمل فيه بعد أشهر من موت الرئيس الأسبق، وهو أمر غير مسبوق فى أفلام السير.

وأغلب الظن ان هذه العـــجلة ، إنما ترجع إلي أن معركة الرئاسة فى الولايات المتحدة على الابواب .

ومن الأكيد أن تذكير الشعب الامريكى بفـضـيــحـة ووترجيت ، له دور فى تلويث سـمـعـة الجـمـهـوريين الذين يطمـعـون فى استرداد الرئاسة من الديموقراطيين.

● صرخة الحرية

والآن إلى آخـر الأفـلام الثـلاثة «القلب الشــجــاع» ثانى فـيلم يـخـرجــه «مــيل جـيـبسـون» المـمثل الاسـتـرالى الشــهـيـر وبطولته تنعقد له فى دور «ويليم والاس» ، فارس الفرسـان ، المتزعم لحركة مقاومة الاسكتلنديين . للاحتلال الانجليزى .

وبشـجـاعـتـه التى أصـبـحـت مـضـرب الأمـثـال ، أسـهـم في حـمـاية اسـتـقـلال اسكتلندا ، ولو إلى حين .

وقد راعى «جيبسون» ألا يتجمل ، لا هو، ولا اهل اسكتلندا الاصليون.

فنحن - المتفرجين - نراهم كما كانوا فى تلك الأزمنة الموغلة فى القدم يعيشون حـيـاة أقـرب إلي التـوحش ، يغلب عليـهـا تقـشـف في المسكن والملبس والمأكل ، لا يسمح لهم حتى برهافة النظافة ، فى ظل أوضـاع قاسـية ، لا فسـحـة فـيـهـا حـتى للاستحمام .

ومن حسنات سيناريو الفيلم أن مؤلفه. «راندال والاس» لم يقع فى كـــمـين النهاية السعيدة فالبطل لا تكتب له نجاة ، يؤسـر ويعـذب أمـام أعـيننا حـتى الموت ، بشتى وسائل التعذيب . ولمدة عشر دقائق أو يزيد ، لعلها أطول مدة تعذيب لبطل على امتداد عمر فن السينما .

ولأن الفـيـلم ملـحـمـى ، فـقـد اعـتـنى مخرجه بتصوير معاركه ، وخاصة معركتى «ستيرلنج بويدج» و«فالكيرك» .

ويتميز القلب الشجاع بجوانب ايجابية اخرى، من بينها . إنه صرخة صادقة من أجل الحرية والاسـتـقـلال . ومن عـجب أن تكون صرخة من أجل استقلال اسكتلندا ، يصفق لها الاسكتلنديون فى دور السينما، مهللين ، مكبرين، ويغضب منها الانجليز، حتى لو كانوا من كبار المفكرين والنقاد !!.

صناع القرن العشرين :
أهم شعار تربوى فى القرن العشرين

باولو فريري

فيلسوف الأمل التربوى فى تحرير الإنسان

بقلم : د . حامد عمار

☐ هو من أعظم فلاسفة التربية - إن لم يكن أعظمهم - ممن أفرزهم العالم الثالث فى القرن العشرين، برازيلى المولد والنشأة، لم تقتصر أفكاره فى التأثير على موطنه، بل امتدت إلى القارة اللاتينية بأسرها، وإلى كثير من أقطار العالم الثالث فى أفريقيا وآسيا، بل واحتضنها فريق من أئمة التربويين فى القارة الأمريكية فى كل من الولايات المتحدة الأمريكية وكندا. ومن المصادفات التى تستحق التنويه ما يقوم بينه وبين كاتب هذا المقال من تطابق فى تاريخ المولد، وهو عام ١٩٢١ . وقد نشأ فى بيئة فقيرة فى ميناء «رسيفى» على الساحل الشمالى الشرقى من البرازيل، وعانى مع أسرته مرارة الفقر، وبخاصة نتيجة لما تعرضت له من أعاصير الكساد الاقتصادى فى أوائل الثلاثينيات مما أدى إلى تدهور أوضاع الأسرة المعيشية، وإلى خبراته المباشرة لقسوة الحرمان والقهر وتداعياتها على النفس البشرية.



ومع ذلك كله ظل باولو فريرى فيلسوفا متفائلاً بقدرات الإنسان وطاقاته، وبمكنته إذا ما هيأت له الظروف الملائمة أن تنصح باطراد مقومات إنسانيته ، متحررا من قيود القهر والاستغلال، ومن ثم يغدو حراً معبراً عن ذاته، متجاوزاً لما أسماه «ثقافة الصمت» وهامشية العيش ومسلحاً بمصادر القوة من خلال إرادته ، ووعيه بمقاصده فى الفكر والفعل. وبعبارة أخرى إنه يؤمن بقدرة الإنسان على الخلاص من إشكالية الإنسان المفعول بظروف القهر لصالح الإنسان الفاعل فى تغييرها، مستهدفاً صناعة حاضره ومستقبله ويعتبر بذلك رفيق طريق لفرانتز فانون فى محاولة فك الأغلال عن المنبوذين والمقهورين فى هذا الكوكب.

ولم يكن فيلسوفنا فريرى من أصحاب الأبراج العاجية، لكنه ظل طوال حياته مناضلاً مشتبكا مع الواقع، تلتحم فى أفكاره وحدة الفكر والعمل. وفى توءمة العمل مع الفكر ، يقول «إننا نصنع الطريق فى الأرض بالمشى فيها» وهو عنوان لكتاب باللغة الانجليزية يسجل حوارا بينه وبين مفكر أمريكى حول قضايا التعليم والتغيير الاجتماعى، يستحق الترجمة إلى اللغة العربية لما فيه من أفكار وخبرات فى الحياة ومعاناة للصعاب وجهد فكرى عملى حول التعليم ودوره فى التغيير الاجتماعى

باولو فريرى

● المعلم المناضل

ويكاد ينفرد صاحبنا بأنه من القلائل من فلاسفة التربية ممن تعرض للسجن والنفى من جراء آرائه، لأنه كان ملتزما بالعلاقة العضوية بين النظر والتطبيق، وما بينهما من علاقة جدلية تثرى وحدتهما تحريك الواقع .

وارتبط فريرى بعد تخرجه فى كلية الحقوق ودراساته فى الفلسفة وعلم النفس بتموجات الحركات السياسية فى البرازيل وبخاصة مع الحركة الديمقراطية الراديكالية، وما صاحبها من ضرورة التعليم الشعبى، حيث كان الأميون فى البرازيل محرومين من حق التصويت حتى أوائل الأربعينيات. لذلك اشتغل بقضية تعليم الكبار ومكافحة أميتهم الأبجدية والسياسية بما يشحذ وعيهم للنضال من أجل تحرير ذواتهم وتغيير أوضاعهم.. وقد ترسخ لديه أن النظام الديمقراطى لايقوم على مجرد البنى والمؤسسات وتنظيماتها الرأسية، وإنما ينبغى أن يعتمد على مشاركة أفقية للجماهير من خلال تعليم يشحذ الوعى بذوات المقهورين، ويكسبهم القدرة على الفعل والتأثير. وبذلك تشابكت أفكاره التربوية بالعمل السياسى واعتباره التعليم وجها آخر للسياسة، كما سنرى فيما بعد .

وأخذ فيلسوفنا مع مجموعة من العاملين معه فى فتح مراكز لتعليم الأميين، واختار طريقة لذلك عرفت باسمه، تجعل من قراءة الكلمات والجمل مثاراً للوعى لواقع الأميين، وبما يقيد تفكيرهم وإرادتهم من السلبية وثقافة الصمت وما يتخللها من قدرية واسطورية. بيد أن هذه اليقظة التعليمية السياسية التى أخذت تشيع بين الفقراء والفلاحين. والتى أكسبتهم حبهم لمعلمهم - قد وضعته فى القائمة السوداء لدى العسكريين وكبار ملاك الأراضى فى البرازيل، خصوصا بعد أن أصبح مديراً للبرّنانج الوطنى لمكافحة الأمية فى أوائل الستينيات.

ويأتى الانقلاب العسكرى ليحكم قبضته على السلطة عام ١٩٦٤، فيوقف ذلك البرنامج، ويتعرض فيلسوفنا للسجن ٧٥ يوما بعد محاكمة استمرت ٨٣ ساعة. وتتهمه إحدى الصحف الحكومية إذ ذاك بأنه «ينشر أفكاراً غريبة فى أرجاء البلاد، وأنه مخرب عالمى، وخائن للمسيح وللشعب البرازيلى، فضلا عن كونه جاهلا وأميا!!» وتلك سلسلة من تلفيق التهم نعرفها من أخزم، كما يقول المثل العربى. وفى السجن بدأ فى تحرير واحد من أهم كتبه وعنوانه مترجما «التعليم كمنهج لممارسة الحرية»، والذى أتمه بعد أن خرج من السجن ونفى إلى شيلى وفى هذا الكتاب يبدأ فريرى شرح ظروف المجتمع البرازيلى، وفى تنظيم أفكاره حول طرق التعليم التى تؤدى إلى تحرير الإنسان وتغيير أوضاعه، مناديا بضرورة صياغة نمط من الاشتراكية للمجتمع البرازيلى، وداعياً إلى الثورة فى سبيل انجاز تلك الصياغة.

● بصماته العالمية

ويستمر فريرى فى نشاطه الفكرى والعملى ونشر طريقته فى التعليم السياسى للأميين، وفى الدعوة إلى وضع التعليم فى جوهر السياسة، وإلى استهدافه تحرير طاقات الإنسان. واستمر متنقلا من شيلى إلى تنزانيا وزامبيا وغينيا بيساو وجزر الرأس الأخضر ونيكارجوا، حيث حاضر وقدم مشورته فيما يتعلق بتطوير سياسات التعليم وطرائقه. كذلك امتد نشاطه إلى الجامعات الأمريكية والكندية، وإلى كثير من المنظمات الدولية الحكومية وغير الحكومية فى أوربا، وظل خلال كل هذا التجوال يناضل من أجل نشر أفكاره فى تواضع جم، يطرحها للمناقشة والتجربة، ومَردّ تواضعه - كما يقول «لأنى إنسان غير مكتمل - لا لأنى أريد الناس أن تحبنى لتواضعى، وإن كنت فى حاجة شديدة لمحبة الناس، وإنما لأننى منفتح، ومنفتح جدا، لكى أتعلم من تلامذتى . ولعل هذه من أهم الفضائل التى ينبغى علينا نحن

المربين أن ننميها، وإنى متأكد من أن الفضائل لا تأتينا كمنحة، أو أننا نصنعها بطريقة معرفية فحسب لكنها تنمو من خلال الممارسة. وعلينا أن نُكوِّن فى أنفسنا من خلال تلك الممارسة فضيلة التواضع».

● العودة إلى الوطن

واستمر فريرى مغترباً عن وطنه حوالى ستة عشر عاما حتى أوائل الثمانينيات حين انقشعت سحائب الحكم الدكتاتورى العسكرى من البرازيل، حيث تولى عند عودته منصب الأستاذية فى كلية التربية فى الجامعة الكاثوليكية فى سان باولو، ثم أستاذا فى كلية التربية فى جامعة كامبيناس الحكومية فى نفس المدينة.. وظل يعمل فى إطار التعليم الشعبى بالتعاون مع حزب العمال الاشتراكى الديمقراطى. وينتهى به المطاف الوظيفى إلى أن يعين مديراً عاماً للتعليم فى بلدية سان باولو عام ١٩٨٩، وبذلك يتولى منصبا تنفيذياً تتاح له فيه تطبيق أفكاره وطرائقه وتجربتها فى إطار حزب العمال الاشتراكى الذى كان السلطة الحاكمة فى تلك المنطقة. ثم يستقيل عام ١٩٩١ وقد بلغ السبعين من عمره، وتكرمه بلديته ليصبح «سفيرا شرفيا» لها، يكتب ويحاضر ويناظر ويتحاور فى أرجاء الجامعات والمؤسسات التربوية فى

باولو فريرى

أمريكا اللاتينية وأوربا والولايات المتحدة وكندا.

● الملامح العامة للفلسفة الفريرية

وإلى هنا يأتى مقالنا إلى نهاية أهم المعالم فى السيرة الذاتية لهذا الفيلسوف التربوى، والذى قال عنه أحد أساتذة التربية فى جامعة جنوب كارولينا فى الولايات المتحدة الأمريكية «علينا أن نقرأ فريرى فى عصر تلبسته تيارات ما بعد الحداثة وموت الذات «الذات الإنسانية»، ولهذا يعتبره كثير من النقاد الاجتماعيين أهم مفكر تربوى فى القرن العشرين لما لكتاباته من معان فى إطار حقبتنا المعاصرة». ولعل ذلك سوف يتضح لنا عند محاولة التعرف على فلسفته بقدر ما تسمح به صحائف «الهلال»، وفيما أطلق عليها بعضهم تسمية الفلسفة الانسانية الديمقراطية الراديكالية، مما يوحى لنا فى اللحظة ذاتها بتوجهات المناضل الثائر شى جيفارا فى كوبا، والزعيم السياسى الليندى فى شيلى. إنها فلسفة إنسانية لأن الإنسانية فى فلسفته منطلقة من ضرورة تحويل الإنسان من «كائن لغيره» إلى «كائن لنفسه»، ومن العمل على تخليص المقهورين من موات الصمت واسترداد

أصواتهم باعتباره الشرط الأساسى لتحرير إنسانيتهم.. وهى فلسفة ديمقراطية لأنها تعتمد على الحوار فى توعية المقهورين من خلال التعليم، وتشدد على ضرورة مشاركتهم فى صنع القرار وهى راديكالية لأنها تتعامل مع ظروف الظلم وغياب العدل الاجتماعى وأحوال الفقر السائدة فى البرازيل والعالم الثالث.. ومن ثم كان لابد من فعل ثورى، عدل فيه عن استخدام العنف فى السنوات الأخيرة والراديكالية فى قناعته هى القيام بفعل ينطلق من الواقع ليحركه ويغير بنيته الاجتماعية وهو يتبرم أحيانا من الفلاسفة «لأنهم استطاعوا تفسير العــالم بطرق مختلفة، لكن الأهم من ذلك هو العمل على تغييره وهذا مما لم يقدم عليه كثير منهم».

ومهما يكن من تشخيص لفلسفته فى جوانبها المختلفة، فإنها كانت انطلاقا من تراب أمريكا اللاتينيـــة ومنــاخاتها وتضاريسها الاجتماعية والسياسية، ومن وضع الغالبية العظمى ممن أسماهم بالمقهورين - ماديا ونفسيا - فى سياق مجتمع تحكمه أقلية قاهرة - ماديا ونفسيا - مما جعل لفلسفته صدى فى مختلف أرجاء العالم، حيث اتسع مفهوم القهر والمقهورين ليشمل تلك الفئات البشرية المهمشة فى الأقطار الصناعية، ومن بين تداعيات هذا الشمول تأثيره فى حركات مطالبة السود بحقوقهم المدنية فى الولايات المتحدة الأمريكية وجنوب أفريقيا منذ أوائل الستينيات .

● منطلقات فلسفته التربوية

تنطلق الفلسفة التربوية لباولو فريرى من تصورات جوهرية عن الإنسان والكون والمعرفة والتاريخ. وإذا أردنا أن نمهد للتعرف على منظوره التربوى المتصل بسؤال حول «كيف يتعلم الناس أو كيف يعلمون أنفسهم؟» فإن ذلك يقتضى أن نتعرف على تصوره للسؤال حول «كيف يعرف الناس عالم الواقع؟»، ثم «كيف يمكن معرفة هذا الواقع؟» وأخيراً «كيف يحدد الناس تلك القيم الجديرة بالنشاط الإنسانى»، حتى نتبين منظوره التربوى فى عملية التعليم والتعلم والوعى الاجتماعى.

بيد أن كل هذه التصورات الجوهرية إنما تتفاعل مع بعضها فى فلسفته بطريقة جدلية من خلال تناقضاتها أو تكاملها، حيث أن نظرية الواقع الانطولوجى ونظرية المعرفة الايستمولوجية والنظرية الأخلاقية والقيمية إنما تمثل الظهير أو الخلفية لمنظوره التربوى من خلال علاقات تلك النظريات كلها واتساقها مع منطلقاته التربوية. ومن الضرورى هنا أن نؤكد فى معالجته الجدلية على صعوبة الفصل بين الذات والموضوع وبين الوعى الإنسانى

ومجال الوعى ومعطياته القائمة، أو بين التأثر والتأثير لكل من هذين الجانبين فى مجال القيم المنشودة وطرق التعليم والتعلم. وبالمنهج الجدلى يحدد فريرى ما هو واقعى من خلال التعرف على ما هو ليس بواقعى، وما هو إنسانى بما هو لا إنسانى، وما هو حقيقى بما هو كاذب أو مدرك بصورة مشوهة.

● النظرة إلى الوجود والواقع والمعـــرفة

إن المعطيات التى تقوم فى عالم الواقع والأشياء لا وجود لها خارج الإدراك الإنسانى، ويتم اكتشافها من خلال ما يقوم به العقل الإنسانى من بحث، وما يترتب على هذا الاكتشاف من توجه نحو العالم وتفاعل معه، تعكسه وتسميه وسائط التفكير/ اللغة فى وحدتها، إذ اللغة فى فلسفته هى الوجه الآخر للتفكير ومن خلال هذا الاكتشاف والتأمل يقوم الإنسان بإعطاء «تسميات للأشياء فى عاله وهى تسميات لإدراك ذاتى جماعى» ترمز للواقع المدرك، وليست صورة فوتوغرافية لذلك الواقع وبذلك تتشابك وتتوحد عملية الإدراك الذاتى مع الموضوعات الخارجية المدركة من خلال الإنسان العارف فى وجوده الجماعى.

وإدراك الواقع إنما هو «عملية»، وليس واقعة معطاة محددة ثابتة، وهو كذلك عملية اكتشاف مستمرة لاتنقطع للواقع، مرتبطة ومتغيرة بالبعد الزمانى.. وهنا

باولو فريرى

يلتقى فريرى مع فلاسفة اليونان فى مقولتهم بأنك لاتستحم فى نفس النهر مرتين. وهذا الإدراك مرتبط بالمكان أيضا فى علاقة الإنسان بهذا المكان وما به من موجودات وثقافات.

ومن ثم إذا كان الواقع وموجوداته ليس لها من حقيقة خارج وعى الإنسان ومدركاته، فإن الإنسان ذاته يعيش داخل هذا الواقع كما يتفاعل معه ويصارحه فى الوقت ذاته، متميزا بذلك عن سائر الكائنات الأخرى على أساس قدرته على التأمل والتفكير فيما يضطرب فيه من أوضاع مجتمعه. وهكذا يصبح البشر كائنات علائقية تاريخية جغرافية، ويصبح الواقع مترجما بلغة علاقات الزمكنة «الزمان والمكان»، حين يعبر الإنسان عن الأحداث فى علاقتها بين هنا وهناك، أو فى علاقتها قبل هذا وبعد ذاك، أو فى علاقتها بين الماضى والحاضر والمستقبل، والخلاصة أن إشكالية الواقع إنما تتمثل فى أن الإنسان يصنع تاريخه كما يصنعه تاريخه من خلال قدرته على التفكر والقصد.. وحين تتعاظم تلك القدرة يتجاوز الواقع الراهن ليخلق واقعا مغايرا. وبعبارة أخرى فإن الإنسان فى كينونته - صيرورته إنما هو مسيرة تمثل سببا ونتيجة للتاريخ والثقافة. وفى هذه الإنسان الإشكاليه يصبح فكر الإنسان المتحرر قادراً على أن يدفعه إلى أن يكون «أكثر مما هو» فى تفاعله مع الواقع المنغمس

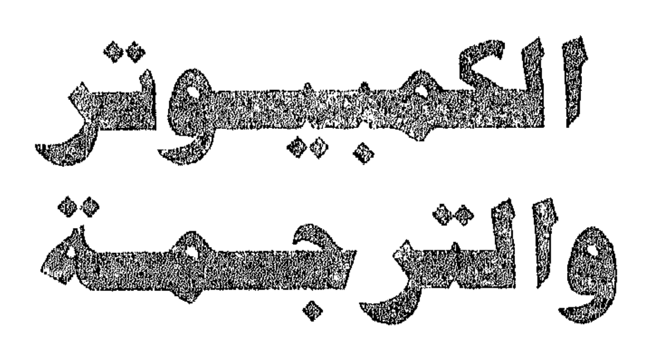
فيه ومن هنا يكمن الأمل فى تحرير الإنسان لذاته وبنضاله.

وينشغل فريرى فى كتاباته كلها بتأكيد هذه الخاصية الإنسانية، كما سعى الوجوديون إلى تأكيد ذلك أيضاً، وهى المميزة للإنسان عن الحيوان الذى هو كائن منغلق فى نفسه تدفعه غرائزه، كما أنه كائن لغيره الذى يسخره، لا ينفصل عن نشاطه، ولا يستطيع التفكير فيما يعمله، وبذلك تنعدم قدرته على تغيير سلوكه أو نمط حياته، وليس له ثقافة أو تاريخ، وزمانه ووجوده ثابتان لا يتغيران والإنسان بعكس ذلك تماماً - كائن لنفسه لا لغيره، يفكر ويفكر فيما حوله، قادر على الفعل، وقابل لتحدى ظروفه التى تحيط به وتستثيره، وقاصد على أن يتخذ له هدفا وأن يلتزم به. ومن خلال ذلك كله يسعى الإنسان إلى تحقيق إنسانيته بدرجات متنامية من التحرير لواقعه الاجتماعى ولطاقاته وقدراته، ثم إن التعليم والتعلم من خلال الحوار هو من أهم القيم اللازمة لبلوغ تلك الصيرورة المتحررة فى تفاعل الإنسان ليصبح صانع حضارته وتاريخه كما سنوضح ذلك فيما بعد.

ويستدرك فريرى مشيرا إلى ما يعوّق تحول الإنسان من الحالة المماثلة للحيوانية إلى حالة الصيرورة نحو انضاج مقوماته الإنسانية، وتبرز تلك العوائق فيما يتعرض له قطاع بشرى كبير من صنوف القهر المادى والنفسى والاغتراب، ومن أجل الوصول إلى التحرير - الذى هو عملية متصلة، وليست حالة ثابتة تجيىء ضرورة يقظة الوعى بذلك الواقع مقترنة بالسعى والعمل والجهد الإنسانى للتغيير، وبذلك فإن المعرفة فى نظره مرتبطة بالواقع المعاش، وهى عملية تاريخية متطورة كما أن الواقع والوجود عملية صيرورة اجتماعية متطورة. ومن أجل تحرير فئات المقهورين من ثقافة الصمت والاغتراب أعطى فريرى للمقهورين حق الثورة والعنف بمختلف الوسائل، رغم أنه عاد عن ذلك فى السنوات الأخيرة .

ويبرر استخدام العنف كرد فعل لعنف القاهرين، معتبراً أنهم هم البادئون باستخدام العنف، نظرا لتجريدهم المقهورين من مقومات إنسانيتهم، ومع ما يبدو من تناقض بين تركيزه على الحوار والتعليم الديمقراطى السياسى وبين استخدام العنف فى التحرير، فإنه يؤكد على ما يترسخ فى نفسية المقهورين من ازدواجية فى حالتهم النفسية تتأرجح بين تعايش مع حالة الاستئناس النفسى إذعاناً للقاهر، وبين غليان نفسى تمرداً عليه. وليس هناك من سبيل للخلاص من هذه الازدواجية المحبطة غير إثارة الوعى لدى المقهورين وتنظيمهم للعمل الديمقراطى السياسى . ■

وفى العدد القادم نتعرض لمواطن النقد لفلسفته وأرائه فى الكثير من الموضوعات



الكمبيوتر والترجمة

بقلم : محمد فتحى

يوجد مثل إنجليزي يقول «Out of sight, out of mind» وإذا طلبت ترجمته من مترجم حصيف لبادرك علي الفور بالمثل العربي المعروف «البعيد عن العين بعيد عن القلب» ، ولو كان أكثر حرفية لقال «البعيد عن العين بعيد عن الخاطر» ، ولفعل الأمر في الحالتين بيسر ودون مجهود يذكر .

وفي المحاولات المبكرة لاستخدام الحاسب الآلي في الترجمة طلبت منه ترجمة نفس المثل الإنجليزي ، وبالطبع لم يكن في مقدوره إلا أن يترجمه «خارج عن البصر ، خارج عن العقل» ، ولما فكروا في جعل الكمبيوتر قادرا علي تشغيل مخه ، وطلبوا منه ترجمة نفس المثل ، استخدم منطقه الأعمي وترجم المثل ، إلي «أعمي وغبي» ، فالشق الأول Out of sight يعني أنه «ليس له نظر» وقد فكر الكمبيوتر وقرر أن معني ذلك أنه أعمي . والشق الثاني Out of mind يعني «ليس له عقل» ، وقد فكر الكمبيوتر وقرر أن معني ذلك أنه غبي ، وهكذا قرر في ثقة الآلة «التي تشغل مخها» أن المثل يعني «أعمي وغبي» .

وليت الأمر مع الترجمة الكمبيوترية يقف عند هذا الحد الباعث على الضحك ، فتخيل مثلا ماذا يمكن أن يحدث لرجل ارتكن على ترجمته لتعبير Under Secretary الذى يعنى «نائب وزير» فى الولايات المتحدة الأمريكية ، والتى حولها المترجم المفكر الكمبيوترى الجهبذ إلى «السكرتير السافل» .. هكذا تبدو الصعوبات والمخاطر التى تحيط بالترجمة الكمبيوترية .

لكن اللغة العربية تتجاوز بخطوات واسعة هذه الأيام كثيرا من المشاكل التى وقفت حجر عثرة فى طريق التعامل مع الكمبيوتر ، وتقف على أبواب إنجازات يمكن أن تكون كبيرة فى مجال الترجمة ، والآفاق التى تفتحها المنجزات المعلوماتية الأخيرة أمام الحضارة البشرية .

إن الترجمة تعنى ببساطة نقل معانى نص من لغة إلى أخرى مع مراعاة دقة المعنى (المحتوى الدلالى) والأسلوب (مجمل الأجواء التى كتب فيها النص) . ولإتمام ذلك يجب فهم معنى النص الأصلى ثم التعبير عنه بلغة أخرى . وبدون فهم المعنى تهدر كل الجهود المبذولة

وفهم النص يعنى ان يتعرف الكمبيوتر ابتداء على الرموز المكتوبة (أى يفك الخط) ، ثم يتعرف على الوحدات المعجمية وهى الكلمات فى سياقاتها المختلفة ، فإذا أخذنا كلمة «ضرب» على سبيل المثال .. لوجدنا معانى مختلفة لها فى : ضرب محمد عليا ، ضربت دار سك النقود... ضرب من الخيال ، و ... ومن الضرورى هنا معرفة حقل النص أو مجال تخصصه لأن ذلك يسهم فى تحديد معانى ودلالات الكلمات ، فكلمة Plant كما أشرنا تعنى مصنعا فى مجال الصناعة ، بينما تعنى نباتا فى مجال الزراعة ، و .... ثم على الكمبيوتر ان يعرف التعبيرات الاصطلاحية من قبيل «رجع بخفى حنين » أو «صاحب اليد الطولى ، و ....

هذا كما أن فهم النص يعنى التعرف على الوحدات النحوية فى كلمات الجملة : الفعل والفاعل والمفعول والمضاف والمضاف اليه والصفة والموصوف و ... وتحديد وظيفتها في النص و ...

الشق الإيجابى فى الترجمة

وهذا هو الشق السلبى من عملية الترجمة أما الشق الإيجابى فهو إعادة إنتاج محتوى النص باللغة المطلوب الترجمة إليها ، ويتطلب ذلك معرفة بالمقابلات المعجمية والنحوية والبلاغية ، أى بقواعد الاملاء وأصول الكتابة ، وبالمقابلات الخاصة بمعانى الكلمات والاصطلاحات ، وبالقواعد النحوية والصرفية ، والقواعد الأسلوبية المختلفة فى اللغة الهدف المترجم إليها النص .

ولهذا فقد اتخذت محاولات الترجمة الكمبيوترية تسلسلا منطقيا يمضى بعد إدخال النص المراد ترجمته للكمبيوتر فى مراحل ثلاث :

أولا : التحليل

– بعد تنحية أسماء العلم والمصطلحات يقوم الكمبيوتر بتحليل صرفى للنص للتعرف على أجزاء الكلمات ومكوناتها .

– ثم يقوم الكمبيوتر بالتحليل النحوى لجمل النص ، فيحدد الفعل والفاعل والمفعول به و ... ، توطئة لما يشبه فهم الجمل فالنص بطريقة آلية .

ثانيا : نقل المعانى :

– البحث فى المعاجم الكمبيوترية وإيجاد المقابل للكلمات والمصطلحات التى تم تحليل النص اليها .

ثالثا : تكوين الجمل

– التوليف النحوى وتطبيق قواعد النحو فى اللغة الهدف (وضع المضاف بعد المضاف إليه ، والصفة بعد الموصوف ، و...)

– ثم التوليف الصرفى .

ولا بأس هنا من الوقوف مباشرة عند أن المصدر الأساسى للمشكلات ، فى عملية الترجمة ، هو كيفية التعامل مع تعقد اللغة ولبسها .. التصدى لمرونتها واتساع مفرداتها ، وتعدد معانيها ، وتباين استخداماتها ، مع غموضها وحذفها وتفشى مجازها وفائضها ، والكشف عن مضامين كنايتها وبنية جملها ونصوصها ومرادفاتها ، بل والاحساس بشحنة الانفعالات الكامنة وراء تعابيرها

مشكلة التشكيل

ومن هنا لعل البداية المنطقية للحديث عن الترجمة من وإلى اللغة العربية تكون فى السمات الخاصة التى تتميز بها العربية وتؤثر على فهم المعنى .. ولعل السمة الأولى التى يجب الوقوف عندها هى مشكلة التشكيل . ان عناصر التشكيل تلعب فى الكتابة العربية دورا مهما ، وهو دور أكثر تنوعا وأوسع نطاقا مقارنة باللغات الأخرى وحتى يدرك القارىء ذلك لابأس من أخذ كلمة «الجزر» كمثال..

إن معنى الكلمة يعتمد على كيفية تشكيلها فمعنى . الجزر (النبات) غير معنى الجزر (المنتشرة فى البحر) غير معنى الجزر (الذى يتعرض له البحر بعد المد) .. وهكذا فان غياب التشكيل مشكلة بالغة فيما يخص تحديد المعنى . وإن كان القارىء العربى قد تعود أن يقرأ جملة مثل «عاش الرجل الأسود من أهل الجزر ياكل الجزر ويخشى الجزر» دون تشكيل ويفهمها بصورة صحيحة وذلك اعتمادا على خبرته ومعرفته اللغوية ، وعلى سياق ورود «الجزر» فى مواضعها الثلاثة .

ولأن الاختزال (غياب علامات التشكيل) عنصر متأصل فى صلب الكتابة العربية .. فإن فهم الكمبيوتر للعربية آليا من المشكلات العويصة ذلك أن إسقاط التشكيل يؤدى إلى عدة قراءات محتملة ، ولايقتصر ذلك على المثال الذى ضربناه أو ماهو من قبيله. لأنه يسرى على كلمات بسيطة تبدو لأول وهلة خالية من اللبس فحتى «لن» و«أنتم» مثلا يمكن مع غياب التشكيل أن تلتبس ، فبجانب قراءتها الدارجة يمكن أن تكون صيغ فعل الأمر أو الجزم من «لان» و«انتمى».

اللبس المركب !

وتتفاعل حالات اللبس الناجمة عن غياب التشكيل مع حالات اللبس الأخرى كاللبس المعجمى .. كما فى كلمة «عين»

التى تجيء بمعنى البئر أو الجاسوس أو عين الإنسان أو ذات الشىء ، ناهيك عن معناها الرمزى : «عين الحياة» ، كما تتفاعل مع حالات اللبس التركيبى كما فى اشباه جمل مثل مهندس الهرم العظيم، وسمك البحر الأحمر (باحتمال كون العظمة صفة للمهندس أو للهرم ، والأحمر صفة ..) ، ويؤدى كل ذلك إلى أنواع معقدة للغاية من اللبس المركب متعدد المستويات – -Mul tilevel Ambigity .

هذا كما أن هناك مشكلة الوصول إلى الحل الأمثل للتعامل مع الصيغ الصرفية الكثيرة للكلمة العربية بدلا من التعامل مع قاموس آلى يحوى كل التصريفات الممكنة من الكلمة العربية ، فكلمة «قرأ» مثلا يشتق منها :

قارئان ، قراء ، مقروء ، قارئات ، قرآن ، قراءة ، قارئية ، الخ ، على عكس مقابلها فى الانجليزية (read) إذ لا يشتق منها ولا يتولد عنها إلا عدد محدود من الكلمات مثل : (readable - reader , reading) قارىء وقراءة ومقروء على التوالى ..

ومن يتمعن فى المثال السابق يجد أن جذر الكلمة الانجليزية read ظل دون تغيير عند الاشتقاق ، بينما انصهر وتغير جذر الكلمة العربية (قرأ) بالاضافة إلى ماتعرض له من سوابق ولواحق .

وظاهرتا التشكيل ووفرة الصيغ الصرفية مثال للظواهر اللغوية التى تصعب كثيرا التعامل مع تعقد اللغة ولبسها .. التصدى لمرونتها واتساع مفرداتها وتعدد معانيها ، وتباين استخداماتها ، مع غموضها وحذفها وتفشى مجازها وفائضها ، و ...

ولعل هاتين الظاهرتين توضحان عقم نقل الحلول التى جرى التوصل اليها فيما يخص اللغة الإنجليزية إلى اللغة العربية ، فقد رأينا وهن تعرض بنية الكلمة الإنجليزية لتغييرات جذرية مقارنة بالعربية ، ولعدم وجود التشكيل فيها ، وهكذا يتأكد أن تعريب الكمبيوتر عامة فى إطار النظم المصممة للغة الإنجليزية عملية مستحيلة لصعوبة استيعاب اللغة العربية الاعقد فى نطاق لغة أبسط كالانجليزية .

الترجمة العربية والتقنيات

ومن هنا فإن الترجمة العربية الآلية تستلزم تطوير تقنيات خاصة بها تراعى ماتتميز به الكلمة فى العربية عنها فى اللغات الأخرى ، وبالذات من حيث خضوعها للاشتقاق الصرفى أو التشكيل النحوى . واذا عدنا إلى جملة مثل «عاش الرجل الأسود من اهل الجزر يأكل الجزر ويخشى الجزر» فان فهم الكمبيوتر لهذه الجملة آليا أمر يحتاج إلى عناصر مرجعية كثيرة تتيح له درجة المعرفة التى تمكنه من إدراك ان الرجل لا يأكل الجزر وانما يخاف منه ، وأن الرجل يكون من أهل الجُزر وليس الجَزَر ... وذلك كله من الأمور

الأولية التى ينبغى حسمها قبل التفكير فى الشق الأيجابى من عملية الترجمة .

ولعلنا نكون قد وصلنا إلى تساؤل عن موقف التقنيات العربية من كل ذلك .

ان الكمبيوتر يستطيع الآن التعرف على الرموز أو الحروف العربية المكتوبة ، بالذات إذا أدخلت بالأساليب المعروفة مثل الطبع على لوحة المفاتيح أو عن طريق المميز الآلى للحروف OCR الذى يحول النصوص التى لم تكتب باستخدام لوحة المفاتيح إلى نصوص يستطيع الكمبيوتر التعامل معها وتعديلها كما لو كانت قد أدخلت عن طريق هذه اللوحة ، وليس كمجرد صور .

ومعروف أنه توجد أنظمة للتعامل مع الصرف العربى بصورة آلية ، وهى تستخدم استخداما ناجحا مطردا منذ ١٩٨٧ ، وتقوم فكرة المحلل الصرفى على تحليل كلمات اى نص وتفكيكها فيفصل جذعها عما يتصل به من السوابق (الادوات والحروف.) واللواحق (الضمائر المتصلة وزوائد التصريف وعلامات الاعراب) وكمثال فان كلمة «متشاكسون» يحللها الكمبيوتر فيحدد جذر الكلمة «شكس» كما يحدد أنها مصوغة على وزن متفاعل وبزيادة «ون» دلالة الجمع والرفع، ويتم تخزين الكلمة بموجب الجذر والوزن الصرفى مضافا إليه «ون» وذلك على شكل مجموعة من المعادلات الرياضية ، وعند استدعاء «متشاكسون» من الكمبيوتر يأتى بالجذر «شكس» ويضيفه على وزن متفاعل ثم يضيف اليه الواو والنون .. وهو يفعل ذلك بالنسبة لالاف الكلمات فى لمح البصر ، لأنه يقوم بعشرات الملايين من العمليات فى الثانية الواحدة .

وهكذا صار بإمكان الكمبيوتر بعد تحليل الكلمة صرفيا ليعرف ان كانت اسما أو فعلا أو صفة أو .. ويعرف ان كانت تشير إلى المفرد أو المثنى او الجمع، صار بإمكانه التعرف على الوحدات المعجمية ، أما التعبيرات الاصطلاحية التى كانت مشكلة لتعذر فهمها حتى مع معرفة معانى الكلمات مستقلة فقد حلت مع القواميس التى بدأت تشيع فى العربية والتى تخزن فى ذاكرة الكمبيوتر أكبر عدد منها مع إعطاء مقابلاتها .

هذا كما تمكن أخيرا برنامج كمبيوترى طورته إدارة البحوث التى يرأسها د . نبيل على من تقديم تشكيل كامل لأى نص عربى . ويرى القارىء فى زاوية من هذه العجالة صورة التشكيل الكامل لجملة «عاش الرجل الأسود من أهل الجزر يأكل الجزر ويخشى الجزر» المذكورة عاليه ، باستخدام هذا النظام ، الذى بات بمقدوره اليوم تشكيل النصوص العربية على نحو كامل ، بعد ان اجتاز الاختبار وشكل جملا بلغ عدد كلماتها الخمسين ..

الجملة المدخلة خالية من التشكيل

عاش الرجل الأسود من أهل الجزر يأكل الجزر ويخشى الجزر

الجملة المخرجة تامـــة التشكيل

عَاشَ اَلرَّجُلُ اَلْأَسْوَدُ مِنْ أَهْلِ اَلْجُزُرِ يَأْكُلُ اَلْجَزَرَ وَيَخْشَى اَلْجَزْرَ

خطوات مهمة

وتلك كلها مراحل لازمة قبل البحث فى المعاجم الكمبيوترية وإيجاد المقابل للكلمات والمصطلحات التى تم تحليل النص إليها ، وقبل تكوين الجمل عن طريق التوليف النحوى وتطبيق قواعد النحو فى اللغة الهدف (وضع المضاف بعد المضاف إليه والصفة بعد الموصوف . و ...) والتوليف الصرفى (كتب + مضارع + فاعل + جمع مذكر = كاتبون).

وهو يشكل خطوات مهمة على طريق الترجمة من وإلى اللغة العربية .

لكن كما يرى د . نبيل على نفسه مازال «على العرب الكثير فى دفع جهود التنظير اللغوى ، وتحديث المعاجم وكشف النقاب عن بنيتها الداخلية ، و ... ، وأن هذه مهمة مازالت الأجهزة الرسمية المسئولة عن اللغة العربية ، مثل مجامع اللغة والجامعات ، بعيدة عنها تماما» .

هذا كما يبقى إنجاز مايخص علاقة اللغتين المترجم منها والمترجم إليها ، ذلك أن التباين بين اللغات مشكلة أساسية لنظم الترجمة الآلية ، فما تقوم به لغة على مستوى نظام النحو يمكن أن تقوم به لغة أخرى على مستوى المعجم ، و ... ونظرا للاختلاف فى نحو اللغتين العربية والانجليزية مثلا يتطلب الأمر صياغة رسمية دقيقة لقواعد «نحو النقل بينهما» .

ومجمل القول ، دون إثقال على القارىء غير المتخصص بالاغراق فى تفاصيل فنية ، انه تم تحقيق عدد من

الخطوات المهمة وتبقى خطوات أساسية كثيرة لكى تلحق العربية بما يجرى فى اللغات الأخرى . لكن ينبغى ألا يفوتنا هنا أن شدة التماسك بين عناصر منظومة اللغة العربية .. المعجم بالصرف ، والصرف بالنحو . و ... مقارنة بكثير من اللغات الأخرى ، يعمل لصالح التعامل الآلى معها مثلما حدث فى نظام الفهم الآلى للغة العربية وإجلاء اللبس الناتج عن غياب التشكيل ، حيث تعتمد مثل هذه النظم على مبدأ تضافر القرائن اللغوية على اختلاف مصادرها .

وتبقى إشارة إلى أنه يمكن تقدير أهمية الترجمة الكمبيوترية فيما يخص العرب إذا أدركنا ، على سبيل المثال لا الحصر ، أنها تمثل مصدر أمل لملاحقة التطور العلمى والتقنى والفكرى ، وبالذات إذا وعينا الهوة المعلوماتية التى تفصل العرب عن العالم المتقدم .. ويمكن ان نستشف حال الترجمة فى العالم العربى اليوم ، وهى اداة مهمة من أدوات عبور الهوة ، اذا عرفنا ان مصر أكثر الدول العربية سكانا ، تترجم كتابا واحدا مقابل الف وسبعمائة كتاب يترجمها اليابانيون ، الذين مازالوا يرون ضرورة للترجمة الآلية حتى يتابعوا مايجرى فى العالم (!!) علاوة على مصالحهم التجارية بالطبع - غير مكتفين بما لديهم من مؤسسات جبارة تقوم بذلك معتمدة على البشر .

والمعروف أن إسرائيل ترتبط بعلاقات وثيقة مع شركات عتاد الكمبيوتر وبرامجها، التى دخلت مرحلة جديدة أخيرا بعد ان وقعت مع شركة «انتها» عقدا قيمته ١,٦ مليار دولار ، وبعد أن أعلنت : شركة «موتورولا» الأمريكية عن عزمها على إنشاء مصنع لأشباه المواصلات فى إسرائيل بقيمة مليار دولار ، وهو مايتجاوز كثيرا الطاقة الاستيعابية للسوق الاسرائيلية ، ومن الجدير بالذكر هنا أن اسرائيل قد طورت نظما آلية متقدمة في معالجة النصوص لدعم بحوثها فى التراثين اليهودى والعبرى اعتمادا على تعدد الثقافات واللغات داخل المجتمع الإسرائيلى، لم تكتف بذلك فدخلت مجالات الترجمة الآلية بين اللغات العالمية واللغة العربية ، مستغلة الخبرات البشرية المتوافرة لديها ، والتشابه بين العربية والعبرية اللتين تنتميان إلى اللغات السامية ، وتعمل إسرائيل على تعميق تعاونها مع مؤسسات الوحدة الاوربية فى مجال الترجمة الآلية ، وهى لطبيعة التنوع اللغوى البالغ فى صفوفها بين أكثر المهتمين بهذا الموضوع وكل ذلك مما يتيح لها إدخال معالجاتها الخاصة باللغة على مستوى عتاد الكمبيوتر ذاته .

أيها الصامتون

شعر

سليم الرافعى

حبسنا هذى السطور طويلا ... كل سطر يجر عبئاً ثقيلاً

إن فى الأحرف الرقاق جسوما ... تتمادى إرادة وميولا

فهى تبكى طوراً .. وتضحك .. إنى ... أسمع الصوت رنة أو عويلا

ياقبوراً بين السطور تؤدى ... عمرها الثانى المديد فصولا

يارجالاً .. ويانساء .. لماذا ... لا أراكم .. هل اختفيتم ذهولا ؟

أين تلك الأيدى تضم حبيباً ... أين تلك القلوب تطوى ذهولا ؟

ياشفاها عضت شفاها وأوت ... شعلة الحب بكرة وأصيلا

كل لون بين السطور تراوى ... جسداً عارما وحرفا ضئيلا

عانقتنا أجسادكم فى القوافى ... كل حرف قد صار عضواً بديلا

عجباً للزمان .. يبدو جواداً ... عجباً للزمان يبدو بخيلا

لم يطق هذه الجسوم .. فماذا ... كان يرجو من الجسوم جليلا ؟

سال منها دم وسالت دموع ... إنها النهر : شاطئاً ووحولا

أيها الزارعون .. حباً .. ومجداً ... بالقوافى صارعتم المستحيلا

ياسطور الآداب ملء حروف ... ياحقولاً ترتلت ترتيلا

ياسطور الفنون .. غرد فيها ... مطلع النور لا يريد أفولا

من شظايا (أبى فراس) أسيراً ... كل سجن أضحى يغنى هديلا

من دموع (الخنساء) غيمة أخت ... أنبتت فى ثرى يغنى الاخاء نخيلا

من (بنى عذرة) وفاء تعالى ... فى السماوات ملهما أو رسولا

أيها الصامتون .. ماذا صنعتم ... من سطور تتوجت إكليلا؟

أهى العاصفات .. لاتتوانى ... أم جبال الأهرام عرضا وطولا؟

كل أطواركم غدت فى القوافى ... مثلما ينشىء السحاب شكولا

ومضة بعد ومضة فى نضال ... يتلاظى .. عواطف وعقولا



قصة قصيرة



بقلم : أحمد عمر شاهين

بريشة : سميحة حسنين

هل أتى عليك وقت لم تستطع أن تعبر فيه عما يدور برأسك من أفكار؟ وهل جربت أن يكون عقلك مشتعلا بضوء ألف مشعل من الآراء المختلفة تبعد عنك النوم واليقظة؟ وتتركك مستلقيا كالخرقة البالية لاتستطيع أن تطفئها ولا تستطيع أن تستفيد من ضوئها؟ وهل ساورتك الظنون بأنك على وشك الجنون؟ أو أن رأسك على وشك الانفجار؟ ليس من الصداع ولا من الضجة أو أى سبب عضوى.. بل من الأفكار؟ وهل حاولت تقصى هذه الحالة لمعرفة أسبابها؟ سواء فشلت فى الوصول الى السبب أو نجحت؟.

اذا حدث لك ذلك فأنت صاحب هذا النص - القصة.

ولنبدأ معك رحلة هذا العذاب.

زحفت الكتب فغطت كل أرجاء البيت. أرفف فى كل مكان، على جدران الغرف، فى المطبخ والحمام، فوق الأسرة وتحتها، فوق

قصة قصيرة

المناضد وعلى حواف النوافذ، فوق الكراسى والكنبات والدواليب - حتى أصبحت سجين هذه الكتب المزعجة. وبدأت أشعر بالاختناق، خاصة وأنا أعانى خوفا من الاماكن الضيقة، حتى وقعت الحادثة، فقررت بعدها أن أبيع كل هذه الكتب، وأن أنظف الشقة، وأخليها من كل ما بها من دواليب ومناضد وكراسى أيضا، بل وأزيل الحوائط التى تفصل بين الغرف، لتكون الشقة كلها غرفة واحدة واسعة رحبة خالية. قررت أن أنام على مرتبة على الأرض، وطبلية أمامى، وشماعة أدقها فى الحائط أعلق عليها ملابسى، ولاشيء غير ذلك. أريد مكانا متسعا، كرهت كل هذا الزحام، كل هذا الورق، كل هذا الأثاث، وكل هذه الثقافة. قد تتساءل ما الذى أدى الى كل هذا؟ وماهى القشة التى قسمت ظهر البعير؟.

سأقول لك:

عدت الى البيت فى الساعة الحادية عشرة ليلا، بعد معركة كلامية حامية دارت رحاها فى ساحة الأتيلييه حيث يتجمع المثقفون فى العاصمة. أذناى مملوءتان بالطنين، ورأسى يكاد ينفجر من مدقات كلامية تدقه، آراء وأراء متناقضة، نظريات وفروض سجائر ومشروبات، كلام وكلام وكلام.

خلعت ملابسى واستلقيت على السرير، لتبدأ معركة جديدة تدور فى ذهنى وتبعد النوم عن عينى. برق لى الخاطر فجأة، كل ليلة أمر بمعركة العذاب هذه، تتركنى منهكا، دون نصيب من النوم والمتعة والراحة إلا القليل، ماذا يحدث لو بعت هذه الكتب مرة واحدة ؟ لن أنظر اليها لن أقلبها حتى لا أضعف أو أتراجع، أتصل بمكتبة تشترى الكتب ليحضر مندوبها يقلب فى الكتب كيف يشاء ويحدد السعر الذى يراه، لن أراجعه ولن أساومه، ولتكن هذه هى النهاية، نهاية هذا الورق الذى أحال حياتى الى جحيم طوال أربعين سنة دون عائد أو فائدة إلا العذاب

وقلة الراحة وتعب البال.

شعرت بالرضا عن النفس، وتقلبت في السرير، وجهي الى الحائط، عليه رفوف من الخشب تحمل موسوعات علمية: موسوعة الطيور، موسوعة الحيوان، موسوعة الثعابين، موسوعة النبات، موسوعة الزهور، موسوعة بهجة المعرفة.. الخ.. هذه الموسوعات اشتريتها من المعرض الدولى للكتاب على مدى سنوات طويلة، تصفحتها وقرأت مقتطفات منها، فانت تعلم ان الموسوعات لاتقرأ كلها وهى كوسائل المواصلات نستعين بها أحيانا للوصول الى موضوع معين، والموضوع الذى كان فى ذهنى هو الكتابة للأطفال، حول المخلوقات المختلفة التى تعايشنا فى هذا العالم، بأسلوب قصصى تعليمى، لكن السنوات مرت دون أن أحقق شيئا فى هذا المشروع، وأخذتنى مشاغل الحياة وكتابات أخرى.. فتناسيت الامر وان كان يعيش كامنا فى ذهنى

قد لا تصدق ما حدث، لكنى مضطر لقوله لأنه حدث.

بدأ الأمر بثعبان بأجنحة، انطلق من موسوعة الثعابين، مع انى متأكد من أنه ليس هناك ثعابين بأجنحة على كوكبنا الأرضى، لكن هذا ماحدث، ثعبان ضخم يطير والناس تهرب فى كل مكان، وأنا المشلول الوحيد الذى يتجه الثعبان نحوه دون أن يستطيع حراكا. الأمر ليس حلما، ولا تحاول ان تفسره كحلم بالاستعانة بإسقاطات فرويد المختلفة حول الجنس ، ولا بالإسقاطات الدينية بأن الثعبان هو السبب فى هبوط آدم من جنته.. الامر أخطر من ذلك. هذا ثعبان حقيقى، يطير بأجنحة، فاغرا فاه يريد ان ينهشنى بنابه.

أغمضت عينى منتظرا النهاية، وحين لم يحدث شىء أعدت فتحهما، ولدهشتى رأيت حيوان الكنغر، يطير أيضا خارجا من موسوعة الحيوان، معترضا الثعبان وتدور بينهما معركة حامية وحولهما تطير آلاف

قصة قصيرة

الزهور والنباتات وعشرات الحيوانات المختلفة وكأن كل ما في الموسوعات قد اندلق خارجها بأجنحة عدا الطيور والحشرات، ولا أعرف لذلك سببا برغم وجود موسوعة الطيور والحشرات جنبا الى جنب مع الموسوعات الأخرى.

في احتدام المعركة، قفزت عن السرير، وقررت أن أنام في الغرفة الثانية على السرير الآخر، سرير احتياطي لأي ضيف طارىء. لم ألق نظرة ورائي، بل أقفلت الباب بالمفتاح ودلفت الى الغرفة الثانية، ملقيا نفسي على السرير وأنفاسي تتلاحق من الرعب.

رفوف الكتب حولي لا تحمل أي موسوعات او دوائر معارف، هنا كتب الأدب، الأعمال الإبداعية فقط، من الكلاسيكيات حتى الرواية الحديثة والجديدة، عرب وأجانب ولاضرورة للعد، في مساء اليوم التالي لن يكون هناك أحد منكم هنا، هكذا همست لنفسي. قلت سأنام على ظهري، فالسقف لايحمل كتبا، سأنام بهدوء دون ان يعكر صفو أفكاري شيء، وقبل ان أستسلم لهذه الفكرة، ارتسم على السقف أمام عيني مباشرة عطيل وهو يخنق ديدمونة، أغلقت عيني وفتحتهما، انقلب المشهد ورأيت راسكولينكوف الروسي يقتل المرابية العجوز، أغلقت عيني وبسملت وفتحتهما، شاهدت ليني يقتل الفتاة ذات الشعر الناعم، كلما أغلقت عيني وفتحتهما يتغير المشهد كصندوق العجب، مجموعة من المسلحين تقتحم حانة لتقتل رجلا، قتلة همنجواي، «ايهاب» ذو الساق المقطوعة يطلق على حوته، مالوني بيكيت يحتضر أمامي، «جوزيف ك» يساق الى المحاكمة، ذبح، قتل، اشعال نيران، مطاردة، هروب، عصيان، تمرد، ثورة، حروب، مشاهد ومشاهد من العنف كأن كل أحداث الروايات خرجت منها لتعرض على السقف أمامي بشكل يبعث الذعر والخوف في قلب أشجع الرجال. لكن المصيبة الأكبر حين بدأت شظايا هذه المعارك تتساقط فوقي، هل أنام تحت السرير؟ لكن المسافة لا تسعني،

فالسرير بسحارة تكاد تقترب من الأرض، نهضت مسرعا، مصمما على المبيت على كنبة فى غرفة المكتبة، مكتبة مجازا فكل الغرف متشابهة، عدا ان ما اسميها مكتبة ليس فيها سرير، بل بضعة كراسى ومكتب وكنبة. أزحت الكتب عن الكنبة وألقيت بجسدى منهكا

المكتبة تضم القواميس ودواوين الشعر وكتب النقد والدراسات النظرية والمجلات الدورية، لا أعتقد أن هناك خوفا منها.

وحاولت أن أنام.

أتعرف مطر بلاد شمال الشمال الغزير المحمل بحبات البرد الكبيرة؟.

ما حدث من مطر فوقى أغزر منه، لكنه مطر بلا ماء.

زخات عنيفة من الحروف العربية واللاتينية، تنهمر على جسدى، تكاد تخترقه، وأقسى الضربات جاءت من حرف الألف العربى والأو والآى الانجليزيين وضعت يدى فوق رأسى أتقى هذا السيل الجارف. حين توقف بعد فترة من الزمن لا أدرى طولها، تنفست الصعداء، لكن العاصفة لم تكن قد هبت بعد، وبالحلاوة الكلمات، آلاف وآلاف تضربنى من كل جانب، حتى بدأت أتقافز على الكنبة كالقرد المصاب بالجرب أو كالكتكوت على صفيحة تحتها موقد مشتعل.. والذى باعوه للناس باسم الكتكوت التركى الراقص هربت، جريت كالمجنون، لم احاول ان ادخل إحدى الغرفتين.. فاستلقيت على «الكليم» الموضوع فى صالة البيت، مفضلا تعب النوم على الأرض من عذاب الأعاصير فى الأماكن الاخرى.

هنا على جانبى الصالة، رفوف تحمل كتب التراث، كتب رزينة ثقيلة مهيبة محترمة.

هنا سأنام بهدوء.

ولقد نمت.. لكن أتعرف ماذا كانت النتيجة؟.

سحبنى الجيران بين الحياة والموت من تحت ثقل. هذه الكتب التى انهارت فوقى من اليمين واليسار.. قتلتنى الكتب.

رؤيـــة مسرحية

سلاسل وزهور

بقلم : فوزية مهران

■ زهرة اللوتس المتسامية
التى سجلت علي صفحات
التاريخ.. وحفرت فوق أعمدة
الحضارة ..
رمز التفتح والشوق إلي
الاكتمال والمعرفة
لمسة الجمال الساحرة .. هل
نتركها تشحب وتذبل
داخل الحجرات المعتمة
والنفوس المغلقة ؟ ..
وهل أتي حين من الدهر
نحيطها بالسلاسل والقيود ..
وندع جنازير الحديد تدمي
براعمها وسيقانها ؟!
تبدأ مسرحية «الجنزير»
للكاتب محمد سلماوى
بمصادفة عبثية ساذجة.

سيدة جميلة ناضجة تعود إلى بيتها تصحب معها فتاة منقبة لتمد لها يد العَون والمساعدة. أم مصرية عاصرت مشرق الثورة ومسيرة التحرر .. ورحلة الكبرياء والشموخ الوطنى . تنتمى إلى أصالة المصريين .. فضيلة الصمود وإرادة التحدى لديهم .. إلى جيل بناة السد العالى .

زوجها كبير المهندسين فى بناء السد .. وقيادة التطور والتقدم .. وحلم تحقيق المشروع القومى .

مازالت تحاول أن تقدم خدماتها للمجتمع - رغم تفشى الأنانية والسعار والغلاء - تجمع تبرعات لمرضى الجذام ، تواصل رحلة المعاناة لمواصلة مسيرة الأسرة بعد وفاة زوجها .

كيف يمكنها أن تطمئن لهذا الشبح



محمد سلماوى



لقطة من مسرحية الجنزير

الأسود وتقوده بنفسها إلى بيتها ثم تكتشف بعد ذلك أنه إرهابى متنكر .

هل الأمر مجرد ترتيب صدفة لاقتحامه عالم الأسرة الداخلى . أم أن المؤلف الذى عرف عن براعته فى الإعداد لكل شىء .. والتقاطه من الأحداث اليومية مادة أولية لمسرحياته - ربما أراد أن يقول أن الأخطار التى تترصدنا والأوبئة الاجتماعية التى تفشت بيننا نفذت إلينا من خلال عيوبنا .. من غفلتنا وتخاذلنا وترهل تفكيرنا .

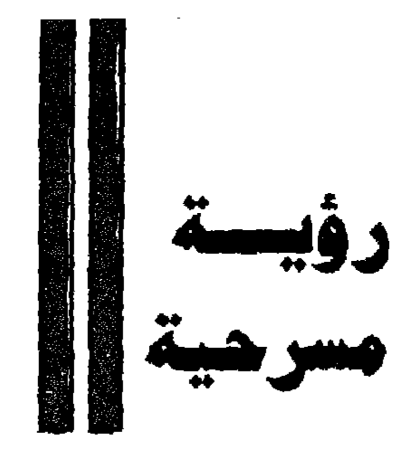
نجد أنفسنا داخل أسرة مصرية صميمة يجرى عليها ما جرى للجميع . أسرة جامعة من الطبقة الوسطى المتفوقة .. لها ابن انحرف إلى الإدمان وابنة يانعة تحب وطنها وترتبط بأسباب المستقبل . وأخرى تزوجت وتحجبت وسافرت مع زوجها تصنع مستقبلا ماديا بعيدا عن الوطن .

الأم مازالت صامدة . وأبوها عجوز فاقد الحركة والبصر .. مثل المعابر والجسور القديمة يمد بين الماضى والحاضر ويستدعى المعانى والذكريات والصور .

المسرحية كلها لم تخرج من ردهة البيت الأنيقة الفسيحة .. وكأنها مساحة من قلب مصر .. وساحة لجسد الوطن ، يدور فوقه الصراع ، الصراع يدور لأسباب اجتماعية وسياسية وليس لطبيعة البشر أو صفات نفسية وشخصية .

لمسات الجمال محيطة بنا وأسباب الذوق والحضارة .. البيانو لم تعزف عليه الأم من زمن ، تحسب أن أصابعها قد تيبست .

حتى الأشخاص الذين نسمع عنهم ولاتراهم كانوا حاضرين وعلى اتصال دائم



ونحن معهم حضور وشهود

بدى الانسجام والتفاهم واضحا بين الكاتب والمخرج جلال الشرقاوى طرحا مانعانى منه أمامنا ومن أجل المواجهة .

ماجدة الخطيب

وجدت نفسها فى دور الأم ، والدور يليق بها ويتصل بشحنتها الوجدانية والفنية . كانت تعيشه بكل تفاصيله وكل لحظة فيه فقط من فرط حماسها وإيمانها كانت تبدأ بذروة الانفعال وتظل تؤدى وعلى وتيرة واحدة ولاتتبع التدرج الموسيقى أو الدرامى ، حتى إن صوتها يخذلها أحيانا وتضيع بعض الحروف عند النطق بها .

كذلك الحركة التى رسمها لها المخرج جلال الشرقاوى .. خصوصا فى البداية ظلت تدور حول الشخصية المنقبة معظم الوقت حتى أصابتنا بالتشتت والدوار أم أن المخرج حاول أن يجسد لنا الدوامة التى تحيط بنا ، وإن كان من الأفضل ألا ترهقنا الحركة الخارجية كى نسعى للتفكير والتأمل ومحاولة الفهم والإدراك .

الميزة الحقيقية لمحمد سلماوى فى تصوير شخصية الإرهابى أنه لم يبالغ فى رسم الشخصية ، لم يجعله معتما .. غليظا أو قاسيا طوال الوقت .

اختار نموذجا بسيطا وشائعا .. فى الخامسة والعشرين ، لم يعرف أمه وتخلى عنه أبوه -كل ما أحاط به ضيعه .. لا أسرة ولا بيتا ولا تعليما أو حنانا ووجد من يمنيه بالجنة .. يجعل لحياته معنى وهدفاً .

تصبح له قضية يعيش من أجلها .. دور - لايعرفه تماما - لكنه يتبع الأوامر .

خالد النبوى

فى دور الارهابى الصغير كان مأخوذا حقا .. يعيش فى دور البطولة والمجاهدة ورضا الأمير .. يسكره سماع صوت الوسيط بينه وبين الأمير .. كان وجهه معبرا للغاية وانفعالاته تتبدى واضحة جلية على صفحة وجهه .. ينتقل من القسوة إلى اللين .. من الجفاف إلى هزة المشاعر .. من حالة الشجن إلى الصوت الزاعق .. بسهولة ويسر وبطريقة طبيعية وتلقائية .. عندما كان يفضى حياء أمام جمال ورقة زهرة الأسرة المتفتحة ياسمين عندما يسمع صوتها .. تحرك كيانه كلماتها البسيطة الصادقة ..

فجأة يتذكر المهمة التى جاء من أجلها .. يبدو كمن ترك قياده لمن هم بالخارج ، من يفرضون عليه العداوة والبغضاء .. يشعر بهزة وانعدام الوزن .. يداهمه الخوف فجأة ويصرخ كى ينهى المناقشة .

ممثل ساطع جميل أمامه مستقبل مضىء فى السينما والمسرح .

فى المقابل نجد ابن الأسرة الجامعى يقع فى براثن الإدمان دون أن يذكر لنا المؤلف لِمَ . كأنه نفس النوع من القضاء فالضياع والانحلال والانغلاق والتعصب نبع مأساة واحدة .. تتبع شبابنا كالنداهة القديمة .. تبتلع أجمل أبنائها .

أحمد «وائل نور»

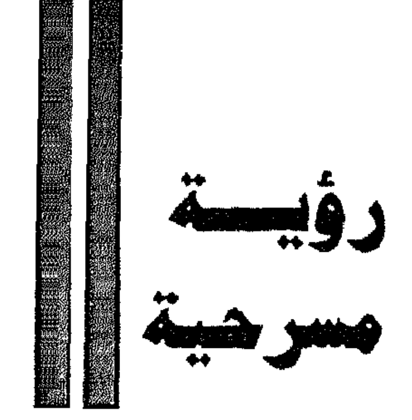
يفتقد الأب حقا .. لكن الأم صامدة .. الأم كأنها كتيبة الأمهات فى بر مصر كلها .. توفر له أسباب الدراسة والتقدم . تخلت عن حليها من أجل دعم مستقبل الأسرة .. السلاسل الذهبية والأساور.. قيود وأسر وتجميد للثروة والطاقة .. استثمارها فى بناء مستقبل الأبناء هو زينة الدنيا وجمالها .

أحمد يعانى من غياب آخر .. يبيعون له الوهم والنشوة الزائفة .. زينها له مصاصو الدماء والأموال وآكلو لحوم البشر .. من يريدون الثراء بأى ثمن .

أحمد ومحمد وضعهما محمد سلماوى وجها لوجه على المسرح .. لتزلزلنا المواجهة .. كان من المثير والعسير أن يظن المدمن أن الارهابى مجرد حلم .. كابوس .. أو هلوسة كأنما ينظر فى مرآة عاكسة .. فتظهر صورته له فى أوضاع مقلوبة وشائهة ويضحك من أثرها ، يحاول أن يضحك من نفسه ومن أوهامه .. وفى النهاية يتبين أنه وجهه .. ووجه أخيه .. وأنهما ضحية معا .

«وائل نور» هو مفجر الضحك فى المسرحية .. وقدم شخصية الفتى المدمن على صورة المهرج ولابد أنها رؤية المخرج أيضا ، أتقن دوره بأدائه وملابسه الغريبة والسلاسل حول رقبته وفى معصمه .

خفيف الظل حقا .. لكن الخطورة تنبع من أن شباب المتفرجين كانوا يضحكون معه .. تستهويهم طريقته وكلماته وميوعته .. بل إن بعض الصغار كانوا يضجون بالاعجاب والمرح وترتفع ضحكاتهم البريئة ، يجدونه مسليا وجميلا وقريبا إلى نفوسهم وإلى تمردهم ورغبتهم فى حرية الفوضى وقص شعورهم وارتدائهم أغرب الملابس .. ليس من العدل أن يتحول الفتى المدمن إلى فيلسوف الرواية والمعلق على الأحداث والشخصيات ومثير للبهجة والمرح .



ما أظن المؤلف قصد إلى هذا إنما أراد أن يؤكد أننا أمام مأساة واحدة .. شبابنا .. رصيدنا البشرى للمستقبل ينفرط عقده الآن، ويقع فى غواية التطرف والإدمان الغياب والعجز والقهر والمرض .

كان من الضرورى تقديم الشخصية على نحو مختلف .. ومع براعة وائل نور .. يمكنه أن يضحكنا لكننا ندرك عمق المأساة والألم.

عزة بهاء

في دور الأخت ياسمين مثل زهرة اللوتس الندية .. الغريب أنها تتعامل مع الأخ المدمن والأمر يبدو عاديا تماما بينهم .. لم تشعرنا لحظة واحدة بأنها تدرك معنى سقطة أخيها.

الشخصية مرسومة ببراعة وعمق .. فهى الصورة النضرة المناظرة للأم .. تركت خطيبها لأنها لا تريد أن تتحول إلى مجرد عروس أو دمية تتمتع بزخرف الحياة .. والعيشة المترفة .. دون أن يكون لها أثر .. موقف أو عمل .

تتعاطف مع الفتى الارهابى فى مثل عمرها - تجد أن لديه جرأة وإقداما ورغبة فى تحقيق هدف ، ولكن للأسف بطريقة خاطئة ، ترفض منطقه وتتعاطف معه .. تنمو بذرة الإعجاب ، لتعيد تربيته من جديد .. تصوغه على عينها .. يكون الحوار بينهما .. بسيطا مباشرا صادقا وهى نفس الصفات التى يتميز بها الحوار عند محمد سلماوى وكانت المشاهد بينهما من أجل اللحظات وأكثرها دفئا وثراء .. وساهمت فى التحول الذى حدث له .

لقد أشعرته الأسرة التى هاجمها وكان حربا عليها بآدميته .. بإنسانيته .. بالرغبة فى الانتماء إليهم والالتصاق بهم وأذهبت عنه الوحشة والخوف والقلق .. أخذت الأسرة بيده .. طعم من طعامهم .. عاش بينهم .. أطعم الجد بيده .. عاد طفلاً صغيراً .

عبدالمنعم مدبولى

والأب عبد المنغم مدبولى بصوته المميز وعمقه الإنسانى الجميل .. كان بمثابة النسمة المنعشة .. يطلب الاهتمام والتدليل «والأرز باللبن» ويتوهم أنه يتحدث مع حفيده يحكى له .. يسرد الذكريات «الموحية» .. يبدو واهنا وقويا فى نفس الوقت .

تربى فى حضن ثورة وطنية - ١٩١٩ -

عاش مرحلة بناء السد .. حلق بالانتصارات وعانق تضحيات وانكسارات .

ينبهنا طوال الوقت لضرورة ربط جذور الماضى بالحاضر .. خطورة «الحلقة المفقودة» فى تتابع المد الوطنى والشعبى ..

يضم سيرته الذاتية ويستدعى أحداثا وطنية .. وبطولات شاهقة ..

وفى النهاية .. عندما تكتشف الأسرة أنه مطلوب قتل أحد أفراد الأسرة كل حين ..

يقول عبدالمنعم مدبولى .. كأنما يترنم بأنشودة جميلة .. ويردد معزوفة لها أكبر الأثر .. أنه عندما أراد أن يفتدى الزعيم سعد زغلول قيل له ومن أنت .. وما تساوى حياتك حتى تكون بديلا عن سعد ؟

يسأل الفتى المهاجم أن يمنحه هذه الفرصة الآن .. وجعل حياته لها قيمة ومعنى فهو يضحى من أجل أسرته ومستقبل الحياة ذاتها .

وتهب الأم تعرض تضحيتها بنفسها .. حتى الشاب المدمن يطلب تطهرا وتوبة على خطيئته .. والفتاة ..

تهتز أعماق الفتى .. يكبر الأسرة تتبارى من أجل التضحية .. وهو منهم .. عاش معهم .. تدعوه الأم - ابنها - كان يرفض النداء فى البداية - ليس ابنا لأحد - ثم عاد واستعذب ندائها .. والابن أخ له .. وياسمين مست قلبه .. والصوت فى التليفون يدينه ويتهمه بالتردد .. والضعف والجبن ويتوعده يصل إلى لحظة الوعى ..

هو من أصل هذه الشجرة الطيبة .. من رحم هذه الأسرة الطيبة .. هو أهل للتضحية من أجلهم ومصيره مرتبط بهم .

تلك هى اللحظة الفاصلة والمهمة .. وكل ما جاء بعد ذلك إضعاف لتلك اللحظة التي حشد لها محمد سلماوى منذ البداية وأتقن الاعداد لها والتدرج بالحدث حتى بلوغها .. وأراد أن يغرس قيما حقيقية ومفاهيم جديدة من واقع التجربة وجسدها باتقان وجمال المخرج جلال الشرقاوى .

عاد المتطرف إلى الحضن الكبير .. إلى حضن الوطن

ولا يهم بعد ذلك من يتلقى الطلقة فى صدره .. من يقتل .. وبرصاص من ..

اللوحة الأخيرة كانت زاعقة .. معركة بين المتطرفين والشرطة على قتل الفتى ..

لوحة مجسدة ولكن لا ضرورة لها فاللحظة الفائقة هى فى تماسك الأسرة وبينها الفتى وليواجهوا بعد ذلك أى خطر ..

ثقافة أفعل التفضيل

سوق الاستفتاءات

محمود قاسم

جاءني صوته عبر الطرف الآخر للهاتف :

ــ ما رأيك في أهم الكتب والشخصيات الثقافية والأحداث الفكرية التي تسم بها عام ١٩٩٥ ؟

السائل هو كاتب قصصي مشهور ، لم يستطع أن يتابع كل ماصدر في العام الماضي ، ولم يتمكن من قراءة الكثير منه حسبما جاء في حديثه الهاتفي ، ووجد نفسه أمام مجموعة من الاسئلة عن أحسن كتاب ، وأحسن كاتب ، وعن أهم الأحداث الثقافية ، وأسئلة أخرى تتكرر في صفحاتنا الثقافية والفنية دائما في آخر العام ، كنوع من تقويم حصاد الابداع والعطاء طوال سنة باعتبار أن الناس تحب أن يختار لها الآخرون مايتناسب مع أفضل التفضيل : الأحسن، الأفضل ، وربما الأسوأ.

وبعد عدة أيام امتلأت الصفحات بالاستفتاءات المنتظرة ، والتي بدت هذه المرة أكثر من كل المرات السابقة ، سواء في الصفحات المخصصة لها وأيضا في الاسماء التي تم الرجوع اليها ، وهي أسماء تنتمي الى أجيال ومدارس واتجاهات مختلفة ، وقامت أغلبها بالاجابة على السؤال في الحدود الآتية من خلال الأحسن : كتاب ، كاتب ، ديوان ، أهم حدث ، وفي السينما كان السؤال عن أحسن ، فيلم ، ممثل ، ممثلة ، مخرج ، فضلا عن اسئلة في أعداد أخرى عن التوقعات عن عام ١٩٩٦ .

وقد قامت هذه الاستفتاءات فقط في مجال الابداع الأدبي ، والسينمائي ، وتم تجاهل بقية الابداعات كالمسرح ، والفنون التشكيلية ، ولاشك أن ذلك الكم من الاختيارات يعكس الانتعاش الابداعي في مصر ، وأيضا انتعاش المتابعة النقدية في الصحف والمجلات ، ويعني رواج الأدب وفنونه بما يتناسب مع مانقرؤه ومايحدث في نهاية كل سنة ، وأن مارأيناه ليس

سوى مؤشر لمرآة مزدهرة صورتها تمام الازدهار .

لكن هل هذه حقيقة ؟

هل يعني ذلك الكم الهائل من الاستفتاءات الثقافية أن سوق القراءة ، الأدبية فى انتعاش ، وأنه لدينا كل هذا الكم المتميز من الابداع «الأحسن» والأفلام «الأفضل» ، أم أن رواج هذه الظاهرة الموسمية ، يعكس حقيقة الأمور ؟

أحسن الكتاب .. بالتعيين

لنبدأ الحديث عن وجود ظاهرة مماثلة فى الصحافة الثقافية العالمية ، وخاصة فى أوربا ، فما أحرى أن يتم ذلك فى بلاد توزع فيها الروايات والكتب الناجحة بالملايين ، وغالبا مايكون أجر بعض الكتاب الأكثر مبيعا يقارب العشر ملايين دولار من دخل الكتاب الواحد (راجع ماتحصل عليه مارى هيجنز كلارك وستيفن كنج مثلا عن كتبهما الأخيرة) ، فما أحرى بهذه الدول أن تتم فيها مثل هذه الاستفتاءات على مدار واسع ، ولكن الذى يحدث هو العكس ، فمع انتهاء العام تخلو الصفحات الثقافية من مثل هذه الأسئلة وتتفرغ لمتابعة الاصدارات الجديدة كالعادة .

لكن هذا لايمنع أن هذه الظاهرة موجودة بشكل آخر ، أكثر تنظيما . ويكاد يخلو من الاعتبارات الشخصية ، وذلك من خلال المؤسسات الثقافية المعتمدة ، التى تعلن عن جوائزها الأدبية الثانوية ، وتمنح لرواية أو لكتاب بعينه الجائزة وباعتبارأن الكتاب الذى يأخذ جائزة من تلك المؤسسة ليس له الحق قط أن يحصل على جائزة أخرى من أى مؤسسة ثقافية . من أجل اتاحة الفرصة أمام بقية الكتب أن تنال حظا من الجوائز . ولأن هذه الجوائز نوعية، تمنح فى المؤسسة الواحدة لنوع معين من الكتب .

ومن هنا ، وبشكل غير مباشر يتم «تعيين» أحسن كتاب ، من قبل الاكاديميات الثقافية ، وهى غير حكومية ، ويتولى ذلك أعضاء مجلس ادارتها ، الذين يمثلون صفوة الكتاب ، فاذا كانت الجائزة للرواية فان اعضاء الاكاديمية التى تمنح الجائزة نفسها ، يكونون من الروائيين ، واذا كانت مخصصة للابداع السنوى ، فان الاعضاء يكونون من الأديبات النساء المؤمنات بالنسوية ، وهكذا .

وهذه الظاهرة تتم فى شهرى أكتوبر ونوفمبر ، وبالتالى ، فمع بداية العام الجديد ، يكون الناس قد عرفوا اسم الكتاب المناسب للقراءة ، وفى مواسم الأعياد قد يتم اهداء الكتاب الى الاصدقاء باعتباره الهدية المضمونة .

وهذه الكتب الفائزة ، وغيرها ، معروفة

من خلال اسم الناشر ، وعلى القارىء أن يذهب الى الناشر مباشرة لشرائه ، اذا لم يكن قد سبق الحصول عليه . وقد يسوقنا هذا الى سؤال حول استفتاءاتنا ، فاذا اتفق الكثيرون على أن كتابا ما هو الأحسن ، فكيف يتسنى للقارىء أن يحصل عليه ، ولدينا عجز واضح في سوق التوزيع ، يتضح فى عدم وجود هذا الكتاب وغيره لدى المكتبات في المدن ، ولأن بعض المؤسسات التى تتولى توزيع الكتب تتعامل مع الكتاب باعتباره مطبوعة دورية حيث يتم توزيعه لمدة عشرة أيام ، ويتم سحبه من السوق أسوة بالمجلات ثم يطرح مرة أخرى ، وعلى القارىء أن يلحق بهذا الكتاب ، قبل أن تتم متابعته نقديا وصحفيا ، وذلك قبل أن يوضع فى مجاهل المخازن ، أو يصبح أمانات لدى بعض المكتبات ، والتى غالبا مايكون أكثرها مشغولا فى تلك الفترة بتوزيع الكتاب المدرسى .

مقاييس معقدة .. لتوزيع الكتب ونجاحها .

وهذه الطريقة التقليدية فى توزيع الكتب ، تجعل القارىء يدوخ سبع دوخات .. عندما يود الحصول على كتاب قرأ في الصحف أنه جيد ، وأنه الأفضل ، وبالتالى ، فمع اعتبار أن كل هذه الاختيارات الاستفتائية سليمة فانه على القراء أن يبحثوا عن الروايات والكتب التى نشرت عام ١٩٩٥ ، واتفق انها

سوق الاستفتاءات

الأحسن ، ولكن القارىء العادى غالبا ماسيواجه صعوبة فى معرفة اسم الناشر وأيضا فى معرفة مكان الكتاب .

وعلى سبيل المثال فقد ودت مجلة الهلال مع مطلع هذا العام ، أن تنشر على قرائها اسماء الروايات الأعلى توزيعا فى سلسلة «روايات الهلال» خلال السنوات العشر الماضية ، وتم الرجوع الى قوائم التوزيع الموجودة لدى سجلات الدار ، أمكن التعرف على أسماء الكتب العربية التى نفدت من المخازن ، وأسماء الكتاب الذين تبيع رواياتهم بنسب أعلى عند الطرحة الأولى ، وهى فقط لمدة أيام قليلة ، فى الأسواق .

وبدت هيئة التحرير أمام حرج شديد فى أن تنشر هذه القائمة ، فهناك تباين فى عدد النسخ المطبوعة لكل كاتب حسب توقع قبول أعماله لدى القراءة ، وبالتالى فلم يمكن قياس نفاد رواية بعينها تم نشرها عام ١٩٨٧ باعتبار أنها الأحسن . كما لا يمكن الأخذ بنسبة المبيعات فى الطرحة الأولى لهذه الروايات ، باعتبار أن بعض الروايات قد تم الاقبال على شرائها من مخازن دار الهلال، ومن مكتباتها بعد موعد صدورها بأشهر ، حين أحس القراء بأهميتها من خلال المتابعات النقدية .

أما المثير فعلا ، فان هناك بعض

الروايات التى تم اختيارها كأحسن الاصدارات فى سنوات سابقة فى هذه الاستفتاءات قد تعثر مبيعاتها عن روايات أخرى لم ينتبه أحد اليها . وهنا بدت موازين القياس غير عادلة ، ولذا تراجعت ادارة تحرير الهلال عن نشر الروايات التى نفدت أو الروايات الأعلى مبيعا أو حتى الروايات الأقل توزيعا ، وذلك لصعوبة عملية القياس بين الجودة ، والمبيعات ، والمتابعات النقدية

ولقد جاءت هذه المحاولة مع بداية موسم الاستفتاءات ، فبدت كأنها تتوافق معها ، أو كأن احداهما تفسر الأخرى ، فحسب معلوماتنا فان بعض دور النشر التى تم اختيار كتب ما من منشوراتها كأحسن كتب لعام ١٩٩٥ تطبع عددا محدودا فى البداية من كتبها بشكل عام «١٠٠٠ نسخة فى الغالب» ، وذلك كمختبر للتوزيع ، فاذا تم الاقبال على الكتاب قام الناشر بطبع كميات أخرى اضافية محدودة للاستيعاب فى الطرحة الثانية .

وهذا الأمر يفسر سؤال صديقى الكاتب فى الهاتف عن أهم كتب العام الماضى ، فهذا يكشف أن المثقفين أنفسهم لايقرأون ، ولايتابعون مايتم نشره، وأنه عند الاسئلة الحرجة ، ومن أجل أن يظهر على أحسن وجه ، فلابد أن يذكر أسماء كتب لم يقرأها باعتبارها الكتب الأفضل ، أو فى ظروف أحسن عليه أن يذكر كتب جاءته عن طريق الاهداء موجودة فى مكتبته ، لم يقرأها بدافع المجاملة .

المستفتون أكثر من عدد الكتب !

ولايعنى هذا أن هذه ظاهرة عامة وشاملة ، بل هى موجودة ، وغالبا ماتذوب وسط هذه الصفحات الكثيرة التى تابعت أحسن الاصدارات وأهم الظواهر ، وقد لاحظت اسم صديقى الأديب الذى لم يقرأ كثيرا عام ١٩٩٥ فى أكثر من مطبوعة ، قام فى بعضها بذكر نفس الكتاب باعتباره الأحسن ، وفى البعض الآخر ، قام بتغيير العناوين ليؤكد أنه من كثرة متابعاته وقراءاته وجد أكثر من عمل يستحق أن يكون الأحسن ، ولعله ألا يقع فى حرج عدم المجاملة ، وبذلك فرضت عليه الظروف والاسئلة المطروحة أن يعدد اختياراته ، دون أن يعلم أحد عن الحقيقة شيئا .

فى الأسبوع الأخير من هذا العام سوف تتكرر الظاهرة دون أى تغيير ، وسنسمع آراء نفس المستفتى لهم ، والمستفتى عليهم، وستظل هذه الظاهرة سنوات طويلة مادام ليست لدينا مؤسسات ثقافية تقوم بهذا العمل ، وتمنح جوائزها الأدبية التى يعتد بنتائجها ومادمنا نسير على نفس النهج فى التعامل مع الثقافة والابداع .

من الهلال إلى الهلال

سـينما
كتـب
مسـرح
تليفـزيون
الفن الجميل
فولكـلور
كاسـيت
نقـد
مجـلات
شـعر

الهلال مايو ١٩٩٦



ص ١٧٢ ص ١٥٩

جوائز

إدوار الخراط وانتصار الحساسية الجديدة

☐ للحياة الأدبية والثقافية العربية منطقها الخفى الذى يحفظ لها عقلها ويرد عنها وعن الأمة معها عوادى التردى والدمار ، فمهما كانت سطوة متوسطى الموهبة وقدرتهم على الاستئثار بالمنابر والجوائز واحتكار أضواء الذيوع الإعلامى ، وتهميش من هم أعمق منهم ثقافة وموهبة ، ومهما ارتفع الضجيج من حولهم ، وانتشر رذاذه فى كل موقع ، فإن عقل الحياة الثقافية سرعان ما يجد له منفذا يعبر به عن نفسه ، برغم نفوذ كل الذين يخمدون أنفاسه ويكتمون صوته ، ويبدو أن جائزة سلطان العويس الثقافية قد أصبحت مع دورتها الرابعة أحد منافذ هذا العقل الحر .

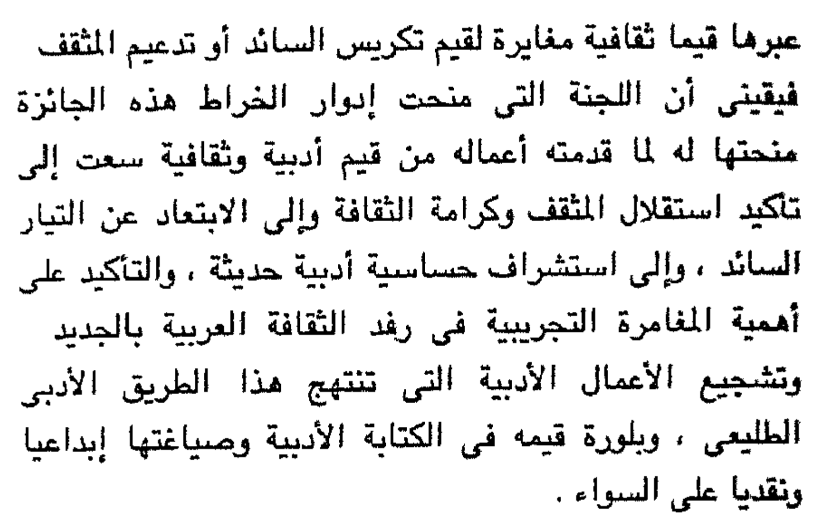
فبعد أن فاز بها كل من سليمان فياض وصنع الله ابراهيم فى القصة والرواية فى الدورة السابقة هاهى ذى تذهب هذا العام الى إدوار الخراط قبل ثلاثة شهور من عيده السبعين لتؤكد للواقع الثقافى أنه إذا أتيح لجماعة المثقفين العرب جائزة حرة ومستقلة عن نفوذ المؤسسة فإن باستطاعتهم أن يطرحوا



سليمان فياض



ادوار الخراط



عبرها قيما ثقافية مغايرة لقيم تكريس السائد أو تدعيم المثقف فيقينى أن اللجنة التى منحت إدوار الخراط هذه الجائزة منحتها له لما قدمته أعماله من قيم أدبية وثقافية سعت إلى تأكيد استقلال المثقف وكرامة الثقافة وإلى الابتعاد عن التيار السائد ، وإلى استشراف حساسية أدبية حديثة ، والتأكيد على أهمية المغامرة التجريبية فى رفد الثقافة العربية بالجديد وتشجيع الأعمال الأدبية التى تنتهج هذا الطريق الأدبى الطليعى ، وبلورة قيمه فى الكتابة الأدبية وصياغتها إبداعيا ونقديا على السواء .

هذا الجانب المهم فى مسيرة إدوار الأدبية التى أكد فيها استقلال الكتابة هو الذى حظى بالجائزة صحيح أن إدوار الخراط ارتبط فى مرحلة طويلة من حياته العملية بأحد مراكز السلطة الثقافية فى مرحلة سابقة من تاريخ مصر - وهو يوسف السباعى قوميسار الثقافة فى الستينات وشطر من السبعينات - إلا أن هذه الفترة كانت من أقل فترات حياته خصوبة وإنتاجا لم يكتب فيها إلا رواية واحدة هى (أضلاع الصحراء) ومجموعة قصصية واحدة هى (ساعات الكهرباء) ، نال عنها جائزة الدولة التشجيعية فى القصة وقتها . وإذا استثنينا الرواية والمجموعة التى كتبت أثناء فترة ارتباطه بالمؤسسة ونالت تقديرها سنجد أن مجموعته القصصية العلامة (حيطان عالية) قد كتبت قبل ارتباطه بمؤسسة السباعى الثقافية ، كما أن جل أعماله القصصية والروائية المهمة من (رامة والتنين) و (الزمن الآخر) و (اختناقات العشق والصباح)، (وأمواج الليالى) و (محطة السكة الحديد) و (ترابها زعفران) و(يابنات اسكندرية) ، (ومخلوقات الأشواق الطائرة) و(اختراقات الهوى والتهلكة) و (حريق الأخيلة) وغيرها قد كتبت بعد أن تحرر من ارتباطه بهذه المؤسسة .

ولا غرو ، فإدوار من رواد هذه الحساسية الجديدة الأوائل ، ومن أكثر كتابها حرصا على نقائها واستمرارها وتوطيد أركانها وتنقية ملامحها مما يعلق بها من شوائب تخليط



سليمان فياض

واوشاب التدليس ، وأوضار التزييف والتمويه على حقيقتهما البارزة المتألقة الآن بعد صراع طويل مع مواضعات الحساسية القديمة التى تخثرت رؤاها وتميعت إنجازاتها بعد أن تجاوزها الواقع والفن على السواء . فقد كان إدوار الخراط على وعى بتخلق هذه الحساسية الأدبية الجديدة منذ أن بدأت أجنتها الأولى فى التشكل فى أواخر الأربعينات ، إذ تواقت هذا التخلق مع بداية اشتغاله بالكتابة ، وساهمت كتاباته منذ بواكيرها الأولى فى بلورة قسمات أدب هذه الحساسية الحداثية الجديدة إبتداء من مجموعته الأولى (حيطان عالية) .

وسعت عبر أعماله الجيدة الى توسيع أفق تلك الحساسية الأدبية الحديثة ، وتمكينها من استيعاب متغيرات الواقع الأدبى والحضارى على السواء ، وساهمت فى إندياح الحدود الفاصلة بين أشكال الكتابة المتعارف عليها فى محاولتها للإمساك بتفاصيل عالم يتميز بالتحول المستمر والسيولة الدائمة . وهى محاولة أسفرت عن خروج النص الأدبى على الحدود التى صيغت فى ظل الحساسية القديمة والتى فصلت بشكل حاسم بين مختلف الأجناس أو الأشكال الأدبية ومن هذا أخذت كلمة النص فى الشيوع عند تناول النقد لأعمال الحساسية الجديدة باعتبارها بديلا مقبولا للمصطلحات السابقة التى انحدرت من نظرية الأجناس أو الأشكال الأدبية القديمة .

وإذا كان من العسير علينا الإلمام بأهم إنجازات إدوار الخراط فى هذا المجال فى كلمة قصيرة كهذه ، غايتها تهنئته بالجائزة وافتتاح ما أرجو أن يكون عاما من الاحتفال بإنجاز الخراط الأدبى وتأمله ودرسه بمناسبة نيله لتلك الجائزة الثقافية المهمة ، ولبلوغه السبعين من عمره المديد معا ، فلا أقل من التوقف عند سمة واحدة من سمات إبداعه المتميز ، وهى تناوله للمكان وتجذير الذاكرة والشخصية فيه ، لأن ثمة علاقة واضحة بين تناول إدوار الخراط الفريد للثقافة المصرية التحتية فى تنويعاتها الإسكندرانية والقبطية معا وبين سرعة التغيير الحضارى الذى ينهش الواقع المصرى ويشوهه بصورة يوشك معها العالم أن ينفلت من بين يدى الكاتب بطريقة غير منطقية

تدفعه إلى التشبث بالمكان والاعتصام بالذاكرة . وكأنه يستخدم الكتابة باعتبارها طقسا أو تعزيما من التعازيم السحرية القادرة على استرداد المكان أو انتزاع عالم القيم الإنسانية القديمة من قبضة التشتت والضياع .

د. صبرى حافظ

التجريب والتجديد والاستفزاز



الشاعر عبد الوهاب البياتى

☐ لم أكن آبه كثيراً بنبأ فوز هذا الروائى أو ذاك الشاعر بأى من الجوائز الادبية العربية المعروفة، على الأقل، فى أوساط المثقفين العرب ولم يكن هذا الموقف، مع ذلك ، تعبيراً عن الاستخفاف باحتفاليات القائمين على هذه الجوائز أو مستحقيها.

ولابد من الاعتراف، قبل أى شىء بأنى لم أكن اعرف اسماء هذه الجوائز المختلفة قبل عامين تقريبا، برغم أنى لم أنقطع تماما عن متابعة الفعاليات الثقافية العربية، متابعة غير وثيقة وغير حميمة أيضا حيث أعيش في نيويورك منذ ١٩٧٤.

ولا أحسبنى مطالباً بتفسير هذا الفتور، الذي قد يبلغ أحيانا حد النفور فى الحيز الضيق الذى تحدده المناسبة وهى مناسبة سعيدة بالقطع. وحسبى أن أقول أن خيبات الأمل التى منيت بها مراتٍ كثيرة فيما تنشره الصحف العربية، وأخص بالذكر الصحف التى تصدر فى لندن ، أو صحف الهجرة المفتعلة ، سواء كانت تلك الكتابات لأسماء لامعة أو لكتاب وشعراء جدد كانت من أسباب هذا النفور .

ورأيى المتواضع هو أن الصفحات الأدبية والثقافية فى معظمها تمثل بطبيعتها بيئة غير صحية فى الغالب لأية موهبة لا تستطيع التنفس وسط تلوث النفايات الأدبية .

ولكل هذه الأسباب ولعشرات من الأسباب الأخرى، لازلت أحرص على متابعة فعاليات الثقافة والفنون العربية، بقدر المستطاع، من بعيد . ولا أقصد بهذا البعد المسافة الفيزيقية

التى تفصلنى عن موقع هذه الفعاليات بل أقصد تلك المسافة النفسية التى لا أستطيع الجزم، مع ذلك ، بمصدرها وهل هو ضجيج الأصوات المتشابهة ذات البعد الواحد، أم قطيعة اغتراب بدأ فى سن مبكرة مع بداية الوعى بالوجود .

ولكن يبدو لى الآن فقط، وقد مستنى جوائز سلطان العويس هذا العام على نحو ما بطريقة غير مباشرة ، أن هذه الجوائز، برغم أى شىء آخر، تسد فراغا فشلت المؤسسات الثقافية الرسمية، على مستوى العالم العربى فى سده برغم وجود جوائز مماثلة وإن كانت متواضعة مثل جوائز الدولة التقديرية فى مصر وربما كان من أهم ميزات الجوائز غير الرسمية تحررها من القيود ومعايير التقييم البيروقراطية التى مابرحت تدهشنا بأسماء فائزين لا يعلم إلا الله مسوغات اختيارهم .

ولهذا لا يملك المرء إلا أن ينحنى احتراما للجنة التى لا أعرف اسم أى من أعضائها ، التى تمنح جائزة الشعر للشاعر العراقى الكبير عبد الوهاب البياتى، وجائزة الرواية للروائى والناقد المصرى الكبير ادوار الخراط، الذى يحلو لي أن اسميه مداعبا .. كاهن الحداثة .

ولأن عبد الوهاب البياتى تربطنى به صداقة حميمة بلغت فى نهاية العام المنصرم اربعين عاما، ولأن صداقتى الحميمة بادوار الخراط تبلغ بالحساب الفلكي خمسة واربعين عاما وبالحساب الميتافيزيقى سنوات عمرينا ، شعرت بالامتنان والفرحة لفوز هذين الصديقين بالجائزة بالذات وكان لهذا الاختيار الصائب الفضل فى أن ادرك لأول مرة أهمية جائزة سلطان العويس التى عظمت بهذا الاختيار ، قيمتها المادية بما اكتسبته من قيمة أدبية .

ولا أستطيع فى هذا المجال أن أرسم صورة أو حتى

اسكتشا لادوار الخراط الذى أعرفه . فالصورة المحفورة فى ذهنى من العمق والثراء والتعقيد بحيث لا أجرؤ على اختزالها فالاختزال فى مثل هذه الحالة فى نظرى – انتهاك واعتداء على حرمة حدود الأصل ، وربما كان سبب هذا التردد هو أنى انتظر اليوم الذى أستطيع فيه أن أرسم هذا البورتريه فى زمان ومكان مختلفين ، وأيضا بخامة أخرى ومع ذلك استطيع أن أقول أن إدوار الخراط، وقد شارف عمره على السبعين ، لا يزال يفتق ينابيع الدهشة ، لا فى حذق وعطاء شيخ محنك، فحسب لكن أيضا فى نزق وتفجر عبقرية – شابة لا تهاب التجريب والتجديد والاستفزاز .

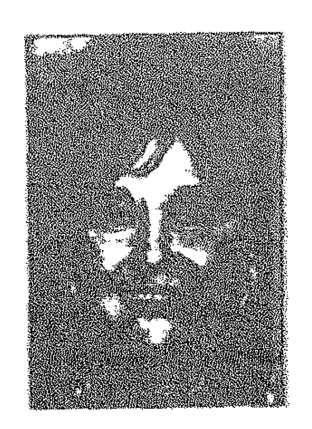
● أحمد مرسى

تليفزيون

اعلانات التليفزيون بين ثورة التطلعات وخراب البيوت!

□ لن تعرف أهمية الحديث عن إعلانات التليفزيون إلا إذا كنت أباء أو مقيما بجوار إحدى المدارس الإبتدائية، فإن كنت أبا فاسأل جيبك يجبك أفضل منى، وإن كنت مقيما بجوار مدرسة ابتدائية فقف فى شرفة منزلك وستصلك صيحات الأطفال وهم يتراكضون متشابكى الأذرع ويغنون إعلانا عن (زيت الذرة الشهية) أو (بسكويت الكريمة المستخبية) ، ولن تسمع احدا يغنى (فى البحر سمكة) أو (ماما زمانها جاية).

لكن الحديث عن أهمية إعلانات التليفزيون سيتجاوز هذا المظهر السطحى الى نقطة أكثر أهمية تتعلق بعدم وجود أى معيار يحدد (أخلاقيات الإعلان) فى مصر ـ سواء أكان الإعلان الصحفى أو التليفزيونى ـ وسبب ذلك أن الإعلان حتى الآن فى مصر شأنه شأن أغلب المظاهر المرتبطة بالحاح السوق . لم ينشأ كصناعة مقننة تحمل مع ميلادها أخلاقيات وقواعد محددة بشكل أو بآخر وعلى رأى استاذنا أحمد بهاء


سهير الاتربى

الدين الذى وصف الانفتاح بـ (السداح مداح) . فجاءت جميع مظاهره سداحا مداحا، وربما كان الإعلان اكثر المظاهر سداحا ومداحا ـ إن جاز التعبير ـ فصناعة الإعلان التليفزيونى فى مصر حتى الآن صناعة عشوائية ـ ككل شىء آخر ـ تتنافس فيها مجموعة من الشركات المتناثرة لا يحكم عملها قانون ولا يتميز أى منها بأسلوب خاص. فأغلب شركات الانتاج الاعلانى حتى الآن تتعامل مع الاعلان بوصفه مجموعة فتيات شقراوات يتراقصن بغنج حاملات بعض عينات السلعة المعلن عنها، ويرقص خلفهن مجموعة من الصعايدة أو الفلاحين يقطرون بلاهة وغباء ولست أدعى لهذه السطور قدرتها على الالمام بكل مشكلات الاعلانات التليفريونية وآثارها . ولكننى اسعى لإثارة عدة تساولات ثانيها فى الأهمية إنه حتى الآن لا يتعامل احد مع الاعلان التليفزيونى بالقدر الذى يستحقه من الاهتمام . وأنه يستطيع الى مدى كبير أن يفجر التناقضات فى مجتمع ملىء بعوامل التفجر، وحتى لا يتهمنى احد بالترزمت أحب أن ذكر أن هذه النقطة بالذات أثارها عالم الاجتماع الامريكى البارز ولبورشرام فى حديثة عن الوظائف غير المرغوبة للاعلام ومن أبرزها تفجير ما اسماه بـ (ثورة التطلعات Rise of Ex- pEctaions لدى الطبقات الفقيرة والمتوسطة اجتماعيا بعرض نماذج معيشية لا يمكن لافراد هذه الطبقات تحقيقها ابدا مما يفجر ثورة التطلعات التى تتحول مع زيادة العجز المادى الى ثورة احباطات تؤدى الى أضرار بالغة الخطورة على السلام الاجتماعى.

وهنا يمكن ان نتساءل ما الحكمة فى ان نعرض لمحدودى الدخل من غير مالكى (الدش) و (الديكودر) ـ إعلانات سيارة يبلغ ثمنها ٢٠٠ الف جنيه أو طقم سيراميك يفوق هذا السعر ، اذا كان جمهور هذه السيارة وذلك السيراميك لا (يستنظف) الفرجة على التليفزيون المصرى، فهل يمكن أن يمر عرض هذه

الاعلانات دون تفجير أية آثار اجتماعية.

ناهيك عن وجود جهاز رقابة يهتم بالمواصفة الصحية، ويراقب مدى عرى أفخاذ وسيقان فتيات الاعلان، لكنه لا يهتم بممارسة أية رقابة على المضامين الاعلانية التى تحمل تكريسا للثقافة الاستهلاكية وتشجيعا شعبيا للصناعات التافهة حتى يظن من يشاهد الاعلانات إننا شعب منتج للبسكويت والصابون ولا شيء آخر . ولن نتحدث عن مخاطر الغزو الثقافى وتفتيت القيم الاجتماعية لكيلا نتهم بالانغلاق وترديد كلام المثقفين (المجعلص) . وإذا لم ينجح كل هذا الكلام فى تحريك افكارك عن الاعلانات واثارها فلم تقتنع به . واذا لم تكن أبا أو مقيما جوار مدرسة ابتدائية، فعليك إن سرت فى اى شوارع القاهرة ذات ظهيرة، ووجدت رجلا يبدو عليه سمت الموظفين. متهدل الملابس، نابت الذقن . متصبب العرق، منكوش الشعر. يحرك شفتيه فى تمتمة خفيفة وربما عنيفة، فاقترب منه واسأله (مالك) وسيجيبك (يا بيه بتوع الاعلانات خربوا بيوتنا قول لهم يخفوا علينا شوية) .

عندها ستعرف علاقة الاعلانات بخراب البيوت.

● بلال فضل

الاعلانات الحقيقة والوهم

□ لعل أبلغ تعبير عن التليفزيون هو ذلك الذي قدمه مايكل نوفاك حيث يشير الي أنه «المشكل لجغرافية الروح» كاشفا عن دوره في تكوين بناء ومناخ نفسيين من التوقعات عما يمكن للفرد أن يحققه في واقعه الاجتماعي. وتشكل انظمة المعلومات التي يسعي التليفزيون الي توصيلها للجمهور أحد العناصر الاساسية المشكلة لهذا البناء.

مصدر مهم من مصادر هذه المعلومات هو الاعلانات سواء تلك التي تروج لسلع وخدمات بعينها أو التى تعبر عن مضمون

ثقافي مثل الاعلانات عن الافلام والمسرحيات والحفلات الموسيقية. الخ، أو التي تحمل في طياتها هدفا اجتماعيا اصلاحيا (تنظيم الاسرة - مكافحة الامية - مقاومة المخدرات - اساليب الادخار والاستثمار .. الخ).

جدير بالذكر أننا نواجه مشكلتين أساسيتين عند تصدينا لقضية تقويم الاعلان وتأثيره ، الاولي هي إننا لا نملك بيانات عن مدي مراعاة القائمين باعداده وتنفيذه للأسس الاجتماعية والنفسية لعملية الإعلان كما تكشف عنها الدراسات في هذا الموضوع وعناصره: مقدم الاعلان ونوعه وكيفية عرضه والمتلقي. المشكلة الثانية هي افتقادنا لرؤية واضحة عن مستوي وعى المسئولين عن هذا الجهاز بما تعكسه الاعلانات من قيم وسلوكيات لها أثرها البالغ في تشكيل وعي الجماهير.

لا يمنعنا هذا الطرح من ابداء بعض الملاحظات الإجمالية وسينصب اهتمامنا الأكبر على إعلانات ترويج السلع لأنها الاكثر عدوا والأطول زمنا، لاشك إننا نلمح هنا بعض الايجابيات مثل توظيف التكرار سعيا الي الالفة، واكساب الاعلان قدرا من الجاذبية من خلال استخدام خلفيات تتكامل فيها التنبيهات البصرية والسمعية، ويساهم في تحقيق ذلك شخصيات فنية أو ممثلو إعلانات وتقديم أفكار مثيرة ينطوي بعضها علي عنصري المفارقة والكوميديا ومن ثم تنشيط الدافع الي الشراء، والحرص علي توظيف المرأة والطفل بكثافة كمحاولة لتعميق الخطاب الجمالي، والتلقائي بالاضافة الي تقديم المعلومات الضرورية عن بعض السلع احيانا ويؤدي ما سبق في حالة نجاحه الي التركيز اساسا علي مخاطبة الوجدان وابعاد المتلقي عن اعمال الذهن علي نحو قد يؤدي الي الرفض المبدئي للسلعة.

ويبقي لنا تعليقان أخيران الاول هو أن الاعلانات ذات الطابع الثقافي موجهة فى قطاع كبير منها للاسف لخدمة الذوق الهابط، المقصود اعلانات بعض الافلام والمسرحيات وبعض الاغاني وما تنطوي عليه من عنف واثارة واسفاف الثاني

مؤداه أن الاعلانات ذات التوجهات الاصلاحية هى الاكثر نفاذا وفاعلية خاصة اذا تمت مراعاة البعد عن أدوات تحمل شبهة الكوميديا لتعبر عن مضامين شديدة الجدية، والحرص على ابراز النتائج الإيجابية للسلوك المنصوح به - فى قالب مبتكر - بدرجة اعلى من السعي الى استثارة الخوف من النتائج السلبية للسلوك المتضرر منه.

أخيرا وليس آخرا تحتاج منظومة الاعلانات الي تطوير علمى ابداعى فى توجهاتها وأفكارها بما يخدم قيام مجتمع انتاجي له خصوصيته الثقافية اما كيفية تحقيق ذلك فذلك له مقام أخر.

● خالد عبدالمحسن بدر

مسرح

عندما يصبح صنـــدوق الأقنعـــة فارغـــاً

المسرحية : صندوق الاقنعة

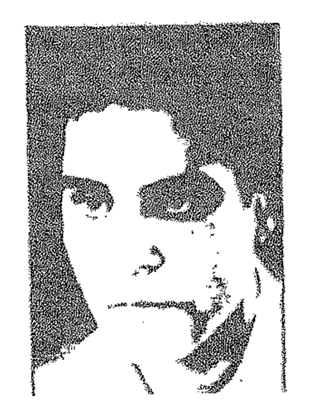
إخراج : جمال منصور

مسرح الطليعة

التمثيل هو فن ارتداء الأقنعة، وهو أن تملك القدرة على إقناع الآخرين لفترة محدودة، أنك شخص آخر غير نفسك، وهو مبدأ صاغ نظرية فى المسرح والحياة معا. فمفهوم «الدور» هو مفهوم مركزى فى المسرح والعلوم الاجتماعية سواء بسواء.

وحول الدور والقناع فى حياة السيد خوان صاغ الكاتب الأسبانى خايمى سالوم مسرحية (صندوق الأقنعة)، وهو كاتب نتعرف عليه لأول مرة، مما يستوجب التقدير للمترجم د. رضا غالب والمخرج جمال منصور الذى جعل من الشخصية وفن الممثل أساسا لصياغة رؤيته الاخراجية.

استخدم النص تقنية الحكاية داخل الحكاية، وهى تقنية شعبية شهيرة. فى المشرق والمغرب على السواء - تقسم فضاء النص إلى سرد وتشخيص وتعمق إحساس المتفرج بالقناع والتنكر من ناحية ، وبالزمن من ناحية أخرى. فالإنسان هنا هو الذى يتحكم فى تنظيم الأزمنة، والشخصية تقف أمامنا بعدما اكتسبت وعيا ومعرفة بالأدوار التى لعبتها فى حياتها، وتتبدى


المخرج جمال منصور

رؤية المخرج فى إبراز تلك الفكرة حينما جعل الممثل يسرد حكايته وسط دائرة ضوء تركز على وجهه. ، تعزله عن المكان المحيط به، وتضعه فى الزمن الحاضر، زمن السرد. بينما جعل لمشاهد التشخيص إضاءة ناعمة خافتة تبرز تفاصيل المكان بالكاد واضعة المتفرج فى موقع إدراك الأحداث بوصفها أحداثا ماضية.

لقد صنع المؤلف والمخرج حكاية تمثل الإطار الخارجى لثلاث حكايات هى ثلاث مراحل عمرية للسيد خوان. وقد اختار المؤلف لهذه الحكاية الإطار بعناية ففى حفل تنكرى فى منزل السيد خوان (أحمد حلاوة) يستقبل فيه الحفيد (علاء قوقة) فتاته التى يحبها. وحينما تدخل الفتاة (إيمان حمدى) وهى تنفخ فى بوق يتعرف عليها الجد على الفور، فتحاول أن تلبسه قناعا غير قناع العجوز، وعبثا يحاول أن يشرح لها انه عجوز بالفعل ولكنها تصر على أن يرتدى السترة الحمراء التى كان يرتديها حينما قابل مغنية الكازينو لأول مرة منذ سنوات طويلة وهنا تبدأ الحكاية الأولى، وفيها يفشل خوان فى علاقته لانه لم يقدر الدور الذى يلعبه صاحب الكازينو فى حياة المغنية، وتفشل المغنية فى علاقتها بخوان لانها لعبت دور المعشوقة وليس دور العاشقة .

وتؤكد الحكايتان الباقيتان على المعنى نفسه، فدائما لايرى خوان دور الآخر. والفتاة تختار دائما الدور الخاطىء.

ففى الحكايتين الأولى والثانية يبدو خوان معجبا بنفسه، وفخورا بقدراته ويصف نفسه (بكلمات محمد بهجت)، بأنه «ولد كوتشينة وقش» ولكنه ينهار تماما فى الحكاية الثالثة حينما يكتشف انه كان السبب فى ذبول فتاته وموتها، «فالإنسان مثل

اللهب لاتستطيع أن تملكه فى يديك دون أن يحرقها أو ينطفىء»
وقد استخدم أحمد حلاوة تقنية التمثيل الشعبى حيث الكاريكاتير ولكنه لم يفقد تقنية التقمص فى الوقت نفسه فنقل لنا رحلة خوان بين الجهل والمعرفة بين الغفلة والوعى، فجعل من الفعل الإنسانى للشخصية وارادتها معيارا للحكم عليها، وبذلك جسد فلسفة المؤلف ورؤية المخرج من حيث أن الإنسان أسير حريته، اختياره، دوره الذى قرر أن يلعبه.

وقد لعب علاء قوقة أدوار الآخرين دائما، وهم يعرفون قرارهم ويرتدون أقنعتهم بثبات، ويعرفون مهمة القناع ووظيفته فى علاقاتهم بالعالم. إنهم يمثلون دائما، ولذلك استخدم علاء قوقة تقنية التشخيص بنجاح أى تقنية التمثيل داخل الدور، فهو مالك المغنية ولكنه يمثل أمام خوان دور الجرسون المحايد، وهو الشاب العاشق للفتاة ولكنه يمثل امام خوان - فى الحكاية الثالثة - دور الطبيب المعالج لذا أصاب علاء قوقة حينما استخدم مخزون التمثيل الشعبى فى ادائه للدور.

والعرض المسرحى يحاور الفلسفة التى ترى أن (الحياة مسرح كبير) كما جاءت عند أفلاطون (محاورات فيليبوس، القوانين) وفى مسرح شكسبير (تاجر البندقية، ماكبث) حيث تصور الإنسان وكأنه دمية تحركها خيوط الآلهة أو ممثل ينفعل ساعة على المسرح ويمضى، وهى نفسها الفلسفة التى ترى ان المسرح محاكاة للحياة، فالاستعارة الحياة / المسرح تدمج الطرفين ليصبحا معنى واحدا، ولعلها الفلسفة التي جعلت من أفعال الإنسان على المسرح / الحياة مرهونة بإرادة القدر، أو إرادة المجتمع، وكل إرادة خارجية لا يقوى الإنسان على مواجهتها. وقد عارضت صندوق الأقنعة تلك الفلسفة حينما

جعلت المصير الإنسانى نتيجة منطقية لاختياره ووعيه، وقبلتها حينما أكدت على الزمن بوصفه العنصر الوحيد الذى لايستطيع الإنسان السيطرة عليه وان على خوان أن يترك الميدان لحفيده مع الفتاة نفسها ليلعبا مرة أخرى لعبة الأدوار فقد أصبح صندوق خوان للأقنعة فارغا

● حازم شحاته

صندوق الأقنعة رؤية أكثر شمولا

□ «صندوق الأقنعة» المسرحية التى يقدمها مسرح الطليعة حاليا، تعد تجربة جديرة بالتوقف فقد توافر لها مخرج كبير هو جمال منصور ومجموعة لامعة من الممثلين أحمد حلاوة وعلاء قوقة والوجه الجديد إيمان حمدى، فى نص لكاتب اسبانى جديد على المسرح المصرى هو «خايمى سالوم» ورغم ذلك فهناك شىء ماينقص اكتمال المتعة بهذا العرض. فالنص يحمل جوانب جمالية وتقنية من الصعب على المتفرج العادى استيعابها انه يلغى الزمان والمكان والحدث بالمفهوم غير التقليدى الذى طرحه برشت ومسرح العبث وغيرهما من المذاهب المسرحية التى ثارت على قواعد أرسطو والدراما الإغريقية. وهو ما عهدناه كثيرا فى فنون الأداء الشعبية خاصة الراوى بالربابة أو الناى. يصل بنا هذا العرض الى بعض علامات انتكاس مسرحنا المصرى الحالى ومنها سيطرة جماليات مسرح الطليعة الايطالى على وعينا الجمالى المسرحى بدرجة قاتلة كما قال المسرحى الانجليزى بيتر بروك فمثل هذا النص وغيره مما يعتمد على الشكل فى المكان والزمان وتعدد

الشخصيات رغم قلة الممثلين ، يحتاج الى مساحة حرة كمكان للعرض ومساحة أكثر حرية من الخيال تحقق له خصوصيته فى السينوغرافيا.

تخلف الترجمة فى واقعنا الثقافى عن مواكبة تيارات الإبداع العالمى فهذا النص الذى نتلقاه اليوم كتب وعرض ببرشلونة فى يناير ١٩٦٤.

أهمية الممثل المدرب الذى يعى الدور الأكاديمى لفن الممثل من خلال التدريب والإعداد لكل أدوات الممثل الأدائية بدءا من لياقة الجسم والصوت ونهاية بفهم النص والجوانب المؤسسة للدور أو الأدوار المؤداة.

التجاهل النقدى المتابع الذى يطرح فى الدوريات اليومية أو الأسبوعية فى حين يلهث فى متابعة العروض الاستهلاكية.

اختفاء الجمهور الذى يعد ظاهرة جديرة بالدراسة من اتجاهات متعددة قد يكون منها: ضعف الدعاية واختفاء القنوات التى تساعد على الاختيار سواء كانت اعلامية أو نقدية فأضحت مثل هذه العروض خدمة ثقافية لا تصل الى مستحقيها.

تشوه قيم التلقى المسرحى بعد أن سادت عروض الرقص والعرى لمن يستطيع دفع ثمن تذكرتها، فأضحى هذا الشكل من العروض هو الملح على الجمهور فمن قبل ذهب، ومن رفض ترك الأمر برمته، إذ لديه من متطلبات الحياة ما هو أهم، قانعا بما ينعم عليه به جهاز التليفزيون!

● سامية حبيب

الفن الجميل

عمر الفيومى واستلهام الروح المصرى



☐ لم يكلف «عمر الفيومى» نفسه معاناة الهاربين إلى ظل «الآخر» .. بل تفاعل ببساطة وبلاغة المصريين عبر تاريخهم العريق السحيق ، مع روح مصر ومقومات استمرارها وبقائها .. «روح الحساب»، والبساطة، والصفاء، والزهد أمام المغريات!!

روح الإثارة والإيماء والإيحاء» . معتمدا على موروثنا الميثولوجى العميق ، وذكائنا الفطرى الذى لا يضاهى فغاص - بكل سهولة ويسر - داخل ذاته «الفيومية التكوين» التى ألهمت الفن البيزنطى والمسيحى الكثير والكثير من حقائق التعبير الابداعى بوجوه الفيوم . التى رشحت واستخلصت الجوانب الخلاقة فى الذات الانسانية من الفن الرومانى - المادى السطحى - وحولته إلى رؤى شفيفة من خلال دهانات رقيقة على وجنات وبشرة وجوه الفيوم .. تعمق احساسنا بكل ما تعكسه هذه الوجوه من عذابات للروح .. وعيونها التى تفضح

آلام اللحظة .. بكل مرارتها ، وأوجاعها الدفينة ، حتى أضحت هذه الوجوه الفيومية فى مرحلتها الرومانية ، والبيزنطية ، والمعاصرة - عند جورج البهجورى ، وعمر الفيومى - مرجعا إنسانيا يؤرخ لعذابات الإنسان ، وخوفه حاضرا ومستقبلا ، وبوتقة تروى عطشنا الدائم للحرية والعدل والأمان .

لقد وظف عمر الفيومى قدراته التصويرية المميزة .. ورؤاه الفاحصة .. وصوره المختزنة لوجوه المصريين من خلال جلوسه ومراقبة ومشاركة الآخرين على المقهى - آخر تجمعات المصريين الحميمة من أجل مقاومة برودة اللحظة ، وشبح الوحدة ، وبوار الأشياء - وكثف هذه الرؤى ، ومخزونات الأحلام . وبلورها فى هذه المجموعة التصويرية البديعة التى تكمل وتتواصل مع منظومات الإبداع المصريين الأصلاء ، قدماء ومحدثين .

● د . مصطفى مهدى

تجليات عمر الفيومى

□ فى قاعة كريم فرنسيس، تنقلك لوحات عمر الفيومى إلى عالم الميثولوجيا والأسطورة الشعبية والصورة الايقونية. ويستحضر عنوان العرض «حضرات مولانا» حلقات الذكر وليالى المولوية، ويؤكد على أثر الروحانيات على المصريين بشكل عام.

اختار عمر الفيومى شخصية مارجرجس، القديس المصرى، ليكون بطل معظم لوحاته، فهو نموذج البطل المنقذ والمهدى المنتظر وطريق الخلاص. فقد رآه الفنان معبرا عن هذا «الخلط الجميل لدى المصريين بين الأسطورة الفرعونية والقبطية والإسلامية، فتراه يختلط فى السيرة الشعبية مع شخصية النبى الخضر أو على بن أبى طالب... فهو المنقذ ونصير



من اعمال الفنان
عمر الفيومى

الضعفاء».

كما وجد فى صورة «النبى جرجس الطيب» الذى يصارع التنين تشابها واضحا وغريبا مع الأسطورة الفرعونية ، حين يقتل حورس عمه ست الشرير.

وإذا كانت صورة مار جرجس وهو يقاتل التنين، أو مرتديا زى المحارب، أو ممتطيا جواده، قد ألهمت كثيرا من الفنانين فى العالم «منذ روفائيلو وحتى يومنا» إلا أنها تتخذ طابعا خاصا لدى عمر الفيومى. حاول عمر الفيومى إدخالها فى علاقة جدلية مع الناس فى حياتهم اليومية، فى الشوارع المصرية القديمة. كما أنه لايتمادى فى حالته الإيقونية - وهو الذى درس فن الإيقونات والتصوير الجدارى فى صعيد مصر فى لينينجراد - بل يصوغ من مفردات الماضى رؤى معاصرة من حيث الشكل ومن حيث المضمون.

على مستوى الشكل، رأى عمر الفيومى أهمية تكسير المركز الواحد للوحة وخاصة فى اللوحات الجدارية الضخمة. فتجده يصور فى لوحة «طول ٧٥ر٢م وعرض ٣٠ر١م» مشاهد عديدة لمرتادى القهوة فى حى شعبى، فهى تكثيف للحظات الحياة المتقاطعة المتداخلة التى لايمكن أن تراها من منظور واحد.

وحتى فى البورتريهات الثلاثة التى رسمها لنفس الشكل الإيقوني تجد الوجه فى كل لوحة وقد اتخذ زاوية ووضعاً مختلفاً، ويلعب اللونان الأحمر والأصفر دورين رئيسيين فى إعطاء حركة الضوء والظل وخلق التناغم و«الدراما البصرية».

وتنتقل ريشة الفنان من الأشكال الإيقونية الخالية من الحياة لتتطابق مع وجود البشر المنتظرين فى القهاوى، وبجانبهم مار جرجس يمتطى حصانه، وهم فى حالة من السلبية والاستسلام.

وعندئذ تستطيع فهم فلسفة الفنان وراء هذا التطابق، «فالناس فى حالة إيقونية، فى حالة من الوجوم والسلبية، هل هم منتظرون هذا البطل ، وهذا المهدى المنتظر؟ هل وجوده فيه خلاصهم؟ أم هل جاء وهم فى غفلة من أمرهم؟» كما يتساءل عمر الفيومى.

وتتجلى رؤية عمر الفيومى الحداثية فى التعبير عن المتناقضات، فتجد تفاصيل وجه رواد القهوة قد تلاشت تدريجيا لاعطاء هذا التعبير عن الوجوم والتخبط فى مقابلة مع دقة الخطوط فى الأشكال الإيقونية على أنه فى الحالتين يعطيك شعوراً بالشفافية والوجد فهذا السكون وتلك السكينة التى تخيم على شخصيات القهوة تقع فى مفارقة مع حركة القديس مار جرجس ممتطيا جواده فى صورة ثورية أهى رغبة الفنان فى احداث تغيير ما «؟». ثم تأتى ثنائية الاحباط/ الأمل، فإذا كان عالم القهوة هو عالم كئيب فى نظر الفنان إلا أنه يترك للمتلقي بريقا من الأمل. فتودعك عند خروجك من القاعة لوحة لمار جرجس كأنها الرؤية والنور الذى يشق الظلام الحالك لتكون هى نقطة النهاية الباعثة على الأمل.

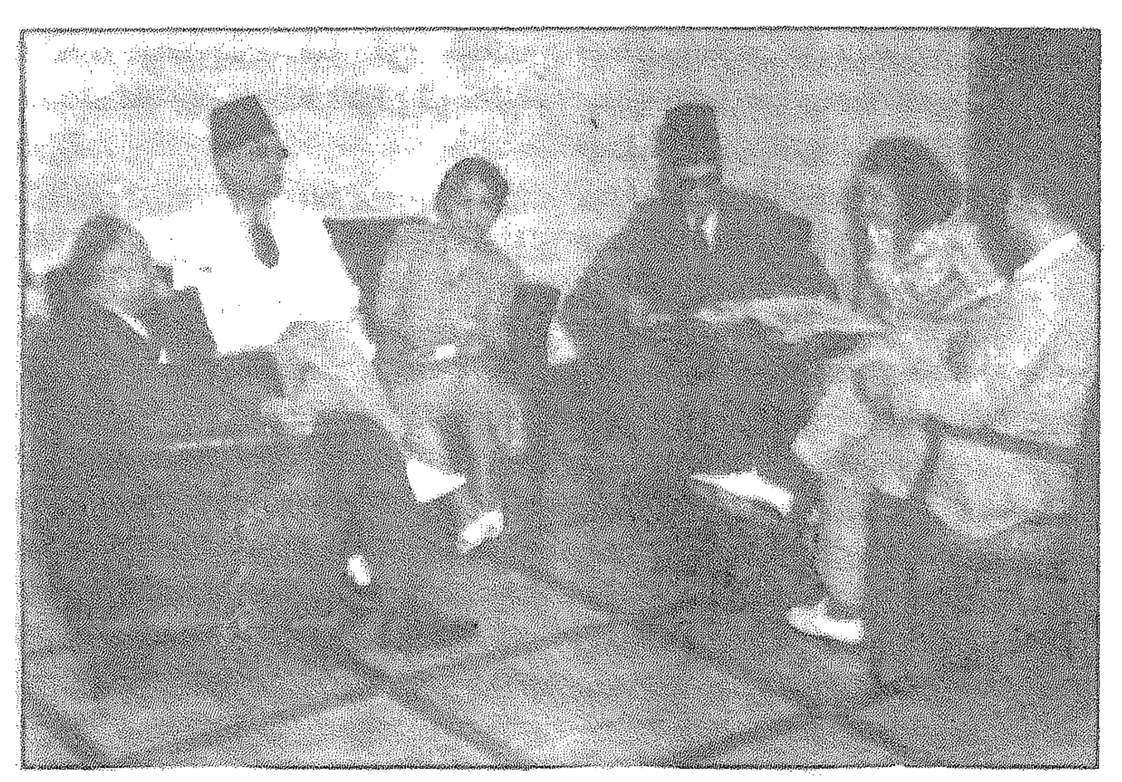
● دينا قابيل

التكوين

علاقتى بالنهر وبالقرية شكلت وجدانى

د. عائشة عبد الرحمن
بنت الشاطئ

ـ ألتفت إلى الوراء.. أحاول بنظرة سريعة أن أختزل تلك الرحلة الطويلة التى قطعتها، فأستجلى خلاصة عمر كامل فى صفحات قليلة!. كان العلم هو القيمة الأساسية التى أثرت فى تكوينى منذ الطفولة المبكرة ووجهت خطاى. تعاقبت علىّ المراحل، كل منها تسلمنى إلى أخرى، وتعددت معها سبل العلم ومصادره وشيوخه، لكن تعلقى به لم يفتر قط! واستزدت منه حتى انتقلت من مقعد المتعلم إلى منصة المعلم، لكن يقينى لم يتغير بأن طريق العلم لا نهاية له وأن العالم يظل مرجوا مادام بقى له شعوره بالقصور وإدراكه لمشاق الطريق!. وقد وعى الإمام مالك بن أنس من وصية شيخه هرمز قوله: «ينبغى أن يورث العالم جلساءه قول: لا أدرى، فإن العالم إذا أخطأ لا أدرى، أصيبت مقاتله».



د. بنت الشاطيء والسيدة امينة السعيد ود. طه حسين والعقاد في إحدى الندوات

أنا ربيبة شيوخ ولى نسب فى الشيوخ عريق.

فأبى عالم متصوف هو الشيخ القدوة محمد على عبدالرحمن، وأمى هى السيدة فريدة عبدالسلام منتصر حفيدة الشيخ إبراهيم الدمهوجى الذى كان شيخا للجامع الأزهر. سمانى أبى «عائشة» تفاؤلا باسم أم المؤمنين رضى لى الله عنها، واختار لى كنية «أم الخير»، ووهبنى للعلم منذ وضعتنى أمى فى المهد!.

بدأت أعى خطواتى على الدرب على شط النيل بمدينة دمياط. كان شاطىء النهر ملعب الطفولة وملتقى الرفاق، وكان كما علمت فيما بعد، شاهدا على مأساة أسرية سبقت مولدى إذ لقيت جدتى لأمى مصرعها غريقة فيه وتركت فى قلب ابنتها «أمى» ووالديها لوعة لم تنقض أبدا. وفى تلك المرحلة المبكرة، بدأت أيضا علاقتى بالريف المصرى لقد كنا ننتقل كل صيف من مدينة دمياط، حيث كان أبى شيخا بالمعهد الدينى، إلى قريته شبرابخوم من ريف المنوفية لنقضى إجازة الصيف.

ولا أشك فى أن علاقتى المبكرة بالنهر وبالقرية كانت ملمحا مهما فى تشكيل وجدانى وزادا نهلت منه فى مراحل متقدمة من العمر والخبرة عندما كتبت أعمالى المختلفة عن القرية والفلاح وبيئة الصيادين.

بداية الطريق

ببلوغى العام الخامس من عمرى، بدأ والدى الشيخ تلقينى المبادىء الأولية لعلوم العربية والإسلام، وفاء بنذره القديم، وكنت أصحبه إلى مكتبه فى جامع البحر حيث أعكف على حفظ مالقننى من دروس أثناء

انشغاله بالتدريس، أما في عطلات الصيف فقد أتممت حفظ القرآن في كتاب القرية.

عندما بلغت سن الالتحاق بالمدرسة الأولية، فوجئت برفض أبي التحاقي بها أسوة بزميلاتي، وكان رده حاسما: «ليس لبنات المشايخ العلماء أن يخرجن إلى المدارس الحديثة، وإنما يتعلمن في بيوتهن». تدخل جد أمي عندئذ في الأمر وظل يلح على والدي في قبول التحاقي بالمدرسة حتى خضع أخيرا، ولكن بشروط، أهمها متابعة دروسي الدينية في البيت، والانقطاع نهائيا عن الخروج إلى المدرسة بمجرد أن أشارف سن البلوغ.

دخلت المدرسة، بعد طول عناء، وقد انتهت السنة الدراسية وهكذا جلست في يومي الأول بالمدرسة أؤدي مع زميلاتي امتحان النقل للسنة الثانية بمدرسة اللوزي الأميرية للبنات بدمياط. مرت بي الأيام سراعا، وأنا أجمع بين دراستي في المنزل وتعليم المدرسة مع الحرص على تلافي أي تقصير في دراستي المنزلية حتى لايتسبب ذلك في حرماني من المدرسة، وقد سهل لي ذلك أن علومي المدرسية لم تكن تكلفني أي جهد بعد ماتلقيته من علوم على يد الوالد وزملائه المشايخ.

وقد ظلت نفسي، وماكانت إلا طفلة، يتجاذبها حب العلم من ناحية والرغبة في الانطلاق واللهو من ناحية أخرى، حتى قيض الله لي ماثبت قلبي على طريق العلم!.. فقد حدث أثناء دراستي بالفرقة الثالثة، أن دخل فصلنا مفتش ليمتحننا فيما نحفظ من القرآن الكريم، وحين بدا ضيقه بتعثر الزميلات اقترحت الناظرة السيدة «زينب الحناوي» أن يقرئني شيئا مما أحفظ وقد أصغى الرجل إلى قراءتي فدعا لي ثم انصرف راضيا.

● ملاك من السماء

وفي تلك الليلة رأيتني في المنام جالسة في مقعدي بحجرة الدراسة، وإذا بملاك مجنح يهبط من السماء قرب النافذة المجاورة ويعطيني مصحفا شريفا في لفافة خضراء. أيقنت بعد ذلك الحلم، الرؤيا بمنطق والدي المتصوف، أيقنت أن حياتي كلها ستكون مرتبطة بالمصحف الشريف. ومنذ ذلك اليوم، لم أعد أتخلف عن مجلس الشيوخ والعلماء، بل صرت أحاول أن أسبق عمري في دراسة علوم العربية والإسلام.

أنهيت، على مضض من والدي، دراستي في المدرسة الأولية ثم الراقية، وكدت استسلم لضرورة حجزي في البيت، إذ كنت قد بلغت الثالثة عشرة من عمري، لولا أن ظفرت لي أمي، بعد بدء الدراسة بشهرين، بالإذن في التعليم ممن لايملك والدي أن يعصي له أمرا، وهو إمامه في التصوف وقدوته الشيخ «منصور هيكل الشرقاوي». واستقر بي الحال، بعد عناء، في مدرسة المعلمات بطنطا، القسم الداخلي، حيث أديت امتحان السنة الثانية، إذ كان يسمح لمن أتممن التعليم بالمدرسة الراقية أن يلتحقن بالسنة الثانية معلمات مباشرة!

أظنه واجبا على أن أؤكد على أهمية الدور الذي قامت به أمي في مؤازرتي في

تلك المرحلة. لقد كدت غير مرة استسلم لراحة اليأس، فكانت تلك السيدة البسيطة العظيمة، رحمها الله، تأبى إلا أن تدفعنى دفعة تعبر بى من راحة اليأس إلى تعب المجاهدة لتحقيق آمالى!

● حنان الأمومة ودفعة للأمام

هل كان حنان الأمومة هو الذى يدفعها إلى مساعدتى وهى ترانى أذوى وأنا أرقب انهيار آمالى؟ أم تراها كانت تستشف أننى سأكون واحدة من الجيل الذى يشهد محنة الحيرة بين القديم الذى عرفه والجديد الذى يبلوه لأول مرة. أم لعلها كانت مسوقة، مثلما كنت، بدافع لاراد له لأن تدفعنى إلى الطريق الآخر الذى لم أكن حتى فكرت فيه!

من ذلك مثلا أنه عندما أوصدت مدرسة المنصورة للمعلمات بابها دونى، أدهشنى أن أمى لم تعد بى إلى دمياط ريثما تدبر أمرها، وإنما انطلقت تبيع سوارا ذهبيا كانت تتزين به وقطعت لنا تذكرتى سفر إلى القاهرة بحثا عن مكان لى بمدرسة المعلمات بحلوان!

أما عندما أصر والدى، فى عطلة ذلك الصيف، على ردى إلى طريقى الذى حدت عنه فقد كادت تعرض بيتنا للانهيار وهى تحاول الذود عن طموحى ! ورغم أننى رضخت لأوامر الوالد فقد رحت ألتمس منفذا أطمئنها به إلى أن كل ما احتملناه فى الشوط الفائت، لم يذهب عبثا.

ولم يكن من منفذ إلا أن أستعير الكتب المدرسية المقررة على طالبات السنة النهائية بمدارس المعلمات، حيث عكفت على تحصيلها، ثم تسللت من البيت، وأبى غائب عن المدينة فأديت امتحان شهادة الكفاءة للمعلمات أمام لجنة مدرسة طنطا، وخرجت منه ـ وأنا الوحيدة التى تقدمت إليه من المنزل ـ أولى الناجحات فى القطر كله، بفارق مائة وثلاثين درجة فى المجموع، عن الطالبة التى تلينى فى ترتيب النجاح!.

وفى ذلك الامتحان لاحت لى، لأول مرة، بداية ذلك الطريق الآخر الذى لم أكن قط تمثلته أو رنوت إليه، وهو طريق الجامعة!.

لقد أعجب الاساتذة المتحنون بتلاوتى للسور القرآنية وإنشادى لأبيات من شعر الجاهلية وأخرى من صدر الإسلام وأخيرا قصائد من نظمى أنا. بعدها نصحونى بالعدول عن طريق شهادة المعلمات إلى طريق الجامعة! وبدا لى ذلك شططا فى التفكير، فما سمعت فى بيئتى عن الجامعة إلا كلمات مبهمة ترجمها بالزيغ والضلال، ولا تصورت أن هناك علوما أخرى غير تلك التى أتلقاها على مناهج الأزهر، ثم إن الدراسة بالجامعة تحتاج إلى زاد من اللغتين الانجليزية والفرنسية وهو ماليس لى به علم!

● عودة إلى أول الطريق

قرر أبى، نزولا على نصيحة شيخه وزملائه، أن يتركنى أجرب مهنة التدريس، على أمل أن أزهد فيها واتركها باختيارى!

واخترت أنا أن أعمل فى مدرسة البنات الملحقة بمعلمات المنصورة حتى ابتعد عن جو بيتنا المشحون بالضباب

والدخان، ومن ثم أستطيع أن أجد فى تحصيل المنهج المقرر على القسم الإضافى للمعلمات وهو نهاية الشوط للتعليم الأولى الذى بدأته.

وفى المنصورة توزع الوقت بين التدريس والتحصيل، أما ساعات الترويح فإننى أدين بفضل كبير لمكتبة «السروى» التى هيأت لى أن أقرأ فيها مجموعة كبيرة من الكتب الممنوعة فى بيئتى! وهكذا قرأت، نظير قروش قليلة، بنظام الاستعارة، كل كتب المنفلوطى المؤلفة والمترجمة، وكل روايات تاريخ الإسلام لجرجى زيدان، وجمهورية أفلاطون ترجمة حنا خبان، وأيام الدكتور طه حسين، والإلياذة والأوديسة ترجمة البستانى، وألف ليلة وليلة.. وغيرها.

خاب أملى فى اجتياز امتحان القسم الإضافى لمدرسة المعلمات إذ إن اللوائح تغيرت فمنعت التقدم لذلك الامتحان من المنزل، عندئذ اصطحبنى صديق الوالد، الشيخ موسى قمر الاستاذ بدار العلوم آنذاك، محاولا التماس استثنائى من تلك اللائحة بسبب أولويتى في كفاءة المعلمات. لكن السيد مراقب تعليم البنات اعتذر، واقترح على أن أتقدم لامتحان الشهادة الابتدائية! وبسرعة ملأت استمارة التقديم، ثم تم نقلى من المنصورة إلى إحدى المدارس الأولية بحى السيدة زينب بالقاهرة، قريبا من منزل الشيخ موسى قمر حيث سأقيم وأراجع الدروس المقررة على.

وهكذا وجدتنى، بدون تعمد منى، على بداية ذلك الطريق الذى لم أتصور نفسى أبدا سائرة فيه وهو طريق الجامعة!.



بنت الشاطىء أيام الصبا

● الوضع التعليمى يدعم الطبقية

ولم ألبث أن اكتشفت أن طريقى الأول الذى سرت فيه حتى شارفت نهايته، يسير فى اتجاه مواز لايلتقى أبدا مع الطريق الموصل إلى الجامعة. وقد كان حريا بى، لولا صغر السن وضآلة الخبرة، أن ألاحظ أن ذلك الوضع الثنائى للتعليم يدعم الطبقية الاجتماعية والاقتصادية بطبقية عقلية وفكرية! فالتعليم الأولى لعامة الشعب، أما التعليم الابتدائى الموصل للجامعة فهو وقف على الأغنياء والقادرين ماديا.

وكان التباين بين المناهج التى درستها من قبل وتلك التى تدرس فى المدارس الابتدائية والثانوية تباينا شديدا. فلم أكن



د. بنت الشاطيء مع ابنتيها

حتى تلك اللحظة تعلمت حرفا واحدا من لغة أجنبية! حتى أننى اضطررت لنقل اسمى مكتوبا باللغة الأوربية كما ينقل الرسم، كى استوفى بيانات استمارة طلب التقديم للشهادة الابتدائية، ولم أكن كذلك قد شاهدت أى جهاز من الأجهزة المعملية التى يجرى عليها التلاميذ دروسهم العملية فى الطبيعة والكيمياء فى المدارس الحديثة.

أديت امتحان الشهادة الابتدائية فى ذلك العام، وكانت لى فى امتحان اللغة الانجليزية قصة لاتنسى! كنت أضع أملى كله فى موضوع الإنشاء، المعتمد على كتاب «السندباد البحرى» لكننى ما أن بدأت فى الكتابة حتى غابت عن ذاكرتى تماما كلمة «نسر» بالانجليزية، وهى كلمة أساسية فى الجمل المطلوب كتابتها. وبدا لى أن الله لايريد لى المضى فى ذلك الطريق، وفيما أنا ألقى قلمى فى يأس وقع بصرى على الكلمة المطلوبة محفورة على قلمى تحت صورة للنسر. وأقبلت على كتابة إجابتى وأنا موقنة أن الله معى.. على الطريق.

وفى العام التالى تقدمت إلى امتحان شهادة الكفاءة الثانوية، بعد أن استوعبت المناهج المقررة على السنوات الثلاث.

ومرت الامتحانات بسلام فيما عدا امتحان الطبيعة، سئلت عن خاصية الترمس «بضم التاء» فى حفظ الحرارة، وقد تصورت أن المقصود هو البقل المعروف فكانت اجابتى بالطبع فكاهة الموسم فى لجان تصحيح الامتحان، لكن تلك الفكاهة كشفت لمراقب تعليم البنات عما أكابده من مشقة فأمر بنقلى من

وظيفة معلمة، إلى وظيفة كاتبة بكلية البنات بالجيزة.

وكانت سنواتى فى كلية البنات حافلة بالتجارب والدروس! أما الدرس الأول فقد تطلب منى أن أغير من مظهرى بعض الشيء كى أصبح أكثر اتساقا مع ذوق المدينة الكبيرة. وهكذا نزعت من شعرى المشط البراق الذى كان يمسكه وارتديت بدلا من ثوبى المزخرف ثوبا قطنيا بسيطا كذلك تقرر أن أتناول طعامى فى غير المواعيد المحددة للطالبات حتى يتم تدريبى على استعمال أدوات المائدة العصرية، وكان ذلك أول عهدى بها! وقد أدهشنى أن علمت أن موظفات الكلية لايدفعن أى أجر لذلك الطعام الفاخر الذى يقدم فى مطعم الكلية الأنيق. وللحق فقد كانت دهشتى تشوبها الحسرة، على أيام عدة عشتها على شطائر الفول والطعمية اشفاقا على نفسى وميزانيتى من ذلك الطعام الفاخر!.

● علاقتى بالصحافة

وفى تلك المرحلة أيضا بدأت علاقتى المباشرة بالصحافة إذ كنت فى طفولتى قد اتصلت بها بشكل غير مباشر. كنت عندئذ طفلة ملازمة لجدى الشيخ المقعد، وكان من مهامى اليومية أن أقرأ له الصحف ثم أكتب مايملى على من رسائل يبعثها إلى الحكام وإلى الصحف فى موضوع تعطل الميناء. وقد أفرحنى أن أرى ماكتبته منشورا فى الصحف فكنت أتفنن فى تجويده قدر طاقتى.

عاودت، إذن، اتصالى بالصحافة، فأرسلت قصيدتى «فى الحنين إلى دمياط» إلى مجلة «النهضة النسائية» التى نشرتها ثم أفسحت صدرها بعد ذلك لتلقى مقالاتى وقصائدى. وقد أغرانى ذلك أن أرسل قصصى إلى الصحف اليومية وإلى مجلة «الهلال» التى كانت فى ذلك الحين تنشر لأعلام من كتاب الجيل، وقد نشرت لى صحيفتا «البلاغ» و«كوكب الشرق» قصصا قصيرة أما مجلة «الهلال» فقد أعادت القصة مع بطاقة اعتذار باسم «اميل زيدان» وفى تلك الفترة، عندما بدأت النشر فى الصحف اليومية، بدأت أيضا فى التستر وراء اسم «بنت الشاطىء» خوفا من أن يحرم على الوالد مكاتبة الصحف إذا علم بذلك.

وأذكر فى هذا السياق ذلك الدرس الذى تعلمته، ولم أنسه أبدا، من علاقتى بمجلة «النهضة النسائية». لقد دعتنى السيدة الحاجة «لبيبة أحمد» صاحبة المجلة لزيارتها فى دار المجلة، وشجعتنى حرارة استقبالها على تكرار الزيارة حاملة مقالاتى معى، ثم بدأت السيدة الجليلة تكلفنى بكتابة مقالها الافتتاحى، وتطور الأمر حتى صرت أتولى عبء المجلة كله نظير أربعة جنيهات شهرية. لقد أرضى ذلك التكليف غرورى بالاضافة إلى زيادة مواردى، لكننى كنت أزيف ذاتى مقابل ذلك! كان على أن أتقمص شخصية سيدة فى سن جدتى بالاضافة إلى اختلافها عنى فى الطبقة والبيئة والتجربة، واستطعت بمشقة بالغة أن أسترد ذاتى، وتعلمت أن أحرص عليها! وفيما كنت أمارس هواية الكتابة، وأحمل عبء عملى فى كلية البنات وفى مجلة «النهضة النسائية» تابعت تحصيل المواد المقررة

على طلاب البكالوريا، وتقدمت للامتحان من المنزل واجتزته فى صيف ١٩٣٤.

● على أبواب الجامعة

لم أجرؤ على الالتحاق بالجامعة كطالبة منتظمة، فقد كان هذا أكثر مما يمكن لأبى أن يحتمله، ولم تكن الجامعة تعرف نظام الانتساب آنذاك. وفى الوقت ذاته كنت أتعرض لجواذب خارجية مضادة كانت تشدنى بعيدا عن الجامعة، فى بيتنا كان والدى قد نفد صبره، وهو لايكف عن الكلام فى موضوع خطبتى لشاب من أبناء زملائه المشايخ.

وفى مجال عملى، كانت شهادة البكالوريا قد رفعت وظيفتى إلى سكرتيرة لكلية البنات، ورفعت راتبى، أما فى مجال الصحافة فقد نشرت لى جريدة الأهرام، مقالاتى عن الريف المصرى فى صفحتها الأولى، وزادت على ذلك أن رحبت بى عضوا فى أسرة التحرير.

ورغم ذلك كله ظل قلبى معلقا بالجامعة! لم أدر وقتها ما الذى يشدنى إليها، أنا التى لم أضق أبدا بطريقى الأول ولم أنفر منه أو أزهد فيه، وإنما على العكس كنت أزهو على غيرى بما حصلته فيه! لقد حصلت علوم المدارس، لكن ما من واحدة من طالبات المدارس تستطيع أن تقرأ فقرة واحدة من كتب النحو والبلاغة والتفسير والحديث والفقه، التى درستها فى بيتنا!

ما الذى دفعنى إذن للوقوف بباب الجامعة لا أبغى عنه حولا! أعرف الآن بعد أن أصبحت تلك الأيام ماضيا بعيدا، أعرف أننى ما قطعت ذلك الشوط الطويل على دربى، إلا لكى ألقاه!

أعرف أن تلك القوة، التى لاتقاوم التى دفعتنى للخروج عن الطريق الذى خطه لى والدى، إنما كانت تدفعنى إلى حيث ألقاه على طريقه فيتوحد بعدها بنا الطريق وتصبح قصتنا أسطورة الزمان، لم تسمع الدنيا بمثلها قبلنا وهيهات أن تتكرر إلى آخر الدهر! إنه استاذى وشيخى، ثم زوجى ووالد أبنائى الأستاذ الشيخ أمين الخولى.

● قبل أن نلتقى

مضى عام كامل على حصولى على البكالوريا، قبل أن أقدم أوراقى للدراسة بالجامعة. وقد هون على أن علمت أن تقدير نسبة الحضور اللازمة للنجاح يقررها الاساتذة وليس الإدارة.

وفى عامى الأول بها عجزت الجامعة أن تشدنى إليها! وما كان حصاد ذلك العام إلا عزلة نفسية وفكرية عنها.

فمنهجها المحدث تقدمه تلقينا آليا لاينفذ إلى ماوراء ظاهر السمع، وعلومها تعرضها إلقاء وترديدا بدون قدرة على التأثير فى الوجدان. وتفضل أساتذتى الأجلاء ومنهم الأستاذ مصطفى السقا والدكتور حسن إبراهيم حسن بإعفائى من حضور محاضراتهم. تقديرا لظروفى. وما إن اجتزت امتحان النقل إلى السنة الثانية، حتي تصورت أنه لم يبق لكى أصفى حسابى مع هذه الجامعة إلا أن أتعرف على ماعند الأستاذ «أمين الخولى» من علم يتحدانى طلاب قسم اللغة العربية أن أستغنى عن كلمة واحدة منه!

وبدأت عامى الدراسى الثانى وأنا أشد ما أكون ضيقا بالجامعة ونفورا

منها، لقد استأنفت تلك الجامعة الدراسة بعد مصرع زميلنا الشهيد عبدالحكيم الجراحي برصاص الانجليز عند كوبرى عباس، وكأن شيئا لم يكن. ولقد فشلت الجامعة فى الدفاع حتى عن الدرجات العلمية التى تمنحها! وتفصيل ذلك أن البرلمان الوفدى استصدر قانونا يهبط بالحد الأدنى لنسبة النجاح من ٦٠٪ إلى ٥٠٪، على أن يسرى القانون بأثر رجعى. وهكذا انتقل عدد غير قليل من الطلبة الوفديين من ركن الراسبين إلى جماعة الناجحين!

أما على المستوى الشخصى فقد كنت أبدأ عامى الدراسى الثانى وأنا محررة ثابتة فى الصفحة الأولى من جريدة الأهرام التى طبعت لى مجموعة مقالاتى المنشورة بها بين دفتى كتاب عنوانه «الريف المصرى» وكان الكتاب مدخلا لنيلى الجائزة الأولى للمباراة الرسمية لوزارة على ماهر فى موضوع «إصلاح الريف والنهوض بالفلاح» ثم ترتب على ذلك الفوز اختيارى عضوا فى المؤتمر الزراعى الأول مع نخبة من أقطاب الزراعيين. وعن طريق الأهرام أيضا تمت دعوتى لأحاضر على منبر قاعة ايوارت التذكارية. وكان عنوان المحاضرة «واجبنا بعد المعاهدة» والمقصود بالطبع معاهدة ١٩٣٦. وكان من مستمعاتى فى تلك القاعة السيدة هدى شعراوى راعية النهضة النسوية فى مصر والتى امتدت علاقتى بها فمنحتنى شعورا بالأمومة الفكرية والأدبية والاجتماعية وفتحت لى مجال إلقاء المحاضرات على منبر «دار الاتحاد النسائى».

ودور الأهرام فى تكوينى لم ينحصر فى دفعى إلى بؤرة الحياة العامة، وإنما امتد إلى إثراء زادى الثقافى والإنسانى ومساعدتى فى توسيع تلك الدائرة المغلقة التى كنت أتصور أن العالم كله ينطوى تحت نطاقها! لقد جالست فى مكتب رئيس تحرير الأهرام أساتذة كبارا مثل العقاد وطه حسين وزاملت شخصيات ثرية لها أسماء لامعة فى عالم الصحافة مثل كامل الشناوى، على أمين، يضاف إلى ذلك أن عملى الصحفى هيأ لى أن أقرأ عددا كبيرا من الكتب فى المجالات المختلفة ثم أقوم بتقديمها للقراء.

ثم التقينا

وفى ذكرى يوم مولدى، فى السادس من نوفمبر ١٩٣٦، وأنا على تلك الحال من الاعتزاز بنفسى، كان ميلادا لى جديدا، هو لقائى بالأستاذ الإمام أمين الخولى!

لقد جلست أصغى إلى الأستاذ وهو يلقى علينا مبادىء منهجه، حريصة على ألا تفوتنى كلمة واحدة مما يقول، فما أزعجنى غير دقات ساعة الجامعة معلنة عن سير الزمن!

وما أشك للحظة أن ذلك اللقاء بالأستاذ أمين الخولى كان بمثابة الخطوة الأولى على الطريق الذى قطعت العمر أبحث عنه. فأما قديمى الذى جئت الجامعة به فقد جلاه منهج الأستاذ فمنحه روح الحياة ونبض العصر، وأما المعارف التى قدمها لى التعليم المحدث فقد انتقلت من تلك الزاوية المعطلة من ذهنى إلى مجال الوعى والإدراك بتأثير شعورى بالحاجة إلى روافد منها سخية تخصب وجودى الفكرى.

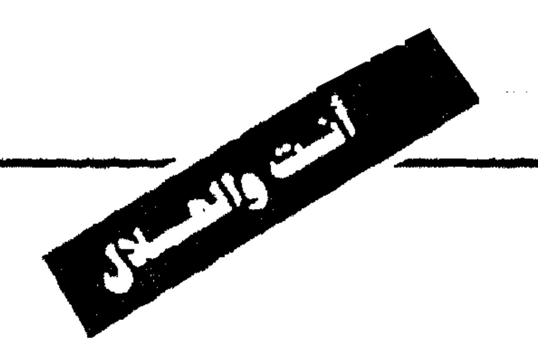
وانتهت المرحلة الجامعية الأولى وبدأت مرحلة الدراسات العليا، فلم يرض لى استاذى أن أبدأ فى دراسة النص القرآنى حتى أتزود بما يكفى من علم فى دراسة النصوص الأدبية، وهكذا حصلت على رسالة الماجستير عن أبى العلاء المعرى ثم الدكتوراه عن تحقيق لرسالة الغفران لأبى العلاء وكانت الرسالتان على الدكتور طه حسين.

ثم انتهى بى التخصص إلى دراسة النص القرآنى على منهج استاذى، وظل الأستاذ الإمام لمدة ثلث قرن يقود خطاى على الطريق الشاق، ويحمينى من عثرة الرأى ومزالق التأويل وسطحية النظر، ويأخذنى بضوابط منهجه الدقيق الصارم الذى لايجيز لنا أن نفسر كلمة من كلمات الله تعالى دون استقراء لمواضع ورودها بمختلف صيغها فى الكتاب المحكم، ولا أن نتناول موضوعا قرآنيا أو ظاهرة من ظواهره الأسلوبية، دون استيعاب لنظائرها وتدبر سياقها الخاص فى الآية والسورة، وسياقها العام فى القرآن كله، ورحل عنى استاذى فى عام ١٩٦٦، تاركا لى، ولغيرى من الباحثين، منهجه المحكم ومنطقه الدقيق اهتدى بهما فى دراساتى القرآنية وفى إشرافى على دراسات طلابى بجامعات القاهرة وعين شمس والرياض والقرويين، وأيضا فى كتاباتى بجريدة الأهرام، التى امتدت رحلتى معها منذ عام ١٩٣٥، وحتى اليوم.



بنت الشاطىء فى ربوع الريف الجميل

ومن أستاذى أمين الخولى تعلمت، فيما تعلمت، ألا أتعجل الوصول بأبحاثى إلى غايتها، ولايزال ملء مسمعى قوله لى: «نحن نعيش العمر كله طلاب علم، كادحين إلى مانستشرف له فى كل خطوة من جديد الآفاق والغايات، وما من بحث يمكن أن يقول الكلمة الأخيرة فى موضوعه، وجهد طالب العلم لايقاس بمدى ماقطعه من أشواط، وإنما يقاس بسلامة اتجاهه، ولو لم يقطع سوى خطوة واحدة على الطريق الممتد إلى غير نهاية ولامدى».



● مصر فى عام ١٩٠٠ ●

● ذكر الدكتور عاصم الدسوقى فى مقاله بعنوان: مصر فى عام ١٩٠٠ التغيرات التى حدثت فى مصر فى ذلك العام الذى كان فاصلا بين القرن التاسع عشر والقرن العشرين ولنا على ذلك الملاحظات التالية:

أولا: ذكر الدكتور أن طوائف الحرف قد ألغيت كتنظيمات مهنية فى عام ١٨٩١ وأنشطرت الطائفة الى شريحتين: شريحة تضم أصحاب المشروعات (النقابات المهنية) والأخرى تضم العمال (النقابات العمالية) وكانت الشريحة الأولى تمثل بذرة طبقة أصحاب رءوس الأموال التى نمت فيما بعد والتحق بها المغامرون من الأجانب الذين وفدوا مع مناخ (الانفتاح) وكونوا شركات صناعية وتجارية وزراعية وبنوكا للتمويل وتجميع المدخرات.. الخ.

ونحن نتفق معه فى أن عام ١٨٩١ شهد إلغاء طوائف الحرف كتنظيمات مهنية بصدور قانون ضريبة الباطنطا الذى سمح بحرية العمل ومزاولة الحرف بمصر حين أباح «لكل شخص قاطن بالديار المصرية أن يمارس أى صنعة أو حرفة أو تجارة أو فن» بعد أن كان يشترط لمزاولة أى صنعة، أو حرفة موافقة الطائفة المختصه، فكان هذا القانون شهادة وفاة لنظام طوائف الحرف بعد أن فقد أهم مقومات وجوده.

أما وجه الاختلاف مع الدكتور عاصم الدسوقى فهى حول النتائج التى توصل إليها سيادته وهى كالتالى:

١ – انقسام الطائفة الى شريحتين اجتماعيتين هما أصحاب المشروعات (النقابات المهنية) وشريحة العمال (النقابات العمالية) وأن الشريحة الأولى (أصحاب العمل) أو حسب تعبير سيادته «أصحاب المشروعات» كانت تمثل بذرة طبقة رءوس الأموال التى نمت فيما بعد.

٢ – إن أصحاب العمل «أصحاب المشروعات» كونوا مايعرف باسم النقابات المهنية فيما بعد.

وبالنسبة للنتيجة الأولى وهى انقسام الطائفة الى شريحتين:

شريحة أصحاب المشروعات وشريحة العمال فنحن نتفق معه فى أن الطائفة انقسمت الى شريحتين ونختلف فى توصيف الشريحة الأولى، شريحة أصحاب العمل الذين اسماهم

الدكتور عاصم «أصحاب المشروعات» ذلك إنه لما كانت الطائفة تضم أصحاب العمل والعمال معا، فإنه بالغاء طوائف الحرف نتيجة صدور قانون الباطنطا فى سنة ١٨٩١ انفكت الرابطة بين أصحاب العمل والعمال وانقسمت الطائفة الى شريحتين اجتماعيتين هما: شريحة أصحاب العمل - لا أصحاب المشروعات - وشريحة العمال.

فهناك اختلاف كبير بين شريحة أصحاب العمل الذين خرجوا من منظومة طوائف الحرف والذين هم نتاج العصر الاقطاعى بكل قيمه وتقاليده، وشريحة أصحاب المشروعات «الرأسمالية» الذين هم نتاج المجتمع الرأسمالى بكل قيمه وتقاليده، هناك فرق بين صاحب الورشة وصاحب المصنع «المشروع» أو المساهم فى الشركات المساهمة.

ذلك أن الصناعة الوطنية الحديثة قد تأخر ظهورها فى مصر إلى قيام الحرب العالمية الأولى، فى الوقت الذى كانت فيه غالبية المصانع مملوكة للأجانب، ثم أخذت مشاركة المصريين فى الصناعة تزداد فى العقدين الثالث والرابع من القرن العشرين، بعد انشاء بنك مصر فى ١٩٢٠ والذى قام بإنشاء العديد من الصناعات المصرية وخاصة فى مجال الغزل والنسيج.

على أن هذه الصناعة الوطنية الحديثة لم تقم بالطبع على أيدى أصحاب الورش «أصحاب المشروعات» حسب قول الدكتور عاصم الدسوقى، ذلك أن الحرفيين بصفة عامة بمن فيهم أصحاب العمل والعمال كانوا قد تلقوا ضربات مؤلمة على يد سلطات الاحتلال البريطانى الذى أثقل كاهلهم بشتى أنواع الضرائب والقوانين الجائرة، الأمر الذى أدى إلى إفلاس الكثيرين منهم، وقد اعترف كرومر بنتيجة سياسته هذه فى تقريره لسنة ١٨٩٨ حين قال «من يقارن الحالة الراهنة بالحالة التى كانت منذ ١٥ سنة يرى فرقا ضخما فالشوارع التى كانت مكتظة بدكاكين أرباب الصناعات والحرف من غزالين وصباغين وخيامين وصانعى أحذية، قد أصبحت مزدحمة بالمقاهى والدكاكين المليئة بالبضائع الاوروبية أما الصانع المصرى فقد تضاءل شأنه وانحطت كفاءته على مر الزمن وفسد لديه الذوق الفنى الذى طالما أخرج فى العصر القديم المعجزات فى الصناعة.

.وهكذا لم تتح الفرصة لأصحاب العمل «الورش» بعد انفكاك نظام طوائف الحرف لتكوين الثروة التى تؤهلهم لان يكونوا أصحاب المشروعات.، وقد جاءت المبادرة فى هذا المجال من جانب كبار ملاك الأراضى الزراعية الذين كان لديهم فرصة التراكم الرأسمالى من خلال ملكياتهم الزراعية الكبيرة، وهو ما أقر به الدكتور عاصم فى موضع لايبعد كثيرا عن مقولته السابقة حين قال إن طبقة أصحاب الاموال قد ضمت نسبة كبيرة من كبار ملاك الأراضى الزراعية الذين بدأوا فى نقل جزء من ريع الأرض الى مجال الاستثمارات التجارية والصناعية.



- وبالنسبة للنتيجة الثانية، والتى ترتبت على الغاء طوائف الحرف - فى رأى الدكتور عاصم، وهى أن أصحاب العمل بعد تحلل نظام طوائف الحرف الذى اعتبرهم الدكتور عاصم الدسوقى «أصحاب المشاريع» قد كونوا ما يعرف بالنقابات المهنية. فنحن لانتفق مع ما انتهى اليه سيادته بهذا الخصوص ذلك أن النقابات المهنية لم تخرج من رحم طوائف الحرف، إنما هى نتاج التعليم العصرى الذى أدخله محمد على للبلاد وواصل مسيرته الخديو اسماعيل.

فالنقابات المهنية تعنى النقابات التى تضم بين جنباتها المثقفين والفنيين مثل نقابة المحامين، التى كانت أول نقابة مهنية تؤسس فى مصر حيث تأسست سنة ١٩١٢، ومثل نقابة الصحفيين ونقابة المهندسين ونقابة الأطباء.. إلخ، ومن العجيب أن الدكتور عاصم قد أشار الى طبيعة تكوين هذه النقابات المهنية فى موضع آخر من الدراسة بقوله : «كما بدت الطبقة الوسطى تتكون بفعل سياسة التعليم المدنى الحديث وتوظيف المتعلمين وأصبحت تضم المهنيين من المتعلمين وكبار الموظفين».

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن أصحاب المشاريع لايكونون النقابات المهنية التى تكون عادة ضد مصالحهم، وإنما يكونون مايعرف باسم جماعات المصالح وأوضح مثال على ذلك، تلك الجماعات الجديدة التى ظهرت فى مصر منذ النصف الثانى من السبعينيات وأوائل الثمانينات مع حركة الانفتاح الاقتصادى، مثل جمعية رجال الأعمال المصريين واللجنة الاقتصادية لرجال الأعمال بالاسكندرية واتحاد البنوك والمجلس المصرى الامريكى لرجال الأعمال وغرفة التجارة الأمريكية.

ثانيا: ذكر الدكتور عاصم الدسوقى أن من بين الصحف التى كانت موجودة فى مصر عام ١٩٠٠ صحيفة أبو نضارة.

والواقع أن صحيفة أبونضارة لصاحبها يعقوب صنوع اليهودى المصرى، والتى أنشأها سنة ١٨٧٧ كانت أول جريدة هزلية سياسية صدرت فى مصر، انتقد فيها صاحبها «يعقوب صنوع» الخديو اسماعيل الذى كان يلقبه بشيخ الحارة، ولذا فقد نفاه اسماعيل خارج البلاد فغادر الاسكندرية فى ٢٢ يونية سنة ١٨٧٨ وقصد باريس التى استقر بها الى أن توفى سنة ١٩١٢.

وفى بارس واصل يعقوب صنوع اصدار جريدته باسماء مختلفة فهى أبو نضارة زرقاء وأبوصفارة والحاوى وأبوزمارة. واستمر يعقوب صنوع فى منفاه يهاجم الخديو اسماعيل

منتقدا أعماله، وكانت صحيفته التى يرسلها لمصر تلقى رواجا عظيما رغم مصادرة الحكومة لبعض أعدادها الأمر الذى اضطره الى تغيير اسم صحيفته أكثر من مرة.

خلاصة القول أن جريدة أبونضارة لم تكن من الصحف التى تصدر فى مصر سنة ١٩٠٠، وإن كانت ترسل لمصر باسماء مختلفة.

د. عبد الله عزباوى

●● صناع القرن العشرين ●●

لى تعقيب على الموضوع الذى تفضلتم بنشره ضمن عدد يناير ١٩٩٦ - موضوع صناع القرن العشرين، مصر: سعد أم عبدالناصر.. فمع عظيم تقديرنا لرؤية كاتبه د. يونان لبيب رزق.. الا ان الكاتب تناول هذا الموضوع من زاوية واحدة هى رؤية مقارنة للزعماء السياسيين - وهى لاشك زاوية صغيرة محدودة لتغطية هذا الموضوع الذى نرى أن تتعدد الرؤى والزوايا التى تتناوله.. فلايمكن ان نغفل دور الفنون والاداب والفكر وروادها فى بناء وصناعة شخصية الإنسان المصرى والإنسان عموماً.

ففى مجال الاداب والعلوم الانسانية لا يمكن أن ننكر الدور الرئيسى لرواد ساهموا فى تكوين وارساء الشخصية المصرية ونذكر منهم الاستاذ عباس العقاد، الدكتور طه حسين، الاستاذ نجيب محفوظ، الاستاذ شفيق غربال، الاستاذ عبدالرحيم الرافعى، امير الشعراء أحمد شوقى، المثال محمود مختار، الفنان التشكيلى صلاح طاهر.

بل وفى مجال فنون الغناء والمسرح والتمثيل يجب ألا ننسى رواد هذه المجالات مثل: سيد درويش، الموسيقار محمد عبدالوهاب، أم كلثوم، عزيز عيد، چورج أبيض، الريحانى، يوسف وهبى.

لقد ذكرنا اسماء هؤلاء الرواد على سبيل المثال - طبعاً - لا الحصر.. والحق أننا يمكن أن نطلق على أى منهم رجل لكل العصور.

ومنعاً من الإطالة والإسهاب يمكننا القول انه كان يتحتم على مجلتكم العزيزة أن تتفضل وتساعدنا على القاء المزيد من الأضواء على كل هذه الزوايا - والزوايا الاخرى ليكون الموضوع أكثر شمولاً.. أرجو أن اكون قد أنصفت فى رؤيتى هذه المتواضعة، كما أرجو ان تكون فاتحة لباب يفضى الى دراسات اكثر واكثر فى اعدادكم القادمة.

محمد أمين محمد
أوسيم - جيزة

الهلال : الموضوعات التى نتناول نشرها بعنوان «صناع القرن العشرين» فى العالم كله وليس فى مصر وحدها.. وبالنسبة للشخصيات التى أشرت إليها فى رسالتك، فقد كتبنا عنها مراراً فى الهلال، ولم يحدث أن أغفلناها، وعلى سبيل المثال أفردنا لها أعدادا خاصة كما حدث بالنسبة لأحمد شوقى وطه حسين ونجيب محفوظ.

● كاتب من السودان ●

● هذه رسالة أولى منى لكم ، قارىء من السودان وفى الحقيقة لا أخفى عليكم عدم مداومتى على قراءة «الهلال» وذلك بسبب أن الأعداد الجديدة من المجلة لاتوجد بالسوق عندنا وفى بعض الحالات النادرة تصل الاعداد الجديدة الى المكتبات العامة ولكن بسعر يفوق السعر المكتوب على غلاف المجلة بأكثر من ستة أضعاف، ولكن ماحدث هو أن الاعداد الكبيرة من «الهلال» التى يفترشها الباعة أمام الساحات العامة والتى تعود لعشرات السنين للوراء أثارت دهشتى، الا أن هذه الدهشة زالت عندما وقع بصرى فجأة على عدد سبتمبر ١٩٩٢ م الذى وجدته مصادفة بالمكتبة العامة فى ميعاد صدوره وكان هذا العدد يحوى ندوة بمناسبة مئوية الهلال حينها ايقنت تماما ماذا يعنى أن تزدحم المكتبات الشعبية بمئات الاعداد القديمة جدا من مجلة الهلال والتى تمثل أجمل توثيق للثقافة العربية فى فترة حرجة من تاريخها وفى وقت كانت فيه كل الأمة العربية تعانى من الاستعمار بكل اشكاله القبيحة ، واعتذر لكم ان هذه الرسالة قد تأخرت كثيرا عن وقتها وذلك لاسباب خاصة بى، ثم اكتشفت ايضا ان المجلة تصدر ايضا سلسلة من الكتب الثقافية وسلسلة من الروايات العربية والمترجمة، ولا اخفى اعجابى بصمود المجلة طوال هذه الفترة مع قدرتها على ابداع أشكال مختلفة تصل عبرها للقارىء العربى بكل الاصرار رغما عن كل الظروف الصعبة التى يمر بها المثقف العربى والمواطن العربى بصورة تكاد تكون طبق الأصل فى أكثرية البلدان العربية. بعد كل هذه المقدمة اود ان أدلف مباشرة الى موضوعى، وهو تساؤلى عن امكانية نظر مجلتكم فى بعض كتاباتى الروائية ومحاولة نشرها عبر سلسلة «روايات الهلال» اذا وافقت تلك الكتابات الشروط الفنية والتقنية التى تتيح لها النشر.. وفى الحقيقة هذه هى المرة الأولى التى أحاول ان اعرض فيها على جهة ما محاولة نشر رواياتى مع ان لى ست روايات جاهزة للنشر أصغرها قصة تقع فى ثمانٍ وسبعين صفحة فولسكاب وبدأت الكتابة منذ عام ١٩٩٠ وحتى الآن لم أجد طريقة ماتتيح لى اختيار ما اكتب. وعندما اخترت «الهلال» فعلت هذا لأن الهلال مجلة شعبية اذا صح التعبير تستطيع أن تغامر بانتاج الأدباء الشباب وتستطيع ان تنتج الروايات الجديدة فى طبعات شعبية قليلة التكلفة.

الصادق إبراهيم محمد النيلى - القسم الجنوبى - أم درمان - السودان

• كوميديا علي باكثير •

● في عدد ديسمبر ١٩٩٥ من الهلال قرأت مقالا للأستاذ مهدى الحسينى بعنوان «الكوميديا المصرية من المغناطيس الى الزعيم» طاف فيه الكاتب حول معظم الأعمال المسرحية على امتداد مساحة زمنية تزيد على أربعين عاما لم يترك شاردة ولا واردة عن المسرح الساخر الا وتناولها بالحديث، بداية من نعمان عاشور وحتى بهجت قمر مرورا بتوفيق الحكيم والفريد فرج وسعد الدين وهبة ويوسف ادريس وعلى سالم وغيرهم، والسؤال الذى أوجهه للكاتب هو: اين أعمال الأستاذ على أحمد باكثير من بين هؤلاء فقد كتب حوالى ستين مسرحية تدور موضوعاتها حول محور واحد هو السخرية من بعض الأوضاع الاجتماعية والانظمة السياسية القائمة خلال عقدى الخمسينات والستينات وقد لاقت نجاحا عند عروض بعضها على المسرح مثل جلفدان هانم والدنيا فوضى والدكتور حازم وسر شهرزاد وسر الحاكم بأمر الله وحبل الغسيل وغيرها. فهل بعد كل ذلك يسقط الحديث عن مسرح باكثير.

دكتور محمد علي ريان
إدارة المطرية التعليمية - القاهرة

• انتحال القصائد •

● قرأت مانشر من قصيدتى «عربى مذهول» فى عدد يناير ١٩٩٦ م وقد نسبت القصيدة لعبد الله حبورى - اليمن وربما أن هذا اللبس حدث لأنه لم تصل اليكم من القصيدة سوى صفحة واحدة والقصيدة تتكون أصلا من واحد وثلاثين بيتا. وقد كتبتها بصفحتين وأرسلتها اليكم كما هى. ومن عادتى أن أذيل اعمالى الشعرية بكلمات قليلة لاننى آمنت أن «خير الكلام ما قل ودل» ومن عادتى أيضا أن اكتب اسمى على آخر القصيدة على أية حال هذه ليست أول مرة للهلال ان تنسب بعض الأعمال لغير أهلها فقد حدث ذلك مرارا ومن أشهرها إنها نسبت أبيات من شعر «ابن الجبل» لإحدى الشاعرات ولكنها سرعان ماأزالت اللبس.

درهم جباري - سان فرانسيسكو - الولايات المتحدة

• نداء السحور •

نعتاد شيئا ما: هطولا ثابتا
على مسام الذاكرة
من ذلك السابح فى جدائل
يطبع كفيه بليل طازج يجف فى شمس الغد..
النهار لايعتاد ايقاع خطاه العابرة
يمشي ابتهالات تفض غيمة النوم
وددت لو أراه، كلما سربت حسى فى
خيالاتى..
تشظى فى ارتكاز الصمت مابين الجهات

كيف يسبح النداء فى رواقد الصيام ناشرا
أمواجه الخضراء فى حقل الأنام،
بينما لا استطيع ؟
نجمة له السطوع .. بينما نجمى ينوء بالظلام
الليل بيننا، يفرقنا اجتماع،
اذ يجمعنا فراق.
وانطلاق الحلم يتبعه انقطاع عندما يلج السنا!

عبدالرحيم الماسخ - سوهاج



● المهرجانات الدولية ●

الذين يتابعون المهرجانات الدولية للمسرح يرون مايدور فيها من منافسات ومساجلات حول مسألة الجوائز وقيمتها المادية ويكثر الكلام بين ممثلين وكتاب نصوص ومخرجين وتقنيين ونقاد ولقد أصبحت المهرجانات المسرحية مقترنة اساسا بقيمة الجوائز التى سوف يحصل عليها المخرج أو الممثل أو الفرقة أو البلد المشارك.

أقول هذا الكلام بعدما قرأت ما كتبه د. مجدى يوسف فى الهلال ديسمبر ١٩٩٥ تحت عنوان رسالة قرطاج مهرجان بلا جوائز وختم مقاله بهكذا انفض «المولد بلا حمص» المهرجانات الدولية للمسرح سيدى هى فرصة نادرة تتيح لنا أن نرى ولو من خلال عينات احيانا مايقدم على الساحة العربية والعالمية من مسرحيات والمهرجانات الثقافية بصفة عامة هى مكان اللقاء والحوار وابداء الرأى، والجوائز لاتعنى أى شىء، وإن دور المهرجانات المسرحية هو العمل على أن تتقارب الشعوب بدلا من التمزق العربى الذى نعيش فى ظله فلماذا نزيد تمزقنا بتمسكنا بالجوائز

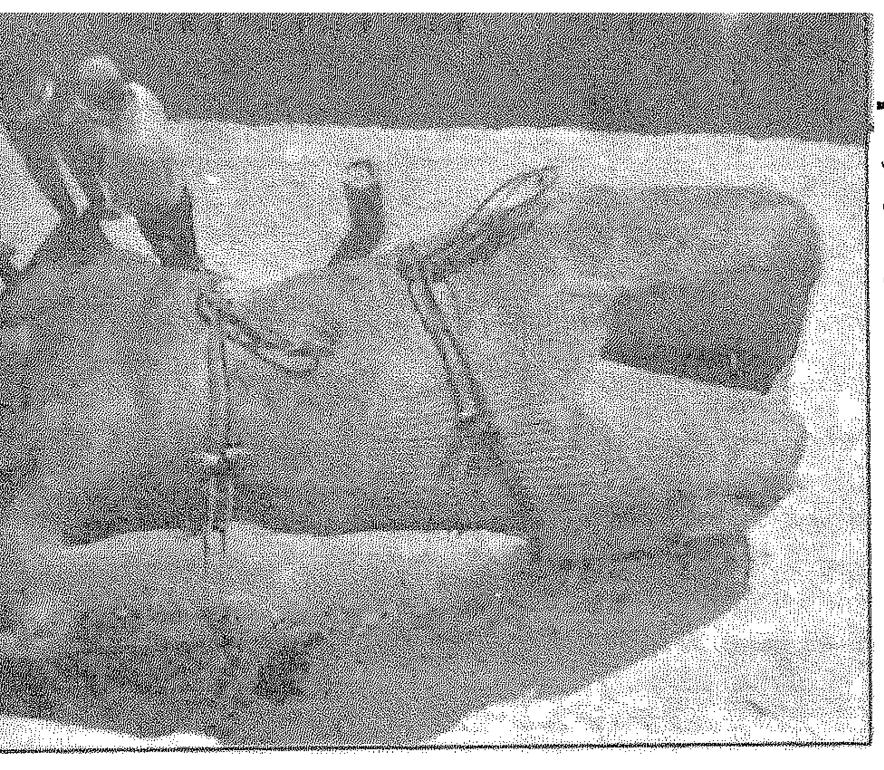
حبيب جميل الحلفاوي
٨٠١٠ منزل بوزلفة - الجمهورية التونسية

● كشف أثرى جديد ●

● تاريخ مصر القديم من أعماق البحر ●

● فى قاع مياه البحر الأبيض، المتاخمة لحصن قايتباى التاريخى على الطرف الشمالى الشرقى من جزيرة فاروس العجيبة التى لهج بذكرها منذ قرون غابرة، هوميروس أبو الآداب فى الاوديسة ترقد الآلاف من كتل الأحجار الأثرية المثيرة من تماثيل للملوك وأرباب قدامى وبقايا مسلات وتماثيل لأبى الهول وأعمدة وتيجان وقواعد بل واعتاب هائلة من الجرانيت يعتقد أنها بقايا فنار اسكندرية القديم الذى قذفت الزلازل ببقاياه ، لاعماق اليم منذ القرن الرابع عشر. وللمرة الأولى فى تاريخ العمل الأثرى تحت الماء بالاسكندرية،. تتمكن بعثة مصرية، فرنسية من المسح العلمى الأثرى تحت الاعماق وتصور تلالا هائلة من الاحجار أسفل الماء تخلفت عن أعمال القاء مستمرة فى عصور مختلفة لابنية المدينة العظيمة التى ترجع للعصرين اليونانى - الرومانى.

ولتقوم البعثة فى النهاية باعمال الانتشال الفعلى فى خلال شهر اكتوبر الماضى لاربع وثلاثين قطعة أثرية تمثل فى حد ذاتها متحفا بحريا صغيرا لاثار ملوك مصر القديمة الغارقة فى أعماق الماء الواقع اسفل جزيرة فاروس ومن بين ما انتشل تمثال ضخم يعتقد انه لاحد ملوك البطالمة الاوائل وهو من الجرانيت الوردى يبلغ ارتفاعه ٤,٥ م ووزنه ١٣ طنا يحمل رقم ١٠٠١ ومجموعة من التماثيل لأبى



الهول أحدهم يحمل نقوشا ل رع - مس - سو (حوالي ١٣٠١ ق . م ١٢٣٥ ق . م) ويبلغ الطول ٢ر٤٥ م والوزن أربع أطنان ورأس تمثال لأبي الهول لبسماتيك من الحجر الكلسى يبلغ الوزن نصف طن وكذا بدن تمثال لبسماتيك من نفس المادة الطول ٢,٩٠م والوزن ٥ أطنان ورأس تمثال ضخم الارتفاع ٩٠ سم، الوزن ١,٥٤ طن كذلك تاج هائل لايزيس الارتفاع ١,٨٢ م والوزن ٥ أطنان كذلك تم انتشال جزء من مسلة لسيتى الأول (١٣١٢ ق.م - ١٣٠٠ ق. م) من الجرانيت الوردى يبلغ الارتفاع ٧٣ م والوزن ٢,٢٣ طن كذلك عثر على بقايا ثلاثة أجزاء من مسلة لرعمسيس الثانى من الحجر الرملى وتمثال لابى الهول لسنوسرت الثالث من الحجر الرملى الطول ١,٥٣ والوزن واحد ونصف طن غير انه من اهم ما انتشل كتلتين هائلتين مستطيلتين من الجرانيت لفتتا النظر بهيئتهما من حيث خطوطها المعمارية التجريدية الرشيقة بالرغم من ضخامة الكتلتين والكتلة الأولى يبلغ طولها ٦,٤٨ م والوزن ٣٠,٣٦ طن والكتلة الثانية الطول ٥,١٨ م والوزن ٤٥,٤٧ طن ويعتقد الاثرى الفرنسي الدكتور جان - ايف امبرير طبقا لما قام به من مسح ودراسات تحت الماء بأنهما من بقايا فنار اسكندرية القديم الذى تم انشاؤه في عهد بطليموس الثانى (٢٨٢ ق . م - ٢٤٦ ق. م) وكذا شذرة رخامية تحمل بقايا نقشا اغريقيا بلغ ارتفاع الحرف ٤٠ سم وتمثل هذه التلال من الأحجار الراكدة تحت الماء مرجعا ذا خطر وطرافة لدراسة معمار المدينة القديم وتاريخها فى آن واحد الذى اختفى من فوق اليابسة خلال العديد من الاحداث الطبيعية والتاريخية التي ألمت بها ومن بينها سلسلة الزلازل التى اجتاحت المدينة خلال الفترة من نهاية القرن الأول قبل الميلاد حتى القرن الرابع عشر الميلادى.

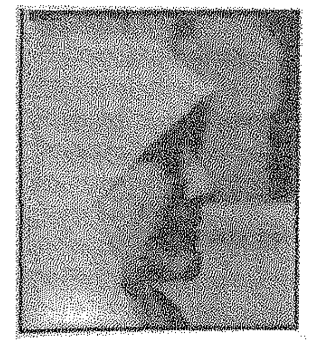
ثانيا: تخريب معبد القيصريون ونهب محتوياته في عام ٣٣٦م.

ثالثا: تخريب معبد السرابيوم فى نهاية القرن الرابع الميلادى.

رابعا: قيام حاكم الاسكندرية (قراجا) بالقاء مجموعة من الاعمدة والآثار من معبد السرابيوم القديم بمنطقة الميناء الشرقي وخاصة موقع الإنتشال لصد جحافل الصليبيين عن مصر ويشير العثور على تماثيل لأبى الهول ومسلات تحمل طغراء كل من سنوسرت الثالث (١٨٧٧ ق. م - ١٣٤٣ ق. م) وكل من سيتى الأول ورعمسيس الثانى وبسماتيك الى علاقة هذه الآثار بمعبد السرابيوم لوجود آثار لهؤلاء بهذا المعبد من بين آثارهم التى عثر عليها بانحاء المدينة المختلفة وقد تم نقل تلك القطع لاحواض الترميم الى منطقة كوم الدكة الاثرية ويعد هذا العمل الاثرى من أهم الاعمال التى اجريت فى انتشال الآثار من الاعماق منذ اخراج تمثال ايزيس - فاريا من تحت الماء منذ ماينيف عن ثلاثة عقود مضت ويمثل الاتجاه الى هذا المجال مصدرا جديدا من مصادر الدراسات الأثرية والتاريخية لدراسة تاريخ الاسكندرية القديمة بصفة خاصة والحضارة المصرية التى لاينضب معينها.

أحمد عبدالفتاح - مدير عام آثار غرب الدلتا

الكلمة الأخيرة



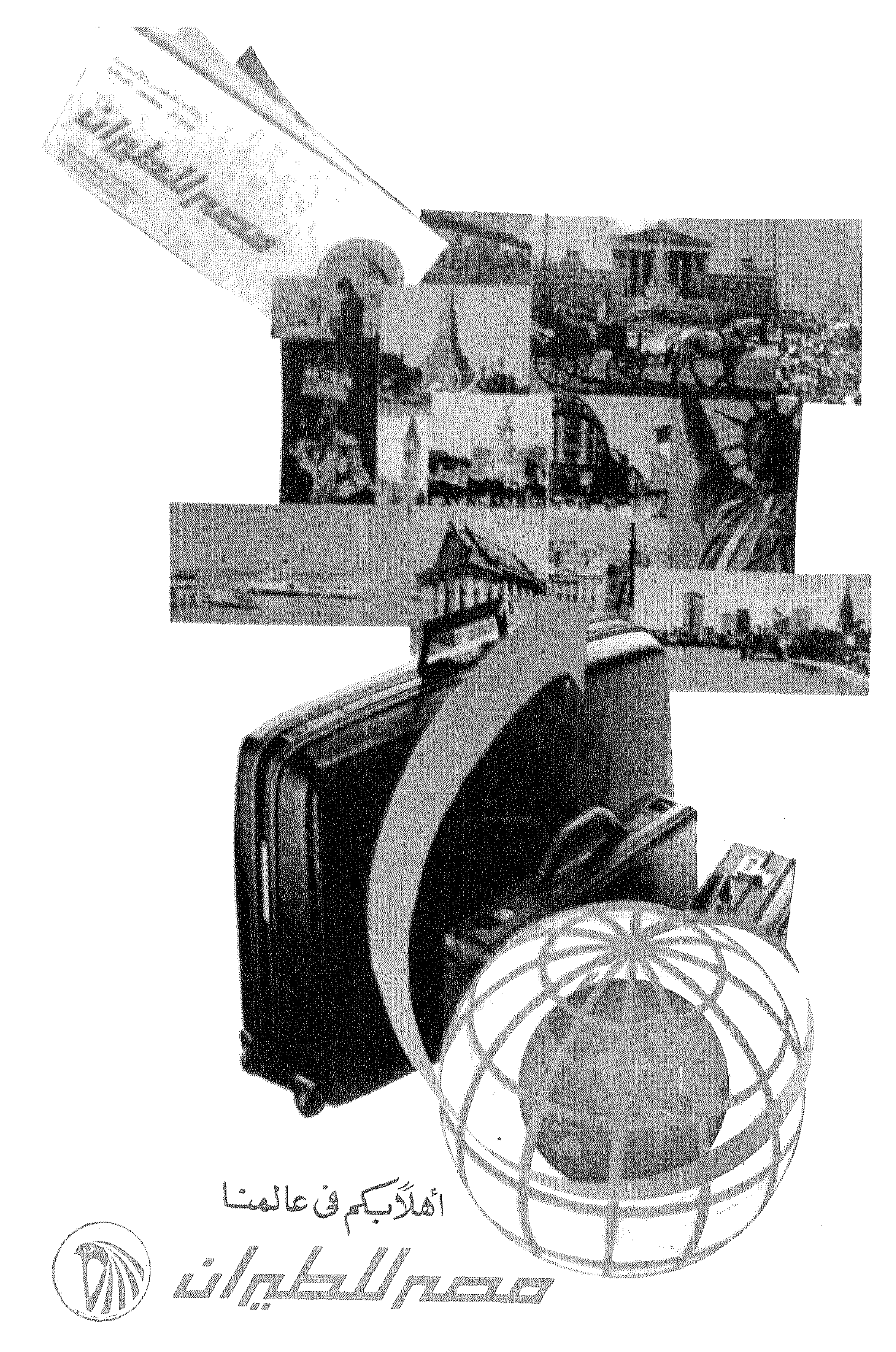
رمضان يحب السهر !

بقلم : صافى ناز كاظم

● لا أذكر بالتحديد متى سمعت هذا الكليشيه الذى دأب الناس علي ترديده في ابتسامة ونظرة حنين عميق : «رمضان يحب السهر». المهم ان أجهزة الإعلام فهمت هذه الجملة التقريرية بشكل أصبحت غرابته تزداد عاما وراء العام كلما هل هلال الشهر الكريم : شهر ليلة القدر التى أنزل الله سبحانه وتعالى فيها القرآن علي رسوله ونبيه محمد بن عبد الله .

فهذا «السهر» الذى يحبه شهر رمضان فعلا يفهمه العابدون الصالحون على انه «سهر» لصلاة القيام والتهجد وقراءة القرآن ، والتسبيح بعد السحور حتي صلاة الفجر ، أسوة بما كان يفعله رسولنا المفدى وتنفيذاً لوصاياه، فرمضان شهر عبادة ، بكل أشكال هذه العبادة من صيام عن الأكل والشرب والرذائل وكل أشكال الأذى . واذا كان نهار رمضان جهادا للنفس والشهوات ، فليله إعداد لهذا الجهاد النهارى ، على المستوى المادى من طعام وشراب وعلي المستوى الروحى والمعنوى من تركيز في فهم وقراءة القرآن وتطهير واستغفار وتوبة بالصلاة والخشوع في سكينة وهدوء.

لكننا عندما نتابع مناقشات أجهزة الإعلام في إعداد برامجها للشهر « الذى يحب السهر» ، نجد كلاما كثيرا حول المائدة والتسلية والترفيه. ألوان وأصناف للطعام حتى ليخيل اليك أنه شهر لاينشغل فيه بال الصائم إلا : بماذا يأكل. كأن ما يأكله طيلة العام «كوم» وما يأكله فى رمضان «كوم» آخر. واذا بشهر الزهد والتقشف يتحول الي شهر الشراهة والتخمة. بيد أن النفور الذى يتولد من هذا «العك» الطويل عن طعام ومائدة رمضان، يتضاءل تماما أمام التقزز الذى يحسه الإنسان أمام مفردات بند التسلية «الرمضانية» والترفيه الذى يستعدون له لشغل لياليه المباركة. لاتنظر الى المسلسلات «الدينية» فما هي إلا ورقة توت لا تكاد تخفي بقية العورات الجارحة التى تحاصرك منذ لحظة انطلاق مدفع الإفطار حتى مدفع السحور. فوازير ، فوازير، فوازير من كل حدب وصوب، من كل قنوات التليفزيون وكل محطات الاذاعة حتى ليحسبها السائح أو الزائر أو الغريب بين ظهرانينا ركنا أساسيا في فرائضنا ، أو هي من صميم فنوننا الاسلامية الضاربة في أعماق حضارة الخمسة عشر قرنا. لقد كان شهر رمضان في زمن مضي موسما ينتعش فيه قراء القرآن والمنشدون للتواشيح والابتهالات، غير أن ذلك زمان قد ولي فبفضل «الرؤية المعاصرة» التى ابتكرتها أجهزة الاعلام في تناولها لشهر رمضان أصبح الشهر الفضيل موسما للراقصين والراقصات والمتشخلعين والمتشخلعات والممثلين والممثلات ، الجادين منهم والبهلوانات فهم – فى الاستراحة من الفوازير – في البرامج تلو البرامج متحدثون ومتحدثات ومتفلسفون ومتفلسفات وهذا لايمنع أنهم ، أيضا ، مرحون ومرحات الى اقصى حد من ثقل الظل والسماجة في برامج للألعاب والمزاح والهزار تم اعدادها خصيصا لسهرات رمضان وفق مفهوم هذه الأجهزة الإعلامية لمدلول وتفسير مقولة : «رمضان يحب السهر» نجانا الله وإياكم منها وكل عام ونحن وأنتم بخير مادمنا أخذنا في الحسبان البعد كل البعد عن أجهزة اللهو ولغو الحديث والحمد لله رب العالمين.



أهلاً بكم فى عالمنا
مصر للطيران

إنسانيات

نبع الآداب والثقافة المعاصرة

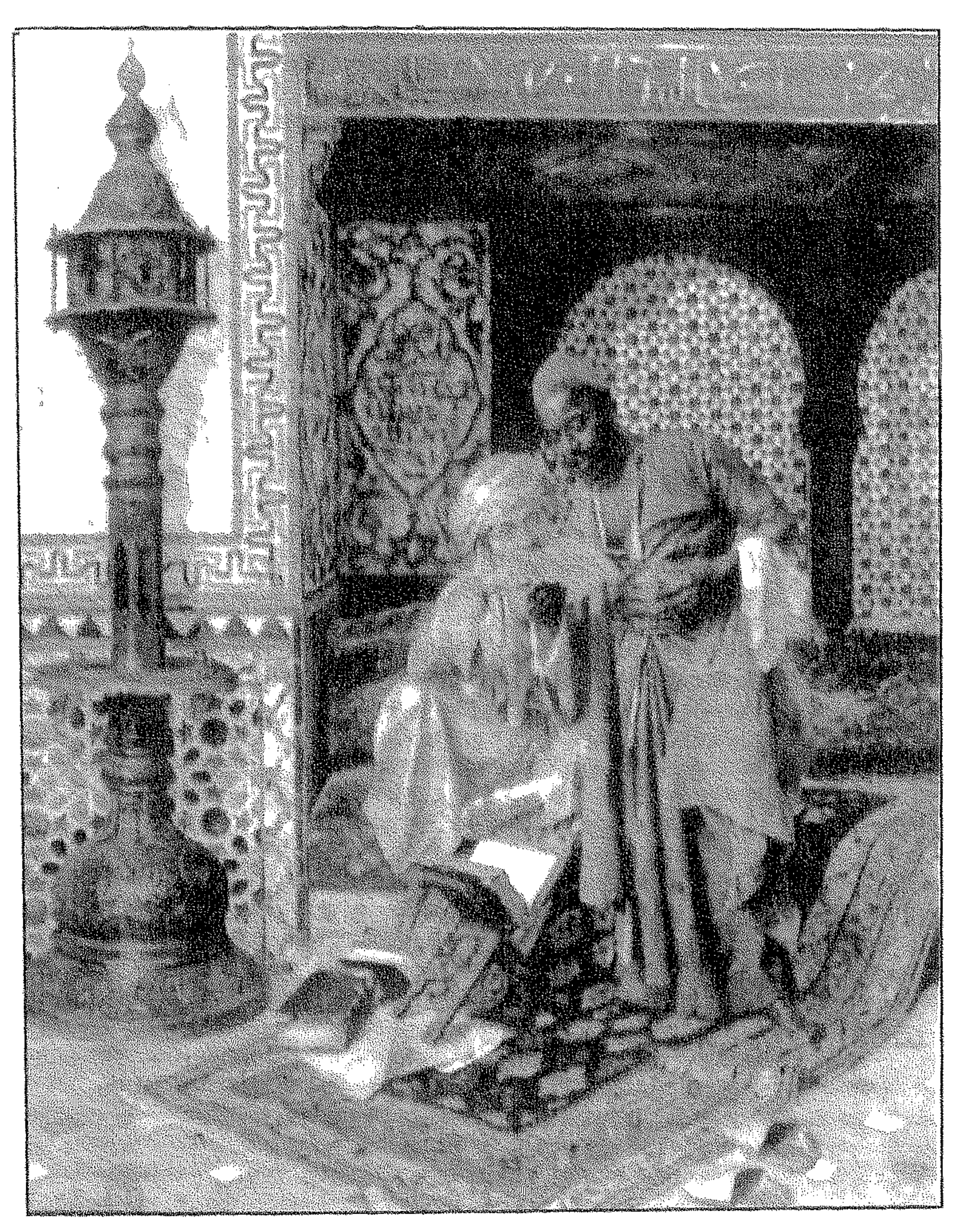
من : أدب ، وقصة ، ودراسة ، وسير ، وبحوث ، وفكر ، ونقد ، وشعر ، وبلاغة ، وعلوم ، وتراث ، ولغات ، وقضايا ، وتاريخ ، واجتماع ، وعلم نفس ، ورحلات ، وسياسة ... إلخ .

صدر من هذه السلسلة :

العنوان	المؤلف
- الإنسان الباحث .	طيبة أحمد الإبراهيم
- الحياة مرة أخرى .	نوال مصطفى
- التنويم المغناطيسى .	يوسف ميخائيل أسعد
- نوم العازب .	محمد حسن الألفى
- من شرفات التاريخ جـ ١ .	د . محمد رجب البيومى
- أم كلثوم .	مجدى سلامة
- المرأة العاملة .	سوزان عبد الحميد أغا
- قادة الفكر الفلسفى .	يوسف ميخائيل أسعد
- الملامح الخفية (جبران ومى) .	لوسى يعقوب
- عبد الحليم حافظ .	مجدى سلامة
- انقراض رجل .	طيبة أحمد الإبراهيم
- الشخصية المتطورة .	يوسف ميخائيل أسعد
- محمد عبد الوهاب .	مجدى سلامة
- الشخصية السوية .	يوسف ميخائيل أسعد
- الشخصية القيادية .	يوسف ميخائيل أسعد
- الإنسان المتعدد .	طيبة أحمد الإبراهيم
- الشخصية المبدعة .	يوسف ميخائيل أسعد
- فكر وفن وذكريات .	لوسى يعقوب
- ساعة الحظ .	محمد حسن الألفى
- سيكولوجية الهدوء النفسى .	يوسف ميخائيل أسعد
- الإعلام والمخدرات .	د . نوال محمد عمر
- من شرفات التاريخ جـ ٢ .	د . محمد رجب البيومى
- الشخصية المنتجة .	يوسف ميخائيل أسعد
- الأسرة مشكلات وحلول .	مجدى سلامة
- ظلال الحقيقة .	طيبة أحمد الإبراهيم
- شعرة معاوية ، ومُلك بنى أمية .	عرفات القصبى قرون
- مذكرات خادم .	طيبة أحمد الإبراهيم

طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع - المطابع ٨ ، ١٠ ، ١٢ شارع ١٧ المنطقة الصناعية بالعباسية - المكتبات ١٠ ، ١١ شارع كامل صدقى بالفجالة - ١ شارع الإسحاقى بمنشية البكرى - روكسى بمصر الجديدة - تليفونات : [illegible] - فاكس 2596650


شوائية الجوائز !
جزء خاص
المصريون
ول من اكتشفوا العطور
مارس ١٩٩٦ ● الثمن ١٥٠ قرن
حلمي التوني 96



لوحة «الرسالة»

للفنان رودوليف إرنست - القرن التاسع عشر

متحف داهش - نيويورك



مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢
العام الرابع بعد المائة

الادارة القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت : ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) . المكاتبات : ص.ب : ٦١٠ - العتبة - الرقم البريدي : ١١٥١١ - تلغرافيا - المصور - القاهرة ج. م. ع. مجلة الهلال ت : ٣٦٢٥٤٨١ - تلكس : 92703 Hilal un فاكس : FAX : ٣٦٢٥٤٦٩

ثمن النسخة سوريا ١٠٠ ليرة - لبنان ٣٠٠٠ ليرة - الأردن ١٢٠٠ فلس - الكويت ٧٥٠ فلسا، السعودية ١٠ ريالات - تونس ١.٧٥٠ دينار - المغرب ١٧ درهماً - البحرين ١ دينار - قطر ١٠ ريالات - دبى/ أبو ظبى ١٠ دراهم - سلطنة عمان ١ ريال - الجمهورية اليمنية ١٠٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس ١ دولار - إيطاليا ٤٥٠٠ ليرة - المملكة المتحدة ١.٥ جك

الاشتراكات قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ١٨ جنيها داخل ج م. تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٢٠ دولارا، أمريكا وأوربا وافريقيا ٣٥ دولاراً، باقى دول العالم ٤٥ دولاراً

● وكيل الإشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيونى زغلول - ص ب رقم ٢١٨٣٣ - الصفاة - الكويت - ت/ 13079 ٤٧٤١١٦٤

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

هذا العدد



الغلاف
تصميم الفنان
حلمى التونى

فكر وثقافة

شعر وقصة

عشوائية الجوائز

جزء خاص

التكوين

الأبواب الثابتة

من الهلال إلى الهلال

عزيزى القارىء

عشوائية الجوائز !

● تعتبر الجوائز الأدبية والعلمية أداة مهمة لتقدير المواهب والاحتفاء بالأعمال الكبيرة، مما انتجته قريحة المفكرين والعلماء والأدباء. وتلعب هذه الجوائز دورا مهما فى الحياة الفكرية والعلمية. فالجوائز تقدير لجهد قائم، وتشجيع لجهد قادم

فقد كانت مصر أول بلد عربى عرف الجوائز الأدبية والعلمية ويكاد لا توجد شخصية أدبية أو علمية مهمة الا واحتضنها المجتمع وقدم لها كل صور التكريم والتقدير.

ولعبت الجوائز دورا مهما في حياة أديبنا الكبير نجيب محفوظ، عندما حصل فى بداية حياته على جائزة الرواية من المجمع اللغوي، ثم توج أعماله التى غزلها بعبقريته بالحصول على جائزة نوبل. وفتح الأبواب واسعة ليتعرف العالم على الأدب العربي، وليس غريبا إعلانه عن جائزة يقدمها تحمل.اسمه للمبدعين الشبان.

وترتفع قيمة الجائزة وتزداد كلما تبنتها مؤسسات راسخة تقوم على قواعد محددة، وبشروط ثابتة، تقوم كل خطوات تقديمها على اساس من الشفافية والوضوح.

وتبارى العديد من الافراد والمؤسسات فى مصر والبلاد العربية على تقديم الجوائز للبارزين كأداة مهمة فى اثراء الحياة الفكرية والعلمية وهو اتجاه ينبغى تشجيعه والاحتفاء به.على أن تراعى القواعد والشروط التى تضمن وصول هذه الجوائز الى مستحقيها والا فقدت مغزاها وجاءت بنتائج سلبية..

وعلى أية حال .. فإن الذى حدث فى سراديب اللجان وفى جنح الظلام فى جوائز معرض الكتاب، يدعو الى الاستنكار، فلم يعرف الرأى العام ، القواعد التى منحت على أساسها الجوائز ، ولا الأسس التى تم على أساسها الاختيار.

وهل معقول أن يحصل سبعة من أعضاء اللجنة الاستشارية على جوائز؟ .. وأن يفوز أحد الكتب بالجائزة قبل أن يصدر ويخرج من المطبعة؟!

عزيزى القارىء

وهو أسلوب يفقد الجوائز معناها، ويقلل من قيمة الأعمال التى حصلت عليها بجدارة، ويفقد معرض الكتاب مصداقيته .

لقد حان الوقت لكى تنتهى هذه الاساليب العشوائية التي غابت فيها المعايير. فلم يعد لائقا أن تعطى الوزارة الجائزة لمعالي الوزير! بعد أن تعالت صيحات الاحتجاج عندما منح المجلس الاعلى للثقافة فى إحدى دوراته السابقة الجائزة لرئيس الحكومة السابق ورئيس مجلس الشعب .. وقد طالبنا أن تكون جوائز الدولة التقديرية والتشجيعية من حق المبدعين لا من نصيب الموظفين . هذا بعد أن تحولت الكثير من الجوائز الى تقدير أصحاب الجاه وذوى الصوت المسموع!

ويقدم الهلال فى هذا العدد جزءا خاصا عن الجوائز الأدبية. يساهم فيه كبار الكتاب، على أمل أن يدرك الجميع دورها ومكانتها . ونلح فى مطلب قديم أن ترتفع قيمة جوائز الدولة لكى تتلاءم مع قدرها ، وأن تتلاءم مع الارتفاعات الكبيرة فى مستوى المعيشة.

وقد تقدمنا خلال الاحتفال بالعيد المئوى لمجلة الهلال باقتراح إقامة مؤسسة ثقافية تعطى جائزة ضخمة لأهم عمل فكرى كل عام وتوقف المشروع عندما أعلن وزير الثقافة تبنيه المشروع واعداده تشريعا لمنح جائزة كبيرة هى جائزة النيل ورفع قيمة جوائز الدولة التقديرية والتشجيعية.

ونكرر .. إن المطلوب هو ثقافة عربية تخرج من القاهرة فهذا وحده الذى يصنع المكانة الحقيقية لمصر، وقد ارتفع اسم مصر مع ارتفاع اسماء شعرائها وكتابها وفنانيها، وهذه الاسماء العظيمة هى التى تتخطى حدود مصر الى كل أرجاء العالم.

والنهوض بالجوائز التى أصبحت أشبه بالمسابقات المدرسية، ورعاية الأقلام كبيرها وصغيرها هى خطوات على هذا الطريق.

المحــــرر

الأدب والعلم والثقافة الثالثة

بقلم : د . أحمد مستجير

لم يكن تشارلس بيرسي سنو (١٩٠٥ - ١٩٨٠) يتصور أن محاضرته التي ألقاها بجامعة كيمبريدج في السابع من مايو ١٩٥٩ ستثير كل هذه الزوابع ،. وأن يكون لها كل هذا الصدي في العالم بأسره كان عنوان المحاضرة هو «الثقافتان والثورة العلمية» وقد طبعت في كتاب صدرت منه ٣١ طبعة حتي عام ١٩٩٣ ، وترجم الي لغات عديدة (ليس بينها العربية!) والثقافتان اللتان يعنيهما سنو هما ثقافة المفكرين من الأدباء ، وثقافة العلماء . قال إنه قد وجد بين هؤلاء وهؤلاء شكوكا متبادلة ، مما قد يكون له أثر مدمر علي تطبيق التكنولوجيا وحل مشاكل العالم .

لكلمة «الثقافة» بعنوان المحاضرة معنيان ، كلاهما - كما يقول سنو - يصلح للموضوع . أولهما يقول ان الثقافة هى «التطوير الذهنى ، تطوير العقل» . أما التعريف الثانى ، ويستخدمه الانثروبولوچيون ، فيقول ان الثقافة مجموعة من الأفراد تربطهم عادات مشتركة ، وافتراضات مشتركة ، وطريقة مشتركة فى الحياة . العلماء من ناحية ، والمفكرون الأدباء من ناحية ، يمثلان بالفعل ثقافتين مختلفتين من وجهة النظر الانثروبولوچية هذه نحن أبناء زماننا ، ومكاننا ، وخبراتنا .

لم يكن سنو هو أول من أثار هذه القضية . ففى عام ١٨٨٢ ألقى آرنولد ماتيو محاضرة ريد فى نفس المكان الذى ألقيت فيه محاضرة سنو . كان الموضوع هو «الادب والعلم» أكد ماتيو ان باب «الادب» لابد ان يشمل كل الكلاسيكيات القديمة ومنها كتاب «المبادىء» لاسحق

نيوتن وكتاب «أصل الأنواع» لتشارلس داروين . الأدب والعلم ليسا متباينين تماما ، كلاهما يستحق مكانه فى التعليم المتكامل غير انه قال ان التدريب فى العلوم الطبيعية قد ينتج حقا المتعلم الممتاز ، لكن لاغنى عن الادب «للمتعلم» لاسيما ادب العصور القديمة .

● من هو سنو ؟

كان سنو عالما ، مثلما كان أديبا كان يتحرك بين «الثقافتين» : قدم هنا وقدم هناك . بدأ حياته فى حقل العلم . حصل على الماچستير فى الكيمياء عام ١٩٢٨ ، وسجل لدرجة الدكتوراه بجامعة كيمبريدج فى اكتوبر ١٩٢٨ ، وبدأ بحثه فى معمل كاڤنديش الشهير على التحليل الطيفى . لكنه اضطر الى ان يترك حقل العلم عندما نشر بمجلة «نينتشر» هو وزميل له أنهما اكتشفا طريقة لانتاج ڤيتامين أ اصطناعيا ، وثبت خطؤها . اتجه الى مجال الادب ، فنشر عام ١٩٣٢ رواية بوليسية عنوانها «جريمة تحت الشراع» أعقبها فى سنة ١٩٣٤ بأخرى عنوانها «البحث» . وطد نفسه ككاتب جاد ، واصدر مابين ١٩٤٠ ، ١٩٧٠ أحد عشر مجلدا تحت عنوان « غرباء وأخوة» كان توزيعها واسعا وترجمت الى العديد من اللغات . حصل فى عقد الستينيات على عشرين درجة فخرية ، لكن يظل اسم سنو معروفا ومرتبطا بكتاب «الثقافتان» قبل أى شىء آخر .

من يحملون المستقبل في عظامهم

يقول سنو : دراستى علمية ومهنتى الكتابة كنت أتحرك بين مجموعتين - متقاربتين ذكاء ، من سلالة واحدة ، لاتختلفان كثيرا فى البيئة الاجتماعية ، لهما نفس الدخل تقريبا ، لكن الاتصال بينهما قد توقف أو يكاد - ليس بينهما مشترك الا القليل فى المناخ العقلى والاخلاقى والتكنولوچى . يرى سنو ان العلم هو الأمل الكبير لعالم أساءت الصفوة تدبيره وقادته الى الكساد الاقتصادى والى حافة حرب أخرى مدمرة صفوة ثقافتهم تقليدية صبغها وأثر فيها كثيرا : المفكرون الأدباء ، الصياغة لم تكن لهم ، لكن كلماتهم كانت تنساب فى عقول من يصنعون القرارات ، وثقافة الأدب ليست كثقافة العلم هى لاتصلح نفسها أوتوماتيكيا ، تغيرها بطىء بطىء، و ومن ثم ففترات ضلالها أطول وأطول . نمت لديه كراهية «للمفكرين من الأدباء» تمكنت منه طوال عمره . كان يكره من يضع ت . س . اليوت فى مكانة تعلو مكانه هـ . ج . ويلز . العلماء هم من يحملون المستقبل فى عظامهم ، هم من يهتمون - بطبيعتهم - بخير البشرية ومستقبلها : المحافظ منهم (ج.ج. طومسون) والليبرالى (آينشتين وبلاكيت)، المتدين منهم (أ . هـ . كومبتون) والمادى (برنال) ، الارستقراطى منهم (ده برولى وبراتراند راصل) والبروليتارى (فاراداى) ، الثرى منهم (ڤيكتور روتشيلد) والفقير النشأة (رذرفورد) . كلهم سيستجيبون نفس الاستجابة دون تفكير اذا عرضت عليهم مشاكل جنس البشر . هذا ماتعنيه الثقافة.

الادب والعلم والثقافة الثالثة

أما الأدباء ..

أما كبار الأدباء ، فماذا فعلوا ؟ «ألم يتملق دستويفسكي بوبيدونوستيف الذى كان يرى ان الخطأ الوحيد فى نظام الرق هو عدم وجود مايكفى من العبيد ؟ ألم ينته عزرا باوند بأن اصبح مذيعا فى خدمة الفاشيست ؟ ، وفوكنر ألم يتبرع بتقديم أسباب عاطفية تبرر معاملة السود كنوع مختلف ؟ .. لقد ترك هؤلاء الكتاب شعورهم بالطبيعة المأساوية لحياة الفرد تعميمهم عن رؤية مايحتاجه اخوتهم فى البشرية .. اتسم موقفهم بالانهزام ، بالانغماس فى الذات ، بالغرور - والثقافة العلمية تكاد تكون بريئة من مثل هذه الصفات» الروائى الكبير سنو قد اتخذ فى محاضرته هذا الموقف العدائى الصريح تجاه ثقافة الأدباء .

هاردي ... من يكون ؟

إذا ماجلس رجال الأدب إلى بعضهم ورأوا أن ليس بينهم غريب - يقول سنو أشاروا إلى أنفسهم على أنهم «المثقفون» وكأن ليس ثمة غيرهم ! يتذكر سنو ماقاله جودفرى هارولد هاردى فى الثلاثينيات: «هل لاحظت كيف تستخدم كلمة (مثقف) الآن؟ يبدو لى أن ثمة تعريفا جديدا للثقافة لايضم بالتأكيد رذرفورد ولا إدنجتون ولا ديراك ولا أدريان ، ولا أنا! تعريف غريب، أليس كذلك؟» . رجعت إلى معجم الأعلام بقاموس المورد لأبحث تحت اسم هاردى، فلم أجد إلا توماس هاردى (١٨٤٠ - ١٩٢٨) الروائى الشاعر ، ولم يرد اسم ج. هـ . هاردى (١٨٧٧ - ١٩٤٧) استاذ الرياضيات بجامعة كيمبريدج وأحد كبار العلماء الانجليز، وهو عالم يعرفه كل دارسى علم وراثة العشائر بقانونه الشهير (قانون هاردى ڤاينبرج) الذى اكتشفه فى نفس العام (١٩٠٨) مع ڤاينبرج الألمانى

بحر من سوء الفهم

المفكرون الأدباء فى ناحية، والعلماء فى أخرى ، وبينهما بحر من سوء الفهم يصل كثيرا إلى درجة العداء والكره - خصوصا بين الشباب. مواقفهم مختلفة تماما حتى أنهم لايجدون أى مساحة مشتركة للقاء حتى على مستوى العواطف. الأدباء لديهم انطباع راسخ بأن العلماء وقحاء متبجحون، متفائلون سطحيون، لايدركون وضع الانسان. يذكرون ردرفورد على من قال له يوما «يا أيها المحظوظ، أنت دائما تركب الموجة!» إذ ابتسم قائلا «والموجة من صنعى، أليس كذلك؟».

النظرة الثانية

عاد سنو فى محاضرة أخرى فى نفس الموضوع ألقاها عام ١٩٦٣ بنظرة ثانية قال فيها إنه كان بطيئا فى ملاحظة تطوير لما قد يكون «ثقافة ثالثة» لكنه رأى أنه قد يكون سابقا لأدائه أن نتحدث عن ثقافة ثالثة موجودة بالفعل هى آتية لارى، لكنها لم تفصح عن نفسها بعد. ستجسر هذه الثقافة الهوة بين العلماء وبين المفكرين الأدباء . فى هذه الثقافة سيتم الاتصال بين الفريقين. على الثقافة الأدبية - إذا كان لها أن تقوم بدورها المطلوب - أن تتصل بالثقافة العلمية.

● الثقافة الثالثة

لكن العلماء الآن لايتصلون بالمفكرين الادباء . إنهم يتصلون مباشرة بالجمهور. مفكرو الثقافة الثالثة . العلماء ، يتجهون إلى تجنب الوسيط ، ويحاولون أن يعبروا عن أعمق أفكارهم بأسلوب يسهل على القارىء الذكى أن يستوعبه. هكذا رأى جون بروكمان فى كتابه «الثقافة الثالثة» (١٩٩٥) . ثمة كتب علم جادة قد ظهرت مؤخرا بيع منها أكثر من مليون نسخة (مثلا: تاريخ موجز للزمان: لمؤلفه بروفسور ستيفن هوكنج، ١٩٨٨). قال مفكرو «الدقة» القديمة إن هذه الكتب تشترى ولا تقرأ . لكن الواضح أن الكثيرين يشعرون بجوع فكرى حقيقى للأفكار الجديدة المهمة، ويحاولون أن يبذلوا الجهد لتثقيف أنفسهم . بدأ الناس، عامة الناس، يعجبون بمفكرى الثقافة الثالثة، ليس فقط لقدرتهم على الكتابة المبسطة ، وإنما أيضا لأن ماكان تقليديا يسمى «العلم» قد أصبح اليوم «ثقافة عامة» . يقول ستيوارت براند «الأخبار الحقة اليوم هى العلم. تصفح جريدة أو مجلة، الأخبار الاجتماعية هى هى كما كانت: قيل وقال، السياسة والاقتصاد هما نفس الدراما القديمة الحزينة، الأزياء نفس الوهم بالطزاجة، بل ويمكنك أن تتنبأ بالتكنولوجيا إذا عرفت العلم. الطبيعة البشرية لا تتغير كثيرا. لكن العلم يتغير. والتغير يتراكم. ويحول العالم تحولا لارجعة فيه». من بين أهم موضوعات العلم التى تأخذ مكان الصدارة الآن فى الجرائد والمجلات – كما يقول بروكمان: البيولوجيا الجزيئية، الذكاء الاصطناعى، نظرية الفوضى، الشبكات العصبية، كوننا الذى يتسع، الأوتار الفائقة، ، التنوع الحيوى ، النانوتكنولوجيا ، الجينوم البشرى ، النظم الخبيرة ، نظرية جايا ، الواقع الافتراضى ، وليس ثمة فى الثقافة الثالثة قائمة معتمدة بالافكار المقبولة . ان قوة الثقافة الثالثة تكمن بالتحديد فى انها تقبل اختلاف وجهات النظر حتى بالنسبة للافكار التى يصح ان تعتبر جادة .

دور المفكرين فى هذه الثقافة يتضمن عملية الاتصال . المفكرون هنا ليسوا مجرد اناس يعرفون ، انما هم ايضا ينقلون افكارهم الى الجمهور ويشكلون افكار جيلهم هم بأعمالهم وكتاباتهم يحلون الآن محل المفكر التقليدى فى اضاءة المعنى الاعمق لحياتنا ، وفى اعادة تعريف : من نحن ومن نكون. هم يقدمون صورا جديدة لكياننا ولعقولنا ولكوننا وكل وما نعرف فيه اننا نشهد اليوم ، كما يؤكد بروكمان ، تحرك الاضواء من جماعة مفكرى الأدب التقليديين الى جماعة جديدة ، مفكرى الثقافة الثالثة الجديدة ، وعن هذه الثقافة ستظهر فلسفة جديدة .

العلماء يقولون ان المفكرين التقليديين رجعيون بمعنى ما ، هم فى الاغلب يجهلون الكثير من انجازات عصرنا الذهنية الجوهرية . ثقافتهم غير تجريبية ترفض العلم . تستعمل رطانتها وتغسل غسيلها . أوضح مايميزها تعليقات على

الادب والعلم والثقافة الثالثة

تعليقات على تعليقات ، لولب من التعليقات يتضخم ويتضخم حتى أن يصل فى نهاية الأمر الى وضع يضيع فيه العالم الواقعى. ولا الى مثل هؤلاء يجب ان نسلم زمام قيادتنا .

ازدادت اذن حدة المواجهة بين «الثقافتين» - الادبية والعلمية - بظهور الثقافة الثالثة ، التى ستؤثر فى حياة كل فرد على ظهر الارض - الثقافة التى يمثلها الان علماء لديهم القدرة على نقل افكارهم الجديدة باسلوب بسيط يستوعبه كل قارىء ذكى ربما . من المفيد ان ننقل هنا مختصرا لآراء بعض كبار مفكرى هذه الثقافة الجديدة كما جاءت فى كتاب «الثقافة الثالثة» فالقضية لاشك تهمنا نحن ايضا .

● رأي ستيفن ج جولد
(من علماء التطور)

الثقافة الثالثة فكرة فى غاية الخصوبية يظن المثقفون الأدباء ان الساحة ساحتهم وحدهم ، فى حين ان الواقع يقول ان هناك جماعة من الكتاب مادتهم العلم ، فى رءوسهم كوكبة هائلة من الأفكار الساحرة التى يود الناس ان يقرأوا عنها ، للبعض منهم اسلوب مهذب يستطيعون به التعبير عن انفسهم بصورة طيبة جدا .

قال بيتر مدور - حامل جائزة نوبل وأحد كبار العلماء ذوى النزعة الانسانية - انه من الظلم ان يعتبر أهل الآداب العالم الذى لايعرف الكثير عن الفن والموسيقى شخصا غبيا متخلفا فى حين انهم لايرون ضرورة ان يعرفوا هم شيئا عن العلم حتى يعتبروا متعلمين كل مايلزم ان يعرفه الشخص المتعلم عندهم هو الفن والموسيقى والادب و لا علم !

هذا أمر غير سليم . لا ولاهو يعكس الواقع . صحيح اننا لن نجد نسبة عالية من الأمريكيين يفهمون العلم جيدا ، لكن الاهتمام بالعلم قوى جدا بين من يشترون الكتب - على الرغم من نسبتهم المحدودة

● راى موراى جيل مان
(من علماء الفيزياء النظرية)

درج العلماء على وضع كتب تخاطب الجماهير المهتمة بالعلوم . ثم جاء حين من الدهر كاد فيه هذا النشاط ان يموت - فى امريكا على الأقل . انه لاتجاه صحى جدا مانشهده الآن . لقد بدأ العلماء الجادون مرة أخرى فى الكتابة عن أعمالهم ، ووجهوا خطابهم الى الجمهور ، احيانا من خلال وسيط صحافى . لقد كان هناك دائما بين كبار العلماء - وسيكون هناك دائما - من يستطيع الاتصال بنجاح بالغ بالجمهور دون وسيط .

هناك بكل اسف من أهل الآداب والانسانيات - ربما ايضا من رجال العلوم الاجتماعية - من يفخر بأنه لايعرف الا القليل عن العلوم والتكنولوجيا والرياضيات . لكن الظاهرة العكسية نادرة جدا . صحيح أنك قد تجد بين الفينة والفينة عالما يجهل شكسبير ، لكنك ابدا لن تجد عالما يفخر بأنه يجهل شكسبير.

● رأي دانييل دينيت
(من الفلاسفة)

ان مايميز النجاحات الأخيرة لكتب العلم يرجع الى طبيعة التداخل بين العلوم فى الكثير من المحاولات العلمية الحديثة . يكتب الاساتذة الآن ليخاطبوا غيرهم فى الفروع الاخرى من العلم ، وبذا تكون لغتهم سهلة يتجنبون فيها رطانة تخصصهم . ان اسوأ مايمكن للمتخصص ان يفعله هو ان يستخف بمن يخاطبهم انه بذلك يهيبنهم. هناك فرق بين ان يكون فهم القارىء لك صعبا وبين ان يكون فهمه لك متعذرا .

● رأي رينتشارد دوكينز
(من علماء التطور)

استولى رجال الأدب على أجهزة الاعلام الفكرية ، هكذا أرى . - وأرجو ألا يكون شىء من جنون الاضطهاد قد اصابنى ! لا اقصد فقط كلمة «الفكرية» لقد قرأت مؤخرا مقالة كتبها ناقد ادبى عنوانها «النظرية : ماهى ؟» اتصدقون ؟ لقد اتضح ان «النظرية» هى «نظرية فى النقد الادبى» لم تكن المقالة فى مجلة من المجلات المتخصصة فى النقد الادبى ، انما فى مجلة عامة . لقد اختطفوا كلمة «نظرية» لتستخدم فى غرض ادبى محدود ضيق للغاية - كما لو لم يكن هناك لآينشتين نظريات ، كما لم يكن لداروين نظريات !

اننى احيى فكرة ان ينقل العلماء ، والمدرسيون بعامة افكارهم الاصيلة فى كتب يقرؤها الناس فى التخصصات الاخرى . لقد وضعت كتبى بلغة يمكن للقارىء الذكى ان يستوعبها وأود لو رأيت الكثيرين يفعلون نفس الشيء.

قال لى بيتر مدور ان هناك فروعا من العلم صعبة فعلا ، فروعا تحتاج الى عمل شاق حقا اذا اردت ان تعرضها على الجمهور بلغة سهلة ، وهناك ايضا فروع اخرى هى فى الاصل سهلة جدا ، فاذا اردت ان «تؤثر» فى الناس لجأت الى لغة اصعب مما يلزم ! وهناك مجالات «يغير» فيها الكتاب من الفيزيقا فيرغبون فى ان يعامل موضوعهم كما لو كان صعبا جدا ، حتى لو لم يكن كذلك ! والفيزياء صعبة حقا . ثمة صناعة كبيرة تعتمد على تبسيط افكارها العويصة حتى يفهمها الجمهور ، لكن هناك صناعة أخرى تأخذ الموضوعات السهلة وتكتبها بحيث تبدو صعبة - تغلف فى لغة مبهمة لا لغرض الا الابهام حتى تظهر معقدة عميقة !

● رأي ستيف جونز
(من علماء الوراثة)

ان افضل طريقة لتقييم «الثقافة الثالثة» هى ان نسأل «هل كانت هناك يوما اكثر من ثقافة» ؟ هذا سؤال محورى . هل التعلم يقبل القسمة ؟ أم انه كل واحد ؟ من عام ١٥٥٠ وحتى عام ١٩٥٠ كانت الاجابة واضحة :

الثقافة هى الثقافة - على الرغم من أن أحدا بعد ميلتون ، لم يعد يستطيع ان يعرف كل شيء . ثم جاء سنو ليقترح تقسيما ، ربما كان غير حقيقى . اننى

الادب والعلم والثقافة الثالثة

غير مقتنع بأنه قد اسقط اربعمائه عام من الحضارة ، وان كان – ربما – قد حطم غرور قلة ممن كانوا يحيطون به من الادباء المتغطرسين متوسطى القيمة .

السؤال الآن ، مثلما كان ايام سنو ، هو عما اذا كانت هناك ثقافة يمكن لأى متعلم ان يتعلق بها . والاجابة انه اذا لم توجد ثمة ثقافة فمن الواجب حقا ان نوجدها . اذا لم يكن فى استطاعتك ان تتحدث بصورة عامة عن القضايا العلمية وغير العلمية ، فأنت غير متحضر.

● رأي بول ديفيز (ديفيز من علماء الفيزياء النظرية)

ها قد بدأ صوت العلماء يصل الى الناس يأسر عقولهم ، كما يأسر قلوبهم – هكذا تقول النجاحات الهائلة للكتب العلمية. هب رجال الآداب يدافعون فى حماس بالغ عن مملكتهم . اتخذ رد الفعل صورة ثرثرة هستيرية بالجرائد والدوريات، وفيض من الكتب يتهم العلماء بأنهم متعجرفون دجالون يبحثون عن مصالحهم الشخصية.

لم يحاول الا قلة قليلة من المفكرين الادباء بانجلترا ان يفهموا العلم ، الواضح انهم قد وجدوا انفسهم غير قادرين على فهم القضايا التى عرضت فى بعض الكتب العلمية الحديثة ، مثل كتاب ستيفن هوكنج (تاريخ موجز للزمان) يبدو ان جزءا من رد الفعل الهستيرى هذا يرجع الى شعور بالعجز أمام جهلهم يقول الواحد منهم «انا متعلم ، لكنى لم أفهم شيئا من هذا . هذا اذن هراء» لقد أهمل العلماء سنينا وسنينا لأن أحدا لم يكن يستمع اليهم ، ولقد بدأ الناس يستمعون اليهم . فبدأت المافيا الادبية تحاول ان تقمعهم !

● رأي نيكولاس همفري (من علماء السيكولوجيا)

ثمة ذعر يجتاح اهل الفكر الانجليز لان الثقافة قد تجاوزتهم . لقد تعلموا فى المدارس لقد درسوا كلاسيكياتهم لقد درسوا الادب الانجليزى لقد رأوا فى العلماء شيئا كرجال الاساطير كل ما كان يجرى بمعامل الكيمياء والبيولوجيا لم يكن يحظى عندهم الا بالازدراء هم يتعاملون مع افلاطون وارسطو ويوليوس قيص . تعود هؤلاء ان تكون لهم السيادة فى ثقافتنا وفجأة اصابهم الفزع . هم لايفهمون العلم ، ومن ثم كان دفاعهم هو القول ان الأمر لايهم لكنهم يحاربون معركة خاسرة من يسمع ماذا فى ايامنا هذه ؟ اية برامج يشاهدها الناس على شاشة التيلفزيون ؟ اية كتب يشتريها الناس اليوم ؟

● رأي روجر شانك (من علماء الكمبيوتر)

انا عضو بمجلس تحرير الموسوعة البريطانية . كنا نناقش منذ سنة او سنتين قضية من سيشرف على الموسوعة فى المستقبل . قرر المجلس ،. وكلهم من أهل الادب ، ان يسمح بدخول رجال الكمبيوتر – فالعلم يكمتر الآن ثم قال كليفتون فاديمان ان علينا ان نوطد

انفسنا على ان العقول التى ستتولى زمام الموسوعة فى المستقبل ستكون اقل من عقولنا علماء صحت قائلا «كيف قررت اننى اقل منك تعلما؟» رد بسرعة ليخرج من المأزق : «أوه ، أنا لا أعنيك انت !! اننى اعرف انك عالم كمبيوتر استثنائى فذ «وانا لست عالما استثنائيا فذا ،، ان الغريب فى رجال الآداب هؤلاء هو مايرونه من أنك اذا لم تعرف الكلاسيكيات فانت غير متعلم بينما يرون فى نفس الوقت ان الامر طبيعى اذا لم يعرفوا هم شيئا عن العلوم انا لا أعرف السبب فى ان يكون هذا الامر طبيعيا !

لقد دفع بنا نحن العلماء خارج حلقة المفكرين لاسباب لاتهم ربما كان هذا السبب فى ان يلجأ العلماء الى كتابة الكتب للجمهور : هم أكثر الناس بالمجتمع جدارة بالاهتمام وهم لايعتبرون من المفكرين !

لكن ربما كان رجال الأدب الآن مثلهم ايضا . انا لست متأكدا من ان هذا البلد يعشق المفكرين كثيرا !

● نحن والثقافة الثالثة

لم تقم بعد لدينا (يالالأسف !) معركة كهذه بين الثقافتين ! يبدو ان جبهة الثقافة العلمية تفتقر الى القوة الكافية مازال المفكرون الادباء يسيطرون على ادوات الاعلام ، ومازالوا هم وحدهم تقريبا من يوجه . قيل يوما ان محور معرض الكتاب هذا العام (١٩٩٦) سيكون العلم ، ثم خفتت الفكرة رويدا رويدا ، حتى ماتت وأهيل عليها التراب وتولت الثقافة (الاولى ؟) ترتيب كل شىء لم تظهر لدينا بعد ثقافة ثالثة واضحة عدد الكتب المؤلفة فى هذا المجال محدود جدا ، وعدد الكتب المترجمة ايضا لايظهر العلم الا على استحياء بأجهزة الاعلام من صحافة واذاعة مسموعة ومرئية انتبهت هيئة الكتاب فاصدرت سلسلة «الألف كتاب الثانية» ونشرت بعض كتب الثقافة الثالثة – ومثلها فعلت ايضا بعض دور النشر الخاصة ، ان يكن باسهام متواضع . فطنت ايضا بعض المجلات الجادة الى أهمية تطعيم مادتها بما يتيسر من مقالات علمية (واذا ماجاءتها وضعتها فى خجل فى مكان لايزعج القارىء) وعندما قرر رئيس تحرير مجلتنا الغراء هذه (الهلال) ان يتضمن كل عدد مقالة على الاقل فى العلوم ، لم يسعفه الا عدد قليل من رجال العلم المستقبل يطلب ان يأخذ العلم موقعه اللائق بين مايقرؤه الناس ويسمعونه ويشاهدونه ، ان يدرب الناس على الاهتمام بالعلم وقضاياه هذا امر ضرورى لبقائنا فى عالم الغد.

ولان الثقافة الثالثة موجهة الى غير المتخصصين ، الى العقل العام ، فمن الممكن ان تطرح كل القضايا العلمية التى تناقش فى الغرب– حيث يصنع العلم الآن لقد اصبح العالم قرية صغيرة ، الامر يتطلب حركة ترجمة نشطة لكتب هذه الثقافة الثالثة بالتحديد . ولقد تفسح وسائل الاعلام مساحة واسعة لعرض مثل هذه الكتب . ولنقد الترجمة ، ولنقد الافكار



بقلم : د. مصطفى سويف

المشكلات مراتب. تتفاوت فيما بينها من حيث درجات التركيب، ومن حيث الاستعصاء على الحل. وقد وصلنا الآن إلى أعلى درجات الاستعصاء كما تبديه معظم مشكلاتنا الاجتماعية إذ أصبحت بمثابة تحديات مبتكرة وذلك لكثرة ما انطوت عليه من تغيرات فى هذا المجال أو ذاك من مجالات حياتنا الاجتماعية ، ومن طول ما غفلنا عن إدراك هذه التغيرات والتعامل معها على حقيقتها. وكان المتوقع والحال كذلك ان نتناولها بما يكافئها من حلول مبتكرة، ولكننا بدلا من ذلك مضينا نتعامل مع عناصرها أو مقوماتها من زوايا النظر التى اعتدناها ، وبالاساليب التقليدية التى ألفناها الى درجة التنميط، وهو ما يفسر عجزنا عن حلها أو احتوائها ، وما يعنى فى الوقت نفسه أن محاولاتنا بمنهجها الراهن محكوم عليها بالفشل فى المستقبل.

ويعنى كذلك أن احتمالات التوفيق فى الحل رهن بانتهاج نهج مبتكر فى النظر الى هذه المشكلات يستدعى استنهاض مهارات عقلية وعملية جديدة للاعتماد عليها. ويصبح السؤال المطروح الآن هو : ولِمَ لا؟ ولِمَ لَمْ نفعل ذلك حتى الآن؟ ما الذى حال ويحول دون سلوكنا هذا المسلك؟ إذ لاريب أننا جميعا نريد أن يصبح الحال غير الحال. وفى سبيل التعبير عن مطلبنا هذا فنحن جميعا نتبرع بفيوض (ولا أقول بفيض واحد) من الشكاوى والانتقادات والاقتراحات . ومع ذلك فما كل ما نتمناه (بل ولا بعض ما نتمناه) ندركه.

لا يمكن ولا يجوز علميا أن نستنتج من استقراء حالنا هذه أننا عاطلون أصلا من القدرات العقلية الأساسية اللازمة للتفكير الابتكارى. ذلك أنه من المسلمات التى تقوم عليها معظم بحوث الابداع كما يقوم بها علماء النفس المعاصرون أن قدرات الابداع موجودة عندنا جميعا بدرجات وبأنماط (أى تنظيمات) متفاوتة. وكشأن كل المسلَّمات العلمية فنحن نتعامل مع هذه المسلَّمة على أنها صادقة مالم تتعارض معها أية نتيجة رئيسية من نتائج البحوث المعملية أو الميدانية فى هذا المجال، وهذا لم يحدث فعلا حتى الآن ومعنى ذلك عند جميع علماء النفس فى العالم كله أن هذه المسلمة صادقة، ومعناه كذلك فى رأينا أن صدقها يجب تعميمه على شعبنا المصرى كما هو الحال بالنسبة لشعوب الأرض قاطبة. ولابد إذن من النظر فى مجموع الظروف التى تحيط بحياتنا الاجتماعية وتتخللها لكى نلقى الضوء على وقوفنا عاجزين عن الاتيان بحلول ابداعية، لان قدرات التفكير الابداعى يسرى عليها ما يسرى على استعداداتنا الفطرية جميعا من أنها لا تفصح عن نفسها إلا إذا توافرت من حولها شروط بعينها، وبقدر ما يصيب هذه الشروط من اضطراب أو ضمور تصاب القدرات فى إفصاحها عن نفسها بالاضطراب والضمور. فماذا فى ظروف حياتنا يعاكس أو يعوق خروج هذه القدرات عن حالة الكمون ؟ .

● معوقات الإبداع

يحسن بنا ان نبدأ بالتمييز بين نوعين من معوقات الابداع: الأول اجتماعى المنشأ، والثانى نفسى المنشأ. أى يصدر عن الظروف الخاصة بالفرد بدءا من رصيده الوراثى والمتغيرات الكيميائية العصبية الداخلة فى تكوينه وانتهاء بأحوال تربيته الخاصة وتاريخه الشخصى، ولا يجوز انكار التأثيرات المتبادلة التى لا تكف عن السريان بين النوعين، الا ان هذه التفاعلات لا تصل الى حد السماح بتجاهل التفرقة بينهما.. وفى مقامنا الراهن يعنينا النوع الاول، ولذلك سوف ينصرف حديثنا الى تفصيل النظر فى أمره ، اما النوع الثانى فله سياق آخر اولى به.

فأما عن العوائق الاجتماعية لانطلاق التفكير الابداعى لدينا فهى كثيرة ومتنوعة ومتداخلة . وهى فى حدود رؤيتنا تنتظم فى أربعة أصناف على النحو التالى : الصنف الاول مرتبط بما يشبه ان يكون خصائص للسياق الاجتماعى نفسه هذا السياق الذى تنتظم من خلاله حياتنا الاجتماعية . وليس هناك ما يدعو الى اعتبارها خصائص ثابتة كأنما هى كيانات ميتافيزيقية، لأنها فى حقيقتها خصائص اكتسبها السياق من خلال ظروف تاريخية معينة، ومن المتصور عقلا ان تكون قابلة للتغيير إذا ما توفرت من حولها ظروف

تعطيل الابداع

اجتماعية تاريخية أخرى. أما الصنف الثانى فيضم معوقات ناجمة عن الاسلوب الذى تنتهجه القيادات الاجتماعية فى أدائها أدوارها القيادية فى المجتمع . ويرتبط الصنف الثالث بأسلوب الجماعة فى التعايش بين شرائحها وتنظيماتها الاجتماعية المختلفة . ونأتى اخيرا الى الصنف الرابع من المعوقات وهى تقوم على خاصية جرى ترسيخها فى الأفراد بفعل عملية التنميط التى يجريها المجتمع علينا جميعا لتخليق ما يسمى اصطلاحا بالشخصية «المنوالية» أو النموذج الشائع للمواطن المصرى. هذه هى الأصناف الأربعة الرئيسية لعوائقنا اجتماعية المنشأ. ثم إن هذه الأصناف الأربعة تضم فيما بينها احد عشر عنصرا كلها ذات خطر فى تأثيرها كأغلال مكبلة لنا فى حسن استثمار قدراتنا على الابتكار والابداع. ورغم اقتناعى بأن هذا الأصناف المتخمة على هذه النحو بالأغلال تستحق ان أفرد لها مجلدا إن لم يكن مجلدات عدة مزودة بأنواع منوعة من بيانات التفصيل والتوثيق، فسوف أحاول ما وسعتنى قدرات التعبير الموجز والمكثف ان احشرها حشرا الى حديثين أو ثلاثة على أقصى تقدير، وحسبى من هذا الايجاز تبليغ الرسالة الى من يعنيهم الأمر، وهم نحن جميعا، كل قادر على إصلاح ما أفسده الدهر فى مجتمعنا .. وفى هذا السبيل سأكرس البقية الباقية من صفحات هذا المقال للتحدث عن الصنف الأول الذى يرتبط بما اسميناه الخصائص التاريخية لسياقنا الاجتماعى، ويضم هذا الصنف بداخله عنصرين هما : جمود السياقات الفرعية التى تدخل فى بناء السياق الاجتماعى الكبير، والعنصر او العامل الثانى هو ما نسميه الثقل غير الصحى لرموز الماضى.

● جمود السياقات الفرعية :

المعنى الأساسى لمفهوم الجمود كما نستخدمه فى هذا الموضع هو الاستعصاء على التعديل او التطويع الذى تتطلبه احيانا بعض مطالب الحياة وهى لاتفتأ تواجهنا بالجديد. ويستخدم علماء النفس هذا المصطلح بهذا المعنى فى بحوث الشخصية . ولهم فى هذا المضمار مقاييسهم التى يقيسون بها درجات جمود الشخصية طلبا للمزيد من الدقة فى بحوثهم. ويمكن الامتداد بالمصطلح من وصف الشخصية الى وصف السياقات الاجتماعية التى تحاول الشخصية ان تتوافق من خلالها مع مطالب الحياة. والسياقات الاجتماعية التى نعيش فى كنفها لا حصر لعددها ولا لتنوعها، فالأسرة ومحيط العمل والجيران والأصدقاء .. إلخ سياقات اجتماعية، وكذلك منظومات القيم والتقاليد والأعراف

والقـوانين التى تحكم الحـيـاة فى هـذه التجمعات أو فى بعضها هـى نفسها جزء من هذه السياقات. فهى الوجه المعنوى لها بينمـا أفـراد البـشـر أنفـسـهم وأدوات معيشتهم هم وجهها المادى. ومعنى ذلك إذن ان كثيرا من السياقات الاجتماعية، بهذا المعنى المركب تقف امامنا فى كثير من الاحايين جامدة مستعصية على ما نبذل من محاولات للتعديل فيها. صحيح أن بعض هذه المحاولات تكون ضربا من العبث، ومن ثم فإن قدرة السياقات على الصـمود فى مقـاومـتـهـا تعـتـبـر من الخـصـائص التى تضـمن الاسـتـقـرار الصحى للحياة الاجتماعية، ولكن لا يجوز ان ننسى ونحن فى غـمـرة الدفـاع عن الاستقرار ان هذا الاستقرار نفسه وسط بين رذيلتين أو عيبين تتعرض لهما معظم السـيـاقـات الاجـتـمـاعـيـة عندنا وفى المجتمعات على حد سواء، الجمود من ناحية والميوعة أو السيولة من ناحية أخرى، والمؤسف ان ما يجرى لدينا يرجح كفة الجمود فى هذه السياقات بصورة لاتدع سبيلا الى الشك فى كونها اصبحت غـلا شـديد الوطأة على حـاضـر الفكر الابداعى ومستقبله ، ومن ثم فقد أضحت شديدة التهديد لا للفكر وحده*ولكن للبقاء نفسه، بقاء المصريين كمجتمع له تفرده. من خلال أسلوبه الخاص فى التوافق مع عالم يفرض التغير.

فى هذا الصدد نشرت مجلة «فصول» وهى إحدى المفاخر الثقافية لمصر الحديثه عددا خاصا فى خريف عام ١٩٩٢ كرسته لنشر شـهـادات عـدد من كـبـار المفكرين والكتاب حول خبراتهم الشخصية ازاء محاولاتهم ممارسة حرية التفكير والتعبير الابداعـيـين ولعل اهم مـا ورد فى هذه الشهادات من عناصر ذات دلالات لايمكن التقليل من شأنها بالنسبة لحديثنا الراهن النقاط الأربع التالية:

١ - مـواجـهـة من يحـاول الابداع بمجموعة غير محددة من التقاليد التعبيرية التى تقف بالمرصـاد لمحـاولاته فى هذا المجال او ذاك. فاذا لم يتقيد بها فهو ليس بكاتب ولا شـاعـر ولا مـثـقف، وقد يصل الامر بمعارضيه الى التشكيك فى ولاءاته الوطنية والقومية والدينية. وتعبر شهادة الشاعر محمد ابراهيم ابو سنة عن معاناة بالغة القسوة من سياقات اجتماعية جسدت هذه المواجهة.

٢ - ويشير الاستاذ حلمى سـالم إلى مـا يسـمـيـه «القـمـع المسـتـتـر الذى لا نلتـفت اليه فى غمرة مـقـاومـتنا لقمـع السلـطات المعلـن : .... قمع النقاد الذين يريدون من الشـاعـر ان يكـتـب كـمـا يتصـورون هـم الكتابة».

٣ - ويشير الكاتب نفسه فى موضع آخر من شـهـادته الى .. «نوع جديد من القمع هو قمع الذائقة السائدة. التى تريد ان تجبرك على ان تقدم لها ما اعتادت على تذوقه، ومـا يتسق مع تقـاليدها فى

تعطيل الابداع

القهم والاساغة ... » .

٤ ـ ويشير الاستاذ سليمان فياض فى شهادته الى درجة من الشيوع لمكونات القمع تكاد تسد منافذ الحياة أمام الابداع سدا تاما. اذ يقول: «كل المطبوعات خاضعة للرقابات: رقابات الدين.. والاستعلامات .. بل ورقابات النقابات المحتجة ابدا على أية مواجهة فى الاعلام خاصة لأى نقد او طرح يمس حرمات الطوائف وأصحاب المهن.. بل ورقابات البيوت المصرية ذاتها على أى نقد او طرح لمشاكل الحياة الزوجية.. بل ورقابات المثقفين انفسهم على المثقفين ... » .

هذه عينة محدودة لأربعة مظاهر لخاصية الجمود التى تتصف بها السياقات الاجتماعية كما يعانى منها بعض كتابنا ومفكرينا .. ومع ذلك فهذا الذى اوردنا وما يزيد عليه أضعافا مضاعفة مما يمكن الرجوع اليه فى عدد «فصول» المشار اليه لايعدو ان يكون مشهدا محدودا لما يدور فى مجال واحد من مجالات اجتهادات الفكر المبدع وهم مجال كتابات المفكرين والأدباء. فى حين ان مجالات الحياة الاجتماعية التى تقتضى من الأفراد ان يبذلوا الجهود الابداعية او الابتكارية متعددة ومتنوعة بأشكال لا تقع تحت حصر . بدءا من مجالات اللعب المتاحة للأطفال. الى مجالات تربية النشء فى سائر المراحل العمرية، الى مجالات حياتنا العملية بمختلف اشكالها ومستوياتها الى مجالات البحث العلمى التى نطالب فيها زملاءنا من العلماء الشبان بالبحوث المبتكرة.. الخ. والحال فيها جميعا من حيث جمود السياقات لا تختلف في جوهرها وان اختلفت في طبيعة مكوناتها عن الحال فى مجال كتابات المفكرين والأدباء ، كل ما فى الامر ان طبيعة عمل المفكرين والأدباء تتيح لهم مهارات التعبير المكتوب عن دقائق معاناتهم، وهو ماحدا بنا الى الاستشهاد بشكاواهم، فى حين ان الغالبية من نظرائهم فى مجالات النشاط الأخرى يعانون مثلهم من جمود السياقات الاجتماعية التى تعنيهم دون ان يتقنوا مهارة الأنين المكتوب ، ومن ثم فهم يعانون ويتساقط معظمهم على الطريق فى صمت. ولكن حساب الخسائر كما يتحمله بلدنا فى نهاية المطاف لا علاقة له بالتعبير البليغ او بصمت القبور: الخسائر هى هى. انتقاص خطير من طاقة الابداع فى مجموع المواطنين.

● ثقل الماضي

يعتبر استلهام ذخائر الماضى والتلمذة على ما توحى به من دروس احد المصادر المهمة لاكتساب السياقات الاجتماعية مزيدا من الكفاءة فى أداء مهامها ، وفى مقدمة هذه المهام اشاعة مناخ الاستمرار

والاتصال بين عهد مضى وعهد آت . مع مزيد من التحصين ضد الوقوع فى اخطاء الماضى. ومن بين الذخائر التى يسعى الناس الى توظيفها على هذا النحو ذكريات الاحداث التى لها دلالات خاصة فى تاريخ الجماعة، وكذلك اعمال بعض الأسلاف وسيرهم الذاتية، ووصاياهم . هذه حقائق عامة تصدق علينا كمجتمع مصرى كما تصدق على سائر المجتمعات البشرية، وهى بذلك تمثل خطا أساسيا من انماط الحياة الانسانية . غير ان اسناد هذا الدور الى الذخائر معرّض هو الاخر للوقوع فى احدى سوأتين . الافراط أو التفريط، الافراط فى شد الحياة الى الماضى وكأن مكنوناته كافية لان نعيش عليها جملة وتفصيلا فى حاضرنا وفى مستقبلنا القريب والبعيد جميعا ..او التفريط الذى يهدر كل نفيس فى هذا الماضى ولا يرى فيه الا ما يهدد الحاضر. اما السبيل الى الوقاية من مغبة التورط فى أى من هاتين السوأتين فلا يكون الا باتباع نهج الحد الامثل. وهو ما يعنى الاعتراف بأهمية الماضى فى ترشيد الحاضر مع اليقظة الدائمة للحيلولة دون ان تصبح نفائس التاريخ اغلالاً تكبل الحاضر لان ظروف الحياة فى الحاضر لا يمكن ان تكون مماثلة الى حد التطابق مع ظروف الحياة فى الماضى، ومن ثم يكون خطأ جسيما أن نحاول القياس تفصيلا على نماذج نستمدها من الماضى فى محاولاتنا ايجاد حلول ناجعة لمشكلاتنا فى الحاضر. هذه قاعدة هامة تصدق بالنسبة لجميع مجالات الحياة التى نتوسم امكان الافادة من دروس ماضيها فى رشيد خطانا اذ نرتادها. سواء أكانت هذه المجالات تخص الفكر او الادب او التربية او السياسة ... إلخ .. ولا اجد فى هذا المقام ابلغ من نصيحة ابن خلدون التى يوجهها الى ناشئة الشعراء من كان منهم يسعى إلي التفوق والنبوغ فعليه ان يحفظ الكثير من اشعار الفحول السابقين . ثم عليه ان ينساها . بعبارة اخرى اقرب الى عباراتنا العصرية انما يكون التوظيف الامثل للتراث باستخلاص توجهاته العامة. واستيعابها لكى نعمل بهذه التوجهات العامة (لا التفصيلات) على ترشيد الحاضر .. وثمة نصوص بهذا المعنى لا آخر لها فى التراث المنشور عن كافة مجالات الحياة.

أما ما يحدث لدينا فشىء آخر، أبعد ما يكون عن هذا التوظيف الامثل، وأقرب ما يكون الى التورط والتوريط فى سوأة الافراط فى شد الحياة الى الماضى، وان كان هذا لا يمنع ان يكون التردى فى ورطة السوأة الاخرى واردا ايضا، لكن ورود السوأة الاخرى محدود نسبيا. ومن هنا ينصب القدر الاكبر من اهتمامنا فى المقام الراهن على أضرار السوأة الاولى. والامثلة على شيوع هذه السوأة بحيث صارت جزءا لا يتجزأ من مناخ حياتنا

تعطيل الابداع

الاجتماعية لا حصر لها، فالتغنى بفضائل الماضى يمثل مقطعا لا يفتأ يتردد فى أحاديثنا غير الرسمية والرسمية على حد سواء. ويأتى ذلك غالبا فى سياق التعبير عن عدم الرضا عن بعض جوانب الحاضر، فأما ان كثيرا من جوانب حاضرنا غير مرضية فهذا صحيح. وطبيعى ان يستتبع ذلك قدرا من الرفض لهذه الجوانب، ولكن ان يكون هذا الرفض دائما مصحوبا بالبكاء على اطلال الماضى فهذا هو ما نعترض عليه. لأسباب عدة: اولها ان البكاء على الماضى لا يعيد مواتا. وثانيها انه ينطوى على خطأين احدهما الايحاء بان الماضى كان صوابا وخيرا كله، والآخر الايهام بأن الحاضر خطأ وشر كله، وكلا الادعاءين غير صحيح. وثالث الأسباب هو صرف اذهان المستمعين عن التوجه السليم بالتركيز على مشكلات الحاضر والتفكير الجاد فى كيفية صياغة الحلول المناسبة لها. ورابع الأسباب سبب ذو طبيعة تربوية، ذلك ان هذا التحسر يحمل فى طياته شبهة تشجيع الناشئة من حولنا على نوع من الكسل بل التبلد الذهنى لان مضمون رسالتنا اليهم من خلال هذه الحسرات يكون على الوجه الاتى: اذا ما واجهتكم مشكلة فما عليكم إلا التفتيش فى سجلات الماضى.وستجدون فيها الحل المنشود، وليس فى الامكان ابدع مما كان.

على ان التحسر على الماضى لا ينفرد فى الساحة بالدفع الى المغالاة فى ترجيح ثقل هذا الماضى، بل هناك عوامل آخرى شاعت فى حياتنا ولا يجوز اغفالها. هناك عامل يقوم على مساحة تمتد بين النفاق من ناحية والانتهازية بمعانيها المتعددة من ناحية أخرى. وهو يكشف عن نفسه من خلال مظاهر متعددة تعتمد فى حقيقة امرها على جذر واحد هو التماس المنفعة العملية من اسلوب ترجيح ثقل الماضى واضافة مزيد من الدعم لهذا الثقل، من هذه المظاهر ما نشهده هذه الايام من مسارعة لافتة للنظر الى تدبيج مقالات النعي والرثاء.. الخ حول مآثر فقيد فقدناه حديثا.. وفى معظم هذه الحالات يكون الفقيد انسانا فاضلا يستحق التكريم فعلا. ولكن ألم يكن هذا الانسان جديرا بمزيد من التكريم اثناء حياته، ومن المؤكد ان ذلك لو كان قد حدث لترتبت عليه خيرات تفوق كثيرا قيمة المراثى التى قلما تنطوى على دراسة جادة توثيقية عن أفضال الفقيد. والحصيلة النهائية لهذه المراثى فى واقع الامر اعلان ان هذا المتوفى اضاف لبنة جديدة الى الماضى الذى نحرص على المغالاة فى تقييمه وفي زيادة دعمه، هذا الى ان الامر

لا يخلو من اثارة بعض الشبهات حول طلب شيء من قبيل المنفعة الانانية من الاعلان عن الحزن والنحيب على هذا النحو الذى يعنيه ان يتم على مسمع من الاخرين.

ثم هناك مظهر آخر للتوجه نفسه. وقد يرى البعض اعتباره عاملا ثالثا، على اية حال هذا هو عامل الانتهازية السياسية، فعندما تقرر ان تدخل البلاد مرحلة التعددية الجزبية سارع البعض الى الاعلان عن تأليف احزاب يتزعمونها. ومع ان التجربة كلها تبدو مزيجا فريدا يجمع بصورة غير مسبوقة بين عناصر المأساة والملهاة ، مع ذلك فاللافت للنظر ان تتجه اكثر من جماعة تأليف حزب يحاول ان يقتفى اثرا بعينه من آثار الماضى الذى يعود الى ما قبل سنة ١٩٥٢ . وكأن دنيانا توقفت هناك عن الحركة ، ثم اذا بها تتحرك الآن من حيث توقفت. والاكثر امعانا فى اللامعقولية ان هذه المحاولة وجدت اقدارا من الاستجابة الايجابية بين المواطنين لا يمكن الاستهانة بها. هاهنا مثال يختلط فيه الاعتماد على الميل العام الى ما يشبه ان يكون تقديسا للماضى مع محاولة مقصودة لدعم هذا التقديس . ومن وراء هذا كله دافعية هى الانتهازية السياسية بعينها، وباستطاعتى ان اقدم للقارىء مزيدا من امثلة تحمل الدلالة نفسها، غير انى لم اقصد بهذا المقال ان اعرض حصرا شاملا لهذه الفئة من الامثلة، وحسبى ما عرضت فهو يبرز المعنى كما اريد: ان ثقل الماضى كما نتناوله يملأ علينا حياتنا بحيث يكتم انفاس قدرات الابداع لدينا .

● تلخيص وختام :

نقطة البداية في هذا المقال ان مشكلاتنا الاجتماعية آخذة في التراكم من حولنا ، وقد عجزت الحلول التقليدية عن التغلب عليها. فلماذا نعجز عن معالجتها بالحلول الابداعية مع ان القدرات الاساسية اللازمة للتفكير الابداعي متوافرة لدينا شأننا في ذلك شأن شعوب الأرض قاطبة؟ من هذا المنطلق بدأنا نعرض لمعوقات التفكير الابداعي في حياتنا الاجتماعية. وقد أحصينا من هذه المعوقات احد عشر عاملا تقع تحت أربعة اصناف، ناقشنا صنفا واحدا من بينها يضم عاملين اثنين يتعلقان بخصائص السياق الاجتماعي . هما جمود السياقات الفرعية، والثقل غير الصحي للماضي، ونرجو ان يحالفنا التوفيق في مناقشة سائر المعقوات في مقال أو مقالين تاليين.

القفز على الأشواك

بقلم : د. شكرى محمد عياد

ملحمة الضياع

☐ فى سنة ١٩٢٢ نشرت فى باريس الطبعة الأولى من رواية إنجليزية عنوانها «يوليسيس» لكاتب أيرلندى اسمه جيمس جويس (احتاجت هذه الرواية الى أكثر من عشر سنين حتى يسمح بتداولها فى انجلترا وأمريكا) .

و«يوليسيس» هو الاسم اللاتينى للبطل الاسطورى اليونانى الذى يعرف باسم أوديسيوس ، وهو أحد أبطال ملحمة هوميروس الأكثر شهرة ، «الإلياذة» التى تصور حصار قبائل شبه الجزيرة اليونانية لمدينة «طروادة» أو «ايليوس» فى آسيا الصغرى . أما ملحمة هو ميروس الثانية فقد انفرد أوديسيوس ببطولتها ، وهى تصور رحلته الطويلة عائدا إلى جزيرة «إيتاكا» التى كان ملكا عليها ، رحلة طويلة عانى فيها الأهوال ، حتى التقى بابنه «تليماخوس» ، الذى كان قد غادر موطنه باحثا عن أبيه ، واستطاع الأب والابن أن يقهرا الأعداء الذين احتلوا قصر الملك فى إيتاكا ، وراحوا يلاحقون الملكة حتى تقبل أحدهم زوجا .

أوديسية هوميروس إذن هى ملحمة الانتصار بعد الكفاح ، أو الراحة بعد العناء ، أو اللقاء بعد الضياع ، أو «الفرج بعد الشدة» كما عبر عدد من القصاص العرب فيما بعد ، ولعل أشهرهم المحسن التنوخى وله كتاب مطبوع بهذا العنوان . ونتذكر أيضا رحلات السندباد . ولا شك أن طرائق القصاص العرب - المتأدبين والشعبيين - اختلفت اختلافاً بعيداً عن طريقة الملحمة اليونانية ، ولكن الذى يجمع


عبده جبير

غلاف الرواية

بين هذه الأعمال القديمة علي اختلافها هو تصوير جانب مهم من البطولة الانسانية وهو الصبر على الشدائد ومغالبتها بقوة الإرادة والثقة بأن الخير لابد غالب فى النهاية . أما رواية جويس فهى أشبه أن تكن محاكاة عصرية ساخرة للملحمة القديمة ، هى مرحلة ضياع بلا هدى ، وتيه ليس له نهاية . محلمة إنسان العصر الحديث فى صراعاته اليومية التافهة ، التى لا يقلل من تفاهتها تعلقه - أحيانا - بحلم غامض. بدلاً من أوديسيوس أو يوليسيس القديم نلتقى بليوبولد بلوم ، وهو مندوب إعلانات يهودى ، يتنقل بين أحياء «دبلن» ساعياً وراء رزقه ، بينما تعاوده من حين إلى حين ذكرى طفله الميت ، وعوضا عن «بنلوبى» زوجة أوديسيوس التى انتظرته صابرة وفية على مر السنين نلتقى بمغنية أوبرا فاشلة مترهلة جاهلة لا تتردد فى خيانة زوجها ، وإن كانت - مثله - تشعر بالأسى أحيانا على طفلهما الفقيد .

رحلة بلا هدف

إن كانت هذه الملحمة العصرية تقول شيئا فهو أن إنسان العصر الحديث ضائع فى رحلة بلا هدف ، أن المدينة التى تبتلعه ثم تلفظه كل يوم هى فى الحقيقة «أرض خراب» (من الموافقات الجديرة بالانتباه أن قصيدة اليوت المشهورة التى تحمل هذا العنوان ولدت فى نفس العام مع «يوليسيس» جيمس جويس) ، وإذا كان ثمة عزاء له فى هذا التيه فهو «الفن» ، مثل هذه الرواية أو هذه القصيدة . أى أن الفن أصبح عليه أن يأكل نفسه ، ولذلك فإن «البطل» الحقيقى فى «يوليسيس» جويس ليس هو «يوليسيس» الجديد أو ليوبولد بلوم ، بل هو «الابن» ، أو

القفز على الأشواك

الشخصية التي تقابل الابن الباحث عن أبيه ، وهو في الملحمة العصرية «ستيفن» الصورة الشخصية للمؤلف جويس نفسه ، وقد سبق له أن قدمها في «صورة الفنان شابا» (وكانت نسختها الأولي تحمل عنوان ستيفن بطلاً) .

كلا العملين - رواية جويس وقصيدة إليوت - كان عملاً منجبا فإلى أحدهما أو إليهما معا ينتمي عدد هائل من الأعمال الإبداعية المعاصرة (وقد نفضل وصفها بالحداثية) ، بل إن عصرية العمل أو حداثيته يمكن أن تقاس بدرجة انتسابه إلي هذين العملين ، وهنا قد تنبهنا فكرة : كم أن هذا العصر مجنون أو مختل ! فبقدر ما يسجل العلم والتكنولوجيا أمجادا لم يكن يحلم بها إنسان العصر القديم ، نرى الفن عاكفا على تسجيل رحلة الضياع في أرض التيه ، لا صوت إنسان يؤنسه من قريب أو بعيد ، لا واحة ظليلة تلوح له - ولو كانت سرابا - فتتجه نحوها خطاه ، لم يعد يفتش حتى في داخله ، فقد أصبح داخله خراباً يبابا مثل خارجه ، لم يعد أمامه ليثبت قيمته - على الأقل عند نفسه - إلا أن يراقب حركة أحشائه ليصنع منها شيئا يسميه فناء ويقذف به كاللعنة في أرض التيه ، وربما مرت به حالات أشبه بحالات المرضى العصابيين حين يتمتمون بكلمات تشبه النبوءات .

هذا بالطبع تصوير غير دقيق ، وغير شامل ، للفن المعاصر ، ولكنني أردت به أن أبرز بعض الجوانب التي تميز «ملحمة الضياع» المعاصرة عن تلك القديمة . وإلا فإن طموح الفنان المعاصر لأن يصوغ «ملحمة» - بكل ما يعينه البناء الملحمي من شموخ العظمة - من مادة الحياة المعاصرة بكل ما فيها من إذلال لأقدس ما في الإنسان - لهو طموح يستثير الإعجاب، بقدر ما يستثير الإشفاق .

إن كنت قد قرأت «مدار السرطان» لهنري ملر ، فسوف تدرجها - دون شك - ضمن هذا النوع الأدبي الذي أسميه ملحمة الضياع ، وإذا كان قد نجح في إثارة اشمئزازك بأوصافه الفاضحة والقذرة فيجب أن تقرأ رحلته اليونانية «عملاق ماروسي» لتحلم معه بعالم مثالي، لابد أن وخز الألم لافتقاده هو الذي جعله يقذف بالبذاءات في وجه عالمنا القبيح .

وإن كنت قد قرأت «علي الطريق» لجاك كيرداك - ولو أنها لم تعد تهز أحداً الآن - فستعدها ملحمة أخرى من هذا الطراز ، ولعلك تتذكر بين ثنايا أسفاره المتصلة ، مع رفاقه في طول الولايات المتحدة وعرضها - شبه مطاردين ، تلك الجملة التي استوقفتني : «نحن نبحث عن وجه الله» ، وإن لم تكن قرأت واحداً من هذه الأعمال - وليس هذا ضرورياً ! فلعلك سمعت عن شاعرنا العربي المطارد مظفر

تواب ، أو بلغك شئ من شعره كما بلغني القليل منه ، فهذا أيضا شاعر ملحمي على طريقته ، يصوغ بشعره مثالاً للجمال الخالد كما يصبه لعنات على زماننا العربي القبيح .

● رواية قد يضيق بها صدرك

دعني أحدثك الآن عن رواية هي أكمل نموذج عرفته في أدبنا المعاصر للحمة الضياع التي وصفتها لك . الرواية عنها «عطلة رضوان» (رامتان للنشر - الاسكندرية ١٩٩٥) . والكاتب عبده جبير. ستصدمك هذه الرواية مرات كثيرة ، وقد يضيق بها صدرك ، وقد تعجز عن اتمامها ولكنني أزعم أن لا شئ مما تكرهه فيها قد وضع اعتباطا . دعك من الباء والفاء (الباء معناها «باب» والفاء معناها «فصل) ومنتهيا بـ «أ هـ» ومدعيا أن هذا تقليد متبع في الكتب العربية القديمة .

(قد أكون جاهلاً بما في الكتب العربية القديمة ، ولكني لا أعرف إلا «أ هـ» وهي اختصار «انتهى» يضعها الكاتب القديم - إذا توخى الدقة - في نهاية النص الذي ينقله عن كاتب آخر ، وهي من الإختصارات القليلة القديمة ، مثل «الخ» ومعناها - طبعا أنت تعرف - «إلى آخره») . فكل ما يريد الكاتب أن يوحي إليك به هو أن طريقته في الكتابة متجذرة في التراث ، وأنه يستوحي الجاحظ أو الأصفهاني أو ألف ليلة وليلة ، أكثر ما يستوحي هنري ملر ، دعك أيضا من «ملاحظة» تسبق هذه وهما أول ما يطالعك من الكتاب، وهذه الملاحظة الأولى تشير إلى «النصوص والوثائق المثبتة في صلب العمل» وتعين عدداً من الكتاب العرب وغير العرب ، بدون نظام ، إلى جانب «القواميس والموسوعات وأبيات من الشعر القديم والأغاني التي كتبت من الذاكرة» . دعك من هذا كله ، فالتمسح بالتراث أصبح بدعة عند المبدعين ، كما أن «التناص» أصبح بدعة عند النقاد ، والبدع قصيرة العمر ، ولا قيمة لها في الميزان ، وغالبا ما يتجاوز القارئ عنها إذا لم يحاول الكاتب إبرازها بهذه الصورة. لا داعي أيضا لأن نكد أذهاننا بالبحث عن معني كلمة «واو» التي يضعها الكاتب ، هكذا بين علامات تنصيص في صدر بعض الفاءات والباءات (الفصول والأبواب) . أهي اسم الحرف العربي الذي يكون وحده أداة العطف الرئيسية في بناء الجمل العربية ، فيكون وضعه بهذه الصورة رمزاً لأن الكلام متصل وإن كان ظاهره الانقطاع ، كما أن الحياة نفسها متصلة ، إلى درجة الاختلاط ، مهما حاولنا تجزئتها ؟ هذا التفسير - علي كل حال - أخف على النفس من أن تكون تعريبا لكلمة التعجب الامريكية ، التي أصبحنا نسمعها أحياناً في بعض التمثيليات العربية أو المعربة

لنترك هذه الاضافات المصطنعة

القفز على الأشواك

ولننظر في العمل نفسه «رضوان» في عطلته (عرفنا ذلك من العنوان) يتمني أن يذهب إلى القاهرة ، إلى الأشياء الأصيلة في القاهرة ، القلعة ، جامع السلطان حسن ، وأن يبتعد عن «هذه البلدة المكتظة بالزهور الصناعية» التي لا نلبث أن نعرف أنها بورسعيد .

بورسعيد ، التي صنعت يوماً ما ملحمة للشعوب العربية كلها حين استطاعت أن ترتجل ، في أيام قليلة ، مقاومة شعبية مسلحة أثبتت لجنود الحملة المشتركة (الانجليزية ، الفرنسية ، الاسرائيلية) أن احتلال بلد حر قد يكون أشد صعوبة وأغلى ثمناً من غزوه. بورسعيد التي أصبحت اليوم «منطقة حرة» (ما أقسى ما تعانيه الكلمة حين تغادر عالم القتال والفداء وتدخل في عالم التجارة والتهريب !) . لم يعد أحد يذكر ١٩٥٦ ، ليس ثمة أثر واحد يذكر بها ، هناك اسواق ، هناك مدينة سياحية ، والناس يأتون من المدن الأخرى إلى بورسعيد ليتزودوا بما يمكنهم شراؤه من السلع المستوردة والمعفاة من الجمارك ، ويحتالون لاخفائها عند عبورهم بوابة المدينة وهناك أناس حرفتهم التهريب ، لا يهربون البضائع المستوردة فقط ، فبورسعيد أيضا بوابة سيناء من الجهة الأخري ، وأرض سيناء رحبة أمام تجار المخدرات .

الحلم بالعالم المثالى

«رضوان» مثقف ، يمكنك أن تقول إنه كاتب مبدع ، أو هكذا كان يمكن أن يكون، بحكم ندرة المثالية التى فيه ، والتى جعلته يحلم بالقاهرة كعالم مثالي ، ولكنه بحكم كسب القوت ، صحفى ، مراسل لإحدى صحف العاصمة . محبط لأن معظم ما يرسل الى صحيفته لا ينشر ، لعله بدأ هذه العطلة كي يراجع حساباته جميعها ، الماضي والحاضر والمستقبل ، ما أقسي هذا المزيج ! فرضوان بورسعيدى أصيل ، وبما أنه شاب ، وبما أن الرواية مكتوبة سنة ٩٥ ، أو قبلها بقليل ، فهو لا يذكر شيئا عن ملحمة بورسعيد أيام العدوان الثلاثى ، ولكن اشترك فى حرب ٧٣ المجيدة والهجوم على خط بارليف ، كما أن ذكريات طفولته الباكرة تعيده إلى أيام شركة القناة حين كان الموظفون الأجانب هم السادة المرفهون ، ورضوان مطلق ، حديث الطلاق (على وزن حديث الزواج) وقد جاء شقيق زوجته وأخذ «عفش البيت» ما عدا الكتب «طبعا» ومنضدة وسريرا سفريا صغيرا وبعض أدوات المطبخ . مازال فى إمكان رضوان أن يقلى بيضاً ويأكله في «البيت» وأن يمارس الجنس مع بعض جاراته على السرير السفرى ولكنه طوال هذه الرواية رحالة في جوانب بورسعيد ، وأيضا فى المدينة المرتجلة التى

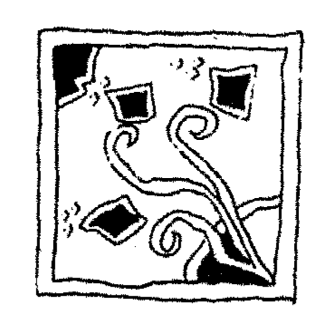
خططها المهربون على حافة الصحراء والتى يمكن فكها وإزالتها من الوجود فى بضع لحظات .

رحلة الضياع التى يقوم بها فنان مجهض وصحفى محبط ، فى المدينة المصرية الأحداث تاريخاً والأكثر امتلاء بالمتناقضات رغم تاريخها القصير تقوده إلى أوكار الحشيش ومكاتب الصحف وقصور المهربين الكبار حيث يقوم بمغامرة بطولية لانقاذ إحدى «الفنانات» التى تعلقت به دون سبب واضح - ربما ، حسب التعبير المألوف ، كما يتعلق الغريق بقشة ، هى أيضا رحلة بلا هدف ، ملحمة ضياع مصرية في عالم تلبس فيه الأسطورة ثوب الحياة المعاصرة ، اساطير تمثل الخبث والبلاهة والاجرام تجتمع أحيانا - على نسب مختلفة - فى بعض الشخصيات تتوزع أحيانا على بعضها الآخر ، كل ذلك دون أدنى مبالغة فملاحم العصر الحديث لا تحتاج إلى مبالغات والبطولة أيضا تصور دون مبالغة فى تلك اللغة المزيج من العامية والفصحى والتى لم يكن يصلح غيرها سواء تكلم الراوى أم ترك «بطله» يتكلم ، ومع ذلك فإن الفقرة الطويلة - نسبيا - التى تعود فيها مناظر الهجوم على خط بارليف إلى ذاكرة رضوان (ص ص ٥٢ - ٥٣) كفيلة - إلى جانب المغامرة شبه الرومنسية مع «الفنانة» الصغيرة اسما وسنا - أن تخفف شيئاً من قتامة الواقع الكريه - والمقزز أحيانا - الذى تغمسنا فيه الرواية، سأكتفى من ذلك الوصف بسطور قليلة :

«وجلس العساكر على حافة القناة يمصون القصب ، المشهد يتكرر كل يوم ، عشرة غريبة ، وعساكر اليهود شبه نعسانين على الجبهة الأخرى فوق حصون خط «بارليف» ، ثلاثة منهم ، ذكرى لا تنمحى ، يلبسون شورتات ملونة «نادر غالى» فكرينه ؟ كان صاحبى ، قال بص ياله ، بينهم بنت بالبكينى ، لم استطع تمييز البكينى من غيره ، وسحبونا من عملية مص القصب بهدوء ، وزحفنا إلى الخنادق ، ارتدينا ملابس الحرب . أحسست أن شيئا ما يحدث ... ... خمسة عساكر يهود وخلف الدشمة قذفت اتجاههم بالقنبلة الأولي ، وتقدمت ، لا أذكر سوى أننى أمطرت المكان بثلاث دفعات من الرصاص ، حصدت العساكر الخمسة ، انتقام ، أنتقم لنفسي وكل شئ لم يعرف أحد فى العالم ماذا كان يجرى داخل العسكرى المصري . كل الإهانات ، أقصد لا أعرف ، ربما كان غضبا ضد كل شئ ...»

ولكن الكاتب لا يتركنا إلا بعد أن يوحي إلينا ، فى نهاية رحلة الضياع ، بأن بطله قد جن .





بقلم : د. محمد عمــــارة

●● ليس كل «تغير» «تقدما»..

فالتقدم - لغة - هو السير إلي الأمام.. لكن «الأمام» - الجديد - إذا لم يكن خيرا وأفضل من السابق - القديم - لا يستحق المعنى الاصطلاحى للتقدم، حتى وإن انطبق عليه معناه اللغوى؟!..

وإلا، فهل يعد «تقدما» السبق إلى الجديد فى وسائل الدمار؟! أو فى وسائل الترف التى تزيد من رخاوة الإنسان وتخنثه؟! والجديد والسبق فى سبل اللذة والشهوة غير المضبوطة بالأخلاقيات؟!..

إن الاتفاق على ضرورة التقدم.. والرغبة فى الترقى، ليست موضع خلاف.. لكن من الأهمية بمكان أن نحدد مضمون هذا «التقدم» الذى نريد.. فنتأكد هل يحق لنا «ارتقاء» حقيقيا؟ أم هو مجرد سبق وتغيير؟!.. ولنتبين معنى هذا «الارتقاء»، وهل تضبطه أخلاقيات الدين، فيحقق - بالتوازن - سعادة فى الدنيا، تؤهل لسعادة الآخرة، التى هى خير وأبقى؟.. أم أنه من نوع ذلك «الارتقاء إلى أسفل»؟!.. الذى ننخدع به عن الارتقاء الحقيقى فى كثير من الأحيان؟!.

إن قرآننا الكريم يعلمنا أن «التقدم» هو المقابل «للتأخر» «لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر» (١) .. «ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين» (٢).. لكن «التأخر»، فى مواقع النساء عند الصلاة بالمساجد أفضل لهن وللرجال من «التقدم»!.. ولقد كان «تقدم» و«سبق» بعض الصحابة - فى غزوة أحد - إلى



جـمـع الغنائم، هو الكارثة التى جلبت الهزيمة إلى المسلمين ؟!.. فليس كل تقدم خيرا.. وليس كل سبق ارتقاء، بالمعنى الحقيقى للتقدم والارتقاء.

كذلك يعلمنا القرآن الكريم أن للتقدم قوانينه وسننه.. وأن التخلف والتأخر ليس إلا ثمرة لغيبة هذه السنن والقوانين.. فليس التقدم أمانىّ وأحلاما للكسالى والقاعدين، حتى ولو حسنت منهم النوايا وصحت لديهم المعتقدات النظرية.. فحتى «الإيمان» الدينى، لا يكتمل إلا إذا جاء «العمل» ليجسد «التصديق»!.

وشواهد القرآن الكريم على هذه الحقيقة تتعدى اقتران «الإيمان» بـ «العمل» فى آياته الكريمة الكثيرة - وهو ملحظ له دلالته الكبرى.. وإنما نرى هذه الشواهد أيضا، فى مثل قول الله، سبحانه وتعالى : «ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب، من يعمل سوءا يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا» (٣) فتحقيق الغايات فى السعادة والتقدم والارتقاء، وتغيير سلبيات الواقع ونواقصه لا يتأتى بمجرد الأمانى، حتى ولو كانت أمانى المؤمنين.. فبصرف النظر عن عقائد أصحاب الأمانى - مؤمنين كانوا أو غير مؤمنين - فلابد لتحقيق الأمانى من الأخذ بالسنة وإعمال القوانين، والتعلق بالأسباب.. فهذا الكون الذى نعيش فيه قد أبدعه الله لغايات وحكم ، وأقام نظامه على القوانين والعلل والعلاقات والأسباب، التى لا تبديل لها ولا تحويل.. كان ذلك منذ بدء الخلق، وحتى يبدل، سبحانه وتعالى، هذه السنن والقوانين والأسباب، فيرث الأرض ومن عليها «سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا» (٤).. «فهل ينظرون إلا سنة الأولين، فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن

تجد لسنة الله تحويلا» (٥).. «سنة الله التى قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا» (٦) .. «سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا» (٧).

● المعجزات صنع إلهى

بل إنه حتى المعجزات، التى هى خوارق للسنن والقوانين المعتادة - أى خوارق للعادة - إنما هى صنع إلهى، يتفرد مسبب الأسباب، وخالق السنن، ومقنن القوانين، بإظهارها على يد رسله وأنبيائه ، لتأييدهم وإقامة الأدلة والإعلام على صدق دعوتهم .. وذلك وفق قوانين وسنن لهذه المعجزات ، لا يعلمها ولا يستطيع السيطرة عليها ولا التحكم فيها البشر العاديون ؟!.. فهناك خلف الأسباب العادية ، والقوانين الطبيعية ، القدرة المطلقة لخالق الأسباب والمسببات.. بهذه القدرة خلقها ، وأودعها تأثيرها «الذاتى - الذى هو مخلوق فى ذات الوقت».. وبهذه القدرة يستطيع - عندما يشاء - أن يوقف فعل السبب المركب فى الطبيعة، ليحل محله سببا آخر يصنع مُسَبباً جديدا ومغايرا؟!.

فلا شيء يتم بدون أسباب وقوانين وسنن تضبط علاقات الأسباب بالمسببات..

وما الحديث الشائع عن خلاف حقيقي بين حجة الإسلام الغزالى (٤٥٠ - ٥٠٥ - ١٠٥٨ - ١١١١م) وفيلسوف الإسلام ابن رشد (٥٢٠ - ٥٩٥ هـ ١١٢٦ - ١١٩٨م) حول هذه القضية - قضية السببية - إلا وهم من الأوهام الفكرية الشائعة !.. فالخلاف بينهما شكلى، فى مصطلحات التعبير، ومناطق التركيز.. فابن رشد - الذى أكد على علاقة السببية، لم يقف بالمسببات عند أسبابها الذاتية والمباشرة، وإنما أكد على تأثير ودور «الفاعل من خارج» الأسباب المادية.. والذى هو الخالق لهذه الأسباب المادية ذاتها.. فقال : «ولا ينبغى أن يُشَك فى أن هذه الموجودات قد يفعل بعضها بعضا ومن بعض، وأنها ليست مكتفية بأنفسها فى هذا الفاعل، بل بفاعل من خارج، فعله شرط فى فعلها، بل فى وجودها، فضلا عن فعلها..». (٨).

وهو ذات المعنى الذى عبر عنه الغزالى بمصطلح «الاقتران» بين السبب والمسبب.. فخالقهما قادر على إيقاف عمل السبب فى المسبب، بخلق سبب جديد، أو بتغيير طبيعة المسبب كى لا يفعل فيه السبب القديم.. «إننا نسلم أن النار خلقت خلقة إذا لاقاها قطنتان متماثلتان احرقتهما ، ولن تفرق بينهما إذا تماثلتا من كل وجه . ولكننا ، مع هذا، نجوز أن يلقى شخص

فى النار فلا يحترق، إما بتغير صفة النار أو بتغير صفة الشخص». (٩).

فليس بين مفكرى الإسلام من أنكر السببية بإطلاق، ولا السنن والقوانين.. وليس بينهم من أنكر القدرة المطلقة لخالق الأسباب والمسببات على التغيير والتبديل.. وليس هناك منهم من أنكر ارتباط التقدم والتغيير والارتقاء بأسبابه وسننه وقوانينه.. مع اللجوء إلى الله، سبحانه وتعالى، بعد استفراغ الجهد فى الأخذ بالأسباب، ليعيننا على ما وراء هذه الأسباب!.

● معنى التقدم والاختلاف فيه

لكن الخلاف قد وقع - بين المذاهب والفلسفات - فى معنى التقدم.. وفى المناهج والسبل المحققة للارتقاء.. فأصحاب النزعة «الباطنية - الغنوصية» : يرون «التقدم .. والارتقاء» - الذى يسمونه «خلاصا» - يرونه فى المجاهدة الفردية .. الجوانية.. التى تعتمد على العرفان الذاتى، وتقوم على إدارة الظهر للمادة وعالمها، والجسد وحاجاته، والدنيا وما فيها.. وذلك وصولا إلى قمة التقدم والارتقاء - الخلاص - بالفناء فى المطلق والكلى والحق.. وهم فى سبيل ذلك يحطون من شأن الأسباب - ومنها «العقل» و«النقل» و«الحرية» و«الإرادة» و«الاستطاعة» و«القدرة» - رافضين الاعتراف بأية علاقة تلازم أو فعل أو تأثير بينها وبين النتائج والمسببات والثمرات.. وذلك اعتمادا على أن هذه النتائج والمسببات والثمرات إنما هى «هبات» و«فيض» و«إلهام»، لا أثر فيها للأسباب!.

وهذه النزعة «الباطنية - الغنوصية» هى ثمرة من ثمرات الفلسفة الإشراقية القديمة، التى ازدهرت فى مدارس فارس الفلسفية، ثم طبعت التشيع الفارسى بطابعها.. وتجلت، كذلك، فى التصوف الفلسفى - وبالتحديد لدى القائلين بوحدة الوجود، أو قصر الوجود الحقيقى على الله وحده.

وأصحاب هذه النزعة - التى هى على النقيض الكامل من النزعة المادية - تبعا لإنكارهم أى وجود حقيقى لما سوى الله، سبحانه وتعالى، ينكرون وجود سببية أو أسباب فى العالم أو الإنسان أو المجتمعات.. كما ينكرون أية علاقة للتقدم والارتقاء بعالم الماديات.. فالخلاص - التقدم - هو الارتقاء على درب الفناء الروحانى، وعلى حساب الدنيا وما فيها!.

● نظرة الباطنية للعالم

ونحن إذا تتبعنا قسمات نظرتهم إلى العالم والإنسان، فى ضوء علاقتها بالله، سبحانه وتعالى، سنجد الموقف المفضى إلى نفى الوجود - مطلقا - أو الوجود -

الحقيقي - ومن ثم السببية والأسباب وفعلها - عما سوى الله.

أ - فهم لا يعتدون بالعمل - كسبب فاعل ومثمر - بل يعرضون عنه.. وإذا مارسوه، فإنهم لايرون «علاقة الضرورة» بينه وبين ما يثمر من آثار وثمرات ومسببات.

ب - وهم جبريون، ينفون وجود الإرادة الإنسانية .. وعلى حد قول «النفرى» (٣٥٤ هـ - ٩٦٥ م) - وهو من كبار فلاسفتهم - : فإن «المماليك - «أى فاقدى الحرية والإرادة» - فى الجنة. والأجراء - «أى ذوى الإرادة» - فى النار»؟! (١٠)

فالجبر هو طريق التقدم - الخلاص - والحرية هى طريق السقوط فى النار؟!.

جـ - وهم ينكرون الوجود الحقيقى لما سوى الله، سبحانه وتعالى، فيرى فريق منهم أن وجود ما سوى الله لايعدو وجود «الظل» و «الوهم».. بينما يراه آخرون عدما خالصا!.. ففناء «الخالق» فى «الحق» - عندهم - هو حقيقة التقدم والخلاص!..

د - ولذلك، فهم لايعتمدون على «الأغيار» - ومنها «المادة» والأسباب المودعة فيها والمخلوقة بها - ولا يثقون فيها، فهى وهم أو عدم محض!.

هـ - وينكرون أن تكون معرفة المصنوع سبيلا لمعرفة الصانع.. والتدبر فى «الخلق» طريقا للإيمان «بالخالق».. فلا وجود، فى الحقيقة - عندهم - للمصنوع ولا للخلق، حتى يكون النظر فيها والمعرفة لها سبيلا لمعرفة الخالق الصانع!.

و - وهم يعتبرون السلامة «هبة»، لا علاقة لها بالعمل والتكسب والأسباب.. وحتى العبادات - إذا مارسوها - على النحو الذى جاءت به الشريعة - فإنهم ينكرون أن يكون لها - فى السلامة والنجاة والخلاص والتقدم - فعل الأسباب للمسببات.

ز - وكذلك المعارف، يرونها «هبة» لا علاقة لها بالاكتساب والأسباب.

حـ - ويصرحون، فى مذهبهم، بنفى السببية - أى العدة - ويقولون بانعدام تأثيرها فى الارتقاء والتقدم إلى الغاية - التى يسمونها مقام «الوقفة».. وبعبارة «النفرى» : «وقال لى - «أى الله ، سبحانه وتعالى» : كل أحد له عدة إلا الواقف، وكل ذى عدة مهزوم»؟! (١١).

ط - ذلك أن غاية أصحاب هذه النزعة «الباطنية - الغنوصية - العرفانية»، ليست تحقيق «خلافة الإنسان لله»، سبحانه وتعالى، فى عمارة العالم، بالكسب والأسباب، وإنما غايتهم - وتقدمهم - هو «فناء الإنسان فى الله»، وذلك عن طريق

«محو الأنا»، لا إثباتها، وهى غاية تتحقق بالهبة والفضل، وليس بالكسب والأسباب؟!.. وبعبارة «النفرى» - أيضا - عن هذه الغاية - بلوغ مقام «الوقفة»، التى يفنى فيها الإنسان عن «شهود السوى» أى يفنى عن شهود ما سوى الله : «وقال لى - «أى الله، سبحانه وتعالى» : الوقفة لاتتعلق بسبب، ولا يتعلق بها سبب» (١٢).

فهذا مذهب فى التقدم والارتقاء والخلاص.. لكن، بمفاهيم خاصة لهذه المصطلحات، تجعله مغايرا للتقدم الذى يعنيه الإسلام!..

● التقدم لدى العلمانيين

وعلى النقيض من هذه النزعة «الباطنية - الغنوصية» - ذات الأصول الفارسية - فى مذاهب التقدم - تأتى النزعة «المادية» - ذات الأصول «الأغريقية - الغربية» .

فمفهوم التقدم، لدى الماديين - وتجلياته فى الحضارة الغربية الوضعية العلمانية - يعنى : السيطرة على الطبيعة وقهرها من قبل الإنسان.. ذلك الإنسان الذى تصوره الماديون : «سيدا لهذا الكون»، لا حدود لحريته واختياره.. وهدف هذه السيطرة على الطبيعة والقهر لها، هو تحقيق الحد الأقصى من «القوة»، والحد الأقصى من «الوفرة المادية»، وذلك لإشباع الحدود القصوى من الحاجات واللذات والشهوات الدنيوية للإنسان - والتى رأوها غير متناهية؟!.. كل ذلك، بصرف النظر - بل وبرغم - أخلاقية أو لا أخلاقية السبل والوسائل المحققة لهذه الغايات .. بل وبرغم - وبصرف النظر - عن لا أخلاقية كثير من هذه المقاصد والغايات؟!.

وفى سبيل تحقيق هذا اللون من «التقدم» رأى أصحاب هذه النزعة المادية:

أ - أن مصدر المعرفة - المستحقة لوصف المعرفة والعلم والحقيقة - هو المادة، وعالم الشهادة.. أما ما عدا ذلك، من عالم الغيب، وما وراء المادة، فلا ترقى «معارفه» إلى أكثر من «الميتافيزيقا»، و«معارف» طفولة العقل البشرى، التى هى أدخل فى «الخرافات» منها فى حقائق المعارف والعلوم!.

ب - وأن سبل الإنسان إلى المعارف الحقة لا تعدو «التجارب المحسوسة بالحواس الخمس» و«براهين العقل الإنسانى» فى الاستدلال والاستنباط.. ولا مكان «للوحى .. والنقل .. والأدلة السمعية».. ولا «للوجدان» فى سبل المعرفة المعتمدة والمأمونة!.

جـ - وأن الصراع بين الأضداد هو قانون الحياة والأحياء - فى الأحياء الطبيعية - التى تخلقت ذاتيا، ونشأت فيها نسمة الحياة طبيعيا.. ثم ارتقت وتطورت بالانتخاب الطبيعى وعن طريق

الإسلام والتقدم

قهر الأقوى للأضعف - لأن الأقوى هو الأصلح للبقاء - ..

وكما حدث ويحدث قيام وعمل هذا «القانون» فى الأحياء الطبيعية .. فلابد من قيامه وعمله فى الاجتماع البشرى - بصراع الطبقات المحرك للتاريخ .. والصراع بين «قوى الإنتاج» وبين «علاقات الإنتاج» - المحدد لخط سير تطور وتقدم النظم الاقتصادية والاجتماعية.. بل والأنساق الفكرية والثقافية والاعتقادية.. وعلى نفس المنوال تكون العلاقات بين الحضارات والدول فى العالم.. حتمية صراع الأضداد، ومشروعية البقاء للأقوى، لأن الأقوى هو الأصلح.. فهى «رسالة»، وليست عدوا من شريعة الغاب؟!.

د - وبنفس الفلسفة تكون النظرة إلى «البيئة» - وهى «الطبيعة» - فهى مسخرة للإنسان - بمعنى السخرة - ليقهرها - لا بمعنى الرفق بها والارتفاق معها - فكل ما يحقق «القوة» و «الوفرة» - بالمعنى المادى للقوة والوفرة - هو من صميم «التقدم»، لدى أصحاب النزعة المادية، حتى ولو أخل بتوازن الإنسان - كفرد وكمجتمع - وحتى لو أخل بتوازن البيئة التى يعيش فيها الإنسان.

وحتى المعايير التى يضعها أصحاب هذه النزعة «المادية» على الممارسات، تقف عند الدنيا، وعند المصالح الدنيوية، وعند كفاءة تحقيقها للوفرة المادية والحدود القصوى للذات الدنيوية، فقط لا غير، أو بالدرجة الأولى !..

هـ - وأما فى النظرة للموروث . فإن التقدم - عند أصحاب هذه النزعة المادية - وخاصة لدى تيار «الحداثة» - إنما يعنى الانقطاع التاريخى والقطيعة المعرفية مع الجذور الحضارية.. فكل البناء المادى دائم التغيير والتقدم والترقى.. وكل البناء الفكرى - حتى الأخلاق والقيم والدين- دائم التغير والتطور أيضا .. ففواصل ومحطات الانقطاع والقطيعة فى الثقافة والمثل والمعايير هى القانون المطلق الدائم الإعمال!..

تلك هى أبرز معالم مفاهيم «التقدم» لدى أصحاب النزعة المادية.. تلك التى جعلت من إنسانها - على نحو ما نراه فى بعض التطبيقات الغربية - وكذلك المقلدة لها - :

- ذلك الإنسان الذى يحاكى - فى القوة المادية - الأسد المفترس.
- والذى يريد العالم غابة الأقوى فيها هو الأصلح للبقاء الفكرى والمادى .
- والذى يأكل فى سبعة أمعاء - مصداقا للحديث النبوى الشريف، الذى يقول فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : «المؤمن يأكل فى معى واحد، والكافر يأكل فى سبعة أمعاء»!
- والذى يعلم ظاهرا من الحياة

الدنيا، عازلا علومه - بل وينوك معلوماته - عن تغيير النفس وتزكيتها بالعلم النافع.

● والذى غدا عملاقا، لكنه يقف على ساق واحدة، هى ساق المادة.. والقوة المادية.. والوفرة المادية.. واللذات المادية الدنيوية!.. حتى لقد حقق أعلى مستويات الوفرة المادية فى العالم، وأيضا أعلى مستويات القلق والشك واللاادرية والقنوط - بل والانتحار الفردى والجماعى - فى هذا العالم أيضا؟!.

وهكذا تفلس النزعة المادية فى تحقيق التوازن للإنسان فى هذه الحياة - وفى هذا التوازن جوهر السعادة الإنسانية - .. لقد أفلست قديما فى تحقيق السعادة «لقارون».. وهى تفلس اليوم فى تحقيقها للمجتمعات «القارونية» التى سادت فيها!.

كما أفلست النزعة «الباطنية الغنوصية» فى أن تمثل طريقا لتقدم أمة أو مجتمع، وإن نجحت فى شيء من ذلك بالنسبة لآحاد من الناس .. فلم تجاوز حدود «الاستثناء - الشاذ» الذى لا يجوز عليه القياس!..

● الرؤية الإسلامية للتقدم

● أما الرؤية الإسلامية للتقدم، والمذهب الإسلامى فى الارتقاء، فإن له مفاهيمه المتميزة، ومناهجه المتميزة أيضا.

ونحن إذا شئنا معيارا لهذا التقدم الإسلامى، وللمذهب الإسلامى فى الارتقاء، فليس كالوسطية الإسلامية معيارا يتميز به عن مفاهيمه المغايرة فى النزعة «الباطنية - الغنوصية - العرفانية».. وفى نقيضتها «النزعة المادية» أيضا.. فبالوسطية الإسلامية يكون التقدم إسلاميا، وذلك عندما يكون تحقيقا :

أ - للتوازن.. الذى هو الوسط.. أى العدل.. فى ذات الإنسان الفرد، وفى علاقاته بالآخر، وأيضا فى علاقاته بالبيئة والطبيعة والمحيط.

ب - وتحقيقا للتوازن الذى يجمع بين «الوحدة فى الإنسانية» بين البشرية جمعاء.. وبين «التعددية» فى الشعوب والقبائل والقوميات والحضارات، ليصبح العالم «منتدى حضارات : متميزة .. ومتفاعلة»، لا متصارعة، ولا منغلقة.. أو تابعة بعضها للبعض الآخر.

جـ - وتحقيقا للتوازن بين «وحدة الدين الإلهى» - أزلا وأبدا - فى أمهات عقائد الإيمان : بالألوهية الواحدة.. والإيمان بالغيب واليوم الآخر والحساب والجزاء.. وبالعمل الصالح.. مع التعددية فى الشرائع، ليكون السباق والاستباق على درب الاقتراب الأكثر من تحقيق مُثُل الاعتقاد الأصح بعقائد هذا الدين الإلهى الواحد.

د - وتحقيقا لتوازن مصادر المعرفة.. وسبل تحصيل هذه المعرفة.. بتكامل آيات كتابى الخالق، سبحانه وتعالى، آيات «كتاب الوحى - المقروء» وآيات «كتاب الكون - المنظور».. مع تكامل سبل الإنسان لتحصيل معارف هذه الآيات..

هداية : العقل، الذى إن استقل بمعارف عالم الشهادة، فلن يستقل بإدراك معارف عالم الغيب.. وهداية: النقل والوحى - بلاغا قرآنيا، وبيانا نبويا - التى تهدى الإنسان فيما وراء مدركات ملكاته النسبية، كمخلوق نسبى القدرات والملكات.. وهداية : الحواس الخمس، التى تدرك - بالتجربة .. الكثير من حقائق هذا الوجود.. وهداية : الوجدان - والنور القلبى - الذى هو لطيفة ربانية خلقها الله متعلقة بالقلب - جوهر الإنسان.

فبهذه المصادر للمعرفة .. وبهذه الوسائل للمعرفة .. تتكامل وتتوازن معارف الإنسان فى نموذج التقدم الإسلامى ، حيث تنتفى أحادية المعرفة - باطنية كانت أم مادية - عقلية كانت أم نقلية - نظرية ذهنية كانت أم تطبيقية يدوية - ..

هـ - وتحقيقا لتوازن حقوق كل من «التوحيد» لخالق كل شىء - أسبابا كانت أو مسببات - .. والتسليم بأسباب مادية ، قائمة فى الظواهر الكونية والبشرية والنفسية ، لها فعل وتأثير فى المسببات ..

فوجود هذه الأسباب المادية ، وفعلها فى المسببات حقيقة لاريب فيها .. والإيمان بأن هذه الاسباب الفاعلة هى أيضا مخلوقة للفاعل الأول والخالق الأوحد لكل موجود ، هى الأخرى حقيقة لاريب فيها .. فهذا الكون - المادى .. والبشرى - تحكمه «الأسباب - المخلوقة» لخالق كل ما فى الوجود ، أسبابا كانت أو مسببات ..

وهذه الوسطية «الجامعة بين «توحيد خالق كل شىء» وبين الاعتراف «بفعل الأسباب المودعة فى الطبيعة» هى التى عبر عنها - عن صدقها .. وعن صعوبة استيعابها من غير أهل الاختصاص - أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ [١٦٣ - ٢٥٥ هـ ، ٧٨٠ - ٨٦٩م] عندما قال : «إن المصيب هو الذى يجمع : تحقيق التوحيد ، وإعطاء الطبائع حقها من الأعمال : ومن زعم أن التوحيد لايصلح إلا بإبطال حقائق الطبائع ، فقد حمل عجزه على الكلام فى التوحيد ، وكذلك إذا زعم أن الطبائع لا تصلح إذا قرنها بالتوحيد ، ومن قال هذا فقد حمل عجزه على الكلام فى الطبائع . وإنما ييأس منك الملحد إذا لم يدعك التوفر على التوحيد إلى بخس حقوق الطبائع ، لأن من رفع أعمالها رفع أعيانها ، وإذا كانت الأعيان هى الدالة على الله ، فرفعت الدليل ، فقد أبطلت المدلول عليه» ؟ ! (١٣)

و - وتحقيقا لتوازن «سلطة الإنسان» فى عمارة الأرض - بما تقتضى من حرية وإرادة واستطاعة وقدرة واختيار ومسئولية وتكليف - وبين «سيادة الحاكمية الإلهية» فوق «سلطة الإنسان» لأنها «سلطة الإنسان» الخلقية لسيد الوجود وخالق كل موجود وراعى ومدبر كل أمر .. وليست سلطة الإنسان المغتصب للسيادة الإلهية فى هذا الوجود .. ومن ثم فإنها «سلطة» محكومة بآفاق «سيادة الحاكمية الإلهية» ،

المتمثلة فى الشريعة الإلهية التى هى بنود عقد وعهد الاستخلاف الإلهى للإنسان ! ..

وإذا كانت الكهانة الكنسية الغربية قد أفرطت عندما ألغت «سلطة الإنسان» ، بجعلها الدولة والعلم والإجتماع والسياسة وكل العمران البشرى دينا ثابتا مقدسا ، وسيادة حاكمية إلهية لا خلافة فيها ولا حاكمية للإنسان ، وذلك يوم ان ادعت أنها تحكم الدولة بالتفويض والحق الالهى..ثم جاءت العلمانية الغربية – كرد فعل لذلك – ففرطت ، عندما جعلت سلطة الانسان فى الدنيا والدولة «سيادة وحاكمية» لامعقب عليها من نبأ الغيب وشريعة السماء وحقوق الله ، حتى لتقرر هذه العلمانية للإنسان – إذا هو اختار – أن يحل الحرام ويحرم الحلال الدينى .. فإن هذا الخلل فى التوازن ، لدى فريقى الإفراط والتفريط ، هو الذى برئت منه الوسطية الإسلامية فى علاقة «سيادة الحاكمية الإلهية» بـ «سلطة الأمة» فى الفكر الدستورى لدولة الاسلام ..

تلك بعض من معالم المذهب الاسلامى فى التقدم .. مذهب الوسطية الإسلامية ، المجسد للعدل والتوازن .. والمتميز عن إفراط «الباطنية – الغنوصية» وتفريط «المادية – الوضعية – العلمانية» ..

وصدق الله العظيم إذ يقول [وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا](١٤) ..

وصدق رسوله الكريم إذ يقول : «الوسط : العدل . جعلناكم أمة وسطا » (١٥)

الحواشى :

(١) المدثر : ٣٧

(٢) الحجر : ٣٤

(٣) النساء : ١٢٣

(٤) الأحزاب : ٦٢

(٥) فاطر : ٤٣ .

(٦) الفتح :٢٣ .

(٧) الإسراء : ٧٧ .

(٨) [تهافت التهافت] ص ١٢٤ . طبعة القاهرة سنة ١٩٠٣ م .

(٩) [تهافت الفلاسفة] ص ٦٧ ، ٦٨ . طبعة القاهرة سنة ١٩٠٣ م .

(١٠) [المواقف والمخاطبات] – موقف الحجاب – تحقيق : آرثربرى . تقديم : د. عبد القادر محمود . طبعة القاهرة سنة ١٩٨٥ م .

(١١) المصدرالسابق –موقف الوقفة –

(١٢)المصدرالسابق– موقف الوقفة

(١٣) [كتاب الحيوان] جـ٢ ص ١٣٤، ١٣٥ . تحقيق : الاستاذ عبد السلام هارون . طبعة القاهرة .

(١٤) البقرة : ١٤٣ .

(١٥) رواه الإمام أحمد ☐

صناع القرن العشرين

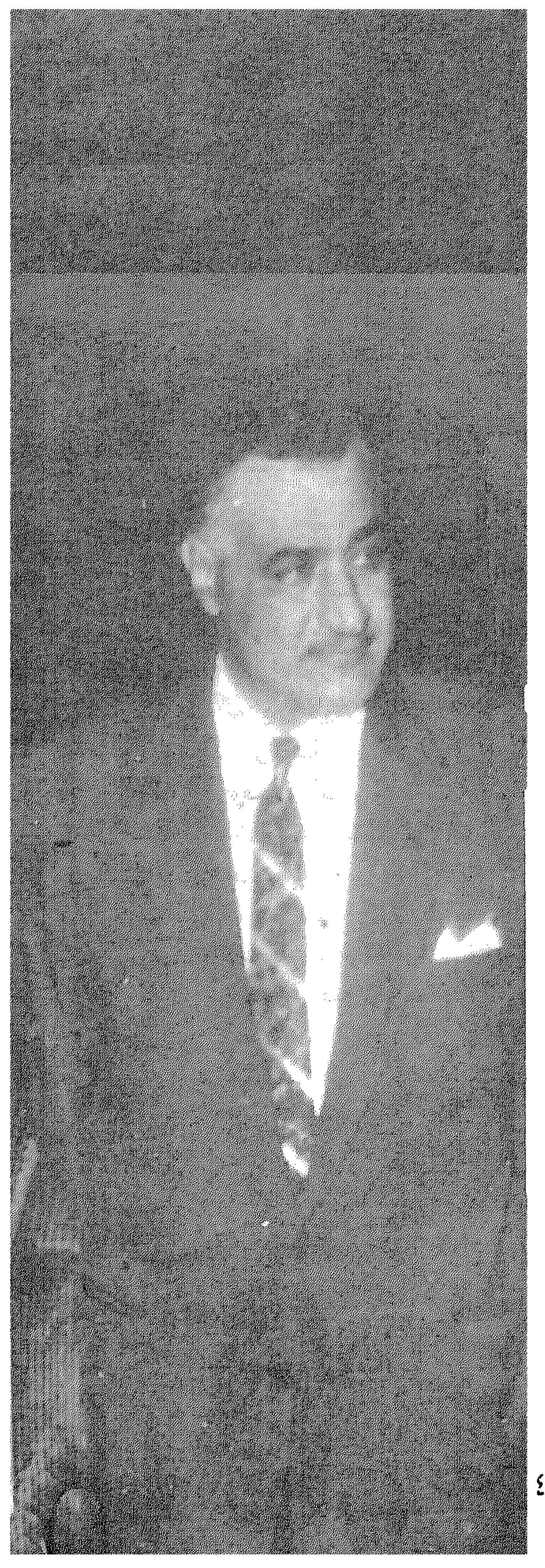


مؤسس مصر المعاصرة

بقلم : د. عاصم الدسوقى

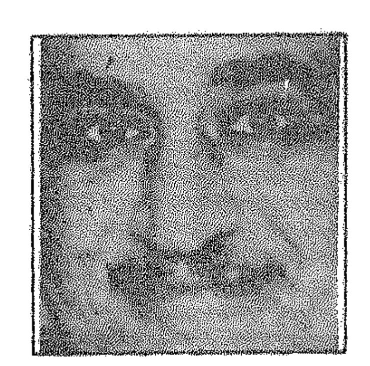
يرى هذا المقال رأيا آخر فى رجل القرن العشرين فى مصر، فعنده عبدالناصر هو مؤسس مصر الحديثة، ويجيب المقال عن السؤال الذى طرحه د. يونان لبيب رزق، هل سعد أم عبدالناصر هو رجل القرن العشرين.

■ كانت السياسة المصرية فى أواخر الأربعينيات تمر بمرحلة من الركود والدوران فى دائرة مفرغة من حيث تحديد علاقات مصر ببريطانيا وبدول الجوار وبالعالم الخارجى بشكل عام ، ومن حيث طبيعة السياسة الاقتصادية - الاجتماعية التى كانت قد تبلورت منذ مطلع القرن فى وجود طبقة من كبار ملاك الأراضى الزراعية وأصحاب رءوس الأموال التجارية والصناعية، والتى كان من طبيعتها الحفاظ على الوضع الطبقى القائم لصالح ، الأرستقراطية ، الحاكمة ، يسندها فى ذلك دستور عام ١٩٢٣ الذى كانت نصوصه جملة وتفصيلا لا تسمح إلا بحكم الصفوة المالكة .



ولقـد ترتب على ذلك فى النهـاية تهـميش القوى الاجتماعية من الطبقة الوسطى وعـامـة المجـتـمع من العـمـال والفلاحين ، وما صاحب ذلك من محاولة قيادات هاتين الطبقتين التعبير عن مصالحهما بكل الوسائل ، واسماع اصواتهما الى صناع التشريع القانونى واصحاب القرار السياسى ، ولكن دون طائل بل على العكس ، كانت الحكومة تلاحق هذه القيادات وتضعها تحت رقابتها المتشددة ليل نهار . ومن ثم بقيت المشكلة الاجتماعية قائمة دون حلول جذرية إلا من بعض المسكنات فى اطار بعض السياسات الاصلاحية التى اضطرت اليها بعض الحكومات وخاصة حكومة الوفد تحت ضغط الازمة الاقتصادية .

اما من ناحية العلاقات السياسية مع بريطانيا فقد توقفت عند حدود معاهدة ١٩٣٦ التى لم يتم التوصل اليها الا بعد اثنى عشر عاما من المفاوضات الفاشلة (١٩٢٤ ـ ١٩٣٦) ، ولم تقدم بريطانيا على إبرام معاهدة إلا ـ كما هو معروف ـ بسبب تأزم الموقف الدولى بفعل سياسات النازية والفاشية فى اوربا وفى افريقيا ، وهى السياسات التى كانت تهدد كلا من النظم الرأسمالية والاشتراكية على السواء. ومنذ ان انتهت الحرب العالمية الثانية ، والحكومة المصرية تحاول التوصل الى تعديل لنصوص المعاهدة (١٩٣٦) لصالحها دون جدوى حتى لقد اضطرت



صناع القرن العشرين

ان تعرض الأمر على مجلس الأمن (١٩٤٧) ولكن دون جدوى ايضا . ثم اقدمت على إلغاء المعاهدة فى ١٩٥١ فاعتبر هذا إجراء غير قانونى يتعارض مع نصوص المعاهدة ، ومن ثم بدأت اعمال المقاومة غير الرسمية ، اى من خلال العمل الفدائى ، وهو وإن كان يتم بتأييد من السلطات الحاكمة ودعمها ، فإن القيام به فى اطار المقاومة الشعبية وليس الرسمية يبين كيف كانت السلطة الحاكمة تنظر الى بريطانيا العظمى آنذاك .. هذا فى الوقت الذى كانت مصر قد خرجت مع الدول العربية فى عام ١٩٤٨ بهزيمة كبرى وعرف العام بعام النكبة ، وأقدمت على توقيع اتفاقية رودوس فى العام التالى (١٩٤٩) كمدخل لتصفية آثار الحرب والبحث عن حل لمشكلة اللاجئين بتوطينهم فى دول الجوار ، ولم يكن احد يتحدث عن قضية فلسطين .

أخطار فى مواجهة النظام السياسى

ومن الجدير بالذكر ان بعض المؤرخين يبررون انصراف الحكومات المصرية آنذاك عن معالجة المشكلة الاقتصادية - الاجتماعية رغم خطرها على النظام السياسى ، بأنها كانت منشغلة بإيجاد تسوية للعلاقات السياسية مع بريطانيا فى المقام الأول . فإذا علمنا ان التسوية السياسية مع بريطانيا كانت تستهدف استخلاص الحكم للارستقراطية الحاكمة دون منازع من المصالح الاجنبية ، وهى مصالح اقتصادية منافسة بطبيعتها ، أدركنا كيف كانت المشكلة الاجتماعية بعيدة عن بؤرة اهتمام الصفوة الحاكمة . ولانعنى من هذا العرض اغماط حق الاصوات العالية التى كانت ترتفع مطالبة بإقرار العدل الاجتماعى سواء فى البرلمان او من خلال الصحافة ، فإن هذا أمر معروف ولكنه لم يكن ابدا ليتجاوز دائرة ابداء الرأى فى اطار حرية القول وليس حرية الفعل ، وهى جوهر فلسفة الليبرالية الحاكمة .

عبدالناصر.. تاريخ جديد لمصر

هكذا كان الحال فى أواخر الأربعينيات ومطلع الخمسينيات .. ثم حدث انفجار يولية ١٩٥٢ بقيادة جمال عبدالناصر الذى قدر له ان يصنع تاريخا جديدا لمصر المعاصرة بقلب الاوضاع القائمة كلها لصالح الطبقة الوسطى وعامة الفلاحين والعمال ، ويشق تيار واقعية جديدة انتقل بمقتضاه العمل السياسى

من قلاع الارستقراطيات وأبراجها الى حدود الحارة والقرية . ولقد قدمت الثورة نفسها للجماهير بقانون الإصلاح الزراعى الذى استهدف تجريد كبار ملاك الاراضى الزراعية من مصدر القوة فى القرية ومن مصدر السلطة السياسية فى المدينة ، وذلك بتحديد مساحة الملكية الزراعية الفردية ، وتعديل علاقات الإنتاج لصالح المستأجر (سبتمبر ١٩٥٢) وايضا بإصدار تشريع جديد لصالح عمال الصناعة فى ديسمبر من العام نفسه بمنع الفصل التعسفى من العمل مما ادى الى طمأنة العمال على مستقبلهم . كما تم انشاء ديوان الموظفين لإقرار مبدأ تكافؤ الفرص فى تعيين المتعلمين فى الوظائف الحكومية العامة بعد ان كان الفوز بالوظائف يخضع للعلاقات القرابية أو علاقات التبعية بأى درجة من الدرجات بين مختلف المستويات . وكانت هذه التشريعات وحدها خلال الشهور الاولى من الثورة كفيلة بالكشف عن حقيقة البعد الاجتماعى لها من حيث انها ثورة قامت لحماية الطبقة العاملة فى المدينة وفى الريف ، وتدعيم شرائح الطبقة الوسطى بعد طول تهميش . والحقيقة ان هذا البعد الاجتماعى يمثل العصب الحقيقى للثورة ، وهو فى تقديرى المحرك الاساسى لمجمل السياسات الاقتصادية والتوجهات السياسية العامة لمصر الثورة خلال الخمسينيات والستينيات . وبمعنى آخر فإن هذا البعد يعتبر اللحن المميز فى معزوفة الثورة وأما بقية السياسات فإنها تعتبر من قبيل التنويعات على اللحن الاساسى . غير ان تحقيق البعد الاجتماعى للثورة لم يكن ليتم فى ظل هيمنة الوجود السياسى للقوى السياسية القائمة آنذاك ، وهى قوى قديمة وطبقية اختلفت مع الثورة منذ البداية حول طبيعة الاصلاح الزراعى . ومن هنا ألغيت الاحزاب السياسية فى يناير ١٩٥٣ بعد ان أوقع الضابط الاحرار قياداتها فى تناقضات داخلية تحت شعار «التطهير» وتم إلغاء النظام الملكى واعلنت الجمهورية. ثم حدث صراع على استقرار السلطة بين جمال عبدالناصر القائد الحقيقى لتنظيم الضباط الاحرار ومحمد نجيب الواجهة الرسمية للتنظيم ، انتهى لصالح جمال عبد الناصر.

الفارق بين جيل وآخر

ولابد من التأكيد هنا على ان اساس الصراع بين الاثنين يتمثل فى البعد الاجتماعى للثورة والذى لم يكن محمد نجيب قد استوعبه . وقد اصبح من المعروف الان ان محمد نجيب كان قد تم استيعابه داخل القوى السياسية القديمة ، وانه اخذ يتحدث بلسانها . ولعل ابلغ توصيف لحقيقة هذا الصراع ما قاله محمد نجيب نفسه فى كتابه « مصير مصر » من ان الصراع بينه وبين جمال عبد الناصر كان يتلخص فى ان ناصر

كان يريد ان يأكل الرغيف كله مرة واحدة، وأما هو أى نجيب ، فكان يريد الاكتفاء بنصف الرغيف ثم يطالب بالباقى. وهذا فى تقديرى يمثل الفارق الاساسى بين جيل وأخر فى العمل السياسى .. بين المناورة السياسية وبين الثورة . لقد كان منهج محمد نجيب فى الفكر السياسى بهذا الشكل لا يختلف عن منهج القوى السياسية القديمة التى خاضت معارك خاسرة مع بريطانيا من اجل نصف رغيف ولم تحصل الا على الفتات . وكان طبيعيا ان تستقر السلطة فى يد صانع الثورة جمال عبد الناصر والاطاحة بمن صنعته الثورة . ثم شرع جمال عبد الناصر بعد ذلك فى ازالة الوجود البريطانى من مصر وانتهى الامر باتفاقية الجلاء فى ١٩٥٤ وخروج آخر جندى بريطانى من مصر فى ١٨ يونية ١٩٥٦ . وبعد ان انحسر النفوذ السياسى لبريطانيا فى مصر بالجلاء ، أقدم عبد الناصر على تأميم قناة السويس فى الشهر التالى للجلاء وذلك لتمويل مشروع السد العالى عصب مشروعات التنمية الاقتصادية الاجتماعية التى بدأت الثورة فى القيام بها من خلال المجلس القومى للانتاج (١٩٥٥) . وتلا ذلك تأميم رأس المال الاجنبى لصالح نفس المشروعات وانشئت المؤسسة الاقتصادية العامة (١٩٥٧) . وكانت هاتان الخطوتان تؤكدان نية جمال عبد الناصر فى ان تقوم الدولة بالدور الاقتصادى واستخدام آلياتها لتحقيق العدالة الاجتماعية . ولقد حاولت بعض عناصر القوى القديمة وقتذاك ان تتلاعب بهذا الاجراء و تفرغه من مضمونه الاجتماعى فاقنعت عبدالناصر بفكرة تمصير رأس المال الاجنبى وليس تأميمه .

غير ان عبدالناصر سرعان ما ادرك ان التمصير لا يعدو ان يكون بابا خلفيا يدلف منه اصحاب رءوس الاموال من المصريين للحلول محل الاجانب .. فكان التأميم .

وفى اقل من اربع سنوات بعد خطوة تأميم رأس المال الاجنبى ، امتدت عباءة التأميم لتشمل وسائل الانتاج الكبرى والتجارة والخدمات التى يملكها اصحاب رءوس الاموال المصريين (١٩٦١) ، وانشىء القطاع العام ليقود اقتصاد السوق والخدمات والانتاج ، والذى كان من شأنه تحقيق طموح عبد الناصر فى النهوض بالعمال والفلاحين وسائر شرائح الطبقة الوسطى .. اذ سرعان ما اصبحت الدولة مسئولة عن تعيين خريجى الجامعات وحملة الدبلومات المتوسطة فى سائر شركات ومؤسسات القطاع العام .وكانت باكورة هذه السياسة تعيين نحو تسعة الاف خريج فى يناير ١٩٦٢ كانت اعدادهم قد تراكمت منذ عام ١٩٥٦ . وقد ادى هذا الى تدعيم الطبقة الوسطى التى اصبح ولاؤها لاتردد فيه للثورة .ومن ناحية اخرى حققت الثورة بهذا الاجراء سلاما اجتماعيا منشودا وحالت دون انحراف شباب الخريجين نحو تيارات مناوئة .

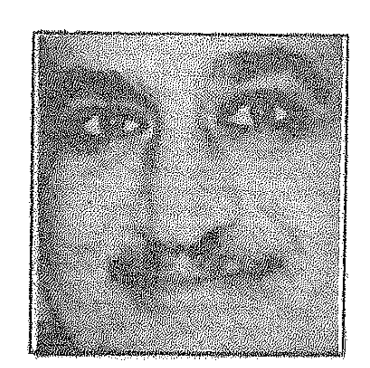


عبد الناصر يعلن تأميم قناة السويس ١٩٥٦

من الإصلاح الى الاشتراكية

وعند هذا الحد كان جمال عبد الناصر وحده دون زملائه من الضباط الأحرار ، قد تطور فى فكره الاجتماعى من الاصلاح إلى الاشتراكية . ولعل هذا يفسر خروج بعض رفاقه من مسيرة العمل الثورى وهم اولئك الذين توقفت طموحاتهم عند حد إعلان الجمهورية وتحقيق الجلاء . وعلى هذا رأيناه يعتمد الاشتراكية منهجا فى ميثاق العمل الوطنى (١٩٦٢) : ثم أسهم اليسار المصرى فى ضبط مفهوم الاشتراكية لديه بعد الافراج عن عناصر هذا التيار فى ١٩٦٤ فى ظل تفاهم وتنسيق مع الاتحاد السوفييتى فى معركة البناء ، فنراه فى ١٩٦٥ يتحدث عن التطبيق العربى للاشتراكية بعد أن كان يتحدث عن الاشتراكية العربية .

ولم يكن من المعقول ان يناضل عبدالناصر من اجل قضية العدالة الاجتماعية ويكون حليفا للمعسكر الرأسمالى الغربى او حتى قريبا منه. ورغم ان الحليف الطبيعى فى هذه الحالة يكون المعسكر الاشتراكى الشرقى، فإن عبدالناصر المتدين كان يخشى من بعد الفلسفة المادية المقترنة بالتحول الشيوعى فى هذا المعسكر . ومن ناحية اخرى كان العصر «الخمسينيات والستينيات» هو عصر عنفوان الحرب الباردة ومحاولات الاستقطاب لصالح احد المعسكرين ، ومن هنا اندفع عبد الناصر بكل قوته لتأسيس تجمع ثالث فى العالم الا وهو حركة الحياد الايجابى وعدم الانحياز فى باندونج



صناع القرن العشرين

١٩٥٥.. أى عدم الانحياز لصالح احد المعسكرين والوقوف الايجابى بجانب حركة التحرر الوطنى والتحرر الاجتماعى فى العالم . وكان قوام هذه الحركة الجديدة مستعمرات العالم الثالث التى حصلت على استقلالها بعد الحرب العالمية الثانية.

وبطبعية الحال رأت الكتلة الشرقية فى هذه الحركة الجديدة حليفا طبيعيا ولو من باب التكتيك .. اما الدوائر الغربية فقد وصفت مبادىء هذه الحركة بأنها انتهازية ولا أخلاقية.

الوقوف الى جانب التحرر العربى

وهذا التطور فى الفكر السياسى لبعد عبد الناصر فرض عليه ان يقف الى جانب حركة التحرر فى دائرة العالم العربى أولاً من باب الأمن القومى للثورة المصرية . ومن المعروف ان لكل دولة حدودا لأمنها القومى تدافع عنها .. هكذا كانت الثورة الفرنسية (١٧٨٩)، والثورة الأمريكية (١٧٧٤) والثورة البلشفية ١٩١٧ .. إلخ

وهذا يفسر الدعمين المادى والادبى اللذين قدمهما عبد الناصر للثورة العربية التحررية فى الجزائر والمغرب وتونس والعراق واليمن وليبيا ، وكذا دعم حركة التحرر الاجتماعى والتحول الى الاشتراكية فى سائر المعمورة .

فى هذا السياق وليس فى غيره يجب ان نفهم ادارة عبد الناصر لحركة الوحدة العربية وللصراع مع اسرائيل باعتبارها عقبة فى سبيل الوحدة والى عبد الناصر ينسب فضل التعظيم من شأن المشكلة الفلسطينية والانتقال بها من مشكلة لاجئين تبحث الامم المتحدة عن وسيلة لإعاشتهم الى لن تكون قضية المصير العربى المشترك . ومن هنا احتضانه المقاومة الفلسطينية التى تمثلت فى حركة فتح كبرى المنظمات الفلسطينية . والاكثر من هذا تحديد علاقة مصر بدول العالم على اساس موقف هذه الدول من القضية

ولا شك ان صك شعار «حرية - اشتراكية - وحدة» بعد انفصال سوريا من الوحدة مع مصر (الجمهورية العربية المتحدة) يمثل نضجا ملحوظا عند عبد الناصر فى ترتيب خطوات حركة التحرر الوطنى والاجتماعى العربى ، بل ان تحقيق الوحدة السياسية على اساس التنظيم الاشتراكى للاقتصاد يمثل اضافة فى نظرية القومية وذلك نظرا لان الفكر الماركسى يرى فى حركة القومية حركة البرجوازية من أجل السوق .

وهذا الطموح فى بناء القوة الذاتية للأمة العربية ورفع شعار «نفط العرب

للعرب» أوقع عبد الناصر فى الشرك الذى نصبه له خصومه التقليديون فى الغرب الاوربى الامريكى للايقاع به باعتباره عقبة فى سبيل السيطرة على المنطقة . وقد ساعدهم فى هذا بعض القوى العربية المعادية لحركة التقدم والتنمية العامة .. فكان العدوان الثلاثى فى ١٩٥٦ وعدوان يونية ١٩٦٧. وكان لابد من الهزيمة ...، ولكن جمال عبد الناصر ابدا لم يتنازل عن طموحه ، وكان يسعى للسلام ولكن بشروطه ، ومن هنا شعار «السلام القائم على العدل» . واما السلام الذى كان الخصوم يقدمونه له فقد وصفه بأنه استسلام وليس سلاما .. ودائما ما كان يردد بالعامية البليغة قوله : اذا اعدائى مدحونى يبقى انا ماشى غلط .

ولكن ..

ماذا يقول خصوم عبد الناصر عن تجربته فى البناء والتنمية والتحرر الوطنى والوحدة العربية ؟!

لابد من التأكيد على ان خصوم عبد الناصر فى المقام الاول هم اعداء هذه التجربة التى نالت من مكانتهم الاجتماعية وامتيازاتهم السياسية . ويتلخص هجوم هؤلاء على عبد الناصر فى حياته وفى مماته على الاجراءات التى لجأت اليها الثورة فى تأمين مسيرتها من حيث ملاحقة العناصر المناوئة والمعارضة للثورة ومحاكمتهم وتوقيع العقوبات عليهم ، وعلى تبديد اموال البلاد فى الصرف على تأييد الثورات التحررية فى المحيط العربى ، والانفراد بالحكم واسقاط الديمقراطية من حساباته

غير ان هذا الهجوم ليس موضوعيا بحال من الاحوال ذلك ان اصحابه لا ينظرون للإجراء فى سياقه العام ويكتفون بظاهر الشيء دون مضمونه . فمن المعروف ان الثورة فى اى منطقة من مناطق العالم هى حدث استثنائى بطبيعته يستهدف تغيير واقع معين ، ولابد من اللجوء الى إجراءات استثنائية لتأمين الثورة من أعدائها فى الداخل وفى الخارج على السواء ، هكذا حدثت الاستثناءات فى كل ثورات العالم ، فى الثورة الفرنسية وفى ثورة المستعمرات الامريكية ، وفى ثورة البلاشفة الروس .. وكل قوة سياسية اعتلت الحكم فى بلدها أقدمت على اجراءات استثنائية لحماية نفسها من خصومها ، وقد حدث هذا فى أشد البلاد محافظة واكثرها ليبرالية . اما اذا قام جمال عبد الناصر بمثل هذه الاجراءات يصبح ما يقوم به عند خصومه عملا لا اخلاقيا. ولقد كان من الممكن ان تصبح ثورة يولية محور جبهة واحدة من العمل الوطنى لو ان كل القوى السياسية القائمة آنذاك تكاتفت معها خاصة ان هذه القوى كانت تستهدف فى حركتها تحقيق الجلاء ومحاصرة طغيان الملك . غير ان تلك القوى المعادية كانت تسعى لتستخلص لنفسها الحكم ورفضت ان تتكاتف مع قوة سياسية سبقتها فى تحقيق نفس الاهداف، ومن ثم دخلت فى صراع طويل مع عبد الناصر كان لا بد ان ينتهى بإجراءات استثنائية من حيث الاعتقالات

والسجن والمصادرة .. الخ .

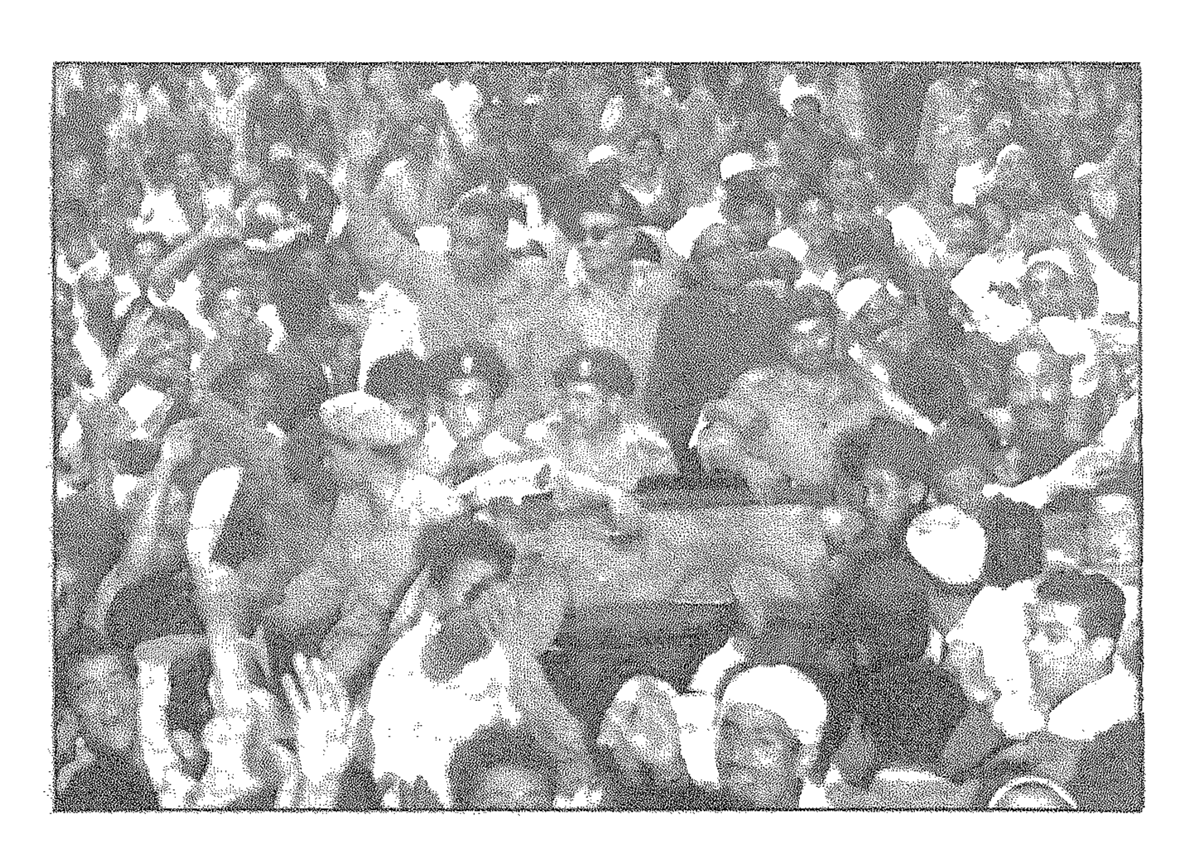
واما بالنسبة لدعم ثورات التحرر الوطنى فلا ينبغى ان توصف بأنها مجرد تبديد اموال ، لأن المسألة اكبر من ان تكون سوقا للبيع والشراء والمزايدة .. المسألة ببساطة تتعلق بتأمين الثورة لأن ثورة يولية فى ١٩٥٢ قامت فى محيط يعادى حركة التحرر الوطنى والاستقلال من براثن القوى الاستعمارية ، وان تركها تنجح وتنمو يمثل تهديدا لمصالح القوى الاستعمارية الكبرى فى المنطقة ، وبالتالى سعت هذه القوى اما لتحطيم الثورة ، واما حصر تأثيراتها بحيث لا تتجاوز حدود مصر ، وضرب الحصار عليها الى ان تموت . ومن هنا كانت محاولة عبد الناصر تأمين الثورة بتوسيع رقعة الثورات فى المنطقة المحيطة حتى لا يحارب وحده معركة مصير الانسان العربى الجديد . ولم تكن ثورة يولية تنفرد بهذا النوع من التطورات .. فقد حدث هذا فى فرنسا عندما قامت ثورتها وعملت النظم الملكية الاقطاعية المحيطة على تحطيمها ومنع امتداد تأثيراتها فى القارة الاوربية ومن هنا كانت حروب الثورة التى اشعلت الروح القومية فى اوربا ضد الامبراطوريات الحاكمة . وحدث هذا ايضا عندما اعلنت الجمهورية الامريكية الجديدة ان امريكا امتداد لأمنها ثم اصبح الامن القومى الامريكى منذ منتصف القرن العشرين فوق الكرة الارضية كلها . وحدث ايضا عندما عملت ثورة البلاشفة الروس على دعم الاحزاب الشيوعية فى المناطق المحيطة لتوسيع مجال قوتها وتأثيرها .. ولم يقل احد من المؤرخين بخطأ هذه الاجراءات .. لكنه يحدث فى مصر فقط من قبل خصوم واصحاب مشروعات تسعى للسلطة ولا شىء اكثر من هذا ، ولو نجح احد هؤلاء الخصوم فى الوصول للسلطة لعمل على تأمين سلطته ضد خصومه بكل الوسائل .

قول غير دقيق

واما القول بأن عبد الناصر انفرد بالحكم واسقط الديمقراطية من حساباته وحال دون تداول السلطة بعد أن كانت مصر قد حققت الديمقراطية والليبرالية فى اطار دستور ١٩٢٣، فإنه قول غير دقيق ويسقط من حساباته الكثير . والحقيقة ان الديمقراطية منذ بدأت فى بلاد اليونان (اثينا) كانت عبارة عن حكم اصحاب المصلحة الحقيقية .. واصحاب المصلحة الحقيقية هؤلاء يتغيرون من فترة لفترة حسب مقتضى تطور الظروف والاوضاع الاقتصادية والتى تنتج بطبيعتها قوى اجتماعية معينة تسعى للسلطة لتأمين مصالحها . وفى أكثر الاحوال تقدما تترك هذه القوى الجديدة الحاكمة هامشا من حرية التعبير للقوى الاخرى (القوى الثانوية) فيما يعرف بالجماعات الضاغطة

وكل قوة من هذه القوى الثانوية الضاغطة حسب مهارتها فى التوصل الى تمرير مصالحها عبر السلطة التشريعية القائمة .

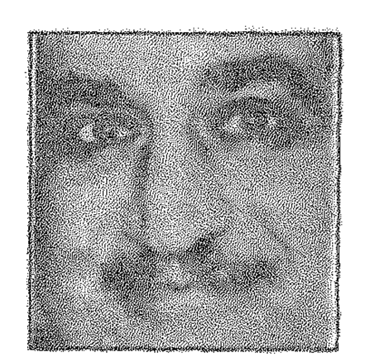
وفى هذا الاطار كان دستور ١٩٢٣ فى مصر يعبر عن اصحاب المصالح



الإصلاح الزراعى

الحقيقية كما حددهم أحمد لطفى السيد من كبار ملاك الاراضى الزراعية واصحاب رءوس الاموال ، وكان من الطبيعى ان يتمتع كل هؤلاء بالسلطات التشريعية والتنفيذية . وكان من الطبيعى ايضا انه عندما تقوم ثورة ١٩٥٢ ضد اصحاب المصالح القديمة ولصالح الطبقة الوسطى والعمال والفلاحين ، أن تصبح الديمقراطية لهذه القوى الجديدة فى السلطتين التشريعية والتنفيذية . وهذا ما يفسر مقولة عبد الناصر : الحرية للشعب ولا حرية لأعداء الشعب .

واما ما يقال من ان عبد الناصر ألغى التعددية السياسية التى كانت مصر تتميز بها قبل ١٩٥٢ وتداول السلطة فيما بينها .. فإنه وهم كبير وخطأ تاريخى ذلك ان الاحزاب السياسية قبل ١٩٥٢ والتى كانت تتداول السلطة فيما بينها ، كانت جميعها تعتبر حزبا سياسيا واحدا مختلف الاشكال لأنها جميعا بدرجة أو بأخرى احزاب ملاك الاراضى الزراعية واصحاب رءوس الاموال الصناعية والتجارية ، وكانت جميعها تحول دون وصول القوى السياسية المناوئة الى السلطتين التشريعية والتنفيذية ، وعلى رأس هذه القوى : الاخوان المسلمون ، ومصر الفتاة ، وفصائل اليسار .. فأين تداول السلطة والحال كذلك .. وما معنى التعددية الحزبية المنشودة . ومن الطريف أن نذكر ان سعد زغلول باشا رفض ان يرشح عبد الرحمن فهمى الذى قاد العمل السرى فى ثورة ١٩١٩ أثناء وجود سعد فى باريس ولندن



صناع القرن العشرين

.. رفض ان يرشحه في إحدى الدوائر الانتخابية فى انتخابات ١٩٢٤ التى جاءت بالوفد الى الحكم لاول مرة لا لسبب سوى ما تردد عن عبد الرحمن فهمى من انه يطول من سيرة سعد زغلول فى جلساته الخاصة ، وان مصطفى النحاس باشا رفض ان يرشح حسن البنا زعيم الاخوان المسلمين لنفسه فى انتخابات عام ١٩٤٢ ، ومع ذلك فان سدنة النظام السياسى فى مصر قبل ١٩٥٢ لم يجردوا سعد زغلول او مصطفى النحاس باشا من صفة الديمقراطية ، بل ان خصوم هذه الفترة لم يسقطوا الديمقراطية عن حكومات الوفد لأنهم يميزون بين ما هو استثنائى فى الحركة وما هو أساسى .

وينبغى التأكيد هنا على ان صيغة الديمقراطية هذه قائمة فى اعتى النظم الديمقراطية فى الغرب الأوربى الأمريكى. فالحزبان الرئيسيان فى الولايات المتحدة ، وهما الجمهورى والديمقراطى ، يتداولان وحدهما السلطة فيما بينهما ، والاثنان عبارة عن حزب واحد فى السياسة الخارجية ولا يختلفان الا قليلا فى الداخل من حيث الموقف من الطبقة الوسطى ، ويتحدان معا ضد القوى السياسية المناوئة هناك (راجع على سبيل المثال المكارثية فى الخمسينيات).

فهل اختلف عبد الناصر في مسيرته الديمقراطية عن هذه الصيغة العالمية ؟! وهل كان مطلوبا منه فى السنوات الأولى من الثورة التى يدعم فيها سلطاتة ان يحتضن اعداءها بدعوى الديمقراطية ؟! .

ثورة بيضاء

اما نقاد عبد الناصر العلميون فانهم يضعون الاستثناءات المصاحبة للعمل الثورى فى حجمها الطبيعى الملازم للثورات ، ويأخذون عليه عدم المضى بخطوات اسرع نحو الاشتراكية ، وانه كان يطبق الاشتراكية بالفنيين والسياسيين الذين تثقفوا وتعلموا فى جماعات الغرب الرأسمالى او الجامعة المصرية قبل ١٩٥٢ حيث لم يكن هناك مجال الا لدراسة الاقتصاد الحر وفلسفاته، وانه اعتمد على الجهاز الادارى الرأسمالى القديم فى ادارة دولة الاشتراكية ، وسمح لأصحاب الشركات المؤممة بادارتها بدلا من ان يطيح بهم .. لكن عبد الناصر كان يقول انه يسعى الى تصفية الطبقة الحاكمة وتجريدها من سلاحها الاقتصادى ولا يسعى الى تصفية الافراد انفسهم كبشر .. وكثيرا ما كان يفخر بأن الثورة نجحت دون إراقة دماء وانها بيضاء .

وبعد .. فإذا كان المؤرخون من العرب

ومن العجم يجمعون على ان محمد على باشا هو مؤسس مصر الحديثة، وهو الذى أدار اقتصاد الدولة باسلوب الاحتكار ، واغلق السوق المصرية امام المنتجات الاوربية ، وحقق بناء القوة الذاتية لمصر ، وسعى الى تحقيق امنها القومى بضم السودان وبلاد الشام .. فان عبد الناصر بكل ما اقامه من انجازات فى هذا المجال تجاوزت آفاق متطلبات عصر محمد على .. يعد بحق مؤسس مصر المعاصرة .

ويكفى التأكيد على القول فى هذا الخصوص ان الفلاح المصرى الذى قال له عبد الناصر : ارفع رأسك يا أخى فقد انقضى عهد الاقطاع ، لم يبرح ارضه تحت ضغط الظروف الاقتصادية ، وان العامل المصرى الذى أمن على مستقبله من فصل صاحب العمل له فى أى لحظة ولأى سبب لم يهجر وطنه بحثا عن لقمة العيش ، وان جميع المصريين فى زمن الهزيمة (١٩٦٧) كانوا يجدون قوت يومهم وعلاج مرضاهم والترويح عن انفسهم بالسعر المناسب مع الدخل المحدود ، وانهم لم يشعروا بالتضخم الاقتصادى ، وان المصريين جميعا كانوا يفخرون بوطنهم .. وطن العزة والكرامة .. وطنا خالصا لهم من أى نفوذ اجنبى بعد ان فرض عبد الناصر على الاستعمار ان يحمل عصاه على كتفه ويرحل .. وطن كل المصريين على اختلاف عقائدهم .. وطن السلام الاجتماعى .

ان عبد الناصر فى كل ما فعله كان نموذجا للفرد البطل الذى كانت حركته استجابة لمطالب القوى الاجتماعية التى قامت الثورة من أجلها .. عناصر الطبقة الوسطى والعمال والفلاحين ومثقفيهم الذين دخلت قياداتهم قاعة الهيئة التشريعية والتنظيم السياسى ومجالس ادارة الشركات والمؤسسات للحفاظ على ما اكتسبوه .

وللأسف .. ان الظروف لم تسمح لعبدالناصر ان يكتب مذكراته السياسية التى من شأنها ان تساعد الباحث على التعرف بدرجة اكبر على مدى الوعى عنده وعلى حقيقة المشروعات التى كانت تدور فى ذهنه ، لأنه مات وهو يصنع التاريخ ، ومن ثم ترك الساحة مباحة لمن يحكم على وقائع دون دراستها فى السياق العام ، مع ان المنهج العلمى يعلمنا ان دراسة التاريخ تقوم على تفسير الوقائع وليس الحكم عليها ، وان تفسيرها يتطلب دراسة الظروف الموضوعية بحثا عن الاسباب والعلل وراء مجرى الوقائع ، والتحقق مما اذا كانت استجابة لواقع معين ام كانت قفزا على المكان والزمان .. ان البحث فى التاريخ يفرض على الباحث ان يتحرر من ارتباطاته السياسية المتغيرة .

ان جمال عبد الناصر لم يكن قائدا لثورة ١٩٥٢ فحسب ، بل كان زعيما للأمة العربية دون منازع ، ورائدا من رواد العالم الثالث ، وسياسيا بارزا فى عالم الحرب الباردة .

ولا يزال فى مماته كما كان فى حياته يؤرق الخصوم ويثير الجدل وهذا هو شأن الشخصيات التاريخية الكبيرة ●●

أقـــوال معاصرة


ياسر عرفات


جيمس بيكر

● «المارك هو الهوية الوطنية الوحيدة في المانيا»

المسرحى الالمانى هاينز موللر

● «الدولة الفلسطينية غدت علي مرمي الحجر»

ياسر عرفات

● «أنا شخص معدم يعيش فى كوخ بالتبت ولا يهوى الأشياء»»

الممثل الامريكى ريتشارد جيرى

● «لا أحد كان يستطيع أن يقول لستالين لا»

الموسيقار الروسى تيخون كرينيكوف

ورئيس اتحاد مؤلفي الموسيقي في الاتحاد السوفييتي سابقا

● «النجاح المستمر ، المتكرر ، مضر لروح الانسان»

المخرج الامريكى بول موريس

● «لم يكن بوسع أحد أن يتنبأ بأن الاتحاد السوفييتي سيلقي به في مزبلة التاريخ»

جيمس بيكر

وزير خارجية الولايات المتحدة الأسبق

● «أفضل الجوع ، وتناول الطعام مع الشيطان ، حتي تتاح لي فرصة الاستمرار قائدا للاوركسترا» .

جورج زولتى

قائد اوركسترا شيكاغو سابقا

● «ثمة دواء جديد واعد للايدز وجميع المؤشرات تدعو للتفاؤل ، ومن الخطأ ألا نكون متفائلين»

ويليم بول

رئيس المكتب الاتحادى

لابحاث الإيدز فى الولايات المتحدة

● «إنني شديد الاعجاب باصرار الفلسطينيين علي تأدية واجبهم الانتخابى».

رايموند برى

عضو البرلمن الاوربى

صناع القرن العشرين :

باولو فريرى
أهم مفكر تربوى فى القرن العشرين

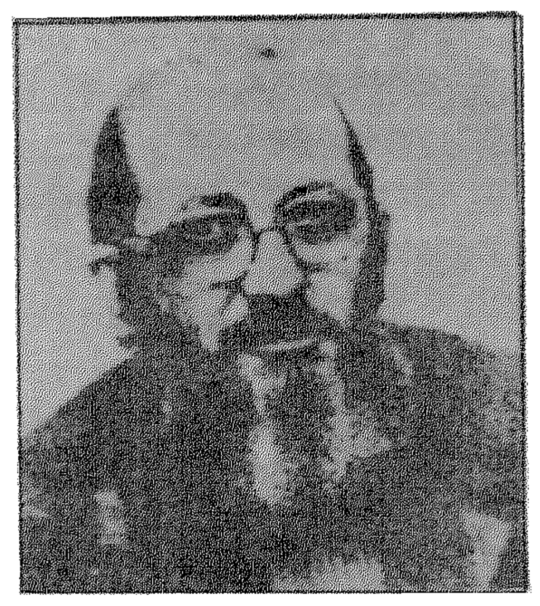
بقلم : د . حامد عمار

□ تناولنا فى الجزء الأول سيرة پاولو فريرى الذى ولد فى البرازيل ، وعاش فقيرا ، ودوره فى محو أمية شعبه بعد أن وهب نفسه ليخدم ويناضل فى مجال التعليم ، حتى أصبح واحدا من القلائل من فلاسفة التربية، ونواصل فى هذا الجزء المحاور الأساسية لفلسفته فى التعليم .

التعليم هو الوجه الآخر للسياسة

فى ذلك السياق يتضح أول محور أساسى من محاور المنظور التربوى لفريرى، حيث يؤكد أن التعليم والسياسة نسيج واحد فى لحمته وسداته . ولا يتردد فى هذا التأكيد على أن النشاط التعليم عمل سياسى بالدرجة الأولى وذلك هو اللحن المميز لمجمل فلسفته من خلال تلك العلاقة الدينامية بين المعرفة والتعلم والسلطة . ويعزز ذلك بقوله (إن هناك وجها سياسياً للتعليم، كما أن هناك وجها تعليميا للسياسة، وترتبط آليات كل منهما وطرقه ورسائله بمدى الحرص إعادة انتاج الأوضاع القائمة أو العمل على تغييرها إذا ما توافق كل منهما على السعى إلى تحرير طاقات الإنسان . وبهذا التصور

باولو فريرى



للتعليم كهملية سياسية ، وللسياسة كعملية تعليمية ، يقرر أنه ليس ثمة تعليم محايد ، وانما هناك تعليم من أجل القهر أو تعليم من أجل التحرير ، يبد أن أوضاع التعليم

السائدة انما تدعم جانب القهروتكوين ثقافة الصمت والإذعان لسلطة القاهر وإعادة إنتاج النمط الإنساني.. ولعلنا نتذكر في هذا السياق مقولة الطيب الصالح في روايته «موسم الهجرة إلى الشمال» حين يشير إلى أن أصحاب السلطة إنما يرسلوننا إلى المدارس لكي نقول لهم «نعم»، وأضيف من عندي أنهم يعلموننا أن نقول لهم «نعم» في كثير من المواقف.

والتعليم كسياسة للسلطة المهيمنة تتجلى وسائله في القهر السياسي في معظم ما تتضمنه عناصره ومكوناته وعملياته المفروضة من أصحاب تلك السلطة، هناك توجه سياسي - لا ديمقراطي - حتى فيما يتجسد في الفصل من العلاقة بين المدرس والتلميذ، وفي المناهج الدراسية، وفي أحادية الإجابة على الأسئلة بالحقائق الثابتة المطلقة، وفي عدم التقدير لأفكار التلاميذ وخبراتهم، وفي عمليات الامتحان ومناخه، وفي مستوى الأبنية المدرسية في مختلف أنواع المدارس مما يوحي باختلاف مواقع التلاميذ ومكاناتهم في المجتمع، وبين المدارس الخاصة والرسمية، وفي الإدارة البيروقراطية، وفي الكتب المدرسية المقررة، وفي نظام توزيع الطلاب على مختلف التخصصات، وفي القيمة التربوية المتدنية للفنون والرقص والموسيقى، وفي أساليب العقاب والثواب وفي مدى الانجاز أو الفشل، بل وفي اقتصار العملية التعليمية على التلقين والمعرفة المقدمة من المدرس دون اهتمام بعملية التعليم الذاتي، وفي إجهاض عمليات التفكير المبدع والخيال الحي وفي العلاقة بين نوع التعليم وفرص العمل، إلخ.

● انعكاس السياسة في المدرسة

ويرى فريري إن كل ما يتعرض له المتعلم في المدرسة من خبرات له أبعاد ونتائج سياسية تتدعم سنة بعد سنة طوال مراحل التعليم، مستهدفة ترسيخ ثقافة السلطة ومحققة للاتباع والتكيف مع المسلمات والقيم المعرفية والسلوكية التي تنشدها السلطة وفي مثل هذا التلقين السلبي للمتعلم لن يتهيأ له أن يجد نفسه كإنسان فاعل يستطيع تجديد المعرفة أو تطوير الحياة في مجتمعه.

تلك هي بعض المفاصل التي تربط بين المضمون السياسي والتنظيم التعليمي، والتي تعكس في التعليم التقليدي العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية في البنية المجتمعية خارج نطاق التعليم، وهي في المدرسة كما في المجتمع تقوم باختصار على مفهوم سيادة السلطة وفرض ثقافتها سواء من خلال المدرسة أو أجهزة الإعلام أو غيرها من وسائل التوجيه والدعوة والدعاية. وفي المدرسة تختبيء السلطة وجوباً أو جوازاً في مضمون ما يتعلمه الطالب وفي الطريقة التي يتعلم بها، فالمعلم كما يقول فريري هو مصدر المعرفة الوحيد، وكأنما التلاميذ ليست لديهم أية معرفة. وهو الذي يتكلم

والتلاميذ يستمعون وهو الذات الفاعلة والتلاميذ مفعول بهم ومن ثم فإن موقف التدريس فى الفصل يمثل على هذا النحو موقف هيمنة السلطة السياسية فى المجتمع، مما يتناقض مع ذاتية المتعلمين ومعارفهم وحقهم فى المشاركة فى عملية التعليم والتعلم.. وفى مقابل ذلك تنشد وظيفة التعليم التحريرى العمل على اقتلاع ثقافة الصمت، وتمكين المتعلمين من أن يؤدوا دور الفاعل الواعى إلى جانب دور المتلقى الواعى فى علاقة جدلية بين المرسل والمستقبل. ولا يعنى هذا أن يفقد المعلم إنسانيته وحريته كصاحب خبرة ومعرفة أنضج من طلابه، لكنه فى الوقت ذاته لا يحق له أن يجردهم من خبراتهم ومن إنسانيتهم ومن حقهم فى المشاركة والتساؤل، ومن إدراك أن المعرفة قابلة للشك والتفنيد والمراجعة والتجديد.

● التوظيف الاجتماعى السياسى للتعليم

إن هذه الصلة العضوية بين السياسة والتعليم وما يتجسد فى الموقف التعليمى من تعارض أو تناقض فى المصالح بين المدرس «السلطة» والتلميذ «المذعن» تجد لها دعماً من أنصار المدرسة النقدية فى التربية من أمثال أساتذة مدرسة فرانكفورت ومنهم هوركهايمر وادورنو وهبرماس وماركيوز، ومنهم بورديو وفوكو فى فرنسا، وجيرو وماكلرن وارك فروم فى الولايات المتحدة. وهذه الفرقة من الفلاسفة وعلماء الاجتماع والنفس يتجهون فى تحليلهم للتعليم من منظور كونه قوة سياسية فى يد السلطة المهيمنة، ويدعون إلى تحرير الإنسان من خلال تعليم مغاير، ويرى معظمهم أن عملية التحرير إنما تتجسد فى تعليم تصبح قراءة العالم فيه من خلال قراءة الكلمة المعبرة عن قدرة الإنسان على تنمية ثقافة المقاومة لا ثقافة الصمت.

بيد أن كلا من الليبراليين والماركسيين التقليديين، ينقدون آراء فريرى من حيث إصراره على أن جوهر التعليم هو سياسة فيرى الفريق الأول أنه لا توجد حالة تعارض أو تناقض أو حالة قهر بين المعلم والتلميذ، وأن هناك فرقاً بين أسلوب السياسة الذى يمارس توجهاته وممارساته من خلال قوة السلطة وحقائقها، بينما تمارس توجهات التعليم من خلال قوة المعرفة وحقائقها، لكن ذلك من وجهة النظر الفريرية يعنى تصور اجراءات التعليم ومناهجه ونظمه وممارساته منتزعة من سياقها الاجتماعى والتاريخى، ولهذا يلجأ الفريق الليبرالى عادة إلى الحديث عما ينبغى للتعليم أن يستهدفه ويحققه، متجاهلين علاقاته القائمة وتشابكاته الحادثة مع الأوضاع المجتمعية الراهنة، والواقع أنه لايمكن تغيير التعليم دون تغيير فى تلك العلاقات والتفصيلات، ومن هنا يسود فى النظريات التربوية الليبرالية التركيز على الفرد المطلق وعلى دور التعليم فى نقل المعرفة والتراث الثقافى، وعلى عمليات التشكيل الاجتماعى للمتعلم، وأن مهمة أى تعليم سياسى فى المدرسة إنما يقتصر على

الإلمام بحقائق المجتمع وأوضاعه من أجل أن يمارس الإنسان السياسة فيما بعد، أى بعد أن يترك المدرسة، وعلى حد قول فريرى يبيح هذا أنصار هذا الفريق مجرد الحديث عن الأوضاع السياسية فى العملية التعليمية، لكنهم لا يسمحون للطلاب أن يصنعوا السياسة أو يمارسوها داخل المدرسة، ومن الواضح أن هذا التوجه لايتفق مع منظور فيلسوفنا فى وحدة الفكر والعقل كأساس لتحرير الإنسان.

● التوظيف الاجتماعى من اتجاهين

والمحور الثانى المتميز فى منظور فريرى التعليمى هو دعوته إلى فهم التوظيف الاجتماعى للتعليم من بعدين أساسيين، أولهما تحليل النظام التعليمى انطلاقا من التركيب الطبقى للمجتمع وأيديولوجية القوى المسيطرة، وهذا ما يسود من توجه فى دراسات المدرسة النقدية للنظام التعليمى كما سلفت الاشارة، والذى يركز على توظيف السلطة المهيمنة له فى إعادة إنتاج نمط الشخصية المتكيفة مع مطالب البنية المجتمعية وقبول أوضاعها الراهنة، ومع أهمية هذا البعد فى التحليل فإن فريرى يرى كذلك ضرورة دراسة نظام التعليم وعملياته من منطلق الفقراء والفئات الاجتماعية المقهورة، أى من خلال ثقافة القهر والصمت، وقيمة التعرف والتحليل لواقع التعليم من هذين المنطلقين هو استكشاف إمكانية تطوير الناتج التعليمى ليكون إنسانيا، بما يجعل من مضمون التعليم وطرائقه وسيلة من وسائل خلق ثقافة أصيلة جديدة، وهذه الثقافة أو العمل الثقافى الجديد إنما يتولد من تلك العلاقة بين المعرفة والسلطة، ذلك أن القهر الذى يسلب المقهور إمكانية نموه الإنسانى - تفكيرا وفعلا - هو فى الوقت ذاته يسلب القاهر مقومات إنسانيته فى اعتدائه على إنسانية الذين يرزحون تحت استغلاله، ومن ثم لابد للثقافة الجديدة من الخلاص من الاتجاهات اللا إنسانية لدى القاهر والمقهور.

ولتوضيح ذلك نشير إلى أنه من الظواهر الاجتماعية المألوفة أن المغلوب مولع بتقليد الغالب حتى فى ممارسة اشكالية القاهر والمقهور، فكثيراً ما يتطلع المغلوب المقهور إلى قهر من دونه كلما اتيحت له الفرصة، كما يسعى جاهداً إلى الوصول إلى أى مواقع فى سلم الهيمنة. ومن ثم فإن طموحه لإمتلاك بعض مصادر القوة لكى يصبح قاهراً بدوره لا يؤدى إلى تحرره الإنسانى، وتظل ظاهرة القاهر والمقهور فى حلقة حلزونية تمسك بخناق التغيير الاجتماعى وتعطل تخفيف مظاهر هذه الاشكالية والقضاء عليها وتجاوزها. وعلى حد تعبير فريرى ليست مهمة المقهورين مقتصرة على التخلص مما يتعرضون له من قهر وأن يتحرروا من قاهريهم، بل عليهم أيضا أن يحرروا قاهريهم ويعيدوا إليهم إنسانيتهم فى مسيرة التغير المجتمعى.

وفى جميع الحالات فإن تربية المقهورين للتحرر تتطلب إيقاظ وعيهم

بمصادر ومضمون ما يرزحون تحت وطأته، والسعى إلى أن يكتسبوا من خلال تنمية التفكير النافذ لصور الزيف والأسطورة فى ثقافتهم ومن خلال تمكينهم من التنظيم الجماعى دفعاً لحركة الانجاز والتغيير.

● الخوف من الحرية

طبيعى أن تكون استثارة الوعى مهمة ضرورية للتحرر نظرا لما يشيع فى ثقافة الصمت من خشية ما يمكن أن يحمله التحول من مجهول المخاطر، أو من نتائج الخروج عن مألوف العلاقة التى انتظمت فى الاستجابة للقاهر. وفيما يضطرب به الصراع الكامن فى نفوسهم بين سلطة القاهر واستكانة المقهور. يتجلى ما عبر عنه عالم النفس «ايرك فروم» فى كتابه المشهور «الخوف من الحرية»، وقد ظهرت الطبعة الأولى من الكتاب باسم «الهروب من الحرية». ولعل هذا الخوف من الحرية أو الهروب من تحمل مسئولياتها هو الذى سيطر على تعليمنا ليجعله اجترارا للثقافة المهيمنة أو سعيا للجمود السلفى، وما يرتبط بذلك من تجنب للمغامرة وحب الاستكشاف، أو محاولة البحث عن بدائل وأنماط جديدة مبدعة فى الفكر والفعل والثقافة والتعلم.

وفى إطار ذلك كله يرى فريرى أن التعليم من أجل تحرير وعى الإنسان وتنمية طاقاته – وبخاصة لدى الفئات المقهورة – ليتجاوز واقعه فى تناقضاته، هو السبيل إلى إنسانية الإنسان، وهو الأمل المرجى من التعليم ومن العمل الاجتماعى، إذ أن الإحساس باليأس وفقدان الأمل والخوف من الحرية، كما يؤكد فيلسوفنا، هو الذى يهيىء التربة الخصبة لنشوء الهيمنة الفاشية فى أى مجتمع من المجتمعات.

● الفلسفة وفساد الثنائيات

والمحور الثالث للفلسفة الفريرية هو اهتمامها بمنطلقات الفلسفة التربوية من الرؤية الفلسفية العامة المرتبطة بواقع الأوضاع فى كل البيئات التى تنتمى إلى العالم الثالث، حيث ترتكز عملية التعليم لدى فريرى على خصائص تلك البيئات من حيث شيوع القهر فيها، ووجود قطاعات كبيرة من البشر تعيش مهمشة فى ثقافة الصمت، وفى الوقت ذاته تعانى من استمرار اعتمادها على القوى الاستعمارية والمهيمنة فى عالم الشمال، وفى هذه الخصيصة الأخيرة يلتقى فريرى مع أصحاب نظرية التبعية بأبعادها المختلفة فى مسيرة الاقتصاد والاجتماع والثقافة فى العالم الثالث، والواقع أن نظرية التبعية هذه قد صاغها علماء الاقتصاد والاجتماع فى أمريكا اللاتينية، وشاعت كما شاعت أفكار فريرى فى أدبيات التنمية فى العالم الثالث، ويرون أن المطلوب فى جميع الحالات هو تنمية ذاتية منطلقة من اشكاليات وخصوصيات أقطار العالم الثالث، وتوليد ثقافة أصيلة مبدعة من الفكر والممارسة والوعى بقيم شعوب تلك الأقطار وحاجاتها، وهذا كله يقتضى علاقة جدلية بين الفكر والواقع، وبين النظر والممارسة فى حركة مستمرة، تقيم

وتصحح كلا من النظر والتطبيق، مستمدة أساسا من حركة تلك الشعوب وخبراتها التنموية.

وعلى امتداد كتاباته يؤكد أهمية التصور الفلسفي لقضايا التعليم من منظور حركة الإنسان وإرادته في المجتمع، ويردد وحدة التفكير والتدبير العملي، إذ أن الفكر دون علاقته بالعمل إنما يتحول إلى «عملية لفظية»، والعمل بدون فكر يتحول إلى «نشاط ساذج دون وعى»، وفي صدد تكوين ثقافة أصيلة يرى أن الاستيراد العشوائى والنقل السطحى لتكنولوجيا العالم الصناعى والذى يتجاهل مضمون ومستوى ثقافة الجماهير، وغالبيتهم المقهورة على اعتبار أنها معوقة للتقدم، سوف يؤدى إلى صور جديدة من القهر لا تختلف كثيرا عن الأساليب الأخرى التى تستخدمها بعض النظم فى الهيمنة وانتزاع إنسانيتهم كذلك يندد فى فلسفته التربوية بأولئك الذين يدّعون بأن الإنسان المعاصر محتاج إلى القليل من التكنولوجيا والكثير من الأجواء الإنسانية. وهو يجد أن التعارض فيما بين العلم والتكنولوجيا وبين المقومات الإنسانية إنما هو تعارض فاسد فى منطقه وواقعه، فالناس فى حاجة إلى التكنولوجيا، وهى على كل حال نتاج ثقافى، لكنها ليست محايدة، فقد تستخدم لخير البشرية، كما قد تستخدم فى إشاعة البؤس والفقر، وتجريد الإنسان من إنسانيته، والمطلوب هو الوعى الثقافى الأصيل للموازنة والتكامل بين التوظيف التكنولوجى وتحرير طاقات الناس حتى لايستمر التخلف، أو يزداد الاغتراب، وفى إطار هذه التوليفة المتوازنة الواعية، يرى فريرى القصور والتشوه فى قيام المؤسسات الديمقراطية وآلياتها المجسدة للبعد الرأسى، إذ أنها لا تمثل شرطا كافيا، تتجاهل البعد الأفقى والمتجسد فى ضرورة التعليم والوعى الثقافى القائم على إدراك الناس لعالمهم من خلال التفكير والتعبير والتأثير.

● الحياد تقية

ومن محاور فلسفة فريرى التربوية إنكاره لمفهوم الحياد فى المعرفة والتفكير، ذلك أنهما يرتبطان بتحديد المعرفة والتفكير مع من، وضد من ومن أجل تحقيق ماذا، والحيادية فى التعليم، إنما هى محاولة لإخفاء خيارات الإنسان، وتكنيك لفهم الحقائق منتزعة من سياقاتها التاريخية والاجتماعية لتبدو مجردة.

وفى كثير من الأحيان يرى البعض فى موقفه الحيادى ستاراً لإخفاء موقفه من السلطة المهيمنة وأوضاعها الراهنة وخوفا من ممارسة الحرية، ولا يعنى هذا أن يفرض الإنسان رأيه، وإنما عليه أن يدافع عنه ويلقى مايستطيع من أضواء مبصرة به موضوع البحث وذلك حق كل فرد فى التشارك مع آراء الآخرين، وليس هناك رأى فردى صحيح على إطلاقه، وإنما الصحيح هو رأى الجماعة المتمحص من حوارها الديمقراطى. وذلكم هو ماينبغى أن نرسخه فى عملية التعلم عن طريق أساليب وتقنيات المنهج الديمقراطى فى التعلم ومراجعة التعلم وإعادة التعلم، وهذا

هو ما عرف به فريرى من تأكيده على الأسلوب الحوارى فى التعليم والتعلم.

● الحوار وسيلة وهدفا

ننتقل أخيراً إلى الأسلوب التعليمى الذى اصطنعه فريرى لكى يكون أداة لتحرير الإنسان وليس لاستئناسه، ولتحقيق ثقافة أصيلة وليس لثقافة مشوهة، إذ كان يرى أن وسائل التعليم لا تقل أهمية عن مضمونه، وهو يعتبر أن وسيلة الحوار هى التى تيسر تحول المضمون الثابت المطلق فى التعليم التقليدى إلى مضمون متطور عبر الزمان والمكان، يحقق الفكر الناقد والمبدع فى نهج ديمقراطى يرسى قواعد العدل والحرية.

وأسلوب الحوار الذى ركز عليه مراراً وتكراراً فى كل موضع من كتاباته هو فى تقديره أداة التغيير وهدفا للديمقراطية، وهو فضلا عن كونه قناة المرور من حالة القهر إلى حالة التحرر، فإنه العلاقة الفارقة بين منهج الثورة الثقافية الإنسانية وبين الانقلاب العسكرى، ثم إنه سبيل التواصل بين القادة والجماهير، ومن ثم فإن الالتزام بالحوار فى عملية التعليم والتعلم شرط لازم لكى يتبلور المجتمع الديمقراطى الإنسانى، وتنحسر مقومات الثقافة الصامتة والخوف من الحرية.

والتعليم/ التدريس فى نظره لا يمكن اختزاله إلى طريقة ميكانيكية فى التعلم، فهو ليس كمية من المعلومات يختزنها الطالب، أو مجموعة من المهارات يكتسبها عن طريق ما تزوده به المدرسة، لكن الأسلوب الحوارى الفريرى يقوم على دعوة الطلاب إلى التفكير الناقد حول موضوعات الدراسة وإدراك صلتها بالمجتمع وقضاياه اليومية والعامة، بل هى كذلك دعوة إلى التفكير فى عملية التعلم ذاتها. وإذا كان على الطلاب أن يجيبوا عن الأسئلة، فإن عليهم أن يتساءلوا عن الأسئلة والإجابات. وجوهر أسلوب التعلم الحوارى هو نفى التلقين من السلطة، أو نفى سلطة التلقين، دون اعمال للفكر الناقد.

● الاسلوب البنكى فى التعليم

من خلال التواصل الحوارى يشعر الطالب بأنه يكتسب تعليماً يشارك فى صنعه، بدلاً من تعليم جاهز يقدم له غيره، كما يشعر بأنه ليس وعاء فارغاً تصب فيه الحقائق، أو اسفنجة تمتص مقولات المنهج المقرر، وهذا الأسلوب الحوارى هو النقيض لما أسماه فريرى بالاسلوب البنكى السائد فى تعليم المجتمعات المتخلفة والمقهورة .

ولعله من الضرورى أن نشير إلى هذا النقيض البنكى قبل أن نوضح الأسلوب الحوارى إن الأسلوب البنكى «المصرفى» الذى يريد فريرى أن يقضى عليه كأسلوب للتدريس، هو تشبيه منتزع من العمليات المصرفية التى يودع فيها إنسان مدخرات يختزنها فى المصرف ليسترجعها بعد ذلك نقودا، وفى السياق التعليمى التقليدى يمثل المدرس المودع فى البنك «وبذلك هو صاحب سلطة لأن لديه رأس مال معرفياً»، والطالب هو الخزانة التى تودع فيها أمواله «على افتراض أنها خاوية لا يوجد بها

رأسمال معرفي»، يقوم المدرس بشرح درسه واصدار تعليماته لما ينبغي أن يختزن، وعلى الطالب أن يجتهد فى الاحتفاظ بتلك المعلومات والتعليمات ليعيدها سيرتها الأولى عند السؤال أو عند الامتحان.

وكلما تزاحمت المعلومات والتعليمات «المجزأة والمجردة، والتى لا صلة لها بمخزونه أو واقعه» قلت فرص الوعى والتدبر والترابط والتفكير النقدى أو الابتكارى حول ذلك الرصيد المتراكم الذى لم يستطع توظيفه أو استثماره بطريقة فعالة مثمرة، وبذلك تغدو أساليب التعليم التقليدى مؤدية إلى تعليم بنكى، بل وإلى أسوأ صور التعامل البنكى، هذا فضلا عما توحى به من تنمية الاتجاه نحو الاعتماد على السلطة «سلطة المعلم ملك المعرفة ومتخذ القرار» مما يرسخ عادة السلبية نحو المشاركة فى حياة المدرسة ذاتها وفى المجتمع فيما بعد.

● قيمة الحوار الفريرى

ويذكرنا الحوار الفريرى بالحوار السقراطى، ويعتبره صاحبه سمة من خصائص الإنسان فى التواصل من أجل المعرفة والتعلم والفعل، وينبغى أن يقوم على المحبة واحترام الآخر والثقة المتبادلة، فهو إلى جانب كونه أسلوباً ديمقراطيا فإنه قيمة أخلاقية، والتأكيد على الحوار منطلق من نظريته فى المعرفة التى هى رؤية اجتماعية تعتمد على العلاقات بالآخرين والرؤية للعالم الذى يضطرب فيه مع الناس، وإذا كان أسلوب الحوار فى التواصل نقيضاً للسلطوية، فإنه لايعنى الفوضى فى عملية التعليم التى لابد للمعلم من إعداد لبنية الحوار كنقطة انطلاق أولية يدور حولها اكتشاف المعرفة وأبعادها المختلفة. ومن ثم يصبح الإطار الحر للحوار وما يترتب عليه من نتائج هو السبيل إلى أن تتحول الحرية بدورها إلى سلطة جماعية تاريخية قابلة للتعديل من خلال حركة التاريخ والثقافة، ومهما تتعرض له عملية الحوار من مغامرة فى ضبط العملية التعليمية، إلا أنها مغامرة تستحق، ففى كل عمل ثقافى مبدع قدر ضرورى من المغامرة.

كذلك يلاحظ فريرى أن أسلوب الحوار يجد فى التعليم التقليدى مقاومة من الطلاب الذين تعودوا على الأسلوب البنكي فى التخزين والتلقين والإيداع، كما يواجه كذلك مقاومة من المعلمين نظرا لممارسة طويلة تحدد عملية التدريس بالإلقاء والمحاضرة، أى بطريقة «المونولوج، وليس الديالوج أو المتيلوج» فى أداء مهمتهم التدريسية.

والحوار التربوى يبدأ من طرح للمشكلات المرتبطة بموضوع من موضوعات الدراسة، يقود المدرس فيه المناقشة، ويشجع تلاميذه على الأسئلة وعلى المشاركة فيما بينهم، فى تفاعل ايجابى تعاونى ، يتقاطع فيه التواصل الرأسى مع المعلم بالتواصل الأفقى بين الطلاب أنفسهم. وبالقدر الذى يتحمل فيه المدرس عبء التوجيه والقيادة، بالقدر الذى يشجع التلاميذ على أن يربطوا ذلك بأفكارهم وتصوراتهم وبواقع المجتمع

ومشكلاته، أى أن الحوار هو المشاركة الايجابية من المتعلم والمعلم فى صياغة المعرفة وإدراك علاقاتها وتداعياتها فى فهم الواقع والوعى بأمكانات تغييره، وهكذا يقل عبء المحاضرة على المعلم ويزداد عبء المناقشة والكتابة والبحث على الطلاب، معبرين ومستكشفين لأبعاد المعلومات والحقائق العلمية والاجتماعية والاقتصادية، ومع الحوار ودورانه وتموجاته فى العملية التعليمية تتولد القدرة النقدية، ويتم تشجيع التأمل الذاتى الواعى، والتبصر فى كيف يتعلم المتعلم، وفى تقييم ما يتعلمه، وفى قيمة ما يتعلمه لفهم الواقع، والتعرف على مداخل العمل لتغييره، بدءا من واقع الفصل إلى المدرسة، إلى الحى فالمجتمع الأكبر.

وقد بدأ فريرى طريقة الحوار وطرح المشكلات التى يواجهها الفلاحون فى البرازيل عندما شرع فى تضييق منهجه فى محو أمية الكبار. وكان أسلوب الحوار الاجتماعى الذى يثير الوعى بأبعاد المشكلات هو منطلقه ومصدر عادته فى تعلم القراءة والكتابة، وكان يرى أنه من الممكن، بل ومن الأفيد تمكين الأميين من قراءة الواقع قبل معرفة رموز القراءة والكتابة اللغوية، وفى جميع الحالات فانه يدعو إلى الاهتمام بجعل التعليم سواء فى المدرسة أو خارجها وسيلة للتفكير فى الواقع والوعى بإشكالياته كشرط يؤدى بمضمونه إلى أن يكون ملتحما بالسياسة، وملتحما بمدركات الذات المتعلمة من أجل أن تسهم العملية التربوية المتصلة والتى لاسقف فيها فى شحذ قدراته وصناعة تاريخه وثقافته، وفاعلا عامداً متعمدا لبلوغ ما ينشده من أهداف له ولغيره من البشر.

أما بعد :

وهكذا نجد فى فلسفة فريرى ذلك التوجه الإنسانى والذى ينطلق من خلاله لمواجهة ثقافة الصمت لدى المقهورين ليمتد بنا إلى صياغة مجتمع ديمقراطى ذى ثقافة أصيلة، من خلال تواصله الحوارى ومن خلال تعليم لايتصف بالحيادية وإنما يسعى إلى تحرير الإنسان ، كل إنسان، وكل الإنسان.

وبذلك نجد فيلسوفنا الذي كانت وستظل أفكاره ورؤاه التربوية زاداً وهداية لبعض التربويين فى مصر ولكثير منهم فى غيرها من أقطار العالم الثالث، يتشايكون معها وبها فى تأصيل تعليم للتحرر، ويسعون بمنطلقاتها إلى نقد ما تضطرب به أدبيات التربية لديهم من فلسفات لم تستطع أن تتجاوز اللفظية أو المثالية أو الانبهار، فظلت على هامش واقعهم، ولم تنفذ إلى تحريك الفكر والعقل فى نصوص مجتمعهم، واقتداء بمنهج فيلسوفنا قد نتفق مع فريرى، وقد نختلف مع فريرى، لكننا لانملك أن نتجاهل مقولات فريرى ، لقد كتب عنه الكثيرون فى العالم الصناعى، لكن صوته يظل خافتاً فى أدبيات التربية المصرية، ولعل هذا الجهد المحدود فى هذا المقال يغدو حافزاً لمزيد من البحث والتأمل فيما أسهم به هذا الفيلسوف التربوى الساطع وسط سماء العالم الثالث بغيومها، ليتوفر لنا من رؤيته التربوية، فهما أعمق، وجهداً أفعل، فى تطوير مستقبل تعليمنا من أجل تعلم أفضل لصناعة مستقبلنا.

عرض نقدى لكتاب هيكل

القنــوات الســرية

بقم : د . رءوف عباس

□عكف الكاتب الكبير الأستاذ محمد حسنين هيكل على كتابة قصة الصراع الذى دارت رحاه على ساحات السياسة والحرب فى الشرق الأوسط فى النصف الثانى من هذا القرن ، وقدم للمكتبة العالمية على مدى ربع القرن الأخير عددا من الكتب المهمة التى استمدت أهميتها من قرب الكاتب من صناع الأحداث ، وذلك الكم الهائل من المعلومات الذى لم يتوافر لغيره من الكتاب وخاصة المعلومات المحلية ، أى الوثائق الخاصة بثورة يوليو عامة وعبد الناصر خاصة ، وهى وثائق مبعثرة بين أكثر من جهة من المؤسسات السيادية ، تحرص كل منها على إبقائها بعيدا عن متناول الباحثين ، ولا تكترث بالقانون الخاص بالوثائق التاريخية الذى يلزم تلك الجهات بايداع مالديها من وثائق ذات قيمة تاريخية بدار الوثائق التاريخية القومية . وقد بذلت دار الوثائق التاريخية جهودا مضنية لاقناع تلك الجهات ،وعلى رأسها رئاسة الجمهورية، بايداع ما لديها من وثائق بالدار دون جدوى . من هنا تحتل كتابات هيكل أهمية خاصة كمصدر للمعلومات التى يعجز الباحث فى التاريخ عن الوصول إليها .

ورغم أهمية ما كتبه هيكل إلا أن الباحثين فى التاريخ يتعاملون معه بحذر ، فالكاتب كان طرفا فى الأحداث التى كتب عنها ، وكانت له علاقات متفاوتة فى درجة القوة مع صناع تلك الأحداث ، ومن ثم انعكست هذه العلاقات على رؤيته للأحداث وعلى تحليله لها ، يلقى أضواء باهرة على بعضها ، ويترك البعض الآخر محاطا بالظلال ، ولا بأس فى ذلك على أى حال ، فالرجل لم يدع يوما الاشتغال



بالتاريخ ويؤكد دائما إنه يقدم شهادته عن الأحداث التى شارك فى بعضها واقترب من بعضها الآخر

وكتاب «القنوات السرية ، قصة مفاوضات السلام العربية - الاسرائيلية» آخر هذه السلسلة من الكتب التى قدمها هيكل للمكتبة العالمية ، وقد ظهرت الطبعة الانجليزية بلندن منذ أسابيع ، وعادة تظهر معها طبعات أخرى بمختلف اللغات الأوربية وغير الأوربية من بينها الطبعة العربية التى توشك على الصدور من دار الشروق فيما نعلم .

والطبعة الانجليزية من الكتاب تقع فى ٥٧٢ صفحة ، ويضم الكتاب عشرين فصلا ، كتبها هيكل بأسلوبه المتميز الذى يجذب القارىء ويثير فضوله . وقد حرص هيكل أن يشير فى مقدمة الكتاب الى عبارة وردت فى حديث دار بينه وبين عالم الطبيعة الشهير ألبرت اينشتاين فى بداية الخمسينات أشار فيها الأخير الى أن الصراع بين العرب واسرائيل صراع بين حقين ، وأن الأمر يحتاج الى تحقيق نوع من التوافق بين الحق اليهودى والحق الفلسطينى ، وبذلك حدد الكاتب التوجه العام لمن شاركوا فى فتح القنوات السرية او - بعبارة أدق - سعوا لفتحها ، وأغفل الكاتب منذ البداية عاملا مهما كان الحاضر الغائب فى الكتاب ، وهو حرص الصهيونية العالمية واسرائيل على تحييد مصر ، وإخراجها من دائرة الاهتمام بالقضية الفلسطينية بشتى السبل والسعى لإبرام سلام منفرد معها، ليقينهم أن غياب الدور المصرى يجعل العرب عاجزين عن مواجهة الكيان الصهيونى ، مستسلمين له، لذلك أدمن الصهاينة طرق أبواب مصر منذ أيام الملك فاروق عشية حرب فلسطين طالبين فتح حوار ربما يمهد السبيل لاعتراف مصر باسرائيل ، وكان ذلك عشية قيام اسرائيل وتوقيع اتفاقية رودس عام ١٩٤٩ ، وانتعشت آمال الصهيونية عندما نجح الضباط الأحرار فى الاستيلاء على السلطة فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، فحاولوا مغازلة النظام الجديد

مطلقين عددا من بالونات الاختبار، مشجعين جهود الوساطة .

● ضمادة لجرح مزمن !

وحدد هيكل الغرض من الكتاب وهو تقديم قصة الجهود التى بذلها ملوك ورؤساء وسياسيين وعلماء للوساطة بين مصر واسرائيل ، مدفوعين بحبهم للسلام، أو بطموحهم الشخصى ، كما إنه يريد أن يبين للقراء أن اتفاق السلام الذى وقعه الفلسطينيون عام ١٩٩٣ كان مجرد «ضمادة» لجرح مزمن وليس علاجا شافيا ، وإن المسافة لازالت بعيدة بين أطراف الصراع والسلام .

ولما كان الكتاب يخاطب الرأى العام العالمى ، فقد خصص الكاتب الفصول الخمس الأولى لالقاء الضوء على القضية الفلسطينية ، وأسماع الصهيونية فى فلسطين ، وموقف الأطراف الدولية التى ساعدت على إقامة الوطن القومى الصهيونى على أرض فلسطين ، ورد الفعل الفلسطينى والعربى ، حتى انتهى الأمر بما حدث عام ١٩٤٨ ، وقيام دولة اسرائيل، وما ترتب عليه من نتائج سلبية بالنسبة للشعب الفلسطينى وللأطراف العربية المعنية ، ورفض العرب الاعتراف باسرائيل أو اجراء أى حوار معها واعتبار ذلك نوع من «المحرمات» .

يلى هذه الفصول الخمسة عرض لجهود الوساطة ومحاولات فتح قنوات الاتصال بين العرب واسرائيل ، جاء على هامشه (أحيانا) تناول للصراع العربى الاسرائيلى (العدوان الثلاثى - حرب يوليو ١٩٦٧ - حرب أكتوبر ١٩٧٣) بشىء من التفصيل طغى على موضوع «القنوات السرية» وحوله الى الهامش فى كثير من الأحيان ، بل جعل هناك خلطا بينها وبين التحركات الدبلوماسية الأمريكية المتصلة بالشرق الأوسط عامة ، والصراع العربى الإسرائيلى خاصة ، واحتل الدور الفلسطينى منذ قيام حركة فتح حتى ابرام اتفاق «غزة - اريحا أولا» نصف الكتاب ، وأن سرد المؤلف من خلاله محاولات الاتصال بين الطرف الفلسطينى والطرف الاسرائيلى التى توجت بمباحثات أوسلو السرية . وهكذا تحتل قصة الصراع العربى - الاسرائيلى أكثر من نصف الكتاب ، وجاءت «القنوات السرية» على هامشه فأصبحت متابعتها أمرا صعبا ومحيرا للقارىء ، وخاصة أن هيكل روى القصة من خلال التسلسل الزمنى (ربما لأن الكتاب يخاطب الرأى العام العالمى الذى لا تتوفر لديه معرفة بتفاصيل الصراع) ، فاختلط السرى بالعلنى ، والثنائى بالدولى ، وتشابكت الخيوط

وتعقدت وكادت تفلت «القنوات السرية» . من بين يدى القارىء .

● السادات والسلام

وكان من الطبيعى أن تشهد فترة عبد الناصر نشاطا ملحوظا من جانب اسرائيل لفتح قنوات اتصال مع مصر ، وحسم أنور السادات الأمر وبادر بفتح قناة اتصال عريضة بتشجيع من شاوشيسكو رئيس رومانيا والحسن الثانى ملك المغرب، وبقية القصة أصبحت معروفة من خلال كتابات هيكل السابقة سواء كتابه عن السادات (خريف الغضب) أو كتابه عن (أكتوبر ١٩٧٣) ، وكذلك من خلال الأدبيات التى صدرت فى السنوات الأخيرة بالعديد من اللغات حول السلام المنفرد الذى أبرمته مصر مع اسرائيل ، فضلا عن تغطية المحللين السياسيين لعملية صنع السلام فى الشرق الأوسط من خلال الكتابات الغزيرة التى نشرت فى الدوريات بمستوياتها المختلفة أكاديمية واعلامية على حد سواء، لذلك لم يضف هيكل جديدا عند معالجته لهذا الجانب من الاتصالات التى كان القليل منها سريا ، والأغلب علنيا حظى بتغطية إعلامية غير مسبوقة .

ولذلك لا يتبقى من «القنوات السرية» الجديرة بالرصد إلا المحاولات التى تمت منذ قيام ثورة يوليو حتى رحيل جمال عبد الناصر وهذه أيضا غطاها هيكل فى كتبه الثلاثة عن «حرب الثلاثين عاما» وأشار لبعضها فى كتابه عن (أكتوبر ١٩٧٣) ، كما تناولتها أقلام العديد من الكتاب والباحثين الذين كتبوا عن صراع الشرق الأوسط ، أو أزمة الشرق الأوسط ، أو الصراع العربى - الاسرائيلى أو ترجموا لعبد الناصر ، وكذلك الكتب التى صدرت عن أزمة السويس وحرب يونيو ١٩٦٧ ، ورغم ذلك جاء تجميع هذه «القنوات السرية» فى كتاب هيكل الجديد عملا تسجيليا مفيدا فى اطار رصد جهود البحث عن السلام فى الشرق الأوسط .

● خطورة التورط مع الغرب

وتبدأ قصة ثورة يوليو مع جهود الوساطة بسعى الولايات المتحدة الأمريكية الى اقامة «منظمة الدفاع عن الشرق الأوسط» ضمن جهودها لاحاطة الاتحاد السوفييتى بأحزمة من الأحلاف الموالية للغرب ، وكان التصور الأمريكى أن تكون مصر مركز المنظمة الدفاعية الجديدة بما لها من وزن استراتيجى وسياسى فى المنطقة ، وكان مشروع الحلف فى مقدمة المسائل التى طرحت على صناع النظام

الجديد ، ورغم صغر سن اعضاء مجلس قيادة الثورة ، وخدمتهم السياسية المتواضعة ، إلا انهم كانوا يعون تماما خطورة التورط فى حلف مع الغرب بحكم روابط التبعية حول مصر ، لقد كانوا يسعون الى تحقيق الاستقلال الوطنى التام ، ويريدون تخليص البلاد من السيطرة الأجنبية ، ولذلك عقدوا العزم على مقاومة كل أشكال الهيمنة الأجنبية ، وفى مقدمتها الأحلاف .

ولما كانوا فى حاجة الى مساندة الولايات المتحدة فى بداية الثورة لضمان تجنيد القوات البريطانية فى مصر (وخاصة فى الأيام الأولى للثورة) ، والى مساعدة أمريكا لمصر فى مجال تحديث الجيش ، والتنمية الاقتصادية ، فقد اتبع مجلس قيادة الثورة خط المراوغة بالنسبة لموضوع «منظمة الدفاع عن الشرق الأوسط» ، فالثورة لا تعلن الرفض الصريح ولا تلمح بالاستعداد للموافقة، ولكنها تطرح أمام الأمريكان الصعوبات التى تحول دون التوصل إلى قرار ، وفى طليعتها الوجود البريطانى فى مصر (قاعدة قناة السويس) والمسألة الفلسطينية، وفهم الأمريكان أن ازالة هذه العوائق من الطريق سوف يؤدى الى تسويق مشروع «منظمة الدفاع عن الشرق الأوسط» من خلال مصر ، فركزت الادارة الأمريكية جهودها على ضرورة حل مشكلة الوجود البريطانى فى قاعدة قناه السويس فمارست ضغطا شديدا على بريطانيا أدى الى ابرام اتفاقيتى السودان عام ١٩٥٣ والجلاء عام ١٩٥٤ ، وشمر الأمريكان عن ساعد الجد وراحوا يبحثون عن حل لمشكلة فلسطين يرضى مصر واسرائيل .

غير أن المناخ لم يكن مواتيا للتوصل الى حل للمسألة الفلسطينية ، فالضباط الأحرار لهم تجربة مريرة فى حرب فلسطين ليس من السهل نسيانها أو تجاوزها ، كما أن عبد الناصر – على وجه الخصوص – لا يرى أن مصر تستطيع الوصول الى اتفاق يحقق المصالح العربية ، وهى على تلك الحال من الضعف ، وأن أى اتفاق يبرم فى هذا السياق سيخدم مصالح «العدو بالدرجة الأولى» وظل هذا موقفا ثابتا لعبد الناصر طوال حياته .

● الخلاف على حجم اسرائيل

ومن الغريب أن هذا الموقف المتشدد من جانب عبد الناصر تجاه الصلح مع اسرائيل ، لم يتضمن تحديد اطار سياسة بعيدة المدى بالنسبة للقضية الفلسطينية ، فرغم استبعاد الصلح ، ظل موقف عبد

الناصر من قضية الوجود الاسرائيلى مبهما . ففى كل التصريحات الصادرة عنه كانت الدعوة لتطبيق قرارات الأمم المتحدة وحل مشكلة اللاجئين الفلسطينيين وفق هذه القرارات هى المطلب الأساسى الذى يطرحه عبد الناصر ، مما يعنى ضمنا القبول بوجود اسرائيل من حيث المبدأ فى اطار مشروع التقسيم الذى أقرته الأمم المتحدة عام ١٩٤٧ ، أى أن المشكلة اختزلت الى مسألة خلاف على حجم اسرائيل الذى تجاوز حدود قرار التقسيم، ولم يكن تحرير فلسطين من الوجود الاسرائيلى يوما ما هدفا من أهداف جمال عبد الناصر على غير ما كان يشاع، بل أن عبد الناصر أنكر (فى اجتماع مع تيتو ونهرو عام ١٩٥٧) أن مصر تسعى لالقاء اسرائيل فى البحر ، وأكد للزعيمين أن ذلك لم يرد يوما على لسان أى من المسئولين المصريين وليس من الأهداف السياسية المصرية . ويضيف هيكل إنه تم بحث هذا الأمر بحثا جديا فتبين أن هناك تصريحا صدر عام ١٩٤٩ من خلال مقابلة تمت بين عبد الرحمن عزام باشا أمين عام الجامعة العربية وأحد الصحفيين الأجانب عندما تناول الصحفى معه مسألة قيام اسرائيل فأبدى الأمين العام عدم استعداد العرب للاعتراف بالكيان الصهيونى ، وعندما سأله الصحفى عما يفعله اليهود فى هذه الحالة رد عبد الرحمن عزام: «يعودوا الى البحر كما جاءوا منه» . واهتمام عبد الناصر بتحرى الحقيقة وراء دعوى القاء اسرائيل فى البحر يبدو وكأنه محاولة للحصول على «شهادة ابرام ذمة» من تلك «التهمة» ويدل دلالة واضحة على أن شعار «تحرير فلسطين» كان للاستهلاك المحلى ، ولا يعنى تصفية اسرائيل أو منازعتها الحق فى الوجود ، ولعل ذلك يفسر الحاح اسرائيل وأصدقائها على التوصل الى اتفاق مع مصر يحول الاعتراف الضمنى بالوجود الى اعتراف قانونى صريح .

ولم يكن عبد الناصر على استعداد لتقديم هذا الاعتراف الا اذا جاء فى اطار تسوية تضمن للشعب الفلسطينى حقوقه التى نصت عليها قرارات الأمم المتحدة (عودة اللاجئين أو تعويضهم) ، وفى نطاق حدود قرار التقسيم ، وهو - بالطبع - ما لم يكن مقبولا من جانب اسرائيل التى ارادت اعترافا «بالأمر الواقع» دون التزام بحل قضية اللاجئين أو الالتزام بحدود التقسيم ، ومن هنا كان الضغط المتواصل على مصر بالقوة فى ١٩٥٦ و١٩٦٧ لارغامها على الرضوخ للمطالب الاسرائيلية ، مع الاستمرار فى محاولة

فتح قنوات الاتصال للدخول فى حوار مباشر اذا فشل فى تحقيق الأهداف الاستراتيجية لاسرائيل بتوقيع اتفاق مع مصر فإن تسريب أخباره الى أجهزة الاعلام كفيل بسحب البساط من تحت أقدام عبد الناصر الذى ارتكزت زعامته فى العالم العربى على موقفه المتشدد من مسألة الاعتراف باسرائيل .

ولعل أهم مشروعات التسوية التى طرحت لحل النزاع العربى الاسرائيلى هو المشروع الأمريكى للتسوية الشاملة الذى حمل الاسم الكودى «ألفا ALPHA» ، واستغرق نحو عامين (١٩٥٣ - ١٩٥٥) ومن الغريب أن هيكل لم يعطه اهتماما كافيا، وظن أن المشروع كان ثمرة جهد مجموعة عمل من المخابرات المركزية الأمريكية والخارجية الامريكية ولكنه فى الحقيقة كان مشروعا وضعته الخارجية الامريكية وشاركت فى صياغته دول حلف الأطلنطى وخاصة بريطانيا وفرنسا، لأن المشروع كان حجر الزاوية لفتح صفحة جديدة فى تاريخ الشرق الأوسط فى إطار مشروع الدفاع عن الشرق الأوسط تستوعب فيه كل بلاد المنطقة بما فيها مصر وإسرائيل، ولذلك كان الحرص الأمريكى على اشراك حلف الأطلنطى فى التسوية مع تحميل بريطانيا وفرنسا قسطا كبيرا من الأعباء المالية المترتبة على التسوية والمتعلقة بمشروعات المياه وتعويضات اللاجئين والمساعدات الاقتصادية لمصر وغيرها من جيران إسرائيل وهو المشروع الذى لعب فيه روبرت أندرسون دور الوسيط فى المباحثات غير المباشرة بين مصر وإسرائيل، والتى أصر فيها عبدالناصر على انسحاب إسرائيل من النقب واعطائه للعرب لتحقيق اتصال أرضى بين مصر والمشرق العربى، وهو ما لم يكن باستطاعة إسرائيل قبوله فى إطار تسوية سلمية تفقدها نحو ثلثى الأراضى التى وضعت يدها عليها عام ١٩٤٨ وتحولها إلى مجرد (كانتون) صهيونى على المنطقة الساحلية، وحاول الأمريكان عبثا اقناع عبدالناصر بالبحث عن بديل لمطلب الاتصال الأرضى بين مصر والمشرق العربى، وأدى فشل المشروع إلى إسراع إسرائيل بالبحث عن سبيل فرض التسوية بالقوة من خلال العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦.

على كل، كانت هذه هى القناة الوحيدة التى نشطت لفترة محدودة بين مصر وإسرائيل من خلال الوساطة الامريكية، أما ما عدا ذلك من القنوات التى ذكرها هيكل فى كتابه الجديد، فكانت مجرد

محاولات لفتح قنوات اتصال لقيت آذانا صماء من جانب عبدالناصر، أو محاولات من جانب إسرائيل والصهيونية العالمية لتوصيل رسائل لمصر. وساهم فى محاولات فتح قنوات الاتصال زعماء كبار مثل تيتو ونهرو وديجول الذين حاولوا اقناع عبدالناصر بضرورة فتح حوار مع إسرائيل، وعرضوا استعدادهم لذلك، وجاء ذلك بمبادرة فردية فى حالة ديجول (١٩٦٥ و١٩٦٧) ، أو بدافع محاولات الصهيونية العالمية تشجيع مصر على التحاور مع إسرائيل فى حالة تيتو ونهرو اللذان تحركا بتشجيع من ناحوم جولدمان زعيم المؤتمر اليهودى العالمى الذى كرر محاولاته الدءوبة فى أعوام ١٩٥٧ و١٩٦١ و ١٩٦٥ دون جدوى. وتمثلت محاولات توصيل الرسائل الاسرائيلية إلى القيادة المصرية فى جهود كيرمت روزفلت رجل المخابرات المركزية الامريكية، وريتشارد كروسمان عضو البرلمان البريطاني، ولكن الحكومة الرومانية والرئيس شاوشسكو على وجه الخصوص كانوا انشط من لعب دورا فى نقل الرسائل الرسمية أو شبه الرسمية الاسرائيلية إلى مصر اعتبارا من عام ١٩٧٠ حتى تم الاتصال المباشر بين مصر وإسرائيل بعد زيارة السادات الشهيرة للقدس.

والكتاب فى جملته يقدم «ملفا» للصراع العربى - الإسرائيلى، أقل إثارة من الكتب الأخرى التى نشرها هيكل وخاصة ثلاثية «حرب الثلاثين عاما» فالميزة التى انفردت بها كتابات هيكل السابقة، وهى حصيلة المعلومات المهمة الكبيرة، وخاصة تلك المستقاة من أوراق عبدالناصر، لا تتوفر فى هذا الكتاب، ربما لأن الكثير من المعلومات المتعلقة بالاتصالات الخفية بين العرب وإسرائيل لم تعد سرا، ربما لأن قسطا كبيراً من التطورات التى عرضها هيكل فى هذا الكتاب وقع بين ١٩٧٩ و١٩٩٥ عندما كان هيكل بعيدا عن دوائر صنع القرار، مكتفيا بالمراقبة عن بعد، وتتبع ماينشر حول قضية الشرق الأوسط وأن كانت ميزة احتفاظه بدائرة علاقات وثيقة واسعة مع الكثير من اللاعبين الرئيسيين على مسرح السياسة فى المنطقة وسعت مجال الرؤية أمامه، وجعلته مراقبا من نوع فريد.

يبقي بعد هذا أن الكتاب يقدم شهادة من كاتب سياسي متميز سجل فيها ما شاهده وما سمعه، ولاشك أن موقفه وموقعه السياسي، ورؤيته الخاصة كانت وراء توزيع الاضاءة في الكتاب وتحديد مساحات الظلال، وإن كان ذلك يجعل لكتابات هيكل مذاقا خاصا متميزا.

جزء خاص



الجوائز الأدبية العربية السلطان والفنان

بقلم : د. عبد المنعم تليمة

■ العلاقة بين المال والفن من أقدم العلاقات فى التاريخ البشرى ، ومن أكثرها تعقيدا ، ومن أقواها تصويرا لمراحل التطور الانسانى . المال وسيط يدار به الجزئى والعارض ، والفن تجسيد يشكل به الكلى والباقى . من هاهنا اعتد كل منهما بالآخر عمادا له وطلبة يسعى إليها. يروم العارض شيئا من تثبيت وبقاء فلا يجد سبيلا له الى ما يروم غير الفن، ويروم الباقى شيئا من أيد وقوة فلا يجد سبيلا له الى ما يروم غير المال ، ولهذا (الاعتماد المتبادل) تجلياته التى يعرفها مؤرخو الفن ، من هذه التجليات كثير من الصحة والسلامة . ومنها كثير من الاعتلال والسقامة ، والأمر بدهى ، فليس من عناصر الحياة كلها ما هو خير مطلق وما هو شر مطلق ، إنما العنصر الواحد حسب توجيه البشر له وحسب ما يرونه من علاقات هذا العنصر بغيره من عناصر الحياة ووسائطها وانشطتها توازنا واختلالا .

فى البدء كان المال مشاعا . كان كل شىء ، مع الشح والندرة ، ملكا لكل أحد . كان الجائع يلتمس الطعام فى كل نبت ، وكان العطش يلتمس الرى فى كل نبع ، وكان التعب يلتمس الراحة فى كل موضع. ثم كان ما كان من أمر الملكية الخاصة ، لقد احتكر القوى مصادر الأطعمة والأموال كما احتكر مواضع العيش والحياة . لقد صار القوى ، فى الجماعة ، قيادة . وفى البدء كان الفن مبثوثا فى كل الأشياء ، فى القدور والرماح والأقواس والأقراط والعقود والأساور .. الخ . كان جمال الشىء فى نفعه . ثم كان ما كان من نضج الظاهرة الفنية ، فاستقلت عن النفع اليومى الغليظ ، وقام على الفن أهل اختصاص ، هم الفنانون . اختص المبدع بالكلى ، بالأسرار والسرائر، بالمغازى المطلقة ، بالرؤيا المستشرفة ، بالرؤية الحكيمة . لقد صار المبدع ،



حفل توزيع إحدى الجوائز العربية

فى الجماعة، ريادة . ودخلت العلاقة القديمة فى تعقيد جديد : تروم القيادة زينة وأبهة لعيشها، ووجاهة وهيبة وصدارة فى جماعتها ، وقيما تثبت مواقعها ، وحشدا واستنفارا للصفوف خلف خطها ، وليس من سبيل إلى شىء من ذلك كله إلا بالفن ، من بعض زوايا نائله الجمة ، الفن سحر ، يتجلى فيه ما خفى ، ويتبدى مالا يرى . إنه يعلم ويعلم ، يدعو ويحشد ، ينبىء ويتنبأ . وتروم الريادة ، أول ما تروم ، مسالك لصوتها ، ومسارب لإبداعها ، ثم إنها تروم موضعا عزيزا ومكانة علية فى جماعتها . لاذ كل بصاحبه ، المال والفن ، القيادة والريادة ، القوة والابداع .

المال قوة

وجاءت على المجتمعات الانسانية أطوار وأزمان تبدت فيها الجماعات بطونا وعشائر وقبائل ، وتبدى فيها الأغنياء رؤساء مقدمين قادرين . فى هذه الجماعات أصبح المال قوة وأصبحت القوة (شرعية) فعلية ، بيد أن موضع الفن تقدم أيضا فصار عمل المبدع (شريعة) تاريخية. طلب الناس من الشرعية الحلم والشجاعة وطلبوا من الشريعة العلم والحكمة . أدارت الشرعية الحاضر الماثل، وأضاءت الشريعة الحياة بأسرها فسطعت لحظاتها الثلاث فى أبعادها : الماضى الغابر والحاضر الماثل والمستقبل الآتى . إن مدى المال أضيق وإن مدى الفن أوسع. غير أن جلجلة القوة وهمس الفن أوهما أن المال والقوة هيمنة وأن الفن والابداع تبعية. والأمر على غير هذا النحو ، إنما هى طبيعة الفن التى ساعدت على ذيوع مثل ذاك الوهم ، فالعمل الفنى خفيض الصوت، حمال أوجه ، وأقرب وجوهه الظاهرة السطحية الضعف ، بيد أن قوته الكامنة الهائلة لا يقع عليها غير الخبير البصير بماهية الفن ومهمته . وخذ المثل من أدبنا العربى : الظاهر السطحى فى علاقة

السلطان بالفنان هى علاقة ممدوح معط بمادح آخذ . ودارت حول هذه العلاقة الظاهرة معايير وقيم درجت عليها الناس . من ذلك أن يغلو الشاعر فى العبارة عن سخاء الممدوح وفى العبارة المضادة عن حرمانه هو . ومن ذلك أن يغلو الشاعر فى الحديث عن قوة الممدوح وفى الحديث المضاد عن ضعفه هو . وانتشرت مثل تلك المعايير حتى تمكنت من بعض المتقدمين من الكتاب والبلغاء أنفسهم . نرى الخليل يقول : حرفة الأدب آفة الأدباء . ونرى غير الخليل من يقيد حظ الكاتب والشاعر بمقدار رضا السلطان وجوده ، فيقرن الكلام الفائق بالحظ الرائق . بل لقد نرى من أصحاب المعايير والقواعد من يرى اقتدار الشاعر فى تمكنه من جعل ممدوحه فى منزلة الحبيب وتمكنه من العبارة عن ذلك (المحبوب) بمعجم الحب المألوف من مثل : دنو و إعراض ومنع ونائل ووصل وهجر وتقريب وإبعاد ... الخ .لكننا نقرأ المديح من زوايا مختلفة عن هذه الزاوية القريبة الظاهرة . نرى فيه بابا واسعا للتعرف على ما كانت عليه الجماعة من مثل وأداءات وقيم وعلاقات ، وما كان عليه المجتمع من أنساق وأبنية ودرجات . وكان بعض العرب من الأقدمين يرى بعض ما نراه الآن . كان بعضهم يرى أن الشاعر عندما يصف عمله – مدعيا التواضع – بجهد المقل ، إنما كان يرى أن جهد المقل (غير قليل) فى ساحة الفن والابداع . وكان عبد الحميد الكاتب يقول : إن كان الوحى ينزل على أحد بعد الأنبياء فعلى بلغاء الكتاب . أما القراءة الظاهرة فقد رأت فى قول أبى تمام :

السيف أصدق أنباء من الكتب

أن الشاعر يقطع بحقيقة دائمة وهى علو السيف فى كل حين . ورأت تلك القراءة فى قوله :

فتح الفتـوح تعالى أن يحيـــــط به

نظم من الشـعر أو نظم من الخطب

أن الشاعر يقرر أن انتصار المعتصم أوسع من أن تتسع للعبارة عنه أقوال الشعراء والخطباء . لكن الخبير بحيل الفن يرى غير ما رأته تلك القراءة يرى أن أبا تمام يقول إن السيف أصدق فى هذه اللحظة الساخنة من الموقعة الحربية فى هذا الزمان العارض الجزئى وليس فى كل حين ، أما الحقيقة الكلية ، فلا موضع للسيف فى ساحتها ، إنها – الحقيقة – مجال الفن وحده . أما المتنبى ، وهو المادح الجهير ، فإننا لسنا بحاجة إلى القول بأنه لم يمدح امرأ – على كثرة ممدوحيه – غير نفسه ، ولم يمدح نفسه إلا بإبداعه ، فالفن – لديه – يعلو ولا يعلى عليه .

كل شيء يهدده الفناء ، إلا الفن فإنه قرين البقاء . لقد فنيت اموال الأغنياء والأقوياء وبقيت قلائد الأدباء والشعراء .

لقد نصصنا على أن العلاقة بين المال والفن معقدة ، وعلى أنها تتخذ فى كل طور تاريخى صورة جديدة ، فما صورتها فى زمننا الحديث هذا ، وفى ثقافتنا العربية الراهنة هذه ؟ .

★★★

المجتمع الحديث معناه أن فئات وطبقات اجتماعية جديدة قد ظهرت وتحددت ، وأن قوى سياسية جديدة قد برزت وتميزت ، وأن اتجاهات ثقافية علمية وإبداعية قد تغايرت وتعددت . فى هذا المجتمع الحديث تغيب الشرعية الفعلية القديمة المطلقة فى نظام تتعدد قواه الاجتماعية والسياسية ، وفيه تنحل الشريعة الثقافية التاريخية التى كانت تنهض على الآحاد المبدعين فى براح تتعدد رؤاه . وكل هذا التمايز والتنوع والتعدد لا يستقيم أمره إلا أن تنهض به أنظمة تنهض بدورها على مؤسسات . فالمجتمع الحديث – إذن – هو مجتمع الأنظمة والمؤسسات : النظام السياسى ، النظام الاجتماعى ، النظام الاقتصادى ، النظام الثقافى . المؤسسة السياسية المؤسسة التعليمية ، المؤسسة العلمية ، المؤسسة الاعلامية المؤسسة القضائية المؤسسة العسكرية .. الخ . والقيادة فى هذا المجتمع الحديث للسياسة بمعناها الشامل ووعائها الواسع ، بيد أن هذا التنوع والتمايز والتعدد لا يستقيم أمره إلا أن تشارك فى النهوض به الأنشطة الأهلية العامة التى تتبدى فى زماننا الحديث هذا فى الجماعات والجمعيات والنقابات والاتحادات ... الخ . وفى طور مبكر من نشوء المجتمعات الحديثة ذاعت فكرة مدارها أن المجتمع الحديث إنما يتأسس على ثلاثة أنظمة ، النظام السياسى والنظام الاجتماعى والنظام الاقتصادى . غير أن هذه الفكرة قد تراجعت عندما تبدى أن هذه الأنظمة الثلاثة لها ماسك أو جامع هو القاعدة الثقافية الصلبة التى بدونها يفقد المجتمع تماسكه وتنتهى أبنيته وأنظمته إلى التصدع والتهدم . واستقر الحال اليوم ، بعد خبرات طويلة فى هذه الأزمنة الحديثة ، على أن سلامة النظام الثقافى هى المدخل الأول إلى سلامة كل أنظمة المجتمع . واستقر الحال كذلك على أن نهوض النظام الثقافى على المؤسسات هو الأساس المتين للعمل الثقافى المبدع المنتج واستقر الحال أخيرا على أن تنظيم الحيوات الابداعية والعلمية والتعليمية والاعلامية والفكرية لا يقل فى خطره وآثاره عن تنظيم

الحيوات السياسية والاقتصادية والاجتماعية . إن المجتمع الحديث يعتد اعتدادا بحرية المثقف وتفرده، ويعتقد فى ذات الوقت بأن العمل الإبداعى عمل فردى ، لكنه منذ أتمه صاحبه قد نزل الى سوق تخضع لآليات سائدة فى الانتاج والتوزيع . غير أن المنتج الابداعى - فكريا وعلميا وفنيا - كيس كغيره من المنتجات ، فقد تعمل الآليات السائدة على تقديم منتج ثقافى وحجب غيره ، وقد تعمل على توسيع دائرة الشيوع والنشر لعمل وعلى المحاصرة والمصادرة لعمل آخر وثمة أسباب لكل تلك المواقف أسباب سياسية وعرقية ودينية وايديولوجية ... الخ .

منح وجوائز الأثرياء

والذى يحمى المبدع وعمله فى المجتمعات الحديثة قيام الأنظمة الثقافية فيها على المؤسسات التى تدير المحاورة بأدبيات متفق عليها وتعمل بآليات مستقرة معلنة . ولو ضربنا المثل بشأن يسير كالمنح والجوائز التى يجعلها آحاد من الاثرياء للبارزين من المبدعين ، لوجدنا أن المانح يضع منحه وجوائزه فى مؤسسة يقوم عليها مدراء وخبراء وعلماء . ربما تحمل المؤسسة اسمه تكريما وتخليدا ، لكنه بشخصه تنقطع صلته بعملها وادارتها ، وفى هذا كرامته وكرامة الممنوح جميعا .

وقد أخذت مجتمعاتنا العربية تتلمس طريقها حثيثا الى الحداثة منذ أوائل القرن الماضى ، ولاتزال تتلمس الطريق الى يومنا هذا . أخذت البلاد العربية فى هذين القرنين الأخيرين - على تفاوت فى مستويات التطور - تخرج من العلاقات الكلاسيكية ذات الطابع العشائرى والقبلى، إلى العلاقات الحديثة ذات التعددية السياسية والاجتماعية والثقافية والفكرية.. وشرعت هذه المجتمعات العربية فى إقامة مؤسسات المجتمع الحديث ، بيد أن عثرات قوية لا تزال تعطل هذا الأمر . ومؤرخ العرب اليوم يرى فى معظم المجتمعات العربية هياكل مؤسسية جمة ، غير أنها لاتزال واهنة هشة . إن هذا الوضع يفضى إفضاء الى تيارات واتجاهات غائمة وإلى أنظمة وأبنية غائبة. واذا كانت الأنظمة الحاكمة فى المجتمعات العربية قد سعت سعيها - مع التعثر الذى أشرنا إليه - إلى إقامة المؤسسات السياسية والاقتصادية ، فإنها سعت سعيها فيما يتصل بالمؤسسات الثقافية خاصة فاحتكرت إدارتها احتكارا حازما بحيث صار المبدع الثقافى موظفا وبحيث صار العمل الثقافى موجها بغايات السلطات وأهدافها . وقررت بعض الحكومات العربية فى العقود الأخيرة - أن تضع خططا وميزانيات لرعاية المواهب وتشجيع الموهوبين بمنح التدريب والتفرغ

وبجوائز التفوق والامتياز فى حقول الثقافة المختلفة. ولاريب فى أن الجوائز الأدبية التى أنشأتها حكومات مصر والسعودية والعراق والكويت محمودة فى أساسها لكن احتكار الادارات الحكومية لمنح هذه الجوائز يضع الأمر كله فى مواضع قلقة مقلقة لأنه يجعل حرية التعبير والتفكير والاجتهاد والتفسير والتأويل محكومة بالنظرة (الرسمية) ، وهى نظرة بيروقراطية محافظة . والمخرج أن يقوم على هذه الجوائز الحكومية دوائر محررة من أهل الحل والعقد والاختصاص فى كل حقل ثقافى ، وأن تشارك فى التحكم والتقويم والحكم مؤسسات التعليم الكبرى من جامعات وأكاديميات ومجامع ومراكز بحث ، وأن تشارك فى هذا الواجب أيضا منظمات المثقفين الديمقراطية من جمعيات اتحادات .. الخ .

وفى السنوات الأخيرة بدأ آحاد من الأثرياء العرب – بخاصة من دويلات الخليج وإماراته – يخصصون شيئا من أموالهم للمنح والجوائز فى بعض الحقول الثقافية وفى حقل الابداع الأدبى بالذات . وهذا أمر مطلوب ومرغوب ، بل هو محمود ومرجو. وإننا لنتمنى أن يشارك عامة الاثرياء فى مثل هذه الأعمال الجليلة ، فلقد ضجت الحياة العربية – ولاتزال – من إنفاق المال العربى فى وجوه غير كريمة إن النهوض الشامل لا تقوم به الحكومات وحدها فى هذا العصر المركب ، وإنما يقوم بالجانب الأعظم منه نشاط الناس أنفسهم ، فإذا كان هذا النشاط لايجدى بغير مؤسسات ومنظمات أهلية ، فإننا لا نستطيع أن ننكر ما يقوم به الآحاد من الأفراد القادرين . ولا ريب فى أن الجوائز التى جعلها آحاد من الأثرياء العرب للتفوق الثقافى والأدبى قد صاحبها منذ إنشائها نواقص ومعايب . من ذلك غموض شروط الترشيح ومعايير التقويم والتحكيم والحكم . ومن ذلك الصخب الاعلامى والضجيج الاحتفالى . ومن ذلك النزوع الى الاستقطاب الهادم لحوار راق بين الاتجاهات والمدارس المختلفة ... الخ. ويمكن أن نجعل كل ذلك على خط الاستقامة : أن نعصم المانح والممنوح من فرديتهما ، بضبط الشروط وإعلان المعايير ووضع الأمر فى مؤسسات يقوم بالعمل فيها وجوه الابداع والفكر والعلم فى بلادنا العربية كلها . من حق المانح أن تحمل الجائزة اسمه تقديما وتكريما ، أما طرائق القبول والفحص والتقويم والحكم فشأن مؤسسى عام . وإننا لنرجو أن يتجاوز المال العربى هذه الجوائز الفردية ، إلى آفاق أرحب وأوسع ، إلى المشاركة فى بناء بنية ثقافية أساسية تنتظم المعاهد التعليمية والعلمية والمراكز البحثية والمكتبات والمعامل العصرية ومحطات البث ودور النشر الكبرى .. الخ .□

جــزء خـــاص

عشوائية الجوائز ١

جوائز الأدب العربية: وجهان للعملة

بقلم : د. ماهر شفيق فريد

منذ سنوات طويلة وأعين أدبائنا تتطلع بعين النهم والحرمان إلى جائزة نوبل، وهيئاتنا الثقافية ترشح لها تارة طه حسين، وتارة العقاد ، وتارة توفيق الحكيم. كان مسعى مقضيا عليه بالفشل من قبل أن يبدأ: فإلى جانب الحقيقة الماثلة فى أن الأدب العربى - قبل ازدهار حركة ترجمته إلى اللغات الأجنبية فى العقود الثلاثة الأخيرة من هذا القرن - لم يكن مطروحا على الساحة العالمية، لم يكن بين هؤلاء الثلاثة، على جلال قدرهم وأهمية الدور الذى لعبوه فى سياقنا المحلى، من يستحق الجائزة.

طه حسين ناقد ادبى وباحث اكاديمى ومؤرخ للأدب على العين والرأس، ولكن فى الأقطار الأوربية كثيرين مثله، وأفضل. العقاد - كما كتب عنه لويس عوض يوما - لا يقدم جديدا للقارىء الأوربى الذى استوعب نيتشه وشوبنهاور وكرلايل، وسلسلة عبقرياته التى تباع كالكعك الساخن فى الاقطار العربية والاسلامية من شأنها ان تقع من الأذن الغربية موقعا فاترا، بل عديم الأثر . إذ ماذا يهم القارىء الغربى فى ان يكون عمرو بن العاص عبقريا أو لا يكون؟ وتوفيق الحكيم - وهو أقرب الثلاثة الى الوفاء بمتطلبات الجائزة العالمية - يستمد أهميته من دوره التأسيسى فى خلق مسرحية عربية حديثة، أكثر مما يستمدها من أى قيمة باطنة لمسرحياته، باستثناء

مسرحيتين او ثلاث . هكذا اتخذ توالى الاحباطات ، والاشراف على اليأس من نيل الجائزة، شكل الانتقاص منها: فراح الكثيرون - ومنهم العقاد ذاته - يلحون على انها (وهم فى هذا محقون) ليست دائما معيارا


ادوار الخراط


عبد الوهاب البياتى

للامتياز المطلق : فقد حصل عليها أدباء متوسطو الموهبة (من يقرأ اليوم كاتبا مسرحيا اسبانيا اسمه اشيجارى؟) بينما فاتت رجالا من طبقة هاردى وجويس وبروست. وذهب آخرون (وهم ايضا محقون الى حد ما) الى انها جائزة مصطبغة باعتبارات السياسة، ميالة الى اليهود، متجاهلة للعرب. واكد فريق ثالث (وهو ما لا نزاع على صحته) انها ، كأى اجتهاد بشرى معرضة للصواب والخطأ، ومحدودة بحدود اللجنة المشرفة عليها ثقافة وذوقا وخلفية ، كما انها محدودة بالقدر المترجم الى اللغات العالمية (الانجليزية ، الفرنسية ، الألمانية ، الاسبانية ، الايطالية ، اليونانية .. الخ..) من مختلف الثقافات.

هكذا اتخذ كثير منا من جائزة نوبل موقف الثعلب الذى قال عن العنب - حين عجز عن الوصول اليه - انه حصرم . ولكن الموقف تغير بين عشية وضحاها حين اعلن - فى اكتوبر ١٩٨٨ - عن فوز محفوظ بالجائزة . لم يكن احد يتوقع ذلك ، ولا محفوظ نفسه (كان رد فعله الاول - حين ابلغ بالنبأ - ان تساءل غير مصدق: من رشحنى لها؟) وعلى الفور تغير الموقف من الجائزة، وانعكست نغمة الحديث عنها انعكاس زوايا المثلث، وكرمت الدولة محفوظ على أعلى المستويات، وتحول الحنق على نوبل الى محبة غامرة - ظلت مكبوتة طويلا - وأسفر التظاهر ، على مدى سنوات، باحتقار الجائزة عن شوق عميق اليها ، ولم يشذ عن الاجماع سوى الراحل يوسف ادريس (وهو رجل ذو عبقرية كبيرة، وغرور كبر) ولكن غضبه - أو فلنقل ، بتعبير اصرح، غيرته - ضاع فى غمرة صيحات الحماس، ولم يجد ردا من محفوظ الذى استوصى - كعادته دائما - بالحكمة والأدب، ورفض الدخول فى أى مجادلات صبيانية ، كان محررو الصفحات الأدبية فى صحفنا ومجلاتنا يتمنون لو انهم أفلحوا فى جر رجله اليها، ردا على ادريس.

● موقفنا من الجوائز

إنما سقت هذه المقدمة بين يدى حديثى عن جوائز الأدب العربية لكى أؤكد امرين: الاول ان موقفنا من جوائز البابطين، او العويس، او شومان، او سعاد الصباح او غيرها، لا يختلف من حيث النوع - وان اختلف من حيث الدرجة - عن موقفنا من نوبل، فنحن نرمقها بعين الحسرة والحرمان من ناحية (من لا يحب ان يدخل جيبه ثلاثون الف دولار؟ كلنا يريد ان يجدد ديكورات شقته ، او يستبدل بطراز سيارته طرازا احدث، او يريد تزويج ابنته، او عليه ان يسدد فواتير الاطباء او الدواء ، الخ).. ونحن من ناحية اخرى نتظاهر بالزهد فيها ، والترفع عن الجرى وراءها (قال المعرى - وهو رجل حكيم : والمرء ليس بزاهد فى غادة، لكنه يترقب الامكانا).. واذا كنا من اصحاب الالتزام الايديولوجى فليس بعيدا ان نندد بوصمة كل ماهو بترو - دولارى، يمينى محافظ ، قادم من البادية الجرداء وليس من بلاد الثلوج والمطر والديالكتيك. اما اذا كنا ذوى نزعة كلبية شاكة ساخرة ، فقد نتذكر قول خالد عزوز فى رواية محفوظ. «ثرثرة فوق النيل». «كل قلم يكتب عن الاشتراكية على حين تحلم اكثرية الكاتبين بالاقتناء والاثراء وليالى الانس فى المعمورة» لكن هذا كله قد اصبح تاريخا مضى ، ولا احد اليوم - باستثناء اثنين او ثلاثة - قد عاد يذكر الاشتراكية بعد ان انقلب عليها اهلها فى عقر دارها ، ومالوا الى مسرات الجاز والهامبورجر والكوكاكولا والايس كريم والجنس.

لكن حصول عدد من الأدباء والنقاد العرب ممن لاشك فى امتيازهم، البياتى، ادوار الخراط، مصطفى ناصف، محمد عبد المطلب، الخ .. على عدد من هذه الجوائز العربية قد قلب كفة الميزان مرة أخرى ، وأعادنا الى التفتيش فى ضمائرنا ، على امل ان نجد هناك راحة او مستقرا . ما القول الان وهذه الجوائز - او بعضها - قد صار يذهب لمن يستحق، وينأى - بدرجة غير منكورة - عن شبهات المجاملة او التحيز؟ هل نرحب بها من الآن فصاعدا ام نجعل ترحيبنا مشروطا بمن يحصل عليها فى السنوات القادمة (وهنا مجال - لا حد له تقريبا - لاختلافات الرأى والذوق والفكر) خشية ان تنزلق عن مجثمها العالى الراهن، او يدب اليها الضعف البشرى او الأهواء من هنا او هناك؟ سأحاول - فى سطور قليلة - ان ابسط موقفا من هذه الجوائز هو موقفى الشخصى الذى لا يلزم احدا غيرى، سأحاول ان ابين وجهى العملة، سلبا وايجابا، زاعما انى - الى حد لا بأس به -

منزه عن الغرض فى اضطلاعى بهذه المهمة ، فليس لدى ادنى امل فى الفوز باحدى هذه الجوائز اذ لست من ناحية فنانا مبدعا (لى مجموعة قصصية ارتمت فى احضان النسيان منذ صدورها فى ١٩٨٤) بحيث اطمح الى جائزة الشعر او القصة او المسرحية ولست من ناحية اخرى ناقدا مهما للأدب العربى (وهو المجال الذى تمنح فيه الجوائز عادة) بما يكفى لان اتطلع اليها، او لان يجعل افكار مانحى الجائزة تتجه الى . واذا كنت مترجما (وثمة جوائز للترجمة) فان عملى الاكبر فى هذا المجال - وهو ترجمتى لأغلب اعمال ت . س . اليوت شعرا ونقدا ومسرحا - لم يظهر بعد وقد لا يظهر الا بعد سنوات، ان كان فى الاجل فسحة، وقد لا يظهر قط اذا رحلت وخلفت اوراقا متراكمة فى غرفة متربة، ونسج العنكبوت خيوطه على شاهد قبرى . هاك إذن ما لهذه الجوائز وما عليها من وجهة نظر عازف عنها، آيس منها، لا ترمضه اشواق لاعجة ولا يجرى وراء كواذب الآمال وخطب البروق.

لنلاحظ - بادىء ذى بدء - ان الحياد الكامل مستحيل فى منح هذه الجوائز كما هو مستحيل فى اغلب جوانب الحياة. يمكن ان تكون اللجان المانحة للجوائز - وبعضها كذلك فعلا - مؤلفة من صفوة المفكرين والنقاد والأدباء ممن لا ترقى الى نزاهتهم شكوك، ويرتد الطرف عن شواهق إنجازهم الخاص وهو حسير، ومع ذلك يظلون مقيدين باعتبارات منها السياسى ومنها الاقتصادى، ومنها الاجتماعى. نحن جميعا نعيش فى سياق من العلاقات الشخصية والمواقف العامة، وعلينا جميعا ادوار نلعبها ، سواء كنا راضين عنها - فى قرارة انفسنا - او لم نكن . أمن الممكن - إنسانيا ونفسيا - (وهذا مجرد فرض) ان تُمنح جائزة كويتية لأديب عراقى مؤيد لنظام بلده ، مهما يكن من امتيازه الادبى، فى ظل الظروف الراهنة وذكريات الماضى القريب امن الممكن ان تُمنح (وهذا فرض اخر) لأديب يؤيد التطبيع الثقافى مع اسرائيل فى ظل رأى عام معاد لمثل هذا التطبيع بين المثقفين، مع استثناءات قليلة هنا او هناك؟ هذان مثلان اثنان لا غير - ويمكن ان نضاعف الأمثلة - للقيود ، محسوسة وغير محسوسة، التى تعتاق حركة الفكر حين يقف فى موقف الحكم او القاضى فى لحظة تاريخية بعينها.

لكن لا جدال فى ان هذه الجوائز العربية السخية ايجابية الأثر، جديرة بالحمد، من حيث إنها تومئ الى اعتراف - تأخر كثيرا ، بل اكثر مما ينبغى - بقيمة الفكر والإبداع

جزء خاص





يوسف ادريس — سليمان فياض

فى حياة الأمم ، وضرورة مكافأة النابغين فى ظل سباق اجتماعى واقتصادى لا يرحم (حتى لو كان النابغ قنوعا زاهدا فقد لا تكون زوجته واولاده كذلك) . لا أريد ان ألوذ بالحجة التى تساق عادة فى معرض الثناء على هذه الجوائز: وهى ان منح المال للمفكرين والأدباء والعلماء خير من تبديده على مسارح اللهو، البرىء وغير البرىء . لا اقول بهذا لأنى اضن بكرامة الفكر وعزة المفكرين ان توضع فى ميزان واحد مع هذه الامور. انما اقول ان للجوائز ـ الى جانب قيمتها المعنوية – قيمة مادية للحاصل عليها لا تنكر : فقد تمكنه من القيام برحلة يستكمل فيها مادة بحث او رواية (انا شخصيا احلم ـ منذ سنوات ـ بالذهاب الى موقع قرطاجنة القديمة على الساحل التونسى لأنى ارجو ان اكتب يوما رواية عن هانيبال، تلك الشخصية الفاتنة) ، او تمكنه من اقتناء كتب ومراجع واسطوانات واشرطة وافلام فيديو يحتاج اليها، او حتى من استئجار شقة صغيرة مستقلة، يمارس فيها عمله فى هدوء بعيدا عن مشاكل الزوجة والأولاد والبيت والأصدقاء والعشيقات والأعداء. الجائزة ـ من هذه الناحية ـ نجدة من السماء ، تعين المرء على تكريس ذاته ـ او ما بقى منها ـ لخدمة ربة الفن وهى ربة غيور لا ترضى ان يستأثر احد دونها بالاهتمام. بل العبادة الكاملة.

لكن الجائزة من ناحية اخرى ـ وهذا هو الجانب السلبى ـ غل فى عنق صاحبها، وان يكن غلا من ذهب . انها تفرض ، بالضرورة قيودا ، على حركة الفنان، فكريا ونفسيا ووجدانيا، ان لم يكن ماديا ايضا. فهى مواصلة لنظام رعاة الفن فى ظل النظام الاقطاعى القديم، وفرض لقيد غير مرئى على حرية المبدع التى ينبغى ان تطمح الى ان تكون مطلقة ولو انها لن تكون كذلك قط. هب (مرة اخرى اعود الى الفروض) ان الحاصل على الجائزة أممى تروتسكى قديم ـ انظر فريدة النقاش عن ادوار الخراط على صفحات

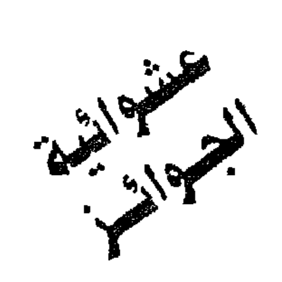
العـدد الاخيـر من «أدب ونقـد» ـ يتلقى جـائزة ، على طبق من ذهب ، من احـدى دول الامارات التي تسيل ارضـها بتـرولا وعسـلا ولبنا . كيف يكون موقف الثـائر اليسـارى القديم مهما دمث الزمن من طبعه او عدل من آرائه ازاء مفارقة كهذى؟ هذا موقف لا يخلو من فكاهة ، ولكنه لا يخـلو ايضـا من لمسـة مـأسـوية . وعلى كل منـا ان يواجـهه بالطريقة التى يمليـها ضـميره وحسـه بالوقـائع ، وظرفـه التاريخـى، وادراكه للعلاقة بيـن ماهو ثابت ومـا هو متغيـر.

سيظل الفنان والمفكر دائما يواجه مشكلة كسب عيشه، والانفاق على زوجته واولاده وربما غيرهم ايضـا ، ومشكلة تحقيق التوازن بين انخراطه الضرورى فى غمار هذه الامور وانخـراطه ـ الذى لا يقل عن ذلك ضـرورة بالنسـبة له ـ فى جـهد الانعزال عنها ، والتنائى بجانبه عن كل مـا يشتته عن التـأمل والقراءة والكتـابة. لاحل لهذه المشكلة (أم نقول الاشكالية كما يفعل معاصرونا الأكثر ولعا بالإغراب والمعاظلة؟) فـهى متجددة دائما وابدا فى كل عصر، وان اتخذت اشكالا مختلفة . ليسـأل كل منا ذاته (أعدك ان يكون هذا اخر فرض فى مقالى) : لو منحت الجائزة العربية السجية غدا ، فهل اقبلها ام ارفضها؟ اعتقد ان الاجابة الصحيحة هى: بل اقبلها مهما تكن لى من تحفظات ـ قليلة او كثيرة ـ على المناخ العام الذى تعيش الثقافة العربية، أو تذوى. فى ظله، وأوجه الشكر لمن منحونى اياها كمـا يجمل بالرجل / المرأة المهذب ان يفعل . ذلك ان لهذه الجـوائز ـ ولألخص ما أسلفت ـ عدة مزايا: انها تكريس لقيمة الإبداع والمبدع: انها عون على مواجهة الحياة وصروفـها، انها تكريم معنوى والأدباء ـ كالأطفال والنسـاء ـ لا يكفون عن طلب المزيد من الحب والرعاية والحنان، انها نقض للفكرة القديمة (والصـائبة ، وأسفاه ، فى كثير من الاحيان) انه لا كرامة لنبى فى وطنه وان زامر الحي لا يطرب؟ واخيرا ـ انها تكفكف من غلواء حلمنا المحموم بجائزة نوبل او جونكور او بولتزر او غير ذلك من الإغراءات البراقة التى يلوح بـها الغرب امام اعيننا الظمـأى كما يلوح الراكب لدابته ـ ومعذرة للتشبيه ـ بجزرة . ومن يدرى؟ قد ينعكس الوضـع فيبيت الأديب الأوربى ـ والأوضـاع الاقتصـادية فى بلاده على مـاهى عليـه من أزمـات وتدن ـ وهو يحلم بأن يستـيقظ يومـا فـيجد نفسه حاصلا على جائزة البابطين او العويس!

جزء خاص

الجـــــوائز الأدبيـــــة

التقدير هم الكاتب الأصيل



بقلم : د. عبد اللطيف عبد الحليم - أبو همّام

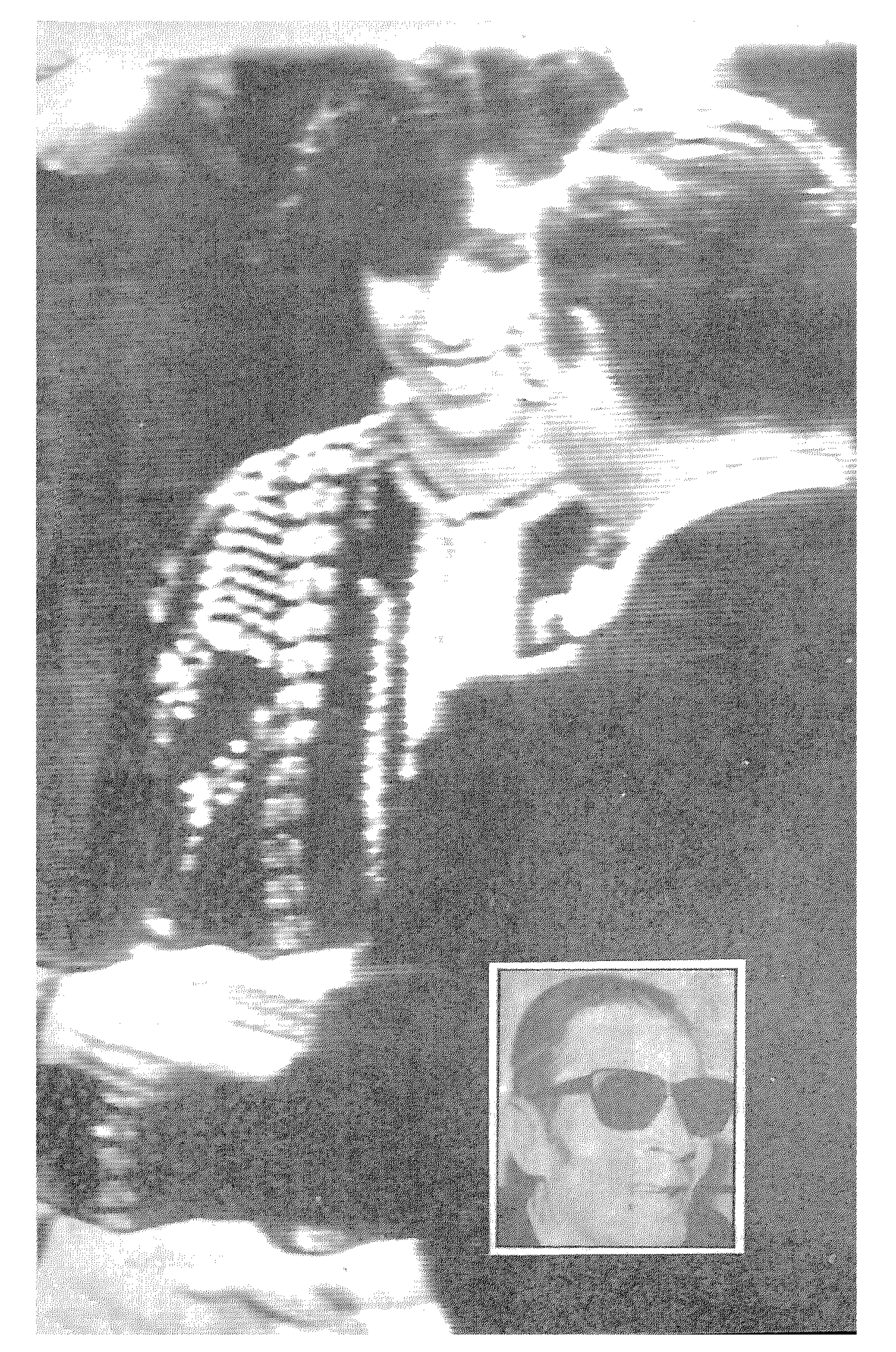
لعل أفضل جائزة يتلقاها الكاتب أن يكون مقروءا ، وأن يؤثر فى أمته بوصول رسالته إليها ، وحسبه أن تصل إليه الجائزة من الدولة نائبة عن الأمة التى قدرته ، مقرونة هذه الجائزة بأوانها من التشجيع أو التقدير ، لا بعد فوات الأوان ، ويكون قد أحرزها من ليسوا نظراء الكاتب المجاز ، إذ تنعدم النصفة ، ويستوى من لايستحق بمن يستحق.

وشر ماقنصته راحتى قنص

شهب البزاة سواء فيه والرخم

وأحيانا تصل الجائزة بعد إبّانها ، فتكون كطوق النجاة يرمى بعد بلوغ البر كما قال برنارد شو.

والجوائز خير لمن تصل إليه وللجهة المانحة أيضا لأنها تدفع الكاتب فى طور التشجيع إلى الإتقان والحماسة وتدفعه فى طور التقدير إلى شىء - ولا نقول كل - من الرضا عن رحلته الطويلة ، خاصة فى النتاج الأدبى الذى يحتاج إلى مكث كثير لحصاد التقدير ، وليس كما هو الحال فى الفنون الأخرى سمعية وبصرية ، إذ يصادف نووها غالبا تقديرا وإعجابا من المشاهدين أو السامعين ، كما أنها خير للجهة المانحة ، حيث هى دلالة على حسن الرأى، وأن التقدير للآخرين النابهين من الأمة ، إنما هو فى جوهره تقدير لتلك الجهة ، إذ هى مشاركة فى بعض الفضل الذى تسديه ، والذى تضعه فى موضعه الصحيح .



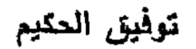
● جوائز عالمية

وقد قيل كلام كثير فى الجوائز محلية وعالمية ، وربما كان من أهم مايقال إنها كثيرا ماتجتاز المستحقين إلى غيرهم ، أو على الأقل تهمل بعض المستحقين لحساب البعض الآخر، وآية ذلك فى جائزة نوبل مثلا أنها تخطت أسماء كبيرة ، لأصحابها مكانة باذخة فى الأداب العالمية ، مثل توماس هاردى وأونامونو ونظرائهما ، بيد أنها فى هذا التخطى تثبت أمرا جليلا،هو أن الجوائز ـ مهما عظمت ـ لا تضيف إلى الكاتب مكانة لم يبلغها قبل الجائزة ، وخاصة جائزة القراء التى تبقى بعد فوات هالة الحفلات ، والبريق الإعلامى ، وأنها لاتخلق أديبا إلا إذا كان مؤهلا بحكم ملكاته لبلوغ هذا الأوج ، ربما تحجب عنه بعض الخمول ـ إعلاميا ـ لكنه حجب موقوت ، بدليل أن كثيرين ممن أحرزوا نوبل ـ مثلا ـ لايضارعون فى الشهرة والذيوع بعض الأسماء التى لم تحرزها ، وليسوا مثلهم أيضا فى المكانة الأدبية ، كل هذا له دلالة، ودلالته القريبة أن مثل هذه الجوائز ليست المحك الوحيد لقيمة الأديب أو المفكر وأن القيمة المستمدة منها ربما تتصل ألوانها بعد حين ودلالته أيضا أن اللجان المانحة لايصادفها التوفيق أو النصفة فى بعض الحالات ، وخير ماتصنعه أنها تقدم غالبا الحسن ولاتضمن لك الأحسن، وأنها لجان فى النهاية بشرية يعتريها مايعترى البشر من نوازع وأميال ، وقد عرفنا أدباء أحرزوا نوبل بموازين غير موازين الاستحقاق المطلق ، وأنهم «متوسطون» ، وأن كثيرين من أدبائنا يفوقونهم ، ونجيب محفوظ ـ فى رأينا روائيا ـ أفضل من كثيرين استحقوها ، لكنها التقسيمات الإقليمية ، التى تدفع إقليما إلى دائرة الضوء ، وتحجب أقاليم أخرى !!

● وأخرى أسبانية !

وثمة جوائز أخرى ربما تضارع نوبل، وهى جوائز سخية بكل المقاييس أدبيا وماديا ، وبعضها ـ فى أسبانيا مثلا ـ يخول لحائزها أن يتفرغ تماما للأدب ، وأن تدركه حرفة الأدب بالمعنى الأوربى لهذه الكلمة ، إذ هى عندنا قرين الخصاصة والبؤس ، وحسبنا أن رجلا مثل أنطونيو جالا ـ وقد بلغ الستين هذا العام ـ يعيش من الجوائز ومن دخل كتبه عيشة أهل الفن المرئى ، ويعيش فى قصر اشتراه

طه حسين


توفيق الحكيم



من المغنى العالمى : خوليو إجلسياس ، وتطبع كتبه مسرحا ورواية ومقالات وشعرا بالمليون ولا نقول بالآلاف .

دلالة مثل هذه الظاهرة أن التقدير الأدبى مشفوع بالتقدير المادى ، وأن الأدب وظيفة اجتماعية ينبغى أن تذلل لذويها المستحقين ، أرقى المنازل الاجتماعية فى الأمة ، ودلالتها أيضا أن القراء - قبل الجائزة ، وهم كثير فى الأمم الراقية - يخولون لكتابهم مثل هذه المكانة الباذخة .

● .. فى مصر ..

وما قلناه عن الجوائز عموما يصلح قوله عن الجوائز فى مصر ، التى فطنت مبكرا - فى محيطها الإقليمى - إلى تقدير أدبائها ومفكريها ، فاستنت نظام الجوائز قبل الثورة وبعدها ، تمثل هذا «البعد» فى جوائز الدولة التشجيعية والتقديرية ، منذ سنة ١٩٥٨ وحتى الآن ولحسن الحظ أنه كانت لاتزال تعيش بيننا قمم شامخة من الأدباء والمفكرين - أدباء النهضة ومفكريها الكبار : طه حسين ، لطفى السيد ، العقاد ، الحكيم وإخوان هذا الطراز ، ومثل هؤلاء منحوا الجائزة كثيرا من قدرها ، ولسنا بذلك نغمط الآخرين حقوقهم ، وإننا من أنصار الماضى ولانرى الحاضر أو المستقبل ، بل نعنى أن أمثال هؤلاء ليسوا محل حجاج ، بل تكاد الآراء - مهما اشتطت - أن تتفق عليهم وعلى نظرائهم من أبناء الجيل الثانى ، حتى فى الجائزة التشجيعية - آنذاك - التى كانت تزهو بمستحقيها ، ولأنها كانت لاتزال قيمة أدبية ومادية .

لكن ثمة بعض الملاحظات التى لاتبطل قيمة الجوائز ولاتدفعنا إلى إلغائها ، لأنه شر بكل المقاييس ، بل تحفزنا إلى مزيد من الضبط والإتقان .

أولى هذه الملاحظات أن القيمة المادية غدت مضحكة ولاتظن أن التقدير الأدبى وحدة حسب الأديب ، فليس الأديب جمادا ، بل هو رجل مشتعل الخوالج ، يتبوأ مكانة المرء الراقى فى الأسرة الاجتماعية ، وبعض الجوائز التى يمنحها المجلس الأعلى للثقافة الآن أربعة أضعاف الجائزة التشجيعية ، ولاتجد أحيانا من يتقدم إليها ، زهادة فى القيمة المادية فى زمن سطا فيه التضخم ، وهبطت القيمة السعرية للعملة ، وليس هذا وحده ، بل إن الجائزة التشجيعية - وهذه هى الملاحظة الثانية - يتقدم لها من تجاوزوا طور التشجيع ، بعضهم خنق الستين بالفعل ، فأى تشجيع تنتظره اللجنة المانحة منه ، أو ينتظر هو من الجائزة الهزيلة هذه .

وثالثة هذه الملاحظات أن أعضاء المجلس المانحين للجائزة ليسوا جميعا من أهل الاختصاص ، فيما يتصل بالتقديرية، فثمة موظفون وأعضاء من الخارج ، ولذلك يكتفى

المرشحون عادة بترشيح مجالس الجامعة أو الهيئات التى رشحتهم، ومعهم بعض الحق فى هذا .

رابعة الملاحظات أن الجوائز الأدبية التقديرية يخالطها شىء من عدم التقدير الحقيقى ، نظرا لاتساع حقل العلوم الاجتماعية مثلا كاللغة والفقه ، والفلسفة والاجتماع والتاريخ وما إلى ذلك ، وكله جائزة واحدة أو تتعدد أشخاصا لا مجالات ، ومثل هذا ظالم لذوى هذا الاختصاص .

الخامسة أن جوائز الدراسة الأدبية غلبت بعض الشىء على الإبداع ـ فى التقديرية ـ ربما شحب الإبداع بعض الشىء ، غير أن ثمة مبدعين ، يجب ، أن يؤخذوا فى الاعتبار ؛ أو على الأقل يقرن الإبداع بالدرس ، وفى هذا الصدد يقال أيضا إن بعض المبدعين وخاصة فى الشعر قد أحرزوا الجائزة التقديرية وليسوا بمستحقيها بحال ، بل ليسوا يستحقون التشجيعية ، لكنه سوء التقدير.

سادسة الملاحظات أن هيئات ترى اللجان أن تمثل فى إحراز الجوائز ، وهذا مطلب أشكل بالسياسة لا بالأدب ، وهو أمر يجعل الجائزة تتجه إلى الهيئة لا إلى المستحق ، وثمة أسماء كبيرة ـ إعلاميا أو وظيفيا ـ وصلت إليها التقديرية ، والأمة واجمة إزاء هذا التقدير الذى أفرغ الجائزة من حقيقتها ، ولانريد تسمية هذه الهيئة أو غيرها فهى معروفة بسيماها للمتتبع .

وداخل هذا الإطار تمنح الجائزة أحيانا لبعض رجال الدولة ، وثمة شبهة واضحة فى هذا التقدير ، بغض النظر عن أنهم يستحقونها أم لا ، ومن العجب أن تختلط الجوائز اختلاطا فاحشا ، حين يحرز أحدهم وهو وزير سابق – عليه رحمة الله ـ جائزة الدولة التقديرية فى الآداب وهو فقيه أولى به جائزة العلوم الاجتماعية إذا خولته معارفه فى هذا الصدد .

●جوائز تخرج عن إطارها

الملاحظة السابعة أن بعض الجوائز التشجيعية كالشعر ربما تخرج عن إطارها حين تتجه مثلا ـ وهو أمر نراه قريبا جدا ـ إلى أصحاب قصيدة النثر ، وهو اتجاه سنراه فى السنوات القادمة ، حيث تنشر كتابات هؤلاء على

العقاد



لطفى السيد



أنها دواوين ممهورة بكلمة : شعر فلان ، متمسحين بانعدام الأجناس الأدبية ، وأن كل كلام هو إنتاج أدبي ، وبقياسهم يغدو الكلام وهو إنتاج والقبول ـ عفوا - وهو إنتاج كذلك شيئا واحدا ، كما ننتظر أيضا أن تمنح هذه الجائزة للزجل ونحن نقترح للزجل جائزة خاصة باسمه بعيدة عن الشعر الفصيح ، لا تقليلا من قيمة الزجل ، بل وضعا للأشياء في نصابها الصحيح ، وربما كان مانقوله رجما بالغيب ـ وليته كذلك ـ وإن كان هذا «الليت» بعيدا !!

تخطت هذه الجوائز بعض المستحقين وستظل كذلك ، ركونا إلى الطبيعة الإنسانية ، وبعض هؤلاء خامرهم كثير من الأسى ، وهو عسير بالنسبة للأدباء والمفكرين ـ لكن عزاءهم ـ وهو عزيز غير مرتخص ـ أن شملهم القراء بمزيد من الاهتمام ، وأن كتبهم لاتزال طلبة القارىء المتلبث ، وأن التقدير شيء ، والشهرة شيء آخر ، وأن التقدير يجب أن يكون هم الكاتب الأصيل ، وربما تحاول اللجان أن تعوض مافاتها بعد الأوان ، فتمنح الجائزة لأسماء الراحلين ، وهو تقليد حسن لابأس به . أسوة بما حدث في مصر حاولت بعض الدول العربية أن تقدم جوائزها على مستوى قومي عربي ، فقامت جائزة الملك فيصل العالمية ، وجائزة العويس ، والبابطين ، ومحمد حسن فقي ، وهي تحنو في مجملها حنو الجوائز المصرية ، وإن كانت قيمتها المادية جيدة ، وكان لأدباء مصر ومفكريها سهم راجح في إحراز هذه الجوائز وهي ـ كما هو واضح ـ جوائز أهلية يقوم بها أهل اليسار ، والمقدرين للفكر نيابة عن الأمة العربية كلها ، ولانقول نيابة عن الدول ، لأن بعض هذه الدول لها جوائزها المرصودة كذلك كجائزة التقدم العلمي ، بالكويت ، وجائزة صدام وغيرهما من الجوائز .

وفضيلة هذه الجوائز أنها تمنح بعض الأمل ، في تقدير الفكر والأدب ، وأنها تسد بعض النقص في الجوائز الإقليمية أو الدولية ، وهو أمر يحمد بكل حال .

ربما نقترح ـ إذا جاز الاقتراح ـ أن تنهض مصر بدورها المنوط بها في المنطقة، فترفع قيمة جوائزها المادية أسوة بما حدث في السينما والمسرح ، وأن ترى أن الأدب أبو الفنون ، وأن الفكر أساس كل شيء حتى في السينما ، التي يحصد نورها التقدير من جمهرة المشاهدين ، وهو نوع من القصد الطبيعي ، لأن الأدب والفكر في حاجة في مكث ، وليس بكثير أن نقدم لأديب ومفكر أفنيا حياتهما في خدمة الأمة مائة ألف جنيه جائزة تقديرية ، تزيد مع التضخم تباعا ، وأن تصل الجائزة التشجيعية إلى عشرة آلاف على الأقل ، وتقوم جائزة وسطى تصل خمسين ألف ، يطلق عليها ماشئنا من الأسماء ، نأيا عن مهزلة التشجيع بعد الستين ، وأن تظل الجائزة التقديرية أرفع الجوائز ، لا جائزة النيل أو غيرها من الجوائز ، لئلا نسيء إلى الماضي الجليل في رموزه : طه حسين والعقاد والحكيم وإخوان هذا الطراز .

جزء خاص



آلية الجوائز الأدبية
مسابقات .. أم تشجيع ..أم تكريم ؟

بقلم :محمود قاسم

يمكن تقسيم الجوائز الأدبية العالمية، وأيضا غير الأدبية ، إلي نوعين رئيسيين :

النوع الأول يتمثل فى تقدير الحاصل على جائزة من خلال مجموع أعماله، ومنحه مكافأة مادية بارزة تستحق هذا العطاء، جزاء ما قدمه للناس فى مجاله . وهذه الجوائز قليلة العدد فى العالم ، لكنها ذات شهرة، مثل جائزة نوبل، وجائزة سرفانتس فى أسبانيا، وجائزة الفرانكفونية التى تمنحها الأكاديمية الفرنسية، وفى العالم العربى هناك جائزة الدولة التشجيعية فى مصر، وجائزة الملك فيصل فى المملكة العربية السعودية، وجائزة البابطين فى الكويت ، وجائزة سلطان العويس فى الامارات .

وكما أشرنا فإنها جوائز مرتبطة بأهمية الشخص الذى يحصل عليها، ورغم ارتفاع القيمة المالية لهذه الجوائز، فإنها لاتكتسب أهميتها إلا من خلال الأشخاص الذين حصلوا عليها، فليس صحيحا أن الجائزة هى التى تمنح الكاتب أهمية ، ولكن العكس صحيح ، فإذا قورنت جائزة نوبل باسماء من طراز وليام فوكنر، وبرناردشو، وطاغور ، وارنست هيمنجواى، وماركيز ، ونجيب محفوظ ، ونادين جورديمر فإن الجائزة تذكر بأسماء هؤلاء ، أما أغلب الأسماء الأخرى التى ذكرت فى قوائم الجائزة من الأدباء ، فإنها قد ساعدت في وضع هذه الجائزة، رغم قيمتها ، فى

دائرة عدم الاهتمام، وهناك أدباء كثيرون طويت اسماؤهم مع التاريخ ، رغم حصولهم على هذه الجائزة ، مثل ياروسلاف سيفيرت ، وشيزلاف ميلوش، وايفنر جونسون ، وجريجوس سيفرس ، وغيرهم ، ونحن لا نقلل من أهمية هؤلاء الأدباء ، ولكنهم لايرقون إلى الأسماء الأخرى الحاصلة على نفس الجائزة .

أما النوع الثاني من الجوائز فهو أقرب إلى التشجيع ، أو بمعنى أصح . منح كتاب ما جائزة فورية، عقب صدوره بفترة قريبة ، كأني يمنح كاتبا ما جائزة عن روايته المنشورة عام ١٩٩٥ باعتبارها أحسن رواية صدرت في هذا العام. وليس هناك شرط أن تكون مثل هذه الجائزة مالية، وفي هذه الجوائز فإن الكاتب لا يتقدم إلى المؤسسات التي تمنح الجائزة بعمله، ولكن من المفروض أن تقوم هذه المؤسسات بمتابعة الحديث من الاصدارات، وتصفية الجيد منها، حتى يوم الاقتراع النهائي ، وأغلب الجوائز الأدبية في العالم مثل جونكور، وبوليتزر ، ومونديللو ، وبووكر تنتمي إلى هذا النوع وفي العالم العربي هناك جائزة الدولة التشجيعية في مصر. وجائزة الدولة التشجيعية في الكويت وجائزة سعاد الصباح ، وغيرها . وهي جوائز تمنح للفائزين في اطار مسابقات يتم الإعلان عنها مسبقا .

وبالنظر إلى الجوائز الغربية، ونظام المنح في الجوائز العربية المثيلة، فإن الأمر يختلف بعض الشئ ، حيث أن الهيئات التي تمنح جائزتها في العواصم العالمية، تحرص أن يتم ذلك والكتاب في متناول الناس. بحيث يمكنهم شراءه عقب فوزه ، أما في جائزة الدولة التشجيعية في مصر، فعلى الكاتب أن يتقدم خلال ثلاث سنوات من اصداره الى المجلس الأعلى للثقافة ، وبعد تقديمه بعامين تقريبا تعلن الجوائز ، أي قد يكون قد مر على بعض الكتب خمس سنوات على اصداره ، حين يفاجأ الناس بأنه حصل على جائزة ، وفي هذه الحالة يكون قد نساه القراء تماما . حتى وإن كان عملا يستحق الاهتمام. وبالتالي يضعف تأثير هذه الجائزة بشكل ملحوظ.

أما جائزة سعاد الصباح، فقد توجهت إلى الابداع الجديد، وكان من شروطها أن يحصل عليها الشباب الأصغر سنا ، وكانت فلسفة الجائزة تقوم على منح هؤلاء الكتاب الجدد فرصا للنشر، بالإضافة إلى القيمة المالية للجائزة .

● التشجيع .. فلسفة الجوائز

وفي الوقت الذي لم تقترن فيه مثل هذه الجوائز في أهميتها من خلال قيمتها المادية ، في الغرب، فإن الجوائز العربية قد تنافست فيما بينها في رفع القيمة المالية، بصرف النظر عن أهمية الكتاب، والكاتب ، مما أحدث اهتماما اعلاميا ملحوظا لهذه الجائزة، ودفع بالكتاب إلى الاشتراك فيها ، وقد انتشرت هذه الجوائز في منطقة الخليج بشكل ملحوظ ، فمنحتها الدول والمؤسسات ونوادي الأدب ، وهذه في حد

ذاتها ظاهرة طيبة، بصرف النظر عن قيمة الأعمال الفائزة ، باعتبارها تمجيداً للكاتب، وللنشاط الابداعي .

وقد قامت فلسفة الجوائز فى العالم ، خاصة الأدبية ، على أساس تشجيع الابداع، وتقديره ، ولذا فإنها جوائز ابداعية ، تمنح فى المقام الأول لكتاب الرواية، وأحيانا للشعراء ، وهناك جوائز لإبداع الطفل ، وذلك باعتبار أن الابداع هو الأصل والأساس ، وإن الدراسات الأدبية تجئ فيما بعد .

وبشكل عام، فإن الجوائز السنوية المتعلقة – بالإبداع هى بالطبع تهتم بهذا النشاط الإنسانى ، وقد قامت جائزة نوبل على أساس تشجيع المبدعين ، ثم تحولت فيما بعد إلى جائزة لتقرير هذا الابداع. وانحصر الحاصلون عليها فى مجال الرواية، والشعر ، وفى العقود الأخيرة، كانت تمنح بالتبادل بين شاعر ، وروائى ، لكنها منحت فى بعض الأحيان لكتاب مسرح مثل يوجين أونيل، كما حصل عليها فلاسفة ورجال فكر برجسون ، وبرتراند راسل .

والأصل فى الجوائز أنها غربية، مهما شئنا أن نقول ، فإذا كانت جوائز جونكور، ونوبل ، وبوليتزر قد نشأت مع بداية القرن، فإن أول جائزة عربية كبرى هى جائزة الدولة التقديرية والتشجيعية فى مصر بعد أن توقفت جوائز المجمع اللغوى التى كانت تمنح للرواية فى الاربعينات

وقد منحت لأول مرة عام ١٩٥٨، أى بعد أكثر من نصف قرن من انشاء الجوائز العالمية ، وتم انشاء جائزة الملك فيصل عام ١٩٧٩ فى حين تحتفل بعض هذه الجوائز بعيدها الثمانينى .

ولذا ، فلا أحد يمكن أن يتجاهل ، مهما كان القول ، أن الجوائز العربية قامت ، فى حيثيات المنح ، على نفس الأسس ، وبصرف النظر عن فروع الجائزة، فجائزة الملك فيصل على سبيل المثال، تقوم بفحص الكاتب المرشح للحصول على الجائزة ، وتطلب كافة ابداعاته ، من خمس نسخ لكل واحدة ، مهما تاهت فى الزمن ، وغالبا ما يقوم الكاتب التى ترشحه إحدى الهيئات الرسمية بجمع تراثه كى يحصل به على الجائزة، وفى اكاديمية ستكهولم غالبا ما يحدث هذا بالنسبة للكاتب المرشح ، علما بأن الترشيح فى جائزة نوبل يختلف فى نواميسه الداخلية عن جائزة الملك فيصل .

● جائزة للمبدعين ، وجائزة للمفكرين

وبالنظر إلى كل من جائزة الدولة التقديرية فى مصر، وجائزة الملك فيصل ، فسوف تجد أن الأولى قد منحت فى أغلب أحوالها إلى مبدعين . ثم إلى رجال فكر ،

أما المبدعون الذين حصلوا على جائزة الملك فيصل فهم قليلو العدد، بل يمكن أن نقول أنه لم يحصل عليها حتى عام ١٩٩٥ سوى مبدع واحد هو يحيى حقى الذى حصل عليها بالأشتراك مع باحث أدبى هو الدكتور يوسف خليف . وهكذا تكون الجائزة قد ذهبت إلى فئة لاتحصل عادة على جوائز أدبية ، ويرجع ذلك بالطبع الى أن هناك فرعاً يمكن الترشيح فيه، يحدد سنويا من قبل المؤسسة المانحة للجوائز .

أما جائزة الدولة التقديرية فى مصر ، فقد حصل عليها من المبدعين الدكتور طه حسين عام ١٩٥٨ وعباس العقاد عام ١٩٥٩ ، إذا اعتبرناه شاعراً وقصاصا فى بعض نشاطه، وتوفيق الحكيم عام ١٩٦٠ ، ويحيى حقى ١٩٦٧ . ونجيب محفوظ ١٩٦٨ ، ويوسف السباعى ١٩٧٣ ، وعبد الرحمن الشرقاوى ١٩٧٤ . وصلاح عبد الصبور ١٩٨١، وثروت اباظة ١٩٨٢ ، ويوسف جوهر ١٩٨٤ ، ومحمود بدوى ١٩٨٦ ، وسعد الدين وهبه ١٩٨٧ ، ويوسف عز الدين عيسى ١٩٨٧ ، وطاهر أبو فاشا ١٩٨٨، واحسان عبد القدس ١٩٨٩ ، ويوسف ادريس ١٩٩٢ ، والفريد فرج ١٩٩٣ ، وفتحى غانم ١٩٩٥ وكما نرى فإن أغلبهم أما شاعر أو قصاص ، وهناك القليل جدا من كتاب المسرح .

أما من غير المبدعين فهناك أسماء مثل محمد أحمد خلف الله، وزكى نجيب محمود، ومهدى علام ، وسهير القلماوى . وعبد العزيز الأهوانى . وعبد القادر القط ، وعز الدين إسماعيل ، ولويس عوض ، وجميعهم من أساتذة الجامعة ، وقد جمعوا بين الدراسة ، والبحث ، والنقد .

وحسب قوانين الجوائز فقد حصل عليها أغلب أصحابها وهم على قيد الحياة الا أنه فى بعض الأحيان تنبهت الدولة أن كاتبا ما يجب تكريمه عقب رحيله مباشرة، فقدمت الجائزة باسمه ، مثلما حدث مع احسان عبد القدوس ، ويوسف ادريس ، وعبد السلام هارون ، وعبد العزيز الأهوانى وغيرهم .

وهناك أسماء من الفائزين بجائزة الدولة التقديرية فى مصر قد حصلت فيما بعد على جائزة الملك فيصل فى الأدب مثل يحيى حقى، وعبد القادر القط ، وعبد السلام هارون ، وشكرى عياد .

وقد أخذ بعض رجال الصحافة على الجائزة قيمتها المالية، وخاصة فى السنوات الأخيرة . باعتبار أن قيمة الجائزة التى حصل عليها طه حسين أول من استلمها بلغت ٢٥٠ جنيهاً مصرياً . ثم ارتفعت مع بداية الثمانينات إلى ضعف هذا المبلغ والغريب فعلا أنه بينما ارتفعت قيمة الأشياء سنويا ، فإن القيمة المالية لهذه الجائزة ظلت ثابتة ، وقد ارتفعت فى السنوات الأخيرة إلى خمسة أضعاف قيمتها . ولكن

هذا لم يقلل أو يرفع من قيمتها قدر أن بعض الأشخاص الذين لايستحقونها قد حصلوا عليها فى بعض السنوات ، منهم من لم يكتب فى حياته كلمة أدبية واحدة ، ومنهم شاعر لا يرقى مستواه إلى أى اسم شاعر من الذين تجاهلتهم الجائزة، فى نفس الوقت تم تجاهل اسماء عديدة حتى وافتهم المنية ، ومنهم احسان عبد القدوس ، ويوسف ادريس .

أى أن قيمة الجائزة المالية لم تقلل من أهميتها ، ولكن حصول اسماء بعينها، وقد ساعد ذلك أن تهتز صورتها لسنوات أمام الناس ، لكنها فى بعض الأحيان كانت فى أحسن حالاتها مثل عام ١٩٨٨ حين حصل عليها كل من لويس عوض ، وشكرى عياد وطاهر أبو فاشا .

● جائزة عربية عالمية

ولا يمكن القول بأن جائزة الملك فيصل فى المملكة العربية السعودية قد خرجت من إبط جائزة الدولة فى مصر ، وذلك لتنوع مجالات الحصول عليها ، وجوائز الدولة فى مصر تنقسم إلى قسمين تمنحهما مؤسستان الأولى خاصة بالآداب، والفنون، والعلوم الاجتماعية ، تمنح من قبل المجلس الأعلى للثقافة ، أما جوائز العلوم فتمنحها اكاديمية البحث العلمى بينما جمعت جائزة الملك فيصل بين خمسة أفرع هى : الدراسات الإسلامية ، والأدب العربى ، وخدمة الإسلام والتى منحت أول مرة عام ١٩٧٩ ، ثم اضيفت جائزة الطب عام ١٩٨٢ ، وفى العام التالى خصصت جائزة خامسة للعلوم ، وبذلك يكون للجائزة خمسة أفرع ، منها ثلاثة أشبه بجائزة نوبل وهى الأدب والطب والعلوم وقد أعطت الاضافات الأخيرة للجائزة صفة العالمية ، بمعنى أن الحاصلين عليها ليسوا فقط من دول غير عربية، أو إسلامية، ولكنهم ادوا خدمات للبشرية فى المجالات التى عملوا بها ، خاصة فى الطب .

وتبعا للقيمة المالية ، وللشكل الحيادى، والسرية التى تتمتع بها حيثيات الترشيح، والمنح ، فإن الجائزة تبدو حيادية ، وقد أثارت الانتباه اليها فى السنوات الأخيرة، وتمنح هذه الجائزة من قبل مؤسسة خيرية أسسها ابناء الملك فيصل وعلى رأسهم خالد الفيصل ، ففى عام ١٩٧٦ أعلن عن قيام مؤسسة الملك فيصل الخيرية ، وفى العام التالى أعلن الأمير خالد الفيصل أن مجلس أمناء المؤسسة سوف يخصص مبالغ مالية لانشاء جائزة تمنح سنويا فى فروعها المشار إليها بداية من عام١٩٧٩.

وقد دفع نجاح هذه الجائزة وشعبيتها، مؤسسات أخرى ، من خلال أشخاص ،

أو دول الى الدخول فى هذا المضمار ، وتسابق بعض الاثرياء العرب نحو توجيه اموالهم لخدمة المال والابداع ، ومنهم على سبيل المثال الشاعر الكويتى وهو رجل أعمال أيضا ، عبد العزيز سعود البابطين إلى انشاء جائزة باسمه ، شهدت ميلادها فى بداية العقد الأخير من القرن العشرين ، أى فى عام ١٩٩٠ ، ومنحت لأول مرة فى مقرها بالقاهرة فى ١٧ مايو من نفس العام ، وقيمة هذه الجائزة فى أول مرة كانت ٤٣ ألف جنيه ، وضاعفها مانحها فى أول حفل لها لتصبح ٨٦ ألف جنيه ، وفى الحفل الثانى جعلها ١٧٢ ألف جنيه .

«وقد أقيمت هذه الجائزة فى مصر لأول مرة من خلال نشاط رابطة الأدب الحديث ، ثم استقلت وتكون لها مجلس أمناء يضم الدكتور يوسف خليف ، الدكتور محمد مصطفى هدارة ، الدكتور محمد زكى العشماوى ، الدكتور محمود على مكى ، الدكتور على الباز (من مصر) الدكتور سليمان الشطى وعبد العزيز السريع (من الكويت) ، وعلى عقلة عرسان (من سوريا) الدكتور إبراهيم عبدالله علوم «من البحرين » .

ولاشك أن اعلان أسماء مجلس الأمناء يضعف من الجائزة ويسبب حرجا لهم عند اعلان الجائزة ، أو قبل ذلك ، وبعده .

وتمزج هذه الجائزة بين التقدير لعطاء كاتب ، وبين التقدير لكتاب معين ، وهى جائزة تتعلق بالشعر فى المقام الأول . ففى مجال الابداع الشعرى تمنح لواحد من الشعراء الذين اسهموا بابداعهم فى إثراء حركة الشعر العربى من خلال عطائه الشعرى المتميز .

● شلال الجوائز .. يسيل

أما فى مجال النقد، فإن الجائزة تمنح لواحد من نقاد الشعر ودارسيه ، من الذين اسهموا بنقدهم ودراساتهم ، النظرية والتطبيقية ، حول الشعر العربى .

كما تمنح الجائزة لأفضل ديوان شعر صدر فى نفس العام ، وجائزة أخرى لأحسن أفضل قصيدة .

وفى نفس العام تم الإعلان عن جائزة سلطان العويس الثقافية .. والتى بدت كأنها تدخل فى المنافسة ليس فقط على المستوى الأدبى ، بل على مستوى القيمة المالية فحسب المنشور فى ٣١ يوليو ١٩٨٩ فإن قيمة الجائزة تبلغ ٢٠٠ ألف دولار أمريكى تمنح للمبدعين العرب فى الأجناس العربية المتعددة : القصة ، والرواية، والمسرحية ، والشعر ، والنقد والدراسات الأدبية ، والبحث العلمى والدراسات

الإنسانية والمستقبلية .

وتعتبر جائزة العويس ، التى تمنح كل عامين ، بمثابة جائزة تقديرية ، تمنح لمجموع أعمال الكاتب ، وليس لعمل صادر فى نفس السنة ، وهى تمنح تحت رعاية اتحاد كتاب وادباء الامارات ، وحصل عليها عام ١٩٩٢ كل من الشاعر مهدى الجواهرى «العراق» عن الانجاز الثقافى والعلمى ، والشاعر العراقى سعدى يوسف عن الشعر والدكتور احسان عباس عن الدراسات الأدبية ، وكل من عبد الرحمن منيب ، والفريد فرج عن الرواية والمسرحية ود. فؤاد زكريا عن الدراسات الإنسانية ، فى عام ١٩٩٤ نالها من المبدعين كل سليمان من فياض وصنع الله ابراهيم فى الابداع ، وفاروق عبد القادر فى النقد. وفى عام ١٩٩٥ نالها ادوار الخراط ، ود. عواطف عبد الجليل ود. محمد الرميحى .

ومن الواضح أن هذا الكم من الجوائز الجديدة قد زاد بعد حصول نجيب محفوظ على جائزة نوبل عام ١٩٨٨ ، واراد العرب أن يؤكدوا أنهم أيضا يمنحون جوائز ، وأنهم ينتمون الى نفس العصر . وقد بدا كأن فوز الكاتب بهذه الجائزة قد شكل نوعا من الانفجار لكشف أهمية الثقافة والابداع فى المجتمعات الحديثة ، والغريب أن الجوائز الممنوحة من الأشخاص والمؤسسات غير الرسمية كانت أكثر من التى تمنحها الحكومات ، فقد اقتصرت هذه الجوائز الرسمية على ما حدث فى مصر، بينما اضطلع الامراء فى المملكة العربية السعودية بمنح العديد من الجوائز الأدبية ، ودخل هذا المجال رجال الأعمال فى الامارات ، والكويت ، وفى عام ١٩٩٥ ولدت أول جائزة رسمية فى المملكة المغربية تحمل اسم جلالة الملك الحسن، كما ولدت جوائز جديدة فى المدن العربية، من خلال منح جوائز للكتب والمؤلفين فى معارض الكتب التى تقام فى القاهرة وبيروت ، والكويت ، وغيرها من المدن .

● سوق الجوائز .

إذن فهذه الجوائز العربية، مثل الجوائز الأدبية العالمية، أما أنها تمنح من قبل مؤسسات رسمية حكومية ، أو أنها تمنح من قبل أشخاص لديهم قدرة مالية لمنحها سنويا ، وهم ، مهما كانت نواياهم يمثلون الدول التى تمنح هذه الجوائز ، كما أن هناك جوائز تمنحها مؤسسات ثقافية ، مثل النوادى الثقافية المنتشرة فى المدن السعودية على سبيل المثال .

وكما سبقت الاشارة ، فإن أغلب الجوائز العربية ، عدا جائزة الدولة التقديرية فى مصر، أقرب إلى المسابقات ، فعلى المؤسسة أن تعلن عن الموضوع الذى ستمنح

فيه الجائزة فى دورتها القادمة ، وعلى الكاتب أن يتقدم بنفسه ، أو من خلال مؤسسة ترشحه ، باعماله ٥ نسخ من كل مؤلف وهو فى هذا الحال يعرف أنه داخل مسابقة . فاما أن يكسب أو أن يفوز زميل له ، وتحجب الجائزة لعدم توفر الشروط .

وهذه الآلية فى منح الجائزة تعطي الايحاء أن المؤسسات التى تمنحها ليست لديها مستشاروها العالمون ببواطن الأمور فى مجال المنح، فإذا كانت الجائزة تمنح فى مجال الشعر ، فمن المفروض أن المؤسسة المانحة لديها كل ما يتعلق بالشعر والشعراء ، مثل جائزة نوبل ، فنحن لم نسمع أن اكاديمية ستكهولم تطلب من مؤسسة ما مدها بمعلومات عن كاتب مرشح . وعليه، فإن آلية هذه الجوائز تتمثل فى أن اللجان ، وأغلب أعضائها من الذين نالوا أكثر من جائزة ، تفحص الأعمال المتقدمة أمامها ، وتختار الأنسب لموضوع المسابقة والجائزة .

وليس فى الوطن العربى كله جائزة واحدة لها نفس آلية الجوائز الأدبية الشهيرة فى فرنسا وايطاليا ، وبريطانيا ، والولايات المتحدة ، الذى يقوم فيها أعضاء التحكيم، بتصفية الأعمال الصادرة فى نفس السنة، واختيار الأحسن، مثلما يحدث فى اكاديمية جونكور ، وبوليتزر ، أى أنها جوائز تمنح لأعمال بين أيدى القراء . أما الجوائز العربية فتجمع بين التقدير ، والتسابق .

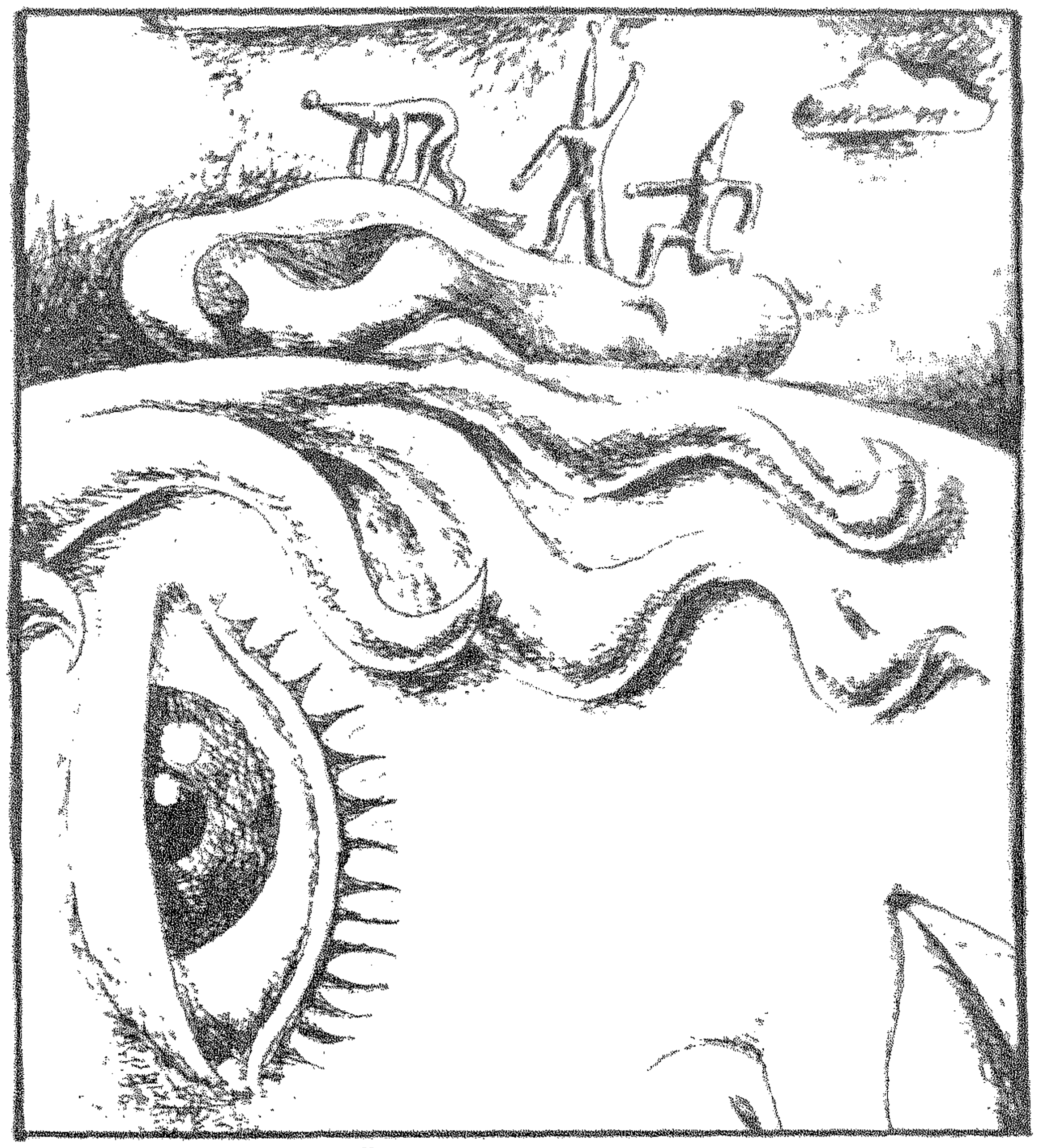
ولعل الجوائز التى تمنح سنويا الآن فى معرض الكتاب بالقاهرة أقرب إلى الشكل الامثل للجوائز العالمية ، والفكرة مأخوذة عن معرض فرانكفورت ، وسبق تطبيقها فى معرض بيروت ، قبل القاهرة .

● المحكمون يمتنعون

الملاحظ أن هناك ظاهرة تتعلق الآن بهذا الكم من الجوائز الأدبية العربية التى ولدت بعد فوز نجيب محفوظ بجائزة نوبل، ومن الواضح أن لذة الاحساس بالفوز أيا كانت قيمة الجائزة ، قد دفع جهات عديدة الى الدخول فى الحلبة ، باعتبار أن هناك لذتين ، لذة المنح ، ولذة الفوز ، يحس بها طرفان ، وعلى سبيل المثال فإن المجلس الأعلى للثقافة فى مصر ، قد خصص جائزة منذ ثلاثة أعوام باسم نجيب محفوظ، تمنح لأفضل الروايات المنشورة ، وقيمتها المادية أكبر من جائزة الدولة التى تمنح عن نفس المجلس ، لكنها لم تحظ بأى متابعة اعلامية ، فالملاحظ أن الفائزين ببعضها ليسوا من الأسماء الكبيرة ، وإن الكتاب الجيدين أو اللامعين لم يرغبوا فى الأشتراك فيها كمتسابقين ، ولعل السبب بالغ الوضوح ، إذ أن أصحاب هذه الأسماء هم أنفسهم المحكمون فى هذه الجوائز

قصة قصيرة

رحلة فى مخ السيدة ن . ع



بقلم :محمد مستجاب ◉ بريشة : حلمى التونى

لفـفـنا حـول الأذن اليمنى ولم يتسن لنا أن نجد براحا يتيح تلمس الطريق إلى المخ، أزلنا غـابة شـعـر قـصـيـر واسترحنا قليلا ثم بدأنا نجس الجدران، تخطينا وريداً وتحاشينا كثبان دهون وصعدنا ملليمترات حتى عثرنا على منطقة رخوة، اصطدم المشرط بنتوء عظمى فاضطررنا أن نعود أدراجنا حيث قضينا بقية الليلة خلف استدارة الأذن .

★★★

شمس الصباح كانت أدفأ مما توقعنا ، تسللنا شـمـالا فـوصلنا إلى مشارف الجبهة الخالية من أى مظاهر للحياة ، حانونا أن تسوخ أقدامنا فى غدد الدموع المنتشرة فى هذه البقعة، فقد سبق للبعثة التى طرقت المكان قبلنا أن توغلت فى هذا المريع فانفجرت – تحت أقـدامـهـا – شـلالات الدموع التى أفسدت على البعثة حاجياتها وخطتها، بعد برهة واجهتنا منطقة رخوة تغص بالشعيرات الدموية، تخطيناها فى حـرص، بعـد الظهـر مباشرة استطعنا تحديد منطقة عملنا ، فمكثنا وقتا نحاول تطهيرها من الشرايين والأوردة ، وبات من المؤكد أننا نجحنا فى اختيار بقـعـة البـدء المناسبة لفتح جمجمة السيدة «ن. ع».

أعدنا حصر أدواتنا وتصنيفها ، ومكث المساعدون بعض الوقت ينظفون ما استخدم منها، وكان الجو رائقا وغابات الشعر تطن حولنا فى هدأة النسيم واسترخينا على مشارف حفرة قديمة فاحتسينا شاى المساء وألقينا نظرة أخيرة على الخطة.

أصيب أحد أفرادنا بلدغة إحدى حشرات فروة الرأس فجهزنا له مكانا مستورا وربطنا ذراعه ، وكان المساعدون قـد نجـحـوا فى إزالة مساحة ضخمة من الجلد تـصـل إلـى ثـلاثـة سنتيمترات مربعة ، وبدأنا نكشف عن عظام الجدران الشرقية للجمجمة ، واستطعنا أن نصل إلى المفصل الذى يربط أعلى القراعة ببدايات الصدغ ، وبدأ يتلخلخ وبقايا الدم المتخثر الناشف تهمى فوق رءوسنا ، اجتاحتنا هزة فرح ، فأخطر ماكان يخامرنا أن نفشل فى رفع سقف الرأس فنلجأ إلى تهشيمه (وقد اضطررنا أن نهشم – فى مرة سابقة – سطح دماغ بنت «حماد» فأفسد الركان المتساقط مشتملات الجمجمة وشوه كثيرا من معالم محتوياتها ، وظللنا ندق طوال أصيل ذلك اليوم ، وفى آخر النهار انداحت

العظام ويبدا واضحا أن جمجمة السيدة «ن . ع» قد استسلمت تحت براعة مطارقنا ، وأننا فى طريقنا لاقتحامها.

***

كان من الصعب أن نقضى الليلة فى منطقة العمل، حيث كانت البقعة مكدسة بشرائح لحك الجلد المتغضنة وجذور الشعر الخشنة ، كما أن أحد مساعدينا سقط فى حفرة بين عظمتين فالتوت قدمه وأصيبت ساقه بسحجات ، فاضطررنا أن نقيم مكانا تحت حلمة الأذن للمصابين ، ثم لم نلبث أن نمنا جميعا مجهدين .

***

فى الصباح الباكر بدأت أسراب الصقور تحلق فى الجو وأصواتها تشرخ السكون ، كان ظهورها فى الافق يمنحنا قدرا هائلا من الاحساس بالنشاط والحياة والحماس والرغبة فى انهاء مانقوم به ، خلعنا المثقاب من جدران الجمجمة فى صعوبة وأعدنا تنظيفه وبدأنا نضغط به على المفصل ، طقطقت عظام الصدغ معلنة عن تخليها عن تماسكها بصلابة السقف، توغل المثقاب أكثر فبدأت المنطقة كلها ترتج والعظام تتهاوى منفصلة عن شدات القراءة ، وعندما ضغطنا إلى أسفل على المثقاب ارتفع سقف الرأس ، وبدا مخ السيدة «ن . ع» فى اتساعه المذهل وقد ارتخت أغشيته وسكنت ولا أثر - مطلقا - لأية محاولة سابقة لدخول المكان ، وشعرنا بالزهو، فنادرا مانجد جمجمة سليمة لم تمتد اليها أيدى العابثين .

***

كانت جدران القطاع الامامى للمخ قد تقلصت إلى الداخل مما ينبىء عن احتمال التعرض لضغوط قديمة ، وبمجرد ازاحة الغطاء الغشائى انبعثت رائحة الرطوبة والعطن ، أدرنا الجمجمة يساراً كى تغمرها بضوء الصباح كانت محتويات القطاع غير مرتبة لكنها كانت واضحة التفاصيل، بعد العتبة مباشرة وجدنا تذكرتى سينما درجة ثالثة غير مبين عليهما التاريخ ، غير أن نوع الورق وطريقة الطباعة يوشيان بأن التذكرتين حديثتان نسبيا ، وبجوارهما جلدة كراسة لا تحوى أية أوراق ، ثم حبل ليف فى نهايته (هلب) وعلبة كريم جافة ومسحوق تجميل منثور حول العلبة ، وجردل به مياه آسنة ، وبقايا

تصريح لدخول المنطقة الجمركية ، ورقبة قلة ، ومنديل حريرى متهرىء مزخرفة أطرافه بحرف (م) ، وعلبة سلامون فارغة ثم لفة من السوليفان تحوى مجموعة من الصور الفاضحة ، وفى نهاية القطاع - فى الركن الغربى - مجموعة من الأوراق مربوطة بنصف ملاءة سرير، وعندما حاولنا اخراج الأوراق تبين لنا استحالة فحصها دون معالجتها وترميمها، وعلى جدران القطاع وجدنا بعض الصور المعلقة دون ما عناية ففى اطار رخيص ثبتت صورة لممثل مسرحى اشتهر فى العصر السادس بسلوكه المشبوه، وصورة أخرى للسيدة «ن . ع» مع بعض أصدقائها يحتسون البيرة فى ملهى ليلى ، وصورة ثالثة لمخطوط يدوى يوضح أن السيدة «ن . ع» فازت بجائزة متأخرة فى مؤتمر أدبى ثانوى فى اقليم الزقازيق، وصورة رابعة وقد وقفت صاحبة الجمجمة فيها مستندة على كتف حيوان ذى أذنين طويلتين انتشر بعد العصر الرابع .

لم يكن بهذا القطاع شىء آخر جديد بالتسجيل ، وبدأنا نتحسس الجدران فبدت معالم باب فظللنا نعالجه بعض الوقت ثم وضح لنا أنه باب وهمى من تلك الأبواب طالما وجدناها داخل جدران جماجم النساء عموما . ولم يتسن لنا أن نعثر على مدخل يؤدى للغرفة التالية فاضطررنا أن نرفع الغشاء العلوى فتهتك وتساقط ، ولما تسللنا للداخل واجهنا ظلام كثيف فأشعلنا لمبة جاز حيث كان من الصعب تحريك الجمجمة فى اتجاه الشمس ، وأول ماعثرنا عليه كان كتابا لشاعر يبكى بين يدى زرقاء اليمامة، وسيارة مازالت خضراء نضرة، وعشرين قالبا من الطوب الأحمر، وتأملات فى السياسة لحكيم مشهور فى العصر رقم ٥ ، وصفارة كمسارى ، وثلاثين متر استك ، ورأس أرنب ، وعلبة أدوية تستخدم للبواسير، وكورسيه وفردة جورب ، وحافر حصان دون حدوة، وكيس مخدة، ونظارة طبية.

★★★

أهم غرفة - فى مخ السيدة «ن . ع» كانت الأخيرة، ومن المعالجات الأولى اتضح أن جدارها الغربى بال بشكل يهددنا، وكان نشع البلازما قد تسرب أسفل الحوائط والجو خانق ، ولم تكن لدينا القدرة على

قصة قصيرة

تأجيل فحص هذه الغرفة إلى الغد ، كل التقارير تهتم بمثل هذه الغرفة، بل لابد من الاشارة بأن الغرفة البحرية فى نهاية مخ نساء القرن العشرين تعد فى حد ذاتها أهم مايشغل الباحثين والمهتمين بالمخيّات (وقد أهملت إحدى البعثات الفحص الدقيق لمثل هذه الغرفة معتقدة أنه لا يوجد بها ما قد يثير الاهتمام أو ما يفيد الباحث ، ويعد بذلك بأسابيع وقد جحش فى حفرة فإذا هى مليئة بالوطاويط الذهبية.

★★★

بنوع من التعامل الرقيق مع الجدران استطعنا أن نضع أيدينا على بروز فوهة مدخل عليه العلامات السحرية المعهودة : رسم القلب تخترقه حربة ، عالجنا الفوهة حتى أخرجنا الحجر الثمانى الاضلاع، ثم واجهتنا مجموعة من القضبان الحديدية فاضطررنا أن ننشرها مما عطلنا ، بعدها زحفنا إلى هذه الغرفة الصغيرة، تلك التى يعجز العقل عن استيعاب مابها منذ اللحظة الأولى ، أشعلنا أضواء وظللنا نزحف داخل الفوهة ، على اليمين وجدنا نسخة عطرية من رواية (أحزان نوح) لكاتب مقل من كتاب العصر رقم ٦، ثم لوحين من الاردواز ، وفى الركن الأيسر كانت مجموعة من جثث الذكور المتوسطى السن منزوعة منها بعض الأجهزة ، وقد تناثرت حولها أغلفة فارغة لحبوب منع الحمل، وألبوم صور يحوى مجموعة من صور مشهورى العصرين ٦ و٧ ممهورة بتوقيعاتهم ، وملف أوراق يحوى :

– صورة خطاب لأحد وزراء الداخلية تصر فيه السيدة «ن ع» على توجيه الاتهام إلى ما يقوم به أحد المدرسين من نشر الآراء الهدامة فى المدرسة

قصاصة من قصة قصيرة توحى بأن صاحبة الجمجمة ليست لديها القدرة على فرش أرض الرجولة بما ينمى الرغبة والاشتهاء .

– نص حكم صادر من إحدى محاكم العاصمة فى جنحة مباشرة رفعتها المذكورة ضد مهندس زراعى أثار ضدها إشاعات بأنها تميل إلى ممارسة علاقات بشكل ينهى عنه الشرع.

– طعن فى الحكم وعريضة استئناف وتحقيق.

– قائمة بأسعار

ملبوسات داخلية.

- خطاب من سيدة مهاجرة تنعى على صاحبة الجمجمة تمسكها بالأخلاق والعرف فى زيارتهم الأخيرة.

- صورة بالأشعة لمؤخرة مجهولة .

- برنامج مطبوع عن مهرجان بمسرح «السامر».

- استمازة قماش من «عمر» أفندى الجيزة غير معتمدة.

- تقرير طبى عن احتمال وجود أمراض تناسلية مؤشر عليه بالتحويل إلى مستشفى «أم المصريين» .

- مجموعة أوراق تتضمن محاولات من صاحبة الجمجمة لكتابة مسرحية شعرية .

- اشتراك تليفون غير مسدد.

كما وجدنا أيضا مجموعة أخرى من أوراق غير مرتبة معظمها منزوع من مجلات تتحدث عن الثقافة والمسرح والزراعة والحضارة.

فى أرض الغرفة أيضا - وبجوار الجثث - وجدنا أجهزة لم نحدد وظيفتها ، وزمزمية وقمع سكر، وزجاجة بيرة محطمة، وأعضباء دون صاحب، وباذنجانة سوداء وحذاء حريمى ذا رقبة عالية ، وأوراق جافة «لكرنيه»، وقطعة خشب مكتوب عليها سطر لم نستطع أن نتبين منه سوى الصبر - و - مفتاح ، ولفة صغيرة فتحناها فوجدناها تحوى لسان كلب ، وثلاثة أبيات من الشعر العمودى ، وكتالوج ثلاجة ، وملف آخر لقضية أخرى ولفة قطن ، وشرائح بروجكتور

★★★

حاولنا ترتيب هذه الأشياء قبل أن يدهمنا الليل ، كان النشع المتسرب من قاع الجمجمة قد بدأ يضايقنا ويحد من حركتنا ، كما أن رائحة مافى مخ السيدة «ن . ع» أثارت الصقور والغربان فبدت تحوم فى الجو وعلى ارتفاع منخفض ، وعندما بدأنا نضع علاماتنا على موجودات الغرفة - تمهيدا لتسجيلها بدأت أصوات الكلاب الضالة تصل الينا ، كان الوقت أصيلا ، وكان الجو خانقا، وفى الركن الأيسر من هذه الغرفة كنا نحاول الاسراع بفتح صندوق أسود صغير.

وفى غبش المساء - وتحت ضغوط الوجل - والخوف من العقارب : استطعنا أن نكسر الصندوق فوجدنا بداخله جثة طفلة حديثة الولادة وبين يديها حكم من إحدى المحاكم يحدد لها خمسين جنيها كنفقة شهرية ■

المصريون يعطرون العالم

بقلم چانييت ديبون ايروت



وحملت الوصيفات أدوات التزين والتجميل الي حيث تذهب الملكة كليوباترة

ظهر التعطر فى مصر أولا ، مثلما نما الكبرياء لدى البشر ، بينما كانت بقية الشعوب لاتزال سابحة فى بساطة الحياة الرعوية . قدم المصريون الفتنة المتميزة التى جاءت بها حضارة لم تتجاوزها حضارة أخرى . وتشهد الرسوم الموجودة فوق العديد من البنايات الفرعونية على تذوق ابناء هذه الحضارة للعطور والأطياب وادوات التجميل منذ بداية التاريخ قبل ٤٦٠٠عام من ميلاد السيد المسيح من خلال باقات ورود جافة لنبات الرعراع التى تم العثور عليها فى مقابر حلوان قريبا من القاهرة ترجع الى ماقبل التاريخ حيث اكتشف الأثرى فرنان ديبونو باقة صغيرة تعود الى تلك الحقبة.

لقد ظل مثل هذا الاستخدام المقدس طوال التاريخ الفرعوني ، وخاصة في مقبرة توت عنخ آمون الشهيرة التي تعود الى الاسرة الثامنة عشرة حيث تم العثور على العديد من باقات الزهور الموضوعة على الجثمان ، ووجدت ايضا باقات صغيرة تضم قطعا من جذور نباتات عطرية كانت تستخدم بشكل اساسي في التعطر ، مثل البخور في اشكال حزمية أو اسطوانية . تم اكتشافها في مقابر كهنة العصر البطلمي بمعبد فيلة .

عصر اللوتس

في الجنان المصرية تشكل الحدائق مكانة مهمة كما تبين الرسوم الجدارية الرائعة لمقابر طيبة ، قياسا الى المقابر الاخرى كما اشار ارباج ميكتارين في كتاب «النقوش المصرية» ١٩٧ وبشكل خاص في مقبرة نفرتيت ، طباخ امنوفيس الثاني حيث يمكن رؤية نساء جالسات فوق مقاعد صغيرة يمسكن بأناملهن زهورا ويتشممن عطور باقات اللوتس ، ويضعن الصنوبر المقعر فوق الرءوس ، وفي مقبرة اخرى تصور احدى اللوحات البالغة الجاذبية صورة امرأة مرموقة من الاسرة التاسعة عشرة ، هي زوجة او اخت للكاهن اوسرحت تضع على جبهتها زهرة اللوتس بلونيها الرمادي والاخضر على شريط يرتفع فوق باروكتها ولا يمكن للمرء ان يمل من شدة الاعجاب بهذا الفن البالغ الرقي لهؤلاء الفنانين القدامى.

اما في مقبرة مينا بطيبة ، فيمكن ان نعجب بالرسم الجداري البالغ الجاذبية والبساطة ، والذي يتسم بتلقائيته والذي يمثل من بين العديد من الشخصيات ، شابتين تقدمان الى ضيفة جالسة فوق مقعد منخفض : الاولى زهرة لوتس ، والثانية سوارا او اكليلا وتبدو المرأة كأنها تقول هل أنا جميلة ؟ «نحن نعرف انه في اطار الاحتفالات في العصر الفرعوني كان المدعوون يتنسمون الزهر دوما ، ويضعون فوق رءوسهم تيجانا من الاعشاب العطرية ، وهناك رسوم تمثل تصنيع العطور وطريقة استخلاص الروائح والتي تقدم الى الالهة كما كانت تستخدم في تعطير الموتى في مصر القديمة ، ومدينة الشمس ، حيث كان يتم احراق البخور مع مطلع النهار

والراتنجات فى وسط النهار ، وعند الغروب هناك مزيج من توابل عديدة يسمى «كوفى». وكانت الشعائر الدينية تستهلك كمية من العطور والاطياب ، وتمثلت المباخر الفرعونية فى ذراع من خشب بها المبخرة لقد ابتكر المبدعون الفراعنة نظاما متكاملا للحمامات التى استخدمها من بعدهم الاغريق والرومان ، والتى يتم فيها العناية بأمور الاستحمام والتزيين . وبعد نباتات ابو طيلون المقلدة يدلكون الاجساد بالزيوت العطرة كى يكسبوا لاجسادهم المرونة اللازمة ولتصبح قادرة على مقاومة تأثيرات الشمس . وكانت الاساسيات المستخدمة من مصادر متنوعة عديدة .

فى البداية كان الكهنة هم الاشخاص الوحيدين الذين يملكون اسرار هذا الفن ، وكانت التوابل تضم ايضا الزعتر البرى وزهور اللوز المر ، وايضا الصبر ، والعطر العربى ، وبشكل عام فقد كان يتم حفظها فى أوان أو أوعية فخارية أو من العقيق ، والزجاج والرخام ، أو فى علب مرصعة بالعاج مثل التى يتم فيها الاحتفاظ بالطيور والاسماك ، وفى متحف العطور بباريس يمكن ان تشد انتباهك آنية من المرمر ، ترجع الى الامبراطورية الجديدة للاسرة السابعة عشرة لقد كان إعداد المراهم امرا بالغ المهارة من متخصصين فى المتحف البريطانى ، احتفظ الاثرى ريميل بعطور لاتزال تفوح بأريجها بعد ثلاثة أو أربعة الاف عام ! ولكن هذه المنتجات الثمينة لايمكن ان تناسب الطبقات الفقيرة التى كانت تستخدم زيت الخروع الذى توافر دوما فى مصر ، والذى استخدمته النساء فى النوبة

الزعتر البرى واللوز

هناك وجه جدارى يعود الى الاسرة التاسعة عشرة يمثل ملكة مصبوغة باللون الاصفر لون النساء والذى يعتبر سمة لهذه الحقبة مع تسريحة شعر عليها ويضع اكليل من الاعشاب العطرية .. فى تونس كانت النساء يضعن أيضا الجواهر فى أوانى العنبر الرومانى المعطر. وكانت رائحتها تنتشر مع حرارة الجسد . وقد استخدمته التونسيات على شكل نجوم وقلوب ومثلثات حسب تخيلاتهن وتجميع العنصر ، أو حسب



والكحل في عينيه السود .. جلاب الهوى

الطرز المشتراة من عند الجواهرجى ، كانت المصريات يغسلن الوجوه باللونين الابيض والاحمر ، كان اللون وحده يقاوم الزمن فى العصر الفرعونى . هناك مسحوق اسود (الكحل) كان يصنع من الانتيمون (كبريتات الرصاص) الذى يلتصق بالاهداب بطرف قطعة من خشب العاج ، وهو يضاعف الجاذبية ويجعل العينين تظهران اكثر اتساعا ، هذا الاستخدام يعود الى ماقبل التاريخ فى نفس القرى التى تعود الى العصر الحجرى المعمارى ، وجد فرنان ديبونو فى إحدى الحفريات كبريتات الرصاص التى تم استحضارها من مناطق بعيدة ، ولقد تم تغليف هذه القطع بعناية فى حقيبة صغيرة من جلد الحيوان، وقد وضعت الحقائب فى جرة مصنوعة من الطوب اللبن.

وفى مصر ظلت الحناء عنصرا اساسيا لفترة طويلة كعامل مساعد لاظهار الزينة ، وهذا النبات يزرع على نطاق واسع فى ايامنا مثلما كان فى كل العصور ،

والحناء شجيرة صغيرة تنمو طوال العام في الدغل والحدائق ، ولزهورها روائح بالغة النفاذ واوراقها مستخدمة في استخلاص العجائن الحمراء ، وقد استخدمها الرومان في صبغ الشعر ، أما بين الطبقات الشعبية فان المصريات قد استخدمنها في صبغ الكفوف .. وبطون الاقدام ، والاظافر وخاصة في حفظ الشعر ، وبشكل خاص في ليلة الزفاف ، وكانت هذه بالتأكيد عادة تلوين الكفوف اغريقية الاصل .. والفجر في الاظافر الوردية . وبلغ تذوق العطور في عصر كليوباترا اقصى حالاته مما رفع من درجة الاستهلاك، وكان أحد اسلحتها للاغراء التي استخدمتها لأول مرة مع مارك انطونيو.

الموضات والاذواق تتطور

في كل الاعياد تروج تجارة العطور اما العبيد فكانوا يضعون الباروكات على رءوس الزوار، وفي اثناء حفلات الاستقبال كانت مسابح اللوتس تزين الاعناق ، وأشرطة الزعفران ، وديكور الزهور المعلقة في الاسقف او الموضوعة على الموائد التي تفوح عطورها من دخان المجمرة ، بدرجة لا تتجاهلها اي من الحواس الخمس ، فيعزف الموسيقيون اعذب الالحان . وهكذا تم استقبال اجسيلاس عند قدومة مصر ولكن العجرفة الاسبرطية التي لم يألفها هذا العالم رفضت كل هذه الرقة والعطور التي تعبر عن مجتمع راق فهل سيوقف هذا اكتشاف اناقة وسحر هذا العنصر عبر الاعاجيب صناعة الملابس المتعددة الثنايا واساليب قص الشعر التي نراها مثلا في المتحف اليوناني الروماني بالاسكندرية .

لفتت حاسة ان تكون المرأة جميلة عبر العصور ، انظار علماء الاثار ، وبدت واضحة واضحة فيما تركته الامبراطورية المصرية الجديدة من آثار يمكن رؤيتها في متحف تورينو مثل تلك المرأة التي تدهن الشفاه بأصبع روج .

في موسوعة ضمت كلا من الشرق الاقصى والشرق الادني ، لابد ان تلفت انظارنا تلك التسريحات والامشاط والاصبنة ، والقفازات المعطرة . مما يكشف حب الشرقيات للورود ، ففي كل عام ، وفي الربيع يقمن بأعمال التقطير في المنازل فيما يمكن تسميته بالتقطير

العائلى ، اوراق الورد وبذور وردة البرتقال فى القرن التاسع عشر. وفى بيوت الاثرياء ، كان يتم رش ماء الورد فوق ايدى الزوار بعد العشاء هذا الملمح من العادات ذكره «لان» فى عام ١٨٣٥ فى كتابه اساليب الاستهلاك فى مصر المعاصرة . المنشور فى لندن فبداية من شهر مايو يقدم شباب الباعة الجائلين بالقاهرة عقود الياسمين لكل من يرغبن فى ان يصرن فاتنات .

وفى عصرنا يوليون الاول ، الذى اسس فى فرنسا صناعة العطور ، هناك ميراث بين الاجيال السابقة ساهم فى التقنيات المعاصرة ، ويسمح حتى ايامنا باعداد المنتجات الشديدة التعقيد فى تركيباتها.

ومازالت مصر الحديثة تحتفظ بعادات التعطر ، ولكن حتى ايامنا فانها مازالت تصدر الكثير من «اساسيات» عطر الياسمين الى فرنسا ، اما محلات خان الخليلى ، اشهر محلات القاهرة ، فانها معروفة بسياحها الذين يبحثون عن هذه القنينات من كل الاحجام المليئة بأساسيات العطور النادرة ، وتاجر العطور هو نفسه دائما على الطراز المصرى ، والمصريات يشترين دوما هذه الروائح الثمينة من أجل التعطر والوقاية من عين الحسود او يخلطنها بالبخور ، ولقد كان الرسول ﷺ يحب العطور ، ولم يتغير شىء فى هذا منذ قرون حتى فى الطرز والاذواق التى تطورت عبر العصور.

طرق التقطير التقليدية

فى مناخ ساخن وجاف ، مثلما فى مصر ، فان الزيوت والشحوم تلتصق بالاجساد والشعر وهى عادة مألوفة . مثلما اشار أ . لو كاس فى كتابه «اعداد الصناعات القديمة» .. المنشور فى لندن عام ١٩٢٦ حيث ذكر تعليقات المصريين وهذا الاستخدام يؤكد استمرار استخدام العطور لمدة طويلة فى النوبة والسودان وايضا فى انحاء اخرى من افريقيا ، وهناك وصفات عديدة لاستخدام الزيت من الصنوبر كما ذكر شترابون ، اما الاكثر استخداما فى الطبقات الفقيرة فهى الشحوم الحيوانية ، واساسيات العطور التى اضيفت الي هذه الزيوت والدهانات تجعلها اكثر متعة ، وايضا تستخدم فى اخفاء قابليتها للتزنخ ، ولذا

فان العطور السائلة ، والعطور المذابة فى الكحول ، تأتى من اساسيات عديدة مستخلصة من الزهور والفاكهة والاخشاب والاوراق ، والجذور ، والنباتات الزهرية ، ولم يعرف هذا النوع من العطور الفواحة فى مصر القديمة ، لان انتاج الكحول لاذابة الاساسيات كان يتطلب معرفة معقدة هى معرفة اصول التقطير ، وبالتاكيد فان هذا النظام تم اكتشافه فيما بعد

وجدت اول اشارات عن التقطير عند ارسطو فى القرن الرابع قبل الميلاد ، ثم عند «بلين» فى القرن الميلادى الاول وبعد التوصل الى الكحول وجد انه احسن وسيلة للامساك بالعطر او اطلاقه من الدهون والزيوت ، ولايزال يستخدم بنفس الطريقة حتى الان من اجل استخلاص فوحان الزهور ، حيث يتم وضع الاوراق فوق مرقد دهنى ، وتغمس فى زيت الزيتون او اللوز قبل تثبيت العطر بالكحول ثم يستخلص بالتقطير ، وبدون هذه المرحلة الاخيرة المعقدة فان رائحة الدهون تظل عالقة بالعطر وقد ظلت هذه الطريقة مستخدمة لدى الاغريق فى عصر تيوفراست حيث كانوا يستخدمون الزيت البالغ النقاء ، اما فى مصر وسوريا فكان هناك زيت الزيتون واللوز .

عصر الخلود

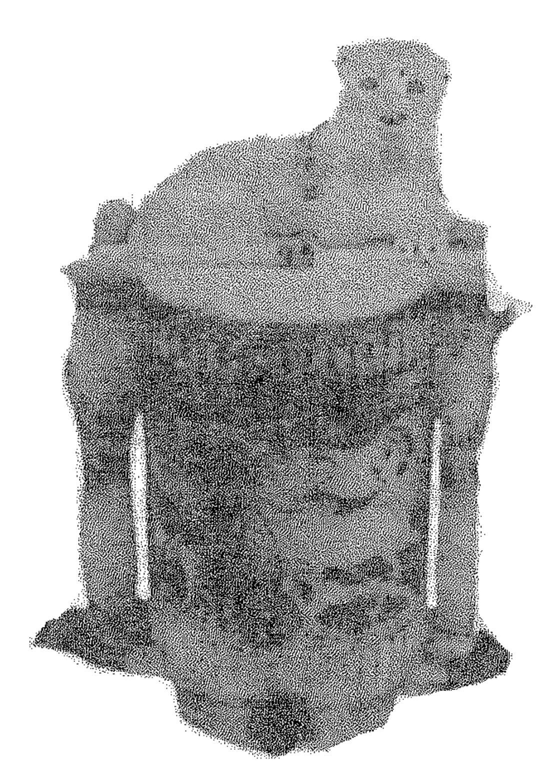
وبعد هذه العملية ، يمكن اضافة زيت الزنابق او جذور السوسن مما يضمن دخلا افضل للمصريين ، ففى عصر «بلين» كما أكد لوكاس . كان يتم نقع نباتات متنوعة فى الزيت ، وكانت تدرجاتها تتم حسب انواع خلاصة الزهور والراتنجات والاصماغ العربية والتى يتم الحصول عليها بالضغط على المزيج فى قطعة من النسيج حسب طريقة عصر العنب ولقد امتدح تيوفراست العطور المصرية وروى ان العطر كان يتم حفظه فى حوانيت مصر طوال ثمانى سنوات الى ان يصير عطرا زكيا .

اما بالنسبة لـ «بلين» فقد مثلت مصر دوما نموذجا متميزا كبعد لانتاج الدهائن وبصفة خاصة فى العصر الذى حكم فيه مندس بالدلتا وشرح ان الدهان المندسى هو أحد المكونات الشديدة التعقيد يتكون من زيت البلوط ، والخروع والصبر التى



الكحل كما يبدو على النقوش

حاملة قنينات الحناء



وعاء لحفظ
العطور وتخزينها



التزين بالخلخال .. بدأ عند اقدام المصريات ..

تضاف الى زيوت اللوز المر المستخلص والزيتون الاخضر والزبيب ، وبذور البلوط والاصماغ وصبار التربنتين الذى يؤكد على وظيفته فى العصر الفرعونى ، وعلى خشب زكى الرائحة فى تكوينات العطر، اما زيت البلوط فهو اكثر شيوعا الان فى مصر حيث كان يستجلب من شجرة مزهرة تلك الشجرة التى تم اكتشافها فى القرن التاسع عشر بواحة «الخارجة» .. وفى الدلتا كما جاء وفى تقرير لوكاس فان قربان البخور والعطور كان يمثل نموذجا مهما فى الرسوم الجدارية للمعابد والاثار ففى الاسرتين الخامسة والسادسة على سبيل المثال تم اكتشاف العطور المحترقة (البخور) بعد هذا الفصل من التاريخ الفرعونى بمثابة كنز ، يفوح منه عطر الخلود وهالات الزهور وملكات جمال الاسلاف ، وزوجات الفراعين ، وقد ظل هذا يثير فينا الاحلام لقرون طويلة ●

صلاة إلى الكلمة

شعر:
جليلة رضا

انطلقى من جوف الظلمة
يا جسد الفكرة يا كلمه
هيا .. هزى .. هزى قلمى
وانتفضى فى ثورة ألمى
يا أصبح عملاق يفرد أجنحة الفن المنهزمة
قولى شيئا .. شيئا يصعد .. يتواثب .. يعلو للقمة
يا جسد الفكرة .. يا كلمه !

أيتها الكلمة كم يحمل معناك شقاء وسعادة
شطآنك أرض وسماء وحروفك كفر وعباده
وإذا استعصيت على شفتى . لن يبلغ فنى أمجاده
انطلقى أيتها الكلمة .. انطلقى عزما وإراده ..
وخذى عمرى أجر نشيد عذرى أشهد ميلاده

كم صور أثرت فى ذهنى ، نقلتها الشفتان فقيرة ..
ولحون غردها قلبى .. فانسابت بكماء ضريره
وحروب فى داخل نفسى .. خرجت للعالم مقهوره
انطلقى أيتها الكلمة .. انطلقى أصلا .. لا صوره
وخذى عمرى أجر نشيد عذرى أحسن تعبيره ..

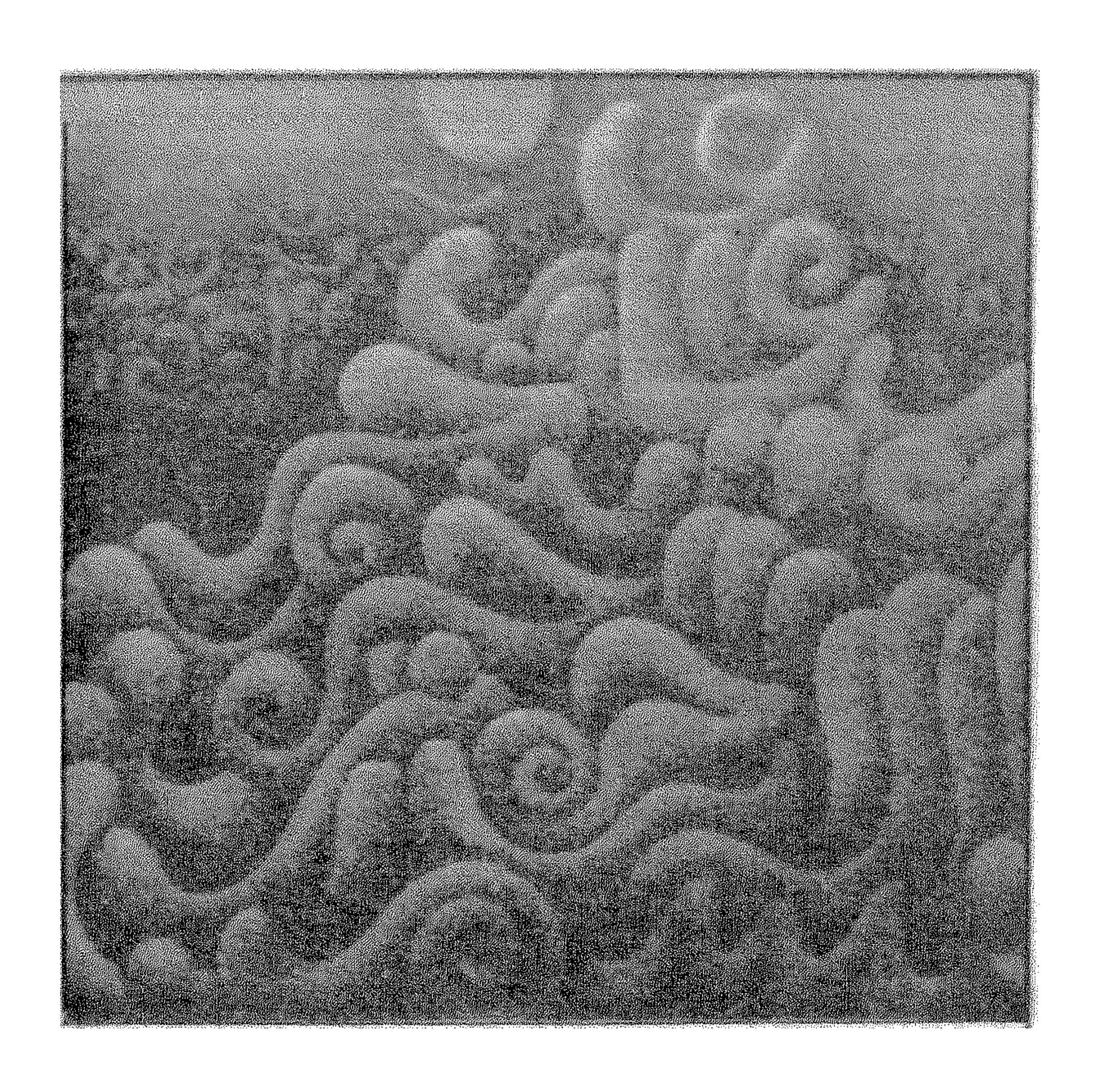
كم ليل تنساب الذكرى ، صورا وحقائق وظنونا
فتغوص الكلمة فى حلقى ، كمحيط يبتلع سفينا
ويموج فراغ فى قلبى . كالمسجد دون مصلينا

وعلى باب الكلمة أهتف : انطلقى شوقا وحنينا
وخذى عمرى أجر نشيد ، يتلوه العالم مفتونا .

●●●

أيتها الكلمة صوغينى فنا يرتفع بدنياه
صوغى من إيمانى مرسى للهائم فى بحر أساه
لمى أعماقى المحطومة ورداً أتنفس بشذاه
فالألم هو الفن الخالد .. هاتيه فكم أتمناه
وخذى عمرى أجر نشيد قدسى باركه الله.

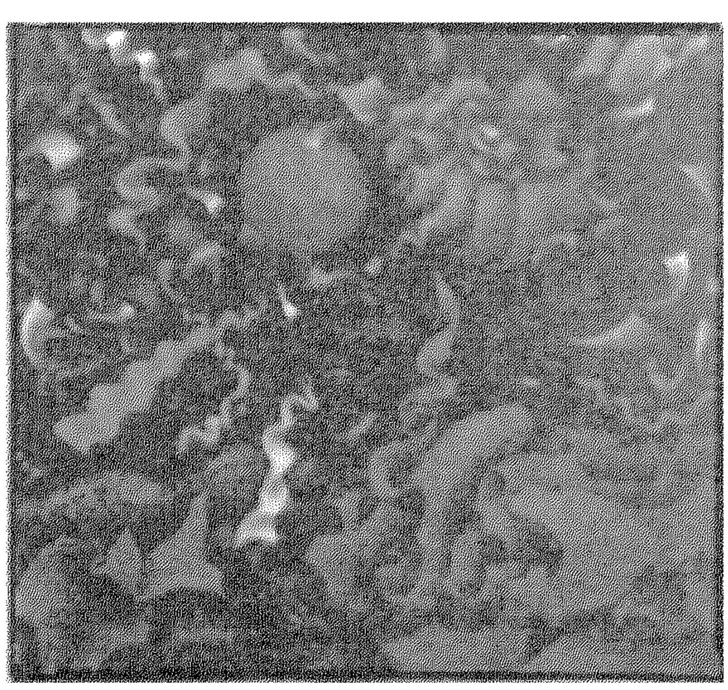




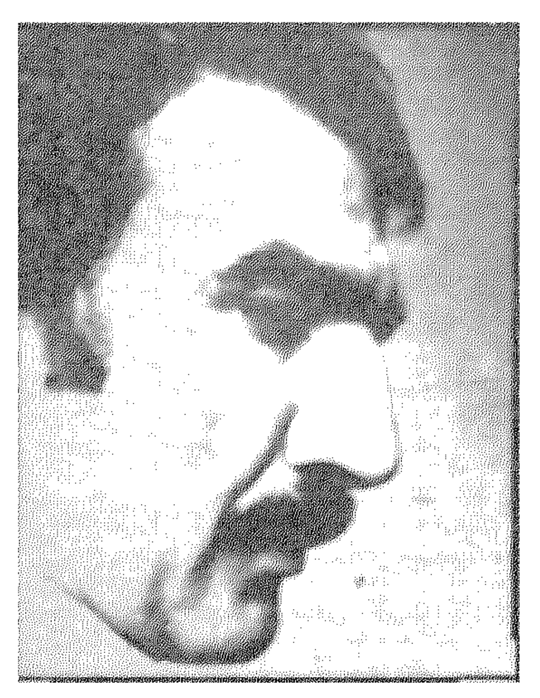
تكوين حروفى

محمد حجي
ودواوينه المرئية

بقلم : محمود بقشيش



عالم يتشظى



الفنان محمد حجى

منذ تزاملت معه فى كلية الفنون الجميلة ، فى أواخر الخمسينيات.. حتى الآن ، والفنان «محمد حجى» منشغل بفكرة رئيسية هى : إن «اللوحة» يجب ألا تكتفى بأصلٍ واحد ، يُحاط بهالة القداسة ، بل عليها أن تجد طريقاً تقتحم به جمهوراً واسعاً ، لا مبالياً ، بحكم التكوين ، وكان جمهوره الأول الذى قُدِّر له أن يتصل به هو شعب قريته «سندوب» (إحدى قرى محافظة الدقهلية) ، .. وكانت قريته تعيش بمنأى عن الجريدة اليومية ، ولم يلتحق أبناؤها ، قبل «حجى» ، بكلية من كليات الفن ، ولم يمارس أحدهم تَرَف متابعة ما تقدمه قاعات العرض من فنون . ولكى يصل إلى هذا الجمهور كان عليه أن يجد «وسيط الاتصال» ، واكتشفه فى حوائط قريته الطينية ، فأغرقها برسم موضوعات تَصوَّر أنها تهم الناس ، أو تحرضهم على «تغيير» واقعهم . وكانت الأدوات المناسبة لذلك النوع من الجدران هى الألوان الجيرية .

كان متأثراً فى تلك الفترة من تاريخه، بأساليب بعض الرسامين الصحفيين ، وغير الصحفيين الذين لونّت السياسة الحزبية أساليبهم الفنية مثل : «زهدى» و «حسن فؤاد» و «محمد حامد عويس» . غير أن اتصاله - كرسّام - بمعطيات البيئة المرئية ، وملاحظته لما يصنعه الضوء والظلال من أشكال مثيرة ، أمدّه بإدراك أنّ عليه أن يُتْقن الأسلوب «الأكاديمى» قبل أن يفكر فى التمرد عليه ، ويكتشف لنفسه الأسلوب الذى يناسبه ، مثلما فعل الفنانون الذين تأثر بهم فى بداية الطريق

وأشهد بأنه كان أفضلنا فى نقْل الواقع ، وأسبقنا فى التمرد عليه ، وأحرصنا على أن يتصل فنّه بالناس . وقد واتته فرصة عندما أتيح له أن يصبح رساماً فى مجلة «المنصورة» واختار مجال التحقيق المرسوم . وكان يقوم بدور الرسام ودور المعلق معا . كانت لوحات تحقيقاته تقترب من الطابع التوثيقى ، دون أن تغرق فى حياده، بل كانت تشع رسومه بما تضمره من شحنات تعبيرية ، وآراء تنحاز إلى شرائح الفقراء والكادحين. بعدها انتقل بتحقيقاته الصحفية إلى مجلة أوسع انتشاراً هى مجلة «روز اليوسف» . وبدلاً من الاكتفاء بوصف مشكلات «سندوب» صارت رسومه وصفاً لمشكلات الوطن .

وانتقل بعد ذلك إلى العمل فى «ليبيا» .. ثم العمل بالجامعة العربية . وفى الجامعة اختار وسيطاً تعبيرياً جديداً للاتصال بجمهور أكثر اتساعاً من حدود الوطن الواحد ، وكان هذا الوسيط هو : الكتاب . به انصرف عن «نثر» المشكلات اليومية إلى «شعر» الوجدان ، والفكر ، والتأمل ، واستلهم نصوص الدين ، والشعر ، والسياسة .

● علامات فاصلة

تكشف كتبه المرسومة أو «دواوينه المرئية» - كما أفضِّل - عن تعددٍ ، متباين، فى مصادر الإلهام ، وإن جمع هذا التعدد نبعٌ واحدٌ ، رئيسى ، هو النبع العربى الإسلامى ، غير مقطوع الصلة بإنجازات النموذج الأوربى فى الفن ، استلهم فى كتابه «شمال يمين» آثار السياسة الأمريكية فى المنطقة العربية ، واستلهم فى كتابه «رسوم من ليبيا» مفردات الحياة اليومية فى المجتمع الليبى، واستلهم آيات من القرآن الكريم فى كتابه «رسام يقرأ القرآن» ، واستلهم رباعيات «صلاح جاهين» فى كتاب بعنوان : «رباعيات عامية مرسومة» وهناك مجموعة أخرى من الكتب تحت الطبع ، لم أطلع على أصولها ، منها:

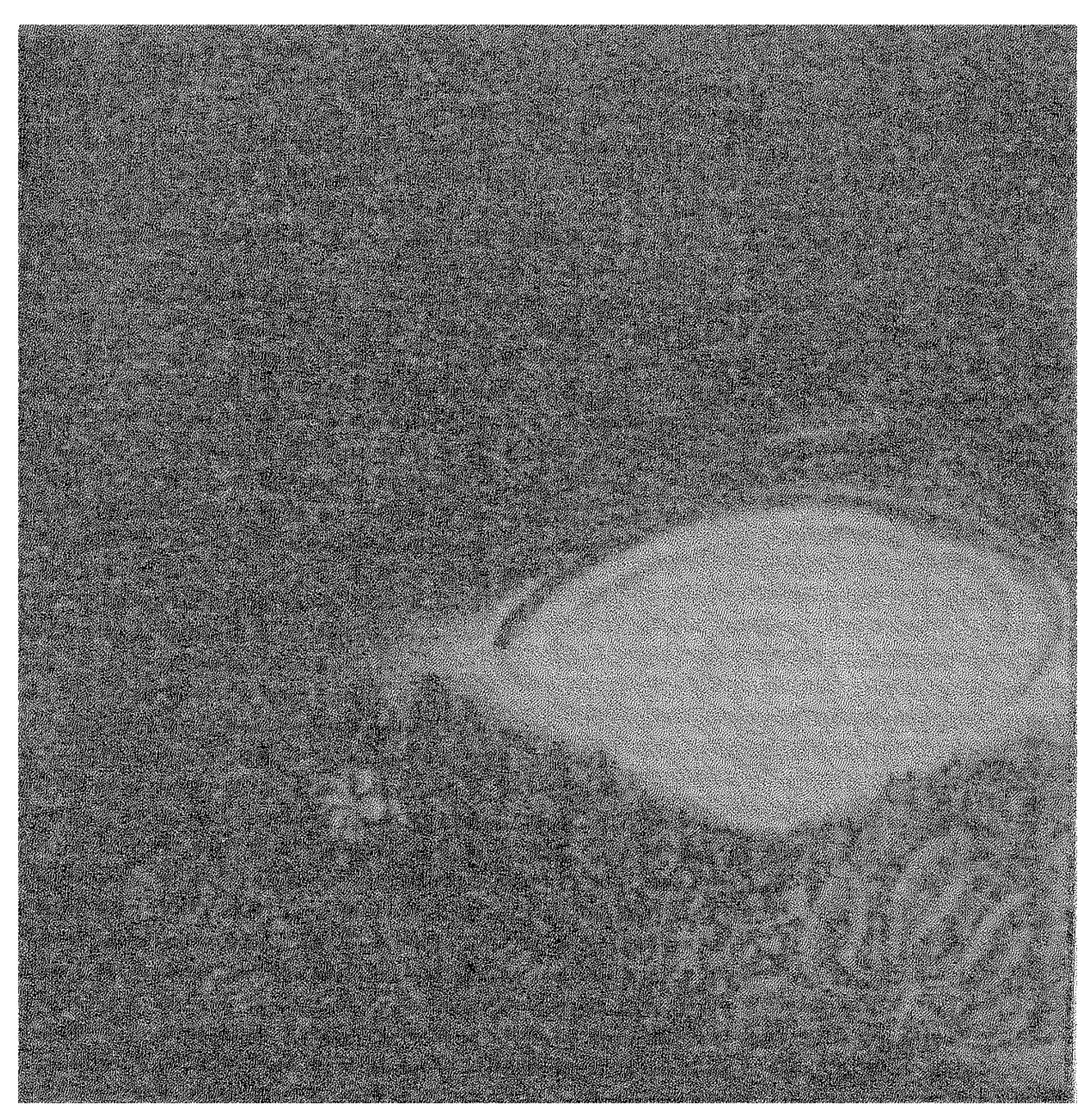
«رسوم من تونس» و «ذكريات ريفية».

صاحب تعدد مصادر الإلهام ، تعدد فى أساليب التعبير الفنية ؛ اتجه فى كتابه «رسوم من ليبيا» إلى أسلوب أقرب إلى تسجيل الواقع المرئى ، وفى كتابه «شمال يمين» كان أسلوبه أميَل إلى المبالغة «الكاريكاتيرية» التى يبررها توجهه إلى النقد اللاذع . وفى كتابيه «رسام يقرأ القرآن» و «رباعيات عامية» يتجلى أسلوب هو مزيج من الرمزية والسريالية . ومن اليسير أن ندرك أنه يطبق فى رسومه المبدأ القائل : «لكل مقام مقال» ؛ فهو يختار بعناية ، الأسلوب الذى يراه مناسباً لمحتوى الموضوع الذى يتناوله . وبغض النظر عن الاتفاق أو الاختلاف النظرى مع وجهة النظر التى يتبناها ، فقد نجح فى تهيئتنا لتقبل مبالغاته التعبيرية ، منذ لقاء الوهلة الأولى بعنوان كتابه «شمال يمين» ذى الإيقاع الآلى الذى يضم السخرية . ونجحت مبالغاته اللاذعة ، والمتقنة ، فى تنفيرنا من السياسة الأمريكية فى بلدان العالم الثالث، بشكل عام ، وفى المنطقة العربية بشكل خاص ، وجسدّها غولاً بعشرات الأنياب والأظافر الفتاكة ، مدججاً بأدوات قمع لاحد لها ، مُزيناً بعشرات النجوم اللوامع . أما فى كتابه «رسوم من ليبيا» فإنه لم يكن فى حاجة إلى مبالغات الهجاء أو انحيازات التحريض أو الإغواء ، بل كان دافعه - على الأرجح - تأملياً . لهذا احتفل بالتقاط مفردات من الحياة اليومية وشىء من مظاهر البيئة الطبيعية ، وبعض وجوه أناس عاديين . وشكّل من تلك المشاهد المتناثرة صورة رامزة إلى أبعاد سياسية واجتماعية لهذا الوطن . ولأنه لايريد أن نقف من المجتمع الليبى / العربى نفس الموقف من السياسة الأمريكية ، فقد اختار أسلوباً أقرب إلى الوصف الحيادى الذي لا يسمح باشتعال العواطف بل بالتأمل الهادىء ، والنقد الموضوعى . وسواء كان مضطراً فى هذين الكتابين إلى إشراك أو مصاحبة نصوص مكتوبة ، أم لم يكن مضطراً إلى ذلك ، فقد قدم فيهما لوحات أراها مكتفية بذاتها .

وكان من الممكن - فى ظنى - الاستغناء عن النصوص والتعليقات المكتوبة . وربما دفعه إلى تلك المصاحبة فكرته عن طبيعة القارىء العربى الذى يفضل التصريح على التلميح !

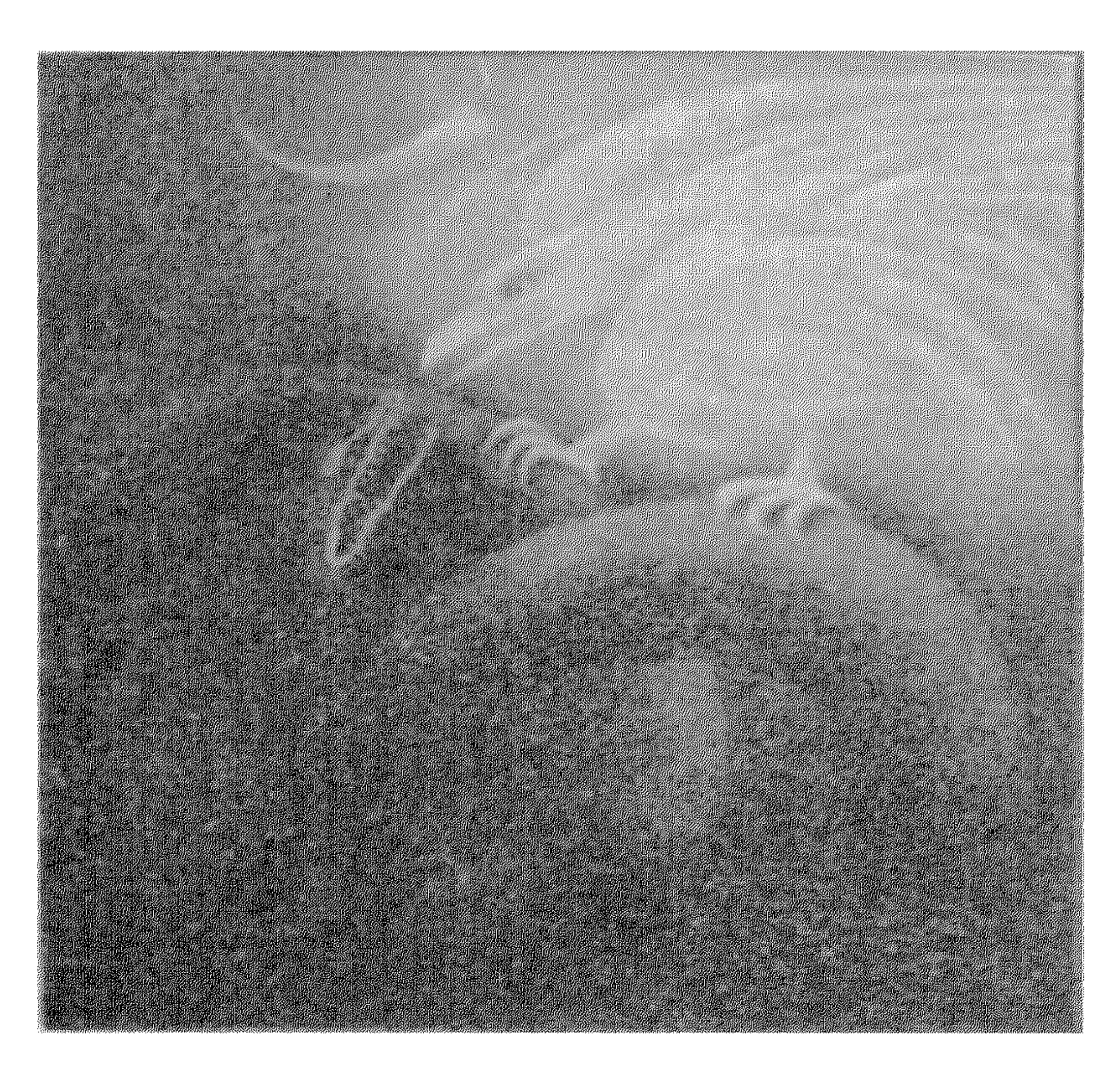
على الرغم من الاختلافات الأسلوبية بين رسوم دواوينه المرئية ، فإن فيها من القواسم المشتركة ما يدل على انتمائها إلى فنان بعينه ؛ فرسومه جميعاً - بواقعيتها ، ورمزيتها ، وسرياليتها -

محمد حجى .. ودواوينه المرئية



رؤية ميتافيزيقية

تتسم بالنبرة الجهيرة ، والحرص على توكيد الكتلة ، والميل إلى البناء، والاشتباك العنيف ، أحياناً ، بين عناصر التكوين ، ودرجات الغامق والفاتح ، كما فى رسوم «شمال يمين» ، ولم أندهش عندما علمت بأن هذا الكتاب قد رفعته أيدى المتظاهرين فى أحد البلدان العربية وتتفق معظم رسومه - رغم اختلافاتها الاسلوبية - على استلهام ما يمكن وصفه ببنية المتاهة في الحكايات الشعبية ، حيث لا يوجد بطل



صـــراع

واحد يحتل بؤرة المشهد ، تدور من حوله مراكز قوى ثانوية ، بل تتشظى عناصر لوحاته أحياناً ، وتتكاثر ، وتتداخل فى اشتباكات محمومة . وسواء تكاثرت العناصر لحد الاختناق كما فى لوحة : «كابوس» ، أو أُخلى المشهد لفتى وفتاة يسبحان بقارب ، ويتناجيان فى الليل ، فإن إيحاءً بحكاية يتسلل إلينا عبر مفارقة تدعو إلى الدهشة والتأمل ؛ ففى لوحة «لقاء» – المشار إليها على سبيل المثال –

لا يضيء لهما القمر كما هو متوقع بل يخسفه ، ولا يكتفي بهذا الخسوف القمرى، بل يُظهر عاشقيه فى هيئة الدُمى الخشبية التى لاحول لها ، ويخلع على مجمل المشهد إيحاءً بجو مسرح العرائس، ومسرح العبث فى ذات الوقت .

إن السمات الأسلوبية التى تسم أسلوب «حجى» لم تأت من فراغ ، فهى تُذكِّر - دون أن تتشابه - بجو زحام المنمنمات العربية والإسلامية ، ويمكن أن نجد - فى ذات الوقت - بعض آثار التكعيبية التركيبية فى أسلوبه ، وبالذات آثار الفرنسى «فرنان ليجيه» والأسبانى «بابلو بيكاسو» . وأزعم أن الأسلوب التكعيبى بحدته ، ومعماريته ، أقرب إلى وجدان «حجى» ؛ ففى عالمه الفنى - كما تؤكد لنا لوحاته - لا أثر لدلال أنثوى كالذى نلتقى به فى طراز الـ "ART NOUVEAU" أو الـ ART DECO على سبيل المثال !

ولأن «حجى» قد انصرف منذ تخرجه عن لوحة «الحامل» ، ولم يرض بمحدودية انتشارها ، واختار الصحافة قبل أن يتمسك أخيرا بفكرة «الديوان المرئى» .. فقد اختار لمسطحاته الورقية ما يناسبها من الخامات . وكانت تلك الخامات هى الأقلام الملونة . وعلى الرغم من أنها تدخل فى إطار «الخامات الفقيرة» فقد استطاع بمهارته الفائقة ، وحساسيته، وثقافته ، أن يثريها ثراءً مبهراً . وأشهد بأنه لا يزال أفضل رسام تعامل مع هذه الخامات .

ولا شك أن تلك الشهادة التى أدلى بها تتناقض تناقضاً كلياً مع مؤرخى الفن - الهواه - ونقاده فى مصر الذين لا يعرفونه ، ولم يصل اسمه ودوره إلى ذاكرتهم حتى الآن !

● رسام يقرأ القرآن

حاول «حجى» بهذا «الديوان المرئى» أن يفتح باباً ظل مغلقاً ، حتى الآن ، بقوة التعصب الدينى أراد «حجى» أن ينبه إلى ضرورة استلهام الفنان العربى إرثه الدينى ، وخصوصاً نصوص «القرآن الكريم» ، مثلما حدث مع الفنان الغربى الذى أتيح له قبل ، وبعد ، محاكم التفتيش أن يستلهم نصوص الكتاب المقدس ، عبر وسائط الفنون المرئية والفنون السمعية ، وهو الأمر الذى أتاح للحياة الفنية ، والثقافية ، والتعليمية أن تتقدم إلى آفاق بعيدة المدى . ما حدث ، ببساطة ، أن الفنان «محمد حجى» بعد رحلة طويلة مع الفن ، والثقافة ، والعمل السياسى .. قرأ القرآن الكريم ، فاهتز له وجدانه ، وريشته، واستلهم ثلاثاً وثلاثين آية منه ، وجسدها فى لوحات رائعة ضمَّها كتابه . وقدَّم للكتاب المؤرخ والمترجم الكبير د.«ثروت عكاشة» دراسة ضافية عن

تجليات الفن الاسلامي عبر تاريخه ، وناقش علاقة الدين بالفن ، وملابسات العداء من بعض مظاهره

وأنهى دراسته برأى في تجربة الفنان الإبداعيه قال : مامن شك فى أن المصور حين يملى فى تصاويره ، يملى عن عوامل مختلفة فيها تلك الانتفاضة التى تمتلىء بها جوانحه عند رؤية مشهد من المشاهد تقع عليه عيناه أو عند سماعه خبراً من الأخبار تختلج له مشاعره وتخفق عواطفه، أو عند إحساسه بما يضيق به أو يطرب له، او عند تلاوته لآية من آيات القرآن الكريم ، وهو ما احسب أنه قد أثار الخواطر فى نفس الرسام محمد حجى وهو يقرأ القرآن واعتلج به وجدانه . وحين اهتزت أحاسيسه بهذه القدسية صدرت عنه هذه اللوحات الرامزة الخفاقة المتقنة ، وكذا اهتزت لها مشاعر المشاهد و أحاسيسه ولاريب فى ان إجماع المشاهدين على عمل تصويرى مبدع هو إجماعهم على إكبار الفنان المبدع فقد جاءت لوحاته التى ينطوى عليها هذا الكتاب ناطقة بمشاعر وأحاسيس تعبر تعبيرا بليغا عن معان فياضة سامية» .

وبدلا من أن يذهب الكتاب إلى المطبعة، او إلى نقاد الفن لإبداء الرأى ذهب إلى إدارة البحوث بالأزهر . ولان هذه الإدارة لاعلاقة لها بالفن ، من قريب او بعيد ، فقد أصدرت أمرها بمصادرة الكتاب ، وهذا نص المصادرة . ولن أندهش من قارىء يضحك فى أسى ، بعد قراءة سببىٌ المصادرة ، لأنهما بالفعل سببان يدفعان الى الضحك (ولكنه ضحك كالبكا)!

● نص القرار

ترى إدارة البحوث بالازهر أن الكتاب لا يصلح للنشر أو التداول لأمرين:

١ـ لعنوانه فالرسوم ليست قرآنا .

٢ـ كثير من الرسوم لا صلة لها بمعانى النصوص القرآنية المواجهة لها .

مدير عام البحوث

سعد السيد على

١٩٨٤/٧/١٧

وبذلك القرار الذى ينم عن جهل عميق بأسرار الفن تفقد المكتبة العربية واحداً من أهم كتب الإبداع الفنى . والواقع أن رسوم كتاب « رسام يقرأ القرآن» تستحق دراسة مطولة ،لامجال لها فى هذا السياق .

● رباعيات عامية مرسومة

هذا هو عنوان « الديوان المرئى» الذى يستعد لنشره ، وكان فى نيته أن يضم معه رباعيات الشاعر الكبير « صلاح جاهين » لولا أن مؤسسة الأهرام كان لها رأى آخر ، هو أن الرسوم سترفع سعر الكتاب ، لهذا رفضت مشروعه وقد

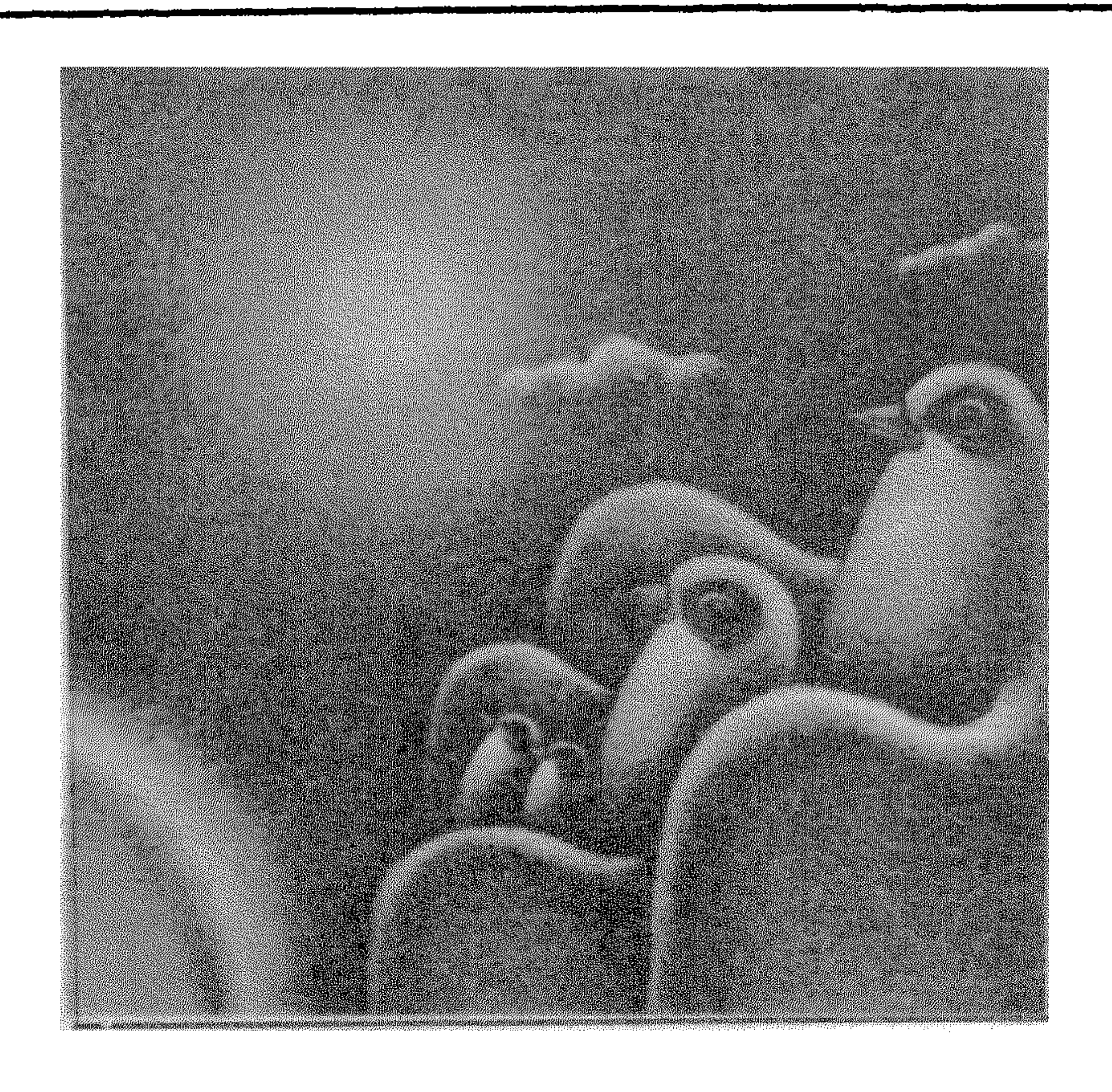
محمد حجى .. ودواوينه المرئية



تكوين

نصحتُهُ بأن ينشره مستقلاً عن أى نص مكتوب ؛ فاللوحات تكتفى بذاتها ، ولم تكن رسوماً توضيحية ترضى بظل النص الشعرى وكانت أشعار «چاهين» على عظمتها ، مجرد مثير تعبيرى وجمالى ، شأنها شأن المثيرات الجمالية فى الطبيعة

وتتسم رسوم «حجى» بطابع «درامى» حاد ، فى حين تتجلى رباعيات «چاهين» فى إطار يجمع بين الرشاقة المداعبة والحكمة . ولاشك أن مصاحبة نص مكتوب لشاعر كبير ، لنص مرئى لرسام



أمومة

كبير مثل «محمد حجى » كان سيثرى تجربة اللقاء بين القارىء/ المشاهد ، مرهف الحس ، وبين الكتاب .. لكن حكمة النظرة التجارية رأت غير ذلك .

وبمصادرة كتاب «رسام يقرأ القرآن» وبالاعتراض على « الرباعيات» أوقف «حجى » بنفسه ، قبل أن توقفه مؤسسة أخرى ، سلسلة رسومه عن قصص الانبياء ، وكان الخاسر الوحيد ، بغير شك، هو :نحن!

سينما الهند والصين وانتصار حديث التعبير

بقلم : مصطفى درويش

لو ألقينا نظرة طائرة على الخريطة السينمائية لقارتى إفريقيا وآسيا ، لاستبان لنا دون مشقة أن السينما المصرية تحتل مركز الصدارة فى إفريقيا، وذلك بحكم أمرين : القدم ، وكم الافلام .

أما آسيا فمركز الصدارة فيها تتنازعه أكثر من سينما ولا غرابة فى هذا فآسيا أكبر قارات الكرة الارضية مساحة ، واكثرها سكانا .

والشيء الذى لا شك فيه أن بلدين لا غير من بلاد تلك القارة الشاسعة ، وهما الهند والصين ، انما تشكلان بسكانهما البالغ عددهم حوالى الفين ومائتى مليون نسمة ، كتلة بشرية ضخمة لابد وان يكون لها، بحكم طبائع الامور، تأثير كبير على اقتصاديات السينما ومسارها عالميا .

فاستوديوهات السينما فى «بومباى» و«مدراس» و«كلكتا» انتجت خلال سنة ١٩٩٤ ، سبعمائة وخمسين فيلما ، وهو عدد يفوق بكثير عدد الأفلام التى انتجها مصنع الأحلام فى هوليوود ، عاصمة السينما .

وتجيء مدينة هونج كونج مباشرة بعد مصنع الأحلام ، فى عدد ما تنتج من أفلام

وهى مدينة لا يزيد عدد سكانها على ستة ملايين ، ولن يمر عام وبعض عام الا وتصبح جزءا لا يتجزأ من الصين .

ولولا مأساة الثورة الثقافية ، قبل ربع قرن من عمر الزمان ، وما أدت إليه من انحدار مروّع فى الإنتاج السينمائى داخل الصين الشعبية كما وكيفا ، لولاها لاحتلت السينما الصينية المركز الثانى فى العالم ، ولربما المركز الأول الذى تحتله السينما الهندية الآن .

والأكيد ، على كل حال ، أنها هى والسينما الهندية فرسا رهان .

كلاهما يطمع فى احتلال المركز الأول، وكلاهما يسعى ، فى أغلب الظن ، إلى الهيمنة على أكبر سوق بشرى ، ألا وهو سوق آسيا ، وإن كان ليس أكثر الأسواق ثراء ، بل لعله اكثرها فقرا ، فيما لو استثنينا افريقيا السوداء .



وداعا محظيتى .. الفيلم الفائز بجائزة مهرجان كان الكبرى

والأمر العجاب ، انه رغم ذلك السوق الكبير ، وهو العنصر غير المتوافر بالنسبة للسينما المصرية ، فكلاهما يعانى مثلها من منافسة افلام مصنع الأحلام .

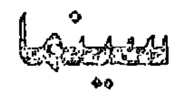
وآية ذلك الهبوط الحاد الذى طرأ على ايرادات الافلام المنتجة فى هونج كونج .

فلعدة اعوام كانت تلك الايرادات تفوق ما تحققه الافلام الامريكية من ايرادات داخل المدينة .

● الامريكيون قادمون

ولكن هذا التفوق اصبح الآن فى خبر كان وحتى الارض الأم فى الصين الشعبية، لم تنج هى الاخرى من تلك المنافسة التى بدأت ، قبل أعوام قليلة ، بفيلم امريكى ميلودرامى عفى عليه الزمان اسمه «قصة حب» ، ومع ذلك ، فالإقبال على مشاهدته من قبل الصينيين كان إقبالا فاق كل التوقعات .

فإذا ما انتقلنا الى الهند ، فسنجد ان



الفيلم الامريكى قد اخذ يقتطع شيئا فشيئا من نصيب صناعة السينما الهندية فى الارباح .

ولعل خير مثل على ذلك النجاح الكبير الذى حققه داخل الهند فيلم «حديقة الديناصورات» .

● المشروع الممنوع

وفوق هذا فكلاهما يعانى ، مثل السينما المصرية ، من موانع رقابية متعسفة ، لا تساير روح عصر ثورة المعلومات .

ومما يؤيد ذلك ويؤكده انها اصبحت لا تستطيع أن تحول بين مبدعى الافلام وبين حرية التعبير ، فى زمن تتيح فيه وسائل الاتصال الحديثة لأى فنان أن يسافر الى أى مكان ، وقتما يشاء ، ولأى صورة ثابتة أو متحركة ان تخترق اجواء الفضاء الى عقولنا وقلوبنا ، دون رقيب أو حسيب .

ولأ ضرب مثلا على ذلك بفيلمين أحدهما صينى «وداعا محظيتى» والآخر هندى «الملكة قاطعة الطريق» .

كلاهما تعرض لأشد عقاب ، المنع من العرض العام وكلاهما فى معركته ضد ذلك العقاب ، خرج منتصرا بعد جذب وشد بين أصحابه ورأى عام عالمى يقف وراءهما مساندا ، وبين سلطات جائرة ، لا تزال اسيرة افكار جامدة ، لم تستطع بعد استيعاب المتغيرات .

● ربة القمار

وقصة أو بمعنى أصح محنة الفيلم الصينى بدأت قبل عدة اعوام فى هونج كونج ، عندما ارتأت «هومنج» أن تصبح منتجة سينمائية ، فاشترت حق ترجمة رواية «وداعا محظيتى» الى فيلم .

و «هومنج» هذه ، كانت ممثلة مشهورة، رائعة الجمال ، قبل أن تعتزل التمثيل ، وليس لها من العمر سوى ثلاثين عاما ، ومتزوجة من « دافيد تونج» رجل الاعمال الواسع الثراء ، وصاحب الجاه والنفوذ فى الصينات الثلاث «الصين الشعبية ، وهونج كونج وتايوان» .

ومن مآثره ، كما يقال ، أن شركته استثمرت بليونا ومائتى مليون دولار فى أعمال التشييد والبناء بـ «بودنج» المركز الاقتصادى الجديد الذى يرتفع صرحه قريبا من ميناء شنغهاى على أرض الصين الشعبية !!

ويعرف عن زوجته انها تحب ركوب المخاطر ، تجرى روح المقامرة فى دمائها، حتى انها نالت لقب «ربة المقامرين» .

ومن هنا اختيارها «شين كايجى» كى يقوم باخراج «وداعا محظيتى» .

فهو اختيار ينطوى على مخاطرة ، ما فى ذلك شك .

«فكايجى» والده «شين هواى كاى» ، ذلك المخرج البكينى الذى اتهمته الثورة

الثقافية بالعمل سرا لحساب الرجعية ، متمثلة فى الكومنتانج ، وحاكمته عن ذلك أمام الجماهير ، وكان من بين المشاركين فى المحاكمة «كايجى» الذى شجب اباه علنا .

الا انه ما ان انحسرت الثورة الثقافية، حتى ادرك جسامة فعلته النكراء ، فعمل على تصحيح مسار علاقته بأبيه ، فاعتذر له ، وفاز منه بالغفران .

● حسن الاختيار

وعلى كل ، فقد شاعت الاقدار لـ «وداعا محظيتى» الا يكون عملا سينمائيا عاديا .. لماذا ؟

لانه ما أن شاهده كشافة مهرجان «كان» حتى بادروا الى اختياره ، كى يشارك فى مضمار المنافسة على جوائز المهرجان .

ولقد صادفهم التوفيق فيما اختاروا عندما خرج من المضمار متوّجا بجائزة «كان» الكبرى المسماة بالسعفة الذهبية ، مناصفة مع «البيانو» رائعة المخرجة النيوزيلاندية «جان كاميون» .

وطبعا فيلم تمثله «جونج لى » نجمة الصين الأولى ومعها عدد من كبار الممثلين، ويخرج من مهرجان «كان» متوجا بالسعفة الذهبية ، فيلم كهذا كان لابد أن تسبقه سمعته العطرة الى بلده الاصلى «الصين»، وان ينتظره عشاق الفن الجميل متلهفين .

وبعد طول انتظار دام اربعة أشهر ، جاء اليوم الموعود فى العاصمة بكين .

● عرض أول وأخير

وامام دار السينما المختارة خصيصا للحدث العظيم ، اخذ رتل من السيارات الكاديلاك يتهادى وسط حشد من فتيات ملتهبات حماسا ، يصرخن اعجابا . كلما وقفت احدى تلك السيارات الفارهة ، وهبط منها احد نجوم الفيلم مبتسما .

ولو كنت غريبا لا تعرف الاسرار ، لظننت أن ما يجرى أمام عينيك ، ليس الا طقوس عرض أول لفيلم يحتفى به لتميزه فى مهرجان عالمى كبير ، سرعان ما تتبعه عروض أخرى ، قد تستمر شهورا ، ولا أقول اعواما .

أما لو كنت عالما ببواطن الأمور ، وبالتالى محصنا من السقوط فى أسر تلك الأوهام ، فالفيلم فى واقع الامر محل اضطهاد ، لا احتفاء .

وعرضه الأول ليلة الافتتاح ، هو فى نفس الوقت عرضه الأخير .

فأعضاء المكتب السياسى للحزب الشيوعى الصينى الحاكم ، قد شاهدوه ، قبل ذلك فى عرض خاص ، خرجوا منه عابسين ، تنطق وجوههم بالازدراء الشديد .

والفيلم اللعين الذى خرج منه حكام الصين عابسين ، تجرى احداثه فيما بين بداية عشرينيات ، ومنتصف سبعينيات القرن العشرين .

وبطلا تلك الاحداث «دوان» و «شين» مغنيا اوبرا ، يحكى الفيلم سيرتهما طوال

سينما

أعوام هذه العقود الستة ، بدءا من اعلان الجمهورية ، مرورا بالغزو الياباني للصين، والنظام الوطني بزعامة «شيانج كاي شيك» حتى يصل ببطليه ، وهما يعيشان تحت نير النظام الشيوعي . وبالذات فترة الثورة الثقافية التي قلبت كل الموازين .

والفيلم يعرض لمأساة «دوان» و «شين» من خلال عمل الاثنين في اوبرا بكين .

فكلاهما على مر العصور يواجه ألوانا من المضايقات السياسية من قبل جميع الحكومات التي استولت على السلطة في الصين .

غير أن أسوأ تلك المضايقات ، واكثرها بشاعة ، كان في فترة حكم الشيوعيين ، وخاصة عندما هب على الصين اعصار الثورة الثقافية ، التي كانت بلاء على المثقفين .

● سر الغضب

واغلب الظن أن المشهد الأخير من الفيلم ، هو الذي أثار غضب اعضاء المكتب السياسي ، جنح بهم الى الحيلولة بينه وبين العرض العام .

واحداث ذلك المشهد تقع قريبا من نهاية عقد السبعينيات ، أي بعد اندحار الثورة الثقافية ، بالقبض على عصابة الاربعة ، وبدء تباشير الفجر الجديد .

وفيه يبين لنا أن «دوان» و «شين» قد نجيا من أهوال تلك الثورة الدموية الحمقاء فهاهما ، مرة أخرى ، في ثياب أوبرا بكين، الزاهية الفضفاضة ، يمارسان الغناء في «وداعا محظيتي» تلك الاوبرا التي جعلت منهما نجمين معبودين من الجماهير.

وللحظات ، نظن أن المخرج ، بإعادة بطلي فيلمه الى الاوبرا . انما اراد أن يقول إنه ، وقد انتهت الثورة الثقافية البغيضة ، فكل شيء عاد سيرته الأولى ، عاد جميلا مضيئا .

ولكن سرعان ما نفيق تحت وطأة الواقع الحزين .

«فشين» لا يزال معذبا بذكرى الماضي الاليم وحبه المستحيل لزميله «ديوان» .

وها هو ذا يأخذ سيف الاخير ، وبه يتخلص من حياته منتحرا .

يبقى أن أقول إن الشائعات كانت تقول ان قيادة الحزب الحاكم تريد تغيير تلك النهاية غير السعيدة الى نهاية سعيدة، حتى يمكن الترخيص بعرض الفيلم في الصين وقد تحقق ذلك ، لا اعرف كيف ، وجرى عرض الفيلم بطول وعرض الصين .

والآن الى الفيلم الهندي «الملكة قاطعة الطريق» لأقول إنه هو الآخر ، قصته أو محنته لا تختلف عن قصة أو محنة «وداعا



بولان ديفى .. الملكة قاطعة الطريق

محظيتى» الا فى بعض التفاصيل .

«فشيخبار كابور» مخرجه قد استوحاه من سيناريو كتبته «لما لاسين» ، نقلا عن مؤلف لها استلهمت احداثه من مذكرات كتبتها قاطعة الطريق «بولان ديفى» اثناء الاعوام التى مكثتها فى السجن ، تنفيذا لعقوبة صادر بها حكم من القضاء .

ومع ان السيناريو كان مشوبا باكثر من عيب ، فإن «كابور» احس بما فى سيرة «بولان» من ابعاد درامية ، تصلح لإبداع فيلم يطرح قضايا جادة ، غير مألوفة فى سينما قوام اغلب افلامها الرقص والغناء .

والغريب فى الامر أنه لم يقرأ القصة القائم عليها السيناريو المعيب ، الا بعد ذلك بثلاثة أعوام وبفضل من ؟

قناة ٤ التليفزيونية فى بريطانيا التى ارسلت اليه القصة ، مرفقا بها السيناريو المعيب ، طالبة اليه أن يقرأهما ، وان يترجمهما فى فيلم ، فيما لو صادفا لديه هوى وقبولا .

● اختلاف الطبائع

ونظرا الى ما بين طبائع الجمهور المتلقى فى البلدين بريطانيا والهند من اختلاف كبير فإن اخراج الملكة قاطعة الطريق لم يكن بالامر اليسير .

فالقبلة فى السينما الهندية حرام ، فى حين انها فى السينما البريطانية حلال .

سينما

وكذلك الحال بالنسبة للعرى والاغتصاب ، فكلاهما ، على عكس السينما البريطانية ، من الممنوعات .

والعنف بدوره ممنوع ، فيما لو جنح المخرج الى تصويره فى الفيلم كما هو مكتوب فى مذكرات «بولان» .

فهى لانها لم ترتض الهوان الذى ذاقته فى قرية «بهماى» ، حيث اجبروها على خلع ملابسها والسير امام الملأ عارية، عزمت على الانتقام .

فماذا فعلت ؟

انقضت مع افراد عصابتها على تلك القرية الظالمة ، حيث ذبحت اربعة وعشرين رجلا من اعيان الهندوس ، المتحكمين فى رقاب الفقراء .

وفى ضوء كل هذه المحرمات والمحظورات كان على «كابور» ان يختار ،

إما ان يصنع فيلما منضبطا ، باهتا ، خاليا من أية شائبة ، قد تؤرق بال الرقباء ، وإما ان يبدع فيلما ، لا يقيم وزنا الا لشىء واحد ، ان يحكى سيرة «بولان» كما حكتها تلك المرأة الاسطورة ، ويالها من سيرة ، تبدأ بها صبية هندوسية فقيرة ليس لها من العمر سوى أحد عشر عاما .

ومع ذلك يجبرونها على الزواج من رجل عمره يعادل عمرها ثلاث مرات ، يوسعها ضربا ، يضاجعها مغتصبا

نصيرة الفقراء

ولأنها لم تحب هذا النوع من الحياة ، فهى تهرب الى اسرتها التى تقبلها على مضض .

ولانها تعرضت ، بعد ذلك ، لضروب من الاهانة والازدراء والتغرير والتضليل لا تطاق ، فهى تتمرد وما أن تخرج من السجن حيث زج بها ظلما ، وحيث مارست معها الشرطة حقها فى الاغتصاب ، حتى تواجهها شدائد اخرى ، لم تجد الى احتمالها سبيلا .

كل هذا ينتهى بها منضوية تحت راية عصابة بزعامة قاطع طريق «فيكرام» ، ما لبث ان وقع حبه فى قلبها ، كما وقع حبها فى قلبه . وما اريد أن ألخص خير ما فى الفيلم ، وهو تصوير حياتهما السعيدة معا ، وكيف انتهت تلك السعادة بموته مقتولا بالغدر والخديعة ، وتوليها رئاسة العصابة .

ولا ان ألخص كيف اصبحت ملكة اسمها يتردد على كل لسان ، يخشى بأسها الاغنياء ، ينشد افضالها الفقراء .

وكيف دبرت لها حكومة الولاية أكثر من مكيدة ، كان مآلها الخذلان .

فذلك شىء يطول .

كل ما اريد أن ألخصه هو انها قبل ثلاثة عشر عاما اختارت الاستسلام بشروطها ، امام حشد جماهيرى كبير .

وبعد عشرة اعوام افرجت عنها السلطات، المفاجأة الكبرى أن صاحبة تلك السيرة «بولان ديفى» عابت على الفيلم ، دون أن تراه ، تشويه حياتها بالتزييف والتحريف .

ولم تكتف برفع دعوى طالبة فيها التعويض ، بل ذهبت الى ابعد من ذلك ، طالبت بمنع عرضه مهددة ، متوعدة .

وكان ان استجابت الحكومة لتهديدها ووعيدها ، فأصدرت قرارا بمنع عرضه بطول وعرض الهند .

وبطبيعة الحال لقى المنع كل الاستحسان من قبل المتزمتين والمتعصبين، وخاصة غلاة الهندوس .

فالفيلم فيه من العرى والعنف والاغتصاب الشىء الكثير .

والأهم انه فاضح لعورات نظام اجتماعى طبقاته متحجرة ، على وجه لا يخول افرادها حق حرية الحركة فيما بينها، بدءا من الميلاد ، وحتى الممات .

● وفى الهند قضاء

ولحسن الحظ ان المنع لم يستمر طويلا، والفضل فى ذلك انما يرجع الى المحكمة العليا التى اصدرت امرا اوقفت بموجبه قرار المنع مؤقتا ، حتى تتيح لاتحاد الفيلم الهندى فرصة مشاهدته ، وامكان ترشيحه لجائزة أوسكار افضل فيلم اجنبى وفعلا وقع اختيار الاتحاد عليه ممثلا للسينما الهندية فى ترشيحات الأوسكار .

واخيرا ، فبعد عرضه خارج الهند بنجاح ، وبمناسبة انعقاد مهرجان نيودلهى السينمائى فى شهر يناير الماضى، رخصت الحكومة الهندية بعرضه كاملا ، إلا من بعض لقطات لا يؤثر حذفها على المضمون والسياق العام .

وهكذا كتب الانتصار «للملكة قاطعة الطريق» كما كتب من قبل «لوداعا محظيتى » فى الصين .

● عالم جديد

ودلالة ذلك ان الحلول الرقابية القديمة لم تعد تفى بمتطلبات الواقع الانسانى الجديد .

وان نبذ تلك الحلول العتيقة يعتبر من أهم سمات فترة نهاية القرن التى نمر بها الآن .

ومن هنا ، يتعين الا يغرب عن بالنا اننا نعيش فى عالم توثقت فيه العلاقات ، وتوسعت حتى عما كانت عليه قبل عشرة اعوام .

ومن شأن ذلك لزوم الاستظلال بتعددية فكرية تتسع لقيم ومثل مختلفة ، قد لا نرتاح لبعضها الى حين .

رؤية مسرحية

حفل مانيكان وشجاعة الخيال

بقلم : فوزية مهـران

نحن فى شوق دائم لمحاولة التجديد على المسرح . لإطلاق قوى الخيـال والابتكار لبناء تصور جـديد .. وبدء نسق آخـر من التفكير .

بعض الأعمال الفنية تهدف إلى إثارة السؤال والدهشة .. تمعن فى الخيال ومع ذلك تظل لها أهمية واقعية .

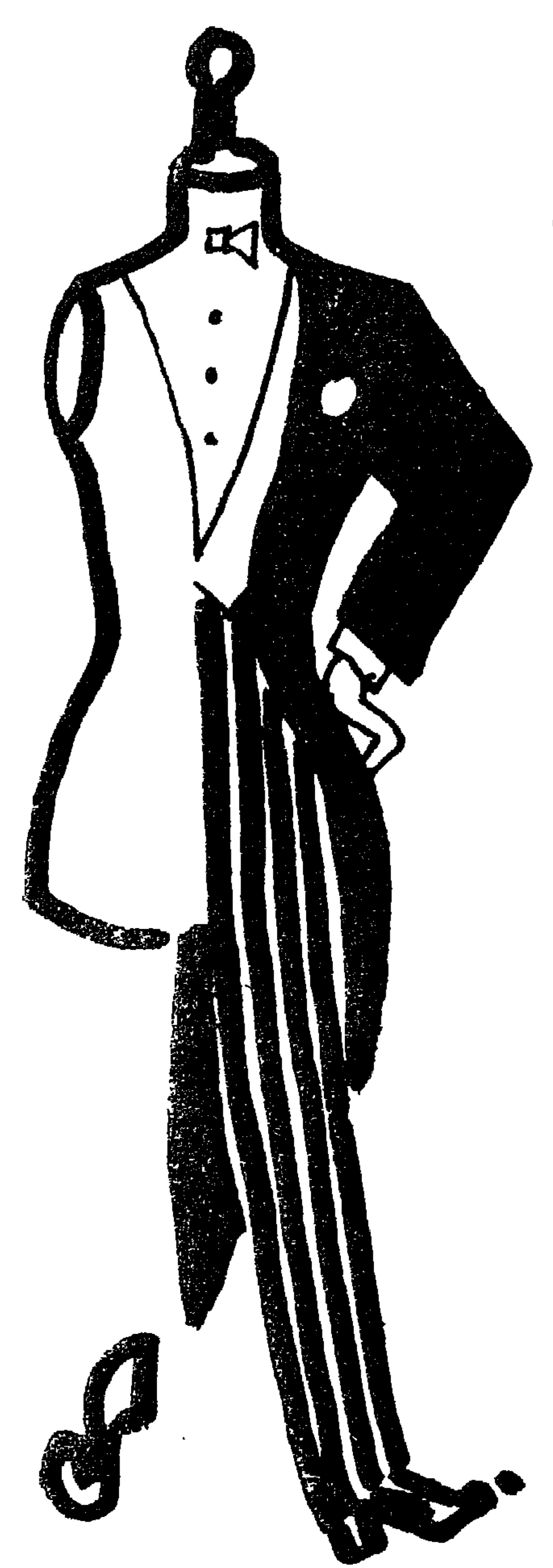
(قيل ذلك عن مسرح العبث فى بدايته .. كثير من العروض تجعل الانسان يشعر أنه دخل الى مدينة غريبة ، لا يعرف لغة أهلها ، وتستبد به الحيرة والقلق ، تحيط به الأحلام والكوابيس ، وبعد فترة يدرك أنه جزء من نسيج الحلم والتصرفات غير المألوفة وتتيقظ لديه حاسة السخرية والمرح ويتمتع بحرية التصور والتعبير) .

أو لعلها مثل التمارين الهندسية التى يبدأ حل معضلتها بافتراض تصور ما يصل إلى نتائج مدهشة .

مثل فيلم «الطيور» لألفريد هيتشكوك، اعتمدت الاثارة فيه على سؤال ضمنى تظل تتسع دائرته فى الذهن أكثر وأكثر ، ماذا لو خرجت الطيور عن طبيعتها والعيش بسلام مع الناس ؟

ماذا لو انقضت عليه تهاجمه وتدميه وتتربص به ؟ تقلد بنى الإنسان وهو يبتكر آلات الحرب والدمار ويهاجم أخيه الانسان يحرق الأرض والصغار ومستقبل الحياة !

مسرحية « حفل مانيكان » تأليف برونو ياشفسكى ترجمة وإخراج د. هناء



عبد الفتاح تبدأ بإثارة سؤال طريف ..
ماذا لو دبت الحياة فى المانيكان واستمعنا
إليهم ، أحسسنا بهم ، ووجدناهم يعلقون
علينا وينتقدون تصرفاتنا وسلوكنا ؟

يعيدون إلينا صورة أدائنا والأغراض
الخفية التى تحكم حركتنا وعلاقتنا
بالآخرين ؟ صورة لحقيقة ما يجرى بيننا ،
الكلمات البراقة التى تبطن غير ما تعلن
والمناصب اللامعة والأطماع الشريرة
والترهل والفساد .

ورغم طرافة السؤال وجموح الخيال
وعبثية الموقف تتأكد واقعية القصد ونرى
صورة لمجتمعنا الحديث وكشفا للنقاب عن
عمليات الخداع والتزييف .

● حفل خرافى !

نحن إذن فى قلب المجتمع العصرى ،
فى بؤرة عالم الأزياء والأضواء ، فى قلب
عملية متحضرة لصياغة الملبس والأناقة
ووجاهة الصورة ، وقسوة وعريا فاضحا ،
والتى يبدو فيها الإنسان متحضرا يرفل
فى حلل أنيقة ومع ذلك يحوى تحتها
وحشية حلقة السباق العام لحسن المظهر
ورقى الذوق وتغليف الكيان ، ومزاد
ارتفاع الأسعار لتبدو الشخصيات فى
أجمل صورة وأزهى حضور .

الآن تختفى الملابس وخطوط الموضة ،
وبهرجة الأزياء ، ويبدو هيكل المانيكان
أسلاكه وقوائمه حسب مقاس الإنسان

حفل مانيكان

يقيمون حفلا خرافيا يهربون من قهر صاحب مؤسسة الأزياء وينعمون بالحرية ويتمثلون كل ما يجرى بين أيديهم ويسخرون من هذه المتناقضات .

تحكى المانيكان الأنثى - المرأة ذات الفراء - كيف تبعها انسان الى مكان الحفل ، وحاول أن يمسك بها ، وهربت منه بالكاد ، وإن كان تبعها فيما بعد ، ونكتشف فيه السيد عضو البرلمان ، الذى ينتظره الجميع ، ويعقدون عليه الآمال لتسهيل الصفقات وتطبق شهرته الآفاق لجاذبيته للنساء ويعطى وعودا للعمال .

ثم نراه هكذا فى زقاق ضيق يحتك « بأنثى مانيكان » يا للهوان ، يعدون له محاكمة وينكشف المستور .

يعرفه المانيكان الذى يرتدى من عليه ملابسه ويحدثهم عن تصرفاته وحديثه، مانيكان آخر يقول إنه حاول إكمال بعض أجزائه من كل مخازن المدينة ولم يجد فى النهاية غير ساق نسائية ، وتظل طوال الحفل تمتد فى خلاعة وهى ترتدى حذاء أحمر ، وشراب أسود شفاف مزين بشريط أحمر أعلاه .

كذلك يعطفون على مانيكان بلا أرجل، يأتون به على حامل ليحضر الحفل لمسات هنا وهناك ، لمسات انسانية ، من عالم المانيكان تثرى العرض وتبرز كيف يلين الحديد ، ويرق الجماد ، ويتجبر الانسان ويقسو على الضعفاء .

- تذكرت الفيلم الألمانى « كونشرتو لليد اليمنى » ١٩٨٦ ويتجلى فيه الخيال القصصى للمخرج المؤلف « ميشيل بارتليت » وقد استوحى الفكرة بالفعل من إحدى قصص « إدجار ألن بو » وفيها يجد أحد عمال النظافة فى حديقة عامة - مانيكان - ملقاة بإهمال وينقلها الى بيته ، وكأنه التقى بامرأة حقيقية ، يتحدث اليها وتؤنس وحدته ، يحبها ويتدفأ بوجودها ، وهذا يبدى مدى حاجة الانسان الى الحب والمشاركة ، ووحدته القاسية فى العالم الحديث .

وأكثر ما كان يحزنه فقد المانيكان للذراع اليمنى ، التى يجدها أحد الوجهاء، ويضعها مكان يده التى فقدها .

وكأنما سرت فيها الحياة ، صارت لدنه عابثة تدغدغ حواسه وكأنه أصبح رجلا وامرأة فى جسد واحد .

(المانيكان ، مثل الانسان فى حاجة الى الحب ولمسة الدفء) .

هذه التجربة المسرحية الجديدة كانت نتيجة لورشة عمل أقيمت بمركز الهناجر للفنون لتدريب مجموعة من شباب الفنانين الهواة أشرف عليها الفنان البولندى « يانوشى سنوفسكى » وقد تلقى الشباب بالفعل تدريبا فكريا وفنيا بحيث اجتمعوا فى هذا الحفل للمانيكان فى كشف عالم

الانسان الداخلي واستطاع المخرج هناء عبد الفتاح أن يقود حركتهم ويدير العرض في تشكيلات جمالية وموسيقية ونجح في أن يوصل إلينا رسالة النص ، كان الايقاع يخلق حالة وجدانية وشحنة موسيقية وأعتقد أن المؤلف يرمي لإحداث هذه الشحنة الانفعالية والفكرية فينا وكان اختيار المخرج للنص موحيا ووسط دائرة العمل الجماعي يتيقظ فينا هذا الحس الجماعي ، إذ أن المشكلة ليست فردية ، لكنها قضية عامة وحالة جماعية ، جماعة المؤدين ، والراقصين ، عملوا بوعي والتزام يقظ ، وتحمل المانيكان الممثل الذى قام بدور نائب البرلمان وذهب ليواجه حفل بشرى ، يقام لعقد الصفقات ويراق على جوانبه الشرف والكرامة وارتباط الأبوة والزواج ، تحمل قدرا كبيرا من إنجاح المهمة والمسرحية .

وظل محافظا على « تصلب » الحركة ودهشته من التصرفات الغريبة لشخصيات الحفل (محمد محمود - خالد صالح - موسى لنحراوى - هايدى عبد الغنى - ايمان سالم) جماعة العمل المسرحى حققت الوحدة الحركية واتساقها ، وجماعية الأداء وكان واضحا جهد التدريب (أمجد عابد - حمادة شوشة - شهيرة كمال - علاء عيد - محمد فوزى - عماد الراهب - سامى بكرى - عمرو القاضى - نضال أبو سليمان - محمد مصطفى) استطاعت المجموعة بالفعل أن تقتحم « عوالم جديدة وغير مألوفة » كما قالت د . هدى وصفى التى تتبنى هذه الورش الفنية ، وتقيمها من أجل الشباب والهواة ، دعائم أساسية لثقافة الفنان وتقدم الحركة المسرحية .

المخرج « هناء عبد الفتاح » يقدم خطوة جديدة فى كل مسرحية يقدمها ، وقاد فريق المانيكان بتدفق فى الحركة والايقاع .

وجعل بعض الشخصيات تدب فيها الحياة بالفعل وتتجسد الروح الانسانى .

وتلك الفتاة الصغيرة - المانيكان الطفلة - « من ثالوث بناته الجميلات » ترتدى ثيابا بيضاء ، كأنها الملاك الحارس وسط سواد المانيكان . أشبه بتلك الراقصة داخل علبة الموسيقى ، تمسك بيدها وردة وتومض بلمحة الأمل أن يرتد الإنسان الى جوهر انسانيته ويقيم حياة نبيلة جديرة أن يحياها .

ثمة مأخذ ، كان من الأفضل اختصار بعض فقرات من العرض لأنها حركات مكررة فى مجملها وقد أرهقتنا كثيرا ، وكادت تودى بالتناسق الجميل .

مازال الأمل قائما طالما تتاح الفرصة للشباب أن يتعلم .. يتدرب .. يعمل ويجرب ويقدم رؤيته بروح جديدة .

رسالة بغداد الثقافية

قراءة فى إبداعات عراقية معاصرة
«الرواية ـ القصة القصيرة»

بقلم : حسين عبدالعليم

□ إنه الجراد ، رواية عراقية حديثة من تأليف : طه حامد الشبيب ، صدرت ١٩٩٥ ، وكان قد نشر عدة فصول منها بجريدة الجمهورية العراقية عام ١٩٩٣ ، وهي العمل الروائي الأول لكاتبها طبعها علي نفقة القراء ،بطريقة بيع بونات الشراء مقدما، نظرا للظروف الاقتصادية التي يمر بها العراق .

الأحداث الرئيسية فى الرواية مألوفة وعادية ـ فسالم يجدع أنف أحد الأثرياء بسبب : أن ذلك الثرى حاول أن ينال ليلى ذات الخمسة عشر ربيعا بمساعدة أمها ، رفضت البنت وأحرقت نفسها . بمال ونفوذ الثرى أودع سالم مصحا للأمراض العقلية ـ حيث من كثرة العلاج بالمهدئات والصدمات الكهربائية يصاب بتلكؤ غير معقد فى قدرات الذاكرة ، يهرب سالم من المصح ويختفى فى بستان المشمش ويتعرف إلى الراعية نورة ويرغب فى الزواج منها ـ غير أن زوج أمها يرفضه ويعيده الى المصح .

هذا فى الوقت الذى يمهد فيه الروائى الى أن نجاة شقيقة سالم هى مشروع داعرة يغادر سالم المصح نهائيا ويتعرف الى يعقوب القواد المتواضع الذى يدبر له زواجا من فتاة كانت قد حملت سفاحا من أحد الأثرياء بمساعدة القوادة الكبيرة أم رعد ، «هى نفسها نجاة شقيقة سالم بعد أن تطور عملها وتحققت» تفيق أم رعد برؤية الشقيق / الزوج المخدوع وتعترف بالحقيقة وتتم محاكمتها هى ويعقوب .

ورغم هذه العادية فى الأحداث

الرئيسية فقد جاءت الرواية تنبىء عن أن مبدعها روائى قدير وفنان موهوب يفضح ويدين الباطل والدعارة والمجتمع الفاسد ،. وينتصر للمظلوم وللحق دونما زعيق ، ودونما تقريرية أو خطابية تقلل من قيمتها الجمالية والفنية .

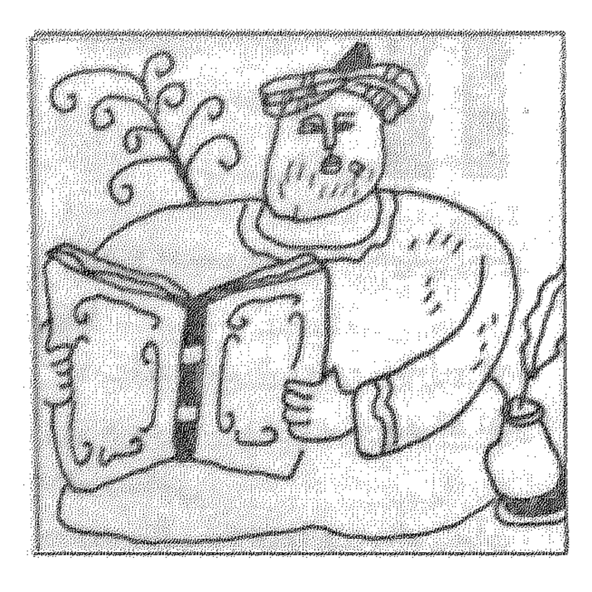
عمل خلاق

ولم يقع طه حامد الشبيب فى ابتذالات جنسية رغم أن أحداث روايته تسمح بذلك بل وتدفع إليه ـ ورغم هذا لم يشعر قارئه اطلاقا بانتقاص ما ، وهو لم يتلكأ بأحداثه كثيرا داخل مصح الأمراض العقلية ويستعرض النزلاء ببلاهة كما يفعل الكثيرون .

اهتم الروائى ببناء شخصياته «بما فى ذلك الوصف الشكلى» وتنامى بالشخصيات وقام بالكشف التدريجى عنها «فى أحيان كثيرة من خلال الذاكرة» ـ كما تميزت أغلب الشخصيات بسلوك إنسانى ايجابى «سالم ـ رحاب ـ بهجت ـ أم نورة» .

وبالجملة ـ جاءت الرواية نابْضة بالحياة ، منسجمة ، البناء ، لاتتملق القارىء أو تداهنه بل تهاجم قناعاته وتثير فيه الشجن لحدّ البكاء ـ الأمر الذى جعلها تحتل مكانا مرموقا ، فى مدارج الرواية العراقية الحديثة ، يخرج بها من إطار المحلية الى العالمية .

غير أن الرواية جاءت مجردة لاترتبط بزمان أو مكان محدد «إنسانية بشكل عام



بحيث يحار المرء فى تفسير ذلك على الرغم من فواح عبق العراق من بين السطور ـ واتضاح لهجة شعبه

عاصفة الصحراء

على أن الجراد الذى يهاجم الجنوب العراقى فيأتى على الاخضرار فيه ـ برغم كونه حقيقة تحدث فى الواقع موسميا ـ يمكن تفسيره والنظر اليه على أنه جحافل عاصفة الصحراء التى أجهضت العراق .

ولكن هذا التصور فيه شىء من تسطيح الرواية ـ ونظن أن الجراد معادل موضوعى لأى ظلم وأى قهر وأى فساد يستشرى فيجهض التقدم البشرى .

ظلال نائية - مجموعة قصصية من تأليف : جمال نورى صدرت عن منشورات اتحاد الادباء فى العراق ١٩٩٤ جاءت قصص المجموعة عادية فى اللغة والتكنيك والفكرة المنتقاة للكتابة عنها وطريقة المعالجة ، بمعنى أن قصص المجموعة لاتعلق بذهن القارىء طويلا .

رسالة بغداد

تتكون المجموعة من ٩ قصص يتميز منها :

١ ـ قصة حريق ، وهى تتناول واقعة حرق حجرة فى منزل من وجهات نظر ثلاثة أشخاص .

الأم : الحجرة لديها هى عالم رغبات ، ابنها وأفراحه وحياته الخاصة وأصدقائه وكمونه بجوارها ، حرقتها زوجته ، فهدمت بناء نفسيا وعائليا مستقرا .

الزوجة : الحجرة لديها هى حجرة المكتبة التى تسرق زوجها منها لدرجة أنه لا يكاد يبادلها حديثا، تحرقها فى محاولة لاسترداده .

الزوج : احترقت بحرق الحجرة كل الكتب والعناكب والحشرات التى صاحبته لأكثر من عشرين عاما ، وهو يشفق على أمه وزوجته فكلتا هن وحيدتان ، ثم هو يخرج لاستنشاق الهواء . فى تلميح لضرورة التغيير ولو كان قصرى .

٢ ـ قصة المرآة : وهى تحكى عن حلاق يجمع صور المجانين والدراويش ، ويلصقها على مرآته الكبيرة ، وهو يحفظ صورهم ويقصها على زبائنه .. تمتلىء المرآة ويبقى الحلاق يحلق فى بقعة صغيرة متبقية تكافح زحف الوجوه القذرة المجدورة ، يبحث عن مكان لوجه أخر العقلاء فى المدينة ـ فى اشارة هامسة لاختلال العقل الجمعى

٣ ـ قصة طرقات ناعمة : زوج عائد الى بيته بعد غيبة سنتين فى جبهة القتال يحمل شنطة صغيرة وعكازين ، مابين مطالعته للتغيرات فى أشكال الشوارع والبيوت ومابين تذكره لعشرات الخطابات التى أرسلها لزوجته وابنته وأمه وأبيه ولم يقم الصليب الأحمر بتوصيلها ـ أوجس أن كل مشاهد لقاء الأهل التى ابتكرها فى مخيلته ستتهشم أمام مفاجأة خبأها له الزمن . وكيف لا وقد التهمت نيران الحرب «الحرب العراقية الايرانية أو حرب الخليج» معظم الأحباب .

حسن النواب واستذكاراته القصصية :

بعنوان «ضماد ميدان لذاكرة جريحة «صدرت ببغداد ١٩٩٥» .

قدم حسن النواب استذكاراته القصصية وحسن النواب شاعر يكتب القصيدة الجميلة التى تدخل القلب دونما استئذان .

وضمن النواب استذكاراته أبياتا من شعره تعتبر هى مانافيستو كتابته :

«أخرجت قبيل ثوان من دولاب فؤادى زى الكاكى فانبثقت ذاكرة الحرب .. أراها تتدفق مثل نوافير نبيذ أحمر .. وشممت دقائق رائحة العشب خليطا بالبارود راحت أيام المدنى ياجان» .

«أيتها الحرب .. تلك مدن دمرت واندثرت .. وجنود رحلوا .. من أجل خلود

شــهــوة الموت والنــار فـي عــينيـــك المظلمتين».

«أتعرفـون لماذا تحـبنا الحـرب .. إننا طعامها الوحيد» .

«فـهـجـوم الأمس المسلول أيقظ فى ذاكـرتـى ليلة عـاشـوراء ودم الأكـفـان المسـفـوح ضـيـاء .. لك أن تأتى تتطوح مكتئبا .. أو تبقى فى دوامة حزنك تتلظى أبدا فـأنا أعرف حد اللوعة حزن الشعراء الموهوبين .. وابكى من ويلات الحرب» .

بعد أن قضى الكاتب ثمان سنوات فى الحرب العراقية ـ الإيرانية ـ عاد كمقاتل عراقى سـائق دبابة فى حـرب الخليج ـ وقدم مـادة قـصـصـيـة عن ويلات الحـرب اشـتـملت على شـروط القـصـة الجـيـدة المتميزة بأنها مستمدة من الواقع المعاش والتى تموج بـعنصـر التشويق للقـارىء ـ حكى عن دبابتـه الـعـجـوز التى ترفض السـيـر ، وحكى عن رفـاق الخنادق ولملم لقطات إنسانية عن الموت القابع فى كل ركن .

ولأن المؤلف الشاعر رجل مثقف فقد فاضت استذكاراته برموز ثقافية أدبية عالمية .

«من الصـعب أن تجد شـخـصـا مثل چان فـالجـاز مـثلا ينقـذك من خنـاق الموت الذى بدأ يلتف حول عنقك» وچان فـالجـان هـو الـرجل الـقـوى الأسـطـورى فـى روايـة البؤساء لفيكتور هوجو »

ولغـة النثـر عن حـسـن النواب لغـة شعرية موحية : دخنت سيجارة ابتعتها من كـراج الديوان ، دخنت بلذة إنســان انتصـر على الموت ببراعـة ، عرجت على نـادى الأدباء وبكامل مـلابسـى العسكرية والوحل مازال عـالقا على جلد الاسطورى بحب العراق ذلك الحب الذى لايعرف ثمنه الحـقـيـقى سـوى الجنود ، كـانت بيـوت البصرة تدخن معى أيضـا ، ولكن دخانها كان أسود .

بعد رحلة انسحـاب مـجنونة مـحفوفة بالموت والحظ الحسن ـ يعود الكاتب الى وحدته ينال اجازة فيهبط الى بلدته .

ينهى الكاتب استذكاراته:

يا إلـهـى .. مــاذا أفـعل لو وجـدت أن فاجعة أخرى تنتظرنى .. من أين أجىء بصـبـر آخر الى صبرى الذى أوشك على النفاذ .. بدأت اقترب من الزقاق الذى يقع بيـتنـا فى مـؤخـرتـه .. خطوت وشـهـقـات روحـى تتـصـاعـد مع كل بيْت أراه مـغلقـا أمـامـى أخـيـرا وقـفت أمـام البـاب المغلق لبيـتنا قبل أن أطرقـه وضـعت فى رأسـى أشـد الاحـتـمـالات سـوءا .. نعـم أشـدهـا وأكثرها قسوة وفجيعة وقررت مع نفسى الاستمرار بالحياة برغم كل شىء ..

أى اصـرار وأى زحـف للـحـيـاة على الموت المنثور فى الطرقات إذن ؟

وابـتـعـد حسـن النواب عن منـاقـشـة الحرب كقضية سياسية ـ وحتى لم يبد وجهة نظره فيها واكتفى بالمشاهد الفنية الإنسانية العامة .

العالم المجهول لأليفة رفعت



بقلم : د . عبد العزيز الدسوقى

■ وأخيرا أسدل الستار ورحلت أليفة رفعت إلى رحاب الله ، بعد أن عاشت حياة عاصفة ، امرأة وأديبة !!!

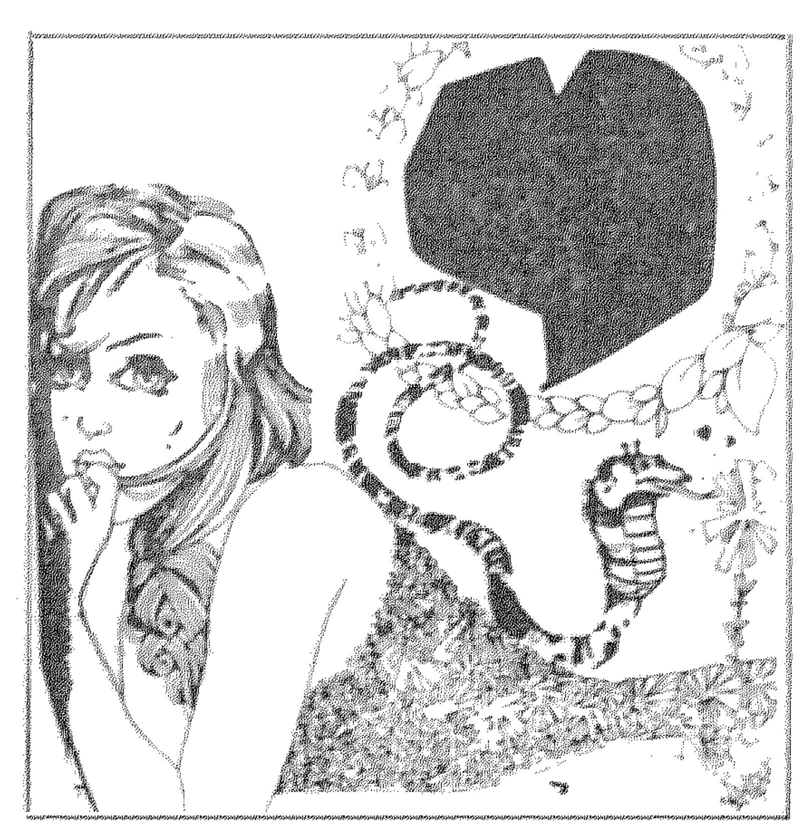
وأليفة رفعت – وهذا اسم الشهرة واسمها الحقيقى فاطمة عبد الله رفعت – من أحسن كاتبات القصة والرواية على امتداد الأرض العربية ، ولولا ظروف حياتها المركبة لغدت أشهر كاتبات القصة فى بلادنا ولكنها للأسف لم تأخذ حظها من الشهرة فى بلادنا . وقد عوضها الله عن ذلك فسطع نجمها فى الخارج بعد أن ترجمت قصصها إلى الانجليزية والفرنسية والألمانية ، وطبعت فى طبعات متعددة ، واعتبرتها صحيفة «الجارديان» الانجليزية من أحسن الكاتبات العربيات .

عرفتُ أليفة رفعت فى عام ١٩٧٣ عندما أصدرنا مجلتى الثقافة الأسبوعية والشهرية وعملت رئيس تحرير لهما .. جاءتنى بقصة لأنشرها فى الثقافة الشهرية ، فنشرتها فى الثقافة الأسبوعية وكنا ننشر فيها للشباب فلم تتمرد – كما كان يفعل البعض – بل جاءت لى بقصة ثانية أدهشتنى وحيرتنى ، أدهشتنى بروعتها وصدقها ونفاذها إلى أدق المعانى الانسانية ، وحيرتنى لما فيها من اقتحام جرىء لأدق عوالم المرأة وتصوير علاقاتها الخاصة بالرجل .. وخشيت أن تسبب لنا المتاعب ، ولكنى توكلت على الله ونشرتها ، فحظيت باهتمام كبير وتردد صداها بين جميع الأوساط ، وجلبت لها شهرة واسعة ، والتزمت بها ، وكنت انشر لها باستمرار فى الثقافة الأسبوعية ، والثقافة الشهرية التى ظلت تنشر بها طوال عشرة أعوام .

وكنا نخصص – فى كل شهر – عددا خاصا من مجلة الثقافة الأسبوعية ، ننشر فيه ديوان شعر ، أو مجموعة قصصية أو كتابا فى النقد والدراسة الأدبية ..

ونشرت فى عدد من المجلة مجموعة قصصية صغيرة بعنوان «حواء تعود بآدم وقصص





أخرى» وتضم المجموعة ست قصص هى «حواء تعود بآدم» و«أبقى من الحب» و«البعث» و«وردتى القرمزية» و«الحلم» و«الفراش يحترق» ، وفى القصص تصوير رائع للحياة الاجتماعية والانسانية ، وتشريح جرىء لمشاعر المرأة وعواطفها المكبوتة فى مجتمع محافظ . وعلى الرغم من تصويرها علاقة الحب بين الرجل والمرأة بكل صورها وألوانها ، فلم تكن تجنح إلى تصوير الشهوات وتجسيد النزوات . وعندما اشرفت على المركز القومى للآدب واصدرنا «كتاب المواهب» نشرت مجموعة قصصية أخرى بعنوان «من يكون الرجل» وكانت قد نضجت ، واستحصدت ملكاتها الفنية ، وتنوعت رؤاها الاجتماعية وضمت المجموعة اربع عشرة قصة بينها قصة «عالمى المجهول» وهى قصة عاتية مثيرة تصور علاقة جسدية بين امرأة وحيّة وتجسد اللحظات التى تصل فيها المرأة إلى مرحلة الارتواء الجسدى ، ولما كانت الأقصوصة مكتوبة بضمير المتكلم فقد ظن بعض الناس ان أليفة عشقت رجلا من الجان يجىء لنا فى صورة حية جميلة .

وفى المجموعة قصص أخرى جميلة مثل «هذه ليلتى» و«صديقتى» و«تقولين من اين» و«حبيبى الذى كان» و«ضحكة سكرة» و« الحدوتة» و«من يكون الرجل» و «عناقيد العنب» و«الشرف » و«محصول القطن» و «قمر الحارة» و«فى موسم الياسمين» و«رقم ١٢/٢١ ».

ونلاحظ التنوع فى هذه المجموعة وتناول صور أخرى مما يدور فى المجتمع ولكن يبقى

لها عالمها الأثير المنفرد عالم العلاقة بين الرجل والمرأة..

ولقد عرفت هذه المجموعة بكلمة مركزة على غلافها الاخير ألقيت فيها الضوء على أليفة رفعت كاتبة قصة : قلت فيها «اليفة رفعت كاتبة قصة متميزة ، فهى تجيد التعبير الفنى النافذ عن أشواق المرأة الفكرية والروحية ، ولها طاقة كبيرة على تصوير احاسيس المرأة المستكنة ، وعواطفها المتقلبة الفوارة ، وخصوصيتها الدقيقة .

ولها شغف برسم العوالم المجهولة ، وتصوير المشكلات الدقيقة للعلاقة بين الرجل والمرأة ثم هى تجيد تصوير الطبيعة المصرية ، وتحولها إلى لوحات نابضة بالحياة .

واذا كانت طبيعة حياتها وظروفها قد حجبتها فترة طويلة عن الحياة الأدبية فإنها تحاول الآن تعويض هذا الزمن الضائع بما تكتبه من روايات وأقاصيص ترجم بعضها إلى الانجليزية ونشر فى بعض المجلات والكتب الأجنبية . وهذه المجموعة الجديدة تمثل رؤيتها الفنية والفكرية .

كان هذا فى عام ١٩٧٦ من عشرين عاما ، ولكنها ظلت تكتب وتنشر بعد ذلك حتى غادرت دنيانا فى ٥ فبراير ١٩٩٦

● قصة عالمى المجهول

ولابد – قبل ان اضع القلم – من وقفة عند قصة «عالمى المجهول» لنرى القدرة الفائقة على تصوير هذا العالم الخيالى المجهول الذى يمثل القوى الخفية وعلاقتها بالبشر ، وهى تجربة اسطورية لاعلاقة لها بالواقع المادى اذ لايمكن – بالمقاييس العلمية ، والتجارب المادية– ان تقوم علاقة بين امرأة وحية ، حتى ولو تشكلت بإنسان وكانت من عالم الجان

ومن الغريب ان «اليفة رفعت» حولت هذه التجربة الأسطورية إلى واقع مادى ، حيث بطلة القصة تهيم بحب الحية وتنتظر نداءها وتستسلم لها ، وتتركها تفعل بجسدها ماتشاء. ولكن كيف تمكنت الكاتبة من إعطاء هذه الاقصوصة سياقا واقعيا وجسدته على أرض الواقع؟!! هنا تبدو المهارة الفنية ودقة الملاحظة والالمام بتراثنا الشعبى ومايموج فيه من خوارق غير مألوفة .

وتأمل معى تلك التجربة الأسطورية العاتية وكيف أخرجتها أليفة رفعت فى هذا السياق القصصى الجميل .. فى البداية مهدت الجو القصصى بتأمل فلسفى يعطى السياق مبررا قبل بداية القصة كتبت تقول «هناك الكثير من الأسرار فى الحياة ، والكثير من القوى غير المنظورة فى الكون ، وعوالم أخرى غير عوالمنا ، وروابط خفية واشعاعات تجذب المخلوقات فتؤثر على بعضها البعض ، وقد تتحد أو تتنافر ، وربما يأتى اليوم الذى يجد فيه العلم وسيلة لارتياد هذه العوالم ، مثلما يسافر إلى الكواكب الأخرى .. فمن يدرى»

وهذا كلام معقول ومنطقى ولاغبار عليه .. ولكنها بعد ذلك تفاجئنا بأنها عاشت فى بعض هذه العوالم او بمعنى ادق جعلت بطلة أقصوصتها تعيش فيها وتتحدث بضمير المتكلم «لكنى ارتدت عالما آخر من بين هذه العوالم ، وعشت فيه ، وارتبطت بمخلوقاته برباط الحب ، فكنت انتقل بين عالمنا الملموس وعالم خفى آخر بسرعة مذهلة ، واندمج فى العالمين فى نفس اليوم وكأنى أعيشه مرتين» وهذا تمهيد آخر محتمل فمادمنا قد صدقنا ان الكون يموج بالعوالم الأخرى الخفية التى لم نتعرف عليها حتى الآن ، فيمكن ان نقبل ان ترتاد بطلتها بعض هذه العوالم وتحب احدا من بين مخلوقاتها .. ثم تصف هذه العلاقة بقولها «حين كنت أعالج عالم حبى ، ويستحضرنى فاستسلم لندائه لايلاحظ أحد ممن حولى مايحدث بى .. كل ما هنالك أنه كان يصيبنى مايشبه الاسترخاء وأروح فى شبه سبات»

وهنا يبدأ العجب يساور نفوسنا اذ كيف تستطيع امرأة من عالمنا معاشرة كائن من هذه العوالم على هذا النحو وتسلمه جسدها فى شبه عملية جنسية تصل بها الى درجة الاشباع العاطفى والارواء الجنسى ، ثم يصيبها بعد ذلك الاسترخاء ؟

ولكن فلنترك التعليل والتحليل الآن حتى نتعرف على بقية هذه العلاقة كيف تمارس هذه الحية عملها فى جسد المرأة وعلى أية صورة ؟! .

وقبل كل هذه الاشياء لابد ان نتعرف على الاطار العام للأقصوصة والبناء الفنى لها ..قسمت الكاتبة اقصوصتها إلى خمس فقرات متتابعة ، اعطت لكل فقرة رقما من الارقام..

الأدب والتقاليد

«أعمالى الأدبية تناولت العلاقات الا سانية داخل الاسرة بشىء من الجرأة لم يألفها القارىء» وربما تكلمت عن حقوق المرأة النفسانية والعاطفية والجسدية فى العلاقة الزوجية بشكل لم يتعوده الرجل الشرقى الذى يملك نظرة متخلفة جدا الى المرأة تصل الى حد الشعور بدونية المرأة كجنس وانسان عن الرجل، ولأنى امرأة فقد تناولت ادق مشاعر الانثى فى صراحة . وبشكل ادق اقول اننى أرى ان الابواب مغلقة على ازواج وزوجات فى علاقات غير متوافقة. ومن هنا تبدأ المشاكل فى الاسرة ».

أليفة رفعت

فى الفقرة الاولى بدأت القصة على هذا النحو «بدأ الحب حين صدر أمر النقل لزوجى بالعمل في بلدة ريفية هادئة ولانشغاله بالعمل أنابنى عنه للسفر لهذه البلدة لاختيار المسكن المناسب حتى يحين موعد تسلمه لمنصبه الجديد ».

وابرق لأحد مرءوسيه في العمل لاستقبالى فى المحطة ومساعدتى فى مهمتى ..

ونعرف فى هذه الفقرة ايضا ان البطلة مر بها ليلة السفر صور حلم تراءى لها .. وراح يلح عليها وهى تركب القطار فى طريقها إلى البلدة التى ستعيش فيها مع زوجها واولادها .. صورة بيت صغير ابيض تحيط به حديقة ذات شجيرات تحمل زهورا صفراء يقع على حافة ترعة عريضة يسبح بها الاوز وتجتازها المراكب الشراعية العالية .. ووصل القطار إلى البلدة المنشودة ووجدت مرءوس زوجها فى انتظارها وسمته كامل .. وحملتهما سيارة راحت تجتاز السوق حتى وصلت إلى «ترعة المنصورية» أمر كامل السائق ان يتجه للعمارات السكنية التى اقامتها المحافظة لسكنى الموظفين وسرحت ببصرها إلى الشاطىء المقابل ، وتهادت مركب كبيرة ذات شراع عريض خفاق وظهر من ورائها بيت ابيض له حديقة ذات اشجار زهورها صفراء يقبع وحيدا وسط الحقول المترامية . وأمرت السائق ان يتجه إلى هذا البيت فقفز «كامل» من مكانه فى رعب وصاح .. لا .. لا هذا البيت لايسكنه أحد «وصحت بإصرار وانا كالمنومة تسير فى حلم لابد لى من مشاهدة هذا المنزل .. قال حسنا لن يعجبك فهو قديم ويحتاج إلى اصلاح وامر السائق بالتوجه إليه راضخا لرغبتى»

الأدب النسائى

«أؤمن بأن المرأة هى الوحيدة القادرة على الكتابة عن العالم الداخلى للمرأة، وفى اوضاعها ومشاكلها فى المجتمع .

اننى مهتمة فى اعمالى بتناول العلاقات الانسانية داخل الاسرة بجرأة ، وعرضت الى ادق مشاعر المرأة فى صراحة وبشكل يفتح الابواب المغلقة ويبدد غيوم التقاليد البالية ، واتصور ان هذا هو دور الادب الصادق، خاصة الادب النسائى الذى يجب ان يسعى الى تصحيح اسس العلاقات الزوجية وترسيخ قيمة التوافق العقلى والعاطفى».

أليفة رفعت

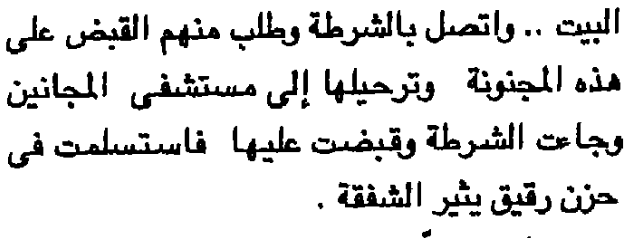
وتنتهى الفقرة الاولى .. ثم تبدأ الفقرة الثانية ونلتقى بتمهيد آخر يتمثل فى ظهور شخصية جديدة «انيسة» وهى امرأة قليلة بيضاء تحمل طفلا سمينا رث الثياب تسمرت أمام الباب ومنعتهما من الدخول فى البيت ودفعها كامل بقسوة ونهرها صائحا فى وجهها الا تدركين .. هذه زوجة المدير فهيا ابتعدى .. وابتعدت فى انكسار وراحت تفترش التراب فى استسلام صامت وسألت «كامل» عن هذه المرأة ، قال .. وهو يهز كتفيه - امرأة مجنونة غريبة عن البلد عطف عليها صاحب البيت وجعلها حارسة عليه حتى يتقدم للسكني به احد وايجاره زهيد لايتجاوز اربعة جنيهات ولكنه يحتاج إلى تجديدات وطلاء ثم ان الشائعات تثور حوله بانه مسكون «والاهالى هنا يؤمنون بظهور الجن والعفاريت» . وهنا تنتهى الفقرة الثانية بعد ان مهدت لنا الكاتبة بصورة عجيبة أخرى تتمثل فى انيسة .. هل هى حقا امرأة مجنونة ؟ هل هى شىء آخر من هذه الكائنات العجيبة التى تظهر فى هذا البيت المسكون بالاشباح والعفاريت ؟ .

وفى الفقرة الثالثة تتم اجراءات البيت بعد اصلاحه وطلائه وتأخذ المفاتيح ولكن تظهر لها انيسة مرة أخرى أمامها لتقول لها سأقيم انا هنا ولابد ان ترحلى انت منه ، وتدفعها بقسوة وتأخذ منها جميع المفاتيح التى معها حتى لاتعود إلى البيت مرة أخرى .. وجاء الزوج والاولاد ووصل الاثاث .. وانهمكت فى ترتيب البيت ، ولكن انيسة كانت تحوم حول البيت فى كل ليلة وتعرضت لزوجها وقالت له اعمل على ترحيل زوجتك وسأعيش انا معك فى

الجنس والموت

«أحلم بحياة مثالية هادئة خالية من الهموم والمشكلات ، لذلك فاننى اكتب عن الجنس والموت، وقد ظن البعض انهم يقللون من شأنى يصفوننى باننى كاتبة جنس لكننى اقول بصراحة ، نعم انا كاتبة جنس.. ليس بالمعنى السوقى الهادف للاثارة لكن من اجل التوعية وطرح المشكلات والحلول فضلا عن ان الحديث عن الجنس ليس عيبا فمن يستطيع ان ينكر ان له دورا كبيرا فى حياتنا ،وأنا استوعبت هذا الدرس مبكرا، حيث عانيت حياة أسرية غير مستقرة دفعتنى الى الاهتمام بالجنس فى كتاباتى»

أليفة رفعت





البيت .. واتصل بالشرطة وطلب منهم القبض على هذه المجنونة وترحيلها إلى مستشفى المجانين وجاءت الشرطة وقبضت عليها فاستسلمت فى حزن رقيق يثير الشفقة .

ونظرت إلىّ وانا اقف باكية وقالت وقد اشارت إلى جدار البيت سأتركها لك .. صبحت بغير وعى من ؟ من ياأنيسة ؟ قالت وهى تشير مرة أخرى لأسفل البيت هى !

وفى هذه الفقرة ايضا نلمح حيرتها وتفكيرها الطويل فيمن تكون هى .

★★★

وفى الفقرة الرابعة بعد كل هذا التمهيد المختلف الصور تظهر المفاجأة المذهلة تظهر الافعى بجمالها المثير الذى يخدر حواسها .. ويتم اللقاء بينهما ، وفى الفقرة الخامسة تصف الكاتبة تفاصيل العملية الجنسية بين بطلة قصتها وبين الحية تقول «وسمعت فحيحا يقترب ثم تحول إلى همس رقيق فى اذنى يهتف بى : أنا الحب يافاتنة قد أشرت لك ودللت على بيتى فى منامك .. وناديتك لملكتى حين كانت روحك تهوم فى آفاق الاحلام .. فتعالى ياحبيبتى الحلوة تعالى نجوب بحر اللذات اللازوردى .. تعالى اضاجعك كما ضاجعت على مر الأحقاب نساء جميلات .. تعالى اعبث بصدفتك واعتصر لؤلؤتك حتى اجلوها ليشع بهاؤها ، تعالى بغير وجل فلن يصل إلينا فى عالمنا الخفى مخلوق .. وهكذا بدأت هذه العلاقة المثيرة بالحية..

وتركتنا الكاتبة فى حيرة تمارس علاقتها بطريقة عجيبة مع هذا الكائن الذى لانعرف من هو ولا من اى العوالم جاء .

وتلخيص الاقصوصة على هذا النحو يخل ببنائها الفنى ولايعطى لها صورة كاملة ولابد من قراءتها كاملة لنرى كيف تصل الكاتبة إلى ذروة الابداع الفنى وهى ترسم مشاهد هذا الحب فى لوحات نابضة بالروعة والاثارة وأنقل هنا بعض سطور قليلة من هذه اللوحات :

«رحت منتشية مع الهمسات الموسيقية الناعمة . وشعرت بها رطبة ملساء ناعمة . برودتها تبعث فى الجسد هزة مؤلمة ، موجعة إلى حد الرعب المثير ، شعرت بها وهى تنزلق بين الاغطية ، ثم راح نابان صغيران كلؤلؤتين يدغدغان جسدى ، حتى اذا وصلا لساقى غرس لسانٌ اصفر ذهبى كعود اراك طرفه الشوكى بينهما .. وراح يمتص وينفث.. يمتص

سموم رغبتى ، وينفث رحيق نشوتى حتى تخدر كل جسدى ، فراح يهتز فى نبضات أليمة حادة الألم إلى درجة الامتاع ، امتاع حاد يصل للذة الاشباع» وتنهى الكاتبة هذه الاقصوصة نهاية مثيرة بعد ان عاشت بطلتها فى هذا العالم الخفى شهورا طويلة ، وبعد ان قتل زوجها ثعبانا قبيح المنظر يكاد يصل طوله إلى مترين «صرخت فى حزن وصحت فى زوجى فى غضب لم نقضت العهد وقتلته اى ذنب اقترفه ؟! .. وجاءتنى حبيبتى وعانقتنى مثلما لم يحدث من قبل .. وقالت هو الوداع نقضتم العهد وغدرتم بواحد من رعاياى فارحلا من هذا البيت فلا يعيش فيه غير الحب وفى الصباح حزمت متاعنا لننتقل إلى عمارات الموظفين .. ورحلنا عن البيت الذى تعلمت فيه الحب واستمتعت بمسرات نادرة ؟؟

★★★

قالت لى اليفة رفعت مرة : ما رايك فى اقصوصة «عالمى المجهول» :

وهربت من الاجابة قائلا هى فى حاجة إلى محلل نفسى ، لاناقد ادبى .. واحمر وجهها .. واهتز جسدها فى انفعال طاغ وانصرفت وقاطعتنى عدة شهور ..

ولا أزال عند رأيى وأنا أكتب هذه السطور بعد ان غادرت دنيانا إلى رحاب الله .

وقد أعود إلى إلقاء الضوء على عالم أليفة رفعت النفسى والاجتماعى ودراسة اعمالها الكثيرة .

ونكتفى بهذه السطور لتكون تحية الوداع ، يرحمها الله.

زوجة وراء القضبان

«فى عام ١٩٥٥ نشرت اول قصة لى فى مجلة «الرسالة الجديدة» وكانت بعنوان «زوجة وراء القضبان» والحقيقة ان العنوان كان يعبر من حيث لا أدرى عن حياتى فى ذلك الوقت. وقد فرحت بهذه القصة كمولود، لكن زوجى اجهض كل شيء، اذ رفض بشدة ان انشر اعمالى الأدبية أو أتعامل مع الوسط الأدبى . لانه كما كان يقول لى دائما المرأة ليس لها الا بيتها وأولادها . ولن اكون زوجا للست . وهددنى يومها بالطلاق ان عدت الى نشر اعمالى الأدبية».

أليفة رفعت

رافرق

شعر

أحمد سويلم

فى لحظتنا هذى يا أصحاب
بعض منا يشدو شعرا
بعض منا يرسم أحلاما خضرا
بعض منا ..
يشرب كأسا تشعله سكرا
نتحاور حول قصائدنا
إن كانت شعرا..
أو كانت نثرا ..!
فى لحظتنا ..
يحمل كل منا لصديقته نذرا
يلقف أنجمه فى قبضته ..
يعصرها قطرا ..
فى لحظتنا ..
نشجب .. أو نحتج صراخا
أو نشقى بالحكمة

أو نغفو قسرا ..
وعلى بعد خطوط خريطتنا
تسفح أكباد
تهوى أعناق ..
تتلوى أطفال
يتلهى السفاحون
يصلون على جثث القتلى كفرا..
فى لحظتنا ..
يذبح خطو الإنسان على سيف الحكمة
نتوهم عالمنا طهرا ..
ما أشبهنا بين شرايين خرائطنا
ومسافات الموت نمهدها
سكينا كانت ..
أو طلقات رصاص
أو شعرا ...
ما أشبهنا ..!

من الهلال إلى الهلال

سينما
كتب
مسرح
تليفزيون
الفن الجميل
فولكلور
كاسيت
نقد
مجلات
شعر




ص ١٥٩ ص ١٥٦

جلال السيد

كان جلال السيد يبعث التفاؤل فى كل من حوله ، ويؤمن العمل الصادق لابد ان يؤتى ثماره، وان الجهد الصادق العمل بلا ضجيج لا يضيع ابدا ، ويفتش دائما على الايجابى فى كل شخص ومع كل موقف..

وهاهى ذى الحياة الثقافية المراوغة ، التى كثيرا ما تبطن غير ما تظهر ، إذ يطغى على السطح - أحيانا - المخادعون الذين يجيدون اللعب بالبيضة والحجر، تكشف جوهرها ويأخذ كل صاحب حق حقه.

وتتحقق نبوءة جلال ، وتتحرك المياه الآسنة، ويسودها الوجوم حزنا وأسى على غيابه ، وتقديرا ومحبة على أحد فرسانها ، الذى لم يسع يوما الى الشهرة، ولم يحط نفسه بالصخب والضجيج، ولم تغره المناصب، ولم يحركه المال، والذى ينأى بنفسه عن التحيز، وإن كان تحيزه الوحيد للوطن وقضاياه وهمومه، فأعطاه عمله الدائم من اجل الكلمة الحرة سكينة خاصة، وبصيرة نافذة، وقامت بينه وبين كل من حوله معادلة صحيحة متوازنة، بعد ان عاش جيله الكثير من



جلال السيد

الأحلام الضائعة، وتميزت معادلته بالتمييز الدقيق بين الثابت والمتغير، بين ماهو تاريخي وماهو آني.

وكثيرا ما قابلت جلال، وقد زادت حيرتي ، وتشتت فكرى من بعض الاحداث والخطوب ، وتصورت انه سددت امامنا المسالك، فاذا هو بهدوئه وحكمته ، يحل امامى بمهارة وحنكة الخيوط المتشابكة ، ويعيد المسائل الى أصولها.

هذا هو ما يمثله جلال فى حياتنا ، الصديق الذى يجد فيه كل من يعرفه المرفأ الآمن ، والذى حظى بحب وتقدير كل من يعرفه، القلب الكبير، فكما احب وطنه واخلص له احب اسرته، فطلبات بناته واهتماماتهن تمثل جزءا مهما من حياته .

وكثيرا ما تزاملنا معا، عند تكوين لجنة دعم الثورة بفلسطين وفى العديد من الرحلات الصحفية، وكان يمثل فى كل كتاباته الصوت الصادق والضمير الحى ، بلا مزايدة او صخب، يّدرك ضعف البشر، ويسعى الى التعامل مع الجانب الايجابى.

ألقينا معا محاضرة فى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بدعوة من اتحاد الطلبة، فى سنة الضباب، فاستدعينا معا الى المدعى العام الاشتراكى.

ولم يعرف المرارة ، ولم تغيره المتاعب ، وتمسك بإيمانه

بثورة يوليو رغم ما عاناه كصاحب رأى حر ، قبض عليه ودخل السجن اكثر من مرة، وأدرك عواقب الاشتغال بالعمل العام فى بلادنا.

وجلال السيد عندما يقرأ التاريخ يتمثل احداثه، ويستخلص منها القوانين التى تحدد مسار الوطن، يرفض تراجع على باشا مبارك وانقلابه على الثورة العرابية، ويقدر عطاءه الكبير وانجازاته فى العمران ، ومنارة تاريخ مصر الحديث هو عبدالله النديم الذى برز من قاع المجتمع ودافع عن الثورة العرابية، حتى آخر يوم فى حياته ، رغم التشريد والنفى.

فالتاريخ هو الذاكرة الحاضرة، يرى انه جزء من هذا التاريخ، يحارب معاركه، ولا يقبل فيها الهزيمة، فمن يتذكر لا يصرخ، لأنه يستعيد ويسترجع ، ويتأمل ويصغى ، ومعرفته لا تثقل القلب، وانما توقظ الضمير وتقوى العناد.

له ذاكرة لا تعرف النسيان ، ولا تقبل العزاء ، فمحو الذاكرة هو انقطاع الحضارة ونفى الانسان . وحاضر فى ذاكرته على الدوام ما جرى فى يونيو ١٩٦٧ ، وقبلها موقعة الاسكندرية عام ١٨٨٢.. و قبلها .. وقبلها.

ولا توجد مكتبة شخصية فى ثراء وتنوع مكتبة جلال السيد، وهى مكتبة الجميع يرجع اليها كل من اعياه البحث عن كتاب، ولا يغضب سوى من الذى لا يعيد الكتاب الذى استعاره.

له تجربة غنية فى الاشراف على المجلات الثقافية، كان سكرتيرا لتحرير مجلة الكاتب حتى اغلقها يوسف السباعى، ولم يتوان جلال السيد عنْ تقديم خلاصة تجربته لمجلة الهلال، حتى أطلقنا عليه لقب «الأب الروحى» ، كتب فيها العديد من المقالات القيمة.

وما يقوم به اليوم عدد من اصدقائه ومحبيه فى جمع كتاباته وتصنيفها مشروع يستحق الدعم والمساندة.

● **مصطفى نبيل**

استراتيجية للثقافة



فاروق حسنى

عقد وزير الثقافة لقاء موسعا مع حشد من المثقفين والأساتذة الجامعيين لبحث استراتيجية العمل «الثقافى» فى المرحلة الجديدة بعد التعديل الوزارى.

وأثيرت عدة قضايا ومشاكل مهمة لاشك، ولكن لم يتطرق أحد أو يخطر بباله أن يطرح قضية ربما كانت صاحبة الأولوية وتسبق كل القضايا

ولعلها الانعكاس الطبيعى والامتداد لما أعلنته الحكومة الجديدة من منح الأولوية فى سياساتها وبرامجها لمحدودى الدخل. وأن يكونوا محور العمل السياسى والاقتصادى منذ الآن، ولا يبقى مناص لوزارة الثقافة من أن تمنح محدودى المعرفة والثقافة نفس المكانة وأن يبدأ جهدها، وينصب عليهم وحتى تذوب الفوارق «الثقافية» بين الطبقات.

وهناك شبه اجماع بين كل المذاهب والمدارس على أن الدولة العصرية والنموذجية هى التى تتوزع فيها السلطة والثروة والمعرفة بين المواطنين جميعاً.. بالعدل ، ويستوفى الكل نصيبهم، ولا يحرم أحد.

ويبدأ العمل لا شك من أشدهم حاجة وأقلهم معرفة.. وهم عندنا أغلبية ساحقة : هم الأميون!

وقضية الأمية عندنا قضية أساسية وجوهرية، ومزمنة واثيرت منذ برنامج الاصلاح فى الثورة العرابية، وهى بلاشك وصمة كبرى فى حياة مصر ومكانتها الثقافية والحضارية.

ولايمكن أن يتم برنامج إصلاح أو يستقر قبل أن تمحى وتستأصل ..

ووفق العلم والفقه الدستورى، فإن الضمانة الأولى والأخيرة للديمقراطية هى المواطن الواعى الذى يحرص على حقوقه «السياسية» ويحميها.

ويجمع علماء وخبراء التنمية، على أنها لا يمكن أن تنجح وتؤتى ثمارها إلا بالمشاركة الشعبية لأقصى حدودها، وأن تعتمد على عمال وفلاحين «عصريين» مهرة، يستوعبون أكبر قدر من «التكنولوجيا» المتقدمة والتى تتقدم كل يوم.

ولا يمكن أن تزدهر وتترعرع ثقافة وطنية انسانية تعكس أصالة الأمة وتتفتح على ثقافات وحضارات العالم، إذا ما كانت أغلبيتها الساحقة محرومة من القدرة على المشاركة أو على التذوق، ومستبعدة ترسف في ظلام قاع عميق.

ويقول البعض إن الصراع القادم سوف يكون صراع حضارات وثقافات ولا يمكن أن يصمد فيه شعب تسوده «الأمية» رجالا ونساء وأطفالا !!

وقد لا تكون «الأمية» مسئولية وزارة الثقافة وحدها، ولابد لها من تعبئة عامة، تعلنها الدولة بكل مؤسساتها وأجهزتها، ولكن يقع على عاتق وزارة الثقافة أن تأخذ المبادرة وتطلق الشرارة وتتولى القيادة وتعد الخطط والمشاريع.

وتبدأ بتحويل قصور الثقافة في كل أنحاء البلاد إلى قواعد للاستراتيجية الجديدة تتولى التطبيق والتنفيذ وتشرف عليه وتتابعه، وأن تعبىء وتجند أدباء الأقاليم، المغمورين فى الريف، والذين يطالبون ويلحون فى البحث عن دور وعن مكانة. ويكون عليهم أن ينتشروا فى القرى والكفور والنجوع. يضيئون أرواح وعقول مواطنيهم، ولاشك سوف يحققون أنفسهم، وسوف يكتشفون شعبهم بأعمق مما فعلوا، وسوف تتدفق مصادر الإلهام وينابيعه .. وسوف تدعمهم بلاشك الوزارة وتبارك خطاهم.

ولا تقتصر الدعوة على مثقفى الأقاليم، بل لابد وأن تشمل كل مثقف مهما كانت مكانته، وأن ينزل إلى الميدان، وأن يلتزم بفصل من فصول المكافحة أو بعدد من الأميين يمحو أميتهم، ويضيف بذلك إلى عدد قراء أدبه أو متذوقى فنه .. وقد يفجر مواهب كانت مدفونة ومنابع خلق وابداع كانت مبددة.

ووزارة الثقافة إحدى الوزارات القليلة عندنا التى لا تحذف الماضى القريب من سجلاتها وتندد به ، ولا تجد حرجا فى الاعتراف بتراثه وانجازاته، ولهذا يمكن أن تبعث نظام القوافل

الثقافية الشاملة التى كانت تطوف المحافظات، بمدنها وقراها، فى احتفالات ومهرجانات ثقافية، شعبية ، تترك آثارها وبصماتها على كل مكان تزوره ، وتحفز الجميع إلى التحرر من التخلف وظلام الأمية..

ونحن نحتاجها الآن بأشد من أى وقت آخر لأن الفجوة الثقافية الواسعة والفراغ والفقر «الثقافى» المدقع خارج مدينة القاهرة وربما الاسكندرية من أهم مصادر وفكر وفقه الإرهاب.

وإذا ما أعلنت وزارة الثقافة عام ١٩٩٦ عام القضاء على الأمية فإنها سوف تدخل التاريخ وتخلد فيه ويستحق الهدف كل جهد ينفق ويبذل !!

● محمد عودة

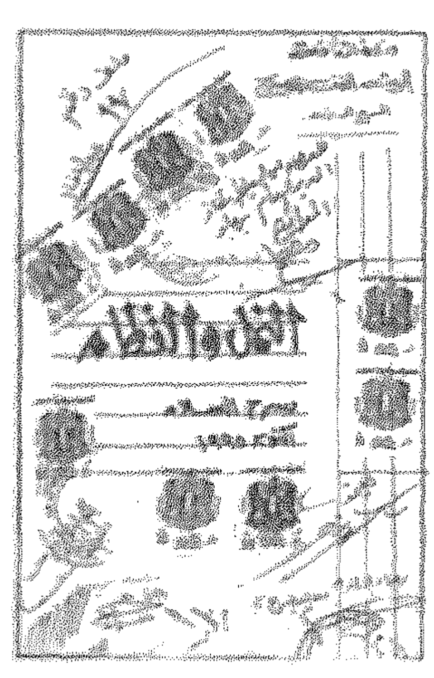
مسرح

ضد النمل وضد النظام

المسرحية : النظام والنمل
تأليف : ميخائيل رومان
إخراج : زوسر مرزوق

فى مسرحيته «غدا فى الصيف الماضى» يحكى لنا «حمدى» بكلمات مثل طلقات الرصاص عن سيدة كانت معتقلة سياسيا ضمن مئات آخرين، وأصدرت السلطات قرارا بنقلهم إلى سجن آخر اكثر قسوة كنوع من العقاب.. يحكى حمدى كيف وقفت هذه السيدة ، فارعة الطول ، بارعة الجمال، وقفت وشقت ثوبها فبدت عارية تماما وصرخت : لن نغادر هذا المكان! وبالفعل ألغى القرار. هذا النموذج الثورى المتمرد الرافض يملأ وجدان ميخائيل رومان.

وفى مسرحية «النظام والنمل» التى تعرضها الآن فرقة المسرح الحديث على مسرح السلام، من اخراج زوسر مرزوق. فى هذه المسرحية نرى «حمدى» مرة اخرى وهو يحكى عن عبدالرسول : ذلك العامل العملاق جسما



وروحــا، عندمــا تعطلت «الماكينة الكبيرة» تطوع وتدخل لإصلاحـهـا ـ ولم يكن هذا ضــمن عــمله ـ وصرخ فى زملائه العمال ان يرفــعــوه بالونــش ليصعد الى اعلى الماكينة الكبيرة ويصلح مابها من عطب.. ويصـــعــد عــبـدالرســول الى اعلى الماكينة وينزل فى باطنها ويكتشف سر العطب، لكن فــجــأة يصل التــيــار الكهربائى وتدور الماكينة وتسحق عبدالرسول . تفرمه ولا يبقى منه اى اثر . «لم يعثروا على شىء منه!» هكذا يردد حمدى فى حواره مع عبدالغفار ، بطل «النمل والنظام» ونفــهم من الحوار ان كل من يقترب من الماكينة الكبيرة «لابد ان يكــون هذا جـزاءه. اعــتــقـد ان هذا النمــوذج البطولى بالذات هو اشارة الى ارنستـو شى جيفـارا، الثائر العظيم الذى اغتالته وكالة المخابرات الامريكية فى اواخر الستينيات وهو يقود حرب العصابات فى غابات بوليفيا. اغتالته لانه مد يده الى «الماكينة الكبيرة»!

المشـكلة فى نـص «النـظام والنمل» ان عبـدالغفـار بطل المســرحيــة هو فى جـانب منه «حــمــدى » .. الذى يصادق رعـاة الاغنــام ويعــشـــق الصــحــراء ويشــيـد بالســمـو والبـراءة ويصـرخ بأنه يريد ان يرتقى بالانسان ليـبقى جديرا بإنسـانيتـه، لكنه فى الجـانب الآخـر هو المتسلط، الجبار، المهيمن، مكـمم الافواه، هو ممثل لكل قوى القمع الأبوى.

وفق المخرج فى اختيار ابطال العرض، ويجب الإشادة بالدور الذى لعبـه هادى الجيـار، ان هادى يتـمـيـز بأداء

جمال اسماعيل



راسخ يعى ابعاد الشخصية التى يمثلها «عبدالغفار» مقنع فى طـريقة كلامه وحـركاته وتجهمه. جمال اسماعيل - فى دور الوالد - له حضـور قوى وقبـول لدى الجمهور اما احمد صادق الذى لعب دور «حمدى» فان لديه امكانيات هائلة وسيكون له شأن كبير فى عالم المسرح.

لعبت الموسيقى والاضاءة دورا مهما وكانا عنصرين مكملين اضفيا على العمل جمالا وتألقا.

يبقى ان نوجه التحية الى زوسر مرزوق - مخرج العرض وصاحب الرؤية التشكيلية - لاهتمامه بالبحث عن هذا النص غير المنشور وتقديمه على المسرح فى عرض جدير بالمشاهدة .

● شوقى فهيم

ميخائيل رومان ونمله ونظامه

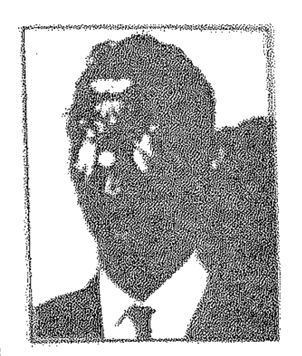
حنان سليمان



هادى الجبار



ان اعمال ميخائيل رومان عامة - ومسرحية النمل والنظام خاصة - تحمل عمقا فلسفيا قويا لا يمكن تجاهله حتى ان كان متشابكا مع البعدين السياسى والاجتماعى. والشخوص المسرحية فى عالم ميخائيل رومان تتساءل بدأب حول معنى الوجود ذاته والهدف منه، كما تتساءل تساؤلات ميتافيزيقية، وتحاول ان تلقى الضوء على ذلك الجانب المعتم من علاقاتنا الانسانية وهواجسنا ووساوسنا وطموحاتنا المحبطة تمهيدا للحظة التمرد او الانفجار التى


ميخائيل رومان

تتكشف فيها الحقائق وينهار معها كل شيء. هكذا تتدفق حكاية «النمل والنظام» على انها تنقد السلطة واستغلال الانسان لأخيه الانسان، وتمتعض من تقلص المساحة الانسانية داخل البشر ، متحولين الى تروس صغيرة فى آلة عملاقة شرسة تتغذى على الجميع وربما تحولهم الى نمل بلا مشاعر ، بلا هدف. بلا عقل. مجرد حشرات تأكل الفتات تلقائيا ولاتكترث بالغد. لكن مع تطور الأحداث واقترابها من النهاية تتأكد صورة البطل «عبدالغفار» ليس باعتباره الخادم الأول لهذه الآلة ورموزها فحسب ، بل ايضا باعتباره فرعونا صغيرا يسخر الجميع لخدمته ويبحث عن الخلود لنفسه فيحفر قبور كل من حوله دون ان يتمكن من محو صورة موته الخاص من ذهنه. ولعل ميخائيل رومان بذلك قد ربط بين الفلسفي والحضاري والسياسي كأفضل ما يكون بل وأضاء ممرا سريا فى التاريخ يصل بين الحضارة الفرعونية بإنجازاتها الوفيرة ، وايديولوجيات الحكم الشمولي ، وذلك من خلال عين كاتب مسرحي منشغل بالهم الوجودي ، ينسج بناه الدرامية على منوال فيلسوف وجودي يبحث عن ذاته فى مرآة العالم ، لكنه لا يقوى على الفرار من قدر ما صنعه لنفسه وهو الانتهاء الى العدم.

ان هذا الكاتب العبقري يقدم لنا مادة درامية غنية لم تنل حقها من العرض المسرحي حتى الآن، لكنها على الاقل لم تلق حتفها مثل مبدعها الذى اصبح خالدا بها فى الفن دون ان يدرى شيئا عن ذلك، ودون ان يعلم ان القسوة والعدمية هما مصدر بث الحياة فى اعماله حتى الآن ان «النمل والنظام» دليل حى على الحاجة الى الرجوع الى ربرتوار المسرح العربي واعادة اكتشافه بما يوفره من فرص ادائية واخراجية . ففي هذا العرض ـ وعلى الرغم من انعدام المتفرجين تقريبا وتحول القاعة المسرحية الى عرض خاص للنقاد ـ


عفاف حمدى

حقق هادى الجيار قمة الاداء التمثيلى التى يسعى اليها اى ممثل وتمكن من شخصية «عبدالغفار» فى ابداع وثقة وقسوة لا تضاهيها الا قسوة النص على بشر يبدو انهم يسعون ايل موتهم طيلة التاريخ فيستحقونه بجدارة. وقسوة الكاتب على حضارة كرست نفسها للبحث عن الخلود فخذلتها الحياة وانتهى بها الامر الى الموت وسط مقابر رائعة تستمتع وحدها بالوجود.

وربما يكون ميخائيل رومان قد انزلق رغما عنه فى تمجيد الموت وتخليده كحقيقة وحيدة مطلقة وراء «النمل والنظام» ، لكن مما لاشك فيه انه نحت بفنه شريانا جديدا للحياة ولحبها ، وارضا خصبة لفنانين يطمحون الى الجمال وإلي الابداع والاكتشاف، امثال هادى الجيار بتمثيله ورمسيس مرزوق باضاءته ومحمد الشيخ بألحانه وزوسر مرزوق برؤيته الجمالية المتكاملة.

● نورا أمين

تليفــــزيون

نصف ربيع الآخر .. دراما تتمرد على نفسها

مسلسل : نصف ربيع الآخر
سيناريو : محمد جلال عبدالقوى
إخراج : يحيى العلمى

جاء مسلسل «نصف ربيع الآخر» ليؤكد لنا أن فنانينا (كتابا ، ممثلين . مخرجين) مازالوا قادرين على صنع تلك الدراما التى يرغبها الناس وتثيرهم ويتفاعلون معها . دراما لا تقودها السياسة ، ولا يقودها ذلك الصراع الاجتماعى الفج .. دراما لا تنساق للأشكال التليفزيونية النمطية التى اعتاد «ماسبيرو» على تقديمها .

مؤلف المسلسل محمد جلال عبدالقوى ، لم يخش تقديم شخصية مثالية (ربيع الحسينى) .. شخصية مكتملة الجوانب الإنسانية : رجل ناجح فى عمله (أستاذ جامعى ومحام) ، وقائد أسرة سعيدة (زوج مخلص وأب مثالى) .. شجاعة عبدالقوى

جعلته ينطلق فى تقديم هذه الشخصية دون خوف أو رهبة من السؤال التقليدى السخيف : .. وهل يوجد فى الواقع شخصية مثالية ؟! .



يحيى الفخرانى

أعتقد أن من أسباب نجاح المسلسل أن مؤلفه أقنعنا بوجود مثل هذه الشخصية : ربيع الحسينى تنتفض ذاكرته لاستدعاء لحظات رومانسية فذة عاشها قبل أكثر من عشرين عاما .. لكنه لا يتيح الفرصة - دائما - لصاحبة هذه اللحظات الرومانسية (ناهد الوكيل) أن تفسد حياته المثالية .. وإن أتاح لها - أحيانا - أن تخترق حياته العائلية لتفجر توترات لم تعرفها العائلة الطيبة من قبل .

وما بين الذكريات وعشق مساعدة من كان يعشقها يوما ما .. وبين الحفاظ على شريكة حياته ، (أبلة سعاد) وأبنائهما، أقام محمد جلال عبدالقوى صرحه الدرامى (نصف ربيع الآخر) .. ليس فقط من خلال هذا الصراع ، لكن مضيفا إليه العديد من المفردات الدرامية الساخنة والتى تمحورت حول الثنائية التقليدية (الحق / الظلم) ولكن بموديل جديد .. وجسدها من خلال مشاهد المحكمة ليجعل من ربيع الحسينى مدافعا عنا جميعا .. رافعا سيف الحق .. حتى ينجح فى إيداع «الفساد» فى سجن العدل .

وكما أدهشنا محمد جلال عبدالقوى بحواره السهل / الجديد .. أبهرنا المخرج يحيى العلمى (المتمكن) بإيقاع تليفزيونى يتناسب مع سخونة الأحداث .. خاصة وهو يلملم أطراف الحدوتة ويسعدنا فى مشاهد مبهجة باختيار ربيع الحسينى للموقف «الصح» .. ورهانه على أسرته .

أما يحيى الفخرانى .. فهذا ممثل «حكايته حكاية» .. نقل إلينا أفكار المؤلف بأحاسيس بكر ، وبوجه تعرف ملامحه ترجمة المقولات الدرامية إلى مشاعر تتسلل إلى عقولنا وقلوبنا بخفة ورشاقة .. والأهم أن الفخرانى خلق حالة تمثيل داخل الأستوديو .. فشاهدنا إلهام شاهين كما لم نشاهدها من قبل ، وتفوقت فادية عبدالغنى على دورها فى «المال والبنون» .

«نصف ربيع الآخر» .. دراما طازجة ، حلوة المعانى ، شديدة الإثارة .. أسعدتنا ونحن نتابعها .. وشاعريتها تخجلنا

من ذكر بعض الملاحظات .. فالتصفيق واجب لهذه النوعية من الأعمال التليفزيونية .

● عمرو خفاجى



إلهام شاهين



فادية عبد الغنى

لكن أين نصف ربيع الأول ؟؟

استراحت عيوننا المجهدة من الإعلانات المتعاقبة ، ومن رؤية وجوه نفس الممثلين فى سيل برامج المسابقات الرمضانية الإعلانية على جميع القنوات ، وكأن تجرع السمن بصريا وحصار وجوه الممثلين لنا أينما التفتنا ، هو الثمن الذى يجب أن يدفعه المشاهد المصرى المسالم لقاء الحصول على مسلسلاته الموسمية الناجحة . وللحق نقول إن الجرعة الدرامية التليفزيونية رغم زيادتها عن المشار به طبيا لدرجة ربما تسبب أثرا عكسيا أو إدمانيا سيئا عند تناولها ، إلا أنها ترتفع عن المستوى الفكرى والفنى لجرعة بقية العام . وربما كان من الأفضل أن توزع هذه الجرعة على شهور السنة بدلا من تكديسها فى شهر واحد تكدسا مزدوجا بسبب الإعلانات المجيدة ، وأعتقد أنها فكرة أكثر منطقية من أن يلجأ التليفزيون لإعادة بعض المسلسلات الرمضانية مرة أخرى أثناء العام فى شكل سهرات حتى يلتفت إليها المشاهد الذى ربما كان متخما بالدراما فى رمضان فلم يشاهدها ، إلا أن التليفزيون بذلك يحرمه ويحرم غيره من السهرات الفيلمية الجميلة أو الجديدة . على أية حال فارتفاع مستوى الدراما يعطى المسألة مظهرا تنافسيا يجعل الفنانين يعطون أفضل ماعندهم لاسيما إذا لم يكونوا من أولئك المنشغلين بتصوير برامج المسابقات فى ذات الوقت ، لذلك نستطيع أن نحصر أفضل الأعمال فى اثنين هما «لن أعيش فى جلباب أبى» و«نصف ربيع الآخر». نستطيع أن نقول بأن قدرا كبيرا من تفوق هذين المسلسلين يرجع إلى الممثلين ، أبطالهما ، بل إن تفوق «نصف ربيع الآخر» ، تحديدا يرجع القدر الأكبر منه إلى الفخرانى وفادية وإلهام الثلاثى ، الذى جاهد ورفع الحدوتة وكساها لحما ودما بل وأبعادا نفسية وعاطفية وكأنهم يكتبون بصريا وتمثيليا عملا مازالت أبجديته



يحيى العلمى

ناقصة . فالقصة العاطفية التى تحمل فى طياتها أبعادا سياسية تحتوى الحلم القومى فى الستينيات والنكسة وزمن الانفتاح وسرقة أحلام البسطاء والشرفاء انتهى بها الحال فى السيناريو إلى أن تكون مجرد قصة عاطفية تلاشت من عليها أولا بأول أية ملامح أشمل من العلاقة الثلاثية (رجل بين امرأتين) ، اللهم فى اللحظات التى تهب فيها ذكريات ربيع القديمة ، فلا يكون هناك بد من ذكر حالة الوطن فى ذاك الوقت، ويصبح علينا نحن أن نكمل المهمة ونتصور التشابه بين انفصال ناهد عن ربيع وفقدانها فى غياهبَ المال والتنازل عن القيم ، وبين انفصال الحلم القومى القديم والشعب عن حاضرنا فى الثمانينيات ، وبالتالى فقدان هذا الحلم أو تحوله إلى كابوس انفتاحى فاسد وطفيلى قاتل للشعب والبلد نفسها .
نضج محمد جلال عبدالقوى فى صنع الملامح الخاصة لكتابته وهو أمر متوقع طبعا بعد «المال والبنون» ، فنجد أبطاله - وربيع الحسينى تحديدا - لا يكف عن ذكر اسمه كاملا على الأقل فى نصف مشاهد كل حلقة ، كما تذكر اسمه زوجته وحبيبته وأبناؤه ، وربما أيضا يذكرون أسماءهم كوسيلة لتأكيد الشخصية وإكسابها طابعا معينا . ولا يفوتنا هنا أن المسلسل نفسه على اسم البطل ، مما يجعلنا نقول - بسبب بناء الدراما أيضا عند عبدالقوى - إن الدراما هنا هى دراما الشخصية وليست الأحداث . لذلك فمن الطبيعى أن تجئ النهاية بحدث إلهى - مثل طريقة الإنقاذ الإلهى القديمة - مطروح من الواقع، ألا وهو الزلزال ، فهكذا لا تصنع الشخوص حدثا ولا تبنى نسقها من الأفعال التى تحول طريق المسلسل أو نهايته ، بل هى تجد فرصة لتكشف عن المستوى - المشرق فى تكوينها مثلا - الذى من شأنه أن يريح المشاهد وينهى كل «المشاكل والزعل والذيول» . إننا لن نتزلق فى الحكم على عبدالقوى هذه المرة حكما موسميا تقليديا ، كأن يبلغ الكاتب عددا من الأعمال وقدرا من الشهرة ومن العمر ، فيجئ دوره لنشكره ولا نثقله بالنقد ، خاصة إذا كان معه يحيى العلمى والفخرانى فنأخذهم «شروة واحدة» أو نأخذه فى ركاب تفوقهما ، فعبدالقوى لديه إمكانيات متجددة أكثر من ذلك لو لم يستغرق فى إفتتانه بدراما الشخوص التى تكرر أسماءها فتغفل القيام بقدر من الأفعال تضعها فى سياق العمل الدرامى الذى يصنعها والذى

لا يمكنها أن تسرد مونولوجاتها وتأملاتها دونه ، فالأحداث التى يبدعها خيال المؤلف أبقى من تلك التى يلجأ إليها لختام حلقاته وإن كان الختام بالزلزال دالا قوميا ونفسيا كزلزال النفوس ، إلا أنه يختزل من مساحات الخيال ، مثلما اختزل عبدالقوى النصف الأول من ربيع (أى ماضيه المهنى وكيانه الاجتماعى وقضاياه من أجل المطحونين) المحامى والرجل وقدم لنا بحثه عن نصفه الثانى المرأة فجاء الصراع الأنثوى عليه غير ذى حيثية لأننا لم نر هذا النصف منه الذى يصنع أرضية القصة ، وبالتالى جاء الهتاف بتاريخه فى المشاهد وعلى لسانه ولسان غيره ضعيف المبرر ولم ينجح فى القيام بمهمة «رسم» النصف الأول كاملا ، ولم ينجح فى ذلك أيضا أن يكون زلزال التيقظ الذى يكشف عن فساد ناهد (النصف الثانى المتوقع لربيع) موافقا لنصف ربيع الآخر الهجرى وهو اليوم الذى كان يمكن أن يزيد معناه عن المصادفة الرمزية المزدوجة : (التاريخ واسم البطل - زلزال الأرض والتيقظ) ..

● ن . أ

كاسيت

النقشبندى وتعطير الأثير

كل الشواهد الموسيقية عندنا تدل على أن النقشبندى هو تينور التصوف الضارع، وعلى أنه صاحب شحنات الدعاء الموجه صوب سماوات الله بطلب «المدد» المستديم لكل عشاق النور الأسنى ولذوى الجناح المكسور كيما يبدل الله خوفهم أمنا، وعسرهم يسرا، وسيئاتهم حسنات.

وتكشف لنا امتداداته السماوية فى الأداء عن حيازته لحنجرة ربانية فذةً وواسعة المدى فيما بين قراراتها والجوابات، هى باسم الله ما شاء الله أصلح ما تكون حناجر التغنى لحمل ضراعات التهجد أو رسائل الذاكرين المجذوبين وشكاوى المعذبين فى الأرض.

والذى لاشك فيه أن السامعين إذ يسمعونه يربطون فورا بين «نقشبنديته» وبين هيامه النغمى بما انبثّ فيه من تجاورٍ محمود لعرْقيْن أصيلين، عرقٍ من خشية الله، والآخر من رجاء الخلاص وأمل «المدد» من رب العباد. ولهذا كله رشحته وترشحه


الشيخ النقشبندى

أذواق الأرواح وأشواق التعبّد أن يكون قاسما مشتركا أعظم فى إذاعاتنا الرمضانية كلها على نحو خاص، وصباحا أو مساء، ولتعطير الأثير فى أجوائنا بالتسابيح المنغومة.

إن لنا أن نبادر هنا فننظر فى لحنين من تسابيحه الباهرة فى انتاجيات سنة ١٩٨٧، لأنهما يستلهمان مأثوراتنا الشعبية فى مجالات الذكْر الصوفى بإيقاعياته المجذوبة والجاذبة، وبما يرفرف على السطح العلوى للأداء من لعلعات وجلجلات بترنم المنشدين السادرين فى غيبويات المواجد، وفى طلب الرًّجاوات من غياث المستغيثين. وبادىء البدء، سيدهش القراء أن لحنا منهما مشهورا ورائجا قد صاغ أنغامه - وكلماته أيضا!! - الموسيقار المرحوم أحمد فؤاد حسن صاحب الفرقة الماسية المعروفة، وأن اللحن الثانى الملحف فى طلب الرضا والمدد الالهى لمصر وشقيقاتها قد صاغ لحنه الموسيقار المتمكن، والمجذوب قطعا!!، حلمى أمين نقيب الموسيقيين الحالى من بعد ما صاغ له نظمه الشاعر المتبتل عبدالسلام أمين. إن ناى الصبابة هو الذى يفتتح اللحن الأول ويفسح الطريق لسماع نقرات من ايقاع حلقات الذكر، فتتلوها انطلاقه «نقشبندية» تندفع بعزم ما فيها من صوفية الوجد الساخن لتنادى على رب العزة والجبروت «يا... .... رب»، ومن ثم، تهرول جماعة الانشاد الكورالى - وقد مسها طائف من كهرباء الانجذاب - فتستمسك دائما بوحدة الايقاع المتواصل ومن عمق القرارات الخاشعة الضارعة فى توقيع لفظ الربوية: «يارب، يارب، يارب..»، ولحظتها فورا يصعدُ أداء النقشبندىّ إلى سطح تركيبة الصياغة لينشد من الأعالى: «ياربِّ كرمك علينا ... يارب نصرك معانا» ويظلّ سادراً . دائراً فى فلك هذا الإنشاد بكل ما وسعه الوجد، وجاءه المدد من فيوض العاطى الوهاب بكل ما لذ وطاب!!

وأما عند اللحن الثانى فهو فى تصوّرى التماس على «عرضحال» من النغم الصوفى يلتمس من رب السموات والأرضين أن يبدّل عُسْر كلّ الساحة العربية يسراً وتآزراً

وتوفيقاً ونصراً بحق كل هذه التضرعات النقشبندية:

رباه أرفع مــقــتك عنا واقــبلنا وتقــبل منا
فلوجــه وجُــودك أسْلمنا وبفــضلك أحــسنّا الظن
وهرعنا نرجــو غــفــرانك
وفــقنا للعــمل الصــالح واعــصــمنا من قــولٍ جــارح
وامنحنا القــدرة لنســامح ونرد هوى النفس الجــامح
ونؤوب لظلك ، ســبــحــانك
حــقق غــيــاتنا المرجــوه واجــمــعنا فى أوثق عــروه
يَرْبِـطُـنا دينٌ وأخـــــوه وامنحنا العــزة والقـــوة
لنصــدّ ونســحق من خــانك
نهــرع لك فى الليل الحــالك ندعــوك بعــزك وجــلالك
نصـــراً لجنودك ورجـــالك فــامنحــهم عــزك وأمــانك
ســبحــانك مــا أعظم شــأنك
.... إلخ

إن روعة الإيقاع هنا ستتمثل فى استلهام المأثور، وفى أنها تتقوّم بمكررات مجذوبة وجذّابة تستمر فتقول: «سبحانك، سبحانك، سبحانك» ، ومن مبتدأ المقطوعة إلى ختامها، والأكثر روعة، هو ثبوت التغيير فى ألوان المقامات وفى «تمبو» الإيقاع مع أىّ من مقتضيات المعنى والدلالات، سواء بالانفراد فى الاداء أو باستجابات الكورال والأقوم تفنننا من هذا وذاك، هو لعلعات الإنشاد النقشبندى فى رونق من الترنم الصّادح ومن الأعالى فى سرده لضراعات «العرضحال» أمام بوابات السماء!! ... وماذا أقول بعد ؟؟

إلا أن حسبى أننى طالبت فى هذه السطور بحصة القاسم المشترك الأعظم للنقشبندى – تينور التصوف الضارع – وفى كل برامج التعبد النغمى لشهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن ، ولأجل تعطير أجوائنا بالتسابيح الموسيقية.

● فرج العنترى

تعليم اليوم

هو قضية القرن ٢١
هل المشكلة نقص موارد تطويره ؟!

بقلم : محمد فتحى

عدة أعداد ومجلة «الهلال» تناقش قضية التعليم فى مصر، حتى أنها عدتها قضية عام ١٩٩٦ . والحقيقة أن الظروف العالمية والإقليمية والمحلية تجعل من التعليم فى مصر ليس قضية عام ١٩٩٦ وحده، بل قضية قضايا القرن الواحد والعشرين، ذلك أن تلميذ «نظام التعليم الذى نختاره اليوم» سيبدأ ممارسة عمله بعد حوالى عشرين سنة (٢٠١٥) ، وسيواصل العمل حتى سن المعاش (حتى عام ٢٠٥٥ ، وربما أكثر) أى أننا لن ندخل القرن القادم دخولا حقيقيا واعيا إلا إذا توافر لنا نظام تعليمى يتناسب مع هذا القرن. فهل يمكن أن تتوافر لنا فرصة ديمقراطية لتحديث التعليم؟

إن اتاحة فرصة التعليم العصرى للجميع متيسرة، فى حدود الإمكانات المتوافرة، إذا تخلينا عن التفكير التقليدى وتحلينا ببعض السلوك الإبداعى.

فى واحد من أرقى معاهد الفيزياء فى عالمنا جلست لجنة قبول الدارسين الجدد تفحص أوراق المتقدمين قبل المقابلة الشخصية لكل منهم، وتختار وفق الأوراق من ترشحهم للقبول ومن ترشحهم للرفض، وضمت الى قائمة المرفوضين كل الحاصلين على الدرجات النهائية فى الفيزياء ، رغم أن المهمة الأولى للمعهد هى تخريج الكوادر التى ستطور علم الفيزياء!

ولم يكن ذلك بالأمر الغريب فالمعروف

أن عددا من معاهد الفيزياء الحديثة توصى طلابها أول يوم فى الدراسة بأن ينسوا الفيزياء التى درسوها فى المدرسة، بل وهناك معاهد تفضل أن تريح نفسها من البداية وترفض قبول الطلاب الحاصلين على الدرجات النهائية فى الفيزياء التقليدية . وحجة القائمين عليها فى ذلك أنه من العسير على هؤلاء استيعاب عالم الفيزياء الحديثة استيعابا إبداعيا.

وهذا ليس ادعاء، فقد وقف بوانكاريه على باب النظرية النسبية دون أن يجرؤ على الولوج منه. لأنه لا يتفق مع المسلمات الفيزيائية التى كانت شائعة فى عصره، والتى كان قد استوعبها جيدا. بينما كان عدم تمكن هذه المسلمات من أنشتين بين أسباب اكتشافه ولم تكن هذه مشكلة بوانكاريه وحده، فقد رفضت جهات علمية محترمة جدا النسبية فى حينه، ولم يكن ذلك قدر النسبية وحدها، إذ أنه تكرر مع كل اكتشاف عظيم من الوراثة وحتى الخروج الى الفضاء . ولعل القارىء يسأل ما علاقة ذلك بالتعليم فى مصر؟ .

إن نموذج الحاصل على الدرجة النهائية ، المرفوض لعدم قدرته على الإبداع. هو النموذج الذى يحتفى به نظام التعليم المصرى ويتبناه من مراحله الأولى وحتى مراحله النهائية. ولعل العودة إلى عمل لجنة القبول فى معهد الفيزياء وما تدققه من أمور حتى تؤكد رفض أصحاب الدرجات النهائية او تغير وجهة نظرها المبدئية وتقبلهم، لعل هذه العودة تكشف لنا بعض عيوب التعليم المصرى.

أول ما تدققه لجنة القبول هو نظرة الطالب الى الفيزياء - والعلم بصفة عامة - هل هى معارف مقدسة منتهية، أو كيان حى فى تطور مستمر، وفى كل أنظمة التعليم الراقية لابد أن يصل للتلميذ بشكل من الاشكال حس التطور المستمر فى المعرفة، والثورات الكبرى التى حدثت فى إطار كل علم، بل والمخاض الصعب الذى صاحب هذه الثورات والمعارضة الشرسة لها التى بدت طويلا وكأنها على حق و ..

● التعليم والحب

والعامل الثانى الذى تدققه اللجنة هو علاقة الطالب بواقع الفيزياء وليس بكتبها، ذلك أنه ليس هناك قيمة إبداعية لتعليم لا يدخل فى جدل مع الواقع، ومع العواطف النابعة من العلاقة به . وليس هناك مثال لايضاح ذلك أقرب إلى وجدان المصريين من السبيل الذى اتبع فى هدم الساتر الترابى على ضفة قناة السويس فى حرب ١٩٧٣، إذ استفاد أحد الجنود المصريين من تجربة تعلمها قبل ذلك خلال عملية تجريف الصخور بالمياه (ذات الضغط العالى) أثناء بناء السد العالى، ومن الهم والخبرة تولدت فكرة الحل الابداعى الذى أصاب الكثيرين بالذهول.

فتدقيق العلاقة بواقع الفيزياء ينطوى على اختبار مدى حب الفيزياء، بل والهوس

بها، فلا يمكن أن يكون هناك ابداع دون حب. فالمصرى الذى أبدع طريقة إزالة السد الترابى كان مهموما بهذا المأزق . أى أنه كان يحب حبا حقيقيا ملك عليه نفسه.

ولا بأس من مثال آخر يكشف سحر الحب والهم الذى يخرج من العادى بالمذهل ففى فجر اختراع الطيران كان هناك مأخذ يصيب هذا الاختراع الحضارى الفذ فى مقتل. هو أن الطائرة سرعان ما تهوى وتتحطم بمن فيها عندما يصيب أهون خلل، آيا من أجهزتها . ويومها كان واحد من الرواد المبتكرين لأجهزة الطيران يمضى مهموما بهذه المشكلة . فى طريقه لمشاهدة أحد استعراضات الإقلاع والتحليق والهبوط فيما يشبه ملعب كرة القدم (كان الطيران مازال مغامرة واستعراضا وفرجة) ومع كل القلق الذى يحسه على الطيارين والهم الذى ينوء به، طالعه وجه متفرج بعين واحدة (أعور) . وللتو برقت فى ذهنه المحب المهموم الفكرة «العبقرية» لماذا لا تكون كل الأجهزة الحساسة فى الطائرة مزدوجة، كما هى الحال بالنسبة لعينى الإنسان بحيث يدخل الجهاز البديل فى العمل حال أن يصاب الجهاز الأساسى بالعطب. وكانت هذه هى الفكرة التى فتحت الباب لتحول الطيران من مغامرة غير محمودة العواقب، الى ثورة حضارية حقيقية. إذ جعلت منه عملية تتمتع بضمانات أمان لا تقل عما يتوافر لغيره من وسائل النقل.

وليعذر لى القارىء الإسهاب فى هذه النقطة لأنها تتصل بعيب أصاب نظام التعليم المصرى فى مقتل، هو ما يفرضه هذا النظام من إكمال المرء تعليمه فى نفس واحد، العالى بعد الثانوى، دون أدنى فرصة لاستئناف التعليم، بعد فترة توقف لأى سبب كان، الامر الذى يؤدى الى تعلق الجميع باهداب «قطار التعليم الطوالى» حتى دون أن تتواءم وجهته مع ميولهم الحقيقية. فناهيك عن معمعة المجموع والتنسيق، اين الفرصة لمن شغلته الشهادات والدروس الخصوصية. ولم يصل للعشرين بعد. فى ان يكتشف ميله الحقيقى. وعلى مهل وبالتجربة، وبصورة تجعله محبا مهموما و..

وفى كل الأنظمة التعليمية المتقدمة ليست هناك قيود على عودة من قطعوا رحلة تعليمهم بل ان فترة العمل تحسب لصالحهم عند القبول مجددا فى التعليم العالى، لانه ينظر لذلك فى إطار النضج العام للفرد، وتزيد فرص هؤلاء ان كانوا قد احتكوا خلال تجربة عملهم بالمجالات التى يسعون لإكمال دراستهم فيها. بل وتقدم لهم التسهيلات والإغراءات من

منطلق ضرورة الارتباط بالواقع الذى سبق الاشارة اليه. وحتى فيما يخص قطاع من يكملون تعليمهم دون توقف تنظم المعاهد العليا المعنية لهم دورات خاصة تعرفهم على طبيعة المجال الذى يريدون اختياره الى جوار الفترات التى تفتح فيها ابواب هذه المعاهد امام غير الدارسين للاحتكاك بالدراسة والاساتذة والدارسين حتى تجرى اختيارات الراغبين على اسس اكثر معرفة وواقعية.

ولعل الأخطر فى نظام التعليم المصرى أن الرغبة فى عدم فوات قطار التعليم الطوالى تؤدى الى سلسلة من التداعيات الشاذة، فمن التزاحم (المشروع بالطبع) الى قضاء غالبية الطلاب لسنوات التطلع والتكوين فى حالة من العطالة المقنعة، تحت وهم التعلم، وإلى أزمة فرص العمل بل وطبيعة العمل ذاته، لانه فى هذا الاطار يكون مرحلة مبتوتة الصلة تماما بما قبلها على احسن تقدير (ذلك ان للعطالة تأثيراً مدمراً يكتسبه الإنسان ويظل يتحكم بتوجهاته فيما بعد . مكرسا سلسلة هدر الامكانات) والى..

وقبل ان انتقل للحديث عن فرصة التعليم المصرى فى النهوض لا بأس من ان نعرج على مجموعة من المشاهد. الأول يخص بعض العوامل التى تدققها لجنة القبول للتأكد من قدرة الطالب على الابداع، وان كنا سنمر عليها سريعا لاعتبارات المساحة ولاننا سنفصل بعضها فيما بعد.

وأول هذه العوامل التحقق من موقف الطالب فيما يخص لغته الأصلية، وغيرها من اللغات الاجنبية، وموقف الطالب من الأدب والشعر - رغم ان المطلوب هو الالتحاق بمعهد الفيزياء - لما لهما من قدرة على تنمية القدرات الابداعية، فكل النظم التعليمية الراقية تحرص على ان يدرس كل الطلاب العلوم الإنسانية والأدب والشعر، ولكن ليس كل أدب وشعر، فكثير مما هو شائع لدينا فى هذا الباب مسجون فى قطعيات وقبليات وسلفيات، تقتل كل قدرة له على الحث الابداعى.

● اطفال يتفوقون علي مربيهم

أما المشهد الثانى الذى نود ان نعرض له هنا فهو من الولايات المتحدة الأمريكية. فقبل ١٠ سنوات كان فى المدارس الأمريكية كمبيوتر واحد لكل ٢٥ تلميذا . لكن عدد الأجهزة صار فى عام ١٩٩٤ واحدا لكل ١٢ تلميذا (غير الأجهزة الخاصة الموجودة فى البيوت). ومع ذلك لم تنته مشكلة الأمريكيين مع عصر المعلومات ذلك ان التطور التقنى مستمر على نحو عاصف . ولم يعد المهم ان يجلس الطفل الى جهاز كمبيوتر بكل المناهل المعرفية التى تتيحها برامجه وهى جد هائلة، وإنما

الآفاق التى تتجاوز الامكانات الذاتية للجهاز وبرامجه. الآفاق التى يمكن ان يصله الكمبيوتر بها. وتفتح امامه بانوراما المعرفة الانسانية عن طريق الارتباط بشبكات الاتصال العالمية، التى تنتشر هذه الايام بسرعة البرق. وتعرف بـ «طرق المعلومات السريعة».

و ١٥٪ من التلاميذ الأمريكيين باتوا عن اتصال بشبكة «إنترنت»، التى تطوى بين جوانحها كل الشبكات العالمية . ومن خلالها صار بامكانهم القيام بزيارة كاملة لمتحف اللوفر فى باريس والآرمتياج فى بطرسبرج ومحمود خليل فى القاهرة - وغيرهم طبعا - وهم جلوس فى منازلهم، والاتصال بالمكتبات الأوربية الكبيرة وبنوك المعلومات اليابانية والثرثرة مع الخبراء والنجوم و.. فى كافة المجالات وفى مختلف انحاء العالم المتمدين.

وهكذا لم يعد الشعار الشعبى فى المدارس الأمريكية هذه الأيام «دجاجة فى كل وعاء» ولا حتى «جهاز كمبيوتر على كل مكتب» بل «توصيل كل جهاز كمبيوتر بالشبكة العالمية» وليس هناك من يستطيع التنبؤ بما سيؤدى اليه تربية أطفال على هذا النحو . يتفوقون بما لايقاس على مربيهم : أهلهم ومدرسيهم و..

وليعذرنى القاوىء على هذا المشهد الأمريكى الذى لا قبل لنا به، لأن عالم الغد هو عالم القرية الواحدة الذى سيتعامل فيه مواطننا المصرى تعاملا مباشرا مع هذا الطفل الأمريكى وأمثاله من أطفال العالم المتقدم.

●ديمقراطية مناهل المعرفة

والمشهد الاخير يخص ديمقراطية التعليم. وهى ليست مسألة أخلاقية فكل المجتمعات الواعية لمستقبلها تعمل على إتاحة ذلك. ويكفى فى هذا الصدد الاشارة الى ان عملية اكتساب وتطوير المعرفة، التى صنعت التجربة اليابانية، تبدأ بالتعليم الالزامى فى المدارس التى تشرف عليها الدولة، وفى اطار تكافؤ تام للفرص تسقط الحواجز الاجتماعية، ويتيح امكانات التقدم امام الجميع. مما يؤدى الى الاستفادة من افضل العناصر البشرية دون تمييز ، ويستمر هذا التكافؤ فى الفرص حتى المراحل الدراسية المتقدمة، فالمعاهد العليا مفتوحة هى الاخرى دون حواجز اجتماعية وذلك تطبيقا لما يشيع فى العلوم التربوية الحديثة من ان عدم تكافؤ الفرص بين كل أفراد المجتمع فى هذا الصدد ليس الا اعادة لانتاج الظلم الاجتماعى والتخلف الحضارى.

بل ان الصيحات ترتفع فى الولايات المتحدة الامريكية محذرة من مخاطر مساهمة التطورات الاخيرة فى زيادة

الهوة بين الفقراء والاغنياء. لان الأسر القادرة هى التى تستطيع ان تؤمن لأبنائها التعامل مع الشبكات الكمبيوترية، اما بتوفير الامكانات لهم فى المنزل، واما بالحاقهم بمدارس غنية تيسر لهم ذلك.

● المدرسة والجامعة التليفزيونية

بعد هذه المقدمات تكون الأرضية قد مهدت لبيان كيف يمكن ان تكون اتاحة فرصة التعليم العصرى للجميع فى مصر متيسرة فى حدود الامكانات المتوافرة، إذا تخلينا عن التفكير التقليدى وتحلينا ببعض السلوك الإبداعى.

إن الحل الذى نراه لتجاوز الوضع الحالى هو الاعتماد على التلفاز، صحيح ان الناس تعودوا على تحذيرات الدارسين من تأثيره الضار عليهم وعلى أولادهم وعلى وقتهم واستيعابهم . بل وعلى صحتهم وصحة سعادتهم الاسرية، ناهيك عن البساط الذى يسحبه من تحت اقدام ما يرقيهم من انشطة كالقراءة و ..

لكن هذه صورة مغلوطة تماما، لان التلفاز يمكن ان يكون اعظم وسيلة للتأثير على جميع جوانب الحياة، ولان دوره ينمو باطراد . وقد ادركت تجمعات بشرية كثيرة ذلك فصارت توظف التلفاز فى ترقية مشاهديه والأخذ بيدهم.

فأغلب المدارس والجامعات التى نتداول الحديث عنها حاليا. «دقة قديم» بينما المدارس والجامعات الحديثة هى مدارس وجامعات تلفازية تذيع مناهجها على الهواء. وتوفر على الدارسين كثيرا، لانها تتيح لهم أرقى المضامين والوسائل التعليمية باكثر الأدوات ابهارا، وتجسد هذه الوسائل والمضامين على مدار اليوم. دون ان تكبد الطالب عناء الزحام فى المواصلات والشوارع والفصول والمدرجات، و ..

وكلنا يعرف كيف يتبارى الناس على الحاق اولادهم بالمدارس النموذجية وبفصول المتفوقين فيها على وجه التحديد، والتليفزيون لا يمكننا من جعل مصر كلها فصلا للمتفوقين فقط، ولا من القضاء على الدروس الخصوصية ـ الآفة التى تكاد تغتال العملية التعليمية برمتها لانها تجعل الكثير من المدرسين يتخلون عن واجباتهم الأصلية ـ فقط. وانما تساعدنا على اتاحة فرصة التعليم للجميع، وبالتالى اشاعة ديمقراطية حقيقية فى نظام التعليم، هذا كما ان هذه المؤسسة التليفزيونية تساعدنا على ما يمكن ان نسميه التعليم العلاجى او التكميلى للمتخصصين الذين تخرجوا بتعليم تجاوزه واقع تطور المعارف كثيرا. وللمدرسين الذين تسابقهم المعرفة، ذلك بالاضافة الى العمل على حث الابداع وحفزه ؟ .

إن الرغبة فى مواصلة التعليم والترقى

المعرفى رغبة مشروعة وضرورية فى عصرنا، وينبغى تلبيتها على اوسع نطاق مع الخروج من دائرة الهدر الجهنمية، بالذات وقد قدم العصر حلولا ناجعة، لذلك. تتمثل فى المدارس والجامعات التليفزيونية الحرة التى تقبل آى راغب فى الالتحاق بها بصرف النظر عن اعتبارات السن او تاريخ الحصول على شهادة ما او.. التى توفر خدماتها حتى نيل درجة الدكتوراه، برسوم رمزية ذلك ان تكلفة التعليم فيها لا تتجاوز ٢٠٪ من مثيلاتها فى المؤسسات التعليمية العادية، وتقل هذه التكلفة كلما زاد عدد الطلاب، لان الجزء الاكبر منها يذهب الى اعداد المقررات.

وجدير بالذكر ان الوقت الذى ينفقه طالب المؤسسات التعليمية التليفزيونية فى الدرس والبحث يقل كثيرا عن الوقت الذى يقضيه الطالب العادى فى المواصلات وان جامعتها ارقى من الجامعة التقليدية . اذ يسهل نتيجة لمركزيتها ان تعكس على نحو اكبر اهم سمات التعليم الجامعى الابداعى مثل حث الميل الى البحث الذاتى والاعتماد على النفس، والارتباط بمشاكل الواقع الدارسون فيها يرتبطون بمجالات عمل مختلفة، كما أن ظروفها: من اتساع القاعدة والمركزية ومرونة امكانات التطوير تتيح فرصة تحديث المقررات باستمرار للالتزام بأرقى المستويات، ذلك مع توافر الرقابة الاجتماعية عليها (تذاع مقرراتها) على الهواء هذا كما تتيح المركزية الاستفادة من الاساتذة اصحاب القدرات المتميزة ورفع عبء الاعمال التكرارية عن الأساتذة عامة، وكل ذلك يجعل العملية التعليمية فيها أرقى من وجهة النظر الابداعية.

هذا كما يمكن جعل المؤسسة التعليمية التليفزيوية اداة ناجعة لاشاعة اللغة العربية بوصفها اداة تنظيم الوعى. لان عدم اجادة استخدام هذه الاداة يعرقل كثيرا من قدرة المرء على التعبير وبالتالى على التفكير، وهذه قضية بالغة الاهمية، لان ما تتعرض له اللغة العربية يكاد يجرنا الى كارثة واسعة الأصداء لكن ذلك لا يعنى عدم الاهتدام باجادة اللغات الاجنبية فقد صار من البلاهة، التى تنال كثيرا من المرء نفسه الاعتقاد فى امكان تجاهل متابعة النتاج المعرفى العالمى، ويجدر بالذكر فى هذا الصدد انه رغم اعتزاز البلدان المتقدمة بلغاتها وغيرتها عليها، فقد باتت هذه اللغات تعرف قواميس ضخمة للكلمات الاجنبية التى دخلتها، وجزء كبير منها ينتمى الى مجال العلوم الحديثة.

ومن المهم ان نذكر فى هذا الصدد ان المؤسسة التعليمية التليفزيونية ستجعل المدرسة الراقية والجامعة الراقية تصل الى

المناطق الريفية والمعزولة والنائية من البلاد، بل والى التلاميذ ذوى الظروف الخاصة (المرضى مثلا). كما انها ستقلل من اعتماد نظم التعليم على الأداء المتواضع لكثير من المدرسين وتقضى على شكاوى العجز فى اعدادهم بفتح وكسر العين على حد سواء.

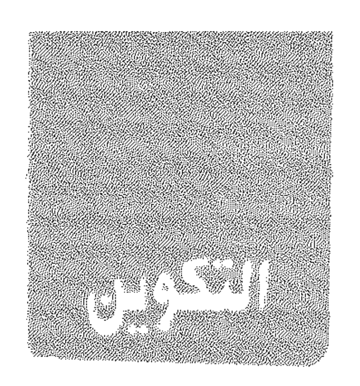
وقد انتشر التعليم التلفازى من هذا المنطلق فى بلدان كثيرة من بريطانيا الى الصين كما دفع ذلك التوجه عددا من البلدان النامية الى توظيف استثمارات هائلة فى مجال الاتصالات فعلى سبيل المثال تسعى الهند الى ربط مناطقها الريفية بشبكة اتصالات هائلة تكرس لها حوالى ثمانية بلايين دولار، ادراكا منها للدفعة التى ستقدمها الشبكة الجديدة للتعليم والتقدم، وتحلم نيودلهى بان تربط بين ٥٧٦ الف قرية خلال ثلاث سنوات. فى اطار خطة تحديث تتجاوز كثيرا ما نطالب به. وتقف بالهند على مشارف طريق المعلومات السريع .

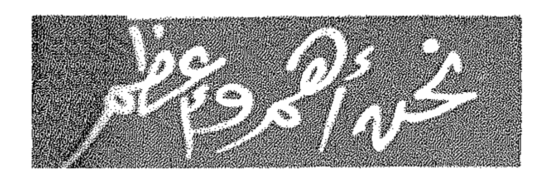
● الامكانات متيسرة

بقيت اشارة الى ان الخبرات العالمية (والمحلية) الخاصة بمواد مثل هذه المؤسسات التعليمية وفيرة ومتاحة كما ان مقتنياتها التقنية لا تعز علينا . فالجامعة الحرة البريطانية مثلا، تعتمد وهى اعرق الجامعات الحرة على ٥٠٠ ساعة من ارسال الاذاعة ومثلها من ارسال التليفزيون طوال العام الدراسى الواحد.

والمسالة ليست غريبة علينا تماما فلدينا نواة البرامج التعليمية ولدينا نواة برامج الجامعة الحرة. ويمكن ان نقوم على تجميعها وتطويرها جميعا بحيث تؤدى الغرض الجديد الذى نضعه نصب اعيننا اى انه لا ينقصنا فى هذا الصدد الا تحديد الفلسفة والهدف والمنهج ثم العمل الواعى المتقن، على نحو متواصل هذا كما ان لدينا ١٣٤ ساعة ارسال تليفزيونى يومي. ومثل هذه المؤسسة لا تحتاج الا الى ٨ ساعات يوميا.

ان ذلك كله يجعلنا ننظر الى انشاء مثل هذه المؤسسة التعليمية كقضية امن قومى من الدرجة الاولى، يجب ان تحظى بالأولوية الفورية المطلقة ولان القضية فى هذه العجالة ليست اصلاح نظام التعليم المصرى فقط، بل كيف يساعد هذا النظام على خلق العقل الناضج المتفتح القادر على رؤية مالا يعتقد فيه. وعلى الحوار والتطور واستيعاب ما يحيط به من حقائق ، وذلك بدلا من تعليم التلقين والحفظ والمحاضرات والاملاء والترديد الذى لا يربى فكرا، ويرسخ من صنع المتعصبين المرددين ذوى الافق المحدود الذين يخاصمون روح التغيير والابداع.





محمد عودة

دفع مبدئي

ليست هذه هى المرة الأولى التى يطلب إلىّ فيها أن أكتب شيئا عن حياتي و « تكوينى » وكنت أتخلص وأعتذر دائما ، وأتذرع بأن القصة لم تتم فصولا ، وأن الليالى لازالت «حبالى» وأن مصر بلد المفاجآت والمتناقضات كما قال هيرودوت ، وأنها «لا تؤتمن» ، كما كان يقول البريطانيون ، ولكن الطلب والحوار لم ينقطع وكان من أكثر الناس إلحاحا صديق قديم ورفيق طريق مخضرم كان يقول لى منفعلا :

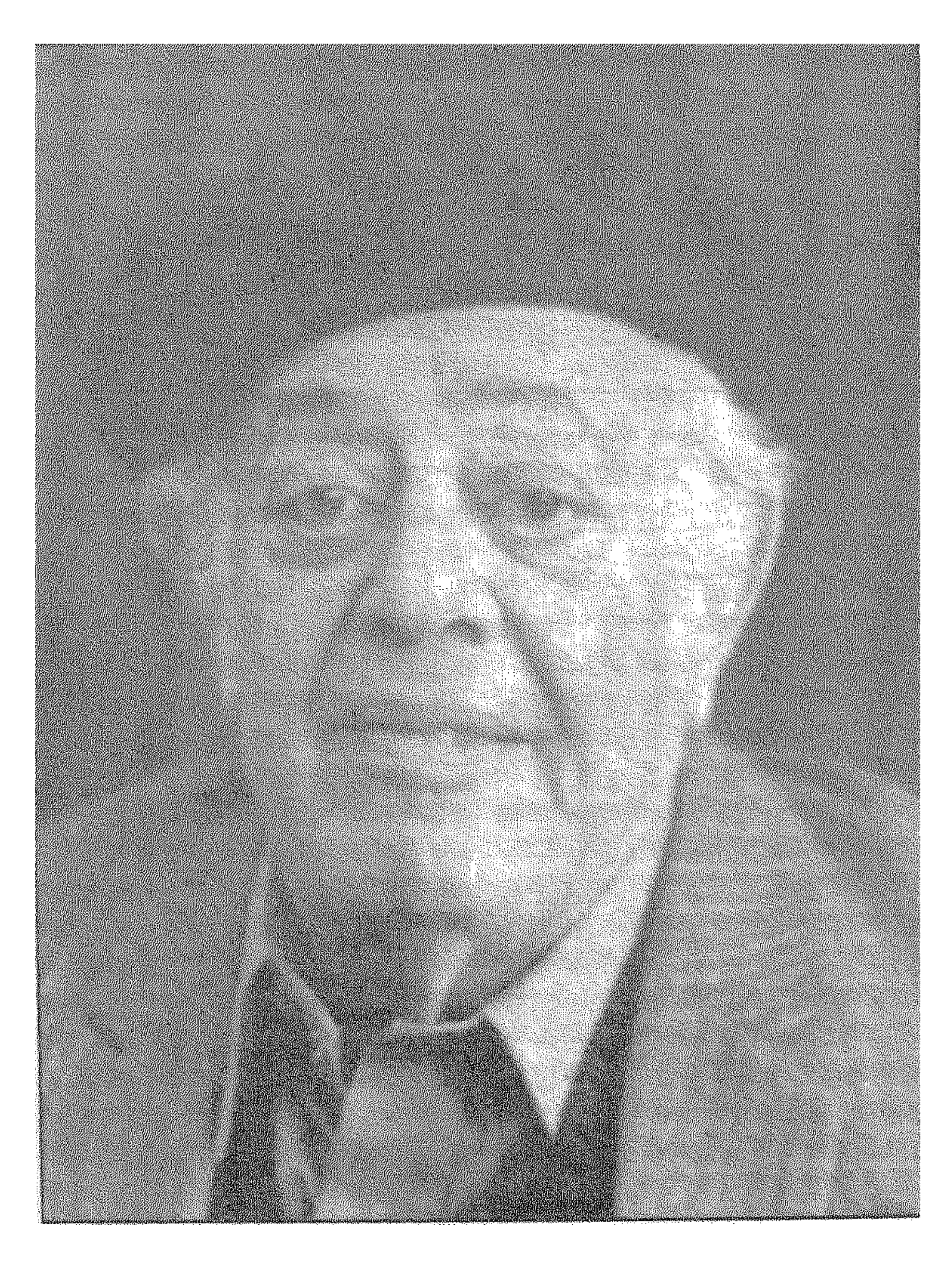
- « هذا التزام وواجب لا يمكن أن نتخلى عنه .. ولا نريد سيرة ذاتية أو الحياة الشخصية ، ولكن قصة حياة الجيل ، نحن أهم وأعظم جيل أنجبته مصر الحديثة ونواجه جيلا جاحدا ضائعا جاهلا يرفضنا ويريد أن ينكر علينا كل ما أنجزناه .. جيلنا هو الذى حسم كل القضايا الجوهرية التى ظلت معلقة ربما منذ بدأنا تاريخنا الحديث ، نحن الذين حسمنا القضية الوطنية وأجهزنا على الامبراطورية البريطانية ، وعلى الامبريالية الأوربية ، وأغرقناها فى خليج السويس .

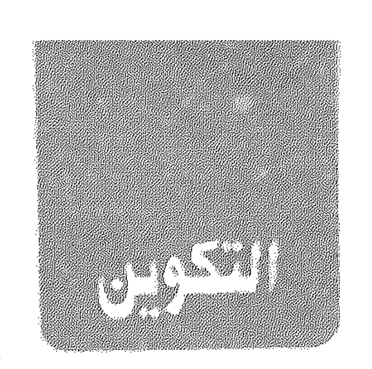
ونحن الذين حسمنا القضية الاجتماعية وقوضنا دعائم الاستغلال وانتهينا إلى الاشتراكية أرقي صور الكفاية والعدالة ، وأقمنا أساسا صلبا لن يخترقه أحد مهما فعل

ونحن الذين حسمنا قضية الهوية ، وأننا طليعة وقيادة أمة عريقة ذات عقيدة وحضارة وتاريخ وتراث وأنها تحتل مكانا رئيسيا علي خريطة العصر والعالم ولها دور لابد أن تقوم به .

وكنت أقول له دائما :

جيل أنجبته مصر الحديثة..

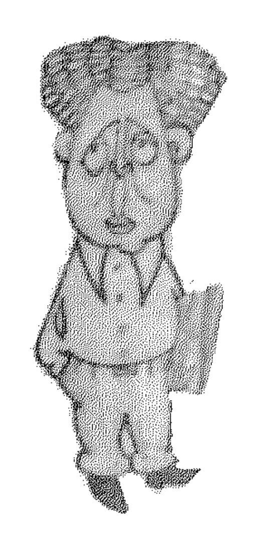




وكان يرد :

– ومن الذى يمكن أن ينصف الذين فكروا ودبروا وخاطروا والذين قاتلوا واستشهدوا ، ثم المجهولين الذين لا يذكرهم أحد ، ثم الذين خانوا وارتدوا وانقلبوا على أعقابهم .. من الذى يفضحهم ، على الأقل نأخذ المبادرة ونبدأ .

وأرد ثانية : هذا أقوى مما أستطيعه ، ويعيد : هل تذكر حينما فرغت من قراءة رواية « الحرب والسلام » لتولستوى فى سجن أسيوط وقلت لى إن الأدب المصرى لن يعنى شيئا إذا لم يتمخض عن رواية مثل هذه وأنك تحلم بأن تحقق هذا الإنجاز، هل هناك وقت أصلح من الآن ؟!



● أنا شرقاوى ،

وكنت أستجيب الضغوط ثم أعدل .. وأجد المبررات واحدا بعد الآخر ، لم أستقر من أين أبدأ وكيف أبدأ ، لم أكن أريد أن أكتب قصة حياة تقليدية « أنا محمد عبد الفتاح متولى عودة من مواليد قرية جهينة مركز فاقوس شرقية ، وكان أبى الشيخ عبد الفتاح طالب علم بالأزهر، تزوج من أمى من أسرة طيبة وقد فضلته على من تقدموا لها ، لمكانة طالب العلم فى الأزهر فى الريف .

وقد تلقيت تعليمى فى كتاب القرية مع باقى الأطفال وحفظت جزء عم عن ظهر قلب ، وكذلك جدول الضرب ، وأجدت القراءة والكتابة على اللوح الاردواز !

وانتقلنا للحياة فى القاهرة لكى يواصل أبى دراسته ، ويحصل على الشهادة العالمية ، ويصبح « عالما » ولكي أستكمل دراستى فى إحدى مدارس العاصمة ، وليس فى مدرسة فاقوس الابتدائية التى درس بها معظم أقاربى وبلدياتى ، والتى أنشأها المدير محمود باشا يونس وافتتحها الجناب الخديوى .. وأنجبت كثيرا من أبناء المركز» .

لم أكن أريد أن أبدأ القصة على هذا النسق ، وقررت أن أبدأ منذ اليوم الأول التاريخى للالتحاق بالمدرسة التى وقع عليها الاختيار وهى مدرسة « خليل أغا » الابتدائية بحى الحسين الذى أقمنا فيه .

وقد بدأ الإعداد للمدرسة مبكرا قبل

حوالى أسبوعين ، وصحبت أبى الى محل « تيرنج » الشهير بميدان العتبة لانتقاء البدلة والحذاء ذى الرقبة ، وكانت أمى حريصة على أن أفتتح حياة المدرسة فى أتم هيئة وأحسن من أولاد مصر !

● اليوم الموعود

وفى اليوم الموعود ، صليت الفجر مع أبى فى مسجد الحسين ، وتناولنا الإفطار فى مطعم « الحلوجى » الشهير ، وروى لى القصة التى سمعتها بعدئذ كلما تكرر الأفطار فى المحل وهى أن صاحبه كان يعد كل يوم طبقا من الفول المدمس « المقشر » ويحمله بنفسه إلى « سعد باشا » ليفطر به ، وروى أيضا قصة « خليل أغا » منشىء المدرسة ، وأنه كان كبير الأغوات للوالدة باشا فى قصر الخديوى اسماعيل وأنه حقق مكانة ونفوذا لم يستمتع به أغا آخر ، وأنه كان مستشارا محل ثقة الخديوى ، وكان محبا للعلم والتعليم مثل مولاه .

وكنا قد وجدنا مسكنا فى عمارة فى الحى تملكها أسرة طيبة ومعروفة ومن أصحاب المطاعم الشعبية وأصبحنا فى وقت قصير أعضاء من أسرة كبيرة متآلفة من كل الجيران ، وكانوا يتبادلون الزيارات ، والخروج معا لزيارة الأولياء ويتهادون بأطباق الطعام المتميزة خاصة فى رمضان والأعياد ، وتوثقت العلاقات معنا خاصة ، وكان أبى مرجعا فى أمور الدين ، ثم بدأ مشروع خطبة قريب لنا وسيم وموظف حكومة لإحدى بنات « أصحاب البيت » بل وأعدت أمى مشروعا طويل المدى لزواجى من إحدى الحفيدات ، وكانت العلاقات بين أولاد وبنات السكان تماما مثل العلاقات مع الأهل !!

وعدلت عن هذه البداية ، لأنها سوف تكون أقرب إلى الحواديت وربما إلى « الحوليات » لا تعبر عن معنى أو مغزى .

● هدية من جلالة الملك

وقررت ذات مرة أن البداية المثلى هى يوم الحدث الكبير ، حينما اكتمل إحساسى بمكانتى المتميزة بين طلبة المدرسة ، وذلك بعد نقل المدرسة إلى شارع الملك فاروق ، وفى بناء فخم وعلى أحدث طراز ، وتقرر أن يفتتحه حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم فؤاد الأول ملك مصر ، وكانت صور متعددة قد علقت فى كل فصل ، وكل ركن فى المدرسة ، تبعث الهيبة والروع ، ووقع اختيار حضرة الناظر على شخصى لكى ألقى قصيدة الترحيب التى أعدها سيادته لتكون خاتمة الزيارة ، وبعد أن يتم الطواف بالمدرسة ، واستغرق الاستعداد والتدريب أسبوعين قبل الزيارة ، وكانت التكاليف باهظة علينا وأصرت أمى على أن أرتدى بدلة جديدة ، وذات بنطلون طويل لأول مرة بل وأن ألبس قميص حرير وكرافتة ، ولم يكن أبى مهتما أو متحمسا ولكنه استجاب وتولى أحد



أقاربى تدريبى على ربط « الكرافتة » ، وتم كل شىء على مايرام ، وسر جلالة الملك سرورا كبيرا بالقصيدة ، وحمل إلى الناظر هدية ثمينة ، كانت طاقم أدوات مكتب ، كتب عليها بخط جميل ، هدية من جلالة الملك المعظم فؤاد الأول الى الطالب النجيب .... ، وحملت الهدية فخورا ، وكانت أمى تفيض سعادة ، ولكن بدا أبى غير مكترث ، ولم أكن قد اكتشفت بعد أنه وفدى ، ولا يحفل بجلالة الملك وهديته مثل أمى ، وقد خرجت أمى باقتراح أن لابد من شراء مكتب أستذكر دروسى عليه وأمامى الهدية ، وكنت أستعمل منضدة الطعام للاستذكار .

وجاء جيراننا القدامى من حى الحسين لتهنئتنا ، وكنا قد انتقلنا الى بيت على مشارف العباسية قريب من المدرسة ، ولكن العلاقات بين الجيران كانت مختلفة تماما ، كلهم فى حالهم .. ولهذا لم تنقطع صلاتنا بجيراننا الأصليين !

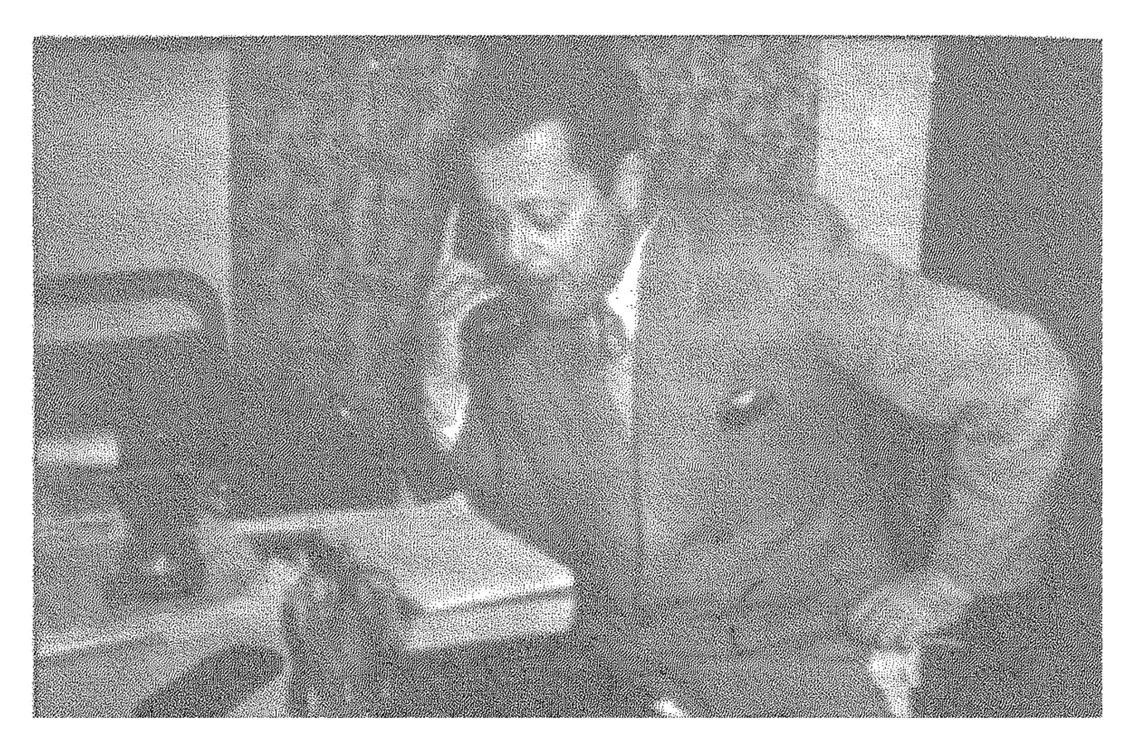
ولم ألبث أن عدلت عن هذه البداية لأن ترحيبى بجلالة الملك المعظم ليس أصلح البدايات ، وقد اتهم بالنشأة الرجعية !!

وقررت أن تكون البداية مثيرة وأن تكون أول علاقة « عاطفية » وقد كبرت الحفيدة الصغيرة التى كنا نلعب معا ، والتى اختارتها أمى وأصبحت صبية جميلة كاملة الأوصاف ، ومن ناحيتى نجحت فى الشهادة الابتدائية بتفوق كبير، وكنت من العشرة الأول على نطاق القطر ، والتحقت بالمدرسة السعيدية - إحدى المدارس المتميزة - وكانت أمى تلفت نظرى بلباقة إليها ، وكانت سنوات الاهتمام بالجنس الآخر قد بدأت ، وكانت أمى لا تترك فرصة إلا وتعدد ميزاتها ، جميلة ، مؤدبة، متعلمة ، بنت ناس ، وكان كل شىء يمكن أن يسير كما تشتهى لولا أنى بدأت أقرأ روايات المنفلوطى ، وتغيرت النظرة تماما، وبدأت أحلم بحب جارف أتبادل فيه الرسائل الملتهبة ، وأجلس تحت ظلال الزيزفون وأخوض الصعاب والمعارك على الطريقة المنفلوطية ، ولاحظت أمى انصرافى وعدم اكتراثى ، وبدا أنها متألمة، ولم أكن أحتمل ذلك ، وفى النهاية أنقذ الموقف ابن أحد كبار التجار الذى خطبها وتزوجها ، وانقطعت عن المدرسة ، وحضرنا الفرح مع أمى وأبى !

● طفولة سعيدة

وعثرت مرة أخرى على البداية الأفضل أصلح ما تكون لروح العصر ، وأن تكون يوم استيقظ « الوعى الطبقى » وبدأ « طريق الآلام » .

وكانت طفولتى ومرحلة الدراسة الأولى سعيدة كل السعادة ، لم يتخللها أى



كثيراً ما أجلس على المكتب للقراءة لوقت طويل

إحساس بالنقص ، وتغير الأمر فى المدرسة السعيدية .. كان الطلبة فريقين أقلية متعالية ، متباعدة عن الأغلبية ، كانوا يرتدون ملابس أنيقة يغيرونها باستمرار ، ولم يكونوا يتناولون طعام الغذاء مع الباقين فى «اليمكخانة» ويتناولون سندويتشات أحضروها معهم ، وكان ينتظرهم لدى خروجهم صف طويل من السيارات الفاخرة .

ولم يكن ذلك يعنينى فى البداية ، وإن كان يثير بعض العجب ، ولكن حدث أن كان معنا فى الفصل ابن رئيس الوزراء ، فى ذلك الحين ، وكان محور اهتمام كل المدرسين ، وكان محدود الذكاء وسمينا مترهلا ولا يحفل بالدروس ، وذات يوم استفاض مدرس العربى فى الشرح وحينما انتهى اتجه إليه قائلا : فهمت يا عادل بك ؟ وكأنه الطالب الوحيد فى الفصل ، ولا أدرى لماذا صدمتنى الكلمة وفجرت الغيظ والكراهية كما لم أشعر من قبل ، وظللت باقى اليوم لا ألتفت أو أتابع الدروس .

وفى اليوم التالى أحسست بكراهية شديدة للمدرسة والتلاميذ والمدرسين ، وقررت كما لم أفعل قط من قبل ، أن لا أذهب للمدرسة ، ودخلت حديقة الحيوانات المجاورة ثم تكرر ذلك الأمر ولاحظه بعض المدرسين الذين كانوا يضعوننى فى قائمة الطلبة « النجباء » خاصة مدرس اللغة الانجليزية وكان انجليزيا ، ومدرس اللغة



الفرنسية وكان فرنسيا أيضا ، وكنت مقبلا على اللغتين ، وكان المدرسان لا يميزان بين الطلبة !!

وذات يوم استدعانى الناظر ، وسألنى ما الذى حدث لى ، ولماذا أتغيب عن المدرسة ، ثم طلب إلىّ أن لا أعود إلا ومعى ولى أمرى ، ولم أستطع أن أخبر ولى أمرى « الحقيقى » وذهبت إلى أحد أقاربى الطيبين وذهبنا معا للناظر ، ولم أستطع أن أروى الحقيقة لأن حضرة الناظر كان على رأس المتحيزين ، وكان يتردد على الفصل أكثر من أى فصل آخر، وطلبت أن أنتقل إلى فصل آخر لأننى لا أتوافق مع باقى الطلبة ، وقبل الناظر ، وكان الحل الوحيد ولكن كان « الوعى الطبقى » قد رسب وبدأ يسيطر على تفكيرى ، خاصة وقد ساءت أحوالنا المالية، وكانت أمى تذكرنى دائما ، بأن لم يعد لدينا ما نعتمد عليه سوى « أنا » أملها الغالى .. والوحيد .

● أول درس فى الثورة !

وذات يوم استدعانى مدرس التاريخ وطلب إلىّ أن أعترف له بينى وبينه وكوالد لى عن سبب التغير والإهمال والكآبة التى تعتورنى ، ورويت له كل ما حدث ، وانفجر فى حماس وقال لى كل هؤلاء أولاد خونة ولصوص ، وسفاكى دماء وعملاء للاستعمار ، ولابد لك ولأمثالك أن يتعلموا وأن يتفوقوا وأن يخلصوا البلاد منهم ، وألقى علىّ درسا مفصلا فى تاريخ رئيس الوزراء « الأسود » وفى السياسة المصرية عامة وطلب إلى أن أوفر قرشا كل يوم وأشترى جريدة حزب الوفد ، وكان أول درس فى الثورة !

وعدت للدراسة بحماس ، وتفوقت فى اللغات العربية والانجليزية والفرنسية ، وفى التاريخ بالطبع ، واجتزت امتحان الكفاءة والبكالوريا القسم الأدبى ، وعزمت على أن ألتحق بكلية الآداب قسم التاريخ وأدرس تاريخ مصر وأساهم فى تصحيح مساره .. كما تعلمت من أستاذ التاريخ الذى لم ينقطع عن تشجيعى وارشادى كيف أقرأ الجرائد !!

ولم ألبث أن عدلت عن هذه الزاوية لسبب آخر مختلف .

لا أريد أن أكتب سيرة ميلودرامية أو سيرة مسلية ، ولكن أريد أن أكتب سيرة حقيقية واقعية على طريقة تشارلز ديكنز أو إميل زولا .. كل ما حدث مهما كان مرا أو ثقيلا أو قاسيا ، وتعلمت من قراءة قصص حياة بعض الأقطاب والمشاهير خاصة فى السياسة أو المال والأعمال ، أن يستبيحوا كل شىء للصعود، كل الذنوب ، والصغائر والكبائر، ثم يستأجرون كاتبا مرتزقا محترفا ، ينمق لهم تاريخ حياة

وقصة كفاح ، وقررت أن لا أفعل ذلك قط ، وقد قرأت ذات يوم قصة حياة الراقصة الأمريكية «ايزادورا دنكان» وظلت روايتها لقصة حياتها بصدق وصراحة وشجاعة مثلا أتمنى أن أحتذى به لو قدر لى أن أكتب .

● يوميات لن تتم !

وبدأت التجربة وأعددت كراسا وقررت أن أسجل فيه يومياتي كاملة لمدة شهر ، على سبيل التجربة .. ولكن بعد أسبوع واحد ، أدركت أنها مستحيلة ولو تحققت سوف أسبب ما لا احتمل من المشاكل والآلام وربما المآسى ، ولأشخاص أحبهم أو أكرههم ، وأن هناك أشياء لابد أن تدفن بعيدا أو تسدل عليها ستائر كثيفة !

وذات يوم جاءنى صديق عزيز يحمل مخطوطا قال إنه سيرة ذاتية لأحد أصدقائنا المشتركين يريد أن يعرف رأيى فيها ، وأعجبت بجرأته وشجاعته ، ولكن نفرت وتقززت من فصول أخرى وتغيرت صورته إلى الأسوأ ، وقررت أن أؤجل الكتابة ، وألا ضرورة لأن يضع الانسان نفسه عاريا أمام الناس ، وبكل ألوانها الأبيض والرمادى والغامق والأسود حالك السواد .

وتذكرت ما قاله لى يوما صديق إن فى كل فرد أكثر من شخصية ، وقال فرويد هناك النفس العليا ، النفس الوسطى ، وهناك الثالثة الدنيا السفلى ولابد لمن يكتب سيرة ذاتية أن يكتب ثلاث سير منفصلة مستقلة ، والصراع الدامى العاتى فيما بين الثلاث .

وأخيرا ، لم أستطع إلا أن أستجيب لطلب رئيس تحرير الهلال ، وهو صديق لا يرفض له طلب ولما كان المطلوب هو قصة « التكوين » ، ومقوماته ، فقد رأيت أن أقف عند بعض المحطات ونقط التحول ، وبلا ضرورة لرواية ما لا يروى !!

● حوار حول المستقبل

وقد حصلت على البكالوريا القسم الأدبى ، وبتفوق ، كان يسمح لى بالالتحاق مجانا بالجامعة ، ولكن بدأ الحوار حول المستقبل واختيار الكلية التى ألتحق بها ، واتجهت كل ميولى الى كلية الآداب ، ولكن ظهر من أشار بواقعية شديدة أن لا لزوم للجامعة وأن هناك معهداً جديداً يستغرق عامين ويخرج معاونين صحة وأن من الأفضل الالتحاق به لأساهم فى مسئولية الأسرة التى يصعب أن تواصل تكاليف الجامعة ، ورفضت أمي بحسم وحرارة ، وكان مثلها الأعلى والذى تذكرنى به دائما ،هو ابن أخيها الأكبر ، والذى واصل التعليم بمشقة وجلد، وبعد أن فقد أبوه ثروته الطائلة وبدد كل شيء والذى كافح حتى أصبح سفيرا فى الخارجية ، واستعاد بعض الثروة ، وكفل حياة محترمة لأبيه وأمه وشقيقته ، بل وزوجة ابيه ، الارستقراطية التى تشبثت بطريق حياتها كاملة ومن بينها تبنى أسرة كاملة من



الخدم السود الموروثين ، وأصرت أمى على كلية الحقوق التى يتخرج فيها الوزراء والسفراء .. وانحاز أبى الى نفس الرأى ، ولكن بسبب آخر ، فقد عاد الى القرية وانتخب شيخ بلد ، ثم استغرق فى منازعات عائلية حول الأرض ، التى جار عليها أقاربه خلال طلبه العلم فى الأزهر ، وكان فى حاجة الى محام « خاص » يستشيره ، ويساعده فى استردادها .

وحينما صرحت بأن رغبتى الحقيقية هى الآداب ودراسة التاريخ قال لى أحد من كاشفتهم بالسر إنى سوف أتخرج مدرس تاريخ ، فى مدرسة ابتدائية ثم فى دولة عربية ، وأجمع المال من الدروس الخصوصية وأعود للقرية لأشترى أرض ومواشى كما فعل « فلان » .

وانكببت على الدراسة فى كلية الحقوق واكتشفت ميلى الى القانون العام ، أى الدستورى والادارى والدولى العام ، وكان أستاذ الدستورى مرحا صريحا يذكرنا دائما وعلانية أن مهمته هى أصعب المهام وأن علينا أن نساعده ونترفق به ولا ندقق فى الأسئلة ، وتعلمت منه أن الدستور ليس له جزاء ، وأن الدستور البريطانى دستور غير مكتوب ، ولكن لا أحد يجرؤ على المساس به .. لأن الوعى العام يحميه، وأن الدستور الألمانى كان الدستور المثالى صياغة وفقها ولكن أطاح به هتلر بجرة قلم لأنه افتقد هذه الحماية ، وأن الدستور المصرى ولد « ناقص عمر » فكرا ونصوصا وأنه يتيم لم يجد بعد من يحميه!

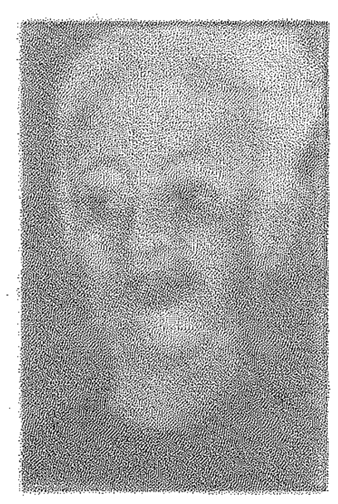
وتعلمنا من أستاذ الإدارى ، والذى أصبح فيما بعد فقيها وسياسيا مرموقا ، قول نابليون « انه ليس هناك بلد يعتمد مصيره على الادارة مثل مصر ، وإذا ما تحققت ادارة حسنة تغلب الوادى على الصحراء ، وإذا ما كان العكس زحفت الصحراء » ، وأن مصر لاتزال تبحث عن إدارة !

وتعلمنا من أستاذ القانون الدولى ، وكان يدرس فى المدرج مادة أكاديمية نظرية بحتة وفى خارجه يعلمنا أن القانون الدولى السائد هو قانون الغابة ، وكانت سحب الحرب العالمية الثانية تتجمع وتنذر بصراع رهيب .

ولعل أكثر الأساتذة هيبة واحتراما ، واجتذابا للطلبة الذين كانوا يحرصون - مسلمين وأقباط - على محاضراته ، كان أستاذ الشريعة ، وتفسيره المستنير المبدع للدين والتشريع الإسلامى .

● تناقض !

وكان التناقض يتكشف ويتفاقم كل يوم بين ما ندرسه فى المدرجات وما يسود خارج أسوار الجامعة ، ولهذا كانت الجامعة تموج وتضطرم بكل التيارات


لقطات من مراحل الحياة فى الصبا الباكر

والمذاهب والأيديولوجيات ، وكان « البحث عن الذات » يستبد بكل أبناء « الجيل » ويلغ التناقض ذروة هزلية ذات يوم حينما أشيع أن أحد طلبة « الدفعة » سوف ينال رتبة الباشوية ، وتأكد الخبر بعد قليل فى الصحف .

وكان جلالة الملك فاروق قد تبنى مشروعا باسم « مشروع الحفاء » ليوفر حذاء لكل مواطن ، وكانت الغالبية العظمى لا تملك ذلك الترف وتسير بأقدام عارية .

وتشجيعا للمساهمة قرر جلالته أن يمنح رتبة الباشوية لمن يتبرع بخمسة آلاف جنيه فأكثر ، وتبرع طالب بهذا المبلغ وأصبح من حقه « الترقية » .

وكان طالبا مدللا ، يأتى كل صباح فى سيارة « رولز رويس » تصل به حتى باب الكلية ، ولا ينزل قبل أن يهبط السائق ويفتح له باب السيارة ، ويقفز كالغزال الرشيق ليلحق بالمحاضرة التى يأتى إليها دائماً بعد أن تبدأ . وكان موضع الزراية والاستخفاف وتندر الطلبة بأن خريج الحقوق يكافح عمره ليحصل على الباشوية، ولكن لأول مرة يحصل عليها قبل أن يبدأ ، ورأت الحكومة أن تخفف من الحرج ، واكتفى صاحب الجلالة بالإنعام عليه برتبة البكوية من الدرجة الأولى ، وأصبح اسمه يكتب فى كشف الطلبة مسبوقا بلقب « حضرة صاحب العزة» !!!

وفى البداية كانت كلية الآداب تجذبنى بقوة قاهرة وكنت أتسلل لأحضر محاضرات طه حسين فى الأدب ، وشفيق غربال فى التاريخ ، ولكن لم تحقق الكلية الوهم أو الحلم الذى كنت أتصوره ، ولذلك دلفت قدمى الى مكتبة الجامعة التى كانت مجاورة ، وسرعان ما أحسست أننى أجد نفسى فيها أكثر مما أجدها فى المدرج على الناحيتين !!

● عشقى للأدب المترجم

وذات يوم تعرفت على أحد أمناء



المكتبة وكان عجوزا مرحا سمحا يشبه تماما أحد أقارب أمي الذين كنت أحبهم ، وكان يجلس على مكتبه خلف كوم من الكتب والورق والمحابر ويبدا منشغلا بمراجعة أو ترجمة كتب ما وبسرعة نشأت ألفة بيننا، وعرفت أنه يقوم بترجمة أعمال من الأدب الروسي الحديث بل وأنه نذر نفسه لهذا العمل ، وتفرغ له ، وكان يومئذ يترجم آباء وبنون لتورجنيف ، وقال إنه يترجم عن الانجليزية ويود لو كان يعرف الروسية وأنه يحذو حذو سيدة انجليزية اسمها كونستانسي جارنيت ، بدأت حياتها كاتبة أدبية ثم اكتشفت أن أعظم خدمة يمكن أن تؤديها للأدب الإنجليزي هي أن تهب حياتها لترجمة كل ما تستطيع ترجمته من الأدب الروسي .. وكانت أول مرة أنفذ فيها إلى عالم ساحر زاخر عاصف مضطرم هو الأدب الروسي الحديث وبدأت صحبة فريدة معه وكان أول ما قرأت الجريمة والعقاب لدستوفسكي وقد اعتكفت اسبوعا في البيت بعد أن فرغت منها وحينما قرأت «البعث» لتولستوى قررت أن أنقذ فتاة جميلة صغيرة كانت تتردد على شقق الطلبة ولم تنجح التجربة وذات يوم أعطاني قصتين قصيرتين لتشيكوف لكي أترجمهما لأن ذلك أفضل للنفاذ إلى أعماق الكاتب وانتهيت إلى جوركي وعكفت على قراءته في نهم شديد .. ووضعت برنامجا لكي أقرأ «الحرب والسلام» لتولستوى «والأخوة كرامازوف» لدستوفيسكي في الإجازة الصيفية ، وسيطر الأدب الروسي على كل اهتمامي .. وكان الرجل سعيدا لإقبالي على قراءة ترجماته ثم مخطوطاته .

وذات يوم قابلت لديه استاذا في كلية الهندسة قال إنه تعلم اللغة الروسية لكي يقرأ الأخوة كرامازوف بعد ما قرأها باللغة الإنجليزية .. وبالطبع انتقلت بي قراءة الأدب الروسي وخاصة جوركي إلى البحث عن روسيا، وعن الملحمة الطويلة المدى من القيصرية إلى الاشتراكية الثورية الماركسية وكانت قصة أخرى مضنية ، وكنت التقي أحيانا باستاذ انجليزي شاب داخلا أو خارجا من المكتبة، ونتناول أحيانا تحية عابرة وذات يوم جلسنا بالصدفة على نفس المنضدة في قاعة الاطلاع .. وكنت قد طلبت كتابا عن تشرشل وكان يبهر العالم يومئذ بخطبه البليغة «ليس لدى ما أقدمه لكم سوى الدم والعرق والدموع» وصموده في معركة الحياة والموت التي كانت تخوضها بريطانيا وبقدر ماكانت التشفي والشماتة

فى بريطانيا التى كانت أول من ألقى القنابل من الجو على الثوار فى العراق كان هناك إعجاب خفى بصمودها وزعامتها ونظر إلى الكتاب وسألنى «آه تقرأ عن تشرشل» وأجبته بالايجاب ، «وهل يعجبك تشرشل،» ، نعم .. «ياللأسف» واستغربت وصمت وقال فجأة «إنه أسوأ من هتلر ، » وزاد العجب ولم أرد .

واستمر قائلا «هل تريد أن تعرف حقيقة هذا الرجل«وأجبت بالإيجاب وقال «حسنا نلتقى هنا عدا والتقينا فى اليوم التالى، وأحضر لى كتاباً بعنوان «المحافظون» صدر عن نادى الكتاب اليسارى فى بريطانيا» .

وكان كتابا سلس اللغة والأسلوب ، مثيرا كل الإثارة قلب تفكيرى رأسا على عقب وأدركت أسباب الكره والحقد العميق والغريزى ضد الاحتلال والاستعمار البريطانى ..أزاح غشاوة كبيرة..

عرفت ما لم أكن أعرفه أو أتوقعه وأن الشعب البريطانى نفسه شعب مقهور مستنزف ربما بأشد من أى شعب من شعوب الامبراطورية وعرفت أن الامبراطورية مجرد ضيعة تملكها طبقة منعمة مترفة .. ويموت من أجلها الملايين من البريطانيين ، فى سلسلة حروب لاتنقطع كانت ذروتها الحرب العالمية الأولى ثم الثانية الأشد هولا .. بعد أقل من ربع قرن .

لم يكن هناك فرق بين المحافظين البريطانيين وبين سلاطين المماليك أو السلاطين العثمانين إلا فى الأقنعة والمكياج الحضارى الذى يتمعون به .

وكان هناك فصل خاص عن تشرشل أشد «آلامبراليين» تعصبا ، وعن رأيه فى المصريين والسودانيين ، حينما كان مراسلا حربيا فى حروب المهدى !

وتشبثت بالعلاقة والصداقة الجديدة وطلبت منه المزيد من هذه الكتب، وكان سعيدا بأن يمدنى بها ، ويناقشنى حولها «هارولد لاسكى» «ايديولوچى» حزب العمال، «وچون سترانشى» المحافظ الذى تمرد وأصبح قطب الاشتراكية وأنورين بيفان زعيم الجناح اليسارى فى حزب العمال وبياتريس ديب» الزوجة الارستقراطية التى تزوجت مفكرا عماليا وأثروا الحركة العمالية والاشتراكية بكتب ودراسات أصبحت مراجع .

وتفتحت على «كهف على بابا» بكل ذخائره وجواهره ، وأصبحت أوسع أفقاً ، وأعمق فهما لما يدور فى الجامعة أو فى مصر . أو فى العالم بل وفى أسرتنا الصغيرة !!



• اقتراح •

أقترح عليكم أن تخصصوا عددا من الهلال فى مطلع كل فصل من فصول السنة، ففى الربيع تصدر عدد الربيع وفى الصيف عدد الصيف ثم عدد الخريف ثم عدد الشتاء وهكذا.. واذا كان قد فاتنا الشتاء وسيفوتنا الربيع أيضا فى هذا العام، فنرجو الا يفوتنا عدد الصيف ثم عدد الخريف .. ثم أرجو أن تصدروا اعدادا خاصة عن كبار المفكرين والأدباء والشعراء كما كانت «الهلال» تفعل فى الثلاثينات .. ولا يمكن أن ننسى نحن القراء المخضرمين عدد الهلال عن ابى نواس الذى صدر فى أواخر الثلاثينات..

أحمد عبد الغني عبد الصمد ـ اسيوط

تعليق:

ـ نشكركم اقتراحاتكم ونرجو ان تتاح لنا فرصة تنفيذ شىء منها إن شاء الله.

• اقتراح آخر •

أرجو اعادة طبع اعداد الهلال الممتازة التى صدرت فى الستينات والسبعينات عن طه حسين والعقاد وتوفيق الحكيم واحمد شوقى ونجيب محفوظ، فهذه الاعداد ذخائر ثقافية لا تقدر بثمن، ولا يعرف الجيل الجديد عنها شيئا برغم حاجته الى معرفتها

بثينة محمد عبدالراضى – المنصورة

تعليق:

ـ وهذا أيضا اقتراح يستحق الدراسة، ونشكر للقارئة الفاضلة مبادرتها بتقديمه.

• بين العقاد وشوقى

لمناسبة شهر مارس ـ وهو شهر الربيع ـ ما رأيكم فى النقد الذى وجهه المرحوم عباس محمود العقاد الى امير الشعر أحمد شوقى فى القصيدة التى مطلعها:

آذار أقبل قم بنا ياصاح

فى الربيع حديقة الأرواح

لقد قال العقاد: إن شعر شوقى فى هذه القصيدة اشبه بنداءات الباعة، فلا احساس فيه بالربيع، وإنما مجموعة تعبيرات مصقولة لا حياة فيها، وإن بيتا واحدا من شعر البحترى فى

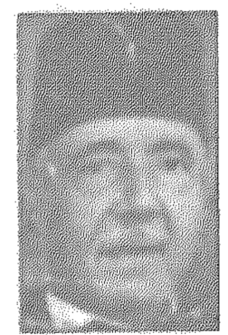
الربيع يساوى جميع ما نظمه شوقى فى هذا الباب.

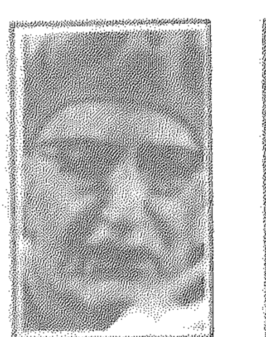
وذلك مثل قول البحترى :

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكا

من الحسن حتى كاد أن يتكلما

فما رأيكم فى ذلك؟!







أحمد شوقى العقاد

عبدالبديع المرصفي - درب الجماميز - القاهرة

تعليق الهلال :

- النقاد القدماء فى القرن الثالث والرابع للهجرة وما يليهما هم الذين اكتشفوا جمال بيت البحترى فى الربيع، ولم يكن العقاد هو الذى اكتشف جمال هذا البيت، كما أنه لم يكن هو الذى كشف عبقرية ابن الرومى فقد عرف عبقريته القدماء.. وقد كان العقاد متحاملا على شوقى تحاملا شديدا جدا لأسباب لا يتسع المجال للكلام فيها هنا .. واذا اردت رأينا فإن لشوقى قصائد ليست لاحد من شعراء العربية أجمعين فى عذوبتها وجزالتها وجدتها ورونقها . وله أيضا قصائد عادية ، وأخرى أقل من العادية.

قصة قصيرة

● النوى ●

ممتطيا حماره الابيض . يفتش فى دروب قريته.. يلملم نوى البلح يضعه فى خرج حماره .. يسير .. اندهشوا لفعلته .. رموه بالعته ، اطلقوا أطفالهم يقذفونه بالحجارة ..هرب منهم .. استقبلت قدماه طريقا آخر لقرية أخرى .. جمع ما استطاع من نوي.. مازال الخرج يطلب المزيد.. طرق أبواب القري.. جمع ما جمع من نوي.. ذهب الى السوق الكبير .. وقف أمام المشترين .. تعجبوا لطلبه .. اعطوه ما اراد.. حفنات من البلح .. شكرهم .. أكل .. وضع النوى بجوار رفاقه .. امتلأ الخرج عن آخره.. سأل عن النهر .. وصفوا مكانه .. فرحت روحه عند رؤيته .. أمسك بالفأس الصغيرة .. طفق يزيل الاشواك .. النجيل .. الغاب .. الحشائش من الجسر .. امسك بنواه اطلق عليها اسما من اسماء احبائه .. غرسها داخل ثقب صنعه بأظافره . ملأ الدلو الصغير من ماء النيل .. غمر النواه بالماء.. تركها ليزيح الاشواك .. الغاب .. الحشائش .. ليطلق الأسماء على النوى قبل الغرس .. لجلبتهم فطن .. تجمعوا حوله .. ساخت قدماه .. تقدم كبيرهم .. بحزم سأله : ماذا تفعل فى الأرض؟! ما

أنت والهلال

هى نواياك؟! أجاب بتلقائية : ازرع جسر النيل بالنوي. بتهكم رد : نوى .. ثم زعق فيه: انك تخفى سرا .. ستقر به .. من يحرضونك ؟! من يقفون ورائك؟ لم يصدق أذنيه .. احتارت نفسه تبحث له عن جواب.. لم يرد .. فلطمه .. فترنح .. فاختنق فهوى .. فارتجت جمجمته .. فاغمضت عيناه .. فاقتحمت رأسه صور غير مرتبة لأخيه .. الشهيد .. لزوجته الهاربة .. لفرن الخبيز .. لبنيات الحمائم.. لشجرة الجميزة العتيقة .. لصندوق ابنه القادم من العراق .. فارت روحه .. فتبخرت .. فحلقت .. فاستقرت فوق جسر النيل فرأت النوى يشق الأرض بسيوفه الخضراء.. فأنشرحت .. فسرعان ما غامت لرؤية جثة حماره الطافية .. تدفعها الامواج بعيدا .. بعيدا..

د. ماهر منير كامل ـ المنصورة

● موعد بغير ملامة ●

أتـت الـيـنـا مـع الـظـلام ... حـسـنـاء فـي طـيـب الـكـلام
ثـيـابـهـا كـالـرياض حـسـنـا ... ووجـهـهـا الـبـدر في الـتـمـام
نـادت عـلـيـنـا بـحـسـن صـوت ... كـمـثـل أغـرودة الحـمـام
حـبـيـبـتـي طبت عند قلبي ... ناشـدتـك الله فـي مـلامـي
مـوعـد مـحـبـوبـتي بـعـيـد ... طـال وقـوفـي عـلـي الـطـريـق
اتـيـتـه فـي ظـلام لـيـلـي ... وقـلـت نـال الـهـوي رفـيـقـي
حـبـيـبـتـي لا يـقـر قـلـبـي ... الـي وسـاد الـهـوي الرقـيـق
فـهـل اذقـت الـفـؤاد وصـلا ... ونـال شـيـئـا مـن الرحـيـق
هـل أنـت آل بـكـل قـفـر ... ام أنـت مـن خـلـب الـبـروق
نـاشـدتـك الـلـه فـي جـريـح ... صـلـي وكـفـي عـن الـعـقـوق
فـقـد مـشـيـت الطريق لـيـلا ... وكـنـت أمـشـي الـي الـشـروق
فـأشـرقـي في مـروج قـلـبـي ... حـبـا ، وفـي ظـلـمـة المشـوق
مـوعـد مـحـبـوبتى بـعـيـد ... كـانـت دروبـي بـلا صـديـق

سامح النجار ـ فارسكور

● اسماعيل سري الدهشان ●

ولد الشاعر اسماعيل سرى الدهشان فى ١٢ سبتمبر سنة ١٨٨٢ بمنية سنمود غربية حصل على الابتدائية الفرنسية سنة ١٩٠٥ وعمل بمصلحة البريد وازدهر شعره عندما كان فى الاسكندرية ولقب بشاعر الأمير عمر طوسون ثم نقل الى الصعيد ثم عاد الى بلدته بسمنود غربية واتصل بالوفد المصرى ونظم الشعر فى مديح سعد زغلول باشا .

فى سنة ١٩٢٥ نقل الى العمل بالقاهرة ونشر شعره فى صحف البلاغ والهلال والاهالى والمقطم والاهرام وسفيرو سميراميس واتصل بالشاعر احمد زكى أبو شادى وانضم الى جماعة ابوللو واستمر ينشر قصائده فى مجلة أبوللو ووفاه الاجل المحتوم فى ٦ / ٢ / ١٩٥٠ . ولقد نظم اكثر من ٣٣٣٨ بيتا من الشعر ولكن ديوانه المنشور يحتوي على ٥٠٠ بيت فقط وله قصيدة ليالى الفريد دى موسيه فهى ملحمة طويلة تبلغ ابياتها فى الترجمة العربية اكثر من ٦٠٠ بيت وهى مقسمة الى أربع ليال وعن الهة الشعر

وقد قسم الشاعر المرحوم عامر محمد بحيرى ديوان الشاعر اسماعيل الدهشان الى ٦ أقسام هى : التصوف والوصف والشعر الاجتماعى والشعر الحكمة والفلسفة والمناسبات والغزل رحم الله الشاعرين بقدر ما اضافا للغة العربية .

رجب عبد الحكيم بيومي الخولي - القاهرة - خط حلوان - المعصرة

● وجهة نظر في الجنون ●

عند خروجى للتجول فى المناطق الأثرية التى تعج بها القاهرة فاننى اتمشى بجوار الأثر رويدا رويدا .. سواء كان فرعونيا أو قبطيا أو اسلاميا .. وانظر بعين التأمل والتدقيق فى الاثر لعلى أخرج بفكرة أو عبرة من هذا الاثر ورغبة منى فى معرفة كل شيء عن تاريخ مصر وآثارها ، وفى مرة - بل فى مرات عديدة - كانت معى رفيقتى العزيزة آلة التصوير، وعندما اقف لالتقاط الصور للأثر أجد عيون العشرات من البشر تحملق فى وتكاد تنطق:

«ماذا يفعل هذا المجنون؟!» والبعض الاخر يحملق فى الأثر بحذر كأنه اول مرة يراه معتقدا أنه سينهار فوق رأسه. فيمر أمامه مسرعا بتوجس، والبعض الآخر يبحث عما انظر إليه فلا يتخيل اطلاقا اننى انظر الي الأثر!

وما يزيد لديهم الشعور اننى انسان غير طبيعى هو أننى «مصري» وفى كثير من الاحيان يعتقدون اننى أجنبي لانهم لم يعتادوا حركات الجنون هذه من المصريين وألفوها من الاجانب واننى لا ارى مجانين مثلى من المصريين الا من رحم ربي وهذه وجهة نظر العامة



لنوع من أنواع الجنون ولا اعرف لماذا يستخدمون صفة الجنون على ما نفعله . ولقد قال أحدهم فعلا لاحد الصحفيين أن من لهم هذه الاهتمامات بالاثار مجانين أى أن ما أقوله ليس مجرد شعور منى بل هو حقيقة منهم .

أليس من الجنون ان نمتلك كنزاً ونمسك بقطعه ونرمى بها فى أعماق المحيط ونضحك من أعماق قلوبنا لاننا نطعم السمك!! هذا هو ما يحدث فى القاهرة الفاطمية حيث نسمح لناس لا يفقهون شيئا فى معنى الأصالة والتراث بان يسكنوا فى قلب الاثار ويحولوها الى (دكاكين) لبيع الاحذية وغيرها فى مكان كان يمشى فيه فى يوم من الأيام الأمراء والملوك!!

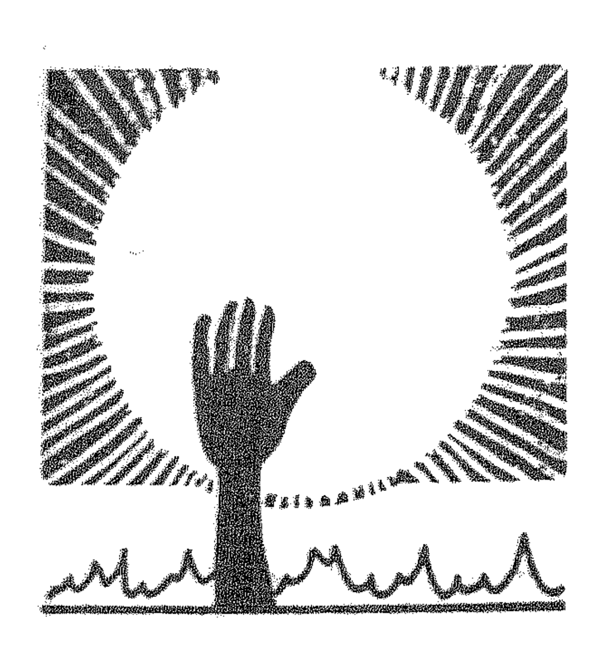
أليس من الجنون أن نرى شبابا يطيرون بالسيارات على الطرقات ونجد على زجاج السيارة الخلفى علم الولايات المتحدة الامريكية؟!

وأخيرا وليس آخرا هى وجهات نظر فى معنى الجنون .. ولكن ألست تتفق معى أنه حان الوقت لنكون عقلاء؟!

خالد عبد الوهاب
كلية الاداب - جامعة عين شمس

جدي يرحمه الله

فى كل صباح ومساء
كان الجد
يتلو فى بدء الأوراد
«لا اقسم بهذا البلد
وأنت حل بهذا البلد»
ويرتل كل القرآن
أسأل عن معنى الآيات
فيتمتم بعض الكلمات
اتبعه للحقل
علمني:



أن افرق حد الجيران
لأفض عناق العيدان
وأرد ضلال الاثمار
أخبرني
عن زمن الفيضان
عن سفر الانهار
والريح تراقص اشجار
وسنابل كانت بالكف
فيحط حمام
علمني :
أن أدرك مافيما بين الأشياء
الوجه الواحد للقمر
وكسوف الشمس
وفصول تحكي الدوران
اتمدد في صحن الدار
اتذكر جدي
يرحمه الله
علمني كل الأشياء
وسؤالا . لو كان أجاب
عن معنى بدء الأوراد
يتظاهر صخب بالقرية
وصياح كبير الخفراء
فجناب العمدة قد جاء
انتفض سريعا في الحال
والجد
يرحمه الله

علاء العواني ـ طنطا ـ سيجر



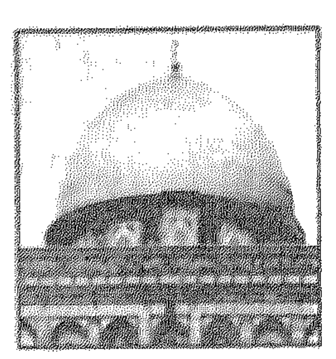
• لن يموت الشعر •



أيها الشعر ستبقي شامخا رغم الصعاب
نجمة انت تصلي فوق سجاد السحاب
بلسم انت لداء العصر .. طب للعصاب
درع ريحان منيع ضد سيف الاكتئاب
من جنون الآلة الصماء افكار الخراب
من لظي الحاسوب نبكي تحت اغصان الغراب
أصبح العمر حسابا مل آلات الحساب
يا عبيد المال والأرقام يا حزب الضباب
ضل مسعاكم فليس السعد في التبر المذاب
إن للأرواح جوعا مؤلما مثل الحراب
إننا نبغي اتزانا سفرا بين الروابي
وشراعا في بحور الشعر في موج الرباب
لن يموت الشعر بل يبقي كعصفور الهضاب
كالبحار الزرق كالبدر كأمطار السحاب
كنجوم الليل كالأنهار صبت في العباب
ان للنفس شفاء بين أقمار كتاب

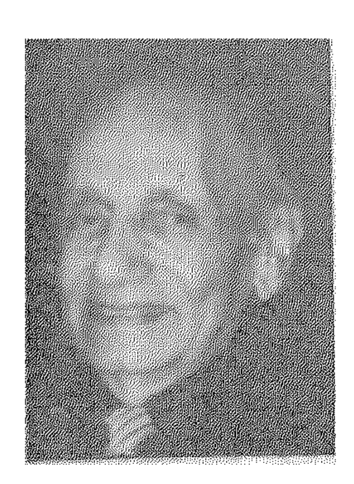
د. هيثم الحويج ـ دمشق

●يا قدس●



أهدى سلامى .. عبر أيامى .. وعبر الشواك .. والدرب المعتى .. والحنين
أهدى سلامى .. للتى زرعت بوجدانى المشاعر ثرة عبر السنين
يا قدس .. يا نبع السلام .. وموئل الوحى الأمين
اهدى سلامى .. لم أزل ظلا ببابك .. يحتويك القلب .. هل يوما ظلالك تحتويني؟
فلكم بعثت مع النسائم - فى الصباح - تحيتى . بالقلب، ليست بالكلام
ومع النجوم - بظلمة الليل المسجى - بالسلام
لا ..لم يعد بالقلب متسع لغير هواك .. من البداية للختام
لاهثا أعدو على درب الخروج
والنبض كالدرجات . أصعدها بآمال العروج
مدى بنانك ، كى يضيء الكون فى قلبى . واسبح فى الأريج
بثنى شعاعك عبر أحزان الليالى .. وانثرى فيها الزهور
لازال يجمعنا حنين هادر، وعبير أيام . تغرد فى الشعور
فالمسجد الاقصى صلاة.. فى محاريب الضمير
خيط من الأمل المذهب .. قد تلألأ . فوق هامات الشروق
فجر تمطى . فى القلوب . أنار (غزة) و (الخليل)
وأهل فى عينى (اريحا) بالبريق
قد قام يهفو للحياة .. يحن للزمن الجميل
يا قدس .. يا علم السلام على رءوس الصامدين
ومنارة تهدى سبيل العائدين
ردى سلامى .. عانقى شوقى المدوى .. ربما تتحقق الأحلام - ينتحر الأنين
مازال يحملنى إليك الشوق.. والدرب الحزين

محمد عبد الوهاب - جنيدي -
هوليوبوليس عزب - مصر الجديدة



الكلمة الأخيرة

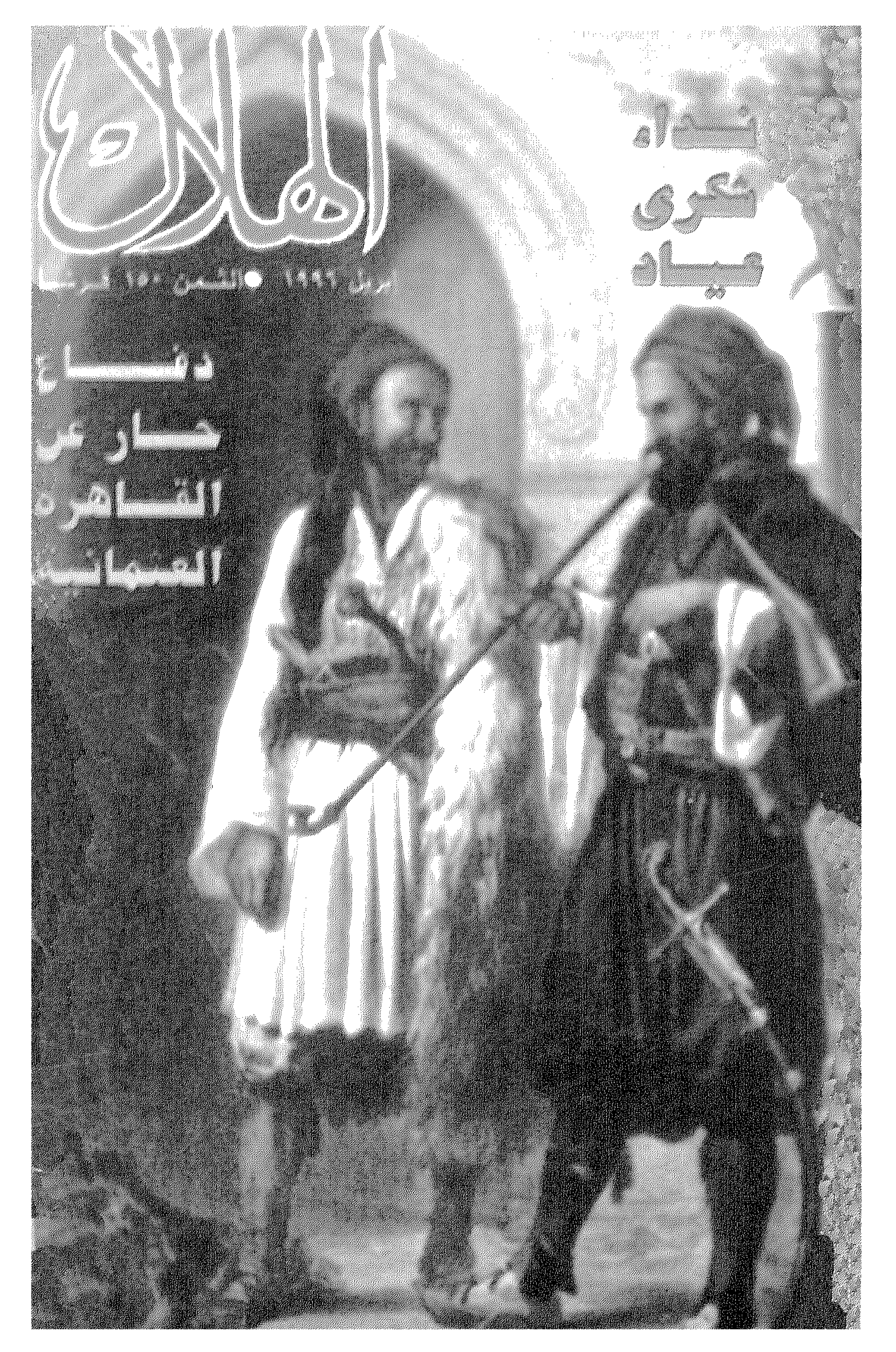
مائة عام على إنشاء المؤسسات العلمية فى مصر

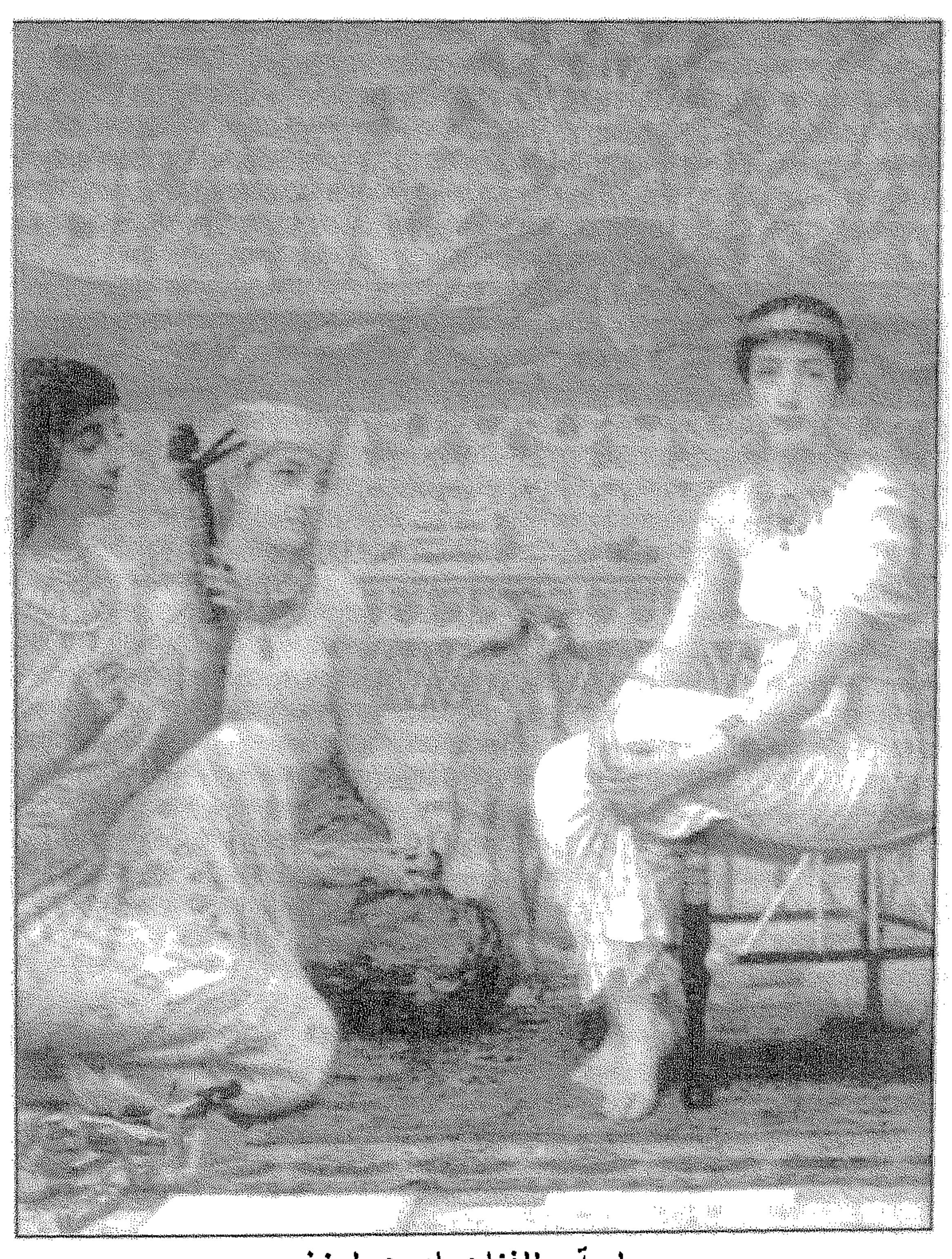
بورتريه : د .رشدى سعيد

شهدت مصر فى العقد الأخير من القرن التاسع عشر ميلاد عدد كبير من المؤسسات العلمية التى لعبت دورا كبيرا فى نهضة مصر ، وجاء إنشاء هذه المؤسسات العلمية تتويجا لقرن كامل من الارهاصات العلمية التى بدأت بانشاء المجمع العلمى المصرى الذى أسسه نابليون وقد ظل هذا المجمع نشيطا بعد خروج الفرنسيين وعلى طول القرن على الرغم من اغلاقه خلال حكم عباس وحتى سنة ١٨٥٤ عندما أعيد تنظيمه بالاسكندرية وبدأ فى نشر نتائج أبحاث المشتغلين بالعلوم من الأجانب المقيمين أو الذين كان يفدون إلى مصر مفتونين بآثارها أو وراء البحث عن الاستفادة من ثرواتها بعد أن انفتحت أمام الاستثمار الأجنبى ومن المصريين الذين كانوا قد عادوا من البعثات التى أوفدها محمد على واسماعيل إلى أوروبا لتلقى العلم والذين نبغ منهم على سبيل المثال لا الحصر على مبارك ومحمود صالح الفلكى وأحمد كمال وقد أسهم هؤلاء مساهمة فعالة فى البدء فى تأسيس الهيئات الخاصة بالبحث العلمى والتى جاء فى مقدمتها هيئة الآثار .

ويمكن اعتبار عقد التسعينات من القرن التاسع عشر هو ذروة هذه الارهاصات ففيه تم انشاء الكثير من الهيئات العلمية الحديثة البنيان والتى تسير على منهج العلم الصارم من حيث الدقة والموضوعية ، وتأتى فى مقدمة هذه الهيئات مصلحة المساحة التى أنشأت بغرض رفع الخرائط الطوبوغرافية لمصر وهيئة الأرصاد الجوية لرصد أحوال الجو وتسجيل وقياس درجات الحرارة والضغط الجوى والرطوبة والأمطار فى مختلف أرجاء مصر ومرصد حلوان لرصد الحركات الأرضية والزلازل وتركيب الأرض المصرية وطبيعتها وكذلك كمرصد فلكى ركب فيه واحد من أحسن المناظير فى العالم للاستفادة من جو حلوان فى ذلك الوقت فى رصد الكواكب والأفلاك، و هيئة المساحة الجيولوجية لمسح صحارى مصر ومعرفة طبيعة صخورها واستكشاف ثروتها المعدنية ، كما تم فى هذا العقد إعادة تنظيم القسم الخاص برصد فيضانات النيل لكى يشمل الدراسة العلمية المنظمة لنهر النيل حتى يمكن ضبطه والاستفادة من مياهه ولم تنقض سنوات على هذا التنظيم الجديد حتى بدء فى انشاء خزان أسوان فى سنة ١٩٠٢ وكان زمانه تحفة هندسية ومعمارية ، كما أعيد فى هذا العقد تنظيم هيئة الآثار فأصبح البحث عن الآثار محكوما بقواعد صارمة حتى يكون منظما وحافظا للآثار ونتائجه مسجلة تسجيلا دقيقا ، وقد شهد العقد بدء أول عمليات البحث العلمى المنظم والمسجل للآثار مما أدى إلى اكتشافات هائلة فتحت تاريخ مصر القديم ففى هذا العقد تم الكشف عن آثار الأسرتين الأولى والثانية من مصر القديمة بل وآثار ماقبلهما وحتى ذلك التاريخ كانت أقدم آثار الفراعنة المعروفة تنتمى إلى الأسرة الثالثة .

فهل نشهد فى السنوات العشر القادمة بعث الروح فى هذه المؤسسات العلمية ؟ ! .


الهلال
ابريل ١٩٩٦ • الثمن ١٥٠ قرشا
شكرى
عياد
دفاع
حار عن
القاهرة
العثمانية



جلسة للفنان إدون لونغ

متحف نيويورك

مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢
العام الرابع بعد المائة

الإدارة القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت : ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) . المكاتبات : ص.ب : ٦١٠ - العتبة - الرقم البريدي : ١١٥١١ - تلغرافيا - المصور - القاهرة ج. م. ع. مجلة الهلال ت : ٣٦٢٥٤٨١ - تلكس : Hilal un 92703 فاكس : FAX : ٣٦٢٥٤٦٩

ثمن النسخة سوريا ١٠٠ ليرة - لبنان ٣٠٠٠ ليرة - الأردن ١٢٠٠ فلس - الكويت ٧٥٠ فلساء السعودية ١٠ ريالات - تونس ١.٧٥٠ دينار - المغرب ١٧ درهماً - البحرين ١ دينار - قطر ١٠ ريالات - دبي/ أبو ظبي ١٠ دراهم - سلطنة عمان ١ ريال - الجمهورية اليمنية ١٠٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس ١ دولار - إيطاليا ٤٥٠٠ ليرة - المملكة المتحدة ٢.٥ جك

الاشتراكات قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ١٨ جنيها داخل ج.م.ع. تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٢٠ دولارا. أمريكا وأوربا وافريقيا ٣٥ دولاراً. باقى دول العالم ٤٥ دولاراً

● وكيل الإشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيوني زغلول - ص ب رقم ٢١٨٣٣ - الصفاة - الكويت - ت/ 13079 ٤٧٤١١٦٤

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

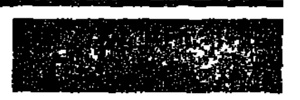
في هذا العدد



الغلاف
تصميم الفنان
حلمى التونى

«نداء» شكري عياد

جزء خاص



فكر وثقافة

نداء شكرى عياد

☐ تحتفى الهلال بالدكتور شكرى عياد الذى نعده واحدا من أبرز الكتاب والنقاد العرب المعاصرين.

وشكرى عياد رجل أدب عربى صميم، وهو من بلغاء هذا العصر، فأسلوبه من الأساليب المعدودة فى عصرنا مع أساليب د. طه حسين والعقاد والمازنى وإلى جانب كونه ناثرا، كتب القصة، والمقالة، إلى جانب كتاباته النقدية المتميزة، فله تجاربه فى الشعر، والتى نرجو أن نراها، لتضاف إلى سجله الحافل فى الثقافة العربية.

تفرغ للعمل النقدى، لأنه يرى أن العمل النقدى هو العمل الأساسى، لأنه مفكر من الدرجة الأولى، ومثقف ثقافته موسوعية، وثقافته الموسوعية هذه قادته إلى الفكر اليسارى فى شبابه كمفكر يسارى، ولكنه عدل عن اليسار، ولم يقترب من اليمين فى الوقت نفسه، وظل فى الوسط.. إنه يسار الوسط وأفكاره كونية، ليست متعلقة بالأرض فقط، لأنه درس الفلسفة أكثر من خريجى قسم الفلسفة، كما أنه ضليع فى الترجمة من الانجليزية إلى العربية بسبب إلمامه الكامل بأسرار اللغتين معا، ويعرف الفرنسية جيدا، ولذلك يحيط باللغة الغربية فرنسيا وانجليزيا، كما يحيط بالأدب العربى قديمه، حيث يستطيع أن يؤلف فى أدب العصر العباسى، كما يستطيع أن يؤلف فى أدب القرن العشرين، ولهذا ترجم كتبا من الانجليزية إلى العربية، ومعظم أعماله النقدية فيها صدى لقراءاته فى الآداب الأوربية والأمريكية، لأنه يطالع فى لغتها، ويسعد قراءه بكل جديد فى هذا المجال.

وهو ناقد أدب شامل، فيستطيع أن ينقد الشعر والقصة والمسرحية، كما ينقد الأعمال الفكرية بدرجة إجادة واحدة.

وهذا الرجل خيالى، كما أنه واقعى جدا، وساقته واقعيته

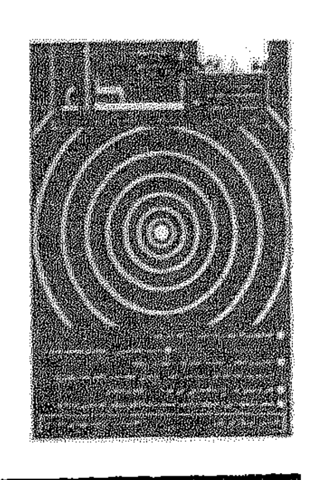


د . شكرى عياد

عزيزى القارىء

إلى أن يرحل إلى البلاد العربية، فيما يسمى الإعارة، وحقق شهرة كبيرة بين مثقفيها، فيما قدمه من فكر واقعى، أحدث ثورة فكرية بين المثقفين العرب فى تلك البلاد، ربما أكثر من بلده مصر!

وشكرى عياد رجل مبادىء يحب المثل العليا، وله مشروعاته الجليلة فى خدمة البيئة، والحرص على المثقف العربى، ومحاولة خلق مشروعات تعينه فى هذه الحياة، منها المكتبة التى أنشأها فى بيته بالمهندسين خدمة لأهل الحى، أو لمن يود، كما أصدر مجلة «نداء» في محاولة جادة لمحاربة الفساد من خلال الثقافة الحرة المستنيرة، مع أن الفساد داء قديم لا يمكن القضاء عليه، أو حتى تخفيفه فى مجلة مهما بلغ اتساعها، ولكنه بروحه الوثابة لا يهدأ من أجل انجاح هذه المجلة التى صدر منها عددها التجريبى، مع بداية معرض الكتاب هذا العام.



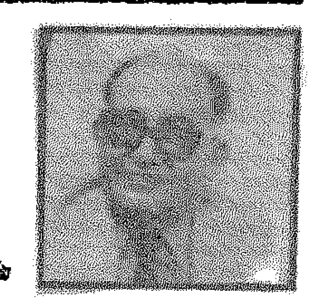
وتنعكس أستاذيته على كتاباته، فهو يتكلم أحيانا بلغة المعلم، وإن كانت أكثر كتاباته بلغة الأديب الذى يتواضع لقرائه، ويخاطب المثقف الواسع الثقافة، كما يخاطب المثقف العادى، وهذه هى لغته الصحفية التى يخاطب بها أوسع الجماهير.

فتحية إلى صاحب «القفز على الأشواك» الذى يقف موقفا فريدا فى بابه، وآثر الهلال على غيرها من المجلات ذات الورق المصقول.

إن هذا العنوان الذى اختاره لكتاباته فى «الهلال» يكاد يمثل موقفه فى حياته الحافلة مع الأدب والفكر، وعلاقتهما بالحياة والناس والمجتمع.. إنه لم يمش قط إلا على الأشواك، ولم يجن من الكتابة والثقافة إلا أشواكا!!

.. تحية لـ «نداء» شكرى عياد، هذه المجلة التى بذل فيها جهدا كبيرا لكى ترى النور، وليثبت أنه برغم الصعوبات قادر على أن يحيى مشروعه الثقافى الكبير الذى يناضل من أجله.

□ المحـرر

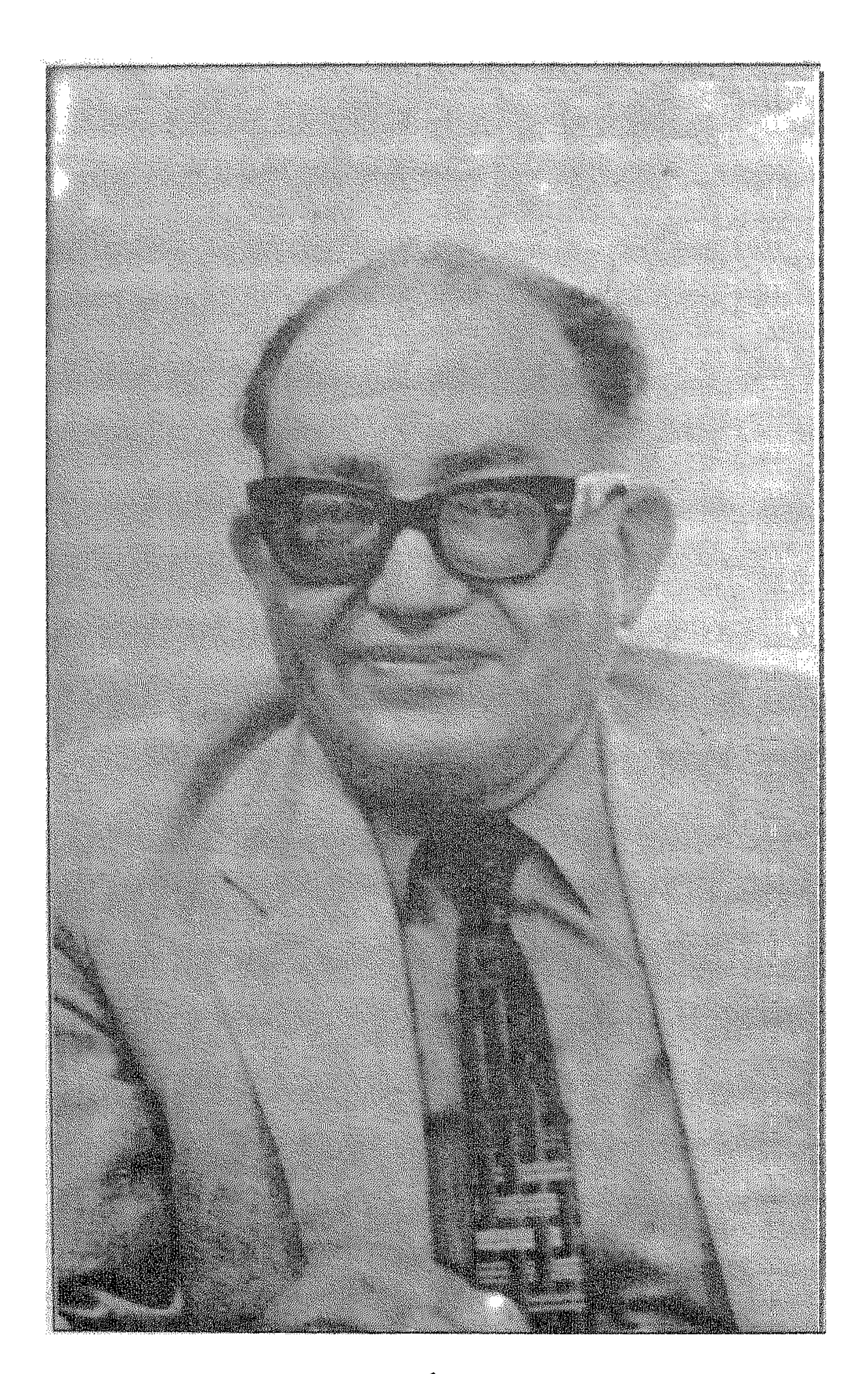


جزء خاص

شكرى عياد
أستاذا ومفكرا وصديقا

بقلم: د. محمود فهمى حجازى

كان المناخ العام فى جامعة القاهرة عام ١٩٥٤ عندما التحقت بكلية الآداب يسوده نوع من القلق والترقب. فى تلك الأيام حضرت محاضرات الدكتور عبدالفتاح شكرى عياد وكان مدرسا شابا واعدا، كان يمثل طرازا متميزا من الرجال، يحقق الصلة الوثيقة بالتراث العربى والطموح الشديد، إلى بحث لقاء الثقافات فى تاريخنا وإلى معرفة كل جديد فى الدراسات اللغوية والأدبية. رسالته لدرجة الماجستير (١٩٤٨) كانت فى دراسة جانب من النص القرآنى، بحث وصف يوم الدين والحساب، أما رسالته للدكتوراه (١٩٥٣) فكتبها عن كتاب الشعر لأرسطو كما عرفه المسلمون وأثره فى أدب العربية. وكلتا الرسالتين كانتا بإشراف أمين الخولى، الذى أبعد عن جامعة القاهرة فى صيف (١٩٥٤). ساد فى الجامعة نوع من القلق، وفى الوقت نفسه كان الأمل فى أن تحقق الثورة أهداف الشعب يجعل الرغبة فى إعادة بناء مصر فى النسق العربى تتجاوز بعض الآلام وتفضى إلى قدر كبير من الترقب.



إن الوعي الجديد الذى كان واضحا فى الحياة الثقافية المصرية فى تلك السنوات جعل لشكرى عياد مكانا متميزا. فهو من بيئة علمية تحترم التراث وتلتزم ببحثه بمنهج نقدى وتقبل على بحث صلات أدبنا بالآداب الأخرى وتدرس تراثنا الفكرى والنقدى فى نسق العلاقات المتبادلة مع ثقافات أخرى. وشكرى عياد له فى هذا كله مكانة واضحة. كانت الصلة بين تراث اليونان والتراث العربى موضوعا محببا إلى عقولنا. لم يكن الاهتمام بهذا الموضوع مقصورا على طه حسين وتلاميذه المباشرين، وإن كانت لهم فيه مشاركات واضحة، فقد كان عميدنا آنذاك الأستاذ الدكتور إبراهيم سلامة بعد نقله من كلية دار العلوم إلى كلية الآداب يدرس لنا بلاغة أرسطو بين العرب واليونان، وكان قسم اللغة العربية وآدابها يهتم بالمقارنات فى كل مجال، كأن لقاء اللغات والثقافات أصبح مطمح الباحثين. ظل أستاذنا اللغوى الكبير خليل يحيى نامى - وهو من رواد دراسة العربية الجنوبية القديمة - يبحث بنية اللغة العربية بالمقارنة بلغات سامية أخرى. وفى هذا الإطار برز شكرى عياد ببحوثه التى أفادت من معرفة وثيقة بتراث اليونان النقدى وبحركة الترجمة من اليونانية إلى السريانية والعربية ومشكلاتها اللغوية والمعرفية، وبأثر هذا كله فى تاريخ فكرنا النقدى والبلاغى.

● مع طه حسين

كانت الحياة الثقافية تسودها شخصيات متميزة تتجاوز مكانتها دور العلم إلى فئات المجتمع. طه حسين يحاضرنا فى الأدب العربى القديم، وتلاميذ طه حسين الذين أصبحوا مدرسين أو أساتذة مساعدين أو أساتذة يحضرون مع الطلاب محاضرات أستاذهم وأستاذنا العلامة. وشكري عياد واحد من أعضاء هيئة التدريس، كانت محاضرات طه حسين تجمع ثلاثة أجيال وتحقق صلة فكرية نادرة، تقوم على الأمل فى التقدم والثقة فى المستقبل. وفى تلك المحاضرات تكونت عدة ملامح أثرت فى جيلنا كله. وإذا كان شكرى عياد قد كتب عن كتاب الشعر لأرسطو فإن سهير القلماوى ومحمد صقر خفاجة اهتما بنصوص نقدية يونانية أخرى، وظلت مناقشتى مع شكرى عياد فى أثناء دراستى للأدب اليونانى القديم مع زملائى بقسم الامتياز على يد أستاذنا الراحل محمد صقر خفاجة خير مثال لوعى علمي راق، يتوازى مع اهتمام عميق بالأدب العربى فى تاريخه وعلاقاته الثقافية عند شوقى ضيف وطلابه من مصر وكل الدول العربية الأخرى.

إن شكري عياد ظل فى وعى جيلنا، يمثل الأستاذية الحقة، وفي مواقف كثيرة كان فكره يتجاوز الإطار التقليدى للأداء الجامعى الرتيب، أذكره فى دراستنا للنقد

الأدبى قد قسم الموضوع إلى محاور محددة، وكلف كل طالب من الطلاب الطموحين ببحث واحد منها، وظللت أعرض الموضوع الذى كلفت به عدة محاضرات وهو يناقش ويحاور والمشاركة من الزملاء محدودة، ثم أعرض طلاب آخرون عن هذه المغامرة، وعادت المحاضرات إلى نظام الاستماع المريح، وبعد ذلك بسنوات معدودة أدركت في جامعة أرلانجن وجامعة ميونيخ بألمانيا عظمة أستاذنا وتخلف نظام الاستماع المريح، وعلمت أن التجديد الذي حاوله شكرى عياد هو النسق العام لحلقات البحث فى الجامعات الألمانية، وذلك كله نابع من فكرة تتجاوز التلقين إلى التفكير وتتجاوز التلقي إلى الإبداع. وما أحوج جامعاتنا إلى تطبيق هذا النظام بشكل جاد.

● صورة البطل فى الأدب العربى

استمر عطاء شكري عياد لطلابه يتجدد مع مراحل دراساتهم ومع تقدم المعرفة، وكان إشرافه على عدد من الطلاب المصريين وغير المصريين مصدر فخر لهم، كانت علاقات النصوص موضوع دراسة، منها رسالة عدنان يوسف سكيك (١٩٧٠) عن الشخصية الإنسانية كما صورها القرآن الكريم وانعكاس مثلها على صورة البطل فى الأدب العربى، واتصل اهتمام المشرف بالدراسة القرآنية فى رسالة منير أحمد قاضى (١٩٧١) عن الإنسان والشيطان فى القرآن الكريم. وهذه الدراسات ظلت موضع عناية شكرى عياد فى سياق الدرس الأدبى للنص القرآنى مع الإفادة من علوم التفسير والبلاغة، وهنا نجد شكرى عياد تلميذا حقيقيا لشيخه أمين الخولى الذي عرف بذكاء وشفافية كيف يكون التكامل بين البلاغة والتفسير من أجل فهم دقيق وتذوق حقيقى للبلاغة القرآنية.

وإذا كان أمين الخولى قد اهتم بأدب مصر الإسلامية فإنه بإشراف شكري عياد قدمت بعض الرسائل الجامعية عن مصر العربية، تناول محمد عبدالقادر عبدالناصر فى رسالته للماجستير (١٩٧٧) شعراء التورية فى مصر فى القرن السابع الهجرى، وكتب محمد صلاح عيد (١٩٨٠) عن المدائح النبوية فى الشعر العربى حتى البوصيرى، وقريب من هذا الموضوع رسالة عبدالخالق محمود عبدالخالق (١٩٧١) عن تائية ابن الفارض وشروحها في العربية، وهذه الدراسات أصبحت سمة لجهود متصلة تناولت الأدب والحياة الثقافية فى مصر العربية.

واتضح الوعى بوحدة الثقافة العربية فى عدد من الرسائل الجامعية التى قدمها بإشراف شكرى عياد عدد من الدارسين ينتمون إلى أقطار عربية مختلفة، كتب منير بكر التكريتى عن الصحافة العراقية وأثرها فى تطور الأدب العراقى

الحديث (١٩٦٧)، وقدم عبدالرحيم أبوبكر محمد أحمد (١٩٧٣) رسالته عن الشعر الحديث في الحجاز (١٩١٦ ـ ١٩٤٨). وأشرف شكرى عياد على رسالة حسنى محمود حسين (١٩٧٢) عن شعر المقاومة الفلسطينية (١٩١٧ ـ ١٩٦٧). ودرس بابكر الأمين الدرديرى (١٩٧١) وصف الطبيعة فى الشعر السودانى الحديث، كتب محمد بدرالدين هاشم (١٩٧٠) عن الشاعر السودانى التيجانى يوسف بشير، وقدم اسماعيل عبدالكريم حسن (١٩٧٠) عن شعر محمد البزم، ونال أدب المهجر قدرا من الاهتمام فى رسائل جامعية، منها ماكتبه سمير بدران قطامى (١٩٦٩) عن إلياس فرحات حياته وشعره.

وفى هذا كله تتجاوز الرسائل الجامعية التى أعدت بإشراف شكرى عياد الأنواع الأدبية بحدودها التقليدية إلى الفكر فى مجالاته المتكاملة. من هذه الرسائل: الكواكبى مصلحا وأديبا، قدمتها نور ليلى عدنان (١٩٧٠). وهنا نجد الأدب والثقافة فى العصر الحديث فى نسق دراسات تناولت عددا من أقطار العربية فى المشرق والسودان ومصر والمهجر.

إن قضية لقاء الثقافات ظلت تتخذ فى الرسائل الجامعية بإشراف شكرى عياد عدة أشكال. هنا رسالة عن أدب الرحلات بوصفه صورة للقاء الثقافات ورؤية للآخر، كتب حسنى محمود حسين (١٩٦٩) بإشراف شكرى عياد عن أدب الرحلات عند أمين الريحانى وظلت قضية التأثير والتأثر فى إطار لقاء الثقافات مجالا لدراسات جامعية بإشرافه، من ذلك رسالة كمال ثابت قلته (١٩٧١) عن أثر الثقافة الفرنسية فى أدب طه حسين. وهذه القضية كانت دائما موضوعا أثيرا فى اهتماماته ومناقشاته العلمية والثقافية. دعمتها تلك الدراسات والإقامة والصلات مع ثقافات أوربية قديمة وحديثة، ومع خبرة عمل فى أمريكا اللاتينية.

● بين الأستاذ وطلابه

كان استيعاب البحث الأدبى لحركات التجديد فى الأدب العربى الحديث مجالا لعدد من الرسائل الجامعية، كتب بإشرافه أحمد إبراهيم الهوارى (١٩٧١) عن البطل المعاصر فى الرواية العربية فى مصر إلى سنة ١٩٥٢. وكأن الاهتمام بصورة البطل قد انتقل من الأستاذ إلى طلابه فى بحوثهم، وكتب أبوالفتوح محمد عبدالمؤمن (١٩٧٠) عن البطل فى مسرح الحكيم. أما أعلام الأدب الحديث فى مصر فقد كانوا موضع اهتمام عدد من الرسائل، منها رسالة إبراهيم حسين الفيومى (١٩٧٦) عن أحمد شوقي ناثرا. وكان الإطار النظرى موضع البحث، كتب محمد عبدالهادى محمود (١٩٧٢) عن نظرية الصورة الشعرية عند مدرسة

الديوان، وفوق هذا كله فلابد من الإشارة إلى مجموعة من الرسائل تناولت النقد الأدبى العربى، كتب عبدالحكيم محمد راضى (١٩٧٠) عن فن الابتكار فى النقد العربى، وقدم محمد على رزق الخفاجى (١٩٧٠) رسالته عن مفاهيم النقد والبلاغة عند الجاحظ من البيان والتبيين، وهكذا انتظمت فى هذه الرسائل دراسات تناولت التجديد والاتجاهات والأصول النقدية.

القيم الثقافية التى تتأكد فى هذه الدراسات تتلخص فى ثلاث سمات، منها التأصيل الثقافى من خلال دراسة التراث العربى فى نسق لقاء الثقافات قديما وحديثا، ومنها تأكيد قيمة الانتماء الثقافى العربى فى إطار وحدة الثقافة ووجود ألوان محلية، وفيها قدر من الإيمان بالتجديد والدعوة إليه وحفز الدارسين إلي رصده.

ولكن قيمة الأستاذ المفكر تتجاوز العمل المنجز المدرك إلى الجانب المعنوى الذي يحقق استمرار العطاء عبر الأجيال.. وكان لأستاذى وصديقي شكرى عياد فضل كبير على فى نشر باكورة أعمالى باللغة العربية، كنت قد عدت من البعثة فى ألمانيا، حيث درست حتى الدكتوراه، إلي جامعة القاهرة لأحاضر بالعربية فى علم اللغة، كنت قد ألفت بالألمانية فى أثناء البعثة، وكان علىّ فى مصر أن يتم التحول فى هدوء ودقة وثقة. فأخذت أكتب محاضراتى قبل إلقائها، وكان تدوينى لها يجعل الارتجال أمرا سهلا، كنت أقضى الأسبوع كله فى كتابة بضع صفحات على نحو ينظم المادة بدقة ويسهل الكلام عنها، وذات يوم أخذ منى أحد الطلاب هذه الصفحات التى كتبتها وأستأذننى فى أن يطبعها لى بالآلة الكاتبة، وأحضر لى منها أكثر من نسخة. ولم أدر ماذا أصنع بها، فقدمت نسخة منها لزميلى الكبير شكرى عياد. وبعد نحو ساعتين دق التليفون فى منزلي، وقال لى سأنشر لك هذه الصفحات فى كتاب اخترت عنوانه من كلامك، وهو : اللغة العربية عبر القرون، فرحت كثيرا بذلك، ومع هذا فقد كدت أعتذر خوفا من المواجهة مع قراء لايعرفوننى. وطلبت منه أن أفصل هذه الموضوعات، فشجعنى رافضا ذلك بأدب شديد، متمسكا بهذه الصيغة الموجزة. وهكذا عرف القراء العرب ـ بعد أسابيع عصيبة تلت نكسة ١٩٦٧ ـ كتابا صغيرا لشاب فى السابعة والعشرين يتناول اللغة العربية عبر القرون، نشر فى سلسلة المكتبة الثقافية التى كان يشرف عليها شكرى عياد، وحقق الكتاب توزيعا عاليا وكان سعره زهيدا جدا، واشتراه الطلاب وفرحوا به وأقبل عليه رجال الإعلام، وعرضوه فى عدد من البرامج واقتبسوا منه فى برامج كثيرة. وكأن طاقة القدر قد فتحت، ونسيت فى غمرة ذلك مكافأة

التأليف، فنبهني الزميل الأستاذ إلى ضرورة التعاقد وسعدت بالحصول على خمسين جنيها كاملة.

● الثقافة .. الزاد المعنوى

فى تلك السنوات التى أعقبت النكسة (١٩٦٧) وقبل العبور (١٩٧٣) كانت الثقافة تمثل الزاد المعنوى الكبير للمقاومة ولمعركة تحرير مصر. وتداخلت فى حياتى وفى صلتى بأساتذتى ومنهم شكرى عياد الاهتمامات الخاصة بالرؤية الوطنية العامة، كنت أجد رفاق العمر يخدمون فى القوات المسلحة، ففرضت على نفسى أن أعمل فى مجالى العلمى والثقافى وكأننى فى معركة، وكان شكرى عياد يشجعنى بإصرار نادر. نشر لى كتابى الثانى فى سلسلة المكتبة الثقافية أيضا، وهو علم اللغة بين التراث والمناهج الحديثة (١٩٧٠). وحقق الكتاب انتشارا كبيرا، فكان الكتابان على مايبدو لى - أول كتابين أنزلا علم اللغة إلى جماهير المثقفين فى مصر.

ولكن عطاء شكرى عياد لثقافتنا وللمثقفين كان قد اتخذ برئاسة تحريره لمجلة «المجلة» مسارا جديدا، إنها ظلت بحق سجل الثقافة العربية بجهود مثقفين أصلاء منهم يحيى حقى برؤيته الثقافية النادرة، كانت المجلات الثقافية فى وزارة ثروت عكاشة تشكل منظومة كاملة: المجلة، الفكر المعاصر، المسرح، الفنون الشعبية، الأدب. كان الكتاب يتعاونون ولم تكن هناك منافسة تجارية، إنها منافسة من أجل التفوق والإتقان وكان شكري عياد من رجال القمة فى هذه المنظومة إلى جانب سهير القلماوى وزكى نجيب محمود وعبدالحميد يونس وعلى أدهم، وكان لهذه النخبة دور كبير فى تشجيع المثقفين الشبان، والعلماء الصاعدين والمبدعين الجادين. وشاركت فى الكتابة لهذه الدوريات، فى مجلة «المجلة»، تابعت الإنتاج اللغوى، ونشرت عددا من الدراسات، وأصبحت الكتابة العلمية للمثقفين عملا أحبه وأجد فيه سعادة وتحقيقا للذات، ولا أنسى هنا فضل من كان يفتح لى مجالات النشر ويجعلنى التزم بمتابعة الجديد وبتقديم الرأى الأصيل والملاحظات الجادة.

عاش شكرى عياد - مد الله فى عمره - سنوات طوالا خارج العمل الرسمى، تارة كان متفرغا للبحث، لا يحاضر إلا أسابيع محدودة فى جامعات الجزائر فى عهد مابعد التحرير، وتارة أخرى ظل بجامعة الرياض يحاضر ويؤصل ويكون الأجيال، ولكنه استمر دائما يعطى طلابه فى ود نادر، ويناقش زملاءه ومريديه، مناقشة المثقف الواعى، ويحاول أن ينقل القيم الثقافية إلي جمهور القراء. يتجدد طموحه دائما وتتضح رؤيته الثقافية بخبرة السنين، وفى كل هذا يتأكد إصراره على أهمية الثقافة فى بناء الحياة.



جزء خاص

الدكتور شكرى عياد والمقال الأدبى

بقلم : اعتدال عثمان

الدكتور شكرى عياد قامة كبيرة فى حياتنا الفكرية والثقافية ولعل السمة الرئيسية التى تتميز بها مقالاته الأدبية تتمثل فى تنوع الموضوعات التى تناولها على امتداد ما يقرب من نصف قرن، غير أن الجانب الأهم - فى تصورى - هو تماس فن المقال الأدبى لديه وهموم القارىء العادى فى مختلف مجالات الحياة، بما يجعل الفكر والنقد، المرتكز على أساس معرفى عميق الجذور، متاحا لقاعدة واسعة من القراء، وبما يفضى الى خروج المثقف من دوائر التخصص الأكاديمى الى رحابة الواقع اليومى بمشاكله وقضاياه.

لقد بدأ الدكتور شكرى عياد الكتابة الصحفية والترجمة عام ١٩٤٧ فى مجلة «مسامرات الجيب» ونشر قصصه ومقالاته خلال الخمسينات فى «المصرى» و«روزاليوسف» و«صباح الخير». وفى أوائل الستينات حرر بابا نصف شهرى بعنوان «تجارب فى الأدب والنقد» فى «أخبار اليوم»، كما أسهم فى الصفحة الثقافية لجريدة «الجمهورية» خلال عامى ١٩٦٥ و ١٩٦٦.

وتعد سلسلة مقالاته، التى بدأها فى مجلة الهلال منذ عدد مارس ١٩٨٣، بعنوان «القفز على الأشواك» نموذجا لفن المقال الأدبى لديه وتتراوح موضوعاتها بين الاقتصاد والسياسة والقضايا الثقافية العامة والبحث العلمى وتطبيق الشريعة والقوانين وصياغة الحاضر الى غير ذلك من قضايا الفكر والحياة، بالاضافة الى عدد كبير من المقالات خصصها لمراجعة الابداع الروائى والقصصى والشعرى وكتب الفكر والدراسات الأدبية.

● القفز علي الأشواك

أود هنا أن أتوقف عند دلالة اختيار الدكتور شكرى عياد لعنوان «القفز على الاشواك» لأنه لا يعبر ـ في تصورى ـ عن مواقفه فحسب، بل إنه يصور نهج الكاتب في فن المقال الأدبى.

لقد تناول فى مقالاته عددا كبيرا من القضايا الشائكة واتخذ فى معالجاتها منظورا يقوم على المسافة الضرورية الفاصلة، بين ما يروج أو يُرَوَّج تجاه قضية أو أخرى ، والواصلة فى الوقت نفسه إلى جذور القضية ذاتها فى سياقها التاريخى المعين، إنها مسافة كافية لموطيء قدم تسير فوق أشواك الفكر والواقع وتعنى التزاما وطنيا فى الصميم، وموقفا إيجابيا مستقلا في آن. من خلال ذلك الموقع المستقل يستقريء الكاتب حكمة الأحداث التاريخية ويُقدم على فحص العلل الاجتماعية، بنظرة موضوعية رشيدة، تجمع بين التعمق فى فهم الأسباب وتحليليا بإلمام العالم وإحاطته وبسطها فى الوقت نفسه أمام القاريء العادى. وهو إذ يتوجه بفكره إلى الناس فإنه يطرق معهم أبواب الأمل ويحثهم على التفكير العقلانى المستنير فى قضايانا القديمة الجديدة من خلال خصوصيتنا الحضارية والثقافية، ولا يتخلى قط عن الأمل فى مجاوزاتها إلى مستقبل أفضل.

القفز على الأشواك، يلمح أيضا إلى طريقة فى كتابة المقال الأدبى، تعتمد البدء بالعينى الملموس الذى يعترض الناس فى حياتهم اليومية. بطريقة يألفها أهلنا فى الريف والمدن، ثم يتطرق بعد ذلك إلى ما هو فلسفى يقوم على التجريد الفكرى، دون أن تفقد الفكرة عمقها أو تتأبى على الأذهان فى آن.

وإذا كان لي أن أصف أسلوب المقال الأدبى لدى الدكتور شكرى عياد فإننى أجده يجمع بين الرصانة والإحكام اللغوى ودقة العالم المتمرس فى التعبير عن موضوعه ووضوح الصحفى الأديب، فضلا عن ذلك الملمح الأهم الذى يتمثل فى مخاطبة القاريء كأنه صديق قديم يدعوه للمشاركة ويجذبه بأسلوب ساخر مميز، يستخدم الطرفة والدعابة والنكتة والمفارقة الساخرة كأنه يسامر القاريء وهو فى الحقيقة يحثه على التفكير.

فيما يلى سأعرض لمقالات نشرت فى «الهلال» تمثل - فى تصورى - نموذجا دالا على موقف الدكتور شكرى عياد الفكرى الحضارى فى سياقنا العربى الراهن، وموقفه من الغرب والشرق على نحو ما يظهر فى التجربة اليابانية، ثم تناوله النقدى للمناهج الأدبية الحديثة، خصوصا فى دراسة «ألف ليلة وليلة» ، وأخيرا أقدم مثالا لتحليل أحد الأعمال الروائية.

● الأزمة الحضارية ومجاوزتها

يحدد الدكتور شكرى عياد موقفه الفكرى فى مقال بعنوان «هذا الكلام عن العقل العربى»* يناقش فيه بعض منطلقات الفلسفة العربية الحديثة، ويرى أن المشكلة الأساسية التى تواجه الفكر الفلسفى، أصلها هو حاضرنا المشدود إلى الماضى من ناحية وإلى المستقبل من ناحية أخرى، أما الحاضر فلا يزال بينهما باهت الملامح. لكن الكاتب لا يرضى ببيان موقفه قبل أن يحدد - كدأبه دائما - ما يعنيه بالماضى والمستقبل، أو القديم والجديد، تحديدا واضحا وملموسا . إن الماضى - كما هو معروف - يعنى التراث، على الرغم من أن مدلول الكلمة يضيق عند أقوام ويتسع عند آخرين. والمستقبل يعنى عند معظم الناس، الحضارة الغربية الحديثة. ويرى الكاتب أن التيارات الرئيسية الثلاثة الداعية إلى التمسك بالتراث كله أو رفضه كله أو التخير منه، إنما تمثل موقفا «منفعلا» من التراث. أما الموقف الذى يتبناه فهو التحول من الانفعال إلى الفعل، ومن ثم نتحول من مستهلكين للتراث إلى منتجين له.

إن إعادة إنتاج التراث فى الحاضر تقتضى فهمه واستيعابه وتمثله بحيث «تصبح تجارب الماضى هى تجاربنا، لا كمستقبلين سلبيين لها .. بل كفاعلين إيجابيين، يستخدمون حصيلة هذه التجارب فى نشاطهم الحالى كما يستخدمون تجاربهم الخاصة».

يؤكد الكاتب هنا منظوره التاريخى، بمعنى أن فهم التراث مشروط بمحيطه الزمنى والمكانى من ناحية وبأدواتنا فى الفهم من ناحية أخرى، ويضيف قائلا «نحن نقبل التراث كله، ولا نثقل خطانا بشىء منه. نعجب بالمعتزلة، ونحترم أهل السنة، ونتواجد مع المتصوفة، ولكننا لا ننتمى إلى أى فريق منهم».

أما بالنسبة إلى مفهوم المستقبل لدى «معظم الناس»، أى الحضارة الغربية الحديثة، فإن الكاتب يكشف عن موقف نقدى تجاه الانبهار بكل جديد، يأتى من الغرب. صحيح أن «الجديد

---

* اعتمد هنا على كتاب جمع فيه المؤلف بعض مقالاته فى الهلال وصدر بعنوان «القفز على الأشواك - تطبيق الشريعة وصياغة الحاضر» انظر المقال ص ٥٧ - ٦٧ - منشورات أصدقاء الكتاب . ١٩٩١

بجذبنا لكننا لا نريد أن نذهب إليه أصفارا» ومن ثم ينبغى ألا نكتفى بما تقدمه الحضارة الغربية لنا وإنما نمتد نحن إليها بإرادتنا ونبحث فى خصائصها ومقوماتها ونحولها، كما حولنا تاريخنا الخاص من الانفعال إلى الفعل ومن الانبهار، فى هذه الحالة ، إلى ملك شخصى لنا، يقوم على إرادة الاختيار.

يشخص الدكتور شكرى عياد الأزمة الحضارية، ولا ينسى أن يعقب ساخرا على ابتذال كلمة «أزمة» فى مجال الفكر والفن والكتابة «حتى أصبح بعض الناس يتحدثون عن أزمات الثقافة كما يتحدثون عن أزمات التموين».

لقد مهد الكاتب للأفكار الأساسية التى تمثل موقفه قبل أن يبادر إلى بيان طريق الخلاص من الأزمة ويحدد بعبارة واضحة وقاطعة ودالة هى : هنا والآن ويضيف قائلا «لا خلاص لنا إلا بأن نبدأ من الحاضر أن نعى الحاضر بعمق وأن نغيره بقوة «أما السبيل إلى الوعى والتغيير فإنه ينبنى على إعمال العقل وإطلاق الخيال والعمل المنظم الدءوب ، أو بعبارة مختصرة، الإبداع فى مختلف مجالات الحياة.»

● التجربة اليابانية

عادة ما تفضى مراجعة الدكتور شكرى عياد لكتاب ما إلى استدعاء قضية سبق ان عالجها فى مجال آخر أو فى مقالات سابقة لكى يزيد موقفه الفكرى إيضاحا . من خلال زوايا مختلفة، ترتبط هنا بمسألة الأمة الحضارية، منظورا إليها هذه المرة فى سياق العلاقة بين الغرب والشرق، وتحديدا فيما يخص الحلول التى ابتكرها اليابانيون لاقتحام العصر والتفوق الاقتصادى المذهل الذى حققوه بعد هزيمتهم فى الحرب.

فى مقال بعنوان «تجربة اليابان» (الهلال ـ مارس ١٩٩٥) يناقش الكاتب ترجمة الدكتور نصر حامد أبوزيد لأحد الكتب المهمة فى مجال التعريف ببدايات النهضة اليابانية فى العصر الحديث، خلال الفترة من ١٨٦٢ الى ١٩٢٣.

يتناول المقال تجربة اليابان بوصفها بلدا شرقيا نسخت بتطورها المستمر ما سبقها، ولا تزال تثير دهشة العالم. ويعقد الكاتب مقارنة لافتة بين ما وصلت إليه اليابان وواقعنا نحن خصوصا وأن مصر كانت قد أنجزت عملية تحديث هائلة خلال العقود الثلاثة الأولى من حكم محمد على. سبقت نهضة اليابان، بما يقرب من ستين عاما، حتى يقال إن اليابان أوفدت بعثة إلى مصر لتستفيد من تجربتها التحديثية الثانية فى عصر إسماعيل.

وإذا كان مترجم الكتاب يعود فى المقدمة إلى الأسباب التى أفضت إلى مأزق النهضة

العربية، قياسا على تفوق التجربة اليابانية، فإن الدكتور شكرى عياد يؤكد أن الصيغة المركبة الأصيلة التى أبدعها اليابانيون، وامتازوا بها عن سائر شعوب الأرض، مستمدة من تاريخهم الثقافى، وأننا لا نستطيع أن نأخذها عنهم، وإنما يجب أن نبحث عن أصالتنا نحن المختلفة، لأن تاريخنا الثقافى مختلف . إن المسلك الإيجابى الذى يطرحه الكاتب هنا ويؤكد عليه فى أكثر من موضع، يتمثل فى أن الخروج من الأزمة بهدف بناء ثقافتنا المعاصرة . لابد أن يتفق مع تراثنا من ناحية والأخذ بكل جديد نافع من الحضارة الغربية من ناحية أخرى . إن هذا المسلك هو الذى يكفل التوصل إلى الصيغة المركبة، المعبرة عن خصوصيتنا الحضارية.

● الليالي وقضية المرأة

فى جزء خاص من الهلال (إبريل ١٩٩٥) عن «ألف ليلة وليلة» يفتتح الدكتور شكرى ملف العدد بمقال شائق حول «الليالى وقضية المرأة».

لقد استوقفنى فى هذا المقال موقف الناقد الكبير تجاه الدراسات الأدبية التى تناولت هذا العمل وأول هذه الدراسات ـ بالطبع ـ الدراسة الرائدة للدكتورة سهير القلماوى التى يحتفى الكاتب بدورها وتأثيرها فى أجيال تالية خصوصا وأنها قد طرقت بابا من أبواب الدراسات الأدبية، كان الباحثون يحجمون عن طرقه، تأففا أو استنكافا للدخول فيه.

يضع الكاتب الدراسة الرائدة فى سياقها التاريخى والاجتماعى ويربطها بالحركة النسائية، التى كانت منذ نشأتها فى مصر وثيقة الصلة بالثورة الوطنية، ومن ثم كان طابعها اجتماعيا واضحا.

ولقد استمرت الليالى فى تفاعلها مع مختلف الاتجاهات الفكرية والأدبية وأصبحت محورا لكثير من الدراسات النقدية التى تعكس، بوضوح نموذجى، حالة هذه الدراسات بوجه عام.

لايعلن الكاتب فى مقاله أنه يقدم «نقد النقد» الذى تناول الليالى بالتحليل والدراسة، إن استخدام مثل هذا المصطلح قد يربك القارىء العادى. لكن الدكتور شكرى عياد يحيط بمنطلقات المناهج النقدية المستخدمة ويبسطها للقارىء بعد أن يكون قد جذب انتباهه بالاشارة إلى كيفية تناول الأثر الشعبى لموضوع العلاقة بين الرجل والمرأة ، فالليالى قدمت ولاتزال تقدم «أعمق معالجة لأهم موضوع شغل به الأدب الشفوى أو المكتوب منذ أبدعت البشرية أدبا».

وإذا كان الدكتور شكرى عياد يعد أحد أقطاب المنهج التاريخى فى مجال الدراسات الأدبية، فإنه لا يحجم عن انتقاد النظرة الضيقة التى تختزل ثراء الخيال

فى الليالى، كما تختزل التراكمات الثقافية بالغة الغور في تاريخ البشرية، إلى أصل بسيط يرتبط بالظروف السياسية والاجتماعية فى الإمبراطورية الساسانية أو الدولة العباسية أو العصر المملوكي في مصر.

إن ذلك العمل الموسوعي التجميعي الفريد ـ وفقا للنظرة التاريخية المتعمقة التى يؤثرها الناقد الكبير ـ يتألف من «طبقات ثقافية» متراتبة أو متداخلة، لا تعبر عن سياقها الزمانى والمكانى فحسب، بل إنها تكشف السمات الراسخة فى الوعى البشرى، على نحو ما نجد فى الجانب الأسطورى ، فضلا عما تحفل به الليالي من اقتباسات شعرية ونوادر وأمثال وحكم وطرق في القص، تمزج التجارب اليومية بالخوارق من كل نوع، بما يجعل الليالى أثرا أدبيا خالدا ونبعا لاينضب على امتداد تاريخ الأدب العربى والعالمى فى آن.

يتخذ الدكتور شكرى عياد موقفا نقديا ايضا من الاتجاه البنيوى الذى يحاول المتأثرون به النظر إلى الليالى بوصفها نصا أدبيا قائما على عدد كبير من التقابلات الثنائية، ومن بينها التقابل بين الرجل والمرأة . ولكن الناقد يرى أن هذه المحاولة نفسها قد أدت إلى غياب رؤية وحدة العمل الأساسية، لصالح إبراز قانون الثنائيات المتعارضة.

ويرى الناقد أن الاتجاه النقدى الذى يصدر عن الحركة النسائية المعاصرة . يعمل على إسقاط مشكلات النقد النسائى الغربى على «ألف ليلة وليلة» بهدف تصوير مغرض لوضع المرأة الشرقية، يتضافر والصورة المغرضة التى تلح عليها أجهزة الإعلام الغربى.

ينتقد الدكتور شكرى عياد منطلقات النقد النسوى الغربى لغياب البعد الاجتماعى وما يطلق عليه «الأصولية النسائية» معتمدا على التحليل اللغوى لأصول الكلمات. لكنه يكتشف أنه ـ وهو يفصل الحديث عن الدعوة المطالبة بتغيير لغات البشر، حتى لا تميز بين الذكر والأنثى ـ قد حذف ضمير النسوة ـ عن غير قصد ـ فكتب «هم» و «يعترضون» و «يقنعهم» ويعقب ساخرا «لعل دعوة الأصولية النسائية قد بدأت تؤتى ثمارها بالفعل».

لا أشك فى أن الدكتور شكرى عياد يستخدم السخرية هنا بهدف تنبيه الأذهان إلى موقف له أصيل، يأخذ بدواعى الدرس المتأنى لما يفد إلينا من نظريات ومناهج، قد يهرع البعض إلى التحمس لها وتبنيها، برغم انتزاعها من جذورها الفلسفية ومن سياقها الفكرى والاجتماعى فى الغرب، أو بغير إعمال الوعى النقدى الضرورى لتبين المرامى القريبة والبعيدة فى هذا المجال . وما قد يتناقض منها مع قضايانا الاجتماعية وهويتنا الثقافية. لكننى أحسب أن القطاع الأعرض من الكاتبات والباحثات المصريات يلتزمن بالبعد الوطنى فى أعمالهن . ويقدمن قضايا المجتمع والحياة من منظور، لا تنفصل فيه الهموم العامة عن رؤيتهن الخاصة. وليسمح لى الأستاذ الجليل وكذلك قارىء مجلة الهلال ـ وقد اثبت ضمير

النسوة في موضعه - أن أبدي اجتهادي في هذا الموضوع. إننا لا يمكن أن نغير قانون اللغة وإنما ما يمكن أن نغيره هو معايير القيمة التي تنسب إلى تاء التأنيث ونون النسوة، وغير ذلك مما يخص المرأة في مجال الثقافة والأدب والحياة بوجه عام. ولعل الموقف المتحضر الذى يتناول به الدكتور شكرى عياد نفسه قضية المرأة فى الليالى يقدم لنا مدخلا مهما لإعادة قراءة هذا الأثر الشعبى بالغ الثراء والعمق، الذى يقبل تعدد القراءات وتعدد وجهات النظر.

يتمثل الموقف الحضارى لناقدنا الكبير فى التأكيد على المكانة الرفيعة التى تحتلها المرأة فى الليالى ، خصوصا فى حكاية الجارية، تودد التى ناظرت علماء عصرها فى مجلس الرشيد، وحكاية الأميرة نزهة الزمان بنت الملك عمر النعمان، وكانت عالمة حكيمة، والملكة مرجانة التى قادت الجيوش وقبضت على أمور مملكتها بيد من حديد، فضلا عن الملكة بدور التى نهضت بأعباء الملك فى غياب زوجها بكفاءة تامة. وإذا كانت الليالى تحفل بحكايات العجائز والصبايا الساحرات فإن شهرزاد نفسها لم تكن ساحرة «ولكنها روت حكايات السحرة فأصبح لحكاياتها فعل السحر المغير للنفوس. وهكذا ولد الفن وولد معه الانسان المتحضر».

● مراجعة الابداع

تتميز مقالات الدكتور شكرى عياد المخصصة فى باب «القفز على الأشواك» لمراجعة الابداع الأدبى بتنوعها الكبير وتناولها لأعمال مختلف أجيال الكتاب ولاتجاهات روائية وقصصية وشعرية متباينة.

وإذا كانت هذه العجالة تضيق عن الإلمام بوفرة إسهام الناقد الكبير فى هذا المجال، فإن إشارة موجزة لتحليله لعمل روائى صدر حديثا، وقوبل بحفاوة نقدية بالغة، ربما تقدم صورة لنهج المراجعات الأدبية فى مقالات الدكتور شكرى عياد.

يشير الناقد فى عرضه لرواية «الحب فى المنفى» لبهاء طاهر (الهلال - سبتمبر ١٩٩٥) إلى أسرار الصنعة الفنية المحكمة والخفية فى آن، ويرجعها الى الطريقة التى ينسج بها الروائى عمله، وقدرته على جذب انتباه القارئ بما يدخله إلى عماله الروائى، ويبقيه يقظا مترقبا إلى أن يفرغ من القراءة.

ولا يقتصر إحكام الصنعة الفنية فى هذه الرواية على التوزيع المتقن للأحداث ولا على دقة رسم الشخصيات فحسب بل يتجلى فى عناصر العمل كله وأدق تفاصيله، وعلى الرغم من ان الرواية تتميز بالوضوح، واليسر فإنها تكشف فى العمق عن رؤية ثاقبة ومركبة لواقعنا المصرى والعربى والوضع الإنسانى المعاصر بصورة عامة.

يلجأ الدكتور شكرى عياد إلى التحليل الأسلوبى للفقرة الافتتاحية فى الرواية ويوضح دلالتها بالنسبة إلى طريقة النسج من ناحية، بينما تشكل الفقرة نفسها من ناحية أخرى بؤرة

الزمن الدائرى الذى سيجد القارىء نفسه متحركا فيه مع الراوى والشخصيات الروائية. هذه الدائرة نفسها تبدأ لينة وهينة لكنها ما تلبث أن تضيق ويتسارع إيقاع دورانها الجهنمى لتفضى إلى دائرة ثانية هى «الزمان - المكان» السياسى، ومركزها مدينة المنفى الأوروبية ، حيث يظهر التناقض بين ظاهر المدينة الهادىء المنظم وما تحفل به من أنواع الظلم الاقتصادى والعرقى وكل أنواع المؤامرات السياسية التى تتكشف للراوى وللقارىء معا على نحو متدرج.

ثم هناك دائرة ثالثة، يغوص فيها الراوى ، اشبه بالدوامة وهى دائرة «الزمن - الإنسان» . إذ يبدو للراوى أن الإنسان الفرد لن يجد ذاته أبدا، وأقصى ما يستطيعه هو أن يختلس من الزمان لحظات التواصل الإنسانى الحميم قبل النهاية المحتومة.

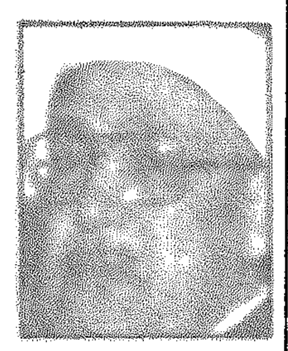
وإذا كان الناقد قد بدأ مقاله بتحليل أسلوبى فإنه يخلص فى النهاية الى تقييم العمل الروائى فى سياق اتجاهات الرواية المعاصرة. إن هاجس الكتابة لدى بهاء طاهر مستمد من واقع الحياة كما لاحظها وجربها.. ولكن مفهوم الواقع يتغير من عصر الى عصر. والرواية الواقعية التى قدمها بهاء طاهر تبدأ من الشعور بمشكلة حقيقية تؤثر فى مصير الإنسان الفرد وفى مصير الجنس البشرى فى آن واحد. ومن هذا المنطلق يرى الدكتور عياد أن الحب فى المنفى» قد استطاعت أن تقدم نموذجا لهذا اللون الجديد من الواقعية

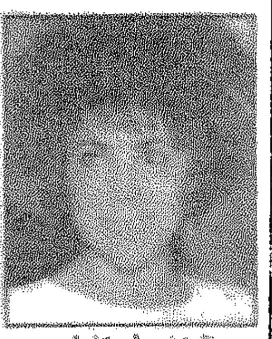
استطيع أن أجمل بعض خصائص مقال المراجعة النقدية لدى الدكتور شكرى عياد التى تظهر فى حرصه علي وضع العمل الأدبى فى سياقه التاريخى من ناحية والسياق الأدبى المصرى العربى والعالمى، المحيط بالكاتب أو الذى تأثر به من ناحية أخرى، أما تحليل العمل نفسه، فيجمع بين تعريف القارىء بالحدث الروائى وكيفية التعبير عنه . أى وسائل التقنية المستخدمة فى الصياغة الأدبية ومدى نجاح الكاتب أو إخفاقه فى تجسيد رؤيته. ثم يخلص فى النهاية الى بلورة القيمة الأدبية للعمل، بما يحقق شرط الفن، متمثلا فى العمق الإنسانى للرؤية ونوع الرسالة التى يحملها العمل الأدبى.

ولا ينفصل ذلك كله عن مهمة الكاتب الأساسية وهى الوصول الى القارىء بما يجعله يتفاعل مع العمل الأدبى ويؤثر فيه وجدانيا وعقليا.

وأخيرا فإن الدكتور شكرى عياد صاحب قلم نزيه، يقف بشموخ مفكر ينأى، بعزم لا يتزعزع، عن التفريط فى كرامة العلم والعلماء، تشغله مشاكل الواقع ويحلم من أجل المستقبل ويعمل على تحقيق الحلم بطاقة عطاء نادر ويواصل «نداء» العمل الحر المستنير، فيوجه دعوة إلى زملائه وأبنائه الكتاب للمشاركة فى تأسيس مجلة ثقافية مستقلة، صدر عددها التجريبى الأول منذ أسابيع قليلة.

أقوال معاصرة


الشيخ الغزالي


اليزابيث تايلور


شيمون بيريز

●● لا يمكن أن تنجح الأمة الإسلامية بالغش فى عقائدها والاضطراب في مناهجها ان كنا نريد حقا نصرة أنفسنا وقضايانا في هذه الأيام

الشيخ الغزالى الداعية الاسلامى الكبير

●● «الافضل للمرء ان يفشل فى شىء يستمتع به، من ان ينجح في شيء يكرهه».

چورج بيرنز
الممثل الامريكى الذى احتفل بعيد ميلاده المئوى فى ٩٦/١/٢٠ ومات بعد خمسين يوما

●● «لم اقرأ جميع الكتب التى ألفتها»

الاديب برازيل ريوكى اينوى
الذى كتب ١٠٣٩ مؤلفا

●● «استطلاعات الرأي العام، تشبه نشرات الانواء الجوية، لا تستطيع ان تعتمد عليها لاكثر من يوم واحد»

شيمون بيريز
رئيس وزراء اسرائيل

●● «معظم النواب غير متحضرين وجهلاء وضيقوا الأفق، وهم بكل تأكيد غير مثقفين»

وزير الخارجية السابق «دوجلاس هيرد» عن نواب مجلس العموم البريطانى

●● «الجديد لا يأتى الا من التفسخ والتناقض والتضارب في الشخصية».

الشاعر اللبنانى صلاح ستيتيه

●● «يا الهي.. لن اتزوج ابدا بعد الآن».

النجمة اليزابيث تايلور بمناسبة طلاقها الثامن

●● «اكره كلمة قصة، لم اعد استطيع ان افهم لماذا تعطى هذه الاهمية لكتابة او قراءة قصص مخترعة»

القصاص ف. س. نايبول

●● «أنا سعيدة لاننى لم ارشح للأوسكار مع اى خنزير».

النجمة سوزان ساراندون
بمناسبة ترشيح فيلم بطل خنزير للأوسكار

القفز على الأشواك

بقلم : د. شكرى محمد عياد

« أوراقى .. حياتى »

□ هل يمكننا بالكتابة أن نصنع شيئا؟ .سؤال يبدو غريبا ومبهما ، كما يبدو أنه يهم الكتاب دون القراء . وإذا كانت فيه هذه الصفات الثلاثة فهو بداية سيئة جدا لمقال . فلنبدأ بالصفة الثالثة . فهل صحيح أن «الكتابة» عمل خاص لبعض الناس الذين يسمون أنفسهم كتابا؟ . هل يوجد «كاتب» لا يحاول أن «يقرأ» ما فى ذهنه ، وما فى ذهنك أيضا ، قبل أن يحوله إلى رموز مقروءة على الورق ؟ وهل يوجد قارىء لا «يكتب» ما يقرؤه أو لا يعيد كتابته فى ذهنه ، قبل أن يستطيع القول إنه «قرأه» فعلاً ، ألا تراك تتوقف أحيانا أمام كلمة ، أو جملة ، ولا تستريح إلا بعد أن تضع لها مرادفا فى ذهنك ، وأحيانا عدة مرادفات محتملة ؟ صحيح أن الذين يتنقلون بين عملية القراءة وعملية الكتابة هم قلة من الناس ، ولكن الكتابة والقراءة لا تختلفان كثيرا عن الكلام والإنصات . من الناس من يميلون إلى الكلام ومنهم من يميلون إلى الإنصات . والغالب أن أحسن المتكلمين هم من يحسنون الانصات ، كذلك يمكن أن يقال إن أحسن الكتاب هم أحسن القراء ، والعكس أيضا صحيح .



الكتابة والقراءة ، إذن ، كلتاهما كمال بشرى . والسؤال : هل يمكننا أن نصنع شيئا بالكتابة يهم الكتاب ، الذين هم أيضا قراء ، كما يهم القراء الذين هم

أيضا كتاب ، ولكنه يظل سؤالا غريبا . فالناس يكتبون ويقرءون منذ أقدم العصور بل إن العصور التى سبقت القراءة والكتابة تسمى ببساطة : «عصور ما قبل التاريخ» ، عندما «لم يكن الانسان شيئا مذكورا» فهل سألوا أنفسهم هذا السؤال؟ وإذا كانوا قد سألوه وأجابوا عنه ، فلماذا نعيد طرحه الآن ؟

●أغراض الكاتب

لعل أقدم إجابة وأشهرها هى قولهم إن الكاتب يكتب لأحد غرضين : إما أن يفيد وإما أن يمتع . ومن قديم أيضا حاول بعضهم أن يجمع بين الإفادة والإمتاع ، فنظم أمبادوقليس فلسفته شعرا ، وكل الانبياء - من وصلت إلينا كتبهم - صاغوا تعاليمهم أمثالا وحكما ، وابن مالك نظم ألفية مقاصد النحو بها محوية ، غير أن هذه التجارب كانت - غالبا - فاشلة ، فأصبحت الكتابة للإمتاع هى القاعدة ، حتى حين يستأجر الكاتب لترويج فكرة ما ، وكانت منزلة الكتابة وخطوط الكتاب تعلو وتنخفض تبعا لمزاج الجمهور الذى يحاولون أن يمتعوه ، أو حاجة الجهات التى تريد أن تستخدمهم . ولكنهم على كل حال كانوا أقل حظا من المغنين والرقاصين والمهرجين ، الذين أقبل عليهم الجمهور بحماسة أكبر ، ولذلك ضرب المثل بحرفة الأدب فى الفقر ، وشبه سواد عيشه بريش الغراب ، وضيق عيشه بشق القلم (وذلك طبعا قبل اختراع القلم الجاف) .

ولذلك يبدو السؤال غريبا : هل يمكننا بالكتابة أن نصنع شيئا ؟ فهذا ما صنعه الكتاب دائما، ومازالوا يصنعونه . اساتذة الجامعات - مثلا - يؤلفون الكتب ليفيدوا تلاميذهم علماً ، وبعض هؤلاء الأساتذة يجنون من كتبهم رزقا حسنا ، ولكن بما أن الكتابة ارتبطت غالبا بالغرض الثانى وهو الإمتاع ، فان هذه القلة لا يقاس عليها، كما لا يقاس على القلة الأخرى ، التى تستطيع أن تنفذ إلى وسائل الاعلام الجماهيرية (ولاسيما) التليفزيون، أو القلة الأخرى التى تحصل على الجوائز ، عن طريق ارضاء النقاد ، فالكتابة عند هاتين الفئتين وإن كانت - نظريا - كتابة فنية يقصد بها الامتاع فهى خاضعة لتوجيهات تفرض عليهم من الخارج . وتبقى الكثرة الغالبة ممن يكتبون ويقرءون يسألون أنفسهم : هل يمكننا بالكتابة أن نصنع شيئا ؟ وكثيرا ما يكون السؤال غصة فى حلوقهم ، تدعوهم إلى أن يشيحوا بوجوههم «وينصرفوا إلى مشاغل أخرى، حتى بتنا نخشى على فصيلة «الكاتبين القارئين» من الانقراض .

●الكتابة الفنية

إذن فهو سؤال غريب حقا ، بل أكثر من غريب . هو سؤال مؤلم .

وأما أنه سؤال مبهم أيضا ، فلأننا تركنا هذا «الشيء» الذى نتساءل عن إمكان صنعه بالكتابة ، تركناه دون تعريف

أو تخصيص . فإذا كانت «الكتابة» المقصودة بالسؤال خارجة عن نوع الكتابة العلمية التى يضطر التلاميذ إلى قراءتها بل وإلى استظهارها من أجل كسب القوت، وإذا كانت الكتابة القائمة بذاتها، والتى نسميها احيانا الكتابة الفنية . ونصفها أحيانا بأن الغرض منها هو المتعة الخالصة أو تذوق الجمال الأدبى قد أصبحت - أكثر من أى وقت مضى - غير قادرة على أن تقوم بذاتها ، فأى «شىء» بقى أمامنا حتى نصنعه بهذه الكتابة ؟

لعلى لم أحسن التعبير عن ورطة الكاتب المعاصر ، وهو القارىء المعاصر أيضا . ولكننى تجنبت صياغة أخرى للسؤال يمكن أن تبدو أكثر حيادا وموضوعية ، ولكنها يمكن أن تفهم بسهولة على أنها سؤال انكارى ، ما قيمة الكتابة فى العصر الحاضر ؟

لا أشك فى أن هذا السؤال قائم دائما كالشبح فى ذهن كل كاتب قارىء فى زمننا هذا ، وأننا إذ نمضى فى الكتابة والقراءة إنما نفعل هذا وكأنه قدرنا الخاص الذى لايمكننا الفكاك منه ، ولكننا، فى لحظات أكثر إشراقا ، ربما قلنا لأنفسنا إننا بالكتابة وليس بأى شىء غيرها ، يمكننا أن نصنع «شيئا» مهما جداً ، هذا الشىء هو أن نعرف أنفسنا . إذ كان كثير من المفكرين ينذروننا بأننا نوشك أن نتلف كوكبنا الارضى بحماقتنا واسرافنا ، فما أحوجنا أن نرجع إلى الحكمة العتيقة التى كتبت على معهد الفن، والتى اتخذها شيخ الفلاسفة سقراط نبراسا لتعاليمه «اعرف نفسك» أليس هذا اصل التكليف ، امتياز الإنسان وبلاءه جنسا وأفرادا ، الأمانة التى اشفقت منها الأرض والجبال ، وحملها الإنسان ، ذلك الظلوم الجهول ؟

● صواعق تنهد منها الجبال

فى هذا المنعطف الخطير من تاريخ الجنس البشرى ، لا مفر للإنسان من أن يزيح طبقات الظلم والجهل التى تراكمت فى داخله حتى يعرف من هو وما هو وأين يقف . هذه مهمة لايمكنه أن يقوم بها إلا فردا، ولا يمكنه أن يقوم بها إلا جنى «يكتب» .

«يكتب» - أى كلمة مرعية إذا كنت تكتب (أى تقرأ) لتعرف نفسك ، فيجب أن تستعد لتلقى صواعق تنهد منها الجبال .

الكتابة المعاصرة أكثرها وأجلها صورة أو أخرى من الترجمة الذاتية، ولكن هذه الصور متفاوتة القيمة حسب قوة شعور الكاتب بفداحة مهمة الكتابة ، والكاتب بشر عادى لا يتنزل عليه وحى من السماء ، فليس فى استطاعته - ولا فى استطاعتك - أن تكون دائما مشدود الحواس ولا قادراً على الغوص إلى أعمق الأعماق. اللغة نفسها لا تساعد كما إلا على أقل القليل من ذلك . إذا وجدت الكاتب يشكو من استعصاء اللغة أو

خيانتها فلا تظن أنه يتكلم عن الصنعة، إنما هو يحاول أن يطهر اللغة من كل الشوائب التى تجعل مكاشفته إياك بالحقيقة الكامنة فى أعماقه ، ومغامرته بعرضها على حواسك الظاهرة فى كامل عريها وبراءتها ، أقل صدقا وأقل جرءا وهنا يكون غالبا فى أحسن حالاته ، فمن هو الذى يجرؤ على أن يكون صادقا كل الصدق ؟

الكتابة - بهذا المعنى - معاناة حياة . «أوراقى .. حياتى» . كم هو موفق هذا العنوان الذى اختارته نوال السعداوى لأحدث كتبها ، وأهمها جميعا فى تقديرى. إنه يتجاوز كل تصنيف شكلى للسيرة الذاتية حتى يصبح مشاركة حقيقية فى تجربة الحياة . وإذا كان فى هذه التجربة الكثير الكثير مما يخص نوال السعداوى - إنسانة وكاتبة - فإن الجواهر المضيئة التى تلتقطها وهى سائرة فى دروب الحياة توهمنا بأننا - حقا - نملك فى اعماقنا كنوزاً لم نكن نعرفها . من الذى لايعرف نوال السعداوى كاتبة جريئة ومناضلة عنيدة فى الدفاع عن حقوق المرأة ؟ من الذى لا يستطيع أن يقول ببساطة - ومهما يَكن قليل الإلمام بالثقافة النفسية - إنها وهى الأنثى تطبعت بالكثير من الأخلاق التى تعودنا أن نربطها بالرجولة؟ إنها تتحدث عن حلم «الطيران» الذى لازمها منذ الطفولة ، والطيران - فى التفسير الفرويدى - يعنى بالنسبة للفتاة الحلم بأن تصير رجلا .

ربما كانت هذه سمة خاصة فى تجربة نوال السعداوى النفسية ، ولكن من منا لم يقف أمام «وجوده» الخاص موقف التساؤل ، أو حتى الإنكار ؟ من منا لم يشعر أن ما يراد منه شيء ، وما يريده هو من نفسه شيء آخر ، من منا لم يشعر أنه تائة بين شخصية يرسمها له الناس ، وشخصية أخرى يبحث عنها داخل كيانه ولا يجدها ؟ من منا لم يشعر أن للأشياء حقائق لا تعبر عنها الأسماء ولا يعرف هو كيف يسميها ؟ ولكن ليس كلنا يملك الاصرار على المعرفة ، التى لاتكون إلا بالكتابة ، ومعاودة الكتابة مرة بعد مرة ، وتجرع مرارة الفشل مرة بعد مرة . قد تكون بداية الكتابة عند نوال السعداوى نابعة من شعور مبكر جدا بالفرق بينها وبين أخيها الذى يكبرها بعام واحد ، ولكنها ستمضى اشواطا كثيرة فى محاولة اكتشاف الفروق بين الأشخاص والأشياء، لأنها لاتريد ، فى النهاية، إلا أن تحدد حقيقتها هى وسط التيار المتدفق من الأشخاص والأشياء والأحداث ، ولن تجد طريقة للامساك بحياتها إلا من خلال أوراقها، منذ كانت طفلة تنتقل مع اسرتها من القرية إلى المدينة ، وتعيش تارة بين أهل أبيها من الفلاحين ، وتارة بين أهل أمها من الاتراك ، وتارة ثالثة بين أترابها من الفتيات فى القسم الداخلى باحدى

المدارس الثانوية ، إلى أن دخلت الجامعة ومارست هواية الكتابة فى بعض المجلات الصغيرة ، لتصبح آخر الأمر كاتبة مرموقة .

«كنت طفلة لا أعرف شيئا عن القرية أو المدينة، لا أعرف أنهما رغم الاختلاف فى كل شيء يتفقان فى شيء واحد ، شيء لا أعرفه بالضبط .. أحسه فوق جسدى قشعريرة . لقد ولدت انثى فى عالم لا يريد إلا الذكور» .

«هذه الحقيقة كانت تسرى فى جسدى مثل قشعريرة البرد أو ربما هى قشعريرة أخرى غامضة مثل الموت . كنت أمسك القلم وأكتب الحروف . أتركها تعبر عن نفسها دون فاصل بين الحرف والحقيقة . لكن الكلمات فوق الورق لم تكن أبدا هى الحقيقة . صراع لم يكن ينتهى بينى وبين الكلمات . بدل أن تكون الحروف أداة اتصال تصبح عازلة بينى وبين الاشياء» .

«أحيانا كنت اكسر القلم .أمزق الورقة. اتوقف تماما عن الكتابة . سرعان ما أعود إليها كما تعود الطفلة إلى حضن الأم . الكتابة فى حياتى مثل حضن الأم . مثل الحب يحدث بلا سبب ، ومع ذلك لم أكف عن البحث عن السبب . لماذا أكتب ؟ لماذا قضيت عمرى أكتب القصص والروايات ؟ ربما كنت أريد شيئا . أن أرسم للعالم من حولى صورتى الحقيقية ، تلك التى يطمسونها بصورة أخرى . أن اجعل الطفلة الصامتة فى اعماقى تنطق». (ص٢٩) .

وقد كتبت نوال السعداوى كثيرا واستطاعت بالفعل أن تعطى صورة من نفسها غير تلك التى حاول مجتمعها أن يطمسها بصورة أو بأخرى ولأنها امتلكت جرأة البحث وجرأة الكشف أصبحت هذه الصورة التى أعطتها عن نفسها وعن بنات جنسها أصبحت معروفة ومقروءة على نطاق واسع فى العالم العربى وخارجه . ولكن هل هذه الصورة التى أعطتها هى «صورتها الحقيقية؟» إن الباحث فى أعماق نفسه لا يمكنه أن يكون مبرأ تماما من تأثير العالم المحيط به . ربما كان البحث عن الذات نوعاً من رد الفعل ، نوعا من الدفاع عن الذات ، وهنا يمكن أن تخرج «الحقيقة» مشوهة إلى حد ما . هل «الحقيقة» التى نبحث عنها فى داخل نفوسنا تعنى محاولة لإثبات الذات أم إننا يمكن أن نظل نحفر ونحفر حتى نصل إلى حقيقة أخرى مناقضة وهى إفناء الذات ؟ وإلى أين وصلت نوال السعداوى فى بحثها ؟

● مركزية الذات

إن الصورة التى ينجح الكاتب فى اعطائها عن نفسه قد تصبح أكبر عائق بينه وبين حقيقة نفسه ، لعل البداية هى دائما نوع من مركزية الذات – هذه المركزية هى بداية الوعى عند كل انسان– ولكن هذه المركزية يمكن أن تحول بينه

وبين الرؤية الصحيحة (والصحة دائما نسبية) لما حوله . وهنا يصبح انعكاس الاشياء على نفسه مضللا . يتوهم أنه مركز الكون ، وإذا تمكن من هذا الوهم فإنه لا يصبح مغتربا عن العالم فقط ، بل عن نفسه أيضا .. هذا هو الخطر العظيم الذى يتربص بكل كاتب ، ولا أحسب أن نوال السعداوى قد نجت منه تماما . إن المطابقة التى حققتها بين ذاتها وبين هموم المرأة فى وطننا قد أنستها - مثلا - أن للرجل هموما مشابهة . «الختان» مثلا يبدو للطفل الذكر - الذى يخفى عنه أهله حقيقة العملية - عدوانا مقصودا على ذكورته . إن القرابة الحميمة بين البنت وأمها لا تقابلها قرابة مماثلة بين الابن وأبيه . قد تكون محنة الإنسان فى هذه الدنيا واحدة ، سواء أكان ذكرا أم أنثى .

يمكننى أن أذكر أمثلة كثيرة لطغيان «مركزية الذات» ، ومع ما يتبعها من المطابقة بين الكاتبة و«قضية المرأة» فى كتابات نوال السعداوى ، وفى هذه الأوراق على الخصوص ، إن هذه المركزية تحول فى أحيان كثيرة إلى انطباعية مسرفة إنها - مثلا - تجعل ارتجاج التاكسى حين يقع فى حفرة ناتجا عن خفقة قلبها (ص ١٢١) وهناك قدر كبير من المعلومات التاريخية الخاطئة التى يمكن أن يحصل عليها القارىء من كتاب نوال السعداوى لم يكن «للمليم» مثلا تلك القوة الشرائية الهائلة التى تصفها (ص٥٤) . وبقدر ما تبتعد نوال السعداوى عن واقع القارىء العربى (أو القارئة العربية) نراها تقترب عامرة من قرائها الأجانب حين تتحفهم بنبذ عن عيد الأضحى أو عن هجرة الرسول ، لأنها تعلم أن الكثير من الأجانب لايبحثون فى أدبنا عن قيمة فنية، بل عن قيمة إثنوغرافية .

ولكن القارىء (الغربى) يفتقر مثل هذه المبالغات ، لأن نوال السعدواى تكتب دائما بتلقائية مدهشة - أو هكذا يشعر ، رغم تاريخها الطويل فى ترويض اللغة . إن حركات راقصة البالية تبدو لك خفيفة رشيقة كطيران الفراشة. ولكن تلقائية نوال السعداوى فيها أيضا الشىء الكثير من مدرسة «ايزادورا دنكان» وفى اندفاعها هذا لايهمها احيانا أن تعطى من نفسها صورة مناقضة لتلك الصورة التى نجحت فى تثبيتها فى اذهان الناس : إن هذه الصورة لا علاقة لها بالتصوف مثلا ، ولكننى لم أقرأ تعريفا للحب أكثر صوفية من قولها (ص ١٨١) :

«لم يكن الحب يرتبط بنوع الجنس . كان نوعا آخر من الاحتياج يرتبط بنوع الانسان ، أو الإله الذى كنت أبحث عنه فى طفولتى دون جدوى » .

وبهذه العبارة الجميلة أحب أن أختم مقالى .

البحث العلمى «الأكاديمى» فى مصر

هل له مستقبل ؟





د. فينيس كامل

بقلم : د . أحمد أبو زيد

□ التصريح الذى أدلت به السيدة وزيرة البحث العلمى للأهرام يوم ١٩٩٦/٢/٨ حول تصورها لمهمة البحث العلمى وخطط تطوير أداء ذلك القطاع العام ، فى ضوء سياسة الإصلاح الاقتصادى التى تتبعها الدولة فى الوقت الحالى ، خليق بأن يجد ما يستحقه من عناية ومناقشة ، خاصة وأن نظرة السيدة الوزيرة يبدو أنها تختلف اختلافا جذريا عن الفكر العام السائد فى الوقت الحالى عن أسلوب أداء البحوث وتمويلها بل ووظيفتها .

وحتى نضمن موضوعية مناقشة الآراء التى وردت فى تصريح سيادتها نورد هنا نص ذلك التصريح :

«تدرس وزارة البحث العلمى حاليا عدة خطط لتطوير أداء قطاع البحث العلمى بما يتلاءم مع خطة الإصلاح الاقتصادى . وصرحت الدكتورة فينيس كامل جودة وزيرة البحث العلمى بأن الهدف النهائى للتطوير أن يلعب البحث العلمى دوراً كقطاع تجارى - أو قطاع بيزنيس - يسعى للربح وإرباح الآخرين معه من خلال تحسين منتجاتهم ورفع كفاءة استغلالهم للموارد وحماية البيئة ، وأن يعمل من أجل تسويق منتج وليس من أجل درجات علمية . وأضافت أن النظم القانونية والإدارية التى تعمل المراكز البحثية المصرية وفقاً لها حاليا قد تعوق ذلك ، وأنه لا مانع من طرح مشاركة

القطاع الخاص فى ملكية المراكز والمعاهد البحثية للمناقشة ، وإن كان يكتفى حاليا بأن يشارك القطاع الخاص فى الأعمال والأنشطة دون الملكية . وأكدت الوزيرة أنه سيتم العمل على تغيير كل النظم الحالية ، وسيتم البدء بمدينة مبارك للبحوث العلمية التى سيكون من حق المراكز البحثية والباحثين فيها عمل شركات لتسويق منتجاتهم وعمل تطبيقات تكنولوجية مع المستفيد منذ البداية ، ولن تتم الموافقة على أية بحوث إلا بعد توافر الطلب التطبيقى عليها ، أى سيسبق الطلب والأبحاث وليس العكس . والطلب سيأتى من القطاع الخاص أو العام ، وإن لم يأت فسيكون على الباحثين السعى لإيجاده ، وسيكون للعميد أو رئيس الجهة البحثية بالمدينة وضع الميزانية دون الرجوع لوزير المالية ، ومن حقه ترحيل الاعتمادات من سنة لأخرى وإنشاء شركات تابعة له والاشتراك فى تأسيس شركات وإبرام اتفاقيات وعقود مع الشركات والهيئات والمنظمات المحلية والأجنبية فى مجالات اختصاصاته وحق إنشاء وحدات للبحوث والتطوير وتنمية التطبيقات التكنولوجية بالتعاون مع جهات الإنتاج والخدمات ووضع نظم التوظيف والهياكل بها ، وتحديد جداول المرتبات وقواعد التعيين والترقى وسائر شئون التوظيف دون الالتزام بالتشريعات السارية وتدرس حاليا سبل تطبيق هذا التفكير الجديد على كل المراكز العلمية الوطنية كى تنطلق وتصبح أكثر انفتاحا مع مراكز الإنتاج والخدمات ، وتشير الوزيرة إلى أن هناك خطة ١٠٠٠ باحث فى المصانع ومواقع الإنتاج لدراسة كيفية الارتقاء والتحديث واسترجاع المواد الفاقدة وتحويلها إلى مصدر للربح والوفر وجودة المنتج والوصول بسعره إلى المستوى التنافسى ، وستستعين بالشراكة الأمريكية والأوربية فى ذلك ، وتقول الوزيرة إن إدخال مفاهيم السوق والاستثمار إلى قطاع البحث العلمى سيغير إلى حد كبير من طريقة التفكير فى قضية الإنفاق على البحث العلمى وربطها بنسبة محددة من الدخل القومى ، ولذلك لن تطالب الدولة برقم محدد ينفق على البحث العلمى ، ولكن ستطلب مبالغ حسبما يحددها الباحثون أنفسهم فى المراكز المختلفة مع الوفر والربحية المتوقعة من وراء الإنفاق على الأبحاث سواء كانت مباشرة أو غير مباشرة . ولقد حرصت على أن أنقل الخبر أو التصريح بكامله وحرفيته حتى يرى القارىء ، الذى قد يكون فاته الاطلاع عليه من قبل أبعاد المشكلة التى يراد

عرضها ومناقشتها هنا .

● جوانب إيجابية

وليس هناك منذ البداية شك فى أهمية إفادة الأنشطة الاقتصادية المختلفة، وبخاصة فى مجال الصناعة ، من نتائج البحث العلمى أو فى ضرورة استعانة هذه الأنشطة بالبحث العلمى كلما أمكن ذلك من أجل تحقيق أفضل النتائج . كذلك ليس ثمة شك فى أن تصريح السيدة الوزيرة فيه كثير من الجوانب الإيجابية التى تتعلق فى المحل الأول بالجوانب الإدارية ، مثل وضع نظم أكثر جدوى وفائدة تتعلق بالتوظيف وتحديد جداول المرتبات وقواعد التعيين والترقى وسائر شئون التوظيف دون الالتزام بالتشريعات السارية الآن كما جاء بالنص فى تصريحها ، وهى على أية حال أمور تضع فى صورتها الحالية كثيرا من العوائق أمام إجراء البحوث العلمية والإفادة منها ، والتغلب عليها سوف يكون خطوة مهمة نحو الانطلاق بالبحث العلمى فى طريقه الصحيح والسليم . وربما تكون كل الاقتراحات والخطط التى توضع الآن والتى تهدف إلى «تغيير كل النظم الحالية» أمورا متعلقة بمدينة مبارك للبحوث العلمية مما يجعل لهذه المدينة وضعا خاصا يميزها ، ولكن لا تلبث الوزيرة أن تقول إن هذا التفكير الجديد سوف يطبق على كل المراكز العلمية الوطنية . كى تنطلق وتصبح أكثر انفتاحا مع مراكز الانتاج والخدمات ، مما يعنى فى النهاية أن ثمة سياسة عامة يجرى الآن وضعها لصياغة أساليب وطرق إجراء البحوث العلمية والأهداف التى يجب تحقيقها من هذه البحوث ، وهذا هو بالضبط وبالتحديد المجال الذى يجب أن تدور حوله المناقشة والتحليل للوصول إلى أفضل السبل التى تكفل معالجة الأخطاء التى تشوب عملية البحث العلمى فى مصر وسد النقص والعيوب التى تعانى منها هذه العملية .

وقد نستطيع أن نلاحظ على هذا (التفكير الجديد) – كما جاء فى تصريح السيدة الوزيرة – الملاحظات التالية : مع الاعتراف هنا بأن معظم ما سأتناوله من أمور تدور أولا حول البحث العلمى الاجتماعى باعتباره مجال تخصصى، ومع العلم أيضا بأن أكاديمية البحث العلمى والتكنولوجى تضم مجلسا مهما ضمن مجالسها العلمية يختص بالبحوث الاجتماعية أى أن ما سوف يثار هنا ليس بعيدا بشكل من الأشكال مع مجالات اهتمام الأكاديمية ، ويمكن أن تلخص هذه الملاحظات فيما يلى :

أولاً : أن ما جاء فى تصريح وزيرة

البحث العلمي يشير إلى تغير جذرى فى النظرة إلى فلسفة البحث العلمى ووضع البحوث (الأكاديمية) واعتبار هذه البحوث بحوثا خليقة بأن تحتل مرتبة تالية بالنسبة لبحوث السوق أو على الأصح البحوث التى تهدف إلى الربح والإرباح - حسب التعبير المستخدم بالفعل فى ذلك التصريح. ويتحقق صدق ذلك فيما تقوله الوزيرة من أن البحث العلمي سوف «يعمل من أجل تسويق منتج وليس من أجل درجات علمية» ، وهذه فلسفة جديدة بغير شك فى مصر على الأقل من شأنها إهدار أهمية وقيمة وكرامة البحث العلمى الأكاديمى الذى لا يهدف إلى التسويق وإنما يهدف لأهداف علمية خالصة قد يكون لها ناتج عملي يمكن تسويقه ولكنه لا يشغل بال الباحث العلمى الأكاديمى .

● القومسيونجية !

ثانيا : النظرة إلى البحث العلمى والباحثين العلميين على أنهم مصدر للدخل والربح وليس من منطلق النتائج العلمية ذاتها وفى ذاتها ، سوف يؤدى بالضرورة إلى تراجع أهمية ومكانة الباحثين الأكاديميين الجادين أمام الباحثين الذين يهدفون إلى تسويق منتجاتهم ، بل إن اعتناق هذه السياسة قد يؤدى هؤلاء الباحثين العمليين - تمييزا لهم عن الباحثين العلميين - إذ سيجعل منهم فئة تقوم بدور (القومسيونجية) الذين يتولون أولا بيع مقترحاتهم لإجراء بحوث معينة للشركات أو الهيئات التى تقوم بتمويل البحث ، ثم يعملون على تحقيق الربح لأنفسهم وللمؤسسة البحثية التى ينتمون إليها بالإضافة إلى تحقيق الربح للهيئة الممولة . يؤكد ذلك ما تقوله الوزيرة من أنه لن تتم الموافقة على أية بحوث إلا بعد توافر الطلب التطبيقى عليها وأن الطلب سيأتى من القطاع الخاص أو القطاع العام (وإن لم يأت فسيكون على الباحثين السعى لإيجاده) وهذه عبارة خطيرة لأنها تلخص كل نظرة السيدة الوزيرة إلى فلسفة البحث العلمى وأهميته ودوره ووظيفته فى المجتمع ، وإلى الباحثين العلميين ومكانتهم فى المجتمع ، فالباحث العلمى عليه أن يبحث بنفسه عن مشروع يجد من يقوم بتمويله لكى يحقق فى آخر الأمر ربما لنفسه وللمؤسسة البحثية والهيئة الممولة ، وهذا الربح لابد أن يكون ربحا ماديا فى آخر الأمر . وسوف يتفوق الباحث (العملى) أو القومسيونجى فى ذلك، بغير ، شك على الباحث (العلمى) الذى يتمسك بتقاليد العلم وبالقيم الأكاديمية ، ولكن ماذا يا ترى سيكون تقييم هذا الباحث (القومسيونجى) لنفسه

فى آخر الأمر ومفهوم الباحث القومسيونجى ليس غريبا على التفكير الأمريكى وإن كان جديدا- إلى حد ما على الأقل - على الحياة الأكاديمية المصرية ، فكثير من مراكز البحوث فى أمريكا بل وبعض الجامعات تعين فى وظائفها البحثية الأشخاص القادرين على جلب المشروعات البحثية مع التمويل الخاص بها ، ويظل هؤلاء الباحثون عاملين فى تلك المؤسسات ماداموا يؤدون هذه الوظيفة وإلا استغنت عنهم تلك المراكز أو الجامعات ، وبعض الأساتذة والعلماء المصريين العاملين فى أمريكا ظلوا يشغلون وظائف بحثية فى بعض تلك المراكز والجامعات ، لسنوات طويلة وفقاً لذلك الشرط ، وحين تقاعسوا أو فشلوا فى تحقيق الشرط تخلصت منهم تلك المؤسسات ، وعاد بعضهم إلى مصر أو التحق بوظائف فى الدول العربية .

ثالثاً : إسقاط حقوق البحث العلمى (وأنا استخدم كلمة حقوق هنا عمدا) فى أن يجد التمويل الكافى من الدولة بحيث تخصص نسبة معينة من الدخل القومى للإنفاق على البحوث العلمية فى مختلف المجالات ذلك أنه وفقا لهذا (الفكر الجديد) سوف تتولى الهيئات المستفيدة من نتائج البحوث تمويلها والإنفاق عليها . فإدخال مفاهيم السوق والاستثمار إلى قطاع البحث العلمى سيؤدى - كما تقول الوزيرة نفسها - إلى طريقة التفكير فى مسألة تمويل البحوث وربط مسألة الانفاق على البحث العلمى بنسبة محددة من الدخل القومى وإنما سيكون الطلب بقدر ما يحدده الباحثون أنفسهم وفى ضوء ما يتوقعونه من وفر أو (ربحية) من وراء ذلك الإنفاق . وإذا نحن لم نخطئ قراءة ما تقوله الوزيرة ولم نخطىء أيضا فهم المقصود فإننا نستطيع أن نقول إن البحوث العلمية - وبالذات البحوث الاجتماعية التى تهمنى هنا فى المحل الأول - التى لن تعود بعائد مادى أو ربح لا تستحق التمويل من الدولة . والمعروف أن العائد من البحوث الاجتماعية كثيرا مالا يكون ماديا وحتى لو تحقق مثل ذلك العائد فإنه يحتاج إلى وقت طويل وكثيرا مالا يكون العائد محسوسا ملموسا أو منظورا . ففكرة السوق والربح يبدو أنها تسيطر على هذا الاتجاه الجديد ، والوزيرة نفسها تستخدم كلمة (بيزنيس) حين تقول إن الهدف النهائى للتطوير هو أن يلعب البحث العلمى دوراً كقطاع تجارى أو قطاع بيزنيس يسعى للربح وإرباح الآخرين معه . ولقد سبق أن ذكرنا أنه ليس ثمة ضير فى أن تستعين الأنشطة

الاقتصادية المختلفة بخبرة العلماء وبحوثهم فى الارتقاء بتلك الأنشطة، ولكن أن نجعل الهدف من البحث العلمى هو السعى إلى الربح وإرباح الآخرين ، فهذا هو ما يستحق إعادة النظر فيه .

●مشكلة التمويل

والواقع أن مشكلة تمويل البحوث تعتبر من أهم المشكلات التى يجب الانتباه إليها بشدة . ولقد عقد فى أكتوبر الماضى (١٦ - ١٨ أكتوبر ١٩٩٥) مؤتمر عن (أخلاقيات البحث العلمى الاجتماعى) بالمركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية ، وهو مؤتمر جاد بكل المعايير ولكنه لم يلق ما يستحقه من دعاية وإعلام وإعلان كما هو شأن الكثير من الأعمال الجادة فى مصر . وقد شغلت مشكلة تمويل البحوث جانبا كبيرا من النقاش والجدال وبخاصة حين تطرق الأمر إلى التمويل من مصادر أجنبية والأهداف الحقيقية التى قد تختفى وراء هذا التمويل. ولكن الذى يهمنا هنا هو أن الذى يملك المال يملك اتخاذ القرار فى البحوث ويستطيع أن يوجهها بما يتلاءم مع صالحه الخاص . وتاريخ البحث العلمى فى المجال الاجتماعى ملىء بالأمثلة . وفى أمريكا ذاتها أمكن لشركات صناعة السجائر أن تجد من العلماء الباحثين من يقوم ببحوث ميدانية تبين خطأ القول بأضرار التدخين على الرغم مما تؤكده البحوث الطبية والإحصاءات عن العلاقة بين التدخين وبعض أنواع السرطان ، ولكن تمويل البحوث التى قام بها هؤلاء العلماء كان يهدف منذ البداية إلى تحقيق مصلحة تلك الشركات ، أى أنها كانت من البحوث التى تهدف إلى الربح والارباح ، ولسنا نزعم بطبيعة الحال أن كل البحوث التى تتلقى تمويلا من القطاع الخاص أو القطاع العام سوف تسير فى نفس هذا الطريق الخطر ولكن الاحتمال قائم ولو بنسبة ضئيلة . وصمام الأمان الوحيد المحقق هو أن تتولى الدولة ذاتها الانفاق على البحوث وخاصة التى يبدو أنها ليس لها عائد مادى ظاهر أو سريع أو مباشر ، والدول المتقدمة تفخر بنسبة ما تخصصه من دخلها القومى للبحوث . وقد تصل المبالغ المخصصة لذلك الى عشرات البلايين من الدولارات وإن كانت نسبة ما تحصل عليه البحوث الاجتماعية أقل بكثير مما تحصل عليه البحوث فى العلوم الطبيعية المختلفة ، وهو أمر مفهوم إذا أخذنا فى الاعتبار التكلفة العالية التى تحتاجها الأجهزة العلمية المعقدة .

رابعاً : قتل روح الابداع العلمى والتفكير الرائد الذى يهدف إلى ارتياد مجالات بحثية جديدة قد يبدو لأول وهلة

عدم أهميتها بالنسبة للإنسان ، الفرد والمجتمع ، بحيث يقنع العلماء والباحثون فى مختلف فروع المعرفة العلمية والإنسانية والثقافية بدراسة الموضوعات التى ترضى الهيئات الممولة ، أو الموضوعات التى تفرضها عليهم هذه الهيئات الممولة والتى ترمى فى آخر الأمر إلى تحقيق أهداف ومكاسب خاصة بتلك الهيئات ذاتها . وليس يخفى أن التقدم العلمى ، وبالتالى تقدم المجتمع ككل يرتبط بالقدرة على التفكير الإبداعى الذى قد يداخله – من الناحية الظاهرية على الأقل – شيء من الخيال الخلاق الذى يستند على أسس قوية من الفهم والتفكير المنطقى وسعة الأفق ، وهى ما قد يقضى عليها تماما التكالب على إجراء بحوث تستهدف الربح والإرباح وتحقيق أهداف جزئية قد تجذب إليها الأنظار وتثير الإعجاب ولكنها قد تكون فى آخر الأمر غير مؤثرة فى عملية التقدم العلمى والاجتماعى الحقيقى وعلى الأمد الطويل .

وهذا كله لا يعنى أبدا عدم التعاون بين البحث العلمى والقطاع الخاص أو القطاع العام أو الاستعانة بالبحث العلمى لتحقيق التقدم والارتقاء فى الصناعة أو غيرها من مجالات النشاط الاقتصادى ، ولكن الذى يعنيه هنا هو الإشارة إلى خطورة إعطاء الأولوية المطلقة – كما يبدو من تصريح السيدة الوزيرة – لتسخير البحث العلمى لخدمة أهداف تجارية أو لوضع العلم فى خدمة البيزنيس حسب التعبير الذى استخدمته ، وكذلك التنبيه إلى أن ولاء الباحثين فيما لو نفذت هذه السياسة سوف يكون فى آخر الأمر للهيئات الممولة التى تملك المال وليس للبحث الجاد الموضوعى الذى يهدف إلى التوصل إلى معرفة الحقيقة تاركاً مسألة التطبيق والإفادة منها للهيئات والمؤسسات والأجهزة التى تعنى بهذا الجانب

وصحيح أن الاهتمامات الخاصة ببعض الباحثين – وأنا أشير هنا مرة أخرى إلى مجال البحوث الاجتماعية بوجه خاص – قد تحملهم إلى دراسة موضوعات لا تهم سوى فئة قليلة من أعضاء المجتمع أو لا تظهر (فائدتها) و (جدواها) بطريق مباشر وإن كانت تساعد بغير شك على الوصول إلى فهم أدق وأعمق للمجتمع ويمكن للمشتغلين بأمور التخطيط الإفادة منها بعد ذلك على الرغم من أن ذلك قد لا يكون وارداً فى أذهان الباحثين ، فدراسة التنظيم القبلى أو الانتماء العائلى أو تفرعات القبيلة إلى عائلات فى المجتمع البدوى قد تبدو ولأول وهلة أنها دراسة (مترفة) وهى بكل تأكيد لن تحقق عائدا ماديا سريعا ، ولكن من المؤكد أن أى تخطيط سليم يهدف إلى زراعة الأراضى

الصحراوية وتوطين البدو أو نقل شرائح معينة من السكان من وادى النيل وتوطينهم فى المناطق الصحراوية المستصلحة لابد أن تأخذ فى الاعتبار ذلك التوزع القبلى الذى يرتبط بالضرورة بملكية الأرض أو الانتفاع بها ، وبغير ذلك لن تحقق مشروعات التنمية نجاحا ملحوظا فى تلك المناطق ، وهكذا ومثل هذه الدراسات التى تخرج عن نطاق البحوث التى تحقق الربح والارباح لن تجد لها فى الأغلب تمويلا على الوجه الصحيح إلا من الدولة مما يقتضى بالضرورة أن تحدد الدولة نسبة معينة من الدخل القومى لمثل هذه البحوث .

وليس من شك أيضا فى أن الكثيرين من الباحثين قد يغفلون الاهتمام بالأمور الحيوية أو الأزمات التى يمر بها المجتمع أو العالم ككل والتى تحتاج إلى دراسة وفهم عميقين من أجل العلاج ، والوسيلة الناجعة والناجحة والبعيدة عن الريب أن تتولى مراكز البحوث (الحكومية) دراسة مثل هذه الموضوعات وأن يتولى البحث العلماء المشهود لهم بالكفاءة والموضوعية والنزاهة والذين لا يضعون فى اعتبارهم أو لا يأخذون ضمن أولوياتهم مسألة الربح والإرباح وينظرون إلى البحث العلمى نظرة فيها احترام وإجلال وتقديس ولا يعتبرونه مجرد (بيزنيس) ، ولدينا كمثال رائع لذلك المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية بمشروعاته البحثية القومية المهمة ، بل إن أكاديمية البحث العلمى والتكنولوجيا التى تأتى تحت سيطرة ونفوذ ومسئولية السيدة وزيرة البحث العلمى نفسها لديها برامج بحثية مهمة وجادة تعلن عنها كل عام وتقوم بتمويلها من الدولة ، وهى بحوث ترتفع بمستواها ومستوى القائمين عليها عن فكرة البيزنيس ، وقد تكون هناك عوائق إدارية أو مالية تعوق سير عملية البحث العلمى فى الطريق الصحيح كل الوقت ، ولكن ليس العلاج هو (بيع) البحث العلمى ومراكز ومؤسسات البحث العلمى للقطاع الخاص كما يوحى بذلك تصريح السيدة الوزيرة . وما يصلح فى مجال الفندقة أو الشركات الخاسرة لا يصلح بالضرورة لعلاج مشكلات البحث العلمى ، فهو أجل وأعظم وأخطر من أن يقع فى أيدى التجار والشطار .

حول الجوائز الأدبية

مفارقة لاتخلو من فكاهة

بقلم: د. عبدالعظيم أنيس

قرأت باهتمام العدد الماضى من مجلة «الهلال» كعادتي كل شهر، وإن كنت قد بدأت بقراءة الجزء الخاص بالجوائز الأدبية العربية وعشوائيتها بمناسبة ماحدث فى معرض الكتاب الأخير، والمعارض التى سبقته عندما منحت جوائز المعرض لرئيس الحكومة السابق ورئيس مجلس الشعب، ولم يعرف الرأى العام القواعد والمعايير التى منحت على أساسها تلك الجوائز، حتى وصل الأمر فى الفوضى والعشوائية أن يحصل سبعة من أعضاء اللجنة الاستشارية لتنظيم المعرض الأخير على جوائز، وأن يفوز أحد الكتب بالجائزة قبل أن يصدر ويخرج من المطبعة!

ولقد تحدث د. ماهر شفيق فريد فى إحدى مقالات هذا الجزء الخاص بالجوائز عن بعض المفارقات التى لاتخلو من فكاهة، فذكرنى مقاله بواقعة تتعلق بالجوائز حدثت أمامى بطلها روائى عربى كبير «ليس مصريا» منذ عدة سنوات، ربما كانت ست أو سبع سنوات، وهى واقعة ينطبق عليها الوصف الذى استخدمه الدكتور ماهر، أعنى أنها مفارقة لاتخلو من فكاهة.

● **لست ضد الجوائز!**

وقبل أن أبدأ فى رواية الواقعة أود أن أقول - وأنا لا ناقة لى ولا جمل فى هذا الموضوع - أننى لست ضد هذه الجوائز من ناحية المبدأ، ولا ضد قبولها مادامت تتوافر فيها شروط معينة سوف أذكرها، إننى بالطبع أعلم أن أصحاب هذه الجوائز فى الخليج إنما يبحثون عن الوجاهة ورضاء حكامهم في غالب الأحوال بهذه الجوائز، ولكن إذا توافرت حقا لجان تحكيم تتصف بالنزاهة والموضوعية والمعرفة الحقة لهذا التخصص الذى يحكمون فيه فإننى لا أرى بأسا فى



هذا العمل وفى قبول الجائزة من أى أديب أو ناقد يقع عليه الاختيار، بل إننى أتمنى على هؤلاء الأثرياء فى الخليج أن يقدموا تبرعات كبيرة إلى الجامعات العربية «المصرية وغير المصرية» التى كثيرا ما تعوزها المراجع العلمية العديدة بسبب نقص العملة الصعبة، فلو تصورنا مثلا أن ثريا من الخليج قد تبرع لإنشاء مكتبة علمية تكنولوجية فى جامعة القاهرة أو عين شمس على أحدث طراز من ناحية المراجع والشرائط والمجلات .... إلخ، فما الضرر فى أن نرحب بهذا التبرع وأن نضع لوحة على باب هذه المكتبة تذكر فضله. بالطبع هذا شيء مختلف عما حدث في جامعة الأزهر عندما أنشأ الشيخ صالح كامل كلية لما يسمى «الاقتصاد الإسلامى» سميت باسمه. فمثل هذا العمل الأخير ضار ولم يكن يليق بإدارة الأزهر التورط فيه.

وربما نسيت أن أذكر هنا أنني كثيرا ما كنت عضوا في لجان جوائز عبدالحميد شومان «فى لجنة الرياضيات»، وهى جوائز مختلفة عن جوائز الخليج فى الأعمال الأدبية والنقد، فجوائز عبدالحميد شومان والتى يمنحها كل عام البنك العربى مخصصة للأكاديميين الشبان فى تخصصات علمية تسع محددة، مثل الرياضيات والطب، والهندسة، والزراعة، والفيزياء وفقه اللغة.....»..

ويشترط فيها ألا يزيد سن المتقدم لها عن أربعين عاما، وأن يكون بالفعل عاملا فى إحدى الجامعات أو مراكز البحوث العربية، وليس عاملا فى أمريكا أو كندا أو بريطانيا مثلا. ومع أن قيمة الجائزة هذه لاتقارن بقيمة جوائز الخليج، فإنها تحظى فى العالم

العربى باحترام خاص للنزاهة والموضوعية التى تتوافر فى أعضاء لجان التحكيم فى كل تخصص من هذه التخصصات.

والآن أنتقل إلى رواية الواقعة التى ذكرني مقال الدكتور ماهر شفيق فريد بها والتى تعبر عن مفارقة لاتخلو من فكاهة!

والقصة أن هذا الروائى العربى الكبير اعتاد أن يدعى إلى معرض الكتاب المصرى كل عام، ونظرا لصداقتى القديمة له فإنه يتصل بى تليفونيا عند وصوله إلى القاهرة فأذهب إليه فى الفندق ونتفق على الموعد الذى سنذهب به إلي المعرض.

ومنذ ست سنوات أو سبع وصل الصديق إلي القاهرة، وكالعادة خابرني هاتفيا إثر وصوله واتفقنا على يوم معين يمر علىّ فى منزلى، وهو قريب من المعرض، لنذهب سويا لمشاهدة المعرض وشراء الكتب التى تروقنا أو تلفت نظرنا. وفى الطريق إلى المعرض بدأ يحدثنى عن حديث أعطاه منذ يومين لمندوب إحدى المجلات المصرية يهاجم فيه هذه الجوائز التى يخصصها أثرياء الخليج، ويقول فى الحديث إن هؤلاء الأثرياء يريدون أن يشتروا ضمائرنا وقيمنا بمالهم، وأنه من العار على الأديب العربى أن يقبل مثل هذا الجوائز. وقال لى: إن المجلة المصرية سوف تصدر غدا أو بعد غد وإنه يريد منى أن أقرأ حديثه هذا وأن أناقشه فيه.

● مبروك الجائزة!

وبدت على وجهى الدهشة من هذا الموقف الحاد وقلت له: إنك ربما كنت مغاليا فى موقفك هذا. أفهم أن تطالب بوجود لجان تحكيم نزيهة ومحترمة من جانب المثقفين العرب، وألا تقحم الاعتبارات السياسية الآنية قدر الإمكان فى أحكام هذه اللجان على الأعمال الفنية، لكن أن ترفض الجوائز من ناحية المبدأ فإننى أعتقد أنه موقف به مغالاة غير عقلانية.

وامتد النقاش بيننا بل وأحتد ونحن نوشك أن نصل إلي أبواب المعرض. واستمر النقاش ونحن فى داخله، حتى وصلنا إلي الجزء من المعرض المخصص لدار النشر التى تنشر رواياته، فإذا به أفاجأ بالسيدة المشرفة على هذا الجناح تقبل بلهفة واضحة على الروائى العربى الكبير وتقبله فى حده، وتقول له بصوت واضح «مبروك يا أستاذ.....» ثم همست فى أذنه بكلمات لم أسمعها.

وعندما سألته عن سبب هذه القبلة

والتهنئة بدا عليه الارتباك الشديد ولم يرد أن يقول لى شيئا، لكنى ألححت عليه وقلت له إنه ليس من المعقول أن تهنئك هذه السيدة ألا أهنئك أنا وأنت تعتبرنى صديق العمر، وأنا لا أستطيع أن أهنئك حتي أعرف السبب فى التهنئة.

وبعد تردد قال لى الصديق إن هذه السيدة قد أخبرته أنه حصل على جائزة سلطان العويس بالأمارات تقديرا لإحدى رواياته! ومقدار الجائزة مائة ألف دولار!

وبالطبع انتابتنى موجة طويلة من الضحك، وهو صامت لايدرى ماذا يقول. وقلت له معاكسا: إما أن تسرع إلي المجلة المصرية وتطلب رفع حديثك العنترى أو ترفض الجائزة، إن هذا هو الموقف الكريم الوحيد الذى يليق بك!

قال وهو حائر: كيف أمنع نشر الحديث والمجلة لابد أن تكون الآن فى المطبعة، وهي تصدر غدا أو بعد غد؟

قلت: إذن لامفر من رفض الجائزة إن هذا هو الموقف الوحيد الذى يليق بروائى تقدمى كبير مثلك، أو ربما يكون من الأنسب إذا كان الرفض صعبا الآن أن تعلن تبرعك بالمبلغ كله لجمعية من الجمعيات الخيرية كدار الأيتام، أو جمعية مشوهي الحرب..... إلخ، وإن كان هذا الاقتراح لايروقك فإننى أقترح عليك أن تتبرع بالمبلغ كله للحزب الذى تعطف على مبادئه فى بلدك!

وسكت برهة طالت حتى ظننت أنه لن يتكلم، فإذا به فجأة يقول لى: إنك لاشك تهزل عندما تقترح على مثل هذه الاقتراحات، وهل من المعقول أن يأتى مثل هذا المبلغ الكبير إلى بابى وأرفضه! إن لدى مشروعات كثيرة يمكن أن يساعدنى هذا المبلغ على تحقيقها.

قلت: وحديث المجلة؟ كيف تبرر موقفك هذا؟ وماذا سيقول الخليجيون وأصحاب الجائزة عندما يقرأونه.

ولم يرد.

والذي أعلمه أنه ذهب إلي الإمارات فى الموعد المحدد لاستلام الجائزة، وقد رأيت صورته فى الاحتفال الذي أقيم فى الإمارات بهذه المناسبة فى إحدى المجلات.

لكنه لم يعد يحضر إلى القاهرة كثيرا كما كان يفعل فى الماضى، وإذا حضر لم يعد يتصل بى هاتفيا كما كان يفعل من قبل.

وحزنت، لا لأننى فقدت صديقا كنت أعتز بصداقته، بل لأن هذا الاحترام الذى كنت أكنه له قد ضعف كثيرا بعد هذه الواقعة.

النوافذ المفتوحة :

مذكرات رسمها فنان موهوب

بقلم : د. الطاهر أحمد مكى

□ عرضت من قبل للجزء الأول من هذه المذكرات مع الجزء الثانى الذى صدر فى هذه الأيام كانت متعتى أبلغ ، وهو رأى أحسب أن الكثيرين ممن قرأوا هذه المذكرات يشاركوننى فيه ، من جيلى بخاصة ، ممن عملوا فى السياسة ، وانتموا لليسار بمعنى أو بآخر ذلك أن الكاتب ألقى فى الجزء الأول ضوءا كاشفا على تربيته وجذوره ، وإن شئت على قطاع عريض من حياة الطبقة البرجوازية فى مصر ، دنيا أو عليا أو متوسطة ، وهو أمر يشد المؤرخ ، والباحث الاجتماعى ، ومن يفتش فى طيات الماضى ليعرف كيف كان يعيش الآخرون .

أما فى هذا الجزء فأنت تجد نفسك ، أو أحد صحبك ، أو رفاقك ،أو خصومك ، إذا كنت قد ارتبطت بحركة الوطن السياسية ، على امتداد هذا القرن ، بأى سبب ، وعلى أية حال الذين لم يرتبطوا بحركة الوطن لايقرءون. إنه وثيقة رسمها فنان موهوب ، واقعى ، يرسم بالصدق



لوحة تنبض بالحياة والحركة ، وتلتقى به عبرها ـ كما كان فى الجزء الأول ـ إنسانا عاديا، ليس ملاكا خلق من نور ، ولا شيطانا صيغ من شر ، وإنما يتصارع فى أعماقه ، كما فى أعماق أى إنسان سوى ، الكثير من الرغبات والطموح ، الصراع بين القيم المتناقضة ، بين الحرية والأعراف، يخطىء ويتعثر ويخاف ويغامر، تراوده الخطيئة كثيرا ، يقاومها حينا ، ويذل معها أحيانا ، حتى لو اقتنع فى أعماقه أن ماحدث ما كان يجب أن يحدث.

عندما راودته فاطمة ، زوجة ابن الرجل الذى أواه فى بور سعيد هاربا ، هم بها كما همت به ، ولكنه أمسك أخيرا، كماصنع يوسف مع زوجة عزيز مصر قبل ذلك بآلاف الأعوام ، وتحاشى طوال اقامته عندهم أن يلتقى بها منفردا ، ويرد محاولة المرأة المتكررة ، إنها لم تكن تنجب ، وكان زوجها يصر على أنها السبب ، وهى تعرف يقينا أنه الذى لاينجب ، وأنه يبحث بالتالى عن زوجة أخرى ، فانتهزت الفرصة لتعطيه ابنا ولو من صلب غيره ، ولن يعرف أحد أو يشك ، فهى لاتخرج من البيت ، وفيه جاءها الفرج مع هذا الضيف اللاجىء ، ترى كم من حالات شبيهة مرت بالإنسانية عبر تاريخها ؟

ومع ذلك فهناك مغفلون كثيرون يتمسكون بسلاسل النسب ، ونقاء الدم ، ويرتفعون بها آلاف الأعوام !

● الصراحة العارية

يدرك الكاتب واعيا وفى ذكاء ، أن الحب والجنس قوام الحياة ، وأنهما وجهان لعملة واحدة ، أبى الناس هذا أم اعترفوا به ، أنكروا دوره أو سلموا بحقيقته ، ويعرف أن مثل هذه القصص تشدهم إليها، ومتشوقون دائما لسماع هذه الأسرار ، لأن الحديث عنها أصلا غير وارد ، أو لايقع إلا همسا ، وهى حقيقة يعرفها بحكم دراسته وتجاربه ، ولذلك يوشى مذكراته بما وقع له منها ، أو لغيره أحيانا ، فى صراحة حينا ، ومواربة أحيانا أخرى ، وهى ظاهرة تختفى عند معظم كتاب المذكرات والذكريات عندنا ، نادرا ما يلمحون إلى هذا الجانب من حياتهم ، خوفا أو خجلا ، أو تصنعا لعفة لا مكان لها ، ولكن الدكتور شريف يرويها، منحيا الخجل جانبا حتى لو كان يعرف أنها «باطل باطل ، باطل فى حكم القيم والأخلاق والعقل وأشياء أخرى كثيرة» ، ومن كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر، على نحو ما يقول الإنجيل !

وإلى من يحبون النميمة فى الصالونات ، والثرثرة عن الأمور الشخصية فى مقاهى أدعياء الشعر والأدب ، أورد الدكتور شريف حتاتة قصة زواجه بالدكتورة نوال السعداوى من الألف إلى الياء ، أورد خلاصتها ، وطبعا لن يقنعوا بها ، وإنما سوف يضيفون إليها من التوابل بقدر ما لكل واحد من خيال واتجاه .

إنه فى مغامراته العاطفية لايكنى ولايلمح ، وإنما يذكرها صراحة ، وحتى

يسمى الطرف الآخر أحيانا ، لايصطنع وقارا ولا عفة ، ولا يخشى من أقرب الناس إليه شيئا ، آخرون كثيرون مثله ، لهم المغامرات نفسها ، ولكنهم يرتدون مسوحا ساترة ، ويتظاهرون بغير ماهم عليه واقعا، جبنا أحياناً ، واكتسابا من وراء التظاهر أحيانا أخرى ، وهو لايقف بهذا الجانب عند القاهرة وحدها ، وإنما ساتر يقدم لنا الجانب المقابل له ، في باريس ، عالم النساء والقوادين ، صورة شبيهة بما كان يحدث في شارع عماد الدين (محمد فريد حاليا) في النصف الأول من هذا القرن .

● في غمرة السياسة

وعبر صفحات الكتاب تمر عليك أسماء عشرات الفنانين والكُتّاب ، جمع بينهم النضال يوما من أجل وطن أفضل للجميع، بعضهم رحل ، وآخرون لمايزالون يواصلون مسيرة الفن أو الكتابة ، منهم من ظل على العهد ، ومن تخلى عنه ، من باع تاريخه ، وقد تناثروا في معظمهم ، لم يعودوا يلتقون ولايجتمعون ، ولم يعودوا قوة مؤثرة، تعبوا ، أو ملوا النضال ، أو تغشاهم الإحباط ، أو آثروا السلامة ، وهؤلاء في كل الأحوال أفضل من الذين خانوا .

كان الكاتب نزيل سجون ومعتقلات ، عرفها ، وخبرها ، وأمضى فيها خيرة سنى شبابه ، وأعطانا وصفا واقعيا ، دقيقا ومذهلا ، لما رآه فيها من تعذيب وامتهان لادمية البشر ، وما تصنعه بنفوس الضعاف من نزلائها ، وأيضا ألوان التكاتف والتساند ، وحتى الإبداع ، لمن جمعهم هناك مبدأ نبيل وغاية شريفة ، السجناء في معتقل الصحراء هم الذين ابتكروا زراعتها ، ليأكلوا منها ، بدل أن يظلوا وراء الأسوار يجترون آلامهم ، وقد نجحت التجربة ، فعرفوا طعم الخضار والفواكه الطازجة ، وكانوا قبلها محرومين منها تماما .

ليت إدارة السجون عندنا تدرس التجربة ، وتعاودها فتحترم بشرية نزلائها، ولا تشوه داخلهم ، فيخرجوا من السجن عتاة مجرمين ، وإنما مواطنون صالحون ، يستشرفون غدا أفضل .

وفي مقابل هذه الصورة لسجون مصر ومعتقلاتها هناك صورة للسجن في باريس، وقد حل عليه ضيفا ، ورأى فيه التفرقة العنصرية بأجلى صورها ، حتى في السجون ، فقد كان في موطن شعار «حرية .. إخاء .. مساواة» سجن لغير الأوربيين ، التقى فيه بعدد من الجزائريين، فقد كان هذا السجن مخصصا لكل العرب، ولكنه على أية حال «كان أفضل من السجون التي عرفتها في مصر ، من حيث الطعام ، وفراش النوم، ووجود مرحاض إفرنجي في الزنزانة ، وحوض لغسيل اليدين والوجه ، وإمكانية استعارة الكتب من مكتبة السجن ، ولكن ماعدا هذا كان النظام يخضع لقواعد أكثر صرامة ، وكان الإفلات منها صعباً ، مختلف أنواع

الإهانة ، والعقاب ، والتعذيب شائعة ، ولكن أغلبها في التأديب (وهو المكان المخصص للعقاب)».

كان رفيقه في سجن باريس جزائريا قوادا ، يتزعم الزنزانة ، وحياته تشبه تماما حياة الفتوات الذين كان يعرفهم شارع محمد على ، وحى البغايا في «وش البركة» ، المتفرع من كلوت بك ، وحتى في بعض مسارح شارع عابدين ، قبل أن يصبح هذا كله في القاهرة تاريخا ، وإن ظل باقيا في باريس .

وهو لايقف في باريس عند السجن ، وإنما يقدم صورة ناطقة لحركة الحياة فيها، فهو يهوى «السير ساعات في الشوارع والميادين والحدائق والغابات ، وعلى ضفاف السين ، مغرم باكتشاف الأحياء القديمة ، والحوارى والأزقة والأحواش ، تحكى تاريخ المدينة ، أو تحتضن بيوت شعرائها ومفكريها وثوارها، ارتاد مسارحها ، وشاهد أفلامها ، استمع إلى فرق الموسيقا والمغنى في صالات ونوادى الحى اللاتينى ، والمقاصف والبارات المنزوية تحت الأرض» .

ويلقى أضواء على تحركات مصريين كثيرين لقيهم في باريس ، بعضهم يذكر اسمه فحسب ، وآخرون قدم انطباعه عنهم تفصيلا : كامل زهيرى ، وعبد القادر التلمساني ، ومصطفى صفوان وآخرين ويقف طويلا عند ظاهرة اللقاء والاختلاف ، وطوفان الحياة المتدفق ، والمشكلات التى

النوافذ المفتوحة

تبتلع الناس في بلد كمصر يضطرب بالسكان ويموج بالحركة ، وتمضى الحياة فيه على اتساعها عجلة ، لاتبقى على شىء، ولا على أحد في مكانه ، وقلما تتسع لعلاقة إنسانية الآن ، تتعمق ، وتزدهر وتثمر .

● الشيوعية في مصر

تسهم المذكرات في جلاء تاريخ الحركة الشيوعية في مصر ، وحين يكون الكاتب طرفا في القضية التى يعرض لها ، فلن يكون موضوعيا تماما ، مهما حاول أن يكون محايدا ، ومن هنا فإن المعلومات الواردة في هذه الذكريات تنير غيرها ، وتستنير بها أيضا ، عند من يبحث عما هو أقرب إلى الحقيقة ، لأن الحقيقة كاملة من الصعب الوصول إليها ، في عالم كان رجاله يتحركون خفية ، ويحملون وثائق مزورة بأسماء مختلفة ، ويعتمدون على الذاكرة أصلا ، و«الوثائق المسجلة نادرة، ومبعثرة عند عدد من الأفراد، والأرشيف الوحيد الذى يعتد به يوجد في يد السلطات البوليسية ، والاطلاع عليه غير متاح إلا بإذن خاص» .

وأضيف أنا ، أن تقارير المخابرات الأجنبية التى كانت تهتم بالواقع المصرى في تلك الأيام ، ربما كانت أكثر دقة وحيادا وموضوعية .

وقفت الذكريات طويلا عند اليهود ودورهم في بناء الحركات اليسارية في مصر وفي تدميرها أيضا ، وكيف أنهم لم ينسوا يهوديتهم أبدا ، مهما كان إيمانهم بالفكر الشيوعي ، وهو يقدم تعليلا نفسيا لهذه الظاهرة معتمدا فيها على فرويد ، وهو عالم يهودي أيضا ، وتقدم أروع تحليل قرأته لشخصية هنري كورييل ، وضعته في مكانه الصحيح ، مناضلا على مستوى إنساني . ولكن تعاطف مع الحركات التحريرية في العالم ، وتعاون معها ، ومن بينها حركة التحرير الفلسطينية . غير أني أوضح أن تعاونه هذا شريطة ألا يمس واقع اسرائيل ، أو على حسابها ، فهو يراها شيئا مقدسا ، لايقبل الحوار أبدا حول شرعية وجودها ، وهي نقطة مرّ بها الكاتب عجلا دون أن يقدم لها تفسيرا .

كذلك كان مرور الكاتب عجلا . بحرب فلسطين ، ورأى اليساريين فيها بعامة ، وحركة «حدتو» بخاصة ، وفيما يتصل بدخول الجيوش العربية ، والذي أعرفه يقينا أن القيادة مررت على القواعد منشورا ، بعد الاتفاق على دخول الجيوش العربية فلسطين ، يهاجم بقوة هذا العمل ويدعو إلى شجبه ، والتنديد به جماهيريا ، ويراه من فعل البرجوازية العربية الساقطة لتدمير نواة الديمقراطية والتحرر في فلسطين ، وكان رد فعله بين هذه القواعد قويا وسلبيا ، فقد رفضته كثرة تركت الحركة على أثره ، فلم يكن أي فرد لديه شيء من وعي وثقافة في حاجة لمن يدله على أن الحركة الصهيونية نزعة عرقية دينية، تقوم على التعصب ، وأن ماتصنعه في فلسطين اعتداء واغتصابا ، ولصالح القوى الاستعمارية العاتية المنسحبة من المنطقة .

ولم يعرض من قريب أو بعيد لتدفق المتطوعين على فلسطين قبل دخول هذه الجيوش ، واستيلائهم على صحراء النقب، وبير سبع ، ووصولهم إلى قريب من تل أبيب ، وكان من بين قوادهم كمال الدين حسين (عضو مجلس الثورة فيما بعد) ، وأحمد عبد العزيز ، واستشهد في فلسطين في ظروف غامضة ، فقد صرعه فيما قيل جندي حراسة مصري لأنه لم يعرف كلمة السر ، وهي قصة تافهة ، لابد أن يكون المرء غبيا لكي يتقبلها ، وعلى أية حال فإن السر لم يكشف ، وآثرت كل الدوائر في تلك الأيام ، وبعدها ، وحتى يومنا، ألا تقول عن الأمر شيئا . هل صمت الدكتور شريف حتاته ، لأن أغلبية هؤلاء المتطوعين كانوا من الإخوان المسلمين ؟ عهدي به منصفا موضوعيا ، فماالذي جرى فيما يتصل بهذه النقطة بالذات .

هناك فقرة خاصة بالشيوعية أتمنى على بعضهم ، ممن ينتسبون إليها الآن عقيدة أو هواية ، أن يقف عندها طويلا ، وأن يراجع نفسه ، لأن العربدة الفكرية

غير المسئولة فى قضايا النضال الوطنى بالغة الضرر ، ولاتفهم من الآخرين إلاّ فى ضوء أن صاحبها مدسوس مخرب ، أو عاشق شهرة مستهتر ، أو مرتش يعمل لحساب آخرين . لقد أدرك هنرى كورييل مؤسس الحركة المصرية للتحرر الوطنى (حدتو) ، وكان حول الثلاثين من عمره، دور الإسلام فى حياة الشعب المصرى ، فأسس قسما للأزهر (كان يشرف عليه أزهرى مصرى نوبى هو مبارك عبده فضل فيما أذكر) ، وبذل جهدا لإقامة علاقات مع على الإخوان المسلمين خارج المعتقلات وداخلها ، ولم يكن يرى هناك أن تناقضا بين الإسلام والاشتراكية ، وإنما رأى فى الدعوة الإسلامية ، والأديان عموما ، مبادىء إنسانية تدعو للعدالة الاجتماعية ، ولذلك أنشأ مجموعة للأزهريين ، وكانت اجتماعات الخلايا ومدارس الكادر تتوقف إذا أراد أحدهم أن يؤدى الصلاة فى مواعيدها .

كذلك وددت لو قرأت رأيه تحليلا أو تعليقا على ما دعا إليه السياسى المصرى الذكى إسماعيل صدقى ، من دعوة الجيوش العربية إلى التوقف عن المشاركة الرسمية فى القتال والاستعاضة عنها بحرب العصابات ، وهو رأى بدا لى يومها ـ والآن ـ وجيها ، وأن نتائجه الايجابية ستكون أفضل من قرع الطبول الجوفاء ، التى لاشيء وراءها غير الإعلام الفارغ ، ويقلل منه الآن ما نشرته إحدى المجلات

الأسبوعية المصرية ، فيما تدعوه من أسرار المخابرات الاسرائيلية ، من أن هذه الدعوة لم تكن شخصية خالصة ، ولا ذات فائدة مصرية أو عربية ، وإنما دفعته إليها قوى صهيونية كانت ذات نفوذ فى مصر ، وعلى صلة به . وهو كلام لايقبل على عواهنه ، فمذكرات الجواسيس ليست دائمة صادقة ، ولا كتبها أصحابها يستهدفون الحقيقة ، وإنما لغايات سياسية، تخدم أهداف قومهم ، فى تلويث الرموز الوطنية فى صفوف أعدائهم .

● قضايا الوحدة العربية

عرض الكاتب لقضية الوحدة العربية ، وما كان له أن يسقطها ، فقد كانت شاغل السياسيين والمثقفين مهما تباينت آراؤهم فى طبيعتها ووسائل تحقيقها . تحدث تفصيلا عن الوحدة مع العراق ، وكيف أن عبد الكريم قاسم رئيس العراق بعد ثورته على النظام الملكى رأى أن تتم على أساس فيدرالى ، وسانده فى رأيه الحزب الشيوعى العراقى ، لأن مثل هذا الاتحاد يضمن لكل من البلدين استقلاله ، على أن تكون هناك حكومة وبرلمان اتحادى .

وأصر عبد الناصر على الوحدة الاندماجية ، التى تضمن له السيطرة على

الخارجية والدفاع والأمن ، محاولا القفز فوق أسوار التدرج الطبيعى ، وقد فشلت المحاولة ، وأتاح هذا لعبد الكريم قاسم أن يذبح عشرات الألوف من العراقيين المؤمنين بالوحدة الكاملة ، دون أن تستطيع مصر أن تصنع من أجلهم شيئا، ولكنى لست مع الكاتب فى أن عبد الناصر كان يخشى خطر الحزب الشيوعى العراقى ، لدوره فى الثورة العراقية ، ولمعارضته الوحدة الاندماجية ، لأن دور الشيوعيين فى ثورة العراق لعام ١٩٥٨ كان محدودا ، وإنما كان الدور الأعظم للقوميين العرب بعامة ، ولحزب البعث العربى بخاصة ، فلم تكن الأحزاب الشيوعية يومها ، على امتداد العالم العربى كله ، تمثل خطرا ، على أية حكومة، لأسباب اجتماعية وسياسية وخارجية ، وحينما اصطدم الشيوعيون مع عبد الكريم قاسم ، سجلهم بكل بساطة كما سجل القوميين العرب قبلهم ، وقوة عبد الكريم بجوار سطوة عبد الناصر لاشىء!

ويبدو أن الدعوة إلى الوحدة الفيدراليه، دون الاندماجية ، لم تكن مخططا محليا من صنع الحزب الشيوعى العراقى ، وإنما جاءت توجيها من سلطة أعلى ، ولذلك يقرر الكاتب أن الحزب الشيوعى المصرى اتخذ هذا الخط أيضا ، وحجته «تتعلق بضرورة مراعاة الأسلوب الديمقراطى فى إتمام الوحدة بين الشعبين» ، وهو كلام جميل وبراق ، ولكن الواقع شىء مختلف ، ويقرر الكاتب فى صراحة : رغم كل الحجج التى ساقها الشيوعيون المصريون لمقاومة الوحدة الاندماجية ، وجانب منها يقع فى دائرة المنطق والواقع والتاريخ ، فإن بيانهم يأخذ فى الحسبان شيئا لم يذكره ، وهو أنهم «كانوا يخشون من الوحدة الاندماجية ، لأنها ستسهل على عبد الناصر تطبيق النظام السياسى الواحد (الاتحاد القومى) فى العراق ، ذلك النظام الذى سوف يحرمهم من تكوين حزب سياسى علنى معترف به» ، وبداهة شن عبد الناصر حملة شرسة على الشيوعية والشيوعيين فى كل مكان من العالم العربى.

● الانفصال والبرجوازية

لم يعرض الكاتب للوحدة المصرية السورية ، ولا أبدى رأيه فيها ، ولكنه تحدث عن الانفصال ، ورده إلى البورجوازية السورية التى لعبت الدور الأساسى فيه ، مستخدمة سخط التيارات السياسية المختلفة ، وأجزاء من الشعب ، على الأخطاء وأساليب القهر التى اتبعتها حكومة الضباط للسيطرة على الأوضاع فى سوريا ، والتى كان مسئولا عنها مباشرة عبد الحكيم عامر .

وفى بعض ماقاله الكاتب عن أسباب فشل الوحدة حق ، ولكن من الحق أيضا أن وراء انهيارها كلية عجز عبد الناصر عن الدفاع عنها مع أول بادرة تمرد عليها، وكان انهيارها بداية انهيار عبد الناصر

نفسه ، زعامة وحكما ونفوذا عالميا وعربيا، وكانت هزيمة ١٩٦٧ نهاية مأساوية لهذه البداية .

كان على عبد الناصر أن يدافع عن وحدة الوطن الذى يرأسه ، فتلك هى المهمة الأولى لأى حكومة ، وكانت مصر وسوريا يومها دولة واحدة ، شرعة ودستورا ومشاعر جماهير ، والخارجون عليها قلة ، فى الجيش وفى الشارع ، ولكن عبد الناصر لم يكن واثقاً فيما يبدو من كفاءة قواد جيشه ، وحريصا على مكانته أولا وأخيرا ، وهكذا قضى حفنة من المغامرين على أول خطى الوحدة العظيمة فى عصرنا الحديث ، وبعدها بدأ كُتّاب التبرير، وهم الأغلبية الساحقة ، يعزفون على إيقاع الوحدة لاتصنع بالقوة ، مع أن كل حركات التوحيد فى العالم قديما وحديثا تمت بالسلاح : وحدة القطرين فى مصر الفرعونية ، توحيد الجزيرة العربية بعد وفاة الرسول فيما عرف بحروب الردة، وفى العصر الحديث على يد عبد العزيز بن سعود ، وفى ألمانيا على يد بسمارك، وفى إيطاليا على يد جاريبالدى ، وفى الويات المتحدة على يد إبراهام لينكولن ، إنها بدهية تاريخية لا تحتاج إلى تقرير .

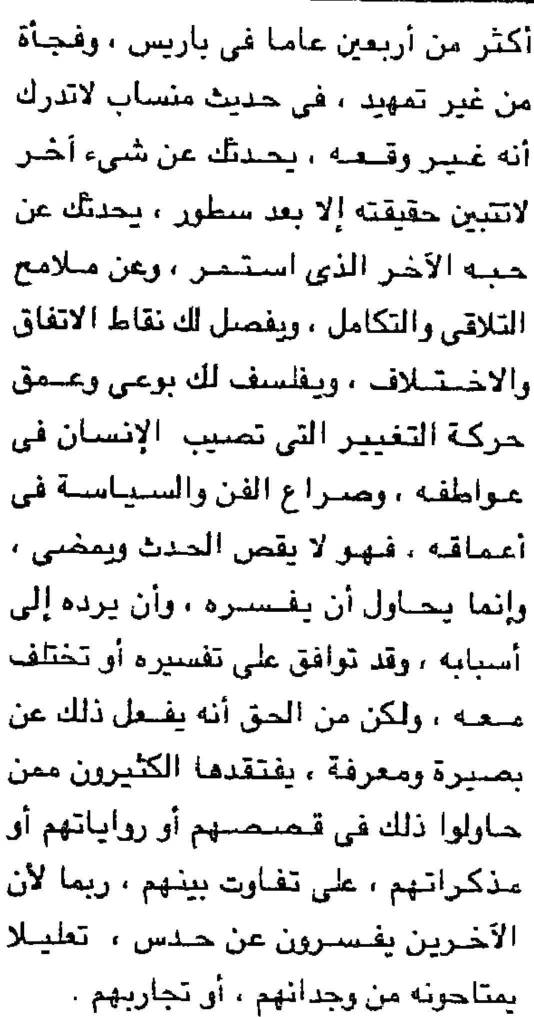
● لوحات تتوالى

وماذا عن الشكل ؟ وهو الذى يجعل هذه الذكريات أدباً ؟.

إن الكاتب فيها لايعتمد على السرد المتوالى ، تتعاقب فيه الحوادث تاريخيا ، وإنما تأتى فى شكل لوحات تتوالى ، كل لوحة تمثل وحدة ، فى صورة مقاربة للقصة القصيرة ، ليس من الضرورى أن تدور حول موضوع واحد ، أو تتحد زمانا أو مكانا أو تاريخا ، فقد تعرض لقضايا مختلفة ، غير مرتبة زمنيا ، وتكفل «تيار الوعى» بإعطائها وحدة مترابطة فنيا ، ولا أظن الكاتب درس هذه الوسيلة التقنية فى كتب النقد ، وإنما التقطها بحسه الفنان من قراءاته فى الآداب العالمية المختلفة ، عند كبار الكتاب الأوربيين والأمريكيين المعاصرين ، على غير وعى منه بها ، أو على نية مسبقة باستخدامها ، وهو ما ألح عليه دائما فيمايتصل بالكتاب الشادين فى عالم القصة والرواية ، أن يقرأوا كثيرا لكبار الكتاب ، لأن ذلك يعينهم على أن يدركوا البناء الفنى للقصة والرواية جيدا ، وسوف يفيدون مما قرأوا دون تقليد أو احتذاء ، وقد يطورون الوسيلة الفنية أو يضيفون إليها ، ويتقدمون بها إلى الأمام خطوات .

أتاح تيار الوعى للكاتب ، أن ينتقل فى سهولة بين الماضى والحاضر ، والمستقبل أحيانا ، يصحبك فى جولاته وحركة روحه فى باريس ، وفجأة تراك معه فى مصر ، يحدثك عن حب جاءه على غير موعد ، منذ

النوافذ المفتوحة



أكثر من أربعين عاما في باريس ، وفجأة من غير تمهيد ، في حديث منساب لاتدرك أنه غير وقعه ، يحدثك عن شيء آخر لاتتبين حقيقته إلا بعد سطور ، يحدثك عن حبه الآخر الذي استمر ، وعن ملامح التلاقي والتكامل ، ويفصل لك نقاط الاتفاق والاختلاف ، ويفلسف لك بوعي وعمق حركة التغيير التي تصيب الإنسان في عواطفه ، وصراع الفن والسياسة في أعماقه ، فهو لا يقص الحدث ويمضي ، وإنما يحاول أن يفسره ، وأن يرده إلى أسبابه ، وقد توافق على تفسيره أو تختلف معه ، ولكن من الحق أنه يفعل ذلك عن بصيرة ومعرفة ، يفتقدها الكثيرون ممن حاولوا ذلك في قصصهم أو رواياتهم أو مذكراتهم ، على تفاوت بينهم ، ربما لأن الآخرين يفسرون عن حدس ، تعليلا يمتاحونه من وجدانهم ، أو تجاربهم .

● رومانسية مكثفة

لايذكر الكاتب الأحداث سردا مملا، أو تواريخ جافة ، وإنما يوشيها برومانسية مكثفة ، وحين يتفاعل مع الطبيعة بخاصة، خضراء مورقة أو صحراء جافة ، أو شوارع ومباني ، في وصف جميل ودقيق ، يجعل منه ، في جانب محدد ، مرجعا لكتابة طوبوغرافية ، بعض المدن عندنا ، ولقد قرأت كثيرا من مذكرات السجناء ، ولا أظن أن أحدا قدم لنا وصفا دقيقا لألوان التعذيب الجسمية والنفسية كما قدمتها لنا هذه المذكرات ، مما يدين عهدا بأكمله ، لا حكامه فحسب ، وإنما كل الذين عرفوا وصمتوا ، وكل المثقفين عرفوا على نحو أو بآخر. ماأتعس أن ينتمي المرء إلى هذا الجيل ، وهذه المرحلة شيء خافت يخفف من رهبة الإدانة :صمود هؤلاء الرجال ، إنه يوقظ في أعماق أي يائس بليد أن الدنيا بخير ، وأن الإنسانية تتقدم، رغم كل أهوال السجون .

ليس من حق الناقد أن يرسم للمبدع كيف يكتب ، فالأسلوب هو الرجل كما يقول الناقد الفرنسي بوفون ، ولكني على أية تمنيت أن تكون بداية المذكرات فقرة وردت في صفحة ١٩٩ من المذكرات :

«أنا في حاجة إلى أن أنطق ، أن أتحدث إلى الآخرين عما جرى ، أن أصرخ من الألم ، أن أقول لهم «أنا هنا» ألا أموت وأنا حي وأدفن ، وهذه الكلمات أو اليوميات أو السيرة الذاتية هي إحدى وسائلي» .

الحق معه ! ، لقد أعطى ورفاق له آخرون الكثير ، ضحوا وسجنوا ، وتحملوا ألوانا من العذاب ، من أجل مصر، ومع ذلك لا يذكرهم أحد ، لم يقدموا إلى الأجيال الصاعدة بوصفهم نماذج تحتذى، ليس من الضروري أن تكون الوسيلة واحدة - فالوسائل تتغير مع الزمن ، وتطور حركة الحياة ، ومهم أن يعرف شبابنا أن هناك من لم تكن تعنيه الرفاهية المميتة ، أو المناصب الزائلة ، أو الألقاب

الزائفة ، وأن الحياة فى مصر على امتداد ماسبق من تاريخها ، عرفت ألوانا من البطولة والنضال ، وربطها بالوطن ولاء ثابت لا يتزعزع ، وأن مايرونه الآن من العدم المنفوخ ، والصخب الملوث ، ومايسمعونه عن الملايين المنهوبة والمهربة ، وعن الرشوة وتجار المخدرات ، وعن أناس لبسوا ثياب القادة بلا رأى ولا فكر ، يؤمرون فيطيعوا ، وتافهون سدوا الأفق فلم يتركوا لنظيف أو ذكى فرجة يطل منها، ومثقفين خانوا الأمانة ، فأكلوا على كل الموائد ورقصوا على كل الأنغام ، ويساريين يؤجرون أقلامهم للرجعية بلا خجل ، وكتابا يعرضون أقلامهم للبيع لمن يدفع ثمنا أكثر ، كل ذلك عارض فى حياتنا ولن يكتب له الدوام .

أحيانا يستخدم الكاتب العامية فى لغة الحوار ، وأنا لا أحبها له ، لأنها مع تطور الزمن سوف تختفى ، وتبهت تماما قيمتها الجمالية ، فهى وسيلة مرحلية زماناً ومكانا ، لا بأس حين تكون ضرورية ، وتصبح لامعنى لها حين يمكن أن تحل مكانها كلمة فصيحة لاتخدش واقعية التعبير ، لامعنى لـ «كان أبض عليك» لأن استخدام «قبض» لايغير من واقع التعبير شيئا وإنما هو مفهوم الآن وهنا ، وبعد ألف عام فى أى مكان!

ثمة هفوات ندت عن الكاتب تحتاج إلى شىء من التصويب .

فى ص ٤٧ يذكر «الفيلا التى تحتلها سفارة الجزائر فى شارع حسن صبرى بالزمالك هى فى الأصل هبة للثورة الجزائرية بعد الاستقلال ، تنازل عن ملكيتها (الضمير يعود على هنرى كوربيلى) سنة ١٩٥٤ لحكومة بن بلا ، وقام بالاجراءات صديقه المحامى المصرى اليهودى «شحاته هارون» ، والعبارة إن صحت تحتاج إلى إعادة تحرير ، ففى العام المذكور لم تكن هناك حكومة جزائرية أصلا ، وحتى حكومة المنفى كانت أولا برياسة عباس فرحات ، ثم يوسف بن حذة من بعده ، أما بن بلا فلم يتول رياسة الحكومة إلا عام ١٩٦٢ .

وأن حركة الانفصال السورى كانت عام ١٩٦١ وليس ١٩٦٠ كما ذكر ، ووصوله إلى مرسيليا هاربا بكتبه مرة الاحد ٣ أكتوبر ١٩٥١ ، ومرة ١٩٥٠ ، وحمد الباس وليس حامد ، ونجع حمادى وليس نجا حمادى ، وأخطاء مطبعية أخرى ، بعضها مما يمكن أن يهتدى إليه القارىء وبعضها يصعب عليه ، وأخطاء أخرى نحوية بلا عدد .

وتبقى ملاحظة هامشية : لقب دكتور الوارد فى هذا المقال أنا الذى سبقت به اسم الكاتب ، وهذا حقه ، أما هو فلم يصف به نفسه فى المذكرات أبدا : تواضعا ، إشارة إلى أن كثيرين اغتصبوه ولايستحقونه ، إلى أنه لم يعد ذا معنى ؟ كل ذلك ممكن ، ومع ذلك لم أرد أن أتجاهل لقبه العلمى !.

وملاحظة أخرى فى الصميم ، وهو أن هذه المذكرات ، إلى جانب قيمتها الأدبية ، تلقى كثيرا من الضوء على تاريخ مصر الحديث بعامة ، وعلى تاريخ نضال الشباب بخاصة ، والحركات اليسارية على نحو أخص !

فجر الفكر الاقتصادى المصرى: (١٩٢٠ـ١٩٤٥)

بقلم: د. جلال أمين

● يصعب أن نعثر على متخصصين مصريين فى علم الاقتصاد قبل العشرينيات من هذا القرن. نعم، لقد عرفت مصر كتابات فى مسائل اقتصادية كما عرفت تدريس علم الاقتصاد قبل ذلك الوقت، ولكن من كان يقوم بهذا أو ذاك لم يكن الناس يعتبرونهم، ولا كانوا هم يعتبرون أنفسهم «اقتصاديين» فى الأساس. ومن ثم فمن الممكن اتخاذ مطلع العشرينيات نقطة البداية لتتبع تطور الفكر الاقتصادى المصرى، وأن نعتبر أن ذلك الجيل من الاقتصاديين الذين كتبوا فى فترة مابين الحربين العالميتين هو الرعيل الأول من الاقتصاديين المصريين.

كان أغلب أفراد هذا الجيل الأول من الاقتصاديين من خريجى مدرسة الحقوق التى أسسها الخديو إسماعيل فى ١٨٦٧، أو مدرسة المعلمين العليا أو مدرسة التجارة العليا، ثم أرسلوا فى بعثات حكومية أو سافروا على نفقتهم الخاصة لإكمال دراستهم فى الخارج، وعلى الأخص فى فرنسا أو انجلترا، ثم عادوا إلى مصر ومعهم شهادات الدكتوراة فى الاقتصاد السياسى، واشتغلوا بعد ذلك إما بالتدريس فى الجامعة المصرية التى تأسست فى ١٩٠٨، أو فى أحد البنوك أو فى وزارة المالية. كان معظمهم قد تلقوا تعليما راقيا، سواء فى سنوات دراستهم الجامعية الأولى فى مصر أو فى دراستهم العليا فى الخارج، على يد اساتذة أكفاء وقرأوا النظرية الاقتصادية فى كتبها الأصلية الأساسية. وليس فى شكل شروح أو ملخصات. وعندما يتأمل أحدنا الآن ما انتجه هذا الرعيل الأول من الاقتصاديين

من كتابات فى الاقتصاد لا يسعه إلا أن يتملكه الاعجاب اذا أخذ فى الاعتبار أن هؤلاء الاقتصاديين قد بدأوا من فراغ يكاد أن يكون تاما (إذا استثنينا مقدمة ابن خلدون وكتابات الفقهاء المسلمين فى المالية العامة).

● شخصيات بارزة

كان أبرز شخصيات هذا الجيل الدكاترة عبدالحكيم الرفاعى، وأحمد نظمى عبدالحميد، وراشد البراوى، وفهمى لهيطة وعبدالمنعم القيسونى والأستاذ وهيب مسيحة.

كانت كتاباتهم النظرية والتطبيقية على السواء، تعانى من قيود ومصاعب جمة، أما الكتابة النظرية، فإنهم لم يذهبوا فيها إلى أبعد من كتابة الكتب المدرسية، أى تلخيص وشرح النظرية الاقتصادية كما كانت تدرس فى أوربا فى ذلك الوقت، وكان يحد من قدرتهم على التجديد والابتكار فيها أنهم لم يتلقوا علم الاقتصاد فى دراستهم الجامعية الأولى إلا كجزء ثانوى من هذه الدراسة، وأنهم عندما تعلموا النظرية الاقتصادية تعلموها بغير لغتهم، وهناك من يعتقد (بحق فيما أظن) أن الابتكار النظرى فى علم ما يكاد أن يكون مستحيلا أو محصورا فى أضيق الحدود اذا لم يكن المرء يفكر فى هذا العلم بلغته الأم، فضلا بالطبع عن المناخ الثقافى العام الذى نشأوا و تربوا فيه.

وأما فى الموضوعات التطبيقية فكان يصادفهم مصاعب جمة فى جانب «العرض» وجانب «الطلب» على السواء.

إنى أقصد «بجانب العرض» ماكانت تعانيه الكتابة الاقتصادية من ندرة الموارد البشرية (الاقتصاديين) وندرة البيانات والمعلومات الاقتصادية إن عدد المصريين الذين كان من الممكن تسميتهم اقتصاديين فى بداية هذه الفترة، أى فى ١٩٢٠ لم يكن ليتجاوز عدد أصابع اليدين، وفى نهاية الفترة (١٩٤٥) لم يكن عددهم ليتجاوز الأربعين أو الخمسين على الأكثر. وكان معظمهم يشتغل فى وظائف عملية وليس بالعمل الاكاديمى. وقد استمرت دراسة علم الاقتصاد فى مصر حتى نهاية هذه الفترة التى نتكلم عنها، تشكل جزءا من دراسة أوسع هى دراسة القانون أو ادارة الأعمال، ولم يكن من الممكن للمرء أن يصبح اقتصاديا الا اذا تابع دراسته فى خارج مصر. ولكن البعثات الحكومية كانت محدودة للغاية فى تلك الفترة، ولم تكن دراسة الاقتصاد لتحظى على أى حال، بأولوية عالية، لا فى نظر الدولة ولا فى نظر الطلاب المصريين أنفسهم.

● ندرة المعلومات

ولكن حتى لو كانت هناك وفرة من الاقتصاديين المصريين فى ذلك الوقت، فإنهم ماكانوا ليجدوا من البيانات الاقتصادية مايحفزهم الى الكثير من البحث والتدقيق، فجمع وتصنيف مايسمى الآن بالحسابات القومية، لم يكن قد أصبح بعد من الحاجات الملحة كما يعتبر الآن، بل إنه لم يصبح كذلك حتى فى البلاد الصناعية، إلا بعد نشر كتاب كينز الشهير «النظرية العامة» فى سنة ١٩٣٦، وبعد ان زاد الطلب على هذه البيانات استجابة لمتطلبات الحرب العالمية الثانية. والراجح ان هذه الحرب ايضا، وما اقترن بها فى منطقتنا من إنشاء «مركز تموين الشرق الأوسط» الذى وجد لمواجهة متطلبات هذه الحرب. هو الذى حفز الى اتخاذ اولى الخطوات الجادة لجمع وتحليل الحسابات القومية فى مصر.

كان أهم هذه الجهود هو ماقام به خلال السنتين الاخيرتين من سنوات الحرب باحث شاب هو محمود أنيس، الذى قام بدراسة رائدة نشرت بالانجليزية بعنوان «دراسة فى الدخل القومى المصرى» (تم نشرها كعدد خاص من مجلة مصر المعاصرة) وهى مجلة الجمعية المصرية للاقتصاد السياسى والاحصاء والتشريع، فى سنة (١٩٥٠) وكانت تمثل خطوة رائدة على طريق طويل من جمع وتحليل البيانات الاقتصادية الكلية فى مصر، فقبل نشر هذه الدراسة لم يكن هناك الا أقل القليل من البيانات عن مكونات الدخل والانفاق القومى فى مصر، ومكونات الاستهلاك والاستثمار. ناهيك بالطبع عن بيانات توزيع الدخل، بينما كان حجم الناتج القومى الاجمالى ومتوسط الدخل، ومايطرأ عليهما من تغير من سنة وأخرى مجالا لكل من يريد التخمين والتقدير الجزافى.

لايجوز أن نقلل من شأن ماكانت مصر قد أحرزته من تقدم فى جمع البيانات الاحصائية التى تتمتع بدرجة معقولة من المصداقية، بالمقارنة بدول العالم الثالث الأخرى . كانت مصلحة الاحصاء والتعداد قد تكونت، كإحدى مصالح وزارة المالية منذ ١٩٠٥، وبدأت فى نشر الكتاب الاحصائى السنوى منذ ١٩٠٩.

وكانت مصر قد أجرت أول تعداد للسكان فى ١٨٨٢، وجمعت ونشرت بانتظام إحصاءات على درجة عالية من الدقة عن ملكية الأرض الزراعية وتوزيعها على مختلف المحاصيل منذ بداية هذا القرن، فضلا، بالطبع، عن كل مايتعلق بمحصول القطن، عرفت مصر ايضا اعداد حسابات منظمة عن مالية الدولة منذ بداية الاحتلال البريطانى فى ١٨٨٢، كان الهدف الأساسى منها مواجهة مشكلة الدين الخارجى . ولكن كل هذا لم يكن كافيا للقيام بدراسات عن مشاكل

النمو الاقتصادى لمصر بوجه عام، والأوسع نطاقا من مشاكل اى قطاع بعينه، الأمر الذى كان لابد له من جمع وتحليل مختلف البيانات الاقتصادية الكلية.

● الاحتلال وعلم الاقتصاد

ثم إنه فضلا عن ندرة الاقتصاديين المصريين والبيانات الاقتصادية اللازمة، كان هناك أيضا قصور فى الطلب على هذه الخدمات والبيانات. لقد استمر اتخاذ القرارات الاقتصادية الاساسية طوال هذه الفترة فى يد سلطات الاحتلال، التى لم تكن تُعتبر تنمية مصر الاقتصادية، بالمعنى الذى نفهمه الآن، واحدا من أهدافها، بل كان الهدف هو «الادارة الاستعمارية الكفء» وهو شيء مختلف تماما عن التنمية الاقتصادية . ان افضل من يقوم بهذه «الادارة الاستعمارية الكفء» هم بالطبع السياسيون والخبراء البريطانيون المقيمون فى لندن، او الاداريون وخبراء الرى البريطانيون ايضا المقيمون فى مصر، دون حاجة تذكر الى اقتصاديين مصريين، كانت الاصلاحات الاساسية التى يحتاجها نظام الضرائب قد تحققت بالفعل فى السنوات الأولى للاحتلال البريطانى، وانكمشت مهمة التنمية الاقتصادية حتى انحصرت فى رفع انتاجية الأرض الزراعية فى مصر، بل وانحصرت هذه فى زيادة الكفاءة فى انتاج وتمويل وتسويق محصول القطن، لم يكن هذا بالطبع ليرقى الى ماكان يتطلع اليها المصريون من رفع مستوى المعيشة للشعب المصرى ككل، وزيادة درجة التنوع فى الاقتصاد بتشجيع نمو الصناعة، وادخال اصلاحات أخرى على نظام الضرائب تتمثل فى شموله لمختلف مصادر الدخل التى لم تكن تخضع لأى ضريبة وتحقيق درجة أعلى من التصاعدية فى أسعار الضرائب ومن العدالة فى معاملة الأنواع المختلفة من الدخل، ولكن كان الشعور السائد وقتها بأن مثل هذه الاصلاحات لابد أن تنتظر حتى يتحقق الاستقلال السياسى الحقيقى، وبأنه طالما بقى الاحتلال البريطانى لايمكن اتخاذ أى اصلاح اقتصادى ذى شأن . كان المطلوب فى ذلك الوقت، او هكذا بدا الأمر، ليس مزيدا من الاقتصاديين بل من القانونيين والسياسيين الذين يستطيعون الدفاع عن القضية الوطنية فى المحافل والمؤتمرات الدولية وعلى موائد المفاوضات.، لم يكن غريبا اذن ان تكون اكثر الكليات الجامعية اغراء للنابغين من الطلاب فى ذلك الوقت، هى كلية الحقوق، وان عددا قليلا جدا من هؤلاء هم الذين شعروا برغبة قوية فى التخصص فى الاقتصاد.

● البحث عن عزاء فى التاريخ

فإذا نظرنا الآن الى فترة مابين الحربين كلها، فإنه سوف يبدو لنا طبيعيا للغاية ان يسيطر موضوعان على الانتاج

الفكرى للاقتصاديين المصريين في تلك الفترة: الزراعة (وعلى الأخص القطن) والتاريخ الاقتصادى المصرى. أما الاهتمام بالزراعة فتفسره بطبيعة الحال غلبة هذا القطاع الكاسحة فى ذلك الوقت على اجمالى الناتج القومي واجمالى العمالة واجمالي الصادرات. وأما الاهتمام بالتاريخ الاقتصادى المصرى فالارجح أن الدافع اليه كان عوامل نفسية في الأساس. كان الشعور بالاحباط المتولد عن الخضوع للسيطرة الاجنبية يدفع الى محاولة احياء الماضى، كنوع من العزاء من ناحية، وبحثا عن دليل للعمل من أجل المستقبل من ناحية أخرى ترتب على ذلك ظهور بعض الدراسات الممتازة فى تاريخ مصر الاقتصادى كتبها مصريون. ونادرا ما كتب أفضل منها في السنوات التالية للفترة التي نحن بصددها الآن، ومن الشيق أن نلاحظ ظاهرة مماثلة فى فروع أخرى من فروع المعرفة، إذ شهدت نفس الفترة دراسات ممتازة ورائدة فى التاريخ السياسى والفكرى لمصر والعرب والمسلمين من ابرزها دراسات العقاد وأحمد أمين وطه حسين وعبدالحميد العبادى ومحمد حسين هيكل عن التاريخ السياسى والفكرى للإسلام، وسلسلة عبدالرحمن الرافعى فى تاريخ مصر الحديث.

● طلعت حرب الاستثناء البارز

كان هناك استثناء بارزا من سيطرة هذين الموضوعين على اهتمامات الاقتصاديين المصريين، الزراعة والتاريخ الاقتصادى، هذا الاستثناء البارز هو كتابات طلعت حرب وانجازاته العملية على السواء، فها هو ذا رجل يتطلع الى المستقبل بدلا من الماضى، ويشغله تطور الصناعة المصرية بدلا من الزراعة، وعلى الرغم من أن طلعت حرب كان اقتصاديا عمليا وليس اكاديميا، فإن كتاباته وخطبه ومقالاته ومذكراته وتقاريره الاقتصادية تشكل علامة مهمة فى تطور الفكر الاقتصادى المصرى، تذكر بشدة بكتابات التجاريين فى أوربا إبان عصر النهضة كما تذكر بشدة أيضا بكتابات وانجازات الاقتصادى الألمانى فردريك ليست فى العقود الأولى من القرن الماضى كان كل منهما، طلعت حرب وفردريك ليست، يتغنى بمزايا الصناعة، ولا يرى اى مستقبل اقتصادى لبلده بغير التصنيع السريع، ويطالب بدور فعال من جانب الدولة لحماية الصناعات الناشئة.

● التبعية الفكرية

ومع ذلك، وعلى الرغم من دعوة طلعت حرب المستمرة، هو وغيره من الاقتصاديين المصريين الى الاستقلال

الاقتصادى، فقد عكست معظم الكتابات الاقتصادية المصرية فى هذه الفترة درجة عالية من التبعية الفكرية للخارج، بما فى ذلك تأثر طلعت حرب نفسه بدعوى الاستقلال الاقتصادى التى عرفتها اوربا فى المراحل الأولى لنهضتها الصناعية، ففى ظل ندرة، أو حتى انعدام الكتابات الاقتصادية العربية قبلهم كان على هؤلاء الرواد من الاقتصاديين المصريين ان يعتمدوا بشدة على الكتابات الاوربية (وبدرجة أقل بكثير على الكتابات الامريكية) فى النظرية الاقتصادية بل وفى دراسات الاوربيين للمشاكل الاقتصادية لمصر نفسها ولتاريخها الاقتصادى، وهكذا ظلت أفضل الكتب الصادرة عن نظام الرى والزراعة فى مصر هى تلك التى كتبها مهندسون بريطانيون وظل افضل كتاب فى تاريخ مصر الاقتصادى فى القرن التاسع عشر هو كتاب كراوشلى:

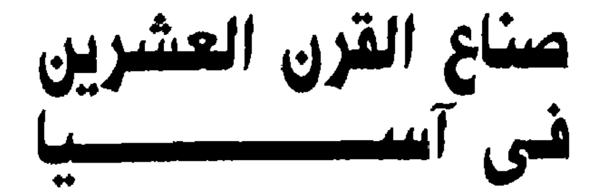
(Crovchley, A. : the Economic Development of Modern egypt, longman, london, 1939).

وذلك حتى نهاية هذه الفترة التى نتكلم عنها على الأقل.

● الانجاز الجليل :

ولكن، مع كل هذه الثغرات وأوجه القصور، كان لهذا الرعيل الأول من الاقتصاديين المصريين فضل واحد عظيم على الأقل، لازال الفكر الاقتصادى المصرى، وسوف يظل مدينا لهم به، وهو جهدهم الرائع فى تعريب المصطلحات والافكار الاقتصادية، إن معظم المصطلحات الاقتصادية العربية المستخدمة اليوم فى مصر، والتى انتشر كثير منها الى سائر البلاد العربية، هو من صنع هذا الجيل من الاقتصاديين سواء فى ذلك مصطلحات النظرية الاقتصادية الجزئية والكلية، أو التجارة الخارجية، أو النقود والبنوك، أو التأمين، أو تاريخ الفكر الاقتصادى.. إلخ . وبفضل ما كان يتمتع به ذلك الجيل من سيطرة كاملة على قواعد اللغة العربية ومعرفة حميمة بأفضل أمثلة الأدب العربى القديم، جاءت هذه المصطلحات الجديدة لتعبر عما يقابلها فى اللغتين الانجليزية أو الفرنسية، بدقة ووضوح وجمال، وهى صفات ساعدها على سهولة وقبول هذه المصطلحات وانتشارها.

جاء الجيل التالى من الاقتصاديين المصريين (٤٥ – ١٩٧٠) ليستخدم هذا التراث الغنى من اللغة الاقتصادية الذى تركه الجيل الأول، وليصحح كثيرا من أوجه القصور التى عانى منها، وليتخلص من قيود التبعية التى كان الجيل السابق مكبلا بها. ولكن هذا الجيل التالى عانى بدوره من أوجه قصور ومن قيود من نوع جديد وهو موضوع مقالنا القادم.



رسالة سنغافورة

مجدى نصيف

سنغافورة بعد لى كوان يو

● الرجل الذي بني بلاده وحولها من العالم الثالث إلى إحدى دول العالم الغنية .

● الديموقراطية الغربية غير مناسبة فى رأيه للدول الآسيوية لأن لها قيماً أخرى .

قال زعيم سنغافورة «لي كوان يو» مرة إنه سيعود من القبر يوماً بعد وفاته ليقود البلاد . ولم يجرؤ كثيرون على تكذيب ما قال. فقد فعل لبلده الكثير لدرجة أن أهل سنغافورة يعتقدون أنه قادر علي ان يفعل اى شىء. وكيف لايصدقون وقد بني سنغافورة في ثلاثة عقود فقط تحولت من قرية- صغيرة- جزيرة يسكنها فقراء فى اكواخ من الصاج إلى البلد- المدينة الحالية بناطحات سحابها وتجارتها وأصبحت واحدة من نمور آسيا الصغيرة الأربع .أقام الزعيم «لي كوان يو» النظام الذى يريده فى أحد أركان آسيا الذى كانت تسوده الفوضى، وحوّل سنغافورة لتصبح واحدة من القوى الاقتصادية ليس فى آسيا وحدها بل في العالم أجمع. لذا يطلقون عليه في سنغافورة «الأب المؤسس» . لكنه فى الحقيقة يستحق أكثر من هذا الاسم بكثير.



لذا عندما دخل رئيس وزراء سنغافورة السابق «لى كوان يو» المستشفى وكنت آنذاك اقضى يومين بسنغافورة فى منتصف يناير ١٩٩٦، يشتكى من إنسداد الشريان التاجى، واجه أهل سنغافورة فجأة الحقيقة : إن كل انسان سيموت

حتى ولو كان «لى كوان يو» فهو فى الثانية والسبعين وتبدو عليه علامات الموت. لم تصب أسواق سنغافورة بهزة كما قد يتوقع البعض وهذا ما يفضله «لى كوان يو» . لم تتأثر البورصة . ويفهم السنغافوريون أن زعيمهم قد اعد العدة

للخلافة . وهذا على عكس سوهارتو فى اندونيسيا ودنج زيابنج فى الصين . فهو عندما يترك الساحة سيكون الانتقال فى السلطة هادئاً ، وليس هناك حاجة إلى صراع دموى . كل شيء سار فى طريقه كما هو .لكن السنغافوريين يشعرون فى داخلهم إنهم بدون «لى كوان يو» يفقدون «البوصلة» التى توجه حياتهم . لقد كان يمسك كل السلطات بين يديه ولن يشعر السنغافوريون بهذا إلا بعد أن يفقدوه .

● إرث لى كوان يو

ولن تنظر سنغافورة وحدها إلى إرث «لى كوان يو» بل آسيا كلها . فهو صاحب وبطل فكرة ألا يتبع الآسيويون نماذج الديموقرطية الغربية لتتحقق لهم الرفاهية. ثلاثة عقود كاملة من النمو الاقتصادى العالمى، جعل سنغافورة نموذجاً للتقدم المنتظم فى كل آسيا ، بما فى ذلك دول كبيرة مثل إندونيسيا والصين ، إذ تعتمدان على نصائح القيادة السنغافورية فى تنمية بلادهما .

واقترح على القيادة الصينية إبعاد وسائل الاعلام العالمية عن ميدان السلام السماوى وقت المذبحة ضد الطلبة .

وصفه المؤلف مايكل ليفر فى كتاب عنه بأنه «سوبر مان سياسى ، فى وقته» بينما قال لى كوان يو مرة أن وجود سنغافورة فى تلك الظروف التى فهمها تماماً هى انجازه الرئيسى . أما عبقريته الحقيقية فهى الوصول الى الحلفاء المضبوطين للحفاظ على سلامة سنغافورة.

● البداية

أصبح أول رئيس لوزراء سنغافورة عام ١٩٥٩ بعد أن انفصلت عن الاتحاد الماليزى . الذى لم يعش طويلاً بعد الاستقلال بسبب ذلك الانفصال . وطرد من الاتحاد الفيدرالى الماليزى بطبيعة الحال ، فبدأ تجربته . فتح أبواب سنغافورة لرءوس الأموال الأجنبية التى حولت الجزيرة السنغافورية إلى ما هى عليه الآن. و٨٠٪ من استثمارات سنغافورة الآن فى قاعدتها الصناعية . هكذا أصبح لى كوان يو خريج جامعة اكسفورد وبكل القيم الاسيوية والحفاظ عليها ، صديقاً لأى بلد فى الشرق أو الغرب يساعد بلده ويحقق جزءاً من أهدافها التى وضعها بنفسه .

ولسنغافورة جاران كبيران قويان : الصين بسكانها وقوتها العسكرية ،

واليابان بجبروتها الاقتصادى لذا تطلعت سنغافورة إلى الولايات المتحدة الامريكية كعامل توازن . كان لى كوان يو معادياً للامبريالية فى صباه وشبابه، لكنه دعا القوة الامبريالية الكبرى فى العالم ، الولايات المتحدة الامريكية فى التسعينات إلى استخدام قواعد عسكرية فى سنغافورة . وكان فى نفس الوقت يحذر واشنطن حتى لا تستفز الدول الآسيوية بلعب دور «رجل البوليس» فى المنطقة . ويقدر كثير من السنغافوريين هذا «التوازن السياسى» الذى فرضه «لى كوان يو» وإن كان عديدون يصفونه بأنه «لعب على الحبال» ويقول محللون سنغافوريون أن هذه السياسة «اكسبته احترام القوى الاقليمية والدولية على السواء»

● الجزيرة وسكانها

ويصل عدد سكان هذه الجزيرة الصغيرة إلى ثلاثة ملايين نسمة يعيشون على جزيرة أعرض جزء فيها طوله ٤٥ كيلو متراً، ولولا أن «لى كوان يو» سيطر على حياة السنغافوريين لدرجة مذهلة لما استطاعوا أن يعيشوا على تلك الجزيرة لذا فالتجربة السنغافورية غير قابلة للتصدير خاصة إلى الدول الأكبر . فالمنوعات فى سنغافورة كثيرة وغراماتها كبيرة وشديدة ، ابتداء من إلقاء أى شىء فى الشارع إلى «التبول» إلى القيادة بسرعة ، وهناك اجهزة خاصة تركبها شركات التاكسيات تصدر أجراساً عندما يتعدى السائق السرعة المسموح بها . وحملات النظافة قاسية إلى درجة منع زراعة الأشجار التى تتخلص من أوراقها فى الخريف من الحدائق العامة . أما الرقابة فتشاهد كل فيديو يدخل البلاد وكل كاسيت . والنتيجة أن سنغافورة كلها بلد نظيف تماماً : من الزبالة والشحاذة والفقر والجريمة . فالجميع يعملون ، وليس هناك حاجة للشحاذة وارتكاب الجرائم .لذا يؤمن الشباب السنغافورى ان «بلاده قد شيدت منذ البداية على النجاح الاقتصادى ، لذا يتبع كل شىء هذه البداية» لكن بعد ثلاثة عقود من الحياة فى مجتمع متزمت ، هناك « عدم راحة بين شباب عديدين» ويقول بعضهم «لسنا حيوانات اقتصادية. إننا بشر»

ويهاجم لى كوان يو فى الغرب دائماً كمستبد ودكتاتور. وعندما حكم على شاب أمريكى كتب على إحدى السيارات بـ ١٦

جلدة ، وجه اليه الرئيس الأمريكى بيل كلينتون نداءً بالعفو عن الشاب ، فخفّض الحكم من ١٦ إلى ١٢ جلدة ! ويصف «كوان يو» نفسه بأنه «براجماتى» ولأن اللغة الانجليزية هى لغة رجال الأعمال فقد أصبحت اللغة الانجليزية هى اللغة الأساسية للسكان الذين تبلغ نسبة الصينيين بينهم ٧٥٪ . وقام فى نفس الوقت بحملة «تحدث الماندارين» وهى إحدى «اللغات» أو «اللهجات» الصينية ووسع العلاقات مع الصين ودفع مجملات «القيم الاسيوية» إلى أمام . وعندما بدأ عدد السياح ينخفض بشكل ملموس فى الثمانينات ، شن لى كوان يو حملة كبيرة لحماية البقايا المعمارية المتخلفة عن عهد الاستعمار البريطانى . وحقيقة الأمر أن التكنو قراط من أكفأ العاملين فى المنطقة. وبعض شركات الدولة مثل خطوط طيران سنغافورة تنافس الشركات الخاصة العالمية بل وتتفوق على بعضها . أما لى كوان يو نفسه ، فيقدم نموذجاً حياً لمواطنيه : فهو يعمل بجد ونشاط لساعات طويلة . وبعد كل هذه السنوات فى السلطة ما زال يعيش بمنزله المتواضع الذى عاش فيه منذ كان رئيساً لوزراء سنغافورة لأول مرة وهو يكره المظاهر الكاذبة والبذات الغامقة التى يرتديها رجال الأعمال وكبار موظفى الدولة عادة . وهو يسافر فى شركات طيران رخيصة .

●لى كوان يو والديموقراطية

ومنذ بداية عمله السياسى ، وتجربته فى سنغافورة ، وهو يقول أن «الديموقراطية الغربية لا تناسب الحضارات الآسيوية ، ذلك إنها لم تعرفها فالانسان لا يمكن الضغط عليه وطبخه ليعمل بالطريقة التى نطلبها منه » هذا رغم انه يشكل المواطن السنغافورى كما يريد فى كل المجالات الأخرى ومن رأى لى كوان يو ان ما بين ٥ إلى ٨٪ من السكان فقط هم الذين يستطيعون ممارسة «الحرية للجميع» وهى شكل الديموقراطية الذى يحبذه . «اما إذا طبقت هذه الديموقراطية ليمارسها كل سكان آسيا ، فستكون كارثة وفوضى» وحتى يمكن أن تسيطر القيادة السياسية فى سنغافورة على الأوضاع ، فرضت عقوبات تتراوح بين الجلد على كل من يرسم أو يكتب شيئاً على الحائط ، إلى الإعدام لحيازة أى كمية من الهيروين.لكن

لعل أكثر الجهود عدوانية من جهة لى كوان يو ، هى تلك الموجهة للفقراء ، فهى تكاد تقترب من التجارب الغازية - الهتلرية . فقد قام بحملة أطلق عليها «تربية الذكاء» فى الثمانينات . كانت حكومة لى كوان يو قلقة على الأطفال المولودين فى طبقات فقيرة . فعرضت عليهم شققاً رخيصة إذا ما وافق الرجال الفقراء على تعقيم أنفسهم وشجعت المتعلمات على الزواج من رجال يناسبوهن ومن نفس المستوى التعليمى بتخفيض الضرائب المفروضة عليهن. وكان شعار لى كوان يو المفضل هو « صناعة الأطفال الموهوبين» وقال أن هذه الحملة «ضرورية لمنع التحلل الاقتصادي والاجتماعى فى المجتمع السنغافورى»! ثم خبت هذه الحملة فى نهاية عمله كرئيس للوزراء .

كبير الوزراء

تنحى لى كوان يو عن منصبه بعامل السن عام ١٩٩٠. وخرج بقوله إن خليفته حر فى أن يخفف من شدة نظامه إذا ما أراد. وبالفعل قام رئيس الوزراء الجديد جوه شوك تونج بتخفيف «المنوعات» فبدأ بالصحافة، والفيديو، وأنشأ وزارة للفن،وأفرج عن بعض السجناء السياسيين لكن سنغافورة ظلت فى شكلها العام ، هى سنغافورة لى كوان يو ، أو ظلت تشبهها كثيراً، وخاصة فى الأساسيات . ظل لى كوان يو بعد أن تنحى رسمياً، «كبير الوزراء » فى حكومة جوه شوك تونج . فهو ما زال يلعب دوراً هاماً فى «حزب العمل الشعبى » الذى يسيطر على مقدرات سنغافورة. وهو الذى يتخذ القرارات فى السياسة الخارجية ، وفى أى مجال آخر يريد أن يفرض رأيه فيه . وبمعنى آخر مازال يتدخل فى كل شيء ، حتى نوع الأشجار الذى يزرع بسنغافورة!

إلى متى يستمر لى كوان يو هكذا ؟

وقبل مرضه كان هناك حديث عن خوضه لمعركة الرئاسة في سنغافورة التي تجرى انتخاباتها عام ١٩٩٨ . وهناك نكتة تقال سراً بطبيعة الحال ، فهو يري سنغافورة صغيرة علي أحلامه، لذا يحاول أن يخوض معركة انتخابات الرئاسة في الصين ! .

□

عالم جديد
عصر جديد
حضارة جديدة

بقلم :
مصطفى نبيل

□ كتاب جديد ، أو مفاجأة بكل المقاييس ، إنه تلخيص وتجميع لأعمال «ألفن توفلر» بين دفتي كتاب ، يضع أفكاره أمام قراء العربية ، وجاءت الترجمة مفاجأة أخري في دقتها وسرعتها والجهد المبذول فيها ، والتي قام بها أحد المثقفين البارزين الاستاذ سعد زهران .

يرتدى المؤلف ثوب المبشر الذى ينادى بنظرية جديدة وعالم جديد وعصر جديد وحضارة جديدة ، عالم أكثر بهجة يتمتع فيه المرء بوقت فراغه ، ويعيش رفاهية أكبر ومشقة أقل .

خاصة والقرن الحادى والعشرون يفتح ذراعيه للقادمين ، ولم يبق من القرن العشرين سوى أربع سنوات ، والعد التنازلى يوشك أن يتم ، والتغيرات عاصفة من حولنا ، تبدو أسرع من البرق ، وأعجب من الخيال ، تفوق كل التوقعات ، لذا اقترن هذا العصر بـ «عدم اليقين» رغم أن التغير لايتوقف أبدا .

والتغيرات التى نشهدها تشمل العالم بأسره ، المراكز والأطراف ، عالم المتقدمين والمتخلفين معا، فهى نتيجة التطورات العلمية والتقنية التى لايقف تأثيرها عند حد ، والتى تبدو معالمها فى ثورة التكنولوجيا وثورة المعلومات .

● قوانين التغير

قدم «الفن توفلر» نظرية متماسكة حول المستقبل ، بعقل نافذ وبصيرة ثاقبة ، يجيب عن الكثير من التساؤلات التى تظهر مغزى ما يجرى فى العالم ، يكشف عن قوانين التغير ، ويقدم طريقة للتعامل مع هذه القوانين اعتمادا على استقراء الواقع ومعرفة التاريخ ومن يتابع كتاباته يلحظ القدرة الفذة على قراءة المتغيرات والربط بينها ، واستخلاص نظرية تستحق التأمل والحوار ، وتحيزه لايقتصر على أن لديه فقط ما يقول ، بل ويعرف كيف يقوله.

وعندما نشد رحالنا لبدء الرحلة المبهرة فى الألف سنة المقبلة نرى أن للفكر والفن مكانا بارزا فى نظرية توفلر ، وعلى المفكرين أن يستعدوا لما يمكن أن يكون أكثر الرحلات متعة وإثارة فالتغير المستمر ، يؤكد الحاجة الدائمة الى مراجعة أفكارنا ومفاهيمنا ، ونبدلها وفقا للخبرة والتجربة .

وهذا الكتاب يثير من الأسئلة بقدر ما يقدم من الاجابات ، ويصعب أن تعثر على إجابات حاسمة ، والاجابات التى يقدمها توفلر تحرض على المزيد من الأسئلة فتأثير التقدم العلمى والأقمار الصناعية والانترنت يصل الى كل مكان ، وألقت هذه المستحدثات بظلها على كل مظاهر الحياة، وفسرت كل مايقع فى العالم من أحداث بعد أن كان النصف الثانى من القرن العشرين من أعظم فترات التقدم العلمى والتكنولوجى ، وسيساعد استخلاص النتائج على هذه الإنجازات فى استقراء القرن المقبل «عصر المعلومات» أو «عصر مابعد الصناعة» الذى يدور محوره حول المعرفة ، تلك المعرفة التى تحقق السيطرة الاجتماعية وتوجه الإبداع والتغيير الاجتماعى ، بعد تحول القطاع الاقتصادى من إنتاج السلع إلى تقديم الخدمات وسيادة طبقة التقنيين والمهنيين بدلا من أصحاب الأموال والعمال والفلاحين !.

فاستخلاص المعارف من المعلومات هو محور نشاطات المستقبل ، وتعنى المعارف أن رأس المال «البشرى» حل محل رأس المال «النقدى» ، فسيتخلص الانسان المعارف من المعلومات ، ويعود للإنسان اعتباره بدلا من الآلة .

ويؤكد «توفلر» أن الأزمات المتلاحقة

التى تعيشها الولايات المتحدة ، ليست سوى مخاض يسبق ظهور نظام كونى جديد ، يواجه عدة أزمات لم يسبق لها مثيل بعد أن تفرد المجتمع الأمريكى طويلا بالقدرة على حل الأزمات أو التعايش معها ووصلت هذه الأزمات الى النظام الأسرى والصحى والتعليمى ، ولايعنى ذلك أن أمريكا فى طريقها الى الانهيار ، أو أن ذلك نهاية التاريخ ، فأزمات أمريكا ليست نتيجة إخفاقها ، وإنما نتيجة نجاحاتها المبكرة ، وليست أمريكا فى نهاية التاريخ، بل تعيش ماقبل التاريخ ، والصعوبة أن أدوات التحليل التى بين أيدينا لم تعد صالحة للتحليل ، وغدت مصطلحات مثل اليمين واليسار ، أو الليبرالى والمحافظ بلا معنى ، نجد البلاشفة الروس رجعيين والإصلاحيين الأمريكان راديكاليين ، والأخطر مانراه من انتقال السلطة السياسية من الكونجرس والبيت الأبيض والأحزاب السياسية الى أجهزة الاتصال والجماعات الأهلية التى تربطها شبكات إلكترونية واسعة ! .

ويصعب فهم هذه الظواهر فى هذه المرحلة من التغيرات السريعة والآمال المحبطة والصراعات التى يتقابل فيها الأخوة ، من غير السعى لفهم متكامل

عالم جديد

للقرن الحادى والعشرين .

ويقدم «توفلر» إطارا ومنطقا لعملية التغيير ، يجعلنا نستطيع أن نقدم على خطوات عملية من أجل إحداث تغييرات أعظم تنتظرنا فى المستقبل ، وتجعلنا نتمكن من السيطرة عليها وتوجيهها ، بدلا من أن نكون من ضحاياها .

● صدمة المستقبل

أقول : جاء هذا الكتاب تلخيصا لأعماله السابقة ، ويتضمن رؤية متكاملة إكتملت على مراحل ، كانت البداية عندما قدم ألفن وهايدى توفلر نظريتهما فى كتاب «صدمة المستقبل» سنة ١٩٧٠ ، وفيه مفتاح لما يبدو كأنه عشوائية وفوضى ، ويربط الكثير من الشواهد التى تبدو متفرقة بتفسير ورؤية لمستقبل مثير .

وأتبعاه بكتاب آخر عام ١٩٨٠ بعنوان «الموجة الثالثة» ، يشرح فيه أن الثورة الزراعية صنعت «الموجة الأولى» فى تحول التاريخ ، أعقبها الثورة الصناعية التى بدأت منذ ٣٠٠ سنة ومعها «الموجة الثانية» وحان الوقت لتحرك «موجة ثالثة» وظهور حضارة جديدة .

وكانت إشارة البدء فى ظهور الموجة الثانية هى قوانين نيوتن وما استتبعها من استخدام الآلة وبناء المصانع ، وماصاحب

ذلك من ظهور أفكار مثل فكرة التقدم واحترام حقوق الإنسان ، والعقد الاجتماعى بين الحاكم والمحكوم ، وفصل الكنيسة عن الدولة ، وضرورة انتخاب الأهالى لحكامهم بعد أن استقر فى الوجدان العام أن القيادة ليست حقا مقدسا لأحد .

ونحن اليوم أمام ثلاث موجات ، وثلاث حضارات ، الأولى ورمزها الفأس أو الأرض ، والثانية ورمزها المصنع أو خط الإنتاج ، والثالثة ورمزها الكمبيوتر والطرق والممرات الإلكترونية ، ويوفر قطاع الموجة الأولى الموارد الزراعية والمعادن ، ويقدم قطاع الموجة الثانية العمل الرخيص والانتاج الكبير ، أما الموجة الثالثة فتسود فيها الطرق الجديدة الناتجة من المعرفة .

وعالم الغد عند «توفلر» ينتقل من النمطية الى التنوع ، وتجد اليوم فى السوبر ماركت حوالى مائة ألف صنف ، ومن المركزية الى اللامركزية ، ومن العمل اليدوى الى العمل الفكرى .

● أمريكا .. إلى أين ؟!

يستخلص «توفلر» مما يدور حوله نظرية متكاملة فعقب سقوط الشيوعية يعاد النظر فى الليبرالية وقوانين السوق ، ويتحاور مع غيره حول الأزمة الراهنة وخاصة الذين قدموا معالجات للحالة الأمريكية الراهنة ، مثل بول كيندى ويوكاهاما .

يقول عن المجتمع الأمريكى .. «إننا نعيش مخاض حضارة جديدة ، ولم يوجد بعد فى أمريكا القوة الجديدة التى تعبر عن «الموجة الثالثة» وعندما تتوافر سيكون لها الهيمنة وصاحبة المستقبل ، وعندها ستقوم أمريكا جديدة ، أمريكا مبهرة ، وتنهض من خرائب وأنقاض أواخر القرن العشرين ومازال الديمقراطيون يتحدثون عن إعادة تصنيع أمريكا ، وهذا يعنى - حسب تحليل توفلر - عودة مستحيلة الى اقتصاد الموجة الثانية ، ومن ناحية أخرى تجاوب الجمهوريون مع مشاعر الحنين الى الماضى ، الحنين الى الحضارة والقيم القديمة ، كما لو كان من الممكن العودة الى القيم والمعايير الأخلاقية للخمسينيات، أى قبل ظهور شبكات التليفزيون والأقمار الصناعية والكمبيوتر المنزلى ، ودون العودة الى الموجة الثانية ، أما الجناح المستند الى الدين فى الحزب الجمهورى فيسعى الى العودة الى «الحقيقة الموروثة» ويلوم الجمهوريون الليبراليين على الانهيار الأخلاقى ، بدلا من البحث عن كيفية بناء أمريكا ديمقراطيا ، والدفع للوصول الى حضارة «الموجة الثالثة» ، وماتؤدى إليه من إقامة مجتمع عادل وفاضل .

فتستطيع الموجة الثالثة أن تحمل أمريكا الى مستقبل أفضل ، مستقبل أكثر لطفا وتهذيبا ، وتعيش أمريكا اليوم آلام الوضع لحضارة جديدة لاتزال مؤسساتها لم تأخذ وضعها بعد .

فأمريكا هي البلد الذي يأتيه المستقبل قبل سواه ، فإذا عانينا من إنهيار مؤسساتها القديمة ، فإننا أيضا لابد أن ندرك أننا رواد حضارة جديدة ، ولا يوجد بعد من يملك اليقين أو الحقيقة للإجابة عن سؤال : إلى أين نحن ذاهبون ؟. أو حتى الى أين يجب أن نذهب ؟!

مستقبل أمريكا

ومن اللافت للنظر الطريقة التي تعامل بها المجتمع الأمريكي مع هذه الأفكار ، فبعد تقديم «ألفن وهايدى توفلر» أفكارهما ، ونشر كتابهما الأول «صدمة المستقبل» ، لم يقتصر المجتمع الأمريكي على مناقشة هذه الأفكار في الجامعات ، ومراكز الأبحاث الأكاديمية ، وإنما سرعان ماتكونت جمعيات لنشرها وكسب المؤيدين لها ، وتحويلها الى برامج عمل وبرامج زمنية واستفاد رجال الأعمال والمنشآت الإقتصادية من هذه الأفكار أخذوا يعيدون هيكلة منشآتهم استعدادا للقرن القادم ، وقام البيت الأبيض والكونجرس ووزارة الدفاع بعقد الندوات ودعوة أصحاب هذه الأفكار لمناقشتهم.

ونظم بعض أعضاء الكونجرس عام ١٩٧٥ مؤتمرا حول المستقبل ، وأدى إلى إقامة «البيت البرلماني لاستشراف المستقبل» ، اشترك في رئاسته فيما بعد آل جور نائب الرئيس الأمريكي ، بل وناقش البعض هذه الأفكار بفلظة وسخرية مثل دونالد ريجان كبير موظفي البيت الأبيض في عهد رونالد ريجان ، عندما دعا البيت الأبيض مجموعة صغيرة حول مائدة الطعام بالبيت الأبيض لمناقشة المستقبل بعيد المدى ، وضمت الى جانب الرئيس نائبه وثلاثة من أهم مساعديه وفجأة قال دونالد ريجان بحدة هل تقنعوننا إننا بسبيلنا أن نفقد أعمالنا ، ويحلق بعضنا شعر البعض الآخر ، ونبيع الهامبورجر ؟! وهل سنكف في النهاية على أن نكون دولة صناعية كبرى ؟!»

وبعدها اشترك الكاتب في تنفيذ نموذج مستمد من الموجة الثالثة مع قيادة التدريب والعقيدة العسكرية في الجيش الأمريكي في أوائل الثمانينيات .

● مستقبل الأخلاق

وأهم سمات التغير في عصرنا كما يرى «توفلر» – تسارع – إيقاع الأحداث،

مما يؤثر حتى على قيمة الكتب، فما يكاد يمضى شهر حتى يظهر كتاب جديد ينسخ ما قبله، وأصبحت الحاجة ماسة إلى أن نفرق بوضوح بين سياسيين ينظرون إلى الوراء ويرغبون فى إستعادة ماض غير قادر على الاستمرار، وبين آخرين على استعداد لإحداث الانتقال إلى مجتمع الموجه الثالثه، ولا يقتصر تأثير الموجه الثالثة على التكنولوجيا والإقتصاد، بل تشمل على تهذيب الأخلاق والارتقاء بالثقافة، كما تؤثر على الأبنية السياسية والمؤسسات، فهى تتضمن تغييراً جوهريا فى كل ما يتعلق بشئون البشر. وكما قضت الثورة الصناعية على كثير من الأبنية السياسية التى سبقتها، أو جعلتها غير ذات موضوع، فإن الموجه الثالثة ستكون لها نتائج مشابهة ولن يقدر على البقاء وصياغة المستقبل سوى القوى السياسية التى تعترف بهذه الحقيقة التاريخية، أما أولئك الذين سيفشلون فستدور بهم دوامة التاريخ ويهبطون فى بالوعته !

فإذا استغرقت الموجة الثانية وصعود الحضارة الصناعية ثلاثمائة عام، فالموجة الثالثة تستغرق وقتا أقل، فالتاريخ اليوم أعظم تسارعاً، ولا تحتاج الموجة الثالثة أكثر من بضع عشرات من السنين، وكل من يقدر له أن يعيش على ظهر هذا الكوكب فى هذه اللحظة المتفجرة والمتألقة سيشعر بالصدمة فى حياة هذا الجيل .

فهذه الحضارة الجديدة لها رؤيتها المميزة للعالم، وطرقها الخاصة للتعامل مع المكان والزمان، ولها منطقها الخاص، ولها أيضا مبادئها الخاصة لسياسات المستقبل.

وربما كانت العقود المقبلة مليئة بالاضطرابات، بل وربما مظاهر العنف، إلا أن التغيرات التى نواجهها ليست عشوائية وإنما هى أجزاء يتشكل منها نمط يمكن التحقق منه، وهذه التغيرات تتراكم وتضيف باستمرار إلى التحول القائم، وهذا يؤكد أن مستقبلا عقلانيا أمر ممكن، وما نشهده اليوم ليس أكثر من ثورة عالمية وقفزة نوعية ضخمة إلى الأمام، فنحن الجيل الأخير فى حضارة قديمة، ونحن أيضا الجيل الأول فى حضارة جديدة بازغة . وهذا الفهم يظهر أن كثيراً من الأحداث التى تبدو بلا معنى تصبح مفهومة، وتبدأ فى الظهور والنمو أنماط ونماذج للتغيير، وتحرر البشائر الثورية إرادتنا وملكاتنا الذهنية.

● حكم الزمن

واليوم يصيب الدوار كل بلاد التكنولوجيا المتطورة، بسبب التصادم بين

الموجه الثالثة الصاعدة واقتصاديات الموجه الثانية المنسحبة، وهذا هو المفتاح الذى يعطى سر الكثير من الصراعات الاجتماعية والسياسية الدائرة حولنا. وهذا هو التصادم الذى يولد أشكالاً من التوتر الاجتماعي والصراعات الخطرة، وظهور موجات سياسية جديدة تتعدى الحواجز والخطوط بين الطبقات والأجناس والأحزاب، وبين الرجال والنساء، وخلال هذا الصدام يصعب التمييز بين الأصدقاء والأعداء، وتنهار كل الاستقطابات والتحالفات القديمة. ويجب أن نمسك بزمام التغير فى أيدينا، وأن نميز بوضوح بين التغيرات التى يمكن أن تمد عمر الحضارة الصناعية القديمة، وتلك التى تسهل مجيىء الحضارة الجديدة .

● صراع الحضارات

يعتبر «توفلر» حرب الخليج هى أول حرب تقوم على منجزات الموجة الثالثة ، ويبين ذلك فى كتاب له عنوانه «الحرب نقيض الحرب» والذى عرضته مجلة الهلال فى ثلاثة أعداد متتالية بداية من يناير ١٩٩٤ وقدمه د. أحمد مستجير .

يذكر «توفلر» أن المستقبل سيمكننا أن نصلح ما أفسده التلوث فى العصر الصناعى ، وأن نصنع تكنولوجيا نظيفة

عالم جديد

تساهم فى تقدم البشرية وسيمكن فى القرن القادم أن يساهم التنوع الثرى للحضارات والشعوب فى صنع المستقبل . قرن يمكن فيه أن نوقف نزيف الدم الذى تسببه الحروب فما يصنع السلام هو ما يقوم به السياسيون والعسكريون لخلق الظروف التى تمنع الحرب وتحد من إنتشارها ، وما نحتاجه هو ثورة موازية فى الطريقة التى نصنع بها السلام ، فالصيغ الجديدة للحرب تتطلب صيغا جديدة لصناعة السلام ، وسيأتى اليوم الذى يحمل فيه الجندى الكمبيوتر بدلا من المدفع .

● الغرب والاسلام

ويرد «توفلر» على كل من هنتنجتون وبرنارد لويس أصحاب نظرية صراع الحضارات، اللذين يتوقعان نشوب الصراع بين الغرب والاسلام، ويؤكد.. الصراع يقع نتيجة التغيرات الكبيرة التى تحدثها الموجة الثالثة. فالموجة التاريخية حركة، وعند اصطدام موجة بأخرى تتولد تيارات قوية متلاطمة، .. فالصراع الأساسى الذى نواجهه ليس بين الاسلام والغرب أو بين الآخر والغرب، وليس لأن أمريكا تمر بحالة تدهور كما أعلن بول كنيدى، ولا لأن أمريكا تواجه نهاية

التاريخ، كما يرى فوكاياما، إنما هو انقسام العالم الى ثلاث حضارات ناتجة من ثلاث موجات .

وفى الماضى انتصر معاصرو الموجة الثانية على تقليدى الموجة الأولى، وبعدها شنت دول الموجة الثانية حروب التوسع الاستعمارى، واخضعت دول الموجه الأولى والوحدات القبلية والعشائرية فى كل أرجاء آسيا وأفريقيا. إذن فالصراع القائم هو بين الذين يحاولون الإبقاء على الحضارة الصناعية، وأولئك الذين يحاولون إحلال حضارة جديدة مكانها. وهذا يساعد على فهم كثير من الظواهر، مثل اشتعال حركة القوميات، فالقومية هى أيديولوجية الدول الأمة، التى هى نتاج الثورة الصناعية. والصراع السياسى الدائر حولنا، ليس صراعاً بين الاغنياء والفقراء، ولا بين الجماعات العرقية المنتصرة وتلك المغلوبة، ولا حتى بين الرأسمالية والاشتراكية، إنما هو صراع بين هؤلاء الذين يحاولون أن يسندوا المجتمع الصناعى ويحافظوا على بقائه، وأولئك المستعدين لتجاوزه والتقدم الى الأمام، وهذا هو صراع الغد الأكبر .

ففى اقتصاديات الموجة الثالثة، كان امتلاك السلع والبضائع هو المقياس للثروة وانتاج السلع هو الشىء المركزى فى الاقتصاد، وعلى النقيض كانت الانشطة التى تتعامل مع الرموز والخدمات، توصف بأنها غير منتجة، وكان انتاج السيارات والراديوهات والتركتورات والتليفزيونات هى التى ينظر اليها باعتبارها نشاطا مهنيا تلحق به صفات مثل ، عملى ، واقعى صلب وعلى العكس كان انتاج المعارف وتبادلها يقلل من قدر صاحبها باعتباره ليس إلا مجرد «تحريك أوراق»، وترتب على ذلك أن الاشياء المحسوسة هى الأكثر أهمية، وأن الثروة القومية تتدفق من فائض تجارة السلع، وأن التعامل فى الخدمات لا أهمية له إلا بقدر ما يسهل التعامل فى البضائع ، وأن غالبية التعليم تبديد إلا إذا كان مهنيا، وأن الأبحاث العلمية جرى وراء خيال، وأن الفنون واللغات والعلوم البحتة والفلسفة والتاريخ لا حاجة اليها لتحقيق نجاح الأعمال، إن لم تكن ضارة بالفعل !

وهذه الأفكار لم تكن مقصورة على المثقفين المتعلقين بقيم الطبقة الوسطى، وإنما كان لهم نظائر فى العالم الشيوعى، فقد عانى المخططون الماركسيون فى محاولة ادماج الأنشطة الراقية فى مخططاتهم، وانتجت الواقعية الاشتراكية آلافا من صور العمال السعداء، وقد انتفخت عضلاتهم مع خلفية من التروس

والمداخن والقاطرات .

وبالفعل جاء وقت كان يمكن أن يكون فى هذه المادية شىء من القبول، أما فى أيامنا هذه ، وبعد أن أصبحت القيمة الحقيقية للمنتج تتركز فى المعارف التى هى جزء من تكوينها ، فإن هذه المادية تصبح رجعية وبلهاء معاً .

ويمكن فى الموجة الثانية باكراه العامل المتكدر على الانتاج ، وفى الموجة الثالثة فإن العامل المنشرح يمكن أن يكون أكثر إنتاجاً من اليوم وعلى إمتداد المستقبل كله سيكون تجسيد القيمة وتعظيمها متوقفا على المعرفة ، لا على العمالة الرخيصة ، وعلى الرموز لا على المواد الخام، وإن إعادة النظر فى مصادر القيمة المضافة تترتب عليها نتائج مهمة وكثيرة، وتتحطم الفرضيات التى قامت عليها الماركسية والسوق الحرة معاً . والمادة التى هى أصل الاثنين !

ومانشهده اليوم هو تجمع قوى لتغييرات الموجة الثالثة، تحول الانتاج يأتى من تحول رأس المال والنقود ذاتها، وهى كلها تشكل نظاما ثوريا جديداً لخلق الثروة على هذا الكوكب .

وأهم شكل للملكية اليوم أصبح هو الشكل غير الملموس، إنه المعرفة. وهذه

عالم جديد

المعرفة يمكن أن يستخدمها عدد كبير من الناس فى نفس الوقت لخلق الثروة، ولانتاج المزيد من المعرفة أيضا إنها ليست كالمصانع والمزارع، فالمعرفة لا تستنفد. وإنتاج الموجة الثالثة. تجرى نسبة كبيرة منه فى المنازل والمكاتب والسيارات والطائرات .

● بيت العائلة

وقبل الثورة الصناعية، كانت الأسرة كبيرة العدد، وكانت الحياة تدور حول البيت وفى البيت، وكان البيت مكانا للعديد من الأعمال، والمكان الذى يعالج فيه المرضى، ويربى فيه النشء . وكانت الأسرة الكبيرة هى النواة، ثم جاءت الموجة الثانية. فانتقل العمل إلى المصنع أو المكتب، وذهب المرضى الى المستشفيات والتلاميذ إلى المدارس، والزوجان الى السينما والمسنون الى دور الرعاية، ولم يبق فى البيت إلا الأسرة الصغيرة، التى لم تعد تربطها أعمال يقوم بها اعضاؤها معا كوحدة ، وإنما هى روابط سيكولوجية هشة .

وتعود مع الموجة الثالثة للأسرة والبيت نفوذهما، وتعود العديد من الوظائف المفقودة التى يسترد بها البيت مركزه فى المجتمع ، ويقدر اليوم عدد الأمريكيين الذين يقومون بجزء من عملهم فى المنزل

بثلاثين مليونا. وهم الذين يستخدمون الكمبيوتر والفاكس. ويفضل البعض تعليم أولادهم في المنازل، وتوجد اليوم بالنسبة للمرضى الكثير من المهمات الطبية. مثل متابعة الحوامل وقياس ضغط الدم، التي كانت تتم قبلا في المستشفيات أو العيادات، وهاهي ذى تعود مرة أخرى الى البيت، وهذا معناه عودة الأسرة الكبيرة الى بيت العائلة ... .

ولم يحدث من قبل أن وجد هذا العدد الكبير من الناس المتعلمين تعليما معقولا، والمسلحين بالأفق الواسع من المعارف الغزيرة ، ولم يحدث من قبل أن وجد هذا العدد الكبير من الناس الذين يمتعتون بهذا المستوى العالي من الوفرة ، لتوفير الوقت والطاقة لكى يعطوا من فكرهم وجهدهم للقضايا العامة، ولم يحدث من قبل أن وجد هذا العدد الكبير من الناس القادرين على الطواف حول العالم وتعليم أشياء كثيرة من الثقافات الأخرى، وفوق كل هذا لم يوجد من قبل أمام هذا العدد فرصة أن يجنى الحصاد، إذا ضمن إحداث التغييرات الضرورية بالوسائل السلمية ..

هذا عما يتوقعه حول مستقبل الغرب، ولكن ماذا عن مستقبلنا، ماذا عن المستقبل العربي ؟ فمن المؤكد أنه لا يمكن تصور مستقبل مصر، ودخولها إلى القرن القادم إلا عبر بوابة الحاضر، أى دون محو الأمية ورفع مستوى التعليم والحفاظ على الخضرة وحماية البيئة .

وإذا لم تسرع الدولة النامية وتلحق بركب التقدم، فسيظل خطر تعرضها لفيض هائل من المعارف القادمة إليها من خارجها وتبقى في موقع المتلقى ...

وبما يحمله ذلك من مخاطر ..

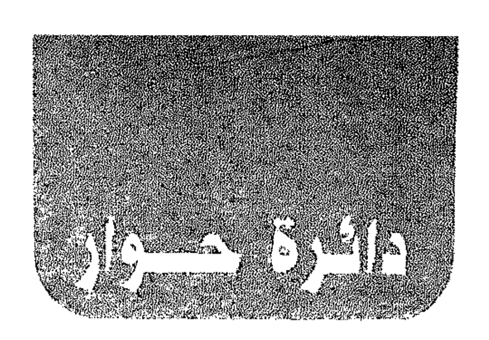
كما يعني تحليل توفلر استمرار الصراعات في البلدان العربية، سواء صراع داخلى أو صراع فيما بينها، إنه صراع بين الموجات الثلاث فمازال في الدول العربية من يعيشون ويموتون في مجتمعات زراعية متخلفة ، ولا يوجد بلد عربى واحد يمكن وصفه بأنه بلد صناعى متقدم .

هذا إلى جانب قصور المجتمعات العربية عن تقديم تصورات أو مشروعات ملهمة نحو آفاق المستقبل. بعد أن شهدنا القصور في التعامل مع الواقع .

ولكن استمرار الحال من المحال .

وبعد ...

فإنه كتاب لابد أن يقرأ فهو منشط للعقل، دافع للتفكير والتأمل ...



«التراث المستعار» وصدام الحضارات

بقلم : د. صلاح قنصوه

■ تزدحم الساحة الفكرية، سواء فى عالمنا العربى أو خارجه بكثير من الاجتهادات التى تسعي إلى إعادة النظر فيما يسمى بالمركزية الغربية، والرغبة فى نزع إسارها والخلاص من غوايتها. ولقد تلقت هذه الاجتهادات دعما مضاعفا من الخطاب الفلسفى «لما بعد الحداثة» فى الغرب. وهو خطاب حباه الحظ بحليف قوى من الأحداث التى تلت تصفية الاتحاد السوفييتى ومنظومة الدول الشيوعية الأوربية. وتشترك تيارات «مابعد الحداثة» جميعها فى إعلان نهاية الزعم بوجود حقيقى لمركز واحد، او بنية أو تجانس، فهى حكايات كبرى فات اوانها، وفقدت وظيفتها. كما أنها استسلمت، على نقيض الحداثة، للتعبير عن نقض البناء والتفسخ، والانقسام. ولا بد أن تفضى تلك الاجتهادات إلى الحديث عن تعدد المراكز والصدام الجديد بين الحضارات أو الثقافات، وإعادة النظر فى رسم خرائط تاريخية مخالفة لما أدى إليه الاعتقاد بأن الحضارة أو الثقافة الأوربية هى نفسها الحضارة الإنسانية العالمية، أو هى المركز الذى تدور من حوله التوابع، وتحيط به الأطراف.

ويفترض ذلك التصور المركزى أنه خط، او قضبان لقطار بدأت رحلته من التراث اليونانى، وألحقت به المسيحية.

ومن ثم يترتب على هذا أن ما يختلف عن الحضارة الغربية قد واصل مسيرته من خط مختلف، وتطور من جذور مباينة ضلت به الطريق الى أن يغدو حضارة عالمية مؤثرة.

ولذلك نجد من المفكرين الغربيين من يؤكد أن أصحاب الأصول الأخرى لأنواع التراث المختلفة عن تراث الغرب أصبحوا اليوم الطرف الخصيم للغرب، وذلك بعد أن انتهت الحرب الباردة بين الكتلة الغربية

الرأسمالية والكتلة الشرقية الشيوعية .

والآن حان للإسلام فى الشرق الاوسط كما يدعى هؤلاء أن يتخذ دوره عدواً للغرب.

والواقع أن جمهرة كبرى من مفكرينا يبتهجون بهذه النبوءة القصيرة النظر، ويسلمون بما ادعاه اصحاب النزعة المركزية الغربية من انتسابهم الى التراث المسيحى الهيلينى، أو إن شئت اصطلاحا مطولا: «التراث اليهودى - المسيحى- الاغريقى - الرومانى» . وكأنه تراث غريب عنا، ومن نسل وثنى او منحرف أو مغتصب. ومن ثم علينا أن ننكفىء على أنفسنا لنحصنها، وننعم بثمرات تراثنا القديم الخاص .

ونحن لا نتفق مع التصور الغربى الخبيث الذى يصرف الأنظار الى عدو جديد تعبأ الجهود لمنازلته دفاعاً عن مصالح اصحاب الثروة والنفوذ فى الغرب الذين كسدت بضاعتهم بعد الحرب الباردة.

ولا نقتنع، فى نفس الوقت، بما يذهب اليه المنافحون عما يسمى بالأصالة او الهوية او الخصوصية، وهى شعارات حميدة مشروعة إلا إذا أريد بها شيء آخر وهو اشعال حرب اهلية بين من يطلق عليهم «الاسلاميون والعلمانيون»، وتعتيم على كشف المشكلات الحقيقية، وانصراف عن اقتراح حلول واضحة محددة لها يجرى حولها الحوار الحر .

وسنحاول فيما يلى أن نضع المشكلة على النحو الذى يؤذن بحلها، او نكشف على الأقل زيفها، ولعل ذلك يكون نافعا فى ألا نقع فريسة، عن رضا وحماس، لفكر يحث عليه ويظاهره أصحاب المصالح العابرة للقارات فى الغرب نفسه .

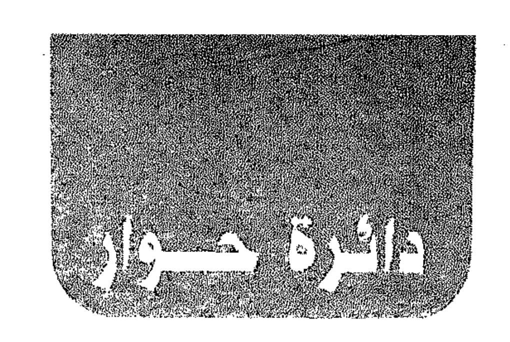
● معالم حضارتنا

وليسمح لى القارىء الكريم أن أقدم بين يديه مسلسلا تاريخيا لأطوار الحضارة او الثقافة عساه يستخلص منه مايشاء، سواء ما يتصل بالصدام الحضارى أو ما يتعلق بحوار الحضارات ويخرج بالنتيجة او الموقف اللذين يرتضيهما .

ولا أزعم أن ما أقدمه جديد على القارىء إلا بقدر ما اجتهد فيه من ترتيب للوقائع واستخلاص النتائج .

فنحن على علم بأن ثقافتنا وحضارتنا فى مصر وفينيقيا وما بين النهرين قد سبقت حضارة اليونان. ولكن علينا أن نحدد المعالم الخاصة بثقافتنا القديمة، والسياق الحضارى الذى نشأت فيه، كما نصنع مثل ذلك فى الحلقات او المسارات الثقافية الأخرى التى أعقبتها .

بدأت الثورة الكبرى فى المجتمع الانسانى بالزراعة على ضفاف الانهار في الشرق الأدنى القديم، فكانت الخطوة الباكرة نحو الحضارة التى توسل بها



الانسان الى اعادة انتاج الطبيعة وحفزته الى المعرفة بمسار الحوادث والتنبؤ بمجرى الطبيعة خلال الزمان كما أدت الى وجود فائض للطعام صالح للحفظ والنقل والتبادل، مما أدى الى قيام نظم للمعايرة، والقياس، والعد ، وطرق التسجيل التي تفوق الذاكرة البشرية. ومن ثم نشأت الكتابة والرياضيات العملية. وتطلبت أعمال الزراعة في الاراضي التي تغمرها مياه الفيضان كل عام ضبط مياه النهر مما استلزم إنشاء المصارف والجسور وتوزيع المياه على الاراضي الذى تطلب بدوره سلطة الدولة المركزية والتى أدت الى السلطة المركزية فى العقائد والأفكار التى اصبحت دينا . ولم يترك للفكر سوى أن يتناول المشكلات العملية التى دارت أساساً حول قهر الموت بالخلود وتحقيق العدالة. وحتى إذا ماتغيرت رؤية العالم الشاملة فإنها تصبح دينا جديدا . ومن ثم خرجت الأفكار والاجتهادات فى صورة حكمة عملية، وإذا ما دونت قنعت بالطقوس والشعائر، وقصص التأديب وعظات التهذيب. وأما أفكارهم عن الآلهة التى عادة ما تكون مساعدة لإله واحد رئيسى، فقد كانت خارجية بعيدة ليتسع نفوذها على كل شىء، ولذلك حاول المؤمنون أن يحظوا برضاها وعونها عن طريق إحلالها فى أوثان وتماثيل ليمكنهم من التعامل معها بسهولة، وعن كثب،عندما يستدرجها الى مسكنه أو معبده .

● حضارة الاغريق

أما اليونان، فقد اتيح لهم سياق حضارى آخر فقد كانت المهن والانشطة الرئيسية هى الرعى، والملاحة، والتجارة. وهى انشطة تمتاز بحرية التجوال والانتقال من مكان إلى آخر . وبالتالى تحث على التأمل ونقل المأثورات المختلفة عبر الأقاليم والأجيال . وأتاح هذا اللقاء مع الغير المختلف فى تصوراته عن العالم، نوعا من التسامح، أى القدرة على تقبل الخلاف، فلم ينغلقوا على أنفسهم او يروا فيمن يختلف عنهم كائنا ناقص العقل او الانسانية، بل يمكن أن تعقد معه صلات المقايضة والتبادل .

ويضاف الى ذلك أن تضاريس أراضيهم وغيبة الاستقرار عن انشطتهم حملتهم على الاستقلال السياسى لمدنهم الصغيرة. فالدولة هى المدينة. ومن ثم افتقدوا، وقد يكون ذلك لحسن الحظ، السلطة المركزية التى كانت تهيمن على الحضارة المصرية وربما كان الأهم من كل ذلك أن الديانة لديهم لم تكن مركزية كما كانت لدى المصريين، وبالتالى لم تكن آلهتهم تحظى بما تحظى به الآلهة المصرية

من التقديس. وعلامة ذلك ان سقراط كان ينصح المسافرين الى مدن اخرى بأن يعبدوا آلهتها، ليس عن نفاق أو تقية، بطبيعة الحال، بل لأن الآلهة لديهم أشبه بالبشر فى أخلاقهم وأفعالهم. فلم تكن بعيدة نائية عنهم بل أقرب الى الأولياء والقديسين اليوم مثلما يتشفع القاهرى أو المرتحل اليها بالسيدة زينب «خفيرة مصر» او يتقرب من يدخل طنطا من السيد البدوى.. الخ وقد ترجع مكانة آلهة الاغريق الى غياب السلطة المركزية التى تجسدت فى فرعون وتجردت فى رع أو آمون .

وهنا نتريث قليلا لنتبين أثر ذلك على ثقافتهم .

فهم يميزون فى صلة الانسان بالواقع او العالم مستويات ثلاثة. الأول هو التجربة المباشرة وهى «الامبيريا»، وتقوم بدور الالتصاق بالواقع فتتخذ منه الخبرات والمنافع ، دون سؤال عن السبب فى نجاحها أو ملاءمتها. والثانى التقنية اى «التخنى»، وتعنى اتصال الانسان بالواقع عبر الادوات. والثالث، وهو المهم، والجديد فى ثقافتهم ، هو العلم والمعرفة اى «الابستمية» وهو الانفصال عن الواقع لاجتياز مسافة بين الانسان وبينه ليعود اكثر استيعابا وفهما له، توطئة للسيطرة عليه فى المدى البعيد وتقوم «الابستمية» على اكتشاف النظرية أى «اليثوريا» التى تعنى النظر والتأمل. ومن هنا اضحت التفرقة واضحة متميزة بين صاحب النظر وصاحب العمل وخاصة ان العمل لديهم مقترن بالعبيد وهم كثرة عندهم .

وقد اتيح للاغريق، وهذا هو سر ما يقال عن معجزتهم النظرية التى جاءت على غير مثال، وهى الفلسفة والعلم، اتيح لهم ان يعملوا النظرية فيما أفادوه واغترفوه من معارف الشرق الادنى القديم، وخاصة مصر، التى لولا معارفها لما استطاعت الفلسفة أو العلم أن تقوم لهما قائمة . ولكن على نحو خاص لانهم لم يكونوا مجرد ناقلين بل صانعين مبتدرين لنشاط متميز جديد. فالمعارف المصرية كلها، كما قدمنا ، لا تعنى بالنظرية . فعلى سبيل المثال كان المصرى فى قياسه لمساحة الارض يستخدم احيانا حبلا ذا تسع عقد يمكنه من قياس قطعة ارض تتخذ شكل مربعات ثلاثة على اضلاع مثلث قائم الزاوية، كما نقول اليوم فى علم الهندسة، ولكنه لم يحاول قط ان يتأمل او يبحث نظريا لماذا كان المربع القائم على وتر المثلث معادلا المجموع المربعين الآخرين وذلك بحسب تعبير الهندسة فيما بعد ، اما فيثاغورس فقد استطاع بالنظرية ان يبرهن على ذلك ويفسره، ويجعل منه تعميما يصدق على غير مابدأ به فى قياس الارض. بل إن كلمة هندسة باليونانية «جيومتريا» تعنى

دائرة حوار

حرفيا قياس الارض مما يدل على اصلها المصرى التجريبى «الامبيريقى» رغم أنها ليست كذلك كعلم رياضى. ويمكن أن يقال الكثير فى أمثال ذلك. فالمعرفة «الثقافة» المصرية تنتمى اذن الى الامبيريا بينما تنتمى عند اليونان الى الفلسفة والعلم، أى الابستمية .

والفلسفة ، وهى التى تعنى حرفيا باليونانية «محبة الحكمة» تكشف لنا تسميتها جدة المشروع الثقافى الاغريقى فالحكمة لديهم كما هى لدينا ، تعنى القدرة على التعامل مع التجارب المنوعة، وحفظها فى الذاكرة ، والنصيحة باختيار احداها لحل مشكلة عملية. اما محبة الحكمة، فتعنى تقدير الحكمة أى القدرة على تجريد ما هو عام فى مختلف التفاصيل والجزئيات ، وتحديد ماهو سبب فى محصلة التجارب، على ألا يكون ذلك للانتفاع العملى المباشر لانها ليست وصفات مجربة تصلح لانسان دون آخر، بل هى تعميم وتجريد وتفسير.

تيسر لليونان إذن، بسبب ما أسلفنا، أن يخلصوا المعارف أو التجارب أو الخبرات المصرية وغيرها من جوانبها الكهنوتية، ومن صلاتها بالعمل المباشر، والنفع العاجل. كما أنها تركت آلهة اساطيرها المشغولة بشئونها الخاصة، وشقت طريقا موازيا آخر لتفسير العالم.

وكانت المشكلة الرئيسية لنشأة الفلسفة او العلم هى تفسير تعدد الأشياء وتغيرها . لذلك كان موضوعها فى بدايتها على يد «طاليس» وغيره من فلاسفة المادة الحية (الهيلوزيين) هو البحث عن اصل واحد فى مقابل التعدد، ويكون ثابتا فى مقابل التغير. لذلك كان الماء عن طاليس هو الاصل الثابت. ويبدو جليا استعارة الماء من ثقافة مصر والشرق الادنى التى تحدثت الاساطير عندهم عن الماء أصلا اول لكل العالم. غير أن «طاليس» ادخله فى اطار نظرى يمكن مناقشته مع غيره من الفلاسفة دون اهابة بسلطان عقيدة أو اسطورة معينة» فلم يذكر قط أن مابلغه كان إلهاما علويا، أو وحيا إلهيا .

غير أنه جعل للالهة وظيفة تخالف وظائف آلهة «الاوليمب» فوضعها فى كل شىء حيث يقول «العالم مملوء بالالهة» فاستخدم مصطلح آلهة للتعبير عن القوى الباطنة المؤثرة ولكن القابلة فى نفس الوقت للتأمل والبحث بمعزل عن الاساطير

أما المرحلة الثانية من الفكر اليونانى فهى العصر الهيلينستى، الذى جاء بعد غزوات الاسكندرى لبلاد اليونان وغيرها وانصب طموحه فى اقامة «كوزموبوليتانية» أى «الدولة الكونية» التى تتحدث لغة واحدة هى اليونانية ولكن تضم عقائد وفلسفات

وأجناساً متزاوجة وكانت الاسكندرية فى مصر العاصمة الفعلية لهذه الحضارة الهيلينستية التى كانت مكانا صالحاً للتوفيق والامتزاج بين ثقافة الشرق الادنى، وفلسفة وعلوم اليونان من غير قيود. إذ لم تكن بالاسكندرية تقاليد راسخة قديمة، ولا مصالح خاصة مهيمنة، وكان بمقدور الناس من مختلف الاجناس والأديان الالتقاء بها. وقد دفع ذلك الى التسامح الفكرى الذى يعد التربة الخصبة للتمرد على القيم القديمة، وخلق القيم الجديدة التى من شأنها ان تشجع على البحث العلمى الحر. فظهر جالينوس وبطلميوس واقليدس وغيرهم ممن اقاموا اسس العلوم الفيزيائية والبيولوجية والرياضية والجغرافية .

غير أن الشلل اصاب هذه العلوم لأن الباعث عليها لم يكن بغية استخدامها لأن المجتمع لم يكن باحثا عن بديل لعضلات العبيد . فلم يكن ثمة حافز على التقدم وانحصر العلم فى نخبة معزولة .

وبذلك كان تراث اليونان الهيلينستى بذرة جيدة، ولكنها غرست فى ارض صلدة فى تلك الحضارة. ونتبين من ذلك أن تلك الثقافة بإطارها النظرى قد أخذت محتواها من ثقافة مصر والشرق الادنى .

● معالم الديانات الثلاث

اما الديانة اليهودية فلا شك انها نشأت فى مصر، واقتربت من كثير مما ألهم به اخناتون ولكنها بارتباطها بقبيلة بدوية، انكفأت على نفسها وامتنعت عن التبشير بها خارج بنى اسرائيل. ولا أعنى انها ليست ديانة سماوية، بل هى كذلك، ولكن اوحى بها الله فى اطار ثقافة مصرية اولا، وفى نطاق ثقافة بدوية ثانيا. كما انزل الله سبحانه وتعالى القرآن الكريم فى اطار لغة قريش العربية. وفى نطاق الاشارة الى تفاصيل البيئة التى يعيشها الناس من حولهم، ليتيسر فهمه لكل عرب البادية والحضر .

وجاءت المسيحية استئنافا للعقيدة اليهودية، محررة اياها من اقتصارها على جنس معين. ولكنها ايضا ارتبطت بالثقافة «الهيلينستية» التى جمعت العقائد العريقة فى الشرق الأدنى وخاصة المصرية وكذلك الفلسفة «الرواقية». ويفسر هذا انتشارها بمصر بيسر وببساطة وترحيب.

وعندما ظهر الاسلام فى الجزيرة العربية، وفتح المسلمون بلداناً ذات حضارات قديمة، بدأت مرحلة جديدة من الثقافة والحضارة العالمية.

فالاسلام للعالم كافة، ولأنه يحتوى داخله مافى سائر الاديان السابقة، ولكن على مستوى رفيع من التجريد والشمول ليكون ختاما لها، ومحققا لكل اشواق البشر فى الاتصال بالله، ونوال رحمته .



ولهـذا امـتـاز الفـاتـحـون المسلمـون بالاحـتـفـاء بثـقـافـات البلدان المفـتـوحـة وتخلقت بذلك حاضنة ثقافية عالمية جديدة وصلت العـمل بالنظر، واتاحت التـفـاعل والتبـادل بين انجـازات الشـرق الاقـصى، وذلك لاول مـرة، وانجازات الشرق الادنى ونتـائج الفلسـفـات والعلوم اليـونانيـة. واصبحت العربية اللغة العالمية والثقافية. وتعـددت الحـاجـات والمطالب فى تلك الحضارة الشاسـعة مما اوجب ترسيخ منهج تجـريبى لا يفـرق بين التـأمل والممارسة.

● عندما تدهورت حضارة العرب

ولكن عندما تدهورت الحضارة العربية فى نهـاية القـرن العـاشـر بانقـسـام الامبراطورية الاسلامية على نفسها الى دويلات متناحـرة كـان المنهج التـجـريبى والبـحث العـقلى «الرشدى» وغـيـره من العلوم، قد انتقل منها الى الغرب كحاضنة ثقـافـيـة جـديدة عندمـا بدأ الاقطاع فى الانحسار وتقدمت البورجوازية التجـارية التى سـعت الى فـتح اسـواق جـديدة، وتشغيل عمال احرار. وقامت الدعوة يدها الى إعادة اكتشاف العالم والانسان بعيدا عن المحـفوظ من الكتب والاسفار القديمة وصـاحـبت ذلك الدعـوة الى اطلاق حـرية المرور والعـمـل ، ومن ثم البـحث الحـر وكرامة الفرد والديمقراطية .

واقترنت النهضة الاوربية بالدعوة الى العودة الى التراث الاغريقى بوصفه جذر ثقافتهم ، وأروقة نسبهم. ولكن هل ينتسب الاوربيـون الغـربيـون حـقـا بالدم الى الاغريق؟

وهل ينتـسـب المنادون بالعـودة الى التـراث العـربى البـدوى بالدم الى عـرب الجزيرة ؟

اذن المسـألة ليـست عـودة لتـراث حقيقى، اى لمنجزات اسلاف فعليين بل هى دعوة شعار للتعبئة ، واعـلان الخصومة لأنواع اخرى من التراث .

● فى عصر النهضة

لم يكن شعار عصر النهضة الاوربية احتذاء عنصريا لاسلاف مزعومين ، لأنها لم تكن عودة الى النصوص، بل استـجـابة مباشرة لما اتسمت به تلك التقاليد القديمة من قبول صريح للحياة، واختبار نقدى لكل المشكلات، وجـسـارة فكرية فى البـحث، واستعداد للمضى الى الحد الذى يفرضه الحوار. ولم يكن ذلك ميسورا إلا بعد أن انجلى الحـوار الموضـوعى مع الشـرق

العربى على ساحة مادية وفكرية جديدة، جرى فيها التبادل بين السلع والأفكار ، مما غير من علاقة الفئات الاجتماعية بعضها ببعض، ودفع البورجوازية الصاعدة الى أن تتخذ من العودة الى الآداب القديمة او النزعة الانسانية او الكلاسيكية ذريعة وقناعا يغلف تمردها على سلطات العصور الوسطى، وتوجه قيمها ووعيها الجديد الى حقوق الفرد، والسعى الى استخلاصها من فلول النظام الاقطاعى المتحالف مع الكنيسة .

ولذلك كانت الدعوة الى العودة لذلك التراث الذى اعيدت صياغته، نوعا من «التراث المستعار» اى التراث الذى لا يمثل تواصلا وامتدادا فعليا للماضى.

وكذلك الدعوة لدينا «تراث مستعار» لأنه منتقى ومرتب على نحو هادف معين. وكان من الممكن ان تكون الثقافة الغربية التى بدأت بعصر النهضة ثقافة عالمية نقبلها راضين مختارين، إلا أنها اقترنت بنشأة الدول القومية التى تحفزها القيم الرأسمالية القائمة على المنافسة والرغبة المحمومة فى الفتح والغزو، ومزاحمة بعضها البعض الآخر على فتح اسواقنا وانتهاب مواردنا . بل انها عندما احتلت اقطارنا عطلت المصانع واغلقت الكثير من معاهد التعليم وقضت على بادرة الحياة النيابية. ويرجع كل ذلك الى طبيعة الحضارة الرأسمالية التى تعتمد المزاحمة الدموية مبدأ ومعياراً .

وقد أدى ذلك لدينا الى خلق شعور ممض بالتبعية نسعى بحمية مشبوبة للتخلص منها. ولكننا قد نتنكب الطريق إذا اختلطت علينا الامور عندما يستنجد فريق منا برفع شعار «التراث المستعار» الذى يحاول ان يدخل به الى حلبة المنافسة مع الغرب بسلعة لا يمكن للغرب ان ينتجها او ينافسنا فيها، ويتصور، من ثم، انه اصبح ندا، بل وقد ينتصر عليه ببركة تراثه المستعار الذى لايملكه الغرب. وينسى ان الغرب فى صعوده ونهضته قد اجاد هضم وتمثل الكثير جدا من أفضل جوانب تراثنا.

وعلى أية حال، ينبغى ان نفرق بين الثقافة التى شاركنا فيها منذ البداية، بل كنا نحن جذورها الاولى فى مصر والشرق الادنى القديم، ثم كان تراثنا العربى الاسلامى مفتوحا على مصراعيه لكل الثقافات دون تمييز، ينبغى أن نفرق بين تلك الثقافة فى مراحلها الأخيرة، وبين قدرتنا الحقيقية على المنافسة فى ميدانها الحضارى عن طريق الاضافة والعطاء، ومواصلة المسير بعد الشوط الأخير، وليس بالصدام الحضارى الذى لا نملك من اسلحته سوى الآمال النبيلة، واحلام اليقظة وصيحات الاستنكار □

خالد محمد خالد

التحدى والصمود

بقلم : د. حامد طاهر

رحل خالد محمد خالد ولم يرحل. رحل عن دنيانا بجسده وبقى فيها بروحه وفكره. أما روحه فستظل محلقة فى سمائنا مذكرة إيانا بقيمتين عظيمتين هما الحرية والديمقراطية. وأما فكره فسوف تكون له قصة، تتجدد مع كل قراءة لأحد كتبه، أو دراسة لبعض أفكاره.

خالد محمد خالد عالم أزهرى، تحققت فيه نبوءة الشيخ محمد عبده التى ذكرها بصدد المصلحين فى مصر، وأنهم سيكونون من أهل التعليم الدينى ، وخاصة إذا صلح حاله. والواقع أن الأزهر خلال القرن العشرين قد خرّج عدداً معدوداً من العقول النّيرة التى كان لها فى تاريخ النهضة والاصلاح إثر كبير ودور واضح.

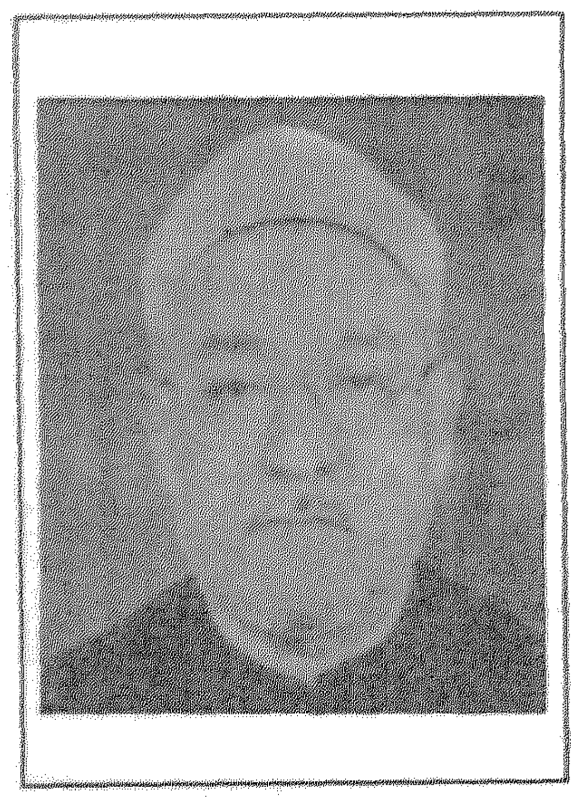
تخرج الشيخ خالد محمد خالد فى كلية الشريعة سنة ١٩٤٧. وحياته نموذج للطالب الأزهرى المتميز فى دراسته، الريفى الملتزم بتقاليده، والقارىء النهم إلى المعرفة، المتطلع إلى اليقين فى صوره المتعددة. أمثال خالد محمد خالد لم يقتنعوا بالثقافة الأزهرية زاداً فكريا وروحيا لأنفسهم وعقولهم. ولذلك خرجوا من إطار هذه الثقافة إلى مجالات أخرى كالسياسة، والصحافة. وهنا انفتح أمامهم بابٌ واسع دخلوا منه بلا تردد، والواضح أنهم لم يسيروا فيه إلى نهايته، لكنهم لم يعودوا منه أبدا.

لقد أحسن خالد محمد خالد صنعاً حين كتب فى أخريات أيامه مذكراته بعنوان «قصتى مع الحياة» ، وهو كتاب

★ عميد كلية دار العلوم



خالد محمد خالد



محمد الغزالى

ضخم يقع فيما يقرب من خمسمائة صفحة، تحكى بلغة صادقة أهم المواقف والتحولات التى مر بها، وهو الأمر الذى يجعله قريباً من نفوسنا، حين نحاول فحص آرائه وأفكاره فى اطار عقلى خالص.

أحدث خالد محمد خالد بكتابه الأول «من هنا نبدأ» ، الذى صدر فى فبراير ١٩٥٠، حركة فكرية هائجة، كما حقق له شهرة واسعة، باعتباره أحد علماء الأزهر الذين يمثلون خروجاً عن تقاليده الراسخة. وكما حدث لطه حسين فى كتابه «الشعر الجاهلى»، وعلى عبدالرازق فى كتابه «الاسلام وأصول الحكم»

ثورة على الأوضاع المتردية!

وسوف أستعرض فى تلخيص شديد أهم أفكار هذا الكتاب المتمرد، الثائر على الأوضاع المتردية فى المجتمع آنذاك. فهو يهاجم رجال الدين الذين يكرسون الكهنوت، ويعملون على إبقاء أوضاع الجماهير المسكينة كما هى، بينما يتنعمون هم بكل الخيرات. إن الدين الحقيقى إنما نزل لإسعاد البشر، لا لإسكاتهم على قبول الشقاء الدنيوى، وعدم الخروج عليه، حتى إنه ليرى فى «الصدقة» نوعاً من الابقاء على حالة الفقر والغنى، بخلاف «الزكاة»

التى تحتوى على تكريم الفقير، لأنه لا يتلقاها مباشرة من الغني ، وانما من الدولة. ويدفع خالد محمد خالد فى هذا الكتاب المقولة الشائعة بأن الروحانية ترتبط بالزهد، والحرمان، فلابد من ملء البطون لكى نتمتع بالروحانية وهو يشدد النكير على الكهانة ، أى وساطة رجال الدين بين الانسان وربه . ويعتبرها صديقة الظلام لأن الدين الحق تنوير وإيقاظ دائم للعقول . وهو يدعو لإصلاح سياسة المسجد ، وضرورة اعداد علماء الدين بصورة صحيحة ، ويرى أن الأزهر إذا لم يقم بهذه المهمة ، فمن الممكن أن تقوم بها كليات أخرى للدراسة الدينية تكون أكثر كفاءة منه. ويقارن بين إعداد الكنائس للمبشرين وكيف أنه قوى ومتميز، وبين الإعداد المتهافت للدعاة المسلمين.

وهو يدعو إلى نشر الثقافة الدينية الضرورية بين جميع أفراد المجتمع. ويعتبر كتاب «الفقه على المذاهب الأربعة» نموذجاً للعمل الفقهي الجيد، لأنه كتاب جماعى ومعتمد.

ويركز خالد محمد خالد على دور خطبة الجمعة ومشهدها فى المصلين، لكنه يرى ضرورة أن تنحصر الخطبة فى عدد من المساجد الجامعة التى يخطب فيها أئمة متميزون تحصل بهم الفائدة ، بدلا من أن تتوزع خطبة الجمعة فى مساجد كثيرة يقوم عليها خطباء ضعاف، أو أنصاف مثقفين.

وبنفس اللهجة المتمردة والثائرة ضد رجال الدين والكهنوت يتحول إلى المجال السياسى. ويرى أن الحكومة التى لا تطعم شعبها لا تستحق الاحترام والبقاء، لأنه من الطبيعى إذا وجد فى المجتمع ثراء متغطرس وجد فيه بالمقابل فقر متذمر! ويتلخص الحل فى رأيه– فى ثلاثة أمور :

أولا أن نعمل لسلامنا الخاص أولاً وقبل كل شىء، ونوجه جهودنا لخدمة أنفسنا ومصالحنا، ثم إذا بقى من جهدنا فائض ومزيد لا نحتاج اليهما، فلا مانع من إسباغهما على الآخرين.

وثانيا: استقصاء كل عوامل القلق والرجعية والظلم الاجتماعى والكشف عنها، ومواجهتها فى شجاعة وصراحة وإزالتها من طريق المجتمع، وأخيراً تجديد الأوضاع الاقتصادية لا ترقيعها، وتنفيذ سياسة اشتراكية شاملة واضحة تعطى كل ذى حق حقه ، وتقضى على التفاوت البعيد، وتدك حاجز التمييز بين الطبقات.

أما العوائق الرئيسية فتتمثل فى التفاوت البعيد بين الطبقات، والملكيات الزراعية الكبرى، وعقود الإيجار الزراعية التى يمكن تسميتها بصكوك الموت . أما

بالنسبة للعامل والموظف الصغير فلابد من تطبيق العدالة الاجتماعية التى لا هى روسية ولاأمريكية أو أوربية ، وإنما هى فطرية إنسانية. ولكن لا سبيل إلى تحقيقها عملياً إلا بالاشتراكية.

إن من يقرأ كتاب «من هنا نبدأ» الذى صدر فى فبراير ١٩٥٠ يحس إحساساً قويا. أنه كان إرهاصاً بثورة يولية التى قامت سنة ١٩٥٢، وما تم بعدها من إجراءات تتمثل فى تحديد الملكية الزراعية، والتأميم، وحقوق العمال، والتقريب بين الطبقات، بل إنه نادى بتحديد النسل حتى يتوازى الدخل مع الإنتاج .

الدولة الدينية !

وقد كان من أهم وأخطر القضايا التى أثارت حول الكتاب عاصفة من النقد والهجوم قضية الدولة الدينية التى رفضها المؤلف معتمداً على عدد من التجارب الفاشلة فى هذا المجال وخاصة فى الغرب. لكنه عندما يستعرض الموضوع فى التاريخ الإسلامى، نجده يعلن رأيا قد لا يوافقه عليه كثير من الناس. وهو أن الإسلام لا يحتوى على طراز خاص من الحكومات يعتبره الدين بعض أركانه وفرائضه، بحيث إذا لم يقم يكون قد انهد منه ركن، وسقطت فريضته. بل كل حكومة تحقق الغرض من قيامها، وهو تحقيق المنفعة الاجتماعية للأمة يباركها الدين ويعترف بها.

ثم يسعى خالد محمد خالد بكل الوسائل لإثبات القول بفصل الدين الذى نزل لهداية البشر بمبادىء ثابتة عن الدولة التى تتطلب استخدام سياسة متغيرة مع الأحداث الجارية. وإذا كان اختصاص رجل الدولة حماية القانون وتنفيذه لصالح الأمه، ووسيلته لذلك الإكراه والعقاب بالنسبة لكل مواطن لا يحترم قانون دولته ويطيعه. واختصاص رجل الدين : العناية بالنفس الإنسانية كيما تظل فاضلة وثيقة الصلة ببارئها، ووسيلته الوعظ والإرشاد والاقناع. وهو يتساءل: هل يستطيع إذن رجل الدين ان يصير رجل دولة؟ أى يصبح من حقه استعمال الإكراه وإنزال العقاب؟ .

طبعاً هنا مقدمات قابلة للنقاش يبنى عليها خالد محمد خالد نتائج أكيدة . وهذا منطق مغلوط. فمن الذى سلم له بأن الإسلام يقر بما يسمى رجل الدين؟ ومن الذى حدد وظيفته بمجرد الوعظ والإرشاد؟ إنه يحصر رجل الدين فى الخطيب والواعظ، مع أن الإسلام يدعو كل فرد فيه إلى أن يتفقه فى دينه لكى يعمل به .

وأعمال الحياة بعد ذلك متاحة لكل من يجيد نوعاً خاصاً منها والعبرة هنا بالأهلية والكفاءة، وتحقيق المصلحة للمسلمين. ولن نسترسل هنا فى الرد على هذه الدعوى فقد تصدى لها العديد من العلماء والمفكرين ومن أبرزهم صديق المؤلف المرحوم الشيخ محمد الغزالى ، الذى نشر كتاباً يرد فيه على موضوع فصل الدين عن الدولة ، وأسماه «من هنا نعلم» وقد صرح خالد محمد خالد بأن هذا العمل من صديقه الحميم- على الرغم من صدق بواعثه- قد ترك فى نفسه بعض المرارة ، قائلاً عن هذا الموقف إنه «على الرغم من صداقتنا، فإنه حمّل قلمه وزر بعض العبارات النابية» .

لقد عاد خالد محمد خالد نفسه فراجع موقفه من موضوع الدولة الدينية ، ونشر فى يناير ١٩٨١ كتاباً بعنوان «الدولة فى الاسلام» حاكيا قصة كتاب «من هنا نبدأ» وشارحاً البواعث التى جعلته يتبنى الرأى الأول فيه، عارضاً بالطبع لموقفه الجديد من القضية . يقول بوضوح :«كان الرسول صلى الله عليه وسلم يدرك أن بناء دولة الاسلام واستمرارها جزء من مهمته كنبى ورسول، » وايضا «الاسلام باعتباره خاتم الأديان وصفوة الشرائع لا يمكن ان يحقق ذاته إلا بإرساء قواعد الدولة التى تحقق أهداف هذا الدين الخاتم»

ثم أخذ يتحدث عن الشورى فى الإسلام كمبدأ من مبادىء الحكم ، وعن القرآن الكريم كدستور فى دولة الخلفاء الراشدين ، محدداً منهاج التعامل فى الدولة الاسلامية، وفلسفة الحرب الدفاعية فيها ، ويستعرض العهود والمواثيق التى أعطاها المسلمون لغيرهم ، والتى تعد نماذج رائعة للمعاهدات الدولية التى تحترم كرامة الإنسان ، وتحفظ حقوقه، وينتهى من ذلك إلى إعلان أن نعمق ايماننا بأن «الاسلام دين دولة، حق وقوة، ثقافة وحضارة، عبادة وسياسة» ثم يقدم النموذج العملى على هذا الجانب السياسى فى الإسلام بالخليفة الأموى العادل «عمر ابن عبدالعزيز»

ذلك خيط واحد من خيوط الأفكار التى يمتلىء بها عالم خالد محمد خالد، يتبين منه: الجرأة فى التعبير عن الرأى ، والصمود فى الدفاع عنه، والشجاعة فى تحدى الفكر السائد، ثم أهم من ذلك كله: الرجوع عن الرأى عندما يتبين صواب غيره ، وتلك ميزة لا يتحلى بها إلا قلة من كبار المفكرين والمصلحين .

الفكر والمادة في الإسلام

بقلم : د. محمد عمارة

□ في المسيرة الفلسفية للحضارة الغربية ، منذ الفيلسوف اليوناني (ديموقريطس) Demokritos (القرن الخامس ق.م) وحتي عصرنا الراهن . انقسمت فلسفتها وفلاسفتها إلى «مادية» و«مثالية» ، و«ماديين» و«مثاليين» .. وذلك بسبب الاختلاف حول علاقة «الفكر» بـ «المادة» ، وأيهما له الأولوية في الوجود والأهمية في التأثير ..

«فالمادية» ترى الفكر انعكاسا للمادة وأحد إفرازاتها .. ولذلك كان نفيها وإنكارها دور السماء - أي الدين والوحي -في عالم الأفكار ... وعلى النقيض من ذلك كان موقف «المثالية» ، التي جعلت الأولوية للفكر في الوجود ، ومن ثم أفردته بالتأثير ، منكرة دور «الواقع - المادة» في عالم الأفكار .. بل ومنكرة الوجود «الحقيقي» لهذا الواقع - كما عند بعض فلاسفتها ..

أما في الاطار الاسلامي ، ومنهجه وفكريته وحضارته ، فاننا لم نشهد أثرا لهذا الأنقسام .. وليست مصادفة أن يخلو تاريخنا الفلسفي من هذه الثنائية التي بلورت في الغرب تيارا «ماديا - ملحدا» وآخر «مثاليا - مؤمنا» على امتداد تاريخه الطويل .. ليست مصادفة أن يخلو تاريخنا الفلسفي من هذه الثنائية ومن انشقاقها .. لأن الوسطية الإسلامية الجامعة قد أقامت للتصور الإسلامي علاقة ورابطة بين «الفكر» و«المادة - الواقع» ، عصمته من تلك الثنائية وانشقاقها .

ونحن لو تأملنا في لحظات البدء التي شهدت نزول الروح الأمين على قلب الصادق الأمين بآيات الكتاب المبين ، فاننا نستطيع أن نمسك بالأطراف الأولى للخيوط الأولى التي أقامت - بالوسطية

الفكر والمادة في الإسلام

الإسلامية الجامعة - تلك العلاقات الوثقى مابين «الفكر» و«الواقع» ..

● لقد جاء محمد ، صلى الله عليه وسلم، برسالته - (الفكر) - على «فترة من الرسل» ... أي أن «الواقع» - الانساني والاجتماعي - كان يتطلع إلى هذا «الفكر»، يطلبه ويتطلبه ...

● وكان أهل الذكر ، في تلك الفترة ، يعبرون عن افراز «الواقع» لعلامات استفهام بقيت دون أجوبة .. وعن شوق هذا «الواقع» إلى «فكر» جديد ... كانوا يعبرون عن هذه الحقيقة بعبارة تفصح عن انتظارهم «لنبي قد أطل زمانه» ؟!.. أو «أظل زمانه» ؟!..

● ونفر من خاصة أهل النظر ، في ذلك الزمان وذلك المكان -وهم الذين عرفوا بالحنفاء - قد ذهبوا يجتهدون في لملمة بقايا ديانة إبراهيم وإسماعيل ، عليهما السلام ، بحثا عن أجوبة «الفكر» على أسئلة «الواقع» - وذلك بعد أن افتقدوا هذه الأجوبة - ... ولقد عرف تاريخ تلك الفترة سعي هذا النفر من الحنفاء على الدرب الذي يربط مابين «الواقع : الطالب» وبين «الفكر : المطلوب» .. عرف : زيد بن عمرو بن نفيل (١٧ق.هـ - ٦٠٦م) الذى رفض عبادة الأوثان ، وحرم الخمر على نفسه .. وحاور الأحبار والرهبان فلم يجد لديهم «الفكر : المطلوب» لـ «الواقع : الطالب» .. ثم مات وهو فى طريق البحث عن الحقيقة .. فقال عنه الرسول ، صلى الله عليه وسلم : «إنه يبعث يوم القيامة أمة وحده» .. وعرف الحنفاء كذلك : أبا ذر الغفاري (٣٢هـ - ٦٥٢ - ٦٥٣م) واحدا منهم ، آمن بالله الواحد ،وصلى له ، قبل بعثة النبي ، صلى الله عليه وسلم ، بثلاث سنوات !..(١) .

● ثم نزل الوحي بالاسلام في ذلك التاريخ .. فكيف كانت العلاقة ؟.. وكيف أقامت الوسطية الإسلامية بين «الفكر» و«الواقع» علاقة جامعة ، نفت وتنفي تلك الثنائية الانشطارية التى عرفها الغرب فى هذا الميدان ؟..

● العقيدة الخالدة

لقد كان «الواقع» يطلب ويتطلب «الفكر» ، ويفرز «علامات الاستفهام» .. لكنه لم يفرز «الفكر» ولم يعكس «الأجوبة» على علامات الاستفهام .. كان له دوره في استدعاء الفكر ، لكنه لم يبدعه كافراز أرضي واجتماعي له .. وإنما نزل الوحى من السماء بالعقيدة الخالدة - مصدقا بها الرسالات السابقة - ونزل بالشريعة التى



تجيب على علامات استفهام الواقع – بالفلسفات والكليات وتحديد المقاصد والحدود –وتفتح الباب للعقل – عندما يتفاعل مع الواقع – ليبدع ويطور ويحسن فى التفاصيل والجزئيات والنظم والمؤسسات – الفروع المتعلقة بالمتغيرات..

«فالواقع» : يستدعى ويطرح علامات الاستفهام ، فيهيىء المناخ ومسرح الأحداث للفكر الجديد .. و«الفكر» –فى أصوله – إلهى المصدر – وليس إفرازا اجتماعيا لهذا «الواقع» ... وفى ضوء هذه الحقيقة نفهم لماذا نزل القرآن الكريم منجما ، على امتداد عمر سنوات البعثة الثلاثة والعشرين .. ونفهم العلاقة بين الآيات التى كان ينزل بها الوحى وبين «واقع» أسباب النزول لتلك الآيات ..

وإذا كان هذا هو حال «الأصول» و«مبادىء الشريعة» وفلسفتها وثوابتها وحدودها ومقاصدها .. وهى التى نزلت من السماء ، استجابة «للواقع» ، ودون أن يفرزها هذا الواقع أو يعكسها .. فإن «الفروع» ،من هذا الفكر – سواء على عهد البعثة – أو فيما تلا ذلك من سنوات – قد عرفت علاقات «بالواقع» أكثر من علاقات الاجابات على علامات الاستفهام .. فهذه «الفروع» والتفاصيل والجزئيات والسياسات الشرعية والأحكام المعللة بعلل غائية ، والتى تدور مع عللها وجودا وعدما، والتى ترتبط فى الوجود والتغير بالأعراف المتغيرة والعادات المتبدلة – أى القطاع

الفكر والمادة في الإسلام

الكبير من فقه الفروع - فقه المعاملات - .. هذا القطاع من «الفكر» الإسلامى قد جاء ثمرة لتفاعل «الأصول - التى هى وضع الهى -مع «الواقع» المعاش ، فى بوتقة العقل المسلم .. فكانت له بالواقع علاقة أكبر وأكثر وأوثق من علاقة «فكر الأصول» بهذا «الواقع» .. هنا - فى «الفروع» - نجد «للواقع» دورا فى تحديد لون «الفكر» ، لانجده له فى «الأصول» ، الخالصة للوضع الآلهى ... وفى ضوء هذه الحقيقة - المتعلقة «بالفروع» - نفهم معنى النسخ فى الشرائع دون العقائد ، وفى آيات الأحكام دون شعائر العبادات ، وفى أحكام المتغيرات ، المرتبطة بالعلل والعادات والأعراف والمصالح المتغيرة ، دون ما يتعلق بالثوابت من الأحكام ... «فللواقع» دور وتأثير فى «فكر» هذه «الفروع» ، جاء من تفاعله مع «الأصول» ، فكان له فيها مازاد ويزيد على مجرد «الاستدعاء» !.. لكنها تظل - «الفروع» بعيدة أن تكون ثمرة خالصة «للواقع» ، وإفرازا من إفرازاته ، لأنها - كما قلنا - ثمرة للتفاعل بينه وبين «الأصول» ، التى هى وحى الله ..

فتح باب الاجتهاد

ولقد جعل لهذه العملية استمراريتها ، بعد عصر الوحى والبعثة ، ما اقتضته الرسالة الخاتمة ، من الوقوف فى أمر المتغيرات الدنيوية عند إجمال الفلسفات والمقاصد - على حين فصلت الرسالة فى الثوابت الدينية وما تعلق بحقوق الله .. ففتحت بذلك الباب للاجتهاد الدائم والتجديد المستمر فى فقه الفروع المتعلق بالمتغيرات ، على ضوء «الأصول» التى تتفاعل مع «الواقع» الجديد ، فتكون «الفروع» ثمرة فكرية جديدة لتفاعلهما الدائم دوام التطور ، كسنة من سنن الله فى هذا الوجود .

هكذا تميزت علاقة «الفكر» «بالواقع» فى تصور الإسلام ومنهجه .. فلا الفكر وحده ، ولا الواقع وحده ، هوالمنفرد بالفعل والتأثير ... «فالأصول» والأركان والمبادىء والثوابت إلهية ، لم يفرزها «الواقع» ، رغم أنه استدعاها لتجيب على ما أفرز من علامات الأستفهام و«الفروع» وثيقة الصلة «بالأصول» و«بالواقع» ، جاءت ثمرة لتفاعلهما فى بوتقة العقل الإنسانى ، ولم ينفرد أى من «الأصول» أو «الواقع» بإفرازها ....فبين «الفكر» و«الواقع» ، فى المتغيرات الدنيوية «حوار» و«تفاعل» و«خلق» و«إبداع» مواكب لتغيرات الواقع واجتهادات الفكر التى تبحث لمتغيراته عن

أحكامها المستنبطة من الأصول ، وعن قوانينها التى تحكم هذه الحركة الواقعية التى هى سنة من سنن الله فى هذا الوجود ..

★ ★ ★

ونحن إذا شئنا «شهادات» واقعية على أن هذه الحقيقة من حقائق المنهج الإسلامى - والخاصة بالعلاقة بين «الفكر» و«الواقع» - قد عرفت طريقها فأبدعت إبداعها فى البناء الحضارى الإسلامى .. فإننا نستطيع أن نستأنس بشهادة عالم قديم - هو جابر بن حيان (٢٠٠هـ ١٨١٥م) -وبشهادة فيلسوف حديث -هو جمال الدين الأفغانى ...

● فجابر بن حيان - وهو المبدع فى العلوم الطبيعية - يتحدث عن علاقة «الفكر» -«العلم» - «بالواقع» - «العمل - فيرى ضرورة سبق العلم للتجربة والعمل .. ويرى - فى ذات الوقت -اكتمال العلم بواسطة التجربة والعمل .. على النحو الذى رأيناه فى سبق «الأصول» معالجة «الواقع» ،مع تفاعل «الفروع» «بالواقع» ، وتطورها بتطوره ... يقول جابر : «إياك أن تجرب أو تعمل حتى تعلم ... فيكون فى التجربة كمال العلم ... إن كل صناعة لابد لها من سبوق العلم فى طلبها للعمل .. لأنه إنما هو إبراز مافى العلم من قوة الصانع إلى المادة المصنوعة لاغير .... إن العلم سابق أول ، والعمل متأخر مستأنف... وكل من لم يسبق إلى العلم لم يمكنه إتيان العمل ...» (٢) ..

● أما جمال الدين الأفغانى ، فإنه يصور علاقة «الحوار» و«التبادل» ، فى التأثير والتأثر ، بين «الفكر» و«المادة» ، عندما يقول : « فكل شهود (أى ملاحظة - وفى الملاحظة فكر أولى) - يحدث فكرا ، وكل فكر يكون له أثر فى داعية يدعو إليها ، وعن كل داعية ينشأ عمل ، ثم يعود من العمل إلى الفكر . دور يتسلسل ، لاينقطع الأنفعال بين «الأعمال» و«الأفكار» مادامت الأرواح في الأجساد ، وكل قبيل هو للآخر عماد ، آخر الفكر أول العمل وآخر العمل أول الفكر..» (٣) .

تلك هى علاقة «الفكر» بـ «الواقع» ، تميزت - بالوسطية الجامعة - فى المنهج الإسلامى عنها فى الحضارة الغربية فبرىء الموقف الإسلامى إزاءها من الثنائية والانشطار .

الهوامش :

١ -(صحيح مسلم) - بشرح النووي - جـ ١٦ ص٢٧ . طبعة محمود توفيق .القاهرة .

٢ - د. جلال محمد عبدالحميد موسي (منهج البحث العلمي عند العرب في مجال العلوم الطبيعية والكونية) ص ١٢٦ ، ١٢٧ .طبعة بيروت سنة ١٩٧٢م .

٣- محمد باشا المخزومي (خاطرات جمال الدين الأفغاني) ص٣٢٢ طبعة بيروت سنة ١٩٣١ . □

انتهى عصر مرجريت دوراس

أيـــام العشـــق.. والسينـــما

بقلم : محمود قاسم

بوفاة الأديبة الفرنسية مرجريت دوراس، انتهي عصر كامل من التدفق الأدبي لدي واحدة من أبرز كاتبات اللغة الفرنسية طوال القرن العشرين .

روائية هي .. كما أنها مخرجة في المسرح ، والسينما ، وكاتبة سيناريو ، وكاتبة مقال ، نالت جائزة جونكور عام ١٩٨٤ عن رواية «العاشق» ولم تتوقف عن الكتابة حتي الاسبوع الأخير من حياتها .

ولدت مرجريت عام ١٩١٤ فى سايجون والجدير بالذكر أنه قبل نشر روايتها «العاشق» كانت سيرتها الذاتية معتمة وعليها هالة سوداء. ومن هذه الرواية



مدرسة الرواية الجديدة لم تكن قد اتضحت معالمها بعد فى هذه الرواية - بدأت بشكل واضح من خلال كلود سيمون عام ١٩٤٥ - فإن التجارب الأولى للكاتبة قد أشارت

نعرف أن أسرتها الصغيرة قد عاشت فى سايجون فترة طويلة قبل أن ترحل الى فرنسا . وقد غادرت مرجريت فيتنام عام ١٩٤٢ ، الى باريس وهى فى الثامنة عشرة .. وقد خصصت عن هذه الفترة غالبية أجزاء الرواية . وفى باريس كانت تحمل مسودة روايتها الأولى «المتعجلون» التى نشرتها فى عام ١٩٤٣ . ورغم أن

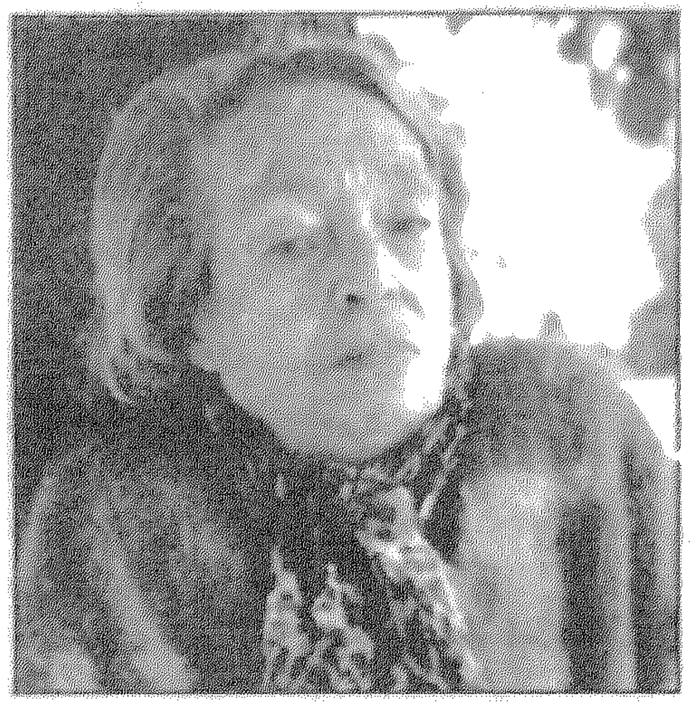
الى أنها سوف تقدم ، فيما بعد، شيئا مختلفا .

فى باريس درست الكاتبة القانون والعلوم السياسية واستمرت فى نشر رواياتها .. واذا كانت مرجريت دوراس قد نشرت روايتها الأولى عام ١٩٤٣ ، فإن أولى مسرحياتها قد نشرت فى عام ١٩٥٩ أما أول فيلم أخرجته فقد ظهر عام ١٩٦٦

تحت عنوان «الموسيقى».

ومن الصعب رصد عالم مرجريت دوراس فى مقال واحد، ولذا سنحاول التعرف على عالم الكاتبة من خلال النفاذ الى نقاط محددة فى هذا العالم الرحيب .. فأدب الكاتبة يدور حول قطبين يتلاقيان دون أن يتناقضا ويبدا هذا واضحا فى رواياتها خاصة الأولى منها ، وفى «خزان فوق المحيط الهندى» تتحدث عن أمها ، دون الاشارة اليها صراحة، مثلما فعلت فى العاشق - المدرسة التى تخطى بها الزمن. وهى امرأة تتسم بالسذاجة والبساطة ، وتواجه الظروف الصعبة التى تحيطها . وهى محصورة بين طموح أولادها الذين يريدون العودة الى فرنسا وبين اصدقائها الذين يدورون مثل بقرة الساقية بلا هدف محدد .

مثل هذه العلاقات هى هم الكاتبة فى أدبها بصفة عامة . واذا كانت قد أوجدت شكلا تقليديا لها فى رواياتها الأولى . فإنها فيما بعد تحدثت عن نفس العلاقات من خلال شكل تجريبى جديد . مثلما حولت رواية «خزان فوق المحيط الهادى» الى «العاشق» .



مرجريت دوراس

والجدير بالذكر أن الرواية الأولى التى بدا فيها التجريب واضحا هى «خيول تاركينا الصغيرة» .. وفى هذه الروايات اختفى الموضوع وانحسرت الشخصيات .. وضاقت الأماكن بشكل واضح ، مثلما حدث فى «هيروشيما حبى» حيث هناك امرأة فرنسية تحب رجلا يابانيا شهد فى طفولته ما حدث فى مدينة هيروشيما من فظائع عقب إلقاء القنبلة الذرية .

ومن أشهر رواياتها فى تلك الفترة «الساعة العاشرة والنصف من أمسية صيف» التى تتناول فيها علاقة مشابهة بين رجل وامرأتين . فهناك فى تلك العاصفة الشديدة اكتشف زوج خيانة امرأته فأطلق عليها الرصاص .. وهرب .

وبدءا من المرحلة التجريبية بدأت

الكاتبة فى تجريد شخصياتها من أسمائهم ، والأماكن التى يعيشون فيها . وهم أشخاص ليس لديهم أى شىء بطولى، إنهم يتبادلون الاشارات والكلام دون أن يصلوا الى أهداف محددة ولا يظهرون أفكارهم ولا مشاعرهم ، ويجهلون أو يخفون الأخطار التى تحيق بهم : الانفراد والاعياء والجنون وادمان الخمر والجريمة ، ولا يتم بينهم أى اتصال حقيقى ولا أى حوار، يبدون كأنهم يلاحقون مناجاة متوازية . ويتكلمون ليس للتعبير عن أنفسهم، من أجل استكشاف حيوات سرية تصبح ملموسة بفضل حالتهم ذات الوعى النصف ، وذلك رغم تفاهة كلماتهم الظاهرة .

والنساء فى هذه الأعمال التى ظهرت فى تلك السنوات يعشن فى عالم من اللامبالاة . ويعين عزلتهن ويقسن اتساع عالمهن الرتيب البارد ، إنهن دون هوية ، وتجربتهن هى الوصول الى هوية . مهما كان الثمن ، وهن يضعن أنفسهن فى استيداع كلما ينتظرن الاشارة بأن الشىء قد بدأ ..

ولأنه لا يمكن أن نفصل ابداع مرجريت دوراس الروائى عن المسرحى والسينمائى .. فعلينا أن نتناول عطاءها السينمائى خاصة انها هى التى قامت بإخراج كل كلماتها التى أبدعتها . فكتبت السيناريوهات كى يخرجها آخرون فى بادىء الأمر . مثلما فعل آلان رينيه وجول دامان .. ومن قراءة القائمة الكاملة لأعمال الكاتبة سوف نراها قد حولت احدى رواياتها الى فيلم . وفى فترة أخرى حولت فيلما من افلامها الى رواية ... أو الى مسرحية .. وهكذا تتحرك أضلاع هذا المثلث فى كل الاتجاهات بلا حدود أو ضابط ..

● الرجل هامشى

وفى هذه الأعمال تلعب المرأة الدور الرئيسى . أما الرجل فهو مخلوق ثانوى هامشى .

أما «الحافلة» فتدور أحداثها داخل مقصورة سيارة كبيرة لا يجلس فيها سوى السائق وامرأة داخل عالم مغلق . تتكلم المرأة والرجل يسمع ، وتتصاعد حدة الموقف بين الاثنين من خلال ما يقال وما يسمع وكأنهما فى عالم سحرى . شخصيات داخل شخصيات . أو فيلم فى أعماق فيلم . ثم يدخل فيلم ثالث داخل الفيلمين . المرأة هنا هى احدى نساء مرجريت اللائى يجدن الحديث حول حكايات متناثرة سمعنها من هنا وهناك. امرأة بلا هوية محددة . تتحدث حول أشياء مجهولة الهوية لا رابط بينها .

وتبدو مرجريت مشغوفة بمثل هذا العالم الرائع الذى يخصها وحدها . ليست

فيه حدوتة بأى معنى . ولكنه مجموعة من الصور المتلاحقة حول أشياء غير مترابطة. المكان ثابت لكنه لا يصبح مكانا بالمرة والزمن مرن والشخصيات التى يتصورها المرء موجودة ، اذ بها تتلاشى أطيافا تنسحب من فوق بساط الواقع . ففى «السفينة ليل» نرى عالما يحده الحب من طرف ، والموت من طرف آخر . أشخاص يجتازون الرحلة فى سفينة ليل . لا أسماء لهم أو عوامل محددة . تحدد هويتها صور سريعة أو حوار عابر . أو تعليق طويل .

واذا كانت الكاتبة تميل الى استخدام لغة خاصة فى أدبها ، فإنها تحول كل كلمة الى صورة فى افلامها وتقول انها تمارس نوعا من القهر والضغط النفسى على مشاهدى أفلامها : «حدثنى شخص يوما أنه قد اتفق أن يعرض أفلامى على مسافة أربعين كيلو مترا من باريس . انها فكرة رائعة . فهكذا نرقب أن تعرض أفلامنا . فأنا أعرف أننى أوجه اعمالى لثلاثين ألف شخص . وأنا أعمل من أجلهم. ولن يحرمنى هذا من امتاع الآخرين . وعلى كل فلا يوجد جمهور شعبى فى فرنسا مثلما يحدث فى العالم بأسره . فكل سوف يفهم . من العمال وحتى المفكرين . لن يوجد طليعيون . لكن فقط أناس مخلصون لتجاربهم» .

هذا هو بعض عالم مرجريت دوراس .

ولم يكن للكاتبة أن تحصل قط بابداعها التجريبى على جائزة جونكور ، الا اذا كان أعضاء هذه الأكاديمية قد رأوا فى هذه الرواية عملا تقليديا أكثر من أعمالها الأخرى التى كتبتها فى السنوات العشرين التى سبقت هذه الرواية . وهذه حقيقة لا يمكن انكارها .. فنحن أمام موضوع محدد .. هو علاقة عاطفية عاشتها الكاتبة فى مقتبل حياتها . حين كانت تعيش مع أسرتها فى شرق آسيا ابان الاحتلال الفرنسى لفيتنام . وهى علاقة تخص جلد الكاتبة ومسامها فى المقام الأول .. نابعة من وجدانها الداخلى . تنخر فى ذاتها كى تكتبها .. وقد قامت وهى المرأة العجوز باجترار أحداث هذه العلاقة العابرة بتفاصيل بالغة الدقة . ولنقل انها ليست تجربة عابرة بقدر ما هى تجربة أولى .. وقد وظفت الكاتبة كل ما لديها من أجل هذه العلاقة حتى علاقاتها الأخرى بمن حولها . بأسرتها وأصدقائها . وزميلاتها فى المدرسة .. كل هذا تم توظيفه من أجل هذا العاشق . وهو عاشق كما سنرى رقيق الجلد والمسام .. هش المشاعر .. سلبى الاحساس .. يتعامل كثيرا مع النساء بحكم ثراء أبيه وليس بحكم فحولته.. وهو رجل بلا اسم مثل كل شخصيات الرواية . فتارة هو «العاشق» وتارة «هو» وثالثة «حبيبى» هو خيال يمكن

تجاوزه وعدم ملاحظته مثلما تقول الحبيبة بعد أن أصابتها الشيخوخة .

والمهم فى هذه العلاقة هو الشكل الذى صاغت به الكاتبة حدوتتها فالشكل الروائى غالبا تقليدى .. أو أصبح تقليديا بحكم تكراره فى العديد من الروايات المماثلة . ولكن الجديد فى هذا الشكل هو اللغة .. واصرار الكاتبة على استخدام محددات خاصة ، وخاصة ما يسمى بالتكرار ..

ولأن هذه الاحداث ظلت مماثلة فى مخيلة الكاتبة كل هذه السنوات ، فقد أصبح من الصعب معرفة هل هى أحداث من الحاضر أو من الماضى . ولذا فقد اختلطت الأفعال الزمنية معا . المضارع يتداخل مع الحاضر . وامتزجت الأزمنة معا فى الفعل والحدث وأصبحت الكلمات الجامدة والأسماء طيعة للتحرك وسط هذه الأفعال، تنتقل حسب حركة وجدان الكاتبة من عام ١٩٨٤ ابان كتابتها الى السنوات الأولى من الثلاثينيات بل حدث ما هو أبعد من ذلك حيث اختلطت الاماكن أيضا .. فهى تتكلم عن حياتها فى باريس وتتصور كأنها لاتزال تتحدث عن سايجون أو شولن والعكس بالعكس .. وفى فقرة تحدثك عن مكان تنتقل منه الى مكان آخر له نفس الصلة الوجدانية دون أن تمهد الى ذلك ... فعقلها ينتقل بسرعة بين هذه الأشياء دون أن يستأذنها . ولذا فهى لا ترغب أن تقوم بنفس العملية من الاستئذان لقارئها ..

والاشياء الثابتة الوحيدة فى الانسان.. والأماكن .. فهى لا تخلط بين مشاعرها نحو الشر .. وهى غير متقلبة فى حالة التنقل . فهذه أمها لها دائما نفس السمات وهناك مشاعرها تكنها نحوها لا تتغير ، مهما تغير الزمن .

واذا كانت الكاتبة قد انتقلت بسهولة بين الأزمنة فانها انتقلت بنفس الكيفية بين موجودها الخاص .. فهى تتكلم عن نفسها أحيانا بالضمير الحاضر المتمثل .. ثم تنتقل لتتكلم عن نفس الموجود بضمير الغائب وكأنها شخص غريب عنها تماما .. وكأنها كائن تتم ملاحظته تحت العين المجردة لمعرفة وادراك ما له .. أو ما عليه ..

● عاشق مرجريت دوراس

إذا كان هذا هو بعض من رأينا فى هذه الرواية ، فيهمنا أن نعرف ماذا كتبت الصحافة الأدبية بصفة خاصة عن «عاشق» مرجريت دوراس . يقول بيير بييار فى مجلة لوبوان - ١٩ نوفمبر ١٩٨٤ - إن مرجريت دوراس لم تحدثنا أبدا فى روايتها السابقة عن نفسها . ولا عن شىء منها . وانها اختارت أن تفعل ذلك وهى فى سن السبعين . فأخذت تتأمل الفتاة الصغيرة التى كانت تعيش عاطفة جافة فأرادت أن تمنحها كل شىء من

ذاتها . وهذا يكشف لنا بشكل جوهرى الدور الملعوب فى تكوين عواطفها ، وتأسيس ذاكرتها ، وتزيين عالمها فى الثمانى عشرة سنة التى سبقت وصولها الى باريس . هذه السنوات التى عاشتها فى الهند الصينية مع أمها مدرسة البيانو والتى قامت فيما بعد بشراء قطعة من الأرض فى كمبوديا من أجل زراعتها بالأرز . وقد تحدثت عن هذه التجربة فى رواية «خزان فوق المحيط الهادى» . هذه الأم بالغة الحضور ، ومحبوبة للغاية ، ولكنها ضد كل الأشياء التى يجب التمرد عليها وتمنع ابنتها من الكتابة .

ويقول جان بيير أميت فى لوبوان – ٢٤ سبتمبر ١٩٨٤ – «إن مرجريت دوراس لا تصنع الكتب . ولكنها تعيش فى الكتاب مثلما يعيش الانسان داخل شعائر دينه ، كل فقرة فى الرواية تحمل شحنة من التجربة . فهى تلميذة فى مدرسة الدراما . ونوع من الارتجاف المرن الذى نبحث عنه بلا جدوى فى الكتب الأخرى التى ظهرت فى الآونة الأخيرة . فهنا نحن أمام امرأة تحترق وتعانى وتعيش وتموت بين حرارة الذكرى وبرودة الطفولة الضائعة .

أما الروائى لوسيان بودار فهو من أصول صينية . ويقول حول هذه التجربة «الهند الصينية» التى انتميت اليها دائما وأجدها فى نفسى مثلما فعلت . فى هذا الوصف للسيارة السوداء للرجل الصينى فوق العبارة التى تعبر نهر الميكونج . وصفت كل هذا بعبارات محددة مليئة بالهذيان . وفى نفس الوقت فإنها لا تكشف عن شيء . والتزم النص بكل ما هو ممكن حدوثه . فلكل انسان الحق فى التخيل ، ولكن عليه أن يبرهن بشكل طبيعى عن الجو الذى عاشه فى أسيا » .

ويرى كلود روا فى مجلة لونوفيل أوبسرفاتور – ٣١ أغسطس ١٩٨٤ – أنه يجب ألا نحكى «العاشق» سوى أن نفعل مثلما تروى قصيدة شعر . لان هذه الرواية هى شطر من الحياة . هذه العقدة من السيرة الذاتية ، مثلما يكتب المؤلفون عادة ، قد تم تكوينها على غرار قصيدة . فهل هناك شخص يجرؤ على تلخيص قصيدة شعر . لن يبقى له سوى حفنة من دماء متناثرة ، وشظايا موضوع . الحب والصراع . والحب – المعركة للصغيرة مرجريت من أجل أمها هذه المجنونة بسايجون ، والأخ الأكبر المتشرد والأخ الأصغر الذى مات فى سن مبكرة ، والعاشق الملياردير الصينى ، والذى يمكن أن يقال انها تطلب أن ينتزعها من عالمها .

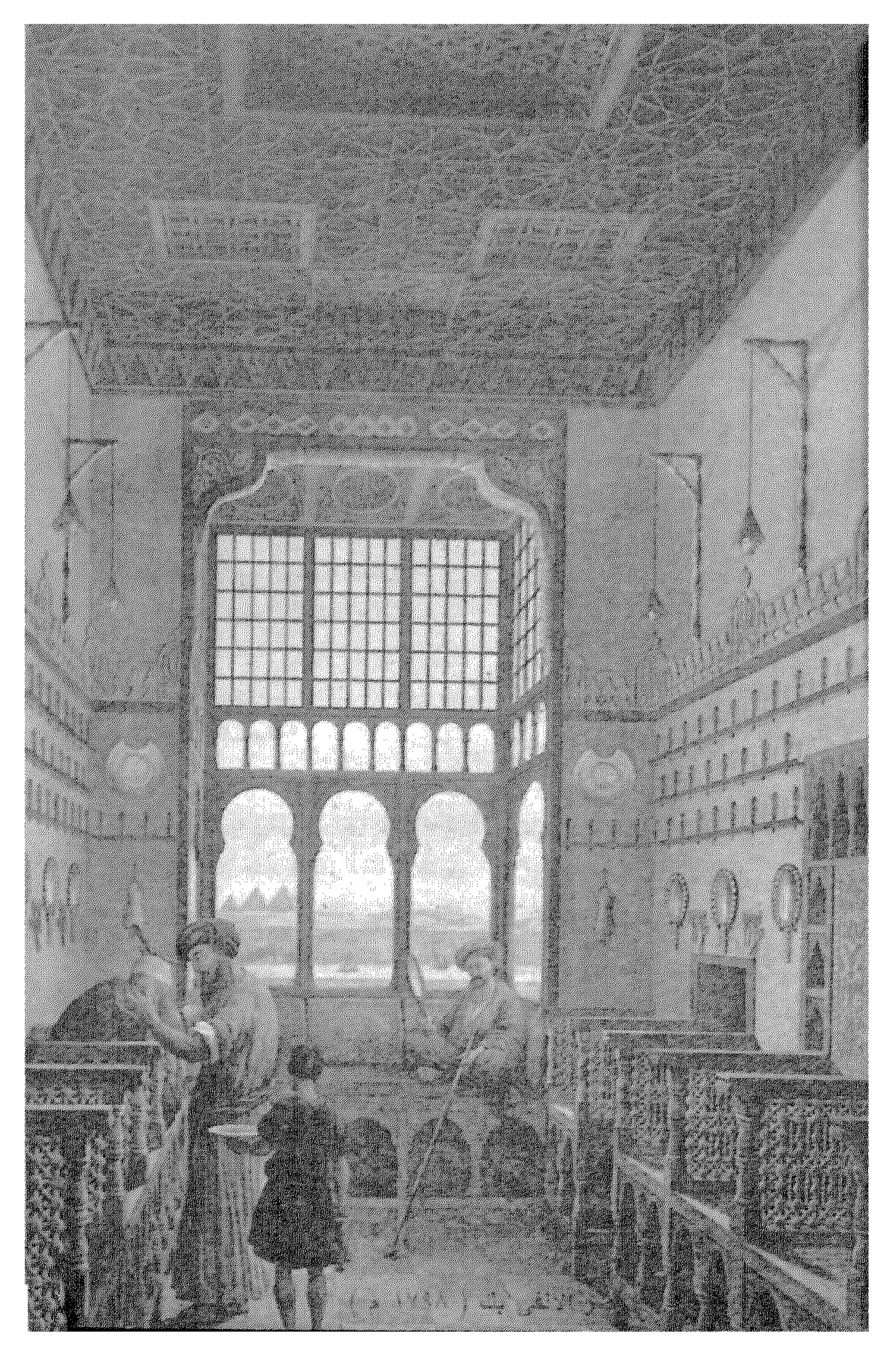
دفاع حار عن

القاهرة العثمانية

بقلم: د. أيمن فؤاد سيد ● عدسة: د. طارق سويلم*

□ إذا كانت مدينة القاهرة فى العصر الإسلامى، وسلائفها الفسطاط والعسكر والقطائع، قد حظيت بنصيب وافر من الدراسات المتخصصة التى تناولت نشأة المدينة الإسلامية وتطورها العمرانى ودراسة أهم معالمها الأثرية ونشآتها ذات الطابع الدينى والمدنى والاجتماعى، بفضل جهود علماء من أمثال: رافيس وستانلى لين بول وبول كازانوفا وكريزويل وعبد الرحمن زكى وسعاد ماهر وفريد شافعى وأحمد فكرى وعبد الرحمن عبد التواب، وغيرهم كثيرون، فإن دراسة تاريخ القاهرة فى العصر العثمانى وتطورها العمرانى يدين بالكثير إلى جهود العالم الفرنسى الأستاذ أندريه ريمون Andre Raymond الذى بدأ منذ أكثر من أربعين عاما فى دراسة تاريخ القاهرة ومنشآتها وعلمائها وتجارها وحرفييها ومشاكلها البلدية وتوزيع حماماتها وأسبلتها وثورات أهلها، وتطور عمارتها وتوزيع أحيائها؛ أحياء البرجوازية والارستقراطية فيها طوال هذا العصر الممتد من سنة ١٥١٧م إلى سنة ١٧٩٨م.

* دكتوراه من جامعة هارفارد والمحاضر بالجامعة الأمريكية





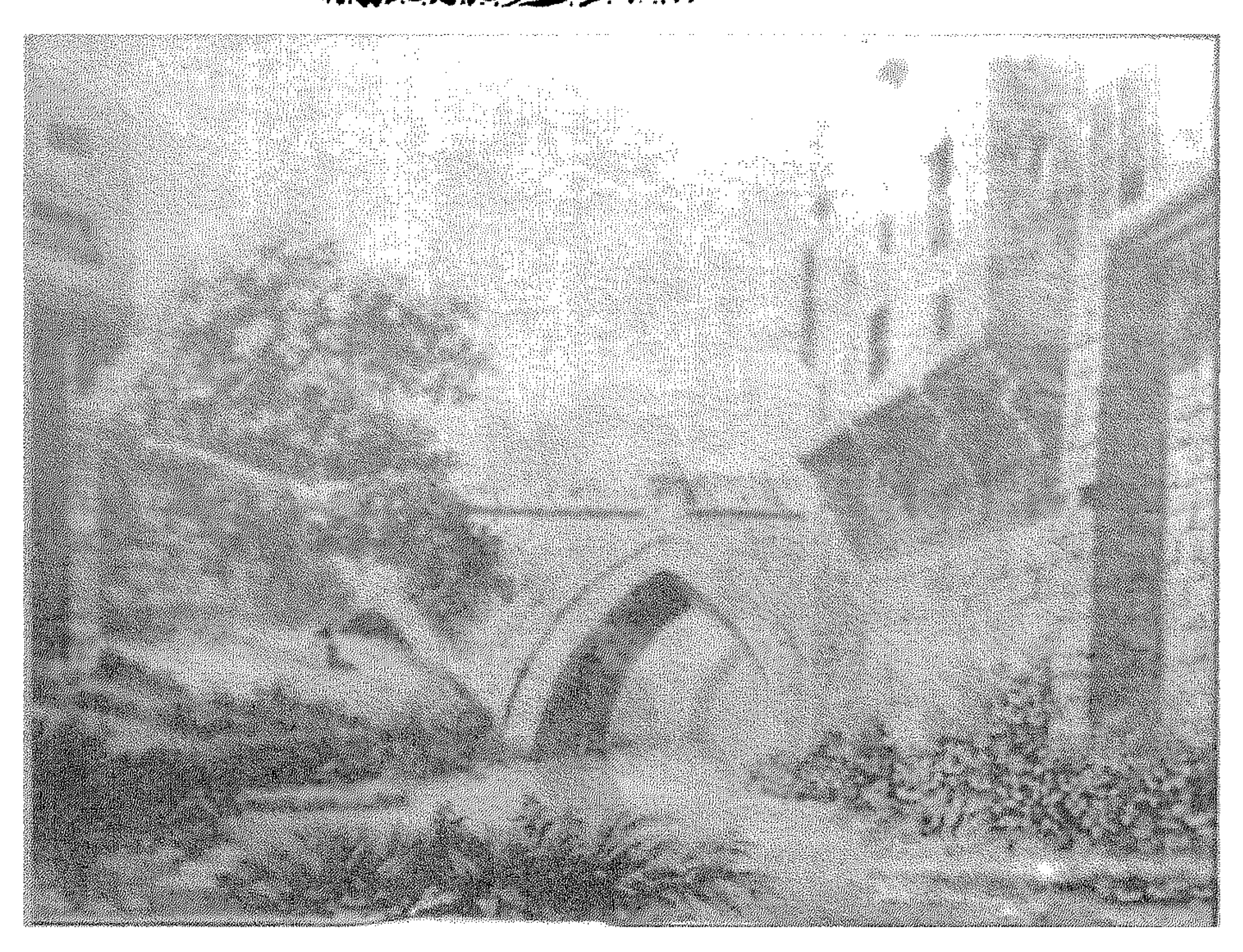
وقد استطاع اندريه ريمون من خلال بحثه وتنقيبه فى وثائق مصر العثمانية وحُجج الأوقاف وأرشيف المحكمة الشرعية والمحكمة الصالحية النجمية، ومصادر التاريخ المصرى العثمانى، بالإضافة إلى المعلومات الغنية للرحالة الذين زاروا مصر فى هذه الفترة وإلى المادة الضخمة التى وفرها لنا كتاب «وصف مصر» الذى كتبه علماء الحملة الفرنسية وخريطة القاهرة التى رسمها العلماء والمهندسون المصاحبون للحملة، استطاع أن يقدم لنا مجموعة مهمة من الدراسات عن القاهرة العثمانية تعدت تسعة عشر مقالا وبحثا وأربعة كتب ضخمة.

ومراجعة هذه القائمة توضح لنا تنوع دراسات أندريه ريمون وثرائها، كما أنه لم يقف بها عند حدود مصر فقط بل قارن فيها بين بعض الظواهر المتكررة والمتماثلة بين القاهرة وبعض المدن العربية الكبرى الأخرى فى الامبراطورية العثمانية مثل حلب والموصل وتونس والجزائر ودمشق.

تعمق فى البحث

وتدل عناوين هذه البحوث والدراسات على تعمق اندريه ريمون فى البحث وتعرضه لموضوعات لم يسبقه إليها أحد، كما أن البحث فيها يتطلب طرقا مختلفة فى البحث والاعتماد على مصادر غير تقليدية، فنجده يتناول «السقائين فى القاهرة»، و «الحمامات العامة فى المدينة فى نهاية القرن الثامن عشر»، و «أسبلة القاهرة فى العصر العثمانى»، و «تحديد مواضع حمامات وأسبلة القاهرة» وتنقل مواضع «المدابغ» كمؤشر للنمو العمرانى للمدينة ، و «تحديد الأحياء السكنية للارستقراطية القاهرية فى القرن الثامن عشر»، و «جغرافية حارات القاهرة فى القرن الثامن عشر»، و «سكان القاهرة منذ المقريزى وحتى وصف مصر»، و «الحركات الشعبية فى القاهرة فى القرن الثامن عشر»، و «العمارة والتطور العمرانى للقاهرة فى العصر العثمانى»، و «قائمة بأسماء الطوائف الحرفية فى القاهرة عام ١٨٠١»، و «شئون البلديات ومشاكل المرافق فى القاهرة فى القرنين السابع عشر والثامن عشر».

وقد توج هذه الدراسات المهمة بثلاثة كتب تعد أهم ماكتب عن تاريخ القاهرة فى



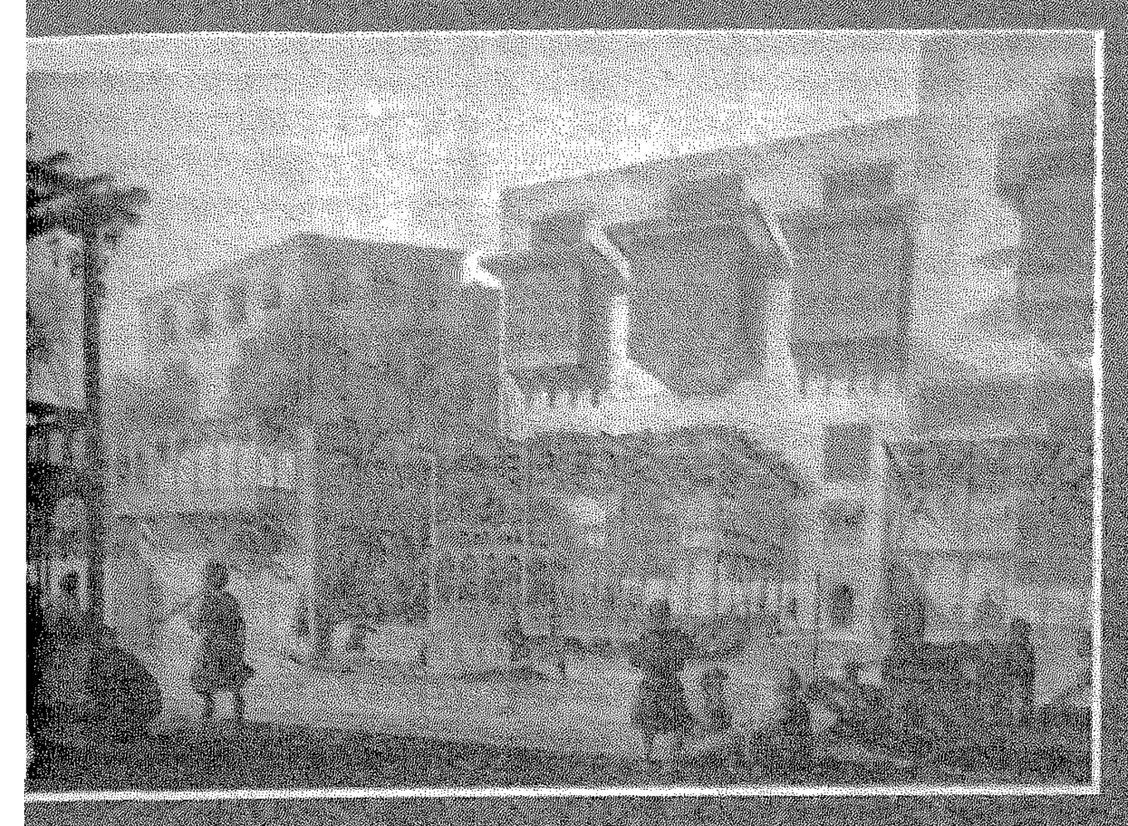
قنطرة «السبع» تمر من تحتها المياه وتربط القاهرة ببعضها

العصر العثمانى، أولها رسالته للدكتوراه وكان موضوعها «الحرفيون والتجار فى القاهرة فى القرن الثامن عشر» (١٩٧٤)، ثم كتاب جامع عن «تاريخ مدينة القاهرة» (١٩٩٣)، ثم أحدث مؤلفاته وعنوانه «قاهرة الإنكشارية - ازدهار المدينة العثمانية فى زمن عبد الرحمن كتخدا» مطبوعات الـ CXIRS فى باريس عام ١٩٩٥.

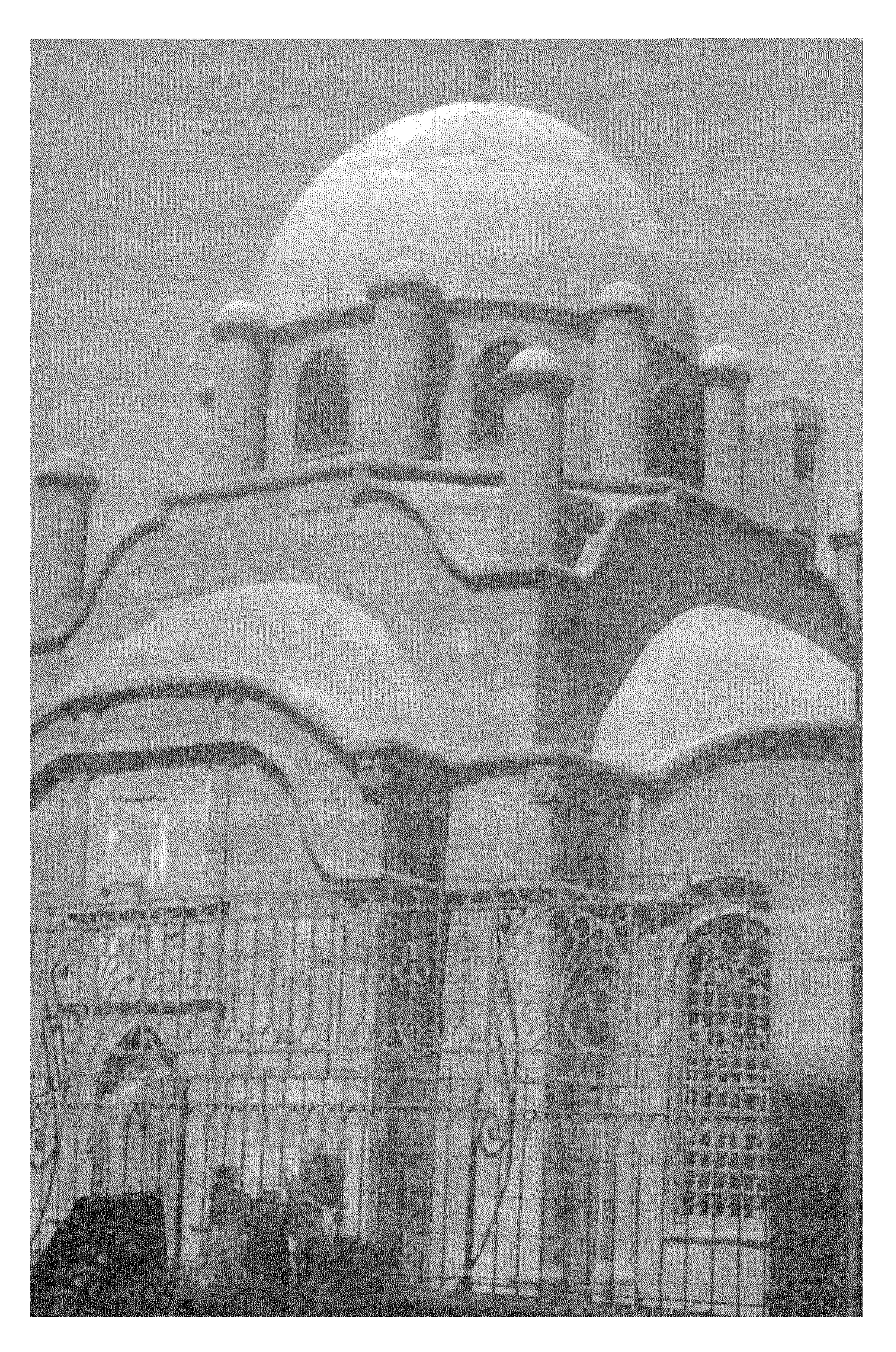
محاضرة مهمة بالقاهرة

وبمناسبة صدور هذا الكتاب دعت مكتبة القاهرة الكبرى اندريه ريمون لإلقاء محاضرة يعرض فيها لهذا الكتاب وأهم النتائج التى توصل إليها.

وينقسم الكتاب الذى يقع فى ١٢٧ صفحة مزدانة بصور نادرة للقاهرة ومنشآتها فى العصر العثمانى بعضها مأخوذ عن لوحات رسمت فى القرن



قصر قاسم بك والقاعة الرئيسية من الداخل





فيضان النيل فى منطقة بركة الفيل من لوحة تضمنها كتاب وصف مصر وعلى ضفة البركة الموسيقيون يغنون من أجل النهر

الماضى، وبعضها الآخر موجود فى أطلس كتاب «وصف مصر»، إلى ستة فصول ومدخل.

وقد عرض فى المدخل إلى المذبحة التى قادها والى مصر بكير باشا فى ١٥ نوفمبر ١٧٣٦ وكان مسرحها «مقعد» قصر محمد بك الدفتردار المطل على بركة الفيل بغرض التخلص من بعض الشخصيات، التى يعوق ما تتمتع به من سلطة واسعة، الحكومة العثمانية عن اتخاذ العديد من الاجراءات التى تتطلبها. وكان من بين ضحايا هذه المذبحة عثمان كتخدا القزدغلى رأس بيت القزدغلية والذى كان مهيمنا على صروف القاهرة طوال أكثر من عشرين سنة، وقد فتح اختفاء عثمان كتخدا الطريق أمام ظهور شخصيات

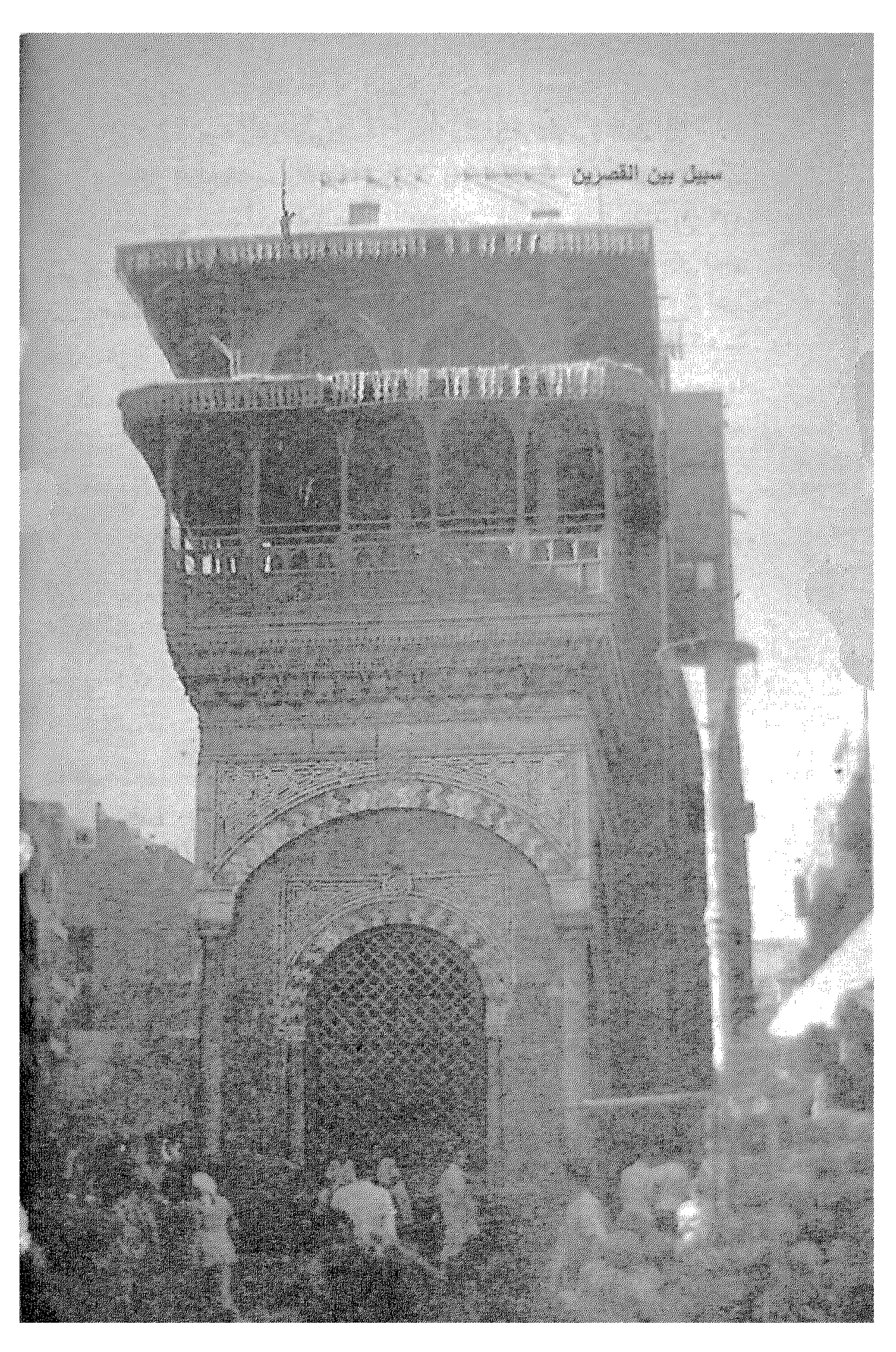
أخرى ورثت قيادة البيت القزدغلى ولعبت دورا مهما فى تاريخ مصر والمدينة فى القرن الثامن عشر خاصة بعد أن أصبح عبد الرحمن كتخدا هو الرجل الأول فى مصر منذ سنة ١٧٣٩ وحتى نفيه سنة ١٧٦٥ على يد على بك الكبير.

كانت هذه الفترة ، التى امتدت نحو ربع القرن، عصر ازدهار لمصر وللقاهرة على وجه الخصوص حيث لعب عبد الرحمن كتخدا دورا أساسيا فى النشاط المعمارى فى القاهرة الذى كان المحرك الأول له والذى مازالت حتى اليوم آثاره الباقية شاهدة عليه، وكانت موضع دراسات متخصصة للعديد من الباحثين (راجع على سبيل المثال Raymond, A., "Les Constructions de L'Emir Abd al-Rahman Kathuda au Caire", An Isl. X, (1972), PP. 235 - 251; Behreus - Abouseif, D., "The 'Abd al Rahman Kathudá style in 18th Century Cairo"; An. Isl. XXY, (1992), (PP. 117).

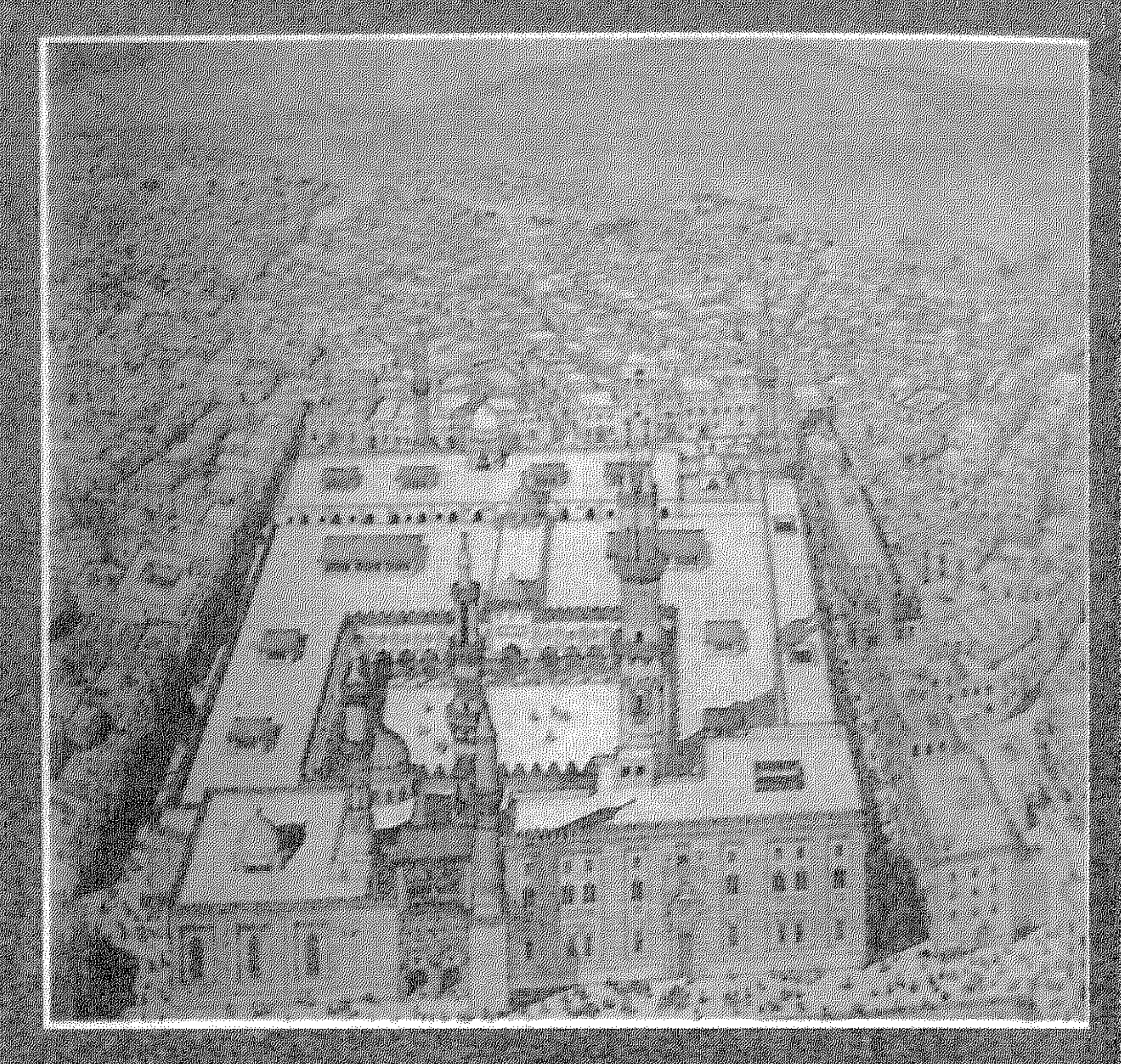
أنشطة القاهرة العثمانية

وفى الفصل الأول تناول التنظيم السياسى لمصر فى هذه الفترة (٨-٣١)، وعرض فى الفصل الثانى للسلك المهنى لعبد الرحمن كتخدا (٣٢ - ٤٥) ثم أفرد الفصل الثالث للحديث عن مختلف أنشطة مدينة القاهرة وحرفييها وكبار تجارها (٤٦ - ٦٧). وتحدث فى الفصل الرابع عن امتداد القاهرة واتساعها منذ نهاية العصر المملوكى وحتى القرن الثامن عشر الميلادى (٦٨ - ٩٣). وخصص الفصل الخامس للموضوع الرئيسى للكتاب وهو عمارة القاهرة فى عصر عبد الرحمن كتخدا (٩٤ - ١١٩)، وجعل عنوان الفصل الأخير نهاية حقبة (١٢٠ - ١٢٢).

وفى الفصل الذى خصصه ريمون للحديث عن عمارة القاهرة فى عصر عبد الرحمن كتخدا تناول الحديث عن العمارة فى العصر العثمانى عموما ثم أعمال عبد الرحمن كتخدا، وأثبت أنه فى خلال الخمسين عاما الممتدة بين سنتى ١٧٢٦ و ١٧٧٥ بنى فى القاهرة ٢٦ مسجدا و٤١ سبيلا (تمثل أكثر من ثلثى المساجد والأسبلة التى خلفها العصر العثمانى والتى تبلغ ٧٧ مسجدا و١١٨ سبيلا). ولا نستطيع أن ننكر أن هذا النشاط المعمارى



سبيل بين القصرين

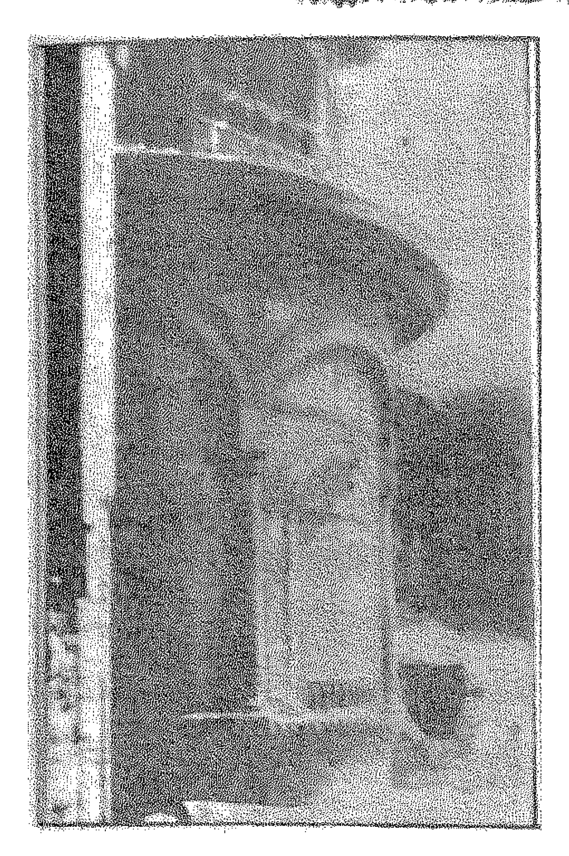


مخطط للقاهرة العثمانية ضمنه "أندريه ريمون" في كتابه الجاد الذي نوقش أخيرا

يرجعه إلى عصر الازدهار الذي عرفته مصر والقاهرة في هذه الفترة وهو عكس ما يصف به كثير من المؤرخين الفترة العثمانية كلها بأنها كانت فترة ركود وتخلف. وكثير من هذه المنشآت يتزامن تاريخها مع الفترة التي تولى فيها عبد الرحمن كتخدا وبالتحديد من سنة ١٧٣٩ و ١٧٦٥ فقد تمتعت القاهرة في هذه الفترة بنشاط معماري غير مسبوق في العصر العثماني وربما طوال تاريخ المدينة كله. ١٩ مسجدا ومدرسة، ٦ زوايا وتكايا، ٢٩ سبيلا، بالإضافة إلى الترميمات والإضافات التي أدخلها على العديد من المنشآت التي ترجع إلى عصور سابقة مثل



مراد بك



سبيل ابراهيم كتخدا

المشهد الحسينى وقبة ومارستان قلاوون والجامع الأزهر، ويذكر الجبرتى أن الأعمال التى نفذها فى الأزهر وحدها تكفيه لتخليد ذكراه.

وأهم منشآت عبد الرحمن كتخدا التى مازالت باقية فى القاهرة وتدل على الطراز الجديد الذى أدخله فى العمارة القاهرية سبيل بين القصرين المنشأ عام ١١٥٧هـ / ١٧٤٤م، جامع وسبيل وكتاب الشيخ مطهر فى نفس العام، الأعمال والإضافات الموجودة بالجامع الأزهر وترجع إلى عام ١٧٥٣م، جامع الشواذلية بالقرب من كوم الشيخ سلامة (١١٦٨ هـ / ١٧٥٤م)، جامع وسبيل باب البرقية وهى إصلاحات وتجديدات أدخلها عبد الرحمن كتخدا عام ١١٦٨ هـ / ١٧٥٤م على جامع الأمير مغلطاى الذى يرجع إلى عام ٧٣٠هـ / ١٣٢٩م، سبيل وحوض الخطابة، جامع الكردى بالحسينية، تجديدات أقامها نحو

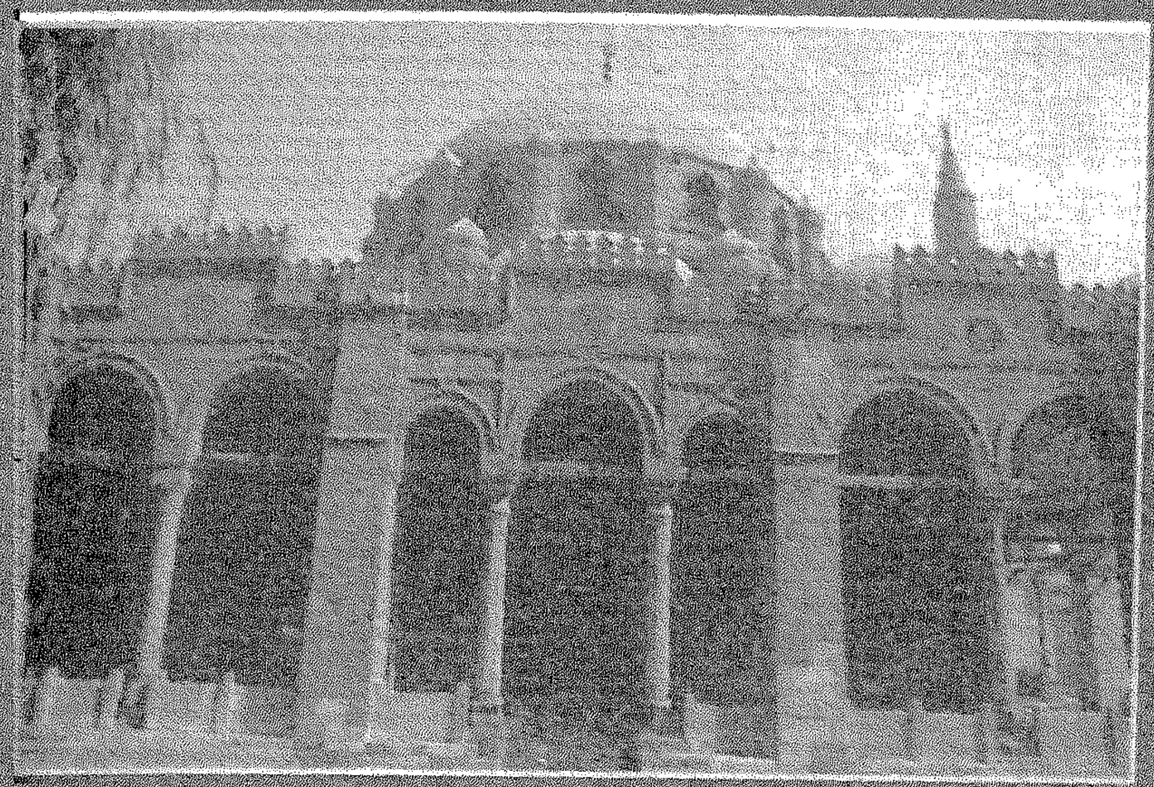


العمارة العثمانية على ضفاف النيل

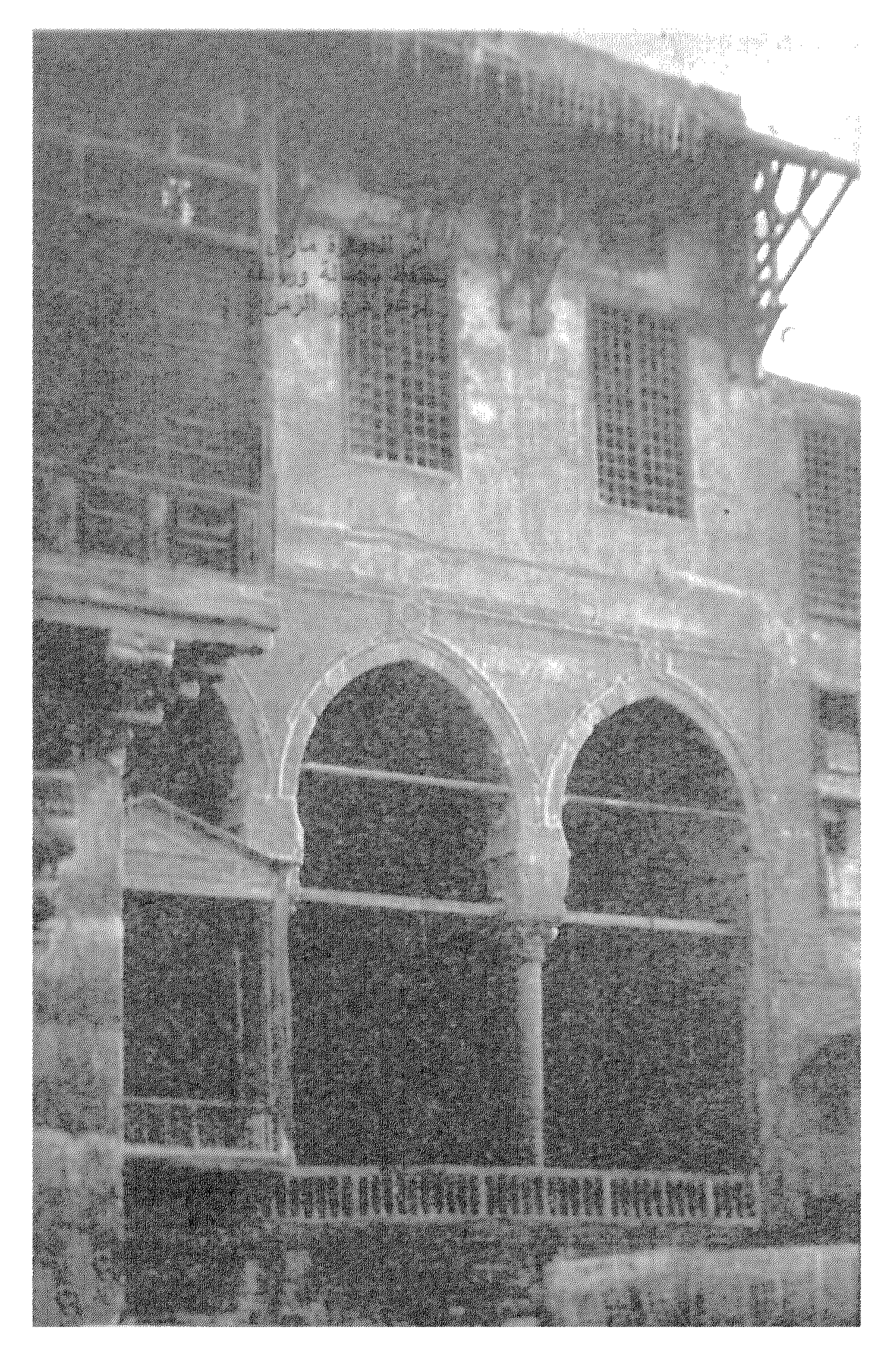
عـام ١٧٥٦ فى كل من مـشـهـد السـيـدة رقية، ومشـهـد السيـدة نفيسة، ومشـهـد السيدة سكينة، والمشـهـد الحسينى، وقبة الإمام الشافعى.

وهكذا فقد شـهـدت القاهرة سواء فى قلب المدينة الفـاطمـية أو خـارج أسـوارهـا الشمـالية عند الحسينية أو قرب باب زويلة أو فى حى المشـاهد أو فى الازبكيـة آثار أعمـال عـبد الرحمن كـتـخدا التى حـفظت الكثير من آثار القاهرة الفاطمية والمملوكية وأضـافت إليـها أنماطا جديدة من العـمارة غيـر مسـبـوقة خلدت اسم عـبـد الرحـمن كتـخدا كـواحد من أكـبر المشيـدين الذين عرفـتـهم القـاهرة على امـتـداد تاريـخـهـا الطويل.

وبفـضل جهود اندريه ريمون ودراسته أمكننا أن نظهر صفحة مضيئة فى تاريخ القـاهرة العثمانية فى فترة كان يظن أنهـا لم تضف منشآت ذات قيمة إلى منشآتها الفاطمية والأيوبية والمملوكية السابقة.



مسجد سنان باشا تضمن الوانا من فنون العمارة العثمانية

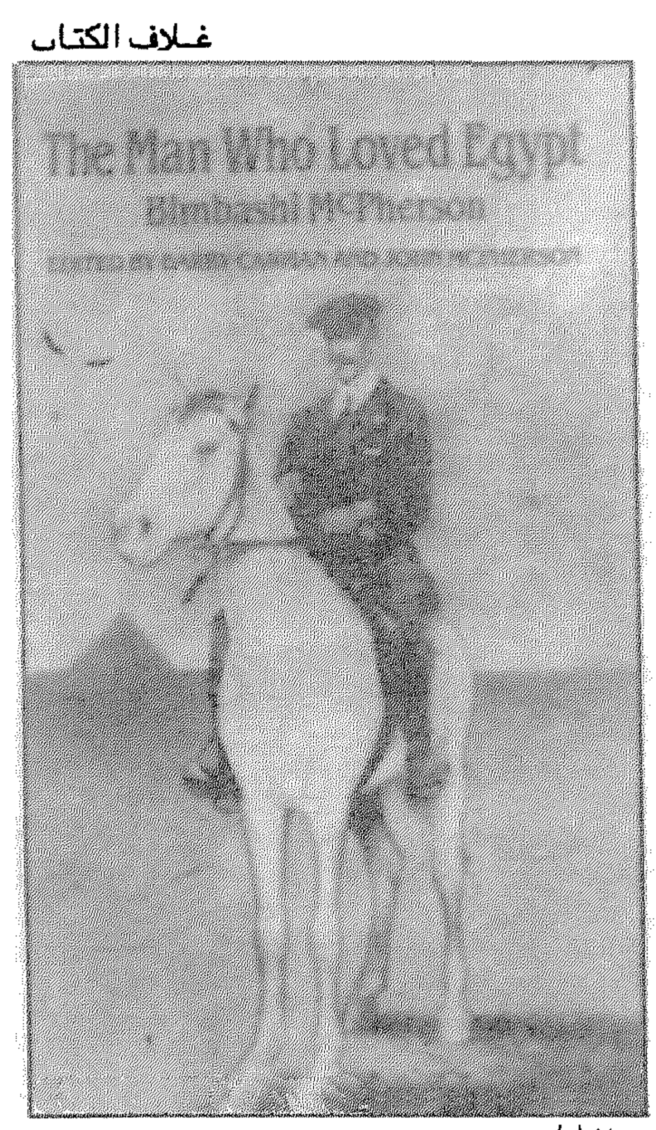


الرجل الذى أحب مصر

بقلم: د. السيد أمين شلبى

□ من بين أكثر الشخصيات الأوربية والإنجليزية خاصة، التي عاشت في مصر يقف جوزيف ماكفرسون (١٨٦٦ - ١٩٤٦) أو الذي سيعرف بالبمباشي ماكفرسون، من أكثرها غرابة وطرافة، وأكثرها حبا - علي طريقته الخاصة - لمصر وللمصريين، وارتباطا بمختلف فئاتهم وطبقاتهم، ونفاذا لعاداتهم وتقاليدهم، وتصويرا لها وربما فاق في هذا، أو علي الأقل يكمل، إدوارد لين في كتابه «عادات وتقاليد المصريين المحدثين».

غلاف الكتاب



ولعل مما له دلالة على شخصية جوزيف ماكفرسون وتسجيله لحياته الطويلة في مصر وبين المصريين، ما كتبه عنه لورانس داريل من أنه «كان واحدا من أكثر الشخصيات تفردا وجاذبية التى كان من حظى أن ألتقى بها حيث تقابلت طرقنا فى القاهرة، وتشرفت بأن أتلقى ما قد يكون النسخة الإهدائية الأخيرة لكتابه «الموالد فى مصر»: The Moulids in Egypt والتى يقدم لنا نظرة رائعة عن الحياة السفلى فى مصر، والآن يأتى هذا العمل العظيم الذى يملأ الفجوة بين كتاب لين الضخم والجميل «المصريين المحدثين» وبين الحاضر، والواقع أنه رغم أن ثمة العديد من الكتب عن مصر تعتمد على التحليل السياسى وأيضا على ما يشاع، ولكن لا شىء مما صادفني يحمل هذا الطابع الأصيل من المعرفه المباشرة مثلما يحمله هذا الكتاب.

والكتاب الذى يشير إليه داريل هو ذلك الذى تضمن خلاصة ٢٥ ألف رسالة بعث بها جوزيف ماكفرسون إلى عائلته من مصر منذ أن نزل بها عام ١٩٠١ حتى مات فيها عام ١٩٤٦، والتى شرع فى كتابتها منذ اليوم الأول لوصوله ظنا منه «أنه سيكون مصدر سرور للأهل فى الوطن أن أروى لهم تجولاتى وملاحظاتى وجو الحياة فى مصر.. وفضيلة هذه الرسائل فى الكتابة عن الشرق أنها تصف الناس والأشياء بشكل مباشر وليس من الكتب والمراجع أو المذكرات.

● بدء علاقته بمصر

ويروى ماكفرسون بدء علاقته وتطلعه إلى مصر بمرحلة دراسته فى أكسفورد، «حيث كانت أفكارى فى مكان آخر.. وحيث كان حلمي أن أعيش فى القاهرة وأن أرى وأتعلم عن الأماكن والناس واللغة فى بلدان البحر المتوسط ولكن بشكل خاص عن وادى النيل».

وقد كان فى الخامسة والثلاثين حين ماتت والدته، وترك موتها فراغا فى حياته «لقد ترك موت أمى ظلا أعمق وفراغا مخيفا.. ولم يعد شىء فى انجلترا يثير حماسى، ومن هنا عاودنى من جديد تطلعى القديم لشواطىء المتوسط ذات التاريخ الممتع، وهو التطلع الذى ظل مكبوتا خلال حياة أمى وحيث كانت تربطنى بالوطن».

وقد تصادف مع ذلك وصول وفد من الحكومة المصرية لاختيار عدد من متخرجى أكسفورد للعمل فى الإدارة المصرية، وقد وقع الاختيار على ماكفرسون حيث سافر إلى مصر عام ١٩٠١، فى هذا الوقت كان وضع مصر من أكثر الممتلكات البريطانية غموضا،

فهى لم تكن مستعمرة أو محمية، كما لم تكن جزءا من الامبراطورية، وإسميا كانت ولاية ذات حكم ذاتى ضمن الامبراطورية العثمانية لها رئيس دولة هو الخديو الذى يدين بالولاء للسلطان فى استانبول، ولها برلمانها الخاص وحكومتها وجيشها وإدارتها المدنية، ورغم هذا كان الحاكم الفعلى هو آفلين بارينج Evelyn Baring أو اللورد كرومر.

وصوله للإسكندرية

وحين وصل ماكفرسون إلى الاسكندرية فى أكتوبر عام ١٩٠١، اندفع يسجل انطباعاته الأولى إلى شقيقه الأكبر «أعتقد أنى سوف أحب المصريين لمزاجهم الطيب ونظرتهم النبيلة، ويبدو أنهم ينتمون إلى نوع أعلى من البشرية أكثر من الفرنسيين مثلا».

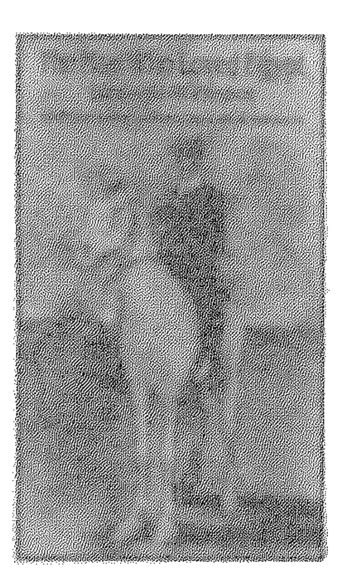
وقد التحق ماكفرسون بإدارة التعليم والذى ظل يعمل فيها من عام ١٩٠١ حتى عام ١٩١٤، وحيث بدأ مدرسا فى مدرسة الخديو اسماعيل والتى وصفها بأنها «آتيون مصر»، وكانت مدرسة أبناء العائلات الثرية ، وشرع فى الحال فى تعلم اللغة العربية وإجادتها وأصبح فى إمكانه فى السنوات الأولى أن يتحدث بها كأى مصرى أو عربى، وعلى عكس ماسجلته شخصيات بريطانية تولت مناصب قيادية فى مصر عن المدرسين البريطانيين وغياب أى تعاملات لهم تقوم على الصداقة مع المصريين، وإسراعهم بمجرد انتهاء دروسهم، إلي الهرب بدراجاتهم إلى نادى الجزيرة حيث ينغمسون فى لعب الجولف أو التنس ومشاركة أصدقائهم البريطانيين شرب الويسكى والصودا أو الشاى، كان ماكفرسون استثناء من ذلك النمط فقد اندمج بحماس فى المجتمع المصرى مكتسبا قبوله وحب تلاميذه وأصدقائهم، وكان من بينهم أبناء الكولونيل أحمد عرابى.

اهتمامه باللغة والدين

وبحماس فتى ملحوظ بالنسبة لرجل فى منتصف الثلاثينيات بدا ماكفرسون مهتما بكل شىء: اللغة، الدين، العادات، وطرق حياة الفلاحين، «الذين لايقيمون حسابا للزمن»، وصمت الصحراء وأسرارها، وحيث لم تكن الصحراء بعيدة عن قلب المدينة فقد كان يجد بهجة فى أن يمتطى مهرة يطوف بها حول المقطم والتلال الجرداء التى تطل على القاهرة، ولم يرتح حتى وجد لنفسه بيتا فى الصحراء وشاليها صغيرا قرب المطرية، كما أبدى اهتماما خاصا بالشعائر الدينية، ولم يكن حضوره القداس مقصورا فقط

على الطائفة الكاثوليكية ولكن أيضا على الكنائس الشرقية، ومنذ عامه الأول كان ضيفا على حفلات الزواج الفخمة، للمسلمين والأرمن، واليونانيين والأقباط، وكان يسعده أن يكون هو بين مايقارب ٥٠٠ مدعو، الانجليزى الوحيد بينهم، كما كان أصدقاؤه المصريون يصطحبونه فى مناسبات دينية لم يكن يسمح فيها لغير المسلمين، وقد شملت علاقاته بالمصريين جميع طبقاتهم، ولم يكن يرتاح فقط إلى تلاميذه وعائلاتهم وأصدقائهم، بل كذلك فى المنزل المتواضع والمزدحم لخادمه حجازى وحيث كان «أشقاء حجازى وشقيقاته الصغار يتزاحمون على مثل الهررة الصغيرة المستأنسة».

كما كان موضع ترحيب فى بيوت الشخصيات المصرية البارزة، ومن بينهم كبير قضاة مصر الشيخ محمد بخيت الذى يصفه بأنه «واحد من أكثر الشخصيات المحترمة التى قابلتها فى حياتى.. إنه فقط.. يحب العمل، والصلاة، وتعليم أصدقائه، وأخوته فى الدين، ورغم عمله كقاضٍ، فقد كان يعلم الصغار بلا مقابل على مدى ٦ أو ٧ ساعات يوميا، وكان يأكل قليلا ولكنه يحب أن يرى ضيوفه يأكلون كثيرا.. إنه واحد من أكثر المثقفين رغم أنه لايعرف لغة الأوربيين أو عاداتهم، وهو



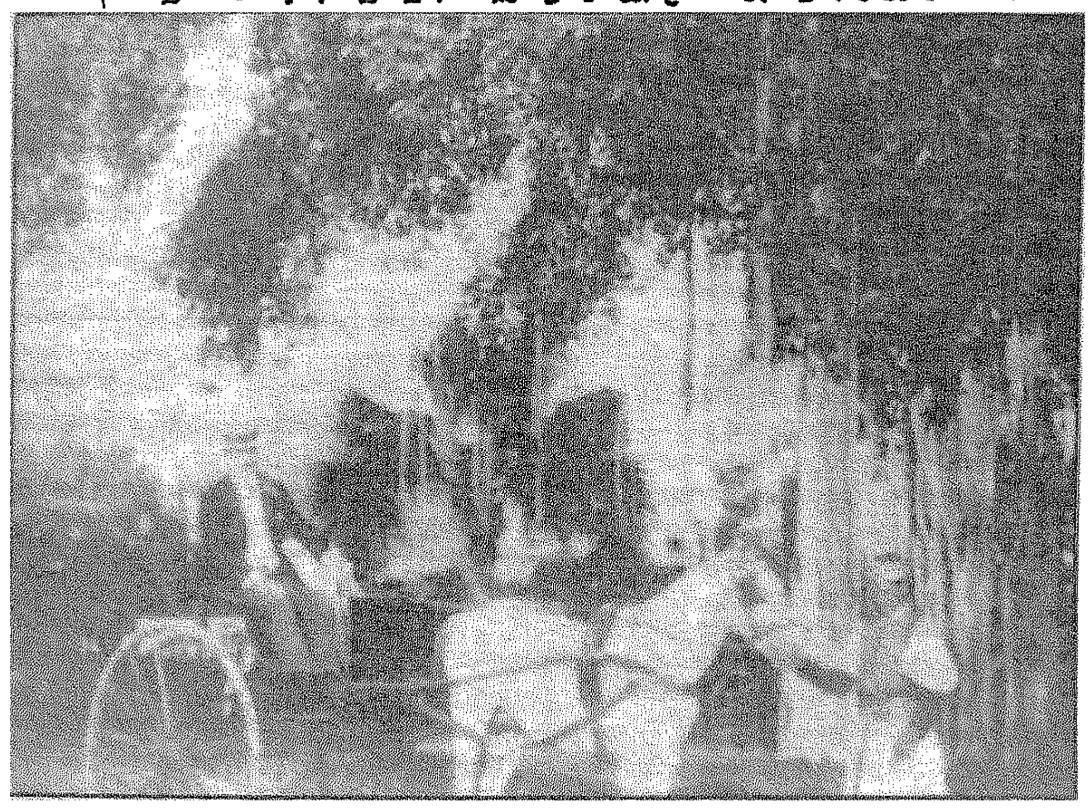
الرجل الذي أحب مصر

دائما على استعداد أن ينفق ماله على الآخرين». كذلك كان من أصدقائه المفتى، الذى يسبق كبير القضاة فى الدرجة، وتصف إحدى رسائل ماكفرسون زيارته للمفتى حيث نقل إليه سؤالا كان يحير خادمه حول ما إذا كانت رائحة سجائره تفطره فى رمضان، وجاءت إجابة المفتى مطابقة لما رد به ماكفرسون من أنه إذا كانت رائحة السجائر تفطره فلابد أن رائحة الطعام تفطره كذلك.

وفى عام ١٩٠٤، نقل ماكفرسون إلى مدرسة رأس التين بالاسكندرية، وبعد ذلك بثلاث سنوات إلى كلية الزراعة بالجيزة، وهو يحتفظ بخطابات من طلابه بالاسكندرية يقول أحدها «لا أستطيع أن أصف بالكلمات الأسف والحزن الذى سببه رحيلك، فقد بكيت



جون ماكفرسون وهو فى شهره التاسع بين ذراعى مربيته البدوية زينة بمدينة الاسكندرية عام ١٩٢٦



ماكفرسون فى حديقة الأزبكية



جون ماكفرسون فى جلسة عائلية



شرفة فندق شبرد

بمرارة ويتذكر كل تلاميذك طيبتك ورقتك وقدرتك فى التدريس».

نمو الوطنية المصرية

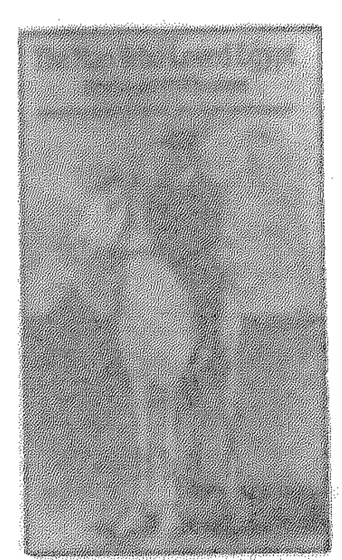
وتعكس خطابات ماكفرسون فى هذه الفترة نمو الوطنية المصرية والمشاعر المعادية للاحتلال البريطانى خاصة بعد حادث دنشواى الذى سجل وقائعه فى رسائله وما أثارته من مشاعر لدى المصريين «إن كل فرد قابلته كان منكسر القلب، وفى حلقه غصة، وكنت تلمس العصبية فى كل لغته وكل رد أو صوت، والحزن على كل وجه، ولكنه كان حزنا من نوع غريب، وكان من الواضح أنه حزن مقهور بفعل قوة متفوقة «ويسجل أن حادث دنشواى «جعل الفلاحين المصريين يسحبون ولاءهم الضمنى، واكتسبت الحركة الوطنية المناضلة تأييدا شعبيا».

المحارب السعيد

ومع الحرب العالمية الثانية، دخلت حياة ماكفرسون فى مصر طورا أكثر غرابة وطرافة، وقدمت له منافذ أكثر للتوغل فى حياة وقاع المجتمع المصرى بعاداته وتقاليده. وقد اكتسب ماكفرسون فى هذا الطور لقب المحارب السعيد The Happy Warrior

وذلك أنه فى هذه الأثناء كانت تركيا قد دخلت الحرب إلى جانب ألمانيا، وباعتبار أن مصر كانت من الناحية الفنية ولاية ضمن الامبراطورية العثمانية، فقد عمدت انجلترا إلى تنظيم هذا الوضع، وأعلنت مصر كمحمية رسمية بدلا من وضع الحماية المقنعة التى كان لها فى الثمانينيات من القرن، وكان مصدر التهديد الرئيسى لبريطانيا من مصر يأتى من القوات التركية فى فلسطين وسوريا والتى كان من المتوقع أن تتقدم عبر صحراء سيناء إلى قناة السويس، الأمر الذى دفع انجلترا إلى اتخاذ اجراءات سريعة لتقوية دفاعات القناة. وقد بدأت مساهمة ماكفرسون فى العمل الحربى بالتحاقه بوحدة احتياطية تطوعية شكلها أعضاء نادى الجزيرة الرياضى من البريطانيين وعرفت من قبيل السخرية «بقصر فرعون»، ورغم أن ماكفرسون كان يقترب من الخمسين من عمره فإن هذا المستوى من المشاركة لم يرضه على الإطلاق حتى تمكن فى يونيه ١٩١٥ من تسجيل نفسه كضابط فى الصليب الأحمر حيث شرع فى الحال فى مهمة بمستشفى ملحق بباخرة متجهة إلى أحد شواطىء البحر المتوسط وحيث كان الحلفاء يعدون لهجوم شامل، فى هذا الهجوم تعرض الطراد الذى ينقل ماكفرسون لقصف أصاب أفراده ومنهم ماكفرسون حيث ظلت ساقه معلقة لمدة ٤ شهور اختار

بعدها أن يكلف فى فيلق أنشىء حديثا للهجانة ونظر إليه كوحدة حيوية فى خطط القيادة البريطانية فى مصر، وكانت مهمة هذا الفيلق تزويد القوات المحاربة فى الصحراء بالمؤن وخاصة الماء والعودة بالجرحى وفى معسكر للتدريب على هذه المهمة فى عين شمس واجه ماكفرسون بداية صعبة حيث «بدت الحياة فى عين شمس مثيرة، بل وخطرة بالنزعة المتوحشة للكثير من الجمال، وفى كل يوم تقريبا كان واحد منا أو أكثر يرقد فى المستشفى من عضة جمل، وفى الليل كثيرا ما كان أحد الجمال ينطلق مثيرا للذعر ويظل المعسكر مستيقظا طوال الليل». وقد أوفد ماكفرسون إلى أعماق الصعيد لتجنيد جنود للهجانة من بين الأهالى هناك، وكان هذا الفيلق قد تطور عدده من ٣٠,٠٠٠ إلى ٢٥٠,٠٠٠ سائق، كما تكون فيلق عمل مصرى لمساعدة القوات البريطانية المحاربة، ومع نهاية الحرب كان قد خدم فيه مليون ونصف مليون مصرى على فترات مختلفة، وكان هذا الإكراه للمصريين لمساعدة البريطانيين ضد الأتراك من الأسباب الأولى للهبة الوطنية المصرية بعد الحرب وبسبب الأساليب التى استخدمت فى تجنيد المصريين وكانت موضع نقد حاد من ماكفرسون «لهذا



الرجل الذي أحب مصر

الشر المخزى والطريقة المخجلة والفاسدة التى تم بها تجنيد المجندين، وكانت هذه الأساليب تقوم على مطالبة المديرين «حكام الأقاليم» لتوفير عدد من القوات فى وقت معين، فيأمر المديرون المآمير بأن يقدم كلا منهم نسبة معينة، ويحيل المآمير بدورهم هذا إلى العمد فى القرى التابعة لهم، ويستخدم العمد هذا الأمر لكى يتخلصوا من أعدائهم الشخصيين، ومن الذين يمكن أن يحلوا محلهم، وأزواج النساء الجميلات الذين يشتهونهن، وكل غير القادرين على دفع الفدية».

وقد تحقق خوف ماكفرسون من أثر الكراهية التى شاعت بين المصريين تجاه البريطانيين نتيجة لهذه الأساليب، فعبر مصر كلها انتشرت الأغانى التى

تعبر عن الكراهية للإنجليز:

ويل لنا يا انجلترا
يامن انتزعتم الحبوب
وسلبتم الماشية
وأخذتم الجمال
ولم تتركوا لنا إلا حياة جدباء
فبالله دعونا وشأننا.

● **خطاب توديع**

ورغم كل ما عاناه ماكفرسون خلال هذه الفترة، فإنها كانت من أكثر فتراته في مصر، بما فيها من أخطار، حركة وخصوبة، وقد عكست رسالته الأخيرة من سيناء ـ التي أهداها إلى حصانه تموز ـ هذه الفترة ، وكان خطابه بمثابة توديع لهذه الحياة واحتفالا بها: «خلال الشهور الأخيرة عشنا أنا وتموز أوقاتا سعيدة ورحلات مرحة في سيناء، وكانت إدارة الحملات متعة مع تموز فقد كان يمشي برزانة في مقدمة القافلة محددا لإيقاعها، ولكنه كان يحملني إلى المؤخرة في أسرع وقت إذا ما أطلقت الصفارة إيذانا بوقوع خطأ ما، ثم يحملني إلى المقدمة مرة أخرى مثل شعلة من النار. وبشكل يجعل الأهالي يصيحون «وحياة النبي، هذا عفريت وليس حصانا».. وربما كانت الأسابيع الأخيرة في حياة تموز التي عشناها في العريش أسعدها كما كانت أمتع ما عرف سيده كذلك، ولم يحفل كلانا للحظة بالقنابل أو آلات الحرب الأخرى، والتي جعلت الحياة أحلى عشرات المرات، وجعلتها تبدو للمرء كمنحة مجيدة من الله وليست مجرد شيء رتيب».

وبتردد شديد، أنهى ماكفرسون مشاركته في «معارك الصحراء» ودخلت حياته في مصر مرحلة أكثر تنوعا وغرابة تلك التي أطلق عليها «الدوامة المثيرة Lurid Gulf»، فقد ظن رؤساؤه أنه يستحق حياة هادئة بسبب جروحه وضعفه الجسدي، ولكن الأيام سوف تثبت أن ماينتظره سيكون أكثر إجهادا وضغطا وفي القاهرة رقي إلى درجة «بمباشي» وتولى مسئولية السجن السياسي في الجيزة والذي كان ينزل به أساسا الوطنيون المصريون والذين كون منهم ماكفرسون فريقا لكرة القدم، وبعد بضعة شهور عين قائما بأعمال «مأمور الضبط» وكان في هذا تحت سلطة رسل باشا، وهي الوظيفة التي دخل بها إلى عالم الجريمة والمؤامرات السياسية وما تتطلبه من جهد دائم وضغوط نفسية لم تهيئه لها حياته الوظيفية من قبل، وتظهر رسائله عن هذه الفترة تعجبه كيف استطاع أن يتعامل معها إلا أن الجانب الإيجابي بالنسبة له وشغفه بالغوص في المجتمع المصري، أنها

جعلته يرى عن كثب العادات والتقاليد المصرية فى أغرب صورها مثل حفلات الذكر، وحفلات الزار التى استخدم سلطته كى يسمح له بمشاهدتها وحيث نرى تفاصيلها ومشاهدها مسجلة بالتفصيل فى رسائله.

● تسجيل لثورة ١٩١٩

ومن أبرز الأحداث المصرية التى عاشها وسجلها ماكفرسون فى مصر ثورة ١٩١٩ وزعامة سعد زغلول ورفاقه، ورد فعل الحكومة البريطانية، ورغم ارتباطه و«حبه» لمصر وللمصريين، فقد كانت استجابة ماكفرسون لأمانى المصريين الوطنية نموذجا للأمبريالى الفيكتورى التقليدى. وبعد اعتزاله الخدمة نهائيا وقبل وفاته عام ١٩٤٦ كتب خطابا إلى صديق له فى انجلترا يفسر فيه هذا التناقض بين حبه للمصريين وبين موقفه من مطالبهم الوطنية: «إن أصدقائى المصريين كثيرا ما يسألوننى: كيف يتأتى أن تكون صديقا لنا، بل ومصريا تقريبا، ثم تتردد إزاء استكمالنا لاستقلالنا، وكنت أرد عليهم ذلك أنى أحبكم كثيرا وبشكل لايجعلنى أقدم لكم ما قد يضركم (!)». وتوضح خطاباته فى هذا الشأن أنه



الرجل الذي أحب مصر

كان يفسر موقفه هذا «بخوفه على الفلاحين المصريين»، ومن أن يعيد الإقطاعيون المصريين لنظام السخرة «بعد أن ارتفع بهم الحكم البريطانى إلى مكانهم تحت الشمس»، وهذا التصور الذى عبر عنه ماكفرسون كان يعكس الادعاء البريطانى والذى عبر عنه اللورد كرومر فى كتابه عن مصر واعتبر فيه أن أهم الإنجازات البريطانية فى مصر هو إلغاء نظام السخرة، والواقع أن بعض المؤرخين الغربيين يتقبلون هذا الادعاء، إلا أن البحث التاريخى الدقيق يظهر أن اختفاء نظام السخرة فى مصر كان نتيجة عملية عريضة من التحول والتطور السياسى والاجتماعى فى مصر.



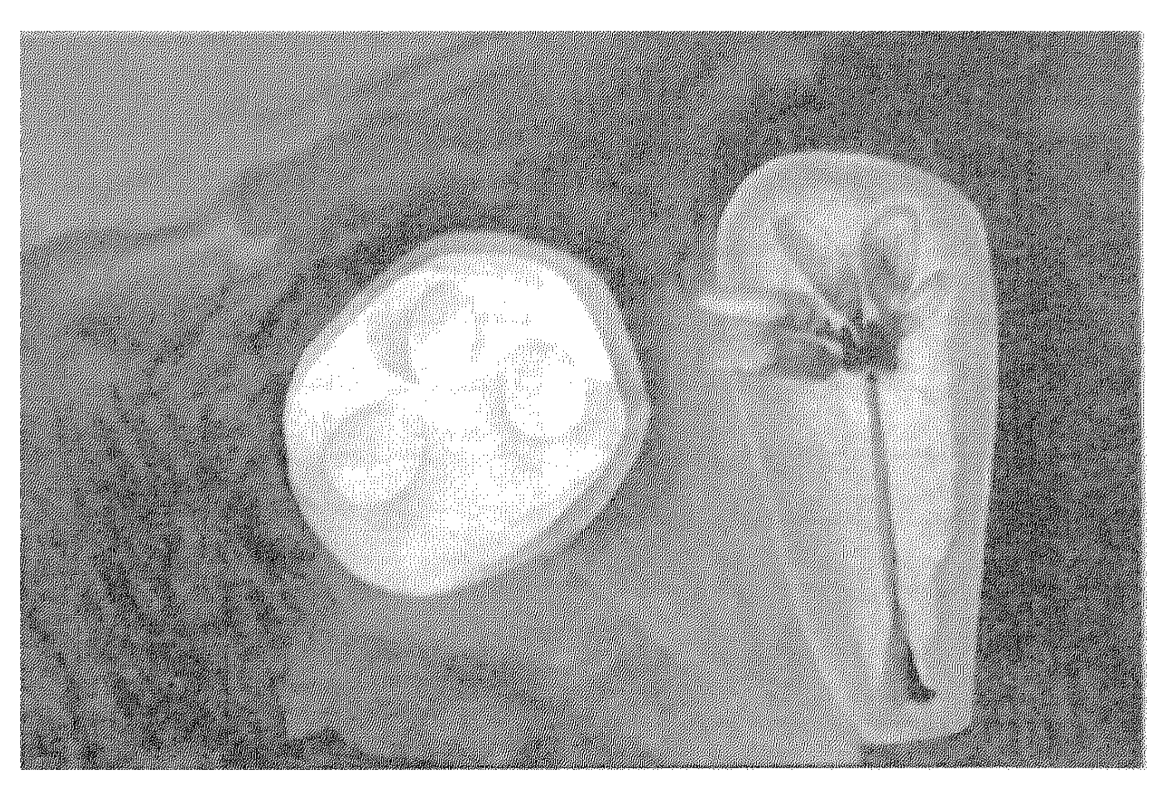
ثلاثية الفن والمرأة والإبداع

نجوى صالح

●● « إن الالتقاء بفنان .. أى فنان حقيقى ، ماهو إلا درب من المغامرة الحقيقية ، إذ تجد نفسك أمام جميع التناقضات اللامعقولة التى تحتضن إنساناً واحداً ..! » ●●

أنت تتعرف على هذا الفنان قبل أن تلقاه، من خلال أعماله التى مارس فيها انفعالاته وأفكاره.. وأسلوب تطبيقه الخاص المتفرد.. وقد ترفض أعماله برمتها.. أو ترفض بعضا منها.. وتتقبل الأخرى أو قد ترفض ثم تتقبل تلك الأعمال بعد هضمها وفهمها. إن العمل الفنى الحقيقى يتطلب من المتلقى أن تقوده رجلاه إليه، إنه مثل المغناطيس الذى من الصعب مقاومته فى داخلك، خاصة اذا كان الفنان قد خاطب شيئا ما فى نسيجك التاريخى، نسيج البشرية، إنها الموروثات اللا حسية التى نتوارثها، وتصدر نداءات خفية الى كل فنان، قد نطلق عليها الحنين، أو الشجن لأشياء معينة بعينها، لذلك حينما يسأل أحدنا الآخر، أنا لا أفهم ما تقدمه تلك اللوحة؟ إنه سؤال وجيه وبرىء فى آن واحد، والاجابة باختصار.. هل هى عالمك التاريخى أو خلافه الذى تنتمى اليه، وتخوض فيه فتهوى هذا العمل الى حد اقتنائه.. أم هى لغز ممجوج ومرفوض.

وبالتالى فإن الأعمال الفنية الجيدة هى التى تستدعى الفنان، وتحتاج الى معرفته والاقتراب منه، بعد أن أعطاك



من مجموعة مائيات نحتية لعدلى رزق الله

هذا الكم من المتعة الروحية، ومن التأمل فى عالم كان مجهولا قبل لحظة التلقى، وأصبح فجأة جزءا يتناجى، ويهدهد، ويرتقى بذبذباتك الروحية الخالصة.

إن هذا ما حدث بعد إلتقائى «بعدلى رزق الله» ذلك الفنان الذى قرر أن يعيش من فنه فقط.

ان هذا الفنان تعبير صادق لما يعتلج فى وجدان الفنان من متناقضات صارخة..أما عدلى فهو بالفعل الجلوس اليه مغامرة، لأن عدلي يكلم ويقسو علي عدلي، ويحب عدلي بعمق، ويجد فيه مركز الاشعاع الفني والكون كله، حتي انني طرحت عليه سؤالا سمعه بعد يومين ورد عليه!

«أنا الفنان لا الناقد ولا المؤرخ، أنا منحاز لمزاج فنى خاص، يجعلنى أعشق فنانين بعينهم، ويجعلنى أسقط فنانين آخرين مزاجى «رمبرانت»، و«ڤان جوخ»، و«سيزان»، و«سيلڤادور دالى»، لا يمثل شيئا بالنسبة لى. راغب عياد أحبه، يوسف كامل لا أحبه. محمود سعيد، الجزار، حامد عبدالله، رمسيس يونان، أحبهم أعشق بنات الحرانية

وأحب «كمال خليفة» وآدم حنين، وتحية حليم، وقد تكون هناك قامة مثل أحمد صبرى لاتعنينى فى شىء، رغم أننى لا أستطيع إلغاءه من التاريخ! فأنا أعشق بلا حدود ومنحاز، حاد الحب، عنيف الالغاء، وأعادى من يقول لغطا على زميل، أنا طيب وعفيف.

أنا لا شيطان، ولا ملاك.. ولكننى أؤمن بالعمل الدوب، وبشكل حقيقى أود أن أكون من عائلة «مختار» و«الجزار»، وكمال خليفة، أعطى نموذج الاحترام، فى وقت يهاجم فيه الكل الكل، وغير مؤمن بالأضواء والشهرة.

اللوحة أنثي

وعن فلسفته فى لوحاته الفنية يقول

جنس اللوحة أنثى وليس ذكرا، ثم إن لوحاتى هى حياتى وأهم ما أملك.. أنا أغنى واحد بفنى ولدى ادمان مجنون بلوحاتى، فاللوحات تدعونى للحب، فليست علاقتى بها أننى مجرد خالق لها، ولكنها مزاجى الفنى، فهو انحياز فنى حاد.. ان تلك اللوحة الصغيرة ممتلئة فنا ورزقاً؟ والمعارض التى أقيمها تتيح لى أن أرى لوحاتى فى مساحة واسعة.. فهى ليست للمتفرج بقدر ماهى تأمل شخصى لى، ونهاية حلمى أن يعطينى الله سنوات أكثر حتى أستطيع تشييد مبنى متسعا للتأمل، وقد يتساءل البعض عن سر الجنس فى لوحاتى فأقول إن الجنس عندى هو قدس الأقداس، الخطاء ون هم الذين ستنعكس أعماقهم فى رؤيتهم لذلك.

إن الأنثى حينما يراها الآخر قد تختلف، اذا ضاقت الرؤية، فلن يرى الرائى أو المستلم.. الا مناطق الأنوثة، ولن يرى النور، الكتلة، الهواء، الصلابة، السيولة، التدفق، الحنان، والترديد، واللون ودراسته.

والأنوثة هى صلب الخلق، والأنثى هى الحياة.. ولكن فى اطار فنى متكامل.

وعلاقتى بلوحاتى علاقة طبيعية مثل «التمثيل».. فأنا أرسم ما يتدفق به داخلى، وأنا أرفض أن يلقى الرائى

عدلى رزق الله

بمشاعر دونية يملكها هو على جمال الانوثة فى لوحتى التى تتعمق فى الامومة والبراءة.

وهل رأى أحدكم حتى مراهقا مستثاراً أمام عارية «لانجر» أو حتى «روبنز» أو «رنوار» لايحدث هذا ياسادة فى قاعات الفن.

ويضيف «عدلى رزق الله» اننى طيلة حياتى أقدس الأنوثة ودور الأم التى تعطى الحياة.. حتى أننى لم أتصور نفسى والدا لذكر ورزقت بابنتين جميلتين .. وحتى اللوحة أنثى.. وأضيف أن رد فعل الچينات الانثوية عندى هو لوحاته.

وحتى حينما نتطرق الى الحس الشعبى، نجد أن الشعب المصرى يعلم الجنس الراقى، فهو يجد الجنس فى الطبيعة، مثل الرمان طاب واستوى، آه ياليل ياقمر والمنجة طابت على الشجر.

سايس حصانك على القنا وتعالى.. تلقى الجنينة مخضرة وملانه.. أو طالعة من الحمام شبه الخوخة.. والبوسة فى الشفه ترد الدوخة.. استقيت هذا من



الشعب المصرى.. فهو وجدان شعبى أعطانى اياه الحس الشعبى المتغلغل فينا..

الفن بين الحداثة والاصالة

أما اذا تحدثنا عن قضية الاصالة والحداثة فى الفن فلا يوجد شكل يرعى الحداثة.. هنا فى مصر.. بل فى اتجاهات معينة اتجاه يرعى الحداثة وآخر الأصالة، كلاهما يقترف جريمة فصل الشكل عن المضمون ووضع محتوى جديد داخل الشكل المستعار..

بالرغم أنهما أصحاب منهج واحد، وفكر واحد رغم ما يبدو على الاتجاهين من تعارض وتضاد.

الوافد والموروث أنا أضعهما فى سلة واحدة.. اللوحة الحقيقية لابد ان تكون جديدة غير مسبوقة، تاريخ الفن كله يصبح تراثا.. لابد من معرفته والقبض عليه، لابد أن يتسق تاريخ الفن داخل من يحاول انتاج لوحة جديدة.

ان الفن الغربى بدأ كرسالة عالمية.. أما الآخر الغربى فقد تحول الفنان الى محلى أمريكى، يدهن الجبل «دوكو»!

ان الفنان «بوير» مثلا لا يحمل رسالة عالمية مهما حاول الآن البعض تقليد أعماله فى معارضنا، فقد طفح الكيل للنزوح الى الاغراب. ان الاغراب أو العبث الغربى ما هو الا «لوكس».. هناك تكدس المتاحف وهنا مازلنا نبنى المتحف الحديث.

وبالمقابل استخدام التراث والمفردات الشعبية مثل الكف والعين والايحاءات الشعبية ما هى الا نوع من الاجابة عن طقس طبيعى مثل المقارنة بين مبنى من الزجاج والمشربية.. إنها طريقة حياة.

لقد أمضى عدلى رزق الله عشر سنوات من حياته فى باريس، ولم يستفد شيئا جديدا من الدراسة الاكاديمية فى باريس أكثر مما استفاده فى مصر.. ولكن الذى أفاده فترة التأمل.. فقد يمضى يوما جالسا على مقهى يتفرس فى الوجوه حوله، ويوما آخر فى زيارة متحف أو مكتبة للاطلاع على كتب الفن.. أو الذهاب الى السينما اذ كان يقطن بجانب إحدى دور السينما.. وكان يذهب اليها لاتاحة مكان تتحرك فيه زوجته.. اذ أن المسكن مكون من حجرة واحدة ضيقة لا تسع اثنين.. إلا نياماً.

وباريس بالنسبة له مفتاح الاتساق الداخلى، لما نستطيع أن نطلق عليه تاريخ الفن الانسانى كله.. فالفن المصرى القديم.. والقبطى والاسلامى كان فى متناول اليد فى القاهرة، أما باريس فقد قدمت له ما يحتاجه لكى



مائيات عدلى رزق الله

يدرك ويعرف ماذا حدث بعد ما أعطينا البشرية الفن.

وأخذ يمارس الرسم وشجعه وجود حبه الوحيد الى جانبه، زوجته سهير...

قرار العودة

يقول عدلى رزق الله:

فى حياتى محطات فنية، فبعد أن أغدقت باريس على العطاء، قررت العودة الى القاهرة والاعتماد على فنى فقط.. وقد اتخذت القرار سنة ١٩٨٠، وعدت مع زوجتى وابنتى وقررت ألا أصبح أحد فنانى باريس.. ولكن أن اصبح فنانا أعيش وأموت فى بلدى، أعيش من فنى فقط.. بلا وظيفة،

وأصدرت عدة «فرمانات» لن أجلس على مقهى، وامتنعت عن التدخين، منعت على أصدقائى تقديم أى مشروب أو تناول الطعام خارج البيت، وفى تلك الفترة وفقت الى بيع خمس لوحات، وضعت ثمنها فى عدة مظاريف، وقلت لزوجتى «هذا هو دخلنا الشهرى» وخفضنا جميع مصروفاتنا الى الصفر!

مرت السنة الاولى بصعوبة شديدة، ثم أقل فى الثانية، وتوازنت فى الثالثة..

أما الرابعة فكانت الحياة قد أصبحت عادية.. وبدأت أواصل العمل بهمة ونشاط وأنتج بغزارة.. ولكن هل نجحت فى بيع لوحاتى بمصر؟ .

الوحدة والتفرغ

كيف أتفرغ لعشقى وفنى الذى أحبه دون اللجوء لبيع فنى؟ ان البيع شرط فى صلب مشروع الفن، منذ بداية احترافى الفن سألت نفسى أسئلة .. هل يشترى المصريون أعمالى؟ الاجابة: لا.. هل هناك من يعشق فني لدرجة الاقتناء وجاءت الاجابة: بنعم.. لكن ما هى نوعياتهم، ملامحهم؟ وكان فيهم: المهندس المعمارى الذى يحب الضوء وانكساره على خطوط العمارة.. أو الباحث فى جماليات الرياضة الحديثة.. وفلسفتها، ومن يحب الموسيقى وذلك المثقف الذى قرأ ورأى، وهكذا.. ووضعت تصورا ماديا لامكانياتهم، وقررت أن أضع ثمنا للوحتى، لا علاقة له بالسعر الذى قد وصلت اليه فى باريس، واخترت أقل الانواع قدرة شرائية وغنى فى التذوق.. الى درجة أننى قررت أحيانا تقسيط ثمن اللوحة على شهور طويلة.. وجعلتنى هذه التجربة الفريدة أتفرغ لفنى وأعيش تجربة التفرد والوحدة.

فضلا عن أننى أهتم بصداقاتى الحميمة.. وعلى الرغم من ذلك فاننى أعيش فى وحدة مطلقة، فالبعض يتصور أن الوحدة سقيمة، وأرى على العكس من ذلك.. فهى ضرورية ومهمة لمن يود أن ينتج فنا جميلا، ان الوحدة ومعايشة النفس شيء مهم جدا

عدلى رزق الله

وضرورى.. الوحدة حقيقة، لا يمكن إنكارها والا سقطنا فى بئر رومانسية ضحلة.. ومتعة خلق العمل الفنى نفسه تعد لحظة الالتقاء، الحب، الولادة، إنها ما تفرزه تلك الوحدة من عمل فنى جاد.. بعيدا عن اللغط والناس.

وأنا لا أملك إلا لوحاتى، لا أملك سلطة رسمية حتى أمنح وأمنع ولا أملك منصبا إعلاميا حتى أمنع مساحة عن أحد..

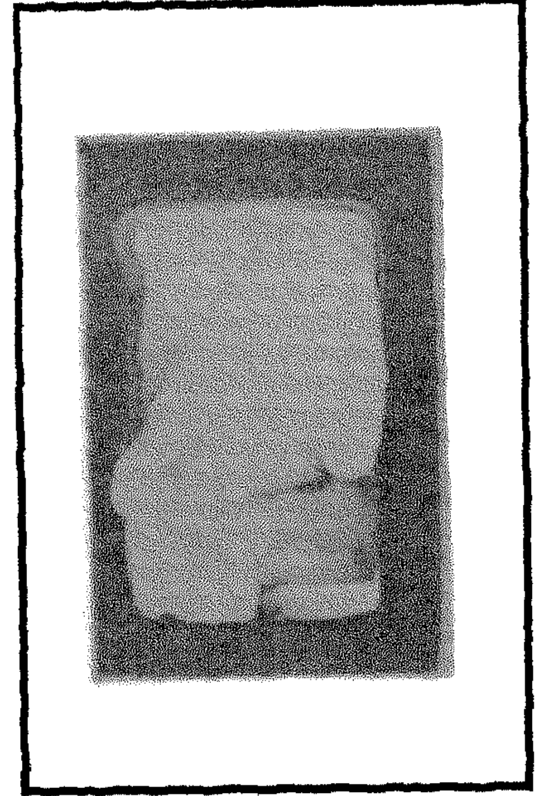
أنا لا أملك الا حضور عملى الفنى، والطبيعة تمنحنى أحيانا القبول .. ولكن القبول وحده لا يصنع الفنان، ولكن هبة الطبيعة عليه أن يحفظها من الزوال، بالعمل الدءوب اليومى والمستمر.. وهذه إحدى ثمار الوحدة .

وأنا لا أملك إلا لوحاتى، لا أملك سلطة رسمية حتى أصبح أمنح وأمنع ولا أملك منصبا إعلاميا حتى أمنع مساحة عن أحد..

أنا لا أملك الا حضور عملى الفنى.

والطبيعة تمنحنى أحيانا القبول ..

ولكن القبول وحده لا يصنع الفنان، ولكن لعبة الطبيعة عليه أن يحفظها من الزوال، بالعمل الدؤوب اليومى



مائيـات

والمستمر.. وهذه احدى ثمار الوحدة.

وودعت الفنان، وفي طريق العودة، وجدت ترنيمة نثرية قالها عدلي وترن في أذني وتقول قطعة منها، وهو يخاطب «المعرفة» الفنية.

هل أراك قبل أن يرتاح الجسد موتا؟

هل ستلامس أطرافي جسدك؟
هل ستضمينني يوما بين يديك.
هل ستعطيني الحياة / الموت؟
حينئذ ستكون الراحة الأبدية.



قصة قصيرة

عزف منفرد

بقلم : محمد البساطى

لـ سمعنا العربات بعد أن عبرنا الجسر وأشرفنا على البلدة . كانت أربعة لوريات تهدر وراءنا على الطريق الزراعى المجاور ، حين أصبحت على مرمى البصر رأيناها محملة بالجنود وخوذاتهم تلمع فى شمس الظهيرة ، تتقدمها عربة جيب مكشوفة وعلم الثورة المثبت بجانبها يخفق بشدة .

كنا على سكة جانبية عائدين من المقابر - كان محجوزا من أهل البلدة مات أمام دكانه - نحمل النعش الفارغ لنعيده إلى مكانه عند الجامع ، وكانت النسوة بملابسهن السوداء ينتظرن عودتنا على أول السكة بمدخل البلدة بعد أن منعهن الشيخ من مرافقتنا إلى المقابر، شيعننا أثناء الذهاب بالصراخ والعويل والآن يتجمعن فى ظل الأشجار دون صوت وقد هدهن التعب، وكن أيضا ينظرن إلى العربات القادمة .

يفصلنا النهر عن الطريق الزراعى ، نراهم خلال الأشجار الكثيفة على الضفة. كانوا قد سبقونا مقتربين من مدخل البلدة حيث موقف الأوتوبيس والمقهى ، ورأينا سيارة مصفحة تتبعهم على مهل، تسير وحدها دون ضجة، أشبه بلعب الأطفال التى يأتون بها من المدن، أدهشنا صغر حجمها ، وتخيلنا الجنود داخلها وكيف يقعدون ، يتوهج معدنها فى الشمس ويرسل

بريشة : سميحة حسنين

بريقـــــا، والمدفع على مقدمتها يدور نصف دورة من حين لآخر ثم يستقر مكانه، تجنح إلى جانب الطريق وتعود، تندفع إلى ما يقابلها من أشجار على الضفة تمرق بينها فى خفة، تبدو لاهية لا شأن لها بالعربات التى سبقتها .

توقفنا عند النسوة، همهن قليلا دون بكاء، وضعنا النعش مائلا إلى جذع شجرة ورحنا ننظر إلى الجنود وقد اخفتنا الأشجار . نزلوا من العربات التى توقفت على بعد من المقهى . عادة ما يكون الفدائيون داخلها فى مثل هذا الوقت . كانوا يتسللون من بلدتنا عن طريق البحيرة إلى معسكرات الإنجليز، فى عودتهم يخفون قواربهم المطاطية وأسلحتهم فى أماكن متفرقة وسط الغيطان ويخلعون ملابسهم ويلبسون مثلنا

قصة قصيرة

ويختفون . يظهرون بعد أيام، يظلون بعد أيام، يظلون معنا يومين أو ثلاثة ثم يعاودون التسلل إلى البحيرة . المرة الأولى التى رأيناهم بملابسهم المعتمة كدنا لانعرفهم، لم نصدق أنهم الذين يذهبون ويأتون بيننا . كانت ليلة ممطرة، كانوا مبللين يقطر منهم الماء، عائدين بجريح لا يحتمل الذهاب بعيدا، دخلوا به بيتا اختاروه وسط البلدة، وجئناهم بطبيب أوقف النزيف وأخرج الرصاصة. بعدها كانوا يتركون لنا جرحاهم ويعودون بعد أيام ليأخذوهم . تهامسنا فى وقفتنا :

- أهى راية الثورة ؟
- هى .
- ومن أدراك ؟
- رأيتها من شهور فى الجرائد .
- ثلاثة ألوان ؟
- آه ثلاثة .

نزل ضابط من السيارة الجيب وبيده ميكروفون . وقف على بعد خطوتين من العربات التى تمركز الجند على جوانبها وسددوا بنادقهم فى اتجاه المقهى، أطلت رءوس من داخله ثم اختفت، وريح خفيفة كانت تكنس الأوراق وعيدان القش المتناثرة فى المكان الخالى أمامه، والبعض من الأهالى يقفون بعيدا محتمين بجذوع الأشجار مثلنا وفوق أسطح البيوت .

رفع الضابط الميكروفون إلى فمه، وتردد صوته فى الفضاء حولنا :

- أعرف أنكم فى الداخل، لا أريد غير أسلحتكم .

تهامسنا : - «ومن وشى بهم» ؟

- وشى ؟ ألا تعرف الحكومة ؟

- وماذا فعلوا حتى يمسكوهم ؟

- لن يسمعوا كلامه ومعهم السلاح .

- سلاحهم فى الغيطان .

- معهم سلاح خفيف فى الداخل . يخفونه وراء النصبة .

- ومن أدراك ؟

- سترى .

اقتربت المصفحة ووقفت على مبعدة من العربات . زمجر محركها فى قوة ثم سكت . اندفع جنديان فى اتجاهين مختلفين على الطريق الزراعى ليوقفا السيارات القادمة من الناحيتين .

خرج كبير الفدائين . كنا ندعوه «أبو هاشم» يلبس جلبابا من الصوف الرمادى بكم واسع ، شمره كاشفا عن كم الفانلة الداخلية ، وقف أمام المقهى يقشر برتقالة بخنجرة . سمعنا النسوة تتهامس بجوارنا :

- وما أخرجه الآن؟

- لو بقى مكانه .

- لن يعرفوه فى الجلباب .

- والخنجر ؟

تمطى كلب هزيل كان راقدا جوار المقهى ، نفض نفسه وسار إلى حيث يقف أبو هاشم ، تطلع إليه وهز ذيله . رمى إليه أبو هاشم بقطعة من القشر، تشممها الكلب ومضى مبتعدا

تردد صوت الضابط محلقا فى الفضاء .

- «رة أخرى أقول سلموا سلاحكم وينتهى الأمر» .

تناول أبو هاشم فصا من البرتقالة ، مضغه فى بطء وبصق الذر جانبا . التفت وراءه وقال شيئا لم نسمعه . تهامسنا :

- ماذا يفعل ؟

- الله أعلم .

هو . هو لم يتغير . كما عرفناه فى الأيام القليلة التى أمضاها معنا من حين لآخر . لابد أنها إحدى حيله وكان شغوفا بها . يبدو لا مباليا ثم يفاجئنا بما لا نتوقعه . ما من سهرة حضرها فى المقهى إلا وجلعنا نموت من الضحك . أخرج يوما علبة سجائر ومدها إلينا. قال أنها سجائر انجليزية، ترددنا قليلا . حين رأيناه يضع واحدة فى فمه أخذ كل منا واحدة . أشعلها لنا ، وبعد نفسين توالت الفرقعات بيننا ، وقفزنا شمالا ويمينا .

بعد أن انتهى من البرتقالة أخرج منديلا مسح به فمه وخنجره ، واستدار إلى الضابط قائلا :

- لا نتلقى أوامر من أحد .

لم يلتفت الضابط إليه. ظل فى وقفته

الصارمة محدقا إلى باب المقهى المفتوح على سعته ثم رفع الميروفون إلى فمه:

– سأعد حتى عشرة.

إن لم تسلموا أسلحتكم . واحد . اثنان .. » .

كان يعد فى بطء ويده الخالية وراء ظهره . حين بلغ سبعة تقدم أبو هاشم خطوة صائحا :

– انتظر . سأتيك بها.

ودخل المقهى . توقف الضابط عن العد، وتراخت يده بالميكروفون كانت الشمس ساخنة ، والأهالى يتزاحمون هنا وهناك على السكك .

ومر ما يكفى من الوقت . بدأ الضابط كأنما تنبه فجأة إلى شئ ما . تلفت حوله ثم رفع الميروفون :

– الأهالى داخل المقهى يخرجون ..

ساد صمت ثقيل . لم يخرج أحد . تهامسنا :

– الباب الخلفى .

قصة قصيرة

– آه .. ومفتوح على أحواض القصب .

نظر الضابط إلى الجند وأعطى إشارة برأسه . انتشروا فى قوس متقدمين من المقهى، وهدر صوت محرك المصفحة وتقدمت فى بطء.

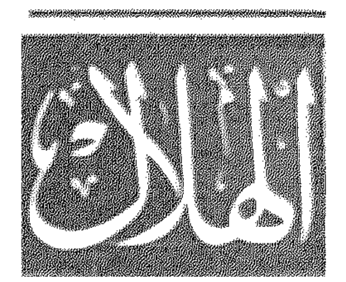
اقتحموا المقهى يسبقهم صياحهم ، ثم ارتدوا مسرعين ، داروا حولها . كانت أحواض القصب الثلاثة متجاورة . لم نر الجنود وهم يجرون بامتدادها ، غير أننا سمعنا صياحهم ، ودوت طلقات الرصاص . صرخت النسوة بجوارنا وأخفين رءوسهن بين ركبهن . تقدم الضابط خطوتين وتوقف . كان يستطيع من مكانه أن يرى مالا نراه . خيم الصمت فجأة ، وسمعنا همهمات تأتى من بعد . وضع الضابط الميكروفون داخل السيارة الجيب ووقف بجوارها .

رأيناهم قادمين ، وعندما اقتربوا لمحنا أبوهاشم يترنح بينهم ، كان وجهه داميا، ويداه مقيدتين وراءه بأوراق القصب ، دفعوا به إلى صندوق اللورى .

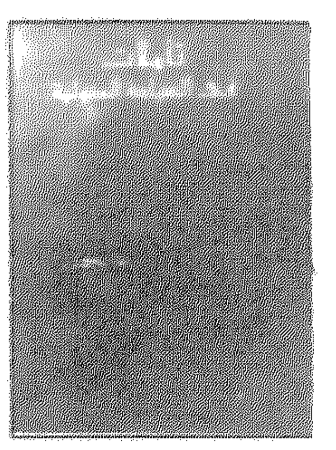
صعد الضابط إلى السيارة ورفع ذراعه ، تشكل طابور العربات وراءه . ساروا فى الطريق الجانبى حيث أحواض القصب ، أرادوا على ما يبدو تعقب الهاربين . كان الطريق متربا غير ممهد ، ارتفعت وراءهم سحابة كثيفة من الغبار . انتظرت المصفحة حتى ابتعدوا قليلا ثم تبعتهم .

حملنا النعش الفارغ فيما بيننا ، وصعدنا الطريق إلى البلدة تتبعنا النسوة وقد عدن إلى عويلهن ■

مكتبة



تأملات فى السياسة الدولية
بقلم: جميل مطر
دار المستقبل العربى



يقدم جميل مطر.. أحد أبرز الخبراء فى القضايا العربية والدولية، كتابه «تأملات فى السياسة الدولية»، يقول: قامت الحرب الباردة فى أعوامها الأخيرة فسترت سوءات القطبين، وبالوفاق انهار القطب الأشد ضعفا، وبانهيار القطب الأشد ضعفا انكشف ضعف القطب الآخر، وبهذا عمت الفوضى واستحكمت الأزمة الاقتصادية العالمية، وتعقدت فرص قيام نظام دولى جديد..»

ويقول.... «..... نعيش عصر القيم المتناقضة، متعهدو حقوق الإنسان تخصصوا فى علاقة الإنسان بحكومته، وتجاهلوا علاقة الإنسان بالعالم، وأهملوا حقوق الدول والشعوب فى مجتمع تتسلط فيه وتسود دولة فرضت نفسها على قيادته...»، «... مازال الشرق الأوسط يمارس هوايته المفضلة، ولم يتوقف عن غواية الدول العظمى وتحريضها على التدخل فى شئونه، وللشرق الأوسط جاذبية لاينكرها المؤرخون، فهو إقليم مبدع ومتقلب حضاريا، متنوع ومتناقض طائفيا وعرقيا، متميز أو متفرد جغرافيا واقتصاديا، ودائما متصارع سياسيا، كل ذلك يجعله جذابا للغير وجاذبا لتدخله»...

هذه بعض أفكار هذا الكتاب العام، وأحرص دائما على أن لايفوتنى مايكتبه جميل مطر، فقلمه تميز بالاستقلال والنفاذ، وشجاعة الخوض فى آفاق جديدة، وهو من القلة النادرة التى تتمتع بخبرة واسعة فى القضايا العربية، ولديه القدرة على تقديم أفكار طازجة وتحليلات سياسية تقوم على قدمين المعرفة النظرية ومعايشة الواقع..

إنه من الكتاب النادرين الذى مازال يملك عقله، وليس مثل الكثيرين الذين لايستطيعون الفكاك من الأفكار الثابتة والمكررة أو الجمل المنحوتة، وغير أولئك الكتاب أسرى العمل الأكاديمى يغرقون

القارىء فى مصطلحات، ويحرصون على ترتيب الكلام، ولا يعنيهم بنفس القدر المنطق فى القضية التى يعالجونها.

اسم الكتاب: عريس لبنت السلطان
المؤلف: محفوظ عبدالرحمن

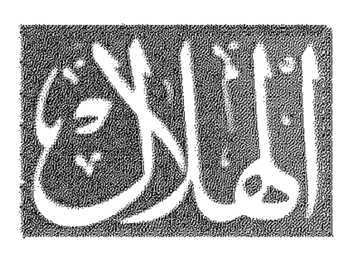


كعادته يروح الكاتب المسرحى محفوظ عبدالرحمن إلى التاريخ لانتقاء درره، وأحداثه الساخنة لصياغتها برؤيته الخاصة، ولمزج الواقع المعاش فى هذا التاريخ، بمفهوم الكاتب ونظرته للحياة، وفى مسرحيته «عريس لبنت السلطان» يختار الكاتب عصر التتار، الذين تحاصر جنودهم مدينة عربية، لكن هؤلاء التتار غير موجودين تقريبا إلا على لسان «المنادى» الذى يبلغ الناس بوجودهم. ثم يعلن فى لحظة أن الخطر قد زال.. وأن العدو الذى حاصر المدينة قد ترك أماكنه بلا تمهيد.

وهكذا فإن الكاتب جرد مسرحيته من أماكن حقيقية يعرفها التاريخ كما حول هذه المدينة إلى رمز يحدث فيها ماتشهده المدن، إبان المحن، وأيضا إبان الازدهار، ففى ساعة المحن يزين المنادى كلامه على النحو التالى: «يا أهل المدينة.. إليكم البيان الأخير.. أمر السلطان إلى الوزير إلى مدير عام الدعاية، إلى العبد الفقير، بشرى للجمع الغفير، رجالنا البواسل انقضوا على التتار، صالوا وجالوا، وأتوا بأسير فسبحانه القهار المجير، لقد لمحته نعم لمحت الأسير، فى الحقيقة ليس هو بأسير، مديرية الدعاية التى أعمل بها تزوق الأشياء أحيانا، أنه رسول التتار إلى مولانا السلطان، ولكن لأن مدينتنا لم تأسر عدوا واحدا منذ سبعين عاما، فقد اعتبرناه أسيرا».

وعندما تزول الأزمة، فإن المنادى يتكلم بطريقة مختلفة تماما: «نظرا لأن الناس تعبوا تعبا شنيعا، فقد تقرر إقامة الأفراح سريعا، أليس هذا نقيض البيان السابق؟ أنا اليوم مصاب بحالة غباء، واليوم تحتفل البلاد بذكرى الزواج الثالث للسلطان رمضان بن حماد. الجد السابع عشر للسلطان شعبان فارس الفرسان. إنها مناسبة سعيدة حقا، ولكن ماالذى ذكرهم بها؟ لقد مر عليها حوالى خمسة قرون... ولم يحتفل بها أحد من قبل... وبهذه المناسبة السعيدة يهدى الوزير إلى الجميع الهدايا العديدة.

مكتبة



نوادر المخطوطات بمكتبة بلدية الاسكندرية
إعداد: د. يوسف زيدان
الناشر: الهيئة العامة لمكتبة الاسكندرية



فى اكتشاف الوثائق القديمة محاولة لإعادة الحياة إلى العصور التى تمثلها، وتشهد مصر الآن حالة مكثفة لإعادة كتشاف وترميم مايتعرض للخطر من المخطوطات التى هى عيون التاريخ.

ومن هذا المفهوم أصدرت مكتبة المجلس البلدى المعروفة باسم مكتبة بلدية الاسكندرية هذا الكتاب الأنيق الذى يضم ٥٩ نموذجا لمخطوطات نادرة من تاريخنا، وذلك بهدف العناية بمخطوطات بلدية الاسكندرية تلك المجموعة القديمة العهد، النادرة، البديعة الغريبة، وقد تم الرجوع إلى هذه النماذج، وتقديمها مصورة، ويوجد أسفل كل منها تعليق موجز يتضمن التعريف بالمخطوطة ومؤلفها، وموضوعها، ونوع الخط الذى كتبت به هذه النسخة، وتاريخ نسخها، وعدد الأوراق، ورقم حفظها بسجلات المكتبة، محاولة إكساب كل منها قيمة حيوية، كأنها الكائن الحى الذى يتم تسجيل حياته فى بطاقة خاصة به.

وقد تم تأريخ هذه المخطوطات حسب التقويم الهجرى، مع وضع مايقابله بالتاريخ الميلادى من بين هذه المخطوطات : نسخة خطية بديعة من كتاب «سلوان المطاع فى عدوان الطباع» لابن ظفر الذى توفى عام ٥٦٨ هجرية، وهو نص أدبى فريد يقدم فيه المؤلف خلاصة حكمته وشيئا من نوادر السلاطين وأخبارهم، وذلك على لسان الطيور والحيوانات على غرار كتاب «كليلة ودمنة».

وإلى جوار نسخة نادرة من القرآن الكريم، نسخت عام ١٢٢٢ هجرية فإن هناك نسخة من الكتاب المقدس تضم نصوص العهد الجديد، الورقة الأولى منها مذهبة بالكامل، وقد كتبت المخطوطة بقلم النسخ، والنسخة مؤرخة حديثا بتاريخ ١٣٥٣ قبطيا أى مايعادل ١٠٤٧ هجرية.

وهناك أيضا المجلد الثانى من مخطوطة «الكشاف عن حقائق التنزيل» للزمخشرى أبو القاسم جارالله محمود ابن عمر الخوارزمى، المتوفى ٥٣٨ هجرية والنسخة نفيسة نقلها ناسخها المجهول من نسخة المؤلف فى القرن الثامن الهجرى تقديرا .

كما يضم الكتاب أيضا نسخة بديعة من قصيدة «الكواكب الدرية في مدح خير البرية» للبوصيرى، شرف الدين أبو عبدالله محمد بن سعيد الدلاص، المتوفى عام ٦٩٤ هجرية، وتعرف هذه القصيدة باسم «البردة» ولا تدانيها فى الشهرة من قصائد المديح النبوى غير قصيدة كعب ابن زهير: بانت سعاد..

ألف وجه للقمر

شعر: فاروق جويدة

الناشر: دار غريب



«ألف وجه للقمر» ديوان جديد للشاعر فاروق جويدة، يمتعنا فيه بقصائده التى يكتبها باحساسه المرهف الملئ بالألم أحيانا لكل ما يحيط بالإنسان العربى، والذى ترى فى بعض أبيات قصائده مسحة من الحزن للتردى الذى يحياه إنساننا المعاصر وقليلا ما نرى التفاؤل الذى تميز به الشاعر العربى القديم، لكن جويدة يغوص بنا فى الواقع المر الذى نحياه، ونلمح ذلك جليا فى قصيدته «أغنيه للوطن» حيث يقول فى بدايتها:

ماذا تبقى من ضياء الصبح
فى عين الوطن
والشمس تجمع ضوءها المكسور
والصبح الطريد
رفات قديس يفتش عن كفن .

وحتى وهو يتحدث عن محبوبته ، فى قصيدة «مازلت أسبح فى عيونك» تلمح للوهلة الأولى هذا الألم الدفين الذى يغلف روحه، ويملأ جوانحه فنراه ينشد قائلا :

العمر فى عينى سرداب طويل
يمتد من فجر البراءة
والصباح البكر ..
والوجه الجميل
يجتاز أزمنة التنطع
وانكسار الروح والامل العليل
عيناك فى السرداب صبح جامح
مازال فى ألم يكابر
سطوة الليل الطويل
مازلت أسبح فى عيونك
رغم أن الموج إعصار
وصوت الريح وحش كاسر
وشراعنا المكسور
يبحث عن دليل

الحس القومى العربى عند فاروق جويدة عال، بل إنه أحيانا يصرخ معلنا رأيه، معبرا بالشعر، هذا الفن الجميل الذى يصل إلى المتلقى دفقة شعورية، تحرك كوامن نفسه.. وفاروق يعد واحدا من أبرز الشعراء المعاصرين فى هذا المجال بل إنه من أبرز الشعراء المصريين الآن ، الذى يبحثون عن كل ما هو مصرى وعربى يتناوله بجرأة الشاعر العربى القديم وتلمح ذلك فى مسرحيتى «دماء على أستار الكعبة» و «الخديو» ولو تمثلنا قصيدته التى

وردها فى ديوانه الجديد «ألف وجه للقمر» وهى بعنوان «رسالة إلى صلاح الدين» لرأيناه يكتب واقعنا العربى الإسلامى بكل جرأة الشاعر المتمكن من لغته وحسه العروبى الاسلامى.

يقول جويده:

سوف أحمى وجه ابنى
بعدما صلبوا صلاح الدين
ياوطنى على الجدران
فى أى صدر
سوف يسكن قلب ابنى
بعدما عزلوا صلاح الدين
من عين الصغار ..
توجوا ديان .
ياللمهانة عندما تغدو سيوف المجد
أوسمة بلا فرسان
ياللمهانة عندما يغدو صلاح الدين
خلف القدس مطرودا
بلا أهل .. بلاسكن
بلا وطن .. بلا سلطان
فى كل شئ أنت يا وطنى مهان
من علم الأسد الأبى
بأن ينكس رأسه
يهادن الجرذان!

ضم الديوان اثنتى عشرة قصيدة، تضاف إلى رصيد الشاعر الذى يواصل رحلته الشعرية ، وليثبت دائما أن الشعر فى مصر سوف يواصل مسيرته الإبداعية ، وليحقق لنا فاروق جويدة ما نتمناه من كل شعراء عصره، بأن يثبتوا أن الشعر فى مصر باق أبدا ولن يموت كما ادعى ذات يوم أحد الشعراء العرب الكبار!.

تراث العبيد

المؤلف : مجهول



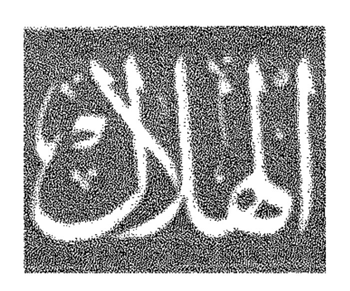
هذا كتاب قرأته حتى آخره ، رغم ما يتضمنه من سخف وركاكة ، يشغلني الهدف من وراء نشره ، فمؤلفه مجهول، رمز لاسمه بحرفى ع.ع. ولا أدرى كيف لا يملك صاحب رأى شجاعة الاعلان عن رأيه ، فهل تراث العبيد منعه من ذكر اسمه الحقيقى .!

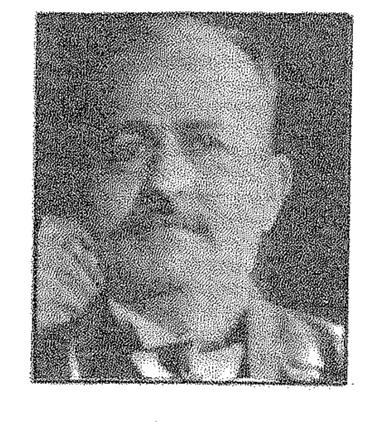
الفكرة التى يتناولها الكتاب ، إن المشكلات التى يعانى منها المجتمع المصرى ، تعود الى خلل خلقى أو هيكلى ، ناتج من تراثه الثقافى ، وهو تراث العبيد ، فقد حكم العبيد مصر ما يزيد على ١٢٠٠ سنة ، وإذا كان حكم العبيد قد انتهى فإن تراثه وقيمه توارثها عنهم الابناء ، جيل بعد جيل !.

ويعتبر ان ما هو اجتماعى ، يورث كالصفات الطبيعية ، وان نفسية العبيد تجرى فى عروق المصريين !

وكثيراً ما يقارن بين النظام المملوكى فى العصور الوسطى وبين النظام الحديث فى الغرب، والأولى به المقارنة بين النظام المملوكى فى مصر والنظام الإقطاعى فى أوروبا .

مكتبة





جرجي زيدان

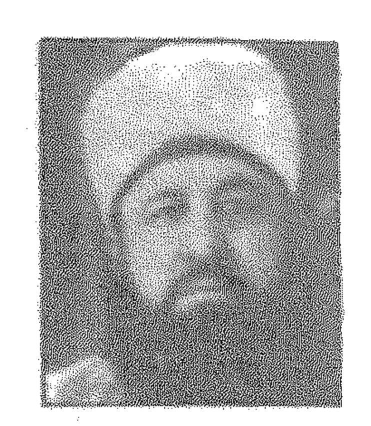


الهلال

دور مجلة (المنـــــار)

أيا كان موقف المثقف من مجلة المنار التى كان يصدرها محمد رشيد رضا، سواء كان هذا الموقف معبرا عن مناصرة أو مخالفة ، فان أحدا لا يستطيع أن ينكر تأثيرها واسع المدى علي عدد غير قليل من مثقفى الوطن العربى طوال فترة تزيد عن ربع قرن .

كان قد سبقها الى الوجود أشهر مجلتين ثقافيتين ، الأولى ، مجلة المقتطف التى ظهرت عام ١٨٧٦ لمنشئيها يعقوب صروف، وفارس نمر، والثانية مجلة الهلال ، التى ظهرت عام ١٨٩٢ ، على يد جرجى زيدان. ويلاحظ القارىء أن المجلات الثلاث: المقتطف والهلال والمنار أنشأها غير مصريين ، قدموا من بلاد الشام ، كما كان يطلق على سوريا ولبنان ، استثمارا للحيوية الثقافية فى مصر فى ذلك الحين على الرغم من وقوعها فى براثن الاحتلال البريطانى ، بينما كان عرب المشرق يئنون تحت مظالم الحكم العثمانى ، وكان من مصلحة سلطات الاحتلال البريطانى أن تحتضن مصر مثقفى الشام فى تلك الفترة .


محمد رشيد رضا


يعقوب صروف

فى النهضة العربية الحديثة

بقلم: د. سعيد اسماعيل على

وإذا كان كل من مجلة المقتطف والهلال، وخاصة الأولى ، تحتضنان اتجاه (التحديث) وخاصة فى ثمرات العلوم الطبيعية والرياضية ، فان مجلة المنار كانت عنايتها الكبرى تتركز فى (تحديث الفكر الدينى) متابعة لدعوة كل من جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده .

وكانت المنار مجلة (فردية) أى يحمل مسئوليتها فرد واحد هو الشيخ محمد رشيد رضا، ولم تصدر عن مؤسسة ، حيث كانت ظروف الطباعة وتكاليفها على درجة من البساطة بحيث تسهل ذلك ، هذا فضلا عن الطابع الفردى الذى وسم كثيرا من الأعمال و المشروعات فى هذه الفترة .

وإذا كنا قد اعتدنا أن نسمع أو نقرأ لكثير من أصحاب الأعمال و المشروعات الثقافية ما يشير إلى أنهم فعلوا ما فعلوه ابتغاء (وجه الله) ، دون أن يعكس هذا القول حقيقة الحال ، فإن القارىء لتقديم رشيد رضا للطبعة الثانية للمجلد الأول للمنار يستطيع أن يستشهد بالمسيرة الطويلة للرجل و للمجلة ، على أن درجة

الصدق مرتفعة إلى حد كبير ، ويقول صاحبنا:

(إننى لم أنشيء المنار ابتــغـاء ثروة أتأثلهـا، ولا رتبة من أمـيـر أو سلطان أتجمل بهـا ، ولا جـاه عند العـامـة أو الخـاصـة أباهى به الأقـران ، وأبارى به أعلياء الشان ، بل لانه فرض من الفروض يرجى النفع من اقامته ، وتأثم الأمة كلها بتركه ، فلم أكن أبالى بشئ الا قول الحق والدعـوة إلى الخـيـر ، والامـر بالمعـروف والنهى عن المنكر، فكنت أن أصـبت هذا بحسب علمى واجتـهـادى فسيان رضى الناس أم سخطوا، مدحوا أو ذموا ، قبلوا المنار أم رفضوا).

كان صدور العدد الأول ، يوم الثلاثاء ٢٢ شـــوال سنة ١٣١٥هـــ الموافق ١٥ مـارس ١٨٩٨م موسـومـة بأنهـا (جـريدة علمية أدبيـة سيـاسيـة) . وكان صـدورها أسبوعيا ، ذات صفحات ثمان كبيرة

وقـــد طبع من الأعـــداد الأولى ألف وخمسمائة نسخـة ، أرسل المحرر أكثرها إلى من عرف أسماءهـم فى مصر وسوريا ، وكذا فى غيرهما من البلاد (وهو الأقل) ، فأعيد اليه أكثر ما أرسله إلى المصريين ، وما لبثت الحكومة العثمانية أن منعت ما يرسل إلى السوريين وسـائر العـثمـانيين . ومن هنا فـقد أنقص رشيد المطبوع إلى ألف نسـخـة ، ولكن مرت السنة وسنتان ، وما كاد المشتركون يزيدون على ثلث الألف إلا قليلا .

لكن هذا الاسـتـقـبـال الفـاتر لم يثن رشيد عن الاستمرار فى مشروعه ، يقول (ما كان انتقاص عملى منتقصا أملى ، ولا زهد الأمـة فى المنار ، باعـثـا على جـعله طعاما للنار ، ولا لفائف لبضائع التجار ، كمـا هى سنة أصـحاب الصـحف فى هذه الديار ، بل كنت أحرص عليه ، حاسبا أن الناس سيعودون إليه) .

كـان مـا يشـجع رشـيـد على هذا الاستمرار ، ما كان يسمعه من بعض أهل الرأى والعلم بحركة الاجتماع البشرى والثـقـافـة، من أن هذا «المنار» إنما يسـد حـاجـة من حـاجـات المسلمين فى هذا العصر ، لا يستغنى عنه بيت من البيوت ، فان لم يفقهوا هذا اليوم، فسيفقهونه فى يوم من الأيام . واستشهد رشيد فى هذا برجلين من غـيـر المسلمين ، أحـدهمـا إنجليزى ، كان يقرأ له المنار ، رب السيف والقلم المعروف : محمود سامى البارودى، والآخـــر ســـورى من قـــرائه . قـــالا ان المسلمين سيبحثون عن هذا المنار ويعنون بإعادة طبعه بعد خمسين سنة . ولم يدر رشيد أكانا يظنان حين قالا كلمتهما ان المسلمين لا يستيقظون لطلب هذا الإصلاح

إلا بعد خمسين سنة، أم كانا يعنيان أن المنار لابد أن يكون قد بطل في هذه المدة بموت صاحبه أو عجزه ، فيبحث الناس عنه لأنهم في الغالب لا يعرفون قيمة الشيء إلا بفقده، ولا يعترفون بقدر العائل إلا من بعده .

لكن رشيد يعبر عن غبطته لأن الأجل الذى حدده صاحبانا المشار اليهما قد أصبح أقرب مما حدده رأيهما ، اذ أعاد رشيد طبع مجموعة السنة الأولى بعد عشر سنوات ، وأوشك أن يعيد طبع الثانية والثالثة أيضا حيث قلت نسخهما وغلا ثمنهما .

واذا كان المنار فى السنة الاولى ذا ثمانى صفحات كبيرة ، فانه عند اعادة طبعه أصبح بشكل المجلة ، حيث كان قد أصبح كذلك منذ السنة الثانية .

● تنبيه الأذهان

ويعترف رشيد بأن المنار فى سنته الأولى يكثر من (الخطابيات) ، الا أنه يبرر ذلك بأنه كان أمرا مقصودا (لتنبيه الأذهان وإعدادها لما هو آت). وكذلك عمد إلى الاكتفاء فى أكثر المسائل (بالاجمال) وما كان ذلك إلا (لتتهيأ النفوس لطلب التفصيل) .

ولم يكتف رشيد بهذا التبرير لنهج المنار الأولى، بل ساق أمثلة من القرآن الكريم فى انتهاج أسلوب الإجمال قبل التفصيل و«قرع الأذهان بالخطابات الصادعة»، فأكثر السور المكية، لاسيما المنزلة فى أوائل البعثة «قوارع تصخ الجنان، وتصدع الوجدان، وتفزع القلوب إلى استشعار الخوف، وتدع العقول إلى إطالة الفكر». لقد انذرت السور المكية أولئك المخاطبين، إذا أصروا على شركهم، ولم يرجعوا بدعوة الاسلام عن ضلالهم وافكهم، ويأخذوا بتلك الأصوات المجملة، التى هى الحنيفية السمحة السهلة، وليست بالشىء الذى ينكره العقل أو يستثقله الطبع، وإنما ذلك لتقليد الآباء والأجداد، يصرف الناس عن سبيل الهدى والرشاد.

ويدعو رشيد القارىء الى مراجعة تلك السور العزيزة ، لاسيما قصار المفصل منها كالحاقة ما الحاقة ، والقارعة ما القارعة ، واذا وقعت الواقعة ، واذا الشمس كورت، واذا السماء انفطرت ، واذا السماء انشقت ، وإذا زلزلت الأرض زلزالها، والذاريات ذروا، والمرسلات غرقا، تلك السور التى كانت بنذرها، وفهم القوم لبلاغتها وعبرها تفزعهم من سماع القرآن، حتى يفروا من الداعى صلى الله عليه وسلم من مكان إلى مكان «كأنهم حمر مستنفرة، فرت من قسورة»، ثم إذا

ما راجع القارئ السور المكية الطوال، فلن يجدها تخرج فى الأوامر والنواهى عن حد الإجمال، كقوله عز وجل «وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا...» وقوله بعد إباحة الزينة وانكار تحريمها وتحريم الطيبات من الرزق «قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون».

ان تأمل هذا يجعل القارئ يفهم هذا النهج الذى سارت عليه المنار فى أعدادها الأولى، وخاصة بالنسبة إلى المقالات الافتتاحية التى كان رشيد نفسه يكتبها. إن القارئ لها سيجد أنها زواجر منبهة، وبينات فى الإصلاح مجملة، ترشد المسلمين إلى النظر فى سوء حالهم، وتنذرهم الخطر المهدد فى استقبالهم، وتذكرهم بما فقدوا من سيادة الدنيا وهداية الدين، وما أضاعوا من مجد آبائهم الأولين، وتزعجهم إلى استرداد ما فقدوا، وإيجاد ما لم يجدوا، بطريق الإجمال، فى أكثر الأقوال، وما جاء فى سائر السنين، فهو من قبيل التفصيل، أو إقامة البرهان والدليل، على تلك الدعوة الإجمالية، والمقالات الافتتاحية.

● أسلوب خطابى بحق

وها هو العدد الأول، ومن سطوره الأولى، تطالع أعيننا هذا النهج الخطابى الصارخ، فبعد أن حمد الله وتوكل عليه وأناب إليه، يعلن رشيد رضا أن هذا: «صوت صارخ بلسان عربى مبين، ونداء بالحق يقرع مع جمع الناطق بالضاد مسامع جميع الشرقيين، ينادى من مكان قريب يسمعه الشرقى والغربى، ويطير به البخار فيتناوله التركى والفارسى. يقول: «أيها الشرقى المستغرق فى منامه، المبتهج بلذائذ أحلامه، حسبك حسبك، فقد تجاوزت بنومك حد الراحة، وكاد يكون إغماء أو موتا زؤاما، تنبه من رقادك، وامسح النوم عن عينيك، وانظر إلى هذا العالم الجديد، فقد بدلت الأرض، غير الأرض ودخل الإنسان فى طور آخر خضع به العالم الكبير».

ثم يجمل رشيد الأهداف التى من أجلها أصدر المنار، محددا مهمتها الثقافية فى حركة النهضة التى عادت إلى الاستيقاظ بعد صدمة الاحتلال البريطانى، والقارئ لهذه الأهداف يلحظ الحيطة والحذر، وخاصة الجانب السياسى، فالمجلة غرضها الأول الحث على تربية البنات والبنين، وليس «الحط على الأمراء والسلاطين»، وهى تسعى إلى الترغيب فى تحصيل العلوم والفنون، وليس «الاعتراض على القضاة والقوانين» وهو يؤكد أن منهج

الاصلاح لديه، متابعا في ذلك نهج استاذه محمد عبده، يعتمد على الاصلاح الثقافي والتربوي بالدرجة الأولى، ولذلك فالمجلة تسعى إلى «إصلاح كتب العلم وطريقة التعليم». وهي في هذا لا تنوي الوقوف موقفا عدائيا من الحضارة الغربية بجملتها، فهي تستهدف «التنشيط على مجاراة الأمم المتمدنة في الأعمال النافعة».

وهي تؤمن بأن «المسألة الاقتصادية» ركن أساسي في عملية النهوض الحضاري، ولذلك فهي تهدف إلى «طرق أبواب الكسب والاقتصاد».

ولأن عملية البناء تحتاج في البداية إلى عملية فحص نقدي وتطهير ثقافي لتراكمات عهود التخلف والضعف، كان لابد من «شرح الدخائل التي مازجت عقائد الأمة، والأخلاق الرديئة التي أفسدت الكثير من عوائدها والتعاليم الخادعة التي لبست الغي بالرشاد، والتأويلات الباطلة التي شبهت الحق بالباطل».

ولعل هذه القضية الأخيرة بالذات كان التأكيد عليها أكثر نظرا لما أدت إليه من مفاسد لا حصر لها «حتى صار الجبر توحيدا، وإنكار الأسباب إيمانا، وترك الأعمال المفيدة توكلا، ومعرفة الحقائق كفرا وإلحادا ،وإيذاء المخالف في المذهب دينا، والجهل بالفنون والتسليم بالخرافات صلاحا، واختبال العقل وسفاهة الرأي ولاية وعرفانا، والذلة والمهانة تواضعا، والخنوع للذل والاستبسال للضيم رضا وتسليما، والتقليد الأعمى لكل متقدم علما وإيقانا».

وإذا كان رشيد قد أشار إلى المسألة الاقتصادية إجمالا في البداية، فإنه يعود مرة أخرى ليؤكد على أهمية هذا الجانب بصفة خاصة ، إيمانا منه بأن الشركات المالية هي «مصدر العمران، وينبوع العرفان وأن عليها مدار تقدم أوربا في الفنون والصنائع، لا على الملوك والأمراء»، وذلك لأنها تملك القدرة على إنشاء المدارس والمكاتب والمعاهد، وتملك إمكانية تشييد المعامل والمصانع، وتسيير المراكب والبواخر، والأمثلة على هذا تحيط بنا في كل زمان وفي كل مكان.

وإظهارا لنهج «الاعتدال» أكد رشيد أن المجلة وهي تشخص العلل والأوجاع الاجتماعية، لن تقف عند حد العويل والبكاء، وإنما تسعى إلى وصف الدواء واقتراح الحلول، وفي الاعتبار «تأليف القلوب المتنافرة، ووصل العلائق المتقطعة، وجمع الكلمة المتفرقة ما استطاعت».

وإذا كانت الملل متباينة، والمذاهب متفرقة، فإن المنار تحاول «إقناع أرباب

النحل المتباينة، والمذاهب المختلفة، أن الله تعالى شرع الدين للتحاب والتواد، والبر والاحسان، وأن المعارضة والمناهضة، والمواثبة، تفضى إلى خراب الأوطان وتقضى على هدى الأديان»

● غزل للسلطة السياسية

وبطبيعة الحال، فإن ذلك لم يمنع رشيد من التصريح بأن هدف المجلة سيجعل محور جهودها متجها إلى التمسك بالدين والدعوة إليه على أساس أنه «أساس السعادة وأن الكفر فساد العمران». ويتطلب ذلك درء الشبهة الواردة على الشريعة الإسلامية ودحض مزاعم من قالوا: إنها حجاب كثيف وسد حائل بين الآخذين بها وبين المدنية الصحيحة «لجهلهم بما انطوت عليه من الحكم الرائعة والأحكام العادلة».

ويلفت النظر ذلك الغزل الواضح من المنار للسلطة السياسية وخاصة فى دول الخلافة العثمانية، فهو يصف توجه المجلة بأنها «عثمانية المشرب حميدية اللهجة ـ نسبة إلى السلطان عبد الحميد - تحامى عن الدولة العلية بحق، وتخدم مولانا السلطان الأعظم بصدق».

ويبدو أن هذه اللهجة كانت لمجرد السعى إلى إيجاد حالة اطمئنان أولى تتيح للمجلة الظهور والانتشار، ذلك أن المتابع لسيرة المجلة يستطيع أن يلمس أن رشيد لم يكن ممالئا ولا منافقا.

ولعل القضية الأولى التى عرضت لها المنار فى أول أعدادها كانت برهانا صادقا على ما أعلنته من أهداف تسعى إليها.

أما القضية فهى تتعلق بمصطلح كثر الجدل والنقاش حوله فى ذلك الزمن وهو «الطبيعة»، فنتيجة لما ذهب إليه بعض المفكرين الغربيين من أن الطبيعة ليس لها ما وراءها من قوة خالقة، وأن المخلوقات انما هى نتيجة توالد ذاتى، أصبح البعض يسمى هؤلاء «بالنتشريين» ـ نسبة إلى المعنى الإنجليزى لكلمة «طبيعة» Na - ture واكتسبت الكلمة بذلك سمعة سيئة عند المتدينين، وسماهم البعض، بالدهريين»، ومن هنا كان تأليف جمال الدين الأفغانى رسالة فى الرد عليهم.

وحتى لا تختلط المفاهيم وتضيع المعالم بين الحق والباطل، أخذ رشيد يشرح مفهوم الطبيعة، فهى فى اللغة تعنى الخلقة والفطرة، فخلق الله الأشياء وفطرها وطبعها بمعنى واحد، فإذا كان البعض قد تصور أن وصف عالم بأنه «طبيعى» يعنى أنه ملحد، فإن رشيد يستنكر هذا، فالطبيعى هو المنسوب إلى الطبيعة ويستعمل فى مقابله الصناعى، فيراد به

ما لا صنع للبشر فيه، ويطلق على العالم بالفنون الطبيعية وإن كان متدينا «ولا يطلق على الملحد من حيث أنه ملحد وإن نسب الأشياء إلى الطبيعة وأعتقد أنها موجدة لها ومؤثرة فيها من دون الله تعالى، بل يطلقون على من هذا شأنه لفظ الكافر والدهرى والمادى».

وأهمية هذا البيان تتضح لنا مما روى أن الشيخ محمد عبده - والبعض ينسب هذه الرواية إلى الشيخ المراغى - خشى من معارضة مشايخ الأزهر لإدخال علم «الطبيعة» فى مناهجه زعما بأن هذا العلم ينسب الخلق إلى الطبيعة ذاتها لا إلى الله عز وجل، ومن هنا فقد سمى هذا العلم: «علم خواص الأشياء التى أودعها الله فى الأجسام»!!.

ثم ينتقل رشيد إلى قضية تزعجنا فى الفترة الحالية ، ألا وهى قضية «التكفير» التى أصبحت سيفا يرهب به البعض مخالفيهم فى المذهب أو العقيدة، أو حتى الرأى، يقول رشيد إننا لا ينبغى أن «نطلقه على المخالفين لنا فى الدين من أصحاب الملل الأخرى لأنهم ليسوا كفارا بهذا المعنى «الإلحاد» بل نقول بعدم جواز إطلاقه عليهم شرعا لأنه صار فى هذه الأيام من أقبح الشتائم وأجرح سهام الامتهان، وذلك مما تحظره علينا الشريعة باتفاق علماء الإسلام».

ذلك أن معنى الكفر فى أصل اللغة الستر والتغطية، وكانوا يسمون الليل كافرا لأنه يغطى بظلامه الأشياء، وأطلقوا لفظ الكافر على طلع النخل وأكمام النور «الزهور» لما ذكر، وعلى البحر لأن الشمس تغيب فيه بحسب الظاهر وعلى ثوب كانوا يلبسونه فوق الدروع يقولون له كافر الدروع، وقد سمى القرآن العظيم الزراع كفارا كما هو المشهور فى تفسير قوله تعالى «كمثل غيث أعجب الكفار نباته»، وأمثال هذا فى اللغة كثير ويظهر منه أن حقيقة الكفر تغطية المحسوس بالمحسوس، ثم أطلق على من لم يذعن للدين ومن لم يشكر النعمة تجوزا «وحيث قد اختلف الحال وتغير الاستعمال فلا ينبغى إطلاق اسم الكفر على صاحب دين يؤمن بالله». وإذا كان هذا صحيحا - وهو ما نؤمن به - فكيف الأمر بمن يكفرون الآن المشارك فى العقيدة إذا خالف الرأى والاجتهاد؟!. ❑

عجز الرجال

نغم سائد فى الأفلام

بقلم: مصطفى درويش

●● الأفلام المصرية التى أتيحت لها فرصة العرض فى أثناء أيام العيد الأخير، أربعة لا تزيد.

والأمر الأكيد، أنه ليس من بينها، أى فيلم من الافلام الخمسة التى شاركت بها السينما المصرية فى مهرجان القاهرة السينمائى الأخير.. فمثلا «إشارة مرور» فيلم «خيرى بشارة» الفائز بإحدى جوائز ذلك المهرجان، خرج خاسرا من مضمار الصراع من أجل الاستيلاء على بعض دور العرض فى أثناء العيد.

وكذلك الحال بالنسبة لـ «يا دنيا ياغرامى» الفيلم الذى اجمع النقاد على أنه أحسن الافلام المصرية المتنافسة على جوائز المهرجان ●●

وأعود الى افلام العيد الاربعة، فأقول ان اكثرها اثارة للاهتمام «النوم فى العسل» فيلم عادل إمام

اما اقلها شأنا ففيلم «الغجر» لراقصة مصر الأولى «فيفى عبده».

وفيما بين فيلمى «الامام» و«فيفى» يشغل المركز الثاني والثالث فيلما نور الشريف وأحمد زكى «الهروب الى القمة»، و«استاكوزا».

والحق ان فيلم «فيفى عبده» لا يستحق ان يشغل سوى المركز الاخير، وذلك رغم رقصها الذى لا يعلى عليه، ورغم المشاركة بنصيب من قبل كل من الناقدة وكاتبة السيناريو ماجدة خير

الله، ولاعب الكاراتيه «الشحات مبروك»، وشاعر العامية الكبير عبدالرحمن الابنودى.

والامر العجاب بالنسبة للافلام الثلاثة الاخرى، ان اثنين من بينها يدوران حول العجز الجنسى وجودا وعدما، وهما «النوم فى العسل» و«استاكوزا».

ففيلم عادل امام يبدأ بفرح فى فندق خمسة نجوم، يزف فيه عريس فى عز الشباب، حتى غرفة النوم، حيث يعجز عن اداء الواجب المطلوب منه فى ليلة الدخلة، فيغادر الفندق فى سيارته الابهة متجها الى شريط السكة الحديدية.

وما هى الا ثوان حتى نراه واقفا امام القطار، ساعيا الى الانتحار.

●● إنذار !

وما يكاد رئيس مباحث القاهرة «مجدى بك» أو مجدى باشا فى معظم الاحيان (عادل امام) يبدأ التحقيق فى حادث الانتحار، حتى يجيئه خبر مقتل ربة بيت بيدى زوجها الثائر لشرفه المهان، بسبب عجز مفاجىء الم به فى أعز ما يملك الرجال.

وعندما يغادر غرفة التحقيق يرى العجب العجاب.. حشدا غاضبا من رجال ونساء، يتبادل الشتائم بألسنة



عادل إمام «النوم في العسل»

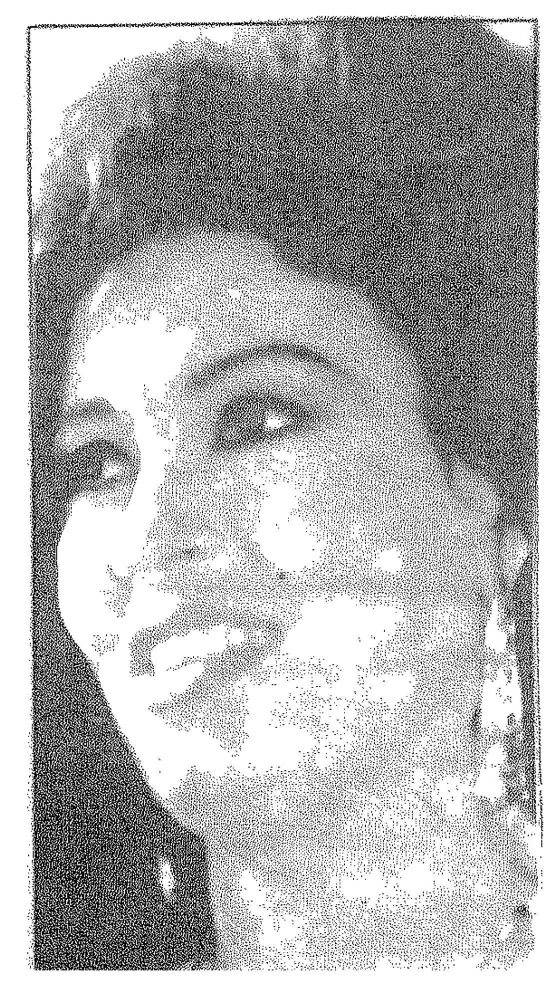
حداد.

ويحاول، بحكم مهنته، ان يعرف سبب الشجار والبغضاء.. فيسأل، ويكرر السؤال، وما من مجيب.

ويواصل الضابط الباشا مشواره وسط خضم حوادث مشابهة، من بينها استنجاد صاحبة بيت يباع فيه الهوى ويشترى (مريم فخر الدين) بالشرطة لإنقاذها من غضب زبون، هائج كالثور.. لانه يعانى من عجز تام.

ومن مجموع هذه الحوادث استخلص الباشا الضابط ان رجال مصر يتهددهم وباء رهيب، مؤدى انتشاره - من القاهرة الى سائر انحاء مصر المحروسة - القضاء على فحولة الرجال، وبالتالى فناء جنس أحفاد

فيفى عبده .. «الفجر»



نور الشريف «الهروب الى القمة»



الفراعين.

وفى مواجهة هذا الهول الكبير الذى يهدد المصريين بالفناء، اخذ يدق ناقوس الخطر، محاولا، دون جدوى تنبيه المسئولين.

●● وداعة الحملان ●●

ولكن أحدا منهم لم يسانده، بالعكس وقفوا جميعا، بمجالسهم وأجهزتهم له بالمرصاد، حالوا بينه وبين بث اخبار الخطر وحقيقته الى الجماهير، وذلك فيما عدا مسئول اوحد، خرج عن هذا الاجماع البغيض.

انه وزير الداخلية (محمد الدفراوى) الذى نراه حاملا لواء الحقيقة بوداعة يحسده عليها الحملان.

غير انه، لسوء حظ المصريين، يقف وحيدا بلا حول ولا قوة، سوى قوة الايمان.

فها هو ذا وزير الصحة، يظهر على الشاشة الصغيرة، مكذبا الشائعات المغرضة، داعيا كل مصرى الى تلبية النداء، بأن يصرخ بملىء فيه «انا كويس، انا زى البمب، انا زى الحديد».

ولم يكن امام مدير مباحث القاهرة الهمام، فى مواجهة كذب اجهزة الاعلام سوى خيار الاستقالة، وقيادة العاجزين حتى مجلس الشعب، وهم يهتفون آه.. آه.. آه وهكذا بالآهات ينتهى فيلم عادل إمام.

●● سينما أم مسرح

وقد عرضت خلاصته موجزة، ولم أشأ ان اعرض شيئا من خصائصه الفنية التى تتصل بالسيناريو وكاتبه وحيد حامد، وبالاخراج والتصوير وصاحباه شريف عرفه ومحسن احمد، وبكل مفردات لغة السينما الاخرى.

فالنوم فى العسل لغته، رغم ظاهر الامور، اقرب الى المسرح، منها الى السينما.

انه عبارة عن مشاهد قائمة بذاتها، يغلب عليها الحوار والقفشات المبتذلة، ولو عمل على اقتطاع بعضها المولّف القدير «عادل منير» لما جاء الفيلم مترهلاً، خاصة فى نصفه الاخير.

وعندى ان كاتب السيناريو انما يرمز بالعجز فى الفيلم الى حالة اكتئاب جماعى يعانى منها، فى رأيه، المصريون، تلازمها نوبات لا مبالاة، وفتور فى الشعور.

وهنا نتساءل:هل وفق صاحب السيناريو حين استسهل فاختار هذا

الرمز الضئيل النحيل لهذه المشكلة الكبيرة، الخطيرة؟

في اعتقادى ان التوفيق قد اخطأه الى حد بعيد. لا لأن الرمز ضئيل نحيل فحسب.. ولكن لانه احتاج الى تفصيل فيه من السخافة والسخرية بعقولنا الشيء الكثير!!.

●● حكمة القبلة !

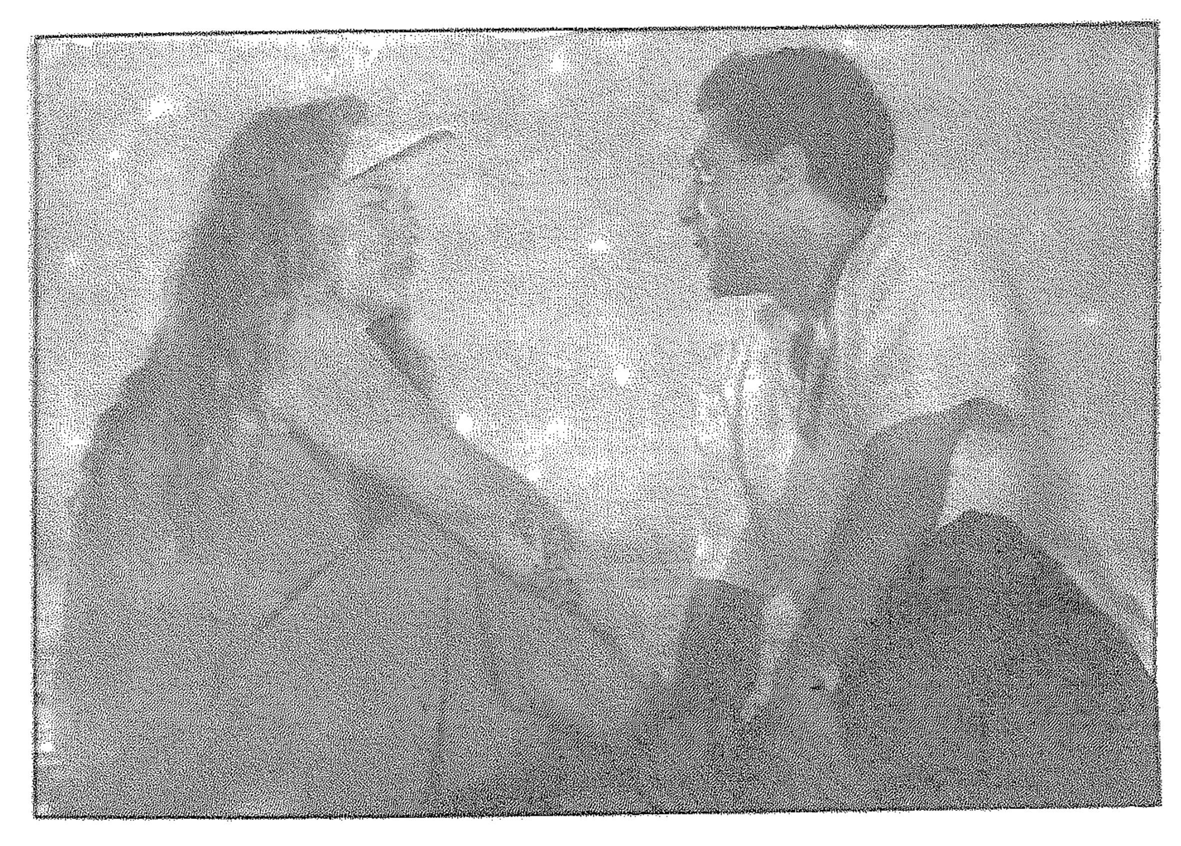
و«استاكوزا» ومداره هو الآخر العجز، يبدأ بقبلة طويلة احتلت من مساحته خمسين ثانية أو يزيد.

وطولها هذا له حكمة تغيّاها عبدالحى اديب كاتب السيناريو الشهير، وتبنتها مخرجة الفيلم «ايناس الدغيدى».

فلولاها لما استشاطت «عصمت» أو (رغدة) غضبا، ولما نشب بينها وبين «عباس» أو «احمد زكى» شجار ادى الى فقدانه الفحولة، ولو الى حين

وحكاية هذه النهاية الفاجعة للشجار تبدأ بعصمت مستقلة سيارتها، متجهة بها الى القرية السياحية التى تمتلكها عمتها «زهيرة هانم» امرأة المال والاعمال فى منتجع

أحمد زكى ورغدة .. بعد أكل الاستاكوزا !



الغردقة، وتؤدى دورها النجمة الرائعة «أمينة رزق».

فاذا ما اصطدمت عيناها بعباس محتضنا «عديلة» أو الراقصة دينا، يطبع على شفتيها قبلة لاتنتهى فى الطريق العام، اوقفت سيارتها، وهى هائجة مائجة.

وماهى الا ثوان حتى كانا يتبادلان الشتائم والسباب.. ولانه تطاول عليها بأوصاف وكلمات بذيئة، لا يصح ان تقال فى حق بنات الاكابر، فقد عقدت العزم على الكيد له والانتقام.

●● الركلة المميتة

وجاءتها الفرصة سانحة، عندما اكتشفت انه مهندس ديكور ڤيلتها، داخل قرية عمتها الواسعة الثراء.

ففى اثناء مشادة ثانية بينها وبينه داخل تلك الڤيلا، ركلته فى موضع حساس من جسمه ركله امرأة مسترجلة، تجيد لعبة الكاراتيه.. فكان فيها فصل الخطاب.

وطبعا تقوم بين الاثنين منازعات امام القضاء، هو يطالب بمبلغ كبير يعوضه عن اصابته بعاهة مستديمة، افقدته القدرة على معاشرة النساء، وهى تنفى كذبا مسئوليتها عن هذا الفقدان.

ولا يطول بينهما الخصام، فهو سرعان ما يتنازل عن دعواه بشقيها المدنى والجنائى بشرط ان تقبله زوجا لها فى الحلال، وهى، بعد امتناع لا يدوم طويلا، ترتضيه زوجا، رغم انه ليس اهلا لها.

●● خطأ جسيم !

ولا يفوتنى هنا ان اذكر كيف غاب عن ذهن صانعى الفيلم ان المتضرر من فعل جنائى، وان كان فى وسعه التنازل عن دعوى التعويض، فليس ذلك فى وسعه فيما يتصل بالدعوى الجنائية.

ما علينا، فها هما، عصمت وعباس يعيشان تحت سقف واحد، حياة محورها المقالب والاتهامات.

وبعد خصام يعقبه بين الحين والحين، وصال ودلال، ينتهى بهما الامر محبين سعيدين.. هو بكامل فحولته، بفضل الجمبرى والاستاكوزا، وهى بكامل انوثتها بفضل ترويض تحول بها من نمرة شرسة الى حواء سهلة الانقياد.

وواضح من هذا العرض الموجز ان الفيلم مستوحى من مسرحية «ترويض النمرة» لوليم شكسبير.

وكاتب السيناريو لا ينكر هذا، بل يؤكده فى الملصقات والعناوين.

والسؤال .. هل وفق فى ترجمة تلك الملهاه الى لغة السينما.

في اعتقادى ان ترجمته لم يصادفها اى توفيق، لا لان ترجمة الملهاة امر عسير، وانما لانها جاءت فظة، غليظة، ليس فيها من روح شكسبير الا اقل القليل.

يبقى «الهروب الى القمة» حيث يتقمص «نور الشريف» شخصيتين، احداهما شخصية «هجامة» يقتات من السطو على ما فى خزائن الغير من خيرات.

والاخرى شخصية «حوت» واسع الثراء، جاءه المال والجاه من السطو على قوت الشعب، فهو اشبه بمصاص الدماء.

●● الأحياء والاموات !!

والفيلم يبدأ بنور هجامة اسمه «سيد» يعيش مع امه العليلة، بين اطلال منازل، تأبى ان تعيش فيها حتى الخنازير.

وبعد لقطات لاهثة، سرعان ما يتبين لنا انه كان مهندسا شريفا، يعيش من عرق جبينه، الى ان وجد نفسه دون مقدمات، عاطلا عن العمل.. ليس فى وسعه ان يوفر لأمه حتى الدواء.

ومن هنا اضطراره الى كسب العيش بالحرام.. ولانه ذو طبيعه خيرة، فهو يسعى على الدوام الى التوبة واتباع سبيل آخر غير سبيل الاجرام.

ولكن الشرطة متمثلة فى عميد عنيد، قدّ قلبه من حديد «همام» ويؤدى دوره «نبيل الحلفاوى»، تغلق فى وجهه جميع ابواب الخلاص، حتى ينتهى به الامر سائرا فى طريق الانتقام الاعمى من العميد «همام».

فاذا بنا نراه متهجما على شقته فى الظلام، شارعا فى اغتصاب زوجته «داليا»، وتؤدى دورها «الهام شاهين»، مطاردا من الزوج العميد الذى لاهدف له فى الحياة سوى الثأر لشرفه المهان.

وهنا تتدخل الاقدار، فالسيارة «الرميس» الهارب فيها «سيد» تنقلب بمن فيها، ثم تنفجر، فيموت كل ركابها فيما عداه.



شريف عرفه .. سينما أم مسرح



صاحب النوم فى العسل وحيد حامد

وتختلط الاوراق المثبتة لشخصية الركاب، على وجه يظن معه انه صاحب احدى الجثث المتفحمة، فيجرى حسابه فى عداد الاموات.

وبداية لا يصدق العميد «همام» خبر موت «سيد» محترقا.

ومع ذلك ، تتوقف مطاردته له الى حين.

●● عصر الحيتان !!

أما كيف تحول «سيد» الهجامة، بعد ذلك، الى شخص آخر اسمه «وجدى احمد الزين» او بمعنى اصح، حوت مليونير، يصعد الى القمة، حتى يصبح قطبا من اقطاب المعارضة فى مجلس الشعب.. فهذا ما يحكيه سيناريو شيق من تأليف «محمد عامر» اراه متأثرا الى حد كبير برائعة الاديب الفرنسى «فيكتور هيجو» المسماة «البؤساء».

ولن اعرض تفاصيل صعود «سيد» من الحضيض الى مصاف الاسياد المتحكمين فى اقوات العباد.. فذلك شىء يطول.

كل ما أريد أن أعرضه، هو أن صعوده جاء بفضل امرأة لعوب «شهد» وتلعب دورها «عايدة رياض».

فقبل ان تقسو عليه الايام، فيصبح مجرما، كان يختلس معها القبلات على سلم المنزل، حيث كانا يقيمان..

وها هو ذا فى محنته، يلجأ اليها فى مسكنها الفاخر، حيث تعيش حياة لذيذة، قوامها فتنة الرجال.

فتؤويه رغم انها تعرف انه هارب من العدالة، مطارد من أجهزة الامن والامان.

ولأنه ميت فى نظر السلطات ترشحه، بعد تغيير ملامحه، لان يكون رجل اعمال، يحركه رئيسها المليونير الشرير، ويؤدى دوره «سعيد عبدالغنى».

وهو شرير لانه يريد ان يتحكم فى سوق شراء القمح، غذاء الشعب المصرى الرئيسى.

واخيرا.. يبقى لى ان اقول ان كل شىء من امر «الهروب الى القمة»، وهو من اخراج «عادل الاعصر»، غريب حقا..

فبناؤه الدرامى محكم على عكس افلام هذه الايام، وممثلوه احسنوا الاداء دون استثناء.

ولو جاء خاليا من بعض عيوب كان فى وسع صانعيه تجنبها، لاستمتعنا بفيلم يرقى الى مستوى السينما العالمية فى هذه الايام.

ومع ذلك، فالأكيد انه افضل افلام العيد.

قصيدتان

شـــعر :

د. حسين على محمد



١ - مملكة الصمت

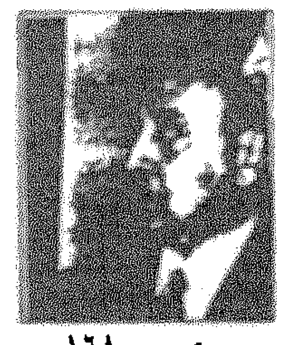
له الآن مملكة الصمت منذ ليال
له دفقة القلب والنيل فيض الجمال
...
له سطرها المتألق عشقا
له نبضها المتجسد برقا
له سدة البوح
والجرح بعض احتمال
...
لماذا إذن كان يذوى وحيداً
بعيداً
وهاجسه : الطمى ، والبرتقال
وصفصافة تستحم على الشط
تمسح قلب المعنى
بعطر الظلال

٢ - الخوف

الحزن - الليلة - مجنون
أيقرر موتى
فوق الأعشاب المسكونة
ببلاغة صمتى ؟




ص ١٦٢

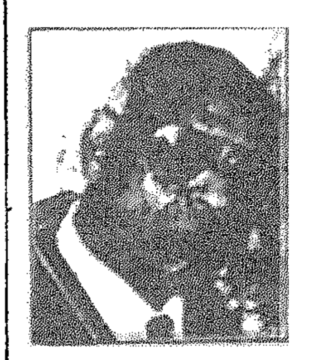

ص ١٦٨

المجالدة حتى الشهادة

سيد النساج
(١٩٣٦ - ١٩٩٦)

□ قاعدة هذه الدنيا نواميس الحياة والموت . ان كل شىء الى فوت وان كل حى الى موت . لكن من الناس من لايموتون ذلك الموت الطبيعى الذى تعرفه الناس ، انهم لايحيون الحياة المعهودة ولاينتهون الى الموت المعهود . انهم يحيون مرابطين مجالدين ويموتون شهداء . وهؤلاء لاينتهى أمرهم بالموت ، لأن من عملهم مايبقى شاهد صدق على حياة مباركة غنية ومن ذكرهم مايبقى سيرة ورسالة.

من هؤلاء الشهداء الباقين كان سيد حامد النساج الذى انتقل الى رحاب ربه يوم السبت الرابع والعشرين من فبراير الماضى وهو لم يستشهد فى واحدة من المعارك العابرة ولا فى ساحة ضيقة من ساحات القتال والنزال ، وانما استشهد فى اطول وأوسع الساحات ، ساحة حياة بأسرها . شهدت مواقعها كلها وعشت


د . سيد النساج

مجالدته الفذة كلها : كان قريبى ونسيبى ودرسنا ذات التخصص وتخرجنا فى ذات القسم العلمى ، وعشنا - عشرات السنين فى مبنى واحد . يخالط أهلى أهله وتخالط زوجى زوجه ويخالط ولدى أولاده . كنا فى اليفاعة وصدر الشباب جماعة من أبناء الفقراء ، فرحين بطموح رفيع يطير بنا الى الآفاق الأرحب ، قلقين بطاقات تتفجر معذبين بملكات ومواهب تتغيا قهر الفقر والتخلف وبناء عالم انسانى جديد نبيل . كان عيشنا عنتا ومشقة ، فكان بعضنا ينهزم مستسلما واهنا فى يأس ، وكان بعضنا لايبالى فيميل الى عبث ولهو . لكن قلة منا كانت تنتصب فى دأب وشجاعة للتجاوز والتخطى والتحقق . ومع ان النساج كان يحمل من الأعباء أكثر بكثير من أى منا ، فإنه كان من هذه القلة القليلة ، كان يجالد بقوة نفسية وروحية معجبة ، وكنا نراه فى الملمات والمدلهمات يواجه فى اصطبار هادىء ونبالة فريدة ، وفى الشهور الأخيرة مال الى شىء من تأمل وعلو رأى سن التقاعد يدنو ، ورأى البنين قد استووا شبابا ، فكأنه قد رأى أن المجالدة الطويلة قد تصير فى غير ميدان فرحل راضيا مرضيا .

ان هذا مايعرفه الأقربون من النساج . بيد ان عامة القارئين وخاصة المثقفين يعرفون الرجل عالما ودارسا وناقدا ، وها هنا نجد البناء العلمى المتميز والعطاء النقدى المؤثر . انفرد سيد النساج ، منذ بدء حياته التعليمية والعلمية فى الستينيات الباكرة بحقل علمي قائم برأسه ، عرف عنه وعرف به . لقد أقام حياته العلمية كلها على درس نوع ادبى واحد هو القصة القصيرة ولما كانت القصة القصيرة نوعا جديدا فى كل الآداب العالمية وبخاصة فى الأدب العربى فان درسها طلب جهودا استثنائية من هذا الدارس الجاد الراحل : صرف جهدا الى تأصيل القص فى الأدب العربى الحديث وانتهى هذا الجهد الى تاريخ دقيق شامل للقصة المصرية القصيرة . وصرف جهدا الى عمل فهارس دقيقة ببليوجرافيات وصفية لكل النتاج المصرى فى هذا النوع الأدبى من بواكيره الأولى الى مراحله الأخيرة . وصرف جهدا الى متابعة الجديد من الانتاج القصصى ودرسه وتقويمه نقديا . ولقد صارت جهود النساج

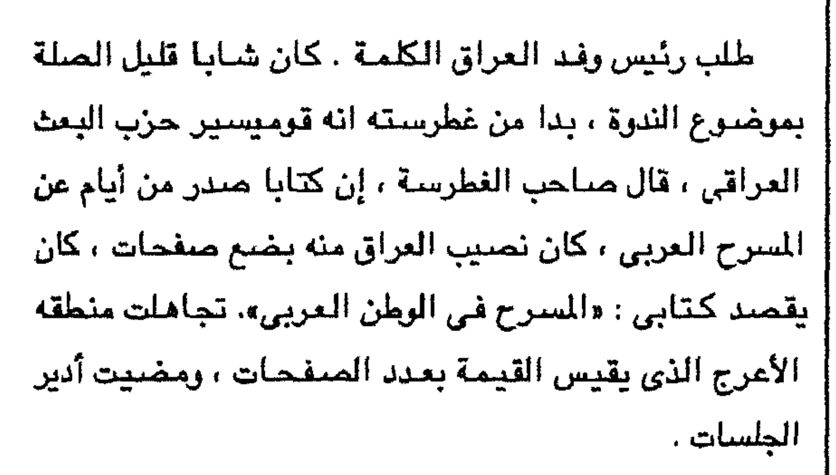
فى هذا الباب أعمالا تقدرها الدوائر العلمية ويعتد بها العلم وينهض عليها تاريخ الادب .

● د . عبد المنعم تليمة

هذا هو فؤاد دوارة ..!


فؤاد دوارة

□ ٢١ فبراير ١٩٨٠ ، مدينة الكويت الزاهرة ، تتألق وتزهو بأول يوم للمسرح العربى يقام فى العاصمة المتطلعة . ندوة كبرى تقام لمناقشة شئون المسرح العربى وشجونه ، يشارك فيها مندوبون من أرجاء الوطن العربى كافة . عهد إلى بتنظيم الندوة وادارة جلساتها ، عن يمين وفد الجمهورية العراقية وعن يسار وفد المغرب ، وبجواره وفد مصر ، وأبرز أعضائه فؤاد دوارة.


طلب رئيس وفد العراق الكلمة . كان شابا قليل الصلة بموضوع الندوة ، بدا من غطرسته انه قوميسير حزب البعث العراقى ، قال صاحب الغطرسة ، إن كتابا صدر من أيام عن المسرح العربى ، كان نصيب العراق منه بضع صفحات ، كان يقصد كتابى : «المسرح فى الوطن العربى». تجاهلت منطقه الأعرج الذى يقيس القيمة بعدد الصفحات ، ومضيت أدير الجلسات .

حين جاء دور التوصيات قال صاحب الغطرسة : انه يطالب بتوصية تدين اتفاقية كامب ديفيد . اعترضت أنا ، لأن الندوة ثقافية وليست سياسية ، أصر بغطرسته على محاولة انتزاع التوصية من الندوة . تكهرب الجو وأصبح كل شىء ممكنا : شجار ، تبادل اتهامات ، أو إلغاء الندوة أصلا . هنا انبرى

فؤاد دوارة قائلا فى غضب كظيم وهدوء ظاهر : لا مانع لدينا من إدانة اتفاقية كامب ديفيد ، شريطة ان تتلوها مباشرة توصية أخرى بإدانة الفظائع التى ارتكبها حزب البعث العراقى فى حق المثقفين عامة ، ورجال المسرح خاصة ، لقد أعدم من أعدم وشرد من شرد ، وهرب البعض ، وسجل البعض الآخر ، وألقى بفريق من المثقفين فى نهر دجلة ليموتوا غرقا ، فما رأى السيد مندوب العراق ؟

لم يتزحزح صاحب الغطرسة . وأيد الوفد المغربى موقف وفد مصر وساند الرأى القائل بأن السياسة ليس لها مكان فى ندوة كهذه ، وواصل المتغطرس غطرسته ، فقلت له : ان لم يسحب اقتراحه ، فلن تكون للندوة توصيات على الاطلاق ، ألجىء القوميسير الى الصمت المهزوم ومضت الندوة فى أعمالها .

هذا هو فؤاد دوارة ، صاحب الموقف الشجاع ، والرأى السديد ، والتصميم الذى لا يحيد ، رحمه الله وأرضاه ، وأعطاه فوق ما أدى ، ذلك بأن للمحسنين الحسنى وزيادة .

● على الراعى

مسرح

الساحرة .. بعيدا عن الواقع

الساحرة : تأليف يسرى الجندى
اخراج : محسن حلمى
المسرح القومى
بطولة : سميحة ايوب - أشرف عبد الغفور
محمود مسعود



لقطة من مسرحية «الساحرة

□ يسعى مسرح الدولة جاهدا فى ايجاد توليفة ترفع من نسبة الارتياد التى انخفضت بدرجة ملحوظة ومحبطة لكل القائمين عليه.. وفى ضوء متابعة اكثر من عرض على مسارح الدولة خلال اكثر من موسم مسرحى نلاحظ توليفة تجمع بين الرقصة والغنوة مع النص الجاد بالاضافة الى الكوميديا والفكاهة، ولكن الواقع أثبت أن تلك التوليفة لم تؤت ثمارها. فمعظم عروض مسارح الدولة قائمة على الدعوات المجانية . وكم تعاطفت مع أبطال العرض المسرحى «الساحرة» وهم يؤدون أدوارهم بكل التفانى أمام هذا الجمهور الهزيل وهذه المقاعد الخالية.

فى شباب ونضارة وقفت الفنانة سميحة أيوب على خشبة المسرح القومى تؤدى دور العرافة والعارفة ببواطن الأمور ذات البصيرة النافذة المنتصرة لأصحاب الحي، فى نص يمزج بين زمنين ومكانين ولغتين (فصحى وعامية) وأشياء أخرى.

نص يرفض استلاب الأرض من أصحابها ويرفض خضوع أهل الحى للطغاة.. ولم يؤد المزج الذى قام عليه العرض إلا إلى تشتيت المتفرج.

فبينما تنهى الفنانة سميحة ايوب جملتها بأداء مسرحى ينتظر التصفيق نلمح المغنى الكفيف (فاروق الشرنوبى) ومعه جوقته . ونلمح صراعا خفيا بين الممثل الشاب الذى يقوده (رضا ادريس) وبين الحلوانى (اسامة عباس) لم نفهمه . ولم

أشرف عبد الغفور



نفهم التشويش على أغنيات المغنى من خلال الانفعالات المبالغ فيها والتى تشغل الجمهور عن الغناء وتضحك على رضا ادريس .. واذا تحدثنا عن الكوميديا فكان أداء المستبد الطاغى (سامى مغاورى) هو مصدرها.

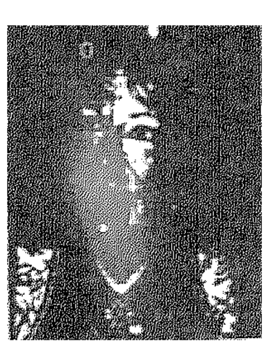
لم أصدق منذ البداية جنون نجم (محمود مسعود) والذى تأكد من سياق العرض انه كان يدعى الجنون .. وجاء اختيار الفنان اشرف عبدالغفور لدور الصحصاح غير مناسب. فالصحصاح شاب متمرد ثائر وهو مالم يتناسب مع عمر وتاريخ عبدالغفور.

وأخيرا اتساءل ماهى رسالة العروض المقدمة على مسرح الدولة؟ هل هى تسديد خانة ام لديهم ما يقولونه؟

أعترف ان العرض لم يقترب من الواقع برغم الاسقاطات المباشرة له

●بثينة كامل

أزمة دراما «الساحرة»



سميحه ايوب

□ تلعب الحارة الدور المحورى فى مسرحية «الساحرة» من خلال وجودها فى زمنين مختلفين، الاول تاريخى قديم يدور مع نشأة الحارة على يد ابنها «على الصحصاح» والزمن الثانى هو الوقت الراهن حيث يعيش «أدم الحلوانى» وارث وقف الحارة عن جدوده منذ أيام «محمد على» منتظرا رجوع حقه الذى استولت عليه هيئة الأوقاف ظلما.

فى الزمنين يتكرر التاريخ بكل مفرداته وآلياته حيث يقع الظلم من السلطة الحاكمة على أهل الحارة من البسطاء. ففى الحارة الأولى تتعدد مستويات الظلم بدءا من شيخ الحارة (سعيد الصالح) والحجاج رجل الشرطة (مخلص البحيرى) ومجموعة التجار وحتى الأميرة (سناء سليمان) ابنة السلطان وزوجها (سامى مغاورى) فالجميع يريدون قمع الحارة وحبس بطلها على الصحصاح (اشرف عبد الغفور) ورفاقه وعلى رأسهم نجم (محمود مسعود)، وكذا السيدة المباركة جليلة التى حبست نفسها فى منزلها بعدا عن الظلم



محمود مسعود

والطغيان الذى تشهده الحارة.

ينعى فى الحارة الثانية آدم الحلوانى (اسامة عباس) ظلم الزمن وفقدان ابنه الذى استشهد فى حرب ١٩٦٧ . فلا يبقى امامه لاسترداد حقه إلا كتابة الشكاوى لكبار المسئولين لكن حقه لا يعود بل تطالبه الضرائب والأوقاف بإخلاء سكنه من «حوش قرافة» عائلته لانه لم يعد ملكه بل ملك الحكومة.

إن الحق الضائع قديما وحديثا للمواطن البسيط بفعل قوى السلطة تفشل فكرة الحل الجماعى على مستوى المعالجة الدرامية والتى يسعى إليها البطلان «الصحصاح» و «الحلوانى».

فمحاولة الأول جمع أهل الحارة ورفاقه من الفتيان والخروج بهم الى الصحراء للتدريب على حمل السلاح من أجل مهاجمة السلطة الغاشمة فى الحارة تفشل لعدم إيمان أهل الحارة بفكرة انتصارهم على رجال شيخ الحارة ورجال السلطان وتظل دعوة الصحصاح مجرد امل!

وكذا يفشل «آدم الحلوانى» فى دفع رفاقه من أهل المقابر الى مساندة موقفه والشهادة معه أمام المسئولين حول ملكيته للمقبرة، فهم قد شغلهم اللهو، والغناء ، وتعاطى المخدرات التى حولتهم إلى أشخاص سلبيين لا رأى لهم.

إن المعالجة الدرامية تدين سلبية واستسلام المجموع أى الشعب منذ قديم الزمان وحتى الآن وتعد كل ما تحصل عليه السلطة من مكاسب بسبب ضعف الجماعة وتخاذلها .

لكن المعالجة الدرامية التى قدمها يسرى الجندى قد «أخفت» الكثير من المعانى التى استخلصناها الآن فى هذه القراءة النقدية وذلك لاعتماد المسرحية على توازى خطى الماضى (اى الحارة القديمة بأهلها وشخصياتها) والحاضر (اى الحارة المعاصرة).

هذا التوازى جاء بتوالى المشاهد من القديم الى الحديث والعكس مما جعل تكوين خط واحد للزمنين أمرا عسيرا على المتفرج الذى اختلط عليه الأمر أيهما الحاضر وأيهما الماضى.

ومما زاد الأمر إرباكا ان «خط الماضى» وحكاية الحارة

وبطلها «على الصحصاح» استخدم فيه المؤلف تكنيك المونتاج فى الانتقال بين الأحداث منذ كان شابا ثائرا، ثم طفلا صغيرا يتيما علمه الظلم التمرد والثورة ثم احتضان الساحرة الطيبة له حتى شبَّ وكبر . ثم حكاية جليلة التى تحولت لرمز مبهم يندفع الجميع لحل شفرته لكنهم يفشلون ، ثم التوحد بين جليلة والساحرة فى النهاية بما تحول الى فزورة مستعصية على الحل . ففى الوقت الذى كانت فيه الساحرة (سميحة ايوب) شخصية إيجابية تناصر أهل الحارة ضد الظلم وتدفعهم الى مؤازرة على الصحصاح ورفاقه ضد السلطة ، فإن جليلة شخصية غامضة جلست وراء جدران منزلها لا تجيب على أحد.

إن هذا الارتباك الدرامى أفقد المتفرج الكثير من متعته رغم اجتهاد المخرج محسن حلمى فى إضفاء جماليات فى المنظر المسرحي بالاضاءة وتقديم رقصات تعبيرية.

وربما كانت من أهم جماليات هذا العرض كلمات الشاعر الموهوب جمال بخيت التى تغنى بها فاروق الشرنوبى فى دور المطرب الصعلوك . فقد مست بشفافيتها . أوتار الحزن، والملابس التى صممتها سعاد العجاتي كانت مساعدا لايستهان به على حل أزمة الدراما فى الفصل بين الماضى والحاضر.

● سامية حبيب

شعر

كتابة محمد صالح الذكية

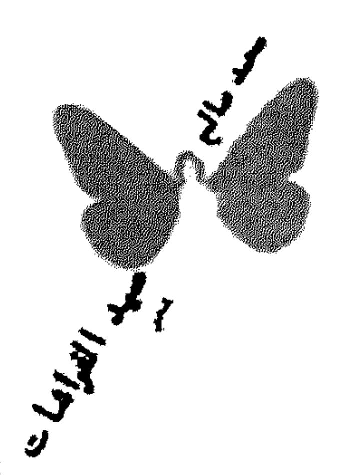
الديوان : صيد الفراشات
الشاعر : محمد صالح
الناشر : هيئة الكتاب

يفجر الشاعر الحياة تفجيرا ، لاتهتز عربته وحدها برائحة الحياة ، بل الحوذى نفسه يطير ، والمهرة تتطوح ، والنسوة خليط مترجرج من الثياب والأجساد والعصائب والأنوثة الفائحة «ص٢٧» .

إنها الحياة المتفجرة بعبقها ، ينزوى الآباء قليلا فيواصل الأبناء رحلتها «ص٣٥»

وعلى الشاعر الذى يحمل هذا العشق أن يدين القهر بكل

أشكاله ، قهر الجسد فى قصائد «الحادث ص٣٠» و«الجثث ص ٤٨» و«السراب ص٦٥» . قهر الأحباش الراكعين تحت موكب السلطة الباطشة «ص٣٤» قهر الأطفال من خلال التدابير الصارمة «ص ٣٦» قهر الفكر والفن والتقليديين اللذين سيطرا على الحياة وزيفاها طوال العهود الفائتة «تياترو ص ٤٠» إنه القهر الذى يصل الى حد الذبح فى قصيدة «الأضحية ص ٥٤» :



وحتى بعدما أجهزوا علىّ
ظل دمى حبيس جسدى
وعبثا حاولوا
أن يلطخوا أكفهم
ويحتفلوا .

وهناك قهر لحلم الإنسان بالتواصل مع الاخرين ، فتتحول العلاقة بينهم الى مجموعة أوراق أو قصاصات صغيرة لا معنى لها ، ولكنها تظل تتراكم يوما بعد يوم «قصيدة الأوراق ص ٦٢» .

قهر بسبب استمرار التشوه يمثله هؤلاء المخنثون الذين لاتنطفىء شهواتهم «ص٦٨» قهر العلاقات الجامدة غير الإنسانية فى قصائد : «الموتى ص ٧٠» و«هكذا ص٨٠» و«المرآة ص٨١» وهو القهر الذى يدفع ببطل القصيدة الى الشروع فى قتل نفسه ، أو تمنى الشروع فى قتل نفسه «ص٧٥» .

المعنيان السابقان يحددان ثنائية أساسية فى الكتاب الحياة والموت ، يتعرض لهما الشاعر بشكل مباشر فى قصائد أخرى فتتناقض الحياة والموت : القطعان والذبائح ، الأنوثة وغبار الليل ، الطيور الفارعة البيضاء وسقوطها مقتولة ، الحب والجفوة فى قصائد «الكهل ص ١٦» و«صباح ص ١٨» و«السحب ص ١٩» و«انتظار ص ٢١» وهكذا ..

ولا يكتفى الشاعر بهذا التضاد ، بل هو يصنع التعدد

الدلالى فى كل رموزه ، مع حس رومانسى شفيف يتغلغل فى التجربة يتضح فى هذه اللمحات والمعانى التى تلوح وتخبو كأجنحة الفراشات ، كان على الشاعر أن يصطادها على مدى أربع سنوات .

ـ ٢ ـ

تدفع هذه القصائد بتجربة الشاعر ، وبتجربة جيله نحو تخوم جديدة وتنفض عن كاهلها المنطق الشعرى الذى يستخلص شعريته من التركيب اللغوى الى قصيدة النثر التى تتقاطع مباشرة مع الوجود ، يطرح نص محمد صالح قضية «جماليات وجود» التى بشر بها ميشيل فوكو ، فى نص يبتعد نسبيا عن المجاز اللغوى مقتربا من سطح الحياة ، هذا السطح الذى ظلمته التجارب السابقة واتهمته بالبساطة ، وعدته غير قادر على إثراء الحياة ، مما دفع بالشعراء الى تعمد الغياب فى متاهات المطلقات .

يقترب الشاعر من ممارسة الحياة ، يتحسس الآهة المعلقة فى حلقه بالفعل . إن أصغر التفاصيل المتعلقة بالأحداث اليومية أو المتعلقة بالجسد .. وبالحس الشخصى ستجد مكانا مرموقا فى هذه التجربة المهمة ، فتحية للشاعر ، وتحية لهذه الكتابة الذكية المليئة بالملاحظات الرهيفة ، التى تجبر القارىء على متابعتها بدقة . إنها كتابة صعبة على غير مايبدو للوهلة الأولى، لأنها تجعل المتلقى يحتشد ، ولايمر على المعنى مرورا سريعا اجماليا ، بل يتأمل بدقة هذه الشذرات الحادة البارقة

● أمجد ريان

البحث عن السعادة

□ ديوان محمد صالح الجديد «صيد الفراشات» ديوان جدير بالقراءة والتأمل .. فهو ربما كان واحدا من أهم الدواوين والكتابات الشعرية التى صدرت فى مصر فى السنوات الأخيرة:

من أين جاء الخاطر المر

إنه منذ ما يعى

ينتهى حيث بدأ
وانه لن يعثر عليها أبدا .

ليست هناك فراشات فى الديوان ولا حتى فى القصيدة التى تحمل هذا العنوان ، الفراشات هنا أحلام وبحث دائم عن اللحظات الهاربة والجمال المغادر ، وحنين دائم للخلود وللتجدد والميلاد والابداع .. كتابة تبحث دوما عن سعادة مفقودة.

لكن لمحمد صالح هذا الحضور الجميل فى شعره وهذا المذاق الخاص الذى نفتقده الآن كثيرا فى الشعر وفى الحياة شعره جميل وبسيط وعميق ، وقصائده شديدة الكثافة والتركيز وهو شعر ذاكرة وإدراك وخيال .. وأيضا شعر حياة يومية بكل مافيها من جمال وكآبة .

تبدأ قصائد كثيرة فى الديوان بالفعل كان «كان لى جد .. كان الخلاء فيما يلى بيته مباشرة .. كانت المدينة التى يحلم بها طول الوقت .. كان قد فعل كل شىء .. كان هناك دائما مايخفونه عنا .. الخ» .

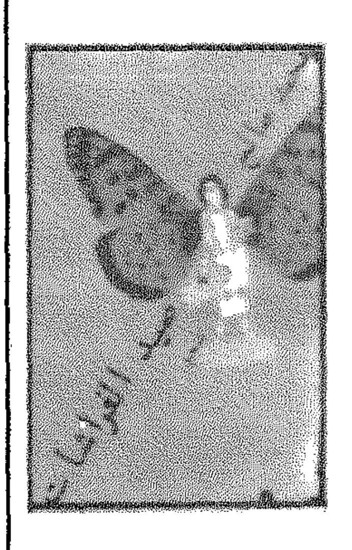
يطل محمد صالح على الماضى ويبتعثه ويتأمله ، يحاول أن يستعيد أجمل مافيه لكنه يجد دوما الوهم والسراب بين يديه وأنه «ينتهى حيث بدأ وأنه لن يعثر عليها أبدا» .

هناك هذه العين الراصدة لأدق التفاصيل ولأرهف الحركات والسكنات .. ومحمد صالح مولع بالخفى وبالأسرار غير المعلنة ، ومولع بالجروح المخبوءة جروح الجسم وجروح الروح ، وبالتفاصيل الصغيرة ، بجثث الموتى فى «الزلزال» وحليهم وأمتعتهم ، والمدن الجديدة وانشغالات سكانها ، سكان البيوت الجدد واهتمامهم الخاص بهوائيات أجهزة التليفزيون أكثر من انشغالهم بعلاقاتهم الحميمة .

فى القصيدة نفور من عالم المدن ليلا ونهارا ، وحنين خاص لعالم القرية بنهاره وليله .

وفى باقى قصائد الديوان وأقسامه مراوحات دائمة بين

غلاف الديوان



عوالم الذات الوحيدة ، خاصة فى المدن والصحراوات والبوادى «حيث كل هذه الصفرة» . فى حالات سفرها خارج الوطن وحالات وجودها بداخله حيث البشر بلا عناوين والعناوين بلا بشر والشوارع بلا ضفاف والوطن يعيد والحنين جارف والعزلة قاتلة .

شعر محمد صالح فى هذا الديوان ليس شعرا جميلا وبسيطا وعميقا فقط .. بل هو شعر صادق أيضا .. وربما كان هذا هو سر جماله وبساطته وعمقه .

● د .شاكر عبد الحميد

فن تشكيلى

المعنى فى بطن التونى



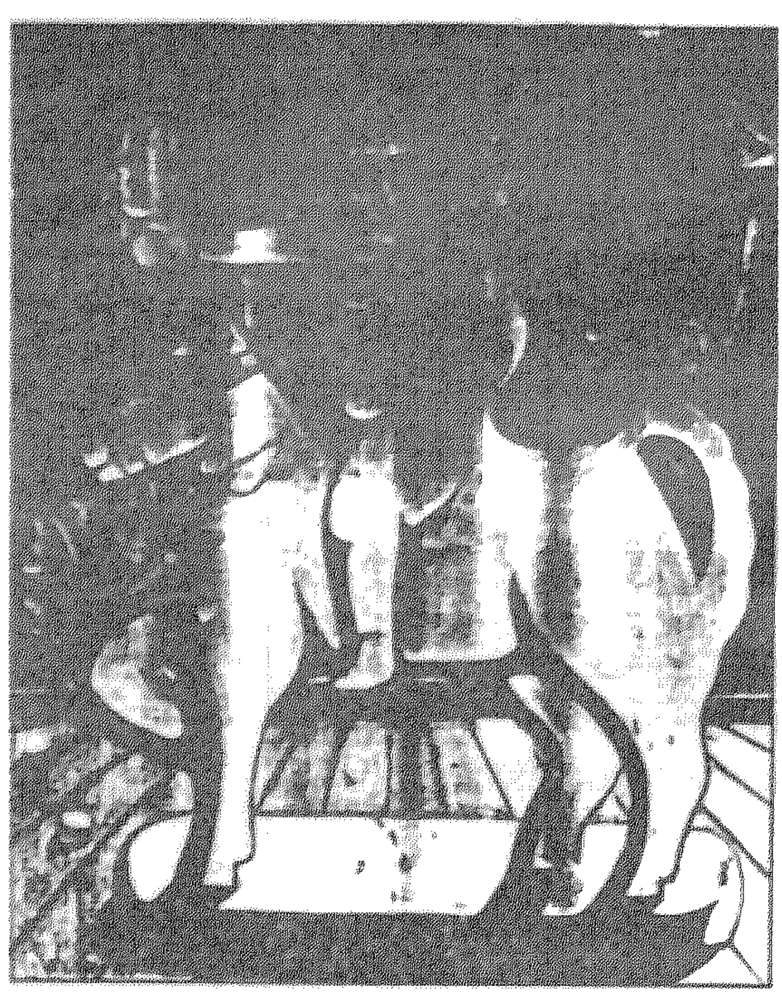
□ رسخ فى يقيننا منذ الازل ان معانى القصائد فى بطون الشعراء. حينما يستغلق علينا فهم رموز قصائدهم ونمنى انفسنا بان تفصح غن مكنوناتها بمزور الزمن أو ربما يفصح الشاعر ذاته بقصده .. لكن هل نسمح للفنان التشكيلى ان يعاملنا كالشعراء .. وهل لغة الفن التشكيلي هى لغة الشعر .. وهل نطالب الفنان بمذكرة ايضاحية للمعانى التى تتضمنها لوحاته اى نطالبه بما لا نطالب به الشاعر.

ام ان هناك رموزا فى اللغة واخرى فى الفن .. هناك لبس .. نراه ونحسه حينما ندخل الى عالم الفنان حلمى التونى فى معرضه المقام حاليا بمجمع الفنون بالزمالك..

من اين هذا اللبس!!

الغلاف المرسوم والصورة المعلقة

الفنان حلمى التونى معروف لنا أكثر من خلال أغلفة الكتب وروايات الهلال وكتب الاطفال ، وغيرها . استطاع من خلال مشواره الفنى ان يؤكد اسمه فى هذا العالم الجميل وكون مع الفنان محيى اللباد علامتين بارزتين فى هذا المجال ، مجال الكتب .. ولكن ربما هذا لم يكن كافيا لاحساس الفنان بالرضا



الحصان الحلاوة .. للفنان حلمى التونى

عن ذاته فاخذ يبحث فى عوالم اخرى ليعبر عن ذاته باستقلالية .. ولم يعد يرضيه كفنان ان يكون مصاحبا لنص مبدع آخر فأدخل نفسه فى عالم صناعة اللوحات مقتفيا اثر محاولات مبدعين اخرين تنقلوا من بين عالم الكتاب وعالم اللوحة.. ونذكر منهم چورج البهجورى و ايهاب شاكر و جمال كامل وآخرين . لم يرض كما رضى الراحل حسن فؤاد مثلا ان تكون المجلة أو الجريدة أو الكتاب هم واجهته التى يطل منها على العالم ..

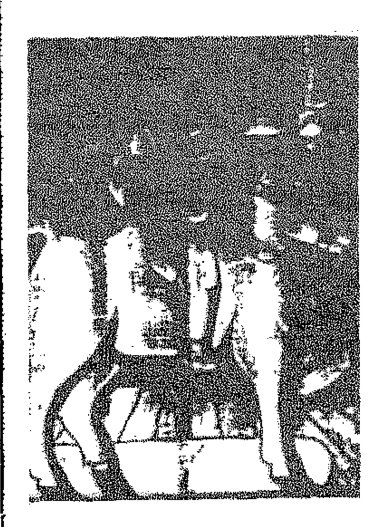
دخل الفنان حلمى التونى عالم الصور وهو يحمل بداخله

كما كبيرا من معطيات الكتابة التى تعامل معها كثيرا وأثرت فيه بشكل واضح حتى أن لوحاته تبدو كنصوص للقراءة، فهو ينسق سطح اللوحة وكانها صفحة سوف يضع عليها خطوطه والوانه وشخوصه ، وحيواناته ، وزهوره فى تناسق يغرى بالقراءة ومحاولات التفسير والتأويل وايجاد علاقات فى عالم المعانى لتلك الرموز التى ازدحمت بها اللوحات ...

لوحة من لوحات المعرض ... عروسة المولد البيضاء تركب حصانا تمسك السيف بيدها اليمنى ، على أرضية، تتجه خطوطها الى داخل اللوحة لتوهم بالمنظور و الخلفية مقسمة الى مناطق متباينة الأحياء ملقى عليها رموز العصفور والسمكة والوردة ينزل خط من السمكة ليلتحم بوردة ، العصفور يقف وحيدا يهم بالانطلاق ليتناقض مع «الحصان الحلاوة» المسكين الذى لا يقدر على الحركة ، الحصان مرسوم ببساطة فى جزء منه وبركاكة فى جزء منه ، عينا العروس فى منتصف اللوحة تنظر الينا فى استعطاف خلفية العروس فيها لون تركوازى قوى يقفز الى مقدمة اللوحة يكسر الاحساس بالمنظور على الارضية بيضة قد تفقس أو قد لا تفقس ابدا ، هاقد وصفت لك اللوحة كما هى رأى العين .. تعال معى نفسر كل هذه العلاقات أو نربطها ببعضها محاولين ايجاد تفسيرات لتجاور كل هذه الرموز .. انها محاولة ستبوء حتما بالفشل ..

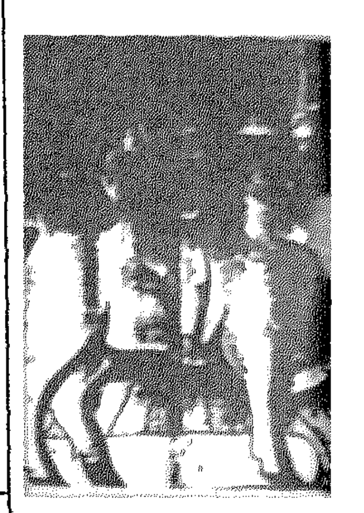
لان المعنى فى بطن الشاعر والرسام .... سيقول الفنان اننا اهملنا رؤية الرموز الاخرى التى يراها مهمة كالعقد الذى يطوق رقبة العروس فهو أيضا عبارة عن قلادة لسمكة - والسيف فهو من لوازم الفرسان وليس عروسة المولد .. اذا ..

ألا يكفيك ايها المتلقى ان ترى كل هذه الرموز ولا تسأل؟ عليك فقط ان تستمتع بصريا بما تراه .. حقا ان عالم المعانى



عالم شائك لما لا نقنع باللغة التشكيلية .. هل من الممكن ان نرى المعرض رؤية تشكيلية خالصة ؟ .. ممكن ولكن هذا بحث آخر اعتقد ان الفنان اهمله كثيرا وهو يحاول السباحة فى بحر المعانى.

● محمد عبلة



حلمى التونى .. «برضك» متشابه وممتع

□ فى معرضه الأخير بمجمع الفنون ، ما زال حلمى التونى يرسم موتيفات شعبية ،كدأبه منذ حوالى ١٥ عاماً ، وما زال كذلك ، كالعهد به ممتعاً ومشبعاً بصرياً . فى دراسته التاريخية لحلمى التونى (إبداع - أكتوبر ٩٢) ميز فاروق بسيونى ثلاث مراحل فى إبداع الفنان : الأولى أسماها ذات حس ميتافيزيقى ونرى أن الحلم يغلب عليها ، والثانية والثالثة مرحلتا موتيفات شعبية ، لا تختلفان فى رأينا إلا فى تقنية التلوين ، بين مساحات اللون الصريح والتنقيط ذى الطابع التأثيرى .

فى معرضه الأخير ، ما زال حلمى التونى فى المرحلة الثانية ، تحمل لوحاته موتيفات قليلة وواضحة ، تنتظم فى كلاسيكية حول عنصر محورى فى وسط اللوحة ، وعادة مالاتخرج الموتيفات عن الفتاة (ست الحسن ، عروس المولد) والحصان (مجاز الفارس والجنس) والطفل (الذى قد يلبس طربوشاً ليصير رجلاً مدللاً كالطفل) والسمكة (رمز النساء) والعصفور (رمز السماء بكل دلالاتها الروحية ، منذ حورس إلى هدهد سليمان) .

ما زال حلمى التونى يلون لوحاته بألوان صريحة وحشية (نسبة لتيار الفوفيزم) تحتل مساحات كبيرة متصلة من اللوحة وعادة ما تشكل الخلفية أكبر مساحة لونية ، تتناقض مع ألوان الموتيفات الموجودة فى مستويات المقدمة . وما زال التونى يستخدم ألوانا مبهجة غير مزعجة ، تجمع لوحات معرضه فى سلاسل : مجموعة خضراء ، مجموعة زرقاء إلخ . على أن

معرضه يتبع فى ترتيب لوحاته منطق العنصر المحورى فى مقدمة اللوحة : فنجد مجموعة السمكة ، مجموعة الحصان ، مجموعة الفتاة ، إلخ . مع ملاحظة أن الموتيفات واحدة تقريباً فى اللوحات ، إنما تتراتب حسب أحجامها وشغلها لمركز اللوحة .

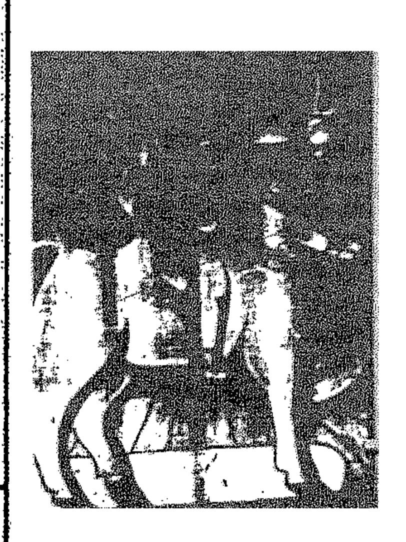
لايمكننا أن ننكر الملمح التجارى فى إبداع حلمى التونى . فألوانه المبهجة تذكرنا بالألوان المودرن التى تشكل موضة الآن، كذلك المساحات التى يفردها للون متصل ، تماماً كما أن اللون ومساحته معلمان تجاريان أساسيان فى فن مصطفى الرزاز ومحيى الدين حسين . لذلك تبدو الموتيفات الشعبية عند التونى امتداداً للرواج للفن الشعبى (ذى التصنيع المودرن) فى الجاليريهات التى تبيع الأثاث والحلى والتحف . وهذا ما يعيبه منتقدو التونى ، بالإضافة إلى رفضهم لتكرار موتيفاته وعالمه .

ومع ذلك ، لا يسعنا إلا الانبهار والابتهاج بأعمال التونى السابقة والأخيرة ، لأنه دائما ما يخلق علاقات بصرية جديدة بين موتيفاته ولأن سهولته يعوضها إشباع العين باللون والمجاز فرموز حلمى التونى تلمس فى النفس نماذج أصيلة ، مثل صورة الفتاة المحبوبة ست الحسن ، أو الفتاة موضع الرغبة الجامحة التى تتحقق مجازياً بركوب الحصان أوالتفاؤل بالخير - السمك الذى نأكله منذ شم نسيم الفراعنة .

كما أن تجديد التونى فى العلاقات بين الموتيفات الشعبية ما زال يبدو لنا نضراً ، فالفتاة لا تركب الحصان فى الرسم الشعبى ، بل هى تنتظر للفارس ، أما عند التونى ، تتحقق الرغبة فى اعتلاء الرجل، ويتحول العصفور لدى التونى من شاهد للسماء ، إلى شاهد على العشق . كذلك يرسم التونى أحيانا إطاراً للوحة لينقل الفن الشعبى للشاغل الحديث بالكتابة عن الكتابة أو بالرسم عن الرسم .

مازال التونى يكرر نفسه ، لكنه مازال يمتعنا لأنه يكرر لحظات دهشة ، تتجدد فى كل مرة ، إزاء عالم لا يتجدد .

● **وليد الخشاب**





التكوين (٢)



كان تعرفى على الأستاذ الإنجليزى بمكتبة الجامعة نافذة للاطلاع على الاتجاهات الاشتراكية واليسارية الانجليزية.

وذات يوم وبعد أن توثقت العلاقات بيننا دعانى لتناول الشاى فى منزله، وكان يسكن فى المعادى، وكانت المرة الأولى، فى حياتى، التى أدعى فيها إلى منزل أحد الأساتذة، ولدعوة تصورت أنها سوف لا تتعدى «فنجان شاى» وقابلتنى زوجته وكانت أرمنية جميلة تعرف التركية والعربية واحتفت بى كما لم يسبق أن احتفى بى أحد، ودهشت لأن البيت كان مصريا شرقيا فى أثاثه وترتيبه..أول بيت من نوعه أدخله. وجاءت بمائدة الشاى، والتى كانت حافلة بأطعمة خفيفة.. سندويتشات وجاتوه.. واقبلت عليها بشهية زائدة وانتقلنا بعدئذ إلى غرفة المكتب، وكانت غرفة واسعة كلها أرفف مكتظة بالكتب كان نصفها عن الأدب الانجليزى.. ويضم الجناح الآخر الموسوعات وكتب السياسة والاقتصاد والتاريخ.. وشد انتباهى جناح كبير كتب عليه مصر، ووقفت أمامه لأرى أكبر مجموعة من

عن تكوين مصر.. محمد عودة


محمد عودة فى شبابه


.. مع رئيس جمهورية الهند

الكتب عن مصر ، منذ العصر الفرعونى حتى العصر الحديث.. وأبديت دهشتى واعجابى.

وقال مبتسما «هل تتصور أن مصر كانت وتظل جزءا لا يتجزأ من تاريخنا العائلى منذ الجد الكبير»

● مهمة حضارية!

وبدأ رواية القصة التى يمكن أن تبدأ بها مرحلة متقدمة من «التكوين» قال إن جده الكبير كان ضابطا فى اسطول الأميرال سيمور الذى دمر الاسكندرية. وأنه كان أركان الحرب اللورد تشارلز بريسفورد القائد الثانى للأسطول وأنه كان عضوا ثانيا فى رئاسة إدارة المحاكم العسكرية التى رأسها اللورد والتى كانت تعقد فى الميدان العام وتصدر الأحكام بالاعدام وتنفذها على الفور على أعمدة النور أو على جذوع الأشجار.. وكان الاثنان مؤمنين أنهما يقومان بمهمة حضارية ، وأنهم يخمدون عصيان

مجموعة متمردين مغامرين يضطهدون شعبا شرقيا مستعبدا، ويحجبون عنه الحضارة والعدالة.

ويعد نهاية الحرب انتابت اللورد بريسفورد ومساعده أزمة ضمير، وصمما على أن يستقصيا الحقيقة ويعرفا كل ما حدث، وما فعلاه.. واكتشفا الخدعة التى وقعا فيها والجريمة التى اشتركا فى ارتكابها.. وكتب اللورد تشارلز بريسفورد كتابا يعترف فيه بالذنب، وكتب جده سلسلة مقالات يومئذ نشرتها «التايمز» وقال الحفيد.. لا أظن أن هناك أزمة وخزت ضمير بريطانيا خلال القرن الماضى، وضمير الصفوة الحاكمة التى لا ضمير لها، مثل الأزمة المصرية والقضاء على عرابى باشا. وقد تألفت لجنة كان يتزعمها ويلفريد بلنت واللورد راندولف تشرشل «الأب».. وغوردون باشا حاكم السودان السابق، والسير ويليام جريجورى رئيس تحرير التايمز ، وأقامت الدنيا وأقعدتها لانقاذ حياة الثوار العرابيين وكفالة محاكمة عادلة لهم، وأوفدت محامين بريطانيين لذلك. واستطاعت انقاذ القادة من الاعدام واستبداله بالنفى».

وقال لى «حينما حصلت على المنصب فى مصر بعد تخرجى من اكسفورد، قال لى أبى ربما تستطيع أن تكفر عما فعله الرجل الكبير».

وأخذت استعرض الكتب معه ، قال لى هذا كتاب بلنت «التاريخ السرى للاحتلال البريطانى». وأن بلنت كان ارستقراطيا بريطانيا جاء مصر للسياحة والشمس والآثار ولكن طالبا أزهريا تعرف عليه .. وجنده للثورة العرابية ، وكان بلنت من أشرف من أنجبت بريطانيا، كان البريطانى الوحيد الذى عاش تاريخ مصر كله.. وكان صديقا حميما لعرابى ثم لمصطفى كامل ومحمد فريد ثم سعد زغلول .

وقدم كتابا آخر.. هذا كتاب ماكنرى والاس كان عضوا فى لجنة اللورد دوفرين التى وضعت التقرير المشهور الذى وضع أساس الحكم البريطانى فى مصر ، ولكنه تمرد واشتغل بالصحافة وعمل مراسلا للتايمز فى مصر، ووضع كتابا ندد فيه بالاحتلال. وأنه لو كانت بريطانيا تريد حقا صالح مصر فان عليها أن تبعد كرومر وأن تعيد عرابى من منفاه ليستكمل ثورته.

وقدم كتابا آخر ، وقال هذا ربما واحد من أهم الكتب عن مصر ، وكان عنوانه «دمار مصر» بقلم «تيودور روتشتين» وقال هذا الذى روى القصة كاملة ، وفضح

سلسلة الأكاذيب التى سبقت الاحتلال، والذى حطم اسطورة كرومر . «منقذ مصر»

● الأجنبى الذى سجن مع عرابى

وظللنا نتصفح حشدا من الكتب عن مصر بالانجليزية والفرنسية .

وأخرج كتابا بالفرنسية بعنوان عرابى باشا بقلم «جون نينيه» وقال لى :

«هذا هو الأجنبى الوحيد الذى سجن مع عرابى وكان سويسريا جاء إلى مصر ليتاجر فى القطن .. وانضم إلى الحركة الوطنية المصرية وأصبح مستشارا مقربا من عرابى ، وظل معه حتى اللحظة الأخيرة .. وبعد الهزيمة والإفراج عنه ، نذر حياته للدفاع عن الثورة . وعن قادتها فى أوربا» .

وأخذت قائمة طويلة بأسماء تلك الكتب التى عرفتها لأول مرة . وكنت لا أزال فى دهشة أن أعرف كل ذلك من أستاذ انجليزى وبالصدفة . وخلال عودتى أحسست فى قطار المعادى أن كل شئ قد تغير، وأننى سوف أخيب أمل أمى فى أن أكون سفيرا أو وزيرا .. وكان ذلك أمرا ثقيلا مريرا .

انهمكت فى قراءة الكتب التى كنت أقترضها منه .. وأهملت كتب القانون .. وأصبحت أكثر حماسا فى البحث عن «الذات» وذات يوم دعانى لتناول العشاء عنده .. وقال إننى سوف أقابل بعض الشخصيات الطريفة .

وكنت أحس أننى تناولت من الطعام أكثر مما يجب خلال دعوة الشاى ولهذا قررت أن أتناول شيئا قبل أن أذهب حتى لا أتعثر فى استعمال أدوات المائدة أو لا تنفتح الشهية واسعة . ولكن ما إن ذهبت حتى تلقتنى ربة البيت بحفاوة وقالت «لقد أعددت لك بعض الأطباق الأرمنية ، أنا أحب الضيوف الذين يحبون طعامى .. أنا طاهية ماهرة أيضا» وندمت على ما فعلت ..

وكان الضيوف شخصيات فريدة.. وجدت استاذا مصريا ، عاش أكثر من عشرين عاما فى بريطانيا ، ووصل إلى ما لم يصل إليه أحد قبله إذ كان استاذا للأدب الانجليزى فى جامعات بريطانيا وكان «مقعدا» يتحرك على كرسى. ويتناول طعامه وشرابه بمساعدة زوجته الانجليزية ولكنه كان ذا جاذبية طاغية إذا ما تكلم .

وكان الثانى طالب بعثة مصرى كان يدرس فى كمبريدج ، وقرر العودة إلى مصر قبل أن يكمل دراسته حينما بدأت القوات الألمانية الزحف على مصر وجاء ليساهم فى صد العدوان الفاشى - النازى عن وطنه ، وعاقبته إدارة البعثات

لرجوعه بدون إذن ! وكان الثالث صحفيا بريطانيا جاء من الجبهة .. وكان حانقا على القيادة البريطانية ، معجبا برومبل وأسر لنا بخبر أن القيادة البريطانية «العاجزة» تفكر فى إغراق الدلتا ، وتضع الخطط على هذا الأساس إذا لم تستطع أن توقف الزحف فى الصحراء!!.

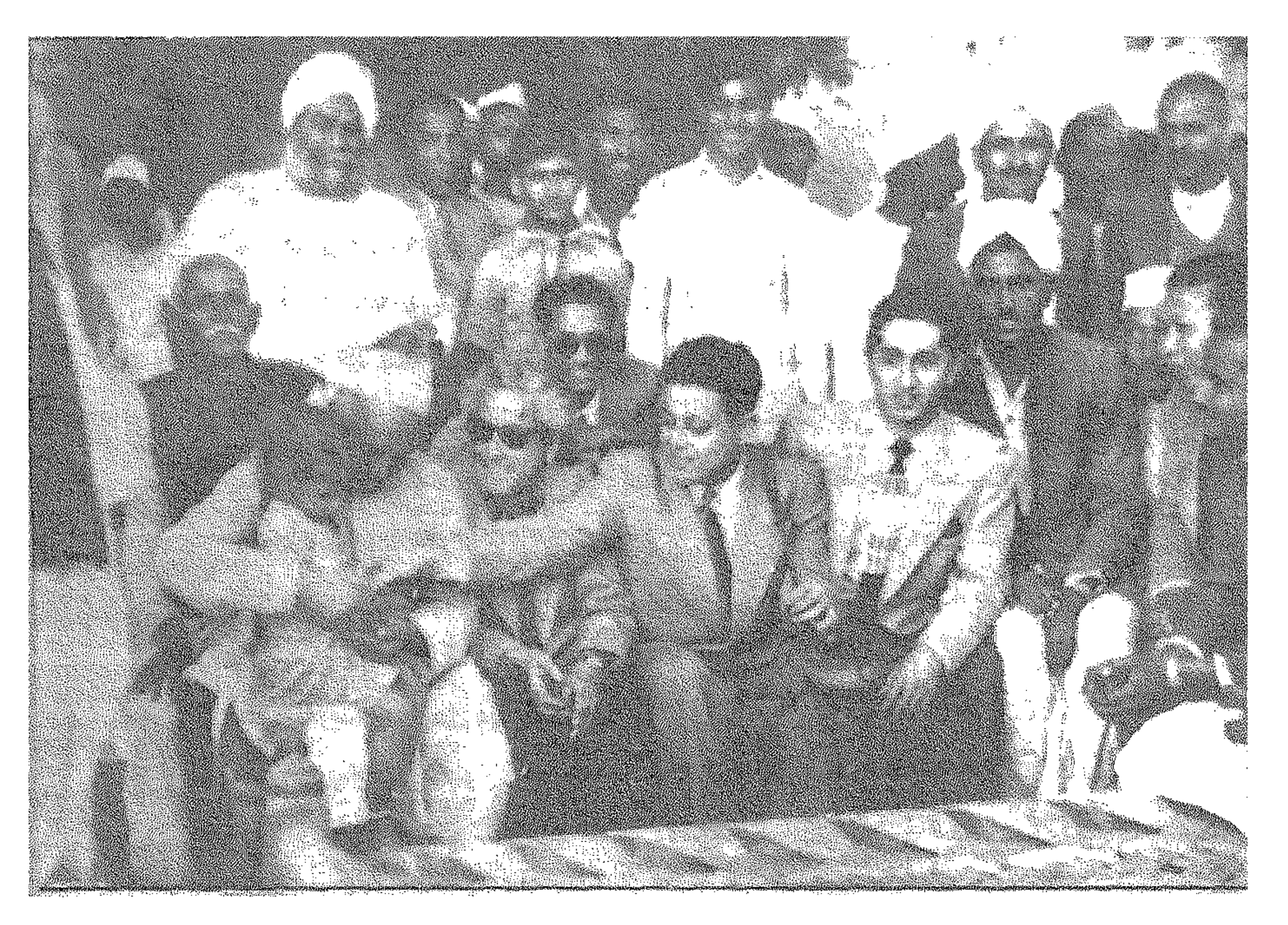
وكانت الليلة ممتعة وطالت السهرة وعدت مع الأستاذ المصرى وزوجته... وخلال العودة سألته لماذا لا يعمل فى قسم الأدب الانجليزى فى مصر مادام قد قام بذلك فى بريطانيا ، وقال لى «أنا لا أريد ولا أظنهم يرحبون، وهم يعرفوننى جيدا، ويعرفون آرائى».. ثم قال «لا تظن أنهم جميعا مثل مضيفنا ، هذا نموذج نادر، ولا أظنه محبوبا بينهم، لولا كفاءته وأنه يستطيع أن يحتل هذا المركز فى أى جامعة.. وطبعا لابد أن نعرف ان معظمهم يؤدون مهام أخرى غير التدريس، وأنهم جزء لا يتجزأ من السياسة البريطانية.. ولهذا اخترت التدريس فى معهد الصحافة ربما نحتاج إلى أقلام تكتب فى الصحف أكثر من حاجتنا إلى أدباء» يجيدون شكسبير».

وقال لى أيضا «إننى اشتغل الآن بكتابة رواية عن مصر منذ ثورة ١٩١٩ حتى الآن، وأنا من الذين يثقون ان هذه الحرب سوف تتمخض عن ثورة أكبر من التى اجهضت وأريد أن أكتبها بالعامية حتى يقرأها كل مصرى أو تقرأ له.. ولكننى كما ترى لا أستطيع التجوال ، ما رأيك أن تساعدنى فى ذلك وأن نعمل معا». وبغير أن أدرك ماذا يريد أو ماذا يعنى وافقت ومرة أخرى تذكرت أمى ولكن أحسست أننى سوف أعوضها عما فقدته.. بطريقة أخرى أفضل!!

● كل الطرق.. إلى الاشتراكية

وتطورت العلاقات وازدهرت وأصبحت فى فترة قصيرة جدا، وثيقة حميمة، وبدا كأننا نعرف بعضا من زمن بعيد، وبلباقة ورقة شديدة جعل منها صداقة «متكافئة» ورفع الكلفة لينادى كل منا الآخر باسمه الأول.

وبدأ العمل المشترك بيننا بداية مبشرة، وقدم لى كتابا مختصرا، بالانجليزية نشره فى بريطانيا لإحدى دور النشر الكبرى هناك وبعنوان « مقدمة فى تاريخ الشعب المصرى» وقال لى إن لديه مشروعا طموحا هو كتابة تاريخ الشعب المصرى ومن وجهة نظر الشعب نفسه، وفى رأيه أنه لم يعتد على تاريخ شعب أو يشوه مثلما حدث للمصريين وأن كل المؤرخين، مصريين وأجانب ، يكتبونه



مع زملاء مصريين فى زيارة لقرية هندية

على أنه تاريخ الملوك والحكام منذ الملك مينا مؤسس الأسرة الأولى حتى محمد على مؤسس الأسرة الحالية، وقد آن الأوان لأن يكتب تاريخ الشعب بكل طبقاته وفئاته، الفلاحين والعمال والموظفين والمفكرين والمهندسين.. كل الذين صنعوا التاريخ بالفعل، ليزهوا به الحكام ويتفاخروا، ولم يكن هناك مشروع أفضل يمكن أن أشارك فيه بحماس.

ولم نلبث بعد قليل ان اختلفنا واشتد الخلاف حول «الفراعنة» ، هل كانوا طغاة مستبدين نصبوا أنفسهم آلهة وأقاموا أول وأقسى مجتمع طبقى فى التاريخ وأسسوا أول دولة مركزية بيروقراطية قهرية وغرسوها عميقة وصاغوا بها كيان مصر حتى الآن، وهل سخروا الشعب طوال ألفى عام لبناء معابد ومقابر وعواصم ولنحت تماثيل ومسلات لتمجيدهم وتعظيمهم ، وفاجأتنى الرؤية، ولم أكن مستعدا لمواجهتها، ولم يكن الماضى

بالتاريخ الفرعوني، يؤهلني لمناقشة مستفيضة، ولكن كان أول ما لجأت إليه في الرد هو «مقبرة توت عنخ آمون» وأنه كان فرعونا صغيرا ولكن اكتشاف مقبرته بهر العالم كله، ورفع مكانة مصر وذكرها، بل ودعم القضية الوطنية المصرية في محافل العالم.. وطلبت تأجيل المناقشة حتى اتزود بالحقائق، وأن نشرك صديقنا الانجليزي في الأمر!

ووافق على التأجيل، ولكن بعد أن تعلمت منه آداب الاختلاف، مهما كان حادا .. وبدأنا العمل في الرواية التي كان يريد أن يكتبها بعنوان قصة «الثورتين» أي ثورة ١٩١٩ التي اشترك فيها وكان عضوا بارزا في تنظيماتها «المسلحة» والثورة القادمة التي كان متأكدا لا يخالجه شك أنها قادمة، وكان عليّ أن أغوص وأتغلغل لكي أكتشف أشخاصها وبراعمها واحتمالاتها وأن نقوم بدراستها والتبشير بها معا.

وكان العمل والنقاش والخلاف معه متعة مثيرة تنتهي دائما بقراءة في الشعر أو تبادل النكات ، وكان يتمتع بحاسة فكاهة ومرح فريدة.. وكنا كثيرا ما نستغرق في ذلك حتى ساعات طويلة من الليل، ولهذا كنت أضطر للمبيت لديه.. وكان يسكن فيللا أنيقة في شارع الهرم، ولديهم غرفة مستقلة ذات سلم خاص إلى الباب. وذات يوم سألني لماذا لا أحمل متاعي - إذا كان هناك - وأقيم معهم ، ورحبت زوجته بالاقتراح وأيدته، وقبلته بكل سرور وانتقلت من الشقة الصغيرة المتواضعة في حي بين السرايات، وهو اسم على غير مسمى، وكنت اتقاسمها مع زميل بلدياتي «مستقيم» ومنقطع للمذاكرة والعبادة من الكلية إلى البيت ،إلى الجامع ، ولكنه يصر على صداقتنا ومودتنا وقيم «الشراقوة» وكان يحتمل ما لا يحتمل، وكانت الشقة كثيرا ما تزدحم بل وتكتظ بالوافدين بلا مأوى أو الهاربين من البوليس السياسي وأحيانا تستخدم مستودعا للمنشورات والمطبوعات المحرمة.. ورأيت أن أحصل على إجازة وأن يجد الهدوء والأمان لكي يستذكر وكانت السنة النهائية بالنسبة لكلينا واستمتعت بالحياة في غرفة وثيرة ذات حمام خاص بالماء الساخن، وتطل على حديقة ، ومحاطة بفيللات وحدائق مماثلة، وبطريقة الحياة الانجليزية الخالصة التي كان يعيشها واستمتعت بالافطار البريطاني.. الكورن فليك والأومليت بالسجق، أو الكبدة، والمارميليد والتوست والشاي «ايرل جراي» وقال لي أن الافطار البريطاني وجبة شبه مقدسة، وانها سر

صمود البريطانيين فى هذه الحرب وطوال تاريخهم . وأصبحنا شبه أسرة متوافقة منسجمة، هو وزوجته، وسكرتيره وسائقه ومدير أعماله فى شخص واحد ثم «الكلب» وكان مخيفا فى منظره وأليفا فى مخبره، ولكنه كان عضوا كاملا وعلى قدم المساواة مع الجميع ويحظى بالتدليل المفرط.

ولم يمض طويلا، حتى افتقدت بحرقة التسكع والسهر فى مقاهى الحسين، ورائحة الطعمية ودخان الكباب فى مطاعم بين السرايات والنقاش الساخن الصاخب فى شقق وغرف وأسطح منازل الزملاء، واتفقنا على تغيير الإقامة الدائمة، بقضاء «الويك اند» لديهم واللقاء فى الجامعة!

وكانت الفجوة قد اتسعت بينى وبين كلية الحقوق وتحولت إلى ما يشبه الانفصام وقلما كنت أتردد عليها ، وان كنت حرصت على حضور محاضرات أستاذين فقط كانا مختلفين، وكان معظم الباقين إما تقليديين يبعثون الملل، ويشرحون النصوص، أو يمينيين متطرفين أحدهم وصف الشعب المصرى ذات يوم بأنه شعب أحمر لأنه يريد مقاومة الاحتلال بالكفاح المسلح، والآخر كان ملكيا متعصبا، ظل يفاخر بذلك ويجاهر به.. حتى بعد نهاية النظام.

وكنت قد انتهيت عن يقين ان ما ندرسه ليس القانون أو أصول العدالة، ولكن شرائع وقوانين ونظم يفرضها المستعمرون والمستبدون والمستغلون لحماية سلطاتهم ومصالحهم – على حساب الأغلبية العظمى ، وان مهمتنا هى فضحها واقتلاعها من الجذور.. وكان هذا يعنى البحث عن البديل والسير عبر أشق طريق يسلكه الإنسان.

وانضممت والتحقت وانتسبت وتسللت إلى كل التنظيمات والتيارات يمينا ويسارا. للاختيار المباشر، وتجادلت وتحاورت وتصادمت مع القادة والقواعد وانسحبت واستقلت واعتزلت ، ثم حاولت من جديد.

وفى نهاية المطاف لم أجد بدا من الاعتراف.أننى لم أجد نفسى فى أى منها.. وبنفس القدر خرجت موقنا أن أحدا منها لا يملك «السر» أو يستطيع التغيير ولابد من انتظار «الخلاص» من طريق مجهول.

ولم يعن ذلك فقدان الثقة ولكن الخروج بإيمان خاص و«تكوين» مختلف.

انتهيت إلى الإيمان واستعدت اليقين ورجعت إلى ما نشأت عليه.

وكان الدين متأصلا عميق الجذور، غرسته أمى التى كانت توقظنى بحنان شديد لأصلى الفجر معهم، والتى كانت

تطلب إلىّ أن أؤمها فى الصلاة فى غياب أبى والتى كانت تصطحبنى إلى الدرس الأسبوعى الذى كان يلقيه شيخ جليل من أولياء الله الصالحين على سيدات الحى فى احدى زوايا الحسين، والذى كان يبشرها دائما بأن الله سوف يبارك لها فىّ وأننى سوف أغدو ذا شأن.

وكان بيتنا لا يخلو أبدا من المشايخ الذين يذاكرون مع أبى. ويصلون جماعة ويرتلون القرآن والأوراد.. ويشيعون البركة والخير كما كان يقول، ورغم ذلك شككت وألحدت ووقفت على السور مع «الغنوطين» كما يسمون ثم قررت التعرف على كل الأديان بلا استثناء وهيىء لى لبعض الوقت أننى انتهيت إلى «البوذية» ، ولكن لم البث أن رجعت إلى ما نشأت عليه، بعد إعادة اكتشافه واعتناقه بالعقل والالهام.

استوليت على مكتبة أبى، وأضفت إليها الفقهاء القدامى والمحدثين والمستشرقين أيضا، حتى أشرق نور الحقيقة. وآمنت أن الاسلام يمجد الإنسان، وان الله اختاره خليفته على الأرض، وأمر الملائكة أن يسجدوا له.

وفى ظل الإسلام كل الناس سواسية كأسنان المشط لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى.

والإسلام دين خلاق متطور، لا اجتهاد فيه فى العبادات ولكن الاجتهاد متصل فى المعاملات وان الناس أعلم بشئون دنياهم.

ولم يحل ذلك دون اقتناعى واعتناقى «للصراع الطبقى» وأن التاريخ هو صراع دائم متصل بين طبقات ظالمة وطبقات مظلومة مقهورة ، وأن الاقطاعيين خلعوا الرأسماليين وأقاموا عالمهم، وأن الفلاحين والعمال سوف يخلعون هؤلاء بدورهم ويضعون نهاية للحرب ، وتقوم المدينة الفاضلة .. حيث يسود العدل والرخاء ويصبح الانسان رفيقا وأخا للانسان .

ونهلت بغزازة من تراث ماركس وانجلز ولينين وستالين ثم من ماوتسى تونج، وهوشى منه وقد نضج وعيى باليسار أول ما نضج على الاشتراكية البريطانية . بفضل صديقى الانجليزى، ولذا رسيت عميقة وطيدة، أن الديموقراطية هى الوجه الآخر للاشتراكية ولا تقوم إحداهما بغير الأخرى أو على حساب الأخرى ، وأن هذه مهمة عسيرة بل هى المعادلة الصعبة التى يعتمد على حلها كل النجاح وبهذا . التكوين تبلورت لدىّ رؤية «مصر الاشتراكية» وأن ذلك مصيرها. سوف تكون اشتراكية خاصة متميزة تعكس كل عبقريتها وتراثها الروحى والحضارى وتحل كل مشكلاتها حلولا جذرية مصيرية.



محمد عودة مع الرئيس نكروما فرغانا

وانضمت دعامة أخرى إلى دعامات «التكوين» بعد حرب فلسطين ..

وفى ظل الهزيمة والاحباط رأيت الخريطة العربية ، وتبدى لى العملاق المثخن بالجراح ، وأنه سوف يقف يوما على قدميه كما حدث للصين، وأنه لابد سوف يزلزل العالم مثلها .. لديه كل المقومات الروحية والمادية ليضمد جراحه ، ويسترد كل قوته وهيبته .. سوف تنتزع الجيوش العربية التى دفعت كل الثمن السلطة من الحكومات الخائنة العاجزة .. وسوف يقوم جيش عربى مختلط من أربعين فرقة ينطلق شمالا وشرقا وغربا وجنوبا .. كما فعل تشيانج كاى شيك «ثم ماوتسى تونج وتقوم قوة عظمى ..

ولم يكترث من حاولت اقناعهم يومئذ ولكن ظللت متحمسا مصرا على هذا الخيال .

وكان زميلى «وبلدياتى» وصديقى



مع رجاء نعمة أديبة لبنانية وتيناسيبال ديبلوماسية هندية. وسهير فهمي محررة ثقافية بالاهرام الفرنسي

الذى يشاطرنى المعيشة لايفتأ يذكرنى أن هذه هى السنة النهائية وان علىّ أن أدع كل شىء واتفرغ الاشهر الباقية للمذاكرة.

وكنت قد نسيت ذلك تماما وبدا أمراً بعيدا ، ان لم يكن غير ذى قيمة – فى ظل «التكوين» الجديد ، ولكن لم ييأس صاحبى وأصبحت قضية دائمة بيننا ، ومضى يعدد مزايا الحصول على «ورقة» الاعتراف من المجتمع وهى الليسانس ، وأن ذلك ضرورى للمناضل والمواطن على السواء . وبدأت أقتنع شيئا فشيئا وانفض الغبار عن الكتب المهملة ، وأعاود الحضور.

وكان نموذج «المحترف الثورى» ، يجتذبنى ويغرينى ، وهو الرجل الحديدى وطليعة الحزب الحديدى، والذى يعيش ويموت من أجل الثورة وفى أى لحظة، وذات يوم فاجانى احدهم قائلا هل يمكن أن تقضى على «عدو طبقى» إذا لحقت بذلك؟ وأفقت على السؤال واكتشفت ان كمية الحديد والعنف «الثورى» لدى لا تؤهلنى .. فضلا عن أن النماذج «المحلية» التى رأيتها لم تكن مشجعة .. ورأيت أن المحاماة هى أقصى ما أصبحت اتطلع إليه والدفاع عن الحقوق المغتصبة أو المهدرة ..

وذات يوم طلبنى الاستاذ وقال لى إننا مدعوان لتناول الشاى مع الدكتور طه حسين وبالطبع تصورت أننى سوف أصحبه كمجرد مرافق ، ولكنه فاجانى بانى مدعو بالاسم .

ولم أكن اعرف الدكتور طه حسين وان كنت قد واظبت على حضور محاضراته فى الجامعة وخارج الجامعة وقرأت بالطبع كل كتبه ودراساته ومقالاته وباعجاب شديد ، خاصة وقد بدأ ينحاز بوضوح

وشجاعة إلى «المعذبين فى الأرض» .

وذات يوم ، قبل عام ، كان يلقى محاضرة فى الجامعة الأمريكية ، ووجهت إليه سؤالا بعد المحاضرة . وفى فترة الحوار وأجاب عليه إجابة مستفيضة واعتبره أهم سؤال وجه إليه ولكن اختتم الاجابة الساحرة كالعادة نهاية لاذعة أثارت ضحك كل الحضور .

وخلال الانصراف جاءنى رسول يقول ان الدكتور يريد أن يراك ، وفرحت فرحا غامرا ، وذهبت وصافحنى مبتسما وقال : هل انت غاضب .

وقلت : أنا سعيد وفخور أن أصافحك واقابلك.

واقترب قليلا وقال لى بصوت منخفض

- «هل أنت شيوعى؟ »

وقلت له بصوت مسموع:

- لا أنا اشتراكى ديموقراطى يسارى وتأكيدا، قلتها بالفرنسية .

- وضحك وسألنى عن اسمى وأحوالى - وطمأنته . وقال لى مودعاً :

- خذ بالك من نفسك . وانتهى كل شىء .

وذهبت مع الاستاذ إلى بيت الدكتور طه حسين .. وكانت أقرب إلى الذهاب إلى «مزار» مهيب ، ودهشت كل الدهشة حينما ذكرنى بالاشتباك الذى دار بيننا أمام الحاضرين ، وكانوا نخبة رفيعة من المصريين والأجانب واستبقانا الدكتور بعد انصراف الباقين .. ودارت مناقشات من نوع آخر بعد أن ارتفعت الرهبة وروى له «الاستاذ» اننى فى السنة النهائية وأننى لا ألقى اهتماما بالمذاكرة أو الليسانس.

وقال الدكتور :

- لا.. تنتهى من الحقوق ثم نرى ربما تسنح لك فرصة للسفر إلى فرنسا مثلا لتتعرف إلى الاشتراكية على أرضها ..

وخرجت وانتظر الاستاذ بعض الوقت ولحق بى وقال - هذا رجل مكشوف عنه الحجاب يرى الناس من الداخل قبل الخارج .

وفى اليوم التالى جاءنى رسول يخبرنى أن الدكتور طه قد رتب لى منحة دراسية لكى اتفرغ للمذاكرة والحصول على الليسانس .. وغمرنى هذا العطف وشعرت بعرفان عميق بالجميل .. وظل معى طوال حياتى وشعرت اننى مكلف تكليفا لا يرد ولابد أن أوفيه هو الحصول على الليسانس .

وحدث ذلك وكان ترتيبى بين العشرة الأواخر ولم أفكر فى السفر إلى الخارج وقررت أن أعمل بالمحاماة . سوف أعود إلى البلد وأمارس المهنة هناك وكتبت خطابا إلى الدكتور طه اخبره بما انتهيت إليه وسافرت إلى فاقوس ☐



● القوة الاقتصادية : متى نحققها ؟ ●

● أكد الرئيس حسنى مبارك أن التحدى الكبير هو بناء القوة الاقتصادية القادرة على ان تصل بمصر الى القرن القادم .. إن جميع الجهود الوطنية لمؤسسات الدولة التنفيذية والمحلية ، وجميع سلطاتها تتكامل من أجل تحقيق مستوى أفضل لأبناء الشعب .

هذا ، والقوة الاقتصادية ، اصطلاح غامض . ويعنى - فى رأينا - الثروة والرخاء والرفاهية لكل أفراد المجتمع باختلاف مستوياتهم الاقتصادية ، وهذا يعنى أن الأغنياء سوف يزدادون ثراء تدريجيا ، وان الفقراء سوف يزدادون - بالتوازى مع الاغنياء - فى الدخل وفى مستويات المعيشة .

ونحن نرحب برفع هذا الشعار اليوم ، وكنا نتمنى ان نرفعه مبكرا فى السبعينيات من هذا القرن والسؤال هنا هو : القوة الاقتصادية لمن ؟ للشعب أم للحكومة ؟ ولقد أجاب سيادته على هذا السؤال قائلا إنها للشعب ، والواقع ان مايمتلكه الشعب من ثروة هو ملك للبلد كله ، وتتوارثه وتنميه الأجيال المتعاقبة ، ومن الطبيعى ان تحظى الحكومة بقسط لا بأس به من هذه الثروة عن طريق الضرائب ، مما يمول مختلف خدماتها للشعب . علما بأن حكومتى الولايات المتحدة واليابان (ومعروف انهما أكبر دولتين فى عالم اليوم) كل دخلهما من الضرائب وحدها ولاشىء غيرها .

وكاتب هذا السطور يؤمن بأن شركات الاستثمار الجديدة - سواء كانت مصرية أم أجنبية - من حقها التمتع بمختلف التسهيلات والامتيازات التى تقدمها لها الحكومة لكى تحقق رسالتها على الوجه الأكمل .. فلنقدم لها الأرض مجانا أو بأسعار رمزية ، ولنقدم لها القروض التى تدعم نشاطها . ولنقدم لها كل ما تطلب من خدمات ممكنة ، ولكننى فقط أنبه الى المحاذير الآتية :

أولا : لا ينبغى اعطاء المستثمرين الجدد تخفيضات جمركية خاصة بهم . فعندما أعطينا هذه التخفيضات فى الاسمنت المستورد لبناء منشآتهم : استوردوا الأسمنت بكميات مضاعفة ، وباعوها فى السوق المحلى بأسعار منافسة للأسمنت المصرى وحققوا بذلك أرباحا طائلة طفيلية . التخفيضات الجمركية - إذا لزم الأمر ينبغى أن تكون عامة لكل المستوردين ، وليست خاصة بفريق دون بفريق .

ثانيا : لاينبغى اعطاؤهم – عند بدء النشاط – اعفاءات لمدة محددة . فهم يستفيدون من هذه الاعفاءات وفى نهايتها يصفون مؤسساتهم تصفية «دفترية» ثم ينشئونها من جديد باسم جديد ، لكى تحظى بمدة اعفاء جديدة ، وهكذا . انها أسهل طريقة للتهرب الضرائبى ، وحتى لو أردنا اغراءهم بخفض في ضريبة ما فينبغى ان يسرى هذا الخفض على كل الممولين ، حتى لايمتازوا باستمرار على غيرهم من الممولين.

والتاريخ يقول لنا ان الوالى المستنير محمد على الكبير ، أصدر صيحة عالية بالانفتاح على الغرب ، بعد ان كانت مصر فى عزلة تامة عن العالم لقرون كثيرة . ولكننا لم نستفد من هذه الصيحة كثيرا فلم يستمر هذا الانفتاح طويلا ، وانطفأت شعلته سريعا ، وذلك لأسباب عدة أهمها :

١ – جهل الحكام من خلفائه. ٢ – التدخل الأجنبى فى شئوننا . ٣ – مارافق هذا التدخل من صيحات رجعية عالية ، كارهة للغرب مطالبة بالعودة الى القديم ، وهى صيحة لا تزال قائمة حتى اليوم .

والتاريخ يقول لنا أيضا إنه فى نفس القرن الماضى ، وفى أقصى شرق العالم أصدر امبراطور اليابان المستنير «مايجى» عام ١٨٦٨ صيحة كبرى بالانفتاح على الغرب بعد أن كانت اليابان فى عزلة تامة عن العالم لقرون كثيرة ، وذلك بسبب الخوف من الأجانب وكراهيتهم ، وخشية أن يصنعوا باليابان ماصنعوا بجارتهم الصين ، وأعلن الامبراطور هدفه بوضوح ، وهو انشاء دولة قوية اقتصاديا وحربيا ولم يأت عام ١٨٨٠ الا وقد حقق هدفه ، فأصبحت اليابان – فى هذا الزمن المبكر – قوة اقتصادية وحربية تنازع الدول الكبرى فى النفوذ بالشرق الأقصى ، وحاربت وهزمت امبراطوريتين كبيرتين هما الصين وروسيا ، وحديثا رغم هزيمتها فى الحرب العالمية الماضية عام ١٩٤٥ ، ورغم أنها أصبحت محتلة بالقواعد الأمريكية حتي يومنا هذا ، فقد استمر انفتاحها علي الغرب ، حتي أصبح الشعب الياباني قوة اقتصادية عظمى ، وأكثر دول العالم اليوم ثراء .

مهندس : أمين محمود العقاد – ٥ ش نعيم بالزقازيق

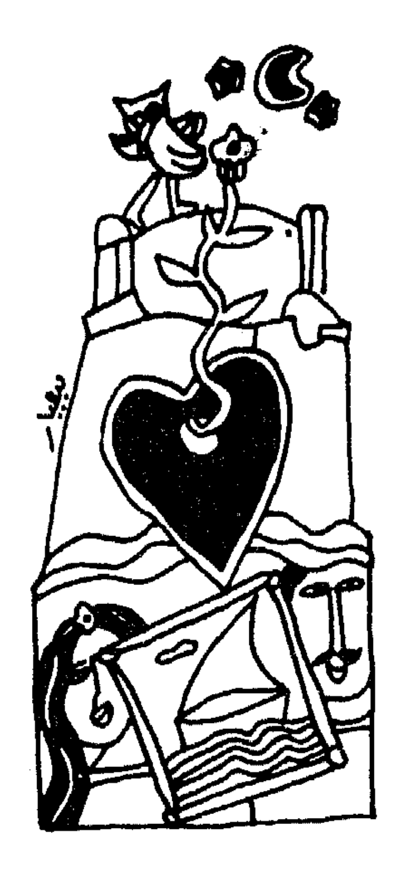
● تصحيح صورة ●

● فى هلال يناير ١٩٩٦ نشرت صورة للشيخ محمد عبده بصفحة ٧١ كتب تحتها «الشيخ محمد عبده في أسوان عام ١٩٠٠» والحقيقة ان هذه الصورة للشيخ محمد عبده حينما زار السودان ، كما هو واضح من الصورة حيث يستقبله بحفاوة علماء السودان ، بينما ظهر عن يساره الحاكم العام للسودان فى ذلك الوقت ، ويخيل الى ان هذه الصورة رأيتها بعدد الهلال الخاص بالشيخ محمد عبده قبل ذلك .

مصطفي محمود مصطفي – كفر ربيع ، منوفية



• تواصل •



لمن أحببت أرسلت القصيدا
ورحت مغردا أرجو المزيدا
نسجت قصائدى ثوبا شفيفا
ولكن الحبيب مضى بعيدا
اسافر خلفه فى كل يوم
وأسأل عنه قلبي والبريدا
جواباتى تمزقها الليالى
واشرعتى رجاء لن يعودا
معذبتى وفى القلب اشتياق
جفاؤك ردنى طفلا وليدا
واضحت أغنياتى دون لحن
يعيد وميض عمرى والوجودا
ألا من يحمل الأعباء عنى ؟
وقد جبت الدنا بحرا وبيدا
أنا أوتار عود قد تلظى
وذاق الهجر سما والصدودا

محمد محمد أسد - حلب - سوريا

• منزل العقاد •

● صدمت حين زيارتى للقاهرة الحبيبة اذ علمت ان منزل الاستاذ الكبير المرحوم عباس العقاد سيهدم ويبنى مالكوه مكانه برجا سكنيا ، فلماذا لايحول منزل العقاد بمصر الجديدة الى متحف كما حولت وزارة الثقافة منزل طه حسين ومنزل احمد شوقى ومازالت مكتبة العقاد محجوزة لمصلحة الضرائب وقد رتعت فيها الفئران .

هاني محمد علي اللوباني - عمان - الاردن

● تعليق :

- منزل طه حسين كان ملكا له ، وكذلك منزل شوقى كان يملكه شوقى ، اما

العقاد فكان يسكن بالايجار فى منزله بمصر الجديدة ، وهذه هى المشكلة لأن أصحاب هذا المنزل القديم الذى كان يسكنه العقاد يقولون انه آيل للسقوط ويريدون هدمه ، ويمكن بناء جناح فى البرج الذى يريدون تشييده باسم العقاد ، كما يمكن ان تأمر الحكومة بالافراج عما تبقى من مكتبة العقاد التى نظن ان الكثير قد ضاع منها .. وللعقاد ضريح كبير فى بلدته اسوان ، وله شارع اسمه «شارع عباس العقاد» فى مدينة نصر الملاصقة لمصر الجديدة ، وهو من اضخم وأطول شوارع القاهرة الكبرى

● برامج تليفزيون رمضان ●

● قابلت «كلام من دهب» وكسبت جنيه دهب من طارق علام وبدون كلام ذهبت لسيارة الأحلام ، أجرتها ٣ أيام ثم ذهبت الى داكار لكى أرى «الحفار» فوجدته غرقان بدون هوان وانا عائد وجدت «رابعة» قد عادت وعندما وصلت الى مصر قررت انى «لن اعيش فى جلباب ابى» لكن شبح الحفار يطاردنى فذهبت الى «بوابة الحلوانى» فوجدت «نصف ربيع الثانى» ثم وجدته قد نادانى وهو يصرخ ويقول «مين اللى مايحبش فاطمة» قلت له تعالى معايا على «الملاحات» نشوف الصبر ونسيب اللى غرق غرق واللى مات مات قالى ليه هو الحفار والابطال لم يعلموك الصبر وصرف الأموال عمال على بطال ، قلت له على رأيك وعدت إلى البيت قلت لهم «دستور يا اسيادنا» ودخلت «نمت فى العسل» وحلمت انى «هربت الى القمة» وقمت على ريحه البالوظة لقيتهم عاملين «استاكوزا» اكلت زى «الفجر» ونسيت الدنيا ودخلت نمت فى العسل تانى .

ملحوظة : الكلمات التى بين الأقواس هى اسماء بعض البرامج التليفزيونية.

احمد حمدي هويدي - المنوفية - اشمون - ش التأمينات

● التكوين ●

● أود ان أعلن اعجابى الشديد بالسير الذاتية التى تنشر بالهلال تحت عنوان «التكوين» .

حسن منتصر - فارسكور

• رقصات على ايقاع الصمت •

– ١ –
تلك القصائد ..
.،، منك ؟
لا بل انت منها !
– ٢ –
يرهقنى ..
.. أن أكتب !
يرهقنى ..
.. أن أمسك بالقلم
.. ولا أكتب !
.. يرهقني .. ألا أكتب
– ٣ –
قد أكتب يوما
شعرا معقولا
تصدق فيه قوانين المنطق
والتاريخ وعلم النفس
لكن من ذا – لو أكتب ..
.. هذا الشعر المعقول
سيكتبنى ؟
– ٤ –
من لى بحديث
أتلوه على رأس الثيب
تصبح بكرا ؟
– ٥ –
أحلم
ان تبدأ باسمى ..
.. لغة بكر
لم يقربها انس
- من قبل - ولا جان!
– ٦ –
من يملك من ؟
البحر ام الاشرعة ؟
الأمواج ام الريح ؟
الفنان ام الفن ؟
من يملك من ؟
–٧–
النهر الرابض
فى حضن اللوحة
ليس يفيض
آه ما أظمأ فرشاتى !

هشام محمود زاهر–الزقازيق

• الفنان التونى •

● تحية خاصة إلى الفنان حلمى التونى على الرسوم الجميلة التى صدرت عن أغلفة الهلال فالتونى يرسم ويلون ويزخرف بروح مصرية ، وهو ما جعله قريبا من النفس .

حبيب جميل الحلفاوي - ٨٠١٠ منزل أبو زلفة - تونس

• ملاحظـــات •

● فى مقاله القيم ، «الادب والعلم والثقافة الثالثة» فى هلال مارس ١٩٩٦ كتب الدكتور أحمد مستجير – وهو من علمائنا الادبية الرفيعة والخبرة العميقة بعلم العروض ـ ان كتاب العالم والروائى البريطانى تشارلز بيرس سنو «الثقافتان والثورة العلمية» لم ينقل الى العربية . والواقع ان لهذه المحاضرة ترجمة كاملة صدرت فى العراق تحت عنوان «الثقافتان الادبية والعلمية ونظرة ثانية» للدكتور صالح جواد الكاظم فى سلسلة «الموسوعة الصغيرة» العدد ١٢٠ من منشورات دار الجاحظ للنشر ببغداد (١٩٨٢) ولدى نسخة منها كما ان الدكتور رمسيس عوض قد كتب عن محاضرة سنو هذه فى كتابه المسمى .. «س . ب . سنو والثورة العلمية» .. الصادر عن المصرية العامة للكتاب فى ١٩٨٠ ، وكتب عنه د . زكى نجيب محمود فى بعض مقالاته التى جمعتها دار الشروق فى طبعة قشيبة ، وقبل ذلك كله كتب د . مرسى سعد الدين عن سنو على صفحات مجلة المجلة فى الستينيات

كذلك يتحدث الدكتور مستجير عن الناقد والشاعر الفيكتورى آرنولد ماثيو كما يسميه ، وصواب اسمه هو ماثيو آرنولد .

د . ماهر شفيق فريد – استاذ مساعد الادب الانجليزي

• قضية القدس •

● ان الاهتمام الذي توليه مجلة الهلال لقضية القدس تستحق عليه كل التقدير ، فانتم بذلك تساهمون بفاعلية وموضوعية في تنوير الرأي العام باهمية هذه القضية ، التي هي محور العمل العربي والاسلامي في اطار الجامعة العربية وفي منظمة المؤتمر الاسلامي.

عبد العزيز بن عثمان التويجري المدير العام للمنظمة
الاسلاميـة للتربيــة والعلــوم ـ الربــاط ـ المغـرب



• موسوعة عربية فى المهجر •

● المهجر يعج بالكفاءات العربية العالية فى شتى ميادين المعرفة ويشعر معظم حملة هذه الكفاءات بالانتماء الثقافى والقومى والدينى الى الوطن الأم . وتبدو هجرة تلك العقول التى كانت ولاتزال جارية بوتائر عالية ، لاسيما لدى اشتداد الأزمات والكوارث ، حقيقة واقعة يتعذر وقفها او تأخيرها ، فقد يتسنى فى حالة أضعف الايمان ، تحويلها الى ظاهرة مفيدة للعالم العربى والاسلامى بوجه عام . من خلال حشد تلك الطاقات المشتتة لانشاء مؤسسة موسوعية تحاول ان تحقق كلا او بعضا من الغايات والاغراض المذكورة فى المادة المرفقة .

فقد قام عدد من المنظمات العربية العاملة فى الولايات المتحدة (ومنها النادى العربى فى الأمم المتحدة ، ولجنة العلاقات الأمريكية - العربية ، والمجلس الأمريكى - العربى الذى يضم عددا من المنظمات العربية العاملة فى أمريكا ، ومجلة «الحوار» التى تصدر فى واشنطن ، وجريدة «المنصة» التى تصدر فى نيوجرسى) بطرح مشروع لانشاء مؤسسة موسوعية دائمة تعمل على اعداد موسوعة عربية جامعة وتحقق أهدافا متعددة ومتكاملة ومتفاعلة ، يمكن تلخيصها فيما يلى :

١ - اعداد الموسوعة : التى تقدم للمتعلم والمثقف والباحث خلاصات العلوم والمعارف البشرية ، بتركيز على الأهم والاحالة الى المراجع لتحصيل المهم . كما انها تتوخى البحث العلمى الموضوعى والاستقصاء الأكاديمى ، وتشدد على عرض مختلف وجهات النظر فى القضايا الخلافية المستحكمة .

٢- اعادة كتابة التاريخ العربى الاسلامى . الذى كتبه ، فى العصر الحديث المستشرقون الأجانب ، من جهة ، أو المؤرخون العرب أو المسلمون من جهة أخرى ، وغالبا ماكانت هذه الكتابات متأثرة بحالة الأنا والآخر ، مما يؤدى الى عدم معالجة الأحداث التاريخية وتحليلها على نحو موضوعى نقدى .

٣ - ستشكل هذه المؤسسة بوادر نهضة ديمقراطية ، قد تمتد خيوطها الى العالم العربى على المدى البعيد لزرع بذرة حضارية قد تؤتى ثمارها بعد عقود أو اجيال أو أكثر ، تيمنا بحركة الموسوعيين فى فرنسا والرابطة القلمية فى المهجر.

٤- تمثل مؤسسة الموسوعة منبرا تتفاعل فى رحابه الآراء والنظريات بحرية وديمقراطية وتصب عطاءاتها فى صفحات الموسوعة ، وفى مطبوعاتها الأخرى ، لتعطى للقارىء العربى مثالا حيا لميزات اختلاف وجهات النظر ومحصلاتها .

٥- تقدم الموسوعة نماذج واقعية لطرائق البحث العلمى الموضوعى القائم على تقصى الحقائق وتمحيصها ونقدها ، وعرض الآراء والنظريات بإخلاص وحيدة ، مما يتيح للنشء العربى القادم أقصى قدر من الحرية فى التفكير والابداع .

٦ – تغنى المكتبة العربية وتسد حاجة ماسة الى مصنف جامع بالعربية يضم جوانب المعرفة البشرية .

٧ – تثرى اللغة العربية وتطوعها لمواجهة مختلف العلوم الحديثة ، مما يؤدى الى تحديثها وتطويرها مع المحافظة على قواعدها ومفرداتها الأصلية .

٨ – تؤدى الى اغناء الفكر العربى من خلال ترجمة معظم العلوم والمعارف الحديثة مما قد يسفر عن حركة فكرية خلاقة على غرار ماحدث بعد القرن الثانى للهجرة فى اعقاب حركة الترجمة الى اللغة العربية التى أثرت الحضارة العربية الاسلامية . .

٩ – سيشكل العلماء والمثقفون العرب الذين ينتمون الى مؤسسة الموسوعة نقاط اتصال مستمرة بين مؤسساتهم العلمية ، والمؤسسات العلمية فى الوطن الأم . مما يؤدى الى تبادل الخبرات والمعارف الهادفة الى اغناء الفكر العربى من جهة ، وتزويد الأوساط الثقافية فى هذا البلد بفكرة صحيحة عن العالم العربى والثقافة العربية الاسلامية وتطورها ، من جهة أخرى .

١٠ – قد تشكل هذه المؤسسة الثقافية حركة فكرية ، وبالتالي سياسية قد تتمكن من منافسة اللوبى الاسرائيلى فى التأثير على توجيه سياسة الادارة الأمريكية ، أو الادارات الأخرى في البلدان الغربية لمعالجة القضايا العربية بعدالة أكبر

١١– تعمل على تعزيز الانتماء الثقافي والاجتماعى والفكرى للمغتربين العرب ، بوجه عام والعلماء والمثقفين العرب بوجه خاص ، بواسطة تنشيط دور اللغة العربية ونشرها والتعريف بالتراث العربى الاسلامى بأسلوب موضوعى نقدى ، واستمرار الصلات بين المثقفين فى هذا المهجر والوطن الأم .

●●●

أما وسائل تحقيق هذه الاهداف الطموحة فقد عرضت فى ورقة العمل المعدة لهذا الغرض بما فيها خطة العمل والتنظيم والتمويل ، فضلا عما تمخضت عنه الاجتماعات والحوارات التى جرت فى أروقة النادى العربى فى الأمم المتحدة ، والمنظمات العربية الامريكية العاملة فى منطقة نيويورك / نيوجيرسى ، وما أسفر عنه الحوار الذى جرى اخيرا فى مركز الحوار العربى الأمريكى (فيرجينيا) وخلاصة الاراء والمداخلات التى وصلت من عدد من المثقفين العرب والمنظمات الثقافية العربية والاجنبية ، في شتى أرجاء العالم (ولاسيما أوربا والعالم العربى) في أعقاب نشر بعض المقالات والبحوث التى تتعلق بالموسوعة فى صحف عربية توزع على نطاق عالمى .

وتسعى تلك المنظمات الى استقصاء آراء ومداخلات المثقفين العرب والأجانب بوجه عام ، فضلا عن المنظمات العربية والاجنبية – بشأن هذا المشروع وتنتظر طلبهم ورقة العمل ومرفقاتها بما فيها خطة العمل ووسائل التمويل – بغرض دراستها وارسال تعليقاتهم بشأنها ، تمهيدا لضمهم الى الهيئة التأسيسية للموسوعة بناء على رغبتهم .

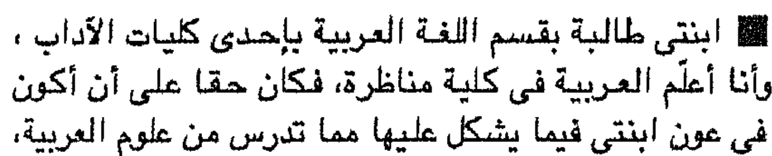
وللحصول على ورقة العمل أو أية معلومات اضافية عن مشروع الموسوعة ، يرجى الاتصال بالعنوان التالى :

ALA AL - ARAJI علاء الاعرجي
7100 BLVD . East, Cuttenberg N.J. 07093.USA
TEL / Fax(201)869-5157

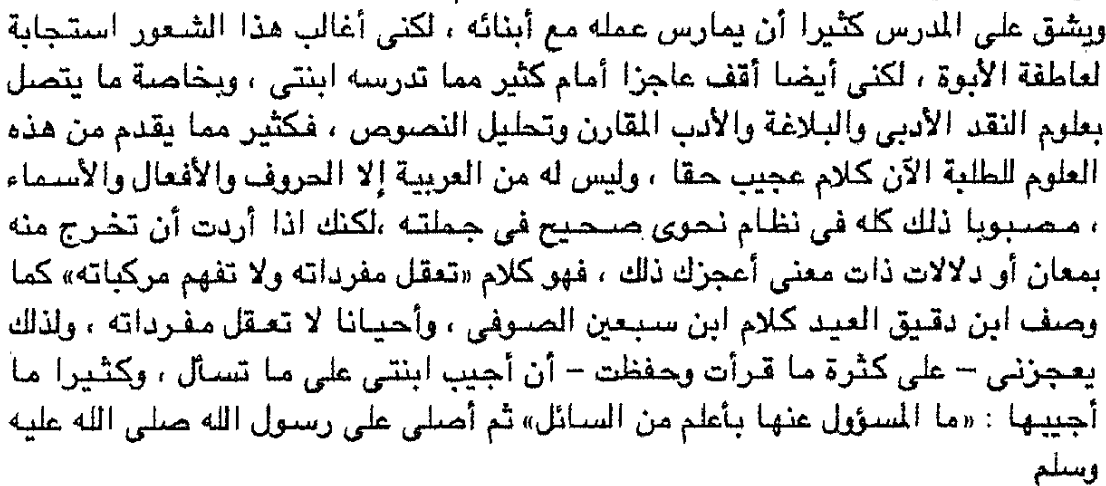
الكلمة الأخيرة

ما المسئول عنها بأعلم من السائل

بقلم : د . محمود الطناحى

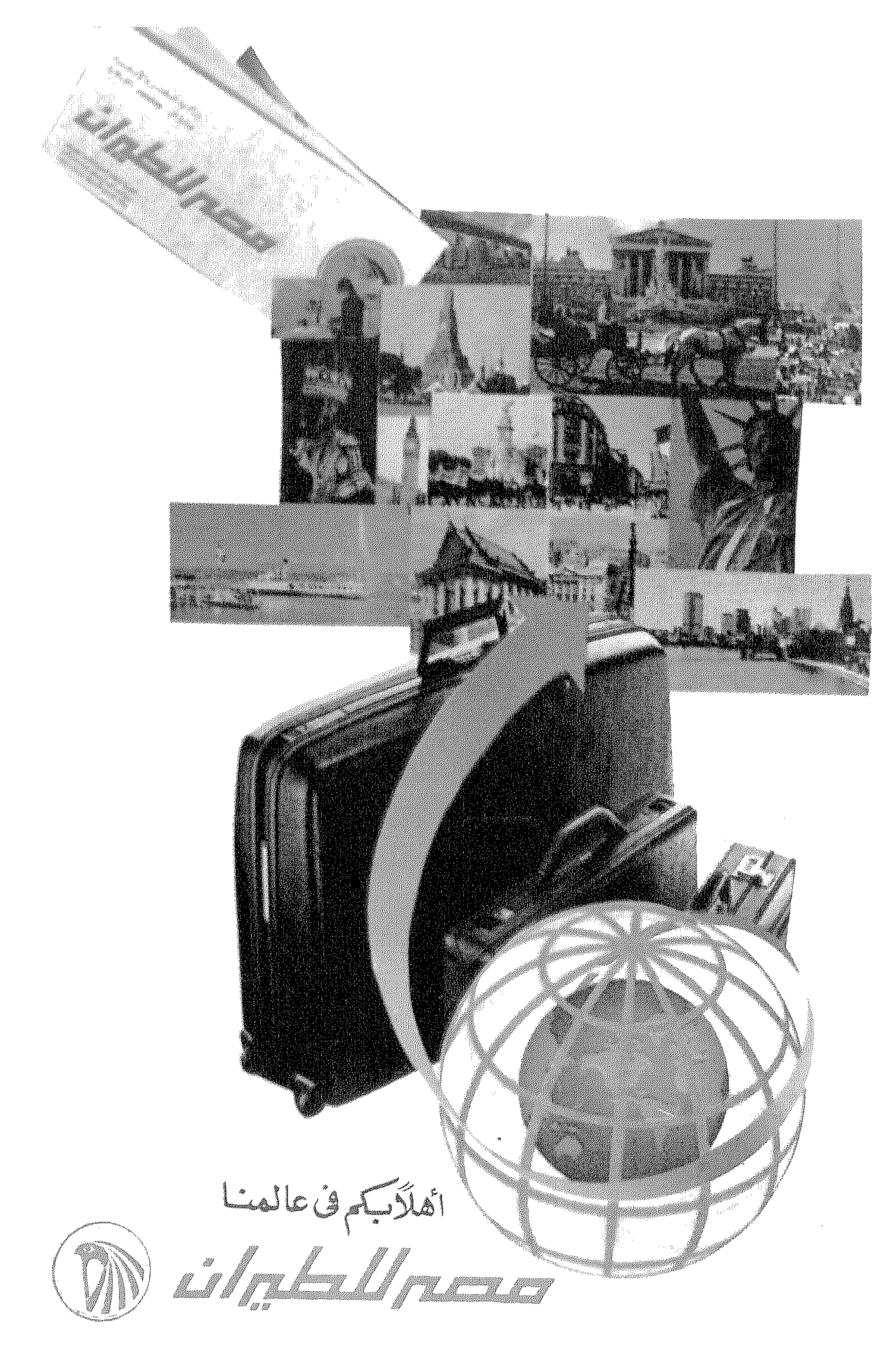


■ ابنتى طالبة بقسم اللغة العربية بإحدى كليات الآداب ، وأنا أعلّم العربية فى كلية مناظرة، فكان حقا على أن أكون فى عون ابنتى فيما يشكل عليها مما تدرس من علوم العربية، ويشق على المدرس كثيرا أن يمارس عمله مع أبنائه ، لكنى أغالب هذا الشعور استجابة لعاطفة الأبوة ، لكنى أيضا أقف عاجزا أمام كثير مما تدرسه ابنتى ، وبخاصة ما يتصل بعلوم النقد الأدبى والبلاغة والأدب المقارن وتحليل النصوص ، فكثير مما يقدم من هذه العلوم للطلبة الآن كلام عجيب حقا ، وليس له من العربية إلا الحروف والأفعال والأسماء ، مصبوبا ذلك كله فى نظام نحوى صحيح فى جملته ،لكنك اذا أردت أن تخرج منه بمعان أو دلالات ذات معنى أعجزك ذلك ، فهو كلام «تعقل مفرداته ولا تفهم مركباته» كما وصف ابن دقيق العيد كلام ابن سبعين الصوفى ، وأحيانا لا تعقل مفرداته ، ولذلك يعجزنى - على كثرة ما قرأت وحفظت - أن أجيب ابنتى على ما تسأل ، وكثيرا ما أجيبها : «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل» ثم أصلى على رسول الله صلى الله عليه وسلم



وقد لجأت إلى زملائى الذين يعرفون لغة القوم ، من أصحاب الألسنية والبنيوية والتفكيكية ، ليدلونى على أمثل طريقة لتفهم ابنتى ذلك الكلام ، فقالوا : لا سبيل أمامها الا ان تحفظ ذلك الكلام بحروفه لتضعه كما هو فى ورقة الإجابة . وهذا رأى خطير جدا، لأن معناه أن يتحول الطالب إلى ببغاء يردد دون أن يفهم ، ومعناه أيضا أن يفقد الطالب القدرة على أن يؤدى بالفاظ من عنده كلام أستاذه ، وهو ما ترفضه نظريات التربية القديمة والحديثة . وقد حاولت أنا فعلا أن أجد كلمات مرادفة لهذا الذى تقرؤه ابنتى من كلام أساتذتها ، فلم أرجع بشىء ذى بال ، وكنت حريا أن أذكر شيئا من هذا الذى تعانيه ابنتى وأعانيه معها ، ولكنى لا أريد أن أحمل «الهلال» وزر هذا الكلام والرد عليه ، لكنه فى الجملة كلام يدور حول التناص والتماهى والتفكيك والتفجير اللغوى ، والإشكالية - إشكالية أى شىء ، مع تلك البدعة الغريبة : بدعة «الأسطورة والأساطير» فى الأدب العربى ، فكل معانى الشعر الجاهلى وصوره وأخيلته مردودة إلى الأسطورة ومحمولة عليها ومفسرة بها .

وإن تعجب فعجب أن بعض الذين يكتبون هذا الكلام الغامض المعمى هم ممن نشأوا بالأزهر وتخرجوا فى دار العلوم ، والأصل فى من يتخرج فى هذين المعهدين أن يكون عربى الوجه واليد واللسان ، ولكن هكذا كان ، وربك يفعل ما يشاء .



أهلاً بكم فى عالمنا
مصر للطيران

الهلال

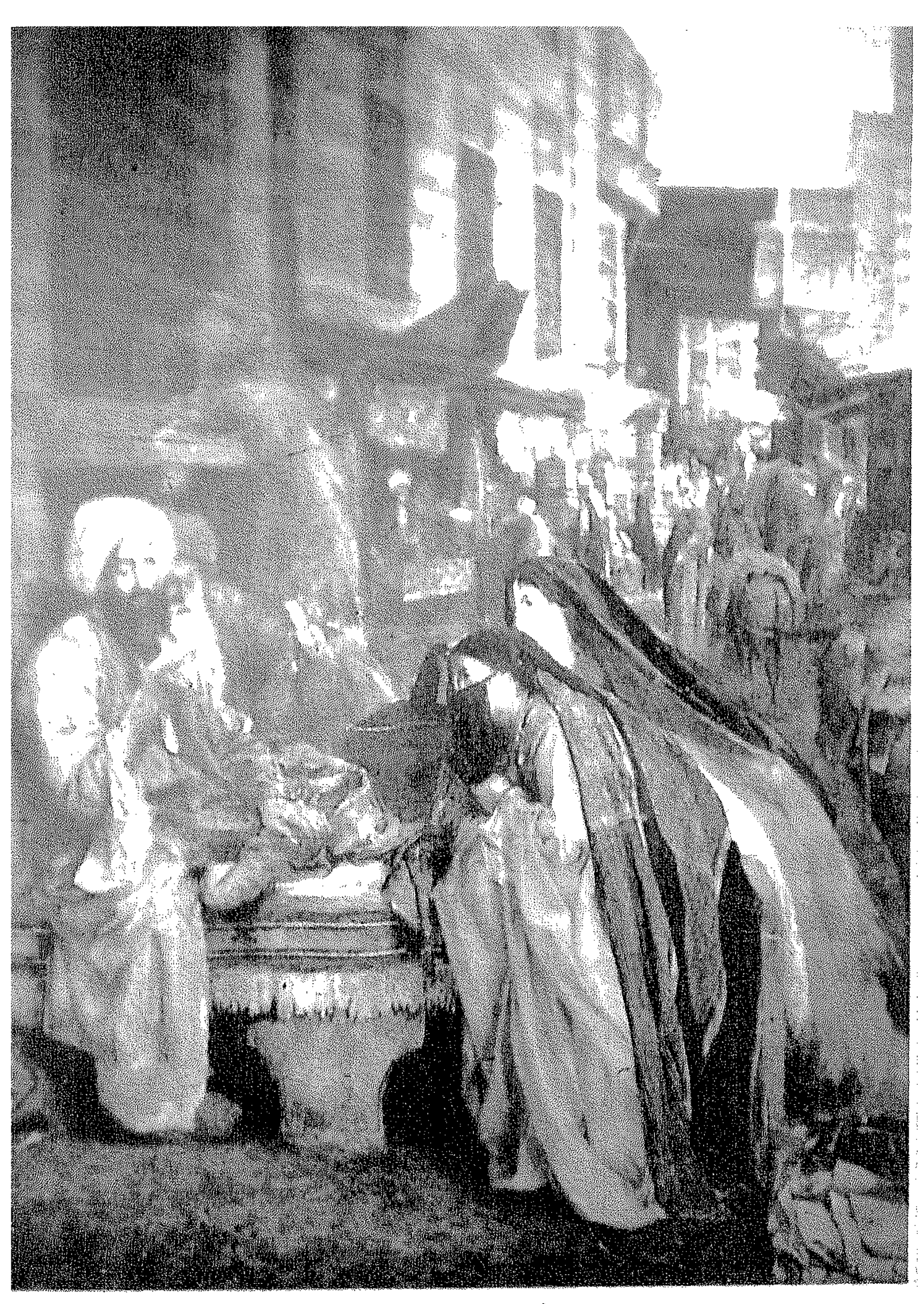
كتاب الإبداع الإسلامي في مصر

الإيطاليون

عشق

مصر





السوق للفنان فرانسوا بارى - متحف واشنطن



مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢
العام الرابع بعد المائة

فكر وثقافة

دائرة حوار

فى هذا العدد



الغلاف
تصميم الفنان
حلمى التونى

فنون

التكوين

قصة وشعر

الأبواب الثابتة

● **تليفزيون**

● **مسرح**

عزيزى القارىء

انهيار أحلام الشرق الأوسط

قبل ألف سنة قال الشاعر أبو عبادة البحترى يصف «الربيع» فى شهر نيسان «أبريل» :
أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكا

من الحسن حتى كاد أن يتكلما

ولكن الربيع الذى كان يجىء إلى البلاد العربية مختالا ضاحكا من فرط شعوره بحسنه وخفة ظله ، لم يعد يجىء إلا منكمشا عابسا ، لايريد أن يضحك ، ولا يستطيع أن يختال ، وليست له قدرة على الكلام ، فإن الحوادث الجسام أصابته بالصمم ، ورمت طيوره بالصمت وغدرانه بالجفاف !

لقد طوى التاريخ صفحة الأمة العربية التى كان الربيع يأتى إليها فى ألوانه وأصباغه وطيوبه ، يهز أعطافه خيلاء ويوشك أن يحرك شفتيه فيتكلم ويقول : أنتم سادة الدنيا أيها العرب ، أو يقول : السلام عليكم يا ملوك الأرض !

عزيزى القارىء :

ربما يكون الهجوم الوحشى التدميرى الذى شنته اسرائيل على لبنان منتهكة به كل ماقيل عن «شرق أوسط جديد» يسوده السلام والتعاون الاقتصادى قد انتهى عند نشر هذه السطور ، ولكن آثاره ودلالاته العميقة المؤلمة لن تنتهى بسهولة ، فإن أصداء هذا العدوان الغاشم ستبقى أمدا طويلا ، في المنطقة والعالم ملقية بظلالها الكئيبة على مصير مايسمى بعملية السلام !

إن متغيرات جديدة قد طرحت نفسها بقوة فى غمرة العدوان على عملية السلام ، فالولايات المتحدة الأمريكية اتخذت موقفا منحازا لإسرائيل ، مبررة ماحدث منها بأعمال المقاومة الارهابية التى تقوم بها قوات «حزب الله» المرابطة فى الجنوب ، مع أن اسرائيل هى البادئة بالعدوان ، فهى التى اجتاحت الأراضى اللبنانية واحتلتها فى سنة ١٩٨٢ ، وهى التى أجبرت آلاف اللبنانيين على الرحيل من ديارهم شمالا ، وهى التى لازالت تتمسك حتى يومنا هذا بضرورة الاحتفاظ بالشريط الحدودى فى جنوبى لبنان كأحد ثوابت أمنها القومى الذى ترفعه فوق رأسها راية مخضبة بدماء العرب الذين سلبتهم أمنهم ، واغتصبت أرضهم !

فالسؤال الذى يطرح نفسه الآن : هل مازال الأمن القومى لإسرائيل محتاجا الى المزيد من الأراضى والمياه العربية ؟ أم أن «الدولة العبرية» قد تغيرت نظرتها لمسألة «الأمن» من سياسة الاحتلال والتوسع على حساب العرب الى اقامة سلام «ذى طابع اقتصادى وثقافى» مع جيرانها هؤلاء المستضعفين فى النظام العالمى الجديد !!

عزيزى القارىء

ولما كانت العبرة فى السياسة بالأدلة المادية ، فإن رئيس الحكومة الإسرائيلية «شيمون بيريز» قد اعتبر نفسه ـ منذ سنوات ست هى عمر كتابه «شرق أوسط جديد» ـ فيلسوف السلام والتعاون الاقتصادى ، ثم عاد بين عشية وضحاها ليفعل مالم يفعله سلفه «رابين» لقد تكلم وتحرك وتنفس كجنرال اسرائيلى ، مؤمن حتى النخاع بحتمية الرد العسكرى الباطش على أعمال المقاومة التى يقوم بها «حزب الله» دفاعا عن حقوق الشعب اللبنانى المشروعة ، فى العيش على كامل أرضه ممارسا سيادته عليها دون تجزئة ؟

وفى ظل اتفاقيات لا يعلم حقيقتها الا الإسرائيليون أنفسهم ، تشكل محور عسكرى جديد فى المنطقة : اسرائيل مع تركيا ، واسرائيل مع أمريكا .. بينما الدول العربية ـ باستثناء مصر وسوريا ـ لاتحرك ساكنا ردا على العدوان !

إلا أن النظر الى الأمور بشمولية أكبر ، يجعلنا نقول إن الأمة العربية فى حاجة الى اعادة النظر فى كيفية علاج «المسيرة السلمية» برمتها ، فسوريا ولبنان اللتان لازالتا فى مرحلة صعبة من المفاوضات مع اسرائيل محتاجتان الى مزيد من الدعم السياسى والاستراتيجى لموقفهما ، واذا كانت مصر هى الدولة العربية الوحيدة التى تضطلع بتلك المسئولية القومية الآن ، فإن الموقف قد صار يحتم على جميع شعوب الأمة العربية اتخاذ اجراءات أشمل تضمن عدم وقوع عدوان جديد من اسرائيل على أى أراض عربية وليس لبنان فحسب كما أن على العرب علاج الخلل الحادث فى صفهم باتمام المصالحة العربية بين دول الخليج وشعب العراق الذى يئن تحت الحصار منذ ستة أعوام ، مع انتفاء جميع أسباب هذا الحصار حاليا !

عزيزى القارىء ..

لقد أتى الربيع هذا العام بما لايسر ، وبما لم يكن فى الحسبان ، ومع أن الربيع هو فصل ازدهار الطبيعة وفصل النسيم العليل ، فإنه قد أتى هذا العام مليدا بغيوم الحرب والعدوان الإسرائيلى وعودة أجواء المحاور العسكرية الى المنطقة ، وجاء نسيمه يحمل رائحة دم أطفال الجنوب اللبنانى وشهداء حزب الله ، فمطلوب من العرب جميعا أن يصنعوا لأنفسهم ربيعا جديدا حقيقيا ، يحمل نسيمه رائحة السلام العادل ، وتزدهر فيه زهور الرخاء والاستقرار وأحلام الشرق الأوسط ، الجديد ، أو الشرق الأوسط المزعوم !

«المحـرر»

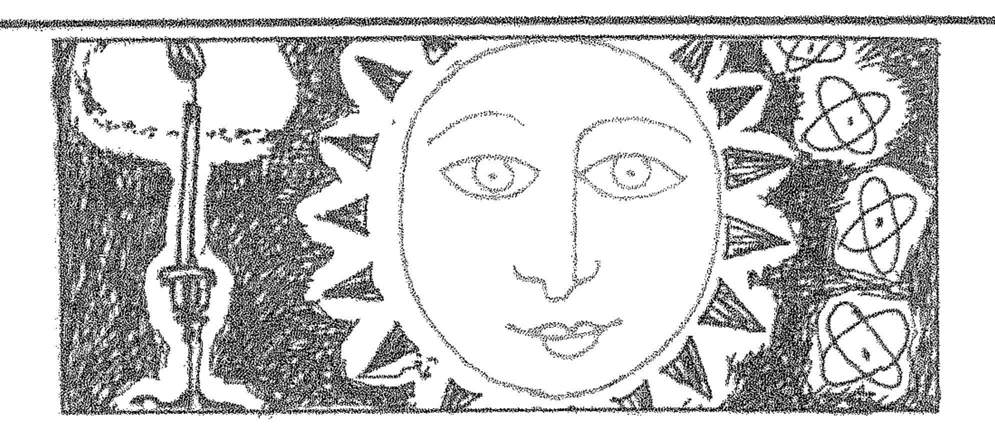
الإبداع وقياداتنا الاجتماعية

بقلم : د . مصطفى سويف

المقدمة الأولى لهذا الحديث أننا فى أشد الحاجة إلى تنشيط مايسمى بالتفكير الإبداعى ، أى التفكير الذى يؤدى إلى حلول مبتكرة لمشكلاتنا الاجتماعية التى لم يعد يجدى فى حلها أى قدر من التفكير التقليدى ، والمقدمة الثانية أنه رغم إلحاح هذه الحاجة وجدية التهديد «لحاضرنا ومستقبلنا» الناجم عن تعطيل الاستجابة لها فإن العوائق الاجتماعية التى تغل انطلاق هذا التفكير «الإبداعى» فى حياتنا كثيرة ومتنوعة ، بل وتزداد تفشيا واستشراء .

وقد حاولنا حصر هذه العوائق فوجدناها تنتظم فى أربع فئات على النحو التالى:

عوائق ترجع إلى صفات اكتسبها سياق حياتنا الاجتماعية من خلال خبرات الدفع والتدافع التى حاقت بنا وانزلقنا إليها ، وأخرى تتحمل مسئوليتها قياداتنا الاجتماعية بما تؤديه من أدوار فى جميع مجالات حياتنا السياسية والاقتصادية والتربوية والاجتماعية .. الخ ، وثالثة ترتبط بالأسلوب الذى تنتهجه شرائح المجتمع لدينا ومنظوماته فى تعايشها ومايجرى بين بعضها البعض من تفاعل ، والفئة الرابعة تحوى بعض خصائص النموذج الشائع للشخصية فى مجتمعنا . وقد سبق لنا أن تحدثنا فى أمر السياق الذى نحيا فى كنفه وأوضحنا كيف انتهى به الحال إلى أن أصبح عالماً من السدود والقيود يوشك أن يغلق جميع منافذ التهوية أمام كل مظنّة إبداع فى العلم أو فى الأدب أو فى الفن أو فى الصحافة أو فى شئون الحياة السياسية أو الاجتماعية .. الخ ، مستعينا على ذلك بكل مافى الجعبة من أغلال مادية ومعنوية ، وقد آن الأوان فى حديثنا الراهن لأن ننظر فى أمر الفئة الثانية من عوائق الإبداع لدينا .



قياداتنا الاجتماعية

من أهم وجوه التفرقة بين نظرة الباحثين القدامى والعلماء المعاصرين إلى موضوع القيادة أن القدماء كانوا ينظرون إلى القيادة بافتراض كونها صفة أو خصلة من خصال شخصية القائد ، فهو قائد لأن هذه الخصلة متوافرة فيه . أما الدارسون المحدثون فيرون أن القيادة مجموعة من «الأدوار» الاجتماعية يقوم الشخص بها فى حياة الجماعة التى ينتمى إليها . ويقصدون بمصطلح «الدور» الإشارة إلى مجموعة المهام التى يؤديها الفرد أو يتُوقع منه أن يؤديها بمقتضى شغله مكانة معينة أو منصبا بعينه فى جماعته أو مجتمعه . فالشخص الذى يشغل مكانة الأب فى الأسرة يقوم بالفعل ويتُوقع منه أن يقوم بأداء عدد من المهام تكوّن فى مجموعها الدور الاجتماعى للأبوة .

وكذلك الحال بالنسبة لمن يشغل مكانة الأستاذ فى معاهد العلم ، ومن يشغل مكانة الصديق .. الخ ، وعلى هذا النحو يقرر الباحثون أن القيادة دور أو أدوار .

وفى هذا السياق نجد كذلك أن العلماء الاجتماعيين المحدثين عندما يستخدمون مصطلح القيادة أو القائد لايقصدون الإشارة إلى أى فئة بعينها من القادة ، كزعماء الأحزاب أو القادة العسكريين أو الحكام السياسيين .. الخ ، ولكنهم يشيرون إلى الجذر الكامن وراء هذه الأنواع جميعا ، وهو يتمثل فى مجموعة المهام التى تمكن مؤديها من التحكم «بالمعنى العام حسناً كان أو سيئاً» أى إحداث أقدار متفاوتة من التغيير والتعديل فى نظام حياة الجماعة ، وفى تنظيم أفعالها ، فكل من له هذه الصلاحية أو الصلاحيات يعتبر قائما بدور ، أو أدوار قيادية ، صغرت الجماعة «لتصبح فى حجم الأسرة أو ثُلّة الأصدقاء» أو كبرت «لتشمل المجتمع العريض بأسره» . هذه هى القيادات الاجتماعية كمصطلح فى العلوم الاجتماعية ، وبهذا المعنى نستخدمها فى مقالنا الراهن.

وتقوم القيادة دائما بعدة أدوار لا بدور واحد . وأشد تصنيفات هذه الأدوار بساطة تقسيمها إلى صنفين : تندرج تحت أحدهما مجموعة الأدوار التى يتناول

القائد بها العمل الذى تتصدى له الجماعة ، كأن تكون بصدد مشروع بناء مصنع ، أو شق قناة .. الخ ، ويضم الثانى جملة الأدوار التى يتناول القائد بها جميع العلاقات الإنسانية التى تتشابك داخل الجماعة ومايطرأ على هذه العلاقات من تغيرات بالتأزم أو الاحتقان أو التفجر .. الخ أثناء سير العمل فى المشروع . وتشير جميع البحوث الميدانية فى المجال إلى أن كلا الصنفين لازم لزوما لاشك فيه لإنجاح حياة الجماعة . وتشير كذلك إلى أن أحد مقاييس كفاءة القائد يتمثل فى درجة تمكّنه من التوفيق بين مقتضيات الصنفين من الأدوار معاً .

القيادة والإبداع

ونعود الآن إلى سؤالنا الرئيسى الذى من أجله نبسط هذا الحديث .

ماذا عن تأثير الأدوار التى يقوم بها قادتنا على ما يمكن أن يكون قائما من إمكانات إبداعية عند الأفراد الواقعين فى دائرة فاعليتهم ؟ والإجابة الأمينة هى : هناك ما نرجوه ، ولكن هناك مانجده ، والفرق بينهما شاسع ، فما نرجوه على ضوء المقدمات التى فرغنا للتو من عرضها يتلخص فيما يأتى : من ألزم الأمور للقائد أن يتقن أداء الصنفين الكبيرين من أدواره القيادية ، «الصنف المتجه إلى العمل ، والاخر المتجه إلى العلاقات الإنسانية» بحيث يستطيع الاقتراب ما أمكن من استحداث الحد الأمثل من الانسجام بينهما .

ويتجلى هذا الحد الأمثل فى أن تنتظم العلاقات الإنسانية بالصورة التى تتيح للعمل أفضل انطلاق ممكن ، وفى الوقت نفسه أن ينتظم سير العمل بالصورة التى تعود على العلاقات الإنسانية التى تكتنفه بأفضل عائد ممكن . فإذا تأملنا هذه الصيغة بالقدر المناسب من أعمال الفكر وجدنا أنها تسلمنا بالضرورة إلى الصيغة التالية : إن أعلى مستويات الكفاءة القيادية تتجلى فى تمكن القائد من تنظيم شروط العمل ونمط العلاقات الإنسانية بين العاملين من حوله بحيث ينطلق العمل بصورة إبداعية كلما دعت الضرورة . وهذا بالضبط هو مانرجوه .

أما الذى نجده فشىء آخر تمليه أساساً عناصر معاكسة شديدة الذاتية فى نفوس قياداتنا «ولايعنى ذلك أنهم يكونون على وعى بها فى معظم الأحيان» ، ومن ثم فإنها تتجه بمناخ العمل «فى مجالاته المختلفة» إلى وأد أجنّة الإبداع فى أرحام حامليها ، وفى هذا الصدد نستطيع أن نحدد أربعة عوامل على النحو الآتى :

عامل نسميه «المحورية/ الهامشية» ، وآخر نسميه «الأمية القيادية» ، وثالث يكرس الخلط بين مفهومى القيادة والرئاسة ، والرابع نصفه بأنه قصور شديد فى النضج اللازم لشخصية من يتولى القيادة . وفى البقية الباقية من المقال نتناول كلا من هذه العوامل بالقدر المناسب من التفصيل .

المحورية/ الهامشية

تقسيم أى مجال من مجالات النشاط الإنسانى باعتبار أنه يضم موضوعات تتوزع فيما بينها على هيئة دوائر متفاوتة الاتساع حول مركز واحد أو مشترك بحيث ترمز هذه الدوائر فى تواليها إلى تدرج فى الأوزان النسبية للموضوعات منسوبة إلى ماتراه على أنه الموضوع الأساسى مسألة لا غبار عليها بوجه عام ، ولكن هذا التقسيم شىء وتقسيم المجال إلى محورى وهامشى شىء آخر . وأوضح الفروق بين التقسيمين أن الأول يشير صراحة إلى التدرج فى أهمية الموضوعات الموزعة على المسافة بين المركز والمحيط بينما يطمس التقسيم الثانى أية فروق بين كل ماهو قائم خارج المركز ، ويواجهنا بمقولتين اثنتين هما : المحورى «ويعنى المهم» والهامشى «ويعنى غير المهم أو التافه» ، وهو أمر تترتب عليه نتائج بالغة السوء من الناحية العملية ، ناهيك عن كونها تنطوى على قدر كبير من التعارض مع مقتضيات النشاطات الحية اجتماعية كانت أو نفسية أو حتى بيولوجية .

ومع ذلك فهذا بالضبط هو ما تفعله قياداتنا فى معظم مجالات حياتنا الاجتماعية، فبمجرد أن يتولى الشخص منصبا قياديا نجده يخطو فى السبيل إلى تقسيم مجال فاعليته القيادية إلى ماهو محورى وماهو هامشى . ويصحب هذه الحركة فى جزئياتها مزيد من الاستئثار بحق اتخاذ القرار فيما يتعلق بما هو محورى . ولما كان الإطار الأساسى للتنظيم الإدارى فى الدولة المصرية ينحو إلى تغليب المركزية على اللامركزية فقد أصبح فى استطاعة كل قيادة رسمية لدينا «صغر شأنها أو كبر» أن تُعمل تقسيم المحورية / الهامشية فى مجال اختصاصها بالسرعة التى تراها وبالإحكام «أو التعنُّت» الذى ترتضيه . والشىء نفسه يصدق على القيادات الاجتماعية غير الرسمية لأن مجتمعنا لايزال «لأسباب تكمن فى مستوى تقدمه أو تخلفه الحضارى» يكرّس أنواعاً من مركزية السلطة لاحصر لها في منظوماته الفرعية . فإذا نظرنا إلى هذه الحقائق مجتمعة لكى نستخلص مغزاها بالنسبة لموضوعنا الرئيسى فى هذا المقال فالنتيجة التى تفرض نفسها علينا هى أن إمكانات الإبداع لدى الغالبية العظمى «مادمنا نعمل جميعا فى مجالات تحكمها قيادات رسمية أو غير رسمية ومادامت القيادات لايمكن إلا أن تكون أقلية عددية» من مواطنينا تظل محكوما عليها بألا تنشط إلا فى نطاق «الهامش» أو «التافه» . وحتى لو كانت القيادات ذاتها تتميز بإمكانات إبداعية رفيعة المستوى «وهو أمر يندر أن يشهد واقعنا بصحته» فسيظل هناك الحجم الهائل للإمكانات المهدرة نتيجة لتهميش الجميع «أى للحكم عليهم بألا ينشطوا خارج الهامشى» . وفى هذا الموضع يجدر بنا أن نتذكر أن من أهم شروط الانطلاق الإبداعى لأى نشاط أن يكون مدفوعا عند

صاحبه بدافعية شديدة . كذلك يجدر بنا أن نذكر أن أحد مصادر تنشيط الدافعية عند الفرد المتوجه إلى الإبداع شعوره واقتناعه بالأهمية الشديدة للعمل الذى يقوم به ومن ثم يكون تحريكه لكوامن الإبداع . فإذا اجتمعت من حوله الشواهد تشهد له آناء الليل وأطراف النهار بأن هذا العمل هامشى أى تافه ، وأن المجال المحيط بهذا العمل هامشى كذلك فلن تقوم لدوافع الإبداع لديه قائمة . هذه هى البصمة الأولى من بصمات قياداتنا الاجتماعية على إمكانات الإبداع فى نفوس مواطنينا

الأمية القيادية

المقصود بالأمية القيادية فى سياقنا الراهن الإشارة إلى جهل معظم قياداتنا بالشروط اللازمة لانطلاق طاقة الإبداع حيثما دعت الضرورة ، ونخص بالذكر فى هذا الصدد شرطين ، هما : توافر مواصفات بعينها فى الأشخاص المعهود إليهم بالعمل ، وتنظيم علاقات العمل فيما بينهم حسب صياغات بعينها ، وأنا لا أشير هنا إلى الصفات التى يُختار على أساسها الأشخاص الذين يتولون مسئوليات مكاتب القيادات ، ولا إلى من يعينون نوابا أو مساعدين لهذه القيادة أو تلك ، فهؤلاء لهم قصة أو قصص أخرى ، ولا أشير كذلك إلى صفات فى العاملين الذين يملأون مكاتب الدولة للقيام بأعمال نمطية لاسبيل إلى تجاهلها . ولكنى أتناول الأمر من جانب يمس واحدة من أهم صلاحيات القيادة وخاصة فى عالم القيادات الرسمية ، وهى صلاحية تشكيل لجان ليتدارس الأعضاء فيها مشكلة ما ، ولكى يفكروا معاً فى اقتراح أفضل الحلول الكفيلة بالتغلب عليها ، ويشيع بين مواطنينا فى هذا الصدد قول مؤداه أن هذا الإجراء هو الطريق إلى قتل المشكلات كمداً لا بحثاً ، وهو قول يبدو متشائما ، ومع ذلك فنحن نعلم أنه وليد خبرة صادقة إلى حد كبير رغم مرارة هذا الاعتراف . والسؤال الواجب هو : لماذا تفشل معظم هذه اللجان فى الوفاء بما يعقد عليها من آمال ؟ والإجابة الصريحة هى : تفشل هذه اللجان لأسباب متعددة ، فى مقدمتها مواصفات الأعضاء ، ونمط انتظام شبكة العلاقات الجامعة بينهم . فالأمر الذى ينبغى للقيادات التى تأمر بتشكيل اللجان أن تعرفه وتعترف به «على مستوى التصور والإجراء» أن بعض الأشخاص يصلحون والبعض لايصلحون أن يكونوا أعضاء فى لجان . ولايعنى ذلك أن الذين لايصلحون هم أشخاص سيئون ، فهذا غير صحيح ، إذ قد يكونون جادين مستقيمين ، وقد يكونون على علم بالكثير من عناصر المشكلة التى يتصدون لحلها ، وقد يكونون ذوى أقدمية بأى صورة من الصور فى مجال التصدى للمشكلة ، ولكن هذه الأمور جميعا لاتكفى لضمان سلامة القرار بأن

يصبحوا أعضاء فى هذه اللجنة أو تلك . ذلك أن عضوية شخص فى فريق عمل ما تتطلب بصورة جوهرية توافر صفات معينة فيه منها الاستعداد للتعاون ، والقدرة على رؤية الموضوع من وجهة نظر الآخر ، والقدرة على تأجيل التعبير عن وجهة نظره الخاصة تأجيلا مؤقتا ، وتركيز الانتباه والاهتمام على نقاط الالتقاء أكثر من التركيز على نقاط الافتراق ، والمرونة الذهنية والوجدانية التى تيسر على صاحبها تعديل وجهة نظره ، والاستعداد لمكافأة الآخر فى الوقت المناسب وبالقدر المناسب .. الخ ، وهى جميعا خصال من شأنها أن تيسر سلاسة التفاعل بين أعضاء الجماعة. صحيح أنها لاتكفى وحدها لترشيح الشخص للعضوية ، إذ لابد من أن يتوافر لديه قدر من المعرفة الفنية بالمشكلة المطروحة ، ولكنها ضرورية وبدونها لا يقوم عمل جماعى ، بل نجدنا إزاء مايمكن تسميته عملا تزاحميا ، يتزاحم فيه عدد من الأفراد بحناجرهم قبل عقولهم ، وتتراكم من جراء تزاحمهم حفنة من هشيم أفكار يختلط فيها التافه بالقيّم والسطحى بالعميق .

أما عن شبكة العلاقات بين الأعضاء فأفضل النماذج لتيسير إبداع الجماعة ما أتاح الحد الأمثل لكثافة التخاطب أو التواصل بين الأعضاء جميعا ، وهو ما يقتضى أن تعمل قيادة الجماعة بأعلى درجات اليقظة حتى تحتفظ لتيار التواصل باستمرار تدفقه دون تعطيل ، وأن تعمل كذلك بأعلى درجات الحياد حتى تتبلور توجهات التيار فى كل خطوة من خطواته حسب المقتضيات الموضوعية لعناصره وسياقاته ، على أن تحتفظ هذه القيادة فى الوقت نفسه بحسّ التوجه إلى الهدف وتواصل الاحتكام إليه والعمل بمقتضاه دون أن تتجاوز حد أدنى من التدخل الذى يلزم لصيانة التيار من التوهان أو التشتت .

فإذا تركنا حديث النماذج لننظر فيما يشهد به واقعنا وجدنا أن الحديث فى وادٍ والقيادات فى وادٍ آخر ، فالأعضاء يُختارون لأية اعتبارات إلا هذه الفئة من المؤهلات الشخصية والوجدانية والعقلية التى أشرنا إليها ، ولايبدو فى الأفق أبدا أى تنبه إلى هذا الموضوع ، وشبكة العلاقات الإنسانية التى تُنسج بينهم تتراوح فى تنظيمها غالبا بين نمطين ، أحدهما نمط الفوضى التى تترتب على العفوية ولا تؤدى إلا إلى التخبط والتعثر من حين لآخر ، والنمط الثانى يسميه أهل الاختصاص بالنمط الإشعاعى ، فالقائد يحتل المركز وكل خيط من خيوط التواصل يبدأ من القائد ليصل مباشرة إلى هذا الفرد أو ذاك ، ويكون هو المسار المشروع للتواصل ذهابا وإيابا بين

طرفيه . وعلى هذا النحو يتبلور الموقف فيما يشبه رقصة التنورة ، ويدور المحور وتدور كل الخيوط حوله ، ومعه ، وبإيقاعه ، تلك هى البصمة الثانية لقياداتنا فى مجال الإبداع .

البصمتان الثالثة والرابعة

ثم نأتى إلى هاتين البصمتين ، وتنطوى إحداهما على الخلط بين القيادة والرئاسة، وتفصح الثانية عن قصور فى النضج الاجتماعى لدى الأغلبية من قادتنا . وقد جمعت بين البصمتين فى فقرة واحدة لما يقوم بينهما فى الواقع من تشابك أو تداخل ودعم متبادل .

القيادة شىء والرئاسة شىء آخر ، والخلط بينهما إنما تجيزه الغفلة أحيانا والاستسهال أحيانا أخرى ، ثم تدعمه نوازع الضعف البشرى وفى مقدمتها الصلف أو الغرور ، وكلاهما يخفى وراءه ضعفا شديدا للثقة بالنفس ، والمقصود بسلوك الرئاسة فى سياقنا الراهن الاقتصار فى محاولات تشغيل الآخرين على استخدام أسلوب واحد هو إصدار الأوامر إليهم بتنفيذ أعمال بعينها ، وغالبا ماتكون الأوامر مقتضبة فلا تكشف عن التصور الذى يحمله الرئيس فى ذهنه بشأن مقتضيات ميدان العمل ولاتفصح عن الخطة التى يحاول أن يهتدى بهديها وهو يصدر أوامره وتوجيهاته ، ويشيع بين مواطنينا تسمية هذا الأسلوب «بالمريسة» . وأسوأ مافى هذه المريسة أنها تخرّب ينابيع التفكير الابتكارى فى أعمق أعماقها ، لأنها تدفع متلقيها قسراً إلى المران أو الاعتياد على الفعل الذى لايصحبه تصور أو تخطيط ، أى تدفعهم دفعاً إلى الفعل الآلى «كأنما هم أمساخ بشرية لما يعرف بالروبوت» فى حين أن المهمة الأساسية للتنشئة فى عالم الإنسان عموما وللتنشئة على طريق الإبداع بوجه خاص هى تدريب النشء على التخلى عن كثير من مصادر الآلية فى السلوك «وهى المصادر التى تتجمع تحت اسم الأفعال المنعكسة ، أو العادات ، أو الدوافع القاهرة العمياء .. الخ» والاتجاه المتزايد نحو الفعل الإرادى الذى تستوجبه الحساسية الموضوعية «أى الإدراك المرهف» للمشكلات المتجددة فى أى موقف من مواقف الحياة العامة أو الخاصة ، وتلك هى الخطوة الأولى نحو الإبداع .

والأمر الذى لاجدال فيه أن أسلوب «المريسة» هذا يقدم الكثير من المغريات للقائمين عليه ، وأول هذه المغريات الاستسهال ، فممارسته أيسر كثيراً «على المدى القصير بوجه خاص» من أداء أدوار القيادة ، ثم إنه بمجرد البدء فى ممارسته

لايلبث أن يقدم للممارس إغراء أعمق ، وخاصة بالنسبة لأصحاب النفوس الهشة . وأفضل وصف لهؤلاء فى سياقنا الراهن أنهم يعانون من ضمور الوجدان ، ومن ثم يكونون عاجزين عن العطاء ، مع أن مطلب العطاء شرط ضمنى من شروط كفاءة القيادة ، وخاصة فى إطار الدور أو الأدوار المطلوبة بالنسبة للتناول السليم للعلاقات الإنسانية كما يعيشها الأفراد العاملون مع القيادة . ويدور هذا العطاء بجميع أشكاله ودرجاته داخل مفهوم الرعاية ، رعاية احتياجات هؤلاء الأفراد التى تؤثر فى أدائهم بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، بدءاً من احتياجهم إلى التشجيع بين حين وآخر ، وإلى المكافأة بمضامينها المعنوية والمادية ، وإلى أنواع بعينها من الاعتراف.. الخ .

ومن أبلغ الحكم فى هذا الصدد قول القائل : «كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته». وهكذا تفضى «المريسة» إلى الاستسهال ، والاستسهال إلى طمأنة أصحاب النفوس الهشة وذلك بإعفائهم من واجب العطاء ، وبذلك يبقى قصور النضج لديهم مستوراً ، ومع هذا الستر يزداد التشبث بالمريسة ، وهلم جرا .

وبعد

هكذا تكتمل جولتنا فى هذا المقال بين مانرجوه من قياداتنا الاجتماعية فى حق الإبداع ، ومانجدهم فاعلين ، والفرق شاسع بين الطرفين . فما نرجوه تمليه الأدوار التى تضمن وتعنى فى نهاية الأمر كفاءة القيادة فى إطلاق العنان لقوى التفكير الإبداعى فى نفوس العاملين فى أى مجال ، أما الذى نجده فأربع بصمات تضعها القيادات فإذا هى أغلال تغل إمكانات هذه النفوس .

هذه البصمات هى : «المحورية/الهامشية» ، و«الأمية القيادية» ، والخلط بين القيادة والرئاسة ، وقصور النضج الاجتماعى الذى نشهده فى كثير من القادة ، والنتيجة النهائية أننا إذا أردنا حساب الرصيد الختامى لقياداتنا فى حق الإبداع «على المستوى المجتمعى» فالرصيد بالسلب لا بالإيجاب ، ولاجدال فى أنها نتيجة قاتمة ، ولكن قتامتها ترجع إلى واقعيتها . وعندما يتوافر لدينا من الشجاعة مايعيننا على الاعتراف بصحتها، من الاستبصار ما يمكّننا من التفكير الجاد فى كيفية مواجهتها ، عندئذ نستطيع القول بأننا بدأنا الخطوة الأولى على الطريق نحو مانرجوه .

حدود حرية التعبير

بقلم : د . نصار عبد الله

□رغم أن العالم الغربى المتقدم ذاته كثيرا ما ينتهك الحقوق الأساسية للإنسان ، وكثيرا ما يغض النظر عن مثل هذه الانتهاكات خاصة حينما تكون صادرة من حكوماته أو مؤسساته أو أفراده ، ضد أفراد ينتمون إلى العالم الأقل تقدما ، رغم ذلك فإن هذا العالم المتقدم كان دائما ولايزال مشغولاً بمتابعة ومراقبة موقف الحريات الأساسية (وفى مقدمتها حرية الاعتقاد والتعبير) ومدى تحققها أو بالأحرى مدى انتهاكها فى المجتمعات الأقل تقدما.

وهو اهتمام يتجلى فى تصريحات مسئولية التى يعبرون فيها بين الحين والحين عن قلقهم أو أسفهم لما يجرى فى هذا البلد أو ذاك من بلدان العالم الثالث، كما يتجلى كذلك بصورة أكبر في تقارير مراسلى الصحف وأعضاء منظمات حقوق الانسان التى دأبت على تسجيل مدى ما تتعرض له الحريات فى تلك المجتمعات من قمع أو انتهاك ، ثم هو يتجلى بعد ذلك فى الدراسات الاكاديمية التى يقوم بها باحثون متخصصون ينتمون إلى جامعات غربية حين يتخذون من قضية الحرية فى أحد بلاد العالم الثالث موضوعا لدراستهم، والكتاب الذى بين أيدينا مثال لذلك فهو فى الأصل أطروحة تقدمت بها الباحثة السويدية «مارينا ستاغ» للحصول على درجة الدكتوراه فى عام ١٩٩٣ من قسم اللغة العربية بمعهد اللغات الشرقية جامعة استوكهلم ثم قامت بنشره باللغة الانجليزية بعنوان رئيسى هو «حدود حرية التعبير» The limits of freedom of speech ، يعقبه عنوان فرعى هو «الأدب النثرى وكتاب النثر فى مصر فى ظل ناصر والسادات» Prose Literature and prose writers in Egypt, under Nasser and Sadat ، وعن هذه الطبعة الانجليزية قام المترجم القدير الاستاذ طلعت الشايب بتقديم هذه الطبعة الصادرة باللغة العربية عن دار شرقيات حيث بذل جهدا كبيرا فى



رد كل الاسماء والعناوين والاقتباسات والتضمينات إلى أصولها العربية ، كما كتبت الترجمة بلغة عربية نقية.

دراسة أكثر تحديدا

والواقع أن العنوان الرئيسى «حدود حرية التعبير» يفشى منذ اللحظة الأولى أو ينم على الأقل عن اهتمام الباحثة بقضية الحرية فى جانب مهم من جوانبها ألا وهو حرية التعبير ، فى بلد من بلدان العالم الثالث شديد الأهمية بالنسبة للعالم الغربى ألا وهو مصر ، ورغم أننى لا أعلم على وجه التحديد طبيعة الدراسات التى يهتم بها قسم اللغة العربية فى معهد اللغات الشرقية بجامعة استوكهلم إلا فإننى قياسا على ما أعرفه عن اهتمامات معاهد اللغات بوجه عام ، فإن ما يتعلق بدراسة الحريات الأساسية يخرج فى المعتاد عن دائرة اهتماماتنا التقليدية ، ولا يتناولها الباحثون فيها إلا بالقدر الذى تتصل به بمشكلة أو أخرى من مشكلات اهتمامهم الرئيسى الذى هو اللغة وآدابها ، تاركين مشكلة حدود حرية التعبير وغيرها من جوانب الحرية للمشتغلين بالعلوم السياسية أو الاجتماع أو فى بعض الحالات للمشتغلين بالقانون ، ويبدو أن الباحثة قد فطنت إلى أن دراستها فى ظل العنوان الرئيسى - فضلا عن اتساع مجالها عن الحد المقبول به أكاديميا - فهى تخرج بها عن مجال تخصصها كمشتغلة باللغة العربية وآدابها ، ومن ثم فقد أضافت إلى العنوان الرئيسى ذلك العنوان الفرعى الذى أشرنا إليه منذ قليل وأعنى به «الأدب النثرى وكتاب النثر فى مصر فى ظل ناصر والسادات» .. وهو ما يجعل من دراستها أكثر تحديداً من ناحية وأقرب صلة إلى الأدب (وإن ظلت مع ذلك واقعة خارج نطاق الدراسات الأدبية) من ناحية أخرى ، بل إن الباحثة لتمعن فى التحديد عندما تنتقل إلى صلب دراستها على ضوء لا يتسق مع العنوان الفرعى ذاته حين تقتصر على القصة والرواية وكأن القصة والرواية هى كل فروع الأدب النثرى ، وكأن تجربة كتاب القصة والرواية هى تجارب كل كتاب النثر ..

لاحظ أن عنوانها الفرعى هو الأدب النثرى و «كتاب النثر» بدون تخصيص .. وهو ما كان جديراً بأن يدخل فى ميدان دراستها .. كتاب المقال بكل أنواعه .. بل وسائر أصحاب المؤلفات النثرية .. فهم كتاب نثر طالما أنهم لم يكتبوا كتاباتهم نظماً .. ومع هذا فإن عدم الإتساق بين عنوان الدراسة وصلبها ليس هو الخطأ

حـــدود حـرية التعبير

المنهجى الوحيد الذى وقعت فيه الباحثة .. حيث وقعت فى خطأ أكثر فداحة عندما اقتصرت على دراسة القصة والرواية كميدان لدراسة مشكلة حدود حرية التعبير

فالقصة والرواية كلاهما ليسا أبرز مجالات الابداع التى يتجلى فيها الصدام بين المبدع وبين السلطة الخارجية وبوجه خاص السلطة السياسية ، وليسا كلاهما بالتالى هما المناسبة التى يشعر الكاتب إزاءها أكثر من غيرها أنه قد تم تضييق الخناق عليه فى الكتابة أو النشر أو أنه سوف يتعين عليه أن يدفع ثمن كتابته أو يتحمل تبعاتها سجنا أو تشريدا أو اضطهادا ..

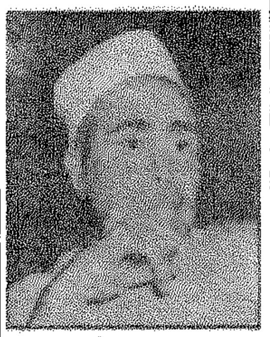
السجن لمعارضة النظام

صحيح أنه فى عصر عبد الناصر وفى عصر السادات قد دخل السجن عدد كبير من كتاب القصة والرواية قدمت لنا الباحثة قوائم بأسمائهم وتواريخ دخولهم السجون والمعتقلات .. وصحيح أن بعضهم قد فصلوا من وظائفهم أو نقلوا إلى وظائف أخرى .. وصحيح أن بعضهم قد اضطر إلى النشر خارج مصر .. أو الفرار بنفسه لا بأعماله فحسب إلى خارج البلاد .. لكن هذا كله - باعتراف الباحثة - ذاتها - لم يحدث بمناسبة كتابتهم للقصة أو الرواية ، بل بمناسبة كونهم معارضين للنظام السياسى أو أعضاء فى منظمات سرية أو علنية ترى السلطة السياسية أنها تمثل تهديدا لها .. ولعل الكاتب الوحيد الذى تزعم الكاتبة أنه قد اعتقل بمناسبة رواية هو الأستاذ عبد الرحمن الشرقاوى الذى تذكر فى ص ٦٣ أنه قد اعتقل بسبب رواية الأرض .. ورغم أنها تذكر هذه المعلومة كواقعة مؤكدة ..فإنها تعود فى ص ٧٥ فى الهامش لكى تتراجع عنها (انظر هامش ٥ ص ٧٣) ..

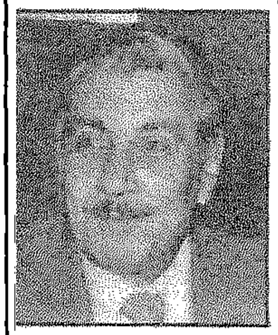
والواقع أن هذه الملاحظة وغيرها تدفعنا إلى الشك فى أن اهتمام الباحثة الحقيقى هو اهتمام بحرية التعبير الأدبى متمثلا فى القصة والرواية فى مصر ، وأنه فى الحقيقة اهتمام بالحريات الأساسية والسياسى منها بوجه خاص ، وهو كما أسلفنا جزء من اهتمام الغربى المتقدم بما يجرى فى هذه البقعة أو تلك من بقاع العالم الأقل تقدما .. خاصة حينما تكون هذه البقعة هى مصر .

ومع هذا يظل هذا الكتاب مرجعا شديد الأهمية بما اشتمل عليه من معلومات وإحصاءات موثقة عن تاريخ الواقع السياسى والثقافى المصرى ، خاصة فى فصليه الثانى والثالث اللذين يدوران حول «الحكم العسكرى وحرية الكلمة» و«الأدب والنشر تحت مظلة الدولة» .. وهو ما يجعله جديرا بالقراءة من قبل كل مهتم لا بالثقافة أو الأدب بل من جانب كل مهموم بالحرية أيا ما كانت دوافعه إلى هذا الاهتمام .

أقوال معاصرة


الإمام الأكبر شيخ الأزهر


نيلسون مانديلا


عبدالوهاب البياتى

● «لن أتراجع عن روح الاجتهاد والتجديد فى الفكر الاسلامى»

الامام الاكبر الدكتور محمد سيد طنطاوى

● «منذ أن خرجت من السجن لم يحدث أبدا للمدعى عليها أن دخلت غرفة نومى ، وأنا يقظ»

رئيس جنوب افريقيا

● «ليس البقر هو المصاب بالجنون وإنما البشر!

ستيڤن دوريل
وزير الصحة البريطانى

● «قصائد المتنبى أكثر حداثة من كل ما يكتب اليوم»

الشاعر السودانى مصطفى سند

● «الحياة محكومة بالصدفة»

المخرج البولندى كريستوف كيسلوفسكى

● «لحسن حظ الصحفيين ان الساسة فى بعض الاحيان - أكثر منا غباء»

الصحفى الانجليزى مايكيل ايليوت

● «إعادة إحياء الاتحاد السوفييتى أمر مستحيل»

رئيس وزراء اوكرايينا يڤين مارشوك

● «تعلمت السفر مع الطيور والغيوم ، ومع الشمس وانا جالس على سطح بيت جدى»

الشاعر العراقى عبد الوهاب البياتى

● «غدا ستوجد ارستقراطية تستعمل الانترنت ، اما العمال فسيكتفون بمشاهدة التلفزيون»

الاديب الايطالى امبرتو اكو

● «التنوع يولد الإبداع»

مايكيل آيزنر
رئيس شركة ديزنى



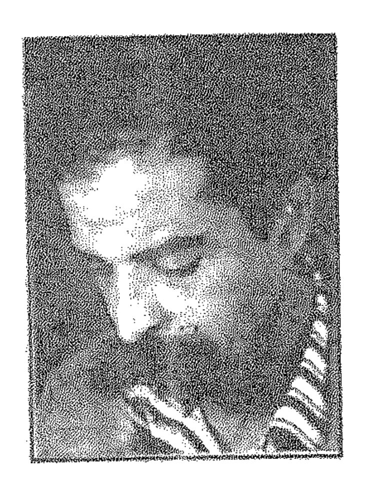
بقلم : د . شكرى محمد عياد



كلمة «ملحمة» كلمة فخمة، واثقة من نفسها ، لا تهرب إلى هذه التسمية المبهمة الجديدة «نص» التى لا تلتزم بشىء . إذا وصف الناقد عملاً ما بأنه «ملحمة» فهو يضمه إلى عائلة الأعمال الكبرى فى الآداب القديمة : الإلياذة ، الأوديسة، الإنيادة، وقد يكون لهذه الأعمال الثلاثة التى يقوم عليها الأدب الكلاسيكى الأوربى نسب إلى ملحمة «جلجامش» البابلية أو إلى قصة الملاح الغريق المصرية القديمة.

ويكاد يكون من المجمع عليه لدى النقاد أن كل عمل من هذه الأعمال هو المرجع والأصل لكل مانشأ بعده من أعمال مسرحية أو قصصية أو غنائية فى لغته، كما أنه المحك لصفاء اللغة ونقائها وجلالها وجمالها . وعندما نشأت الآداب الأوربية الحديثة وجد مؤرخوها من الضرورى أن يبحثوا لها عن ملاحم قومية تمثل الجد الأعلى فنسجوا حول شخصية «أورلاندو» ، وهو مزيج من الواقع التاريخى والخيال الجمعى مثل عنترة عندنا، عدداً من الملاحم الفرنسية والايطالية ، وفعل الأسبان مثل ذلك ببطلهم «السيد» ولكن الآداب الأوربية الحديثة تطورت بعيداً عن قصص البطولات والخوارق، وصنفت نماذجها الفنية واللغوية الأساسية فى الشعر المسرحى ، وفى ذلك الفن النثرى الأكثر تواضعا، والأقرب إلى الحياة اليومية ، فن الرواية .

على أن النقد الحديث ربما وصف عملاً معاصراً بأنه عمل «ملحمى» أى شبيه بالملحمة، وأحيانا يقول إنه «ذو أبعاد ملحمية» دون أن يجرؤ على إدخاله فى جنس الملاحم، فمن المسلم به تقريباً أن عصرنا بعيد عن عصر البطولات، عصر الملاحم، والأدباء وغير الأدباء يلذ لهم أن يفكروا فى عصرنا هذا على أنه عصر النهايات، لا على أنه عصر البدايات، وأن أحسن ما يمكنهم أن يصنعوه باللغة هو أن يفككوها، لا أن يبنوها، وأن أحسن ما يحققونه بأدبهم هو أن ينتشر اليوم بكل وسائل الانتشار، ولا يهمهم أن يعيش إلى



الجيل القادم، أو حتى إلى السنة القادمة ولعلهم محقون فهم يرون كبارهم ـ أعنى كبار السن منهم-يطويهم النسيان إذا غفلوا عن تنبيه الناس إلى وجودهم كل حين- بل كل يوم إن استطاعوا - وهم أحياء .

ومع ذلك فعصرنا هذا مريض بالثقافة لا أظننا كنا نسمع أو نقرأ كلمة «ثقافة» بمثل هذه الكثرة . فهل هو مرض من أمراض الحساسية ، بمعنى أن القليل من الثقافة ، مثلا ، يمكن أن يجعلنا نعطس؟ المهم على كل حال أن الأدب المريض بالثقافة ينقب عن الأساطير فى كتب الأنثروبولوجيا ، يستلهمها فى شعره ونثره، كما أن النقاد يبحثون فى الشعر الحديث والنثر الحديث عن أساطير قديمة متنكرة . وهذا يجعلنا نتساءل : هل هو حنين إلى البراءة الأولى ؟ هل هى جرعة مضادة لما يحاوله العلم فى أحدث طموحاته من الكشف عن نشأة الكون ونشأة الحياة، أم إنها - على العكس - محاولة موازية لأن هدفها أيضا هو الكشف عن أعماق الذات، بكل ما فيها من تعقيدات؟.

إن صح ذلك فإن أدباء العالم الثالث - أى العالم الأقرب إلى الفطرة - يكونون فى وضع أفضل من أدباء العالم المتقدم لإنتاج أدب قادر على اكتشاف الأصول الأولى لما يعانيه إنسان اليوم من مشكلات لا حصر لها ، أى لإنتاج أدب أكثر تقدما!

فبديهى أننا ، فى أى جزء من العالم، لا يمكننا - وقد عرفنا نعمة الثقافة أو لحقتنا لعنتها - سيان - أن نكتب بعقلية شاعر مثل هوميروس يقص مغامرات الآلهة كما يقص مغامرات الأبطال (مع اسقاط سائر البشر من الحساب) . نحن نتمتع بعقلية مزدوجة ، جانب منها علمى والجانب الآخر خرافى . نعيش العلم والسحر معا، ونمارسهما معا . ومع أن إخواننا فى العالم المتقدم سبقونا ببضع مئات من السنين ، فالظاهر أنهم أصبحوا يبحثون عن هذا المزيج ، لأن احتمالات العلم أصبحت مرعبة بقدر ما هى جذابة ، وإذا كانوا قد اخترعوا قصص الخيال العلمى ليصلوا بهذا الشعور المتناقض إلى نوع من التوازن ، فإنهم سيكونون أكثر سعادة ، فيما يبدو، لو استطعنا أن نقدم لهم صورا جديدة من الملاحم التى يتواشج فيها الواقع والأساطير ، والمسألة - من جهتنا - ليست مسألة شطارة ، أو رغبة فى الضحك على ذقونهم، بل أن نكون كما نحن فى الحقيقة، أن نتغلب على تمزقنا أن نكتب كما نشعر فى أعمق أعماقنا .

اقتباسات لم تعد تدهش القارئ

إبراهيم الكونى مثقف صحراوى مشغول بمحنة الإنسان . ولأنه يعيش فى

العصر فإنسان العصر هو موضوعه ، ولأنه قادم من أعماق الصحراء الكبرى حيث كل شيء كما تركته الطبيعة منذ عشرة آلاف سنة فهو يملك تلك الرؤية الفريدة التي تضع كل أحداث التاريخ وكل ما نسميه «ثقافة» على مستوى زمني واحد . النصوص التي يضعها على رءوس الفصول في ملحمته «المجوس» تشمل أساطير الطوارق (التي لا عمر لها) ونصوص العهدين القديم والجديد والقرآن الكريم واقتباسات من جيمس فريزر ولقي شتراوس واريك فروم ومن النفرى ومن الرحالة العرب والروس . لم يعد القارىء يدهش لمثل هذه الاقتباسات فالكاتب لا يكتب إلا بعد أن يقرأ الشيء الكثير ليخرج من حيرته أمام لغز الوجود وعندما يعوزه الجواب المقنع تراه ينقض كل ما قرأه ، ولعله لا يستبقي منه إلا أشياء صغيرة كأعواد القش التي يبني منها القارىء عشه («التناص» الذي يحدثك عنه بعض النقاد شيء آخر اصطنعوه هم ليحيروك !) . وبعد أن ساح «الكوني» ما ساح بين ثقافات أهل الأرض وجد حكمة الحياة كلها في الصحراء . دنيانا هي هذه الصحراء التي بلا حدود ، حيث نجاور الضباب والذئاب والأفاعي ، كما نجاور الماعز والغزلان والودّان (يصفه الكاتب كنوع صغير من فصيلة البقر، يسكن الجبال، جمعه كمفرده، ولم أجده في القاموس المحيط).

هذه الصحراء التي بلا حدود ، حيث يشوينا جبار النهار بسياط اللهب، وتؤنسنا عناقيد النجوم بالليل، ويكون الماء أثمن من الذهب، والحلم أصدق من الحقيقة هذه الصحراء هي الوطن الروحي للإنسان . يقتبس الكاتب هذه الفقرة من إريك فروم (فصل «الميعاد» من القسم الأول):

«هذا حدث في كل الديانات ، مؤسسوها قادوا الإنسان إلى الصحراء .. بعيداً عن مصر . ولكن جاء قادة آخرون وعادوا فجروه إلى الوراء نحو مصر جديدة، برغم أنهم أطلقوا على الأخيرة أرض الميعاد.»

اسطورة «واو» وفلسفتها

وأن تكون «مصر» هي القطب الآخر للتدين، شيء لا يغضبك إن كنت مصريا، ولا سيما أن الصحراء على مرمى بصرك . أما إن كنت صحراويا فإن «مصر»، الأرض الموعودة أو الفردوس المفقود - سيان - هي دائما في داخلك . كلاكما - إن كنت مصرياً أو كنت صحراويا - مغترب في عالمك : إما أنك خارج من جنتك المفقودة تنشد الحقيقة وتتعذب بها ، وإما أنك في صحرائك يقتلك الظمأ ويصور لك الخيال جنة وارفة الظلال تجري من تحتها أنهار اللبن والعسل . فأنت معذب على كل حال ، لأن الجنة والحياة الأرضية ، كالمثال والواقع ، نقيضان لا يجتمعان . ماذا يبقى للإنسان إلا أن يعيش طبقاً للناموس ، ناموس الحياة والأحياء ويا لها من سعادة هزيلة! لعل هذه الفلسفة الكامنة وراء أسطورة «واو» عند الطوارق :

«واحات واو في الصحراء ثلاث : واو

الكبيرة (الجنة التى طرد منها أبونا آدم نتيجة لإغراء أمنا حواء) ، واو الناموس، وواو حريرة . واوا الأخيرة واحة مفقودة . لا يعثر عليها إلا التائهون الذين فقدوا الأمل فى النجاة . تسقى العطشان والضائع ولا تنقذ إلا من أشرف على الموت.ويجمع أولئك المحظوظون الذين فتحت لهم أبوابها وتمتعوا فيها بالضيافة والعطايا والبهجة أنهم لم يروا فى الأحلام مدينة تفوقها جمالاً أو ثراءً . لم يدخلها آنس إلا وخرج منها محملا بكنز يغنيه عن الناس والحاجة إلى أن يموت . ولكنهم نبهوا أيضاً إلى عدم جدوى البحث عنها فما إن يخرج الضيف من أسوارها حتى تختفى . ويتوارث أهل الصحراء رواية تقول إن البحث عنها يجرى منذ آلاف السنين .» رأس الفصل السابع من القسم الأول .

هذه الأسطورة الموغلة فى القدم لاتزال أسطورة طازجة، حية يعيشها أبناء الصحراء، ولا يزال الكاتب الصحراوى (الحديث) قادراً على أن ينسج منها ملحمة لإنسان كل العصور، وهو ذلك الإنسان الذى يبحث عنه كل واحد منا فى أعماقه: الإنسان الذى يعذبه شعور موجع بالفقد، ودون أن تمهله أحداث حياته حتى يتبين حقيقة هذا الشعور يجد نفسه منغمساً فى صراعات لا تنتهى، ضد قوى حقيقية أو موهومة، يأمل من خلال ذلك أن يعوض ما فقده، ولكن لاسبيل إلى ذلك، فكل نعمة تتحقق لاتلبث أن يبتلعها تيار الزمن الجارف.

الزعيم والدرويش

لعلك واجد هذا المعنى فى كل ملحمة قديمة أو حديثة . ولكنه فى هذه الملحمة الصحراوية المعاصرة واضح ، يكاد يكون مكشوفا ، ثم هو ينتظمها من أولها إلى آخرها . هناك شخصيتان تظهران فى الفصول الأولى ، ويعرف كلاهما من سر صاحبه مالا يعرف الآخرون ، ويراقبان ما يجرى طوال القصة ، ولكنهما قلما يتدخلان للتأثير فى سير الأحداث : شخصية الزعيم وشخصية الدرويش . هاتان الشخصيتان هما اللتان تبقيان حتى الفصل الأخير ، ومعهما تلك الشخصية الثالثة التى لابد منها حتى تستأنف الحياة مسيرتها بعد أن يحل الدمار بكل شىء وكل إنسان : حواء الجديدة .

من غيرهما الزعيم والدرويش يملك القدرة على الفهم والصبر ، أو على الرفض والتخلى؟

أما الزعيم فقد أمضى معظم حياته مهاجراً هاجر مع أهله صغيرا حين دفع بهم الجدب نحو الشمال ، ثم هاجر كبيراً حين غلبه على زعامة القبيلة أفاق جعل من نفسه شيخ طريقة ، ثم هاجر مرة ثالثة حين خرجت القبيلة على زعامته طمعاً فى ذهب السلطان . «وكلما عاد إلى الماضى وحاول أن يسترجع ذكرى الهجرة استولى عليه انطباع البهجة والفرح . انطباع مستمد من يقين غامض ومدهش يقول له الآن ، بلغة العقل والنضج، إن «واو» التى يفنى الصحراوى عمره بحثاً عنها ، هى

بين يديه، هى هذه الدنيا الصحراوية التى لا يذكر لها ، فى طفولته ، أولاً من آخر ، بل ولا يذكر أنه وقف على بدايتها أو نهايتها حتى الآن بعد ما قضى عشرات السنين من الطواف». (ج ٢ ص ١١).

وأما الدرويش فمغترب بين الناس، مات أبواه صغيراً فربته سبية زنجية . يقول الناس إنه من نسل أحد المرابطين ، أما هو فلا يأبه بهذا النسب بل إنه لايهتم بأصله البشرى فالأصل الذى يعرفه هو أن جده فقد فى الصحراء رضيعا فحنت عليه ذئبة وأرضعته، ومكث فى قبيلة الذئاب إلى أن أدرك وتعلق قلبه بفتاة حسناء ، فترك عيشة البراءة بين إخوته الذئاب وانغمس فى دنيا البشر . الدرويش إذن نصف بشرى نصف ذئبى ، وهو لا يشك أن النصف الذئبى هو النصف الأفضل ، وأن جدته التى حزنت لفراق جده ستبعث إليه يوماً من يستعيده إلى حمى القبيلة الذئبية أما الذى يخشاه أشد خشية فهو أن تجتذبه فتاة أو امرأة من الإنس فيكرر خطيئة جده (التى هى خطيئة أبينا آدم) . وحين يشعر أنه كاد يتورط ،يقدم على فعل فظيع ، فيسرق مدية العرافة ويجب نفسه . وتسهر عليه الذئاب وهو ينزف إلى أن تلتقطه قافلة من التجار فيحملوه إلى دار الزعيم الذى لا يدهشه أمره ، فالزعيم نفسه صبا إلى النساء فى شبابه ، مثل كل فرسان الصحراء ، ولكنه صدم فى حبه الأول ، وتزوج فتاة موافقة طيعة ، ثم لم يلبث أن سئم عادة الأزواج ، ورأى أن الشيخوخة تبعد الرجال قسرا عن أحضان النساء ، فاختار أن يصدف عنهن طواعية وأن يعيش منذ رجولته أعزب أبتر .

فى هذا الفصل الأخير من الملحمة يلتقى الزعيم بالدرويش كما يلتقى بالعراف المجوسى (الوثنى) الذى قدم من الأدغال وراء أميرة حسناء اختارها إلهه لتكون ضحيته القادمة . ولكن العراف عشق الأميرة فضنّ بها على الإله ، ولم يقدر أن يظهر لها بوجهه المجدور البشع ، حتى إذا أصبحت رفاتاً وعظاما حمل جمجمتها من قبرها وانصرف بها وقد جن . العرافون يألفون العظام والجماجم لأنهم يزيفون الحقيقة ، هم دائما رسل شر ، لا خير وراءهم . ولكن روحاً قلقة تظل تطوف حول هذا المشهد الأخير : امرأة شابة خرجت من بين الأطلال، علمتها أمها منذ الطفولة أن عمل المرأة هو أن تقتنص الرجل لتحصل منه على الولد . تقبض على يد الدرويش : ستندثر القبلية إن لم نتزوج !... هل تظنني أجرى وراء الرجال حبا فى الرجال ؟ هل تظن أن امرأة واحدة يمكن أن تعشق رجلاً لو لم يخف السر ، الذرية فى صلبه .

وحين يأتى الثلاثة فى المشهد الأخير لا يكون أمام الزعيم خيار. لقد صدف عن النساء بإرادته شاباً وكهلاً، أما الآن فهذا هو الواجب الوحيد الذى يمكنه أن يقوم به نحو القبيلة ... يمكنه ...؟ لندع الله . يقول له الدرويش : ألم ينجب سيدنا ابراهيم ابنه اسحق فى آخر العمر؟ هو ذا ينطلق مهاجراً من جديد، وراءه الفناء ، وأمامه «خلاء كالفناء»، حكمته الصبر والقبول،

وفى رحلته هذه المرة ، مع متاعه القليل وقرب الماء المحيى ، امرأة لا غاية لها من الحياة إلا استمرار الحياة . أما الدرويش فقد اختفى ، اختار قبيلة الذئاب .

هكذا يمكننا أن نقرأ الملحمة من آخرها ، أو أن نقلبها على باطنها حتى تتبين لنا الخيوط التى تمتد من أولها إلى آخرها ، وهى خيوط ميتافيزيقية لحمتها الأسطورة الساذجة – أسطورة الواوات الثلاث – وسداها ثقافة عصرية مركبة من الأنثروبولوجيا والفلسفة الوجودية والتصوف ، فكأنها أمثولة عن قدر الإنسان تقدم بعض العزاء وبعض الأمل إلى النفوس التى تستطيع أن تتحلى بحكمة التواضع ، أى أنها تتجاوز الحدود العادية للملاحم التى تصور أشخاصاً ذوى قوة خارقة منغمسين فى سلسلة من الانتصارات والهزائم . هذه المادة الملحمية التى يمتزج فيها التاريخ بالخرافة هى الوجه الظاهر لملحمة «المجوس» يدعمها صراع عاطفى بين غريمين يتنافسان على حب امرأة ، وإن كان لكل واحد من هؤلاء الثلاثة غريم فى داخله يرفض ذلك الحب ويقاومه .

العشق حيلة الطبيعة لبقاء النوع

كيف يرتبط هذا كله بالأسطورة؟ عندما ننظر إلى هذه الصراعات كلها من منظور الزعيم نجد فيها جميعا خروجا عن «الناموس» ذلك الناموس الذى أخلص له منذ وعى، ناموس «القبول» الذى عبر عنه، حين بلغ قمة النضج، بأن «واو» التى يفنى الصحراوى عمره بحثا عنها هى هذه الدنيا الصحراوية التى بين يديه، ومع ذلك فهو لا يعرف لها أولاً من آخر.

«أنى» الذى اغتصب السهل من أهله وأقام «واواً» على أرضه وجعل من نفسه سلطاناً عليها ، خرج على ناموس الصحراء الذى آمن بأن «واو» الأرضية موجودة ومفقودة فى الوقت نفسه ، وأنها – على نحو مبهم – صلة بين الأرض والسماء . ولكن «واو» الأرضية ما كادت تقوم حتى تألبت عليها قوى الصحراء الظاهرة والخفية وسوتها بالأرض. «أوواو» خرج على ناموس الصحراء مرتين : مرة حين جعل مسكنه فى الجبل بين أهل الخفاء، ومرة حين عشق أميرة حلمها أن تكون معشوقة لجميع الرجال . و«أوخا» غريمه فى حب الأميرة خالف الناموس مرتين أيضا : مرة حيث جعل «النبالة» قناعاً لكبريائه التى تأبى عليه أن يبارز فتى من الاتباع، ومرة حين جعل محبوبته صنماً يعبد، لا بشراً من لحم ودم . أما «تينيرى» فهل ثمة جريمة أفظع من جريمتها؟ هل يكون لامرأة – ولو كانت أميرة باهرة الحسن – أن تستعبد جميع الرجال ؟

فناموس الصحراء بسيط كل البساطة: إن العشق ليس إلا حيلة الطبيعة لبقاء النوع .

وكل هؤلاء الذين خرجوا على الناموس هلكوا وأهلكوا . وكلهم أسهم بجنونه فى صنع ملحمة الإنسان ومأساته .

ماذا بعد القرن العشرين..؟

قرن القوميات والأيدلوجيات

القرن الحادى والعشرون

أممية واحدة أم أمميات متعددة ؟

بقلم : جميل مطر

تعددت أوصاف القرن العشرين . وتزيد الأوصاف كلما اقتربت نهايته. القرن العشرون ـ فى أحد هذه الأوصاف ـ قرن أمريكى بنفس القدر الذى كان القرن التاسع عشر قرنا أوربيا . ففى القرن العشرين انتصرت الولايات المتحدة أو قادت النصر فى ثلاث حروب عالمية، الحرب العالمية الأولى، والحرب العالمية الثانية، والحرب الباردة. وفى هذا القرن احتكرت الولايات المتحدة او كادت تحتكر إدارة الثورة التكنولوجية، وهيمنت بإنتاجها العلمى والثقافى على الاقتصاد العالمى حتى انها فى منتصف القرن كانت تنتج وحدها حوالى ثلثى الناتج السلعى والقومى العالمى، وفى مرحلة أخرى أنتجت أكثر من ثلاثة ارباع الإنتاج الإعلامى العالمى. ثم انه القرن الذى تسلمت فيه الولايات المتحدة من اوربا الغربية مسئولية بعث ورعاية الحضارة المسيحية الغربية. وفى أوصاف أخرى كان القرن العشرون قرن تصفية الاستعمار التقليدى، وقرن التغريب الواسع و«التحديث» الشامل ، وقرن انتشار مفهوم ومؤسسة «الدولة» .

وهو القرن الذى شهد اعتلاء الرأسمالية قمة التطور الاقتصادى والاجتماعى العالمى، وبداية تحللها او تحولها الى شيء او أشياء أخرى، كما انه القرن الذى انفرطت فيه آخر الامبراطوريات. وكمّا كان القرن العشرون قرن الانفجار السكانى الهائل فقد كان ايضا اشد قرون التاريخ دموية وعنفا اذ نشبت فيه العن حروب البشرية وشهد ابشع صور القتل الجماعى، ومع ذلك ، أو بسبب ذلك، فقد كان قرن ارساء ترسانة قواعد جديدة في القانون الدولى وحقوق الإنسان ومنظمات ومؤسسات دولية لتحقيق السلام بين الدول، والتخفيف من آثار الحروب.

ومما يجعل هذه الفترة، اى السنوات الاخيرة من القرن العشرين ، فترة مثيرة وقلقة ، الشعور بأننا على مشارف قرن جديد، بل ألفية جديدة . وفى الواقع، وبرؤية موضوعية مجردة، لا يمثل هذا التصور الذاتى الصنع اى إضافة ولا يؤثر فى حقيقة ان الفضاء التاريخى لا يعبأ بسنوات وقرون نمنحها ارقاماً وأوصافا ونضع لها نهايات وبدايات. ولكن التاريخ لن يكون حقيقة موضوعية مجردة، ولن يكون مجرد انعكاس لتصور ذاتى الصنع، فالتاريخ حصاد «حقيقة» ومدركات فى آن واحد. وحين نقول ان السنوات القليلة القادمة سنوات مثيرة وقلقة ، فذلك لأن الأرقام والنهايات والبدايات التى صنعناها استقلت عن إرادات صانعيها وتمارس ضغوطا وايحاءات على هذا القطاع من البشر الواعى بوجودها والمنشغل بفلسفتها وقواعد حركتها وتطورها.

ثم اننا بدون هذه الأرقام «والتواريخ» لن نستطيع مقارنة أحوالنا كبشر وأمم ودول عبر الزمن، أو الاجابة عن السؤال الأهم بين مختلف أسئلة الفكر الانسانى، وهو هل نحن أفضل حالا أم أسوأ؟. فإذا كنا أفضل حالا يصبح واجبنا ان نحمى هذه الظروف والأوضاع التى جعلتنا أفضل، وإذا كنا أسوأ فلنعمل على التخلص منها بتغييرها او بتغيير أنفسنا إذا كنا عاجزين عن التأقلم معها.

بين الأممية والقومية

أعود إلى أوصاف القرن العشرين . إذ بينها وصف يثير اهتماما كبيرا ولابد أن نجعله يثير اهتمام غير المهتمين. فالقرن العشرون كان قرن الصراع بين ظاهرتين متناقضتين ، هما الأممية والقومية.. ولهذا الوصف ـ كما لغيره من الأوصاف ـ منظرون. يطرح هؤلاء ما يفهم منه أن الصراع بين الأممية والقومية فى القرن العشرين كان جزءاً لا ينفصل عن ظاهرة أوسع بدأت فى القرن التاسع عشر وأطلق عليها العصر الأيديولوجى، أى عصر الصراعات الأيديولوجية. إذ كانت الأممية

ماذا بعد القرن العشرين ؟

ممثلة فى ظاهرة الاستعمار الأوربى الذى حاول فرض النسق الغربى للقيم والممارسات والدين على العالم بأسره. أما القومية فكانت - فى شكل من أشكالها المبكرة جدا مجسدة فى الحركات الوطنية المناهضة للاستعمار ، واتخذت تعبيرات متنوعة من بينها مثلا الثورات الدينية، وهو ما حدث فى كثير من أنحاء العالم الإسلامى حيث لم توجد مقومات قوية أو تراث متين لدولة أو لوطن ، ولكن . وبسبب تعدد الدول الاستعمارية الأوربية، حملت هذه الأممية الجديدة فى داخلها بذورا قومية. بمعنى اخر كانت عالمية أو «كونية» فى مواجهة غير الأوربيين ، وقومية او قطرية فى داخلها، وهو الأمر الذى عجل بانهيارها فى القرن العشرين. وعلى الجانب الآخر لم تكن كل ردود الفعل للأممية الاستعمارية محدودة جغرافيا او ثقافيا، إذ إن الخلافة العثمانية وهى نفسها تنظيم أممى أو شبه عالمى، كانت تقف عقبة فى طريق «الكونية» الاستعمارية الأوربية. وتعاملت معها أوربا بأساليب جدير بنا أن نعود لدراستها.

أممية القرن العشرين

أما أممية القرن العشرين فكانت موزعة بين أمميتين، أممية شيوعية بقيادة الاتحاد السوفييتى وأممية غربية بقيادة أوربية فى بدايات القرن ثم بقيادة أمريكية. وبطبيعة الحال برزت - ثم استمرت - المعارضة للأمميتين. برزت واستمرت مقاومة حركات التحرر فى أفريقيا واسيا وأمريكا اللاتينية للأممية الاستعمارية التقليدية طوال النصف الأول من القرن وقليل من نصفه الثانى. وتعاظم شأن الحركات الدينية والوطنية العلمانية. ففى المنطقة العربية مثلا برزت قيادات قومية اشتقت مبادئها من تقاليد الفكر الأوربى، وتعددت الحركات القبلية والطائفية المتخفية فى شكل حركات دينية . وفى الصين استعاد التيار القومى مبادىء - بل استعار الجسم الكامل - للأممية الشيوعية مختلطة باقليمية قومية فى ثورة شاملة ضد الأممية الاستعمارية الأوربية. أما فى أوربا ذاتها فقد نشأت الفاشية كإعلان تمرد على الأمميتين: أممية الشيوعية وأممية الليبرالية الأوربية - الأمريكية.

واجتمعت الأمميتان الشيوعية والليبرالية على القوميتين الألمانية والايطالية بهدف القضاء على خطرهما. وبنفس المنطق كان الهدف الرئيسى للفاشية الأوربية الجديدة القضاء المبرم على الشيوعية والليبرالية باعتبارهما

يمثلان خطرا مباشرا على الشخصية القومية أو الكيان الوطنى للشعوب. واجتمعت النازية والفاشية الايطالية على مبدأ منع ذوبان الأمم العرقية فى مؤسسات أو كيانات «عالمية» تحت اسم الأممية الشيوعية او الاشتراكية الديمقراطية او أى مسمى اخر من المسميات التى اختارتها الدول الاوربية خلال النصف الأول من القرن.

وليس خافياً أن الصراع بين الأمميتين الشيوعية والليبرالية من ناحية والقوميات الأوربية خلال النصف الاول من القرن العشرين منتهيا بالحرب العالمية الثانية وهزيمة القوميات، كان له أثر كبير على مجرى الصراع الآخر بين الأممية الليبرالية الاستعمارية وحركات التحرر فى افريقيا واسيا. وليس خافيا ايضا ان انحسار القومية فى اوربا بعد الحرب العالمية الثانية كان له فضل على اشعال الصراع بين الأممية الشيوعية بقيادة الاتحاد السوفييتى والأممية الليبرالية بقيادة الولايات المتحدة . وبدأ تسجيل صفحة جديدة بالغة الأهمية فى سجل التاريخ، فهى الصفحة التى حدثت خلالها نقلة نوعية ومفاجئة فى السياسة الدولية، وفى شكل وحجم هذا الكوكب، وهى الصفحة التى ستؤثر فيما بعدها ربما أكثر مما أثرت معظم صفحات هذا السجل.

عالم الجنوب

فقد حدثت جملة تطورات مهمة ما كان يمكن ان تحدث لولا صراع الأمميتين، أو على الأقل ما كان يمكن أن تحدث بهذا الوقع وهذا العمق. نبدأ بما يعنينا مباشرة ، إذ دفع الصراع الأممى الى مقدمة الاهتمامات العالمية بقضايا الاستقلال والتحرر فى العالم الثالث ، أى عالم الجنوب. ولم تكن كل مناطق الجنوب العالمى ذات أهمية كبيرة أو متساوية أو عاجلة بالنسبة لأهداف الأمميتين. كانت هذه المناطق مهمة بقدر الدور الذى يمكن ان تلعبه فى القضاء على الاستعمار التقليدى كأممية منحسرة ومنهزمة . وكانت كذلك مهمة بقدر حيازتها لموارد طبيعية حيوية للصراع بين الأمميتين . وبحكم مواقعها على طرق ومنافذ ومضايق التجارة وحركة الأساطيل العسكرية، وبحجم نفوذها الاقليمى المستخدم فى مقاومة هذه الأممية او تلك أو الأمميتين معاً. ولاشك أن ظاهرة كالقومية العربية اعتمدت فى مرحلة ازدهارها ومدها العالمى على حالة الصراع الناشبة بين الأمميتين، وعلى المواجهة ضدهما فى آن واحد. كذلك يعود فضل كبير لشيوع ظاهرة «الدولة غير القومية» او «الدولة بغير أمة» على هذا الصراع وحاجة النخبة التى قادت الاستقلال للتصدى للأمميتين خشية على الاستقلال الوليد. ففى كل افريقيا وفى كثير من أجزاء العالم العربى نشأت

ماذا بعد

القرن العشرين ؟

«دول بغير أمة» . أنشأتها الأممية الاستعمارية الراحلة . ولولا الصراع الأممي الذى تصاعد بعد الحرب العالمية الثانية لما امكن لهذه الدول «الناقصة الأمة» ان تستمر وتقوى وتتعدد الى حد تسمية القرن العشرين باسمها. فهو قرن «الدولة» . وكان المأمول فيه ان تفعل هذه «الدولة» ما فعلته فرنسا والولايات المتحدة ، اى تنشأ اولا ثم تنشيء امة، ومع ذلك فلا اعتقد انه من السهل الحكم على هذه الظاهرة فى هذه المرحلة المبكرة، ولكنى اعتقد ان بدايات القرن الحادى والعشرين ستحكم بثقة اكبر عما إذا كانت هذه الدول التى بدأت بدون أمة نجحت فى خلق أمة، ام انها بقيت لسبب او لآخر مجرد هيكل ومؤسسات ولم تتشكل بين قبائلها أو جماعاتها أو طوائفها او شعوبها هوية «قطرية» او وطنية أو قومية جامعة وموحدة. اقول ان الحكم عليها سيصدر فى بدايات القرن الحادى والعشرين وذلك لان الكونية او الكوكبة كأممية جديدة دفعت هذه الدول الحديثة النشأة نحو مأزق حين طرحت عددا من المبادىء والشروط لا تتناسب بالضرورة مع درجة نضوج الدولة الناشئة فى عالم الجنوب. طرحت مثلا نمطا معينا من الليبرالية والديمقراطية والتعددية السياسية ، ونمطا من اقتصاد السوق وعالمية المال وأولوية المعلومات كمصادر للثروة .. تطرح ولاءات جديدة ومفهوم «المواطن الكونى» او المواطنة الكوكبية فى مواجهة المواطن القطرى ومواطنة الدولة. وتطرح تحديات ثقافة غازية مهيمنة، هى الثقافة الغربية. هذه الثقافة مطروحة الآن باعتبارها ثقافة الأممية الجديدة . أى ثقافة الأممية المنتصرة . بمعنى آخر دخلت الثقافات الاخرى غير الأممية نطاق حصار ثقافى متعدد الأسلحة الهجومية ذات الكفاءة غير المسبوقة فى تاريخ صراع الثقافات والحضارات. يتصدر هذه الأسلحة الهجومية التقدم الهائل فى تكنولوجيا المعلومات والاتصالات مما يجعل مهمة الحصار والاختراق أسهل وأخطر كثيرا من كل المحاولات السابقة التى تمت عبر قرون . ولعل ما نشهده هذه السنوات الأخيرة فى كثير من أقاليم العالم من انفراط مجتمعات، وتفتت دول ، وتصعيد فى العنف الداخلى وصحوة الهويات الأولية، لعلها كلها صدى لوقع الصدمة التى يتسبب فيها الحصار ثم الاختراق العنيف من ثقافة الأممية الجديدة. وأتصور أن مؤسسات سياسية واجتماعية كثيرة

فى العالم لن تصمد امام هذا الاكتساح الأممى الجديد، ولكن أتصور أيضاً أن فى خضم هذه الصدام الحضارى، وقبل إعلان النصر أو الهزيمة للأممية الكونية الجديدة ستكون قد سقطت ضحايا كثيرة بسبب تصعيد خطير فى سلوكيات العنف، وستكون قد نشأت مؤسسات وتكتلات جديدة كمحاولات لن تتوقف عن التصدى لهذه الأممية الجديدة، ولحماية الثقافات او الحضارات الاقليمية وكذلك الثقافات والحضارات العالمية غير الطامحة لأن تسود على الأقل فى الأجل المنظور، مثل حضارة الإسلام والحضارة «المسيحية غير الغربية».

الوحدة الأوربية

حدث أيضا - فى خضم الصراع بين الأمميتين الشيوعية والليبرالية - ان بدأ تنفيذ مشروع الوحدة الأوربية ولكن على مراحل وقد لوحظ منذ البداية ان خطوات تنفيذ المشروع انسجمت مع درجات الصراع بين الأمميتين ، بدأت بالتكتل الاقتصادى محدود الهدف ومحدود العضوية عندما كانت أوربا غير مستعدة لأى مواجهة مع الأممية الشيوعية. ثم تطورت المراحل وكانت آخرها وأهمها تجسيداً واقعياً ودليلاً حياً على أن أوربا الغربية تأكدت أن الصراع الأممى قد وصل إلى نهايته ، وأن دورها حان لتحدد بكل دقة ووضوح موقفها من الأممية الأمريكية. والجدير بالذكر ان بعض المفكرين ومنظرى علوم السياسة يطرحون رأيا، وله أنصار . يفيد ان وراء «الاتحاد الاوربى» فكرة أممية. ووراء هذه الفكرة الأممية المانيا الجديدة، ووراء ألمانيا الجديدة شيء كان ايضاً فى ألمانيا القديمة. سهل جدا أن نرفض هذا الرأى باتهامه بأنه متأثر «بنوازع نازية «جديدة» واذا قيل فى الرد على هذا الرأى ان القومية النازية هى التى قامت بدور أساسى فى مناهضة الأمميتين الشيوعية والليبرالية قبل ان تهزم وانه من المنطقى ألا تتحول من قومية متطرفة إلى أممية متطرفة، يأتى رد على الرد يقول بأن القومية الألمانية لن تكرر الخطأ الذى ارتكبته فى المرة الأولى وهو دخولها مواجهة مع أممية «ليبرالية اوربية» قوية تسندها حضارة متقدمة وعصرية، بينما كان يجب ان تقوم المانيا النازية بخلع بريطانيا من موقع الزعامة وتحل محلها فى قيادة هذه الأممية، وتدخل بهذه الأممية الصراع الحتمى ضد الشيوعية. ولا يستبعد أنصار هذا الرأى ان تكون الوحدة الاوربية خطوة تشجعها المانيا نحو هدف انتزاع زمام القيادة فى الاممية الليبرالية الغربية من الولايات المتحدة واستعادته لاوربا بقيادة المانيا.

تظل الصورة ناقصة اذا لم يكن لآسيا مكان فيها. يقول المناصرون للاممية الرأسمالية الجديدة المسماة بالكونية

ماذا بعد القرن العشرين ؟

الجديدة، سواء المناصرون عن فهم واقتناع او عن مزايدة او عن التزام بالتبشير. ان آسيا الجديدة جزء لا ينفصل عن هذه الكونية. فالكونية الجديدة ترتدى رداء التكنولوجيا والاقتصاد. وبالتالى فالمقوم العالمى فيها فنى وليس سياسى او اقتصادى . يقولون ايضا ان آسيا تنفض عن نفسها وبسرعة ثقافتها وكثيرا من قيمها وتقاليدها . ويقدمون احصائيات تشير الى زيادة فى حوادث الطلاق، وانحسار الأسرة الممتدة، وزيادة فى الجرائم، واقبال على المأكولات السريعة الجاهزة والمشروبات الغازية. والخطورة فى هذا المنطق انه يؤكد على ان الأممية الليبرالية تمثل حضارة مختلفة وان الصراع ثقافى حضارى فى الأساس وليس اقتصاديا كما يزعم انصار الأممية

ويراهن الكثيرون فى بعض مجتمعات الغرب وخصوصا الولايات المتحدة على ان القرن الحادى والعشرين سوف يشهد استيعاب آسيا فى الأممية الجديدة، لأنها لن تقوى على التصدى طويلا لهذه الأممية فى وقت تقوم فيه آليات اقتصاد السوق بأقصى ما تستطيع لمحو أى مقاومة سياسية كانت أم حضارية.

آسيا والأممية

ولكنى اعتقد ان الأمر أشد صعوبة مما يحاول الأمريكيون تصويره. ففى آسيا مقاومة شديدة للأممية الليبرالية والاقتصادية والسياسيّة الغربية. هناك فى اسيا لا يفصلون بين مختلف جوانب هذه الأممية . يعرف الاسيويون ويتلقنون ان هذه الأممية المسماة بالكونية هى حفيدة أممية القرن التاسع عشر الاستعمارية والتى اشعلت نيران حروب الأفيون والبوكسرز واستعمرت الفلبين وكل جنوب آسيا وحرقت فيتنام تحت شعار نشر رسالة الحضارة الغربية. ولقد لاحظت بنفسى فى آسيا أن أشياء وقيما تنحسر تحت ضغط الاستهلاكية كنمط ومبدأ من مبادىء اقتصاديات السوق، ولكنى لاحظت أيضاً ان الاسيويين ـ قادة ومفكرين ـ يطرحون ولأول مرة ان حضارتهم حضارة عالمية، وليست حضارة اقليمية كما اعتقدوا هم انفسهم فى وقت أو آخر . أو كما فرض الغرب عليهم ان يعتقدوا . يقولون الآن ان القيم التى يتمسكون بها أفضل

من القيم التى تبشر بها الأممية الليبرالية فى صيغتها الأمريكية ويقولون: انهم يجدون انفسهم اقرب ولو قليلا الى الصيغة الاوربية منهم الى الصيغة الامريكية، ولهذا فهم متفائلون بامكانية التعامل مع الفهم الاوربى لمستقبل العلاقات بين الحضارات السائدة ومتشائمون من الطرح الامريكى .
يقولون ان المستقبل يعود لينهض مع الشمس من الشرق كما فعل مرات كثيرة من قبل. ويلمحون فى سخرية انه فى كل هذه المرات الكثيرة كان ايضا يغرب فى الغرب. وبعد كل غروب وانحسار فى الغرب يعود فيشرق من الشرق . ففى اسيا الان يصنع المستقبل حيث الشعوب فى غالبيتها شبان وشابات، اى انها فى غالبيتها فى سن الانتاج والخلق والابداع، وكذلك دولها، وكذلك انساق القيم التى اثبتت قدرتها على التطور والتأقلم مع الحداثة فى كل مراحلها وصورها.

معالم القرن الجديد

صعب ان نتصور تفاصيل القرن الجديد . ولكن غير صعب ان نتصور ملامح مطلعه . ومن خلال كوى ضيقة تتسع باستمرار قد نتمكن من ان نتفق على صورة لبدايات القرن الحادى والعشرين، تبدو فيها الأممية الكونية الصاعدة مشتبكة بشراسة مع ثلاث قوى «دولية» مناهضة اولها صحوات دينية او حضارية متمردة. ثانيها تشنجات وانفعالات فردية وطائفية وعرقية. ثالثها امميات وليدة او ناشئة ولكن واعدة مثل الأممية الأوربية . والأممية الاسيوية، والأممية الإسلامية. ومن خلال كوى ضيقة اخرى تتسع أحيانا وتضيق فى معظم الأحيان، قد نستطيع ان نتفق على موقع الوطن العربى فى هذه الصورة التى تخيلناها لبدايات القرن الحادى والعشرين.

تقول تجارب التطور السياسي ان المجتمعات الانسانية - ومنها المجتمع الدولي - تميل عادة الي النظام وليس الي الفوضي. معني ذلك ان التيار الثالث هو التيار الاكثر ترجيحا بين التيارات الثلاثة لقيادة المواجهة ضد هيمنة الأممية الكونية بقيادة أمريكية، اى ان امميات وليدة وواعدة ستحاول فرض نفسها على الساحة الدولية. وكلها اذا لاحظنا مشروعات او تطلعات اممية تنطلق من قواعد اقليمية، وإحداها - وهي الأممية الثالثة - تنطلق من منطقتنا، وازدهرت بالفعل فروعها في أقاصي جنوب آسيا مثل اندونيسيا وماليزيا.

صناع القرن العشرين

فرانكلين ديلانو روزفلت

١٨٨٢ ـ ١٩٤٥

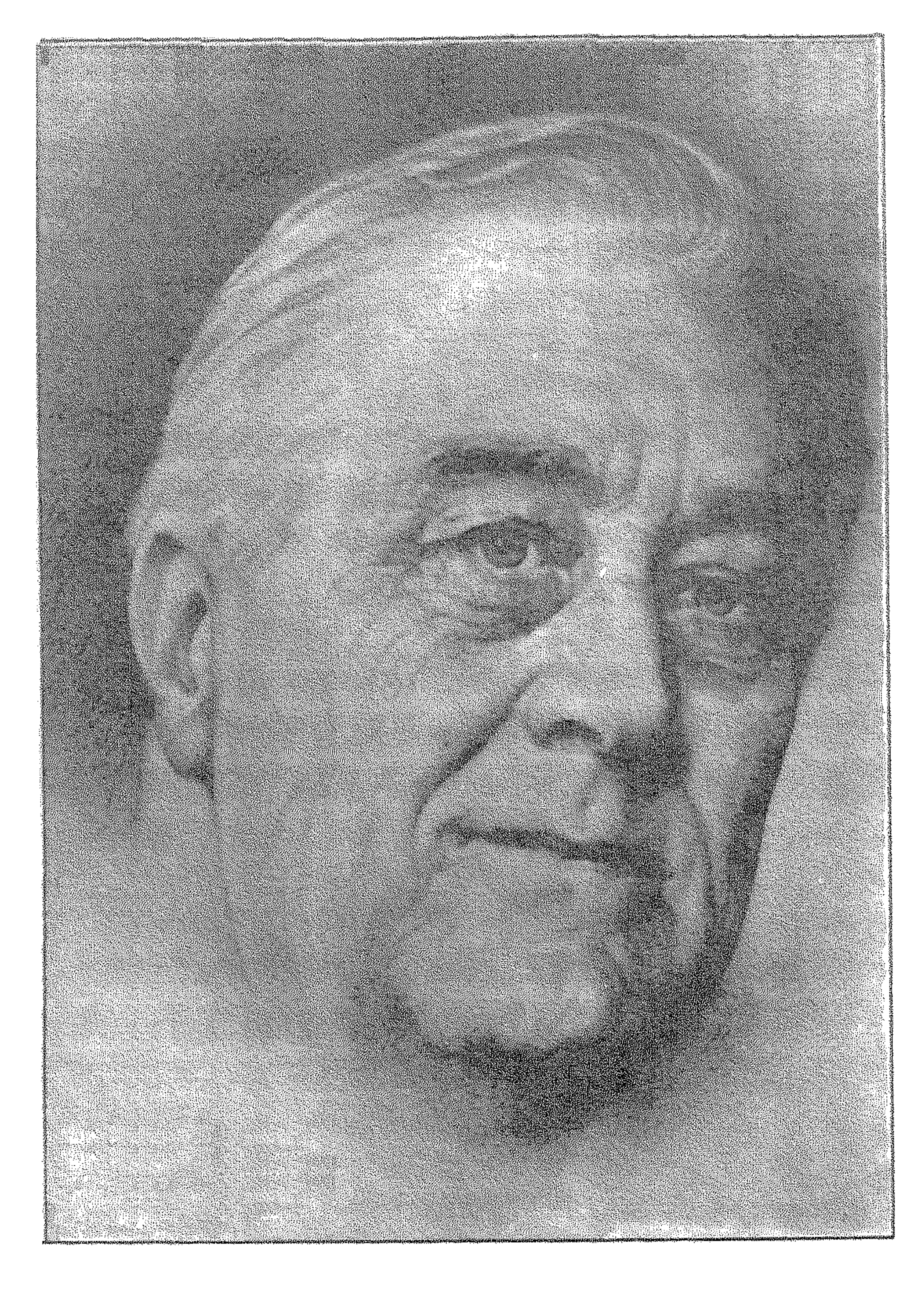
بقلم : د. رشدى سعيد

☐ يعتبر فرانكلين ديلانو روزفلت الذى كان رئيسا للولايات المتحدة الأمريكية فيما بين سنة ١٩٣٢ وسنة ١٩٤٥ من أهم صناع القرن العشرين فقد تولى قيادة هذه الدولة الكبرى وهى فى أسوأ حال ، بعد سنوات من أزمة مالية خانقة أمسكت بها فى أواخر عشرينيات القرن وتركها بعد أن أخرجها من هذه الأزمة ونقلها لتصبح أقوى دولة فى العالم أجمع ، وفى خلال فترة حكمه دخلت الولايات المتحدة الحرب العالمية الثانية فى صف الحلفاء ، واستطاعت بفضل قيادته أن تضمن لهم النصر الساحق وذلك بتعبئة إمكاناتها للمجهود الحربى بتحويل مصانعها من السلم إلى الحرب وبتعبئة علمائها للسبق فى أبحاث الذرة والفضاء .

● أزمة الثلاثينيات

وتبدو هذه الانجازات صغيرة أمام دوره البارز فى إدخال أفكار جديدة أخرجت النظام الرأسمالى من ورطته التى وقع فيها بعد الأزمة المالية الهائلة التى ألمت بالولايات المتحدة والعالم الرأسمالى كله منذ عام ١٩٢٩ وفى الاسهامات الجديدة التى أدخلها على الفكر الرأسمالى وكانت هذه الأزمة كغير سابقاتها طويلة ومدمرة كما أنها مست معظم الأمريكيين بل وامتد أثرها على العالم كله .. وفيها شل الاقتصاد ، وأفلس

فرانكلين روزفلت



صناع القرن العشرين

ما لا يقل عن ١٣٠٠ بنك فى سنة ١٩٢٩ وحدها ، وأكثر من ٥٠٠٠ بنك فى السنوات الثلاث التالية . وراحت مدخرات معظم الناس فلم تكن البنوك حتى ذلك الوقت تحت الرقابة الحكومية كما لم تكن ودائعها مؤمنا عليها - وبإفلاس البنوك توقف الإقراض والائتمان وتعطلت المصانع والمتاجر والأعمال وزاد عدد العاطلين حتى أربى على ثلث القوة العاملة ، ومما زاد فى شدة الأزمة هذه المرة أنها جاءت بعد ميكنة الزراعة وانتشار الصناعة فى أول القرن وانتقال الكثير من السكان الى المدن مما أفقدهم ما كان أجدادهم وآباؤهم يعتمدون عليه عند حلول الضائقة من فائض الزراعة الذى كانوا يدخرونه لمثل هذه الأوقات .

وبالاضافة الى الآلام التى سببتها الأزمة للملايين من الناس الذين خرجوا هائمين بحثا عن الطعام فقد هزت الأزمة النظام الرأسمالى من أساسه وأعطت مصداقية كبيرة للنظام الشيوعى الذى كان قد نجح فى تثبيت أقدامه فى روسيا منذ أقل من اثنى عشر عاما من حلول الأزمة والذى ما فتىء يبشر بفساد النظام الرأسمالى وحتمية سقوطه لعدم قدرته على توفير الحياة الكريمة للناس ، وبالفعل فقد ارتفعت شعبية الأحزاب الشيوعية فى معظم بلاد أوربا والتى نجحت فى الإمساك بقيادة الحركات والنقابات العمالية مما كان نذيرا للرأسماليين بالخطر الذى بدا وكأنه سيطيح بهم فقاموا بتشجيع الحركات الفاشية المتطرفة لمحاربة الشيوعيين الذين اتهموا بأنهم كاليهود عملاء لدول أجنبية ولا ولاء لهم لأوطانهم وأنهم سبب فساد الحال ، وبالفعل قام بنيتو موسوليني (١٨٨٣ - ١٩٤٥) زعيم حركة مناهضة الشيوعية فى ايطاليا بالاستيلاء على السلطة فى سنة ١٩٢٢ ونصب نفسه دكتاتورا فى سنة ١٩٢٥ بعد أن أخمد الحركات العمالية واغتال عددا من قيادات أحزاب اليســـار ، وتلاه فى سنة ١٩٣٣ أدولف هتــلر (١٨٨٩ - ١٩٤٥) الذى أصبح مستشارا للريخ الألمانى ثم دكتاتورا مطلق السلطة بعد أن حل الريشستاج وأنهى على الشيوعيين وطارد أحزاب اليسار ، وفى أعقاب هذين النجاحين تتابع سقوط الكثير من الدول فى قبضة الفاشيين : أسبانيا والمجر واليونان، وقد دفعت أوربا ثمنا باهظا للخلاص من هذه النظم البوليسية التى أوصلها انفراد حكامها بالقرار إلى كوارث هائلة .

● العقد الجديد

وكان من الممكن أن يكون رد الفعل فى أمريكا مماثلا لأوربا فقد انتشرت فيها أيضا الحركات الفاشية لولا قيادة روزفلت

الذى ما إن تولى الحكم حتى جمع حوله خيرة أساتذة الاقتصاد والأعمال للعمل على إيجاد الحلول السريعة للأزمة ثم لتطوير النظام الرأسمالى نفسه حتى يكون قادرا للوقوف أمام التحديات التى تجابهه – وبالفعل وفى أقل من مائة يوم على توليه السلطة استطاع روزفلت أن يقنع الكونجرس الأمريكى بالموافقة على عشرات القوانين ضمن ما أسماه بالعقد الجديد (New Deal) لتنشيط الاقتصاد والقيام بمشروعات عامة كان من أثرها خلق الوظائف وانشاء شبكات الطرق والكبارى وتوسيع الموانىء ومد خطوط السكك الحديدية والكهرباء مما جعل الولايات المتحدة واحدة من أحسن دول العالم فى بنيتها الأساسية ، وكذلك لإعادة ترتيب الاقتصاد حتى يمكن إعادة فتح البنوك وتنظيم سوق المال حتى لا تكون هناك امكانية لنهبها مرة أخرى عن طريق المضاربة فقام بضمان ودائع الافراد فى البنوك بحدود المائة ألف دولار للفرد ، على أن تقوم الحكومة من جانبها بالرقابة على حساباتها والتأكد من توظيف أموالها فيما هو مجد .

وكان أكبر إسهامات روزفلت فى حل أزمة النظام الرأسمالى وأكثرها ثورية توظيفه الحكومة فى القيام بالنشاط الاقتصادى وكذلك فى محاولاته لإعادة توزيع الدخل القومى حتى يصل إلى أكبر عدد من الناس وفى إنشاء الشبكة الاجتماعية لحماية العاطلين وكبار السن ، وكان مشروع وادى تنسى والذى عرف باسم إدارته (Tennessee Valley Authority) أول تجربة تقوم بها الحكومة الأمريكية فى الانتاج والتخطيط الاجتماعى فقد استهدف المشروع ضبط مياه النهر وتوليد الكهرباء وبناء الخزانات وانتاج السماد وإعادة تشجير المنطقة وإقامة المنتجعات السياحية ، كما اشتمل المشروع على معمل للأبحاث العلمية هو معمل أوله ردج الذى اشتهر بعد ذلك كأهم معمل ساهم فى بناء القنبلة الذرية خلال الحرب العالمية الثانية .

وفى ميدان العمل الاجتماعى اعترف روزفلت بنقابات العمال وبحقها فى الاضراب والتفاوض الجماعى مع أصحاب العمل كما قام بإنشاء التأمين الاجتماعى لكبار السن ، وأظهر هو وامرأته «إليانور» عطفا على مطالب الأقليات وعلى الأخص السود منهم فمهد الطريق لإنصافهم وهو الأمر الذى لم يحدث إلا بعد وفاته بأكثر من عشرين عاما .

وقد أدى مجمل هذه السياسات إلى إنعاش الاقتصاد فقد أدى تدخل الحكومة سواء ببناء البنية الأساسية أو بإقامة المشروعات الاقتصادية إلى إعادة توزيع الدخل ، فأصبح عند الناس فائض يستطيعون انفاقه لشراء ما ينتجون وإلى

إعطاء النظام الرأسمالى صورة انسانية جعلت له مصداقية وبديلا للنظام الشيوعى الذى كانت جاذبيته لعامة الناس فى سنى الثلاثينيات كاسحة .

وقد جلبت هذه السياسات الغضب على روزفلت من الكثير من رجال الأعمال ومن بنى طبقته الارستقراطية التى انحدر منها والذين لم يكونوا ليذكروا اسمه أو اسم امرأته إليانور إلا بالاحتقار ، وقد نالت امرأته بالذات أكبر الغضب لنشاطها المكثف بين العمال والسود وفقراء الناس ولعملها الدائب لإصدار القوانين المنصفة لهم .. وعلى الرغم من ذلك فقد نال روزفلت حب عامة الناس والكثير من المفكرين والمثقفين وأعطوه ثقتهم وانتخبوه رئيسا للولايات المتحدة لأربع مرات (١٩٣٢ - ١٩٣٦ - ١٩٤٠ - ١٩٤٤) وهى المرة الأولى والأخيرة فى تاريخ الولايات المتحدة التى حدث فيها ذلك ، وكانت معظم نتائج الانتخابات كاسحة ففى ثلاث منها لم يستطع منافسه أن ينال أكثر من ثقة ولايتين من الثماني وأربعين ولاية ، التى كانت تشكل الولايات المتحدة حينئذ

● الحرب العالمية الثانية

دخلت الولايات المتحدة الحرب العالمية الثانية على مرحلتين ، المرحلة الأولى عندما قامت بإمداد الحلفاء بالأسلحة والعتاد عندما كانوا فى أضعف حالاتهم عن طريق قانون الإعارة والتأجير (Lend - Lease) الذى استطاع روزفلت أن يمرره فى الكونجرس الذى لم يكن الكثير من أعضائه رغبة فى الدخول مباشرة فى الحرب ، فقد كانت ذكريات الحرب العالمية الأولى ماثلة ، كما كان هناك عطف كبير على ألمانيا بين رجال الأعمال وذوى المكانة فى الولايات المتحدة لدورها المهم فى صد خطر الشيوعية وايقاف الزحف الروسى .

أما روزفلت فكان يشعر بأن مصالح الولايات المتحدة مرتبطة بانجلترا ليس فقط لصلة القربى ووحدة اللغة ، بل لإيمانه بقضية الديمقراطية التى كان يعتقد أنها يمكن أن تتثبت بانتصار الحلفاء هذا فضلا عن اعتقاده بحتمية الدخول فى الحرب التى أصبحت عالمية .. وقد اتاح له هجوم اليابان على بيرل هاربور فى ديسمبر ١٩٤١ الفرصة لإعلان الحرب على اليابان ودول المحور .. وكانت اليابان قد قامت فى ذلك اليوم بهجوم جوى دون انذار على الأسطول الأمريكى الرابض فى هذا الميناء فدمرته عن آخره .

وبعد دخوله الحرب أراد روزفلت أن يعطى معنى لها وتبريرا للتضحيات الكبيرة

لشعوب العالم فيها فأصر على أن يعلن الحلفاء ميثاقا يعلنون فيه نواياهم بعد الانتصار وشكل العالم الذى سيقيمونه ، وقد عرف هذا الميثاق باعلان الاطلنطى (Atlantic Charter) وقد وقع عليه بعد ضغط ونستون تشرشل فى اجتماع القمة بالدار البيضاء فى سنة ١٩٤٣ - وفيه تعهد الحلفاء بإقامة عالم جديد يسود فيه السلام والعدالة والمساواة بين الأمم وفيه ظهرت فكرة انشاء منظمة الأمم المتحدة التى كان يؤمل أن تكون جهازا لحل النزاعات دون اللجوء إلى القوة ولنشر مبادئ العدالة وتثبيت حقوق الانسان والمساواة بين البشر وعدم التمييز بينهم بسبب اللون أو العنصر أو الجنس أو العقيدة

● قائد عظيم

ولم يعش روزفلت لكى يرى نهاية الحرب أو نشأة منظمة الأمم المتحدة ، فقد مات فى أبريل سنة ١٩٤٥ قبل شهور من نهاية الحرب - وبوفاته فقدت هذه القضايا الرفيعة نصيرا كبيرا ، وتبخر الكثير منها باشتعال الحرب الباردة بين القوتين العظميين اللتين خرجتا منتصرتين من الحرب ، وكان أمل روزفلت أن يمد جسور التعاون بينهما على الرغم من الضغط الشديد الذى كان يتعرض له بسبب عمله الدائب لمد هذه الجسور فقد كان الكثير من ساسة الولايات المتحدة ينصحونه بالابتعاد عن الاتحاد السوفييتى الذى كانوا يكرهونه ولا يثقون فى نياته .. وقد استطاع هؤلاء الساسة الضغط على روزفلت قبل ترشيحه للرئاسة للمرة الرابعة لإسقاط هنرى والاس ، نائبه فى فترة رئاسته الثالثة من الترشيح كنائب للرئيس، والذى كان متهما بأن له علاقات طيبة مع الاتحاد السوفييتى ، وترشيح هارى ترومان اليمينى والذى أمسك بالقيادة بعد وفاته ..

كان روزفلت قائدا بارعا استطاع فى جو معاكس أن يغير مسار أمريكا وأن يجعلها تقبل بطريقة ديمقراطية ما درجت على ألا تطيق سماعه وانقذ بذلك النظام الديمقراطى والرأسمالى من أزمة كان من الممكن أن تطيح به . وتبدو عظمة هذا القائد كبيرة إذا ما قورنت بالفشل الذريع الذى منى به قائد آخر مثل جورباتشوف الذى تولى قيادة النظام الشيوعى وهو فى أزمة مماثلة فلم يستطع عمل شىء وراح منه النظام كله !

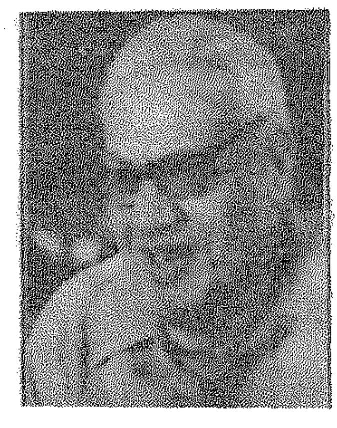
الفكـــر الاقتصادى المصرى فى ظل عبد الناصر

بقلم : د. جلال أمين

□تناولت فى مقال سابق (الهلال - ابريل١٩٩٦) أهم السمات التى تميز بها الجيل الأول من الاقتصاديين المصريين (١٩٢٠ - ١٩٤٥) ، والعبء الثقيل الذى تحمله ذلك الجيل ، حيث كان يكتب فى ظل الاحتلال ، والخدمات الجليلة التى أداها مع ذلك ، خاصة إنشاء لغة اقتصادية عريقة . وأتناول الآن الجيل الثانى من الاقتصاديين المصريين (٤٥ - ١٩٧٠) الذين عاشوا وكتبوا فى الأساس فى فترة الحكم الناصرى . وهو جيل رغم أنه كان بدوره يحمل عبئه الخاص به ، جدير بأن يعتبر ، من نواحى كثيرة ، جيلا حسن الحظ ، إذ لم تكن هذه الفترة فقط واحدة من أفضل الفترات خلال هذا القرن من حيث أداء مصر الاقتصادى ، بل كانت من أفضلها أيضا من حيث معدل التقدم الذى حققه الانتاج الفكرى للاقتصاديين المصريين ، والذى حققته مهنة الاقتصاد بوجه عام .



د. اسماعيل
صبرى عبدالله



د. ابراهيم حلمى
عبدالرحمن

كليتى هناك أولا ، النمو السريع فى عدد الخريجين المتلقين تعليما اقتصاديا ، فإلى جانب خريجى كليتى الحقوق والتجارة من الجامعة المصرية العتيدة (التى تغير اسمها إلي جامعة فؤاد الأول ثم إلى جامعة القاهرة) الذين بلغوا فى تلك الفترة عدة مئات كل عام أضيف خريجو جامعة الاسكندرية (التى أنشئت فى ١٩٤٢) ثم عين شمس (١٩٥٠) ثم أسيوط (١٩٥٨) ثم خريجو جامعة الأزهر التى تم تحديثها فى أوائل الستينات على نحو يسمح بتدريس المواد العصرية ومنها الاقتصاد وفى ١٩٦٠ تم افتتاح أول كلية متخصصة فى الاقتصاد وهى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة .

ثانيا : حدث فى تلك الفترة التوسع الهائل فى البعثات الحكومية لخريجى الجامعات لمتابعة دراستهم العليا بالخارج ذلك أن تبنى الحكومة فى أعقاب ثورة ١٩٥٢ لهدف التنمية الاقتصادية السريعة والتصنيع وسياسة التخطيط المركزى ، واتباعها لسياسة عدم الانحياز فيما بين منتصف الخمسينات ومنتصف الستينات ،



لبيب شقير

حفز الحكومة إلى إرسال أعداد كبيرة من الخريجين بما فى ذلك دارسى الاقتصاد إلى جامعات الغرب والشرق ، اعتقاداً منها بأن من شأن ذلك أن يحقق توازنا صحياً بين أيديولوجيتى العسكريين . كانت مدة البعثة للكثيرين من هؤلاء الطلاب طويلة نسبيا ، قد تمتد إلى خمس سنوات أو أكثر ، وكان موضوع الدراسة لأغلبهم قد حدد تحديدا دقيقاً من جانب الهيئة الحكومية التى أوفدتهم أملا فى أن يلبى ذلك حاجات محددة للدولة ، وهى سياسة تذكر ببعثات محمد على قبل ذلك بأكثر من قرن من الزمان.

ثالثا : بدأ تطبيق سياسة طموحة أيضا وحازقة فيما يتعلق بجمع الاحصاءات والمعلومات فأنشئت هيئة جديدة وقوية وواسعة الاختصاص لجمع وتحليل البيانات الاحصائية سميت الجهاز المركزى للتعبئة والإحصاء، وعهدت إدارتها إلى مديرين مستنيرين وبالغى الحيوية والطموح من ضباط الجيش استطاع الجهاز فى عهدهم تقديم خدمات جليلة فى ميدان الإحصاء والبحث الاقتصادى .

هكذا تم التغلب إلى حد كبير على العقبتين اللتين قيدا البحث الاقتصادى فى الفترة السابقة (٢٠ -١٩٤٥) ، إذا لم تعد هناك ندرة فى الاقتصاديين المتدربين تدريبا جيدا ، ولا نفس الدرجة من الندرة فى البيانات الاحصائية.

كذلك لم يعد الطلب شحيحا على خدمات الاقتصاديين أو على الاحصاءات . فإلى جانب وزارتى المالية والتجارة القديمتين والجامعات الآخذة فى التوسع ، أنشئت وزارة مستقلة للاقتصاد ، وأخرى للصناعة، ولجنة حديثة باسم لجنة التخطيط القومى تحولت فيما بعد إلى وزارة التخطيط . وفى أوائل الستينات أنشىء المعهد القومى للتخطيط ، الذى أنشأه وأصبح أول مدير له أستاذ نابغ في الفلك ، تصادف أنه كان أيضا هاويا للاقتصاد والتخطيط ، ويشارك قادة ثورة ١٩٥٢ فى طموحاتهم فى التنمية والتقدم (د . إبراهيم حلمى عبد الرحمن) .

ثروة من الاحصاءات

فإذا تأمل المرء الآن النتائج التى أثمرتها تلك الجهود ، فإنه لا يسعه ، حتى ولو كان من أشد أنصار مبدأ عدم تدخل

الدولة فى الاقتصاد ، إلا أن يشعر بالتقدير العميق لما أداه الدور الواسع للدولة فى تلك الفترة فى ميدان البحث الاقتصادى وتوفير المعلومات الاقتصادية لقد أصبحت فى متناول اليد ثروة من الاحصاءات عن مختلف جوانب الاقتصاد والمجتمع المصرى ، بفضل جهاز التعبئة والإحصاء في الأساس ، كما أعدت ونشرت لجنة التخطيط القومى والمعهد القومى للتخطيط محاضرات ومذكرات وبحوثا عن مختلف قضايا التنمية وأساليب التخطيط الفنية ، ودعى عدد من كبار الاقتصاديين ذوى المكانة العالية ، للمجيء إلى مصر لالقاء المحاضرات أو إعداد الدراسات عن مختلف مشكلات الاقتصاد المصرى أو المشكلات النظرية العامة لقضايا التنمية الاقتصادية ، كما نشطت حركة للترجمة فى مختلف فروع المعرفة بما فيها الاقتصاد والتخطيط تشجعها وتنفق عليها الدولة. هكذا جاء إلى مصر «جوتفريد هابرلر» و«إجنار نيركسه» بدعوة من البنك الأهلى المصرى في السنوات الأولى التالية لثورة ١٩٥٢ لإلقاء محاضرات عامة عن مشكلات التنمية الاقتصادية ، أصبحت فيما بعد أساساً لبعض من أشهر أعمالهما .

بل حتى خلال الفترة التي اتخذت فيها أكثر الاجراءات ثورية، وبدأ فيها تطبيق ، ماسمى وقتها بالاشتراكية العربية ، لم تجد السلطة غضاضة فى دعوة بعض الاقتصاديين الأجانب من غير الاشتراكيين ولكن من ذوى السمعة العالية فى فرع تخصصهم ، للقدوم بل والاقامة في مصر لفترات متفاوتة . هكذا جاء إلى مصر الاقتصادى السويدى الشهير «بنت هانسن» فى مطلع الستينات وخصص له مكتب في معهد التخطيط القومى حيث كان يلتقى بالاقتصاديين المصريين ويلقى المحاضرات ويعقد ندوات البحث مما أسفر فى النهاية عن ظهور كتابه القيم عن الاقتصاد المصرى (بالتعاون مع جرجس مرزوق) فى ١٩٦٥. خلال نفس الفترة جاء إلى مصر الاقتصادى البريطانى باتريك أوبراين الذى أصبح فيما بعد ولايزال أحد أبرز أساتذة التاريخ الاقتصادى فى جامعة أكسفورد ليكتب كتابه القيم أيضا عن تحول النظام الاقتصادى المصرى إلى الاشتراكية وهو كتاب لا يزال يعتبر حتى الآن من افضل ما كتب فى موضوعه كما كان هذا التحول فى النظام الاقتصادى المصرى هو ما أدى بالدكتور حسين خلاف إلى كتابة مؤلف قيم أخر فى التاريخ الاقتصادى المصرى الحديث .

العصر الذهبي

بالاضافة إلى الزيادة الملحوظة فى حجم الكتابات المتعلقة بالمشكلات

الفكر الاقتصادى المصرى



محمد زكى
شافعى

التطبيقية الخاصة بالاقتصاد المصرى ، وارتفاع مستواها ، خلال عقدى الخمسينات والستينات ، يمكن أن يعتبر هذان العقدان أيضا العصر الذهبى لتأليف الكتب المدرسية TEXT BOOKS فى مختلف فروع علم الاقتصاد . لقد شهدت هذه الفترة ظهور كتب سعيد النجار فى نظرية الثمن ، وزكى شافعى فى النقود والبنوك . وزكريا نصر فى النظرية الاقتصادية الكلية والتاريخ الاقتصادى العام ، ولبيب شقير في التجارة الدولية والتكامل الاقتصادى العربى ، وحسين خلاف فى المالية العامة .. الخ .

لقد قدمت كل هذه الكتب وغيرها عروضا بالغة التميز للمبادىء المستقرة فى النظرية الاقتصادية والمالية العامة ، كتبت بدقة وتأن وصبر وبلغة عربية صحيحة وبأسلوب جميل خال من أى لغو .كان الجيل السابق من الاقتصاديين (جيل فترة ما بين الحربين) قد قام بصنع اللبنات اللازمة للبناء ، فإذا بهذا الجيل التالى يستخدمها فى إقامة أبنية ثابتة وخلابة

كان هذا الجيل الذى كتب في الخمسينات والستينات قد نشأ وتعلم فى ظروف أكثر استقرارا بكثير من الجيل الذى تلاه (جيل السبعينات والثمانينات) وقضى فى الدراسة بالخارج فترات أطول بكثير فلما عاد أفراده إلى مصر بعد حصولهم على درجة الدكتوراه ، أعطوا مرتبات بالجامعة تسمح لهم بمعيشة محترمة ولائقة لا يضطرون معها للتنقل من مكان لآخر لكسب الرزق ، كما ظلوا يتمتعون بمركز أدبى رفيع ، كأساتذة بالجامعة يحفزهم على بذل ما كانوا يبذلونه من جهد وهى كلها أمور فقد منها الكثير بعد ذلك الوقت. لم يكونوا فى عجلة من أمرهم وهم يكتبون وينشرون نتاج عملهم وما كانوا يتعرضون لنفس الإغراء الذى خضع له خلفاؤهم من الاقتصاديين لكسب المزيد من المال وتكوين الثروات. لم يكن ذلك الجيل ، جيل الخمسينات والستينات بالضرورة مصنوعا من معدن أنفس من الجيل التالى عليه، إنه فقط لم يتلق ضربات بنفس القسوة التى ضرب بها من تلاهم.

ازدهار الحياة الثقافية

إن هذه المزايا التى تمتع بهـا ذلك الجيل من الاقتصاديين تمتع بها أيضا نفس الجيل من الروائيين والمسرحيين والشعراء والفنانين من مختلف الأنواع ففى خلال الخمسة عشر عاما التى أعقبت نهاية الحرب العالمية الثانية، شهدت مصر ازدهارا ملحوظا فى الحياة الثقافية والفنية يقارب ، إن لم يفق ما شهدته من ازدهار فى العقد التالى للحرب العالمية الأولى كانت هذه الفترة (٤٥ - ١٩٦٠) هى الفترة التى شهدت نشر أفضل أعمال نجيب محفوظ ويوسف ادريس وما يعتبره كثير من النقاد بعضا من أفضل ما أنتجه المسرح المصري وأرباب التلحين الموسيقي والفنون التشكيلية في هذا القرن.

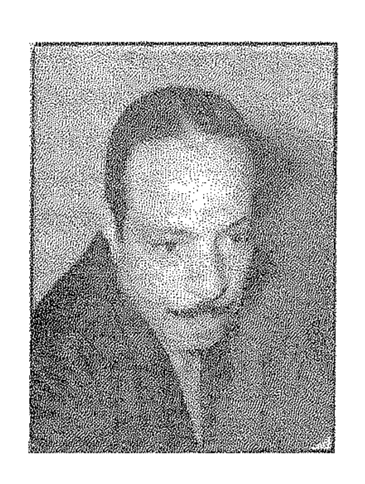
وتفسير ذلك في رأيي اجتماع عدة ظروف في نفس الوقت: حركة وطنية قوية خلقت شعورا بالتفاؤل بالمستقبل، ودرجة عالية من الاستقرار السياسي ومن التفاعل الصحي مع الثقافات الأجنبية مع توفر مستوي واحد من التعليم والثقافة لهذا الجيل من الاقتصاديين والكتاب والفنانين بوجه عام. إن كثيرا من هذه الظروف قد جري فقدها تدريجيا، وبدرجات متفاوتة خلال السبعينات، لكن حتي قبل قدوم السبعينات كانت السحب قد بدأت تتجمع منذرة بمناخ مختلف تماما، حتي ان بوادر هذا التغير قد بدأت تصبح شديدة الوضوح في السنوات التالية لهزيمة ١٩٦٧.

تدخل الدولة فى الاقتصاد

كانت هذه الفترة تدور في الأساس حول زيادة ثقل يد الدولة فى الحياة الاجتماعية والثقافية. كانت البوادرالأولي قد بدأت في الظهور في وقت مبكر، حينما بدأ الخلاف بين جمال عبد الناصر ومحمد نجيب يظهر للعيان في ١٩٥٤، ولكن الأمر لم يصبح ثقيل الوطأة إلا مع انتصاف الستينات حينما اقترن تزايد الصعوبات الاقتصادية مع تزايدالضغوط الخارجية، ثم مع هجوم ١٩٦٧ المشئوم وكلها ظروف أدت إلي تزايد ضغط الدولة علي نفوس الناس بما في ذلك، بل وعلي الأخص المثقفون .

انعكس هذا بالطبع علي الاقتصاديين المصريين فى صور مختلفة. فمع ازدياد تدخل الدولة في الاقتصاد بعد منتصف الخمسينات زاد إلحاح الدولة علي المثقفين بما في ذلك أساتذة الجامعات، بأن يقوموا بالتعبير والترويج للأيديولوجية التى تتبناها الحكومة. ولكن من حيث أن

الفكر الاقتصادى المصرى



د. فؤاد مرسى

الحكومة في البداية لم تكن هي نفسها تعرف بوضوح نوع هذه الأيديولوجية، فإن التوجيهات الصادرة من الحكومة كثيرا ما كانت تتعرض للتغير المفاجئ وكثيرا ما كانت تصدر متضاربة، وقد سمح بعض الاقتصاديين لأنفسهم للأسف بمن فيهم بعض الأكاديميين، بأن يستدرجوا إلي هذا المنحدر، وبأن يولوا وجوههم إلي أية وجهة تحددها لهم السلطات. هكذا بدأ الترويج للنظام التعاوني في منتصف الخمسينات، تلاه الترويج لأسلوب التخطيط الاقتصادي في أواخر الخمسينات، ثم للاشتراكية العربية ابتداء من ١٩٦١، ممزوجة ببعض ملامح الماركسية في أعقاب ١٩٦٤.

كان لإصرار الحكومة في ذلك الوقت علي ان تكون أيديولوجيتها هي المسيطرة علي التعليم الجامعي، أثر سيئ علي البحث الاقتصادي والكتابات الاقتصادية من أكثر من ناحية. فبينما أسرع بعض الاقتصاديين الأكثر استعدادا للخضوع لرغبة السلطات إلي كتابة ما تريد السلطة أن تقرأه بدأ الاحباط يخيم علي من كان منهم أكثر استقلالا في الرأي، خاصة وهم يرون قلة حظ من اختار التفرغ للبحث غير المنحاز، وقد فضل بعض هذا الفريق الأخير أن يترك الجامعة برمتها ويبحث عن عمل خارج البلاد. هناك بالطبع من الاقتصاديين الأكفاء من كان يشارك الحكومة التزامها بالاشتراكية وإيمانها بالتخطيط المركزي، ولكن حتي في داخل هذا الفريق الأخير وجد من رأي أن الخطابة السياسية أو تقوية العلاقات بأصحاب النفوذ هي طريق أسرع للصعودالسياسي أو المادي من البحث الأكاديمي المتأني، ومن ثم خضع بعضهم لإغراء ترك العمل العلمي والاشتغال بالسياسة.

لعبة السياسة الدولية

من المؤسف أيضا وبوجه خاص، أن الحكومة منذ أواخر الخمسينات، بدأت تصر علي تقييد التعبير عن أي مذهب من المذاهب الاشتراكية غير المذهب الذي اختارته. وكان سبب ذلك، في رأيي، ليس ضيق الأفق بقدر ما كانت الحكومة تعتبره من متطلبات لعبة السياسة الدولية والرغبة في إرضاء أو تحييد إحدي القوتين

العظمـيين . لكن أيا كـان سـبب هذه الظاهـرة فـإن أثرهـا على البـحث الاقتصـادى كان سيئا فقد أدى حذف الحكومـة من أن يتحـول الاقـتصـاديون الماركسيون فى مصر إلى الترويج لأهداف السياسة السوفيتية أو ربما مجرد رغبة الحكومة فى أن تظهر نفسها أمام الولايات المتحدة بمظهر من يقاوم النفوذ السوفيتى ويضـع حـدا لانتـشـاره إلى أن وضـعت الحكومـة فى السـجن كل الماركـسـيين المصـريين الذين لهم أى أثر على الاطلاق فى الرأى العام، وذلك لعدة سنوات (٥٩ - ١٩٦٤) وقـد شـمل ذلك بعـضـا من اكـثـر الاقتصاديين المصريين نبوغا وحيويه وعلما كـان على رأس هؤلاء اسمـاعيل صـبـرى عبدالله وفؤاد مرسى وفوزى منصور الذين كانوا وقت اعتقالهم فى ١٩٥٩ أساتذة فى الجامعة ولكن لم يسمح لهم بعد خروجهم أن يعودوا إليـها خوفا من أن يؤثروا فى الطلبـة تأثيـرا غير مرغوب فيه ومن عاد منهم إلى الجامعة بعد لأى وبسبب ظروف استثنائية كفوزى منصور سرعان ماوجد المناخ العلمى والسـيـاسى فى الجـامـعـة محيطا لدرجة أدت به إلى الهجرة لبضع سنوات خارج البلاد.

ومع ذلك فـثـمـة خـدمـة جليلة أداها النظام النـاصـرى للفكر الماركـسـى دون قـصـد منه إذ أنه عندمـا بدأ اعـتـقـال الماركسيين فى عام ١٩٥٩ ، استطاع أحد الاقـتـصـاديين المصـريين النابغين الهـرب بمعـجـزة إلى فـرنسـا ومنهـا إلى غـرب أفـريقـيا حـيث استطاع أن ينتج إنتاجا مثمرا للغـاية وأن يحدث تطويرا متـميزا للفكر الاقتصادى الماركسى .

إنى أقـصـد بالطبع سـمـيـر أمين الذى كـان ولا يزال غـزير الانتـاج بالفـرنسـيـة وكـانت أعـمـاله تتـرجم فى الحـال إلى الانجليـزية منذ أواخـر السـتـينات ، ولكن قراء العربيـة لم تكن تصلهم إلا ترجمـات سيئة لأعماله ، ومع ذلك ظلت تهرب وتباع سرا فى مصر باعتبـارها من الممنوعات حتى قرب نهـاية السـبـعينات عندمـا أراد سـمـيـر أمين أن يكتب نقدا لسـياسة عبد الناصر الاقتصادية فى الستينات اضطر إلى استـخـدام اسم مسـتـعـار هو «حسن رياض» ولكنه حتى بعد وفـاة عبد الناصر لم يستطع العودة إلى مصر ، فقد احتاج ذلك إلى وفاة السادات أيضا ، ومن ثم ظل تأثير سمير أمين فى الكتابات الاقتصادية المصـرية مـحـدودا بحـدود دائرة ضـيـقـة للغاية .

غول التكنولوجيا والفكر الاجتماعى

بقلم: عبدالرحمن شاكر

استطارت، وسوف تستطير أحاديث كثيرة جدا عن ثورة التكنولوجيا والمعلومات والاتصالات وما إلى ذلك، وآثار تلك الثورة على المجتمع الإنسانى فى مجموعه وفى آحاده من أفراد وطبقات وأمم ودول، وكتل سياسية.. الخ مع تسليم من جانب معظم تلك الأحاديث على تنوعها واختلافها بأن العالم قد أصبح أو فى طريقه أن يصبح قرية واحدة، كل مايدور فى مختلف أجزائه يتردد صداه ويؤثر على الآخرين بطريقة أو بأخرى، وخاصة بعد انتهاء الحرب الباردة وزوال انقسام العالم إلى معسكرين منذ أكثر من عشر سنوات بانهيار المعسكر الاشتراكى وتفكك دولته الكبرى التى كانت تعرف باسم الاتحاد السوفييتى، لأسباب ليست بعيدة عن الثورة التكنولوجية، وأهمها أن تلك الثورة قد شقت طريقها فى الغرب الرأسمالى أسرع منها بكثير فى مجتمعات الاشتراكية وأنه كان عليه أن يخضع لشروط هذا الغرب فى اقتصاد السوق وحرية التجارة لكى يتاح له أن يلحق بما أنجزته تلك الثورة فى جميع ميادين الانتاج والتسليح.. إلخ.

وإذا كان انهيار المعسكر الاشتراكى وتفكك الاتحاد السوفييتى قد ترتب عليه انهيار مماثل فى مكانة الفكر الاشتراكى وخاصة نظريته الأساسية المعروفة باسم الماركسية أو الماركسية - اللينينة عند قدامى الشيوعيين، واختفاء أدبياتها التقليدية من التداول، فإن أدبيات جديدة قد بدأت فى الظهور تقارب فى لغتها إن لم يكن فى أفكارها تلك الأدبيات المنبوذة التى اشتهر بها المعسكر الاشتراكى السابق، ولكنها هذه المرة فى الغرب الرأسمالى ذاته، بل فى قلعته الكبرى الولايات المتحدة الأمريكية ذاتها، وليست تلك الأدبيات على الهامش، مثل منشورات الحزب الشيوعى الأمريكى قديما بل على صفحات صحف ومجلات أمريكية ذائعة الصيت فى أرجاء العالم منها مجلة «نيوزويك» التى نشرت بتاريخ ٢٦ فبراير من هذا العام موضوعا وضعت له عنوانا على غلاف المجلة هو «الرأسماليون القتلة

فى أمريكا» (!!) وعلى صفحات الموضوع فى داخل المجلة كان العنوان هو «رجال الضرب» بقلم «آلان سلو آن» وكتب فى مقدمته يقول: «لقد كان من المعتاد أن يعتبر من العار فصل العمال بالجملة، ولكن «وول ستريت» قد أصبح يحب ذلك، ولكن عمليات الفصل قد احنقت صدور الجماهير وأثارت رد فعل غاضب عنيف، فهل هناك طريق أفضل؟!» ثم يبدأ موضوعه بقوله: «هناك شيء مختلف فى الجو هذه الأيام فيما يتعلق بوظائف الناس. نعم. لقد كانت هناك حالات فصل جماعية منذ وجدت الأعمال، كان لدينا دائما رؤساء وإداريون جشعون عديمو الاحساس ولكنهم كانوا قلة معزولة، دون ان نذكر حملة الاسهم الجياع أو العمال القلقين، ولكن أخيرا، تجمعت تلك الريب (جمع ريبة) المعتادة بطريقة تشكل شيئا جديدا كريها، يمكن أن تسميه «الرأسمالية الفاجرة» أو الرأسمالية «عينى عينك» (بالتعبير العامى الذى استخدم الكاتب عبارة تقاربه). أنت تفقد عملك، فترتفع أسهم مستخدميك السابقين فى البورصة، ويحصل رئيس مجلس الادارة على علاوة ضخمة! هناك «حاجة غلط» (مرة أخرى نلجأ للتعبير العامى) واضحة تماما، حيث تستمر الأسهم فى الارتفاع فى «وول ستريت» بينما يغص الشارع الرئيسى (وول ستريت هو اسم شارع البورصة) بأجساد العمال الذين فصلتهم الشركات الكبرى مثل «ايه. تى. آند. تى» و«تشيز منهاتن» و«سكوت بيبر» (أوسكوت للورق)، فيما مضى كان فصلك العمال بالجملة يعتبر وصمة عار، كان معناه أنك مضطرب فى عملك، واليوم، فإنه كلما زاد فصل العمال، زاد حب وول ستريت لهذا العمل، وارتفعت أسعار أسهمه فى البورصة، لذلك ليس عجيبا أن الخبثاء فى اتحاد «إيه . تى. آند. تى» يرجفون بأن رئيس مجلس ادارتها «روبرت ألن» سوف يفصل قريبا كل العاملين ماعداه هو(!) وأن «إيه . تى. أند. تى» سوف تظل تعمل بواسطة «ألن» واثنين من المقربين فحسب!! ليست هذه هى الكيفية المفروض أن يعمل بها العالم، أليس كذلك؟!

● الياقات البيضاء

ثم يمضى الكاتب فى مقاله قائلا: منذ خمسة وعشرين عاما كان فصل الناس فى «أمريكا الشركات» موضع نظر حسب الحالة، فلم يكن يخل باعتبار أحد رجال الأعمال أن يفعل ذلك من أجل بناء مصانع جديدة، ولكنك الآن تفصل العاملين – خصوصا من ذوى الياقات البيضاء – من أجل أن تزيد معدل توزيع الأرباح كان كثير من ذوى الياقات البيضاء يدركون أن بعض حالات الفصل القليلة فى الماضى انما تعنى انهم لايستطيعون الاعتماد على البقاء عند أمثال شركة «آى. بى. إم» إلى الأبد. ولكن شيئا لم يحل محل صاحب العمل الذى يشبه الأب الكبير الطيب، مما يلقى الرعب فى نفوسنا، انك تستطيع عمليا أن تشتم رائحة الخوف والغضب فى «أمريكا الياقات البيضاء» لأنه لايبدو أن أحدا يعنيه الأمر فى «آرض رؤساء

مجالس الإدارة».

ثم يمضى الكاتب بعد ذلك إلى حد الحديث عن حالته هو شخصيا فيقول: أين سوف أجد عملا آخر إذا ما تم «توفيرى» ويستطرد كالمحاور نفسه: «كف عن النواح، فاحصاءات البطالة لم تزد إلا قليلا بالرغم من حالات الفصل الكثيرة بين ذوى الياقات البيضاء، هل تدمر رئيستى فى العمل حياتى لكى تزيد سنتا آخر فى أرباح اختياراتها من الأسهم؟ هنيئا لك، فأنت تخدم الخير الأعظم بأن يعصف بك ماعمده الاقتصادى «جوزيف شمبيتر» باسم «رياح التدمير الخلاقة»! وفيما عدا «الكرات الطائشة» مثل الاقتصادى الرئيسى فى مورجان ستانلى (الذى حذر منذ سنوات من حدوث رد فعل سياسى عنيف) أو رئيس «التكنولوجيا المتحدة» (الذى قدم مؤخرا برنامجا بارعا لمساعدة عمال «التكنولوجيا المتحدة» على اعادة تعليم أنفسهم ليصلحوا لشغل وظائفهم المقبلة، فإن وول ستريت وكبار رجال الأعمال على اتفاق تام على أن «الرأسمالية الفاجرة (عينى عينك!) تجعل أمريكا أعظم شأنا!

ويقول الكاتب بعد ذلك «انه ربما كان هذا هو أوان رد الفعل الغاضب العنيف» فقد أصبحت متاعب ذوى الياقات البيضاء موضوعا ساخنا فى حملات انتخابات الرئاسة عام ١٩٩٦.. من ذلك أن «بوب دول» (أقوى مرشح للحزب الجمهورى) يقوم بجلبة معادية لرجال الأعمال (حسب تعبير «آل دنلوب» أقوى المتحدثين باسم عتاة رجال الأعمال من شركة سكوت للورق» كما أن وسائل الاعلام الكبرى من أول «نيويورك تايمس» الى «وول ستريت جورنال» ترجع النجاح القوى ليات بوكانان فى الانتخابات التمهيدية فى ولاية إيوا إلى هجمومه على رجال الأعمال!

ولكن الكاتب لا ينكر العوامل الاقتصادية التى تؤدى الى عمليات طرد العاملين سواء من ذوى الياقات البيضاء (الموظفين المتعلمين) أو الياقات الزرقاء (العمال العاديين) فيقول: «ليس من الانصاف أن نلقى باللوم على المؤسسات الكبرى او وول ستريت فى كل حالة فصل فى أمريكا فالعالم يتغير، ولايهم مدى ضخامة الشركة او ثرائها، فعليها أن تلائم نفسها (أى مع أوضاع العالم المتغيرة) أو تموت. ويضيف بين قوسين، انه «حتى نيوزويك التى يعمل بها ويكتب هذا المقال لم تكن معصومة من عملية الغاء بعض الوظائف وتوفير شاغليها!» ولكنه يقول بعد ذلك: «ان وول ستريت (يقصد البورصة) والمؤسسات الكبرى قد زادت المشكلة السيئة سوءا، بسبب الجشع! فبدلا من ترك قوائم الأجور لديهم تستقر، او مساعدة الموظفين على اعداد انفسهم لوظائف أخرى، أضاع كثير من رؤساء مجالس الادارة وقتا ثمينا، فقد تركوا قوائم الأجور تتضخم، وبعدها - لكى يوازنوا أمورهم - فإنهم يقدمون موظفيهم كضحايا بشرية لـ «مامون» MAMMON إله وول ستريت مؤملين بذلك أن ترتفع أسعار أسهمهم. وحينما

يحدث هذا الارتفاع فهو يبدو وكأن وول ستريت يبصق على جثث الضحايا!! ثم يحصل رئيس مجلس الادارة على علاوة!! ويتساءل الكاتب بعد ذلك مباشرة بقوله: «كم من رؤساء مجالس ادارة الشركات الكبرى التى انقصت عدد العاملين بها، ضحوا ببعض مرتباتهم او امتيازاتهم لكى يخلقوا نوعا من الشعور بالتعاطف الاجتماعى؟ هل اعتذروا علنا لأولئك الذين طردوهم؟ هل تحملوا أية مسئولية شخصية عن الأخطاء التى ساعدت على ايجاد المشاكل التى يعملون على حلها الآن بطرد العاملين؟ لا سبيل الى ذلك فليس أحد من هؤلاء «ماكو» (يقصد ليس أحد منهم بالشخصية التى تتصف بالرجولة الحقة ويقظة الضمير!) ويحسن فى هذا الموضع أن نشير إلى أن الكاتب قد رصع موضوعه بأثنتى عشرة صورة لبعض رؤساء مجالس ادارة الشركات الكبرى ووضع تحت (أو فوق) صورة كل منهم عدد من طردهم من العاملين وهم بعشرات الألوف والمرتب الضخم الذى يتقاضاه هو ويبلغ أحيانا عدة ملايين سنويا!

● غول التكنولوجيا

ولكن الكاتب بعد ذلك يعود إلى مراجعة نفسه ونسبة عمليات التوفير واسعة النطاق بين العاملين إلى أسبابها الموضوعية فى عصر الثورة التكنولوجية فيقول:

«وبالطبع فلا يهم مدى مايتمتع به رئيس مجلس الادارة من حساسية وكياسة، فهناك تيارات لن تستطيع أن تسبح ضدها وخذ مثالا البنوك، فبفضل الصناديق المشتركة فى سوق المال، والبنوك القومية، وماكينات الصرافة والحاسبات الالكترونية فائقة الذكاء فإن كثيرا من البنوك.، وفروعها، وألوف الوظائف البنكية سوف تختفى خلال السنوات القليلة المقبلة، لقد كان من المعتاد أن تصبح التسهيلات الالكترونية مستخدمين عظماء مدى الحياة أيضا، كانت احتكارات منظمة مسموح لها بأن تتجاوز التكاليف لعملائها، ولكن المنظمات قد شرعت تمكن الشركات من غزو مجال بعضها البعض، والنتيجة ان هذه التسهيلات قد شرعت تتحد، وعن قريب سوف تفتك بالعاملين من أجل خفض التكاليف.

«انظر.. إنك لن تستطيع أن توقف التقدم فى الحاسبات الالكترونية والاتصالات والمواصلات، إنها تحول الأسواق القومية إلى أسواق عالمية، إن الشركات الأجنبية التى لاتستطيع أنت أن تنطق اسمها قد تستولى على عملائك وتقتلك، ان الأخطاء تظهر بسرعة ودورات الانتاج قد أصبحت أقصر من ذى قبل.

انظر إلى «آى . تى. ام» و«ديجيتال اكويبمنت» اللتين كانتا أكبر صانعى أجهزة الكمبيوتر فى العالم، كيف أوشكتا أن تضيفا لفظة «المضطربة» الى اسميهما بين يـــوم وليلـة (ويبـــدو الآن انهما تتعافيان) إن شركة باذخة مثل «موتورولا» قد تتعرض لانهيار قيمة اسهمها اذا

نقصت ارباحها شعرة أو شعرتين! حقا إن أحد الأسباب التى تجعل رؤساء الشركات أحط وأكثر جشعا من ذى قبل هو ماحدث فى الثمانينات: فلم تكن هناك شركة واحدة بمنجاة من المغيرين اذا انخفضت أسعار اسهمها، فإذا لم تطرح العبء عن كاهل الخاسرين لديك وتفصل العمال «الزائدين» فإن غولا داهما سوف يشترى شركتك ويطرد الجميع!

ثم يقول الكاتب ذاكرا نفسه والفئة التى ينتمى اليها مرة أخرى:

«ومع ذلك، فحينما كانت عمليات الطرد جزءا تقليديا من حياة ذوى الياقات الزرقاء، فإن التسعينيات هى المرة الأولى التى تشهد ذبح العاملين من ذوى الياقات البيضاء بالجملة، وهذا مما يساعد على فهم سر الجلبة، ففى النهاية فإن كل ذوى الشأن، من السادسة وأمثالنا من نخبة رجال الأعمال نعيش فى عالم ذوى الياقات البيضاء، وعلى أية حال يمكنك ان ترى الأسباب التى جعلت شركة «جنرال موتورز» تفصل ٧٤ ألف عامل فى عام ١٩٩١ وشركة «سيرز» تفصل ٥٠ ألفا بعد عامين، من ذلك. لقد كانتا كلتاهما فى وضع يائس وكان وجودهما مهددا بالزوال، مما جعل رئيس كل من الشركتين يقدم على مافعل!!»

ثم معرض الكاتب بعد ذلك لكثير من تفاصيل حالات الاندماج والانقسام فى الشركات واقتران كل عملية من هذا النوع بالتخلص من اعداد كبيرة من العاملين ويذكر بعض عمليات التعويض التى قام بها عدد من رؤساء الشركات لاعادة تعليم موظفيها الذين تم أو سيتم الاستغناء عنهم وعن وظائفهم الحالية، ويعد ذلك يلحق بالموضوع دفاعا عن سياسته الفصل بالجملة التى تتبعها الشركات الكبرى، على لسان «ألبرت دينلاب» السابق الإشارة اليه ورئيس شركة سكوت للورق، وسبق له فصل ١١ ألف عامل، وملخص هذا الدفاع ان الشركات سوف تموت اذا لم تفصل تلك الاعداد الزائدة من العاملين، وان ارتفاع قيمة اسهم الشركات معناه زيادة نصيب عملة الاسهم من الأرباح وبالتالى زيادة قدرتهم على الادخار وإعادة الاستثمار فى مشروعات جديدة تعود بالفائدة على الاقتصاد القومى وتهيىء فرص عمل جديدة للمتعطلين.

لقد أصبحت البطالة المتزايدة هى المشكلة الكبرى التى تثيرها ثورة التكنولوجيا فى مختلف أرجاء العالم حيث لم تعد الآلة تحل محل العمل اليدوى فحسب، بل محل العمل الذهنى أيضا، الذى أصبح من مسلمات العصر التكنولوجى أيضا انه قد صار هو الأكثر

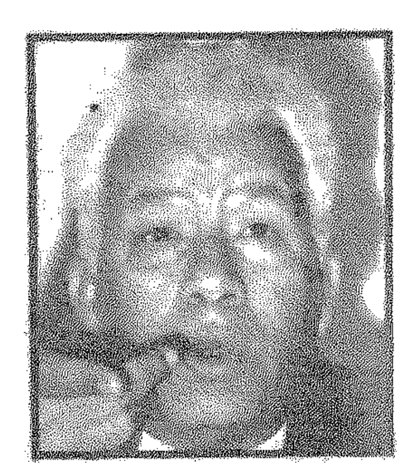
اهمية فى العمليات الانتاجية المعاصرة والتى تزداد تطورا كل يوم، وبالتالى اعتمادا على الآلة دون الإنسان، وآخر الأخبار فى هذا الباب أن اليابان قد نجحت فى الاعتماد على الانسان الآلى فى أعمال البناء!

ولقد عقد اجتماع أخير فى أوربا لبحث مشكلة البطالة المتفاقمة، فى العالم الصناعى، بل التكنولوجى المتقدم، ولكنه لم يسفر عن شىء ذى بال، وعاد الباحثون والمفكرون ينظرون من جديد فى جعبة الترسانة المهجورة ترسانة الفكر الاشتراكى.

ولقد أذكر فى هذا الصدد مقالا قصيرا كتبته الزميلة الصحفية ليلى حافظ على صفحات الاهرام بتاريخ ٢٦ مارس ١٩٩٦ بعنوان مثير هو: «المد الشيوعى فى الغرب والشرق: حقيقة ام خداع نظر؟ ذكرت فيه عودة الكثير من احزاب اليسار الجديد الى الحكم فى شرق اوربا، واحتمال عودتها فى روسيا بعد الانتخابات الرئاسية المتوقعة فى يونيو المقبل، وذلك بسبب فشل التطبيق الرأسمالى فيها بأشد من فشل الاشتراكية، وخاصة بتزايد أعداد المتعطلين فى ظلها، كما أوردت ما قاله، ريتشارد وولف أستاذ الاقتصاد السياسى فى جامعة ماسوشتش من أن هناك رغبة عارمة بين الامريكيين لمعرفة المزيد عن الماركسية بعد انهيار النظم الشيوعية ولاشك ان «صاحبنا» كاتب المقال المشار اليه على صفحات نيوزويك وهو أحد هؤلاء الباحثين عن حل لمشكلة البطالة فى العصر التكنولوجى قد يكون من بين من وصفتهم كاتبة الأهرام بقولها: «الذين يقرأون ماركس اليوم فى الولايات المتحدة أو روسيا يبحثون عن حلول لمشاكل بلادهم ولايبحثون عن قلب النظام فى هذا المجتمع.. وأن هؤلاء يسعون الى ايجاد طريق وسط يتحقق من خلاله العدل الاجتماعى مع الاحتفاظ بالانجازات الاقتصادية!»

وأعتقد أن تحول الأسواق القومية الى سوق عالمية واحدة كما تقدم فى مقال نيوزويك لن يسمح لمجتمع بمفرده مهما كان ضخما ان يواجه غول التكنولوجيا الزاحفة وخطرها على أرزاق البشر، بل لابد من أن يعمل الفكر الاجتماعى مستفيدا من جميع التجارب للعثور على «الطريق الوسط» على مستوى العالم، الذى تحول أو يوشك أن يتحول الى قرية واحدة!





د . عصمت سيف الدولة



مذكرات قرية

رحيل الدكتور عصمت سيف الدولة

شيخ جبل البداري

بقلم: مصطفى نبيل

● طلبت من د. عصمت سيف الدولة أن يكتب سيرته الذاتية فآثر كتابة السيرة الذاتية لقريته «الهمامية» ، فلقد توحد مع أهلها ، وكان على أكثر أحداثها شاهدا ، فهو ابن القرية التى تسربت حكاياتها إلى مسامه.

ومن يقرأ «مذكرات قرية» يدرك كيف يعيش الكاتب معاناة وحياة أهله ، وكيف يعبر عن مشاعرهم بدقة وإيجاز، وكيف خسره عالم الأدب وكسبه عالم السياسة والقانون .

يقول فى مقدمة كتابه : «تلقيت من كل مجتمع حكايته فاجتمع لى منها خليط من الخبرات الفائقة لو أردت لأنشأت منها مذكرات شائقة ، إلا أنى لا أريد، فقد

تعلمت من علم النفس وعلمائه أن السير الذاتية لايمكن أن تكون صادقة ولو كان أصحابها من الصادقين، لأنها استجابة لغريزة إنسانية مسيطرة، النزوع إلى

البقاء بعد الفناء، خوفا دفينا من الموت فحرصا متينا على الخلود، إنها ذات الغريزة التى تولد فى الإنسان نوازع عاطفية غير عقلانية، يحب أولاده أكثر من ذاته حتى ولو كانوا مارقين؟!» .

ورغم أنه كتب مذكرات قريته ولم يكتب سيرته، فإن هذا الكتاب يجعله من الخالدين بجدارة، ويكاد يكون أهم ماكتب عن الصعيد، وهو عمل غير مسبوق، قدم فيه رؤية صادقة تتجاوز كتابات وأبحاث الأنثروبولوجيين، ذلك أن نشأته ورهافة حسه ويقظة نفسه علمته أن يحيط إحاطة واسعة بحياة أبناء قريته، يعرف العادات والأمثال والحكايات والفنون والألعاب، فرسم ذلك كله في لوحات معبرة، واستطاع بنفسه الحساسة وإخلاصه لقريته اختراق ما حوله بقدرة عالية على صياغة عبارات رائقة هذا بعد أن أعد نفسه إعدادا كبيرا بكثرة الخبرة وسعة التجربة.

ومن النماذج الدالة على ما أقول: الصورة التى رسمها للمرأة الصعيدية والتى قدمها بقوله: «تملك الزوجة، ربة البيت، وحدها كل الأجوبة الروحية والعاطفية والمادية على أسئلة الرجل، الزوج، وهى بعد التى قدمت حجر الأساس الاقتصادى لبيت الزوجية الذى تديره، ولها فيه فضلان، فضل الادارة وفضل التمويل، ولزوجها فضل العمل، فلا ينكر عليها أحد بعد هذا أنها ملكة البيت وما فيه.. إنها لاتخدم أحدا، ولا زوجها، وإنما تدير مملكتها فى بيتها وتعد فيه كل الأجوبة الروحية والعاطفية والمادية على اسئلة الرجل الزوج، والأولاد من بنين وبنات.

الزوجة فى القرية لا «تحب» ولا «تعشق» زوجها، تلك وأمثالها أوصاف أدنى بكثير من تلك العلاقة بين الزوجين، أدنى وصف الى حقيقتها إنها وحدة مصير. لا بل وحدة وجود. فهما لايلتقيان منفردين إلا نادرا، وإن تحادثا فلا يهزران، ولايتلامسان غزلا، ولايتغازلان حديثا، ولايعرفان عادة القبل على الشفاه، ولايتعانقان اذا تقابلا بعد غياب، ولايفقدان فى كل الظروف الوقار والتوقير والحياء، ولاتنادى المرأة زوجها باسمه ولايناديها باسمها إلا اذا كانا منفردين، وإن تجادلا فصيغة النداء تدل على مدى الاتفاق والاختلاف والتودد. إن قالت له «ياخوى» فهى متفقة، وإن نادته «ياولد عمى» فهى تتودد.. وإن قالت له «ياولد الناس» فهى غاضبة. فالزوجة تعرف وزوجها يعرف إنها إن غضبت فسيشقى. ستظل اسئلة فى بيته بدون أجوبة.. يخسر هو كل شىء ولا تخسر هى شيئا.

ولايعنى هذا أن المرأة فى القرية لاتعرف الحب.. بالعكس إنها تعرفه عاطفة متأججة منذ أن بلغت مبلغ النساء، كل ما فى الأمر إنها أحبت حتى الوله وعشقت بكل كيانها الزوج بصفته وليس شخصا

بعينه».

وهكذا ينتقل الكاتب واصفا كل مناحى الحياة فى الهمامية.

● وصية في كتاب

وما بين نشر الجزء الأول فى كتاب الهلال فى أغسطس ١٩٩٥، وبين نشر الجزء الثانى الذى سيصدر خلال شهر مايو ١٩٩٦، رحل عنا د. عصمت سيف الدولة والكتاب بين يديه يراجعه، وتركه لنا وكأنه ترك لنا وصيته وهى خلاصة حكاية قريته التى تقدم نموذجا لكل قرى مصر وإن اختلفت بعض القسمات من قرية لأخرى، وتؤكد تجربة قرية «الهمامية» على المساواة بين جميع أهل القرية، فسكان القرية جميعا يعودون إلى أصل واحد، ومن عائلة واحدة، وعانت القرية طويلا من فساد السلطة وتحيزها أحيانا للمستعمر البريطانى وأحيانا أخرى للإقطاع الذى انتزع أرض الجزيرة من أصحابها، ورغم شيوع الخوف من السلطة الى حد فرار شباب القرية الى الجبل أو حقول الذرة أو القصب بمجرد اقتراب رجل بملابس رسمية من القرية فإن المقاومة الذكية التى قادها الشيخ عباس نجحت فى حماية شباب القرية من اصطيادهم وترحيلهم لخدمة المجهود الحربى البريطانى خلال الحرب العالمية الأولى ونجحت القرية مرة أخرى مع قيام ثورة ١٩١٩ فى استرداد أرض الجزيرة، ويبقى الصراع مع الطبيعة، الفيضان والجفاف ورمال الجبل، وفى مواجهة الفقر والظلم. وتقدم تجربة «الهمامية» التى نقلها د. عصمت سيف الدولة وسائل كسب هذا الصراع.

● النبع الصافي

عندما طلبت من الكاتب سيرته الذاتية، كنت انتظر قصة وظروف جيل بأكمله، وأعرف أن مفتاح شخصية الكاتب تتمثل فى نبعين لعبا أهم الأدوار فى حياته، أحدهما الصعيد والثانى تيار الوطنية الصادقة، خرج الكاتب من أعماق الصعيد، وترك الصعيد بصمات واضحة على تكوينه، الصلابة التى لاتعرف المساومة، الشجاعة فى التمسك بالحق كالقابض على جمرة، وقصة الكاتب تقدم رؤية جديدة على أن الوجه البحرى يستقبل الموجات الوافدة على مصر. ويأتى من الصعيد رياح تأكيد الهوية ومقاومة المؤثرات الأجنبية، ومن تفاعلهما تتشكل البوتقة المتوازنة التى تصنع السبيكة المصرية..

ويصدق هنا قول د. حسين مؤنس فى كتابه مصر ورسالتها .. «لايزال الصعيد وأهله موضع فخار مصر ومصدر قوتها وحصنها التى تركن إليه ، وما من شيء تراه فى مصر إلا ولأهل الصعيد فيه الأثر البعيد.

يقدمون لهذا البلد أجيالا من خيرة رجاله الذين قادوا أموره ووجهوا سياسته

ورفعوا رأسه فى كل ميدان.

أما النبع الثانى الذى استمد منه الكاتب مواقفه وتكوينه فهو تيار الوطنية الصادقة التى أثرت فى جيل بكامله، يتمثل فيه أصل من أصول فكره فى الوطنية المثالية الثابتة والمناضلة، بعد أن دخل هذا الجيل مرحلة نضال وطنى ضد الاحتلال البريطانى،، وأدرك أهمية الاستقلال وأهمية تحرير الاقتصاد المصرى من سيطرة الأجانب.

وتفتحت عينا كاتبنا للحياة فى الثلث الأول من هذا القرن، أى أنه عاش طفولة فى فترة غنية بالتحولات الفكرية، كما أن خروجه من أعماق الصعيد، دفعت - بالضرورة - إلى الأمام الصراع بين القديم والجديد، وشهدت الساحة الفكرية ألوانا من النقاش حول شروط وكيفية اللحاق بالغرب، مع وعى كامل بالتمايز بين الغرب التقدم والغرب الظاهرة الاستعمارية، وتولدت شخصية المفكر الذى يبحث عن أجوبة فى مواجهة اسئلة شديدة التعقيد..

وأعرف بعض تجاربه الأولى فقد كان ضمن التنظيم السرى للحزب الوطنى، حزب مصطفى كامل ومحمد فريد، بما يمثله هذا الحزب فى السياسة المصرية من الطهر والبراءة والمثالية، والتمسك الشديد بالمبادىء، والتعامل مع النظرة التاريخية لا النظرة الآنية، وهم أصحاب شعار «لا مفاوضة إلا بعد الجلاء» والذى يعبر عن رفضهم للمفاوضات مع بريطانيا، وعمل الكاتب بعد تخرجه فى كلية الحقوق فى مكتب أحد أقطاب الحزب الوطنى وهو مكتب زكى على باشا والذى تشرب منه أنه مهنة المحاماة هى مهنة «إغاثة الملهوف والوقوف إلى جانب المظلوم».

وانتهى بكاتبنا الحال إلى أن أصبح محاميا فى معظم القضايا السياسية والوطنية، يصول ويجول فى ساحات المحاكم مدافعا عن حق جميع القوى السياسية فى التعبير عن نفسها، وحقها فى تنظيم صفوفها، وحمل رسالتها، وكان شرطه الرئيسى الذى يردده.. «إنه يتبرع ولكنه لايتطوع» كما قدم خبرته السياسية الى كل من يطلبها سواء الأحزاب السياسية أو النقابات العمالية أو المهنية.

وربما كان أعظم ما فى د. عصمت سيف الدولة ثباته على مبدئه، باع نفسه لأمته ولم يتحول عن ذلك قط، وظل يجاهد على الدرب حتى لقى ربه.

● مع الشباب

وما أحوجنا إلى تسجيله لتجربته عندما كان ضمن كتائب الفدائيين الذى قاتلوا الانجليز فى القناة عام ١٩٥١. بعد إلغاء معاهدة ١٩٣٦، كنا ننتظر روايته وأن يقدمها للأجيال الجديدة، خاصة وهو

من القلائل الذين يقفون الى جانب الشباب بلا تحفظ ويؤمن بقدرته على صنع المستقبل، ولايرى كما هو شائع إنه لايوجد أفضل من أيام شبابه. يقول.. «الذين غادروا مرحلة الشباب يفتقدونها ويتمنون لو عادت إليهم أو عادوا اليها اكثرهم شعورا بافتقادها أولئك الذين لايكفون عن إدانة الشباب، إنها حيلة نفسية يعرفها علماء النفس، وموضوع الاحتيال إنهم يحاولون علنا استرجاع شبابهم فى شباب غيرهم بأن يعظوه لعله يسلك ما كانوا هم سالكيه لو كانوا شبابا».

وياليته سجل قصته مع الرئيس السادات، الذى بدأ حكمه بسجنه وانتهى حكمه بسجنه ثانية، فكان من أوائل المسجونين بتهمة تشكيل تنظيم عربى فى مصر، وفى آخر عهده أودع السجن فى اعتقالات سبتمبر ١٩٨١ مع عدد من السياسيين، كان نزيلا فى الزنزانة رقم ١٦ فى ملحق ليمان طره.

● الثورة العربية

انتقل د. عصمت سيف الدولة من الثورة المصرية الى الثورة العربية. فمن الطبيعى أن تكون الخطوة التالية لأبناء الوطنية الصادقة والقادمين من أعماق الصعيد، أن يقودهم الدرب إلى الفكرة العربية.

كان مكتبه فى وسط القاهرة ملتقى العرب ، لا يكاد يصل زائر عربى إلى القاهرة إلا ويسرع الى مكتبه يشهد ندوة دائمة تضم الكثير من المفكرين، تناقش خلالها العديد من القضايا العربية.

وكان الدكتور عصمت من النوع الذى تزداد حبا له كلما ازددت معرفة به، وبقدر ما كان تفكيره مثيرا للإعجاب، كان فى مناقشاته يعبر عن أعصاب هادئة وعقل منظم، ويستعمل أسلوب الاقناع الهادىء.

وهو من أوائل المبشرين بالفكرة العربية، والباحث عن طرق ملائمة لتحقيق أحد صور الوحدة، مع الاستفادة من تجارب الماضى، لذا اهتم بكبريات القضايا التى كانت تشد اهتمام الانسان العربى، ومن هنا كان تفهمه وتفتحه على التيارات الفكرية المختلفة فى كل انحاء العالم.

وبعيدا عن أى انغلاق فى اطار الوطنية الضيقة، يبحث دائما على وسائل عملية وخطط وبرامج محددة لتحقيق الأهداف العربية.، ولايكتفى بالعواطف والمشاعر المشتركة، ولايركن للتراث الثقافى المشترك وحده، ومن كلماته المأثورة «أن قابيل قتل هابيل» رغم الأخوة التى بينهما، فلا يكفى مجرد الانتماء، إنما المهم هو خلق المصالح المشتركة والعمل المشترك .

اشترك فى كل التحركات العربية أيام ازدهار الفكر القومى، أو فى زمن التراجع والضعف، يبحث وينقب عن وسائل تحقيق

مشروع النهضة العربية، والفكرة العربية عنده محورها القاهرة، التى لها دور حيوى فى حياة العرب، تجددهم وتوحدهم وتقود نهضتهم.

وأجمل أيام حياته هى تلك الأيام التى كانت القاهرة فيها مركزا للثوار العرب من كل الأقطار العربية، وبعدها وضع اهتمامه فى دعم الثورة الفلسطينية يتشاور مع قادتها، ويرجع بعضهم اليه فيما يعترضهم من مشاكل، ويؤمن أن جوهر القضية الفلسطينية ومكانتها تقع فى قلب القضية العربية يقول فى كتابه الاعتراف المستحيل .. «لانملك الا أن نقول كيف تغرق الهزائم أفئدة الناس، فيجزعون وتثير الاضطراب فى عقولهم فلا يعقلون وتعمى أبصارهم فلا يبصرون حتى مايقبضون عليه بأيديهم من أسباب النجاة، إن المرحلة المقبلة مرحلة الثورة العربية.. إن مسئولية هذا الميلاد التاريخى لاتقع على الثورة الفلسطينية وحدها، وإن كانت تتحمل قدرا من المسئولية، أما باقى المسئولية فيقع على أولئك الذين يطيب لنا الحديث عنـــهم تحت عنوان القوى القومية».

ويرتبط بعلاقات وثيقة بالقادة العرب، وعندما أتجول فى العواصم العربية، التقى بالعديد من تلاميذه ومحبيه، وكنت أدهش لشعبيته فى البلاد العربية التى تزيد كثيرا عن شعبيته فى مصر!

وعندما سألت أحد الرؤساء العرب عن المفكر الذى تأثر بأفكاره أجاب على الفور إنــه. د. عصمت سيف الدولة، وقد نشر الحديث فى حينها فى مجلة المصور.

ولم يجف قلم عصمت سيف الدولة طوال عقود أربعة، وتوزعت كتاباته فى موضوعات شتى وفى كتب متعددة، كان آخرها «مذكرات قرية» ويتميز الكثير من كتبه، «الشباب العربى» ، و«ما العمل» و«النظام النيابى»، ومشكلة الديمقراطية» و«الطريق إلي الوحدة العربية» و«بيان طارق» والطريق الى الاشتراكية العربية الذى أكد فيه امكانية قيام الاشتراكية بدون تأثيرات أجنبية ، وغيرها بتقديم افكار حية تساهم فى إحياء الشعور بحق الشعب العربى فى أن يحكم نفسه بنفسه وتجعل العدل رسالة خالدة.

وكما يكتب بقلمه يرسم بريشته فهو فنان متعدد المواهب، فى مكتبه تمثال جميل لإنسان يتخلص من قيوده ويتوق إلى الحرية، ولايعرف أحد إنه صنع هذا التمثال عندما كان معتقلا، ولا تقتصر كتبه على القضايا العامة وحدها بل تشمل أعمالا درامية مثل بيرت وحريق روما.

وبعد.. نتساءل.. هل يغادر كاتبنا دنيانا، وهو يرى أحلامه تبعد، وآماله لاتتحقق؟ ولكنه ترك لنا أعماله حية بيننا. كمن زرع الشجرة وسوف يحين يوما نضج الثمار.

فهل تحل العبرات محل الكلمات؟!

الوسطية الإسلامية

بقلم: د. محمد عمارة



□ فى الوسطية الاسلامية تتمثل السمة والقسمة التى تعد، بحق، أخص ما يختص به المنهج الاسلامى، عن مناهج أخرى لمذاهب وشرائع وفلسفات .. بها انطبعت الحضارة الاسلامية فى كل القيم والمثل والمعايير والأصول والمعالم والجزئيات.. حتى لنستطيع أن نقول أن هذه الوسطية، بالنسبة للمنهج الاسلامى - وحضارته - هى عدسته اللامة لأشعة ضوئه، وزاوية رؤيته كمنهج، وزاوية الرؤية به أيضا !..

وهى قد بلغت وتبلغ هذا المقام لأنها، بنفيها الغلو الظالم والتطرف الباطل، إنما تمثل الفطرة الانسانية قبل أن تعرض لها وتعدو عليها عوارض وعاديات الآفات.. تمثل الفطرة الانسانية فى بساطتها، وبداهتها، وعمقها، وصدق تعبيرها عن فطرة الله التى فطر الناس عليها.. إنها صبغة الله، أراد ، سبحانه وتعالى ، لها أن تكون صبغة أمة الاسلام، وأخص خصوصيات منهج هذا الدين.. فقال : (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا)..(١)... إنها . الحق ، بين باطلين .. والعدل، بين ظلمين .. والاعتدال، بين تطرفين.. والموقف العادل الجامع لأطراف الحق والعدل والاعتدال، الرافض للغلو - افراطا أو تفريطا - لأن الغلو، الذى يتنكب الوسطية، هو انحياز من الغلاة الى أحد قطبى الظاهرة، ووقوف عند إحدى كفتى الميزان . يفتقر إلى توسط الوسطية الاسلامية الجامعة!..

والوسطية الاسلامية الجامعة، ليست ما يحسبه العامة، من المتعلمين والمثقفين: انعدام الموقف الواضح والمحدد أمام المشكلات والقضايا المشكلة.. لأنها هى الموقف الأصعب، الذى لا ينحاز الانحياز السهل الى أحد القطبين وفقط.. فهى بريئة من المعانى «السوقية» التى شاعت عن دلالات مصطلحها بين العوام ..

وهى ، كذلك ، ليست «الوسطية الأرسطية»، كما يحسب كثير من المثقفين ودارسى الفلسفة الغربية وطلابها، لأن الوسطية الأرسطية، التى رأى بها أرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ ق.م) أن الفضيلة هى وسط بين رذيلتين .. هى فى العرف الأرسطى أشبه ما تكون، فى توسطها، «بالنقطة الرياضية» التى تفصلها عن القطبين - الرذيلتين - مسافة متساوية، تضمن لها التوسط والوسطية .. إنها نقطة رياضية، وموقف ساكن، وشئ آخر لا علاقة له بالقطبين اللذين تتوسطهما ... وليست هكذا الوسطية فى منهج الاسلام..

إنها، فى التصور الاسلامى : موقف ثالث ، حقا .. وموقف جديد ، حقا .. ولكن توسطه بين النقيضين المتقابلين لايعنى أنه منبت الصلة بسماتهما وقسماتهما

ومكوناتهما .. إنه مخالف لهما ليس فى كل شئ، وإنما خلافه لهما منحصر فى رفضه الانحصار والانغلاق على سمات كل قطب من الأقطاب وحدها دون غيرها .. منحصر فى رفضه الإبصار بعين واحدة، لا ترى الا قطبا واحدا !..

منحصر فى رفضه الانحياز المغالى، وغلو الانحياز! .. ولذلك، فإنها، كموقف ثالث، وجديد إنما يتمثل تميزها، وتتمثل جدتها فى أنها تجمع وتؤلف ما يمكن جمعه وتأليفه - كنسق غير متنافر ولا ملفق - من السمات والقسمات والمكونات الموجودة فى القطبين النقيضين كليهما .. وهى لذلك : وسطية «جامعة»، تتميز، فى التصور الاسلامى، والمنهج الاسلامى عن تلك التى قال بها حكيم اليونان .

الثورة على الاعتدال

إن «العدل» والوسطية هى العدل بين ظلمين - لايعتدل ميزانه بتجاهل كفتيه، والانفراد دونهما .. كما أنه لا يعتدل ميزانه بالانحياز الى إحدى الكفتين .. وإنما يعتدل بالوسطية التى تجمع الحكم العادل من حقائق ووقائع وحجج وبينات الفريقين المختصمين - كفتى الميزان .ولهذا كان قول الرسول، صلي الله عليه وسلم : «الوسط : العدل . جعلناكم أمة وسطا» (٢) ..

والعدل هنا، وبهذا المعني، هو أبعد ما يكون عن «الاعتدال»، عندما يراد به الاستسلام للواقع اذا كان جائرا .. بل إن الوسط - العدل - فى المفهوم الاسلامى - هو «الثورة» على «الاعتدال»، بهذا المفهوم!..

و «الكرم» - وهو وسط ليس غريبا تماما عن القطبين النقيضين : «الشح» و «الاسراف» .. وإنما هو جامع منهما سمات ومكونات هذا الموقف - الكرم - الجديد .. إنه جامع «للتدبير» و «للبذل والعطاء» ..

وكذلك «الشجاعة»، نجدها مغايرة لكل من «الجبن» و «التهور»، لا على النحو التام فى المغامرة، وإنما على النحو الذى رفض الانحياز لقطب واحد، فجمع منهما «الحذر» و «الاقدام»، ليكون الموقف الوسط الجديد ..

وفى ضوء هذا المضمون الاسلامى

لمصطلح «الوسطية» – وهو المضمون الذى ميزها بوصف : «الجامعة» – نقرأ كل الآيات القرآنية التى أشارت الى هذه الخصيصة من خصائص المنهج الاسلامى والدين الاسلامى وصفات الأمة الوسط .. أمة الاسلام .. (والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما) (٣).. (وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا) (٤) .. (ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محصورا) (٥) .. (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) (٦) .. أى الاعتدال ، الرافض لغلو الافراط والتفريط .. فلا الرهبانية المسيحية والنسك الأعجمى، ولا الحيوانية الشهوانية والتحلل من التكاليف..

وفى ضوء هذا المضمون نقرأ، أيضا، أحاديث الرسول، صلى الله عليه وسلم : «إن هذا الدين متين، فأوغلوا فيه برفق» (٧) .. «إن دين الله ، عز وجل ، يسر» (٨).. «إنكم أمة أريد بكم اليسر ، وإن خير دينكم أيسره» (٩) .. «إن الله ، عز وجل ، لم يبعثنى معنفا، ولكن بعثنى معلما ميسرا» (١٠) .. «وعن عائشة ، رضى الله عنها: ماخير رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، بين أمرين فى الاسلام الا اختار أيسرهما مالم يكن إثما، فان كان إثما كان أبعد الناس منه ...»(١١) فهذا الإثم الذى كان الرسول ، صلى الله عليه وسلم، أبعد الناس عنه هو المرفوض من سمات القطبين المتناقضين، لأنه الظلم والباطل والتطرف، المنحاز بعيدا عن العدل والحق واليسر والاعتدال – وصدق رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : «إياكم والغلو فى الدين، فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو فى الدين» (١٢)..

هكذا نجد «الوسطية الجامعة» هى صبغة الله .. وارادته لأمة الاسلام .. والفطرة الاسلامية المطهرة من العوارض والآفات... وعدسة رؤية المنهج الاسلامى لكل شئ ، أصولا كانت أو فروعا ...

★ ★ ★

واذا نحن شئنا معرفة الامتياز العظيم الذى تمثله «الوسطية الجامعة» وتحققه للمنهج الاسلامى.. والشمول الذى تبلغه تأثيراتها ، عندما تراعى ، وتوضع فى

الممارسة والتطبيق، فاننا نستطيع ذلك عندما ندرك كيف مثلت هذه الوسطية، وتمثل، بالنسبة للحضارة الاسلامية، طوق النجاة من تمزق وانشطارية وثنائية «المتقابلات المتناقضة»، على النحو الذى حدث فى حضارات أخرى .. وفى الحضارة الغربية على وجه التحديد..

فبهذه الوسطية الجامعة لم تعرف «الفكرية الاسلامية» – عندما التزمت بها – ذلك التناقض الذى لم يجد له حلا، بين الروح والجسد .. الدنيا والآخرة .. الدين والدولة .. الذات والموضوع .. الفرد والمجموع ... الفكر والواقع .. المادية والمثالية .. المقاصد والوسائل .. الثابت والمتغير .. القديم والجديد .. العقل والنقل.. الحق والقوة .. الاجتهاد والتقليد .. الدين والعلم .. ... إلى آخر الثنائيات – إن كان لها آخر ؟! – التى غندما افتقد منهج النظر إليها قسمة «الوسطية الجامعة» – حدث الانقسام الحاد والشهير فى فلسفة الحضارة الغربية الى «ماديين» و «مثاليين» و «مادية» و«مثالية»، منذ جاهليتها اليونانية وحتى نهضتها الحديثة ..

لقد مثلت هذه «*الوسطية الجامعة*»، لفكريتنا الاسلامية – عند الذين التزموها – طوق النجاة من هذه الثنائية وتمزقها .. وشمل فعلها هذا كل ميادين النظر التى شهدت ظواهرها استقطاب الاقطار المتقابلة والمتناقضة ..

وتلك حقيقة من الحقائق التى يتميز بها منهج الاسلام.

الهوامش:

(١) البقرة : ١٤٣.

(٢) رواه الامام أحمد.

(٣) الفرقان : ٦٧.

(٤) الاسراء: ٢٦.

(٥) الاسراء : ٢٩.

(٦) البقرة : ١٨٥.

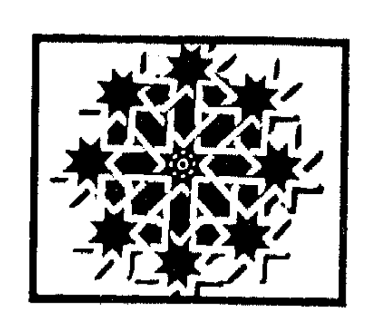
(٧) رواه الامام أحمد.

(٨) رواه البخارى والنسائى والامام أحمد.

(٩) رواه الامام أحمد.

(١٠) رواه مسلم والامام أحمد

(١١) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والامام مالك والامام أحمد.



شيوخ الإسلام في الدولة العثمانية

بقلم : سليمان فياض

شيخ الإسلام لقب من ألقاب التشريف ، ظهر ، لأول مرة ، فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى ، العاشر الميلادى .
وكان هذا اللقب مقصورا على العلماء والمتصوفة ، شأنه معهما شأن ألقاب ، يبدأ جزؤها الأول بكلمة «شيخ» مثل شيخ الدين ، وشيخ الفتيا . وكان لقب «شيخ الإسلام» أوسعها استعمالا .

وفى القرن الخامس الهجرى لقب رأس فقهاء الدين الشافعية بلقب شيخ الإسلام ، وحمل هذا اللقب فى خراسان الفقيه : «اسماعيل بن عبد الرحمن» ، لأنه قد تمثلت فيه ، فى نظر أتباعه ، خير صفات هذا اللقب .

وفى هذا العهد نفسه ، لقب الصوفى : «ابو اسماعيل الانصارى» بهذا اللقب من أتباعه .

وفى القرن السادس الهجرى ، الثانى عشر الميلادى ، حمل هذا اللقب الفقيه المفسر «فخر الدين الرازى»

وفى القرون التالية ، حمل هذا اللقب صوفى هو : «صفى الدين الأردبيلى» ومتكلم هو : «التفتازانى» .

ولم يطلق لقب «شيخ الإسلام » فى مصر والشام إلا فى اوائل العهد المملوكى وكلقب تشريف للفقهاء ، وبخاصة اولئك الفقهاء المفتون ، الذين اكسبتهم فتاواهم شهرة ، أو اعترافا من جمهور الفقهاء بالفضل فى الفقه .

وحين اختلف الفقهاء فى مصر والشام حول فتاوى «ابن تيمية» كانوا بين مانح له لقب «شيخ الاسلام» ومنكر عليه استحقاقه لهذا اللقب ، الذى يخلعه عليه انصاره ، الى درجة اتهام الانصار لهؤلاء



المنكرين بالكفر . وهناك رسالة للفقيه «محمد بن ابى بكر الشافعى » وهو من أنصار ابن تيمية . تفتى بكفر من ينكر على ابن تيمية هذا اللقب وتحمل هذه الرسالة عنوان «الرد الوافر على من زعم أن من سمى ابن تيمية شيخ الإسلام كافر» .

وفى القرن العشرين ، يصور المجددون فى الإسلام الفقيه ابن تيمية ومعه «ابن القيم الجوزية» فى صور امامين من أئمة الدين ، جديرين حقا بأن يلقبا بلقب شيخ الإسلام .

قصة لقب شيخ الإسلام

وفى الواقع، فإن لقب «شيخ الإسلام» أصبح منذ بداية القرن الثامن الهجرى ، الرابع عشر الميلادى لقبا يستطيع أى مفت من فقهاء الإسلام ، له بعض النفوذ ، بين الفقهاء والناس والحكام ، ان يتلقب به، وبخاصة هؤلاء الفقهاء الذين يفصلون فى فتاواهم ، فى المسائل الخلافية ، بين الفقهاء ويبتون فى الأمور التى تتعلق بالصالح العام . ويستوى فى ذلك أن يكون هؤلاء الفقهاء من أهل السنة ، أو من الشيعة ، ماداموا من أهل النفوذ.

لكن لقب «شيخ الإسلام» كانت له قصة تطور ، أخرى فى فارس ، غير تلك التى كانت له فى مصر ، والشام ، وتركيا، وروسيا . فقد اصبح لقب شيخ الإسلام فى فارس سلطة قضائية . يحمله كل من يرأس ، فى أى قرية ذات شأن ، محكمة دينية مؤلفة من الملّا والمجتهدين .

وفى العهد الصفوى بفارس كان شيخ الإسلام يعنى من قبل صدر الصدور . أى من قبل رئيس الوزراء .

ولم يبلغ لقب شيخ الإسلام أوجه فى المجد ، والسلطة ، مثلما بلغه فى تركيا العثمانية ، ومصر المحروسة ، وهو ما سوف نركز عليه فى مقالين لمجلة الهلال .

اللقب فى تركيا

فى تركيا العثمانية كان لقب شيخ

شيوخ الإسلام

الاسلام يطلق على مفتى الآستانة بعد أن اكتسب هذا المنصب ، بمرور الزمن ، أهمية سياسية ودينية فى دولة سلاطين آل عثمان ، اهمية لم يكن لها نظير فى أى دولة إسلامية أخرى ، حتى فى مصر المحروسة .

وفى القرون الأولى من حكم الدولة العثمانية ، كان نفوذ مشايخ الصوفية يفوق كثيرا نفوذ العلماء ، الى أن أعاد السلطان «محمد الأول» تنظيم الدولة ، تنظيما اعطى مزيدا من النفوذ لأهل السنة .

عندئذ قام صراع عنيف بين النفوذ الجديد والمتزايد لأهل السنة والنفوذ المتوارث للمتصوفة من الشيعة خاصة . وانتهى هذا الصراع بين المتصوفة من الشيعة ، والفقهاء من السنة ، بغلبة أهل السنة للشيعة ، وأهل الفقه للمتصوفة ، حدث ذلك فى عهد السلطان العثمانى «سليم الأول» المؤسس الاكبر والحقيقى للامبراطورية العثمانية .

معظم الفقهاء درسوا فى مصر

وجدير بالذكر هنا . ان معظم الفقهاء القدامى فى البلاد العثمانية ، وكلهم من أهل السنة أو الشيعة . قد درسوا العلم فى مصر أو فى فارس على شيوخ من العرب السنيين أو من الفرس الشيعيين . وكانت الغلبة فى الدولة العثمانية لفقهاء السنة ، على فقهاء الشيعة ، والمتصوفين الشيعيين ، بعد أن امتد نفوذ الدولة العثمانية الى الشام ، ومصر ، بفتوح «سليم الأول» .

وجدير بالذكر ايضا أن بعض من تولوا الافتاء فى الآستانة : كانوا من الأجانب . مثل «فخر الدين العجمى» الذى تولى الافتاء بها بين عامى ١٤٣٠ و ١٤٦٠ ميلادية ، ومثل «علاء الدين العربى» .

وتزعم روايات تاريخية أن أول مفت تولى منصب الافتاء فى الدولة العثمانية وتلقب بلقب «شيخ الاسلام و«مفتى الانام» هو الشيخ «اده بالى حما عثمان» ، ويرجع عهد تعيينه فى هذا المنصب الى عهد مبكر يرجع الى أيام السلطان «مراد الثانى» ، بل وعقدت له الرياسة على جميع المفتين الآخرين فى الدولة العثمانية .

وتزعم هذه الروايات أن السلطان محمد الثانى قد خلع بعد فتحه للقسطنطينية ، لقب «شيخ الاسلام» بصورة رسمية ، على مفتى القصبة الجديدة : «خضر بك على» وأسند اليه فى الوقت نفسه الرياسة على قاضيى العسكر العثمانى .

دوحة المشايخ وترجمة لمائة شيخ

وهناك كتاب يحمل عنوان «دوحة المشايخ» لرفعت افندى ، ترجم فيه لمائة

شيخ وثمانية من شيوخ الاسلام فى الدولة العثمانية الى عام ١٨٧١ ميلادية ، وجاء من بعده كتاب «علمية سالنامه سى» .

وردت به تراجم لمائة واربعة وعشرين شيخا من شيوخ الاسلام العثمانيين أخرهم هو «مصطفى خيرى افندى» الذى ظل فى هذا المنصب الى عام ١٩١٦ ميلادية .

وقد بدأ «رفعت افندى» تراجمه لشيوخ الاسلام العثمانيين بالمفتى «محمد شمس الدين الفنارى» (ت ١٤٣٠) كمفت لاستانبول لكن نفوذ مفتى الاسلام العظيم لم يبدأ فى الظهور ، كشيخ للاسلام ، الا على أيام السلطان «سليم الأول» وكان هذا المفتى المشهور هو «زمبللى على جمال افندى » الذى تولى منصب الافتاء بين عامى ١٥٠١ و ١٥٢٥ ميلادية . ومع ذلك كان لقاضيا العسكر السبق عليه ، لأنهما كان يجلسان دونه فى الديوان السلطانى وكان بوسعه أن يصل الى هذه الدرجة ، لو قبل مع منصبه كمفتى ، أن يتولى منصب قاضيى العسكر مجتمعين . لكنه رفض أن يقبل من السلطان سليم الأول ما عرضه عليه

ومن المرجح أن منصب مفتى استانبول لم يكتسب نفوذا وسلطانا على جميع علماء وقضاة الدولة العثمانية دون منازعة ، الا فى عهد السلطان سليمان القانونى ، اعظم سلاطين بنى عثمان وكان المفتى الأول الذى وصل الى هذه الدرجة هو : «جوى زاده محيى الدين افندى » فى القرن السادس عشر الميلادى. وكان هذا المفتى فى الوقت نفسه هو أول شيخ للإسلام يصرفه سلطان عن منصبه سنة ١٥٤١ ميلادية .

ارتفاع شأن مفتى استانبول

وفى البداية كان ارتفاع شأن مفتى استانبول ، يتوقف على شخصه بين الفقهاء . ولا تفرضه ارادة السلطان السامية ، وهو الذى يتخذ من تلقاء نفسه لقب شيخ الاسلام فيصبح فى المجتمع العثمانى شبيها بالخليفة العباسى . فى بلاط سلاطين المماليك ، قبل أن يفتح الترك مصر ..

وفى عهد العثمانيين وحدهم ، ونتيجة لفتوحاتهم فى الدولة البيزنطية بتركيا وأوربا الشرقية ، صار تنظيم علماء الدولة العثمانية ، تحت رياسة شيخ منهم من رجال الدين ، متأثرا بطبقات رجال الدين المسيحيين فى بيزنطية ، وأوربا مع استمرار البقية من السنة الصوفية القديمة التى كانت جارية فى أوائل الدولة العثمانية وهى سنة كانت تفرض ان يقوم الى جانب السلطة الزمنية . سلطة دينية ليس لها سلطان قضائى ولا زمنى . سلطة يمكن ان تسمى سلطة ضمير الناس . ولم يكن هناك قط فى الدولة العثمانية سلطة لشيخ الاسلام تجمع بين السلطتين الدينية والزمنية مثلما هو الحال فى الدولة الرومانية الغربية بالفاتيكان .

شيوخ الإسلام

الفصل بين السلطة الدينية والزمنية

وكان لهذا الفصل بين السلطتين أثره فى بقاء وثبات منصب شيخ الإسلام فى الدولة العثمانية فى عهد الصوفية ، ثم فى عهد الفقهاء منذ بداية القرن السادس عشر الميلادى ، وبالرغم من أن السلطان العثمانى كان من سلطته أن يصرف صاحب لقب «شيخ الاسلام» عن منصبه ، وهى سلطة كان السلاطين العثمانيون يلجأون إليها كثيرا لأسباب سياسية ، مثل حرمان السلطان العثمانى «عثمان الثانى» لمفتى الاسلام وشيخه من منصبه ومن جميع امتيازاته الادبية والدينية والمادية ، لأنه رفض أن يصدر له فتوى تحل له قتل أخيه ، ومثل قتل السلطان : مراد الرابع للمفتى «أخى زاده حسين» عام ١٦٣٢ ميلادية ، دون اعتبار لجلال منصبه ، لتآمره مع الجيش ضده . ومثل قتل المفتى «عبد الرحيم افندى» شيخ الإسلام لأنه عمل وسعى لخلع السلطان «ابراهيم الأول» وعزله ، وقد أدى مقتل هذا المفتى إلى خلع هذا السلطان ، فقد كان هناك إذن حد حاسم وفاصل بين السلطتين الزمنية والدينية فى الدولة العثمانية . ولا يسمح هذا الحد للسلطة الدينية بتجاوز وضعها فى الدولة .

أبو السعود مفتيا لثلاثين عاما

وآخر المفتين من شيوخ الاسلام فى الدولة العثمانية الذى استطاع أن يبقى فى منصبه مدة ثلاثين عاما متصلة بلا انقطاع هو «أبو السعود» ، وكل من جاء بعده ، لم تدم ولايته لمنصب الافتاء ومشيخة الاسلام سوى فترات قصيرة ، تتراوح فى المتوسط بين ثلاث سنوات وأربع سنوات . وكان من الممكن دائما ، أن يتولى شخص واحد منصب الافتاء والمشيخة أكثر من مرة ، يعزل مرة، ويولى مرة ، ليعزل مرة أخرى .

وفى كل من حالتى التولية والعزل . كان السبب متصلا بمؤامرات السياسة فى الدولة العثمانية ، التى يديرها الصدور العظام (رؤساء الوزارات) والضباط الانكشاريون ، وحريم السلطان ، بل والفقهاء انفسهم ممن يسعون إلى بلوغ منصب المفتى . ولقب شيخ الاسلام . بل والمفتون انفسهم حين يتآمرون ضد السلطان ، أو يتحدون إرادته وحين يتآمرون ضد الصدور العظام . أو يسعون للتحكم فى مناصب الدولة الكبيرة الأخرى.

ولكن ، والحق يقال . كان أغلب هؤلاء المفتين من شيوخ الاسلام فى الدولة العثمانية من أهل الاستقامة ، والاستقلال

الدينى عن السلطات الزمنية ، ولو أن استقلالهم من الوجهة السياسية ، عن السلطة الزمنية ، كان فى معظمه وهما من الأوهام .

ومن الطبيعى أن يكون المفتون جميعا منذ القرن السادس عشر الميلادى ، منتمين ، مثل سائر الفقهاء . إلى أسر مسلمة ، على حين كان كبار رجال الدولة ، وكبار ضباط الجيش ، ينتمون كثيرا إلى أسر غير اسلامية .

وغالبا ، فلم يكن أحد من المفتين يصل إلى درجة المشيخة الاسلامية بتوليه لمنصب مفتى العاصمة ، إلا بعد أن يتقلب فى مناصب القضاء العليا ، وبخاصة قضاء عسكر . وقد خلق هذا الاختيار السلطانى غيرة طائفية بين العلماء وشيخهم ، ظهرت بسببها فتن كثيرة .

ولم يكن لقب شيخ الاسلام يمنح للمفتى ، أو يحق له حمله ، إلا إذا قبل فعلا منصب المفتى . وكان هذا اللقب يزول عنه بزوال ذلك المنصب من تحت يده .

منزلة شيخ الاسلام

وفى المحافل الرسمية العثمانية ، كان يتجلى جلال منصب شيخ الاسلام فى الدولة العثمانية . فهو فى نظر قانون المراسم «أبو حنيفة» فى زمانه ، ولا يجوز لأحد أن يتقدم عليه سوى الصدر الأعظم .

ومنذ القرن الثامن عشر الميلادى (الثانى عشر الهجرى) لم يكن يفرض على المفتى (شيخ الاسلام) أن يزور أحداً سوى السلطان ، والصدر الأعظم ، وفى هذه الزيارة كانت تتبع مراسم دقيقة ، للرجل الثالث فى الدولة . وصاحب السلطة الدينية ، الخاضعة للسلطة الزمنية ، وهى مراسم كانت ترعى اداء الحقوق الأدبية والاجتماعية لشيخ الاسلام .

ومثلما كان لشيخ الاسلام (المفتى) حقوق فى المراسم ، كانت عليه واجبات فى المحافل الدينية ، مثل دفن سلطان ، ومبايعة سلطان جديد ، وارتقائه لعرش السلطنة ، وعلى وجه يشبه إلى حد بعيد ، منصب نظيره فى الدول المسيحية .

وفوق حصول مفتى استانبول على لقب شيخ الاسلام ، كانت له ألقاب أخرى، تذكر فى مخاطبته وعند تقديمه أو اعلان قدومه مثل : «مفتى الأنام» «أعلم العلماء» و«بحر علوم شتى» و«أساس الفضلاء» «أفضل الفضلاء» و«مسند نشين فتوى» مسند الفتوى الركين، بل و«صدر الصدور».

وإلى عهد المفتى شيخ الاسلام «ملا خسرو» (ت١٤٨٠) كان ملبس شيخ الاسلام يتصف دائماً بالبساطة يضع عمامته فوق تاج الأمام الأعظم ، لكن هذا الملبس من بعده صار قفطانا ابيض موشى بالفراء وعمامة مزينة بشريط من القصب .

شيوخ الإسلام

وظيفة شيخ الاسلام

وكانت الوظيفة الاسلامية لشيخ الاسلام مقصورة فى البداية على سلطانه فى اصدار الفتاوى ، ثم اسندت هذه المهمة إلى أمين الفتوى. وكانت الفتاوى الكبرى، مقصورة على شيخ الإسلام فى المسائل السياسية أو الأمور التى تتعلق بالصالح العام. لما لها من شأن خطير، مثل فتوى شيخ الإسلام «جمالى» فى الحرب التى أعلنت على مصر عام ١٥١٦ ميلادية، والفتوى التى أصدرها شيخ الإسلام «أبو السعود» بخصوص الحرب على البندقية عام ١٧٥٠ ميلادية، أو بإباحة شرب القهوة التى كان الفقهاء يعارضون شربها باعتبارها بدعة، والفتوى التى أصدرها شيخ الإسلام «عبدالله افندى» بشأن جواز إقامة مطبعة والفتوى التى أصدرها «أسعد أفندى» بشرعية النظام الاقتصادى الجديد الذى سنّه السلطان سليم الثالث .

وهكذا نرى انه بالرغم من انفصال السلطتين الدينية والزمنية فى الدولة العثمانية. فقد كانت السلطة الزمنية العثمانية بحاجة إلى فتاوى السلطة الدينية بشرعية قوانينها المختلفة. ولقد جرى العرف العثمانى على أن يستشار شيخ الإسلام فى جميع المسائل السياسية ذات الشأن وكان شيوخ الإسلام المفتون فى معظم الأحوال محمودى الأثر فى المسائل العامة، ويقاسون فى كثير من الأحيان من عسف السلطان نتيجة لتدخلهم الشخصى فيما لاتريده منهم السلطة الزمنية، أو لرفضهم الفتوى بما يريده السلطان .

وأحد الأسباب فى تدهور الدولة العثمانية يرجع إلى روح الرجعية التى يتسم بها نظام مشيخة الإسلام. مثل افتاء وسعى شيخ للإسلام بهدم أول وآخر المراصد العثمانية فى استانبول بعد انشائه بثلاثة أعوام، وهو المرصد الذى أنشأه ورأس عمله المهندس العربى وأبو التكنولوچيا العربية «تقى الدين بن معروف الشهير بابن الراصد» . لأنه تصادف ان الجيوش العثمانية المحاصرة لمدينة فيينا. قد فكت حصارها للمدينة حين هزمتها جيوش بولنده التى اقبلت لنجده فيينا المحاصرة.

تمدن المفتين

ومع ذلك فالمفتون من شيوخ الإسلام العثمانيين، كانوا أقل رجعية من معظم رجال الدين فى الدولة العثمانية. فلقد أفلحوا مثلا فى معارضة الفقهاء الذين أرادوا حمل جميع النصارى على الدخول فى الإسلام قهرا وغصبا .

وفى القرنين التاسع عشر والعشرين. لم يعد لشيخ الإسلام فى الدولة العثمانية ما كان له من شأن سياسى ، غير أنه كان يلجأ إلى سلطة هذا المنصب الدينية. حين تدعوه السياسة إلى ذلك، مثلما حدث عند خلع السلطان عبدالحميد عام ١٩٠٩ ، وإعلان الجهاد سنة ١٩١٤ ، وثورة الوطنيين فى انقرة سنة ١٩٢٠ .

والفتوى باعلان الجهاد (١٩١٤) لم تكن مقصورة على تركيا فحسب بل كانت موجهة أيضا إلى العالم الإسلامى بأسره، داعية لفكرة الجامعة الإسلامية التى تنطوى عليها مشيخة الإسلام العثمانية، وقد نمت هذه الفكرة داخل الدولة العثمانية وتوابعها فى غضون القرن التاسع عشر، وكان هذا النمو متصلا بالنظريات الجديدة فى الخلافة الإسلامية.

وأول من عبر عما لشيخ الإسلام من أهمية كبرى فى نظر العالم الإسلامى بأسره وأهمية تناظر ما لبابا روما من أهمية هم الكتاب الاوربيون مثل الرحالة «ريكو» فى القرن السادس عشر. و«فولنى» القرن الثامن عشر. ولكن باعتباره الممثل الروحى لسلطة الخليفة فى نظر العالم الإسلامى جميعا .

وقبل عام ١٩١٤ كانت فتوى المفتى منذ الدولة العباسية، موجهة، من الناحية الشرعية، الى كل مسلم يريد أن يتبعها ان شاء .. ولم يحدث ان بذلت محاولة ترمى إلى الاستفادة السياسية من السلطة الروحية العالمية لشيخ الإسلام . إلا فى سنة ١٩١٤ ميلادية .

ولأن المفتى العثمانى كان رأس طبقة العلماء فى الدولة العثمانية ، فقد كان له الحق فى ترشيح الأشخاص لمراتب القضاء الست العليا، ولم يكن هو يتولى القضاء إلا نادرا .

المصلحة الإدارية للمشيخة الإسلامية

وحين أخذت الإدارة فى الدولة العثمانية بالأساليب الحديثة للإدارة أنشأت بالتدريج مصلحة ادارية على رأسها شيخ الإسلام.. يساعده عدد من الأشخاص فى أداء واجباته، من بينهم الكتخدا أو الكبايا الذى يمثل المفتى، والتلخيصجى الذى ينوب عنه فى الحكومة والمكتوبجى أو كاتب السر العام، وأمين الفتوى الذى يعد الفتاوى التى يطلبها الناس ويتولى اصدارها. وقد احكمت روابط هذا النظام الإدارى فى المصلحة الإدارية للمشيخة ، وصار المقر الرسمى لشيخ الإسلام فى المكان الذى كان مخصصا من قبل لأغا الانكشارية اثر إلغاء هذا المنصب.

وكانت المصلحة الإدارية للمشيخة الإسلامية العثمانية ، تتولى إدارة

شيوخ الإسلام

وتصريف أمور جميع الهيئات التى قوامها الدين. عدا إدارة الأوقاف . وبذلك صار شأن شيخ الإسلام، شأن سائر رؤساء المصالح العثمانية التى انشئت فى القرن التاسع عشر ، وغدا شيخ الاسلام وزيرا فى الوزارة . يبقى فيها فى منصبه ببقاء الوزارة فى الحكم ، ويرحل برحيلها وان كان له حق السبق على سائر الوزراء بعد رئيس الوزراء ، ويختاره السلطان للوزراء الجديدة . مثلما يختار رئيس الوزراء على حين كان رئيس الوزراء هو الذى يختار الوزراء الآخرين وكان شيخ الاسلام مثل رئيس الوزراء يتقلد منصبه بحضرة السلطان .

ولأن الدولة العثمانية كانت تسبغ الطابع الدنيوى والزمنى تدريجيا على نظام الادارة فيها . فقد كان نفوذ شيخ الاسلام يضمحل كلما تزايد هذا النمو ، بل إن شيخ الإسلام قد حرم الكثير من سلطانه على شئون السياسة الداخلية عندما انشىء مجلس الشورى العثمانى عام ١٩٣٨ ، وعندما انشئت المحاكم المدنية والجنائية الجديدة التى يشرف عليها وزير العدل . وقد بلغ هذا الحد من سلطة شيخ الاسلام ذروته المحتومة عام ١٩١٩ ، عندما نقلت حكومة حزب تركيا الفتاة تبعية المحاكم الشرعية كلها الى وزارة العدل ، ونقلت تبعية المدارس كلها الى وزارة المعارف ، تمشيا مع القانون العام الحديث ، فصارت المشيخة الاسلامية تتولى الأمور الدينية فحسب .

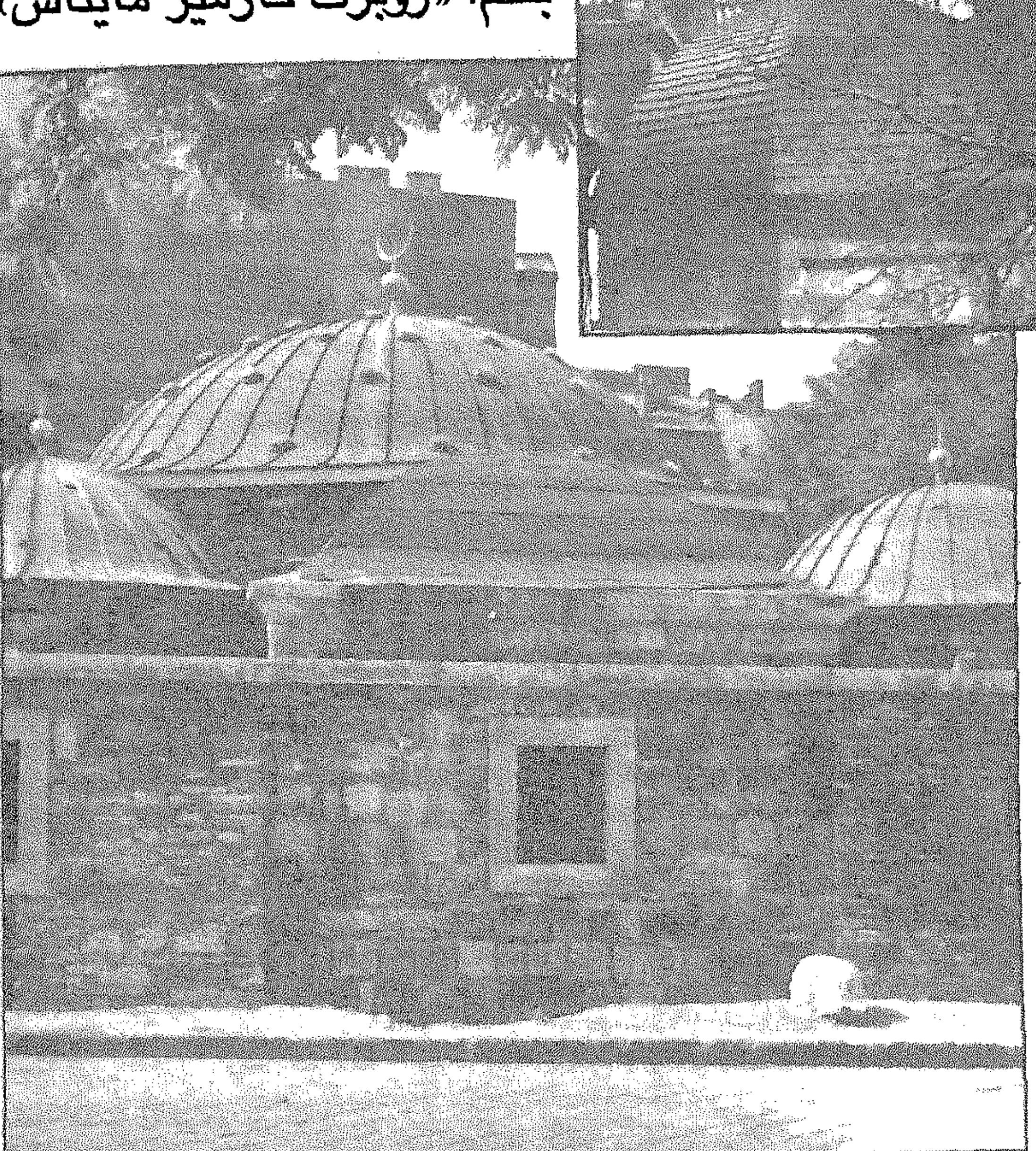
وفى مواجهة هذا الحد من سلطة المشيخة الاسلامية انشئت إدارة فى المشيخة سنة ١٩١٧ تدعى دار الحكمة الاسلامية ، وظيفتها هى الدعوة الى الدين.

وأوفى وصف لمنصب شيخ الاسلام ، حتى عام ١٩١٦ ميلادية ، نجده فى كتاب «علميه سالنامه سىء » بصفحاته التى جاوزت الستمائة صفحة فقد كانت المشيخة العثمانية فى عهد شيخها «مصطفى خيرى افندى» ذات ادارات عديدة تتبعها ، من أهمها : فتوى خانه ، ومجلس تدقيقات شرعية (محاكم نقض شرعية) ، وادارة الاشراف على شئون المدارس ، وادارة تتولى شئون الفرق الصوفية «مجلس مشايخ» وادارة لبيت المال (أموال أيتام) وأقسام ادارية أخرى للمحفوظات وللمكاتبات وللحسابات ، يشرف عليها وزير (مستشار) . وديوان شيخ الاسلام ، ويضم هذه الديوان المحاكم الشرعية الكبرى التابعة لقاضى العسكر . وقاضى استانبول ، ولجنة لتعيين القضاة ، وعدد كبير آخر من اللجان ، ترجع مشيخة الاسلام إلى رأيها فى الأمور المختلفة ☐

المسلمون والإسلام

فى «المجر»

بقلم: «روبرت كازمير مايناس»



●● المسلمون فى المجر.. تاريخ طويل. مفعم بالأحداث. يحتشد بالصراع. من أجل كل شىء طيب، وضد كل شىء خبيث.. لكن على مدى الثمانية قرون الماضية وحتى الآن، والإسلام فى المجر كالملاكم العنيد.. يتلقى الضربات.. لكنه يستجمع قواه، وينهض من جديد.. تاريخ حافل بكل ماهو جليل ورائع، ويستحق الإجلال ●●

□ فى القرن الثانى عشر الميلادى كان الإسلام فى بلاد «المجر»، التى كانت وقتئذ تشمل عدة دويلات من التى انقسمت على نفسها.. كان المسلمون يتولون المناصب المرموقة، ويشغلون الوظائف الرفيعة.. ذلك لأنهم ساهموا فى حرب أعداء تلك البلاد حينئذ «غيزا الثانى» (١١٤١ ـ ١١٦٢) وأخلصوا فى خدمتهم، فوطدوا نفوذ الملك فى أنحاء البلاد، وكانوا رسله ونوابه وحكامه على الأقاليم..!

ويروى المؤرخ الرحالة «أبوحميد الغرناطى» الأندلسى، وهو الوحيد من المثقفين المسلمين الذين أتيح لهم أن يزوروا المسلمين فى «المجر» عام ١١٥٠ ـ أو نحو ذلك، وقد استضافه الملك «غيزا الثانى» ووضع بين يديه من المعلومات مايتيح له أن يسجل حياة المسلمين، والطرق المتشعبة التى يسلكونها ليعيشوا فى المستوى اللائق، الذى يكفل لهم العزة، والكرامة، والنظافة التى يفرضها الدين الإسلامى على معتنقيه، وكان احترام الملك للضيف كبيرا، حينما علم أنه يشتغل بصناعة كتابة الكتب، والتأليف، وتسجيل حياة المجتمعات التى يعيش فيها، وكان عهد الملك بالمسلمين أنهم من التجار فقط..!

الخوارزميون والمغاربة

يقول «أبوحميد الغرناطى» إنه وجد المسلمين هناك ينتسبون إلى مجموعتين، الأولى هى مجموعة «الخوارزميين»، وهم

---

* مستشرق مجري حاصل علي ماجستير في الأدب العربي

يتكلمون اللغة الفارسية ويستوطنون «حوض كارباث»، وعددهم بضعة آلاف.. «تعمدوا» تحت ضغط السلطات المتوالية، لكن بقى أكثرهم على إسلامه سرا، واستوطن بعضهم عند تقاطع الخطوط أو نواصى الطرق، لأنهم كانوا يشتغلون بالتجارة، ونقل «الملح» وتخزينه، وبيعه بالجملة، والقطاعى، وكانت التجارة فى هذه السلعة من الحرف الخطيرة فى العصور الوسطى فى «أوربا».. كالتجارة فى الذهب، والتوابل، وبعضهم كان يعمل على زوارق تعمل فى نهر الدانوب، لنقل البضائع خدمة للتجار أيضا..

أما المجموعة الثانية، وقد أطلق عليها المؤلف «الغرناطى» اسم المغاربة ذلك لأنه رأى فى ملامحهم، وفى أساليب معيشتهم، ولهجتهم مايجعله ينسبهم فى حذر شديد إلى افريقيا شمالها وجنوبها أو الأندلس.. ورغم ذلك فإن بعض العلماء يقولون أن المؤلف انخدع فى المجموعة الثانية فنسبهم إلى «المغاربة» مع أنهم قدموا من «آسيا الوسطي» وهم الذين كانوا يحملون لقب «البجاناكيون»، ويعتبرهم البعض من قبائل «الالان» الذين عاشوا وسط المجر، وشكلوا الشعب الأسيوى الذى تجول فى شمال افريقيا خلال تنقل القبائل الكبير بين القرنين «الخامس والعاشر»، وقد يكون من أجل ذلك أطلق عليهم المؤلف «المغاربة».. وهذه المجموعة بقيت على دينها فى بسالة، وصراحة، وقامت بخدمة الملك، وناصرته فى غزواته، وأقاموا صلواتهم فى عشرة آلاف قرية علنا.. والعلماء يقولون أن «الغرناطى» دفعه الحماس للمسلمين إلى المبالغة.. فلم تكن «مملكة المجر» وقتها تجمع كل هذه القرى فى القرن الثانى عشر حينما زارها المؤلف.

وعلى أى حال فالعدد كان كثيرا إلى الحد الذى دفع «بالملك غيزا الثانى» إلى دفع بعض الفرق منهم إلى «روسيا» لتنظيم بعض الصفوف التى من المسلمين الأتراك، وكانوا يسكنون حول مدينة «كييف» لجذبهم إلى «المجر» حتى يكونوا أعضاء فى الجيش الخاص بالملك، ليهزم به «البيزنطيين»، وكانت الفضيلة التى حمدها «الغرناطى» لهذا الملك هو أنه لم يرغم المسلمين على التنصر كملوك كثيرين فعلوا ذلك قبله وبعده.

أسماء مسيحية للمسلمين

وذكر الجغرافى العربى ياقوت الحموى فى كتابه المشهور «معجم البلدان».. أنه التقى بمسلمين «مجريين» فى «حلب» حوالى عام ١٢٢٠م، وحدثوه أنهم جاءوا من بلد الهنغاريين.. حيث يعيش بعض المسلمين فى ثلاثين قرية، ويمكن أن يكون هذا الكلام منطبقا على المسلمين الذين كانوا يخدمون الملك، ويعيشون فى جنوب «المجر» فى كتلة واحدة.

فى القرن الثالث عشر ازداد عدد

المسلمين فى «حوض كاراباث»، وذلك من واقع أوراق الدولة المجرية .

ونظرا للرخاء الذى تمتع به أبناء الإسلام فى المجر في القرن الثانى عشر على يد الملك «غيزا الثانى» تكاثر عددهم، وقويت شوكتهم فى القرن الثالث عشر.. مما أقلق «البابا هونوريوس» فاندفع يكتب إلى زوجة الملك المجرى عام ـ ١٢٢١ ـ محذرا إياها من إعطاء المسلمين مناصب مهمة فى قيادة البلد، واستمع الملك إلى نصائح زوجته، وبدأ يضيق على المسلمين، فحرم عليهم تولية مناصب رئيس الخزانة، و«سك النقود» و«ضابط الملح»، و«ضابط الجمرك» و«نبيل الدولة»، وذلك حتى عام ـ ١٢٤١ ـ ورغم كل هذه المضايقات كانت تصل بعض العائلات المهاجرة من «إسبانيا» أو من الشرق هاربين من وجه المغول الذين توغلوا فى الشرق الأوسط..!

الانحسار الإسلامى عن المجر

وتجمع الهاربون من وجه المغول.. عند «حوض كاراباث»، وكان معظمهم من المسلمين الأتراك، وأطلقت دولة «المجر» عليهم اسم «القون» وعاشوا يتكاثرون إلى أن عرف عنهم أنهم يقاتلون بشراسة، ويخلصون فى وظائفهم مما جعل الملك «لاسلو الرابع» يعتمد عليهم، ويدفع بهم إلى مناصب قيادية، وتزوج المسلمون من مجريات دون معارضة الدولة، ولتدهور الأوضاع الاقتصادية باع بعض المسيحيين أبناءهم، وبناتهم رغم الحظر العنيف وكان ذلك حوالى عام «١٢٧٢ ـ ١٢٩٠».

ومن القرن الرابع عشر لم يلعب هؤلاء «القون» المسلمون أى دور فى حياة البلد، وانخفض عدد المسلمين، والمتعاطفين معهم.. ولم يبق فى «المجر» منهم سوى التجار أو العابرين من بلد إلى آخر.. ذلك لأن الدولة بدأت تضيق عليهم.. وهى فترة انحسار من الفترات التى تعرض لها الإسلام فى «المجر».

الأتراك قادمون

وفى وسط القرن الخامس عشر.. ظهرت على خريطة العالم الامبراطورية العثمانية، وهددت الحدود الجنوبية «لملكة المجر»، وما كاد القرن «السادس عشر» يبدأ حتى احتلت الدولة العثمانية ثلث مساحة «المجر» بما فيه العاصمة «بودا» قبل أن تنضم إليها كلمة «بست» وتصبح بودابست، وتضاعف عدد المسلمين، فى المجالات السياسية، والاقتصادية والاجتماعية وفى المجال الثقافى، وسيطرت الثقافة الإسلامية.

أحكمت الدولة العثمانية قبضتها على ثلثى «المجر»، وأجبرت الثلث الباقى على دفع ضرائب باهظة، وفى عام ١٥٤١ ـ استتب الأمن، واستسلمت «المجر» من أقصاها إلى أقصاها.

وكان طبيعيا أن يهرب الملك، والذين

يشايعونه إلى المنطقة الشمالية الغربية، لكى يقيم مع قليل من النبلاء هناك الذين فروا تاركين خلفهم قصورهم وحوانيتهم ومزارعهم وبساتينهم.

وأقام الحكم التركى حكومة من المسلمين الذين استوطنوا، والذين كانوا يقيمون وعينوا سناجق، وولاة من المثقفين، وصنعوا حياة جديدة قوامها الصناع، والتجار، وكثير من العبيد الذين وفدوا مع الحكام، شكلوا جيشا للاحتلال من حراس الحصون القديمة، وأبناء شعوب البلدان المغزوة، وهم من «الأتراك» و«الترتر» و«الفرس» و«العرب» و«السلاف» و«البوسنيين» و«الألبان» و«البلغار» و«المقدونيين» و«الصربيين».... إلخ!

وصلى المسلمون الذين بلغوا ٤٠٪ من السكان فى مساجد المدن الكبيرة مثل «استرغوم» و«قشيغراد» و«نوغراد»، ولم تعش الأسر المسلمة فى القرى، لأن سكانها القدامى لم يهجروها، وسبب مهم آخر هو أن الأتراك حرصوا على أن يبقى سكان القرى لكى يزرعوا الأرض، ويدفعوا الضرائب!

الباشا.. السنجق

وفى عام ١٥٤١ أعلن سليمان باشا من مقره فى العاصمة «بودا» للتجار أن عليهم أن يبقوا فى حوانيتهم التى سوف تكون لهم ولأولادهم، ولن يضار منهم أحد، وسمح للرعايا بأن يتملكوا بيوتهم على أن يكون للدولة «أى للسلطان» أن يملك أصلا الأرض، والبساتين والحوانيت، وأن يستأجروها من الدولة، وذلك لغير المسلمين وهو نفس مافعله ملوك المسيحية مع مسلمى الأندلس بعد الاحتلال..!

ولمقتضيات إدارية رآها الأتراك، قسمت المجر المحتلة إلى ولايتين.. ولاية «بودا» وولاية «تيمشقار» بالإضافة إلي «بكلريكن» وحصل حاكم «بودا» على لقب باشا.. ثم رقى إلى درجة وزير عام ١٦٢٣، وقسمت الولايتان إلى ٢٨ سنجقية، واختير السناجقة من الذين ينتسبون إلى ديوان «البكلريك» دائما، وأديرت الشئون المالية بواسطة الدفترخانة التى كان يرأسها «الدفتردار».. ولما كانت «بودا» على اتصالات بأوربا النصرانية، حرص الباب العالى على أن يعين لها رجالا من ذوى الخبرة لشغل المناصب الرئيسية، وكان القادة من أصحاب الرتب العسكرية يتنافسون عليها، وقد توالى على رئاسة «بودا» ٩٩ رئيسا خلال ١٤٥ عاما، وكان أشهرهم الوزير «سكولو مصطفى باشا» وقد شيد الكثير من المساجد فى العاصمة، والمدارس، والخانات، والحمامات، وأصبحت فى عهده «بودا» مدينة إسلامية متميزة.

الأتراك يذهبون

وملاحظة مهمة يبرزها القرن السابع عشر.. هى أن السنجقيات أصبحت في أيدى الدولة العثمانية الذين تضاعف عددهم، وتعلقوا بالوظائف ذات النفوذ، وتمركز المسلمون فى العواصم.. وانتهز أصحاب المذهب «البروتستنتى» الفرصة وراحوا ينشرون مذهبهم في غيبة الكاثوليك الذين هربوا مع الملك.. وكان ذلك لسماحة العثمانيين مع المسيحيين الذين بقوا فى «المجر» العثمانى.

ودخل الفن التركى شعرا، وموسيقى وغناء المجتمع المجرى، واقتحمت ستمائة كلمة تركية اللغة «المجرية» وبقيت بقاياها حتى الآن، وفى نهاية هذا القرن السابع عشر استعان الملك المنفى بالنمسا التى حشدت جيوشها فى تعبئة قومية، ودينية، وأطلقتها نحو «المجر» لتحريرها من الأتراك، ورغم المقاومة التى كانت شرسة وضارية، فإن الأتراك هزموا بعد مقاومة خرج فيها «باشا» «بودا» بنفسه وهو فى السبعين من عمره، واستشهد، وسيفه فى يده، والحق أن الحرب كانت حربا ثأرية، فدمرت النمسا المبانى والمساجد والمدارس، والمستودعات، والمستشفيات وهرب المسلمون إلى «البلقان»، والذين عجزوا عن الهرب تنصروا واندمجوا فى المجتمع المسيحى، وهكذا تجد الآن عائلات مسيحية تحمل ألقابا مسلمة أو تركية..!

وخلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، بدأ المسلمون الذين بقوا يتسللون من المجر هربا من المضايقات وحينما احتلت المملكة النمساوية المجرية المشتركة «البوسنة والهرسك» عام ١٨٧٨ ـ ألحقتها بألويتها ١٩٠٩، حمل المسلمون الذين كانوا يستوطنونها الجنسية النمساوية المجرية.

وخلال السنوات الدموية للحرب العالمية الأولى التى نشبت بسبب ملك البوسنة.. استن البرلمان المجرى مساواة المسلمين، والإسلام بالأديان الأخرى، عام ١٩١٦ .

تبعثرت المجر

وبعد أربع سنوات فقط، تبعثر القطر المجرى، انضم بعضه إلى «تشيكوسلوفاكيا» وإلى «رومانيا» وإلى «يوغسلافيا» وبقى الوسط مملكة المجر بلا مسلمين وكان ذلك فى عام ١٩٢٠.

ثم جاءت الحرب العالمية الثانية، وذهبت لتفتح «المجر» أمام الكثيرين من رجالات العرب المسلمين الذين وفدوا للدراسة فى الجامعات المختلفة، وفى أول التسعينيات بدأ بناء جامع «بودابست» للمسلمين والقادمين، وفى شباط ١٩٩٦ صلى جنود من مسلمى أمريكا فى جامع تركى قديم اسمه مسجد «يعقوب على حسان» فى مدينة «بيتش» التى تضم حوالى ألفى مسلم هم بقايا المسلمين المجريين.. ومن أجلهم ظل المؤذن فى جامع يعقوب ينادى.. الله أكبر...!!

دائرة حـوار

فى منهج القراءة

بقلم : د. مجدى يوسف

" فى قراءة النصوص نهجان أحدهما يقتصر على اقتفاء أثر الأفكار فى انتقالها وترحالها من ثقافة إلى أخرى ، ومن مجتمع إلى آخر ، ومن سياق محدد إلى سياق مختلف ، دون أن يتساءل عن أسباب الأخذ بهذه الفكرة أو تلك ، على هذا النحو أو ذاك فى سياق ثقافى مجتمعى مختلف عن ذلك الذى نشأت فيه ، وكأن الأفكار روح هائمة فوق كل الثقافات والمجتمعات بغض النظر عن أسباب نشوئها وتحولاتها عبر الزمان والمكان، فهى تظل - حسب هذا النهج - تدور فى عالم الأفكار السرمدية . أما المنهج المغاير لهذا التوجه ، فهو الذى ينظر إلى الفكرة ليس فقط فى إطار علاقتها بالأنساق الفكرية والنظم القيمية فى ثقافة اجتماعية محددة ، وإنما يتساءل بالمثل عن الأسباب التى دعت إلى ظهور الفكرة أو تبنيها فى هذا السياق أو ذاك على هذا النحو أو ذلك . "



وهنا لا يلبث القارئ المحص أن يتبين أن الإجابة الشافية على هذا التساؤل الأخير لا يمكن أن تكون فى ثنايا الفكرة موضوع البحث، ولا فى علاقتها بسواها من الأنساق الفكرية، وإنما فى موقفها من العلاقات بين الناس فى مجتمع محدد كما يتمثل - هذا الموقف - فى معارضتها أو مآزرتها لمختلف التيارات الثقافية المسودة أو السائدة في ذلك المجتمع، وهو ما يترتب عليه أن اختلاف الموقع والمصلحة التى يمثلها صاحب الفكرة فى علاقة اجتماعية معينة يمكن أن يفضى، بل غالبا ما يفضي إلى تغيير فى أفكار الشخص «ذاته»، وهو الأمر الذى يصعب إن لم يستحل تفسيره من داخل خطابه الفكرى وحده، مما يطرح مسألة الهوية على بساط البحث المتسائل: فكيف يمكن أن يكون الشخص هو الشخص «نفسه» فى مراحل مختلفة - بل قد تكون جد مختلفة - من حياته ؟ وهل يجوز لباحث



جاد يريد لبحثه أن يحظى ببعض المصداقية إن هو لجأ لأى نص لمؤلف أو مفكر أيا كانت توجهاته دون تعيين المرحلة التاريخية التى مر بها صاحب النص فى سياق مجتمعى ثقافى معين ؟ وإلا فكيف له أن يقف على الأسباب التى حدت بصاحب الخطاب الفكرى أن يتخذ موقفا من سائر الخطابات الفكرية المعاصرة له أو السابقة عليه أو أن يبدل من موقفه هذا فى مراحل أخرى من حياته .

أين السياق التاريخي ؟

أردت بهذه المقدمة المنهجية أن أضع الإطار الذي أحاول أن أفهم من خلاله «منهج» الدكتور عبد الوهاب لانتاج مدرسة فرانكفورت . وإذا كان من الواضح أن الدكتور المسيرى أبعد ما يكون عن المنهج الأخير الذى أشرت إليه (الثقافى المجتمعى) فى أسباب نشوء وتبدل الظواهر الفكرية ، فهو فى مقاله الأخير بدائرة الحوار (مجلة الهلال ، عدد يناير ١٩٩٦) الذى يحاول أن يناقش فيه ما سبق أن نشرته في مجلة «الهلال» (عدد سبتمبر ١٩٩٥ ص ٩٧ - ١٠١) حول مدرسة فرانكفورت تحت عنوان : «فى نقد الجدل السالب» ، ليس قادرا على تجاوز قصور التهويمات اللاتاريخية للأفكار . إذ هو يحاول أن يرد على نقدى لمدرسة فرانكفورت من خلال سرد تبريرها الأيديولوجى لمواقفها الفكرية دون أن ينتبه إلى السياق التاريخى المجتمعي المحدد لهذه المواقف الفكرية ، وهو وجود أقطاب هذه المدرسة فى المهجر الأمريكي أثناء الحرب العالمية الثانية ، وفى أعقابها مباشرة . ثم عودة «آدورنو» و«هوركهايمر» بعد ذلك فى الخمسينات إلى جامعة فرانكفورت بألمانيا الاتحادية (الغربية) بعد اندحار النازى الذى كان قد تسبب فى لجوئهما إلى المهجر الأمريكي .

فإذا كان أقطاب هذه المدرسة قد عرفوا بتمركسهم فى العشرينات ومقتبل الثلاثينات ، فقد كان دافعهم إلى ذلك هو معارضة النازية المتطلعة إلى الحكم آنذاك بالانضمام إلى قوى اليسار فى ألمانيا ، أما وقد نجحت النازية فى الوصول إلى السلطة فى ألمانيا ، واضطر أقطاب هذه المدرسة إلى الهجرة إلى الولايات المتحدة، فقد اختلف الأمر جد الاختلاف . إذ لم يصبح تعاونهما وثيقا وحسب مع «اللجنةاليهودية» فى نيويورك ، وهى التى صدر عنها كتاب «الشخصية التسلطية» The Authoritariaran Personality عام ١٩٥٠ الذى أشرف على تحريره «هوركهايمر» ، وشارك فيه «آدورنو» بنصيب وافر من صفحاته ، وإنما لم يستنكف ثلاثة من الأعضاء البارزين فى

«معهد الأبحاث الاجتماعية» Institut Fuer Sozialforschung الذى كان يديره «هوركهايمر» منذ عام ١٩٣٤ فى المهجر الأمريكى (بجامعة كولومبيا فى نيويورك) ، وهم «هربرت ماركوزه» Herbert ،Marcuse و «فرانتس نويمان» ، و«أوتو كيرخهايمر» Kuchheimer Otto، من التعاون مع أول جهاز للمخابرات أنشئ فى الولايات المتحدة ، هو «مكتب الخدمات الاستراتيجية» Office ،Xegic Services of Stra واختصاره OSS، وذلك فى قسم البحوث والتحليلات به منذ عام ١٩٤٢ الذي دخلت فيه أمريكا بكل ثقلها فى الحرب العالمية الثانية . وقد امتد هذا التعاون حتى عام ١٩٤٧، وفي بعض الحالات ، شأن «هربرت ماركوزة» و«أوتو كيرخهايمر» ، إلى ما بعد ذلك التاريخ بسنوات عدة ، كما تقرر دراستان موثقتان نشرتا بالانجليزية – نبهني إليهما الصديق الأستاذ السيد يسن – الأولى تحمل عنوان : «من المعارضة السياسية إلى الاحتواء الفكرى : مدرسة فرانكفورت فى الحكومة الأمريكية منذ عام ١٩٤٢ وحتى ١٩٤٩» وصاحب هذه الدراسة جيدة التوثيق هو المؤرخ الألمانى «ألفونس زولنر» Alfons Soellner حيث كانت قد نشرت فى الأصل بالألمانية عام ١٩٨٧ كفصل من كتاب يحمل عنوان : «ألمانيا بعد هتلر» Deutschland nach Hitler (ص ١٣٦ – ص١٥٠) . أما الدراسة الثانية التى تؤكد على ما جاء فى هذه الدراسة من حقائق تاريخية ، وإن فاقتها توثيقا وتفصيلا، فهى للباحث الأمريكى «بارى م . كاتس» Barry M. Katz ، الذى يشى اسم عائلته بأصول جرمانية ، وهو ينتسب إلى هيئة التدريس بجامعة «ستانفورد» المعروفة ، فعنوانها : «نقد الأسلحة : مدرسة فرانكفورت تنخرط فى الحرب» وهى تقع من ص ٤٣٩ إلى ص ٤٧٨ من مجلة التاريخ الحديث Modern History Journal الصادرة عن جامعة شيكاغو فى سبتمبر ١٩٨٧ .

هدف سياسى

بطبيعة الحال كان تعاون الثلاثة : «نويمان» و «كيرخهايمر» ، و«ماركوزه» مع مكتب الخدمات الاستراتيجية بعلم ومباركة «هوركهايمر» ، مدير معهد الأبحاث الأجتماعية الذى ينتسبون إليه ، فلم يحدث أن فقد أحدهم وظيفته فى المعهد بسبب تعاونه مع الـ OSS ، سلف الـ CIA.

لم يكن هدف نويمان وزملائه المتعاونين معه فى هذا الجهاز السرى مجرد الكسب المادى . إنما كان هدفهم هو التأثير على قرارات الحكومة الأمريكية وسياساتها بإزاء تحطيم النازية فى ألمانيا ، وإقامة نظام ديمقراطى جديد فى شطرها الغربى بعد انتصار الحلفاء .

الخيارات المطروحة

وبالفعل كانت مهمة كبار منظرى معهد



الأبحاث الاجتماعية فى مكتب الخدمات الاستراتيجية منصبة على تحليل كل ما ورد إليهم من تقارير الصحافة الأوروبية آنذاك ، والاستماع إلى إذاعة الرايخ الثالث ، وبرقيات بعثات الـ OSS فى لندن ، ولشبونة ، والجزائر ، واستوكهولم ، وبرن ، وتقارير واستجواب سجناء الحرب، بل والرجوع إلى بعض المؤلفات المنشورة فى مكتبة الكونجرس ، وذلك لتقديم تصور «دقيق» لردود الأفعال الممكنة لخيارات السياسة الأمريكية فى كافة مجالات الحياة فى ألمانيا ، ابتداء من أثر الدك بالقنابل علي الروح المعنوية لعامة الشعب الألمانى ، حتى تبدل مودات أزياء النساء الألمانيات (دراسة «كاتس» ص ٤٤٧) .

كان هدف أعضاء معهد الأبحاث الاجتماعية إذن هو التأثير على مستقبل ألمانيا بعد الحرب من خلال تأثيرهم على قرارات الحكومة الأمريكية وسياساتها بإزاء ألمانيا أثناء الحرب العالمية الأخيرة وبعدها . وكان طبيعيا أن يصابوا مع مرور الوقت «بخيبة أمل» ، إذ كانت الحكومة الأمريكية لا تصغى فى معظم الأحيان لنصحهم ، بل تمضي فى قراراتها ابتداء من تصوراتها البراجماتية وليس استنادا إلى تحليلاتهم الهيجلية .

على أية حال ، ألا يثور هنا السؤال : كيف يتفق هذا الموقف المنخرط تماما فى الحياة السياسية وصراعاتها من جانب معهد الأبحاث الاجتماعية مع ما عبر عنه أقطابه من رفض للانخراط فى هذه العلاقات الاجتماعية مع ما عبر عنه أقطابه من رفض للاخراط فى هذه العلاقات الاجتماعية نفسها التى يغمرها التشيؤ السلعى الرأسمالى ؟ (انظر مقالنا : فى نقد الجدل السالب ، الهلال عدد سبتمبر ١٩٩٥ ، خاصة ص ٩٨ - ١٠٠).

من الواضح أن الإجابة علي هذا السؤال لا تكون بترديد الخطاب الأيديولوجي لأقطاب مدرسة فرانكفورت ، وإنما فى كشف اللثام عن علاقة هذا الخطاب بمختلف الخطابات الثقافية في ألمانيا وفى المهجر باعتبارها علاقة تفصح عن صراع اجتماعى فى شكل عراك ثقافى .

ثوب الماركسية المزيف

من الواضح إذن أن تمنطق أقطاب مدرسة فرانكفورت بعباءة الماركسية كان لأسباب محض انتهازية هدفها إجهاض تيارات النقد الاجتماعى الجذرى بـ «إعلائها» إلى أغوار النقد الفكرى المتعالى على الواقع المجتمعى ، ولكن فى إطار هذه «السياسة» التمويهية نفسها كانت توزع

الأدوار بين أقطاب المدرسة . فـ «هوركهايمر» كان يبدأ كل محاضرة له فى جامعة فرانكفورت بعد عودته من المهجر الأمريكى بقوله «أنا يهودى» . كان ذلك فى ألمانيا الاتحادية التى ينص دستورها بعد اندحار النازى ونهاية الحرب العالمية الأخيرة على تجريم معاداة السامية ، والمقصود بها معاداة اليهود ، فلم كان يصر على أن يعرف نفسه على هذا النحو بينما كان المفروض أن يؤدى نص الدستور الألمانى الاتحادى إلى اندماجه فى المجتمع الجديد بدلا من أن يذكر نفسه والآخرين باختلافه عنهم أما «آدورنو» ، النجم المدلل فى الحياة الفكرية الألمانية خلال الستينات ، فقد كان على عكس ما ذهب إليه زميله «هوركها يمر» حريصا على ألا يكشف توجهاته الحقيقية أمام الآخرين ، وإن لم تختلف فى جوهرها عن توجهات رفيق عمره .

هذه هى المراجع العربية

بقيت مسألة أخيرة رأيت أن أنهى بها مقالى : فقد تساءل الدكتور المسيرى متحاذقا فى بداية مقاله المنشور بعدد يناير ١٩٩٦ من مجلة الهلال عن تلك الكتابات التى أشرت إلى أنها أكثرت من الاهتمام بمدرسة فرانكفورت باللغة العربية فى الآونة الأخيرة «حتى يقرأها معنا» (كذا !) . وأنا أسوق إليه عددا منها لافتا للأنظار فى الأعوام القليلة الماضية :

* د . عبد الغفار مكاوى : النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت - حوليات كلية الآداب ، جامعة الكويت ، ١٩٩٣ .

* د . رمضان بسطاويسى : علم الجمال لدى مدرسة فرانكفورت - آدورنو نموذجا ، القاهرة ، ١٩٩٣ . وللمؤلف نفسه مقال طويل (نفس الموضوع) فى مجلة «ألف » ، عدد ربيع ١٩٩٠ ، صص ١١٠-١٣٣ .

* بول لوران آسون : مدرسة فرانكفورت ، ترجمة د . سعاد حرب ، بيروت ، ١٩٩٠ .

* علاء طاهر : مدرسة فرانكفورت من هوركهايمر إلى هابرماس منشورات مركز الإنماء القومى ، بيروت (بدون تاريخ - غالبا نهاية الثمانينات) .

* كما أن رسالة للدكتوراه قدمها الباحث زكى عبد المجيد ابراهيم ونوقشت منذ شهور قليلة (فى نهاية عام ١٩٩٥) بكلية الآداب جامعة عين شمس عنوانها : النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت - دراسة تحليلية لتقدير كفاءة النظرية فى فهم واقع العالم الثالث ، مع محاولة التطبيق على المجتمع المصرى .

فهل يريد الدكتور أن نحيله إلي المزيد من الأدبيات باللغة العربية فى هذا الموضوع ؟ .

حقيقة قصة المكارى والمالطى!

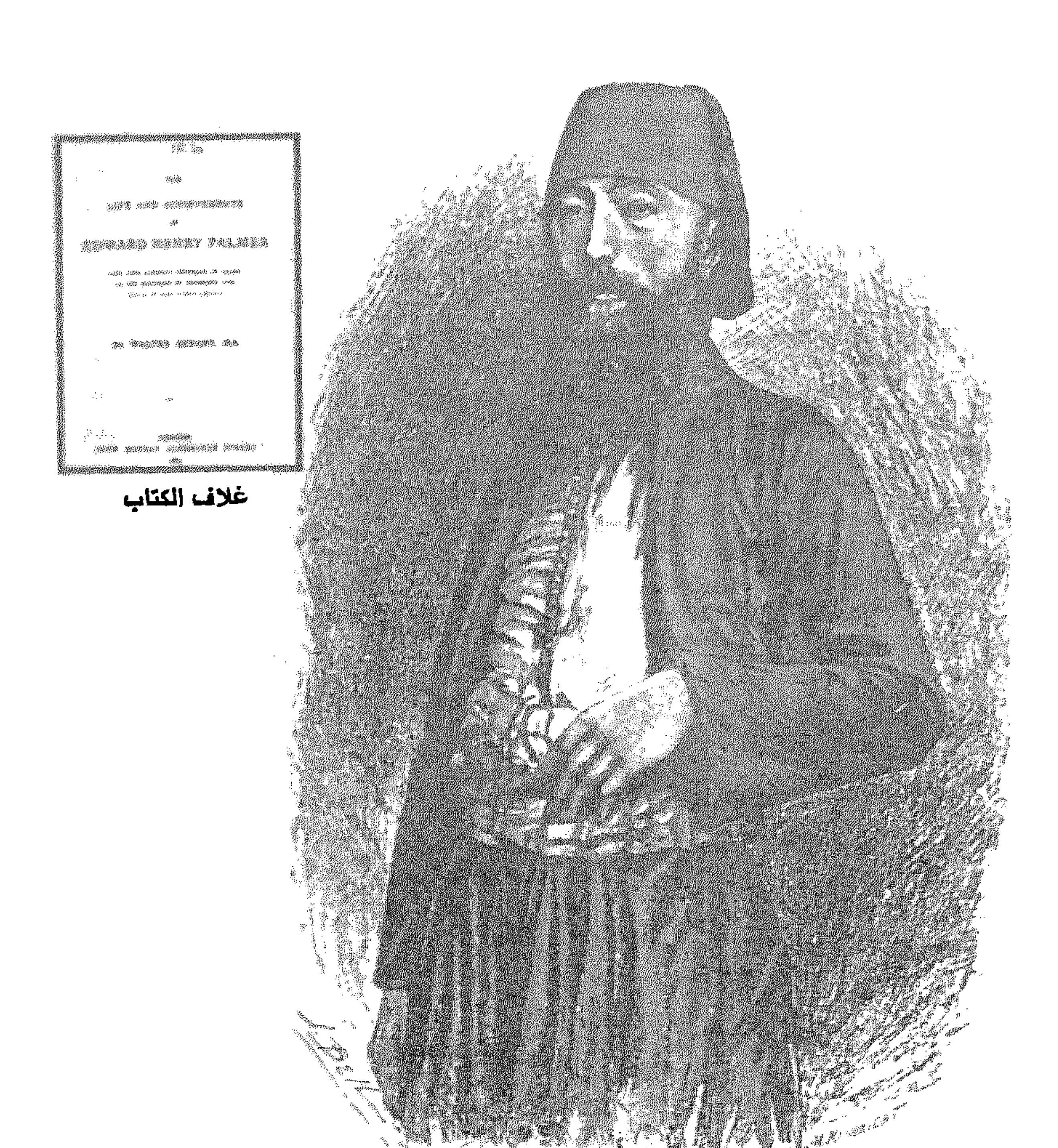
قبائل سيناء تقتل بالمر فى صحراء التيه..!

بقلم: سلمان أبو ستة

أتذكرون قصة المكارى الذى اختلف مع المالطى الثمل على أجرة دابته؟ لقد أدى الشجار بينهما الى قيام الأهالى والأجانب، كل يتشيع لطائفته، بهياج كبير، أدى الى مذبحة الاسكندرية فى ١١ يوليو ١٨٨٢. وهذا أدى بدوره إلى تدخل الإنجليز لحماية الأجانب فى مصر، «فاضطروا» إلى قصف الاسكندرية بالمدافع، ثم احتلالها، ثم إخضاع الثورة العرابية، وإحلال النظام والأمن لصالح الخديو محمد توفيق.

هذه هى الرواية الرسمية لتبرير استعانة توفيق بالانجليز لحمايته من سخط العامة، والقضاء على ثورة عرابى، بهذا بدأت حقبة امتدت ٧٤ عاما، احتلت فيها بريطانيا مصر وسائر المشرق العربى. وأورثته الويلات والحروب.

هل يعقل ان يكون كل هذا الدمار، الذى حل بالأمة العربية فى المشرق على يد بريطانيا، وليد حادثة عرضية بين مواطن مصرى صاحب حمار، ومالطى من رعايا الإمبراطورية من الدرجة الثالثة؟ بالطبع لا .. هذا شىء لا يستسيغه العقل. كتاب صغير فتح لى طاقة أنارت هذا الغموض.



غلاف الكتاب

إدوارد هنرى بالمر

أستاذ اللغة العربية فى كامبردج المعروف باسم : عبد الله امترى أو الشيخ عبد الله ..مرتديا الزى التركى

قبل أسابيع كنت أبحث في احدى مكتبات لندن القديمة، قرب المتحف البريطاني ، فوجدت كتابا اسمه «حياة واعمال إدوارد هنرى بالمر» صادر عام ١٨٨٣. كنت قد قرأت عن بالمر هذا ، فقد كان مستشرقا يتقن العربية والفارسية والأوردية، وصل في أعلى مراحله العلمية الى مرتبة استاذ اللغة العربية في كامبردج . وفي عام ١٨٦٨ - ١٨٦٩، عام افتتاح قناة السويس، قام برحلة الى سيناء ، مثل غيره من الرحالة الغربيين الذين كانوا يبحثون عن الاثار التوراتية، ويتتبعون مسرى بني اسرائيل في صحراء التيه، نشر بالمر كتابا عن رحلته هذه عام ١٨٧١ باسم «صحراء الخروج» وكسب من ذلك سمعة علمية، بالاضافة الى سمعة مبالغ فيها، عن معرفته قبائل سيناء، وصداقاته القوية مع شيوخهم ونفوذه الواسع بينهم، هذا ما نستشفه من آراء محبيه ، لكننا لم نسمع رأى شيوخ القبائل انفسهم، واغلب الظن انهم يرون فيه رحاله، يسعى في القفار، وقد يكسبون منه بتأجير جمل أو دليل.

مرت عشر سنوات على رحلة بالمر الى سيناء، قضاها في الكتابة والترجمة والصحافة لم نسمع عنه شيئا هاما في تلك الحقبة، الى ان ظهرت حركة عرابى، أو ما اسماه العامة «بهوجة عرابى» عام ١٨٨١ - ١٨٨٢.

كانت بريطانيا ترى في مصر لقمة سائغة.. وتريد فصلها عن الدولة العثمانية، وتأسيس حكومة عربية مستقلة تحت لوائها، وتريد السيطرة على قناة السويس، وإنشاء قاعدة بريطانية لها في الشرق، ورأت في ثورة عرابى فرصة للتدخل السافر بحجة حماية الخديو .

هذا ما كان يشغل بال الادميرالية البريطانية في لندن، فأرسلت الكابتن جيل الى بالمر لزيارته في بيته في يونيه ١٨٨٢ سأله جيل عن معلوماته عن عرب سيناء وما صفاتهم واتجاهاتهم ، وكيف يمكن كسب ودهم، اجابه بالمر بما يعرفه، وأكد ضرورة ان يزورهم شخص يثقون به ويفاوضهم ويتحدث اليهم وجها لوجه.

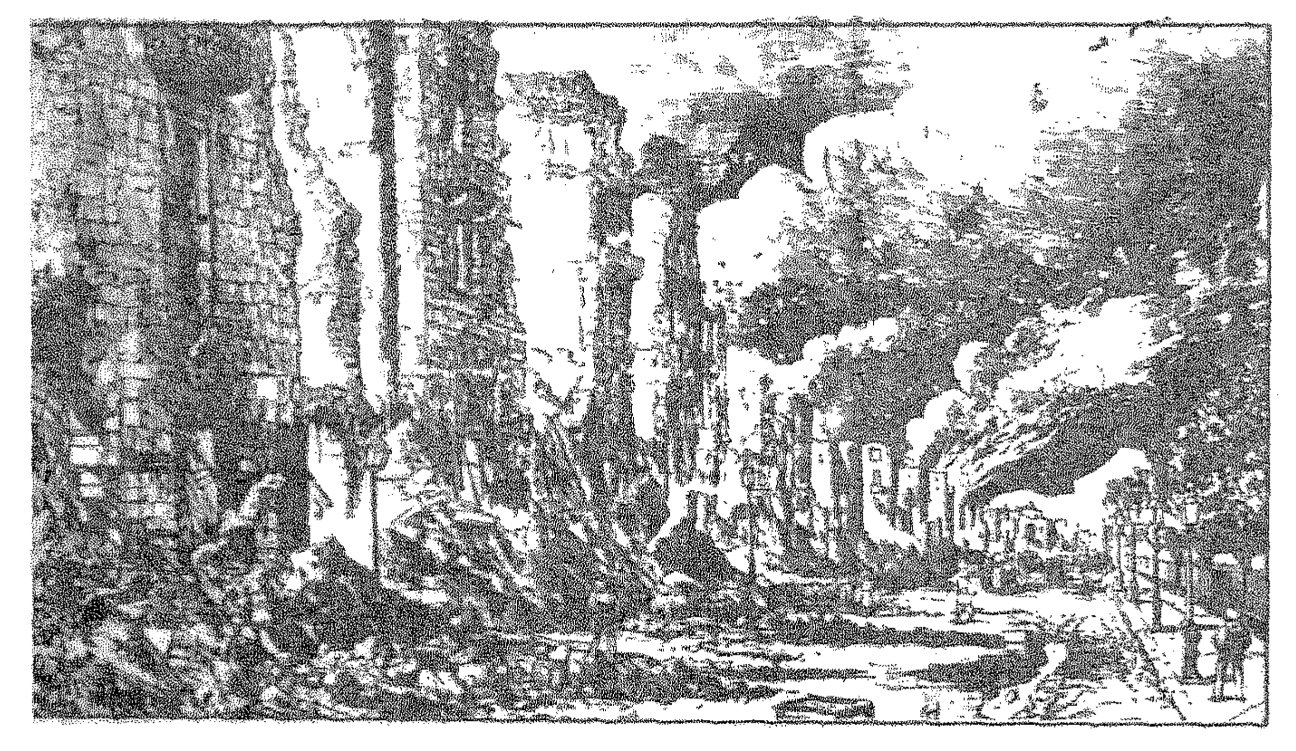
● تدخل بريطاني سافر!

في ٣ يونيو ١٨٨٢، أي قبل المذبحة، اعلن الادميرال سيمور، قائد الاسطول الانجليزى الراسي امام الاسكندرية، غضبه من تحصين المصريين لطوابى الاسكندرية ، مما يعتبر عملا عدائيا ضد الانجليز، وهو امر فيه من الصفاقة قدر ما فيه من التحدى لمشاعر الشعب، إذ كيف يجوز لادميرال دولة اجنبية ان يملى على دولة ان تحصن او لا تحصن نفسها. أوعز قنصلا فرنسا وانجلترا لرعاياهما بالرحيل . فدب الهلع في النفوس وثارت المشاعر، وبعد ذلك بأسبوع في ١١ يونيو تشاجر المالطى مع المصرى، واشتبك الاهالى مع الاجانب ونجمت عن ذلك

مذبحة شنيعة هلك فيها كثير من الاهالى والاجانب.

بعد يومين من زيارة الكابتن جيل الاولى الى بالمر، عاد محملا هذه المرة بخطة محددة، قال له إن الوقت قد حان الآن، لكى تعزل قبائل سيناء عن حركة عرابى، وألا يصلها لهيب «التعصب الاسلامى» - وهو تعبير حديث قديم استعمله الانجليز منذ زمن - وان من الضرورى حماية القناة من اى ضرر، فى اليوم التالى، تناول بالمر إفطاره مع قائد الادميرالية وضباطه الكبار . شرحوا له المطلوب منه: منع القبائل من الانضمام الى ثورة عرابى، وزودوه بالتعليمات والمال. عليه اولا ان يتجول بين قبائل سيناء واحدة واحدة، ليعرف مدى ولائهم للثورة، ثم عليه ثانيا ان يحاول عزل هذه القبائل عن القضية المصرية، برشوة المشايخ، لكى يلجئوا الى الهدوء، والسكينة، وإن امكن انضمامهم الحرب فى صف الانجليز، وثالثا عليه ان يأخذ الاحتياطات اللازمة لحماية ضفة القناة الشرقية، أو إصلاحها إذا ما دمرها عرابى، كما ان عليه شراء وتأجير اكبر

تدمير الاسكندرية على يد الاسطول الانجليزى .. كتب مراسل التايمز :
«ليس فى مقدورى وصف الدمار فى الميدان الكبير وسط كتلة من الدخان والحدائق وكل لحظةيسقط بيت كأنه قنبلة عظيمة»



عدد من الجمال.

وعليه ان يتسلم تعليمات جديدة من الادميرال سيمور الراسى امام الاسكندرية . ومن اجل الحفاظ على السرية، عليه ان يرسل كل تقاريره الى لندن على شكل رسائل الى زوجته، ولم تعط له أية تعليمات مكتوبة.

أبحر بالمر من لندن الى ايطاليا ومنها الى الاسكندرية التى وصلها فى ٥ يوليو، وقابل الادميرال سيمور وأعطاه اسلحة وتعليمات جديدة، واخبره انه سيقصف الاسكندرية فى موعد اتفق عليه، وانه سيرسل له تلغرافا خاصا بذلك، لكى ينسق معه محاولة تهدئة القبائل وعزلها عن عرابى.

● بالمر.. فى لباس عربي!

وصل بالمر الى يافا، وهناك اشترى ملابس عربية وزادا وزوادة ، واستأجر طباخا يهوديا اسمه «بخور حسون» ، وسلح نفسه بطبنجات وبنادق، واتخذ لنفسه اسم «عبدالله افندى» التاجر العربى، الذى عاد ليزور اصدقاءه التياها بعد غياب ١٠ سنوات محملا بالهدايا وحمل فى جيبه رسالة من الخديو محمد توفيق موجهة الى موظفى الدولة فى بورسعيد والقنال: حامل هذا شخص نضع فيه ثقة خاصة، وعلى كل من يقرأ هذا أن يعامله باحترام ويجيب على كل اسئلته دون تردد او تحفظ ، حيث انه ارسل من قبلنا، وعليكم إطاعة اوامره.

ارسل بالمر رسالة تسبقه إلي غزة ، لتصل إلي بعض شيوخ سيناء ، الذين عرفهم من قبل ، ليقابلوه في غزة .

كتب بالمر حوادث رحلته فى مفكرته التى وصلت إلينا بعد مماته . يقول: «سيكون هناك احتلال لمصر . ومهمتى فى هذه الرحلة ان اسبر غور العرب وعندما يأتى الوقت، سيكون لدى القوات والسفن الحربية لتدعمنى» لا يملك المرء إلا ان يتأمل فى سذاجة هذا الرجل الذى يعتقد انه يستطيع ان يشعل الثورات ويخمدها بقوة إقناعه وذهبه.

كتب فى ١١ يوليه: وصلتنى برقية من غزة أن الشيخ سليمان من قبيلة التياها الذى أرسلت فى طلبه غير موجود، وهو يبعد مسافة خمسة ايام عن غزة . من ارسل هذه البرقية؟ لم يذكر بالمر ذلك، ولكن عثر بين أوراقه فيما بعد على برقية من جاسوس يهودى اسمه جوزيف أمزالك.

فى نفس اليوم ، قصف الادميرال الاسكندرية قصفا شديدا، تعدى بكثير، تحصينات الطوابى ودمر احياء كثيرة ، ونزل سيمور بجنوده لاحتلال الاسكندرية فى ١٣ يوليو، بعد ان حل بها الدمار وانتشرت بها الحرائق.

هل كانت هذه خطة موضوعة ؟ نعم . لقد اخبر الادميرال سيمور بالمر عند زيارته له فى الاسكندرية انه سيقصفها

فى ١١ يوليه . عندما وصل بالمر الى غزة فى ١٥ يوليه، كان ينتظر اخبار القصف لكى يبدأ مهمته فى سيناء . كتب فى مفكرته : «غزة ١٥ يولية : قضيت يومين انتظر هنا. وصلتنى سرا اخبار قصف الاسكندرية المتوقع، لا احد يعلم بذلك حتى الآن.. سأتوجه الآن الى السويس»

أما فى غزة. فقد تجاوب ابناؤها مع إخوانهم شعب مصر، وآزروا ثورة عرابى، التى وصلت اصداؤها اليهم عبر سيناء وعمت فى بلاد الشام مظاهر التأييد للحركة الوطنية، خصوصا نتيجة التوعية التى قام بها الائمة الازهريون الذين درسوا فى مصر.

استأجر بالمر عددا من الجمال والمرافقين، وانطلق من غزة الى البواطى (جنوب رفح) ، ثم الى منتصف صحراء التيه. قابله أسافل الناس الذين يسعون الى الكسب السريع، وتظاهروا بالاستجابة الى دعوته، التى يقول فيها إن عرابى خطر عليكم، فلا تأبهوا بدعوته الى «محاربة الكفار» . فإذا ما استجاب له بعضهم ، عرض عليهم مالا لكى يقوموا ضد عرابى، وللدفاع عن القناة، لكن الاغلبية لم يصدقوه، أو يأمنوا جانبه.

كتب بالمر فى مفكرته : «لقد رأيت اليوم الكثير من عرب الترابين الذى يشكون فى من انا؟ وماذا اريد؟ قال لهم تابعى انى ضابط سورى فى طريقه الى مصر، وانا بالطبع ارتدى ملابس مسلم من المدينة.

لكنى عرفت عنهم اكثر مما عرفوا عنى. إننى اعرف الآن كيف اصل الى اى شيخ فى الصحراء (!)، وقد تمكنت الآن من قبيلة التياها، اكثر القبائل ميلا للحرب واقواها (!) وهم مستعدون ان يعملوا اى شىء من أجلى . وعندما اعود، سيكون باستطاعتى جمع ٤٠,٠٠٠ مقاتل (!).

هذه الكلمات تدل على سذاجة بالمر. إن جمع ٤٠ ألف مقاتل معناه ان تدين لك بالولاء المطلق قبائل بأكملها يصل تعدادها الى ٢٥٠,٠٠٠ نسمة . ولايوجد هذا العدد فى سيناء وفسلطين والاردن كلها. وقد قدر العلامة القس جوسن بأن عدد الهجانة المحاربين فى سيناء هم كالآتى: التياها ٧٥٠ ، اللحيوات ٧٢٠، الحويطات ٩٢٠، الترابين الحسابلة ٦٥٠، العيايدة ٦٠٠، المجموع ٣,٦٤٠ . أين هذا من ٤٠,٠٠٠ مقاتل؟ ثم إن ذلك يحتاج إلى اقناع اكبر المشايخ واهمهم الى صفه اولا، ومن ثم يتبعهم صغارهم، ولا توجد فى مفكرته اسماء هؤلاء . ولابد انه وقع فريسة لدهاء بعض الجمالة والادلة.. والواقع ان اهم القبائل كانت تناصر عرابى، فالترابين كانوا على صلة باخوانهم فى مصر الذين انخرطوا فى صفوف عرابى، والحويطات كانوا يناصرونه بتأثير شيخهم المصرى سلامة ابن شديد..

تجنب بالمر طريق الجنود المصريين ،

وابتعد عن قلعة نخل التى كانت تتلقى اوامرها من عرابى . وصل الى المغارة فى ١٩ يوليه، وانقطعت الاخبار عنه بعد قصف الاسكندرية . ويقول يومها «اخبرنى العرب ان الجيش المصرى فى حالة ثورة وهذا معناه ان قواتنا احتلت البلاد الآن كما افهمنى الادميرال سيمور انه سيحدث» . كتب فى ٢٠ يوليه : «الشيخ الذى يأمر كل العرب بعدم مهاجمة قوافل الحج المصرى، وهو اخ الشيخ سليمان ، اقسم لى انه سيحمى القناة ضد عرابى لو اننى اخرجت ثلاثة شيوخ من السجن . وهذا ما انوى عمله بواسطة سفيرنا فى القسطنطينية، لقد جاءنى الشيخ مصلح بن عامر، اشعر الآن بأمان وسط التياها .

وكم أتمنى لو استطيع الابراق الى الادميرال سيمور لاعطيه الاخبار، ولكن لابد من الانتظار».

تقدم بالمر بحذر حتى لا يكتشفه الجنود المصريون . ووصل اخيرا، بعد رحلة استغرقت اسبوعين قطع فيها صحراء سيناء الى عيون موسى فى ليلة ٣١ يوليه، ومعه خادمه بوخور، وخبيره الشيخ مطير ابو صفيح وستة من التياها . وعاد هؤلاء الى ديارهم بينما استقل بالمر قاربا اوصله الى باخرة بريطانية فى خليج السويس فجر يوم ١ اغسطس ١٨٨٢ .

بعد حمام ساخن وطعام جيد.. اعطى بالمر تقريره للضباط بحضور الكابتن جيل الذى وصل من لندن عن طريق بورسعيد واعطيت له الاوامر ليعود الى الصحراء مرة اخرى ليقطع خطوط التلغراف التركى، وليؤلب قبائل سيناء على عرابى.

لكنهم قبل ذلك رتبوا حملة عسكرية صغيرة، قوامها ٣ مدافع و ٥٠٠ جندى، لاحتلال السويس، فاحتلها الانجليز «بدون مقاومة، واخذنا من المحافظ، ٥٠,٠٠٠ جنيه كانت بحوزته» هكذا يقول.. وعين بعد ذلك بالمر ترجمانا عاما لقوات الادميرال فى السويس..

لقد اقنع تقرير بالمر القادة الانجليز. واعتقدوا ان بإمكانهم شراء ٤٠,٠٠٠ مقاتل بمبلغ ٢٠,٠٠٠ جنيه انجليز . وتم الاتفاق على ان يذهب مع بالمر ضابطان هما: الكابتن جيل، واللفتنانت تشارنجتون لتنفيذ المهمة . ارسلت الباخرة برقية الى الادميرالية فى اول اغسطس: «وصل بالمر من غزة. كل شيء جيد . يدعون الى الجهاد فى غزة. رأى جنود اتراك هناك، البدو هادئون، توجد جمال كافية ،ولكن لا يوجد مكان لجمعها قبل احتلال السويس».

نعود الى بالمر.. فى ١١ اغسطس ١٨٨٢ انطلق بالمر فى مهمته ، عائدا من السويس الى صحراء سيناء مزودا بمبلغ ٣٠٠٠ جنيه، ومصطحبا معه الكابتن جيل، واللفتنانت تشارنجتون، وطباخه اليهودى، بخور حسون، ومترجم سورى، خليل عتيق، وخبيره ومعتمده من العربان «مطير ابو صفيح» من الصفايحة اللحيوات وتسعة جمّاله، وما أن اوغلوا فى وادى سدر، حتى انقض عليهم جماعة من الترابين والحويطات واوثقوا رباط الانجليز والقوا بهم من شاهق الجبل الى بطن الوادى، وافرغوا فيهم الرصاص، وفر مطير بالنقود وهكذا فشلت مهمة بالمر على

يد عرب سيناء الذين اعتقد خاطئا انه يستطيع تأليبهم ضد ثورة عرابي.

بعد ان استتب الامر للانجليز في مصر ارسلوا الى سيناء بعثة بقيادة الكولونيل تشارلس وارن، جمعت رفات بالمر ورفاقه ودفنت في كنيسة القديس بولس بلندن، واعتقل الجناة وحوكموا في طنطا وحكم على خمسة بالقتل، وعلى سبعة بالسجن، وقد وجد بين اوراق بالمر تقرير مترجم عن مذبحة الاسكندرية ، التي لم يشهدها وان كان على علم مسبق بها، يقول ان غالبية القتلى من الاهالي . كيف وصل له هذا التقرير ومن ارسله؟

يذكر نعوم شقير رواية اهل سيناء عن الحادث بعد ذلك بسنوات، فيقول ان مدخل سليمان شيخ العليقات كان احد الجمالة، وقد طلب بالمر من «عودة الزميلي» ان يصحبه في سفرته الى سيناء فأبى لان «البر مهزوز» ، وقد جاء بعض البدو من مصر، ومنهم رسل الشيخ سلامة بن شديد ، واخبروهم ان عسكر المسلمين في مصر ذبحوا الانجليز وغنموا مالهم، اما حسن بن مرشد التربانى احد الجناة فقال:

اخذني الانجليز الى العباسية وحبسوني في خيمة، وفي الليل سمعت الحراس يقولون: مسكين ، باق من عمره ليلة، وفي غفلة من الحراس، فررت والقيد في رجلي وحطمته في المقطم، وانطلقت الى سيناء وعبرت الترعة سباحة، وعشت متخفيا، الى ان كف البحث عني

هكذا كان مصير بالمر . جاء بعده جواسيس ، ومستشرقون كثيرون لخدمة الامبراطورية لعل اشهرهم لورنس العرب، الذي نجح في مهمته ولم يلق مصير بالمر، والذي دفن ايضا في كنيسة القديس بولس.

لكن قصف الاسكندرية واحتلالها المدبر قد بدأ عصرا من المآسي، قطع وصال الشرق العربي، وجلب له الويلات..

خلال هذه العصر، تتناثر شواهد المجرمين في حق هذه الامة، امثال كتشنر، كرومر، لورنس، اللنبي ، سايكس بيكو ، تشرتشل، بن جوريون.

في هذا العصر المظلم ، خلق اول حد دولي في التاريخ بين البلاد العربية، هو الحد الدولي بين فلسطين ومصر عام ١٩٠٦ وخرجت حملة عسكرية بريطانية من مصر، لاحتلال فلسطين عام ١٩١٧ سخر فيها ١٥٠ الف عامل لمد خطوط السكة الحديد وانابيب مياة النيل الى غزة، وعقد اتفاق سايكس بيكو عام ١٩١٦ لتقسيم البلاد العربية بين بريطانيا وفرنسا، واعلن وعد بلفور، وعد من لايملك لمن لا يستحق ، الذي فتح باب فلسطين للصهاينة، واجهضت الثورة العرابية واصبحت مصر سلطنة مستقلة عام ١٩١٤

وانتهى هذا العصر البريطاني المظلم بفشل العدوان الثلاثي على السويس عام ١٩٥٦ ، لكن اثاره لازالت باقية، وجروحه لاتزال دامية، وهذا كله ثمن رهيب لحادث مدبر بدأ بشجار عادي بين مصري ومالطي.□

هل خدع نابليون أهل مصر المحروسة ؟!


الكتاب


الرافعى

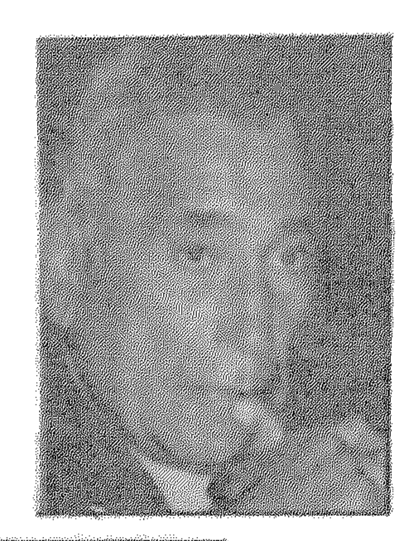
بقلم : حلمى النمنم

●● فى الجزء الأول من كتاب «المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل» تحدث الكاتب الكبير محمد حسنين هيكل فى الفصل الخاص بنابليون عما أسماه ورقة بونابرت الإسلامية، وكان نابليون قد زعم عند هبوطه الإسكندرية غازيا أنه صديق ومحب للمسلمين والإسلام، وقال هيكل «إن ورقة نابليون الإسلامية كانت حيلة سهلة لخداع المصريين سواء فى ذلك العامة أو العلماء من مشايخ الأزهر» وأضاف قائلا «ولابد من الاعتراف - لسوء الحظ - أن الخدعة جازت على المصريين فى ذلك الوقت بمن فيهم العامة والعلماء وربما يغفر لهم جميعا أن ضيقهم بجور الحكام المماليك جعلهم على استعداد لحلف مع الشيطان إذا كان ذلك ضروريا للخلاص من أولئك الذين استبدوا بأقدارهم وأرزاقهم وعجزوا فى نفس الوقت عن حماية ديار الاسلام وديارهم» واختتم الاستاذ هيكل رأيه قائلا «ولقد جاء الشيطان إليهم يلبس عمامة، وصدقوه لأنهم كانوا يريدون تصديقه، ولأنه لم يكن فى مقدورهم ألا يصدقوه »●●

والحقيقة أنه على كثرة ما كتب عن حملة نابليون بونابرت على مصر والشام فلم يكتب أقسى - على المصريين العامة والعلماء - مما كتبه الأستاذ هيكل فى كتابه الأخير..

حاول نابليون أن يتودد للمصريين منذ نزوله الإسكندرية، فقد أعد منشورا باللغة العربية وهو لايزال على ظهر سفينته فى عرض البحر المتوسط، وطبع منه أربعة آلاف نسخة، وأطلق عدداً من أسرى المالطيين، كان قد أحضرهم معه لتوزيع المنشور على الأهالى، ووصلت نسخ منه إلى القاهرة، بدأ نابليون المنشور قائلا «بسم الله الرحمن الرحيم، لاإله إلا الله لا ولد له ولا شريك له فى ملكه..(...) إننى أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى واحترم نبيه والقرآن العظيم .. (...) إن الفرنساوية هم أيضا مسلمون مخلصون وإثبات ذلك أنهم قد نزلوا فى رومية الكبرى وخربوا فيها كرسى البابا الذى كان دائما يحث النصارى على محاربة الإسلام .(...) الفرنساوية فى كل وقت من الأوقات صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثمانى وأعداء أعدائه أدام الله ملكه ومع ذلك أن المماليك امتنعوا من اطاعة السلطان غير ممتثلين لأمره» - اعتمدنا نص المنشور من الجبرتى.

بينما كان المنشور يوزع فى الإسكندرية كان أهل الثغر يدافعون عن مدينتهم ، يقول الجبرتى «دخلت الافرنج البلد - يقصد الإسكندرية - وأهل البلد لهم بالرمى يدافعون، وعن أنفسهم وأهليهم



هيكل


نابليون

يقاتلون ويمانعون» ، وحين تقدم الفرنسيون فى طريقهم نحو القاهرة وصل المنشور إلى العاصمة، وذكر الجبرتى أن من بين الذين وزعوا المنشور «مغاربة وفيهم جواسيس» ووصفهم قائلا «وهم على شكلهم من كفار مالطة» وهذه الصفة ربما تعكس مشاعره، واستعد أهل القاهرة لمقاومة الغزاة - يقول الجبرتى - «وخرج الجميع لبر بولاق فكانت كل طائفة من طوائف أهل الصناعات يجمعون الدراهم من بعضهم .. وبعض الناس يتطوع بالانفاق على البعض الآخر ومنهم من يجهز جماعة من المغاربة أو الشوام بالسلاح والأكل غير ذلك .» ، وكلنا نعرف موقف السيد عمر مكرم نقيب الأشراف

حين صعد إلى القلعة وحمل منها بيرقا كان يسمى - عند العامة - البيرق النبوى، وسار إلى بولاق وحوله كما يقول الجبرتى «ألوف من العامة بالنبابيت والعصى يهللون ويكبرون» ولم يكن هذا هو الموقف الوحيد «كان العقلاء بين الناس يصرخون عليهم ويأمرونهم بترك ذلك ويقولون لهم إن الرسول والصحابة والمجاهدين إنما كانوا يقاتلون بالسيف والحراب وضرب الرقاب لابرفع الأصوات والصراخ والنباح ».

مراد .. فقط

ومن خلال «نقولا الترك» نعلم أن الوحيد الذى صدق للوهلة الأولى بعض ما جاء فى المنشور هو مراد بك، ولأنه كان على علاقة سيئة بالدولة العثمانية فقد اقتنع للوهلة الأولى أن نابليون صديق الخليفة العثمانى وأنه جاء إلى مصر بالاتفاق معه لضرب المماليك، فعندما وصلته رسالة السيد محمد كريم حاكم الإسكندرية، بما جرى، اجتمع الأمراء المماليك والعلماء لبحث الأمر، وحضر الاجتماع الوزير العثمانى باكير باشا الذى التفت إليه مراد قائلا «إن هؤلاء الفرنساوية ما دخلوا على هذه الديار إلا بإذن الدولة العثمانية، ولابد الوزير عنده علم بتلك النية» فرد عليه باكير باشا «لايمكن أن دولة بنى عثمان تسمح بدخول الفرنساوية على البلاد الاسلامية» وانتهى الأمر عند هذا الحد، وسار الاجتماع لبحث كيفية التصدى للجيش الفرنسى.

ثم تطورت الأحداث وهزم المماليك وهرب مراد بك إلى الصعيد واندفع إبراهيم بك إلى الشرق فى اتجاه بلبيس ثم غزة، وتركوا المصريين وحدهم - علماء وأهالى - فلم يكن أمام العلماء بديل عن التعامل مع نابليون ولعل هذا ما دعا عبدالرحمن الرافعى إلى القول « .. فلم يكن من الأهالى إلا أن قابلوا هذا المنشور بالاذعان، لا اقتناعا به ولكن نزولا على حكم القوة».

لقد رصد الجبرتى لنا عدداً من الشائعات التى انتشرت بين سكان القاهرة فى تلك الفترة، ورددوها على نطاق واسع وهى تعكس مشاعرهم الحقيقية. فعقب هزيمة مراد بك - يقول الجبرتى - «شاع فى الناس أن الافرنج عدوا إلى بولاق وأحرقوها وكذلك الجيزة وأن أولهم وصل إلى باب الحديد يحرقون ويقتلون ويفجرون بالنساء..» ورغم أن الشائعة لم تكن صحيحة فإنها تعبر عن التوجس الشديد من هؤلاء القادمين ، ثم دخل نابليون القاهرة وبدأ ما عرف بعد ذلك بالاصلاحات، فقد قام جنوده بإزالة بوابات الحارات والشوارع، وعلى الفور سرت شائعة تقول «إن عساكر الفرنسيس عازمون على قتل المسلمين وهم فى صلاة الجمعة».

ولما تشكل الديوان وضم عددا من العلماء أراد نابليون فى أحد الاجتماعات

هل خدع نابليون أهل مصر المحروسة ؟!

أن يقلدهم الشعار الفرنسي «الجوكار» بتعبير الجبرتي وبدأ بالشيخ الشرقاوي الذي استاء من هذا الأمر «رمى به إلى الأرض» وحين أراد نابليون طمأنتهم رد عليه العلماء « قدرنا يضيع عند الله وعند اخواننا من المسلمين..» والتعبير دال في ألفاظه على أنه عدوهم الديني، أو على الأقل ليس نابليون بالمتعاطف مع المسلمين.. وكان موقف العوام مشابها لموقف العلماء «.. أنف غالب الناس من وضعها وبعضهم رأى أن ذلك لايخل بالدين إذ هو نكره وربما ترتب على عدم الامتثال الضرر.»

وكانت هناك عمليات مقاومة للوجود الفرنسي في القاهرة، ويذكر الجبرتي الذين راحوا ضحية هذه العمليات ويقول عن الشيخ الشبراوي – مثلا – «قتل بالقلعة شهيدا بيد الفرنسيس». وعن الشاب الشيخ يوسف المصيلي «وقتل مع من قتل شهيدا بالقلعة» وإطلاق صفة الشهيد لها دلالتها، وكان الجبرتي يصف من يقتل بيد المماليك قبل ذلك بأنه «مات مظلوما» ولايمنحه صفة الشهيد.. والمعروف أن صفة الاستشهاد تمنح لمن يقاتل في المقام الأول دفاعا عن عقيدته ووطنه.

أما «نقولا الترك» وكان متعاطفا مع الحملة فإنه يتحسر على سوء استقبال أهل مصر لجيش الحملة يقول «وكان الفرنساوية مؤانستهم غريبة وطول أناتهم عجيبة. وكانوا أحسن سلوكا من ساير الجنوس (الاجناس) واشهروا (اشتهروا) بالأمن وطولة البال وطيبة النفوس، ونشروا العدل وحسن الأحكام. وقد احتووا الشرايع الحقيقية على التمام، ومع كل ذلك قلوب المسلمين غير آمنة والأحقاد في ضمايرهم كامنة ويشتهون له المهالك والوقوع في أضيق المسالك».

عدو الدين

لقد كان نابليون في نظر المصريين عدوا للإسلام في المقام الأول ويريد القضاء عليه، وهذا ما جعل ج. كريستوفر هيرولد يقول عن محاولات نابليون التقرب إلى المصريين «.. كان الاسلام بالطبع هو الحائل الأكبر دون هذا الجو المنشود من الثقة المتبادلة» ويضيف قائلا «في وسع بونابرت أن يعلن في اليوم ثلاث مرات أنه ليس مسيحيا، وأن جنوده ليسوا مسيحيين، وأن الفرنسيين سجنوا البابا وأغلقوا الكنائس، وأنهم يحترمون الإسلام، وكل هذا حق في كثير أو قليل. ولكن الفرق بين المسيحيين والربوبيين وعباد الهة العقل أو الكائن الأعظم والخيريين الطبيعيين، والملحدين، واليهود. هذا الفرق كان في نظر المسلمين طفيفا لايعتد به . فكلهم غير مسلمين». راجع بونابرت في مصر .

أما الجبرتي فقد فند في كتابه مظهر التقديس منشور نابليون الأول لينتهي إلى أن الفرنسيين كفار ملاحدة وليسوا مسلمين ولا مسيحيين ولا يهود .

وجاءت الأيام بما يدعم ويؤكد شكوك المصريين في نابليون، فقد أقدم على إعدام السيد محمد كريم حاكم الإسكندرية لتعاونه مع مراد بك، واشتدت المناوشات الفردية بين المصريين وجنود الحملة، الأمر الذي اضطر العلماء – أعضاء الديوان – أن يوجهوا بياناً إلى عامة الشعب جاء فيه

عن نابليون «رجل كامل العقل عنده رحمة وشفقة على المسلمين ومحبة إلى الفقراء والمساكين ولولاه لكانت العساكر أحرقت جميع المدينة» ولم يعبأ الأهالى بهذا النداء حتى قامت انتفاضة القاهرة أو ما عرف بثورة القاهرة الأولى ثم أعقبتها ثورة القاهرة الثانية واقتحام الجنود الأزهر بخيولهم ثم اغتيال كليبر قائد الحملة بعد نابليون.

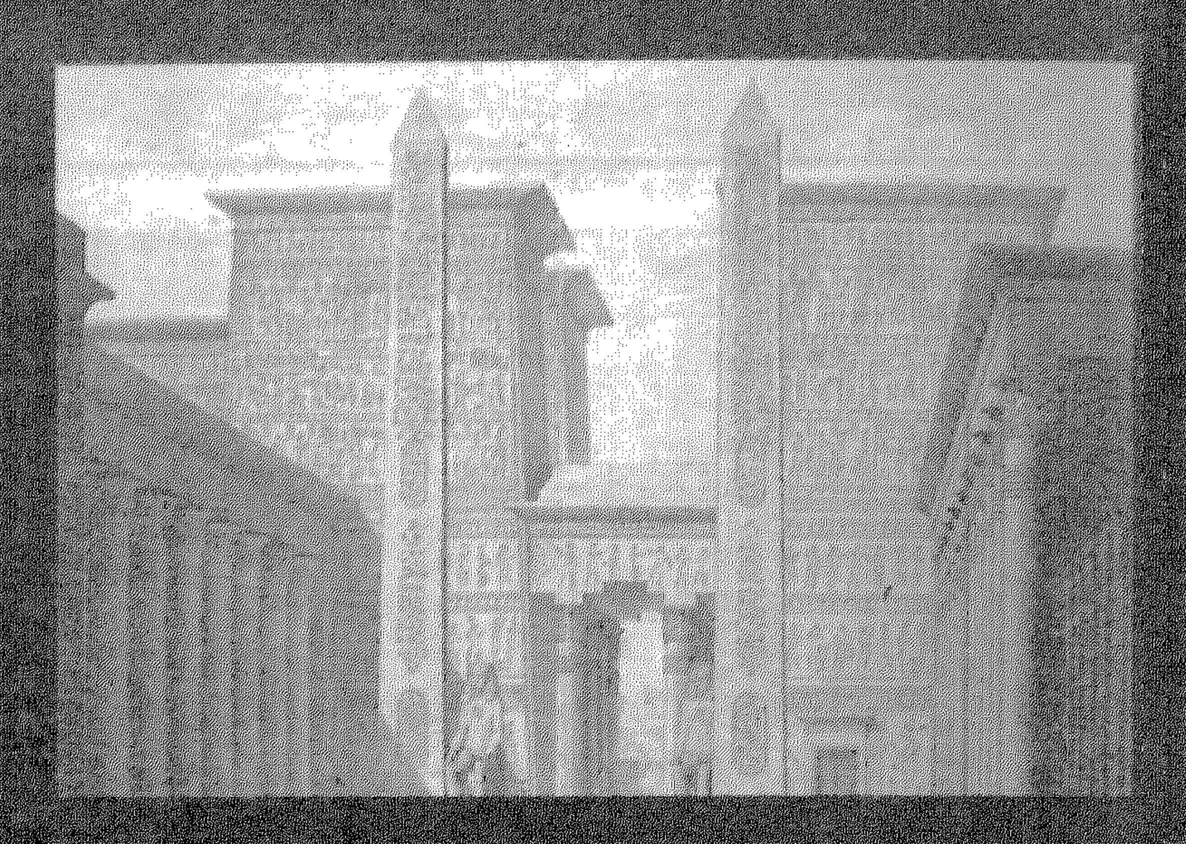
الرابطة الأولى

كان المصريون يعانون من المماليك، فقد كان أمراء المماليك نموذجاً للفساد والظلم والاستبداد، خاصة عشية وصول الحملة مصر.. وكان الأهالى يدفعون ثمن تنافس وصراع الأمراء خاصة بعد إجهاض مشروع على بك الكبير للاستقلال وتمنى أهل مصر كثيرا الخلاص من هذا الظلم، وكان الفرنسيون حين الاستعداد للحملة على علم بكل ذلك من خلال جواسيسهم وقناصلهم الذين يجوبون مصر.. وفيما يبدو تصور الفرنسيون أن المصريين سيرون فى «نابليون» المخلص والمنقذ الذى طالما انتظروه .. قال تاليران وزير خارجية فرنسا فى تقريره عن مشروع الحملة «إن المصريين يكرهون حكامهم المماليك (...) وإذا أعطاهم المماليك سلاحاً بحجة الدفاع عن البلاد من الغارة الأجنبية فإنهم لا شك سيحاربون به طائفة المماليك أنفسهم، فليس ثمة خوف من مقاومة أو وثبة من الأهالى» وقد كان ذلك تصورا غاية فى السذاجة، لأن المماليك يظلمون الأهالى، لكن الرابطة الأساسية بين الحاكم والمحكوم لم تكن العدل ولا الحرية وإنما كانت رابطة الدين والعقيدة ثم تأتى بعد ذلك معايير أخرى مثل أن يكون الحاكم عاقلا.. رشيدا و غير ذلك. وحين هزم المماليك أمام نابليون وفر مراد فإن بعض مماليكه وقعوا أسرى، وكان أعضاء الديوان - علماء الأزهر - هم الذين تشفعوا لدى نابليون فى أسرى المماليك وطالبوا بالإفراج عنهم، واستجاب لهم... وما كان من هؤلاء المماليك إلا أن توجهوا إلى الجامع الأزهر وأقاموا به «يأكلون من صدقات الفقراء المجاورين به ويتكففون المارة وفى ذلك عبرة للمعتبرين» والقول للجبرتى، ويلخص «هيرولد» هذه العلاقة قائلا «.. أما المماليك والعثمانيون فمسلمون.. صحيح أنهم قد يعتصرون أرزاقهم ويستنزفون أملاكهم، ولكنهم أخوة لهم» ، وكما قال د. لويس عوض بحق «رفض المصريين للماليك لم يكن يستتبع قبولهم للفرنسيين ..» فلم يكن المصريون - حينئذ - على استعداد للتحالف مع الشيطان، أيا كانت الدوافع والأسباب، فقد كان الشيطان عدوهم الأول.

لقد كشفت الحملة عن ضعف المماليك عسكريا وعجزهم الشديد أمام «كفار الفرنسيس» ولكن المصريين ركزوا جهدهم فى مقاومة الغزاة وإخراجهم وأجلوا حسابهم مع المماليك إلى ما بعد ذلك. وهو ما سيتحقق فى الأعوام من ١٨٠١ تاريخ خروج الحملة وحتى ١٨٠٥ حين اختاروا بكامل إرادتهم محمد على واليا عليهم.

وتطوى صفحة من التاريخ.

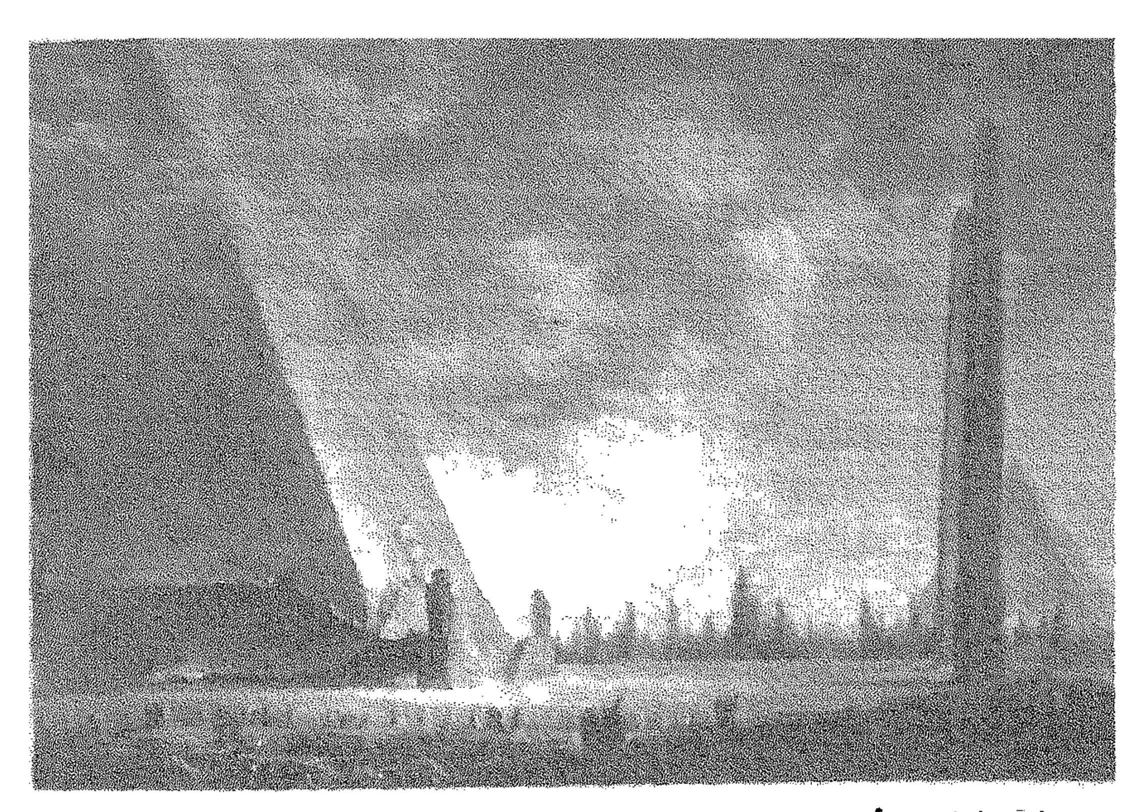
هل خدع نابليون أهل مصر المحروسة ؟!



عشق مصر
على مر العصور

بقلم : مصطفى درويش

■ تختلف حضارة مصر فى عصر الفراعين عما عداها من الحضارات المعاصرة لها فى أنها أقدمها عهدا وأطولها عمرا وأكثرها تأثيرا . ولأنها انفردت بكل تلك الخصائص ، فالكشف عن ذخائرها لم يكن أمرا يسيرا ..



الأهرامات ، أو خيالات مصر ، كما رسمها الفنان هيبوبرت روبرت عام ١٧٦٠

فحتى مجيء الجنرال نابليون بونابرت مع جنده وفريق من العلماء الى أرض مصر ، غزاة طامعين ، وذلك قبل قرنين من عمر الزمان ، كان التاريخ المصرى فى عصر الفراعين من الألغاز والمعميات التى تتحطم عليها كل محاولة للفهم ، مهما بلغ ذكاء وعلم أصحاب المحاولات .

وظل الحال هكذا ، إلى أن اشرقت اللحظة فى حسرة رجل اسمه «جان فرانسوا شامبليون » ، عاش فى فرنسا حياة لم يطل أمدها بدأت سنة ١٧٩٠ ، وانتهت سنه ١٨٣٢. فى اثنائها اطلع على رسوم مجلدات «وصف مصر أهم أثر خلَّفه العلماء المصاحبون لحملة الغازى بونابرت وجنده رسل استعمار فرنسى يريد أن يشارك فى اقتسام تركة الامبراطورية العثمانية التى كانت تعانى من مرض عضال ولقد كان من بين الرسوم رسم

عشق مصر على مر العصور

لحجر اسود ، اشتهر، فيما بعد بحجر رشيد، عليه نقوش ، هى فى حقيقة الأمر كتابات لمرسوم صادر من بطليموس الخامس فى ثلاث لغات .

أما كيف أشرقت تلك اللحظة . فذلك عندما أوحى الى «شامبليون » أن يقارن بين كلمات تلك اللغات الثلاث المتجاورة . فاذا باللغة الهيروغليفية ينفك لغزها ، واذا أم الحضارات ، تعاد الحياة الى تاريخها الطويل . المجيد .

ولأن هذا البعث لتاريخ حضارة انفردت من بين الحضارات القديمة ، فى الحرص على أن تخلف وراءها بالكتابة سجلا كاملا لحياتها، صانته أرض مصر الطيبة من التلف أو الضياع ، قد جاء فى تاريخ مقارب لتاريخ نشر مجلدات وصف مصر كاملة ، وتزيين ميدان الكونكورد فى قلب باريس بمسلة الأقصر ، الأمر الذى جعل منه واحدا من أجمل الميادين .

فكل ذلك قد زاد من الاهتمام بكل ماهو متصل ولو من بعيد ، بحضارة الفراعين.

هذا ، وقد مد التيار الفنى الذى ظهر أول ما ظهر فى عصر الاغريق ، ثم اشتد عوده فى عصر الرومان وهو ما يعرف فى أيامنا هذه بعشق مصر ايجيبتومانيا مد ذلك الاهتمام بحضارة قدماء المصريين بزاد لا ينقص على مر السنين . وانما يزداد وعلى كل فالأعمال الفنية التى تدخل فى باب عشق مصر هى تلك الاعمال المتأثرة بالفن المصرى القديم باشكاله المتنوعة المميزة تماما عن غيرها من أشكال فنون الحضارات الأخرى. .

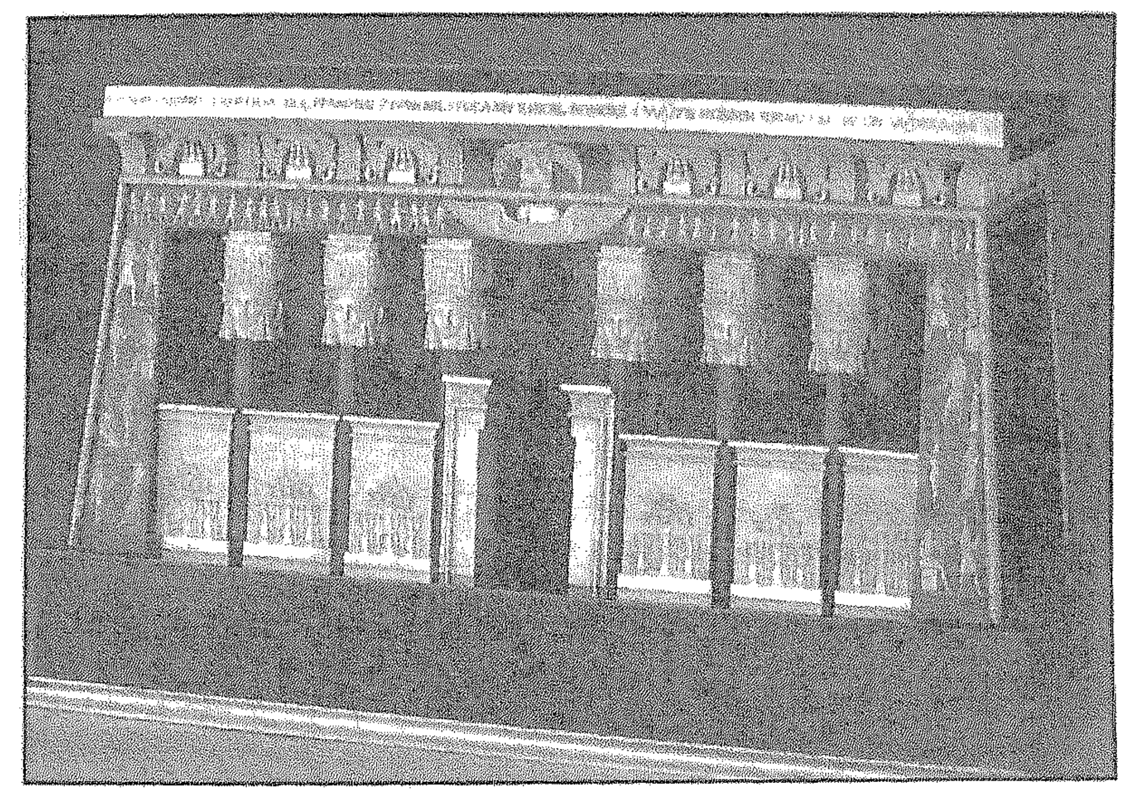
وأشهر تلك الاشكال ما فى ذلك شك . المسلات والأهرامات ، وتماثيل أبى الهول فى شكل كائن رابض برأس انسان مغطى على الطريقة الفرعونية ، وجسم حيوان .

دوار وانبهار

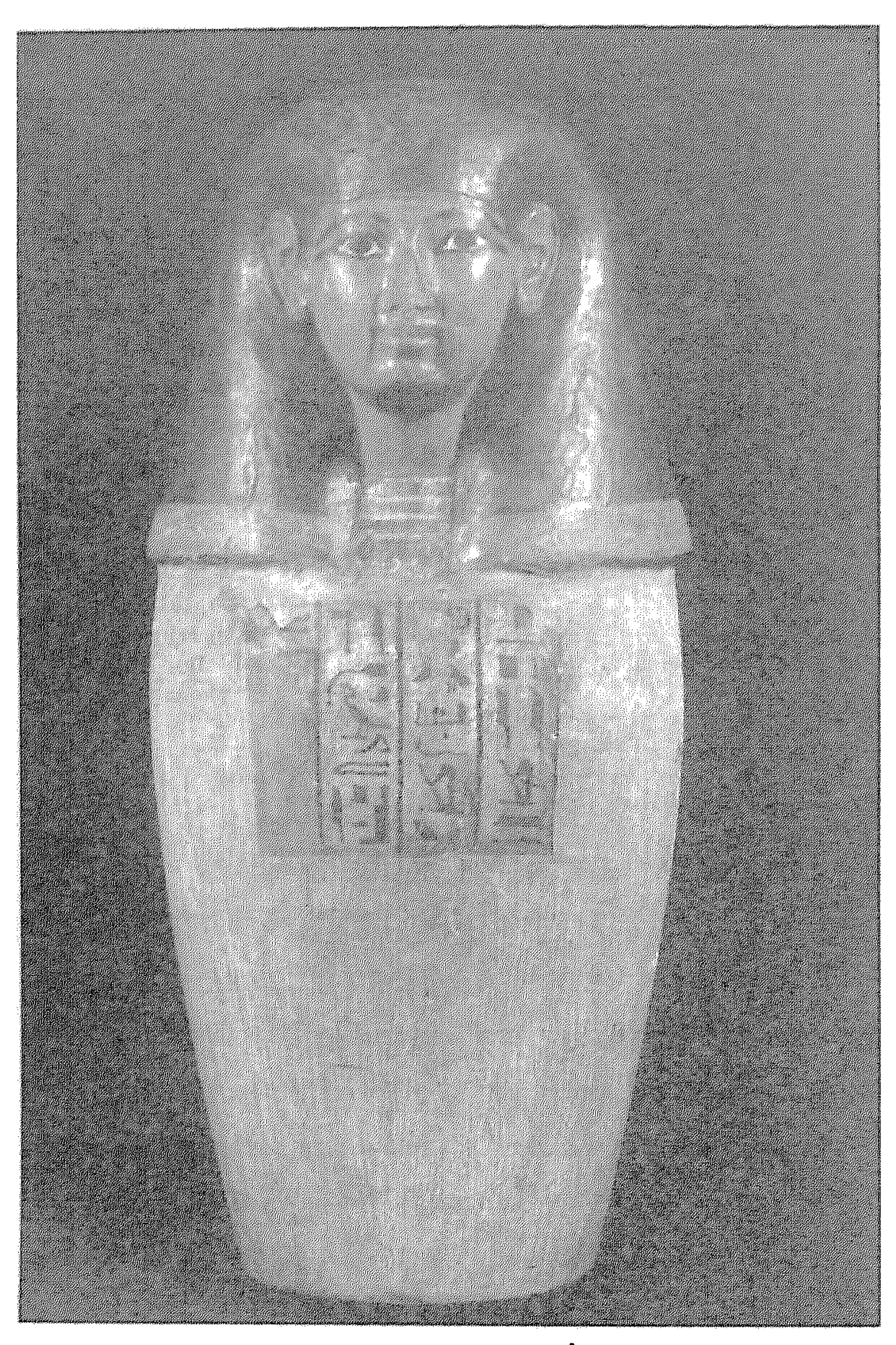
وعشق مصر وإن كانت ارهاصاته ترجع الى عصر الحضارة الاغريقية ،



لوحة «البضائع وصانعاتها» للفنان أدوريج لوج رسمها عام ١٨٧٨



نموذج شامخ لمعبد مصرى . المعبد هنا هو «وندرة» تصميم النموذج عام ١٨٠٦



جرة فرعونية برأس إنسان منحوتة عام ٩٠٠ قبل الميلاد

فإنه بلغ القمة فى عصر الرومان أثر احتلالهم مصر فى القرن السابق على الميلاد .

فما أن لمست أقدامهم أرض مصر حتى أصابهم دوار وليد الانبهار،فاخذوا ينقلون المسلات ، ويشيدون فى روما الأهرامات .

ورغم الاضطهاد ، فى البدايات ، أخذوا يقيمون المعابد لأيزيس ربة قدماء المصريين وشيئا فشيئا أخذت عبادتها فى الإنتشار . ومن أهم آثار تلك الفترة من تاريخ الامبراطورية الرومانية ، الأهرامات المتزينة بها قبور الرومان، واحدها لايزال موجودا فى مقبرة الفاتيكان . وآخر ، ألا وهو هرم «كايوس شستيوس » ولايزال قائما على مشارف روما القديمة ، مثيرا دهشة المسافرين القادمين من «اوستيا» بشكله الغريب الدخيل على المكان.

ونفس الدهشة ، تثيرها المسلات المنتصبةفى اهم ميادين روما .

والامر العجاب أن عددها في روما يفوق عدد المسلات فى معبد الكرنك .

وهى تحمل أسماء بعض من أرفع الفراعين شأنا ، اذكر من بينهم تحتمس الثالث ، سيتى الاول ورمسيس الثانى

اسطورة حب

ويعرف عن أغسطس إنه أول قيصر أمر بنقل اثنتين من تلك المسلات .

وكان ذلك إثر انتصاره فى معركة أكتيوم على انطونيو وكليوباترة ، وذلك الانتصار الذى انتهى بهما الى الانتحار .

وكما هو معروف ، فقد جعلت منها تلك النهاية الفاجعة أسطورة من أساطير الحب الذى تفنى فيه النفوس .

منها اغترف الفنانون التصاوير والتماثيل والمسرحيات والأفلام .

ويكفى هنا أن نستحضر على شاشة الذاكرة مسرحية انطونيو

وكليوباترة للشاعر ويليم شكسبير ، وفيلمى كليوباترة لسيسيل دى ميل وجوزيف مانكيفتش

ومن غرائب إبداعات عشق مصر ، إبان عصر الرومان تماثيل انطونيوس .

ولتلك التماثيل قصة أغرب من الخيال ، بطلها الامبراطور « هادريان الذى يعتبر بحق واحداً من أكثر أباطرة روما ولعا بمصر ، واهتماما بالعبادات الشرقية ، لاسيما ما كان منها متصلا بعبادة ايزيس .

فقد دفعه ولعه هذا إلى زيارة مصر مرتين الاولى سنة ١١٧ ، والثانية سنة ٢٩ - ١٣٠ بعد الميلاد .

هيام وانتحار

وفى أثناء الزيارة الاخيرة ، وقع حادث أليم لانطونيوس الشاب الوسيم الذى كان هادريان يهيم به اشد هيام وذلك عندما القى بنفسه فى النيل قبل الوصول الى طيبة بقليل.

فتخليدا لذكراه أسس الامبراطور الحزين فى نفس مكان الانتحار ، مدينة اسماها انطونيوبوليس

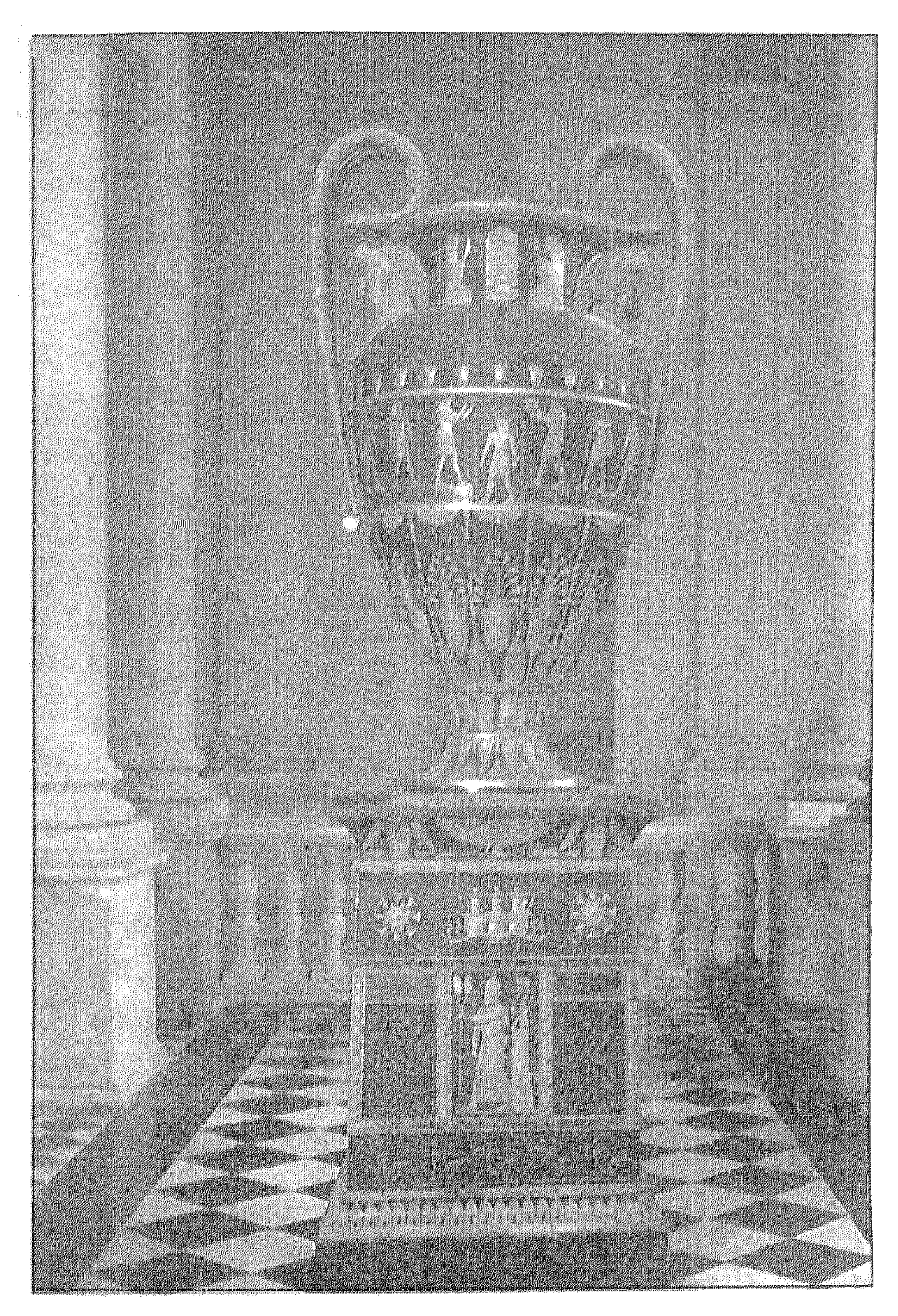
أما فى روما فقد أمر باعتناق المعتقد المصرى القائل بان الموتى غرقا لايفنون ، وانما يرتفعون الى مصاف الارباب .

ولأن انطونيوس أصبح بموجب هذا المعتقد ربا فقد نحتت له تماثيل مستلهمة الاسلوب الفرعونى ، تصوره على الطريقة المصرية ، مؤلها ، اشبه بأوزوريس وبعض هذه التماثيل عثر عليه فى فيلا هادريان بتيفولى ، قريبا من روما .

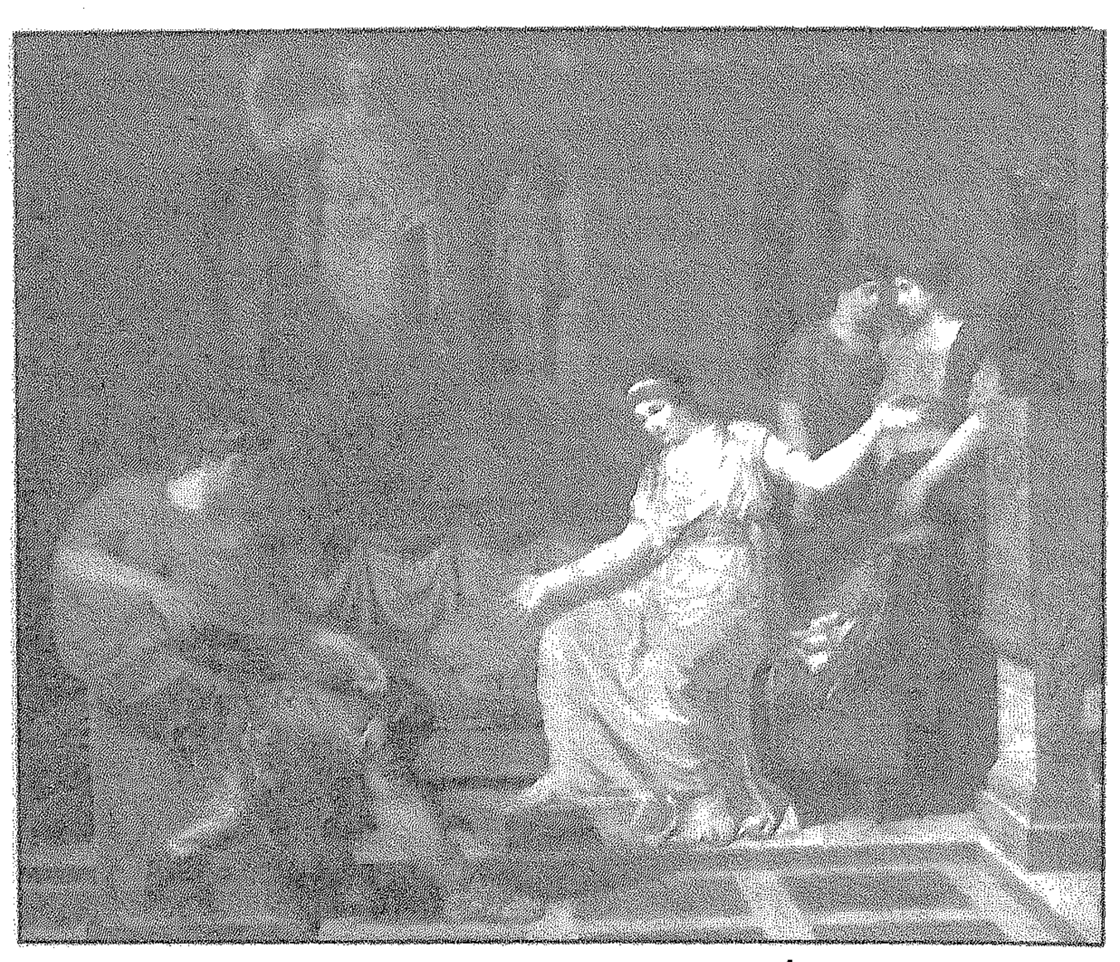
عشق دائم

واللازم هنا القول بان عشق مصر ليس ظاهرة متقطعة ، تتوهج حيناً مع حدث كبير متصل بمصر كعودة الحملة الفرنسية الى فرنسا مدحورة تجر أذيال الخيبة ، أو افتتاح قناة السويس فى عهد الخديو اسماعيل أو اكتشاف مقبرة الفرعون الصغير «توت عنخ أمون » ثم سرعان ماتنطفىء حينامن الدهر طويل

لا انه عشق من ذلك النوع المتوهج



آنية ضخمة منقوش عليها رسوم مصرية ترجع لعام ١٨٠٦



كليوباترا وأوكتافيا كما رسمها لويس كوفييه عام ١٧٨٨ م

دائما فهو على اختلاف العصور شاب لا يهرم ابدا يتكيف مع المتغيرات ، مما نرى تأثيره واضحا فى المعمار ، فى الأثاث ، فى الديكور ، فى الحلى وفى غير ذلك من اشياء الحياة .

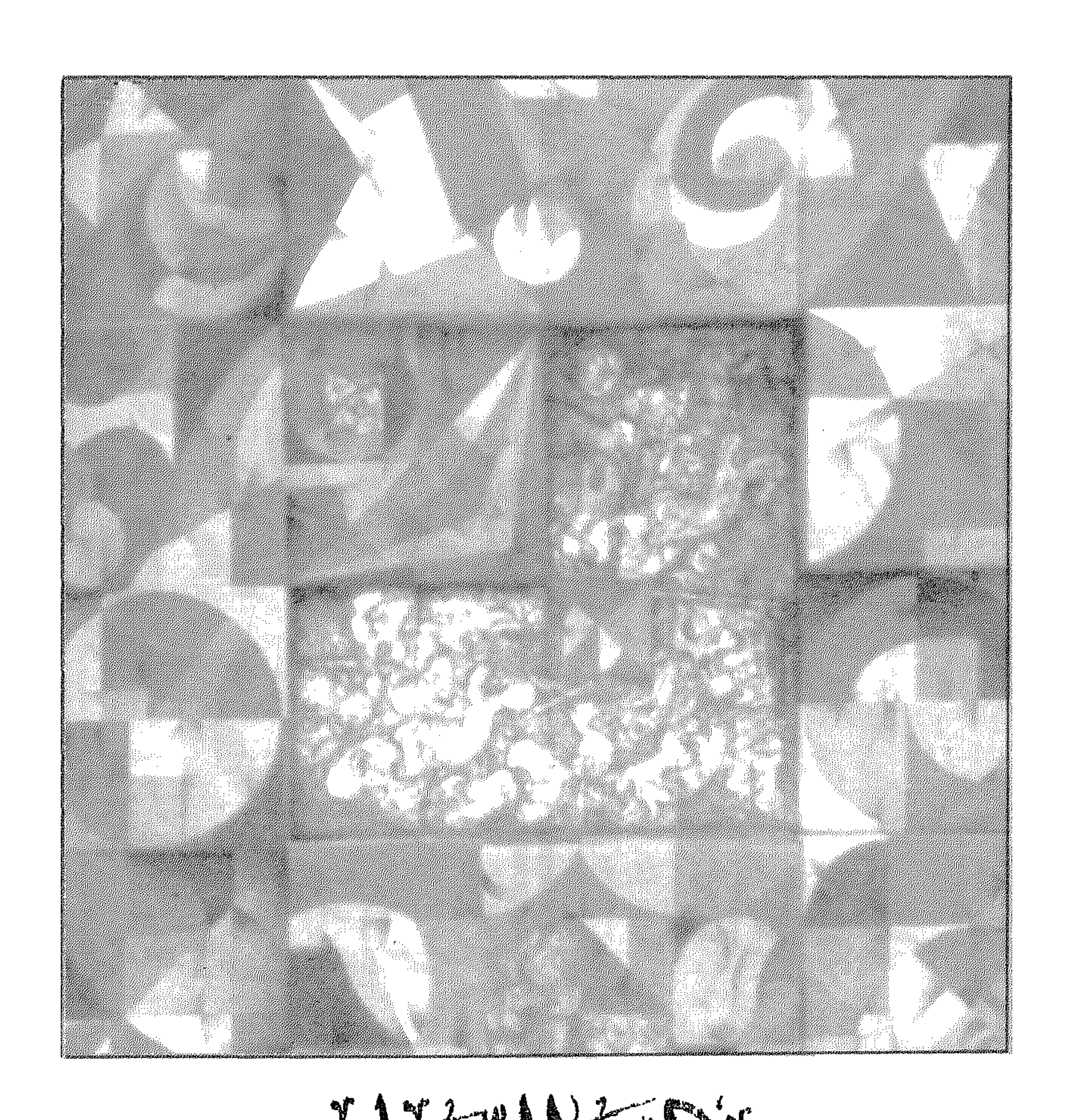
باختصار عشق مصر له حياة خاصة تغذيها الأساطير ، الرموز ، الدلالات ، والأحلام الموروثة الكامنة فى الأعماق .

ومما هو جدير بالذكر إنه لا توجد حضارة أخرى تحمل مثل ذلك القدر الهائل من الرسائل والايحاءات فلا الصين واليابان والهند ولا حضارة بابل وأشور، وعلى مستوى آخر ، لاحضارة الأغريق وروما ولا أساليب الفن القوطى ، وعصر النهضة فى أوربا بوسعها أن تنهض الى مستوى سحر حضارة قدماء المصريين ، وتأثيرها الشامل ، المتواصل ، على مرِّ آلاف السنين .

قال الطبيب..!!

شعر:
أحمد السيد عوضين

عز الطبيب.. وعز بعد شفائى ... لما مضيت.. معذبا بدوائى
من ذا أبث له الشكاية واثقا ... من أن بين يديه بعض عطائى
أو أن طبا قد أتاه.. بحكمة ... فيها الشفاء - وبلسم - لعنائى
هل ذاك حلم لن أراه بواقع ... أم أن ثمة ماينير رجائى؟
قال الطبيب: لذاك أمر واقع ... بل إنه حق.. ولست أرائى
ماتبتغى؟ قل لى أجبك مصارحا ... ومحققا حتى المحال النائى
قلت: الفؤاد معذب فى نبضه ... فى خفقه - فرحا - بكل نداء
ما إن يرى طيف الجميلة مقبلا ... حتى يثور مرددا: حسنائى
متناسيا أن الشباب وقد مضى ... لم يبق إلا أوهن الأصداء
لكن فؤادى - ياطبيب - معذب ... هو مايزال بثورة رعناء
إن قلت: حسبك يافؤاد قد مضى ... زمن الشباب موليا بجفاء
قال الفؤاد: لذاك حق قلته ... لكنه الحق المثير شقائى
عند الطبيب علاجه وشفاؤه ... يهدى الفؤاد شبابه بسخاء
يهديه من نبع الفتوة رشفة ... فيها الحياة فيرتوى برواء
ماذا تقول - معالجى ومطببى ... هل يهتدى طب لبعض شفائى؟
ماتشتكى إلا خيالا جامحا ... وتصورا يرقى عن الأشياء
فلتمض فى وهم بعيد مؤلم ... ماضر ماتلقى من الحسناء
تنأى الجميلة لاتحقق مبتغى ... يبغى الفؤاد معذبا برجاء
إن العذاب هو الشفاء محققا ... ومن السموم الناقعات دوائى
هل بعد «شوقى» تلتقى بمعالج؟ ... لهو «الحكيم» أميركم شعرائى
فلتمض شاعرنا دواما مؤلما ... ذاك الدواء إذا أردت عزائى
إن العذاب مع الحبيب لنعمة ... يذكى الشعور مع ابتغاء لقاء
ويثور حس فى هواه معبرا ... عما يلاقى من ضنى وشقاء
إن قال: آه، أو تغنى مؤلما ... أو قال: ليلى يامثير عنائى
فالقول شدو ولايزال محببا ... ومرددا لحنا يثير رضائى
يشفى المريض وقد تردد شعره ... عذبا، رقيقا، مطربا بغناء
ويعود يدعو أن إلى عذابيا ... منك الحياة، وفيك كل رجائى



عبد الرحمن النشار

درة فن إسلامى
تخرج من الكمون إلى السطوع

بقلم : صافى ناز كاظم

الهلال مايو ١٩٩٦



علاقة هندسية عضوية

●● أنا البحر فى أحشائه الدر كامن.. هذا جزء من بيت شعر قاله شاعر النيل حافظ ابراهيم يصف اللغة العربية، ودائما أردد هذا الجزء مع تعديل: أنا مصر فى أحشائها الدر كامن». هذا التعديل له وجهان: مديح لمصر وتألم بنفس الوقت لأن أعظم المبدعين فى مصر نجدهم فى طى كتمان وسائلنا الإعلامية. فبقع الضوء الإعلامى لدينا تحب أن تصل، فى غالب الأحيان، إلى





صورة شخصية للفنان

السهل، والسهل من المبدعين هم هؤلاء الذين يعرفون كيف تكون لديهم علاقات عامة جيدة. والنتيجة أن ما يظنه البعض أقطاب الفن والشعر والأدب، ليسوا فى الحقيقة سوى الجزء الصغير الواضح من بين طيات سحب الإهمال وضباب الجهل وغشاوة الكسل أو التعصب، التى تخفى الكثير والهام من كنوز مصر الإبداعية والثقافية، سواء منها المنتمية إلى أجيال ماضية أو المعاصرة التى تسعى بين أيدينا حية ترزق ●●

وحين تبتسم الصدفة وتسفر عن وجه من هؤلاء المبدعين الكامنين ونكتشف أننا عشنا معه تحت سماء مدينة واحدة ومرحلة واحدة، ومع ذلك لم نعرفه، ينتابنا مع فرحة الكشف واللقاء لسعات من الخزى وتأنيب الضمير. وهذا ما حدث لى بالضبط وأنا أدلف متجولة بين قاعات أخناتون فى مجمع الفنون بالزمالك أتأمل لوحات الفنان عبد الرحمن النشار - المولود فى ٢٣ أكتوبر ١٩٣٢ - وأتعرف لأول مرة على عالمه الفنى الثرى الخصب والباهر.

★★★

المعرض استمر منذ يوم افتتاحه ٢٨ فبراير حتى ١٨ مارس الماضيين. وسبب ذهابى مكالمة هاتفية من صديقتى الكاتبة زينب صادق التى قالت لى بطريقتها المختصرة

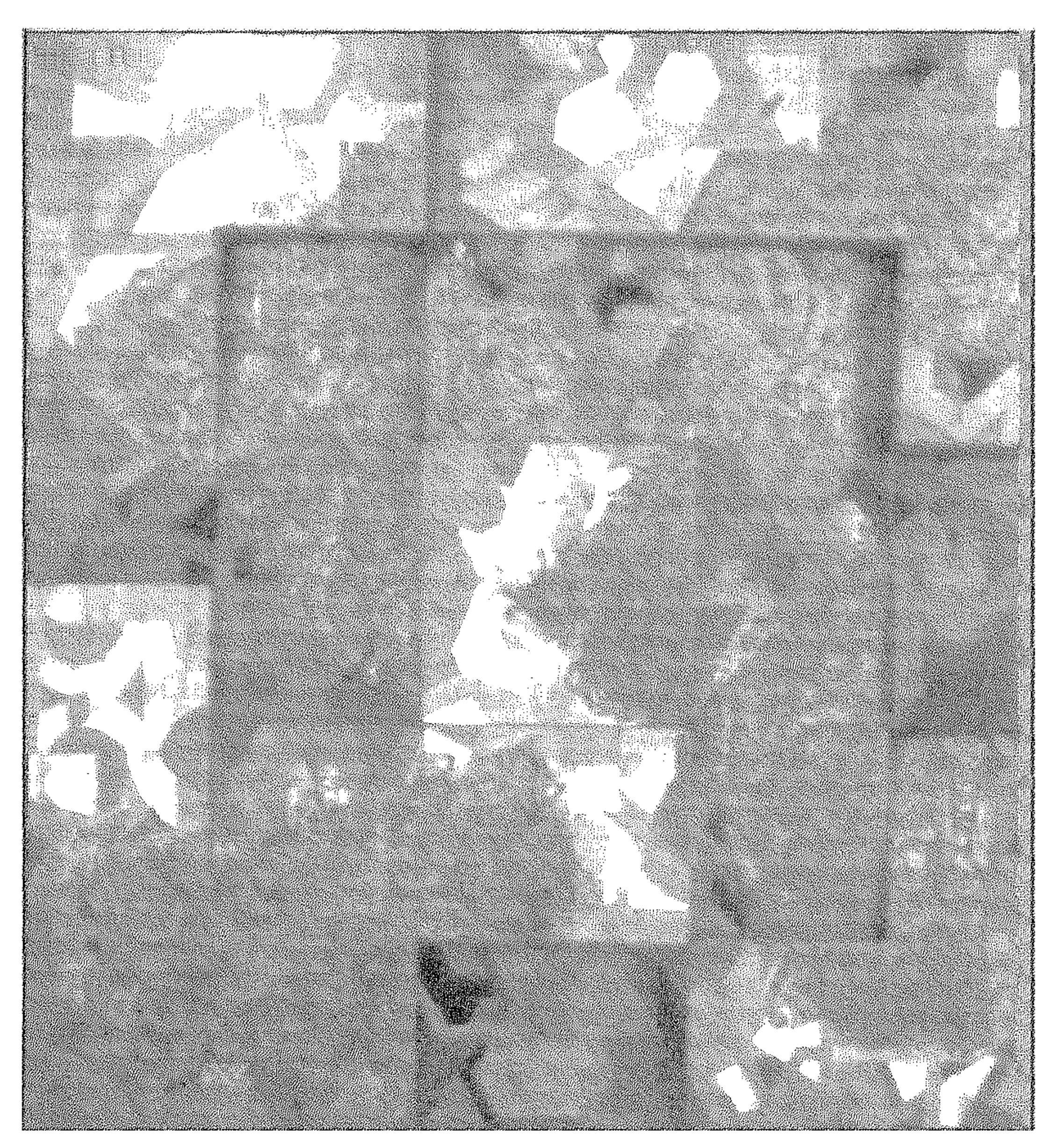
الحاسمة الخالية من التهليل: «هناك معرض مهم للفنان عبد الرحمن النشار، وسوف يعجبك. سنلتقى عنده غدا إن شاء الله» لم تلحظ زينب ان اسم النشار لم يدق جرسا فى أذنى، ولم يهمها أن تعطينى الحيثيات التى على أساسها قررت وحددت أن المعرض سيعجبنى، لكن كان لابد أن ألبى لأن زينب صادق لا تلقى الكلام على عواهنه، ثم هى تعرفنى جيدا وتعرف أننى يمكن أن آكل رأسها لو خاب أملى، لذلك هى لا تغامر بتوريط نفسها فى دعوة مثل هذه من دون تأكد كامل بأنها تأخذنى إلى مرتع فنى ترتاح فيه نفسى المتعبة.

وأنا ألتقى بزينب لنخطو سويا نحو معرض النشار لم يكن بوسعى أن أتكهن بشئ فنظرة الجدية على وجه زينب، التى قاربت أن تصل حد الجهامة لم تستطع أن تعطينى سوى مؤشرات بأهمية ما نحن بصدده.



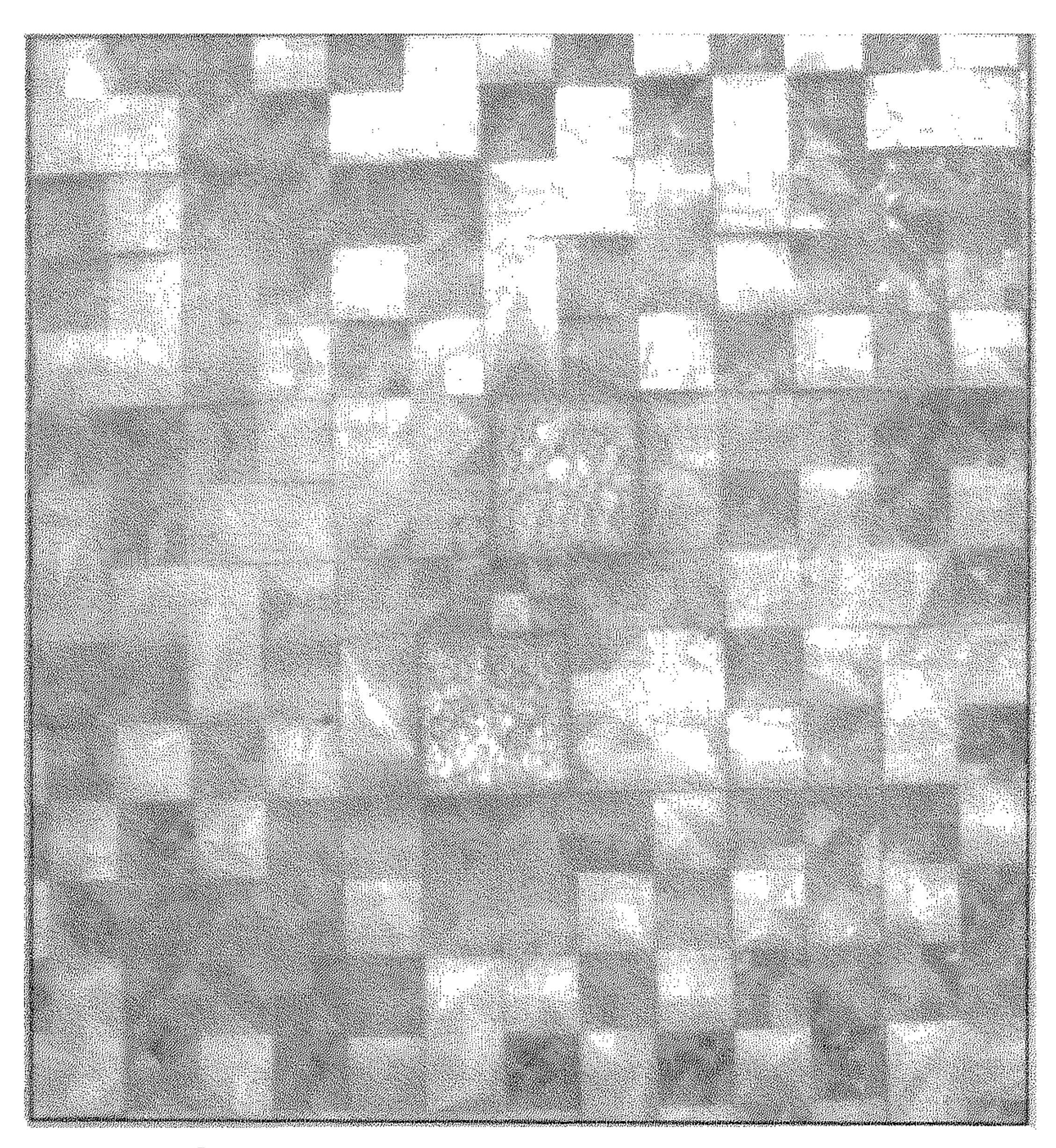
قاعات أخناتون، قاعات مريحة تعطى الأعمال حقها كاملا. من الوهلة الأولى شعرت بوهج يحوطنى: جديد وأليف، مبتكر وموغل فى العراقة. نظرت إلى زينب متهللة الوجه فابتسمت وجلست ملامحها مرتاحة وتبادلنا الطمأنة: «شكرا يازينب!»، «الحمد لله جاءت سليمة ياصافى!». وتركت اللوحات تخاطبنى عبر مفرداتها الخاصة التى لا تكون الكلمات وأحرفها جزءا منها. رصدت فى نفسى الإحساس بالطرب، وتملكتنى حالة جياشة بالرضاء والإنتماء والتواصل. وأخيرا يعود الفن التجريدى إلى موطنه الأصلى: «الرؤية الإسلامية». خاض الفنان الرائد منير كنعان معركة التنقيب وها هو ذا الطريق يعبد ويجده الفنان النشار ساحة عليها يتألق كفنان مسلم معاصر يعيد فى عفوية متناهية توظيف وحدات الفن الإسلامى الشائعة ليقول هو والوحدات والفن: أنا حضارة ١٥ قرنا، أمتد واستمر محتضنة كل الحضارات ضمن إطارى.

سبعون لوحة موزعة بين القاعات تلخص مشوار النشار من بداياته فى الستينات، مع التشخيص وبعض «الخطابة» - «إفريقيا البيضاء» ١٩٦٥، «الحرب والسلام» ١٩٦٦ - حتى مجموعة التسعينات التى تمثل قفزته العبقرية التى أخرجته من المحابس كلها مرفرفا فوق كل التجارب التى سعت لاستخراج فن إسلامى ومعاصر ليستقر على



علاقة هندسية عضوية

صياغته الفريدة لا يتماثل فيها مع أحد ولا يماثله أحد. تكوينات خشبية منحوتة ومتداخلة التركيب بين هابط وبارز ومستطيل ومربع، يعطى نهائية مربعة تبدو شبيهة بالوحدة الزخرفية الإسلامية التقليدية المطعمة بالصدف أو الخشب، لكن مع هذا الحرص على تثبيت التشابه هناك الفرار الواضح من قيد التقليد والتكرار والتنميط.. تعتنى النقوش «النشارية» بالألوان التى لها فى الوجدان الإسلامى تداعيات تتجمع من «المنمنمات» الفارسية والمغولية والتركية غير أنها لا تستدعى الوجوه التراثية لتلك المنمنمات فالنقوش



ملحمة الكون

حرة تختار المناسب من المفردات الفرعونية والآشورية والسومرية مطعمة بخامات من الجلد والذهب والمرايا. وتتراوح أحجام اللوحات بين ٥٠ × ٥٠سم متصاعدة إلى ٨٠ × ٨٠سم و ٩٠ × ٩٠سم ومتر × متر حتى تصل إلى حجم جداريتين رائعتين ٢٢٥ × ٢٢٥سم ويقتصر التعريف بكل لوحة بين : «ملحمة» و «منظومة» و «منظومة سحرية» و «علاقة عضوية هندسية».

★ ★ ★



دورة الفهم لهذه اللوحات، هى دورة الفهم للتجريد، تبدأ بمواجهة بصرية مع اللوحة وحين تنجح فى إقامة علاقة شعورية بها تختزن فى الوجدان حتى يصعّدها إلى إدراك عقلى، وهى دورة مختلفة عن دورة المجسدات والمجسمات والتشخيص. ويتدرب العقل الإسلامى على هذا الاستقبال التجريدى الذى يقوده إلى فهم المطلق وإدراك اللامتناهى والإيمان بالله سبحانه وتعالى إيمانا متخلصا من التصور والتحديد مهتديا بالتعريف القرآنى «ليس كمثله شىء».

ونستطيع أن نستكمل فهمنا لعودة الفنان عبد الرحمن النشار بالفن التجريدى من المتاهات المتغربة إلى موطنه الأصلى: «الرؤية الإسلامية» من خلال كلماته التى تقول تحت عنوان «الضوء، التجريد، نور باطنى واستشراق للمطلق من الأصالة إلى التحديث» ما يلى: «تقترن هندسة الضوء فى بناء الأعمال الفنية لدى فنان الشرق، باحساس المؤمن بالرهبة والورع والهدوء فى آن واحد لتكتسب مضمونا روحيا... النور إشراق استبطانى غير ملموس، إدراك قلبى لتعاقب الحضور بصورة تبعث على الخشوع والتأمل، تسبيح بحمد الله غير المنظور يستوعب الحياة والإنسان والكون والوجود، إنه نور فطرى منبعث من القلب. وفى الفن، ينتشر مسار النور الذى يضفى بريقه فى تنوع رحب لا نهائى وتتلاشى بؤر التمركز من خلال سطوح تخطف الضوء وتعكسه فى إشراق باطنى وتلألؤ روحانى. ضوئيات تنبثق من أغوار الأشياء، تتخطى مصادر التأثيرات الضوئية العارضة متحررة من المظاهر المادية للمفهوم الفزيائى للضوء إلى نور هو : روح البصيرة. المطلق واللانهائى، إيمان عميق وهدف تصبو إليه وتتحرك نحوه الحياة ليتوارى العرضى والعابر واللحظى ويتأكد الثابت واليقينى والخالد. إنه استشعار لما هو فوق الحسى... المجرد فى الفن منطق جمالى ومنطلق تعبيرى يتحدد وفق استجابات لمطالب روحية... موروث الثقافة بأبعاد جذورها المحلية والتراثية، علاقة موصولة الحلقات فى تواصل التاريخ وتأكيد الهوية وتأصيل الإبداع. فالتراث باعتباره ماضى الحاضر وطبيعة سريانه فى شرايين حياة الفرد، عامل مهم فى جعل الفن يتخطى هوة العدم ... ورب سائل يقول :

إلى أين يتجه الطريق ؟... وأجيب إنني فنان عابد لله، أتجه بالواتى من الخطوط والالوان فى داب وتبجيل، أصلى لله، وبالصبر والمثابرة وبالمجاهدة والرجا.. وايمانى بالخالق الواحد الأحد، أن أنطلق من حيث انتهيت....»

عبدالرحمن النشار

● مواليد القاهرة ١٩٣٢

● أستاذ التصوير ورئيس قسم التعبير الفنى بكلية التربية الفنية، جامعة حلوان. ووكيل الكلية للدراسات العليا سابقا.

● دبلوم كلية الفنون الجميلة بالقاهرة عام ١٩٥٦ ، دبلوم المعهد العالى للتربية الفنية ١٩٥٧ ، منحة التفرغ من وزارة الثقافة ٦٨ - ١٩٦٩ ، دبلوم أكاديمية الفنون الجميلة بودابست ١٩٧٠ ، دكتوراه الفلسفة فى التربية الفنية تخصص تصوير - جامعة حلوان ١٩٧٨.

● عضو جماعة المحور.

● الأمين العام لنقابة الفنون التشكيلية سابقا.

● أقام العديد من المعارض بداية من عام ١٩٦٠ بمتحف الفن الحديث بالقاهرة، وتوالت بعدها معارضه فى أتيليه الإسكندرية ١٩٦١ ، متحف الفن الحديث بالقاهرة ١٩٦٣ ، قاعة أخناتون ١٩٦٥ ، أتيليه القاهرة ١٩٦٧ ، قاعة الإتحاد الإشتراكى ببودابست ١٩٧٠ ، قاعة أخناتون ١٩٧١ ، أتيليه القاهرة ١٩٧٥ ، واشنطن العاصمة ١٩٧٦ ، المركز الثقافى الألمانى بالقاهرة ١٩٨٠ ، قاعة أخناتون ١٩٨٧ ، ومعرضه هذا الأخير بقاعة أخناتون ١٩٩٦ . هذا مع مشاركات أخرى فى معارض جماعية بين أعوام ١٩٨١ - ١٩٩٤ .

● وقد حصل على العديد من الجوائز أهمها: جائزة التصوير الأولى - صالون القاهرة ١٩٦٨ عن لوحة مأساة القدس، وجائزة الدولة التشجيعية في التصوير ووسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى عام ١٩٨٠ . ثم جائزة التصوير الأولى بينالى القاهرة الدولى الرابع ١٩٩٤ .

هل حان الوقت لجمع



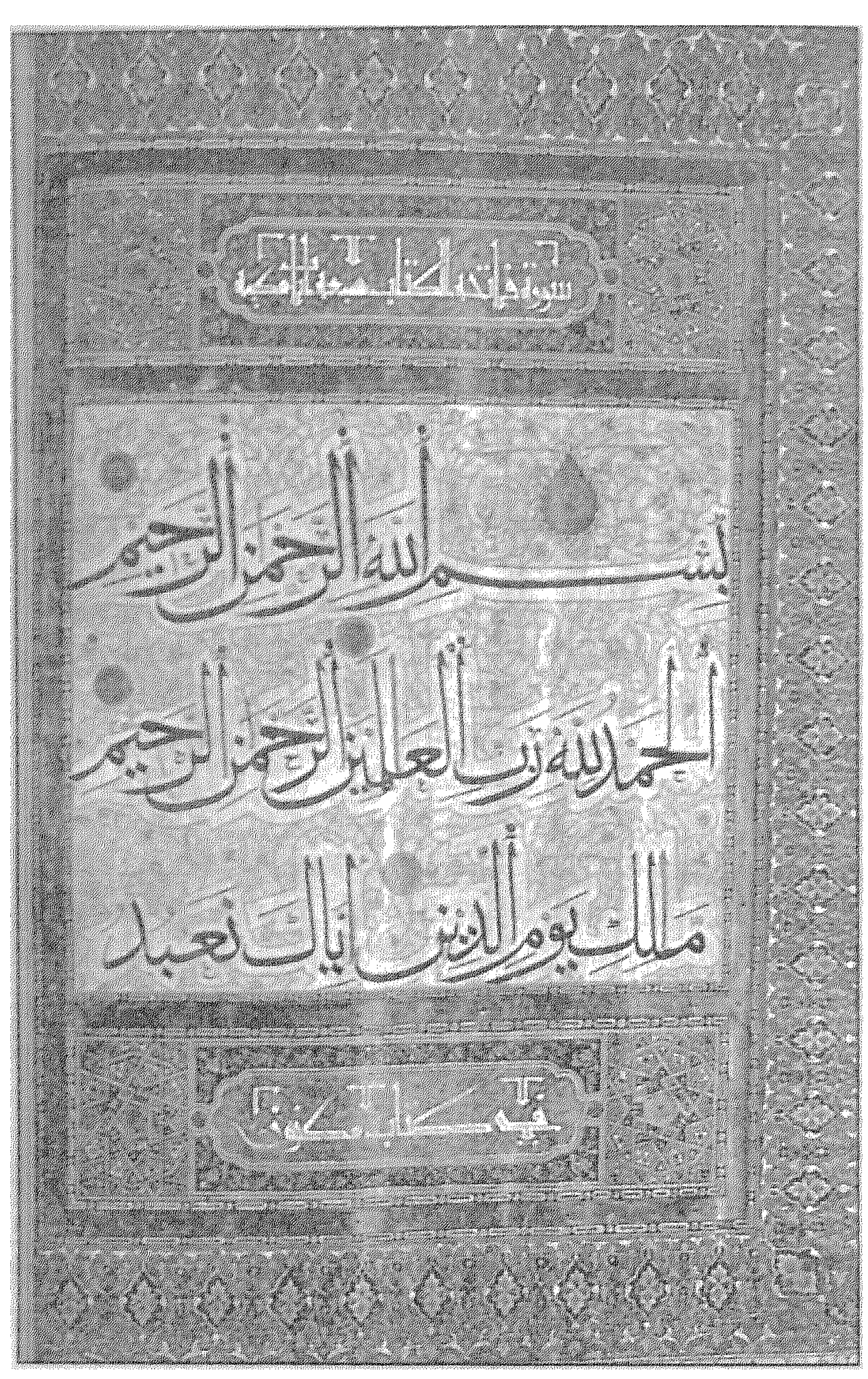
من كل أنحاء العالم ؟!

بقلم : د. أيمن فؤاد سيد

●● المخطوطات العربية هى السجل الحافل للإنتاج الفكرى والأدبى والعلمى للأمة الإسلامية على امتداد أربعة عشر قرناً . وما وصل إلينا منها يعد نزراً قليلا مما أنتجه علماء المسلمين فى كل مجالات المعرفة، والذى نتعرف عليه من خلال فهارس مخطوطات المكتبات المعروفة والجهود الضخمة لعلماء من أمثال كارل بروكلمان وفؤاد سزجين ومؤسسات مثل معهد المخطوطات العربية ومؤسسة الفرقان للتراث الإسلامى ●●

يبلغ حجم المخطوطات العربية فى مكتبات العالم تبعا لتقدير العلماء المختصين نحو ثلاثة ملايين مخطوط ، بينها النسخ المكررة وغير ذات القيمة والحديثة . أما المخطوطات المعتبرة بين هذا الكم فتصل إلى نحو نصف مليون مخطوط .

وتبلغ المخطوطات العربية والشرقية فى مصر نحو ١٢٥ ألف مخطوط وهى تأتى فى المرتبة الثانية بعد مجموعة مخطوطات تركيا . أما مجموعة دار الكتب فتبلغ نحو ستين ألف مخطوط تعد من أقيم وأنفس المجموعات العالمية بتنوع موضوعاتها وبخطوطها المنسوبة وقيمتها العلمية والمادية، وبوفرة عدد ضخم من المصاحف الشريفة والربعات وبعضها على الرق يرجع أقدمها إلى عام ٧٧هـ وهو مصحف منسوب إلى الإمام الحسن البصرى (ضمن مجموعة طلعت برقم ٥٠ مصاحف)، بالإضافة إلى مجموعة نادرة



فاتحة الكتاب بخط كوفى مشرقى مزخرف تمت كتابته عام ٧٧٠ هـ

من المصاحف المملوكية التى أوقفها سلاطين المماليك على مدارسهم التى أنشأوها فى القاهرة والتى نقلت إلى الدار فى نهاية القرن الماضى، وكذلك مجموعة نادرة من المخطوطات الفارسية المزينة بالصور «المنمنمات» وبماء الذهب وبالألوان البديعة .

مخطوطات دار الكتب المصرية

وتمتلك دار الكتب المصرية واحدة من أكمل وأندر مجموعات المخطوطات الشرقية فى العالم ، وتتوزع هذه المجموعة على الرصيد العام للدار وعلى عدد من المكتبات الملحقة. وتوجد فهارس غير كاملة تعرف بهذا الرصيد العام ولكنها لاتغطى كل مقتنيات الدار وبالتالى لاتقدم فكرة واضحة عن هذه المقتنيات وخاصة فى حالة البحث باسم المؤلف .

ومن هذا المنطلق كان أول ما تم التفكير فيه فى «مشروع تطوير دار الكتب» الذى بدأته فى مايو ١٩٩٢ ، هو بناء نظام معلومات للمخطوطات العربية والإسلامية وإعداد قاعدة بيانات كاملة تعرف بهذا الرصيد المهم ، قمت بتحديد عناصرها والبيانات اللازمة للباحثين الذين سيستخدمونها، وذلك بالتعاون مع مشروع التراث الحضارى بمركز المعلومات ودعم اتخاذ القرار برئاسة مجلس الوزراء فى مصر والذى قام متخصصون فيه فى علم الحاسبات والبرامج بإعداد وبناء البرنامج المناسب لهذه المتطلبات .

وستوفر هذه القاعدة التى تعد الأولى من نوعها عند اكتمالها تعريفاً كاملا بمخطوطات دار الكتب وأوصافها المادية وتحقيقا لعناوينها، وستضع لأول مرة تحت أيدى الباحثين بيانات ببليوجرافية كاملة عن مؤلفى هذه الكتب وعما نشر منها سواء فى طبعات علمية محققة أو نشرات تجارية، وهى خدمة علمية ستوفر جهداً ووقتاً كبيراً للباحثين .

وعند إتمام هذه القاعدة سيتمكن المستفيدون منها من استرجاع بيانات عن مخطوطات دار الكتب عن طريق :

- العنوان أو العناوين البديلة أو العناوين التى اشتهر بها الكتاب مع الإحالة إلى الشروح والذيول الخاصة بالكتاب أو اختصاراته، أو عن طريق استدعاء كلمة واحدة فى عنوان الكتاب .
- اسم المؤلف أو كنيته أو لقبه أو نسبته أو كلمة فى اسم المؤلف . ومعرفة قائمة بمؤلفات المؤلف المطلوب والموجودة فى القاعدة .
- الفن أو الموضوع وتفريعاته.
- تاريخ النسخ .
- أسماء النساخ .
- المصاحف الشريفة .
- الإجازات العلمية .
- أسماء المحققين أو الناشرين للمخطوطات الموجودة فى القاعدة وسبق نشرها .

وحتى تخرج القاعدة بأسلوب علمى

دقيق فإن ذلك تطلب توفر فريق من الباحثين يتولون البحث في المصادر والمراجع لتحقيق عناوين المخطوطات وأسماء مؤلفيها وتوثيقها ، وملء نماذج البيانات التي أعدت بعناية فائقة تمهيداً لإدخالها على الحاسب الآلي ثم مراجعتها وتدقيقها مما يعطي للقاعدة قدراً كبيراً من الجودة والتميز .

وحتى نتمكن من تقديم حصر علمي دقيق لمقتنيات دار الكتب من المخطوطات الشرقية فإنه تتم مراجعة بيانات المخطوط من خلال :

١ – سجلات التزويد وتحديد تاريخ إضافة المخطوط لرصيد الدار إن عرف .

٢ – الفهارس المطبوعة لرصيد الدار أو المكتبات الملحقة .

٣ – مطابقة ذلك على الرف .

وعند إتمام هذا العمل ستكون لدينا أول بيانات كاملة ودقيقة لمخطوطات دار الكتب عن طريق معرفة :

١ – عدد العناوين .

٢ – عدد النسخ (أرقام الحفظ) .

٣ – عدد المجلدات .

٤ – المجاميع ومحتوياتها .

وفي سبيل تنفيذ المشروع تم تجهيز غرفتين، واحدة لإعداد النماذج وواحدة لإدخال بيانات النماذج على الحاسب الآلي وجهزت بالمعدات والنظم والإجراءات التي تكفل سهولة ودقة سير العمل . كما تم تدريب العاملين بدار الكتب لتنمية قدراتهم في إعداد نماذج البيانات كما سيتم تدريبهم على تشغيل هذا النظام المتطور .

وفي خلال عام وحتى ١١ أغسطس ١٩٩٣ وهو تاريخ تشميع مخزن المخطوطات لأسباب أمنية ، تم إنجاز الآتي :

١ – فيما يخص الرصيد العام :

– تم إدخال بيانات ٢٧,٠٠٠ رقم حفظ روجع منها مراجعة نهائية على الرفوف ٣٥٠٠ ، ويحتاج الباقي ، وهو ٢٣,٥٠٠ رقم حفظ أن يراجع مراجعة نهائية على الرفوف .

٢ – فيما يخص رصيد المكتبات الملحقة :

– تم إدخال بيانات عدد أرقام الحفظ الآتية وكلها مراجعة نهائية على الرفوف .

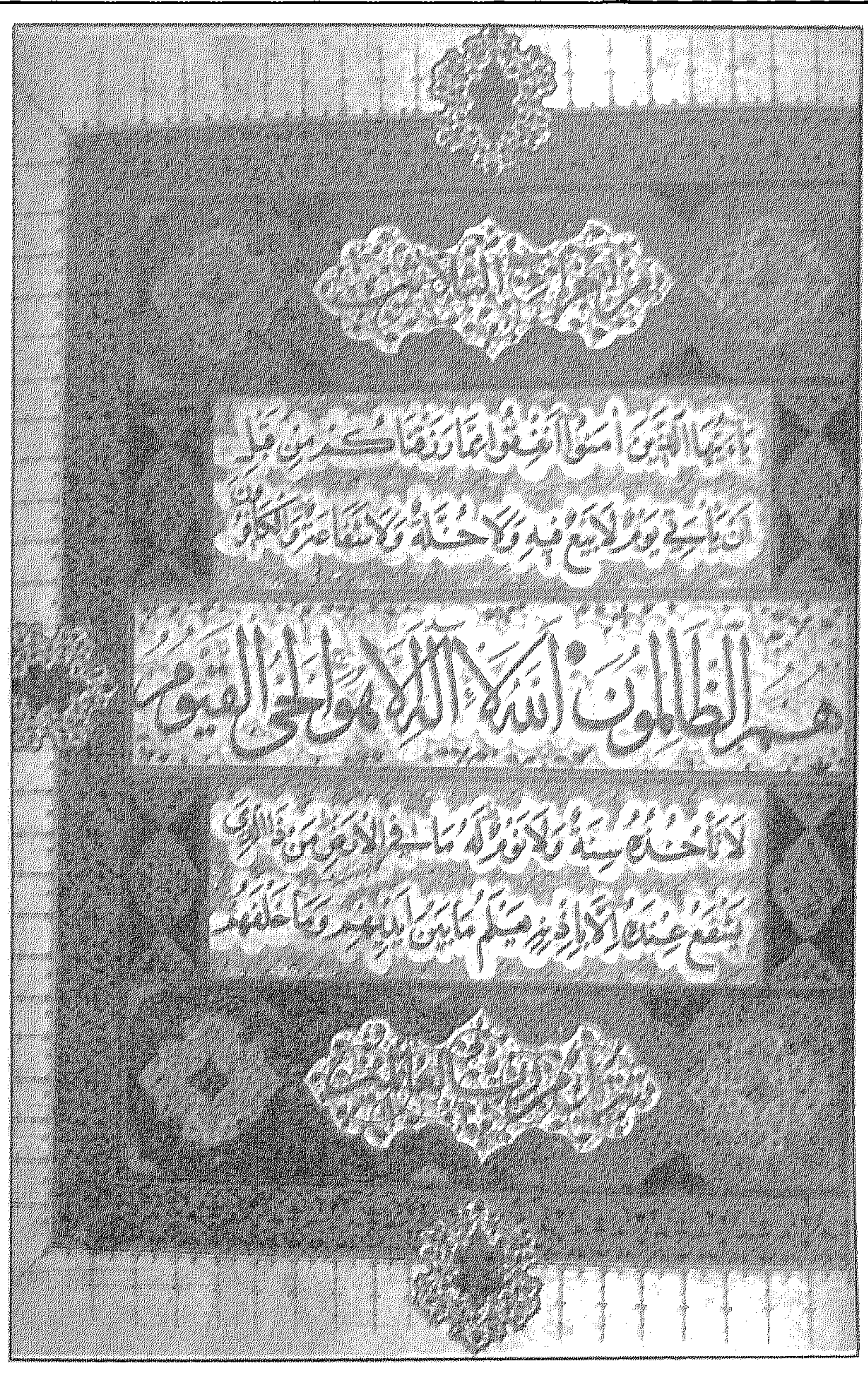
– المكتبة التيمورية ٨٦٩٥ رقم حفظ .

– مكتبة طلعت ١٣٥٧ رقم حفظ .

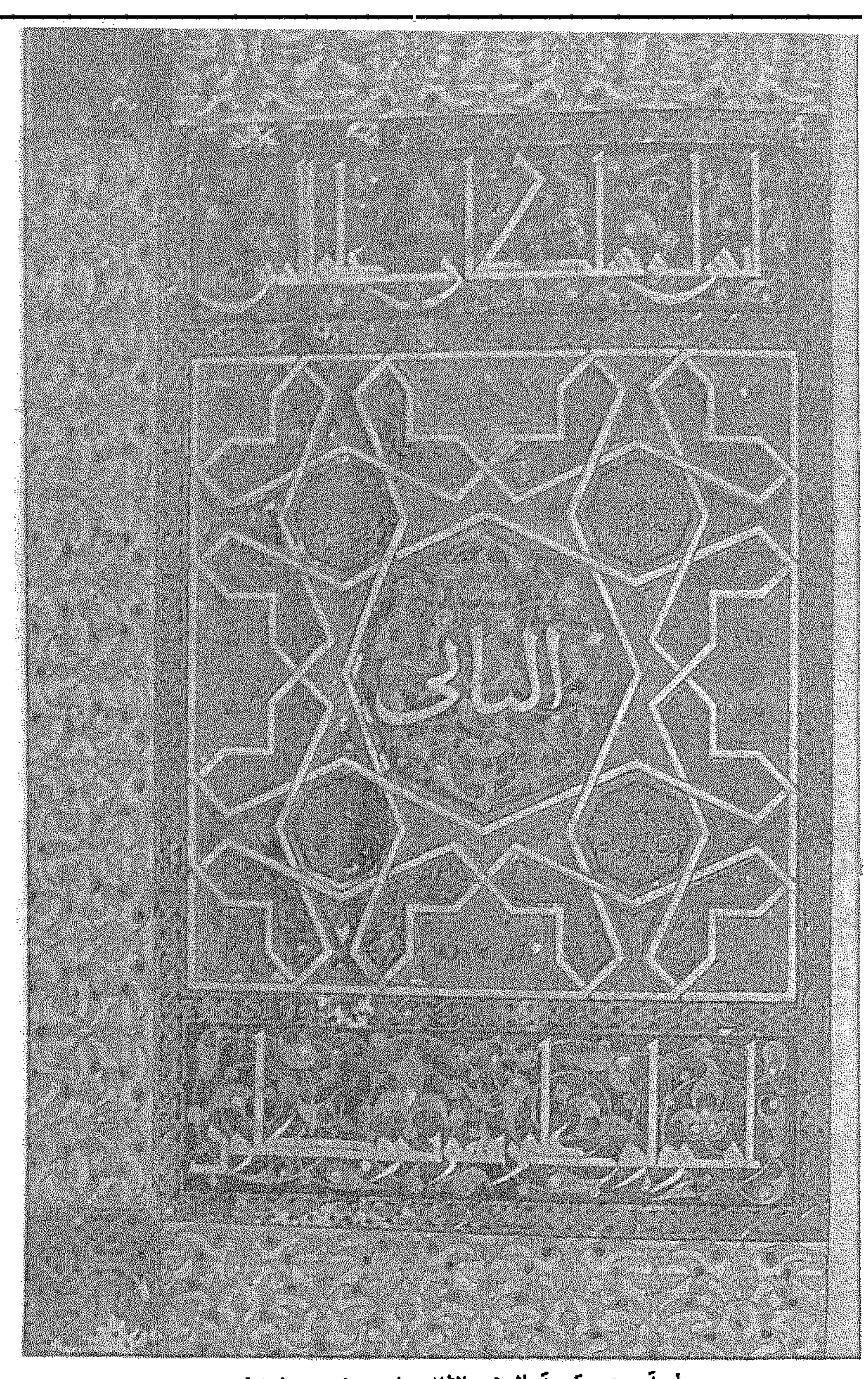
– مكتبة حليم ٤٥ رقم حفظ.

– المكتبة الزكية ٩ أرقام حفظ.

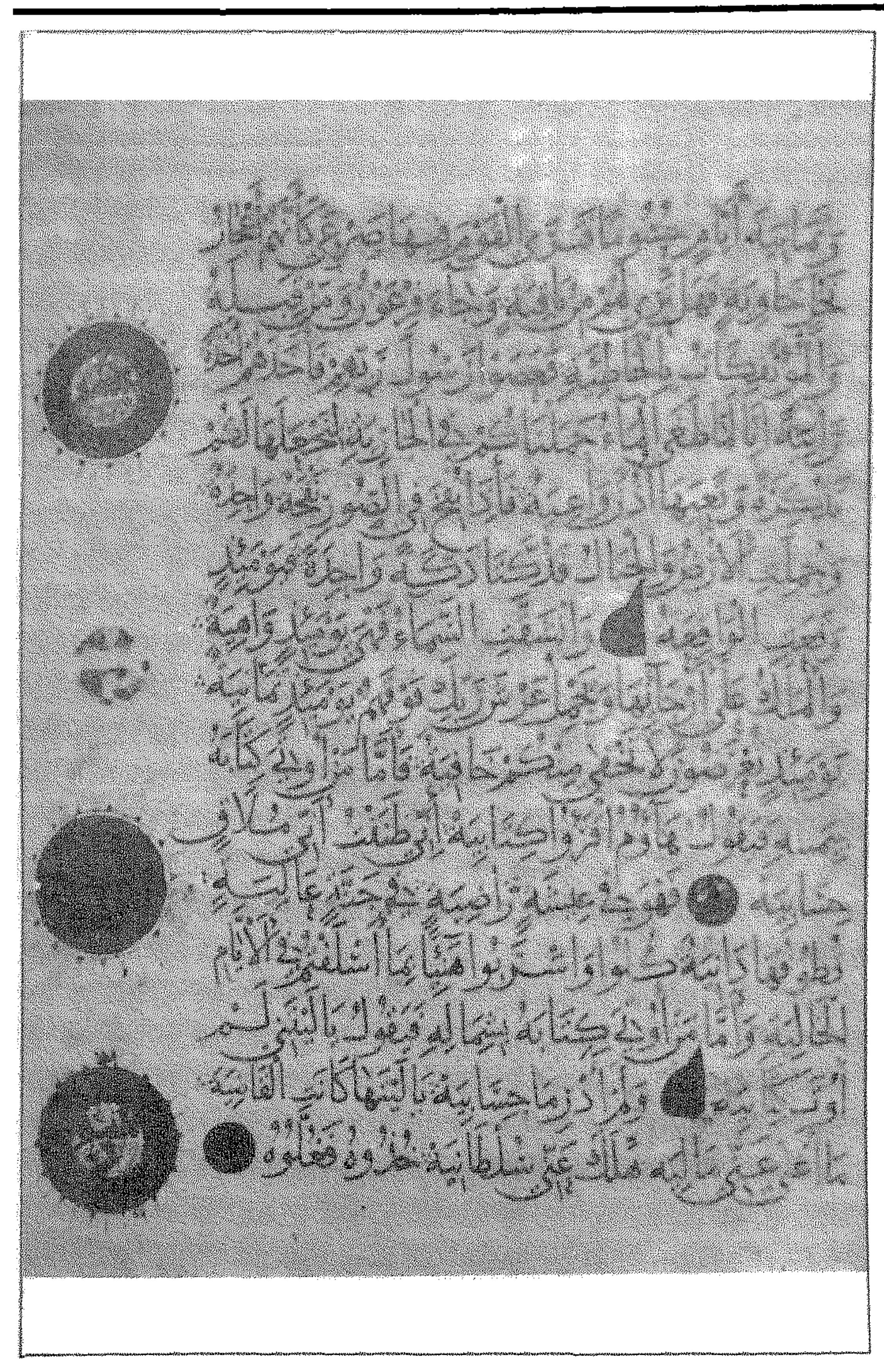
يكون المجموع الإجمالي لعدد أرقام الحفظ الموجودة في قاعدة البيانات ٣٧,١٠٦ رقم حفظ تم مراجعة ١٣,٦٠٦ رقم حفظ من بينها ، ويبقى للمراجعة ٢٣,٥٠٠ رقم حفظ بالإضافة إلى بقية الرصيد الذي لم يدخل القاعدة والذي يحتاج إلى إعداد النماذج الخاصة به ثم مراجعتها على السجلات والرف ثم إدخالها في القاعدة .



صفحة من مصحف مكتوبة بخط النسخ مع سطر بالثلث
كتبه زين العابدين بن محمد الشيرازى عام ٨٨٨ هـ



صفحة من مقدمة الجزء الثانى لمصحف بخط الثلث،
كتبه محمد بن الواحد ورسم زخارفه محمد بن مبدر عام ٧٠٤ هـ



صفحة من مصحف بالخط النسخى بعنوان الآية وعددها
بخط الثلث المذهب كتبه على بن البواب ، بغداد عام ٣٩١هـ

قواعد الوصف المطبقة

تشتمل القواعد المطبقة في توصيف المخطوطات الموجودة فى القاعدة على :

١ – تحقيق عنوان الكتاب من: «الفهرست» لابن النديم و «كشف الظنون» لحاجي خليفة و«ذيله» لإسماعيل باشا البغدادي.

٢ – تحقيق أسماء المؤلفين لتشتمل على اللقب والكنية والاسم والنسبة وتاريخي الميلاد والوفاة مع الإحالة على كتاب «الأعلام» لخير الدين الزركلي وكتاب «معجم المؤلفين» لعمر رضا كحالة وكتاب «تاريخ الأدب العربي» لكارل بروكلمان وكتاب «تاريخ التراث العربي» لفؤاد سزجين فيما يخص المؤلفين الذين عاشوا قبل عام ٤٣٠هـ .

٣ – فاتحة المخطوط وخاتمته.

٤ – الوصف المادى للمخطوط وبيان نوع الورق ونوع الخط وما به من آثار رطوبة أو أرضة وعدد الأوراق ، وإذا كان بالمخطوط أية صور ومنمنمات .

٥ – ذكر ما على صفحة غلاف المخطوط من الإجازات والتملكات والسماعات والوقفيات، وما جاء فى نهايته (Colophone) محدداً لاسم الناسخ وتاريخ النسخ.

٦ – تحديد ما إذا كان المخطوط أصلي أو مصورا أو منسوخا عن نسخة موثقة أو بخط المؤلف أو قرئ على المؤلف .. إلخ.

نواتج المشروع وإتاحتها

عند استكمال بناء القاعدة ستوفر فى قاعة المخطوطات لاستخدام المترددين وفى الأماكن التى يجب أن توجد فيها (مكاتب المسئولين – قاعات أخرى) ، كما يمكن للمشتركين الدخول على القاعدة فى نهايات طرفية تحدد طريقة استخدامها والاشتراك فيها ، كما يمكن بيع المنتج النهائى CD-ROM للمكتبات والأفراد الذين يريدون صورة من قاعدة البيانات.

علما بأنه عند إتمام هذا العمل العلمى الكبير ستتحقق لأول مرة أول قاعدة بيانات آلية للمخطوطات العربية فى مصر تضم بيانات أكثر من ٥٠٠٠٠ عنوان و ٧٠٠٠ مؤلف محققة ومراجعة ، ويمكن الإضافة إليها فيما بعد فيما يخص بيانات بقية المخطوطات الموجودة فى مكتبات مصر والتى تقدر بنحو ٦٠٠٠٠ مخطوط (الأزهر – بلدية الإسكندرية – جامعة القاهرة – المعهد الدينى بدمياط – الجامع الأحمدى بطنطا – دمنهور – مكتبة البلدية بالمنصورة – مكتبة البلدية بشبين الكوم – مكتبة رفاعة الطهطاوى بسوهاج وغيرها كثير) . كما يمكن من خلالها بعد ذلك الوصول إلى «الفهرس الشامل للمخطوطات العربية فى العالم» من خلال إضافة بيانات وأوصاف المخطوطات الأخرى الموجودة فى المكتبات العالمية وهو هدف يجب أن نسعى إليه .

ممنوع من السفر

قصة قصيرة

بقلم : شوقى عبد الحميد   بريشة : سميحة حسنين

(سألوا القمر : كيف تضىء وأنت صخرة صماء ، وكتلة من ضباب ؟! فلم تحرهم جواب)

ثمة شباك غير مرئية قد حوطتنى ، فلا فكاك ، انغرست نظراتها فى عينى فانخلعت روابط قلبى وراح يرتجف كطير ذبيح ، تيبست عضلاتى وتسمرت حركاتى

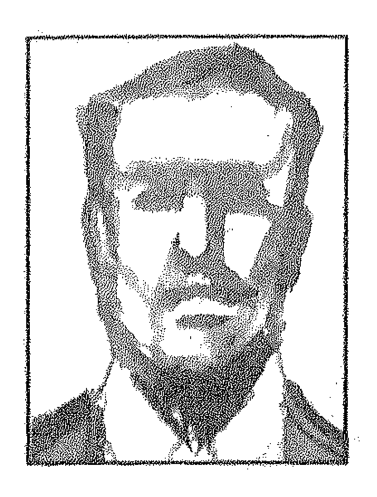
على الرغم من عشقى للجمال فى كل أنثى ، إلا أن ما انغرس فى القلب ليس بعشق ، إنه ارتباط، جاذبية أقوى من أن تقاوم ، شىء ما يذيبنى ويحلل كيانى ، شىء ثقيل الوقع قوى التأثير ينصب فى نفسى وفى جسمى ، يسرى بطيئًا دوارا فى العروق



فيزيح خدرا قد ران عليها مددا قد طالت بطول العمر، إن ما يحدث لا يمكن أن يكون ابن اللحظة ، لقد نبت فى سحيق الأيام ، ربما قبل أن أولد، توقفت حركة الزمن أمام إشعاع أنثوى متسلط، رغم الملامح الدقيقة البريئة فى وجهها، فى استدارته ونضارته ضوء القمر المفروش على أرض الشوارع الطينية فى قريتنا، فى سواد شعرها، سمرة النيل المتدفق فى مساقى



ممنوع من السفر



الفيطان بعد التشقق واللهفة، في هدوء ملامحها صمت أبو الهول في وقاره الأبدي، لا يبدو على وجهها أي أثر للمساحيق، ضوء طبيعي في عينيها يشع حميمة متدفقة لتربط وجودي بوجودها، ارتعشت شفتها السفلى في لاارادية بعد دهر من العناق والتلاقي، تصاعدت في وجودي أمواج التوق الصخابة، فكرت في انتزاع وردة من أمامها أقدمها اليها بدلا من جواز السفر، وجدتني أفكر في أن تكون ملهمة لقصتي الجديدة، من اسمها ورسمها تتفجر ينابيع الحب وتتفتح أزهار الحياة، لابد أن يكون اسمها فواحا بالنغم مثلما رسمها ضاغط بالمستعذب من الألم.

تجسد لها في نومها، رأته رأى العين، نبض ووجود بشرى، شاب مكتمل الوسامة، ينضح جسده بفورة الشباب، أطال النظر في عينيها فامتد حديث دون حديث، ابتسم لها، وجدت نفسها منجذبة اليه، استسلمت في خضوع أنثوى طفولى بين ذراعيه راح يداعب خصلات شعرها المنسابة على كتفيها، سرى دفء متناغم وخدر في عروقها، همس بالكلمة التي طالما تمنت سماعها، شعرت بنشوة وجودها، احتوتها الدنيا بذراعيه، تنبهت الى كثير الأحلام في يقظتها، لم تستطع أن تفتح عينيها على آخرها، فقد كان النور يغمر الحجرة، أخبرتها أمها أن الضوء قد غمر الكون.

همسة حانية خدشت طرف وعي: الباسبور همست بأعذب موسيقى دغدغت وجوده .. تنبهت أن المسافة بين يدى وبينها قد امتدت عشرات الأميال.

وما أن لامست جوازي حتى خيلت وجودي قد انسحب اليها، لم أشأ أن أمزق تلك الخيوط اللامرئية، أيكون القدر قد ساقها تجربة عملية ؟! ربما .. إلا أن بحثا عن دليل جديد يمكن أن يفيد في كلمتي

بـالمـؤتمـر، لـم يـكـن بالحسبـان، إلا أن الحب دائمـا قـدر يصـيب الانسان على غير توقع ، تلك حالة أعيشـها وزاد جديد أحمله كآخر ما أحمل من أشيائى الى المؤتمر ، انبثاق الجذور فى أرضـها الطبيعية ، « الحب كطاقة فاعلة فى الأدب العربى » موضوع كلمتى فى المؤتمر ، وهل هناك طاقة أكبر من تلك التى تحركنى الآن .

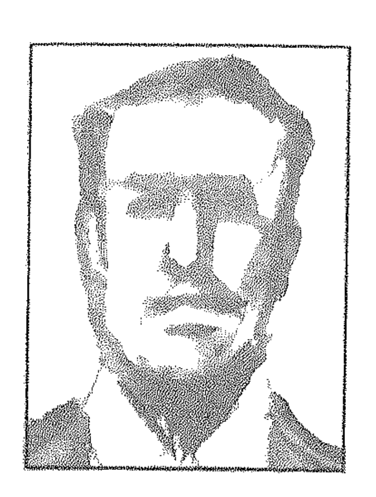
(سـألوا الشـمس : كيف تبعثين الدفء فى الشـتـاء وأنت قطعة من لهيب خلف السحاب ؟ فلم تحرهم جواب)

لابد أن الجالس الى جوارها قد لاحظ شيئا أو قرأ شيئا على صفحة وجهى ، اكتشفت تحديقه فىّ وعلامات التساؤل ترتسم على وجهه ، منقار صقر حاد المخالب تتأهب للانقضاض على فرخ حمام أخضر يتعثر فى خطوه ، محركات الطائرات فى الخارج تمزق سكون الهواء وتحرك كوامن الشجن والوله ، رغم ما قد أصبح يربطنى بالأرض ، ليتنى أستطيع اصطحابها معى فأستطيع التغلب على الجاذبية الأرضية ، حتى لو لم تكن هناك طائرات ، فلنذهب سيرا على الأقدام ، بل سعيا ، كم تكون المسافة قريبة ان نحن أخذناها جريا ، ظل ابتسامة خجول تترقرق على ثغرها تزيد اشتعال الوهج فى الجوانح، تنبهت أن مسار يدى ليس باتجاهها ، داريت خجلا وأسرعت بالجواز نحوها .

لم يكن شريف إلا مجرد زميل جديد على القسم ، وكان عليها أن تحيطه ببعض جوانب العمل التى عليه أن يتولاها نيابةً عنها بعد أن ارتقت درجة جديدة فى سلمها ، شعرت أنه كان يطيل النظر فى عينيها ، عيناه كانتا تقولان ما حاولت مقاومته ، فى البداية قاومت ذلك الذى يساورها نحو ما تقوله عيناه ، وعندما استراحت لذلك الإحساس ، ابتسمت أعماقها دون أن تشعره بشىء ، شعرت فى ذلك اليوم أنها كانت لاتزال تعيش الحلم ، وراحت تعقد المقارنات بين الشخصين حتى تطابقا .

راحت تقلب صفحات الباسبور بأناملها الرقيقة وكأنها تقلب صفحات وجودى ، تتوقف عند الاسم، تمنيت أن أقول أن هذا اسمى ، وهذا عنوانى وأنى ذاهب الى مؤتمر ..... تداعب أصابعها الرقيقة أزرار الكمبيوتر أمامها ، تستطلع الشاشة أمامها بجوار مجموعة الورود

ممنوع من السفر



الطبيعية الفواحة ، تقرأ شيئا عليه ، تعاود النظر فى الجـواز ، من جـديد تضـــــغط على أزرار الكمـبيـوتر ، من جديد تنظر الى الشاشة ، تغير مـا طرأ على وجـهـهـا ، تستـدعى الجـالس الى جـوارها ، قلق كـدبيب الـنمل يـداعب أطـراف وجـودى يضــغط أزرار الكمبيوتر القابع أمامها ، يطالع الشاشة ، يهمس اليـها ببـعض الكلمـات ، تتـجـه إلىَّ من جـديد ، تبـدلت المعـــانى فى النظرات ، غـراب ينعق على رأس شـــجـــرة ، فتـهرع أمى لتحوط على أفـراخـهـا الخـضـر ،

اكتسى وجـهـهـا الملائكى مـسـحـة قلق مـشـوب بالحزن الشفيف ، شعرت بترددها قبل أن تهمس : أســبق أن كــانت لك قضـــية ما ؟

اندلع البرق فى سماء شـتوى عاصف على ليل القـــرية ، أى نوع من القضايا تعنى ؟!

– قضية .. لم يسبق لى حـتى دخـول قـسم البـــــوليس .. إلا .. لاسـتـخـراج البطاقـة واسـتـخـراج جــواز السفر.

– ألك نـشـــــــاط محظور؟

– ولا حــتى غـيـر محظور .. ليس لى نشاط إلا عملى.

– إذن .. لماذا ..

– مــــا الحكاية ؟

أهناك شىء؟

– أنا آسـفــة .. أنت ممنوع من السفر .

ربما أكـثـر من مـائة طائرة كـانت قـد بدأت ادارة مـحـركـاتها دفـعـة واحدة ، صخب المحركات يطن فى تجـاويف عـقلى ويـرعـش أفـكـارى ، لـم أتبين على وجه الدقة ماذا قالت، أسترجع كلماتها : ماذا ، ماذا قلت ؟

– أنـت ممـنـوع مـن السفر.

خـوف مطمـور تحت ركـام الأيام ينفـجـر من القلب فتـهب أدخنة تعمى النـظر ، شـع الدفء فى جحر الحية فهبت مشرعة ذنبها فى كل ما ينبض ، فتصاعدت مرارة الصبار على ثدى أمى يوم أرادت لى الفطام فنضح صـدا وحنينا ، تناقــضت كل الأسماء مع مدلولاتها ،

لم يعد أى حُسْنٍ فى الحسن ، ولا شع عدل فى فعل عادل ، تفككت أوصال الجسد وانحلت روابطه ، أصرت الروح على الهروب بعيدا غير عابئة بتشبثاتى ، اندفع قطار العمر وطفح رشح الأيام .

– لابد أن هناك خطأ ما .

لست موقنا إن كنت قد قلت ذلك أم أن صوتى المنحاش دوما عن الخروج قد مارس معى لعبته ، عدلت من وضع الشاشة تجاهى مشيرة الى الاسم عليه .

– نعم .. هو اسمى ، نصر عادل حسن ، مصرى الجنسية ، منوفى الميلاد ولكن لابد أن شيئا ما خطأ ، ربما تشابه فى الأسماء ، لم يسبق لى أن اتهمت فى أى قضية ، وليست لى أى قضية منظورة فى المحاكم ، لم يسبق لى الاشتراك فى أى مظاهرة ، أيكون أحد الوشاة قد زج باسمى فى شيء ؟!

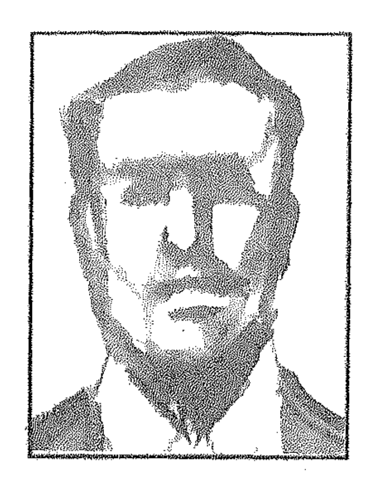
لم يكن الحصول على موافقة الجريدة بالاشتراك فى المؤتمر بالشيء الهين ، معركة شرسة تلك التى خرجت منها بالموافقة ، قدمت أوراقى وشفعت سوابق أعمالى ، بحث وسهر وتعب ، فقط أحببت عملى، عشقت الصحافة ، رضيتها لى زوجة وأسرة، آمنت أن الحب عطاء ، والعمل بالحب أفضل عطاء ، آمنت أن الحب يصنع المعجزات ، رأيت الحب طريق الإجادة ، ولما كان الآخرون يؤدون الواجب ، أيقنت أن هناك اختلافا ، لم أسع لاثبات أحقيتى ، ولم تكن الموافقة مفاجأة لى ، رغم أنها كانت مفاجأة للآخرين . لكن .. لماذا ممنوع من السفر ؟

رغم أنى كنت مقتنعا بما كانت تقوم من أجله مظاهرات الطلبة ، إلا أننى لم أكن أرى أن المظاهرات هى الطريقة المثلى ، ورغم بعض الانتقادات التى كنت أضمنها بعض كتاباتى بالجريدة ، إلا أنى لم أكن أصل الى درجة الخطر ، كان الصالح هدفى ، فلماذا ممنوع من السفر ؟!

طلبت منى الانتظار لعرض الأمر على المسئولين .

ولم تكن تدرى أنه يتسرب الى وجودها بهذه النعومة القاسية ، حاولت أن تتهرب من أحاسيسها فكانت تستبين أنه ينغمس الى قاع وجودها ، آلمها أنها لم تعد تتنفس إلا برئتيه ولا تشعر إلا بوجوده ، فأصبح حضوره ضاغطا وغيابه قاهرا ، إلا أنها لم تستسلم لفكرة البدء بالبوح ، عليها فقط أن

ممنوع من السفر



تمنحه الفرصة ، أن تضيء الشمعة وتدعه يخطو ، وعندها لن تمانع ولن تقاوم ، فقط عليه أن يبدأ .

(سألوا الأرض : كيف تنبت عليك الزهور والخضرة. وأنت حبلى باللهيب تحت التراب ؟ فلم تحرهم جواب)

الأمر لا يمكن إلا أن يكون مجرد تشابه في الأسماء ، ولكن ما الوسيلة لإثبات ذلك الآن، الآن فقط ، إنها أول مرة أحلق فيها في الأعالي ، لم يسبق لي ركوب طائرة من أي نوع ، الانفتاح على العالم الخارجي ، الاحتكاك بالآخرين عرض وجهة نظري في أحب الموضوعات الى نفسي كيف يمكن أن ينهار الحلم في اللحظة الأخيرة

إقلاع الطائرة لم يعد بيني وبينه إلا لحظات .. لماذا يا أبي اخترت لي هذا الاسم ؟ الآن فقط أشعر أنه لم يكن اسما بقدر ما كان إثما .. سامحك الله يا أبي ، أي نصر كنت تعنيه والهزيمة والانسحاق يزعزعان كياني .

– كان يحب ركوب التيار .

قالت أمي وقد اعتصرتها المرارة .

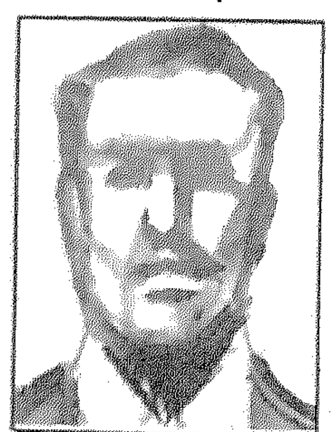
– كان كل شيء يسمى كذلك عندما أتيت، شارع النصر ، ميدان النصر ، بحيرة النصر ، شركة النصر .. وكان يطمح في الكثير ، كان ينظر الى أعلى من قامته، ولم يكن يفكر إلا في ذاته، وكم كان يعتصرني الألم وأنت تصرخ من الجوع بعد أن أرغمني على وضع الصبار على ثديي عندما أراد فطامك ولم تتجاوز بعد الشهور ، فلم يكن يريد لثديي أن يترهل .

لم أقل لأمي أني أعلم ذلك يا أمي وأشعر بثقله الضاغط على أنفاسي ، يوم أن فكر في ملاعبتي، لم يجعل من نفسه حمارا أمتطيه مثلما يفعل الآباء، بل تخيلني أنا الحمار وهم بامتطائي بلحمه المترهل ، يومها صرخت يا أمي ، خفت أن يقتلني ثقله ، ورغم ذلك أحببته ، ألم يكن أبي ، إلا تلك

اللطمة على وجهى - مازلت أشعر بوقعها - يوم أن بكيت ليأخذنى فى سفره الى القاهرة ، كنت أريد أن أركب القطار ، كنت أريد أن أرى القاهرة .

طنين المحركات يحطم رأسى ، عشرات الطائرات تحلق فوق البناية .

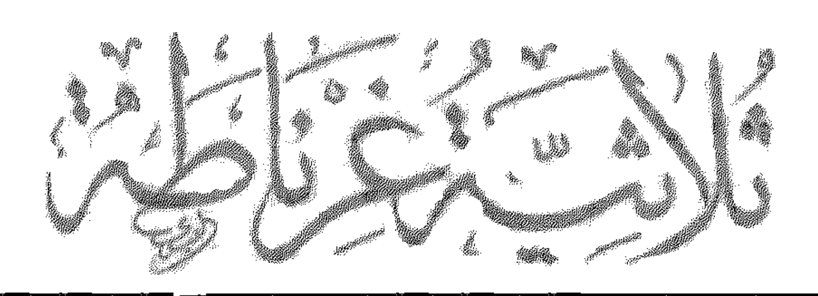
قبل ذلك لم تكن تحب النوم، بل كانت تتهرب منه ، لا تبحث عنه إلا إن بحث عنها ، كثيرا ما كانت تستيقظ مفزوعة أو متألمة أو باكية ، وكم فزعت أمها كى توقظها من نومها بعد أن يكون صوت صراخها أو بكائها قد جاوز الحجرة ، إلا أن الأمر اختلف ، أصبح النوم موعد اللقاء ، موعد الأمل الذى طالما انتظرته، استلقت على سريرها باحثة عنه ، وكم تحولت أحلامها حقيقة حتى أصبحت تنتظر فى الحقيقة ما قد رأته فى المنام ، تداخلت عندها العوالم حتى لم تعد تميز أيهما الذى يحدث ، الحلم أم الحقيقة .. سألتها أمها يوما عما إذا كانت تسير وهى نائمة ، أم نائمة وهى تسير ؟ انخلع قلبها لرنين التليفون المفاجىء ، انتشلها من ذلك القرار الغارقة فيه ، ترددت فى رفع السماعة لم تسارع أمها فى التقاط التليفون كما اعتادت ، ترددت أصداء أنات التليفون ، أمها لا ترد ، فى خدر لاإرادى رفعت سماعة التليفون ، لم تنطق بكلمة ، سمعت صوته على الجانب الآخر، لم تصدق أنه هو،



اعتذر لاضطراره الاتصال ، ولكن الأمر عاجل ، أخبرها أن اعتذارا لابد أن يقدمه لها لعدم تمكنه من الحضور الى العمل صباح الغد ، تحتم عليه الذهاب لإنهاء بعض اجراءات السفر لمرافقة زوجته ، لا تذكر أنها نطقت شيئا ، ولم تتبين أحقيقة وضعت السماعة فى مكانها أم لا ؟.

أصوات محركات الطائرات تتزايد فى مظاهرة صاخبة والوقت يمر بطيئا .. بطيئا ..

أجهدت نفسها فى الوقوف على الحد الفاصل بين الحقيقة والحلم .. أكان حلما ما حدث أم أنها حقيقة ، كل ما تذكره أنها هذه المرة لم تبك ولم تصرخ ، فقط شعرت أن دمعتين تدحرجتا الى أسفل حتى لامستا شفتها العليا وأن لهما مذاق الملح .



تأليف الدكتورة رضوى عاشور

عرض وتعليق: د. أحمد عبد الرحيم مصطفى

ثمة خيط رفيع بين التاريخ history وبين القصة story ولو أن التاريخ يقوم على حقائق ثابتة لابد للكاتب أن يلتزم بسياقها دون أن يسرح الخيال بعيدا باستثناء ما يعمد اليه من إعادة تركيب الأحداث وتحريك الأشخاص واستبطان تفكيرهم ودوافعهم. والمؤرخ لابد له من الالتزام بمنهج صارم يفرض عليه ألا يقحم نفسه كطرف فى العرض إلا بمقدار ما يكفى لاسترجاع ما سبق حدوثه دون إمعان فى الخيال ، وقد يختلف مؤرخ عن آخر حسب نوعية المادة التاريخية التى يستقيها من مظانها الفعلية ومدى تمرسه فى علم التاريخ وقدرته على استرجاع الأحداث وقت حدوثها .

وثمة صلة بين الأدب والتاريخ بحسب أسلوب المؤرخ الذى نستشف من كتابته مدى ثقافته وتمرسه فى الكتابة - فهناك من يملك ناصية اللغة والكتابة بأسلوب شيق يختلف عن ذلك النوع من السرد الذى يبعث على الملل . وفى مصر الحديثة اكتسب بعض المؤرخين شهرتهم نتيجة لدقتهم العملية وأساليبهم الجذابة - ومن هؤلاء محمد شفيق غربال وطه حسين ومحمد حسين هيكل واضرابهم ممن اختلفوا عمن عمدوا إلى حشد الأحداث وكأنهم يرصون أحجارا غير متناسقة دون إطار فنى - هذا فى الوقت الذى لمع فيه كتاب آخرون فى كتابة القصص التاريخية التى هى أحيانا أكثر جاذبية من التاريخ التقليدى - ومن هؤلاء كاتبنا الكبير نجيب



رضوى عاشور

محفوظ الذى أولع بالتاريخ منذ شبابه المبكر فألف «كفاح طيبة» و«رادوبيس» وغير ذلك ثم مالبث أن دلف إلى القصص الطويلة التى اختلط فيها خياله بأحداث حقيقية ولعل من أبرز أعماله الثلاثية التى تناولت بعض قطاعات المجتمع المصرى فى أعقاب ثورة ١٩١٩ التى كانت من أبرز معالم تاريخ مصر المعاصر . أما توفيق الحكيم وقد كتب قصة «عودة الروح» التى بدا فيها حسه الوطنى واستلهامه لمصر القديمة التى كانت قد غطت عليها التبعية الطويلة للحكم الأجنبى الذى تغيرت خلاله دياناتها ولذاتها أكثر من مرة ـ وقد عبر عن ذلك بتتبعه للثوابت فى تاريخ مصر عبر العصور برغم التغيرات التى طرأت عليها بحيث بقيت للبلاد استمرارية تراثها الشعبى وبعض عاداتها وأفكارها القديمة التى كانت تحفظ ملامح شخصيتها وتتجلى فى انتفاضاتها ضد الحكم الأجنبى ، وهكذا بدأت تبرز فى مصر القصص التاريخية التى تختلف عن النماذج الفولكلورية التقليدية التى نمت فى الفكر المصرى عبر العصور غرناطة وبقصص الحكيم ومحفوظ بدأت مصر إسهامها فى القص التاريخى الذى يضاهى مايقابله فى الآداب الغربية التى برز فيها كتاب كبار من أمثال ليوتولستوى فى روسيا وتشارلز ديكنز وغيرهما فى إنجلترا ـ وهكذا .

● حضارة الإسلام في الأندلس

قد اتحفتنا الدكتورة رضوى عاشور مؤخرا بثلاثيتها التى استوحت فيها الفترة التاريخية التى تلت سقوط غرناطة فى عام ١٤٩٢ فى أيدى الأسبان الذين لايزالون يعتبرون ذلك «استرداداً» بعد القضاء على الحكم الإسلامى الذى استمر لعدة قرون أسهم خلالها المسلمون فى صنع الحضارة التى مالبث أن أنارت لأوروبا بعض بدايات نهضتها الحديثة ، وقد عانى المسلمون فى أعقاب سقوط غرناطة ضغوطاً كثيرة

انتهت بطردهم أو تغيير دينهم وذلك نتيجة للإجراءات العنيفة التى اتبعها المنتصرون الذين مالبثوا أن عمدوا إلى التخلص من كل ماهو عربى ـ إسلامى بأساليب غير حضارية ، وقد رجعت الدكتورة رضوى إلى بعض المؤلفات العربية والإنجليزية والفرنسية التى تتناول الفترة الزمنية التى شكلت إطارا للأحداث التى روتها مما أضفى على ثلاثيتها طلاوة ناتجة عن خلط التاريخ بالأحداث التى ترويها قصتها فى تسلسل مزجت فيه ما حدث بخيالها الروائى ونفسها الطويل بحيث ترابطت الأحداث وتسلسلت فى أسلوب جذاب وحبكة فنية رائعة .

ولقد أثرى التزام المؤلفة بالإطار التاريخى عرضها وجعله ينبض بالحياة وخاصة فيما يتعلق بالعناء الذى لحق بالمسلمين بعد سقوط غرناطة ، ورغم ذلك فقد كان الملكان الكاثوليكيان (فرديناند وإيزابلا) لايمانعان فى البداية فى بقاء المسلمين فى أراضيهم ومواصلتهم العمل فى المدن وذلك حرصا منهما على الإبقاء على شبكات الرى والأسواق وغير ذلك ومن ثم فإن العهد الجديد قد تعهد بعدم المساس بالمنشآت الدينية الإسلامية والمؤسسات الاقتصادية التى تتولى الإنفاق عليها ، كما بقى الأذان للصلاة فى غرناطة فى الوقت الذى تعهد فيه «الملكان الكاثوليكيان» بوجوب تطبيق الشريعة الإسلامية على المسلمين وأمرا بتخفيف الضرائب وإبداء الاحترام الشديد للحقوق الشخصية وحرمة المنازل واحترام الملكية الخاصة والمحافظة على الإدارة المحلية فى الوقت الذى جرى فيه التنبيه على المسيحيين بعدم دخول المساجد دون إذن ، وكل ذلك فى مقابل احترام المسلمين للسلطة الجديدة واعترافهم بسلطة الملكية الكاثوليكية ، ورغم ذلك فمالبث التاج أن شجع الهجرة إلى شمالى إفريقيا فى الوقت الذى جرى فيه عرض الديانة الكاثوليكية على المسلمين، وكان هذا التحول فى السياسة الأسبانية الرسمية راجعا إلى تعصب بعض رجال السلطة المسيحية وحصول المسلمين على حلفاء أقوياء فى الدولة العثمانية التى مالبثت أن برزت باعتبارها القوة الإسلامية الرئيسية التى استولت على الشام ومصر وشرقى أوروبا ووصلت إلى شمالى أفريقيا وأنزلت أسطولا مرهوب الجانب فى البحر المتوسط الذى احتل فيه البحارة المسلمون مواقع مهمة تهدد الملاحة الأسبانية ، وكان البحارة المسلمون الذين اعترفوا بتبعيتهم للدولة العثمانية التى رعت نشاطهم قد أخذوا ينقلون المهاجرين المسلمين من الأندلس بعد أن ألهم خروجهم من بلادهم ومن ثم تحولهم إلى الجهاد وبخاصة بعد ظهور قيادة محنكة لهم تمثلت فى الأخوة برباروسا الذين قام أشهرهم خير الدين بحملات موفقة على الشواطىء الأسبانية التى دب فى سكانها الرعب ، وبمرور الزمن فرض على من تبقى من المسلمين فى غرناطة أن يسلموا أسلحتهم وحظر عليهم الاتصال بإخوتهم المقيمين على الجانب الآخر من الحدود .

● قهر المسلمين فى أسبانيا !

ولقد أدى هذا الوضع الجديد إلى إمعان التاج فى تنصير المسلمين مما أدى إلى استياء من تبقى منهم ورفعهم لواء الثورة منذ البداية فى عامي ١٤٩٩ و١٥٠٢ ثم بعد ذلك ، وعرض التاج على الجماعة الإسلامية أن على كل من يرغبون فى مبارحة أسبانيا أن يسلموا أبناءهم الذين تقل أعمارهم عن ١٤ سنة والبنات اللاتي تقل أعمارهن عن ١٢ سنة .

وعلى حين أن غالبية المسلمين اضطروا إلى التخلى عن ديانتهم بسبب صعوبة الحياة فى شمال أفريقيا فإن الغرناطيين طلبوا مساعدة إخوتهم فى الدين فى الشرق وبخاصة من جانب الدولة العثمانية خاصة وأنه على أثر سقوط غرناطة حرم استعمال الحمام العام والاحتفال بالزواج والختان والمحافظة سرا على تناول الطعام على الطريقة الإسلامية ، كما حرم ارتداء الملابس التى لا يرتديها المسيحيون القدامى، وفى عام ١٥١٤ صدر أمر يقضى بأن يجرى زواج المسلمين على الطريقة المسيحية وأن يتجنبوا تسخين الحمامات فى أيام الجمعة وأن يفتحوا أبواب بيوتهم فى أيام معينة وأن يقصوا شعورهم على الطريقة المسيحية وأن تكف نساؤهم عن ارتداء الحجاب وأن يكفوا هم عن الاحتفال بالأعياد وحفلات الزواج على الطريقة الإسلامية ، وحولت المساجد إلى كنائس وأرغم المسلمون الذين تنصروا على حضور الصلوات المسيحية ، وفى عام ١٥٢٥ صدر أمر قضى بأن يطرد من أسبانيا كل المسلمين باستثناء العبيد ، وكان من أسباب هذه الاجراءات المتشددة الخوف من أن ينضم بقايا المسلمين إلى أعداء التاج و «قراصنة» شمال أفريقيا والعثمانيين بالاضافة إلى البروتستانت وأن تقوم جميع هذه الأطراف بتهديد أسبانيا داخليا وخارجيا ، وكان على رأس قائمة الأخطاء الاجتماعية التى اتهم بها المسلمون ملابسهم ولغتهم خاصة أن نساء من تحولوا إلى المسيحية وسكان الأرياف ظللن ، لأسباب اجتماعية واقتصادية يرتدين ملابس المسلمين فى الوقت الذى كان فيه المسلمون السابقون قد فقدوا القدرة على التحدث باللغة العربية وأصبحوا عاجزين عن نطق لهجة قشتالة على الوجه الصحيح وكان أغلبهم لايزالون متمسكين بالعادات الغذائية الإسلامية فلا يأكلون لحم الخنزير ولايشربون النبيذ ، وفى النهاية أصدر فيليب الثالث فى عام ١٦٠٩ أمره بطرد بقايا المسلمين وأشرف مندوبو التاج على هجرة حوالى ٢٧٥.٠٠٠ من بقايا المسلمين من مجموع أعدادهم التى بلغت ٣٠٠.٠٠٠ نسمة ، وقبل ذلك صدر فى عام ١٥٦٧ قانون يستهدف التخلص النهائى من الاختلافات القائمة بين المسيحيين القدامى والمسيحيين الجدد ، ونص هذا القانون على إنهاء التكلم باللغة العربية وقراءتها خلال ثلاث سنوات وإلغاء كل العقود المكتوبة بالعربية وفحص الكتب المكتوبة بها للتأكد من عدم احتوائها على مايمس العقيدة المسيحية ،

وحرم القانون الطلاق والزواج الرسمى وتوقيع العقاب على من لا يلبون ذلك الأمر.

● ثورة المسلمين

وإزاء كل ذلك قام بقايا المسلمين فى غرناطة فى عام ١٥٦٨ بالثورة ضد ما اعتبروه حملة جديدة تستهدف فرض التماثل الثقافى ، وأعلن الثوار بدء عصر جديد تسوده الفضيلة فى ظل الإسلام ثم طلبوا من مسلمى حى البايسين فى غرناطة أن يرفعوا لواء الثورة ضد ظالميهم، وتسربت أنباء الثورة إلى منطقة البشارات حيث انضم سكان الجبال إلى صفوف الثوار ، ورغم قلة أهمية ثورة بقايا المسلمين من الناحية العسكرية فإن عنفها كان يدل على الهوة الثقافية التى كانت تفصل بين الشعبين ، وفى إبان الثورة أعدم رجال الدين المسيحيون المنتمون إلى أسر كانت مسلمة ودمرت الكنائس وأبدى الثوار عدم احترامهم للمسيحية الكاثولكية وقتل الأسرى الذين بيع بعضهم فى أسواق النخاسة ، ورد رجال الدين المسيحيون بتنفيذ حكم الإعدام فى الرهائن المسلمين واستولوا على أملاك من تحولوا إلى المسيحية ، ولم تستمر ثورة البايسين فترة طويلة خاصة وأن أسبانيا قد أصبحت بعد طرد المسلمين فى طليعة الدول الأوروبية من الوجهة العسكرية بحيث لم تجد صعوبة فى سحق الثورة خاصة أن نسيج المجتمع الإسلامى كان قد تمزق نتيجة للضغوط التى تعرض لها من تبقى من المسلمين الذين انهارت معنوياتهم بالتدريج بحيث لم يبق لهم سوى أمل واحد فى الخلاص من أوضاعهم السيئة ـ فقد ابتهجوا حين وصلتهم أخبار تحطم الأسطول الأسبانى الذى أعد لغزو بريطانيا البروتستانتية. وتبرز المؤلفة بأسلوب واقعى مدى ظلم الإنسان للإنسان، وتذكر على لسان حاج مسلم إلى القدس أن بها نصارى من أهل البلاد ويتساءل عن السبب فى فرض التنصير على المسلمين ، وفى موضع آخر تستعرض المؤلفة بعض نشاطات محاكم التفتيش ذات السمعة السيئة وتروى اتهام «سليمة» بالسحر ومصادقة الشياطين واضطرار المسلمين أن يخبئوا كتبهم فى أماكن سرية حتى لاتكون مثار اتهام لمن تضبط معه . وروت أن المحققين حاولوا إثبات ارتداد سليمة وأنها رغم التعميد الذى فرض عليها ، كما فرض على من لم يبارح أسبانيا من المسلمين ، كانت لاتزال تدين بالإسلام وتعترف بالنبى محمد (صلى الله عليه وسلم) بحيث كانت عقوبتها الموت حرقا . وتصور المؤلفة مدى سرور مسلمى الأندلس حين وصلتهم أنباء تحطيم «الأرمادا» الأسبانية التى أعدت لغزو بريطانيا ولو أن ذلك كان ناتجا عن بسالة الإنجليز والدفاع عن بلادهم فى الوقت الذى هبت فيه ريح صرصر عاتية لعبت دورها فى ارتداد قوات الغزو الأسبانية . وصورت المؤلفة مدى تعلق بقية مسلمى غرناطة بالأمل فى أن يساعدهم الأتراك والفرنسيون فى تشكيل حلف ضد أعدائهم المشتركين فى الوقت الذى نشبت فيه الثورة فى

البشارات وأخذ المسلمون يجمعون مايستطيعون من المال والسلاح ويرسلونه سراً إلى الثوار وداعبهم الأمل في قيام حلف مشترك يضم الأتراك (١) والفرنسيين والإنجليز وغيرهم من البروتستانت ضد أسبانيا .

● تطابق مع السياق التاريخى

وبين هذا وذاك تعرض المؤلفة لتفاصيل بعض الأحداث المهمة بشكل يكاد يتطابق مع السياق التاريخي ومن ذلك تصويرها لمدى سرور مسلمي الأندلس حيث وصلتهم أنباء هزيمة الأرمادا.

كما أن واقعيتها جعلتها تمعن في وصف شوارع ومعالم مدينة غرناطة القديمة وكأنها زارتها وتجولت في أحيائها، وكذلك الحال بالنسبة إلى العادات والتقاليد السائدة في المدينة حتى بعد سقوطها في أيدي الأعداء ، أضف إلى ذلك عرضها لمعاناة المسلمين تحت الحكم المسيحي وألوان المظالم التى حلت بهم إلى أن أرغموا على الهجرة أو تغيير دينهم وعاداتهم .

وفي مواضع تصور المؤلفة مأساة من بقوا في أسبانيا مضطرين في ظل الإجراءات المشددة التى اتخذتها حكومة المتنصرين ، وخضوع بقايا المسلمين للتشتت والرقابة والتفرقة المنصرية وتظاهرهم بما لايؤمنون به وإخفاء هويتهم بحيث أصبحت لهم شخصية مزدوجة وقد بدا ذلك في سلوك مريمة التى اضطرت إلى البقاء ، والتخلى عن كل ماهو عزيز لديها وشأنها في ذلك شأن من تعرضوا لظروف مشابهة سواء أكانوا من أبناء فلسطين أو من البوسنيين والشيشان وقبلهم الهنود الحمر الذي أبيدوا على أيدى الغزاة الأجانب الذين وفدوا إلى بلادهم بعد كشف الأمريكيتين ، فهل يعنى هذا أن التاريخ يعيد نفسه وأن الويل للمغلوب ؟ وتتساءل المؤلفة عن العلاقة بين وجه المسيح الشاحب والرأس المائل بتاج الشوك وما كان يتحمله بقايا المسلمين من عذاب وعن الرابطة التى تربط الجسد العارى النحيل لمسيح تبكيه أمه **بالأسياد وملاك الأرض والضرائب والمكوس والملل وديوان التحقيق ؟ وهل معني ذلك أن رسالات الأديان قد غطت عليها الشهوات والأحقاد والأنانية ؟ إن الأمل الذي يتراءي لنا بعد مطالعة ثلاثية الدكتورة رضوي هو بزوغ عصر جديد تخفف فيها الشعوب من أحقادها وتضغط علي أطماعها وتتعاون مع غيرها في سبيل إسعاد الإنسان أينما يكون - فهل هذا ببعيد ؟!**

---

(١) عثرت على وثيقة بريطانية تحتوى على خطاب من الملكة اليزابيث إلى السلطان العثمانى تطلب منه أن يساعدها فى مواجهة القوات الأسبانية التى تصدت لغزو بريطانيا وأشارت إلى أن الأتراك موحدون شأنهم شأن الإنجليز وأن هؤلاء أقرب إلى الله من كاثوليك أسبانيا ، ولم يتمخض هذا العرض عن شيء بسبب مشاغل الدولة العثمانية وبعد المسافة بينها وبين إنجلترا .

الهلال

فى العدد القادم

قراءة فى كف مصر والعالم فى القرن الحادى والعشرين

عدد خاص يصدره الهلال
يشارك فى تحريره نخبة من كبار المفكرين والكتاب

●● مصر فى القرن الحادى والعشرين — د . رشدى سعيد

●● جدول أعمال القرن الحادى والعشرين

التعليم والحرية والتطوير العلمى — د . محمد عبد الفتاح القصاص

●● الكيانات الضعيفة لا مكان لها فى القرن القادم

د . اسماعيل صبرى عبد الله

●● البصمة الوراثية والمستقبل — د . أحمد مستجير

●● علم الإنسان فى عالم متغير — د . أحمد أبو زيد

●● العالم فى القرن القادم ثورة ونظام — د . عبد المنعم تليمه

فى العدد القادم

التكوين : يكتبه الدكتور يحيى الجمل حول رحلته مع الثقافة منذ بداياته الأولى

عالم يشار كمال

قضية الهوية .. فى تركيا

بقلم : محمود قاسم

رغم ان المقاعد الوزارية قد تم توزيعها فى تركيا فى الأسابيع الأخيرة، فإنك بمجرد نظرة واحدة لنشرة الأخبار فى أى قناة تركية يمكنك أن تفهم أن المنافسات السياسية على أشدها.

وقد بدا ذلك واضحا فى النشاط المكثف الذى يقوم به أبناء كل القوى السياسية .

ووسط هذا الفيضان من التغيير، والمنافسة، كان لابد من طرح السؤال التالى: وماذا عن دور الأدب فى هذا العالم؟ وهل صحيح أن أدباء تركيا يتفرجون على التغييرات دون إبداء أى رأى فى هذا الشأن..؟

بدت إجابة هذه الأسئلة وغيرها مبهمة، فرغم ان لدينا أقساما لتدريس اللغة التركية وآدابها فى الجامعات المصرية، ورغم وجود عدد كبير من الطلاب الأتراك يدرسون فى العديد من جامعاتنا، فإن كل هذا الوجود يبدو كأنه يمثل حائط انفصال أكثر منه أداة للاتصال.

وفى الأسابيع الأخيرة دخلت تركيا فى

دائرة اخرى من دوائر الاهتمام، عقب زيارة الرئيس سليمان ديميريل، والحديث عن أزمة المياه القادمة، ثم هناك حديث عن تحالفات جديدة. مما يدفع المرء أكثر للحديث عن نموذج من أدباء ذلك البلد؟

فجأة، اكتشفنا ان ما يكتب عن الأدباء الأتراك المعاصرين فى بلد مثل فرنسا، وأيضا ما ترجم من هذا الأدب إلى لغات أوربا، يعادل أضعاف ما ينشر عن الإبداع التركى باللغة العربية . بل اننا فى مصر لم نقترب كثيرا، من أدب عزيز نسيم، ويشار كمال، وآخرين..

ففى الأشهر الأخيرة، تسلطت الأضواء على يشار كمال، بمناسبة الحديث عن نمو الهوية الكردية فى شمال العراق، وجنوب تركيا، ومحاولة خلق دولة مستقلة للأكراد. وذلك باعتبار انه كاتب كردى يحمل الجنسية التركية، وأكدت الصحافة الأدبية الفرنسية ان يشار كمال من المنادين بانفصال المنطقة الكردية عن تركيا، منذ أن نشر روايته الأولى «محمد الهزيل» عام ١٩٥٦. ثم بعد أن تم حبسه لعدة أشهر عقب ان نشر مقالا فى مجلة «ديرشبيجل» الألمانية ناصر فيها الحركة الانفصالية التركية.

ففى العام الماضى ، وقف يشار كمال فى ساحة محكمة أمن الدولة بأنقرة، وقال أمام القاضى : «أنا لا أقبل سوى محاكمات الشعب . الشعب والوطن. وليس المحاكمات الاستثنائية». وسرعان ما سأله القاضى : هل تسير على منوال اميل زولا؟

فرد يشار كمال : لا طبعا . لقد عاش زولا فى نهاية القرن التاسع عشر. أما أنا فأدافع عن الحرية، فى نهاية القرن العشرين.

وكان القاضى، بالطبع يقصد دفاع زولا عن الضابط دريفوس. ليس باعتباره متهما بريئا قدر أن يمثل هوية قومية جعلت من الاتهامات تلقى عليه ظلما.

● أسطورة الآخرين

لا شك ان ما حدث قد أحدث الكثير من ردود الفعل المحلية، خاصة لدى الانفصاليين الاكراد وراح هؤلاء يرددون عبارات الكاتب فى المحكمة باعتبارها من الأقاويل المقدسة. فقد حاول يشار كمال ألا يخسر قراءه الأتراك الذين اعتبروه واحداً منهم، يعبر عن معاناتهم، ويعيش بينهم دون أن تتنامى لديه، فى الظاهر، مسألة الحس القومى الكردى الذى تعاظم فى السنوات الأخيرة.

وإذا فان يشار كمال سرعان ما أعلن انه قصد بموقفه انه يحمل على الحكومات التركية المتعاقبة مواقفها ضد أبناء الشعب من الأتراك والأكراد معا. «سبعون عاما من القهر، والقهر الحكومى ضد الشعبين

عالم يشار كمال

التـركى والكردى». ثم أضـــاف : «لقـــد أصبحت الجمهورية التركية نظاما لايطاق بالمرة».

يشـار كـمـال هو أحـد أدباء تركـيـا المعاصرين الذين لم تتم قراءتهم جيداً فى اللغـة العـربيـة، رغم ان بعض أعـمـاله مترجمة لدى دور النشر اللبنانية. فإنها لم تصل إلى القارىء فى مصـر. وهو مـواود عام ١٩٢٢ فى منطقة «سيليسى» الكردية، حيث تسـود زراعة القطن، وحيث يسيطر الاقطاعيون على مقدرات الحياة اليومية للفلاحين.

وحسب مجلة «لونوفيل أوبسرفاتور» فـان يشـار «واسـمـه الحقـيـقى هو كـمـال صادق جو كشيلى، قد فقد عينه اليمنى، وهو فى الثالثة من عمره على يد خاله فى عيد الأضحى. وكان فى الرابعة من عمره عندما مـات أبوه بأزمة قلبية أثناء صلاته فى المسـجـد. فـعـرف اليـتم وتعلم البكاء والألم فى سن مبكرة.

وتقع الأرض التى ولد فيها الكاتب بين مرتفـعات طاروس والبحر المتوسط، وإلى هذه المنطقـة وفـدت قـومـيـات عديدة من التركمان والمغول والقوقاز، وينتمى كمال إلى قـبيلة كردية بهـا الأغنيـاء والفـقـراء والمحاربون، والخارجون على القانون، وقد أحس الكاتب الذى عاش طفولتـه بين هذا العالم ان قلبه بمثابة مسرح مأساوى تهب عليه رياح التاريخ والعرقية، والمذابح. وقد رأى أحد أعمامه يموت على أيدى رجال الشـرطة وقـتل العم الآخـر فى احـدى المعـارك. ودخل الكثـيـر من أبناء الأسـرة السـجن، ويقـول انه شـاهـد كـيف يموت الرجال فى كبرياء، وكيف ينسج الآخرون اسطورة يتردد صداها من بيت لآخر.

وشاهد الصغير المطربين يأتون لغناء أناشيد البطولة فى داره، ومن هؤلاء تعلم كيف يكون الشعر جميلا، فبدأ يقرأ الياذة هومـيـروس. وتعلم الغناء مـثل المطربين، فاستمع إليه الآخرون، واستعذبوا صوته، وكلماته، وصار شاعراً وهو فى الثامنة من عمـره. خـاصـة بعـد ان اكـتـشف سـحـر الحروف الهجائية.

كان يشار يعمل فى المساء فى مصنع لحلج الأقطان. وفى النهار يقرأ الروايات، وتوقف عند رواية «الضـــئـــيل» للكاتب الفـرنسى الفـونس دوديه، وذلك من خلال ابن الكاتب الذى جاء إلى القرية الصغيرة التى يسكن فيـهـا يشـار، وأقـام مصنعا للحلج. وقد عرف من شارل-دوديه ان أباه كان مغرما بالحكايات الشرقية.

أما التجربة المهمة فى حياة الكاتب فـهى رحيله لأول مرة عن قريته، ووصـوله إلى ساحل البحـر المتوسط، فـقـد بـهـره منظر البـحـر، وقـرر ألا يبـتـعـد عنه، فظل يصادق الصيادين الذين أوحوا له بالكثير

من القصص: « كم أنا في حاجة لمعرفتهم من أجل الكتابة».

● أرضي .. كانت مسرحاً لطروادة

وفي حياة يشار محطات بعينها غيرت حياته، منها قراءته لرواية «دون كيشوت». فهي العمل الأساسي الذي دفعه لكتابة الرواية: «في تلك الآونة، وفي نفس الوقت الذي كنت أجمع فيه أعمال وأساطير عن مرتفعات طاروس، كنت أقرأ كل مايقع بين يدي من أعمال هوميروس، والأدب الاغريقي، وكتابات ناظم حكمت. وأعجبت كثيراً بـ«معطف جوجول» .. الذي ظل بالنسبة لي أحد النماذج الأدبية التي يحتذى بها. وأعجبني أسلوب بلزاك وتولستوي، ودوستويفسكي. وخلبني ستندال. ولم أتوقف عن القراءة والكتابة.

في هذا الايقاع من الحياة، مارس يشار العديد من المهن الصغيرة. وكلما توقف عن العمل لجأ إلى التأليف. حتى آلته الكاتبة لم يكن يبخل بكتابة خطابات الفلاحين عليها. وراح يجمع القصص الشعبية الشفهية من هؤلاء الفلاحين، ويعيد صياغاتها. وفي عام ١٩٥٦ نشر روايته الأولى «محمد الهزيل». والتي كشفت عن مواجهة بين الاغا (رئيس القرية)، وبين طفل صغير يرفض أن يعيش محني الرأس. وأهم ما في الرواية هو المنطقة التي تدور فيها الأحداث، انها منطقته التي عاش فيها، التي تفوح منها رائحة النعناع، ويأتي إليها صائدو الغزلان، «كم أنا فخور بأرضي التي كانت مسرحا لحرب طروادة. ولا ننسى ان أبناء قريتي قد ساعدوا سكان طروادة بجيادهم. ولا ننسى أننا في ظل الحكم الاشوري كنا ندفع فدية قدرها ٣٦٠ حصانا أصيلا كل عام».

وقد سببت له الرواية الأولى الكثير من المتاعب، فتم القبض عليه، وإيداعه السجن، وضاعت الرواية بين أروقة السلطات الرسمية. وعقب الافراج عنه، التحق بالعمل في الصحافة. وبدأت أحواله في التحسن فتزوج ابنة الطبيب الخاص للسلطان عبدالحميد. وترجمت روايته «محمد الهزيل» إلى العديد من اللغات. ولكنها ظلت ممنوعة في تركيا حتى تغير النظام الحاكم فيها من الحزب الحاكم إلى التعددية. فانضم إلى حزب العمال: «السلطة والرقيب لا يتوقفان قط عن ضرب المفكرين ولذا فان تركيا لم تبلغ أبداً الديمقراطية الحقيقية».

وليشار كمال مجموعة من الروايات المهمة، منها «الركيزة» و«العشب لا يموت». و«سليمان الوحيد»، و«الطين»، و«قتل في سوق الحدادين»، أما آخر رواية ترجمت له في الشهر الماضي إلى اللغة الفرنسية

فتحمل عنوان «طريق الدم».

محمد على بطل روايته الأولى أقرب فى صفاته، ورحلته إلى الكاتب نفسه، فقد ذهب إلى المدرسة وهو صبى لكنه لم يتوقف عن العمل من أجل كسب العيش لإطعام أسرته لكن المدرسة التى التحق بها تسيطر عليها مجموعة فاشية. ويهاجم الكاتب الديكتاتورية بكل أشكالها فى هذه الرواية.

جريمة قتل فى سوق الحدادين

وقد تجددت العلاقة بين الفلاحين الفقراء والسادة المستبدين فى روايته «قتل فى سوق الحدادين». وتدور الرواية فى إطار تاريخى، فى زمن انهيار الدولة العثمانية، وقيام نظام جديد على أنقاض الامبراطورية الزائلة. وفى هذه الاجواء تدور صراعات بين عائلتين من العائلات الكبرى. الأولى عائلة «الاكيولو» والثانية «عائلة السارى أوغلى» حيث يكره سادة هاتين العائلتين بعضهم البعض بشدة. ولذا فان الدماء هى لغة التفاهم الوحيدة بين الطرفين.

ولا أحد يعرف سبب هذا الصراع، ولا كيف نشأ، لكن كل ما يعرفونه انه لا أحد يطيق الآخر، مهما كان الثمن، ولذا فان الخصومة التى ولدت من حنايا الزمن، سوف تتنامى مع مرور الأيام، حتى يوم القيامة وتزداد حوادث الثأر يوما وراء يوم.

ويجد الفلاحون أنفسهم أداة للقتل، فهم الذين عليهم إطاعة أوامر السادة ، فيقومون بالثأر نيابة عنهم. وعليهم المغامرة من أجل راحة هؤلاء الاغاوات. وليس لأحد من الفلاحين أن يرفض ما يأمره به درويش أوغلى على سبيل المثال. فلماذا لايكون القتل أمراً سهلا طالما انك لا تفعل ذلك بنفسك. ولذا فان الأمر يبدو ثقيلا على هؤلاء الفلاحين الأبرياء: «لماذا لايقوم الاغا بقتله بنفسه. الشعب يرهق بعضه بعضا بعبء الانتقام يدرب الشباب الصاعد ليصبحوا قتلة فى سبيل السادة والبكوات. ولا شىء يحدث إلا من أجل هذا. اذهب واقتل بيديك يا مصطفى بك إذا كانت لديك الشجاعة أن تفعل هذا».

حتى المثقفون من هؤلاء السادة، عليهم ألا يخرجوا عن النواميس التقليدية. ورغم ان درويش بك يحاول التمرد على هذه القوانين ، فإنه يكتشف أنه لو فعل ذلك فسيخسر مكاسبه ، ويحاول اقناع نفسه أنه بدون هذا القانون الظالم لن تسير الحياة، فعلى السيد أن يظل سيداً كى يستمر نفوذه، وعلى الفلاحين أن يطيعوا الأمر، ويلوثوا أياديهم بالدماء نيابة عن الكبار.

وفى هذه الرواية يدين الكاتب النظام

الاقطاعى، ثم الرأسمالية الوريثة له، فقد سيطر أبناؤه على الفلاحين، وعندما مر الزمن، أخذوهم معهم إلى أماكن جديدة، فاقتلعوهم من جذورهم من أجل تعبيد الطرق، فعلموهم قيادة الجرارات بدلا من حرث الأرض، وردموا البحيرات لإقامة المبانى الجديدة، ولذا سرعان ما اختفت مجموعات الفراشات، والطيور الريفية، دلالة على الجدب الذى نما بتصاعد الأبنية العالية.

ويقول الكاتب، كما جاء فى الترجمة التى قام بها جاسم العيشى- عن جريدة لوموند ٤ أكتوبر ١٩٨١، : «الأغنياء الجدد هم المستفيدون من هذه *الظاهرة* الواسعة فى *التدمير*، والمعاصرة. هؤلاء الأغنياء هم غالبا من منشأ متواضع استطاعوا نتيجة التلاعب بالبشر والنقود أن يمتلكوا الأراضى وأصبحوا مستغلين، أكثر جشعا من الاقطاعيين القدامى الذين صاروا يتقاسمون السلطة معهم، من الآن فصاعداً هؤلاء السادة الجدد كانوا لا يبالون بالتقاليد القديمة، ولا يقيم نمط *الحياة التى* صارت تتلاشى شيئا فشيئا.

★★★

أما روايته «طريق الدم» فتدور أيضا فى نفس المنطقة الكردية . التى جعلها يشار كمال ديكوراً لكل أعماله. وفى نفس المراحل التاريخية. ونحن هنا أمام عائلة كردية ممزقة كان عليها أن تأوى إلى المرتفعات الجبلية فى شكوروفا عشية اندلاع الحرب العالمية الأولى.

لقد مات الأب إسماعيل على يدى سلمان، أحد المتشردين، ويخاف ابنه الصغير مصطفى من أن يجىء دوره فى الموت. لأننا فى بلاد الثأر. التى يمكن لأى شخص أن يدفع برأسه من أجل انقاذ شرفه. أو أن يعيش فى *العار* والمهانة. ويجد مصطفى نفسه مطارداً من أشباح المجتمع، فعليه الانتقام يوما من هذا القاتل، بل عليه أن يصير مثل هؤلاء القتلة.

وتمتلىء الرواية بأحداث القتل، ويرى الكاتب ان *كثرة الدماء* تجعل القلوب الشفافة جافة، ولكن مصطفى يلجأ إلى مكان خيالى ملىء بالطيور الصداحة، والفراشات، والغزلان، والجياد البرية.. انها نفس الكائنات التى حلم بها الكاتب وهو طفل.

ورغم ان يشار كمال قد عبر عن العنف الذى يتنامى فى هذه الأرض، فان مسألة نمو التيارات الانفصالية قد كشفت عن هوية الأرض، والناس الذين يعيشون هناك من خلال النماذج الأدبية التى صنعها الكاتب، ورغم انه لم يكن أبداً من دعاة الانفصال، أو تكوين قوميات صغيرة ذوات دولة، فان هذا لايمنع أن أبناء سيليسى، والأكواد بشكل عام يرون فيه داعيا انفصاليا، سواء شاء أم ابى .

مؤتمر اسكندرية الدولى للمسرح

أين العرب في مؤتمر المسرح بالإسكندرية ؟!

بقلم: مهدى الحسينى

رأس مصر، المتطلع دوما نحو الشمال، يبغى لو استعاد مكانه الفذ على جبين الوطن، رافعا علما وفنارا، علم المعرفة، وفنار الثقافة والابداع والحضارة.

هذا الثغر.. الجميل رغم الأنواء والبلايا يود لو حافظ على اتساع بسمته وحلاوتها.. على انه مازال باسما. ولو أحتفظ باشراقة ولمعة جبينه رغم أثقال السحب، وود لو ظل واثقا بنفسه وبمستقبله.. لانه موضع ثقتنا ومتنفسنا.

ظلال رمادية عتمت على محياه الفاتن من عشوائيات وفوضى وكبارى وانفاق، دمرت حدائق وذبحت اشجار وهدمت قصور عريقة وعلت القمامة وعربدت الاترية وطمست البحيرة وتلوث البحر وضاع مذاق الطعام المختلفة، واختفى المستوطنون الضيوف اليونانيون والارمن والطليان والمالطيون والترك والصقالية . لقد تريف الثغر وبهتت لهجة المدينة المستغربة المحببة وكانت تسم بميسمها كل ساكنيها.

هذا الثغر العميق العريق الساحر له مكان فى القلب وفى العين، إلا ان مرتبته الراقية مغروسة فى عقل الامة. أليس هو وطن المكتبة القديمة وتلك التى نحن فى شوق اليها؟

أليس هو وطن العلماء والفلاسفة؟ أليس هو وطن سلامة حجازى وسيد درويش وابراهيم فوزى وبيرم التونسى ومحمود سعيد وسيف وادهم وانلى ومحمود موسى.. ونخبة من رموز النهضه الابداعية والعلمية المصرية

الحديثة، أليس هو رأس مصر الذى ينظر ابدا نحو الشمال؟

سحابة حزن على وجه البشر

فى كل زيارة لى للثغر الجميل احس سحابة من الحزن والفقد تعلق بخواطرى، ألحظها على وجه البشر، رءوس مطرقة وعيون يشوبها الأسى ثمة قيود خفية تعوق التحقق، وآماد للطموح، وحدود للفخر، الاسكندرية الرائعة لم تعد الاسكندرية الأروع!! فمن هذا الذى هزم المدينة العريقة؟ أى جيش سباها وفى اى موقعة؟ ومتى؟ ومن هذا الشرير الذى بث فى صفوف اهلها خيبة الأمل؟

ومتى يدق القدم ويستقيم القوام وترتفع الذراع وتختال الكتف ويشرئب العنق ويسمق الرأس ويحتد البصر؟ هناك أمل ألا وهو الوعى الناشب الجديد.

معذرة تلك خواطرى داهمتنى رغم سعادتى - اثناء مشاركتى باحثا ومداخلا فى مؤتمر الاسكندرية الدولى الأول لقضايا المسرح العربى الذى نظمه قسم المسرح بكلية الآداب جامعة الاسكندرية فى الفترة من ٢٧ مارس - يوم المسرح العالمى - حتى ٣١ مارس سنة ١٩٩٦، وقد انتظم ٦ محاور الاول عن أعلام المسرح العربى والثانى عن الاصالة والحداثة والثالث حول مناهج تدريس المسرح فى المعاهد والجامعات العربية والخامس حول قضايا المسرح فى الوطن العربى، والخامس عن الجمهور فى المسرح العربى، والسادس حول المسرح وقضايا المسرح العربى.

● شهادات الفنانين

صاحبت جلسات المؤتمر عروض مسرحية وفنية مسائية قدمها قطاع الفنون الشعبية وقسم المسرح بآداب الاسكندرية ، فضلا عن شهادات لفنانين بارزين هم:

احمد زكى المخرج المسرحى المعروف، حسين جمعه المخرج ومصمم الديكور، ومحمود الحدينى الممثل القدير، وشريف أباظة الكاتب واقدم رواد المسرح السكندرى ، وعلى الجندى مصمم الاستعراض المسرحى البارز. هذا وقد شارك بالحوار - من الصالة - عدد من كتاب وفنانى الاسكندرية اذكر منهم الكاتب انور جعفر والكاتب عبد اللطيف دربالة ونخبة من طلاب قسم المسرح وشباب الفن بالاسكندرية ، أما الفريد فرج فكان الضيف الأهم الذى اتصل بالمؤتمر فى يومه الأخير.

وتتضمن المحاور الستة ٦ موضوعات

لكل محور، أى ان المستهدف كان ٣٦ موضوعا، تكاد تغطى (كل شيء) عن المسرح، وهذا امر شبه مستحيل، لذا كان الاتساع فى رقعة البحوث المطلوبة لم يجد استجابة من الباحثين - رغم ان بالمؤتمر ابحاثا ممتازة - فثمة بين الشطط والبحران.. وبين الحلم، فالحلم ممكن التحقيق، ولو كان المؤتمر قد ركز على موضوع واحد وانجز مناقشته بعمق لكان افضل لو كان قد اختار موضوعا مثل: استلهام التراث الشعبى فى المسرح، او قضية هوية المسرح العربى، او العلاقة بين الابداع الذاتى والقومى وبين التأثير الاجنبى فى مسرحنا، او غير ذلك من الموضوعات المحددة الواضحة، وهى غنية بالمحاور - لتمكن المؤتمر من انجاز نتائج محددة وواضحة ايضا، ولتمكن من خلق اسئلة جديدة.. وهكذا..

● مؤتمر تمهيدى

غير انه من الايجابى أن نعتبر هذا المؤتمر (الاول) مؤتمرا تمهيديا قد نجح فى طرح جدول اعمال لحركتنا المسرحية، او جدول هموم واهتمامات، فأثار حول نقاطه نقاشا اولياً، وتحسسا ميدانيا، وتراوحت بحوثه بين الاقل من العادى ثم العادى.. فالممتاز، وتنوعت بين الاكاديمية المفرطة، وبين الاجتهاد الثقافى أو ما يشبه المقال، وكان أهم ميزاته تلك المداخلات الحية القصيرة من الباحثين والجمهور المهتم سواء إذ اكسبت طابعه الاكاديمى طابعا شعبيا منفتحا وراقيا وحميما وديمقراطيا، لا بأس .. فبعد طول تأخر عن البدء وانقطاع عن اللقاء الاحتفالى الجماعى ، يصح أن ننتظر الانضباط المنهجى فى المؤتمر الثانى المزمع عقده فى العام القادم فى نفس الميعاد والمكان، حول قضايا المرأة العربية والفن المسرحى تحت رعاية السيدة سوزان مبارك.. فنرجو من اساتذة علم (مناهج البحث) ان يساهموا فى ضبط محاور المؤتمر المتخصصة واطاره العام والمحدد بدقة اكثر.

وكما لفت نظرى غياب (الاخوة العرب) عن المؤتمر (العربى) فإن غياب قطاع المسرح يلفت النظر أيضا، بل وغياب تمثيل رسمى لمسرح الثقافة الجماهيرية، ومسرح قطاع الشباب ، والمسرح المدرسى والجامعى والعمالى، ومسرح القطاع الخاص الذى تزدحم الاسكندرية بعروضه كل صيف، هذه امور يجب تداركها فى المؤتمر والمؤتمرات القادمة دون التنازل - بالطبع - عن الملامح

الثلاثة الرئيسية للمؤتمر من حيث إنه: علمي وسكندرى وعربى. هنا يتخذ المؤتمر طابعا شاملا.

● إطار فضفاض وتمويل ضعيف

قام المؤتمر بدعوة عدد من المفكرين والكتاب والفنانين والتليفزيونيين والصحفيين، لم يحضر منهم احد (!!).

وعلى رئاسة المؤتمر تدارس اسباب هذا الغياب فضلا عن غياب الاخوة العرب ووجوه الحركة المسرحية المصرية، وهى اسباب أظنها تتعلق بهذا الاطار الفضفاض الطموح لحظة المؤتمر فضلا عن ضعف التمويل ثم ضعف الدعاية التمهدية. إن الاتصال الجيد والترتيب المبكر هما العنصران الحاسمان فى نجاح اى مؤتمر علمي إذا ما توافرت الامكانيات المادية والمالية.

ويدهشنى احجام محافظة الاسكندرية عن التمويل . وتلك المساهمة الضئيلة من صندوق التنمية بخمسة آلاف جنيه فقط لا غير، فى حين يمول الصندوق فرقة مسرحية (شبابية) ضعيفة بعشرات الألوف !! ومعنى هذا ان جامعة الاسكندرية تحملت وحدها اغلب مصروفات المؤتمر من ميزانيتها المتواضعة فى حين ان المؤتمر يمس عمل وزارات التعليم العالى والثقافة والحكم المحلى والسياحة والشباب وجامعة الدول العربية، ولا يهم جامعة الاسكندرية وحدها بل يهم كل المؤسسات الثقافية والعلمية والابداعية الرسمية وغير الرسمية فى مصر والبلاد العربية.

كانت لابحاث ومداخلات الاساتذة والدكاترة. ابو الحسن سلام، واحمد حسن صقر. وابراهيم عنانى، وايناس ابو النصر، وجمال صادق وسحر عبد العزيز سالم، وسيد اسماعيل على، وعبد العزيز حمودة وليلى عبد المنعم، اصداء طيبة للغاية داخل المؤتمر، واتضح ذلك فيما اثارته من مناقشات عميقة وتساؤلات جوهرية. غير انه لن يتسع لى المجال لمناقشتها هنا، حيث ان اغلب البحوث لم تطبع لقصر ذات اليد.

خلاصة القول ان هذا المؤتمر بالرغم من سلبياته التى فرضت عليه إلا انه نجح فى ان يضع الاسكندرية على خريطة مصر الثقافية، كما وضع مثقفيها طرفا فى الحوار الثقافى الوطنى والحضارى، ونأمل فى مؤتمرات قادمة - مسرحية وغير مسرحية ، أن تعيد للاسكندرية ومثقفيها وفنانيها مكانتها فى الحياة الثقافية العربية والمتوسطية.

مكتبة الهلال



الكتاب: تاريخ الطرق الصوفية في مصر فى القرن التاسع عشر

المؤلف: فريد دى يونج

المترجم: عبد الحميد فهمى الجمال

الناشر: سلسلة تاريخ المصريين

تاريخ الطرق الصوفية الذى ألفه فريد دى يونج أو فريد عبد الرحمن دى يونج، وهو مستشرق هولندى اعتنق الدين الاسلامى، وقام بتأليفه فى الفترة من ١٩٦٩ حتى ١٩٧٣.. وقد تناول المؤلف فى هذه الدراسة، فيما تناول، ظهور السلطة المركزية على الطرق الصوفية والمؤسسات المرتبطة بها بعد الحملة الفرنسية على مصر.

كما تعرض البكرية وزعمائها ونقابة الاشراف، وأرباب السجاجيد، والطرق الصوفية، واختفاء الصفة الرسمية على سلطة البكرى، وسياسة محمد على، والأضرحة والطرق القائمة على التكية، ثم التكايا والزوايا.

كذلك تناول عالم الطرق الصوفية وطبيعة ادارتها وأعمالها، والعلاقة بين ادارة الطرق الصوفية والحكومة، والموالد والطرق الصوفية، والأضرحة القاهرية والمشرفين عليها وتحدث أيضا عن دور الطرق الصوفية فى الثورة العرابية..

وتناول الكتاب الذى يقع فى ٣٤٠ صفحة من القطع المتوسط، الطرق التى ليس لها وضع رسمى، مثل النقشبندية والخالدية والشاذلية والخلوتية والتيجانية.. وتعرض أيضا للتنظيمات الداخلية والحق بالدراسة عددا مهما من الملاحق ولوائح الطرق الصوفية.



الكتاب: أحمد حجازى.. الشاعر المعاصر

المؤلف: د. مصطفى ناصف

الناشر: الهيئة المصرية للكتاب

«حاولت أن أتصور الشاعر ناقدا باحثا بطريقته الخاصة فى طرق تفهمنا، تصورته يعانى الأزمة اللغوية العقلية التى هى أزمتنا جميعا» بهذا الكلام من خلال مقدمة كتاب الشاعر المعاصر للناقد الكبير د. مصطفى ناصف نستطيع أن نعرف أين يأخذنا الكتاب الجميل الذى أخذ قصائد أحمد عبد المعطى حجازى تكأة للاشتباك والحديث عن اغتراب الشاعر الحديث، وعن هموم الشعر وأزمته مع النقاد.. ويقول د. مصطفى ناصف الذى ينحاز للشعر أكثر من انحيازه للنقاد: «ولكن الناس يظنون أن الشعر يغنى للمجتمع. الشعر فى كثير من الأحيان يغنى لنفسه، قل فى ذلك ما تشاء. فالمجتمع ليس صديقا للشعر، الشعر صديق للنفى والعزلة، وفقد الصحاب».

وفى خاتمة الكتاب يقول د. ناصف: لا أحب الاجابة الجازمة، فالشعر بؤرة هشة يتجاذبها غالبا طرفان، ليست الأطراف المتضادة شيئا يستحى منه

الانسان دائما ، فالقارىء محتاج إلى التخفف من الحدة والصرامة ولكن القارىء الودود يحمل المسئولية على كتفه ولا يفرط فيها ، ولذلك تحسب القراءة الودودة حساب مالم تقله القصيدة» .



الكتاب : جغرافية التوراة فى جزيرة الفراعنة

المؤلف : أحمد عيد

الناشر: مركز المحروسة

يفجر كتاب جغرافية التوراة أكثر من اشكالية تاريخية وجغرافية وسياسية ، لعل أخطرها احدى فرضيات أحمد عيد مؤلف الكتاب القائلة بأن جزيرة العرب كانت جزءا لا يتجزأ من مصر الفرعونية القديمة وأن الأماكن التى دارت أحداث التوراة فيها هى بالتحديد جنوب الجزيرة العربية، ورغم تأكيد المؤلف فى أكثر من موضع فى الكتاب على تلك الفرضيات فالدكتور أحمد الصاوى الذى كتب المقدمة يرى – لأسباب لا نعرفها – ان ثمة فرضيات تؤكد عروبة الفراعنة ، فهل كان الفراعنة عربا ، أم العرب كانوا فراعنة ؟ وقد استند الباحث فى هذه المغامرة الفكرية على العديد من المراجع والمصادر العلمية المهمة فى علوم شتى ومن بينها التاريخ والآثار واللغويات والجغرافيا المصرية حيث انتقى من بين هذه المراجع ما يدعم فرضيته القائلة بأن جزيرة العرب كانت جزءا لا يتجزأ من مصر الفرعونية القديمة وان الأماكن التى دارت أحداث التوراة فيها هى بالتحديد جنوب الجزيرة العربية .

ورغم غرابة هذه الفرضيات فإن غزارة ما يستند اليه الباحث من استشهادات تدعمها، تؤكد أن هذا البحث سيثير نقاشا خصبا .



الكتاب : موسوعة الشروق

الناشر: دار الشروق

فى طبعة أنيقة صدر الجزء الأول من موسوعة الشروق التى ساهم فى تحريرها واصدارها أكثر من أربعين علما من صفوة المهتمين بشئون الثقافة ، كأول موسوعة عربية مؤلفة وشاملة لمجالات العلم والمعرفة ، وتقدم الموسوعة – كما يقول الناشر – أحدث المواد التى يجد فيها القارىء العربى ذاته واهتماماته وقضاياه .. والتى تصل به أولا بأول إلى آخر ما انجزه العلم الحديث من نظريات واكتشافات وتقنيات .

وتقوم فلسفة الموسوعة ونهجها على أساس الموضوع وليس الحرف (الذى هو عادة الأساس فى الموسوعات) فالموضوع هو ما تهتم به أساسا فى اختيارها وانتقائها للمواد التى تقدمها ، والتى تراعى فيها اهتمامات القارىء العربى واحتياجاته أولا .. وفى النهاية يتم ترتيب مواد كل مجلد ترتيبا الفبائيا من الألف إلى الياء ، مما يجعل كل مجلد موسوعة منفردة قائمة بذاتها .

وتشمل الموسوعة فى مجلدها الأول والذى يقع فى ٣٢٤ صفحة من القطع الكبير على مجالات العلم والمعرفة التالية : أدب ولغة وبلاغة – اسلاميات وأديان – تاريخ وعلوم سياسية ودولية واستراتيجية – جغرافيا وجيولوجيا وبيئة –

فلسفة ومنطق وعلم نفس - اجتماع وانثروبولوجيا وقانون - تربية وتعليم ورياضة - فنون جميلة وعمارة ومتاحف - اعلام ومعلومات ومستقبليات - تخطيط وتنمية وادارة واقتصاد - رياضيات وفيزياء وكيمياء - علوم هندسية وتكنولوجيا وعلوم الحاسب.



الكتاب: الوثنية والإسلام

المؤلف: ك. مادهو باندكار

ترجمة: وتعليق أحمد فؤاد بلبع

الناشر: المجلس الأعلى للثقافة

هذا الكتاب يعالج الصراع بين الوثنية والإسلام فى غرب افريقيا، وهى المنطقة التى تقع على تخوم العالم العربى، ومؤلف الكتاب مؤرخ ودبلوماسى هندى، نشر كتابه الأول بالعربية وعنوانه أسيا والسيطرة الغربية.

واسم الكتاب الأصلى الهلال والحية، وهو يستعرض منشأ الحضارة الإفريقية، وعلاقتها بكل من الحضارة المصرية القديمة والحضارة الهندية. ويعرض للكشوف الجغرافية الأوربية لهذه المناطق التى كانت معروفة للعرب والمسلمين، وكيف استخدم مقاومة تجارة الرقيق من أجل السيطرة الاستعمارية، وأخيرا كيف انتشر الإسلام فى القرن التاسع عشر على أيدى المجاهدين من أمثال محمد الكامنى وعثمان دان فوديو والحاج عمر، وعلى أيدى المتصوفة مثل الحركة السنوسية.

ومصادر الكتاب الرئيسية عربية وإسلامية قديمة، ويؤكد أن العقبة الرئيسية فى انتشار الإسلام، إن انتشار الإسلام فى المناطق الإسلامية لم يخدم مصالحها.

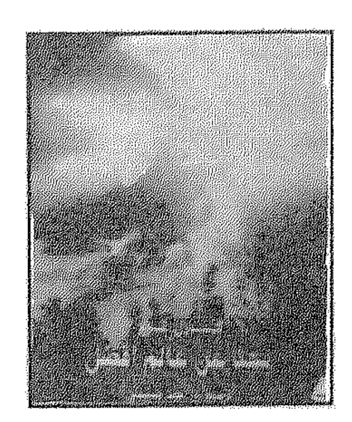
فالإسلام يحرم استرقاق المسلمين، أما العائق الثانى أمام انتشار الإسلام على نطاق واسع فكان استخراج الذهب، وكما يدعى منساوموس سلطان مالى أن سلاطين مالى أحجموا عن نشر الإسلام فى المناطق الغنية بالذهب رغم أنه كان فى استطاعتهم ذلك، لأن خبرتهم علمتهم أنهم عندما يغزون منطقة للوثنيين، ويرتفع فيها صوت الآذان، ينخفض انتاج الذهب. يقول الكاتب.

«واجهت الدول الإسلامية مشكلة عويصة، فلو أنها عزمت على المضى قدما فى نشر الإسلام لتوقفت تجارتها وتقوض إطارها الإجتماعى بأسره، وعلى الجانب الآخر فإن دينها يفرض عليها تبليغ الإسلام، ولم تحل هذه المشكلة إلا فى القرن التاسع عشر عندما تمزقت تجارة شمال افريقيا وأدينت تجارة الرقيق عبر المحيط، عندئذ حاول المجاهدون فى كل مكان الدعوة إلى الإسلام».

وقد بذل المترجم أحمد فؤاد بلبع جهدا فائقا، ليس فقط فى ترجمة الكتاب من الانجليزية إلى لغة عربية سلسة وجميلة، بل أيضا مابذله من جهد فى إعادة النصوص العربية إلى مراجعها الأصلية، فقد استعان بها صاحب الكتاب من مراجع أجنبية فرنسية أو انجليزية، ووقع عليه عبء العودة إلى المراجع العربية، وكتابة نصوص عربية سليمة.

والغريب أن هذا الموضوع كان يجب أن يهتم به وتقدم الدراسات حوله جامعة الأزهر أو معهد الدراسات الإفريقية.

وعلى أية حال، فهذا جهد طيب ينتظر من



يواصل الطريق.

الكتاب: بحثا عن عالم أفضل

المؤلف: كارل بوير

ترجمة: د. أحمد مستجير

الناشر: الهيئة العامة للكتاب الألف كتاب الثانى.

«إن البحث عن عالم أفضل مهمة لاتكتمل أبدا، ولكنها أبدا ليست بحثا، ويرسم هذا الكتاب الكثير من النواحى المعروفة وغير المعروفة فى فكر كارل بوير، ويتناول المحاورات فى المشكلات السياسية وتاريخ الفلسفة، وبدايات التأمل العلمى لدى الإغريق، كما يتعرض الكتاب لكبار رموز التنوير أمثال ڤولتير وكانت، كما يتناول العلاقة بين العلم والفن، ودور العلم فى الحضارة المعاصرة، ودور النقد الذاتى فى الفنون.

ورغم أن المؤلف ولد فى ڤيينا فى ٢٨ يوليو ١٩٠٢، وهاجر إلى بريطانيا واستقر فيها حتى وفاته فى ١٧ ديسمبر ١٩٩٤، فإن كتابه مازال يحتاج لمن يطلع عليه فهو من أكبر الفلاسفة الساعين إلى حرية الإنسان، وواحد من أكبر نقاد الأيديولوجيات الشمولية بما فيها الماركسية.

تقول مقدمة الكتاب:

«كل مايحيا يبحث عن عالم أفضل.. لنا أن نفترض أن التطوير الأكبر ـ تبعا للإنتخاب الطبيعى لداروين ـ سيكون من نصيب الأنشطة فى حل المشكلات، الباحث والمبدع، مكتشف العوالم الجديدة والصور الجديدة من الحياة.

لكن، ألم نحطم بيئتنا بعلومنا الطبيعية هذه؟ كلا، لقد ارتكبنا أخطاء هائلة، وكل الكائنات الحية ترتكب أخطاء. من المستحيل حقا أن نتنبأ بكل النتائج غير المقصودة لأفعالنا. والعلم هنا هو أملنا الكبير: إن منهجه هو إصلاح الخطأ.. وبالرغم من كل شىء، وبالرغم من إخفاقاتنا الكثيرة، فنحن نحيا فى نظام اجتماعى أفضل، لأمة معدة للإستجابة للتقويم، وأكثر عدلا من أى نظام فى التاريخ المسجل، ومازالت التحسينات مطلوبة بإلحاح كبير «ويعنى طبعا الديمقراطيات الغربية»، وأود أن أذكر شيئين نجحنا فى تحسينهما، إختفاء الفقر الذى كان منتشرا، والثانى هو إصلاح القانون الجنائى، وإلا نتخذ الخطوة المشكوك فى أمرها كثيرا، بأن نحاول بالعنف القضاء على هذه الأشياء، فنحيل بعض الأبرياء إلى ضحايا..

ونفضل نظاما يضمن الحماية القانونية الكاملة حتى للمجرمين الأشرار، فلا يعاقبون فى حالة الشك، ونحن نفضل هذا النظام عن آخر لايجد فيه حتى الأبرياء الحماية القانونية، فيعاقبون حتى عندما تكون براءتهم أمرا لايقبل الجدل. ولعل ذلك أحد تعاليم سقراط..«أن تظلم وتقاسى، خير من أن تظلم».

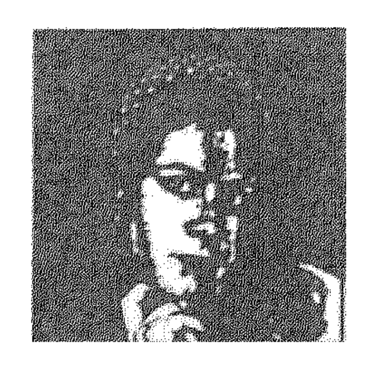
حقا.. إنه كتاب شديد الأهمية، يسد ثغرة فى الثقافة العربية التى تفصل بلا مبرر بين العلم والفلسفة.

ولابد من أن نشيد أولا بالدكتور أحمد مستجير، فلا أتصور أن يستطيع القيام بهذه الترجمة وبهذه الكفاءة أكثر من الدكتور مستجير فهو من العلماء القلائل عضو المجمع اللغوى. وصاحب الرسالة التى يعمل دائما من أجل تحقيقها. وهى إشاعة الثقافة العلمية فى مصر.

ونشيد أخيرا بالألف كتاب الثانية التى تقدم كتبا تقرأ ونحتاج إليها، وليس كتبا من أجل الاحتفاظ بها فى المخازن.



ممدوح عبد العظيم





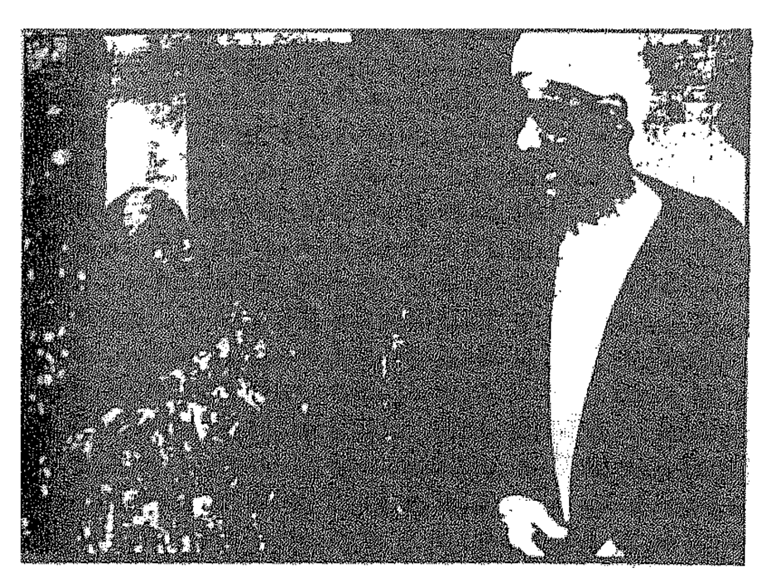
عزة الحسينى

تليفزيون
خالتى صفية والدير والتليفزيون

- خالتى صفية والدير
- قصة : بهاء طاهر
- سيناريو : يسر السيوى
- اخراج : اسماعيل عبد الحافظ

لعل رواية «خالتى صفية والدير» هى إحدى الروايات القليلة التى تعالج قضية علاقة المصريين المسلمين بالمصريين النصارى فى أدبنا الحديث ، وقد اختار المبدع الكبير بهاء طاهر زاوية للنظر فى هذه العلاقة تبدو وكأنها الزاوية المقابلة والنقيض لتلك الزاوية التى أطل منها المبدع الراحل عبد الحكيم قاسم فى روايته القصيرة «المهدى» .. ولكنهما فى النظرة المتأنية نظرتان متكاملتان ، وشهادتا صدق من كاتبين موهوبين ينتميان الى جيل الزهو والانكسار !

تبدو قرية عبد الحكيم قاسم فى دلتا مصر ضائقة بالآخر المختلف دينيا حتى ولو كان فردا واحدا وسط قطيع أعماه الجهل



مشهد من المسلسل

والتعصب ، وتذهب عذابات التصوف السمة الأساسية للتدين المصرى ، التى أهداها المصريون إلى التراث الروحى العالمى ، كما أهدوا الرهبنة والأديرة فى العصر القبطى من قبل ، تذهب كل هذه العذابات سدى ، وصرخة فى الريح ، وكأنها نذير مبكر لآلام وفظائع قادمة أكثر بشاعة ! والشائع المألوف يحكي عن أن أهل الدلتا أكثر تسامحاً وقبولا للآخر ، وانفتاحاً على الاختلاف الإنسانى ، ولكن من قال إن الفن الحقيقى يعيد إنتاج المألوف والشائع! واختار بهاء طاهر أن يطل من نافذة التماسك الاجتماعى والقيم المتكاملة بين الدير وقريته فى أقصى صعيد مصر ، والشائع أيضا أن هناك أرضا خصبة للتعصب والانغلاق ، ولكن موهبة الكاتب نفذت إلى ما يشد خيوط الجماعة الانسانية ويشكل نسيجها الواحد رغم التعدد ، ولا نستطيع بالطبع - أن نلخص هنا الخطوط الرئيسية لتلك الرواية الجميلة التى استحضرت لنا بقدرة رائعة البساطة بضع سنوات من سنوات الحلم الزاهى ، لنرى ما كان فيها من ثقوب .. فالنبل يجاور القسوة ، والتسامح يسير جنبا إلى جنب مع غلظة القلب ، والبراءة

يحوطها الانتقام ، والقهر يغلف الجميع ... ولعل اختيار قطاع الانتاج بالتليفزيون هذه الرواية الجميلة والمهمة لتقديمها كمسلسل تصل رسالته إلى ملايين المشاهدين ، أمر يذكر فيشكر – كما يقال – فالرواية مناسبة تماما لزمن الفتنة الذى نعيشه، والتى ساهم التليفزيون – غير مشكور – فى تكملة صنعه ومده كأخطبوط يحيط بالجميع – ويبدو التليفزيون بإذاعته لمسلسل «صفية والدير» فى هذا التوقيت بالذات ، وكأنه يعتذر عمليا عما ارتكبه من مسلسلات تعيد انتاج التخلف ، لعل أبرزها مسلسل «من الذى لا يحب فاطمة» وهو مسلسل ينطبق عليه القول بأن الله يعاقب الشعوب المختلفة ليس بالقهر السياسى والاجتماعى فقط ، ولكن أيضا بالفن الردىء !

وأنا أعلم عن تجربة طويلة مع التليفزيون وكواليسه ، أن القائمين على أمره لا يخططون لإيصال رسائل إعلامية جيدة وبناءة ، ولا لإرسال رسائل إعلامية رديئة متخلفة ، ولكن الأمور تمضى بـ «التساهيل» والمبادرات الفردية ، والاعتماد الكامل على الأمر الواقع .. وقد اتيح لمسلسل «خالتى صفية والدير» مجموعة من أجود العناصر الفنية فى السيناريو والتمثيل والديكور والتصوير والاخراج .. لكن الفارق بين العالم الجميل والنبيل الذى تخلقه قراءة الرواية ، وبين تجسيد هذا العالم فى عمل فنى مرئى ، فارق كبير ومؤلم ولا يستطيع واحد مثلى أن يمنع وجدانه وعقله من المقارنة بين شخصية صفية وحربى والقنصل فى العمل الروائى ، وبين نفس الشخصيات كما تجسدت من خلال الفنانين بوسى وممدوح عبد العليم وعمر الحريرى .. ولقد بذل الفنانون الثلاثة أقصى ما يملكون من جهد ، ولكن هذا الجهد الكبير والمشكور يظل – فى تقديرى – خارج السياق .. وليس الذنب ذنب هؤلاء الممثلين الجيدين ، كما أنه ليس

بوسى



ذنب المخرج اللامع إسماعيل عبد الحافظ ، والذى يملك رصيدا كبيرا من الأعمال الفنية التليفزيونية المتميزة . ولكن ذنب الفوضى والارتجال اللذين أحكما قبضتيهما على حياتنا الفنية ..

● سيد خميس

خالتى صفية فى التليفزيون

❑ يبدو أن المظهر الواقعي لرواية «خالتى صفية والدير» كان أحد الأسباب التى جرَّت عليها ما جرى لها على أيدى صانعي المسلسل التليفزيوني الذى حمل نفس العنوان ، وعرض على شاشة القناة الأولى فى الشهر الماضى (ابريل ١٩٩٦) . فما كتبه بهاء طاهر لكى يخلق به الإيهام الفنى بإمكانية وجود الشخصيات ، وما صاغه من وسائل وأساليب قصصية لكى يكسب سرد أحداث الرواية صدقا فنيا ، أخذه صانعو المسلسل مأخذا مباشرا وقرأوا الرواية باعتبارها تسجيلا لوقائع فعلية تنقل ما حدث فى الواقع المُعاش وتحكيه .

وهكذا ، ظنت معدة السيناريو أن تحويل الرواية إلى عمل تليفزيونى يقتضيها نقل هذه الوقائع الفعلية من سطور مكتوبة إلى صور متحركة ، وعندما أعطت نفسها الحق فى الإضافة والتعديل لما جاء فى الرواية أتت تلك التعديلات والإضافات لكى تدعم هذه الوقائعية وتتزيد فى الإخبار . وعلى الطريق نفسه سار مخرج المسلسل ، الذى صب عمله على تصوير البيئة المكانية التى تتحرك على أرضها الأحداث وجعل همه نقل كلام الشخصيات ، بصورة توثيقية تلتصق التصاقا بالمفردات الوقائعية . ولكى تزداد عملية الإخبار وضوحا وضعت الشخصيات ومجالها

الحركى تحت ضوء ساطع تختفى منه الظلال ، مهما اختلف الوقت أو تغير المكان أو تباينت الحالة النفسية ، فظهرت مكونات الصورة دائما مستوية مفرودة متماثلة القيمة ، وكأنما القصد منها هو مجرد تسجيل وجودها ، وليس التعبير عن معنى وجودها ، ولا الإيماء إلى علاقاتها المدلولية مع سائر الصورة التى تكون المسلسل .

وعلى الطريق نفسه أتت اختيارات الممثلين لأدوارهم ، وخاصة الدورين الرئيسيين لشخصيتى صفية وحربى (دعك من دور أمونة فهو زائد من كل الوجوه) . فلم تكن بوسى أبدا هى خالتى صفية ، ولا كان ممدوح عبد العليم أبدا هو حربى ولم تكن هيئتهما الجسدية ، ولا طريقتهما فى الإداء، تجعل منهما صفية المرأة المثال وحربى الفارس الفارع ، بكل ما يلفهما من ظلال أسطورية ، مهما سلمنا بمبدأ فرض «النجوم» على المسلسل فأصبح وجودهما إعمالا لمبدأ تسجيل الشخصية ، وليس تجسيدا لهويتها وكينونتها القصصية .

وبالرغم مما أعطاه المسلسل لنفسه من حق التعديل والإضافة ، فإن تحويل الرواية إلى صور وقائعية لا يجعلنا نتوهم أنه يتبنى نهجا واقعيا فى تناوله ، بالمعنى الفنى للواقعية ، وإنما هو تناول وقائعى يتم فى إطار المواضعات والتقاليد التى سادت تمثيليات التليفزيون واستقرت فى مسلسلاته . وهى مواضعات وتقاليد (فنية وذهنية) نمطت تصور المعالجات التليفزيونية للواقع ولطرق تمثيله ، وثبتت طرزا من أساليب الأداء الحركى والكلامى ، وابتدعت لهجات ملفقة تنبو عن الحال الجارى فى الواقع ، وخاصة فى المجالات التى تبعد عن دائرة الطبقة الوسطى المدينية ، كما هو حال عالم «خالتى صفية والدير» .

وربما كان النسج على منوال هذه المواضعات سابقة


اسماعيل عبد الحافظ


بهاء طاهر

التجهيز ، هو المؤثر الأول الذى سوغ لصانعى المسلسل هذا التناول الوقائعى لرواية «خالتى صفية والدير» ، وماجر إليه من تسطيح وتشويه ، فاستسهال الدرب المطروق فى الفن يعطل الخيال ويغلظ الحساسية ، وإذا اجتمعت مع كل هذا غشاوة الوعى عشيت الرؤية وتبددت القدرة على اللمح والنفاذ . وبهذا سقط من معالجة المسلسل للرواية الكثير من أبعاد النص القصصى ، وضاع منها رهافته وعمق تبصره.

إن الرواية تنظم وحداتها القصصية بمهارة لكى تشيد أسطورتها الخاصة . وهى ، وإن توسلت بمادة من الواقع ، تؤسس عالما من التهاويل والظلال بوصفه العالم الحقيقى الكامن تحت قشرة الواقع الخارجية . وهى ، عندما تستخدم وسيلة الراوى المشارك فى الأحداث ، فإنما تستخدمه كوسيلة فنية ماهرة تتعدد بواسطتها زوايا المنظور وفقا لأطوار نمو الراوى وتطور وعيه ، وهى ، عندما تنسج خيوطها إلى أن تتجمع فى مخيلتنا الصورة الأسطورية لكل من شخصيتى صفية وحربى ، فإنها تفصل ذلك من خلال حضورهما المهيمن على النص ، سواء بظهورهما المباشر أو فى غيابهما المستتر خلف سطح النص، ولم تورد الرواية تمايز كل من صفية وحربى وندرة صفاتهما الجسدية والمعنوية دون قصد ، ولم تصف ملامح الجلال البادى عليهما دون سبب ، ولم تجعل أمارات الجذب تشع فيهما دون داع . وفى الوقت الذى كانت الشواهد تفضى إلى اجتماع هذين المثالين ، تأكد استحالة اجتماع كل هذا الجمال فى هذا المجتمع الواقع تحت وطأة أعراف وتقاليد خانقة ، ولم يكن تزيدا ذلك الشجن الشفيف الذى يسرى فى الرواية حزنا على الضلال البشرى والمجال الموعود والحب المرتد على نفسه ، وذلك المصير الفاجع الذى كان لا محيد عنه . ولذا كان الثأر تكئة وتعبيرا مقلوبا عن المحبة ، وفى الوقت نفسه مظهرا من مظاهر وطأة التقاليد

سيد عبد الكريم



عمر الحريرى



والأعراف الاجتماعية الرازحة .

وعندما نخسر – نحن المشاهدين – مثل هذه الأبعاد الموجودة فى النص المكتوب ، فإن المسلسل يعوضها بوضعنا فى إطار القوالب والمسكوكات الجاهزة المريحة ، ولا يشغل فكرنا بالتعمق لتبصر الواقع ومعاينته عن قرب وتبين فرادة التجربة ، ولا يقلق وعينا – الفردى ولا الجماعى – طالما أن قوام المعروض علينا هو صراع البطلة لتنفيذ إرادتها فى مواجهة بطل منكسر مغلوب على أمره منذ البداية . كما كسبنا – فوق البيعة – مجموعة من المواعظ ترسخ السائد من قيم وأفكار . وهنا مكمن الغرض من مثل هذه المسلسلات ، التى يجب ألا تؤخذ باستهانة لما لها من أثر فى تشكيل وصياغة وعى جماهيرى منمط .

● عبد الحميد حواس

مسرح

حمام شعبى

● المسرحية : حمام شعبى
● تأليف : محمد الفيل
● اخراج : اميل شوقى
● المسرح : الطليعة

□ إذا كنت من هواة التصنيف ، تصنيف المسرحيات ، أقول لك إن مسرحية «حمام شعبي» هى مسرحية كوميدية هادفة ... هادفة إلى ماذا ؟ أقول لك هدفها الضحك .. وفى الكلمة التى قدم بها المخرج للمسرحية يقول إنه لا يتمنى للمتفرج أكثر من قضاء «سهرة ممتعة وحمام دافىء تغسل به همومك اليومية لتستقبل صدمات الحياة بصدر رحب» .

محمد الفيل ، مؤلف المسرحية ، اختار مكانا يغرى أى كاتب مسرحى لكى ينسج دراما تدور أحداثها وتتحرك شخصياتها ، وسط البخار والبخور ، ما بين الدهاليز

المعتمة والمغطس ، وسط شخصيات تحترف تنظيف الجسد وتدليكه وتكييسه إن «الحمام الشعبى» كلمة تحمل معها الكثير من الخيال المختلط بالشبق وسحر الماضى (لاحظ أن الحمام الشعبى يكاد يختفى الآن من القاهرة) .

لكن طموح المؤلف لم يكن بمقدار ما يحمله هذا المكان العبقرى من إمكانيات تقديم دراما محكمة ، فنراه يكتفى بتقديم مجموعة من «الصُيّع» (ومفردها «صايع») الذين يتخذون من الحمام مكانا لممارسة كسلهم ومتعهم الصغيرة من شرب الشاى وأكل الفول وتدخين المعسل وخلافه ، والضحك على أنفسهم قبل كل شىء ، والتلصص، أحيانا، لرؤية اجساد المستحمات .

لكنك ، والحق يقال ، لا تستطيع أن تكره هذه النماذج من بسطاء الناس ، بل إنك تحبهم وتضحك معهم وعليهم طوال المسرحية . إنهم « فقراء لكن ظرفاء » وإن كانت هناك «شرور» صغيرة يرتكبونها فإنها مغتفرة لكونهم أبناء المجتمع الذى نشأوا فيه . وهم فى النهاية أفضل من «الباشا» الذى يأتى ذات يوم ويساوم صاحبة الحمام «البلانة» لكى تصنع له ثقبا سريا يتلصص منه على اجساد المستحمات لكى يختار أجملهن .. وبعده مباشرة تأتى زوجته - زوجة الباشا - لكى تساوم صاحبة الحمام على نفس الشىء ، لكى تتلصص على أجساد الرجال المستحمين وتختار من بينهم عشيقا تشتريه بفلوسها .

وهكذا تأخذ المسرحية طابع الحدوته الشعبية فيختار الباشا الفتاة الجميلة «حميدة» (عزة الحسينى) ابنة صاحبة الحمام ، وتختار زوجة الباشا (تحية حافظ) الشاب الوسيم المسطول دائما «متولى» ، (سيد خاطر) خطيب حميدة !! كلاهما - الفتاة والفتى - يجد نفسه فجأة أمام الاختيار الصعب أن يبيع جسده مقابل عشرات الآلاف من

الجنيهات وحياة ملؤها النعيم والترف الذى يقترب من الأساطير .. أو يصون كرامته ويبقى على ولائه للحب والفقر.

وفى مشهد مكثف فى نهاية المسرحية نرى الفتاة والفتى فى المغطس وسط ضباب البخار والعطور الشرقية ، فى حوار يعتمد على إيماءات الجسد .. إنهما يؤديان المشهد الختامى مغلفا بضباب البخار ، وسط إضاءة خافتة .. لنخرج نحن المتفرجون بإجابة ضبابية : هل قبلا الصفقة أم لا ؟ المسألة يلفها الغموض .

الاكتشاف الرائع ، احدى إيجابيات هذه المسرحية هو الممثل زايد فؤاد الذى لعب دور «الصول أبو كف» .. إنه طاقة كوميدية هائلة ومتفردة - لا أدرى لماذا لا يتنبه إليه المخرجون سواء فى التليفزيون أو المسرح أو السينما - إنه ممثل كوميدى أكثر قبولا لدى الجمهور من كوميديين «كبار» يستمدون سلطتهم فى الاضحاك من ماضيهم الغابر وأسمائهم الكبيرة .

ووسط شلة الصيع هناك شخصية «حسونة أبو العيون» (لعبه رشدى الشامى) وهى شخصية ضرير يسترزق من قراءة بعض السور على المقابر، كما انه يغنى ويعزف على العود.. كان يمكن للمسرحية ان تستفيد كثيرا من هذه الشخصية الثرية ليربط الاحداث ويغنى لنا بعض الاشعار التى كتبها الشاعر ابراهيم عبد الفتاح.. لقد ضيع المخرج والمؤلف هذه الفرصة الثمينة.

استطاع فنان الديكور محيى فهمى أن يحول قاعة مسرح الطليعة إلى حمام شعبى بكل مفرداته وايحاءاته. واستطاع المخرج إميل شوقى أن يفى بوعده فيقدم للمتفرج «سهرة ممتعة وحمام دافىء تغسل به همومك اليومية لتستقبل صدمات الحياة بصدر رحب» . ولم لا!!

شوقى فهيم

الطليعة يغرق فى الحمام

تحية حافظ



□ قام مهندس الديكورمحيى فهمى بإنشاء «حمام شعبى» داخل قاعة صلاح عبدالصبور لكى نشاهد مجموعة من الممثلين «الظرفاء» يحكون لنا نص محمد الفيل الذى يعتبر امتدادا لمسرحه الطقسى الذى بدأ بمسرحية «دقة زار» على المسرح نفسه منذ عشر سنوات.

تدور مسرحية «حمام شعبى» حول امرأة فى الخمسين من عمرها تمتلك حماما شعبيا بأحد الاحياء متزوجة من رجل ضعيف الشخصية ولها منه فتاة جميلة تحب ابن خالتها «ابن البلد» منذ الصغر.. ويبدأ الصراع الدرامى فى العرض عندما يدخل «الباشا» وزوجته الحمام.. فيحب الباشا الفتاة الصغيرة وتعشق زوجته ابن البلد.. ويغدقون على الجميع ويحاولون شراء كل شىء بالمال.. ولكن مع الوقت يكتشف الفتى والفتاة الخديعة ويحاولان الفرار.. وهكذا ينتهى النص!

تناول إميل شوقى مخرج العرض المسرحية بشكل وصفى ولم يضف اليها غير بعض الرقصات فى محاولة منه لتقليد مسرح القطاع الخاص.. مما أفقد العرض شكله الواقعى الساحر الذى يميز مسرح «الفيل» .. و«رصص» المخرج الممثلين على خشبة المسرح معظم الوقت مما أعاق حركتهم غير مبال بصغر خشبة المسرح..

وجاءت الرؤية الموسيقية «لايف» بعيدة كل البعد عن جو النص الشعبى.. حيث تم استخدام أدوات ايقاعية أوربية كانت مصدر ازعاج دائم، أما الاضاءة فكانت تقليدية فى أغلب الاحيان ولا تلائم «جو» الحمام الشعبى باستثناء مشهد الفتاة والباشا أما مهندس الديكور فهو الوحيد الذى نجح فى فهم روح النص.. كذلك عزة الحسينى التى قدمت



أداء ممتعا بإحساس فنانة موهوبة أما الفنانة فتحية طنطاوى قامت باداء شخصية صاحبة الحمام بسهولة ويسر ولكنها لم تقدم اضافة لشخصياتها السابقة والممثل سيد خاطر تناول شخصية ابن البلد بشكل كاريكاتيرى بلا روح .. أما الفنانان حسين الديب وزايد فؤاد فقد جاء أداؤهما مبتذلا وغير لائق بممثلى مسرح الطليعة .. بل ظهر واضحا الانتماء لمسرح القطاع الخاص الذى يغلب عليه التهريج واستفزاز المشاهدين ..

ولكن أفلت بعض الممثلين ذوى الخبرة الفنية من هذا الفخ الذى «أعده المخرج» !

● مصطفى النحاس

□ □ □

صرح شامخ هوى

رحيل الدكتور حسين مؤنس

بقلم : الدكتور محمود على مكى

كان رحمه الله أمة وحده !

كان هذا هو مايدور بخاطرى وأنا ألقى عليه نظرة الوداع الأخيرة ، وهو مسجى على فراشه . لم تكن تعلو وجهه تلك الصفرة والشحوب اللذان تتشح بهما وجوه الموتى بل كان وجهه ناضرا موردا كالعهد به وهو فى عالم الأحياء .. وكانت تعلو شفتيه ابتسامة ، وكأنها تعبير عن الرضا والراحة بعد حياة قضاها طولا وعرضا وأدى خلالها رسالته فأحسن الأداء .

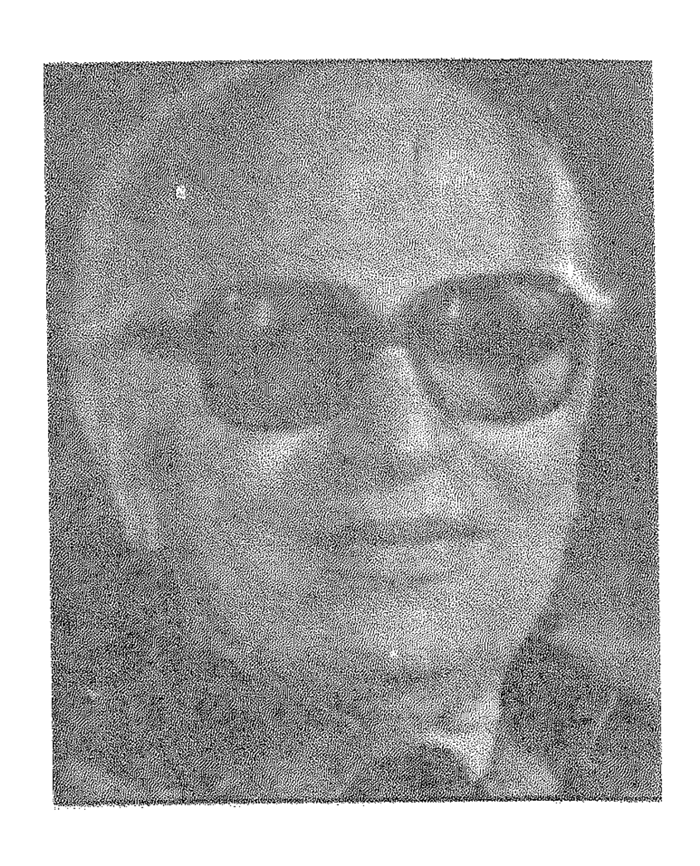
فى لحظات تواردت على مخيلتى ذكريات علاقة حميمة اتصلت بيننا على مدى مايقرب من نصف قرن . كانت المشاهد والصور تتزاحم فى فكرى كأنها شريط سينمائى اسيىء تقطيع فصوله ، فاختلطت فيه صور قريبة العهد لايتجاوز عمرها أياما بصور أخرى ترجع الى سنوات طويلة مضت ، ولكنها كانت جميعا قريبة الى النفس محببة الى القلب.

كانت صلتى المباشرة به ترجع الى منتصف الأربعينيات حينما جلست اليه مجلس التلميذ فى محاضرات التاريخ الاسلامى . وكانت مادة التاريخ مقسومة بينه وبين الدكتور حسن ابراهيم حسن ، فقد كان الدكتور حسن ابراهيم يدرس لنا تاريخ الدولة العباسية ، وكان مؤنس يحاضرنا فى تاريخ مصر الإسلامية ، وكانت هذه المادة مشتركة بين طلبة قسم التاريخ وقسم اللغة العربية الذى كنت أنتمى إليه .

● بين الصحافة والتاريخ

كثيرا ماكان يراودنى وأنا استمع الى محاضراته سؤال لم أهتد الى جوابه إلا بعد زمن لا أذكر مدى طوله . فقد كنت أقرأ وأنا مازلت فى المرحلة الثانوية فى أقصى الصعيد لكاتب يدعى حسين مؤنس ينشر مقالاته فى مجلة «الاثنين» الأسبوعية التى كانت تصدرها دار الهلال كان كاتبا رشيق العبارة يتناول بالنقد بعض جوانب حياتنا وعيوب مجتمعنا فى فكاهة رقيقة وسخرية غير جارحة ، وكنت أتابع تلك المقالات فى شغف اذ كانت أشبه بما كان القدماء يدعونه «السهل الممتنع» من بساطة تشد اليها القارىء وخفة ظل تستحوذ على اهتمامه .

أيكون هذا الكاتب الصحفى هو نفسه





ذلك الأستاذ المتخصص الذى يحمل طلابه على الحوار والمناقشة ثم لايبخل عليهم بعد نهاية المحاضرة بجهد أو وقت لكى يوجههم ويجيب عن أسئلتهم رفيقا بهم حانيا عليهم ؟ أم أنهما شخصان مختلفان جمع بينهما تماثل الأسماء ؟ ومضى وقت غير قليل قبل أن أعرف أن الاسمين لشخص واحد ، وكان ذلك أول مظهر أكتشفه من مظاهر تنوع الثقافة وتعدد الاهتمامات فى شخصية حسين مؤنس .

وكان المظهر الثاني هو ماتبين لى فى أثناء العطلة الصيفية لنفس السنة الدراسية التى كان حسين مؤنس يلقى علينا فيها محاضراته حول مصر الاسلامية ، وكنت أقضى هذه العطلة فى بلدى «قنا» في جوف الصعيد ، وكانت فى دارنا مكتبة ثمينة كانت تشتمل على عدد كبير من الكتب الأدبية والتاريخية مما كان يعنى بجمعه أخى الأكبر رحمه الله ، وبين هذه الكتب اذا بى أعثر على مجلد ضخم مطبوع على ما أذكر فى سنة ١٩٣٤ وهو بعنوان «الشرق الإسلامى فى العصر الحديث » من تأليف حسين مؤنس، وعرفت أن هذا الكتاب كان رسالته التى تقدم بها لنيل درجة الماجستير ، ولعله كان أول كتبه فى ميدان الدراسات التاريخية ، وبعد شهور اذا بى ألتقى فى مكتبة جامعة القاهرة بكتاب آخر هو «فتح العرب للمغرب» لمؤنس أيضا . وهو رسالة لنيل درجة الدكتوراه ، وتاريخ نشره هو عام ١٩٤٧ ، ثم بدراسة أخرى منشورة له فى حوليات كلية الآداب بجامعة القاهرة فى سنة ١٩٤٨ ، وكانت باللغة الفرنسية وموضوعها «سقوط الخلافة الأموية فى قرطبة» فكان عجبى

يزداد من هذا الاستاذ الجامعي الذي يدرس تاريخ مصر الاسلامية ويكتب في تاريخ الشرق الإسلامي في العصر الحديث وينتقل بعد ذلك الى تاريخ المغرب في بداية حياته الإسلامية ، ثم يثب الى الأندلس فيتحدث عن حقبة مضطربة من تاريخها العربي ، وهو في ذلك يراوح في الكتابة بين العربية والفرنسية ، ويضيف الى كل ذلك كتابات يصعب تصنيفها ، فهي بين المقال الاجتماعي واللوحة القصصية والفكاهة الساخرة .

● **الأندلس : هواه الأول :**

ومضت على ذلك سنوات تخرجت خلالها في كلية الآداب ، ثم أوفدت في سنة ١٩٥٠ في البعثة الأولى التي اختارها الدكتور طه حسين أثناء توليه لوزارة المعارف للدراسة في اسبانيا ، وذلك بمناسبة افتتاح المعهد المصري للدراسات الاسلامية في مدريد وهناك علمت أن فكرة إنشاء هذا المعهد – وهو المؤسسة العلمية الوحيدة لنا في الخارج – ترددت في ذهن رائد ثقافتنا العظيم منذ سنة ١٩٣٨ حينما أصدر كتابه «مستقبل الثقافة في مصر» ولكن الفكرة لم تتجسم في هيئة مشروع مكتمل إلا بفضل مذكرة كتبها حسين مؤنس في أوائل الأربعينيات ، وذلك بعد زيارة كان قد قام بها الى اسبانيا في صيف سنة ١٩٤٠ ، وكانت الحرب الأهلية الاسبانية قد وضعت أوزارها قبل ذلك بشهور والخراب يعم أنحاء البلاد ولكن مؤنس كان يرى ببعد نظره أن من مصلحة بلادنا توثيق علاقتنا بهذا القطر الذي عاش أسلافنا العرب في رحابه نحوا من عشرة قرون . على أن أول مدير لذلك المعهد الذي افتتحه طه حسين سنة ١٩٥٠ كان أستاذنا الفاضل محمد عبد الهادي أبو ريدة أستاذ الفلسفة الإسلامية بجامعة القاهرة . وبعد سنتين قامت ثورة يوليه ١٩٥٢ فأتى الينا مدير جديد هو على سامي النشار الذي ولي إدارة المعهد سنة واحدة ، ثم اذا بحسين مؤنس يأتي الى مدريد في السنة التالية فيتولى ادارة المعهد سنة أخرى (بين ١٩٥٤ و ١٩٥٥) . ومع قصر هذه المدة فقد كانت خيرا وبركة على المعهد وعلى العاملين فيه من أمثالنا من الطلبة الذين كانوا يعدون رسائلهم لنيل الدكتوراه فقد كان مؤنس خير عون لنا على المضي في عملنا وجازيناه خيرا بخير ، فعاوناه على استكمال مكتبة المعهد حتى أصبحت من أغنى المكتبات العربية في أسبانيا ، وعلى تحرير العدد الثاني من مجلة المعهد التي لم تلبث أن عدت من المجلات الأكاديمية في أوروبا بقسميها العربي والأوروبي ، وكان مؤنس بحسه الذي ورثه عن عمله في الصحافة قد أرسى لها من التقاليد ما أصبح ضوابط متبعة فيما بعد سواء في اخراجها وتبويبها أو في محتوى مادتها العلمية التي حرص على أن تكون في أرفع مستوى . ومن هنا خف الى الاشتراك في تحريرها عدد من كبار المستشرقين الاسبان والاوروبيين . ولم ير مؤنس بأسا في ان يفسح صفحات المجلة لنا وكنا لانزال نعد رسائلنا الجامعية ، ففي هذا العدد الثاني نشرت أول بحث لي حول «التشيع في الأندلس» بالاضافة الى الاشتراك في باب نقد الكتب .

لم يطل مقام حسين مؤنس في اسبانيا ، فهو لم يتجاوز سنة واحدة ، ولكن ما أنجزه خلال هذا الزمن اليسير جعله دائم التطلع الى اكمال ما بدأه هناك .. وقد صور حنينه الى هذه البلاد قوله

في مقدمة كتابه «رحلة الأندلس»

«منذ ذلك الحين – يعنى زيارته الأولى لاسبانيا سنة ١٩٤٠ – لم يخرج الأندلس من خاطرى أبدا : اذا كنت فيه فأنا بين آثاره ومغانيه ، واذا كنت بعيدا عنه فأنا مع تاريخه أتأمله وأستوحيه».

● في مصر : مشروع الألـــف كتـــاب :

فى سنة ١٩٥٥ يعود مؤنس الى مصر فتعهد اليه وزارة التربية بما كان يسمى ادارة الثقافة ، وكانت ادارة كبيرة تتبعها ادارات مختلفة للنشر والترجمة والتعاون العربي والعلاقات الثقافية الخارجية ، وما كان أيسر على حسين مؤنس وأدعى الى راحته أن يظل فى هذا المنصب الكبير موظفا مرموقا مثل غيره من الموظفين فى انتظار الترقية الى وكيل وزارة .. غير انه كان طرازا آخر من العاملين فى الدولة : كانت راحته فى تعبه وجهده هو اشبه بالمتنبى الذى يقول انه جواد اضر بجسمه طول الجمام «أى الراحة» فهو يحلم دائما بعمل كبير يعود بالخير على مجتمعه ووطنه .. ومن هنا انبثق من فكرة مشروع «الألف كتاب» فقد كان يرى أن الأمة ـ أى أمة – لاتنهض إلا بالثقافة وان الثقافة حق للجميع واذا كان استاذه طه حسين قد أعلن من قبل فى مقولة مشهورة أن التعليم مثل الماء والهواء وان من حق كل فرد ان ينال قسطه من التعليم فإن مؤنس كان يرى أن الثقافة ايضا حق لكل مواطن وأن واجب الدولة هو أن توفر لكل فرد حظا من التثقف تيسره له وتجعله فى متناول يده بأيسر مئونة .

وهكذا شرع مؤنس فى اعداد هذا المشروع الضخم : أن ينشر ألف كتاب فى السنة اى بمعدل نحو ثلاثة كتب فى اليوم الواحد ، على ان تتناول هذه الكتب – مابين مؤلف ومترجم – كل مايعين على بناء المصرى الجديد بان يواكب حضارة القرن العشرين .. وتحولت ادارة الثقافة فى ظل المشروع الكبير الى خلية نحل : الموظفون فيها يعملون ليل نهار ، ومعهم عاملون من خارج الإدارة .. بعضهم عاكفون على اعداد قوائم بالكتب المختارة وعلى تكليف المؤلفين والمترجمين .. وآخرون للتعاقد مع دور النشر أو المطابع مع إلزام أصحابها بأن تكون الكتب فى متناول الجميع بقروش معدودة ، وبعد شهور قليلة أتت هذه الجهود أكلها . فإذا بالشارع المصرى يمتلىء بهذه الكتب فى طبعات رخيصة تسد حاجة الجمهور الى المعرفة بكل ألوانها وإذا بهذا العمل الجليل الذى أطلق مؤنس شرارته الأولى يصبح معلما من أهم المعالم المضيئة فى مصر فى أواخر الخمسينيات .

وكنت بعد أن أنهيت دراستى فى مدريد لنيل درجة الدكتوراة واحدا من معاونى مؤنس فى اعداد هذا المشروع ، غير أنه رأى بعد ذلك أن من الخير لمعهدنا فى مدريد أن أعود إليه لكى أواصل المسيرة التى بدأها هناك ، فانتقلت الى اسبانيا وكيلا للمعهد قائما بعمل المدير ، فقد كانت درجتى الوظيفية – بالاضافة الى صغر السن – لاتسمح بأن أتولى هذا المنصب وكان علىّ أن أواصل هناك العمل فى ضوء الخطة التى كان قد رسمها مؤنس أثناء ادارته الأولى للمعهد .

ظل حسين مؤنس فى ادارة الثقافة ثلاث سنوات حقق خلالها من المشروعات – ولم نذكر إلا واحدا منها – مالم يتحقق فى هذه الادارة من قبل على مدى سنوات طوال على انه كان لايزال مرتبطا

بالأندلس وبمعهد مدريد يرى فيه - الى جانب رسالته العلمية الأكاديمية - مركزا يربط بين العالم العربي والعالم المنبثق من اسبانيا أى بلاد أمريكا اللاتينية الناطقة بالاسبانية . ومن هنا كانت رحلته الطويلة التى كلفته بها مصلحة الاستعلامات فى أول سنة ١٩٥٧ لزيارة هذه البلاد وإنشاء عدد من المراكز الثقافية فيها ، وكانت جولة جاب فيها تلك القارة الهائلة الاتساع من المكسيك الى شيلى مرورا بالاكوادور وبيرو وبوجوتا ، وفى كل من عواصم هذه البلاد أنشأ مع زعماء الجالية العربية بها مركزا أو معهدا ثقافيا يكون على صلة بمعهدنا فى مدريد .

● الأندلس من جديد :

لعل حسين مؤنس كان يشعر بالرضا بعد انجازه الكبير فى ادارة الثقافة غير ان أداءه المتميز فى هذه الادارة لم ينسه أرض الأندلس التى ارتبط بها منذ زيارته الأولى فى سنة ١٩٤٠ ، وهكذا عاوده الحنين الى هواه الأول ، وكأنه ينشد مع شاعرنا القديم :

نقل فؤادك حين شئت مع الهوى
ما الحب الا للحبيب الأول

ومن هنا لم يتردد فى العودة الى مدريد ليكون مديرا من جديد لمعهدنا هناك فى سنة ١٩٥٨ وفى هذا المنصب ظل حتى بلوغه سن التقاعد فى سنة ١٩٦٩ وظللت معه وكيلا للمعهد حتى سنة ١٩٦٥ ولعل هذه السنوات الاثنتى عشرة كانت أكثر عهود تلك المؤسسة المصرية ازدهارا وعطاء وأكثر مراحل عمر مؤنس خصوبة وانتاجا فى الوقت نفسه .

كنا نعمل فى المعهد صباحا ومساء لا ننقطع عنه إلا نحو ساعتين فى وسط النهار كانت المجلة معرضا لما حفلت به من أبحاث علمية اشترك فى كتابتها مصريون وعرب واوربيون حول الحضارة الأندلسية بمختلف جوانبها .مطبوعات المعهد بالعربية والاسبانية تكاثرت وازداد الطلب عليها . لم يكن أسبوع يخلو من محاضرة يلقيها أحدنا فى مدينة اسبانية حول موضوع متعلق بالأندلس أو الثقافة العربية الاسلامية القديمة أو الحديثة فى مدينة كبيرة او صغيرة أو من ندوة نشترك فيها ، وقد اقتضى ذلك منا جولات لاتنقطع فى أنحاء شبه الجزيرة ، العلماء المستشرقون الاسبان وغيرهم من الأدباء والأساتذة الجامعيين يترددون بغير انقطاع على المعهد محاضرين او مشتركين فى أبحاثنا ، وبالتعاون معهم نظمنا مايعرف باسم الجلسات الأندلسية التى كان يعقد لها مؤتمر سنوى يقاوم كل عام فى احدى العواصم الاسبانية وأصبح ذلك تقليدا مستمرا . الاهتمام بالثقافة العربية والاسلامية يتزايد متمثلا فى اقبال عدد كبير من الطلبة على دروس اللغة العربية التى ينظمها المعهد وفى تردد الجمهور على مايلقى فيه من محاضرات او ينظم من ندوات او حلقات دراسية ، ولم يكن ذلك يمنعنا من نشر كتب ومقالات فى مجلات العالم العربى وصحفه ، وكنا نعمل ايضا على تعريف جمهورنا العربى بالأدب الاسبانى عن طريق الترجمة أو الدراسة .

خلال هذه السنوات أصدر حسين مؤنس عددا لايكاد يحصى من الكتب والمقالات بين تأليف وترجمة وتحقيق نصوص وكانت دائرة عمله الواسعة بطبيعتها تزداد اتساعا فهو - الى جانب تخصصه فى الدراسات الاندلسية - يكتب فى تاريخ الاسلام فى الشرق والغرب ، وترد عليه كتب بالعربية

ويمختلف اللغات الأوروبية فيكتب عنها عارضا وناقدا ، ويوافى صحيفة الأهرام أو غيرها بمقالات ذات طابع أدبى يعرض فيها الجديد من النتاج الأدبى الاسبانى والأوروبى ، ولهذا فقد كان اسمه مألوفا فى العالم العربى من الكويت الى المغرب الأقصى وخارج هذا العالم فى العواصم الأوربية والأمريكية .

كنا نتخذ من حسين مؤنس قدوة فى التنوع والخصوبة والانفتاح على كل ألوان الثقافة . وكنت أعجب من قدرة هذا الرجل على العمل وصبره عليه ، ومن طاقته العجيبة على الاشتغال فى أكثر من موضوع فى وقت واحد ، وما أكثر ماكنت أدخل عليه مكتبه فأراه - مع تصريفه لأعمال المعهد الادارية - وقد بسط أمامه أوراقا منها مايكتبه تحقيقا لنص تراثى قديم ، ثم لايلبث ان يترك ذلك الى ترجمة كتاب أو مقال ، وينتقل الى تحرير مقال أدبى ، وهو أثناء ذلك لايكف عن القراءة والتعليق على مايقرز ، ثم يستأنف العمل فى هذا أو ذاك من الموضوعات التى يشتغل بها بغير ان يضيق ذرعا بهذا التنقل ، وكأن كل شىء وجاهز فى ذهنه لايحتاج منه الى أدنى توقف .

وهو مع كل ذلك يحب الحياة ويقبل عليها ويحسن المتعة بها ، فلا يحرم نفسه من شىء منها : يستجيد الطعام فيحب أطيبه ، ويرتاح للنزهة فى أوقات فراغه وان كانت قليلة ، وهو مألف للناس لايغلق بابه دون أحد ، واذا تحدث فعلى حديثه طلاوة ساحرة وعباراته لاتخلو أبدا من فكاهة محببة أو نادرة مستطرفة.

● سنوات الكويت :

بعد بلوغ مؤنس سن التقاعد كان عليه ان يعود الى مصر ، ولكنه لم يستقر فيها الا زمنا قصيرا . اذ لم تلبث جامعة الكويت ان دعته ليلحق فيها بقسم التاريخ وفى البلد العربى الشقيق قضى ثمانى سنوات يباشر العمل خلالها استاذا للتاريخ الاسلامى بمختلف فروعه وقد استأنف هناك ألوان نشاطه فنشر فيها بعض كتبه واعاد نشر ماسبق له تأليفه ، وفى مجلات الكويت العلمية والسيارة كانت أبحاثه ومقالاته لاتكاد تنقطع ، ولم ينس اشتغاله المستمر بالصحافه ، فكان له عمود يومى فى صحيفة «القبس» بعنوان «كلمة طيبة» وكان يسجل فيها مايعن له من خواطر حول مختلف الموضوعات السياسية والاجتماعية والفكرية ولم يحل كل هذا النشاط بينه وبين العكوف على تحرير جديد للسيرة النبوية فى عدة مجلدات باللغة الانجليزية ، وهو مشروع طموح كان قد بدأ العمل فيه فى مدريد ثم واصله بعد ذلك بعد عودته الى مصر الا انه لم يقدر له ان يخرجه قبل انتقاله الى الرفيق الأعلى .

● عودة الطير المهاجر: (الهلال)

بعد أكثر من عشرين سنة فى هجرة متصلة كان على حسين مؤنس ان يقضى السنوات الأخيرة من حياته فى مصر ، ففى أواخر السبعينيات قرر العودة من الكويت ، فانتظم فى جامعة القاهرة استاذا متفرغا فى قسم التاريخ ، وهو القسم الذى بدأت حياته العلمية فيه وفى الوقت نفسه عاوده الحنين الى الصحافة التى جمع بينها وبين عمله الأكاديمى منذ مطلع حياته ، وكان من الاتفاق السعيد ان تكون عودته الصحفية ايضا الى دار «الهلال» التى بدأ عمله فى احدى مجلاتها وهى «الاثنين» منذ أوائل الأربعينيات فقد اختارته الدار العريقة

رئيسا لتحرير مجلة «الهلال» الشهرية التى ظلت منذ انشائها فى سنة ١٨٩٢ من أبرز معالم نهضتنا الثقافية والذى تولى رئاسة تحريرها بين ١٩٧٧ ، ١٩٨١

وقد استمرت صلتى بمؤنس لم تنقطع خلال تلك السنوات . وكنت قد قضيت فى مصر اربع سنوات بعد عودتى من اسبانيا ثم دعانى المعهد المكسيكى استاذا زائرا فى سنة ١٩٦٩ ، و هناك قضيت سنتين دعتنى بعدهما جامعة الكويت استاذا بها فرافقت استاذى حسين مؤنس هناك فى نفس الجامعة على مدى ست سنوات عدت بعدها الى مصر فى آخر سنة ١٩٧٨ .

وفى «الهلال» تجدد لقاؤنا ، وكأن حياتى قد ارتبطت بحياته فى الغربة وفى الوطن ، فقد طلب الىّ أن أعاونه فى تحرير المجلة ، فكنت أكتب فيها بابا شبه ثابت بعنوان «من ديوان العرب» وهو يقوم على الاجابة عن أسئلة يبعث بها القراء الى المجلة يستفسرون فيها عن بيت شعر مجهول القائل أو عن قصة مثل مشهور أو خبر لاتعرف تفاصيله ، وكانت تجربة طريفة سعدت فيها بلقاء قراء «الهلال» كما كنت أكتب فى الهلال ما اتسع له الوقت من بعض الأبحاث أو المترجمات .

أما افتتاحيات مؤنس لأعداد المجلة ، وماكان ينشره فيها من مقالات أو تحقيقات فانها تعد قطعا ادبية رائعة وكان بحكم سعة ثقافته وتنوعها يعالج فيها موضوعات بالغة الطرافة والتباين من تعليقات سياسية الى اجتماعية او فنية كانت مثل المقالات التى بدأ بها العمل فى مجلة «الاثنين » غير انها بعد تلك الخبرة الطويلة فى الحياة والزاد العلمى والثقافى الذى حصله على مدى السنوات السابقة - كانت أعمق غورا وأغزر فوائد وأكثر تألقا ونضارة .

ثم واصل مؤنس بعد ذلك الكتابة الصحفية فى مجلة «أكتوبر» فكانت مقالاته الاسبوعية فى هذه المجلة من أروع ما ازدانت به هذه المجلة وكان يقدم فيها أحيانا صفحات من تاريخنا وتراثنا وأحيانا اخري تعليقات نقدية لما يراه في مجتمعنا المعاصر او معالجة لبعض قضايا الساعة .

ولم يمنعه ذلك العمل الدوب من استئناف جهوده البحثية ، وكان قد انتخب عضوا في مجمع اللغة العربية ، وشاء حظى ان انتخب معه فى نفس الجلسة فتزاملنا ايضا فى هذه المؤسسة العتيدة ، وكان نشاطه فى المجمع كالعهد به : يشارك فى عدد من لجانه مقررا أو عضوا ، كما يساهم فى مؤتمره السنوى بأبحاث أو محاضرات نالت دائما اعجاب الجميع ولم ينقطع عن جلسات المجمع الا بعد ان اقعده المرض قبل وفاته بنحو سنتين بعد ان جاوز الثمانين من العمر

● انتاج لا مثيل له في غزارته وجودته :

لو أن المرء تأمل ماخلفه قلم حسين مؤنس من كتب ودراسات لما تمالك نفسه من العجب : كيف ينتمى كل هذا النتاج الى قلم واحد ، وهو كثير على جبل من الباحثين ؟

فى ميدان الكتابة التاريخية يكفى أن ننظر الى مؤلفه الجامع «فجر الأندلس» الذى يقع فى نحو ٧٥٠ صفحة ، وفيه يتناول تاريخ الأندلس خلال نصف قرن فحسب فهو من الدقة والعمق والاستقصاء بحيث لامزيد ، وكتابه عن «الجغرافيين فى الأندلس» ويقع فى مثل هذا العدد من الصفحات يعد أكبر بحث

في هذا الموضوع الذى يجمع فيه بين المعارف الجغرافية والتاريخية . ومثل ذلك يمكن ان يقال عن كتابه عن «التاريخ والمؤرخين» وعن «الحضارة» المنشور في الكويت ، وعن «مصر ورسالتها» وهذان الكتابان الأخيران خلاصة لتجارب مؤنس وقراءاته في التاريخ العام ، فهما دراسة تنتميان الى مايمكن ان يسمى بفلسفة التاريخ ، فهما اشبه بمقدمة ابن خلدون في شمول الاحاطة بمسيرة الانسانية وعمق النظرة الى بواطن الأمور ومغزاها العميق لا الى التاريخ في ظاهرأحداثه .

وفي كتابيه «صور من البطولة» وسيرة نور الدين محمود» دروس على القارىء المصرى والعربي ان يستوعبها حتى يؤمن برسالة أمته في قافلة الحضارة الانسانية . هذا ولم نتحدث عن مقالاته وابحاثه التاريخية حول الأندلس والشرق العربي والاسلامي ، ولو جمعت هذه المقالات لألفت عددا كبيرا من المجلدات الضخمة

وفي ميدان تحقيق التراث يكفي ان نشير الي عمله في اخراج كتاب «الحلة السيراء» لابن الأبار البلنسي و «رياض النفوس» للفقيه ابي بكر المالكى القيرواني، و«اسنى المتاجر» للونشريسي ، وهو كتاب حول أوضاع المسلمين الموريسكيين الذين خضعوا لدولة اسبانيا المسيحية و«ضوابط دار السكة» للحكيم ابى الحسن على بن يوسف ، وهو كتاب يعالج موضوعا اقتصاديا بحتا

وفي ميدان الترجمة علينا أن ننوه بترجمته لدراسة المستشرق الاسباني غرسية غومس عن «الشعر الاندلسي» ولكتاب جونثالث بالنثيا عن «تاريخ الفكر الاندلسي» وهو أشبه بموسوعة ضخمة حول الثقافة الاندلسية والحقيقة ان في اطلاق اسم الترجمة على هذا الكتاب ظلما لحسين مؤنس ، ففيه من الاضافات والنصوص الكاشفة مايجعل مؤنسا مشاركا في تأليفه

هذا عن الترجمة العلمية ، وأما الترجمة الادبية فلحسين مؤنس مشاركة قيمة فيها . فقد ترجم عن الاسبانية مسرحية للوركا هى «الزفاف الدامى». ولعميد المسرح الأسباني في عصره الذهبى لوبى دى بيجا مسرحية «فونتى او بيخونا» او «ثورة فلاحين» وهما من أجمل نصوص الأدب الاسباني القديم والحديث ، وله ترجمة أخرى عن الانجليزية لمسرحية جون شتاينبك «ثم غاب القمر» .

وفي ميدان الابداع الأدبى نجد له أيضا انتاجا متميزا اذكر منه «حكايات خير ستان» وهى مجموعة من القصص الرمزية و «أهلا وسهلا» وهى رواية طويلة ذات مغزى سياسى واجتماعي و«الطريق الأبيض» وهى مسرحية بالاضافة الى مجموعات من القصص القصيرة لعل أبقاها في أذهان القراء قصته المشهورة التى تتجلى فيها قدرته الساخرة «ادارة عموم الزير» حول البيروقراطية المصرية وكان من ذيوع هذه القصة ان ذهبت «ادارة عموم الزير» مثلا سائرا بين الناس

* * *

وبعد فإن انتاج حسين مؤنس في سائر الميادين يتعذر استقصاؤه ، وهو يحتاج في تنوعه ودلالاته وجودته الفائقة يتطلب أكثر من دراسة . وإنما ألمحنا الي عدد قليل منه على سبيل التمثيل لا الاحصاء .

رحم الله هذا القلم الذى لم يخلد الى راحة والذى كان غذاء روحيا وعقليا ممتعا لجمهور عريض من القراء على مدى أكثر من نصف قرن !

رحم الله حسين مؤنس وتغمده برضوانه وأجمل فيه عزاء اسرته وعزاءنا وعزاء دار الهلال التى انتمى الى اسرتها خلال شطر كبير من حياته رحم الله حسين مؤنس ، فقد كان أمة وحده ! ..



قطع رأس

اشتغلت بالمحاماة ثلاث سنوات «طويلة» في الريف والمدينة، تمنيت أن أحذفها تماما من سجل حياتى وأفلحت بعد عناء كبير أن أدفع بها إلي أعمق أغوار السرداب المظلم المعتم حيث يختزن الإنسان كل مرارات الفشل وعذابات وسقطات وسوءات حياته عامة والذي يحكم العلاقه لأنها كثيرا ما تتسرب وتتسلل وتثير الماضي بأوجاعه وآلامه» !

ولم يكن ذلك ما توقعته حين قررت العودة إلى «الجذور» «والبدء من حيث نشأت. وفى أول الأمر فرحت أمى وسعدت ونسيت أحلام السفارة والوزارة ويكفيها «أنى سوف أقيم معها، وكذلك كان أبى، والذى أصبح مزهوا» لأن فى البيت «استاذ» ويقرع الناس الباب فى الصباح أو المساء لاستشارة قانونية أو حضور تحقيق أو التوكيل فى قضية.. طبعا بلا أتعاب، وقبل كل شىء دراسة قضاياه ومشاكل شيخ البلد !

وكنت واثقا أنى سوف أقدم نموذجا جديدا يبطل كل الصور والدعاوى التقليدية لمحامي الأرياف والذى يقبل كل قضية رابحة أو خاسرة والذى لا يعنيه سوى الاتعاب والذى يستبسل فى إقامة العلاقات وكسب ثقة أصحاب الاملاك وذوى النفوذ .. وقضاياهم «الدسمة» !

سوف أكون «محامى» من لا محامى له ومن أغتصبت حقوقه الخاصة أو العامة !

كانت رومانسية «ثورية» وأحلاماً .. بلا

الأفندى .. وهموم الهروب منه .. قصة محمد عودة



محمد عودة

أوهام »..!

وكنت قد قرأت قصة رسيت فى نفسى عن الزعيم الفيتنامى «هوتشى منه» الذى كان يؤمن مثل الزعماء الآسيويين «أن الفلاحين عماد الثورة»» ، ووضع استراتيجية شعارها أن «كل قرية قلعة» وأن يتحول الريف إلى سلسلة من قواعد المقاومة يغرق فيها الفرنسيون .

وذات يوم أرسل أحد «الكوادر» إلى قرية بعيدة ولكن ذات أهمية استراتيجية، لتجنيد أهلها، وما لبث أن عاد ليخبر الزعيم أنها قرية ملعونة لا يرجى منها خير وأن أهلها مدمنو أفيون ولا انتماء لهم أو جدوى من العمل بينهم .

واستمع إليه الزعيم وأعفاه من المهمة وكلف بها «رفيقا» آخر، ولما أحتج قال له «نحن نقوم بالثورة لنرد لهؤلاء الناس إنسانيتهم وإذا يئسنا من قرية فلا مناص من أن نيأس من الجميع» وخجل وطلب أن يمنح فرصة أخرى وأصبحت القرية من أشهر «قلاع» المقاومة.

كانت قريتنا بالطبع شيئا آخر ، ولكن تمثلت ؛ وعظة دائما.

لن أرى الريف من كرسى وكيل النيابة الآمن ، كما فعل توفيق الحكيم ولن أراه من شرفة الاقطاعى النبيل كما فعل محمود تيمور ، ولكن من «الميدان» كواحد من أهله لم تعد مهمة المثقف «الفلاح» أن يشخص أو يفسر أو يندب ولكن أن يغير، وتضمنت الأحلام أن أكتب رواية عن «الفلاح» كرواية انجبتاريو سيطون الايطالى أو مثل رواية «الأم» التى كتبها جوركى عن العمال والتى أصبحت تعويذة

«العمال» وتحول من يقرأها من مستغل إلى مناضل.

ولم يكتب عن الفلاح سوى رواية واحدة كتبها أديب فرنسى فى القرن التاسع عشر فى عصر إسماعيل بعنوان «أحمد .. الفلاح» لادمون أبوا . ولم يعن بها أحد لهذا السبب، وظل مكان الفلاح شاغرا تماما فى الأدب المصرى .

وقد تغير الفلاح والريف، بل تتابعت التغيرات ، ونشهد الآن تغييّرا جوهريا جذريا، وكنا قد أتفقنا أنا والأستاذ أن رياح الثورة الاجتماعية نفذت إلى الريف وأن الثورة القادمة لن يتبع الفلاحون فيها الباشوات والبكوات ، ولكن قد يتعبهم هؤلاء.. وأنه لابد وأن تنتشر «الكوادر» فى الريف !!

وكانت استراتجية الثورة القادمة محور مناقشات طويلة استنفدت منا ليالى وأياماً ولم نستقر على رأى : هل تتم بضربة قاصمة وبالاستيلاء على القاهرة : وأقتحام قصر عابدين واعتقال الملك والأسرة المالكة ونفيها من مصر كما حدث فى «سان بطر سبورج» وعلى الطريقة الروسية، أم تتم بالزحف الطويل المضنى، وحرب الشعب من جبال نبان حتى بكنج وشنغهاى على الطريقة الصينية أم أنها - وكان هذا هو الرأى الذى نميل إليه سوف تكون تطويرا وتنويعا جديدا ، لثورة ١٩١٩ سوف تأخذ الطريق «المصرى» إلى الحرية، والذى ابتدعه المصريون عام ١٩١٩ .

كان يكفى أن نبدأ الحديث عن تلك الثورة حتى تتملكه نشوة عارمة ويستغرق في حلم، وتتتابع ذكريات وأحداث وأشخاص ، تستنفذ كل الوقت ، لا تنتهى.

«كان يقول لم يكتب بعد تاريخ هذه الثورة ولن يكتبها مؤرخ عادى كانت ثورة فريدة فى كل تاريخ الثورات، لم يديرها أو يخطط لها أحد.. وقام بها كل الشعب من الأمراء حتى المعدمين كل الطبقات والفئات انتفاضات عارمة بطول البلاد وعرضها كل المدن والقرى والنجوع..»

«اختمرت أربعين عاما فى عقل وقلب ووجدان الأمة، ثم انفجرت كمنارة لكل الثورات المجهضة والتى فشلت زورا وبهتانا !!

وكان يقول «هل تعرف أن هذه الثورة تدرس فى التاريخ الامبراطورى» البريطانى كاحدى الصدمات والسقطات الكبرى وأشدها وقعا بعد الحرب العالمية

الأولى كان هناك إجماع لم يشذ عنه أحد أن المصـــريين ينتظرون اليـــوم الذى ينضمون فيه إلى الامبراطورية البريطانية شكلا وفعلا، وكتب «كرومر» آخر ما كتب مذكرة طويلة يؤكد فيها ذلك ويختم بها حياته» !

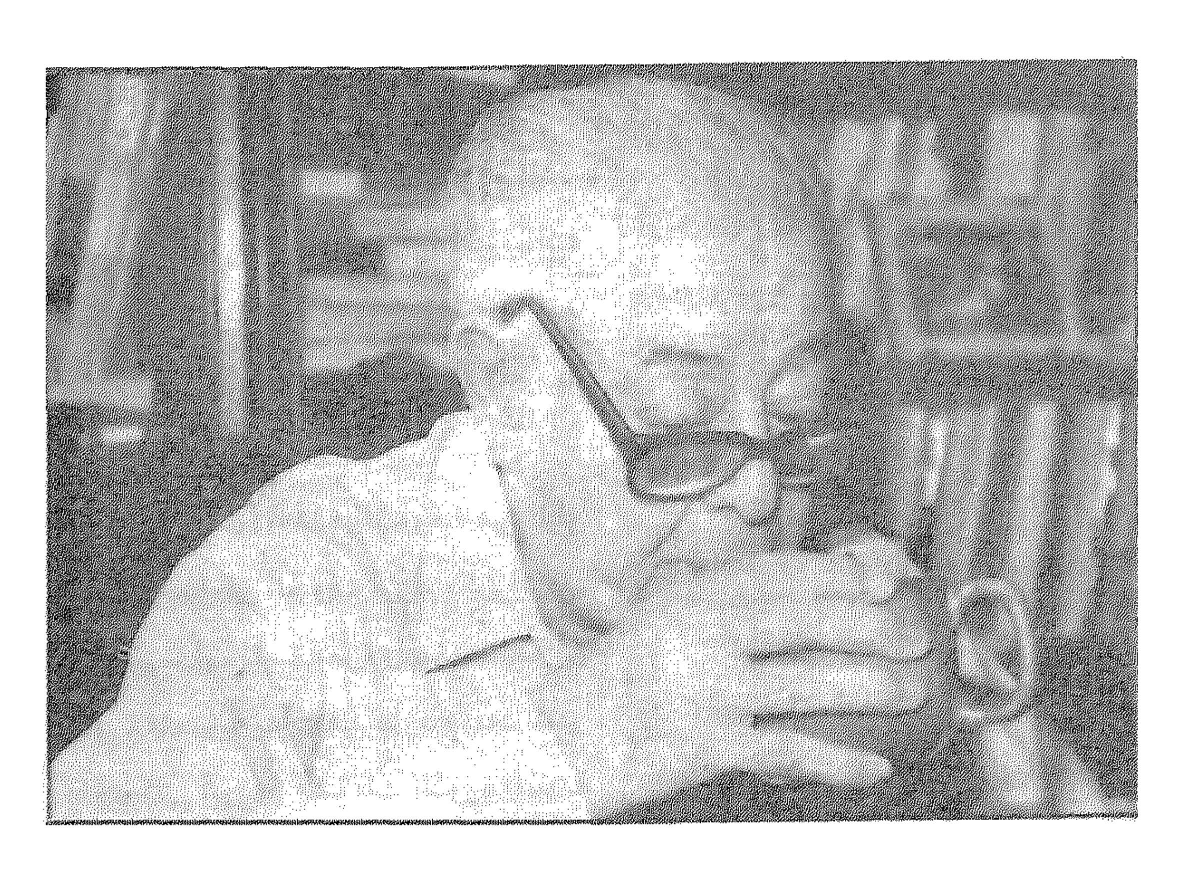
وكان يقول «هذه الثورة ، هى التى كسرت حاجز الخوف أن لم يكن الرعب لدى الشعوب المستعمرة وليس صدفة أن الثورة المصرية بدأت فى مارس وبعد شهر واحد (فى أبريل) اشتعلت الثورة الهندية وبعد شهر آخر فى «مايو» امتدت ألسنة اللهب إلى الصين.. وتداعت الأعمدة التى تقوم عليها الامبراطورية ولم تستقم حتى انهارت وغربت الشمس !

كانت الأحاديث تتابع والذكريات تتدفق . وكانت ذروتها قصته ومغامرته الكبرى شخصياً .

.«كنا حلبه ثلاثية ، وكانت مهمتنا هى تصـفـيـة ثلاثة من أشـرس الموظفين البريطانيين وأشدهم دموية. وقررنا تأكيدا لمبادئنا . أن نرسل لكل منهم حيثيات وأسباب الحكم بتصفيته وأعطينا لكل منهم أسبوعين لكي يستقيلوا، ويرحلوا عن بلد لا حق لهم فى البقاء فيه، وعن شعب أرتكبوا فى حقه كل الفظائع، وتأكدنا من وصول الخطابات اليهم، كنا على علاقة مع «السفرجى» الذى يعمل لدى أحدهم بواسطة أحد الزملاء النوبيين.. وبالطبع هزأوا وسخروا ، وعرفنا بعدئذ بأنه فى الليلة المحددة للإنذار أقاموا حفلة صاخبة .. لاشك أمعانا فى الهزء والزراية ..

وفى اليوم التالى وفى الموعد بالضبط تمت تصفية ثلاثتهم ، يحدث فزعا ودويا فى الإدارة البريطانية واستماتوا فى البحث عن «الارهابيين» ولم يصلوا إلى شىء.. !!

« هل تعرف معالى وزير الصحة الذى زارنا اليوم وجاء متخفياً فى سيارته الصغيرة.. هذا تربى وتعلم فى بريطانيا منذ صغره حتى تخرج طبيبا، وانضم إلى حزب العمال البريطانى خلال دراسته، وأصبح من أبرز شبابه، وأقام صلات وثيقة حميمة مع الزعماء والقادة، والنواب فى مجلس العموم والكتاب والمعلقين فى صحف الحزب ، وحينما قامت الثورة، فى مصر جند الحزب وسخره لتأييد الثورة وذهب إلى باريس وتطوع فى سكرتارية



سعد باشا وتفانى فى العمل الوطنى، وأصبح سفير سعد باشا الخاص لدى حزب العمال البريطانى وهكذا المناقشات بلا نهاية. وأخيرا تغلب الرأى بأن الثورة القادمة سوف تكون اضافة خلاقة للتراث، وسوف تشتعل بنفس الطريق المصرى فى يوم واحد غير منتظر، وتعم كل المدن والقرى، وتفرز زعامتها وقيادتها بل ومفكريها ومثقفيها بأعمق وأفضل مما حدث سنة ١٩١٩، وفى هذه المرة لن يستطيع البريطانيون أن يجهضوها وسوف يكون هناك العمال والفلاحون ، والكوادر الثورية العلمية وسوف يبدأ التاريخ ».

وهكذا رحلت ..

وبغير حاجة إلى رواية التفاصيل كانت التجربة مع الواقع مختلفة «ومريرة» وكان الريف من شرفة ڤيلا الأستاذ، وفى الكتب وعبر التجارب فى بلاد بعيدة مختلفا عما يحدث..

كانت المهمة الأولى كسب العيش.. وكان هذا يعنى استغراق الوقت بين المحكمة والمركز والمستشفى الأميرى وتفتيش الزراعة ، وهندسة الرى وبنك التسليف.. وقلم المحضرين وإدارة الخبراء ومكاتب الخبراء الاستشاريين ، وكان

الطقم الحاكم فى المركز يبدأ من العمدة ومشايخ البلد حتى المأمور وسعادة وكيل النيابة وحكيمباشى المستشفى الأميرى . وباشمهندس الرى، ومفتش الزراعة.. ومدير بنك التسليف .. إلخ وكان هناك طاقم سفلى «لا يقل أهمية هو كاتب الجلسة ووكيل المكتب وحضرة الصول النوبتجى ، والباشمحضر» .

وكانت أول مراتب النجاح ، فى كسب العيش، هو توثيق العلاقات مع الاعيان ثم مع الحكام.. وكانت مهمة «مستحيلة» تعثرت فيها وربما استنكفت أن أمضى فيها.

وكانت المشاكل والمصائر تحسم وتتقرر فى الليل على موائد أصحاب النفوذ، وكان البندر يقفر ويوحش بعد غروب الشمس ولا تجد هناك بديلا سوى السهر فى بيوت وقصور هؤلاء .

كان القطار الأخير يصل فى الثامنة والنصف مساء وكان معظمهم ينتظره من أجل جريدة المقطم، وأهم ما فيها هو أسعار القطن، وبعد أن يشترى كل منهم نسخته ليقرأها أو يقرأها له أحد، يتحرك الركب ويلحق به طاقم الحكام . ويبدأ ليل آخر تمد فيه الموائد بأطيب الطعام وأفخر الشراب وعلى رأسها «السكوتش» وتطرح كل المشاكل ويحل معظمها لمصلحة الجميع ما عدا بالطبع «الفلاحين» .

وكانت ليالى الأسبوع وسهراته توزع بالعدل بين «الأعيان» وكانت رؤية الطاقم الحاكم مختلفة تماما بالليل عنها وهم على مكاتبهم فى النهار يمارسون السلطات، فأدركت وتأكدت أن القانون الذى درسناه لا صلة له بالممارسة التى تتم فى الواقع.

مأساة الفلاح

وربما كان الاكتشاف الآخر والأشد وطأة هو مواجهة المسخ الذى يفعله القهر بشخصية الفلاح ، ورؤية الفلاح المنافق الذى يجيد استرضاء الملاك والحكام والفلاح المشاغب «المرازى» الذى يتقن التلاعب باللوائح والقوانين بأبرع مما يستطيع المحامى، والفلاح «المأجور» والذى يسخره المالك لغرض سيطرته وارهابه على فلاحيه، وكان لكل واحد من الاعيان «عصابة» أو «منصر» يشيع الرعب والخوف وتبقى الأغلبية بلا حول ولا طول. وذات يوم ذهبت لأزور أطول الفلاحين عمرا فى القرية والذى كان قد تجاوز

التسعين ، وكان على فراش الموت، وتحدث عن شبابه.. أيام الخديو . وفجأة ارتسمت في عينيه نظرات رعب وفزع مروع لم أنسها أبدا وظلت شبحا مؤرقا لي لزمن طويل !!

المؤامرات

وانتشر وباء الكوليرا ذات يوم وفي المنطقة القريبة من المعسكرات البريطانية وأعلنت حالة الحصار ، ولم يخالجني شك بانها جريمة «بريطانية» متعمدة، وكنت قد قرأت تحقيقا صحفيا عن مجاعة البنغال في الهند خلال الحرب العالمية الثانية والتي راح ضحيتها ثلاثة ملايين هندي ، في أكثر ولايات الهند مقاومة للبريطانيين ، وكيف أنها كانت من تدبير حاكم الولاية البريطاني ردا على الشعار الذي رفعته الحركة الوطنية الهندية بالجلاء فورا عن الهند ليدافع الهنود عن وطنهم وليس عن الأمبراطورية !

ثم أكد ذلك رواية أرسلها لي «الاستاذ» بعث بها إليه المؤلف وكان روائيا بريطانيا اسمه «جيرالد هنلي» كانت بعنوان «القنصل عند غروب الشمس» وتقدم رؤية لسنوات الاحتضار في حياة الامبراطورية وفي فصل من فصولها يقدم الحاكم العام خبرته للشاب الجديد الذي يتسلم منصبه في ولاية أفريقية قائلا حينما تعوزك كل الوسائل ولا يبقى أمامك مخرج: أشعل حريقا كبيرا أو أنشر وباء أو افتعل مذبحة، أي حدث مروع يذهلهم ويشل إرادتهم »!

وهيىء لي أن عليّ أن أساهم وأضرب مثلا ، وكان أفراد الطاقم الحاكم يتحدثون عن الوباء وكأنه في بلد آخر بعيد وليس في قلب المديرية.. وأبديت رغبتي لطبيب شاب يعمل في الميدان ولكنه قال لي بمرارة «ماذا يمكن أن تفعل .. سوى أن يصيبك المرض، كل شيء هناك فوضى ولا تصدق شيئا في بلاغات الحكومة أو بياناتها .

وأول أمس ماتت أنشط الممرضات ولم نستطع إنقاذها».

ولم يكد ينحسر وباء الكوليرا .. حتى انفجر وباء الملاريا .. وامتد حتى قريتنا . وكان لابد من عيادة المرضى وزيارة بيوتهم من الداخل، وكانت صورا مرعبة، لم أتصورها أنا الذي أعيش بينهم.

وكان لي قريب صغير توسمت فيه الأمل وكان أول الذين قررت أن أتعهد بتكوينه وتعليمه، وحينما اشتدت عليه

الحمى، لجأت إلى حكيمباشى المركز وبعد إلحاح شديد اصطحبته إلى القرية فى محاولة لإنقاذه، ولكن الوقت كان متأخرا، وظللت إلى جواره ومعى أمه «خالتى» حتى لفظ أنفاسه فى هدوء، وكانت صورة أخرى لم تمح

ولم ألبث أن سقطت صريع الملاريا وكانت مرضا لا يعجز المريض فحسب بل ويسخر به أشد السخرية، وكلما هيىء لى أننى شفيت وأستعد للخروج تعاودنى النوبة بأشد مما كانت وأتصور «النهاية» وسط الوباء ولم أحقق شيئا بعد!!

وعثرت وسط هذا الشقاء والظلام المتفاقم على واحة وارفة اكتشفتها صدفة كما حدث لى مرات كثيرة.

الاكتشاف

التقيت فى إحدى السهرات فى بيت أحد الأعيان، بضيف من غير الطاقم المحلى، كنت أراه لأول مرة، وأدهشنى أنه يدخن «البايب» فى هدوء، ويبدو عليه أنه من أهل القاهرة أو الاسكندرية. وبعد أن تمت قراءة أسعار القطن ، أخذ يناقش التغيرات المتوقعات فى الأسعار بدراية واسعة وعرفت أنه يشغل منصبا مهما، فى تفتيش الزراعة فى المديرية وحينما بدأت

التكــــــوين

السهرة سمعت ابن المضيف وكان طبيبا درس لبعض الوقت فى بريطانيا يقول له:

ـ الخواجة «بنايوتى» لايعترف بالأيرلندى ويقول ويسكى يعنى سكوتش وضحك الأثنان ، وتناول الضيف قدرا لا بأس به من الأسكوتش واشتركنا فى نقاش حول أنواع الويسكى الاسكتلندى والأيرلندى والأمريكى. وقبل أن يستأذن للرحلة إلى الزقازيق أعطانى الكارت وأنه يرحب بى إذا ماجئت.

وكنت أستثقل ظل هذه المدينة ولا أذهب إليها إلا مضطرا، وكانت تتميز بقبح خاص تفوق به قبح كل مدن المديرية. إن لم تكن مدن المملكة، ولكن ذات يوم ذهبت لاستيفاء سندات وأوراق قضية «مهمة» كانت أول مرة أتقاضى فيها أتعابا مجزية «وكان كسبها ضروريا»..

وذهبت إلى دار المديرية.. وصعدت كل الأدوار، وتنقلت بين كل المكاتب والغرف وحولنى رؤساء الأقلام كل منهم للآخر، ورفضت عروض الوسطاء فى الردهات ممن «يشهلون» المشكلات وحينما وصلت إلى حافة اليأس تذكرت مدخن البايب

وسـألت عنه ودخلت عليـه مكتـبـه بلا استئذان وكـان يجـمع أوراقه للإنصراف ولكنه رحب بى بحرارة وشرحت له المشكلة وسلمتـه ما معى من مستندات وراجـعـها وقال:

ـ بسيطة أتركها لى ثلاثة أيام.

وتنفـست الصـعـداء وشكرته شكرا عميقا وتأهبت للإنصراف، فقال لى:

ـ هل أنت عائد إلى فاقوس.

ـ نعم.

ـ هل معك سيارة.

ـ لا، سـوف آخـذ قطار السـاعـة الرابعة.

ـ أمامك ساعتين.. وربما أكثر.. هذا القطار قلما يصل فى مواعيده.

ـ الحياة انتظار.

ـ إذن تتناول الغـداء مـعـى.. أنا «شرقاوى» من هنا.

ـ لاداعى مرة أخرى تكون مستعدا.. سوف أحضر ثانية.

ولم يترك لى فرصة للإختيار وأمسك سماعة التليفون وتحدث بالإنجليزية إلى زوجته قائلا:

ـ مـعـى ضـيف على الغـداء هل تستطيعين إطعامنا. وبدا أن الرد كـان إيجابيا، وقال لى سوف نأكل وجبة مصرية صميمة، عندنا مولد فى القرية، وكل أسرة تتطوع كل يوم بصينية كبيرة.. والدور علينا اليوم..

وهيـأت نفسى لمقابلة انجليزية أو أيرلندية تعيش فى هذه البلدة القبيحة وتعاطفت معها مقدما، وكنت قد اكتسبت خبرة فى معاملة الزوجات البريطانيات!!

وقطعنا مسافة طويلة بالسيارة حتى وصلنا إلى قرية بعيدة عن المدينة وتتابعت المفاجآت.

قابلتنا فلاحة جذابة ممشوقة القوام ترتدى زيا ريفيا أنيقا وتبدو خارجة على التو من متحف مختار ورحبت بى بلهجة الشـراقـوة «تعطيش الجـيم» وتصـورت للحظة أنها قد تكون شقيقته ولكنه حسم الشك حينما قال:

ـ السيدة حرمنا.

وكان البيت مفاجأة ثانية، كان مبنيا «بالطوب» الذي يبنى به الفلاحون بيوتهم، وكأنه صورة معدلة من عمارة «حسن فتحى» ويشعر الداخل إليه بكل ماينادى به حسن فتحى أى بمصريته وأصالته وراحة جسده وروحه وأنه عش آدمى وليس علبة كبريت مثل شقق العمارات الحديثة.

وبعث كل الحلم الذى وضعناه أنا والأستاذ وحسن فتحي، وكان قد انضم إلينا وأصبح من الزمرة ..

ورغم كل خلافاتنا .. اتفقنا على صورة ريف المستقبل، وسوف تصبح مصر واحة خضراء زاهية ممتدة من الاسكندرية إلى أسوان تزخر بمزارع جماعية وتعاونية وفردية، وبقرى تعكس أصالة مصر وحضارتها وتراثها المعمارى، وهى قرى بناها الفلاحون بأنفسهم ولأنفسهم ولكى تزدهر منها حياتهم وعلاقاتهم.

ودخلت زوجته بصينية وعليها زجاجة وأكواب وقال:

ـ هذا هو الويسكى الأيرلندى الذى يرفض «بنايوتى» الاعتراف به ـ البقالون اليونانيون عندنا يفرضون الذوق وطريقة الحياة.

وبالطبع عرفت أنه خريج أيرلنده ودرس الزراعة هناك وتخصص فى التعاون الزراعى وعاد متشبعا بالتجربة الأيرلندية.

وعرفت أنه تزوج قريبته وتولى تكوينها من جديد. وعلمها الانجليزية وصحبها إلى أيرلنده.. وهى لاترتدى الزى الأوروبى إلا حينما تسافر إلى القاهرة لترى ابنها

التكـــــوين

الذى يدرس فى الجامعة . ويرفض أن يرى أمه فلاحة!!

وتناولنا غداء ريفيا صميما .. «فتة باللحمة المسلوقة» وطواجن، وبلح الشرقية المشهور.

وقال: ننتقل لتناول القهوة فى المكتب.. ولأول مرة أرى غرفة مكتب وبها كتب وجاءت زوجته بالقهوة وقال لى:

ـ أول مرة سوف تشرب القهوة الأيرلندية ويعتز بها الأيرلنديون خاصة، وهى تصنع من البن والويسكى والقشدة.

ورأيت صورة كبيرة معلقة على الحائط لبعض الطلاب المصريين بلباس الجامعة الايرلندية ويتوسطهم أستاذ مهيب الطلعة وقلت له:

ـ من هذا اللورد المهاب الواقف

وضحك طويلا وقال:

ـ سوف يغضب كثيرا لهذا الوصف هذا باشا مصرى صميم، من أسرة كبيرة عريقة، وشقيقه هو الطبيب الخاص للملك وزوجة شقيقه هى الوصيفة الأولى للملكة.

ـ الارستقراطيون يتشابهون عادة

وضحك مرة ثانية. وقال:

ـ هذا باشا وطنى شعبى ينتمى عقلا وقلبا وجسدا «قالها بالإنجليزية» لأرض مصر وفلاحيها ونذر حياته لذلك .

وذهب إلى المكتبة وتناول كتابا وقال:

ـ هذا من أجمل الكتب وأهمها فى المكتبة المصرية وإن لم يترجم إلى العربية.

كتبه الباشا بعنوان «مصرى فى أيرلندة».

وواصل كلامه قائلا:

ـ هذا الكتاب آثار كل الاهتمامات لدى صدوره هناك وكتبت مقدمته أشهر أديبة وناقدة أيرلندية «سوزان مينشيل» وقالت هذا أحسن كتاب أجنبى عن أيرلندا وشعبها وأحسن كتاب قدم فيه أجنبى شعبه وبلاده للأيرلنديين.

وواصل كلامه قائلا :

والأيرلنديون معتزون أشد الأعتزاز بكل ماهو أيرلندى ولاينافسهم فى ذلك إلا المصريون ويجمعهم أيضا الكراهية العميقة للبريطانيين وان كانت معركتهم ضدهم تمتد لأربعة قرون!

وجلست أتصفح الكتاب وقد أهداه المؤلف إلى الجيل الجديد الناهض فى مصر، وكان محوره التعاون الزراعى والصناعى فى أيرلنده وبريطانيا ومايمكن أن تستفيده مصر وتستوعبه من التجربتين كان الكتاب يتناول قصة حياته والنتائج التى انتهى إليها والدور الرئيسى الذى يمكن أن يلعبه التعاون فى بناء مصر الحديثة.

وقال لى المضيف إنه يمكن أن يقرضنى الكتاب لأقرأه ثم نعقد جلسة لمناقشته واستمر قائلا:

ـ الزراعة التعاونية والزراعة الجماعية أيرلندية الأصل، وقد سبقت الكولكور والسوفكوز السوفييتى، وأغلب الظن أنها كانت المرجع الأول عند لينين، والباشا هو الأب الروحى للفكرة فى مصر وراعيها الأول بل ويرى فيها طريق الخلاص الوحيد، ولكن قيام تعاون زراعى أو صناعى حقيقى مستحيل فى ظل النظام القائم.. لابد من أن تسبقه تغيرات جذرية وسادة الأرض عندنا لايمكن أن يسمحوا بذلك.

وأحسست لأول مرة أننى أستطيع أن أتحدث بصراحة مع أحد، وأن أجدد أحلامى وآرائى فى الريف، والتى كان الصدأ قد نفذ إليها وبحت له بالسر وأننى بدأت فى وضع خريطة ودراسة طبقية، للقرية وتوزيع الأرض والثروة عامة. فى المديرية ولكن لم أستطع أن أستكمل البحث.

وقام وأخرج ملفا من المكتبة وبسط عدة خرائط قائلا: هذه قد تفيدك، وقد حاولت المشروع نفسه منذ عامين ووصلت لهذه النتائج.. وبدأ الشرح.

ـ هذه المنطقـة وهى من أخـصب أراضى المديرية منحها البريطانيون بعد الاحتلال للذين سهلوا احتلالهم ولابد أنك تعرف «القصة» ، ولاتزال ملكا مطلقا لهم ولا أحد يجرؤ على التدخل أو الاقتراب ولازالوا تحت الحماية البريطانية ويفخرون بذلك وفى كل سنة وفى موسم الصيد يزورهم السفير البريطانى ومن قبله المندوب السامى، وتقام الحفلات والمهرجانات ويعد العيد السنوى.

وهذه المنطقة تفاتيش الخاصة الملكية وتفاتيش الأميرات وهى مناطق مغلقة وشبه مقدسة ويستباح فيها كل شىء.

وهذه مساحة كبيرة كانت الحكومة قد أصلحتها لكى تباع لصغار الفلاحين ولكن استولى عليها صدقى باشا ووزعها على النقابات الاجتماعية والصعاليك الذين حولهم إلى بكوات وأعيان ليقيم عليهم حكمه ويضرب بهم الوفد ، وبالمناسبة التقينا عند أحدهم ولعلك تذكر كيف كان يتحدث بحماس عن الوطنية والديمقراطية ثم عن الدين وهذه ملكيات صغيرة وأحيانا ضئيلة ولايملك الفلاحون الصغار والمتوسطون أكثر من خمس أراضى المديرية.. والباقى مجرد فائض سكان وعمال تراحيل.. وليس هناك إحصاءات دقيقة.. وربما يتجاوز عددهم ثلث سكان المديرية.

وأعاد الملف وطلبت أن أقترضه وقال سوف أعد لك نسخة منه.. ثم سكت بعض الوقت وقال:

«لايمكن تحقيق شىء فى الريف قبل قطع رأس الأفعى فى القاهرة وهدم الهرم من قمته».

واسترعت اهتمامى الكلمات، ورسبت.. وكان الوقت يمر سريعا ولابد أن ألحق آخر قطار «الساعة الثامنة» وتواعدنا على اللقاء مرة أخرى والسفر إلى القاهرة للتعرف إلى الباشا.. وقال وهو يودعنى:

«حقيقة أخيرة يجب أن تعرفها عنه... أيضا، كان «دون جوان» مشهور وقد أحبته حبا جارفا ابنة رئيس وزراء أيرلنده، وبارك أبوها العلاقة وأن تتزوجه ولكنه فى نهاية الأمر اعتذر لأنه قرر أن لايتزوج سوى مصرية.. وتحولت العلاقة إلى صداقة حميمة. وهى تأتى كثيرا لتمضى الشتاء فى مصر».

وكتبت خطابا طويلا إلى الأستاذ فى مصر رويت كل ماحدث والاكتشاف الباهر الذى سوف نهيىء له مكانا لائقا على صفحات الرواية وربما فصلا كاملا بعنوان «قطع رأس الأفعى وهدم الهرم من قمته... فى القاهرة» .

• العقاد وعبدالرحمن بدوى •

على هامش المعركة التى دارت على صفحات بعض الجرائد المصرية حول الحديث الذى أدلى به الدكتور عبدالرحمن بدوى عن العقاد مفكرا وأديبا ، أريد أن أقول : إن تلاميذ العقاد كثيرون ، وهم يغارون عليه غيرة شديدة ، ويحاولون منع أى نقد لفكره وأدبه ، ولكن العقاد - فى الحقيقة - ليس معصوما من الزلل فى الرأى ، وقد هاجمه الكثيرون فى أثناء حياته ، ولا يمنع رحيله عن الدنيا من نقده ، ووضعه فى مكانه الصحيح ، وبيان حجمه الحقيقى ، سواء كان حجمه كبيرا أو متوسطا أو أقل من ذلك .. وأرى أن تلاميذ العقاد قد هاجموا الدكتور عبدالرحمن بدوى بشدة ، وربما بشراسة ، كأنه هجم على شىء مقدس ، ولا قداسة لأحد من حملة الأقلام قديما ولا حديثا ، ثم إن عبدالرحمن بدوى - فى رأيى -أعمق علما من العقاد وإن لم يكن فى شهرة العقاد ولا فى قوة تأثيره !..

محمد عبدالرءوف شندى - الإسكندرية

• محدود الدخل •

من ذلك «المحدود فى الدخل» ؟! ... يا أولياء الأمر ، ياأهلى ؟!
تسعون جزءاً .. منه .. وأسفى .·. قد صرن .. ياويلى ! بلا حول
والعشر .. منه .. اليوم ينذرنى .·. بالقرب من صرمى ، ومن ركلى
هل يا ترى : أحيا .. على أمل .·. أو أننى أقضى ، على مطل ؟!
من ذلك المحدود فى الدخل ؟! .·. عرفه لى ، وارحم وجى خيلى !
كل الذى أدريه .. من نفسى .·. أنى .. (وظيفيا) ، أخو شغل
قالوا : (مدير) .. عند مقدمه .·. أو إن تولى .. آمر ، يملى !
لكننى .. فى الحق ،، من أمرى .·. فى غيبة من عارفى فضلى
لا أستطيع العيش ! يعرفنى .·. بيتى ، وما ألقاه من ويلى !

أخــرج ســويـعــاتــى .. لدى عــمــلــى .·. مــن دورة الأحــــــزان ، والخــــــبــل
وأدخــل .. مــعــى .. فــى غــيــر مــا جــلــد .·.دنــيـــا .. بــلا طــعــم ، ولا شــكــل
لاتنتهـــــــــــى .. إلاّ .. بمعجــــــــــزة .·. من نظرة .. تحــتــى .. بلا جــهــل !

رمضان أبو غالية – مدير التعليم بإدارة قويسنا

• شهر أيار والشهور الأخرى •

لماذا لاتكتبون أسماء الشهور الأثنى عشر بالطريقة التى اتبعها العرب من قديم ، فبدلا من شهر مايو الذى نحن فيه الآن ، تكتبون شهر «أيار» .. وتكتبون حزيران بدلا من يونيو ، وتموز بدلا من يوليو ، وآب بدلا من أغسطس ، وهكذا بقية الشهور ، ولا بأس من كتابة ، أسماء الشهور الأفرنجية بجانب هذه الشهور ، وبجانب شهورنا القمرية التقليدية؟!

حسان على قطامش – عمان – الأردن

•أقصوصة

• أيام •• •

بياضها تحول إلى اصفرار ، بصمة إصبعه بجوار الأشخاص، الحواف متآكلة بفعل الزمن .. بيد مرتعشة يقرب الصورة إلى نظره الكليل بالكاد يتعرف إلى نفسه .. ترجع الذاكرة به عشرات السنين إلى الوراء .

اليوم يوم التخرج .. يقف بثقة واعتزاز ممسكا بيديه أطراف روبه الأسود مبتسما يلبس بدلة جديدة لأول مرة .. هى تقف أمامه .. إنها حبه الوحيد .. سيحاول عبور الحاجز بينهما .. أربع سنوات يحبها فى صمت اكتسب اليوم ميزة جديدة بشهادته العلمية .. ينظر إلى شعرها .. ثوبها الأزرق .. سيصارحها اليوم بحبه .. ينتظر بجوار باب سيارتها .. فى الأتوبيس المزدحم يعاهد نفسه على محادثتها غدا فى منزلها .

تمر الأيام ... يزداد إصراراً .. تمر السنون .. يزداد إحجاماً .

أصبحت جدة وهو لم يتزوج بعد !!

مدحت يوسفى – سمالوط

• خيول المساء •

لقد بكيت ادكار دار　　مضت إلى ليلة البعاد
وقد تركت المساء خلفى　　موسدا فى دجى الرقاد
يا أيهذى الربا سلام　　ماذا لدى ليلة الوهاد ؟
وقد أتينا ... أنا وأهلى　　نرنو إلى ليلة الحصاد
جئنا على أغنيات شوق　　تزيد نارا على الفؤاد
وفى مروج الغروب طارت　　حكاية من هوى البلاد
لقد أفاد الفؤاد قول　　وفى فؤادى المساء بادى
وفى المسا لم تعد عهود　　مع السرور أغتدت تنادى
ناديتها .. فاستقاد منى　　وسرت فى ظلمة السواد
فياعهود الهوى أعيدى　　بعض الهوى للفتى الجواد
لقد ذكرت الحديث لكن ،　　من كان مثلى بلا بلاد
أنا الذى فارقت عهودى　　إلى زمان من الحداد
وفى الحداد الحديث يسعى　　ببعض ذكرى عن الوداد
وفى اعتقادى بأن دربى　　يسير نحو الدجى الجماد
لقد مشينا أنا وأهلى　　فى هجرة فى ذرى الرماد
نذروا بذور الغرام لكن　　على دروب الألى العباد
نذروا ... وفى أغنيات حب　　نمشى إلى ليلة الحصاد ..
وقد مشيت الدروب أشدو　　وفى غنائى رواء صادى
تحيطنى ظلمة ومالى　　مع المصابيح بعض زادى
وقد مضى الشعر دون عود　　بل بيع فى ليلة السداد
يعودنى من عهود أهلى　　قصائد الحب والجهاد
يعودنى فى الدموع شىء　　يعودنى والمساء حادى
وللخيول ارتياد درب　　مكلل بالجنان بادى
وللخيول السماء تزهو　　وفى السما قد بدا اتقادى

لـقـــد نـويـت الـرجـــوع لـكـن أفـى بـــلادى ثـوى فــــؤادى ؟
لـقـــدْ مـــشـــيـنـا أنـا وأهـلـى فـــهـل لـنـا رجـــعـــة الـبـــعـــاد

سامح النجار - فارسكور

• خالد محمد خالد •

الأستاذ خالد محمد خالد أحد أعلام الفكر الإسلامى فى مصر والعالم العربى وصاحب ٤٠ مؤلفا فى القضايا الإسلامية .. تخرج الأستاذ فى كلية أصول الدين فى منتصف الأربعينيات وعمل فى حقل الدعوة الإسلامية مايزيد على نصف قرن ضد الاستعمار الانجليزى والفكرى الذى يملأ سماء الأمة العربية ، ونشر الأستاذ خالد كمية ضخمة من المقالات فى مجلات الدوحة والأمة والأزهر ومنبر الإسلام ، ومن مؤلفاته الموعد لله ، الدولة فى الأسلام ، بين يدى عمر ، وجاء أبوبكر ، من هنا نبدأ ، محمد رسول الله ، محمد والمسيح معا على الطريق ، ورجال حول الرسول مجلد ضخم ترجمة لأكثر من ٦٥ صحابيا يقع فى ٩٠٠ صفحة ، قصتى مع الحياة فى ٥٠٠ صفحة والوصايا العشر .

ورأيه فى الإلحاد والإيمان حق .

يقول : فى رأيى أن الإلحاد موقف فكرى ، بيد انه يتسم بالاحباط والضلال . ومادام موقفا فكريا حيث يعجز عقل الانسان الملحد عن إدراك وجود الله فان طريقة التفاهم معه ينبغى أن يكون الحوار والمناقشة انه منذ تبين الرشد من الغى صار الإكراه على الأيمان أمرا غير مرغوب فيه . يقول الله سبحانه وتعالى «لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى» .

وتحدث عن الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه ، رجل تستحى منه الملائكة اشترى بئر دومة وكانت ملك يهودى يتحكم عن طريقها فى المسلمين ويبيعهم الماء بثمن باهظ فاشتراها بأربعة وعشرين ألف درهم ووهبها للمسلمين .

اشترى بـ ٢٥ ألف درهم مكانا بجوار مسجد الرسول ليقوم بتوسعة المسجد .

ويتحدث عن حرية الكلمة . ان كل قيم حياتنا الانسانية إنما كشفها الفكر وجلاها وعليه وحده تبعة حفظها والتبشير بها وإعداد مكانها الأثير فى المستقبل . وليس من حق عرف أو سلطة أو قانون أن يزعموا لأنفسهم غيرة على هذه القيم أصدق من غيرة الفكر الأمين . ويتحدث للشباب : عايش الحياة بفرح وخذها بقوة هذه نصيحتى . ويتحدث فى ذكرى كربلاء : لقد قتل الحسين و٧٢ من أحفاد الحسن والحسين ، هكذا وقف الحسين

وأهله وأصحابه من أجل الحق موقفا رائعاً ببطولاتهم وتضحياتهم ، لقد رفضوا الباطل وأختاروا الحق ثم رفضوا الصمت وآثروا المقاومة .

رحم الله الكاتب الكبير خالد محمد خالد بقدر ما كشف عن الجوانب المشرقة فى الشخصيات الإسلامية .

رجب عبدالحكيم بيومى الخولى - المعصرة

• سراب المال •

لله يادنياى ما أقساك ... كم أنت جافية لمن يهواك
لم أجعل الدولار يوما غايتى ... ووهمت أنى حائز لرضاك
لكن أصحابى تهيم قلوبهم ... بالمال مما قد حوته يداك
قولى لمن جعل الثراء وشاحه ... ولمن يروم بقاءه ببقاك
إن الحياة وإن سررنا لحظة ... فيها فغايتها تحسر باك

درهم جبارى - سان فرانسسكو - كاليفورنيا - الولايات المتحدة

• بحار النوى •

طوتك بحار النوى ... وعادتك ريح الهوى
ونار الغرام بها ... فؤادى برغمى هوى
وأصبحت فى لجة ... تروق لغاو غوى
تبصر فما عاد لى ... رجاء إذا ما انطوى
ومثلك يغرى اللظى ... ويذكى لهيب الجوى
شريداً .. بروحى أهتدى ... وحيداً .. بقلبى ثوى
وأنت الذى خاننى ... وما صاننى فارعوى
وإن زارنى ضاحكاً ... فضحكة ذئب عوى
وما أنا إلا كمن ... بكاها بسقط اللوى
سعيت بزمارتى ... لعرش عليه استوى
ويممت عنوانه ... أصارع كل القوى
وغنيت أغنيتى ... بحسبك .. صدرى انكوى

وقلت اصطبر ، إنما | لكل أمرىء ما نوى
وأهملت شعرى فما | ترعرع حتى نوى
وضيعت فيك الرضا | فغاب أسى وانزوى
وعدت حزين الخطا | غريباً .. بلا محتوى
تمنيت أن أرتوى | ومن فى هواه ارتوى

أحمد عبداللطيف حسب الله – مدير الاتصال السياسى
بمديرية التربية والتعليم – دمنهور

• السرقات الأدبية •

قال الدكتور حسين فوزى فى ندوة ألقاها بمعهد الموسيقى : إن الغناء العربى لم يتطور منذ سنوات بعيده وبالتالى فقد أصبح كأى شىء أثرى لذلك فإننى أطالب بوضعه فى المتاحف مع خوذات سلاطين المماليك وعباءات الأخشيديين والطولونيين فقيل له : ألهذا السبب رفضت منح أم كلثوم الجائزة التقديرية فى الموسيقى والغناء ؟ قال : نعم فإن هذه الجائزة تمنح للمبدعين فقط وأم كلثوم لم تكتب كلمة واحدة ولم تضع لحنا واحدا وإنما هى تلقى ما يكتب وما يلحن لها كما أنها لاتعرف شيئا عن الغناء الأوبرالى فكيف أمنحها جائزة .. وقد ردت مجلة الهلال على ما صرح به الدكتور حسين فوزى وذلك فى مقال قالت فيه : لقد أخطأ الدكتور حسين فوزى فى كل ما قاله عن أم كلثوم وعن الغناء العربى . إن صوت أم كلثوم قد أسهم إسهاما جوهريا فى خلق أسلوب التلحين العربى الحديث المتطور وتحديد مساره وتوسيع آفاقه . لقد أتاح صوتها للموسيقيين أن يجوبوا بين الافاق الباهرة مالم يكونوا يحلمون به ولا كانوا يستطيعون الوصول إليه لولا هذا الصوت الرخيم الذى حملهم إلى تلك الافاق ، ولنا عوده يا دكتور حسين .

محمد أمين عيسوى – الاسماعيلية

تعليق :

– أنت ياعزيزى القارىء تتحدث عن الدكتور حسين فوزى كأنه مازال حيا ، وتزعم أنه قال هذا الكلام فى ندوة بمعهد الموسيقى وهذا غير صحيح ، والحقيقة أنه تحدث عن أم كلثوم فى لجنة الفنون بالمجلس الأعلى للثقافة منذ ثلاثين عاما ، والكلام الذى نسبتموه إليه هنا هو كلام مأخوذ من مقالات الأستاذ كمال النجمى ، وكان يجب أن تذكروا أنكم اقتبستموه ، لكيلا يكون فى كتابتكم شبهة السرقة الأدبية ، لأنك نقلت الكلام حرفياً ..

أنت والهلال

• باقة شعر •

إلى آل مستجاب

من كل روض قد جمعت زهوره — فوق السطور نثرتها بتفانى
حتى جعلت حروفها فى زفة — عبق العبير وخضرة البستان
من مستجاب فارس فى فنه — كان الحديث لمستجاب ثانى
در تناثر فى حروف كتابة — بهر العيون برقة الألوان
مرت بك الأيام فى أحوالها — يوم بعيد ثم يوم دانى
سلب البيان قلوبنا وعقولنا — ثم انتبهنا للحديث الهانى
ترمى نبالك فى المداد بصنعه — فإذا المداد على السطور أغانى
جرح الأحبة فى السطور دواؤه — والطب عندى دقة البنيان
أعلو بفنى فى سماء مشرق — النجم يرقبنى بقلب حانى
بالحب أملى للسطور صبابتى — وأصب فى بحر الهوى أحزانى
القلب يصعد للسماء بفرحة — لما قرأت حديثك النورانى
للسطر أرنو والرضا فى خاطرى — والحب فجر ثورة البركان
متعت عينى فى المكان بنظرة — فيها شرود العاشق الولهان
حتى بدا ما كنت أقرأ واضحاً — والنور غطى بالرضا أركانى
تهفو عيونى للعلا فى سطره — ترعاه روحى مثلما يرعانى
رقص البيان على غناء حديثه — واهتز من فرط الشذى إيوانى
من لى بسواك إذا الضلالة أينعت — أو ضل أهل الحق فى عنوانى

فتحى عثمان - القاهرة

• مع أصدقائنا •

● **محمود عبدالعال محمود – سوهاج :**

نهنئكم بحصولكم على المركز السابع فى مسابقة «الزجل» لعام ١٩٩٥ ونرجو المعذرة لأن الزجل العامى ليس من المواد المطلوبة فى «الهلال» لأنه يوزع على نطاق الأقطار العربية ، وهى لاتفهم إلا اللغة القومية ، أى اللغة العربية ، ونرجو أن تتنبهوا إلى أن «الزجل» لايصح تسميته شعرا ، كما لايصح تسمية الزجال شاعرا ، ولا تسمية الشاعر زجالا ، ولكن الخلط بينهما هو من اختلاط الأمور فى الزمن الأخير .

● **عاطف إسماعيل أبوشادى – سفط – منوف :**

– شعركم حسن ، وإن لم يتسع له هذا العدد ، ونرجو الكتابة على وجه واحد من كل ورقة .

أحمد سامح على :

– بحثكم حول التفسير القرآنى والمفسرين ، يدل على اهتمامكم بهذا اللون من البحوث الدينية ، ومن عادتنا فيما يتعلق بالمسائل الدينية أن نقتصر على استكتاب رجال الدين أو من إليهم من المهتمين بها ، فمعذرة ، خصوصا أنكم لم تبينوا عنوانكم ، ولا دراساتكم أو مساهماتكم فى هذه الأمور .

● **ونشكر ونعتذر للسادة الشعراء ، نظرا لضيق مجال النشر فى هذا الشهر ،** ونرجو أن تتواصل رسائلهم إلينا ، ونخص بالذكر الأساتذة د. حسنية عبدالحكيم ، وصلاح السيد السيد ، وأسماء محمود ، ومحمود المصلحى، وأحمد محمد عبدالهادى ، وطارق محمود مراد، وعبدالخالق عبدالتواب السيد ، وعلاء العوانى ، ومحمود عبدالعزيز عبدالمجيد .

● **كما نعتذر إلى السادة كتاب البحوث والقصص ، الأساتذة :**

محمد عباس على (وقد نسى أن يكتب اسمه على قصته وكتبه على ظرف الرسالة فقط) وخالد عبدالوهاب ، ومحمود فرغلى على موسى (ونرجو أن يكتب على وجه واحد من الورق) وسامح حسن إبراهيم النجار ، وباهر سرى ، وعاصم فريد البرقوقى وحمدى خضرى وفا ، وماهر منير كامل .



الكلمة الأخيرة

كان ياما كان

بقلم : لطيفة الزيات

الشيء الوحيد الأكيد هو التغير نتغير لحظيا ويوميا ، نتغير دوما ونستوعب في سهولة فائقة متغيراتنا ، حتى تلك التى تقوم فى معظم الأحوال على التناقض ونصبح ونحن نطعن فى العمر تصالح المتناقضات . أين أنا منها الآن بنت الحادية عشرة من عمرها ، وهل كانت أم أتوهمها ؟!

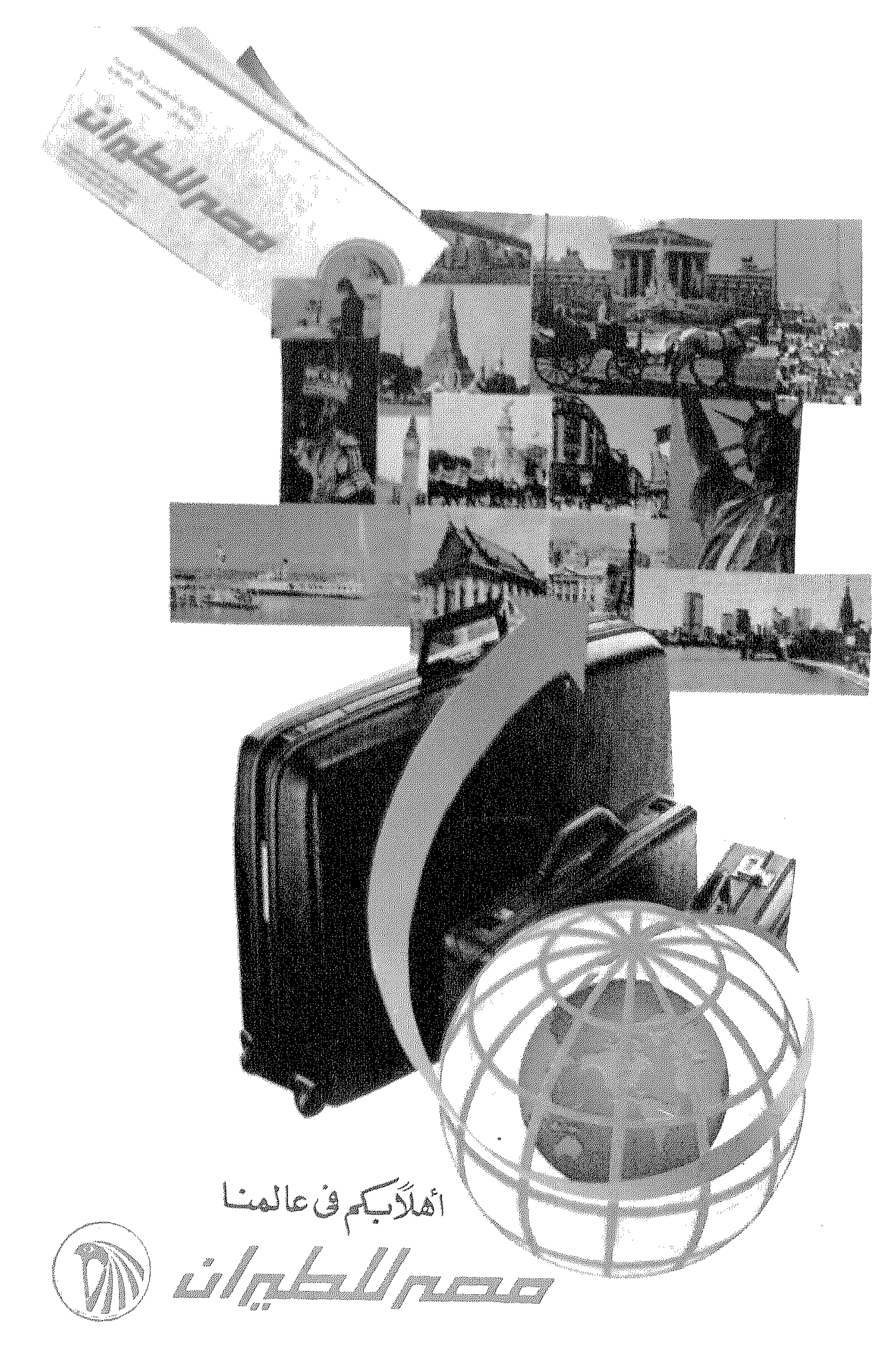
هل كانت حقا أم أنا أتخيلها ، وإن كانت أين ومتى ضاعت ، وهل ضاعت حقا أم مازالت تكمن فى مكان ما عميق فى أعماقى لا تبرز إلا فى وقت الشدة ، تمدنى ببعض مما أنا فى احتياج إليه لتجاوز الشدة : الاندفاع قدما دون لفتة إلى الوراء ؟ الاقتناع الذى لايتزعزع بصحة الموقف والقرار ، القسوة تمارس على الآخرين كما تمارس على الذات ، حدة كحدة السيف تبتر حيث يتطلب الأمر البتر ؟ .

البنت فى الحادية عشرة التى كانت أو لم تكن أبدا لاتقر سوى بحقيقتها وتسدل دونها وحقائق الآخرين ألف ستار وستار ، لاتتدرج فى الصورة بحال آلاف الرماديات التى تجمع فيما بينهما وتفصل فيما بينهما ، الأبيض أبيض والأسود أسود وهكذا اعتقدت البنت التى كانت ولا أكاد أتعرف عليها فى نفسى الآن .

أنا فى الحادية عشرة من عمرى أضج بالحيوية ، تتقافز داخلى ، تفيض عنى فى دوائر تتسع الدائرة بعد الأخرى . حيويتى تزعج أبى فلا يعرف كيف يتقى الضربة التالية حيويتى تهدد أبى لأنى فتاة على وشك البلوغ . صخبى يزعج أبى وصورتى تناقض الصورة المتخيلة بالنسبة إليه عن الفتاة المثالية ، صورة الفتاة الرهيفة الرقيقة الهشة كقطعة ثمينة من البورسلين .

مالا تستطيع أمى تجاوزه أصلاً هو اندفاعاتى العاطفية التى تحاول مخلصة ودائبة ولا تنجح سوى قليل فى تلجيمها تمسك أمى بالأزميل ، تحاول خبطة بعد خبطة أن تعيد تشكيلى .

أمضى كما العاصفة أحب حبا لاتعتريه هواجس ولا شكوك ولا خوف مما مضى ولا مما هو آت ، وأكره بلا شباك تتصيد كرهى تحيله واهناً وهى تنزع عنه أسبابه ومسبباته . أندفع وأزميل أمى لايكف يصيب مرة ويخيب ألفا وأنا أحتضن أبى وهو فى فراش الموت بكل اندفاعتى ، بكل كيانى وحسى ، وأزميل أمى يصيب وأبى يذكرنى بضمة الدب الصغير لأمه ، ظل الدب الصغير يضم أمه أقرب إلى القلب فأقرب . ضمة بعد ضمة حتى ماتت نتيجة لضمته .. وأبوخ أنا ، أبوخ ، أبوخ مع حكاية أبى . وأكبر وأتغير وأتبدل ويتباعد المسار بينى وبين أبى والدب الذى قتل أمه ، وأحسب أنى نسيت ولا أنسى أبدا ، أخاف يرفضنى الآخر وأنا فى قمة عطائى أخاف يسقطنى من حالق لأستوى ألملم أشلائى ... ولا أكف كالعاصفة أندفع ألملم جراحى التى لم تكن قد تجمعت بعد وأنا فى الحادية عشرة .


أهلاً بكم فى عالمنا
مصر للطيران

لمسات

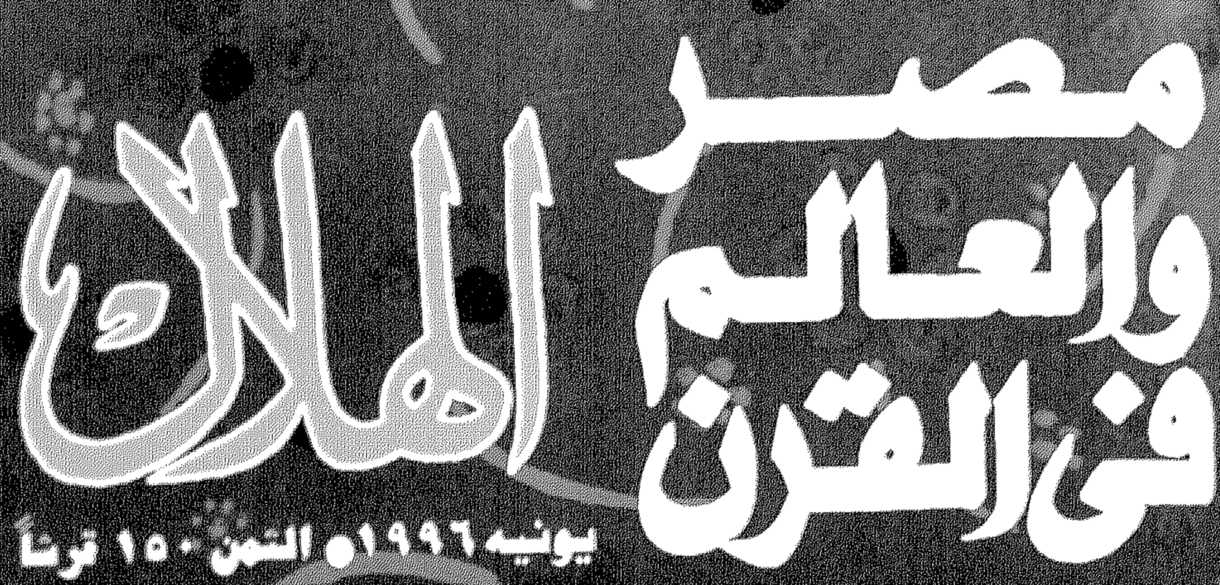
نبع الآداب والثقافة المعاصرة

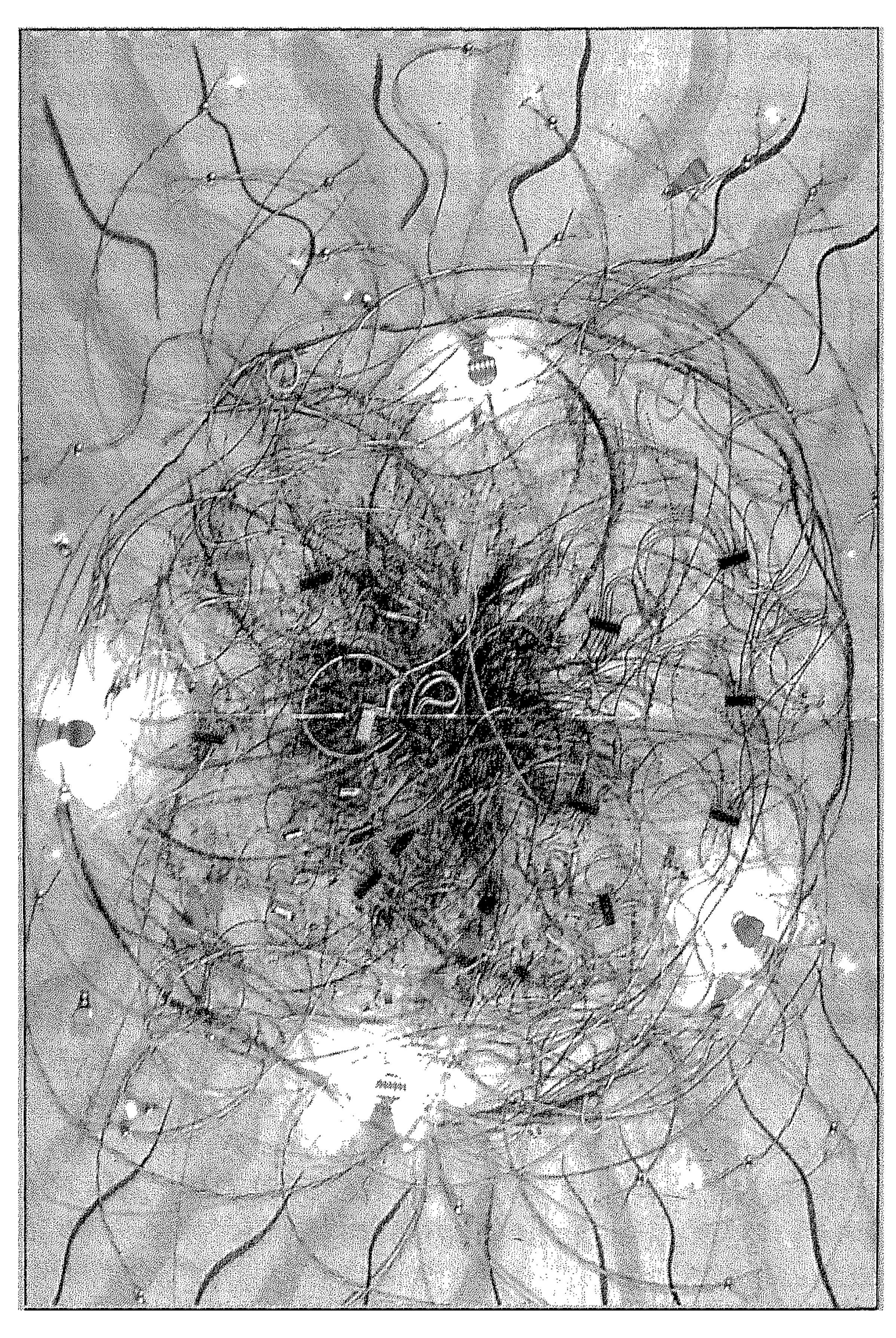
من : أدب ، وقصة ، ودراسة ، وسير ، وبحوث ، وفكر ، ونقد ، وشعر ، وبلاغة ، وعلوم ، وتراث ، ولغات ، وقضايا ، وتاريخ ، واجتماع ، وعلم نفس ، ورحلات ، وسياسة ... إلخ .

صدر من هذه السلسلة :

- الإنسان الباحث .	طيبة أحمد الإبراهيم
- الحياة مرة أخرى .	نوال مصطفى
- التنويم المغناطيسى .	يوسف ميخائيل أسعد
- نوم العازب .	محمد حسن الألفى
- من شرفات التاريخ جـ ١ .	د . محمد رجب البيومى
- أم كلثوم .	مجدى سلامة
- المرأة العاملة .	سوزان عبد الحميد أغا
- قادة الفكر الفلسفى .	يوسف ميخائيل أسعد
- الملامح الخفية (جبران ومى) .	لوسى يعقوب
- عبد الحليم حافظ .	مجدى سلامة
- انقراض رجل .	طيبة أحمد الإبراهيم
- الشخصية المتطورة .	يوسف ميخائيل أسعد
- محمد عبد الوهاب .	مجدى سلامة
- الشخصية السوية .	يوسف ميخائيل أسعد
- الشخصية القيادية .	يوسف ميخائيل أسعد
- الإنسان المتعدد .	طيبة أحمد الإبراهيم
- الشخصية المبدعة .	يوسف ميخائيل أسعد
- فكر وفن وذكريات .	لوسى يعقوب
- ساعة الحظ .	محمد حسن الألفى
- سيكولوجية الهدوء النفسى .	يوسف ميخائيل أسعد
- الإعلام والمخدرات .	د . نوال محمد عمر
- من شرفات التاريخ جـ ٢ .	د . محمد رجب البيومى
- الشخصية المنتجة .	يوسف ميخائيل أسعد
- الأسرة مشكلات وحلول .	مجدى سلامة
- ظلال الحقيقة .	طيبة أحمد الإبراهيم
- شعرة معاوية ، ومُلك بنى أمية .	عرفات القصبى قرون
- مذكرات خادم .	طيبة أحمد الإبراهيم

طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع - المطابع ٨ ، ١٠ ، ١٢ شارع ١٧ المنطقة الصناعية بالعباسية - المكتبات ١٠ ، ١١ شارع كامل صدقى بالفجالة - ١ شارع الإسحاقى منشية البكرى - روكسى بمصر الجديدة - التليفونات : [illegible] - فاكس - 2596650


الهلال
مصر
والعالم
فى القرن
يونيه ١٩٩٦ • الثمن ١٥٠ قرشاً



شمس الزهور للفنان جاك دولهاوس
نموذج للفن التشكيلي لبدايات القرن القادم



مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجى زيدان عام ١٨٩٢
العام الرابع بعد المائة

مكرم محمد أحمد رئيس مجلس الإدارة

عبد الحميد حمروش نائب رئيس مجلس الإدارة

الإدارة القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت : ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) . المكاتبات : ص.ب : ٦١ - العتبة - الرقم البريدى : ١١٥١١ - تلغرافيا - المصور - القاهرة ج. م. ع. مجلة الهلال ت : ٣٦٢٥٤٨١ - تلكس : 92703 Hilal un فاكس : FAX : ٣٦٢٥٤٦٩

مصطفى نبيل رئيس التحرير

حلمى التونى المستشار الفني

عاطف مصطفى مدير التحرير

محمود الشيخ المدير الفني

ثمن النسخة سوريا ١٠٠ ليرة - لبنان ٣٠٠٠ ليرة - الأردن ١٢٠٠ فلس - الكويت ٧٥٠ فلسا، السعودية ١٠ ريالات - تونس ١,٧٥٠ دينار - المغرب ١٧ درهماً - البحرين ١ دينار - قطر ١٠ ريالات - دبى/ أبو ظبى ١٠ دراهم - سلطنة عمان ١ ريال - الجمهورية اليمنية ١٠٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس ١ دولار - إيطاليا ٤٥٠٠ ليرة - المملكة المتحدة ١,٥ جك

الاشتراكات قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ١٨ جنيها داخل ج م. تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٢٠ دولارا. أمريكا وأوربا وافريقيا ٣٥ دولاراً. باقى دول العالم ٤٥ دولاراً

● وكيل الإشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيونى زغلول - ص ب رقم ٢١٨٣٣ - الصفاة - الكويت - ت/ 13079 ٤٧٤١١٦٤

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

في هذا العدد



الغلاف بريشة
الفنان حلمي التوني

فكر وثقافة

مصر والعالم فى القرن ٢١

جزء خاص

قصة وشعر

التكوين

الأبواب الثابتة

من الهلال إلى الهلال

عزيزى القارىء

ممنوع دخول القرن الواحد والعشرين

لا يمل الإنسان الحديث عن المجهول ، ولا يفتأ يتفكر فيما هو مقبل من الأيام .. خوفًا وطمعًا !

فهل نحن ممن يخافون ؟ أم ممن يطمعون ؟!. أم ترانا فقدنا حتى القدرة على الخوف والطمع ؟!

.. وإذا كان هذا العدد مخصصًا للحديث عن القرن الواحد والعشرين وهمومه وتحدياته ، فإن هذا لا يحول أنظارنا عن قضية أساسية وهى : كيف نواجه خاتمة القرن العشرين ؟ وما موقعنا الحقيقى من هذا الحديث الدائر فى سائر أنحاء العالم عن القرن القادم الذى لا ندرى عنه شيئا ؟!..

هل نواجه القرن الواحد والعشرين ومازال الفكر العربى المستنير غائبًا مفسحًا الطريق لألوان شتى من أفكار القرون الأولى ؟!..

هل ننتظر الانتصار النهائى للرجعية التى احتكرت الحديث باسم الإسلام دون وجه حق ؟ هل ننتظر عودة محاكم التفتيش والحكم الإرهابى وعصور الظلام الماضية ؟!..

أخشى أن نستقبل القرن المنتظر وكتبنا وقصائدنا وآراؤنا ، بل وتراثنا فى يد من لا يفهم ولا يرحم !..

وإذا كان العرب فى سبيلهم للقضاء على الإرهاب المسلح ، فما مشروعهم الفكرى المضاد الذى سيواجه الفكر الإرهابى المظلم ليزيحه من الساحة ؟

لابد من أن نقر بأن مشروعنا الحضارى العربى المتكامل قد غاب عن الساحة ، وأننا نخبط خبط عشواء ، وتظن كل فرقة منا أنها تمثل الاتجاه السليم .. والمهم أن الفئات التى تزعم أن لديها مشروعا حضاريًا متكاملاً ، هى فئات بعيدة كل البعد عن الفكر الصحيح ، ومنها من يتسم بعدائية شديدة تجاه كل فكر جديد ..

إن الأساس فى نهضتنا العربية المرجوة هو إحياء الفكر العربى والحضارة العربية التى تقطعت بها السبل فى مرحلة تاريخية ضبابية الملامح !

ولإحياء كل هذا لابد من (إحياء اللغة العربية) والاهتمام بآدابها والتمسك بأصالتها – فى غير تعنت وتضييق – لأن تلك اللغة هى المادة الأولى التى لابد من أن تصاغ بها نهضتنا، وقد ضاعت اللغة حتى على ألسنة المتخصصين فيها من خريجى الأزهر ودار العلوم وكليات الآداب ..

ولإقامة مشروع عربى حضارى مشترك ، لابد من التوفيق بين جهود المفكرين العرب فى مختلف الأنحاء من الأمة العربية – ونعنى هنا المفكرين الأصلاء فكرًا وعلمًا ولغة ونيةً ، المفكرين الذين يملكون أبجدية واقعية يصاغ من خلالها المشروع العربى الحضارى الذى لم ير النور حتى الآن !..

أما الحديث عن كيان الأمة العربية نفسه ، وهيئتها التى يجب أن تكون قبل القرن القادم فهو أمر متعدد الوجوه .. هناك أمور واجبة التحقيق قبل الدخول فى الحديث - أصلا - عن القرن الواحد والعشرين !..

هناك وجه قومى للأمر ، حيث تجرى المفاوضات التى يسمونها « عملية السلام » بينما الذى تحقق - بالفعل - ليس إلا لقطات أنيقة نقلتها تليفزيونات العالم ، واحتفالات ضخمة توقع فيها اتفاقات ينمحى جوهرها بمجرد أن يجف حبر أقلام الموقعين عليها !!

هل السلام هو ضرب الحصار على الضفة والقطاع وإبادة الفلسطينيين من خلال « التجويع » ؟ وهل الدولة الفلسطينية المرجوة ستقف عند هذه الكانتونات الميكروسكوبية التى تسمى « أراضى الحكم الذاتى » والتى تسيطر عليها قوات « جيش الدفاع الإسرائيلى » سيطرة كاملة ؟!

هل السلام هو ابتلاع القدس ، وهضم حق العرب - المسلمين والمسيحيين - فى أراضيها المقدسة ؟!

هل السلام هو إبادة المقاومة اللبنانية الضعيفة ، وضرب مخيمات الفلسطينيين فى لبنان، وحصار ميناء بيروت وتحطيم ضواحيها التى يسكنها فقراء اللبنانيين ؟!

هل السلام هو (مذبحة قانا) ؟ أم السلام هو (عناقيد الغضب) ؟

وهل صار (كلينتون) - الوسيط الأمين - لا يكتب إلا بالعبرية ولا يتحدث إلا بمصالح إسرائيل ؟

وهل ماتت اتفاقات « الدفاع العربى المشترك » و « التكامل العربى الاقتصادى » .. وصار العرب لا يتكاملون إلا مع الأجانب ، ويهرولون بفرح وترحاب إذا كان هؤلاء الأجانب يحملون الجنسية الإسرائيلية ؟!

عزيزى القارىء

نحن فى حاجة ماسة إلى إحياء حقيقى لكل تلك المعانى الغائبة ، وتجسيد أحلام الشعراء الذين يئسوا من تغيّر الأحوال إلى الأفضل ، ويئسوا من دخول القرن الحادى والعشرين الذى يعلّق الأقوياء المتقدمون على بابه لافتة تقول : ممنوع دخول الضعفاء المتخلفين ؟!

إن الباقى من القرن العشرين أربع سنوات فقط ، وقد ضاعت الفرصة علينا نحن العرب والمسلمين ، وسنلاقى القرن الواحد والعشرين لقاء الغرباء الذين لا يعرف بعضهم بعضا ، لأنه قادم من الزمان الجديد ونحن راجعون إلى الزمان القديم !

ولابد من أيام عربية جديدة نقابل بها الوافد الجديد ، وإلا عاش « الفتى العربى » غريب الوجه واليد واللسان فى القرن القادم ، واضطر أن يعيش فى الكهف ثلاثمائةٍ سنين كما فعل أهل الكهف فى سالف الدهور !..

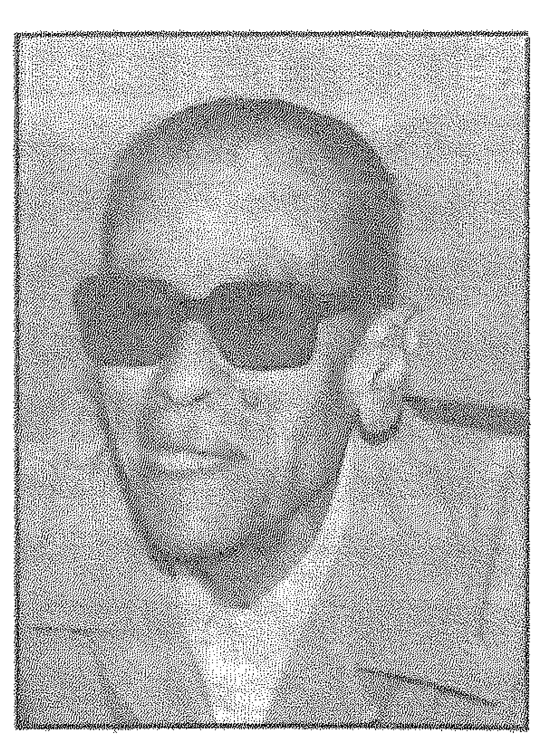
« **المحرر** »

التصحر فى أرض الإبداع

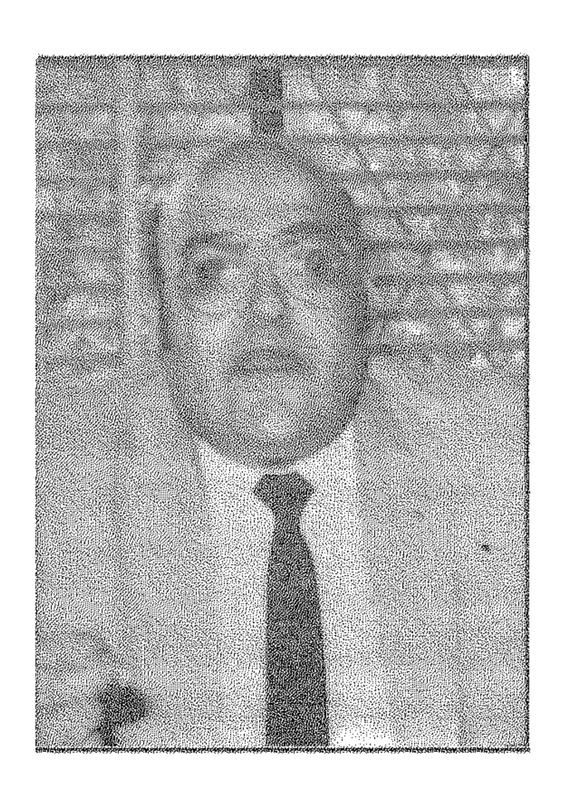
بقلم : د. مصطفى سويف

□ رفض الإبداع هو الذى قتل فرج فوده وحاول قتل نجيب محفوظ وأقام دعاوى الحسبة

تحالفت عوامل متعددة على تعطيل قدرات الإبداع لدينا أحصيتها فوجدتها أحد عشر عاملا ، تنتظم فى أربع فئات : فى مقدمتها فئة تندرج تحت خصائص السياق الاجتماعى الذى نحيا فى إطاره ، تليها فئة الآثار المترتبة على أساليب قياداتنا فى أدائها أدوارها القيادية ، ثم فئة الأساليب الشائعة فيما يقع بين قطاعات مجتمعنا أو تنظيماته المختلفة بعضها البعض من خلافات وصراعات ، وأخيرا فئة رابعة تضم بعض ماجرى غرسه فى مواطنينا من خصال تحمل بصمة المجتمع وتدعم تبعية الأفراد لقوالبه المعتمدة . وقد ألححت من قبل فى ثنايا الحديث عن الفئتين الأولى والثانية من هذه العوامل على القول بأنها بطبيعتها متغيرات تاريخية ، بما يعنى أنها عوامل تولدت نتيجة لتوالى أو لتراكم عدد من الشروط أو الظروف الاجتماعية التاريخية التى مر ويمر بها مجتمعنا (سياسية واقتصادية وعمرانية ... إلخ) .



نجيب محفوظ



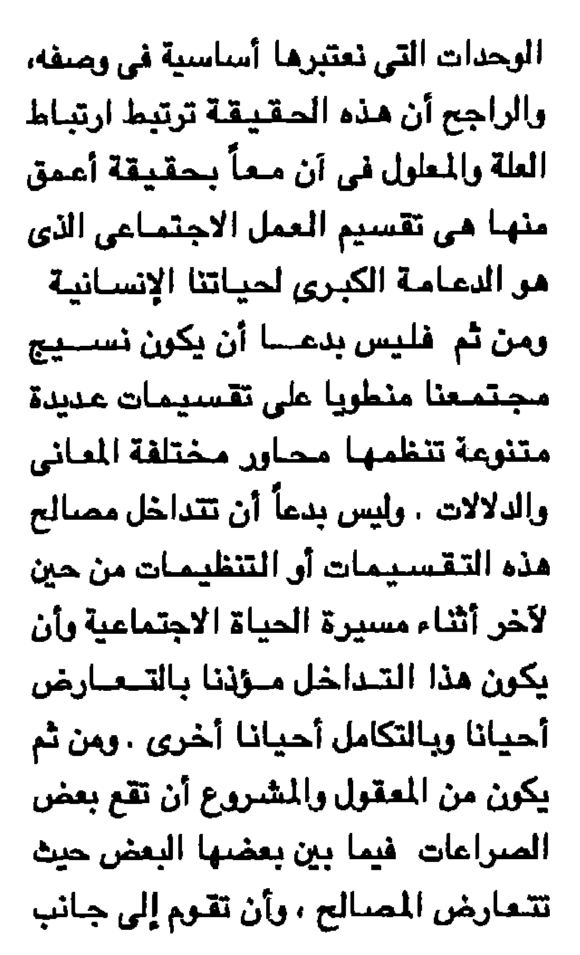


فرج فوده

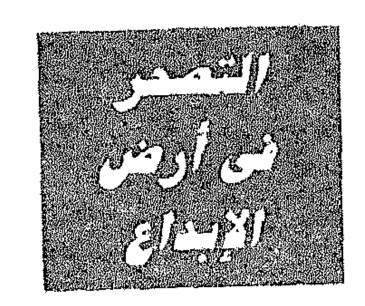
مما يعني أنها لاتحمل في ذاتها طابع القدر المحتوم وأنها بذلك تكون قابلة للتعديل والتغيير بالقدر الذي نستطيع أن نُدخل به الإرادة الاجتماعية الواعية ضمن مفردات حساباتنا في العمل العام. ولاأزال ألحُّ بالتذكرة بهذه المعاني نفسها ، وقد حان الوقت لكي أتحدث في المقال الراهن عن عوامل التعطيل الواقعة في الفئة الثالثة

● التعامل في المجتمع :

التنوع والتغاير ومايفرضانه من مزيد من التعاون والتكامل هو الأصل في الحياة الاجتماعية . فلم يعرف علماء الاجتماع ولا علماء الحضارات مجتمعا واحدا بطول الإنسانية وعرضها يمكن أن يوصف بالتجانس التام بين وحداته أيًّا كانت



الوحدات التى نعتبرها أساسية فى وصفه، والراجح أن هذه الحقيقة ترتبط ارتباط العلة والمعلول فى آن معاً بحقيقة أعمق منها هى تقسيم العمل الاجتماعى الذى هو الدعامة الكبرى لحياتنا الإنسانية ومن ثم فليس بدعا أن يكون نسيج مجتمعنا منطويا على تقسيمات عديدة متنوعة تنظمها محاور مختلفة المعانى والدلالات . وليس بدعاً أن تتداخل مصالح هذه التقسيمات أو التنظيمات من حين لآخر أثناء مسيرة الحياة الاجتماعية وأن يكون هذا التداخل مؤذنا بالتعارض أحيانا وبالتكامل أحيانا أخرى . ومن ثم يكون من المعقول والمشروع أن تقع بعض الصراعات فيما بين بعضها البعض حيث تتعارض المصالح ، وأن تقوم إلى جانب



ذلك أنماط من التعاون والتساند حيث تتفق المصالح أو تتكامل . فإذا ابتعدنا قليلا عن الدقائق التفصيلية لننظر نظرة إحاطة شاملة إلى كيان المجتمع فى مجمله فلابد عقلا أن نتوقع حصيلة نهائية مرجحة لكفة التعاون والتكامل وكل مايتعلق بهما من تداعيات فى مقابل كفة التعارض والتصارع ، ولو كان العكس هو الصحيح لتفكك المجتمع وانتهى أمره .

أما والمجتمع لايزال قائما فلابد وأن تكون كفة التعاون هى الراجحة .

ومع ذلك فأى مواطن يحمل قدرا معقولا من الفطنة يعرف أنه لايجوز أن تؤخذ الأمور بظواهرها . وأى دارس لظاهرات الحياة الاجتماعية حتى ولو كان حظه من الدرس متواضعا يعرف أن الاستنتاج الذى توصلنا إليه للتو لايخرج عن أن يكون استنتاجا يحكمه منطق شكلى خالص ، يعجز أحيانا عن أن يستوعب ظواهر الحياة الاجتماعية بما تنطوى عليه من خصائص وماتمليه من تفاعلات . ومعنى ذلك أن المشهد الذى استنتجنا من ملاحظته رجحان كفة عناصر التعاون فى مقابل عوامل التصارع قد يكون فى الوقت نفسه منطويا على أقدار من التوتر ومن عناصر أخرى توشك أن تقلب موازين الأمور بصورة لم تكن متوقعة فى نطاق أساليب حساباتنا المعتادة . ولكى نحسن مواجهة هذا الاحتمال ينبغى أن نمعن النظر حتى ننفذ إلى ماتحت السطح فنكشف عن طبيعة الأساليب التى يسود استخدامها على سبيل إدارة دفة الخلافات والصراعات بين قطاعات مجتمعنا أو منظوماته على اختلاف توجهاتها وأوزانها . وفى مسعانا هذا سوف نقتصر على النظر فى أمر مجموعة التفاعلات ذات الصلة بموضوعنا الرئيسى وهو تعطيل قدرات التفكير والعمل الإبداعى . وقد سعيت على هذا النحو إلى هذه الغاية ، فتبينت وجود أربعة عوامل تدار على أساسها عجلة التفاعلات بين وحدات المجتمع ، وهى جميعا معاكسة للإبداع لا من حيث طبيعتها ، وهذا هو اللافت للنظر ، ولكن من حيث النهج الذى توظف به . وهذا ما سأكرس له الفقرات التالية من هذا المقال.

● بين التنافس والتناحر :

أورد ابن منظور أن التنافس من المنافسة أى الرغبة فى الشىء والانفراد به. وأورد كذلك تدافع القوم أى دفع بعضهم بعضا ، ثم أورد أيضا تناحر القوم على الشى وانتحروا وتشاحوا عليه

فكاد بعضهم ينحر بعض ، وتناحروا فى القتال. فإذا عدنا إلى موضوعنا فهذا هو العامل الأول، طبيعته التنافس ، ولكنه بالصيغة التى يتم بها توظيفة كصيغة للتفاعل بين قطاعات مجتمعنا مايكاد يبدأ حتى يتم تصعيده إلى تدافع فتناحر ، ومن ثم ينقلب الأثر المرجو إلى النقيض؛ فالأصل فى التنافس هو التنشيط إلى أهداف مرغوبة ، وقد ابتهج علماء التربية عندما إكتشفوا أن أسلوباً بعينه يمزج بين التعاون والتنافس يعتبر من أفضل الطرق لحفز الناشئة إلى مزيد من الارتقاء بإنجازاتهم المقترنة بالدراسة أو بالترويح على حد سواء . ولكن فى مجتمعنا بصورته الحالية انفلت الأمر فلم نعد نعرف التنافس وأصبحنا نألف التناحر ، ومن ثم صار إطلاق هذه الطاقة مؤديا إلى كل ما من شأنه التثبيط والقمع والوأد أحيانا .

والأمثلة على ذلك كثيرة ، بدأت على استحياء (مع بدايات القرن العشرين) .

فقد سمعنا منذ بواكير شبابنا عن تنافس وصل إلى حد التدافع بين طوائف مهنية أو بين قطاعات داخل بعض الطوائف المهنية ، مثل خريجى دار العلوم وخريجى أقسام اللغة العربية بكلية أو بكليات الآداب من المشتغلين بالتدريس فى وزارة التربية والتعليم (وكانت وزارة للمعارف العمومية وقتئذ) ، وسمعنا عن صراعات خفية بين خريجى مدرسة المعلمين العليا وخريجى الجامعات ، وكذلك عن صراعات بين خريجى الجامعات المؤهلين تربويا وغير المؤهلين تربويا ، كل ذلك فى إطار العمل فى وزارة التربية والتعليم ، وسمعنا كذلك عن صراعات بين المطربشين والمعممين من العاملين فى دواوين الحكومة على اختلافها ، وقبيل انتصاف القرن بدأت تعلو نغمة الصراع التدافعى بين الجنسين ، الرجال والنساء ، الجدير بالذكر أن الأصوات المتطايرة عن هذه الصراعات كانت تصل إلى أذهاننا باعتبارها مجرد شوائب لاتحجب ولاتشوه بأية حال الكم الهائل من الأصوات الذى كان ينهمر علينا من تدافع الأحزاب السياسية . وعبرنا منتصف القرن ، فإذا الساحة يتم إخلاؤها من أصوات الأحزاب، ولكن بقى فيها شىء من ضجيج الفرق والطوائف المهنية وسرعان ما أقحمت عليه نغمة جديدة: العسكريون فى مقابل المدنيين ، ثم لم تلبث الأمور أن جرى عليها تصعيد جديد ، ووضعت لاستيعابها صيغة جديدة تختزل الأمر كله إلى طرفين اثنين لا ثالث لهما ، أحدهما نفى تام للآخر ، ومن ثم استحال التدافع إلى تناحر بين الطرف ونقيضه ، وهكذا جاءت هذه الصيغة بمثابة الآلية التى تم عن طريقها نقل صراع التدافع إلى مستوى جديد ، صراع التناحر ، وقد أفاد منها الحكم الاستبدادى الذى صنفت المواطنين حينئذ على أساس شعار «من لم يكن معنا فهو علينا» . فلما تكفلت أحداث التاريخ

التصحر
فى أرض
الإبداع

(كمتغير خارجي لم يكن محسوبا أصلا فى اللعبة) بتفريغ الشعار من مضمونه السياسى اللحظى ومن سدنة هذا المضمون ، سارعت قوى أخرى إلى الاستحواذ على الشعار نفسه وملأوه بمضمون يناسبهم هو المضمون الدينى أو مايرون أنه دينى ، وهذا مانشهده الآن ، ولم يكن ممكنا أن تتلاشى الصيغة الأساسية التى بُنى عليها الشعار تلاشيا مفاجئا ، لأنها صيغة مغرية لأعداد لايستهان بها من المغامرين .

ولكن بغض النظر عن المستوى التفصيلى لأحداث التاريخ ماذا عن سؤالنا الرئيسى : ماذا يعنى هذا الطراز من الصراع بين فصائل المجتمع من حيث إطلاق أو قمع طاقات الإبداع فى المواطنين ؟ الوقائع التاريخية المحددة هى التى تتولى الإجابة : قتل فرج فودة ، ومحاولة قتل نجيب محفوظ ، ومسلسل الملاحقات القضائية بدعاوى الحسبة . ماذا تعنى هذه الإجابات المجسَّمة ؟ تعنى الرفض المطلق للإبداع .

● التهديد والتخويف

التهديد مقدمة لتوقيع الأذى ، وفى مضمون الحكمة الشعبية أنه (أى التهديد) كثيرا مايكون أقسى على النفس من الأذى الأصلى ، «وقوع البلا ولا انتظاره» . ويتفق هذا المضمون مع كثير من توجهات الفكر التربوى الحديث . وأسوأ مايترتب على التهديد (أى استثارة توقع العقاب) عند من سيوقَّع عليه العقاب ارتفاع مستوى القلق المبطَّن بالخوف ، وكلما ازدادت المجاهيل المرتبطة بالتهديد (متى يقع ، وبأى صورة ، وبأى درجة من القسوة ، وفى أى سياق ، بوساطة من .. الخ) ازداد ارتفاع القلق المستثار إزاءه ، وازداد استدعاؤه لأسوأ أنواع الخوف ، وهو الخوف المصحوب بالشلل عن القيام بأى فعل (إذ من المعلوم لدى دارسى العلوم النفسية الحديثة أن هناك أنواعا متعددة من الخوف تؤدى إلى اندفاع الخائف إلى إتيان أفعال متباينة ، فهناك خوف يدفع إلى الهرب ، وخوف يدفع إلى مهاجمة مصدر الخوف ..الخ) ، ويعرف أهل الاختصاص أن الخوف الذى يرسب فى النفس الشلل عن الفعل إذ طال العهد به تحول إلى اكتئاب بالغ القسوة على صاحبه ، وهو الاكتئاب الذى يعرِّفه المنظِّرون الإكلينيكيون بأنه عجز مكتسب ، وبذلك يتحول الشلل الذى أشرنا إليه من حالة عابرة (رهن بموقف التهديد) إلى حالة باقية دائمة ، ثم لايلبث أن يمتد

ليشمل جميع إمكانات السلوك لدى الشخص (لا الفعل الحركى وحده) ، أى يشمل الفكر والوجدان والحركة جميعا . هكذا يكون خط سير الآثار النفسية المترتبة على استخدام التهديد ذى المجاهيل المتعددة .

فماذا يعنينا من أمر هذا التهديد ؟ يعنينا أنه أصبح فى العقود الأخيرة أداة من بين الأدوات المكرسة لإدارة عجلة الصراع بين قطاعات المجتمع عندنا .

ومع مضى السنين يزداد التمادى فى الاعتماد عليه . وإلى القارىء عدد من الأمثلة . يبدو لكل ذى عينين أن قتل الدكتور فرج فودة ، ومحاولة قتل الأستاذ نجيب محفوظ ، والاعتداء على الأستاذ مكرم محمد أحمد .. إلخ .. هذه جميعا لم تكن مجرد وقائع عدوان قُصد بها الأشخاص الثلاثة بأعيانهم فحسب بهدف التخلص منهم وبذلك ينتهى الأمر ، ولكنها جاءت منطوية كذلك على رسائل تهديد لكل من تسول له نفسه أن يحنو حنوهم . وماقدّم من دفوع وشهادات فى ساحات المحاكم يشهد بمعانى التهديد هذه التى نشير إليها . فإذا انتقلنا من هذا المستوى من الأمثلة إلى مستوى آخر لأمثلة تحمل المعنى نفسه فأمامنا المطاردات القضائية باسم دعاوى الحسبة . هذه كذلك بكل مايدور فى فلكها من مرافعات وشهادات تلقى فى ساحات القضاء ، ومقالات وتصريحات تنشر فى الصحف تشهد بما تنطوى عليه من رسائل تهديد غير مباشرة إلى فئة بجملتها من المواطنين .

وهناك أمثلة أخرى أقل فجاجة من الأمثلة التى أوردناها فى المستويين المذكورين ، ولكنها ليست أقل إفصاحا عن المعنى نفسه . ننتقى فى هذا المستوى الثالث مثالا أو اثنين . منذ بضع سنوات كانت مجلة «فصول» تخطط لإصدار عدد يقدم شهادات تتناول خبرات بعض الأساتذة الكُتّاب فيما يتعلق بحرية الرأى ، ومن ثم فقد قامت رئاسة التحرير بإرسال خطابات إلى عدد كبير من الكتاب تدعوهم فيها إلى تقديم اسهاماتهم . وإذا بواحد من الأساتذة الجامعيين الأفاضل يرفع عريضة إلى السيد رئيس الجمهورية مرفقا بها صورة لى للخطاب المشار إليه يستعديه أن يتدخل فى الأمر بصورة ما لمنع هذا التدبير من الوصول إلى مبتغاه (لأن هذا عمل شيوعى) . هذا مثال . ومثال آخر : فقد حدث عقب وفاة المغفور له الدكتور عبد العزيز الأهوانى فى ١٣ مارس سنة ١٩٨٠ أن نشر عدد من تلاميذه ومريديه وأصدقائه نعيا فى جريدة الأهرام مذيَّلاً بتوقيعاتهم . وإذا بكاتب من السادة الصحافيين ذى اسم معروف ينشر بعد ذلك بأيام قليلة دعوة فى صحيفة أخرى يوجه الخطاب فيها إلى سلطات الدولة يستعديها على أصحاب هذه التوقيعات ومن ارتبط بهم على أساس أن هؤلاء شيوعيون وهاهم يتجمعون



بمناسبة ما ويقدمون أسماءهم بأنفسهم . وهناك أمثلة أخرى من هذا الطراز ، طراز استعداء السلطة على الفصيل الآخر . والعنصر الذى يجعل هذه الأمثلة وماشابهها تنتظم فى باب أسلوب التهديد والتخويف بأوصافه التى حددناها هو تعدد المجاهيل حول الأذى الذى ينذر به مرسل التهديد إلى متلقيه ، وتوجيه التهديد إلى أشخاص ليسوا مقصودين بذواتهم بقدر ما هم مقصودون لأنهم يرمزون إلى فصيل كبير (نسبيا) فى المجتمع . هذا بغض النظر عن مدى الصدق أو الكذب فيما يخلق مرسل التهديد على متلقيه من صفات .

◎ النفى خارج الحدود

لأمر مالم يقدر لهذا الأسلوب ، أسلوب النفى خارج الحدود أن يُستخدم على نطاق واسع ، ولكنه استخدم على أية حال وأشهر مثال على استخدام ماعمد إليه المغفور له الأستاذ عباس العقاد كممثل لجبهة الشعراء العموديين فى الصراع ضد الرواد الأوائل لجبهة شعراء التفعيلة فقد كان رحمه الله وهو على رأس لجنة الشعر بالمجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون والعلوم الاجتماعية إذا تلقى عملا من شعر شعراء التفعيلة بغرض التحكيم لنيل جائزة أو ما إلى ذلك يحوّله بمذكرة أو بتأشيرة إلى لجنة النثر . وهكذا ينفى صاحب العمل والجبهة والقيم التى يمثلها حدود دولة الشعر كما يحددها سدنة هذه الدولة فى أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات . وجدير بالذكر أن أسلوب النفى هذا لم يكن موجها ضد صلاح عبد الصبور بشخصه أو ضد أى شاعر آخر بعينه من شعراء التوجه الجديد ولكنه كان موجهاً أساساً ضد ممثلى التوجُّه فى مجموعهم وهذا مايجعله أسلوبا بين أساليب إدارة الصراعات فيما بين فصائل المجتمع . أما مايجعله شديد الأذى فى وقعه على النفوس الساعية إلى الإبداع فهو تعارضه الجذرى مع دافع من أهم الدوافع المحركة لطاقة الإبداع وهو مانسميه الدافع إلى الحصول على الاعتراف ، اعتراف الآخر بالمبدع.

وهى علاقة شديدة التعقيد إذ تنطوى أساساً على مستويين ، أحدهما سطحى،ويتمثل فى تسليم الآخر بقيمة الناتج الإبداعى الذى يقدمه لك المبدع ، والمستوى الثانى شديد العمق واسع الشمول يتمثل فى اعتراف الآخر ضمناً بالقضية القائمة وراء هذا الناتج الإبداعى وهى القضية التى زلزلت إيمان المبدع

أصلا بالصيغة التقليدية التي كانت سائدة في المجال الفلاني . فإذا أتيت أنت ونفيت الناتج الإبداعي (ومن ثم نفيت كل مايمثله) إلى خارج حدود المجال الذي يستمد منه هويته أصلا فقد أهدرت كل حياة هذا المبدع والجبهة التي يمثلها وكل المعاني والقيم التي وقف المبدع حياته على تجسيدها ، وهو مايؤدي حتما إلى أنواع من الأذى بالغة السوء.

● تأثير الأنداد

تشير الدراسات العلمية المدقّقة في مجال الإبداع إلى أهمية الأنداد في تنشيط العمليات الإبداعية عند المبتكرين أو المخترعين أو المبدعين عموما . وهذا ما تعود فتؤكده مجموعة من الدراسات شديدة الحداثة ، نذكر منها عددا من النتائج المهمة التي انتهى إليها في سنة ١٩٩٥ عالمان جليلان هما كيث سايمونتون أستاذ علم النفس في جامعة كاليفورنيا دافيز (بالولايات المتحدة الأمريكية) ، وكيفين دنبار أستاذ مساعد علم النفس في جامعة ماكجيل بكندا . استعان الأول في دراسته بالرجوع إلى سير حياة أعداد كبيرة من العلماء والفنانين والفلاسفة ، وأجرى الثاني بحوثه علي مجموعة من علماء الفيزياء والكيمياء والبيولوجيا اختارهم من بين العاملين في أربعة معامل رفيعة المستوى للبيولوجيا الجزيئية ، ومن أبسط الأمثلة علي صحة نتائج هذين العالمين مانجده يحدث من تفاعلات بين ثلاثة أو أربعة من العلماء الشبان يعملون معاً في معمل أو قسم أو معهد واحد ، وهم يقتسمون العمل في مشكلة بحثية مركبة ، يلتقون من حين لآخر بشكل رسمي أو غير رسمي فيتبادلون الأحاديث التي تتناول بعض مايعرض لهم من مسائل تنطوي على صعوبات بعينها ، يتطاير الحديث بينهم وبه أفكار متناثرة ، وإذا بإحدى هذه الأفكار تصلح مقدمة أولى لتسلسل فكري معين ، ثم إذا بخاطر ثاني يصلح مقدمة ثانية ، ثم إذا بالتقاء المقدمتين في عقل زميل ثالث يولّد لديه توقّعاً أو تنبؤا إذا أمكن البرهنة على صحته تخلّق ناتجا إبداعيا ، وهكذا .

ولننظر على ضوء هذا الحديث في الواقع الاجتماعي النفسي الذي يعايشه شبابنا الذين يُفترض فيهم أن يكونوا واعدين ، في مراكز البحوث وفي كليات ومعاهد الجامعات .

ولنتجه بنظرتنا مباشرة إلى أضيق الدوائر حول هؤلاء الشبان ، هم في مجموعهم باعتبارهم مؤثرين ومتأثرين بما يدور بينهم من تخاطب أو تواصل على جميع المستويات . فماذا نجد الآن ، في الفترة التاريخية الراهنة ؟ نجد تخاطبا وتواصلا لا علاقة له بالبحث العلمي ولا بالفكر الجاد ، وهو في الوقت نفسه شديد التدني في معناه ومبناه .

قد نستثني من هذا الحكم أو من تعميم هذا الإقرار قلة من الشبان



لايزيدون على الآحاد فى هذه الجامعة أو تلك ، أو فى أحد مراكز البحوث . فما الذى تجده فى حالة هؤلاء ؟ نجد أنهم قد فطنوا فى وقت ما إلى أن كثرة مخالطة الزملاء هى الطريق إلى الضياع ، ولهذا الضياع معان وتوجهات شتى . ومن ثم فهم ينأون بأنفسهم عن هذه المخالطة .

وهكذا يصبح سياق الأنداد لدينا عاملا يضاف إلى العوامل الثلاثة السابقة ليتكاتف الأربعة معاً كعوامل اجتماعية معاكسة لإمكانات الإبداع .

وأخطر مافى هذه العوامل أنها تنصبُّ علينا من بيئتنا الاجتماعية ، فهى واسعة الانتشار ، وأنها تصيب إمكانات النشاط الإبداعى نفسها ، أى تصيب الجذور .

فكأننا أصبحنا نعانى من توجه مجتمعى شامل نحو نوع من التصحر يصيب تربة الإبداع فى نفوس مواطنينا .

أما بعد ـ فقد يرى بعض القراء فى هذا العامل الأخير مايجعله ناشزاً بعض الشىء عن أن ينضم مع العوامل الثلاثة تحت فئة واحدة هى التى أسميناها أساليب إدارة الصراع أو مقتضيات الاختلاف بين قطاعات المجتمع لدينا .

ولكن ما أقنعنى بضمّه إليها كون هذا التأثير يرد علينا من البيئة الاجتماعية فى إطار التفاعل الاجتماعى ويكون ذا أثر معاكس لنشاط قدرات الإبداع .

● وأخيراً ..

أردت بهذا المقال أن ألقى الضوء على أربعة عوامل اجتماعية تسهم إسهاما له خطره فى تعطيل إمكانات الإبداع فى نفوس مواطنينا ، وتندرج هذه العوامل الأربعة تحت فئة واحدة هى فئة إدارة عجلة الصراع بين قطاعات المجتمع أو تقسيماته المختلفة ، هذه العوامل هى : التنافس الذى يتطور إلى تناحر ، والتهديد أو التخويف ، والنفى خارج حدود أرض الهوية ، ونوع التأثير الذى ينصب على الفرد من الأنداد . ويبدو واضحا أنها جميعا عوامل معاكسة لا لتنشيط استعدادات الإبداع فى نفوس المواطنين فحسب بل ومعاكسة لمجرد الإبقاء على هذه الاستعدادات فى حالة الكمون الأصلية ، ومن ثم فقد بدا لنا أن هذا الوجه من تفاعلاتنا الاجتماعية يمضى بنا نحو حالة من التصحر التام فى التربة التى هى معدّة أصلا للإبداع فى نفوس مواطنينا . □

القفـــز عـــلى الأشـــواك

(٢)

بقلـم :

د. شكرى محمد عياد

الجنة الضائعة والجنة الأرضية

«المجـوس» لإبراهيم الكونى، مـثل كل الملاحم التى نعرفـهـا، تعتـمـد فى أحداثها الكبرى على أصل تاريخى لعب به خـيـال الرواة أجيالا متعاقبة حتى اختلط فيه الواقع بالأسطورة . أما الواقع التاريخى فـهو توغل دولة المرابطين أثناء القرنين الحادى عـشر والثانى عشر داخل القارة الافريقية، متقدمين بحذاء الساحل (دولة السنغال أخذت اسمها، فى أغلب الظن، من قـبـيلة «صنهـاجـة» البربرية - ذات الأصول العربيـة كـمـا يقول بعض المؤرخين)، ومـتـوغلين فى الصـحـراء ومغـيـرين على أحـراش أفـريقـيـا الوسطي . وعلى آثار الغزاة ، الذين يمكن ان يندفـعـوا فى اول امرهم طوعا لعاطفة دينية ولكنهم لا يلبثون الا قليلا حتى يصبح الغزو حرفـتهم طلبـا للغنائم من الكنوز والسـبى، على آثار هؤلاء يأتـى التـجـار الذين يسـوقـون قـوافلهم عبر الصـحـراء بين الشمـال والجنوب والشرق والغرب. ويجمعون فى أيديهم النصيب الاكبر من ثروات الجهات الأربع، شأن الوسطاء فى كل زمان ومكان.

القفز على الأشواك

وأما التاريخ الأسطورى فيقول ان المرابطين بعد ان نشروا الدعوة فى الأدغال بين قبائل الزنوج وجعلوا من «تينبكتو» عاصمة للصحراء وما تبعها من اجزاء القارة التى شملتها الفتوحات، نصبوا «ختامان» الحكيم سلطانا عليها قبل ان يعبروا غربا الى بلاد ما وراء البحار، وأقام ختامان الحكيم اول نظام اسلامى فى قارة من الزنوج الذين يتبعون السحرة ويعبدون الاصنام (المجوس كما تصفهم الملحمة) ، فمنع السجود للإله «أمناى» وطوقه بسياج من الحجارة ودعا الناس لأداء صلاة الاستسقاء فى المساجد وطلب الماء من إله السماء. ووضع القوانين وسن الأعراف بين القبائل، وضمن لزعيمهم منع تجارة الرقيق مقابل استمرارهم فى تزويد السلطنة بما تحتاجه من التبر، عصب التجارة وأساس ازدهار المدن . (ج ١ ص ٧٣ ـ ص ٧٥).

وبرغم انشغاله ببناء «تينبكتو» لتكون عاصمة الذهب وبغداد القارة السوداء حرص على ألا تنقطع صلته بالصحراء ، فكان يقضى فصل الربيع فى المواسم الممطرة من كل عام فى البرية، ووضع قانونا لنبلاء «تينبكتو» يقضى بأن يرسلوا اولادهم الى الصحراء بمجرد ان يبلغوا السادسة من العمر، وهناك يعيشون مع الرعاة، أولئك المهاجرين الايديين الحكماء. فيتعلمون منهم الرماية وركوب المهارى كما يتعلمون حب الحقيقة وحب الحقيقة عند حكماء الصحراء يعنى حب الحرية، فمن آثر الاقامة على الترحال اصبح عبدا للمكان، وساوم على الحقيقة فى سبيل البقاء.

● بداية أحداث الملحمة الصحراوية

ورث ختامان اثنا عشر سلطانا ساروا على سنته، وكانت قاعدتهم فى وراثة الملك ان يتولاه ابن الأخت، الى ان كان آخرهم «همه» ولم يكن له ابن أخت، وكان فيه ميل الى العزلة، وحنين الى عيشة الصحراء، فنزل عن الملك لابن أخيه أورغ وفى عهد هذا الملك تبدأ احداث الملحمة الصحراوية، وتجرى فى مكان ناء من أطراف مملكته، فهو يحكم فى وادى آير على حافة الأدغال . وأحداث الملحمة تجرى فى وادى آزجر الذى يشرف عليه جبل شاهق الارتفاع، جبل ايدينان. والرعاة الذين يعيشون عيشة التجوال فى وادى آزجر يعتقدون ان الجن يسكنون الجبل، وأن بين الفريقين عهدا حافظوا عليه منذ القدم، وهو ان يكون الذهب .

مثل الجبل، خاصا بالجن، فمن نقض الميثاق من أهل آزجر وتعامل بالذهب او تزين به استحق اللعنة. وكل من جاور ايدينان وتعامل بالذهب او اقتنى شيئا منه حلت عليه اللعنة كذلك. هذا ما جربه أهل آزجر حين نزل بأرضهم رجل زعم انه من علماء الدين. وانه سائح لإصلاح حال العباد، وتطهير الدين من البدع والفساد، ولم يمضى وقت طويل حتى اشتدت شوكته، وتبعه شباب القبيلة، وجعل يغير على قبائل الكفار ويرجع بالغنائم والسبايا. وهو ما بدأ تعاليمه بنهى الناس عنه . ولكن تاجرا ماكرا اراد الايقاع فأهدى اليه صندوقا مليئا بالتبر. قيل ان الشيخ كان يعرف ما فيه، وقيل عكس ذلك، ولكن الذى حدث بعد ذلك جعل قبائل آزجر اشد تمسكا بعهدهم مع الجن، فقد هزم جيش الشيخ شر هزيمة، وقال الناس ان الجن كانت تحارب مع أعدائه.

أما السلطان اورغ فكان له شأن اخر جلب عليه غضب الله والجن معا. فقد دعاه حرصه على الذهب الى مهادنة قبائل الزنج، ولا سيما حين حلت بالصحراء فترة جفاف طالت سنين، وضعفت بسببها حركة التجارة. وما لبث السلطان ان نزل على حكم السحرة واعاد عبادة آمناى. ولكن الجفاف لم يرم ، فقال الكهان ان



إبراهيم الكونى

آمناى مازال غاضبا لما حل به من إهمال فى الدهور الماضية، وانه لن يرضى حتى يضحى له بعذراء . وقدمت له عذراء قذفت فى الهاوية التى امامه. ولكنه ظل على عناده . واخيرا بعث السلطان بكبير عرافى المدينة الى زعيمهم الروحى فى الأدغال ليعود بالنبأ اليقين. وكان هذا النبأ الذى أفضى به العراف الى السلطان ان امناى منذ اليوم لن يرضى بغير سلالة النبلاء. خاف السلطان على وحيدته «تينيرى» التى رزقها بعد يأس، فبعث الى أخيه لأبيه «أناى» وكان تاجرا يتنقل بين مدن الصحراء ، وتوسل اليه بحرمة الدم كى يهرب بالأميرة الى أرض بعيدة عن سلطان أمناى وعرافى أمناى. وكانت هذه الأرض هى أزجر، حيث لا يزال الناس ثابتين على إيمانهم ، لم يرتدوا الى دين المجوس.

● البطل الملحمى

ان ينزل «أناى» بابنة أخيه ومن معهما

القفز علي الأشواك

من الأتباع والعبيد فى جوار أهل «آزجر» بإذن شيوخهم وزعيمهم «آده» أمر غير مستغرب فى ناموس الصحراء . ألا يمنعوهم من ماء البئر، مع ان فتيان القبيلة الاشداء يخوضون حربا «عنيدة» مستمرة كى يمنعوا رياح «القبلى» الضارية ان تطمها ، أمر غير مستغرب كذلك. ولكن هل يقنع «أناى» بهذا الجوار؟

«أناى» بطل ملحمى، ولكن «المجوس» ملحمة حديثة، وإذا كان ابطال الملاحم القديمة ذوى صفات ثابتة لأنهم مفردات فى معجم اسطورى محدد المعانى، «أخيل الشجاع» ، «أوديسيوس ذو الحيل» «عنترة ابو الفوارس» ، الخ.. فإن البطل الملحمى الحديث لا يحمل صفات محددة، فالأفعال والظروف هى التى تحدد كيف تكون شخصيته، انه فى مغامرة مستمرة لاكتشاف ذاته، وراوى الملحمة يحوّلنا الى مكتشفين ايضا. يصدق هذا على «أناى» كما يصدق على سائر ابطال الملحمة، فهم لا يخرجون من قاموس معين. ولكنهم يؤلفون - معا - لغة جديدة وغريبة. علينا ان نتفهم طريقة الراوى وأسلوبه حتى نكتشف هذه اللغة ولانتوه بين مفرداتها. انه يبدو مشغولا بالاحداث اكثر من الاشخاص، ولذلك فإن تفسير حدث ما يدعوه الى رواية حدث اخر ، وهكذا تتسلسل الفصول، كل فصل منها يفسر الفصل السابق (كما فى حكايات كليلة ودمنة او الف ليلة وليلة) ، ولكننا نتبين كلما مضينا فى القراءة ان الأحداث. مهما تكن لافتة او مشوقة، لا تروى لذاتها. بل لتكشف عن نفوس أبطالها . عما يجرى داخل هذه النفوس، التى تتحرك بين قدر مرسوم لها منذ البدء، وان كانت تجهله، ومحاولات عنيفة وعنيدة لتحقيق شىء اخر، يتبين فى النهاية انه هو ذلك القدر بعينه.

يشغلنا الراوى بتينيرى الساحرة قبل ان نعرف شيئا عن عمها. ولكننا لا نلبث ان نتبين ان العم «أناى» هو القوة الكبرى المحركة للأحداث (بذلك المعنى الغامض والمأساوى). فالقصة تبدأ فى ذلك المعسكر الذى نصبته الجماعة الطارئة فى جانب صغير من الوادى عند سفح الجبل، وتتقدم مع البناء الذى اخذ يرتفع حتى اصبح مدينة عامرة فى قلب الصحراء، امتدت اسوارها حتى احاطت بالبئر، بعد ان قاست القبيلة ما قاست حتى تدفع عنها عدوان القبلى، وتنتهى القصة بسقوط المدينة، والقبيلة معها، امام الاعداء الثلاثة الذين اجتمعوا على حربها من الانس والحيوان والجن: بنى آوى. قبيلة الزنج

التى تنتسب الى هذا الطوطم. وقد حاربهم اهل الوادى وظفروا بهم على عهد شيخ الطريقة، ومعهم قبيلة من ذلك الحيوان الذى ينتسبون اليه. وثالثهم الجن الذين غاظهم نقض اهل الوادى ميثاقهم معهم. وعلى مدى الرواية - الملحمة التى جاوزت صفحاتها السبعمائة وطوال هذا الزمن بين قيام مدينته وسقوطها تتمثل لنا شخصية آنى بتفصيل اكبر فأكبر، نموذجا مكبرا، اكثر حياة وأكثر تعقيدا. من شيخ الطريقة الذى يقول عنه احد مريديه القدامى (ج ٢ ص ٨٨): «خلافى مع الشيخ الاكبر ليس فى تعاليمه ولكنه فى نفسه الامارة بالسوء ان المصلح والحاكم لا يجتمعان فى قلب واحد. لأن كفة الحكم أرجح وأقوى . امام المصلح الحقيقى طريق واحد. المغارة .الصحراء. العزلة فإذا انقاد للوسواس مرة وخرج من صحرائه الى الناس، فإنه يضيع لان الشيطان سيستولى على المبادرة ويتولى الامر. » (ج ٢ ص ٨٨).

بينما تكون المدينة فى طور البناء، يستضيف اناى كبير تجار الصحراء، الحاج البكاى، ويريه الحدادين العاكفين على صياغة المعدن المحرم. لا يجهل اناى، ولا هو ولا احد من حاشيته، ان اهل الصحراء الوسطى يحرمون التعامل بالذهب، وينسبون هذا التحريم الى كتاب لهم مفقود، يزعمون انه يرجع الى آلاف السنين، وان شذرات منه فقط توجد على جدران الكهوف منقوشة بحروف «التيفناغ» . ولكن آنى يعرف ايضا ان سر قيام المدن وازدهارها فى قلب الصحراء انما هو الذهب. ايمان التجار لا يطابق ايمان الرعاة، وقد استطاع ان يخفى هذا السر عن جيرانه البسطاء، فلم يعرفوه الا قرب النهاية، وبعد ان نجح فى استقطاب معظمهم داخل اسوار مدينته. ولكن خداعه ظهر لهم من اول الامر حين،زعم لشيوخهم انه لن يحتل من واديهم الا بقدر ما يفرش جلد جاموسة. وماهو الا ان اعطوا كلمتهم حتى اخذ صناعه يقطعون جلد الجاموسة سيورا دقيقة ويصلون بعضها ببعض حتى تصبح باتساع سور المدينة.

قال اهل السهل، عندما رأوا المدينة ترتفع سورا وقصورا وتحتضن دروبا واسواقا (ولكن بلا مآذن ولا أهلة ، إنه يريدها «تينبكتو الصغرى» وقال بعض الشيوخ انه ارتد الى دين المجوس مثل اخيه. أما آنى نفسه فيقول للزعيم «أده»: «لا تسىء بى الظن. ولا تعتقد انى من أولئك الذين يجرون على انتهاز الفرصة واستغلال موقف السلطان. ليس لانه اخى ولكن لقناعتى بان النبل انفس نيشان على

القفز على الأشواك

صدر الصحراوى، اذا فقده فقد جرد نفسه من السلاح. هذه القناعة هى التى جعلتنى اقبل تحدى زعماء الأدغال وأهرب بالفتاة الى آزجر، والله وحدة هو الذى كافأنى على الزهد ورتب لى كل ماحققته فيما بعد من نجاح فى تنفيذ الخطة القديمة. شعر اورغ بالخطر وادرك انه وضع رقبته في يد المجوس الي الابد عندما قبل شروطهم في مد الواحة بالتبر . بعث لى بالقوافل المحملة بما يكفى لتشييد الحلم ونقل (واو) من رحابها السماوية الى الأرض، فى صحراء آزجر، وكان ينوى ان يلتحق بنا ايضا لولا الخدم الذين دسوا له السم فى الطعام تنفيذا لمكيدة زعيم بامبارا» (ج ١ ص ٣٤٧).

الصحراويون جميعا يحلمون بواو. بعد ان طرد الجد الاعلى «مندم» من «واو الكبيرة» نتيجة لعصيانه بقى نسله يهيمون فى الصحراء ولكنهم يؤمنون أيضا بأن هناك واو الصغرى، واحه فى الصحراء لا تظهر الا للهائم المشرف على الهلاك. من دخلها لم يمكنه الحديث عنها،. ومن بحث عنها لم يجدها. السلطان آنى اذن رجل حالم. بل هو اخطر الحالمين، لانه يحاول ان يجعل من الحلم حقيقة .يجيبه الزعيم:

«اعترف لك الان انى لم اشك لحظة، عندما رأيتك اول يوم، انك من الباحثين عن واو. ولو اعطيت اذنا صاغية لهذا الهاجس لما تغيرت طبيعة السهل ولكن هل ندرى ما الذى ضللنى؟ لم اظن يوما ان البحث عن واو يمكن ان يكون جماعيا. تعودنا فى الماضى ان نلتقى فى الصحارى بالمهاجرين المعتزلين وتوارثنا عن اهلنا ان العزلة قدر الباحث عن واو. ولم يخطر ببالى ان ارى نجعا كاملا يهيم فى القارة بحثا عن الوطن المفقود».

ثم:

«هل يعرف جناب السلطان لماذا يرفض الانسان ان يقاد الى الجنة بالسلاسل ؟ لان الجنة تكف عن ان تكون جنة بمجرد ان يجبر المخلوق على الذهاب اليها مسلسلا فى القيود». (ج ١ ص ٣٤٩ - ٣٥٠ - ٣٥٦).

سلطة المرأة

وروى خدم القصر لابنة اخيه انه حين أولم وليمته الكبرى لشيوخ آزجر بعد ان تم بناء المدينة، وعلم انهم عاتبون لأنه لم يزوجها لانبل فرسانهم «اوخا» راح يسامرهم برواية احكام قال انها مقتبسة من آنهى، وقصص شائقة عن سلطة المرأة الآيرية وجاهها القديم حتى قال: «هل يعلم الوجهاء الافاضل لماذا يروننى بدون زوجة؟

هل يدرى النبلاء لماذا لم اركن الى هذا المخلوق المقدس؟ لأنى اعرف سرا لا يعرفه كل البلهاء الذين يجازفون بالاقدام على هذه الخطوة. اعرف ان الواجب يقضى على الرجل الذى قرر ان يربط مصيره بامرأة ان يسخر لها وجوده، ان يحوم حولها كما تحوم الفراشة حول النار، لان المخلوقة، الالهية، ستعاقبه بأشر جزاء اذا لم يفعل ذلك . سيشقى، ولن يجد للحياة طعما ولا معنى. ضحكت نيريرى حين سمعت هذه الرواية، واعجبها رأيه فى «المخلوق الغامض» المرأة، ام تينيرى نفسها؟ وعرفت لماذا يتحاشى ان يفصح عن آرائه فى حضورها . عرفت ان التزامه بدستور الحياء العائلى ليس السبب الوحيد (ج ٢ ص ٢٨٠).

فهل تراها شعرت، ولو شعورا غامضا. بأن عمها كان اول عشاقها، وان رحلاته الدائمة فى التجارة، وانشغاله المستمر فى بناء «واو» الأرضية ، لم يكن الا فرارا من ذلك الحب المحرم، الذى جعله يحرم على نفسه حب اى امرأة غيرها؟

اى سر آخر يخفيه ذلك المثالى المتنكر فى ثياب سلطان؟

لقد انتهت سيرة حياته بخاتمة لم يكن يتوقعها احد.

عندما هجم الجيش الثلاثى على المدينة والسهل خرج عليهم بسيفه الذهبى وقتل منهم خلقا كثيرا. لم يفلح فى اصطياده انسى ولا جنى ولا وحش. اخيرا صاح كبير عرافى تينبكتو الذى جاء فى أثره ليطلب منه تسليم الاميرة: لا تحاولوا. انه محصن لا تعمل فيه السيوف ولا النبال. لا حيلة فيه الا خنقه بالحبال. ولكنه استمر يمزق الحبال بسيفه، فهاجمه العراف والتحما بالايدى حتى تمكن العراف من رقبة السلطان.

عثر الرجلان الباقيان من القبيلة ، الدرويش والزعيم، على جثته بين القتلى. كان يعلق سلسلة على صدره ، فيها مفتاح ذهبى. وكثيرا ما نسج اهل الصحراء القصص حول ذلك المفتاح ، والصندوق الذى يخفيه السلطان فى قبو القصر. لم يعثر الدرويش على المفتاح مع الجثة، فاستبد به الفضول. ولم يكن الزعيم ليسيء به الظن، فليس احدهما بأقل من الآخر تشاؤما من المعدن البراق ولكن الفضول نزعة خبيثة لا يسلم منها الدراويش ولا الحكماء. ذهبا الى قبو القصر، وبعد ان عثرا على الصندوق وافلحا فى كسر القفل وقفا مذهولين امام الصندوق المفتوح.

لم يكن فيه الا .. كفن.!

تطور الفكر الاقتصادى المصرى فى القرن العشرين (٣)

الفكر الاقتصادى المصرى فى عصر الانفتاح

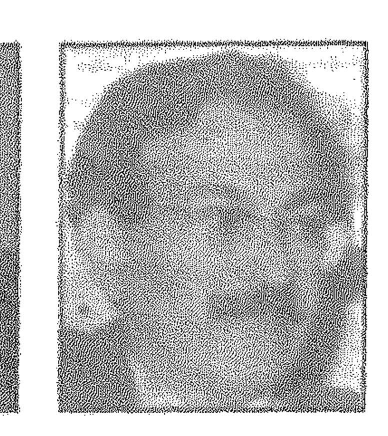
بقلم : د. جلال أمين

كان العامل الذى أثر فى الكتابات الاقتصادية المصرية خلال الفترة (٧٠ - ١٩٩٥) تأثيرا مباشرا أو غير مباشر ، أكثر من أى عامل آخر ، هو فى رأيى هزيمة ١٩٦٧ . فجيل الاقتصاديين المصريين الذى أتكلم عنه فى هذا المقال هو جيل ماسمى بالنكسة، وحرب أكتوبر وسياسات الانفتاح الاقتصادى ، وتدفق أموال النفط والتضخم ، وتراكم الديون الخارجية ، واتفاقيات فض الاشتباك و«السلام»وما يسمى «بالتصحيح الهيكلى» وأخيرا جيل الدعوة إلى مايسمى «بالشرق أوسطية» . إن معظم هذه الأحداث ما كان ليحدث على الأرجح لو لم تحدث حرب ١٩٦٧ ، ولولا هزيمتنا فيها.

لقد أدت هزيمة ١٩٦٧ الى إضعاف الدولة المصرية الى درجة جعلتها تفقد جزءا كبيرا من قدرتها على القيام بأى مهام جديدة أو اتخاذ إجراءات «ثورية» من أى نوع ، واضطرتها الى التخفيف من قبضتها على عقول الناس ومن تقييدها لحرية التعبير . كما أدى الضعف الشديد الذى لحق بثقة الناس فى السلطة ، وانتشار الشعور بخيبة الأمل فى قدرتها على تحقيق ما قدمته من وعود ، إلى ضعضعة الأيديولوجية التى كانت تتبناها الدولة ، إذ بدا للناس فجأة أن هناك أشياء أخطر بكثير من الاشتراكية والتخطيط وإعادة توزيع الدخل ، وبدا وكأن هذه الأشياء قد فقدت فجأة كثيرا مما كان يعلق عليها من أهمية .

انشغل الاقتصاديون المصريون لفترة من الوقت ، فى أعقاب هزيمة ١٩٦٧ ، بتقدير الخسائر الاقتصادية الناجمة عن الحرب ، أو بمشاكل تعبئة الموارد اللازمة

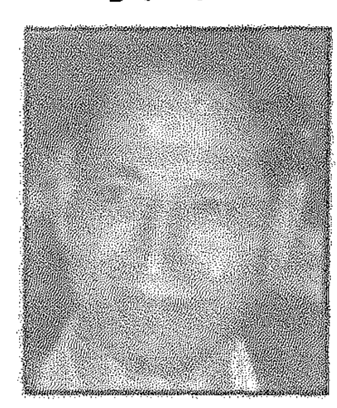
لدعم المجهود الحربى وحرب الاستنزاف ، ولكن سرعان ما تحول الاهتمام الى السياسة الاقتصادية الجديدة التى دشنها السادات فى أعقاب حرب أكتوبر ١٩٧٣ مباشرة . إن جزءا كبيرا من طاقة وجهد الاقتصاديين المصريين خلال العقدين التاليين وجه إما إلى الدفاع عن سياسات الانفتاح الاقتصادى أو إلى انتقادها ، واستمر ذلك حتى بعد بدء سياسة «التصحيح الهيكلى» فى منتصف الثمانينات ، وإن كان التركيز منذ ذلك الوقت قد أصبح على موضوعات مثل إلغاء أو تخفيض الدعم أو الابقاء عليه ، وبيع القطاع العام ونقده أو الدفاع عنه .



د. رمزى زكى

د. حازم الببلاوى





د. جودة عبد الخالق

أدى اندلاع هذه المناقشات الى اشتراك الاقتصاديين المصريين فى النقاش المعروض على الرأى العام بدرجة أكبر بكثير مما كان عليه الحال قبل ذلك ، إذ لم يحدث شىء من نفس النوع قبل تدشين سياسة الانفتاح . فخلال فترة ما بين الحربين العالميتين فى العشرينات والثلاثينات ، وكذلك فى الأربعينات لم يكن هذا النقاش العام بين الاقتصاديين واردا بسبب ندرة الاقتصاديين من ناحية والاستقرار الكبير الذى تمتعت به السياسة الاقتصادية فى ذلك الوقت من ناحية أخرى . وأما خلال الحقبة «الاشتراكية» فى الخمسينات والستينات فإن السياسة الاقتصادية لم تكن تعرض على الناس لمناقشتها بل كان يجرى إملاؤها عليهم . أما الآن ، أى ابتداء من أوائل السبعينات ، فعلى الرغم من أن المناقشات العامة لم يكن لها أى تأثير يذكر على القرارات التى تتخذها الحكومة (تماما كما كان الحال قبل ذلك) فإن زيارة درجة حرية التعبير بعد ١٩٧٠ ، والتحول المفاجىء فى السياسة الاقتصادية بعد

١٩٧٣ ، جعلا فتح باب النقاش بين مؤيدى ومعارضى هذه السياسة أمرا شبه حتمى.

● مؤتمرات الاقتصاديين

كان من بين الآثار الناتجة عن ذلك ، هو ظهور هذا التقليد الجميل ، ابتداء من ١٩٧٥ ، والذى يرجع الفضل الأول فى إنشائه للدكتور اسماعيل صبرى عبد الله، لعقد مؤتمر سنوى للاقتصاديين المصريين وهو ما أخذت تنظمه كل عام الجمعية المصرية للاقتصاد السياسى والاحصاء والتشريع ، ومازال مستمرا حتى الآن ، وإن كان قد أصابه ضعف شديد ، بالمقارنة بما كان عليه فى السنوات الأولى لأسباب لاتختلف كثيرا عن أسباب الضعف الذى لحق بمختلف منابر وقنوات التعبير عن الرأى العام فى السنوات العشر الأخيرة . ولكن هذا المؤتمر كان طوال السنوات العشر الأولى على الأقل ، مجالا مهما لاعداد ومناقشة تحليلات جيدة ومدعمة تدعيما قويا بالاحصاءات والبيانات الحديثة ، لمختلف جوانب الاقتصاد المصرى .

وهنا يجب أن نلاحظ فارقا مهما بين الانتاج الفكرى الاقتصادى لهذه المرحلة وبينه فى المرحلتين السابقتين اللتين تناولتهما فى مقالين سابقين (الهلال ، عددا ابريل ومايو ١٩٩٦) فلأول مرة منذ بدأت الكتابات الاقتصادية فى مصر ، أصبح الاقتصاديون المصريون هم المصدر الرئيسى للتحليل الاقتصادى لمشاكل بلدهم ، فمنذ أوائل السبعينات بدأت تظهر مؤلفات مهمة بالعربية وغير العربية ، كتبها اقتصاديون مصريون ، عن الاقتصاد المصرى ، وأصبحت الاشارة الى كتابات الاقتصاديين المصريين ، التى ترد فى مؤلفات يضعها غير المصريين ، أمرا متكررا ومألوفا بينما أصبح من المألوف أيضا ظهور مؤلفات عن الاقتصاد المصرى بجهد مشترك بين اقتصاديين أجانب ومصريين. كذلك انتشرت دعوة الاقتصاديين المصريين للمساهمة فى المؤتمرات الدولية ومنشورات الأمم المتحدة ، وزاد عدد الاقتصاديين المصريين الذين يشغلون مناصب مرموقة فى مختلف منظمات الأمم المتحدة .

فى هذه الحقبة إذن (٧٠ - ١٩٩٥) لم تعد العلاقة فى اتجاه واحد : يكتب الاقتصاديون الأجانب عن الاقتصاد المصرى أو غيره فيتلقى منهم الاقتصاديون المصريون مايكتبونه ويلخصونه أو يعلقون عليه ، بل أصبح للاقتصاديين المصريين إنتاجهم المبتكر فى التحليل الاقتصادى لمشاكل بلدهم ، بل أصبحوا هم المصدر الأساسى لهذا التحليل .

يؤيد ذلك أنه لايكاد المرء يجد عملا

واحدا كتبه اقتصادى مصرى عن الاقتصاد المصرى ونشر فى أوربا أو أمريكا خلال الحقبة الأولى (٢٠ - ١٩٤٥) والكتابات الاقتصادية القليلة التى كتبها مصريون بلغة أجنبية فى تلك الحقبة ، ثم نشرها كأعداد خاصة من مجلة «مصر المعاصرة» ، التى تصدرها الجمعية المصرية للاقتصاد (مثال ذلك بحث د. محمد أنيس عن الدخل القومى المصرى) . وفى الفترة التالية (٤٥ - ١٩٧٠) ، ظل عدد الكتب المنشورة بالخارج لاقتصاديين مصريين قليلا وكانت أساسا تتضمن رسائل هؤلاء للدكتوراه المقدمة لجامعات أوربية أو أمريكية . أما فى الفترة الحالية (٧٠ - ١٩٩٥) فلم يعد الأمر كذلك ، بل أصبحت مؤلفات الاقتصاديين المصريين عن مشاكل بلدهم تطلب ابتداء من ناشرين أجانب ويرحب هؤلاء بنشرها ، سواء بالتعاون مع مؤلفين غير مصريين أو باستقلال .

ولكن بينما أفاد الاقتصاديون المصريون من زيادة حرية التعبير فى أعقاب ١٩٧٠ ، وأفادت مهنة الاقتصاد من زيادة عدد المتلقين تعليما اقتصاديا فى الجامعات المصرية ، بسبب مابذل من جهود السنوات السابقة على ١٩٧٠ وبعدها ، عانى هذا الجيل من الاقتصاديين من آثار تطورات أخرى يكاد يكون لها جميعا علاقة بهزيمة ١٩٦٧ .

● تدهور الروح المعنوية !

كان هناك أولا التدهور العام فى الروح المعنوية بسبب الهزيمة ، وفقدان ذلك الحماس الذى كان سائدا قبل ١٩٦٧ وكان وراء جزء لا يستهان به من الكتابات الاقتصادية فى أواخر الخمسينات وأوائل الستينات . من ناحية أخرى ، أدى تراجع دور الدولة فى الاقتصاد الى أن عانى الاقتصاديون العاملون فى الهيئات الحكومية المختلفة من تراجع الطلب على خدماتهم وانخفاض أهميتهم وتأثيرهم . وعلى سبيل المثال ، وجد عشرات من الاقتصاديين المشتغلين فى وزارة التخطيط ومعهد التخطيط القومى ، والمؤهلين تأهيلا جيدا ، وجدوا أنفسهم فجأة وكأن لا أحد فى حاجة إليهم بسبب انخفاض أهمية عملية التخطيط برمتها ، ذلك أن وضع الخطط الخمسية كان قد تم هجرانه منذ منتصف الستينات وحل محله التخطيط سنة بسنة ، وحتى عندما عاد الاعلان عن وضع خطط خمسية من جديد فإن عملية التخطيط كانت قد أصبحت عملا أقل جدية بكثير مما كانت فى الستينات بسبب سحب الدولة ليدها تدريجيا من التدخل فى الاقتصاد .

أما أساتذة الجامعات فقد تعرضوا لنوع آخر من الإحباط نتج عن شعور عام باللامبالاة من جانب الطلبة ، إما بسبب الهزيمة العسكرية نفسها وما تعرض له

الوطن من محن نتيجة لها ، أو بسبب تدهور الأحوال الاقتصادية بوجه عام ، وازدياد صعوبات الحياة ، بما فى ذلك صعوبة الحصول على وظائف مجزية بعد التخرج ، وهى كلها أمور غير منبتة الصلة بالهزيمة العسكرية ، يضاف الى ذلك أن الحكومة وجدت نفسها مضطرة للعودة الى سياسة قبول الأعداد الكبيرة فى الجامعات ، كجزء من محاولاتها لإرضاء الرأى العام الذى سيطر عليه السخط والتبرم فى أعقاب ١٩٦٧ ، ثم جاء بعد ذلك بقليل عصر التضخم الجامح فى أعقاب زيادة أسعار النفط فى ١٩٧٤/٧٣ فإذا بأساتذة الجامعات يجدون أنفسهم، مثل غيرهم ، مضطرين للبحث عن طرق لزيادة دخولهم ولو على حساب واجباتهم العادية فى الجامعة . هكذا نجد أنه ، بينما ظهر بعض الانتاج العلمى الجيد فى تلك الفترة ، بل وبكمية أكبر مما كان عليه الحال فى الستينات والخمسينات ، فإن الصورة الاجمالية كانت صورة تدهور عام فى مستوى البحث والكتابة الاقتصادية .

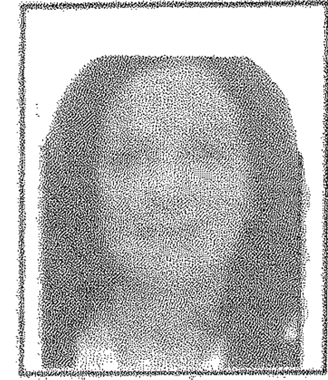
● البحث العلمى ورخاوة الدولة

كثيرا ما يقال إن كل هذا إنما يرجع الى تدهور عام فى الأخلاقيات ، ارتبط بارتفاع معدل التضخم واتباع سياسة الانفتاح الاقتصادى ، والظهور المفاجىء لفرص جديدة لزيادة الثروات بصرف النظر عن حجم الجهد المبذول ، وارتفاع معدل الحراك الاجتماعى المرتبط بهذا كله.

وعلى الرغم من أن هذا التفسير يتضمن بلا شك جزءا من الحقيقة ، فإن جزءا آخر من التفسير الحقيقى لهذا التدهور العام فى مستوى البحث العلمى والكتابة الاقتصادية يرجع الى «رخاوة» الدولة وهى ظاهرة كان لها من الآثار السيئة على العمل العلمى والأكاديمى مالايقل عن أثر اليد الثقيلة للدولة الذى ساد فى الستينات ذلك أن كل هذه التغيرات السلبية التى طرأت على الجامعات المصرية فى السبعينات ، والتى أشرت إليها حالا ، كانت تجرى تحت سمع الدولة وبصرها ، وكأن لا أحد يملك القدرة أو لديه الرغبة فى أن يضع حدا لها ، بينما أخذت الدولة منذ السبعينات تمنح أعلى جوائزها العلمية شأنا وأكثرها خطا من اهتمام الناس لاقتصاديين (وغيرهم من الكتاب) ممن يعرف زملاؤهم وتلاميذهم أنهم لم يساهموا مساهمة تذكر فى تقدم المعرفة ، ولكنهم من ذوى الحظوة السياسية ، أو تصادف أن كانوا يحتلون، وقت منح الجائزة ، أو قبلها بوقت قصير ، مناصب وزارية أو سياسية مهمة ، فكأن الدولة وهى تمنح الجائزة العلمية لاقتصادى لايستحقها تسحب الجائزة فى الحقيقة من اقتصاديين آخرين كانوا قد حصلوا عليها باستحقاق منذ بضع سنوات .

● حلول سيطرت محل أخرى

ومع مـــرور الزمن على تدشين سياسة الانفتاح الاقتصادى وازديادها رسوخا، زادت رخاوة الدولة وضعفها، ليس فقط فيما يتعلق بالسياسات الداخلية ، بل وأيضا فى مواجهة المؤثرات الخارجية ، وكان لذلك بدوره آثاره المهمة على الاقتصاد بوجه عام وكذلك على الكتابات الاقتصادية . كان نظام البعثات الحكومية قد أصابه الضعف الشديد منذ حرب ١٩٦٧ ، وتحول تمويل البعثات الدراسية فى الخارج ، شيئا فشيئا، من الحكومة المصرية إلى الحكومات أو المؤسسات الاجنبية . ظهرت أيضا فرص جديدة ومجزية لتمويل البحوث الاقتصادية التي يقوم بها اقتصاديون مصريون ، بدأت تقدمها مؤسسات أجنبية ومكاتب الاستشارات الاجنبية داخل مصر . كان من الاثار المهمة لهذه التطورات ذلك الاثر الحتمى لطبيعة الهيئة المانحة للتمويل على نوع واتجاه البحوث الممولة . فالباحثون المصريون الذين بدأوا يحصلون على تمويل لبحوثهم من مؤسسات أجنبية أو دولية أصبحوا يبحثون فى موضوعات لم يختاروها هم ولا اختارتها لها دولتهم ، بل اختارتها لهم تلك المؤسسات الاجنبية صاحبة المال ، وكان لابد أن يترتب على



د. هبة حندوسة

د. محمود عبد الفضيل

ذلك فقدان الباحث لاستقلاله ، ليس فقط فى تحديد الموضوع الذى يقوم ببحثه وحتى فى تحديد الاتجاه العام الذى يسلكه بل وفى النتائج التى يصل إليها ، إذ إنه ليس من الصعب عادة أن يخمن المرء أى نوع من النتائج تحب الهيئة الأجنبية أو الدولية الممولة أن يصل إليه الباحث فى النهاية . وهكذا فان تحرر الباحث من تدخل الدولة وسيطرتها لم يكن يعنى فى الحقيقة استرداد الباحث لحريته واستقلاله ، بل كان يعنى فى كثير من الأحوال خضوعه لنوع آخر من السيطرة ، ليس بالضرورة أقل ضرراً ، وهو سيطرة المؤسسة الاجنبية أو الدولية، وإذا بالحياد المزعوم للبحث الاقتصادى لا يزيد عن أن يكون حيادا ظاهريا وموهوما .

● أثر الهجرة

عندما حل عصر الهجرة على نطاق واسع ابتداء من منتصف السبعينات ، سافر عدد كبير من الاقتصاديين الاكاديميين المصريين إلى بلاد الخليج ، ليس هربا من النظام السياسى ، كما كان

الحال فى كثير من حالات الهجرة فى الستينات، بل هربا من التدهور الاقتصادى الذى بدا وكأنه قدر محتوم لو بقى المرء فى مصر فى مواجهة التضخم الجامح. وقد كان أثر هذه الموجة التالية من الهجرة على الكتابات الاقتصادية المصرية أسوأ من أثر الموجة السابقة (موجة الهجرة فى الستينات) ليس فقط لأنها شملت عدداً أكبر من الاقتصاديين المصريين، ولكن بسبب طبيعة الاعمال التى كان معظم هؤلاء المهاجرين يؤدونها فى بلاد الخليج . فالمهاجرون الأوائل من الاقتصاديين والفنيين المصريين، كان معظمهم يترك مصر ليعمل فى منظمات الأمم المتحدة أو فى دول لا يظهر فيها هذا الانفصام الواضح بين مايحصل عليه المهاجرون من مرتبات ومايقومون به من جهد. ولم يكن الحال كذلك فى معظم دول الخليج ، حيث كانت المرتبات أعلى بكثير من القيمة الحقيقية للجهد المبذول، الأمر الذى كان يعنى أن المهاجر المصرى لدى عودته الى بلاده كان لابد أن يعانى من الآثار السلبية لقضاء فترة فى الخارج حصل فيها على أجر أعلى بكثير مما يبرره جهده، عاد بعدها لبلاده ليواجه الظاهرة العكسية ، بالضبط حيث يحصل على دخل أقل بكثير من قيمة الجهد الذى يبذله .

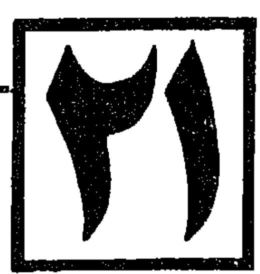
◎وأخيراً

لا أريد أن أختم هذا الاستعراض لتطور الكتابة الاقتصادية فى مصر خلال القرن الحالى بهذه النغمة المتشائمة، فالحقيقة أن الدرس الذى يستخلصه المرء من هذا الاستعراض لا يدعو الى كل هذا التشاؤم. نعم، لقد حمل كل جيل من الأجيال المتعاقبة من الاقتصاديين المصريين عبئا ثقيلا، وليس هناك دليل على أن العبء كان يقل ثقله مع مرور الزمن. لقد تحمل جيل مابين الحربين (١٩٢٠-١٩٤٠) عبء الدراسة والكتابة فى ظل الاحتلال ، على الرغم من حصول مصر اسميا على استقلالها فى مطلع تلك الفترة. وكان على الجيل التالى من الاقتصاديين (٤٥-١٩٧٠) أن يدفع ثمنا فرضه نفس الاشخاص الذين قاموا بتحرير الوطن من الاحتلال والنفوذ الاجنبى، وهو الثمن المتمثل فى اليد الثقيلة للدولة على المجتمع والفكر، على الرغم من المزايا التى حققها الاقتصاد القومى والمجتمع من هذا التدخل الصارم من جانب الدولة . فلما قل هذا العبء وقل تدخل الدولة فى الحياة الاقتصادية والاجتماعية منذ أوائل السبعينات دفع الجيل التالى من الاقتصاديين (٧٠-١٩٩٥) تكاليف هذا التراجع نفسه من جانب الدولة، أو مايمكن أن يسمى بتكاليف «الدولة الرخوة» .

كل هذا صحيح ولكن كل هذا لا يعنى أن الكتابات الاقتصادية والفكر الاقتصادى المصرى لم يحققا أى تقدم خلال هذه الفترة الطويلة التى شغلت ثلاثة أرباع القرن أو أن التقدم الذى أحرزاه كان هينا، فمصر اليوم لديها عدد كبير من الاقتصاديين الاكفاء، أكبر بكثير مما كان لديها فى ١٩٢٠ ، وعدد اكبر بكثير من الخريجين الذين تلقوا دراسات اقتصادية، وتنتج كمية أكبر بكثير من الاحصاءات الجيدة والتى يمكن التعويل عليها، ومن الكتب والدراسات والدوريات الاقتصادية من مختلف الأنواع لكل هذا علينا أن نشعر بالامتنان لكل هذه الاجيال الثلاثة المتعاقبة من الاقتصاديين المصريين رغم كل ما شاب عملهم من أوجه القصور، وسواء منهم من كتب مؤلفات فى التاريخ الاقتصادى أو كتبا دراسية فى النظرية الاقتصادية وسواء كانوا من المؤمنين بنظام الحرية الاقتصادية أو النظام التعاونى او النظام الاشتراكى. إن معظم هؤلاء أدى خدمة جليلة لمهنة الاقتصاد وللفكر الاقتصادى والكتابة الاقتصادية فى مصر، وكانت النتيجة الحتمية لكل هذا بالطبع نمو حجم المعرفة الاقتصادية ولكننا لسنا واثقين بنفس الدرجة مما إذا كان هذا النمو فى حجم المعرفة الاقتصادية قد صاحبته زيادة حظ هذه الكتابات الاقتصادية من الموضوعية وأنها أصبحت أكثر «علمية» وحيادا وأقل تحيزا. فكما أن كل عبء يزول كان يحل محله عبء جديد ، فإن كل «تحيز» قديم كان يحل محله تحيز جديد.

إن التحيز «الوطنى» الذي كان يطبع كتابات الجيل الاول جيل مابين الحربين، حل محله التحيز «الاشتراكى» فى الستينات ، ثم حل محل ذلك، التحيز لنظام السوق والحرية الاقتصادية منذ السبعينات. لعلنا قد أصبحنا أكثر مهارة مع مرور الزمن فى إخفاء تحيزاتنا وأهوائنا أو لعلنا قد أصبحنا أقل قدرة علي إدراك هذه التحيزات أصلا، ولكننا ما زلنا على الارجح، متحيزين كما كنا دائما ، وربما بنفس الدرجة . ربما كان هذا هو المصير المحتوم لكل المشتغلين بالعلوم الاجتماعية، فى مصر كما فى غيرها، ومن ثم فقد لايشكل هذا سببا للقلق. إنما قد يكون السبب المشروع للقلق، للاقتصاديين المصريين على الأقل، هو أن هذه التحيزات والأهواء تميل مع الزمن الى أن تفقد طابعها الوطنى، فما كان تحيزا مصريا خالصا قد حلت محله شيئا فشيئا تحيزات وأهواء خارجية تفرضها مؤثرات ومصالح أجنبية عنا ..

مصر والعالم فى القرن



مستقبل العالم وصراع الثقافات

بقلم : د. أحمد عبدالرحيم مصطفى

●● كان هذا الكتاب فى الأصل محاضرات ألقيت فى مايو ١٩٩٣ فى جامعة وسلونسن بالولايات المتحدة الأمريكية. ومؤلفه بروفيسور برنارد لويس من الشخصيات التى لمعت فى مجال الاستشراق لمدة تقرب من نصف قرن وقضى قسطا منها يقوم بالتأليف والتدريس بجامعة لندن قبل انتقاله إلى الولايات المتحدة الأمريكية .. وقد ركز اهتمامه على الشرق الأوسط الإسلامى ،وبخاصة العصر العثمانى والتاريخ المعاصر للعالم العربى. ومحاضراته الثلاث التي جرى نشرها فى أكسفورد فى عام ١٩٩٥ إرتبطت بالاحتفالات الغربية التى تمت بمناسبة مرور خمسة قرون على الأحداث المهمة التى جرت فى عام ١٤٩٢ الذى شهد سقوط ما تبقى من الحكم الإسلامى فى غرناطة ، واكتشاف كولمبس لأمريكا ، وطرد اليهود من أسبانيا والبرتغال وتشتتهم فى شتى أنحاء العالم. وقد سعى بروفيسور لويس إلى إيضاح مدى ارتباط أحداث نهاية القرن الخامس عشر بعضها ببعض ، وبذلك وضع التطورات الثلاثة: الفتح والطرد والكشوف فى إطار أوسع يرتكز على التداخل الدولى للأديان ، أو ربما تداخل تاريخ القارات ●●

وفى نفس الوقت بدأ توسع أوربا ، ففى الغرب بدأت زحزحة السيطرة الإسلامية التى استمرت عدة قرون، وفى الشرق استطاع الروس بعد كفاح طويل أن يقضوا على ما اعتبره مؤرخوهم نيرا تتريا. وفى شرقى أوربا وغربيها نقل المسيحيون الصراع إلى عقر دار العدو. ففى الشرق تعقب الروس التتار فى عقر دارهم ، وسيطروا على وسط وشمالى آسيا. وفى الغرب قام الأسبان والبرتغاليون، ثم الشعوب البحرية الأخرى بتعقب المسلمين إلى داخل أوربا وآسيا ، واستعمروا أمريكا بعد أن تم اكتشافها، وقد أفاد المؤلف من المادة التى جمعها وأفاد منها أثناء إعداده لمحاضرة ألقاها فى واشنطون وجامعة تل أبيب وفى مكتبة نيويورك العامة وفى جنوة واستانبول - وكل ذلك فى عام ١٩٩٢.

وفى التاريخ الحديث تطلع كل من المسلمين والمسيحيين للسيطرة العالمية. وقد اختلف الصراع بين أوربا والإسلام كثيرا عن مواجهتهما لكل من الهند والصين

اللتين لم تعرف أوربا عنهما كثيرا. فلم تتعد كل من الصين والهند كونهما اسمين يقترنان بما يأتي منهما من سلع، أما فيما يتعلق بالإسلام فكان الوضع مختلفا تماما فقد كان الطرفان يعرف كل منهما الآخر. وهناك اختلاف آخر إذ إن اصطلاح الصين والهند كان يتصل بمكان في حين أن الإسلام دين. وربما كانت حضارات الصين وشرقي آسيا وأمريكا قبل كولمبس متقدمة جدا، ولكنها كانت إقليمية بالضرورة وذلك باستثناء العمليات الطبيعية الخاصة بالتوسع والنفوذ في البلدان المجاورة مباشرة، وبالتالي كانت حضارتا الهند والصين تقتصران على مكان واحد، بل وربما ثقافة واحدة وجنس واحد، بعكس الإسلام الذى كان من حيث المبدأ عالميا فى معتقداته ونظرته إلى نفسه وطموحاته، فالمسلم كان يعتقد أنه قد خص بالكشف النهائي فاعتبر نفسه منوطا بنقل رسالة الله إلى بقية البشر بالجهاد. وفى هذا يختلف الإسلام كثيرا عن بقية حضارات آسيا وافريقيا والأمريكتين. ولكنه يشبه المسيحية التى كانت منذ بداية عهدها تشغلهم فكرة تميزها ورسالتها.

وحتى نهاية العصور الوسطى كان المسلمون قد قطعوا شوطا أبعد من المسيحيين فى تحقيق طموحاتهم. فرغم أهداف المسيحية العالمية بقيت فى الأساس أوربية، بل إن حروبها المقدسة والصليبية استهدفت الدفاع عن أراض مسيحية أو استرجاعها. والاستثناء



الوحيد هو الحبشة البعيدة والتى كادت تكون غير معروفة ولم يكن لها تأثير كبير على تصور المسيحيين لواجبهم ورسالتهم، وكذلك الحال بالنسبة إلى الأقليات المسيحية فى جنوب غرب آسيا الواقعة تحت حكم المسلمين. فالمسيحية كانت ديانة جزء صغير نسبيا من العالم، كان سكانه من جنس واحد وثقافة واحدة تقتصر على عدد قليل من المجموعات المتداخلة جنسيا. أما الحضارة الإسلامية فكانت على العكس من ذلك.. فقد كانت الحضارة الأولى التى يمكن اعتبارها عالمية بمعنى أنها كانت تشمل شعوبا من أجناس مختلفة وثقافات مختلفة فى ثلاث قارات مختلفة.. وكانت الحضارة الأوربية التى ازدهرت فترة طويلة، فى أسبانيا وشمالى إيطاليا وفى الاستبس الروسية وشبه جزيرة البلقان آسيوية وأفريقية شملت أجناسا بيضاء وسوداء وسمراء وصفراء، وكانت من الناحية الجغرافية تمتد من جنوبى أوربا إلى قلب أفريقيا وآسيا عبر حدود الهند والصين.

ومنذ ظهور الإسلام فى القرن السابع

الميلادى ووصول أنصاره إلى عالم البحر المتوسط كان جارا لدار المسيحية ومنافسا لها وأحيانا عدوا لها، فى حين كانت البوذية قد فقدت حماستها التبشيرية وأصبحت ديانة إقليمية فى جنوبى وجنوب شرقى آسيا - وكانت الديانتان المسيحية والإسلامية تعتبر كل منهما الأخرى منافسا لها - ولمدة ألف سنة تعرضت أوربا للرعب والتهديد الإسلاميين - فالفتوح الإسلامية الأولى تمت إلى حد كبير على حساب المسيحية - فقد كانت كل من سوريا وفلسطين ومصر وشمالى أفريقيا بلدانا مسيحية حتى ضمها المسلمون فى نهاية الأمر. وقد مر الزحف الإسلامى إلى داخل أوربا ليس فقط بمرحلة واحدة بل بثلاث مراحل. وقد استمرت الموجة الأولى منذ أوائل القرن الثامن وضمت أسبانيا والبرتغال وجنوبى إيطاليا وأجزاء من فرنسا، ولم تنته حتى عام ١٤٩٢ حين سقطت غرناطة. أما الموجة الثانية فقد تغلغلت فى شرقى أوربا حين سيطر المغول على روسيا ومعظم شرقى أوربا وتحولوا إلى الإسلام وأخضعوا إمارة المسكوف وغيرها من الإمارات الروسية لسيطرة المسلمين وهى السيطرة التى انتهت بعد نضال مرير نتيجة لعملية الاسترجاع المسيحية وتقهقر التتار الذين أسلموا من روسيا. وأما الموجة الثالثة فقد جاءت على أيدى السلاجقة والعثمانيين الذين توسعوا على حساب الدولة البيزنطية وعبروا أوربا وأسسوا امبراطورية قوية بعد أن استولوا على القسطنطينية فى عام ١٤٥٣ ثم حاصروا فيينا مرتين، فى حين تابع «قراصنة» شمالى أفريقيا جهادهم البحرى حتى الجزر البريطانية بل وأيسلنده. ثم حدث التحول المضاد بعد الحصار الثانى لفيينا إلى أن تراجع المد العثمانى. وفى تلك الأثناء بذل الدارسون الأوربيون المسيحيون جهودا كبيرة لفهم الحضارة المعادية للرد عليها وحماية رعاياها ولو أن عددا قليلا هم الذين اعتنقوا ديانة الغزاة.

● بين الاتفاق والاختلاف

وانقسم العالم إلى دار الإسلام ودار الحرب - وهذه الأخيرة شملت البلدان المسيحية: بيزنطية ثم أوربية ، وقد فهم الطرفان بعضهما البعض جيدا أكثر مما فهموا الحضارات الأخرى البعيدة فى آسيا وما قبل كولمبس. وكان لدى المسلمين والمسيحيين ميراث عظيم مشترك استقى من نفس المصادر فلسفة الإغريق وعلومهم وقانون روما وحكومتها . والتوحيد اليهودى بالإضافة إلى ثقافات الشرق الأوسط فى العصور القديمة. وكل هذا كان يمكن أن يكون صعبا إن لم يكن مستحيلا بين المسلمين والمسيحيين من ناحية وبين حضارات الهند والصين من ناحية أخرى ، حقيقة أن الطرفين اعتبر كل منهما الآخر « كافراً » ، ورغم ذلك فقد كانا متشابهين - فكل منهما كان يدعى أن لديه حقائق شاملة ونهائية ، بمعنى أن عليهما أن ينشرا كلمة الله الأخيرة بين من تبقى من

العالم وأنهم سيكافئون بالجنة وببعض المكاسب فى هذا العالم ، وأن من يخالفونهم سيعانون فى هذا العالم والعالم الآخر . وقد اختلف الطرفان فى تصور السماوات ولكنهما كانا يتفقان فيما يتعلق بالجحيم . وكل ذلك لم يكن له معنى بالنسبة إلى الهنود والبوذيين والكنفوشيين.

وكانت الحضارة الأوربية أدنى مستوى من الحضارة الإسلامية التى ازدهرت ماديا وكانت تشبه الحضارة الغربية من حيث تضلعها فى العلوم والفلسفة . كما وجدت اختلافات من حيث أن مساحة أوربا الوسيطة كانت محدودة فى الوقت الذى كان مدى تسامحها ضيقا بالنسبة إلى الديانات الأخرى ومذاهبها هى ، فى حين أن الحضارة الإسلامية كانت متنوعة التركيب وتعددية فى طابعها فى الوقت الذى كان فيه المسلمون أكثر تسامحا مع الأديان السماوية الأخرى التى أفسحوا لها مجالا فى المجتمع . فقد كان المسلمون على استعداد للتعايش مع معتنقى الديانات الأخرى الذين كانوا فى مقابل قبولهم لبعض القيود يستطيعون أن يتمتعوا بالممارسة الحرة لدياناتهم وبحرية إدارتهم لشئونهم .

وفى أوائل العصور الحديثة بدا اختلاف موازين القوى بين دار الإسلام وغيرها . فقد نجح الاسترجاع فى أيبيريا وروسيا ولو أنه فشل فى الشرق الأدنى نتيجة لظهور الترك الذين سيطروا على الأناضول الذى كان فى السابق يونانيا ومسيحيا وما لبث الترك أن شنوا الهجوم الثالث على أوربا .. ورغم ذلك فما لبث الأوربيون أن انتصروا نتيجة لتقدم أسلحتهم وتكنولوجيتهم وقوة اقتصادهم . وكان قد جرى اختراع البارود فى الشرق الأقصى رغم أنه لم يستعمل كسلاح ثم انتقل إلى الشرق الأوسط ثم إلى أوربا حيث جرى استغلاله فى التوصل إلى أسلحة نارية قلبت ميزان القوى فى صالح الغرب الذى أحرز التفوق فى البحر . فقد بنيت أساطيل أوربا الغربية لكى تستعمل فى المحيط الأطلنطى ، ومن ثم فقد كانت أكبر وأقوى من سفن المسلمين التى جرى استعمالها فى البحر المتوسط والبحر الأحمر والمحيط الهندى .. كما امتد تفوق الغرب إلى مجالات الإنتاج الاقتصادى وعرف الطباعة التى انتقلت إليه من الشرق. فقد وفد مهاجر يهودى أسبانى إلى الدولة العثمانية وسمح له بأن يطبع بشرط ألا يستعمل الحروف العربية ثم اشتغلت الأقليات المسيحية بالطباعة وكان استعمال المدافع والمطابع من مظاهر الاختلافات المتزايدة بين الشرق والغرب . ومن أسباب تخلف العالم الإسلامى فى هذا المضمار أن مجتمع العبيد (المماليك) الحربى كان غير مستعد لذلك وفى نفس الوقت كانت المجتمعات الإسلامية أكثر عرضة لتعدد الزوجات والتسرى .

● طرد اليهود ..

كان اليهود مكروهين لأنهم رغم تنصر بعضهم لم يقبلوا التفسير المسيحى للعهد

القديم .. فقد ظل اليهود على الرغم من اعتناقهم للمسيحية متمسكين بعقيدتهم القديمة سرا ونقلوها إلى أبنائهم وأحفادهم الذين عمدوا وجرى تعليمهم باعتبارهم مسيحيين . وذهب تفسير آخر إلى أن الوجود المستمر لليهود كان يؤثر فيمن قبلوا التعميد تحت ضغط وبالتالى كانوا يتهمون بأن لديهم ميلا للارتداد . وبعد سقوط غرناطة واكتمال اتحاد ممالك أسبانيا سياسيا وعسكريا دون أن تتحد دينيا لوجود عدد كبير من اليهود وعدد أكبر من المسلمين تحول الاسبان فى البداية إلى اليهود الأكثر تهديدا للتعاليم المسيحية والأضعف بالنسبة إلى السلطة المسيحية .. وهكذا تم طردهم خاصة أنهم لم يكن لهم قادة ولم يعاملوا باحترام باعتبار الطرد أسلم وأسهل ويمثل تجربة لطرد المسلمين . وبعد الطرد هاجر اليهود إلى الدويلات الإيطالية وهولند وانجلترا بل عبر بعضهم الأطلنطى إلى المستعمرات الجديدة فى أمريكا ، كما هاجرت أعداد كبيرة إلى بلاد المسلمين التابعة للدولة العثمانية فى أوربا وآسيا ثم فى أفريقيا .

● الكشوف الجغرافية

منذ القرن الثانى عشر وجد فى أوربا الغربية اتجاه يذهب إلى ضرورة تتبع المسلمين عبر جبل طارق وتردد صدى هذا الاتجاه لدى المسكوفيين الذين بعد أن تحرروا من سادتهم التتار تتبعوهم بعد هزيمتهم إلى داخل بلاد التتار . وقد ذهب فاسكو دا جاما البرتغالى بعد وصوله الى الهند بعد سنوات من إبحار كولمبس إلى أنه جاء ليبحث عن المسيحيين والبهار .. ومن ناحية أخرى كان هذا التوجه يمثل حركة استراتيجية فى حرب دينية لها أبعاد عالمية وخطة تجارية تستهدف التخلص من الوسطاء والتوجه رأسا الى المنتج ، وكان هذا الصراع قد بدأ قبل الإسلام والمسيحية .. وبعد أن تحول خلفاء روما الى المسيحية واعتنقت الامبراطورية الشرقية الإسلام أضاف ذلك بعدا دينيا ، وبالتالى بعدا عسكريا واستراتيجيا ، للصراع القديم .

وأثناء تقدم المسلمين فى آسيا وافريقيا لم تعترضهم قوة عسكرية عظمى أو أى عدو دينى يعتد به ، وفى أوربا وجدوا الاثنين ، وبالتالى فليس من الغريب أن يكون الجهاد من الوجهتين النظرية والعملية يتصل فى المحل الأول بالصراع ضد المسيحية فى مختلف مسارحها الأوربية . وقد أدى قرب المسافات إلى ظهور أمراض تستلزم تشخيصات وأدوية جديدة . وهذه الأمراض كان يمكن أن تكون اجتماعية أو طبية مثل ضغوط العبودية التى أضيفت إلى العديد من مؤسسات العبودية فى العالمين القديم والحديث . فالرق فى التاريخ الحديث هو رق استعمارى ولكن أوربا هى أول من قرر تحرير العبيد فى داخلها ثم فى مستعمراتها - إلى أن جعلت التكنولوجيا العبودية أمرا لا لزوم له .

ولهذا فإن اكتشاف أمريكا كان نقطة تحول في تاريخ البشرية ، إذ أكد انتصار

أوربا على أعدائها وانفتاح مناجم الذهب والفضة التى مولت تجارة أوربا وحروبها ومخترعاتها ، فالحقول والمزارع الأمريكية أمدت أوربا بموارد وسلع جديدة ومكنت الأوربيين ، للمرة الأولى ، من الاتجار مع المسلمين وغيرهم باعتبارهم أنداداً إن لم يكونوا متفوقين عليهم ، كما أدت الاحتكاكات بأرض وشعوب غير مألوفة لم يعرفها التاريخ ولا الكتب السماوية إلى تحطيم الأطر الذهنية وتحرير عقل الإنسان وروحه ، وهناك تساؤل مهم لماذا تطلع الأوربيون إلى هذا التوسع والتنصير والاستعمار وإقامة عالم مركزه أوربا وللإجابة على ذلك نذكر أنه حدثت فى هذا القرن تغيرات مهمة فى تشخيص الحضارة الأوربية . فقد انسحبت روسيا من أوربا ، وبعد الحرب العالمية الثانية أرغمت مناطق واسعة فى شرق أوربا على أن تقوم بنفس الشىء . وبعد أن أنهكت أوربا نتيجة لحربين عالميتين وانهارت الإمبراطوريات استسلمت أوربا لأمريكا التى قامت فيها حضارة جديدة . ولقد أصبح من المعتاد أن توصف هذه الحضارة الأكبر التى مصدرها أوربا وقائدتها أمريكا بأنها هى « الغرب » . والآن بعد انهيار الاتحاد السوفييتى وانتهاء الحرب الباردة يحتمل أن تبرز أوربا جديدة وأكبر .

فقد برزت مؤخرا فكرة تعدد الثقافات ومعناها أن الطابع المتمركز على أوربا فيما يتعلق بالتعليم والثقافة لابد أن يسدل عليه الستار ويفسح المجال لتعدد الحضارات الذى يتمشى مع تقاليد أوربا والغرب - فالغرب هو أول من درس الحضارات الأجنبية المخالفة وفك طلاسم الكتابات المندثرة وأسهم فى التعرف عليها وفهمها فى حد ذاتها ، وعلى أى حال فإن الحضارة الأوربية ليست أوربية خالصة بحكم أنها تأثرت بالحضارات السابقة التى ازدهرت فى مصر والهلال الخصيب ، كما أن فهم الآخرين أسهم فى فهم الغربيين لأنفسهم ، وفى السابق اتهم الغرب بالعدوان والسيطرة والاستغلال والاستعباد والقتل والاغتصاب ، ولهذا فإن من شأن النظرة الجديدة أن تسير قدما فى طريق اعتبار الحضارة العالمية ملكا للجميع ، إذ أسهمت فى بنائها أجيال متعاقبة من مختلف الشعوب والأجناس .

وفى أواسط القرن العشرين أصبح العالم الجديد الذى بدأ تاريخه فى عام ١٤٩٢ هو قائد الحضارة الغربية وأهم المدافعين عنها فى مواجهة الأعداء الداخليين والخارجيين الذين سعوا إلى تدميرها . ورغم النقد الذى تتعرض له الحضارة الغربية وزعامتها فحتى الآن لا يوجد منافس قوى لها أو بديل عنها . فهل معنى ذلك أن البشرية مقدمة على عصر جديد تهيمن عليه حضارة جديدة تقوم على تراث البشرية السابق وما أضافه الغرب إلى هذا التراث الذى لا ينفرد الغرب بتشكيله ، فرغم الابتكارات المذهلة التى صدرت عن الغرب فإنها قد أفادت من إنجازات الغير التى سبق تشكلها فى العالم القديم .

قــــــراءة فى كف مصــــــر فى ثلاثينيات القرن المقبل

بقلم : د . رشدى سعيد

(١)

☐ عندما طلبت منى الهلال أن أكتب عن مصر فى القرن الواحد والعشرين ترددت كثيرا ، فلى فى مجال الكتابة عن المستقبليات تجربة لم تكن ناجحة - فمنذ ثلاثين عاما وفى أعقاب هزيمة سنة ١٩٦٧ كتبت أربع مقالات متتالية بجريدة الأهرام عن تصورى عما سيكون عليه حال مصر والعالم فى آخر القرن العشرين - وفيها تنبأت بأن الحرب الباردة ستكون قد انتهت قبل نهاية القرن بمصالحة توفيقية بين النظامين المتصارعين ، واللذين وصفتهما بأنهما بنات حضارة واحدة بحيث يأخذ كل منهما الشىء الطيب من الآخر لكى ينطلقا لبناء عالم يسوده السلم والعدل الاجتماعى والديمقراطية - أما فى مصر فقد تصورت أن سكانها الذين سيبلغ عددهم الستين مليونا عند نهاية القرن ، سيرتفع متوسط دخل الفرد فيها حتى يصل إلى قرابة الأربعة آلاف دولار فى السنة، وقد بنيت هذا التصور على افتراض أن مصر ستستمر تنمو بنسبة ٧ ٪ فى السنة حتى آخر القرن وهى نسبة لم تكن بعيدة عن تلك التى حققتها مصر بالفعل فى الستينيات .



المياه وتلوثها أهم المشاكل التي قد تواجه مصر في ثلاثينيات القرن المقبل

وكما هو واضح فإن تنبؤاتى قد خابت – فالحرب الباردة لم تنته على الوجه الذى تصورته بل انتهت بانتصار طرف على طرف ، ولم ينتج عن هذا الانتصار إلا عالم يسوده القلق ، انتشرت فيه الكثير من الحركات اللاعقلانية ، وتهمشت فيه جماعات بأسرها ، بل ودول بكاملها ، وتراجعت فيه الديمقراطية بسبب بروز قوى جديدة أصبحت هى الحاكمة والمؤثرة فى الأحداث ومصائر الناس كالشركات عابرة الدول وأجهزة الإعلام ، وهى قوى لايعرف الناس عنها الكثير فقراراتها سرية وملاكها غير مسئولين أمام أحد ، وفى مصر خابت أيضا تنبؤاتى – صحيح أن عدد السكان أربى على الستين مليونا ولكن دخل الفرد لم يصل إلا إلى سدس ما كنت قد تصورت أن سيكون .

الكتابة عن المستقبليات لذلك هى أمر من الصعوبة بمكان ، فالتاريخ لايسير فى خط مستقيم بحيث يمكن إسقاط معاملات فترة على فترة تالية ، واتجاهاته لايحكمها المنطق أو الصالح العام بل فى الأغلب تحكمها المصالح الآنية للنخب الحاكمة والتى تتفاوت فى حكمتها من بلد إلى آخر ومن وقت إلى آخر – ويزيد الأمر صعوبة أننا نعيش عصرا ينبض بالحركة ويتميز بسهولة الاتصال وكثرة الاختراعات مما يجعل تصور شكل المستقبل صعبا . وما يكتبه توفلر وأمثاله عن المستقبل الوردى الذى ستأتى به «الموجة الثالثة» لعالم

«مابعد الصناعة والمعلوماتى» هو وجهة نظر تكاد تكون من باب الخيال العلمى، . لحقيقة الواقعة هى أن حضارة الموجة الثالثة على الرغم من أنها فتحت آفاقا جديدة لاستمتاع عدد محدود من الناس بالمعلومة والاتصال الفورى بأمثالهم على اتساع العالم ولتعاظم القدرة الانتاجية إلا أنها قللت الحاجة إلى الأيدى العاملة مما زاد من عدد المتعطلين وخاصة بين المتعلمين ومهرة العمال وزادت الفروق الطبقية داخل الدولة الواحدة وبين الدول أيضا - ولذا فإن الألم والقلق اللذين حملتهما هذه الموجة يفوقان بكثير ما جاءت به حتى اليوم - فقضية الاستفادة من ثورة المعلومات على مستوى البشر عامة تحتاج أولا إلى تغيير أساسى فى النظام السياسى والاجتماعى للعالم وهو أمر غير باد فى الأفق حتى الآن .

(٢)

وقد سبب لى إخفاقى فى تنبؤاتى التى تصورتها وأنا فى منتصف سنوات العمر أن أتردد فى الدخول فى تجربة أخرى، إلا أنى قررت الاستجابة لدعوة «الهلال» وأن أكتب هذا المقال عن تصورى لحال مصر فى نهاية الثلث الأول من القرن الواحد والعشرين، أكتبه وقد خط الشيب شعرى وأنا فى آخر سنى العمر محاولا أن أبين ماذا سيكون عليه شكل مصر لو أنها استمرت على نفس النهج الذى تسير عليه اليوم حتى يتبين للنخب قدر العمل الذى ينتظرها لكى يتركوا بلادهم وهى أحسن حالا عما تسلموها

وسيعيش فى أرض مصر فى ثلاثينيات القرن الواحد والعشرين مابين المائة والمائة وعشرين مليونا من البشر، سيبنى الكثير منهم مسكنه على أرض وادى النيل الزراعية التى ستصبح نصف مساحتها على الأقل غابة من الأسمنت ومشغولة بالمبانى والطرق ومختلف المنشآت ، وسينتقل إلى المدن جزء كبير من سكان الريف وستصبح القاهرة الكبرى عاصمة يسكنها ثلاثون مليونا من البشر - يعيش الجزء الأكبر منهم مكدسين فى مناطق عشوائية على أطراف المدينة وفى مساكن ليست بها دورات مياه أو صرف صحى - أقول ذلك من واقع أن أحدا لم يقم حتى اليوم باقتراح طريق يمكن أن يعطى للفقراء مسكنا معقولا وبسعر يمكن أن يتحملوه - وسيزداد الضغط السكانى على الكثير من الأحياء القائمة وسينحدر حالها من حيث الخدمات والمواصلات والضوضاء والتلوث وسيحدث لها ماحدث لحى شبرا خلال النصف

الثانى من القرن العشرين وسيهجرها القادرون إلى خارج المدن لبناء واحات لسكناهم بعيدا عن الازدحام والضوضاء .

وستجابه الزراعة فى وادى النيل مصاعب كبيرة وسيهجر العمل فيها الكثيرون لصعوبة العمل فيها وقلة العائد منها كما ستجابه الزراعة فى الصحراء صعوبات أكبر وسيكتشف الكثيرون أنها كانت مغامرة خاسرة بعد أن يهبط منسوب الماء الجوفى وتزيد ملوحة الآبار - وسيزداد اعتماد مصر على العالم الخارجى لتزويدها بالقمح ومختلف المواد الغذائية .

ويتناقص المساحات المزروعة فى وادى النيل فلن يجابه المصريون نقصا فى كمية المياه اللازمة لاستخدامهم المنزلى أو فى الصناعة فسيعوض الماء الذى سيوفرونه فى الزراعة حاجتهم المتزايدة فى الأغراض الأخرى - وأغلب الظن أن مياه النيل ستصلهم دون مشاكل تذكر مع دول أعالى النيل التى ستظل على الأغلب فى حال لن يسمح لها باستغلال أكبر لمياه النيل أو تحدى حق مصر فى مياه النيل على أن أكبر المشاكل التى قد تواجه مصر فى توفير المياه فى ثلاثينيات القرن القادم قد تكون فى انسداد جزء كبير من بحيرة ناصر حول الشلال الثانى عند منطقة وادى حلفا بالطمى الذى يحمله النهر ويرسبه هناك وما يتبع ذلك من خسارة فى كمية المياه التى تصلها نتيجة البخر والتسرب - وقد وصل ارتفاع الطمى في هذه المنطقة فى سنة ١٩٩٢ (وهى آخر سنة أتيح لى فيها الاطلاع) إلى أكثر من ثلاثين مترا . وهذه مسألة ستشغل المصريين بدءا من أولى سنوات القرن الحادى والعشرين .

كما سيواجه المصريون أيضا مشكلة تلوث المياه والتى أتوقع أنها ستصل إلى درجات غير مقبولة مع تزايد الصرف الصحى من عديد من المدن على طول نهر النيل والتى - ستتصرف مياه معظمها فيه .

وفى أوائل سنى القرن الواحد والعشرين ستكون عملية خصخصة مصانع القطاع العام والبنوك قد انتهت بانتقال ملكيتها إلى نخبة منتقاة من المصريين بالاشتراك مع الشركات العابرة للدول والمتعددة الجنسيات - وسيتم إغلاق بعض المصانع التى لن يكون فى استطاعة ملاكها الجدد إدخالها فى السوق العالمى كما سيتم تطوير المصانع الأخرى حتى تصبح قادرة على المنافسة وإيجاد مكان لمنتجاتها فى السوق العالمية ، وسيكون إغلاق المصانع أو تطويرها سببا

للاستغناء عن أعداد كبيرة من العاملين فيها وعلى كل المستويات مما سيسبب آلاما كثيرة وأغلب الظن أن الحكومة ستضطر فى نهاية الأمر إلى منحهم تعويض بطالة .

وبدخول مصر منظمة التجارة العالمية فى أوائل القرن الواحد والعشرين فإن الكثير من مصانع القطاع الخاص والتى تعيش اليوم على حساب الحماية الجمركية كمصانع النسيج والسيارات ستغلق أبوابها أو ستضطر للدخول فى شراكة مع رأس المال الأجنبى

وإذا استمر الحال على ماهو عليه للثلاثين سنة القادمة فإن الفروق بين دخول الناس ستزيد وسيتم تكريس انشطار المجتمع إلى شطرين فى طرف منه نخبة قليلة العدد واسعة الثراء وفى طرفه الآخر كتلة الشعب المصرى التى ستتهمش تماما ويعيش الجزء الأكبر منها على الفتات وفى ثلاثينيات القرن القادم ستكون الأجيال الجديدة من أبناء كلا الطرفين قد شبت وتثبتت قواعدها وزاد انفصالها عن بعضها البعض واختلفت طموحات وطريقة عيش ولغة كل منهما - وستعيش النخبة فى أحياء جديدة خارج المدن محاطة بأسوار وذات حرس خاص وعام وسترسل ها الى مدارس وجامعات خاصة وسترفه عن نفسها فى أماكن بعينها - وستترك النخبة لعامة الناس المدارس والجامعات الحالية والتى لا مناص أن يكون مصيرها مزيدا من الانحدار - وسيزداد اهتمام النخبة بتعليم أبنائها اللغات الأجنبية وفنون الإدارة والعلاقات العامة لإعدادهم لإدارة الشركات وبيوت المال والتجارة التى يملكونها ولتمكينهم من الحوار مع شركائهم من مسئولى الشركات متعددة الجنسيات والذين سيكونون مسئولين عن تطوير العمل ونقل التكنولوجيا ولذا فلن يكون البحث العلمى أو الهندسة من بين الاهتمامات الأولى للنخبة .

وسيحتاج الحفاظ على مثل هذه التركيبة الاجتماعية إلى استخدام القهر وقبول العيش فى ظل قوانين استثنائية وتحت حكم الطوارىء وإطلاق يد أجهزة الأمن لإخماد أى تذمر يمكن أن تقوم به الأكثرية الغاطسة ومنع أى تجمع لهم أو القيام بأى مظهر من مظاهر التعبير عن آلامها أو آمالها ، وفى مثل هذا الجو فلابد لنا أن نتصور أن استخدام أجهزة الأمان الالكترونى واستئجار الحرس الخاص وبناء الأسوار سيتزايد .

وأغلب الظن أن الاقبال على الهجرة إلى خارج البلاد سيستمر إن لم يزد عما

هو عليه الآن . وستكون أغلب الفرص فى البلاد العربية التى ستظل وحتى ثلاثينيات القرن القادم فى رفاهية نسبية لتوقع ازدياد الطلب على نفطها وكذلك فى أوربا التى ستعانى فى ذلك الوقت من قلة اليد العاملة فيها نظرا لندرة المواليد وازدياد عدد شيوخها ، وتقدر المجموعة الأوربية أنها ستكون فى حاجة إلى حوالى ٧ ملايين عامل فى ذلك التاريخ تنوى تهجيرهم إلى أوربا من بلاد العالم الثالث وعلى الأخص من بلاد جنوب البحر الأبيض المتوسط ، وستكون معظم العمالة المطلوبة هى لأداء الخدمات الدنيا وستكون بعقود محدودة المدة يستجلب فيها العمال دون أن يصطحبوا عائلاتهم حتى يمكن إعادتهم إلى بلادهم بعد انتهاء مدة عقودهم ، وهذه السياسة الجديدة هى نفس السياسة التى تتبعها سويسرا فى الوقت الحاضر وهى بغرض تفادى مشكلات مواجهة المهاجرين لبلادهم الجديدة والتى كثيرا ما تأتى مع وصول أعداد كبيرة من بلاد العالم الثالث..

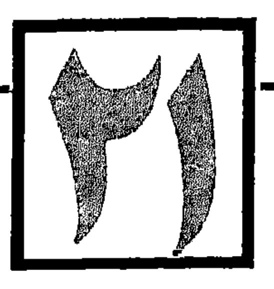
(٣)

رسمت هذه الصورة لحال مصر فى ثلاثينيات القرن الواحد والعشرين على فرض أن ما يحدث اليوم فى مصر سيتم إسقاطه حتى هذه السنوات وهو أمر غير محقق وأرجو أن تخيب تنبؤاتى هذه كما خابت فى المرة السابقة . على أن الشىء الأكيد هو أن استمرار الحال على ما هو عليه سيؤدى إلى مستقبل لا أظن أن النخبة ذاتها تحب أن تراه ، وغرضى من المقال هو تنبيهها إلى الشقاء الذى سيجلبونه على بلادهم وعلى أنفسهم قبل أى شئ آخر إن لم يفيقوا للأمر .

ولمصر من الميزات الخاصة ما يمكنها من أن تجد لنفسها مكانا بارزا فى هذا العالم الجديد الذى نراه يبزغ اليوم فلديها الموقع والتاريخ والجو المعتدل والبشر فهى فى موقع حاكم بين القارات الثلاث وهى وسط بين طوكيو ونيويورك يمكن أن يجعلها شريانا للنقل ووسيطا لانتقال المال وهى ذات تاريخ عريق فى آثاره وتراثه وهى ذات جو معتدل طول العام مما يمكن أن يخرج المحاصيل وقت مالا تستطيع غيرها أن تخرجه ولديها امتداد مكانى هائل ومصادر هائلة للطاقة ويسكنها بشر ذوو تراث فى احترام العمل والنظام والسماحة والحياة المدنية .

وبلاد بكل هذه الامكانيات لايجوز لها إلا أن تكون بلادا كبيرة ومؤثرة !

مصر والعالم فى القرن



جدول أعمال
القرن الحادى والعشرين

التعليم والحرية
والتطوير العلمى

بقلم : د. محمد عبدالفتاح القصاص

يبدأ كل حديث عن القرن الحادى والعشرين بموضوع السكان وزيادة أعدادهم بمعدلات بالغة ، وزيادة معدلات استهلاكهم للموارد والسلع والخدمات . وتمثل مصر النموذج الشامل لهذه القضايا التى ينبغى أن تدخل مصر إلى القرن الحادى والعشرين وقد وجدت لها الحل الحاسم، ووجدت الوسائل الناجعة لتطبيق ذلك . ونحن فى السنوات الخاتمة للقرن العشرين ومازلنا نبحث عن الطريق إلى هذا الحل ، وتظل قضية السكان واحدة من المهام الرئيسية التى يحتاج اقتحامها إلى فكر وإيمان وعزيمة عمل ، لأنها مهمة متعددة العناصر . زيادة عدد السكان تحتاج إلى عمل على مستوى الأسرة وقرار هو مسئولية الأب والأم يتصل بعدد الأطفال . قرار ينبنى على اقتناع عميق بالمسئولية تجاه الأسرة والمسئولية تجاه الوطن . وترشيد معدلات استهلاك الموارد يتضمن إجراءات على مستوى الأسرة تتصل بالاستهلاك من ماء الصنبور والكهرباء والطعام ، وتتصل بالاستجابة لما صاحب مناخ الانفتاح من معروضات الأسواق ومحلات الطعام السريع واعلانات وسائل الإعلام جميعا ، وهى استجابة تحتاج إلى التدبر والحساب الدقيق لأولويات إنفاق الدخل وتزكية هذا الدخل مما قد يشوب نقاءه ، وتحتاج إلى مقاومة خلقية لنوازع الربح السهل والدخل الميسر الممتزج بالشبهات .



قضية السكان إحدى المهام الرئيسية التى يحتاج اقتحامها إلى فكر وعمل ..

القرن الحادى والعشرون يأتى بمنجزات فى العلم والتكنولوجيا لايجوز لأحد أن يتخلف عنها معرفة وتطبيقا ، ومن تخلف فإنما يضع نفسه خارج اطار العصر . هنا تبرز أهمية التعليم ، والحديث عن التعليم كمشروع قومى واحد من السبل الراشدة . على أن هذا التعليم مسئولية مجموعة من المؤسسات الوطنية تنتظم المدرسة والجامعة ووسائل الاعلام جميعا ، والمراكز الثقافية فى المكتبات والمتاحف والمعارض ، والهيئات الجماهيرية (النوادى – مراكز الشباب – الأحزاب السياسية – النقابات العمالية والمهنية – الجمعيات الأهلية – الخ) ، وتشمل الأسرة باعتبارها المؤسسة التعليمية الأولى وباعتبار مسئوليتها عن تنظيم تلقى أفراد الأسرة تدفقات وسائل الإعلام جميعا .

لاتستكمل الأمة النجاح فى مجال التعليم بمفهومه الشامل والمتكامل إلا فى اطار سياسة وطنية تحدد المسئوليات والأهداف لكل عنصر ولكل أداة ، وتنفى الأفكار والأقوال المطلقة التى أدت دورها بنجاح فى النصف الأول من القرن العشرين ، ولكن استمرارها وأتصالها قد يعطل المسيرة إلى القرن الحادى والعشرين . ان القول بأن التعليم كالماء والهواء حق لكل مواطن ، قول حسن فى اطاره الاجتماعى التاريخى ، ولكنه يحتاج اليوم إلى تدقيق ، فبعض التعليم حق

للمواطن كالماء والهواء وليس كل التعليم كذلك . التعليم الذى يفتح البصيرة إلى ما يحوط بالانسان ، والذى يمكن الانسان من الإفادة من مصادر المعرفة وتعليم الذات ، والذى يبين للفرد حقوقه وواجباته، شطر من التعليم يمثل حق المواطن على المجتمع ، وهو شطر التعليم الأساسى الذى تمثله المدرسة . ولكن التعليم الذى يهيىء الفرد لأداء وظيفته كعضو عامل فى المجتمع ، والذى يؤهل الفرد للمهن النافعة التى تحتاج إليها الأمة فى سعيها للتنمية الشاملة والمتواصلة ، شطر من التعليم يمثل حق المجتمع على المواطن ، أى أن يكون من حق الوطن أن يخطط مسارات هذا التعليم ويضبط مدخلاته ومخرجاته بحيث يحصل على الثروة البشرية التى يحتاج إليها . هذا شطر التعليم العالى الذى يتمثل فى الجامعات والمعاهد العليا . التعليم الأساسى المدرسى حق للمواطن ، أى تتولى الحكومة الإنفاق عليه وتفتح فصوله للتلاميذ جميعا بالمجان ، أما التعليم العالى فهو حق الوطن وتفتح فصوله حسب خطة وطنية وتكون المجانية حسب الأولويات والقواعد التى تترسمها الخطة الوطنية ، مجانية مقيدة وليست مطلقة

● تغيير مفهوم العملية التعليمية

لايستكمل النجاح فى التعليم فى القرن الحادى والعشرين إلا بتغيير مفهوم العملية التعليمية من مفهوم التلقين الذى ساد فى القرن العشرين وما قبله إلى مفهوم التعلم الذاتى وأن التعليم عملية مستمرة ومتصلة «من المهد إلى اللحد» . مفهوم التعلم المستمر يجب أن يتصل فى مراحل التعليم جميعا . فى المدرسة وما قبلها يتدرب الأطفال كيف يلمسون المعرفة بأصابعهم بفحص النبات والزهرة والفراشة والحيوان ، ويتدربون على الاطلاع والإفادة من المكتبة ، ويتدربون على الخروج إلى البيئات الطبيعية فى السواحل والصحارى والحقول . أى يلزم أن تمتد المدرسة إلى خارج حدود فصولها وأسوارها ، بأن تصل إلى المتاحف والمكتبات والمحطات الحقلية حيث تقام معسكرات دراسية . مفهوم التعليم المستمر جزء جوهرى فى تطوير التعليم الجامعى ، فتبدأ مراحله الأولى بتدريب الشباب على الدخول إلى عصر المعلومات، لأن مجتمعات القرن الحادى والعشرين توصف بأنها مجتمعات المعلوماتية . قبل ان يشرع طالب الجامعة فى برنامج

التأهل لمهنة الطب أو الهندسة أو الزراعة أو العلوم أو الحقوق أو التجارة والاقتصاد وغيرها من مسارات التعليم العالى ، ينبغى أن يتفرغ فى مرحلة اعدادية ليتدرب على التعامل مع مراكز المعلومات ومصادر المعرفة وعلى الإفادة منها . يشمل هذا اتقان إحدى اللغات الأجنبية والتدرب على استخدام الحاسب الآلى والإفادة من امكاناته ، وعلى الإفادة من مراكز توثيق المعارف (المكتبة فى القرن الحادى والعشرين - مكتبة اليوم خزانة كتب) ، وعلى القدرة على كتابة التقارير العلمية وتدقيق عناصرها ثم تاتى المراحل التالية فى سنوات التعليم الجامعى لتبنى قدرة الطالب على الإفادة من مصادر المعرفة وعلى التعلم الذاتى ، وهى القدرة التى تدعم خطاه فيما بعد التخرج فى الجامعة.

تستكمل عناصر التعليم فى مراحله جميعا بعنصر التربية الاجتماعية والتربية الوطنية . والتربية معارف وممارسات . وعلى المدرسة وعلى الجامعة ان تجعل فى برامج عملها فسحة للتربية بالمعارف (دروس) وبالممارسة (الأنشطة الثقافية والاجتماعية) هذا العنصر يهدف إلى استكمال البناء السوى للانسان بحيث يصبح عضوا نافعا للمجتمع ومنسجما مع افراد المجتمع ومع مرامى المجتمع ، ويصبح قادرا على المساهمات التعاونية والمشاركات الإيجابية فى خطى المجتمع ومسيرته نحو تحقيق أهدافه الاقتصادية والاجتماعية .

القصد من تطوير التعليم فى مفهومه الشامل وأدواته ومؤسساته جميعا ، هو ان يكون التعليم وسيلة تنمية الثروة البشرية ، وهى أهم عناصر الثروة الوطنية. لايمكن أن تتصل خطى مصر إلى القرن الحادى والعشرين بمنظومة تعليمية تفرز مخرجات أقرب إلى الأعباء الاجتماعية ، أى مخرجات ينشغل المجتمع - الحكومة والأفراد - بالبحث عن «وظائف» لهؤلاء الخريجين . انما تستهدف سياسة التعليم الوطنية للقرن القادم أن تفرز منظومة التعليم مخرجات أقرب إلى الثروات الوطنية والامكانات الاجتماعية . لننظر إلى اليابان ، ثروتها الرئيسية هى البشر ، صاغتهم المنظومة التعليمية إلى عناصر الثروة والنماء . وكان التعليم هو مدخل دول النمور الأسيوية إلى حلبة النجاح الاقتصادى .

● الحرية والديمقراطية

ويثنى كل حديث عن القرن الحادى

التعليم والحرية

والعشرين بموضوع الحرية والديمقراطية وهذه مفاهيم كان لها فى القرن العشرين وما قبله موضع الحلى الحضارية ، وتفرع منها وتشعب مؤسسات سياسية كالأحزاب والبرلمانات وممارسات الاستفتاء والانتخابات وغير ذلك . وهذا كله حسن ومطلوب . ولكن القرن القادم يحتاج إلى مفاهيم جديدة تعتمد على أسس مشاركة الناس فى إدارة دولاب المجتمع ، ذلك لأن المسئولية فى القرن القادم لايمكن أن تنهض بها الحكومة وحدها على نحو ما شهدناه فى غضون القرن العشرين . ليس هذا حديث عن القطاع العام والقطاع الخاص ، ولكنه حديث عن إدارة شئون الأمة الاقتصادية والاجتماعية وقد عقدت الأمم المتحدة فى يونيو ١٩٩٢ مؤتمرا عن التنمية والبيئة شهده حشد من رؤساء الدول وزعماء العالم (قمة الأرض - البرازيل - ١٩٩٢)، وقد خلص هذا المؤتمر الحافل إلى فكرة «جدول عمل للقرن الحادى والعشرين» وركز الاهتمام بفكرة «التنمية المتواصلة» ، أى تنمية الموارد والانتاج بما يكفى الحاجات الأساسية والمشروعة للحاضر دون أن يقلل من امكانات هذه الموارد لإتاحة الحاجات الأساسية والمشروعة لأجيال الابناء والأحفاد . هذه الفكرة التى تنطوى على مسئولية أخلاقية رفيعة وتحتاج إلى سلوك منضبط للجميع ، لايمكن أن تتحقق إلا بإسهام الناس طوعا، ومشاركتهم فى تحمل المسئولية مشاركة جادة ، وتخليهم عن نوازع الاستزادة الطامعة والاستكثار المفرط . ليتحقق هذا ينبغى أن يجد الناس أنفسهم فى موقع المشاركة الفاعلة فى إدارة شئون المجتمع جميعا .

يؤذن للكاتب أن يوضح الأمر فيقول :

لعل موجز مشكلة التنمية والاقتصاد فى مصر - ليست فى سيطرة القطاع العام أو سيطرة القطاع الخاص - انما فى الميزان البالغ الاختلال بين الانتاج والاستهلاك ، فجملة الانتاج الوطنى تعادل أقل من ٧٠٠دولار للفرد فى السنة وجملة الانفاق تعادل أكثر من ١٢٠٠دولار للفرد فى السنة . والحكومة التى تقوم وحدها بالمسئولية تعمل على إحداث التوازن بموارد المعونات الأجنبية والقروض وغيرها، وهى وسائل لن تتصل فى القرن الحادى والعشرين من هنا نقول أن مشاركة الناس بما يزيد من معدلات الانتاج بالعمل الجاد والجهد الإضافى ، وبما يقلل الأستهلاك والإنفاق بالترشيد

والاجتزاء والتعفف هى السبيل إلى الفلاح ان مشاركة الناس هى ديمقراطية القرن الحادى والعشرين ، وينبغى أن تتطور النظم والأساليب والأدوات السياسية بما يحقق هذا النمط من الديمقراطية ، أى ديمقراطية الأداء الجماعي الرشيد .

لقد خصص «جدول عمل القرن الحادى والعشرين» حوالى ثلث فصوله الأربعين ليفصل أدوار القطاعات الجماهيرية (المرأة - الشباب - العمال - العلماء - المهنيون - الأطفال - الخ) والمؤسسات والهيئات والجمعيات التى تنتظم هذه القطاعات وتقدر على حشد طاقاتها للاسهام الإيجابى فى مسئوليات التنمية المتواصلة . يقتضى كل هذا نظر جديد إلى مفاهيم المؤسسات السياسية وعملها ، ومفاهيم التربية الاجتماعية والمسئولية التى تقع على الفرد وعليه أن يتحملها ، وحقه فى المشاركة فى إدارة شئون مجتمعه وله أن يمارسه . هذا هو العدل الاجتماعى ، وهذا هو السبيل إلى الفلاح فى القرن القادم

● التجمعات الإقليمية

الحديث عن القرن القادم يتصل بفكرة إن العالم وحدة واحدة ، حتى ليقال بأنها «قرية كوكبية» ، أو انها سفينة فضاء واحدة تسبح فى فضاء الكون الشاسع .

برزت فى القرن العشرين فكرة التجمعات الأقليمية ، ذلك لأن ظواهر التنمية وما يتصل بها من الموارد الطبيعية المتاحة ومن حيزّ الأسواق ومؤسسات التجارة وغيرها ذهبت بفكرة الاقتصاد فى حيز الوطن وأبرزت فكرة الأقاليم والمجموعات الاقتصادية ، ونموذجها الحالى هو المجموعة الأوربية التى تطورت من تنظيم اقتصادى إقليمى إلى تنظيم سياسى إقليمى . كذلك مجموعة أمريكا الشمالية وغيرها . وقد بذلت المساعى لبناء وحدة اقتصادية إقليمية عربية ، وبناء وحدات إقليمية إفريقية ، ولاتزال الفكرة تلقى القبول وتقابل الصعوبات . ولكن القرن الحادى والعشرين الذى مهدت له اتفاقية الجات (١٩٩٤) وانشاء منظمة التجارة العالمية (١٩٩٥) سيكون قرن العولمة .

الحديث الذى يجرى فى مصر اليوم عن «التصدير» ، ويحتل الاهتمام به أعلى درجات الأولوية السياسية حتى ليشرف على شئونه مجلس على أرفع المستويات ، هو تمهيد لدخول مصر إلى قرن العولمة ، أى أن يكون لمصر حصة فى تجارة العالم، وأن يكون لما تنتجه موقع قدم فى أسواق العالم . أمضت مصر النصف الثانى من

القرن العشرين تتلمس مكانها فى الحيز الإقليمى العربى أو الحيز الإقليمى الافريقى . وصادفها فى ذلك السعى نجاح محدود لايصل إلى آفاق طموحها وهى الآن تتأهب للقرن الحادى والعشرين ، ومن ثم أصبح على الجهد الوطنى أن يترسم آفاق الاقتصاد العالمى فى سعيه ، وهو جهد يحتاج إلى تطوير المفاهيم الدارجة والمتصلة بالانتاج الزراعى والصناعى بما فى ذلك صناعة الخدمات . كان من الممكن فى القرن العشرين ان تختار الأمة سياسة الانكفاء على الذات ، فتغلق ثغورها بالحواجز الجمركية ، وتدير أسواقها بضبط الأسعار على أساس على أساس الضوابط الاجتماعية وصرف النظر عن الضوابط الاقتصادية ، وتجعل السوق المحلى على قواعد من الدعم الحكومى ، إلى غير ذلك من التدابير . ولكن القرن القادم لن يأذن بتلك الحلول الميسرة والدانية ، وهى حلول أخذت مصر منها القسط الأوفى ، وقد مضى زمانها .

الدخول إلى السوق العالمية دخول الشريك الند ، يحتاج إلى توجهات جديدة. والسوق العالمية أصبحت مفتوحة لتجارة السلع وتجارة الخدمات ، وهى سوق بغير حدود ، ورسوخ القدم فيها يحتاج إلى ترسم «الميزات التنافسية» وتتدارس مصر الآن مسائل المشاركة مع السوق الأوربية ومع السوق الأمريكية ومع السوق الشرق أوسطية ، وهى جميعا مسائل كالخطوات التمهيدية التى تتمرس الأدوات المصرية من خلالها وتتهيأ للدخول كشريك فى السوق العالمية . فى كل هذه الخطوات تبقى الميزات التنافسية عناصر النجاح الرئيسية . لتحقيق هذه الميزات فى قطاعات انتاج السلع (الزراعة والصناعة) وانتاج الخدمات (السياحة والبنوك وبورصات التجارة وبيوت الخبرة ومؤسسات الاستشفاء وغيرها) يلزم إيجاد إطار فكرى لرسم سياسات وخطط لشئون الاقتصاد تحقق لمصر انتاج سلع بقدر يفيض على الاستهلاك المحلى ، وبنوعية تحقق الميزة النسبية ، وبتوقيت يزيد من الميزة النسبية ، وبأسعار تحقق الميزة التنافسية ، وهى أسعار لاتحتمى بالدعم الحكومى . وأن يدار دولاب الاقتصاد والتجارة على نحو يحقق الأهداف الوطنية فى وجه تنافس بالغ الضراوة .

يؤذن للكاتب ان يوضح المقصود بإدارة دولاب الانتاج والتجارة فى وجه تنافس إقليمى وعالمى ، بأن يضرب المثال

والتطوير العلمى

بيعض التحولات التى تجريها إسرائيل فى قطاع الانتاج الزراعى . بقى الانتاج الزراعى فى إسرائيل من ١٩٥٠ الى ١٩٩٠يعتمد على تصدير حاصلات زراعية تقليدية ذات ميزات نسبية من ناحيتى النوع والموسم (التوقيت) مثل البرتقال والطماطم والخضراوات والأزهار . وهى جميعا حاصلات تستطيع دول المنطقة الممتدة على الساحل الجنوبى لحوض البحر المتوسط ان تنتجها بالنوع والكم والتوقيت المتميز . فى وجه هذا التحدى تتحول الزراعة الإسرائيلية الى انتاج محاصيل كثيفة المحتوى العلمى والتكنولوجى وهى البذور المحسنة بتطبيقات علوم الهندسة الوراثية، وهو تحول توظف فيه إسرائيل الميزات النسبية المتاحة لها . ودول المنطقة سوق رائجة لتجارة البذور المحسنة للمحاصيل البستانية وغيرها .

النجاح فى المساعى الوطنية التى يتوجه إليها الاقتصاد المصرى يعتمد فى الدرجة الأولى على التعانق الحميم بين الانتاج والتطوير العلمى والتكنولوجى وتطبيقات البحوث العلمية فى انتاج السلع والخدمات أى ان يتحول البحث العلمى إلى عنصر من عناصر الانتاج وركيزة من ركائز إدارة الانتاج وإدارة الاقتصاد لاتزال مصر تتحسس طريقها إلى تحقيق هذا التعانق الحميم بين الانتاج الوطنى والعلم الوطنى ، ولدى مصر امكانات علمية عظيمة القدر والقدرة ولكنها عاطلة عن أداء دورها الناجع فى دعم الاقتصاد الوطنى . والدخول إلى القرن الحادى والعشرين يحتم استكمال هذا المسعى وتحقيق هذا الوصل الوثيق ، وبدون هذا فالسبيل إلى النجاح عسيرة جدا ، بل مستحيلة ان الاعتماد على العلم المستورد والخبرة المجلوبة والتكنولوجيا المستعارة لايتيح للاقتصاد الوطنى القدرة على المنافسة فى السوق العالمية ، ولايتيح للاقتصاد الوطنى جنى الحصة العادلة من الانتاج انظر إلى دول البترول وهى فى جملتها تعتمد فى الإنتاج والتسويق على تكنولوجيا مستعارة ، وانظر إلى حصتها من دخول البترول بالمقارنة للحصة التى تحصل عليها الشركات والمؤسسات العالمية المالكة لعلوم الانتاج وتكنولوجياته ونحن فى مصر قد طورنا قدراتنا العلمية والتكنولوجية فى مجال صناعات البترول ، وبهذا التطوير استطعنا ان نمزج بين الامكانات التكنولوجية المجلوبة والامكانات والقدرات الوطنية ، وهو أمر اتاح لمصر حصة سخية من ثرواتها البترولية . كذلك طورنا قدراتنا فى مجال العلوم الزراعية مما أتاح لمصر المحافظة على الميزات النسبية للأقطان المصرية ، وهو جهد

مصرى خالص لا فضل فيه لعون خارجي.

بقى أن نطور سائر الامكانات العلمية والتكنولوجية ومع إعطاء الأولوية للمجالات التى تحددها السياسة الاقتصادية الوطنية كمجالات التنافس فى الحلبة العالمية . بهذا نستطيع أن ندخل إلى القرن الحادى والعشرين بخطى واثقة .

● قضايا البيئة

الشطر الآخر الذى يتصل بفكرة أن العالم وحدة واحدة ، هو مجموعة من القضايا البيئية ذات المدى الجغرافى الواسع الذى يمتد عبر القارات جميعا (مثل تدهور الأراضى المنتجة والتصحر وتدهور غابات المناطق الحارة وفقد العديد من الأنواع النباتية والحيوانية) ، أو ذات علاقة بالنظم والقواميس الرئيسية التى تحكم أحوال الكرة الأرضية (مثل خطر تغير المناخ نتيجة تزايد ملوثات الهواء وتدهور الأوزون فى طبقات الجو العليا) ، لهذه القضايا آثار خطرة على صحة الكرة الأرضية ومحيطها الحيوى ، وهى بدورها خطر على صحة الناس وحياتهم وقدرتهم على انتاج الطعام وعلى استمرار الحياة

بعض هذه القضايا ذات الاتساع الجغرافى تنشأ عن سوء إدارة الموارد الطبيعية والنظم البيئية التى يعتمد عليها الإنسان فى الانتاج . أى أنها ذات نشأة محلية وأثر ضررها الرئيسى يقع على الفاعلين ، وعلاج هذه القضايا يبدأ فى موقع النشأة . من هنا نلحظ أن علاج التصحر يبدأ من البرامج الوطنية لمكافحة التصحر ، وعلاج تدهور الغابات يبدأ من البرامج والمشروعات الوطنية لترشيد قطع الغابات وبرامج التشجير لتعويض ما تدهور . ولكن الجهود الوطنية فى حاجة إلى الدعم المالى والتقنى فى اطار برامج عالمية . من هنا أوصى مؤتمر قمة الأرض بوضع اتفاقية دولية لمكافحة التصحر (تم وضعها والتوقيع عليها فى ١٩٩٤) . وكذلك وضع المؤتمر منهجا عالميا لعلاج تدهور الغابات ، وأقر اتفاقية دولية لصون التنوع الإحيائى (حماية البيئات الطبيعية والكائنات الحية والموارد الوراثية المهددة بالتدهور أو الانقراض) .

أما قضايا البيئة ذات العلاقة بالنظم والنواميس الحاكمة لأحوال الحياة على كوكب الأرض فذات طابع خاص . آثارها على مدى الكوكب جميعا تستوى مواقع التسبب أى مناطق اصدار الملوثات التى تهدد المناخ وتدمر طبقة الأوزون والمواقع البريئة من هذا الفعل الضار ، وهى من باب الفتن التى لاتصيب الظالمين خاصة إنما يعم أثرها على الكوكب جميعه . علاج هذه القضايا يستلزم الجهد المشترك للأقطار جميعا : الأبرياء وغير الأبرياء أى أن إدارة هذه القضايا وعلاج

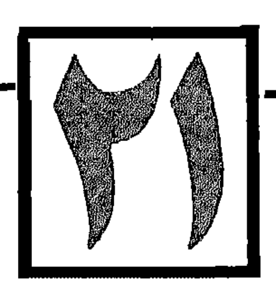
أضرارها يقتضى جهدا عالميا يشارك فيه الناس جميعا بالعزم والإقبال . وقد وضعت الأمم المتحدة معاهدة دولية بشأن التغيرات المناخية (١٩٩٢) ومعاهدة دولية بشأن حماية الأوزون (١٩٨٥) ولها بروتوكولات ملحقة تم التصديق عليها فى سنوات تالية . والمأمول ان تكون هذه الصكوك الدولية مواثيق للعمل المشترك ، ووضع هذه المعاهدات اعتراف من دول العالم بعالمية القضايا البيئية الرئيسية.

الإسهام فى الواجبات التى تقضى بهذه المواثيق الدولية وبرامجها التنفيذية من معالم الجهد الوطنى فى القرن الواحد والعشرين . الدول الموقعة والمصدقة على هذه المجموعة من الاتفاقيات الدولية بشأن قضايا البيئة العالمية ، ملتزمة بضوابط السلوك (خفض معدلات اخراج الملوثات التى تسبب تغير المناخ والتى تعمل على تدهور الأوزون فى طبقات الجو العليا) وتتصل هذه الضوابط بإدارة المراكز الصناعية ومحطات انتاج الطاقة والقوى المحركة وشبكات النقل والمواصلات وغير ذلك . هذا مجال للمشاركة فى إدارة مجموعة من القضايا العالمية المتصلة ببيئة كوكب الأرض ، وفى مسئولية الحفاظ على صحة المحيط الحيوى ، وفى الشعور بوحدة الجنس البشرى ، وهذه أمور تتصل فيها نوازع البقاء وضوابط الأخلاق .

● قضية الإنسان

يختتم كل حديث عن القرن الحادى والعشرين كما بدأ بقضية الإنسان . الإنسان هو صاحب المسئولية وحامل الأمانة على طول الزمان الماضى والمستقبل . حمل الأمانة فى فجر حياته . وحمل الأمانة عندما أمر الله سيدنا نوح أن يبنى الفلك ليكون وعاء لإنقاذ الحياة عندما يدهم الفيضان الأرض ومن عليها . أمره أن يحمل معه أهله (الجنس البشرى) وأزواجا من الكائنات الأخرى (صور الحياة المختلفة) ، وليكون نوح قائد الفلك وحامل الأمانة والمسئول عن بقاء الحياة حتى يأذن الله للماء أن يغيض وتعود الحياة لتعمر الأرض . وحالنا اليوم على هذا النمط السرمد . الفلك هو سفينة الفضاء الواحدة التى تحمل الحياة فى سائر صورها ، والإنسان هو نوح المسئول وحامل الأمانة . حمل الأمانة هو الواجب الذى نهض به الإنسان منذ كان ، ويظل يحملها إلى آخر الزمان . التقصير والقصور مدخل إلى الهلاك ، والعمل الدائب والجاد هو السبيل إلى استمرار الحياة . هذا هو واجب الفرد كل فرد ، والجماعة كل جماعة ، والبشر جميعا . بالتعاضد المخلص والتكاتف الحميم يمكن أن يتصل تاريخ البشرية إلى مستقبل الزمان .

مصر والعالم في القرن



التعليم

على مشارف القرن الحادى والعشرين

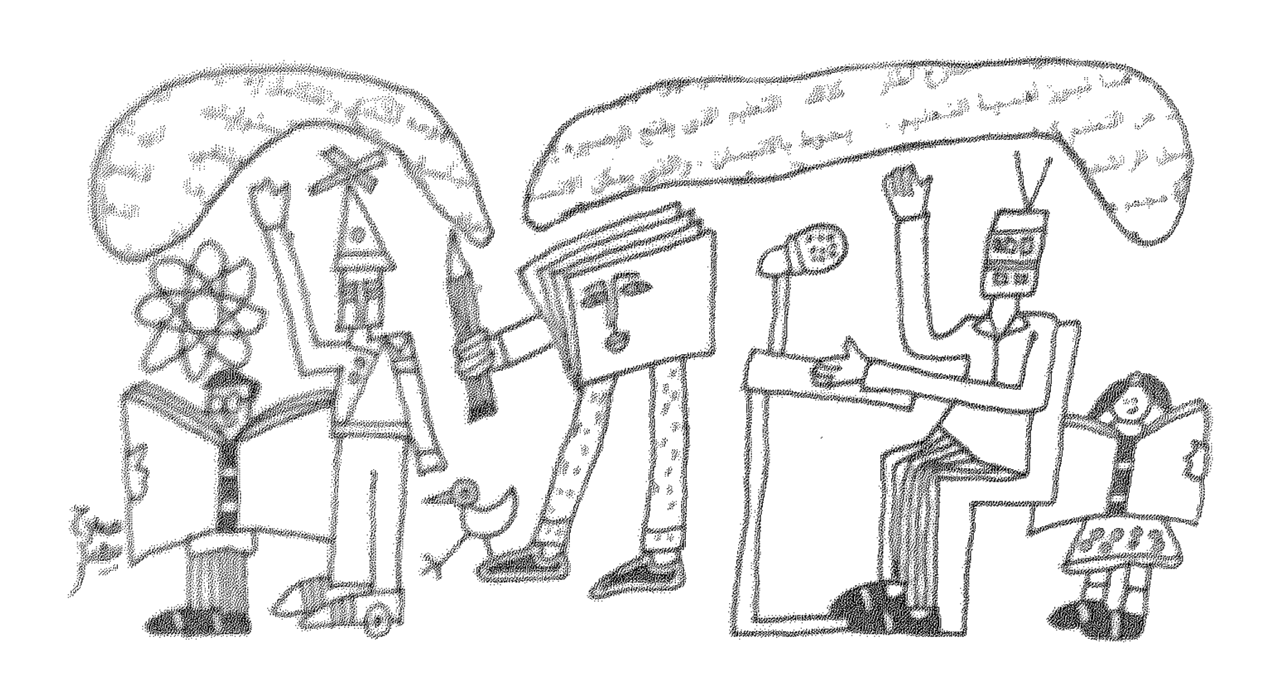
بقلم : د. سعيد اسماعيل على

«أنتم تربون أولادكم لزمان غير زمانكم ... »

في هذه العبارة البسيطة ، تلخص الحكمة العربية المعروفة ، حركة ضخمة بدأت تهز أركان التعليم في معظم أنحاء العالم منذ عقود قد تقل عن أصابع اليد ...

وهي في الوقت نفسه تلخص الفلسفة التي يقوم عليها التعليم «كعملية» ، وهي بهذا الاعتبار ترسم التوجه الذي لابد من أن يتجه إليه التعليم «كنظام».

إننا إذا افترضنا أن أبا سيلحق ابنه بالتعليم في أكتوبر ١٩٩٦ في روضة أطفال ،.وهو لم يزل بعد في سن الرابعة علي وجه التقريب ، فسوف يظل هذا الابن متلقيا لبرامج تعليمية متعددة مختلفة طيلة مراحل مقدارها علي وجه التقريب كما يلي من السنوات : ٢ روضة + ٥ ابتدائي + ٣ اعدادي + ٣ ثانوي + ٤ تعليم عالي = ١٧ عاما كحد أدني ،قد تزيد بحكم احتمالات الرسوب ،واختلاف مدة الدراسة بالجامعة ببعض التخصصات ، أي أن الابن/ الابنة ، سيتخرج ليصبح عضوا مؤهلا للمشاركة العملية في الحياة عام ٢٠١٢ ، ويكون عمره واحدا وعشرين عاما ، سن الرشد والاستقلال القانوني.



وإذا كان التعليم ، بعبارة بسيطة يستهدف تزويد الفرد بالمهارات والكفايات والقيم والمعارف التى تمكنه من حسن التعامل مع نفسه ومع الآخرين ، فى ظل بنية مجتمعية محلية وإقليمية وعالمية لها مواصفاتها ومحدداتها ، فإن هذا يعنى أن تكون لدينا صورة متغيرة لمثل هذه المهارات والكفايات والقيم والمعارف التى تتوافق مع هذه البنية المجتمعية ، على مستوياتها المختلفة طوال سبعة عشر عاما.

هذا فضلا عن أن نفس الفرد ونفس البنية المجتمعية لن يقفا عند هذا الحد الزمنى ، فالتغير مستمر ، والتطور حادث، ومعدلاته تتزايد تزايدا أصبح يتجاوز ، فى بعض الأحوال توقعاتنا ، بل أكاد أقول ، وأحلامنا .

التعليم إذن ، بطبيعته ، عملية مستقبلية .

لكن هذا لاينبغى أن ينسينا الوجه الآخر للعملة .

فالتعليم ، كذلك ، عملية «ماضوية» ، فهل نناقض أنفسنا هنا؟

كلا .

إن مانقصده هنا أن المعلم فى مختلف مستويات التعليم ومراحله ، من الحضانة إلى الجامعة ، عندما يقف ليعلم ، فهو دائما «ينقل» إلى الأجيال الجديدة ما تم التوصل إليه من معارف ومعلومات من قبل، ذلك لأن المعرفة ، كما هو معروف ، «تراكمية» ، نبدأ من حيث انتهى الآخرون، فلابد من أن يعرف الطلاب هذا الذى انتهى إليه السابقون ، وهو ما يمكن أن نسميه «بالتراث المعرفى» للبشرية .

وبالإضافة إلى ذلك ، فإن الفرد ، فى بدء حياته ، إذ تتمحور أفكاره واتجاهاته وسلوكياته حول ذاته ، يسعى التعليم إلى اكسابه الطابع الاجتماعى ، ومن أهم

السبل إلى ذلك ، أن يعرف لغة الجماعة التى هو عضو بها ، وعاداتها وتقاليدها ونظمها ومعارفها .

فالتعليم لو اقتصر على مجرد نقل ماسبق إلى الأجيال الجديدة ، فسوف يجىء كل جيل نسخة مطابقة ، أو على الأقل ، بقدر مشابه للجيل السابق ، فينتفى التطور ،ويستحيل التقدم . ومن سنن البناء الاجتماعى أن الجماعة التى لاتخطو إلى الأمام خطوة ، لاتكون فقط قد جمدت وإنما تكون قد تأخرت خطوة ، لأن الآخرين ، يخطون خطوة ، بل خطوات ، فتتسع الهوة ويزيد التخلف .

● مشقة التعليم

وهكذا نقوم فى التعليم بالعمليتين معا: نقل واستيعاب لماسبق الوصول إليه من معارف ، ثم إعداد وتهيئة لما سوف يجىء من أيام ... ، وتلك هى مشقة التعليم .

وهى ، أيضا ، المنزلق الذى تقع فيه بعض الأمم والشعوب .

إنها «مشقة» لأنها تقتضى البصر الواعى بمقدار ونوع مايجب نقله للأبناء من «التراث المعرفى» ،كما أنها تقتضى دقة التحسب لما نكون بحاجة إليه فى مستقبل الأيام .

وهى منزلق ، عندما تقع الأمة فى أسر الماضى فيقودها ويستدمجها ، بدلا من أن تستدمجه هى فى ذاتها ، فيصبح التعليم عملية اجترار وتقوم أجهزة التعليم بما يقوم به مجتمع «النمل» من التخزين ،دون تجديد ، وتغيب وظيفة التعليم الأساسية التى تجعل من أجهزته تقوم بما يقوم مجتمع «النحل» من انتقاء مما هو كائن ليخرج للناس عسلاً شهيا فيه شفاء للناس!!

والحديث عن التعليم فى القرن الحادى والعشرين لابد من أن يتسم بالتواضع ، فلا نزعم أننا نتحدث عن هذا القرن كله ، فلو رجع كل منا بذاكرته إلى عشر سنوات مضت ، وحاول فحص ما كان ينتظرنا بعد عشر سنوات ، فسوف يجد أن كل ما حدث ، أو معظمه ، لم يكن ليخطر ببال كثيرين ، فما بالنا بعشرات سنين قادمة ، ومعدل التغير نفسه ، فى تغير غير مسبوق.

إن حديثنا إذن عن المستقبل ، إنما هو حديث عن سنوات محدودة قادمة ،لاتزيد على أصابع اليد إلا بمقدار محدود .

ثم ، أى تعليم نتحدث عنه ؟ الجامعى؟ أم العام؟

وفى داخل المرحلة ، هل نتحدث عن محتوى التعليم ؟ وأجهزته التكنولوجية ؟ أم طرائق تعليمه ؟ أم معلمه ؟ أم تقويمه ؟ أم تنظيمه وادارته ؟ أم عن الفكر التربوى؟، وهكذا أنه محيط واسع متلاطم الأمواج ، ومن ثم فلابد ـ فى مثل هذا الحيز الضيق ـ أن يجىء الحديث عن التعليم ، من حيث الفلسفة والهدف ، من

حيث التوجه العام

ولما كانت احتمالات المستقبل كذلك لا حصر لها ، فسوف نختار قضية واحدة نبسط الرأى حولها لقارئنا ، ألا وهى تلك التى تتعلق بمجتمع «المعلوماتية» فى عالم الغد:

لقد أصبحت المعلومات فى حالة سيولة وتدفق فاقت كل التوقعات ، وذلك نتيجة الزيادة المذهلة فى معدلات سرعة التغير ، ويكفى لكى نتأكد من هذه الحقيقة أن نتذكر أن الإنسان قد أمضى من عمره خمسين ألف سنة حتى توصل إلى اختراع «العجلة» Wheel ، أما توصل الإنسان إلى إدارة هذه العجلة بالبخار فقد تطلب منه زمنا مقداره خمسة آلاف سنة .

وكانت سرعة انتقال الإنسان لاتتجاوز بضعة كيلو مترات فى الساعة ، فإذا بها تصبح عشرات عندما اخترع القاطرة البخارية ، ثم إذا بها تصل إلى أكثر من ألف كيلو متر فى الساعة بالطائرات بعد مائتى عام ، ثم تصل إلى سبعين ألف كيلو متر/ الساعة بالصواريخ.

ولقد ساعد على هذا التدفق المذهل للمعلومات ، التحولات الأساسية التالية فى تكنولوجيا المعلومات .

١ ـ التحول من الاعتماد على الأنظمة الالكترونية التقليدية إلى الأنظمة المعتمدة على المعالجات الدقيقة.

٢ ـ التحول من الاعتماد على الحاسبات المركزية الكبيرة إلى المنظومات المعتمدة على الشبكات .

٣ ـ التحول من البرمجيات المرتكزة على منتج واحد إلى البرمجيات المفتوحة التى تنتج حسب مواصفات عالمية.

٤ ـ الاتجاه إلى الوسائط المتعددة للبيانات التى تشمل النصوص والصوت والصورة والفيديو .

٥ ـ ظهور مبدأ الشراكة بين المنتج والمستخدم فى ظل أنظمة الحاسبات المفتوحة .

٦ ـ ظهور نظم التفاعل مع المستخدم المعتمدة على الرسومات.

٧ ـ التحول من التطبيقات المنفصلة إلى التطبيقات المتكاملة والبرمجيات الخاصة بها .

٨ ـ ظهور نظم تطوير البرمجيات المتكاملة والتى تعتمد على نظم هندسة البرمجيات المتكاملة المرتكزة على الحاسبات .

إن مثل هذه التحولات الجذرية ، لابد لها من أن تكون ذات أثر فاعل فى مستقبل التعليم ، وهذا مايمكن بيانه فيما يلى :

● التقليد الموروث

فلقد ورث تعليمنا من التراث والتقاليد العربية مايعرف باسم (الحفظ والاستظهار) بالنسبة للطالب ، و(التلقين) بالنسبة للمعلم ، فالطالب يجد أن مهمته

هى أن يحفظ ما يلقنه إياه المعلم ، أو ما يقرأه هو من صفحات كتب مقررة ، والمطلوب منه بعد ذلك فى الامتحان ، أن يستظهر ما حفظ ، وتكون درجة نجاحه بقدر دقته فى الحفظ والاستظهار .

لقد كان ذلك تقليدا عما ورثناه ، عبر قرون طويلة.

ذلك أن عرب الجزيرة لم تشع بينهم القراءة والكتابة ، ولا كانت لهم آثار واضحة يسجلون عليها أيامهم وأشعارهم وحوادثهم ، لكنهم اعتمدوا على (الذاكرة)، فهم يحفظون وينقلون ما يحفظون إلى أبنائهم ، وهؤلاء أيضا يقومون بنفس الدور فيحفظون وينقلون إلى أبنائهم ، وهكذا وكل مانقل إلينا من أشعار الجاهلية وأخبارها وحكاياتها ، كان بهذه الوسيلة .

وهكذا دربت الذاكرة القومية لتصبح على درجة من القوة لا مثيل لها ، وأصبح الإنسان مميزا فى العرف العربى بمقدار ما يحفظ ، فإذا كان من صور التقدير الاجتماعى ، ما يملكه الإنسان من (مال)، فقد أضيف إليه كذلك ، ما يحفظه من أشعار وأخبار .

وعندما جاء الإسلام واستند إلى كتاب الله عز وجل ،القرآن الكريم ، اتجه المسلمون الأوائل إلى حفظه ، حيث لم يكن الذين يعرفون القراءة والكتابة يتجاوزون عشرات تزيد على أصابع اليد الواحدة فى بعض التقديرات . وأضيف إلى ذلك أن المسلمين وجدوا أنفسهم أمام نص لايجوز التبديل فيه بأي حال من الأحوال إن فشلت الذاكرة فى استظهار ولو حرف منه ، ولا جاز أن يستعيض الإنسان ـ أيضا عندما لاتسعفه ذاكرته ـ بأن يقول ما معناه ، بل لابد من أن يكون النص كاملا ، وبحروفه ، فأصبح التعليم متمحورا حول القرآن الكريم وحفظه ، فالقرآن هو مصدر التعليم الأول .

وهكذا رأينا كتبا تؤلف للتأريخ (للحفاظ) الذين أصبحوا يحتلون مكانة مرموقة فى التاريخ الثقافى والتربوى ، وأصبح اسمهم مرادفا ، على وجه التقريب ، للفظة (العلماء) .

وعندما اتسعت دائرة التعليم الإسلامى لتشمل العديد من العلوم الأخرى لم يفرق المسلمون بين كتاب مقدس حفظه واجب وبين كتب أخرى كتبها بشر ، ليس مطلوبا حفظها ، لكن حدث مايسميه علماء النفس (انتقال أثر التدريب) ، فإذا بكثيرين يتعاملون مع كتب التاريخ والجغرافيا وغيرهما بنفس المنطق وبنفس الطريقة ، أى يحفظونها !!

وإذا كان (الحافظ) قد تراخى كثيرا فى العقود الأخيرة ، فإن طريقة التعليم القائمة علي التلقين ظلت ، ومازالت مستمرة .

والآن ، بعد هذه التحولات فى

تكنولوجيا المعلومات ، هل يظل الطالب مكرسا جهده فى حفظ المعلومات بعد جمعها فى ذاكرته .

لقد أصبحت هناك أجهزة متوافرة بين يديه ، مهمتها (تخزين) المعلومات ، ويستطيع هو أن يستدعى منها مايريد فى لحظات ، وهى تستطيع أن تحفظ الملايين مما كانت ذاكرته تعجز عنه . وإذا كان الجهد الأكبر للطالب فى تعليمنا يتجه إلى الحفظ والاستظهار ، فماذا نراه فاعلا فى عصر المعلوماتية عندما يقوم (الكومبيوتر) عنه بذلك؟

هنا تبرز مهام ووظائف أخرى ، ظلت سنين طويلة تشكل حلما يداعب أخيلة المشتغلين بالتعليم على وجه العموم ومفكرى التربية على وجه الخصوص ، فها قد جاء زمن تحقيق الأحلام .

كان التربويون يحلمون بطالب لايقف موقفا سلبيا فى عمليتى التعلم والتعليم وكأنه مجرد جهاز استقبال ، ليس عليه إلا أن يعكس بالضبط ما يرسل إليه ويبث،وإنما يقف الطالب من هذه المعرفة موقفا نقديا ، فلا يسلم بمايقال له ويقرأ وإنما يعقبه بهذا السؤال الثرى الخطير هل هذا صحيح؟ .

كان التربويون يحلمون بطالب يوازن بين ما يتلقاه من معلومات ويقارن ويربط ويستنبط وينشر ويحلل ، إلى غير هذا وذاك من عمليات عقلية ، هى لحمة التعليم الفعال وسداه ، وهى لحمة التربية البانية وسداها .

كان الطالب أمام الكثير من المعلومات التى تطالبه باختزانها ، ينظر إلى هذه العمليات العقلية المشار إليها ، على أنها ترف تربوى لايقوى عليه ، فضلا عن أنه لايملك الوقت اللازم له .

● الشيطان الكبير!

الآن ، خلا الميدان من «عفاريت الحفظ» عندما هلت «ملائكة» التعقيل والفهم والوعى .لكن هذا سوف يستمر حلما إن لم تتغير وظيفة الامتحانات ، فهى شيطان التعليم الذى غوى كل الأطراف فاستجابت له تسير وراءه حيث يكون ، فجهود المعلم ، وكتب الدراسة ، وطرق التعليم ، بل ووسائل وأجهزة الاعلام، وإدارة التعليم ، وجميع الآباء والأمهات علي وجه التقريب ، إن لم يكن بالإرادة فبالعدوى ، عين كل هؤلاء ناظرة إلى هذا الشيطان الكبير .

كان مطلبه الأساسى : (التسميع).

ها هى تباشير المستقبل تشير له بأن هذه لم تعد مهمة الطلاب .

وهكذا أصبح حتما أن تعود الامتحانات إلى مهمتها التربوية الأصلية ، إنها أداة للتقويم والإصلاح والتطوير ، تكشف عن صور الخلل والعيوب فتعيد النظر باستمرار فى منظومة التعليم من حيث الأهداف ،

والمحتوى ، وطرائق التعليم .

ومن هنا تسعى الامتحانات ، فى وضعها المنتظر ، إلى الكشف عن مهارات عقلية تتبدى فى الربط والتحليل والمقارنة والتعليل والاستنباط والنقد .

كان الكتاب المدرسى ، مثلا ، يجىء بموضوع عنوانه : (أسباب قيام الحملة الفرنسية) ، فلا يكون أمام واضعى أسئلة الامتحان إلا أن تدخل أداة استفهام على العنوان ليصبح : ما أسباب قيام الحملة الفرنسية على مصر ؟ ظاهره يوحى بأنه يسأل عن (التعليل) ، وبذلك يدعى أنه يقيس مهارة عقلية ، لكن الحقيقة غير ذلك، فما علي الطالب إلا أن يحفظ ما بالكتاب من أسباب .

إن الطالب ـ مثلا ـ إذا درس أن نهر النيل يجىء من الجنوب إلى الشمال ، وكان له دوره فى نشأة الحضارة المصرية القديمة فهل يمكن أن نسأل هذا الطالب : ترى، ماذا كان يمكن أن يكون عليه الحال لو أن نهر النيل سار من الشمال إلى الجنوب ؟!

إن كثيرين قد لايستوعبون هذا ، ولكن المقصود هو تنشيط (خيال) الطالب، (فالتخييل) ، المحكوم بظروف الواقع واحتمالات المستقبل ، مهارة أساسية تعزز قدرات الابتكار والإبداع .

وفى ظل النظام الحالى للامتحانات ، كان ظهور مثل هذا التساؤل يمكن أن يثير ثورة الرأى العام لأنه محكوم بفلسفة للامتحانات تبنى صناديق معرفة ولاتبنى معامل تفريخ للمهارات العقلية .

وإذا كانت تكنولوجيا المعلومات ستقوم عن المعلم بتوفير المعرفة ، فإن هذا لايعنى أن دوره لم يصبح مهما ، كلا ، إنه عندئذ يمكن أن يتفرغ لمهمته الحقيقية :أن يكون مُسهلا لسبل المعرفة لا أن يقدمها (المعرفة) ، أنه يوجه ولا يأمر ، أنه يشيع دفء العمل التربوى وعلاقاته الانسانية ، إنه يدير الحوار وينظم المناقشات ، ويوزع الأدوار على الطلاب وفقا لما تكشف عنه المواقف من قدرات ومهارات كل منهم ، إنه يشجع على النقد والفحص .

هذا هو المعلم (المربى) ، أما تكنولوجيا المعلومات فقد تكون معلما ، لكنها لاتستطيع أن تكون مربية .

ولن تصبح المدرسة وحدها هى وسيط المعرفة والتربية ، بل ستصبح مؤسسات وأجهزة أخرى كثيرة ومتعددة أجهزة تربية وتعليم ، مما يحفل به المجتمع وخاصة المجتمع الذى يعيش عصر المعلوماتية ، تصبح معظم ، إن لم تكن كل ، مؤسسات المجتمع ونظمه ، معلمة مربية بغير فصول وقاعات درس وكتب مقررة وامتحانات .

خذ مثالا بسيطا مما أصبح قائما الآن منذ سنوات معدودة من مظاهر المجتمع المتقدم ، مترو الأنفاق ، مظهر

يشير إلى حسن استغلال تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات ، وقارن بين سلوكيات الناس فى التعامل معه ، وسلوكياتهم فى التعامل مع (الأتوبيس) و(القطار) التقليدى، ستجد النظام فى مقابل الفوضى ، ستجد التخطيط فى مقابل التسيب ، ستجد النظافة فى مقابل القذارة، ستجد التعامل الرشيد مع (الوقت) فى مقابل اهدار قيمة الوقت ، فضلا عما فرضه مترو الانفاق من أجهزة ونظم تطلبت كما ونوعا من المعارف والمهارات لاتقارن بما يتصل بالأتوبيس والقطار التقليدى .

وقس على هذا ، أشياء كثيرة الآن .

فما بالك بما يحمله المستقبل من احتمالات تطور وتقدم تقنى ؟

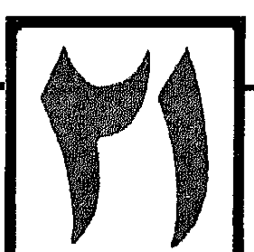
والغريب أن هذه التطورات المختلفة تؤكد لنا على حقيقة مهمة ، تضاءل الحديث عنها فى الفترة الأخيرة تحت ضربات اتجاه (الخصخصة) و (العوْلمة) ، فكثيرون أصبحوا يتنادون بانتهاء عصر الأيديولوجيا ، وبإعلان (السوق) ملكا ، بل وامبراطورا لمجتمع اليوم والغد .

ونحن نؤكد أن ماقيل عن انتهاء عصر الأيديولوجيا لاينبغى أن ينفى جانبا آخر هو ضرورة أن يكون هناك إطار عام للأمة يضبط حركة مؤسسات المجتمع وأجهزتها ، فإذا كانت الصحف والإذاعة والتليفزيون ودور العبادة والنوادى والمصانع والشركات ستدخل شريكة للمدرسة والجامعة فى مهمة التربية والتعليم ، فماذا يمكن أن يحدث لأبناء الأمة إذا تعارضت أو تناقضت توجهات هذه المؤسسات فى ظل منطق عام يرفع شعار الخصخصة؟!

إننا نعى جيدا بأنه لم يعد هناك مكان لأمة فى المستقبل تقع أسيرة هيمنة مذهب شمولى ، ولكننا ، فى الوقت نفسه ، نعى حقيقة بشرية تشير إلى أهمية التناغم والتآزر والتكامل بين عناصر الشخصية الفردية ، وهى الحقيقة نفسها التى تصدق على الشخصية القومية ، شخصية تكون لها قسماتها الذاتية ، وهويتها الخاصة ، غير مصابة بالفصام أو التميع !!

□

مصر والعالم فى القرن



التكامل العربى شرط الدخول الى القرن الحادى والعشرين

بقلم : د. اسماعيل صبرى عبدالله

● الكيانات الضعيفة لا مكان لها في القرن القادم

■ الحديث عن المستقبل ليس سهلا كما يتصوره الكثيرون، وبالتالى يجب تفسير بعض الأساطير .. فالقرن والسنة والتاريخ، كل هذه أمور وضعها الإنسان لقياس الزمن.

وأحيانا يتحدث الناس عن القرن المقبل، كما لو كنا فى مسرحية من عدة فصول، وفى نهاية القرن يتغير المنظر، ثم يأتى ممثلون جدد، وترتفع الستارة عن فصل جديد.

والواقع ليس هذا تماما، فقد شغل الناس، من قبل ، بسنة ٢٠٠٠ وما سوف يحدث ، ونظمت مؤتمرات، وكتبت أوراق، وبالرغم من وجود بعض الحقائق العلمية التى نحس بأنها ستحدث فى المستقبل القريب، فإننى أعتبر من يتنبأ بما سوف يحدث فى أواخر القرن الحادى والعشرين يعد نوعا من الرجم بالغيب!

والمنهج العلمى هو الذى يستطيع ان يكتشف بعض الحقائق التى تحدث - مثلا - فى الخمس والعشرين سنة القادمة، لكن بعد ذلك لا احد يستطيع أن يستنتج ما سوف يحدث مستقبلا.



وفى ضوء هذه المقدمة سوف أبدأ فى إلقاء الضوء على الوضع الدولى، والذى سيشهد تطورات مهمة أبرزها - فى تقديرى - الاتجاه فى أن تحل آسيا محل أوربا، القارة الأساسية الآن فى العالم. فاليابان والصين والهند وهى كتل بشرية ضخمة ولديها امكانيات التطوير مما أغرى جزءا من الولايات المتحدة بالرغبة الشديدة فى عمل ارتباط تجارى مع هذه الدول، خاصة وأن هذه الدول الآسيوية دخلت مجال التكنولوجيا المتقدمة فضلا عن ان التركيبة السكانية لغرب الولايات المتحدة تضم عناصر آسيوية كثيرة جدا.

وبالتالى فسوف يترتب على ذلك تراجع أهمية حوض الأطلسى لحساب حوض الباسفيك، ولما كان البحر المتوسط جزءا من حوض الأطلسى فسوف تهمش منطقة الشرق الأوسط ومن بينها الدول العربية، وتقل أهميتها الدولية .

والاقتصاد يدار حاليا على مستوى فوق الدول القومية ، أى على مستوى الشركات المتعددة الجنسيات ، وعادة ما يكون للشركة أكثر من ١٢٠ فرعا تنتشر فى أنحاء العالم تغلق فرعا هنا ، وتفتح فرعا فى مكان آخر، ولا تهتم بالاوضاع الداخلية لأى بلد من بلدان العالم، وتلك الشركات تجمع المدخرات .. من دول العالم كله لاستخدامها فى مشروعاتها العملاقة وتختار كوادرها من هذه الدول، ويتم الاختيار على اساس الكفاءة والخبرة

العالية، وليس لديها ارتباط بجنسيات معينة.

وهذه الشركات هى المسيطرة حاليا على الأسواق العالمية، والمنافسات بينها تؤدى الى الدمج، أو انتزاع احتكار التجارة والسيطرة عليها.

وأصحاب هذه الشركات لهم نظرة عالمية، ولا تتطابق، بالضرورة مع سياسة هذه الحكومة أو تلك لأنهم دائما يستخدمون اكثر من حكومة.

وهناك أمثلة عديدة على ما يحدث الآن في مجال التجارة والاقتصاد والاتجاه الى الدول الآسيوية المتقدمة تكنولوجيا.

فلقد أرغم رجال الأعمال الأمريكيون الإدارة الامريكية على استئناف العلاقات الدبلوماسية مع فيتنام ، على الرغم من ان مشكلة الأسرى المفقودين لم تحل حتى الآن، ومنطقهم فى ذلك ان الشعب الفيتنامى متعلم ونشط مثل بقية شعوب آسيا كلها، وينفتح على العالم الآن.

وبالتالى فإن المصالح الخاصة بالتجارة الضخمة، أصبحت أقوى من ضوابط البيت الابيض، أو وزارة الخارجية الامريكية!

وأصحاب الشركات العالمية الكبرى يتكالبون على الهند، وتجيء بعد الصين من حيث حجم الاستثمارات الاجنبية، لأنها ناجحة اقتصاديا، وبالرغم من أن الهند بلد فقير، فإن نمو المعدلات استمر بنسبة تصل الى ٦ر٥٪ سنويا، كما ان لديها قاعدة علمية تكنولوجية متقدمة جدا، ولديها عمالة مؤهلة رخصية الأجر، وهى بالقطع سوق احتكارية كبيرة، مما شجع شركة مرسيدس - على سبيل المثال - لإقامة مصنع بها . ففى نهاية القرن سيكون لدى الهند ٥٠٠ مليون هندى من الطبقة الوسطى، تتطلع فئة منهم لامتلاك سيارة، وبالتالى فإن الدول الصغيرة، لأنهم أصحاب هذه الشركات الكبرى، لأن لديها سياسة استراتيجية طويلة الأجل، وحينما تدخل شركة مرسيدس الى الهند وهى بهذه الكثافة السكانية، وليس هناك جمارك داخلية، ولا حواجز فسوف تبيع على الأقل مليون سيارة داخل الهند.

وتجيء أهمية دولة مثل الهند فى القاعدة العلمية والتكنولوجية التى تمتلكها فلديها علماء فى مستوى عالمى، تمكنوا من عمل مفاعلات نووية، هم الذين صنعوها بعد حصولهم على مكوناتها من الخارج، كما صنعوا القمر الصناعى الهندى، وفى مجال المعلومات والكمبيوتر ركزوا على البرامج الخاصة بتشغيل المصانع الكبرى لانها عملية عقلية بحتة وتم ذلك من خلال علماء الرياضيات الهنود، وامكن تصدير البرامج للولايات المتحدة ، كما ان البرامج المستخدمة فى انجلترا تحصل عليها من الهند.

ولابد ان وراء هذا التقدم سرا قد لا يغيب عنا فالهند بها كل عناصر التخلف، وفيها كل الأديان فى العالم، وتضم أقليات

عرقية تصل الى ١٢٠ اقلية، والذى يجعلها تتعايش مع بعضها البعض الديمقراطية البرلمانية، والتكوين الفيدرالى فليست كل الصناعات والمصالح الحيوية مركزة فى العاصمة نيودلهى، بل تنتشر فى ولايات كثيرة، وكل ولاية لها مشكلاتها وانتخاباتها واحزابها .

● الاقتصاد قوة عظمى !

معنى هذا ان هناك قوة اقتصادية كبرى، تتجاوز الدول والحدود، هى التى تتعامل معها . وبدأت الوفود الرسمية تضم رجال الأعمال. وأصبح الحكام يساهمون بشكل واضح فى دعم القطاع الخاص، وفى هذا المجال فإن الثراء على مستوى العالم يزيد والأغنياء يزدادون غنى، والفقراء يزدادون فقرا، ويستتبع ذلك اختفاء دول من على خريطة العالم، وهذه ليست فروضا خيالية . فأين هى تلك الدول الآن. الصومال ـ ليبيريا على سبيل المثال.

وأغنياء العالم ينظرون الى العالم الثالث على انه مخزون للبطالة والفقر، ويعتبرون ان مليارا ومائة مليون شخص هم تقريبا تعداد العالم الثالث لا يستحقون الحياة لأنهم عاجزون عن انتاج الخبز (لقمة عيشهم) ، وأن تقدم البشرية قد بنى على مبدأ البقاء للأصلح.

وتجرنا هذه القضية الى الوهم الذى نعيش فيه .. ان مصر غنية بالموارد الطبيعية . وللأسف الشديد فإن هذه المعادن ليست بالجودة التى نتحدث عنها . سواء المنجنيز او الفوسفات خاصة فوسفات ابو طرطور. فالأسمدة منتشرة فى العالم كله واسعارها تتراجع، والمنتجات المعدنية تمر بنفس الظروف، كما تناقصت اسعار البترول فى الآونة الاخيرة بشكل واضح وملحوظ.

ولذلك اقول بأن مصر ليست دولة غنية ولا العرب اغنياء . والوهم الخاص بالبترول انتهى ولن يتكرر ما حدث فى السبعينيات. وما يحدث فى السوق البترولية يبين ان البترول اصبح سلعة عادية، وذلك نتيجة تغيرات كبيرة فى الاقتصاد الغربى ووجود البدائل للمواد البترولية وامكانية تصنيعها من مواد صناعية اجود من المواد الطبيعية.

وافريقيا السوداء تمر بنفس المشكلة، وكان الامل فى تقدم وازدهار نيجيريا . ولكن الخلل السياسى الموجود بها، وعدم استقرارها ، جعل المستثمرين من الغرب يسقطونها من حسابهم، وتبقى جنوب افريقيا . ولا ندرى كيف تستقر الأوضاع السياسية فيها، لأنها تمتلك قاعدة صناعية جيدة.

اما ما عدا ذلك فى افريقيا، فلا ينظر اليه المستثمرون الاوربيون .

وأذكر انه فى عام ١٩٨٤ حضرت اجتماعا بصفتى الشخصية للجنة التخطيط والتنمية للأمم المتحدة ووقتها قال ممثل صندوق النقد الدولى: «ان افريقيا كفت عن ان تكون حالة تنمية ، هى ـ فقط

- فى حالة احسان ». والدول الصغيرة المتفرقة، حينما يتزايد الخلاف وتتفاقم المشكلات فيما بينها، فسوف تشتد ازمتها وتترك للاقتتال والتناحر وضياع ثرواتها، وفى المقابل يشعر الغرب بالسعادة لكل ما يحدث لهؤلاء الناس الذين لا أهمية لهم وقد استغنى عنهم العالم بأسره!

وهؤلاء يسمونهم. سكان لا يحتاج اليهم الاقتصاد العالمى وليس لهم مكان فى الحياة، وينبغى موتهم، وبالطبع لن يتم ذلك من خلال حرب او قنبلة ذرية تهز العالم ، بل من الأحسن ان يتقاتلوا فيما بينهم، يقتلون بعضهم البعض ومن الأفضل الا يتدخل احد لوقف نزيف الاقتتال ، والدليل على ذلك هذه المحاولة التى حدثت فى الصومال . وفشلت بالرغم من تدخل امريكا، ورد الفعل الامريكى برفضهم ان يموت اى جندى امريكى من اجل هؤلاء السود الذين لا يستحقون الحياة. وعليهم ان يقتتلوا كما يريدون . فليست لهم ايه أهمية، لان أهمية الصومال ، كانت فى المواجهة بين الشرق والغرب حول باب المندب. والآن ليس هناك شرق ولا غرب، ولا اعتبارات للأمن فأى دولة صغيرة ليس لها وزن يذكر عالميا، من الممكن ان تنتهى وتهمش ، وبالتالى تشتد ازماتها الداخلية، ويشتد فيها العنف، ويبدأ بها الإرهاب . وتنتهى الى حرب أهلية، وهذا ما حدث فى لبنان، ولولا ظروف إقليمية وخارجية عديدة لكانت لبنان قد تقسمت، وربما كان الخلاف على التقسيم بين الدول التى كانت تتربص بلبنان هو السبب الذى حماها من هذا التقسيم ، بل قل التمزيق!

● التكامل العربى

إن ما ذكرته يؤكد لنا كمصريين وعرب ان مستقبلنا فى العالم رهن بنجاحنا فى التكامل العربى . وبالتالى علينا ان نتباحث ونتفاهم باسم سوق تضم ٢٥٠ مليون عربى ، وبدون تكامل اقتصادى عربى. فلا مستقبل لأى دولة عربية، ابتداء من مصر، وهى الدولة الكبرى، ولابد من مواجهة الحقائق ومعرفة العبء الملقى علينا لمواجهة التحدى.

ولابد من وقفة شجاعة، فالتحدى عندنا نحن، ويبدأ من توقف التنمية، والتخلف فى التصنيع، وهذه امور، سوف ندفع ثمنها فى نهاية الامر، فيما لو استمر الحال على ماهو عليه.

وهناك تقارير تؤكد انه فى القرن الواحد والعشرين سوف تختفى الدول التى يقل عدد سكانها عن ١٠٠ مليون نسمة ومنها كما نرى الان (الصومال - بوروندى - رواندا - ليبيريا - سيراليون - تشاد).

واذا كان مستقبل العرب متوقفا على التكامل الاقتصادى، فنحن نطالب بهذا التكامل كضرورة تنمية، فلدينا الثقافة المشتركة . واللغة الواحدة التى تسهل عملية التكامل، على عكس ما نجده فى الاتحاد الاوربى، فلديه خمس لغات رسمية

ولابد ان تنشر جميع التقارير بهذه اللغات الخمس، ولنا ان نتصور عبء الترجمة ، والميزانيات التي ترصد لطباعتها واعداد كميات كبيرة من الورق لذلك .

اماعندنا في الوطن العربي ، فيمكنك ان تسير من البحرين الى الدار البيضاء رغم اختلاف اللهجات ، وتتفاهم بسهولة، فـاللغة المكتوبة واحدة، والأفلام السينمائية،خصوصا المصرية، جعلت من عادل امام بطلا قوميا، وهذا بلاشك سند كبير لعملية التكامل.

ايضا التكامل الاقتصادى العربى ينبغى ان يكون سهلا، فنتعاون على انشاء مشروعات جديدة تحقق ما نسميه التنمية التكاملية بهدف رفع مستوى المعيشة في المنطقة العربية كلها، لأنه لابد لكل دولة تدخل ضمن هذا التكامل ان تحقق عائدا، أكثر مما كانت تحققه قبل التكامل، لأن الهدف من هذا التكامل الاقتصادى . انه يتم بناء على مصلحة . وليس سيطرة دولة على بقية الدول الأخرى الداخلة ضمن التكامل، وكلنا لنا مصلحة، لأن العائد عن هذا المجهود المشترك، سوف يعم علينا جميعا بدءا من الصومال وموريتانيا وكل البلاد العربية الفقيرة.

إن وجودنا واستمرارنا مرتهن بالتكامل الاقتصادى العربى. وهذه ضرورة حياة او موت بالنسبة لمجموع الشعب العربى، الغنى والفقير على حد سواء . وإذا لم نفعل هذا، فعلى سبيل المثال سوف ينتهى البترول فى عدد من الدول العربية البترولية، وتتحول المدن الخليجية البترولية الى مدن اشباح.. فكل اهل تلك المدن لديهم أموالهم فى الخارج فكيف يعيشون فى هذه المدن الاسمنتية . بعد ان ينضب البترول.

ولابد ان تصبح كل المشروعات الكبرى مشروعات عربية مشتركة . وليس بالضرورة ان تشترك الدول العربية كلها فى كل مشروع يقام، فيمكن ان يضم المشروع ثلاث او اربع دول تشارك فيه. وليس المطلوب أن تنفذ الدولة او القطاع العام هذه المشروعات المشتركة، فأملى كبير جدا فى القطاع الخاص العربى الذى لو أعطى الفرصة كاملة فسوف يعظم الربح. ويعمل على مواصلة نجاح مشروعاته.

اما اذا أدخلت الحكومات فى هذه المشروعات فسوف تدخل فى مسائل شخصية ، وتعمل على تعيين المحاسيب والاقرباء واذا تغيرت هذه الحكومات فسوف تتوقف هذه المشروعات.

ومن هنا فان القطاع الخاص العربى مسئول ، وعليه جانب كبير جدا من عملية التكامل الفعلية، وهو نشيط يعمل بكل قوته وطاقته بلا تدخل سياسى. فالتدخل السياسى فى مثل هذه المشروعات الكبرى ليس له منطق، اما تدخل رجل الاعمال فله منطق، لأنه محكوم فى النهاية باعتبار أساسى هو زيادة الربح.

وإذا اتفق العرب على خطة طموحه للاستثمار تهدف للنهضة الشاملة بالوطن العربي فسوف تسترد الحضارة العربية قدرتها على انتاج المعرفة، واذا اصبحنا منتجين للفكر وللمعرفة وللتكنولوجيا . فبالتالى سوف نستطيع ان نتعامل فى ظروف منافسة القوة فيها متكافئة. لكن اذا استمر اعتمادنا على تكنولوجيا مستوردة كاملة، فلن نفعل شيئا على الاطلاق.

ومن دواعى التكامل الاقتصادى العربى ضرورة بناء قاعدة علمية وتكنولوجية ، واقتصاد اى دولة عربية على حده لا يحتمل ذلك بالكامل، لكن لو تم ذلك المشروع على مستوى الدول العربية، فسوف يكون ذلك ممكنا، وبالتالى سوف يعود علماؤنا العرب الذين يعملون فى الخارج مثلما حدث فى الصين ، حيث اتى اليها علماؤها الذين كانوا يعملون فى وحدات نووية فى العالم .. عادوا الى الصين وصنعوا القنبلة النووية.

ولو ان العرب فتحوا اسواقهم، واصبح لهم هذا المستقبل وهذا الطريق . فسوف نستطيع فى مدة قصيرة نسبيا بناء قاعدة علمية وتكنولوجية . خاصة اذا علمنا ان أسوأ أنواع التبعية ، هى التبعية فى المعرفة، لأن الذى يحكم على الشيء بالجودة من عدمها، هو شخص اخر غيرك وليس لدينا فى البلاد العربية شركة صناعية كبرى بها وحدة خاصة بالتكنولوجيا . تبحث عن كيفية عمل الالات الموجودة لديها، او امكانية التطوير بها، عن اى اكتشاف حديث من الممكن اضافته للبرامج الموجودة لديها او لابد من تغيير النظام الحالى الى النظام الحديث.

ومأساة مصر ان لديها مهندسين متعطلين عن العمل، والعقبة الاساسية فى تصنيع اى دولة فى العالم الثالث، هى ندرة المهندسين ، ومعنى وجود مهندسين لانجد لهم عملا فهو دليل قاطع اننا لا نصنع!

وحينما اترك هذا الكم الكبير من المتعلمين بلا عمل ، فاننى ابدد الاستثمار الذى انفق فى تعليمهم، وبالتالى لابد من ايجاد عمل لهؤلاء المتعلمين ، والمجموعة الوحيدة التى جلبت لنا عائدا، هى تلك التى ذهبت للعمل فى دول الخليج وتحول سنويا ما قيمته ستة مليارات دولار.

● التعليم أفضل استثمار

وبالتالى فان ما انفق على التعليم فى ايام عبدالناصر حقق عائدا كبيرا تشهد به ارقام التحويلات ، وفى رأيى ان احسن استثمار ، هو الاستثمار فى الانسان .. فى تعليمه وصحته وقدرته الانتاجية ، وخصوصا فى مصر.

ان الصناعة هى مستقبلنا الان. على عكس الزراعة ،مع تزايد السكان، وتضاؤل المساحات المزروعة، فنحن ناكل الأرض التى نزرعها ، ونحولها الى مساكن اسمنتية، وليس ذلك فى المدن فقط، ولكن

ايضا فى القرى، ولو كانت هناك سياسة لاسكان الناس فى الصحراء ، ووجود خطط حقيقية للتعمير، لكنا قد حافظنا على الأرض الزراعية.

فالأرض الزراعية فى مصر تضيق وتقل مساحتها عاما وراء الاخر، ونرهقها، بالأسمدة والمبيدات وبالتالى فإن جودتها تتراجع وانتاجيتها تتراجع، ونلوث مياه النيل، وهو المصدر الوحيد للشرب عندنا، وبالتالى نرتكب عملية انتحار جماعى لكل ما يحدث حاليا.

فليس هناك تصنيع بالمفهوم الواسع ، والزراعة امكانياتها تقل، والأرض الزراعية تتدهور والمياه نفسدها وهذه هى مشاكل مصر الحقيقة، وليست الخصخصة ولا المصمصة!

والمستقبل من هذا المنطلق مظلم ، وأصبح الجهد المطلوب منا فى مصر مضروبا فى (أس ١٠) فى التصنيع وفى التعليم وفى الانتاج وفى التدريب وفى البحث العلمى، وكل هذا فى اطار تعاون مع اكبر عدد ممكن من الدول العربية فى توجه نحو سوق واحدة، وهذا لن يصدر بقرار، بل يتم من خلال اجراءات ومراحل عديدة.

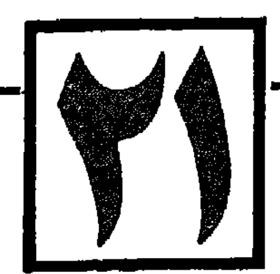
ان الثورة العلمية والتكنولوجية تتطور بسرعة مذهلة ولابد من ملاحقتها.

● فى مجال الاتصالات ووجود شبكات المعلومات العالمية مثل الانترنيت وغيرها وبالتالى لابد من اعادة التفكير فى كل ما يحدث فى هذا المجال، فلم يعد هناك شيء ممنوع واخر غير ممنوع.

● التقدم فى مجال الهندسة الوراثية . وهو مجال جديد، وتشتد المنافسة فيه الآن ونحن ننظر اليه بحذر ، لكن لابد من دخول هذا المجال، وينبغى ان نركز على ما نحتاج اليه فى هذا المجال.

● مشروع الطاقة الشمسية لابد من الاهتمام به وللاسف الشديد فان هذا المشروع لا يأخذ اهتماما كافيا، لان الدول التى لديها اولويات بحث، لا تضع الطاقة الشمسية فى المقدمة، نظرا لان الدول التى تنتج البترول . تحارب المشروع، كما ان دول الغرب ليست لديها حاجة ماسة للطاقة الشمسية بسبب ظروف الطقس وانعدام ظهور الشمس لفترات طويلة على مدى السنة. والشمس هى كنزنا الوحيد الذى لن ينضب على مر العصور، ولو نفذنا هذا المشروع الضخم. فسوف نستطيع تحلية مياه البحر، واستخدامها فى الزراعة، وفضلا عن بقية الاستخدامات الاخرى للطاقة الشمسية .

إن المستقبل أمامنا، ولدينا الفرصة الكاملة لكى ننطلق من أجل تحقيق انطلاقة كبرى، نعتمد فيها على احدث نظريات البحث العلمى ، والتطور الهائل فى مجال جمع البيانات والنماذج الرياضية التى تحل من خلال أستخدام الكمبيوتر، ومصر لديها العلماء والأجهزة الحديثة التى تحقق ما تهدف إليه من تطور وازدهار.



مستقبل الاسلام السياسى فى العالم العربى

بقلم: هانى عبدالمنعم خلاف

■ **عرف تاريخ الدول والممالك العربية والإسلامية طوال مايزيد علي الألف وأربعمائة عام الماضية مراحل عديدة من الصحوة والانبعاث والتجديد يعقبها مراحل من الخمول والضعف والسكون. وقد اتخذت معظم حركات الصحوة مضامين دينية وفكرية وتربوية في معظم الأحوال، ولم تتجاوز هذه الحركات حدودها إلي حيث مناطق التغيير السياسي الشامل إلا في حالات الجهاد الديني المختلط بالوطنية ضد قوي الاستعمار الأجنبي والنفوذ الخارجي عموما في بعض حالات المقاومة الفكرية والعملية لبعض حالات الاستبداد السياسي من جانب الحكام والولاة.**

وتعتبر حركة التغيير الاسلامى التى تشهدها الآن عدة مواقع فى دول عربية وإسلامية حركة من نوع جديد ليس لها فى سوابق الخبرة التاريخية نظير مطابق حيث انها لاتستهدف فقط ايقاظ الوعى الدينى وتنشيط الفكر والاجتهاد واعادة تربية المسلمين وانما تغيير الاوضاع والنظم السياسية والدستورية التى يقوم عليها البناء الراهن للدول العربية والإسلامية بدعوى استعادة او احياء نظام الخلافة الاسلامية وتطبيق الشريعة الإسلامية بدلا من النظم والقوانين القائمة حاليا فى هذه البلدان.

وقد بلغت تطورات هذه الدعوى وتحركات أصحابها فى عدة بلدان عربية مرحلة تفرض على كل باحث وكل مواطن

وزير مفوضى بالخارجيه المصريه



مسئولية اكتشاف مواقع الأقدام واستطلاع احتمالات التطور فى المستقبل القريب والمستقبل البعيد .

والبحث الرئيسى المطروح هنا يمكن ان ينصرف إلى سؤالين :

الاول : هل لهذه الحركات الاسلامية مستقبل فى الساحة السياسية العربية ؟ أم أن مصيرها الخفوت والتوقف ثم الانزواء ؟ وهل هناك سيناريو ثالث للتطورات المحتملة ؟

والثانى : إذا كان لهذه الحركة السياسية نصيب من التمكن والذيوع فأى شكل من أشكال المستقبل يمكن أن ينتظر الشعوب والبلدان العربية فى حياتها الوطنية وفى علاقاتها الخارجية ؟

وقبل الشروع فى الإجابة عن هذين التساؤلين يلزم تقديم عدة ملاحظات ضرورية عند التعامل مع مختلف التحليلات والنتائج .

الملاحظة الأولى : إن محاولة رصد المستقبل وقياس الاحتمالات فى حد ذاتها ليست من الأمور المخالفة للنصوص أو

التقاليد الإسلامية ، ولا هى مصادرة على إحدى الخصائص التى انفردت بها الذات الإلهية فى «علم الغيب» و«تسيير الكون» و«تحديد المصائر» وإنما هى نوع من الإعمال الأمين لدعوة الله - تبارك وتعالى - إلى عمل الحسابات الواجبة للغد ورصد القوى وتدبير الأمور . قال تعالى فى قرآنه الحكيم : «ولتنظر نفس ما قدمت لغد» . وقال تعالى : «.. فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا» . وهى آيات فى المبنى والمعنى واضحة الدلالة فى الدعوة الى استحضار المستقبل وتمثله فى الوعى والسعى واجراء ما يلزم له من عدة وتحصين وتدبير .

والملاحظة الثانية : إن عملية تحليل التطورات الراهنة ومحاولة رصد احتمالاتها المستقبلية يمكن أن تتم من خلال منهجية عملية محايدة دون أن تقترن بمواقف أو تفصيلات لهذا السيناريو أو ذاك . وكلما كان الباحث محايدا فى معالجته لهذا الموضوع جاءت تحليلاته والنتائج التى ينتهى اليها أكثر دقة وشمولا فى توصيف الحال ورصد المآل .

والملاحظة الثالثة : إن الحركات الإسلامية فى عالمنا العربى المعاصر وبرغم مرجعيتها الرئيسية الواحدة فى القرآن والسنة - لا تنهج نهجا موحدا فى عموم الاقطار العربية . بل إن لكل قطر عربى ملابساته وظروفه الخاصة التى تؤثر فى تشكيل أولويات التغيير المطلوب فيه ، وفى تشكيل مناهج التحرك الإسلامى وأساليبه ومراحله . ومن المؤكد أن الاختلافات بين نظم الحكم القائمة فى البلدان العربية والاختلافات الملحوظة فى مناهجها السياسية ونصيبها من النجاح والإخفاق فى خططها التنموية الى جانب تباين الظروف والمشكلات الموضوعية الأخرى فيما بينها، واختلافات الاوضاع الاجتماعية والتركيب السكانى ودرجات التطور الاقتصادى والثقافى .. بالاضافة الى تباين نوعية العلاقات والتوجهات الخارجية لكل منها .. كل ذلك من شأنه تحجيم أية استنتاجات عامة وتقييد أية محاولة للخلوص بتوقعات متطابقة بالنسبة لعموم البلدان العربية .

وقد يحتاج الأمر الى دراسات قطرية أكثر تفصيلا لرصد وفحص الابعاد الخاصة بكل قطر حتى تكون احتمالات المستقبل بالنسبة لكل قطر اكثر دقة ومع ذلك قد يمكن القول فى تعميم لا يخلو من بعض المفارقات والاستثناءات - وباستقراء واقع واتجاهات تطور الحركة الإسلامية عموما فى عدد من الدول العربية وانعكاسات هذا التطور على مواقف مختلف الاطراف الاخرى الداخلية والعربية والدولية .. أن هناك ثلاثة سيناريوهات لمستقبل هذه الحركة الإسلامية فى البلدان العربية .

الأول : وهو سيناريو التراجع والانزواء التدريجى .

الثاني : وفيه يتقدم مشروع التغيير الإسلامى نحو التمكن والذيوع .

الثالث : وفيه تستمر عناصر الجذب والطرد الراهنة حول التغيير وعدم التغيير دون نتائج حاسمة لأى من الاتجاهين .

● **سيناريو التراجع والانزواء التدريجي :**

فى تقدير البعض ان هناك بعض العوامل التى تجعل مصير الحركات الإسلامية السياسية الراهنة مشابها لمصير غيرها مما سبقها من حركات للتجديد والصحوة فى التاريخ الإسلامى.

فالبعض يرى ان مثل هذه الحركات التغييرية ظاهرة استثنائية أو طفرة عارضة فى نسق التاريخ الاجتماعى للعرب والمسلمين تبرز دائما عند استفحال الأزمات فيلوذ الإنسان بالتدين ويلجأ الى تجريب مالم يجرب فى حياته القريبة ويتمسك متشددا بكل ما يناقض أسباب أزمته القائمة ثم لا يلبث المجتمع أن يعود سيرته الأولى بعد زوال الأزمة أو حين تتشكل له بمقتضى تطور الأشياء- أزمة جديدة بفعل واقعه الجديد . ويبدو ان- أصحاب هذا الاحتمال يقيمون توقعاتهم على أساس تماثل حركات التغيير الإسلامى الراهنة مع حركات التجديد الفكرى والاصلاح الدينى التى سبقت فى التاريخ العربى الإسلامى وهو تماثل غير دقيق وغير صحيح .

وهناك آخرون من اصحاب هذا التوقع يرون أن الحركة الراهنة مآلها الى انزواء ليس فقط على اساس حكم الطبائع وميل الناس فى الغالب الى التوسط والوسطية ، وانما ايضا بسبب ما يمكن ان تواجهه تلك الحركة من أعطال ومشكلات بعضها ذاتى يتعلق بمدى التجانس والتناسق الذاتى والائتلاف بين قواها الفكرية وقياداتها السياسية وبعضها الآخر يعود الى موجات التصدى والرفض التى يمكن أن تواجهها تلك الحركات من جانب اصحاب الثقافات والمصالح الأخرى المغايرة التى قد ترى فى هذه الحركات خطرا زاحفا يهدد قيمها وحضارتها وانجازاتها ومصالحها فيضطر هؤلاء الى مقاومة نمو الحركة واجهاضها أو على الأقل احتوائها وشغلها بكل اساليب التصدى والاحتواء والتشتيت المعروفة وغير المعروفة . ويرصد البعض فى هذا الاطار بعض التنظيرات والتأصيلات القانونية والسياسية والفكرية التى بدأ إعدادها فى بعض محافل التنظيم الدولى والترويج لها داخل اطارات العلاقات الثنائية والجماعية مما يقدم توصيفاً أو تكييفا لظاهرة المد السياسى الإسلامى الحادثة الآن فى بعض البلدان العربية على انها تهديد للشرعية الدولية ومخالفة للقوانين والمبادىء المتفق عليها بشأن (الترابط والتضامن الكونى) و(الاعلان العالمى لحقوق الإنسان) وخاصة عندما يتعلق الأمر بتطبيق النظريات

والبرامج الإسلامية بشأن (علاقة دار الإسلام بدار الحرب) و(الموقف من البضائع الأجنبية فى الأسواق الإسلامية) و(تطبيق حدود الشريعة الإسلامية على الاجانب) و(انعكاسات تحريم الربا على أنشطة وأموال البنوك الأجنبية فى العالم الإسلامى) و(احتمالات تأثر ودائع المسلمين فى البنوك ومؤسسات التمويل الغربية) .

هذا السيناريو التراجعى والانزوائى يفترض فى طياته حدوث عدد من العناصر الجديدة أو التحركات المضادة التى تضاف الى الموقف الراهن .

(أ) نجاح النظم القائمة حاليا فى البلدان العربية فى تجاوز المشكلات المعيشية الاقتصادية منها والسياسية والانطلاق بشكل دراماتيكى على طريق الوفرة والحرية والعدالة الاجتماعية والتصحيح الدينى والشرعية المستنيرة وبطريقة يقتنع بها ويلمسها الجمهور العريض فى تلك البلدان مما يجعل مبررات التغيير السياسى غير ذات جاذبية ولا مضمون حقيقى .

(ب) حدوث اعطال وانقسامات داخل صفوف هذه الحركات مما يؤدى الى تشتيت جهدها واجهاض مساعيها وربما تآكلها ذاتيا بفعل التصفيات وصراعات الأشخاص والجماعات .

(ج) حدوث مواجهات ساخنة بين نظم الحكم القائمة فى البلدان العربية حاليا من جهة، وبعض الدول والقوى الإسلامية فى العالم العربى من جهة أخرى مما يمكن ان يزيل عن هذه الحكومات العربية بعض النعوت والاتهامات التى تشيع فى أدبيات ومنشورات الحركات الإسلامية المعارضة لها وهو ناقد يجمد أو يؤجل نوعية الصراع السياسى الداخلى الحالى أو لعله يتيح فرصة لمصالحات توفيقية وتاريخية بين أصحاب التيار الإسلامى وأصحاب التيار الوطنى .

● سيناريو التقدم الحركى وتفعيل الحضور السياسي :

هذا السيناريو يعرض حركة التغيير السياسى الإسلامى وقد زاد تمكنها ونفوذها بزيادة انصارها ومؤيديها فى عموم الشرائح الاجتماعية والمهنية وخاصة بين ذوى المراكز المؤثرة فى الجهاز الحكومى ومؤسسات التشريع والقضاء والأمن الوطنى ، وزادت اطروحاتها الدعائية ومنشوراتها نضجا وتجانسا ذاتيا باستكمال المجاهيل الكثيرة الناقصة فى برنامجها السياسى من أجل التغيير . وفى هذا السيناريو ايضا قد تجرى بعض الاتصالات التمهيدية والسرية بين قيادات هذه الحركات الإسلامية ومراكز التأثير القوية فى النظام الدولى وبلدان الجوار الاقليمى بحيث تطمئن كل الأطراف المعنية على نصيبها من مصالح التغيير ومصالح الأمن والامان خلال هذا التغيير .

ومثل هذا السيناريو يفترض لتحققه

استفحال مشكلات الحياة اليومية وبلوغها مرحلة التعجيز والاحراج للحكومات القائمة كما يفترض ايضا لتحققه ان تصل حالة عدم الاستقرار الامنى فى البلاد مرحلة عالية يحدث فيها مساس واضح ومنظم بالمصالح الأجنبية وأمن الرعايا الاجانب مما قد يدعو الجهات الخارجية الى إعادة التفكير ومراجعة موقفها من اطراف الصراعات الداخلية فى البلدان الإسلامية .

كذلك يفترض هذا السيناريو ان يؤدى نجاح القوى الإسلامية فى إحداث التغيير المطلوب في موقع ما الى تنشيط للقوى المماثلة لها فى مواقع عربية أخرى كما يمكن أن تؤدى عمليات الاستفزاز واتجاهات التمييز العنصرى والدينى الراهنة فى أوربا وأمريكا ضد المسلمين والعرب إلى تسريع التفاعلات الداخلية بالبلدان العربية المعنية لصالح الاتجاهات الإسلامية المتشددة التى يمكن لها استغلال تلك الاستفزازات والصمت الرسمى إزاءها من جانب النظم الحاكمة فى المزايدة على هذه النظم الوطنية واحراجها على مستوى الشارع السياسى.

السيناريو الثالث : التغيير ولكن من خلال المؤسسات القائمة :

وهذا السيناريو هو الاقرب الى التحقق خلال السنوات المتبقية من القرن الراهن . وفيه تستمر عناصر التغيير الإسلامى فى محاولتها التى تستهدف احراج النظم القائمة داخليا وخارجيا ومحاولاتها اثبات عجز هذه النظم عن القضاء كليا على بؤر وجماعات ودعاوى التغيير فى الوقت الذى تستمر فيه اجهزة الحكم فى البلدان العربية فى إحكام قبضتها الامنية على الشارع السياسى ، وتعزيز عمليات التنسيق الأمنى والسياسى فيما بينها على المستوى العربى ومع الاطراف الاجنبية .

وفى هذا السيناريو يمكن ان يشهد العالم العربى بعض التغييرات النوعية فى بعض السياسات والمواقف والممارسات السياسية للنظم العربية الحالية وبما يجعلها اقرب الى تحقيق بعض جوانب التغيير المنشود ولكن عن طريق المؤسسات القائمة بالفعل . وهنا قد تظهر مثلا بعض النغمات الدينية الجديدة فى برامج الإعلام الداخلى والمواقف السياسية الخارجية الداعمة لقضايا الإسلام والمسلمين ، وتطوير بعض سياسات وبرامج التعليم وتنقية بعض الممارسات الإدارية والتنفيذية من بعض ما يخالف التقاليد الإسلامية ، الى جانب بعض التوجهات الجديدة فى السياسات الاقتصادية والانمائية بهدف استرضاء الطبقات الشعبية والفئات المحرومة والمتضررة .

كما قد يشهد هذا السيناريو فى اطار اهداف التوازن والاحتواء امكانية ظهور أو إظهار قوى جديدة على المسرح السياسى مما تتسم توجهاتها بنبرة مستنيرة

ومتوازنة فى التدين والوطنية .

● المستقبل في ظل التغيير الإسلامي :

اهتمت الحركات السياسية الإسلامية المعاصرة فى ادبياتها ومنشوراتها المبشرة بالتغيير فى العالم العربى بالتركيز على عدد من اولويات التغيير التى يقع معظمها فى دائرة الوضاع والنظم والسياسات الداخلية . فنراها مثلا تركز على مسألة احلال الشريعة الإسلامية محل الدساتير والقوانين المدنية والجنائية القائمة ، وتركز فى مواضع اخرى على التغيير فى سياسات التعليم والإعلام والتنمية الاقتصادية والنظم المصرفية المالية ومعايير التوزيع والعدالة الاجتماعية واسلوب الشورى وشروط الولاية والإمامة.

رغم ان البدائل المطروحة حتى فى هذه الشئون والنظم الداخلية لاتزال غير واضحة وغير دقيقة فيما يتعلق بآليات التغيير وأدواته ومراحله وكوادره الا فإن المجال الاكثر غيابا والأبعد عن الوضوح أو التوضيح هو مجال العلاقات الخارجية للدول فى ظل الشعار الإسلامى .

هناك مجاهيل كثيرة بالنسبة لمستقبل السياسات الخارجية والارتباطات الدولية للدول العربية حين يحدث فيها التغيير الإسلامى .

● ما الموقف مثلا من المعاهدات والالتزامات القانونية السابق ابرامها مع الأطراف الخارجية ؟ وهل يختلف الموقف بالنسبة للارتباطات السابقة مع الدول والمنظمات الإسلامية عن الموقف للارتباطات مع الدول والمنظمات غير الإسلامية ؟

● ما الموقف بصفة خاصة - من ميثاق الامم المتحدة والاعلان العالمى لحقوق الإنسان ؟

● ما الموقف من افكار ومبادىء التعاون الدولى بما فى ذلك المعونات الاجنبية ؟

● الى اى مدى يمكن ان تختلف الخطوط والمواقف السياسية والدبلوماسية ازاء ابراز القضايا الدولية المطروحة ؟

● ماهو شكل وحدود وآفاق العلاقات التى يمكن ان تنشأ مع الاقليات الإسلامية الموجودة فى بلدان غير إسلامية ؟

● ما الموقف ازاء الشركات والبنوك والاستثمارات والجاليات الاجنبية الموجودة داخل البلاد ؟

● الى اى مدى يمكن ان تتداخل أو تتعارض شعارات (التضامن الإسلامى) و(التضامن العربى) و(التعاون الدولى) وفى حالة التعارض أى الشعارات يحظى بأولوية الرعاية ؟

● كيف يمكن المواءمة بين معيارى (الاخوة الإسلامية) و(المصلحة الوطنية) ؟

● ما الموقف من مبادىء حرية التجارة وحرية انتقال الاشخاص والسفر وحرية تدفق المعلومات وانسياب الرسائل الإعلامية ؟ علما بأن هناك ارتباطات دولية ومعاهدات ابرمت فى كل من هذه الموضوعات وقد انضمت معظم البلدان العربية اليها .

وحين نسوق هذه التساؤلات ـ وهناك غيرها الكثير ـ انما ننطلق من خلفيات افرزتها تجارب دول عديدة رفعت الشعار الإسلامى ـ وبعضها رفعه عن طريق التغيير الثورى الا انها ما لبثت ان أدارت سياساتها الخارجية وعلاقاتها مع الاطراف الدولية بنفس المنطلقات ونفس المناهج التى تتبعها باقى الدول الأخرى .

وفى دراسة نشرتها دورية السياسة الدولية التى تصدر عن مركز الدراسات السياسية الاستراتيجية بمؤسسة الاهرام فى القاهرة تحت عنوان (السلوك التصويتى للدول الإسلامية فى الامم المتحدة) جاء (انه بعكس ما تصوره البعض وفقا لمفهوم «الأممية الإسلامية» أو «الاخوة الإسلامية» من امكان اعتماد الدول الإسلامية لتكييف خاص لمبدأ عدم التدخل فى الشئون الداخلية «لم يحدث ان ارتبطت مواقف العواصم الإسلامية مما يحدث مثلا داخل بعضها الآخر من تشديد القبضة على الجماعات الإسلامية أو بتصفية قيادتها ـ ولا تأييد التحولا الإسلامية التى حدثت داخل بعض الدول ، حيث اعتبرت هذه الأمور من صميم الشئون الداخلية التى لا يجوز للبلدان الإسلامية الأخرى ان تبدى بخصوصها رأيا أو مطلبا) .

والملاحظ ايضا ان مواقف واتجاهات وإحجام العلاقات الدولية للبلدان التى ترفع الشعار الإسلامى حاليا لا يتحدد طبقا لمواقف الدول الأخرى من قضايا الإسلام والمسلمين، فإيران الإسلامية مثلا لا تتردد فى تعزيز علاقاتها مع روسياً مهما كان الموقف الروسى مخالفا لمصالح المسلمين وحقوقهم فى البوسنة والهرسك والشيشان هذا فضلا عما أثير من أنباء حول صفقات السلاح التى حصلت عليها ايران من إسرائيل خلال الحرب الايرانية العراقية . والسعودية مثلا ـ تضطرها ظروفها الى تقبل وجود قواعد عسكرية امريكية على اراضيها التى تضم الاماكن الإسلامية المقدسة وتقبل فى نفس الوقت اقامة علاقات دبلوماسية مع موسكو . وعلى العموم فليس هناك ما يدل على احتمال انتهاج الدول الإسلامية لمبادىء مغايرة لمبدأ سيادة المصلحة الوطنية والاعتبارات الاستراتيجية الخالصة كمعيار لإدارة العلاقات الخارجية طالما ظلت موازين القوى الدولية على ماهى عليه الآن داخل العالم الإسلامى وفى العالم على اتساعه .

مصر والعالم فى القرن ٢١

مستقبل إسرائيل
مأساة الوطن المستحيل

بقلم : مصطفى الحسينى

■ صفة الوطن أن يكون تاما ونهائيا لمواطنيه. تاما تعنى أن لا تعتقد جماعة معتبرة من المواطنين أن شيئا من أرضه يقع خارج حدوده السياسية المعترف بها. ونهائيا تعنى أن لا جماعة معتبرة من المواطنين تتطلع إلى غيره وطنا لها.

مثال هذا مصر للمصريين وفرنسا للفرنسيين وبريطانيا للبريطانيين علي تعدد أعراقهم، وهكذا.

مصر للمصريين وطن تام ونهائى، فلا أحد من المصريين - فضلا عن جماعة معتبرة منهم - تعتبر الوطن منقوصا، حتى دعاة وحدة وادى النيل وأنصارها، فلم يدخل فكرهم يوما أن مصر لاتتم إلا بالسودان ، وإن جاز القول أنهم اعتقدوا أنها «تزداد تماما»، وإن كان الأرجح أن صياغتهم لتلك الدعوة ومعتقدها ألبست المصلحة ثوب وحدة الوطن والتراب، بحكم أن المصالح ثابتة وغلابة ولامتناهية ومصكوكة فى التراب معجونة بمياه النيل.

وحتى دعاة القومية العربية وأنصارها، لم يدر يخلدهم أن مصر وطن ناقص أو منقوص يكون امتداد التراب العربى يقع خارج حدوده، إنما ربما قد رأوا فى الجامع العربى حافظا للهوية، أو مبررا لدور مصر فى «مجال حيوى» لاغنى

عنه، أو تعويضا عن ما يعرفون أن عليهم بذله نودا عن بيئة تربطهم بها وشائج تاريخية ودينية وثقافية عميقة، وفي سبيل تحقيق قدر مطلوب من وحدة القياس مع شعوبها، أو صياغة أرقى للمصلحة المشتركة تتنزه بها عن عارض الغرض.

وهذا هو معنى أن مصر «وطن تام» للمصريين.

أما معنى نهائيته فأيسر أمرا، فلاجماعة معتبرة من المصريين تتطلع إلى وطن آخر بديل للوطن ، فمن يهاجرون يعودون، ومن يهاجرون هجرة نهائية أفراد من الجماعات كلها، لكنهم ليسوا جماعة بعينها ولا من جماعة بذاتها.

ولقد استغرق المثال المصرى على تمام الوطن ونهائيته ما استغرق من سطور هذا المقال، رغم أن هذا المثال ليس موضوعا له، إنما لأنه هو المثال القريب الحميم لتوضيح فكرة قد تتبدى غير واضحة.

— ١ —

أما الموضوع فهو إسرائيل:

هل هى وطن لمن تقول دعواها وعقيدتها أنهم مواطنوها ؟

هل يمكن أن تصبح وطنا لهم ؟

هل يمكن أن تبقى كذلك أن هى أصبحت ؟

ما يبرر طرح هذه الأسئلة وعلى هذا النحو أن الحركة الصهيونية، وعاء العقيدة التى قامت عليها الدولة قد انتحلت صفة «حركة التحرر الوطنى» . وبهذا الانتحال وصفت هدفها بأنه «اعادة إقامة الدولة اليهودية فى وطن اليهود» أو «فى أرض الميعاد» أو فى «أرض إسرائيل» على تنوع الصياغات دون اختلاف الدلالات وعلى ما يجمع بين هذه الصياغات من إبقاء «تراب الوطن» محاطا بالغموض ، فتحديده غيبى وحدوده مغيبة.

أى أن إسرائيل تزعم أنها «وطن اليهود» أو أنها تريد أن تكون كذلك، أو فى نهاية المطاف ستكون. ولايرضى عقيدتها أن تكون «وطنا لليهود» بما يعنيه هذا الوصف الأخير من أن تكون إسرائيل وطنا لليهود ولغيرهم، وفى الوقت ذاته أن تكون لليهود أوطان أخرى غير إسرائيل.

أنظر الجدل الدائر حول الحفاظ على «يهودية الدولة» وهو الجدل الذى يدور بين «الحمائم» السياسيين الذين يعارضون ضم الأراضى المحتلة «محافظة على يهودية الدولة» من طغيان محتوم لأعداد غير اليهود، وبين «الصقور» السياسيين الذين يدعون إلى التوسع أو «استكمال التراب الوطنى» وطرد السكان غير اليهود، وأيضا «محافظة على يهودية الدولة».

أنظر أيضا فى علاقة «الدولة» اليهودية و«الحركة» الصهيونية باليهود الذين لم يصعدوا «يهاجروا» إلى إسرائيل، تراها علاقة تعيير وصل إلى واحد من حدين لئيمين، بن جوريون يدعو إلى «التسامح» مع هؤلاء و«الصبر» حيالهم. بينما مناحيم بيجين يعيرهم بنقص يعيب «يهوديتهم»

وهى فى الحالين علاقة ابتزاز، فعليهم أن يفعلوا ما تأمرهم به إسرائيل أو الحركة الصهيونية وأن يدفعوا ما تطلبه منهم ممتثلين صاغرين

- ٢ -

إسرائيل إذن - تزعم أنها «وطن اليهود»

وعلينا أن ننظر فى هذا الأمر وأن نرى إلى ما له من أوجه.

وطن اليهود فى عقيدة الدولة الصهيونية تعنى أنها وطن اليهود جميعا، ولذلك يقول إعلان قيامها أنها «سوف تفتح أبواب الوطن على مصراعيه أمام كل يهودى» وأنه «سوف تفتح دولة إسرائيل أبوابها أمام الهجرة اليهودية لتجميع شمل المنفيين».

ولقد أوفت إسرائيل بما وعدت، ولكن أغلبية اليهود لم يذهبوا، لم يهاجروا إليها، لم «يصعدوا» إلى «أرض الميعاد» فمازال اثنان على الأقل من كل ثلاثة يهود يعيشون «خارج الوطن» ولا ينوون «العودة» إليه، لكن إسرائيل تعتبرهم «منفيين» ، أى أنها تعتبرهم «مواطنين» وتعتبر نفسها «وطنا» لهم بالمآل .

أى أنه بهذا الوجه من أوجه هذا الأمر، فإن «إسرائيل قد أصبحت «وطنا» يعيش أغلبية «مواطنيه» خارج حدوده، حاملين جنسيات أخرى، منقسمين فى «مواطنات» أخرى، ولاينوون «العودة» إلي ذلك الوطن، وأقصى ما يقول بعضهم صادرا عن «ورع صهيونى» أن إسرائيل هى «وطنهم الروحى» ، أو أقصى ما يقول بعضهم صادرا عن «خوف يهودى» أن إسرائيل هى «وطن الملجأ الأخير». يقصدون «الملجأ الأخير» أن تحققت أسوأ مخاوفهم، واندفع - مرة أخرى - إلى العلن والعمل ما هو مستكن فى الحضارة المسيحية الأوروبية من عداء لليهود يتسمى «العداء للسامية».

إسرائيل إذن ، وعلى خلاف دعاواها جميعا، ليست وطنا - لاتحقيقيا ولا موهوما، لا راهنا ولا مأمولا، لأغلبية ساحقة من مواطنيها المفترضين.

فلننظر إذن فى مواطنيها المقيمين، واحد على الأقل من كل عشرة منهم يعيش - نهائيا - «خارج البلاد، وإن كان يحتفظ بجنسيتها وما إلى ذلك من سمات، والمقصود هنا هم المواطنون اليهود. ويقول بعض مفكريهم أن من أبرز خواص «الشعب الإسرائيلى» ، أى هؤلاء اليهود المقيمون فى الدولة، والتى لايصارح أحد نفسه بها، أن «عقدة الحصار» تستحكم بهم، فالدولة انشئت محاصرة، ولذلك ما أن يجد واحدهم فرصة للفرار حتى يهرب متظاهرا بنية العودة حتى لايواجه نفسه بالتخلى عن اسطورة الانتماء إلى «أرض الميعاد»، وهى الاسطورة التى تشكل قوام وجدانه.

حتى أن بعض الساخرين المتشائمين من هؤلاء يقولون أن «السلام» مع العرب،

وانتهاء الحصار يهدد الدولة بهجران سكانها أو معظمهم، ففى ظل الحصار غادرها الأكفاء والأذكياء ما لم يكونوا متعصبين.. وما لم يكون عظما من عظام المؤسسة الصهيونية، وما أن يحل السلام حتى يجد الأقل كفاءة وذكاء فرصتهم فى القرار أيضا، حيث يمكن أن تكون فرصهم أفضل فى مجتمعات أقل تقدما، خصوصا من تعود أصولهم إلى تلك المجتمعات.

إلى هؤلاء تعرف الدولة اليهودية ضربا من المواطنة لم تعرفه دولة لامن قبل ولا من بعد، هؤلاء هم «المواطنون العابرون» الذين هاجروا إلى الدولة لكى لا يستقروا فيها. وانما لانها «معبر» ضرورى إلى بلد آخر. أحدث الأمثلة لهؤلاء «المواطنين العابرين» هم اليهود الذين هاجروا إلى إسرائيل من بلدان الاتحاد السوفييتى السابق فى السنوات الأخيرة . ذهبوا إلى إسرائيل لأنهم يريدون أن يهاجروا إلى الولايات المتحدة ويستقروا فيها، لكن تلك الأخيرة - خدمة للمشروع الصهيونى، حجبت عنهم سمات الدخول إلى أراضيها فذهبوا إلى إسرائيل معلقين الآمال على «العلاقة الخاصة» التى تيسر لمواطنى الدولة اليهودية الدخول إلى أرض الأحلام.

هل يمكن القول أن إسرائيل «وطن نهائى» لهؤلاء وأولئك؟ لمن هاجروا منها ولمن ذهبوا إليها «عابرين»؟

وليست هذه وتلك هى منتهى مفارقات «الوطن» اليهودى، فالمفارقة الكبرى هى حالة المواطنين الإسرائيليين من غير اليهود، أى الفلسطينيين، واحد من كل خمسة مواطنين إسرائيليين من هناك . والمفارقة أن هؤلاء هم الجماعة الوحيدة المعتبرة من بين السكان التى يستقر اليقين بأنهم يعتبرون ذلك البلد «وطنا نهائيا لهم» وأن لم تكن الدولة دولتهم، بل وإن كانوا - فى نهاية التحليل - أعداء لتلك الدولة.

هذا بصفة عامة هو مدى «نهائية» إسرائيل كوطن لسكانها، اليهود وغير اليهود، وهذه هى حدود هذه النهائية.

- ٣ -

أما «تمام» الوطن، فهو المسألة الكبرى فى إسرائيل، فهى موضوع انقسام «الشعب» كما أنها باقية مصدرا للنزاع والصراع مع العرب، حتى ولو تحقق السلام، وبعد أن يتحقق السلام.

منذ أن بدأ الاستيطان اليهودى المنظم فى فلسطين مطلع هذا القرن، أو ما أسمته الحركة الصهيونية «استعمار فلسطين، والخلاف ناشب فى صفوف الحركة الصهيونية حول «حدود الوطن اليهودى» أى حول التعريف الجغرافى لأرض الميعاد. فى الأساس، أى فى الأسطورة لم يختلفوا كثيرا . فلم يقل أحد أو طرف أنها ليست من النيل إلى الفرات، حسب ما أصر المتطرفون، إنما كان

النزاع حول ما هو «مثال» وما هو «ممكن»، كان خلافا بين «التبشيريين» وبين «السياسيين» إذا شئت . لذلك عندما اقترحت بريطانيا، عظمى الدول فى ذلك الزمان، فى الثلاثينات خطة لتقسيم فلسطين بين العرب واليهود، دعا ديفيد بن جوريون، إلى قبول الخطة، بينما رفضتها الأغلبية فى المؤتمر الصهيونى العشرين، لكن بن جوريون استطاع أن يحصل على ترخيص له بالتفاوض حول الخطة البريطانية ، وكانت أقوى حججه التى اتاحت له الحصول على ذلك الترخيص بالتفاوض أنه رأى «امكانية نقل السكان العرب، برضاهم أو بالقوة ، ومن ثم توسيع الاستيطان اليهودى».

وتكرر الخلاف نفسه وبالأبعاد ذاتها حيال قرار الأمم المتحدة تقسيم فلسطين فى ١٩٤٧، وعندئذ كسب «السياسيون» الجولة من «التبشيريين» لأن بن جوريون أصدر أوامره إلى قوات الهاجاناه والبالماخ بتوسيع حدود الدولة وراء ما قررته الأمم المتحدة.

لكن الحدود لم تكن أبدا نهائية ومازالت كذلك.

اقرأ برنامج الليكود للانتخابات الاسرائيلية التى ستكون قد جرت عندما يصدر هذا المقال : «حق شعب إسرائيل فى الحياة من البحر المتوسط إلى نهر الأردن.. حق أبدى لايمكن زعزعته» و«إن هضبة الجولان هى جزء لا يتجزأ من أرض إسرائيل».

ويجوز القول أن هذه الدعاوى هى الأقرب تمثيلا للتفكير السائد فى إسرائيل ، فبرنامج التحالف العمالى - المعتدل - يأخذ منها بطرف غير قليل. فما سيجرى بحثه فى مفاوضات «الوضع النهائى» مع الفلسطينيين هو «الحدود الفاصلة» بين إسرائيل وبين هؤلاء، أما الحدود الأمنية للدولة فهى نهر الأردن، وما يمكن أن تقدمه إسرائيل مقابل السلام مع سوريا هو «انسحاب فى الجولان» وليس من الجولان.

الوطن - إذن - فى نظر الحركة الصهيونية والدولة الإسرائيلية لم يتم بعد. وفى اعتبار العقيدة الصهيونية فإن هذا الوطن لا يتم إلا وفق الاشارات الأسطورية التوراتية.

- ٤ -

قد يتبين ذات يوم أن مأساة الصهيونية هى فى تلك العلاقة الجدلية بين صفتى الوطن اللازمتين ليكون وطنا، أن يقتنع مواطنوه بتمامه ونهائيته .

والمصدر الممكن والمحتمل لمأساوية تلك العلاقة أن الوطن اليهودى الذى أرادته الصهيونية فى فلسطين لن يكون وطنا نهائيا لغالبية سكانه من اليهود إلا عندما يتحقق تمامه.

ومقتضى تحقق هذا التمام أن يتفق الصهاينة فيما بينهم على تطبيق جغرافى لأرض الميعاد. ومقتضى العقيدة

مستقبل اسرائيل

الصهيونية فى هذا الشأن أن تتطابق رؤى «التبشيريين» من الصهاينة مع رؤية السياسيين منهم، فإذا استطرد المناخ الروحى السائد فى إسرائيل الآن، سيكون على «السياسيين » أن يحققوا «للتبشيريين» رؤاهم، وهو ما نرى مقدماته فى وجل السياسيين ، متشردين ومعتدلين، أمام حركة الاستيطان اليهودى فى أراضى الضفة الغربية وقطاع غزة.

لكننا نرى هذا المقتضى ذاته فى عمق أبعد غوراً أو أشد خطرا فى حرص الدولة اليهودية على استبقاء سلاحها النووى حتى «بعد أن يتحقق السلام» وهو حرص عبر عنه «الحمائم» الحاكمون الآن بأوضح مما عبر عنه «الصقور» المعارضون ، ومهما كانت الذريعة التى تقول أن إسرائيل تحتاج سلاحها النووى «كملجأ أخير» أى إن أصبح وجودها كدولة معرضا للخطر ، فإن أحدا فى هذه الأمور لايفصح عن حقيقة أغراضه، أما الغرض الأولى بالاشتباه فهو أن مزاوجة بين الاستيطان وبين السلاح النووى تعبر عن خطة ابتزاز عسكرى ترمى إلى «إتمام» الوطن حسب الرؤية التبشيرية الصهيونية.

حتى هنا قد تكون هذه مأساة العرب فى المستقبل، مأساتهم حيال الدولة اليهودية التى يسعون الآن إلى إقامة سلام معها وفق شروطها.

لكن ما يرشح المستقبل لأن يكون مأساة الصهيونية أو المأساة التى تجلبها الصهيونية على اليهود ، هو مفارقة أنه إلى جوار إسرائيل، وممتدا فى داخلها، وكامنا تحت سطحها وطن آخر يتوازى معها ويتناقض، وهو وطن يعى مواطنوه أنه لم يحقق تمامه بعد ، لكنه فى كل الأحوال وطنهم النهائي الذين لم يتطلعوا يوما ولن يتطلعوا يوما إلى سواه.

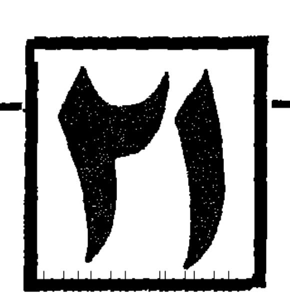
موضع المأساة أن الوطن اليهودى لا يتم إلا علي حساب الوطن الفلسطينى بإلغائه ، وان الوطن الفلسطينى لا يتم إلا على حساب الوطن اليهودى وبإلغائه .

وقد تبدو هذه وكأنها مأساة الاستحالة، مستحيل يقابل مستحيلا وينازعه

وهي مأساة لايحلها إلا جدل التاريخ وتجربته القاسية. إنما سيظل كون إسرائيل وطنا ،غير نهائي، لمواطنيها المقيمين والمفترضين – الذين تصفهم بالمنفيين ، خميرة حية لعدم استقرارها .

لكن الأخطر هو اقتناع اسرائيل – مواطنين ومؤسسات والدولة ذاتها – بأنها ،وطن لم يتحقق له التمام بعد، فسيبقى هذا الاقتناع مصدرا لعدم الاستقرار في المنطقة كلها ، رغم أي اتفاقات للسلام وأيا كانت شروطها .

مصر والعالم فى القرن



مستقبل الفلسفة فى القرن الواحد والعشرين

بقلم : د . صلاح قنصوه

■ يحيط بالفلسفة في وطننا العربي الكثير من سوء الظن، كما يكتنفها قدر أكبر من الغموض والالتباس. ومن ثم تتباين المواقف منها.

– ومن أبرز تلك المواقف وأشدها انتشارا موقف الاستنكار والإزدراء. فالهجوم أفضل من الدفاع، ونفض اليد من الوقوع في حبائلها المعقدة، واعتذار هين يسير يأمن لصاحبه الانصراف عن الدعوة إلى المشاركة فيما تدعو إليه من حوار.

– وموقف آخر لا يقل عن سابقه فى سوء طويته، هو إضفاء هالة من التوقير والاجلال لبعض مسكوكاتها الإصطلاحية المترجمة حديثا إلى العربية. ويستخدمها البعض من مسطحى الفكر كنوع من «السيم» أو الرطانة التى يحسبون أنها تطيل من قاماتهم القصيرة، وتعيرهم هوية زائفة بالانتماء إلي ما يشبه «النحلة السرية» المضنون بها على غير أهلها وخاصتها من المترددين على المقاهى والمنتديات، والمسوّدين لصفحات النشرات غير الدورية.



وهناك موقف من بعض من تلقى بعض دروسها فى مصر أو الخارج، وهو موقف قلة من الأكاديميين الذين رشحتهم فى الدخول فى هذا السلك الممتاز قدرتهم على الحفظ والصم والاستظهار. ولم يشغلهم، لضيق ذات الموهبة لديهم، ولهفتهم على الشهرة ولفت الأنظار، استيعاب وظيفة الفلسفة. بل شغلتهم نواتهم المنتفخة التى انتهزت حالة الجهل العام، وغياب القضية القومية المشتركة لدى جماهير البسطاء، انتهزت ذلك لكى تثير صخبا وضجة عالية حول قضية زائفة، هى دق طبول الحرب على الفكر العالمى ، وإعلان الحاجة إلى فلسفة مصرية أو عربية. والعجيب فى الأمر أننا لم نتلق منهم حتى اليوم موقفا فلسفيا محددا، وكأن موقفهم هو مجرد الإعلان عن حاجتنا إلى فلسفة خاصة!

وهذا هو اجتهادهم الوحيد الذى يشبه قول المهزوم «ارفعوه من فوقى لأقتله»! بينما الأولى فقط بهؤلاء أن يصنعوا فلسفة إن كان ذلك فى وسعهم.

فلم يطالب الفرنسيون قبل «ديكارت» بأن يصنعوا فلسفة فرنسية، كما لم يصنع الانجليز ذلك قبل «بيكون»، أو الألمان قبل «ليبنتس»، أو الهولنديون قبل «سبينوزا» إلخ.

فما نسميه فلسفة فرنسية هى ما قدمه الفرنسيون من فلسفة، والفلسفة البريطانية هى ما قدمها الفلاسفة البريطانيون وهكذا. وليس ثمة من يمنعنا من التفلسف، كما أننا لا ننتظر من جهة ما أن تؤذن بالبدء فى عمل الفلسفة.

«والهوية» ليست مطلبا بقدر ما هى وصف لما نقدمه وما نضيفه، وليست إعلانا لمن يأنس فى نفسه القدرة على دخول

مزايدة أو مناقصة فى حلبة سجال عدته الميكروفونات ومداد المطابع.

- وعلى الطرف المقابل نجد موقفا متطفلا على بعض الآراء المجتزأة أو الاصطلاحات المجازية لدى بعض الفلاسفة الغربيين. فيفرح بها البعض ويعلكها ويلوكها. ومن أبرز هذه المصطلحات الرنانة موت أو نهاية الفلسفة، وما يجرى مجراها مثل موت أو نهاية الفن، والايديولوجيا، والتاريخ وغيرها من نظم الثقافة الإنسانية ومجالاتها.

- أما الموقف الخامس والأخير من الفلسفة فهو موقف مجتهد لا تشوبه مظنة سوء، ولا تقوم مشكلته فى دوافع صاحبه أو ما يقدح فى تمكنه من اللغة العربية أو الأجنبية التى ينقل عنها. بل تنشأ مشكلته من أن الفلسفة عبر خمسة وعشرين قرنا قد استحدثت استخداما بعينه لألفاظ معينة من اللغة المعتادة التى ظل لها معناها اللغوى المختلف عن الفلسفى. ولذلك نجد باحثين على مستوى رفيع، خارج مجال الفلسفة، يخلطون فى دلالات تلك المصطلحات لأنهم يركنون إلى الدلالة المعجمية التى تختلف كثيرا أو قليلا عن الدلالة الفلسفية.

ولعل حالنا يختلف عن باحثى الغرب الذين اتيح لهم القدرة على التمييز منذ باكورة تعليمهم بين الدلالتين لأسباب تاريخية تربوية معلومة. ومن أهم هذه الأسباب تواصل التراكم المعرفى لديهم وهو ما نفتقده بعد أن توقف الإبداع الفلسفى العربى منذ «ابن رشد». وانتقل الإنتاج الفكرى إلى حاضنة جديدة لا تكتب بالعربية، فانقطع الحوار الخلاق.

٢ - ما الفلسفة ؟

وعلى أية حال، فأمر الفلسفة أيسر من هذا كله. فهى ليست «علما» يقف على قدم المساواة مع سائر العلوم كالفيزياء والكيمياء أو علم النفس وعلم الاجتماع، لأنها لا تسلك منهج العلم الموضوعى الذى يتخذ «الفروض» سبيلا إلى تحقيق نتائجه بين من يستخدمون أدواته ليبلغوا اتفاقا حول ما كانوا يختلفون فيه. وليست «تخصصا» يعالج موضوعات بعينها دون غيرها، ولا يقربه إلا من أتقن وسائله وتقنياته.

غير أننا ينبغى أن نعترف بأن الفلسفة حتى منتصف القرن التاسع عشر كانت تعنى ذلك قبل الغلبة النهائية لتقسيم الأعمال والتخصصات، وتحديد مجالات المعرفة ومناطق نفوذها. فقد كان العلم قبل تخصصه فى أحضان الفلسفة، وكانت الفلسفة فى ظلال الدين، وكان الدين قرينا لنظم السلطة والرقابة والوصاية القديمة.

كما ينبغى لنا أيضا الاقرار بأنها رغم استقلالها اليوم ليست معزولة عن كل هذه الأمور، بل هى موثوقة الصلة بها، ولكن دون تبعية أو هيمنة لأن لها شأنا آخر.

الفلسفة نظرة شاملة تحيط بكل جوانب الفاعلية الإنسانية فكرا وسلوكا. وإذا كان فى وسع العلوم أن تقول شيئا فى جميع موضوعات المعرفة، فإنها تقف عند تخصصاتها لا تعدها، وكل عند موضوع معين. ولابد أن نكون فى حاجة إلى من يضم شتات هذه الموضوعات جميعا فى وحدة أو فى موضوع واحد، يتخطى، به تفصيلات عناصره، ويعقد بينها الصلات، ويسد الفجوات. فالعالم، أو الوجود، أو الحياة أو الواقع بكل جوانبهما، والإنسان بكل ضروب نشاطه، لا يمكن أن يكون موضوعا لعلم من العلوم. كذلك البحث فى أصول تلك العلوم من افتراضات سابقة وأسس منهجية يسلم بها الباحث العلمى وقد لا يصرح بها فى عمله ، ليست من شأن العلوم ، فضلا عن الاستباق الى ما يمكن أن تفضى اليه نتائج العلوم فى المستقبل بالنسبة للإنسان وعالمه .

وتمكننا الفلسفة بذلك مهما تتقدم العلوم والمعارف . ومهما تتدخل التكنولوجيا فى كل شئون الإنسان، سيظل لها مهمتها الخاصة ، ومسائلها ووسائلها المستقلة . ولا يعنى هذا أن تقتصر على التحليل ، أو تنصب نفسها أساسا مطلقا لكل العلوم . كما أنها ليست علما من بين علوم ينافسها عندما يعرض السلعة نفسها من خلف واجهة أخرى . ولا نحسبها كذلك وعاء لشتات من المعرفة المتنوعة قد لا يخلف تخصص العلوم فيه شيئا . أو حزمة من المعارف ما يلبث أن ينفرط عقدها إلى مجموعة من العلوم المتخصصة. فهى إذن ليست أساسا للعلوم، أو بديلا، أو منافسا، كما أنها ليست وصيفة للعلوم تتسقط قضاياها وتتعقبها بالتحليل. بل هى موقف إنسانى من العالم، ومن العصر والمجتمع يستوعب كل جوانب الإنسان.

وكل مشكلة تصلح أن تكون مادة للفلسفة ولكن على شريطة أن تدرس فى كليتها، وعلى أساس مكانها من نسق متكامل فى ضوء سائر التجارب والمطالب والأهداف الإنسانية. والفلسفة فى كل هذا تجعل الناس على وعى بمسئولياتهم الأساسية وآثارها المترتبة عليها.

وتصوغ الفلسفة آراءها تلك فى «افتراضات واسعة» قد تصدر عن التأمل أو الحدس أو الاستدلال، ولكنها تتأسس على التجريد والشمول. غير أنها

افتراضات لا تقبل التحقق المباشر فهى ليست فروضا علمية وربما اتخذ منها ، أى الافتراضات، فروض تقبل التحقق على امتداد طويل من الزمان، وعلى رقعة فسيحة من العلوم. فهنا تنضم الفروض إلى العلم وتنسحب من الفلسفة التى لا تستنفد مهمتها التى يبقى لها إطارها الموجه المستوعب.

خلاصة القول إن الفلسفة أمر نزاوله جميعا عندما نعمد إلى إصدار أحكام عامة لا تنتسب إلى علم بعينه أو تخصص محدد. ولكنها تظل فلسفة رجل الشارع أو أحكام ما يسمى بالحس المشترك Common Sense ، ولا ترقى إلى مستوى التداول والدرس والنقد إلا إذا اتسقت أحكامنا العامة فيما بينها، أى خلت من التناقض، وتناسقت أو تساوقت معاً فى منظومة موحدة، أى إذا ألفت نسقا.System وليس من قبيل المصادفة أن المذهب الفلسفى ترجمة لكلمة نسق باللغات الأجنبية.

أما مصطلحاتها المأثورة وتصنيفاتها وفروعها، فهى من نتاج الممارسة المتراكمة لهذا المنحى الإنسانى فى تناول المشكلات التى صقلها الحوار بين المذاهب المختلفة.

وبعبارة موجزة، الفلسفة نوع أصيل من النقد: أولا بمعنى رفع الوعى إلى مستوى الواقع المعيش، وثانياً بمعنى كشف الامكانيات، وتعيين الحدود لهذا الوعى الإنسانى.

٣ - سؤال العصر الفلسفى

ويفضى ذلك إلى أن الفلسفات فى كل عصر تطرح سؤالا رئيسيا أو مؤسسا (أو «إشكالية» بالمعنى الاصطلاحى لها) يختلف عن سؤال العصر السابق. والواقع الجديد للعصر هو الذى يثير هذا السؤال من خلال ساحته الثقافية التى تبرز على سطحها منظومة رائدة.

- نشأت الفلسفة اليونانية فى ظل الأسطورة، المنظومة الرائدة آنذاك، وكان السؤال الرئيسى لها كيف نفسر التعدد والتغير فى الأشياء لنردها إلى الوحدة والثبات. فعندها نشأت الفلسفة بوصفها علما للوجود.

- ثم كانت العصور الوسطى التى كان الدين منظومتها الرائدة فكان سؤالها الرئيسى كيف نوفق بين العلم «الفلسفة أو الحكمة» وبين الدين.

- أما فى عصر النهضة، عصر إعادة اكتشاف العالم، وقد أضحى العلم مثل الدين حفظا وشرحا على المتون، طرحت الفلسفة الحديثة السؤال الجديد: ما المنهج الذى يؤدى إلى تأسيس العلم بالعالم لغزوه وفتحه.

والمنهج هو ممارسة قدرات الإنسان بمعزل عن المحفوظ والمنقول ، وتفرقت المذاهب الحديثة تنويعا على لحن السؤال الرئيسي.

– أما في الفلسفة المعاصرة أي بعد هيجل، فقد طرحت العلوم الإنسانية أو الاجتماعية بعض ثمارها، وأصبح الاهتمام بمشكلات المجتمع في ظل المفارقة اللعينة التي صنعتها الرأسمالية. فقد قامت الرأسمالية أصلا على المشروع الفردي الحر، إلا أن المنافسة الدموية التي أصبحت وسيلتها الأساسية سرعان ما أسلمت إلى ضياع الفرد وحقوقه وكبريائه. ولذلك كانت العلوم الاجتماعية، المنظومة الرائدة للفلسفة المعاصرة التي أصبح سؤالها المؤسس عن الواقع الإنساني وليس العالم الطبيعي: كيف نتمرد عليه وإلى أي مسار في المستقبل نقود إليه الإنسان.

وأود أن ألفت نظر القارىء الكريم إلى أن التحقيب السابق للفلسفة: هو مادرجنا عليه كتقليد متبع في درس تاريخ الفلسفة. إلا أنه لايبدو دقيقا في تسمية الفلسفة المعاصرة التي تعني على الفور الفلسفة الراهنة أو الحالية، ولكنها ليست كذلك، لأن فلسفة الحقبة الراهنة التي تشي بملامح فلسفة القرن الواحد والعشرين لم تعد مسألتها الجوهرية هي نفسها مسألة الفلسفة المعاصرة.

ويتبين في حديثنا السابق عن معنى الفلسفة أنه يتحقق في الفلسفات جميعا بدرجات متفاوتة بدءاً من اليونانية وانتهاء بما أسميناها بالمعاصرة «مثل الماركسية والبرجماتية والوجودية»، ويكشف ما قدمناه عن المذهبية أو النسقية عن افتراض معلن أو مضمر في الفلسفة هو ما يمكن تسميته «بالمعقولية» التي يفترضها المفكر أو الباحث أو حتى رجل الشارع فيما يتعلق بفكره وسلوكه. وهي التي تقوم بدورها حينما تجمع ماتشتت أو تفرق من معطيات أو وقائع أو آراء في منظومة واحدة، تؤدي بتلك المتفرقات المناطة بالمشكلة أو الموضوع إلى أن تتخذ مواقعها ومنازلها في هذه المنظومة، دون أن تخلف أية متبقيات خارجها. فهذا وحده الذي يمكن أن يؤدي إلى التعميم والتجريد والانتظام.

غير أن الفلسفة المرشحة للقرن الواحد والعشرين تنكر هذه «المعقولية» أو الشمولية أو الكلية. وتنكر معها ما نسميه «بالعقل» الذي تصورناه من قبل حاسة أو أداة أو جهازا. فهو على أفضل الوجوه، إطار مهيمن للتواصل والتداول الإنساني، ولكنه أكثر عمومية وتجريدا، أو فراغا من

المحتوى المادى المعين لكى يكون قابلا للتطبيق على كل مجال من مجالات التواصل والتبادل.

ولأنه لا يتطور أو يتغير إلا عبر حقب زمنية طويلة جدا رسخ الوهم بأن العقل واحد ثابت أزلى. ولقد عاون على هذا الوهم طبيعة اللغة التى تحول العلاقات والأفعال إلى كيانات وأشياء «فالعقل» هو الذى يتبوأ قمة أطر الاتصال بين البشر بوصفه القواعد أو القيود الملزمة لعضوية الإنسان المقبولة لمجتمعه، وإلا عدّ بدونها مجنونا أو أقرب إلى الحيوان.

ثم ما يلبث هذا الإطار الإنسانى المصطنع أن يصبح إطارا فعليا للعالم أو الواقع الموضوعى. فالإنسان فى كل العصور والثقافات، لا يعترف بما فى هذا العالم أو الواقع من شئون مختلفة، ولا يحكم على صدقها أو بطلانها إلا بقدر ما تحتل هذه الشئون موقعا محددا فى نطاق هذا الشكل أو الإطار. ويعتاد الإنسان فى كل الأزمان والثقافات على التسليم بعالم مصنوع على صورته المختارة أو المفروضة عليه فى ذلك الزمن أو تلك الثقافة. فالأشياء تحدث فى خضم أو سديم ثم يتناولها الإنسان المشروط بالزمان والمكان والمصلحة وغيرها، فيعيد تصنيفها وترتيبها وفقا لخانات وأوليات ليست أصلا فى الأشياء، ولكنها تنتمى إلى عالم الإنسان المصنوع المتغير. وعندما يتم له هذا التنضيد ينسى أنه من صنيعه ويعتقد بيقين أنه من خصال الأشياء نفسها، ويمضى إلى ترجمة العالم أو الواقع إلى لغته .

وربما أبيح لنا القول بأن هذا التصور للثقافة الإنسانية، بمعناها الذى يقابل الطبيعة، يعنى فى نهاية الأمر أنها مجموعة من الاستعارات أو المجاز. بل إن اللغة بكل علاماتها أو دوالها لا تؤدى إلى مدلولات محددة . وقد صبت الفلسفات السابقة اهتماماتها على المدلول الذى اعتقدت أنه على علاقة شفافة بالدال. ولكن الفلسفة الجديدة تتريث عند الدال وتقف عنده. فثمة «إخلاف» differonce مستمر ينكص فيه المدلول عن وعده بالوجود، ويرجىء بلوغنا إياه كما يقول «ديريدا» فيلسوف التفكيك.

وأغلب الظن أن ما نعنيه بفلسفة القرن الحادى والعشرين هى التى نشاهد بعض قسماتها اليوم فيما يقترن بما يسمى «بما بعد الحداثة»، أو «ما بعد البنيوية». ويغلب عليها التواضع الشديد بإنكارها للمهمة السابقة للفلسفة وهى تشييد صروح النسقات أو المذاهب التى توثق بين مجالات الفكر والسلوك فى كلية شاملة.

فهى ترى فى الكليات والشموليات حكايات أو حواديت recits كبرى كما يقول «ليوتار». وبذلك تكشف عن الأوهام التى عاشها الفكر الإنسانى وهو يرسم أطراً محددة، ومحاور رئيسية، ومراكز، وأولويات، وتراتبات هرمية. وتحطمت بذلك النظرة الأولية «أو اللاهوتية» التى تعرف كل شىء وحقيقة كل شىء.

وهى تستبعد الثنائية الفلسفية التقليدية للذات والموضوع. بل إن الذات تفتتت وانقسمت لديها.

كان لابد للحظة التاريخية لاستشراف القرن الواحد والعشرين التى نحياها اليوم أن تؤدى ساحتها الثقافية إلى تفاعلات محتدمة تبرز على سطحها منظومة رائدة تثير اشكالية الفلسفة الجديدة.

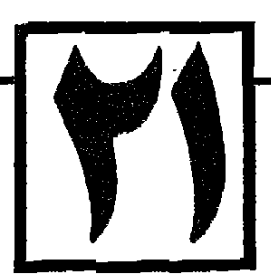
فالوضع العالمى الراهن الذى تمثل منه أمريكا وأوربا أتون محركه وآلته يقدم بين أيدينا حادثات تثير الحيرة وتعصف بما استقرت عليه المذاهب والنظريات من تحليل وتفسير. ولا ريب أنها لحظة متفردة ليس بوسعنا أن نسلكها فى نسق تفسيرى قائم، أو نجعلها حادثا مطرداً فى مسار تاريخى معلوم. ومن هنا تنشأ الحاجة إلى إعادة النظر فى مسلماتنا جميعا. ومن ثم ينبغى علينا أن نطرح الأسئلة الساذجة التى تبرأ من أية إجابات سابقة جاهزة.

ومن هنا كانت المنظومة الرائدة التى أثارت إشكالية الفلسفة الجديدة منظومتين هما اللغة والفن. فاللغة هى الرداء التحتى لكل ما يصطنع الإنسان من أوهام. والأدب والفن هو الكاشف عن هذه الأوهام من ثنايا ما يسمى بما بعد الحداثة. وبذلك أصبح الموضوع أو بالأحرى المجال الأثير لدى الفلاسفة الجدد هو «النص». وبدلا من أن يكون الموضوع أو المجال الفلسفى: *العالم أو الله، أو الإنسان كما ألفنا فى* الدرس الفلسفى، أصبح عمل الفيلسوف الجديد أشد تواضعا، أصبحت الفلسفة الجديدة نوعا مستحدثا من النقد أو التحليل الثقافى الذى يستمد مادته من علوم وتجارب مختلفة متعددة ليجردها ويرفعها إلى تعميمات يمكن أن تصدق على مجالات مغايرة لما بدأ منها.

وفقد الفيلسوف الجديد الحماس للدعوة لأى شىء، لأنه يعلم مسبقا أن الصوت والصمت سواء. فهو شريك فى تيار ما بعد الحداثة التى تعد استسلاما لاكتشافها أن المبدأ الوحيد الذى لا يعوق التقدم،هو : «كله ماشى» onything goes على حد تعبير «بول فايرابند».

ولكن، هل نستطيع الزعم بأن الفلسفة يمكن أن تواصل تقدمها على هذا النحو؟

أكبر الظن أنه زعم يحدق به الشك من كل جانب.



العالم في القرن القادم

ثورة ونظام

بقلم : د. عبد المنعم تليمة

❑ عاشت البشرية الآلاف العشرة الأخيرة على الزراعة ، وعاشت القرون الخمسة الأخيرة على الصناعة ، وتعيش الآن مابعد الصناعة . بدأت الزراعة فى بلد واحد من بلاد أحواض الأنهار الكبرى ، ثم انتقلت ـ ولاتزال ـ إلى غيره من البلاد عبر آلاف السنين ، وبدأت الصناعة فى إقليم واحد ، غرب أوربا ، ثم انتقلت ـ ولاتزال ـ إلى غيره من البلاد والأقاليم عبر عشرات أو مئات السنين . أما ما بعد الصناعة فعملية تاريخية عظمى ، تجرى فى العالم كله فى آن واحد ، هو الآن ، هذا الزمان الذى نعيشه وتعيشه الأجيال القادمة حتى تبدأ عملية تاريخية عظمى أخرى تكون الرابعة فى التاريخ الإنسانى كله .

وبدهى أن البشرية لن تستغنى عن الزراعة والصناعة ، لكن الفيصل الذى يحدد كل انتقالة تاريخية أساسية هو الجديد الذى يأخذ فى الهيمنة وقيادة الحياة على هذا الكوكب الأرضى .

ولاشىء يفنى من عمل الإنسان، فكل مرحلة تحمل فى أحشائها ما يتواصل من المراحل التى سبقتها . ومعنى الثورة أن النشاط الجديد يتقدم ليصير هو النشاط المهيمن فى المرحلة الجديدة ، حاكماً

العملية البشرية بكل تجلياتها التاريخية والاجتماعية والفلسفية والابداعية . وبدهى كذلك أن كل انتقالة كبرى يمهد لنشوء قاعدتها ويواكب هذا النشوء تغير عميق فى المفهومات والتصورات والعلاقات والمؤسسات ، نظام جديد . ونحن هنا إزاء العملية التاريخية العظمى الثالثة فى التاريخ البشرى ، نجتهد فى رصد قاعدتها التى تتكون لتصير أساس عمل البشر وعيشهم ، كما نجتهد فى رصد نظامها الذى يتشكل ليصير أساس إدارة البشر لحياتهم على هذا الكوكب .

● أولاً : فى القاعدة

كانت الثورة الأولى «الزراعة» محلية فى بلد واحد ثم تصير خبراتها ونتائجها ملكاً للبشرية بعد مئات أو آلاف السنين . أما الثورة الثانية «الصناعية» فقد جرت إقليمية فى جزء من العالم - غرب أوربا - ثم لحق بها من لحق من أجزاء العالم الأخرى ، فصارت خبراتها ونتائجها ملكاً للبشرية بعد عقود أو مئات من السنين . وأما الثورة الثالثة فتجرى عالمية فى وقت واحد، زماننا هذا ، ويشهد نتائجها المبكرة القادرون على المشاركة فى صنع هذه النتائج ، كما يشهدها فى نفس الوقت العاجزون عن هذه المشاركة . فمن هذه النتائج - فى هذا الطور المبكر والخطوات الأولى - الطيب والخبيث ، الطيب للقادرين والخبيث للعاجزين . ثم يأتى حين من الدهر - قريب فى ميزان التاريخ - تتخذ كل الشعوب مواقعها وأدوارها فى المشاركة ليتخذ كل نصيبه من طيبات هذا التقدم ، هاهنا تصير هذه الثورة عالمية إنسانية ، وهاهنا يكون مغزى نظامها العالمى الجديد وتكون حقيقته التى لاتزال تتشكل . هذا النظام الذى تتشكل قواعده الثقافية وأسسه الفلسفية والقانونية ومؤسساته الدولية ، هو المهاد والمواكبة والنتيجة للثورة الثالثة ، ثورة مابعد الصناعة ، ثورة العلم وتطبيقاته والاتصالات والمعلومات .

ودواعى تراجع النشاط الصناعى فى زماننا هذا هى بذاتها - بداهة - دواعى تقدم نشاط العلم وتطبيقاته والاتصال وتدفق معلوماته ليصير هو النشاط الحاكم لحياة الانسان فى هذا الزمان ومايليه من أزمان، إلى أن تأتى انتقالة كبرى أخرى من انتقالات تاريخ الإنسان ، ولم يكن أمر الثورة الصناعية التى تأفل الآن ، أمر آلات وماكينات ، إنما كان عملية عميقة زلزلت أسس الحياة البشرية على كوكب الأرض زلزالاً . لقد فتحت هذه العملية طرقاً ومسالك إلى جديد فى الكشوف العلمية والخبرات التكنولوجية ومذاهب التفكير والأبنية الفلسفية والإبداع وطرائق التشكيل الجمالى واجراءات البحث والتحليل والتقويم . وقصدت إلى تنظيم المجتمع المدنى ، بضبط آليات الحكم والفصل بين السلطات وتنظيم التمثيل النيابى . ثم وسعت من مفهوم

إدارة هذا المجتمع بصياغة العلاقات والحقوق والواجبات والحريات قانونياً ودستورياً وبإقرار دور للمؤسسات التعليمية والاعلامية والعلمية .

● تخريب البيئة !

بيد أن هذه الثورة الصناعية التى فتحت كل هذه الفتوح وأضافت مايبقى فى ضمير الإنسانية وتاريخها من خوالد الكشوف والابتكارات والإبداعات ، نقول إن هذه الثورة ذاتها قد وصلت بآثار نشاطها الصناعى - خاصة فى العقود الأخيرة - إلى حدود بعيدة فى تخريب البيئة الطبيعية والبيئة الانسانية جميعاً ، بحيث صار عيش الإنسان فى الطبيعة وتعايش الإنسان مع الإنسان محالاً . إن النشاط الصناعى باستهلاكه للموارد الطبيعية واعتماده على الطاقة الحفرية «الفحم، البترول .. الخ» ، قد دمر قطعة عظيمة من أرض هذا الكوكب ولوث ماءه وهواءه وأجواءه . لقد اختفت ملايين الأفدنة من الأراضى الزراعية مصدر الغذاء الضرورى للإنسان ، وخربت مساحات شاسعة من الغابات مصدر التنفس الصحى الضرورى لبقائه . وزاد النشاط الصناعى من نسبة ثانى أكسيد الكربون فأخذت درجة حرارة سطح الأرض ترتفع وأخذ التصحر ينتشر وأخذ مستوى المحيطات والبحار يعلو . أما أثر النشاط الصناعى فى تلويث الماء والهواء فإنه يشوه الأجنة فى الأرحام ويذبل الزروع ويضمر الضروع ويسمم المآكل والمشارب ، فتصير حياة البشر إلى بوار وهلاك عظيمين. وربما ذكرنا هنا من الآثار المدمرة للنشاط الصناعى ما أصاب طبقة الأوزون ، وهى درع واقية تضبط أشعة الشمس وتنظم وصولها إلى الأرض حسب حاجة ماعليها ومن عليها . وقد أصاب النشاط الصناعى هذه الطبقة بثقب يهدد وظيفتها بعطب بين . ولقد اتسع هذا الثقب بمقدار سدس ما كان عليه فى ثلاث سنوات فحسب ، كان سنة ١٩٨٩ بقدر مساحة الولايات المتحدة فصار سنة ١٩٩٢ بقدر مساحة قارة أمريكا الشمالية كلها ، ويتسع الثقب كلما تمادى النشاط الصناعى بما هو عليه من طبيعة مادة يستهلكها وطاقة يستخدمها ، واتساع هذا الثقب يعطل طبقة الأوزون فيتغير مناخ الأرض ويختل نظامها البيئى وتنتهى الحياة عليها .

● تلويث البيئة البشرية !

أما تلويث النشاط الصناعى للبيئة البشرية فكان أشد جسامة وأبلغ تدميراً من تلويثه للبيئة الطبيعية . فلقد نهض هذا النشاط الصناعى على أساليب وأسس فى عمليات الانتاج والتوزيع والتسويق ، أصلتها رؤية للعالم ومنتج ثقافى ، وقد صاغت كل ذلك أبنية ومذاهب فكرية جهيرة . اعتمد هذا التلويث التناقض بين البشر ومصالحهم اعتماداً وأذكاه إذكاء،

فالح على التنافس بين الأفراد حتى ثارت المطامع والمطامح الذاتية وملأت الآفاق فلم ير الفرد سواها إلى أن صار مغترباً عما حوله وعمن حوله . ووسع الهوة بين الطبقات فتناحرت وتفجرت الحروب الأهلية ، وغلا فى التمييز بين الشعوب والأعراق والأديان والثقافات فعمت الحروب بين الشعوب والأقوام والأمم. وأثمرت هذه الأوضاع ثمرتها السامة فكانت ظاهرة الاستعمار ، الذى سيطر على أسواق الشعوب عنوة وانتهب ثرواتها غصباً إلى أن صار إلى نزح عقولها وإزاحة ثقافاتها وتراثاتها .

بيد أن للكون والحياة نواميس حاكمة مصححة ضابطة ، إذا ما جنحت النسب والعلاقات بين الأشياء والأحياء إلى الاختلال ، أعادت التوازن وأقامت الميزان

وانفتحت ــ فى العقود الأخيرة ــ آفاق جديدة غير مسبوقة فى التاريخ البشرى كله : صارت المصالحة بين البشر والطبيعة ، بالكف عن استنزاف عناصرها والكف عن تخريبها بالمواد والطاقات المدمرة ، ضرورة فتح الوعى بها أفق الجهاد الأصغر . وصارت المصالحة التاريخية الكبرى بين البشر والبشر ، بتأسيس نظام ذى أسس عالمية لإدارة الحياة على هذا الكوكب ، ضرورة فتح الوعى بها أفق الجهاد الأكبر ، وصار اقتران أسس عالمية هذا النظام الجديد بطوابع إنسانية عادلة ، ضرورة فتح الوعى بها أفق الجهاد الأعظم .

تبدى الخطر فصحا الوعى فانفتح الأفق . تبدى أن كوكب الأرض متناه ، يمكن أن يزول ويفنى ، إذا ظلت علاقة البشرية تخريبية تدميرية . تبدى أن الحياة البشرية على هذا الكوكب قد انتهت إلى مأزق خطير وشر مستطير ، إذ انتهب النشاط الصناعى عناصر الطبيعة وانتهك توازنها . وبات على الانسان أن يصالح الطبيعة وأن يتقى جوايها بالنقمة والثأر . قال حكيم عالم من زماننا : أعينوا الطبيعة تصح وظائفها فيكم ، وتعاونوا معها تصح حياتكم فيها . تنبه البشر إلى أن هذا البلاء العظيم شأن بشرى عام ، يتجاوز كل الحدود الجغرافية والسياسية والاقليمية ، وليس بوسع بلد واحد دفعه ، وليس بوسع قوة واحدة النهوض بما تتطلبه مواجهته من أموال وخبرات فنية وعلمية هائلة . وكان هذا التنبه أولياً غامضاً أول أمره ، وأخذ يتعاظم فى العقود الأربعة الأخيرة ، ثم أخذ يتوازى ويتزامن مع ثلاثة أمور : أولها أن العلم أخذ يسعى إلى اكتشاف مواد وطاقات بديلة . تبدت ، من جهة المواد والخامات ، إمكانات لامتناهية لهندسة الكائنات وخلق أشكال وسلالات جديدة من الحيوانات والنباتات . وبان أن هذه المواد والخامات

ثورة ونظام

المصنعة لها من الخصائص الفريدة مايجعلها أرفع كفاءة وأدق فى تلبية الحاجات والوظائف من الخامات الطبيعية، ومعلوم أن البشرية تواجه الان وغداً خطراً فى نقص الموارد المائية وخطراً فى نقص الموارد الغذائية مع تعاظم أعداد السكان . ويواجه العلم الخطرين جميعاً بتوفير إمكانية تحلية مياه البحار وتوزيعها، وبتوفير امكانية استنباط السلالات النباتية والحيوانية الجديدة اللازمة لغذاء البشر . وتبدت ، من جهة الطاقات ، فداحة البلاء الذى نجم عن استخدام مصادر الطاقة الحفرية «الخشب، الفحم ، البترول .. الخ» ، وإلى جانب أن هذه الطاقة الحفرية ملوثة مخربة ، فإنها محدودة متناهية إلى نضوب . وكان الإنسان منذ فجر تاريخه يرنو إلى أعلى ، حيث المصدر الأول للطاقة ، الشمس ، فاتجه علم اليوم إلى استلهام هذا المصدر الأعلى، ويجرى العمل لخلق شمس مصغرة لهذا الكوكب الأرضى ، تصدر عنها الطاقة النظيفة اللامتناهية . وثانيها أن العلم وتطبيقاته أخذ يمهد السبيل إلى العلاقة الصحية المنشودة بين الإنسان وبيئته وكوكبه الأرضى والكون الذى يعيش فيه . وفى هذا الاتجاه صارت المعارف العلمية أساس تكنولوجيا جديدة يسيطر عليها الإنسان بعد إذ كانت التكنولوجيا الصناعية تسيطر عليه . وأبرز وجوه هذه التكنولوجيا الجديدة استثمار المعارف العلمية بالفضاء لتأسيس صناعات فضائية كونية تراقب الحياة على كوكب الأرض وتخدمها وتيسر عيش البشر على هذا الكوكب . وفى هذا الصدد صيغت مشروعات وبرامج وعقدت اتفاقات . من هذا كله «مشروع كوكب الأرض» وغايته تأسيس منصتين فى الفضاء تعينان على معرفة حقائق الحياة على الأرض وسبل حل مشكلاتها . وتنامت الصناعة الكونية ، فأسست منظومات وأجهزة كونية تحيط بثروات الأرض والطرائق المثلى لاستثمارها ، وأبدعت أقماراً صناعية ترصد الحياة على الأرض بدقة عالية ، ثم هى بصدد تأسيس مطار كونى فى الفضاء يخدم كل هذه المهام . وثالثها أن العلم وتطبيقاته قد خلقا ثورة عظمى فى الاتصالات وتدفق المعلومات وإمكانية تخزين هذه المعلومات واسترجاعها . ولهذه الثورة موقعها الفريد وأثرها البعيد فى عالم اليوم والغد وفى تأسيس النظام الجديد . إنما يهمنا الآن وجه هذه الثورة المتصل بما نحن بصدده ، تصحيح علاقة البشر ببيئتهم . ساعدت هذه الثورة على الدرس الدقيق لكل مصادر الأخطار البيئية ، وتأسست على نتائجها وحقائقها منظومات وشبكات رصد مطرد ومراقبة دائمة عالية الكفاءة ، وثمة اتجاه لإنشاء منظومة فضائية دولية عامة تنهض بالرصد وتعين على الاحاطة والتخطيط . وتوجد اليوم ـ فى الدول

المتقدمة ـ آلاف المكاتب والإدارات والمعامل والمؤسسات تستعين في عملها ـ حتى اليومي ـ بمعارف ومعلومات تستقبلها من شبكات وأجهزة ومنظومات كونية .

ما سلف كان عن القاعدة العلمية التكنولوجية للثورة الثالثة ، ومايأتي عن البنية الثقافية والمؤسسية لهذه الثورة ، وهي بنية تتكون بوتيرة سريعة مطردة . في الثقافة العالمية الجديدة تنضج المفهومات والتصورات، وفي النظام العالمي الجديد تتحدد الصياغات القانونية والسياسية وتقوم المنظمات والمؤسسات . هذا مانقف عنده الآن .

● ثانيا : في النظام

الأصل المكين للثقافة العالمية الجديدة : الوحدة . وحدة تنتظم البشري والطبيعي . جدل الأضداد قائم بيد أن مسعاه إلى الوحدة، فلا تناقض بغير وحدة . والصراع قائم بيد أن حسمه بالمحاورة يجعل العنف شذوذاً ونشازاً مؤقتاً . الوحدة التي تنهض على طرفين يريد كل منهما محو الآخر عمادها المواجهة ، والوحدة التي تنهض على أطراف تتعدد بلا نهاية عمادها المحاورة . الوحدة في الفهم الجديد تحل التعدد اللامحدود محل الثنائية المقفولة ، وهي ـ الوحدة الجديدة ـ ليست حاصل جمع بين عناصرها وأطرافها ، وإنما هي محصلة تفاعل بين هذه العناصر والأطراف . الثنائية تتراجع والتعدد يتقدم . الوحدة في هذا الفهم الجديدة سند وجامع للتعدد ، والتعدد غنى وثراء لها ، إن التأسيس على التعدد المفتوح يوفر أوسع الآفاق لإعمال الخيال والعقل والتفسير والتأويل والبحث ، فينفتح السبيل للنسبي واللاحتمى ويتحرر الكشف ويتوهج الإبداع ، وهذا يعني أن التأسيس على التعدد المفتوح يسد الأفق أمام المطلق والقطعي واليقيني والحتمي . لكل ماقلناه هنا أسانيد مما توصل إليه العلم في العقود الأخيرة : وضع العلماء خريطة لقدرات «الدماغ» في الإنسان ، وتمكنوا من وصف طاقاته وملكاته وإمكاناته في جمع المعلومات وتخزينها واستخدامها والعبارة عنها ، وكشفوا عن تآزر عمليات المناطق الدماغية في تكوين «العقل» ، وقضت هذه الكشوف على «حتمية» أن التقدم في العمر يفضي ضرورة إلى شيخوخة الدماغ ووهن العقل ، وفتح تحديد الأسس النفسية والكيميائية والبيولوجية لعمل الدماغ أوسع الآفاق أمام الإنسان ليتعرف بلا حدود وليعي وحدة الحياة بلا قيود ، ومن جهة ثانية ، سعى العلماء إلى إضاءة عوالم المورِّثة ، الجينة Gene ، في المادة الحية ، حيث يتبدى الكثير من حقائق الحياة يتضمنها حمض الخلايا النووي D.N.A . ومن

جهة ثالثة ، اعتمد العلماء على قاعدتى الكم والنسبية فى المادة الجامدة ، وهما القاعدتان اللتان منحتا الفكر البشرى تصوراً جديداً عن تكوين الكون وآليات عمله ومسالك مساراته .

● وحدة المعرفة

وأقوى تجل للوعى بوحدة الحياة ما أخذ يستقر وهو الوعى بوحدة المعرفة.

إن التقدم غير المسبوق فى العلم وتطبيقاته ومامهد لهذا التقدم من فكر وما صاحبه من نظر فلسفى جديد، كل ذلك ينص على أن إمكان أن «يتعرف» البشر على عالمهم بآليات واحدة بات حقيقة ، وينص على أن إمكان أن يتلقى البشر «التعريف» بعالمهم بجميع امكاناتهم وكل حواسهم وطاقاتهم العاطفية والذهنية بات حقيقة . ولا ريب فى أن وحدة المعرفة تدفع دفعا إلى النظر ـ نقداً وتقويماً ـ فيما درجنا عليه من تصنيف للفنون والعلوم . فقد درج الدارسون على تقسيم ثنائى يميز بين العلم والفن . ثمة سبيل واحد ، لديهم، أمام البشر إلى «معرفة» عالمهم ، وثمة سبيلان إلى «التعامل» مع هذا العالم، سبيل العلم وسبيل الفن أداة كل منهما إلى الحقيقة مخصوصة ، كما تتبدى الحقيقة فى كل منهما بصورة خاصة . لكن هذه الثنائية قد تقوضت بأساس جديد ، يرى أن الإدارك والإحساس لايعملان متمايزين منفصلين ويستحيل الفصل بين عمل الإدراك وحده وعمل الإحساس وحده ، ومن ثمة يستحيل التمييز بين ثمرة كل منهما . من هاهنا لا مجال للفصل بين المعرفة العلمية والصلة الجمالية ، ولامجال ـ إذن ـ للتناقض بين العلم والفن . كذلك نجد فى الأسس التقليدية المتواترة أن النشاط العلمى ينقسم إلى طائفتين عظميين من العلوم . الطائفة الأولى ، هى مجموعة العلوم الانسانية ، ومدارها الانسان فرداً وجماعة ومجتمعاً ، ومفردات حقولها النفس والاجتماع والفلسفة والفن والقانون والسياسة والتاريخ والاقتصاد .. الخ.

ومحاور البحث فى هذه الطائفة جملة من التصورات تعتد بذاتية الخبرة وخصوصيتها وتفردها ومايقترن بذلك من حرية اختيار وصياغة ملموسة حسية أما الطائفة الثانية فهى مجموعة العلوم الطبيعية ، ومدارها الطبيعة ساكنة ومتحركة وحية ، ومفردات حقولها الاحياء والكيمياء والفيزياء ... الخ . ومحاور البحث فى هذه الطائفة جملة من التصورات تعتد بموضوعية الخبرة «التجربة» وعموميتها ومايقترن بذلك من حتمية وصياغة مجردة رمزية . وكان لهذه الثنائية سندها الفلسفى فى المتواتر التقليدى ، جعل هذا السند العالم عالمين ، أحدهما عالم خارجى «طبيعى» جامد ساكن ، والآخر داخلى «إنسانى» موار بالرؤى والمشاعر والتصورات . ثم فصل ذلك السند بين العالمين فصلا حاداً ، فإذا

أراد الانسان «فهماً» لعالمه الخارجي ، فإن عليه أن يتوجه إلى أمر قد تم خلقه وإنجازه منذ البدء ، فهو سكون وجمود ، وإن عليه في توجهه هذا أن يتخلى عن عالمه الداخلي الموار المتحرك ، ليوفر لفهمه أكبر قدر من «الموضوعية» . من هنا كانت الحتمية في العالم الطبيعي وكانت الحرية في العالم الإنساني . بيد أن الأساس الجديد الناهض قد قوض تلك الثنائية تقويضاً ، فأعاد «توحيد» العالم ودفع في إدراك الانسان لعالمه أي فصل بين ماهو ذاتي وماهو موضوعي ، وبين ماهو اختيار وماهو إجبار ، وبين ماهو عام وماهو خاص ، وبين ماهو حسي وماهو مجرد ..الخ ، ولابد من وقفة هنا نطلب فيها التنبه اليقظ والالتفات القوي : ذلك أن وحدة المعرفة تتم الآن في ظل انتقالة بالغة الخطر والأهمية في التاريخ الانساني كله. وبيان ذلك أن البشرية تنتقل من طور الكتابة إلى طور الصورة . وليس معنى هذه العبارة زوال الكتابة ، إنما معناها زوال استقلالها . لقد ظلت الكتابة ، آلاف السنين ، أداة تدوين وتوثيق وحفظ وتوصيل ، لكنها صارت اليوم أضيق من أن تتسع لانهمار المعلومات والمعارف وتراكمها ، وأعجز من «تسجيل» تعقد الابداعات العلمية والفكرية والفنية وشمولها ، وأبطأ من تلبية حاجات هذه المعلومات والابداعات .

فإذا وقفنا عند الأصول القانونية والسياسية والمؤسسية للنظام العالمي الجديد رأيناها تتأسس بقوة على «الوحدة» التي وصفناها . يعرف التاريخ تلك الأشواق الانسانية الرفيعة إلى سلطة بشرية تقيم الميزان وتحقق العدل على الأرض، تلك الأشواق التي يقع عليها الراصد في الصياغات العتيقة أسطورية وملحمية ودينية ، وفي أحلام الطوباويين من أصحاب المدن الفاضلة ، وفي نضالات المعذبين والمجاهدين ، وفي أعمال الراسخين من أهل النظر والعمل ، وفي إبداعات الفنانين .. الخ ، ويجد هذا الراصد خاتمة تلك الصياغات في مشروع السلام الدائم الذي وضعه الفيلسوف الألماني كانط منذ قرنين . أما في زماننا فإن تلك الأشواق تتخذ تدريجياً صيغتها القانونية وقواعدها السياسية ونظمها المؤسسية : في البدء كان الأمر دعوة فكرية حرة . عندما تجمعت الغيوم القاتمة قبيل الحرب الثانية ، سئل برتراند راسل «ما العمل أيها الحكيم الجليل؟» فرد بإيجاز وحسم : حكومة عالمية . وعندما صار البشر في قلب الأتون الجهنمي لتلك الحرب ، سئل أرنولد توينبي «ما العمل أيها الحكيم الجليل؟» فرد بإيجاز وحسم : سلطة عالمية . لكن العالم انقسم بحدة بعد الحرب «تقسيم يالطا» إلى معسكرين متواجهين . وبعدأربعة عقود تماماً أعلن «مالطا ١٩٨٩» انتهاء الحرب الباردة ، وكان معنى ذلك انتهاء عالم القطبين

ثورة ونظام

وابتداء عالم الأقطاب المتعددة . وقبل هذا الاعلان بعقد بدأت مؤتمرات القمة الدورية التى تضم السبعة الكبار «الولايات المتحدة . ألمانيا . إنجلترا . فرنسا . كندا . إيطاليا . اليابان» كان هؤلاء السبعة يمثلون واحداً من القطبين القديمين ، وبتفكك الاتحاد السوفييتى طلبت روسيا الانضمام إلى السبعة ، فصاروا ثمانية . إن المؤتمرات الدورية لقمة الثمانية حكومة، بلا صيغ رسمية ، تدير العالم . إنها حكومة الأقوياء الأغنياء الذين تراكمت لديهم الوفرة والقوة والثراء إبان الثورة الصناعية ، ويجتهد الفكر الاستراتيجى فى توسيع عضوية هذه الحكومة ، بالوقوع على صيغ تتيح مشاركة قوى وأقاليم جديدة : بتوسيع عضوية مجلس الأمن «التفكير فى ضم : ألمانيا واليابان ومصر والهند والبرازيل للعضوية الدائمة» ، بتعديل أسس العمل فى الأمم المتحدة ، وربما بإقامة وعاء تنظيمى عالمى جديد بديل .. الخ ، والمبدأ لدى أصحاب هذا الفكر الاستراتيجى أن شرط قيام حكومة عالمية لها صلاحيات سيادية هو اتفاق جميع الأطراف والأقطاب والقوى والأمم على أسس متوازنة مرتضاة لعمل هذه الحكومة ، ولقد وضع بعض أصحاب الفكر المسئول مشروعات لمثل ذلك الاتفاق ، تحدد المبادىء التى تجعل هذه الحكومة العالمية تكتسب الشرعية القانونية والسياسية ، لكن الذى صار واقعاً أن منظمات ومؤسسات قوية للحكم العالمى قد قامت واستقرت وتولت صلاحيات سيادية مهمة.

● ثورة العلم

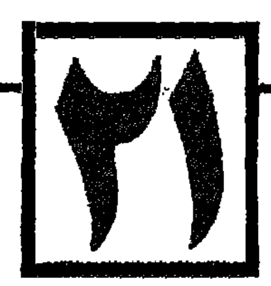
نستطيع القول بعد ما سلف إن ثورة تعم العالم جميعه فى وقت واحد ، هى الثورة الثالثة فى تاريخ البشرية الطويل ، ثورة مابعد الصناعة ، ثورة العلم وتطبيقاته والتوصيل والاتصال وشموله والمعلومات وتدفقها . يملك أسباب هذه الثورة ويقودها ويوجهها تلك المراكز المتقدمة التى حققت أشواطاً إبان الثورة الصناعية ولايملك من هذه الأسباب والقيادة شيئاً تلك البلاد التى تخلفت إبان الثورة الصناعية فعجزت عن المشاركة فى الثورة الثالثة ، لكنها لاتستطيع الافلات ــ سلباً ــ من آثارها ونتائجها . ويجنى القادرون ثمرات مشاركتهم قوة وتقدماً ويجنى العاجزون ثمرات تخلفهم ضعفاً وتخلفاً ، ويظل هذا الشرط التاريخى قائماً حتى ينهض القادرون بمسئوليتهم فتضيف هذه الثورة الثالثة إلى عالميتها إنسانيتها، وحتى يتم العاجزون بناء مؤسساتهم العصرية وإدارة حياتهم إدارة عقلانية ديمقراطية راشدة فيمكنهم المشاركة وجنى الثمرات إيجاباً . إن الأسس العامة لهذه الثورة الراهنة صارت حقائق لايمكن المراء حولها ، وصارت هذه الحقائق تشير منذ الآن إلى الوجهة البشرية المستقبلية ، فى

ثورة ونظام

ضرورة صبغ هذه العملية التاريخية الكبرى بالطوابع الانسانية التى تؤكد وحدة الحياة البشرية وحق كل البشر فى العيش المنتج المبدع الكريم . أولى هذه الحقائق أن العلم وتطبيقاته أصبح قوة إنتاجية ، وأن «المعلومة» أصبحت أهم «سلعة» . كان الأقوى والأغنى من يمتلك المواد الطبيعية الخام اللازمة للصناعة ، فأصبح الأقوى من يمتلك مصادر المعرفة وأصبح الأغنى من يمتلك أنفعها وأدقها . ونشأ موقف فريد : لم يعد الفيصل اليوم وغداً حجم امتلاك هذه الأمة أو تلك لمصادر الثروات الطبيعية ، وإنما صار الفيصل كيفية استثمار أعز الثروات ، الثروة البشرية ، وطرائق إعدادها للمشاركة فى إبداع العلم وإتقان تطبيقه. مصادر القوة والغنى لكل أمة اليوم مشروطة بأن تدير هذه الأمة حياتها إدارة عصرية ديمقراطية تؤهل طاقاتها البشرية للمشاركة والإبداع والتفوق والعيش الخصب المنتج . والحقيقة الثانية التى أخذت تستقر أساساً من أسس هذه الثورة الثالثة أن تطبيقات العلم جعلت الاتصال بين أركان العالم دقيقا محكماً حتى لقد صارت هذه الأركان أحياء ودروباً فى قرية صغيرة هى هذا الكوكب الذى يحيا عليه البشر ، والحقيقة الثالثة قاعدة فكرية مهدت للحقيقتين السابقتين ورافقتهما ونتجت عنهما فى آن واحد . هذه الحقيقة هى أن وحدة الحياة البشرية أصل أعم من كل تناقض . ها هنا ينشأ موقف فريد آخر ذو آفاق مستقبلية رحبة : حوار الثقافات والحضارات والقوميات ، وثمرة لهذا نضج اتجاه قوى إلى التفتيش عن المشترك الثقافى الانسانى ، وهنا ننص على أن هذا التفتيش لايعنى مواراة خصائص الثقافات المحلية والاقليمية وإهمال حقائقها ، بل إنه ليعنى ـ أصالة ـ إزدهار هذه الثقافات بسبيل تجادلها وتآثرها مع كل الثقافات . إن مايشترك فيه البشر أوسع وأعمق مما هم فيه مختلفون، وإن الوصول إلى المشترك بينهم إنما يتم بمعرفة وجوه التمايز والاختلاف ، ولهذا فإن النزوع إلى بيان المشترك الثقافى الانسانى يعتمد أول مايعتمد على المحاورة العظمى بين الثقافات التى أنجزها البشر أنفسهم .

عملية تاريخية عظمى : ثورة شاملة تغير الحياة على كوكب الأرض، يتأسس لها نظام عالمى جديد لإدارة الحياة على هذا الكوكب . وجوهر هذا النظام نفى القطبية ، واحدية وثنائية ، لأنه إنما ينهض على مشاركة عالمية عريضة . وأية أمة ساعية إلى المشاركة محكومة بقدرتها على اكتشاف قواها وطاقاتها الكامنة وتوجيهها إلى الإبداع والابتكار فى ظلال من الحريات والديمقراطية والعصرية .

مصر والعالم فى القرن



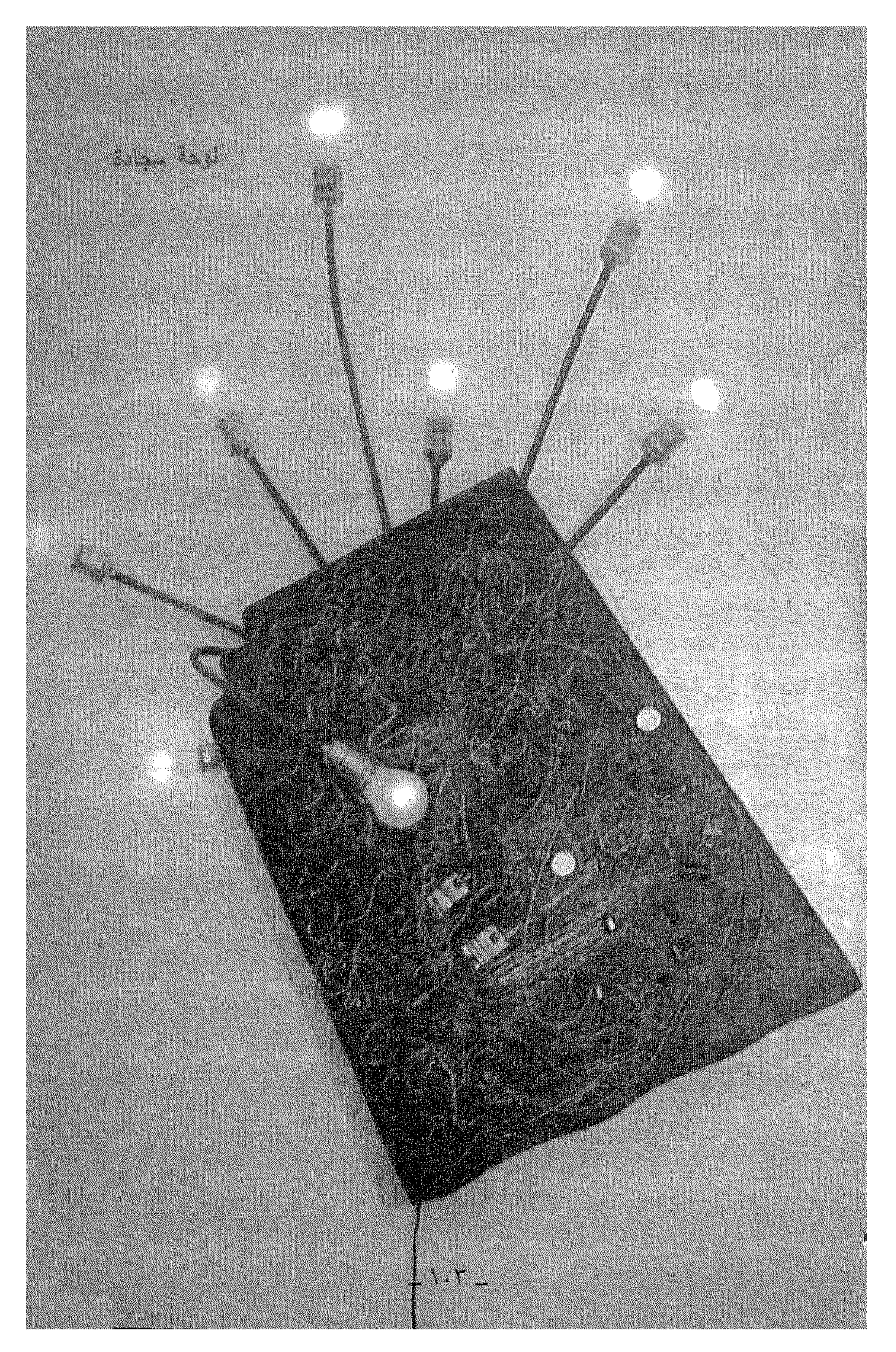
الفن التشكيلى فى القرن الواحد والعشرين

بقلم : د. صبرى منصور

يصعب على المرء أن يتكهن بما ستكون عليه حال الفنون التشكيلية فى القرن القادم ، وخاصة عندما يقترب من نهاياته . أما بداياته فإنها ستأتى بلاشك استكمالا للاتجاهات الفنية الموجودة على ساحة الإبداع الفنى اليوم .

إن سرعة التطور في شتي مجالات الحياة الإنسانية ، من سياسية واقتصادية وثقافية ، والتى شهدناها خلال السنوات القليلة السابقة وما أدت إليه من انهيار كثير من الثوابت الراسخة ، تلك السرعة قد تضاعفت قوتها كنتيجة لثورة الاتصالات، وسهولة تدفق المعلومات ، وتوافر المزيد من الوقت والراحة لدي الإنسان ، فإذا أضفنا إلي ذلك اتجاه المجتمع الإنساني العالمي إلي إعطاء قدر أكبر من الحرية للفرد في التفكير والتعبير مهما بلغ مقدار ما في أفكاره من جرأة ، فإن ذلك يعطى مؤشرا للإمكانيات المتاحة لفنان القرن القادم للكشف عن آفاق جديدة غير معروفة لنا اليوم .

الهلال يونيه ١٩٩٦



لوحة سجادة

فن القرن العشرين

ولقد انتهى القرن العشرون بمحصلة هائلة من الأفكار والرؤى الفنية ، فتعددت فيه المدارس والاتجاهات بسرعة فائقة ، وبعد أن كان أى اتجاه يظل سائدا لعديد من السنين فقد رأينا اتجاهات تتوالد من بعضها خلال سنوات قليلة ، ومنذ عصر النهضة الذى استقرت ملامح فنه حتى القرن السادس عشر ، ظهر فن الباروك والروكوكو ثم الكلاسيكية الجديدة خلال القرن الثامن عشر ، ثم تبعتها المدرسة الرومانسية فالواقعية ، وجاءت ثورة الفن الحديث مع مطالع القرن العشرين وقد فجرتها المدرسة التأثيرية التى تولدت منها مجموعة اتجاهات كالرمزية والتعبيرية والوحشية ، وتوالت الاتجاهات التكعيبية والسيريالية والتجريدية ، وبعدها ظهر على ساحة الإبداع الفن الشعبى وفن الخداع البصرى وفن الحدث والواقعية الجديدة . ويبدو أن هذا القرن كان قرن تجارب ومغامرات تشكيلية ، أو قرنا سعد فيه الفنان التشكيلى بحريته بعدما انطلق من أسر الأنظمة الدينية والسياسية التى كانت تكبل خياله بالقيود المنوعة، وتحصر إبداعه داخل أطر محددة ، فحلق فى سماء الخيال بحرية قادته إلى ارتياد مناطق مجهولة من عالم الإبداع ، معلنا عن حساسية فنية كانت مقهورة ومطموسة، كما جسد إبداعه قدرة الإنسان الفذة واللانهائية على التصور والتخيل والتركيب والإنشاء .

التجريدية وما بعدها

ولم تسفر تلك الاتجاهات الفنية التى تعاقبت خلال النصف الثانى من القرن العشرين عن ميلاد اتجاه قوى سائد ، ولقد بدا لفترة من الزمن أن الاتجاة التجريدى هو المرحلة النهائية ، أو هو محطة الوصول الأخيرة التى يبلغها أى فنان - وعلى الأقل سادت هذه النظرة هنا فى مصر - وذلك على اعتبار أن التجريد يمثل الشكل المصفى والقائم على علاقات تشكيلية خالصة ، وبالغ التجريديون فى تجاربهم التى تفرغ الشكل من أى محتوى حتى وصل الأمر إلى تقديم أعمال غريبة ، مثل ذلك الفنان الذى قدم لوحته خالية من أى رسم ، فهى عبارة عن قماش اللوحة يتوسطه ثقب ، معتمدا على ما يمكن أن يخلقه هذا الثقب من ظل أسود يتناقض مع فراغ قماش اللوحة الأبيض وما يثيره ذلك من أفكار لدى المشاهد . وواصل التجريديون تجاربهم المثيرة معتمدين على البدع والأفكار الجديدة الجريئة ، ووجد

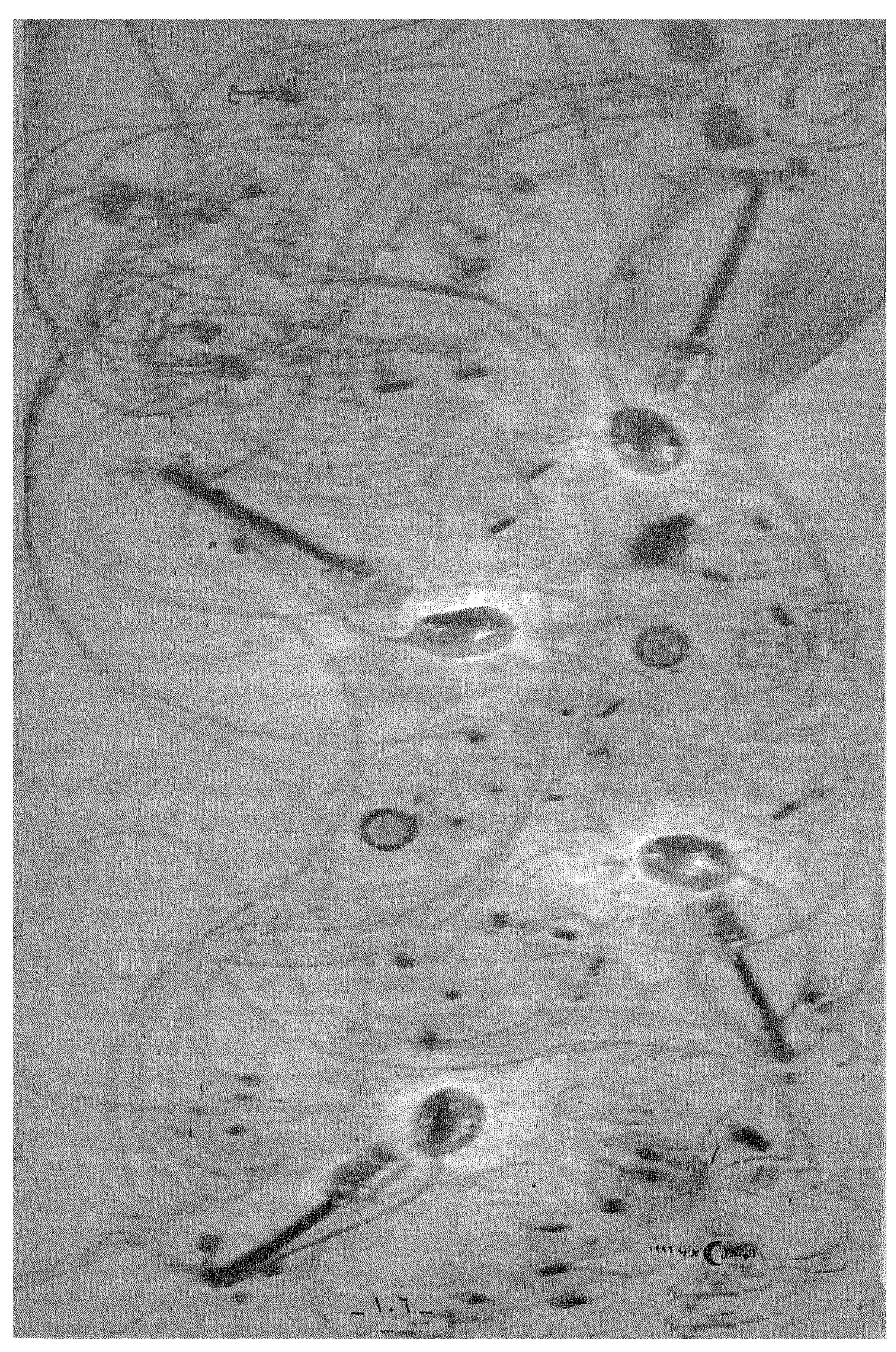
هذا الاتجــاة صــدى واسع النطاق فى العــالم ، وبدا أنه هو الفن العــالمى الذى اكتسح فى طريقه كل الاتجاهات الفنية الأخرى ، وزاد من انتشـاره مـا يبدو من سهولة أداء العمل الفنى التجريدى ، فهو لا يســتدعى خـبـرة كبـيـرة أو حـرفـة متمكنة، إنما يعتمد عــلى الفكـرة الفنية ذاتها فهى كــل مقوماته . ومن هنا تكاثر اتبــاع التــجـريد ممن لايملكون الموهبـة الفنيــة الحقيقية أو يملــكون أية رسالة أو يريـــدون التـعـبـيـر عن أية مـعـان ، فاختلط فيهم الحابل بالنابل ، فأى تلطيخ أو تشويه للسطح إنما هو فن تجريدى يتم اتهامك بالجـهل لو وقـفت أمـامـه حـائرا متسائلا .

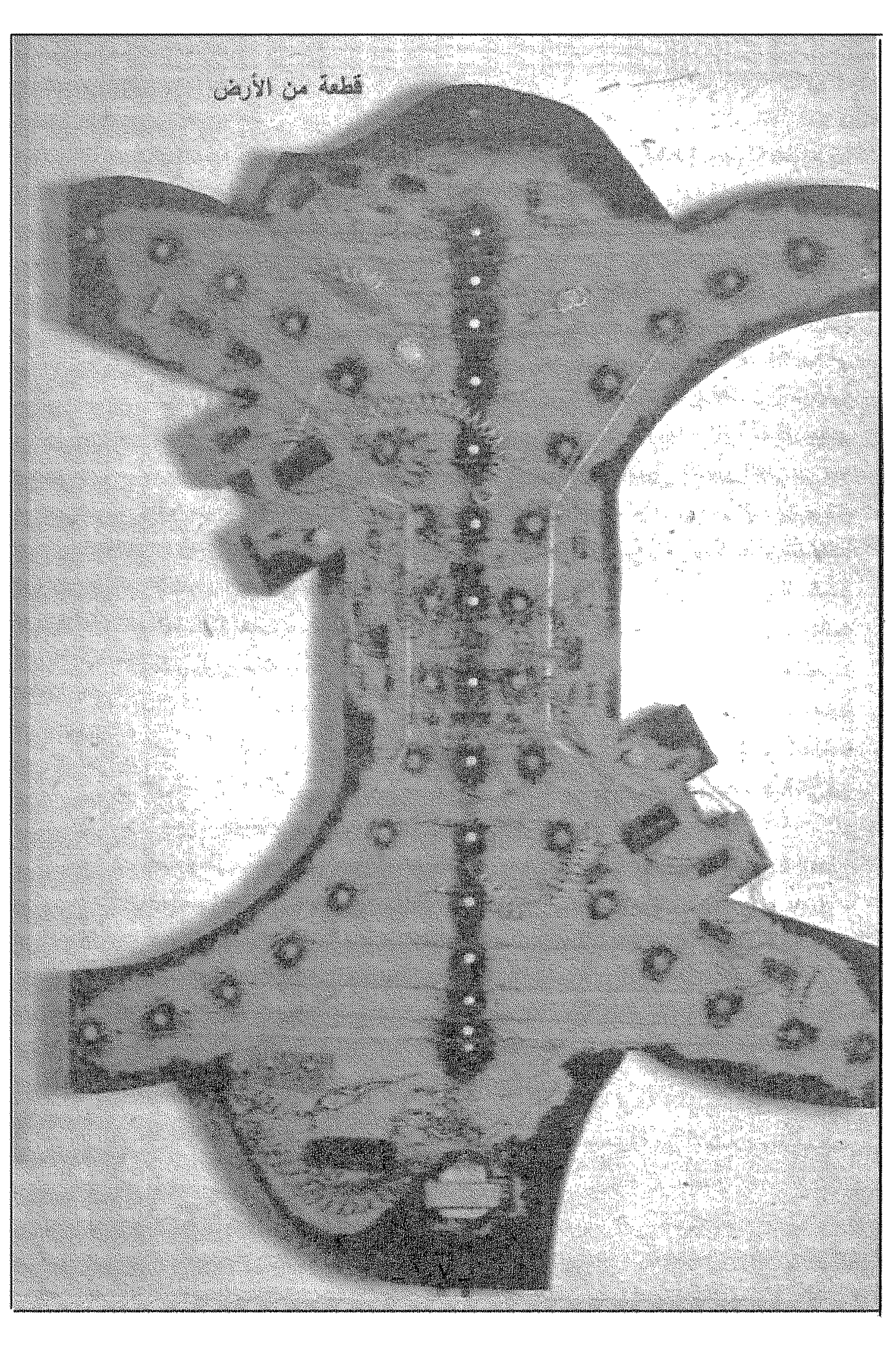
• لكن الإنسان القادر دائما على التفوق على ذاته ، ويملك عقله وخياله مقدرة فائقة فى تخليق الأشكال وتوليد الأفكار الجديدة سرعان ما نبذ التجريد ، وعاد إلى الواقع فى اتجـاه فنى جـديد كـان غاية فى دقـة الالتزام بالشكل الطبيعى بطريقة تفوق آلة التصوير فى التقاط أدق التفاصيل وهو ما أطلق عليه (اتجاة ما فوق الواقعية) وكان ذلك رد فعل مقابلا لما وصل إليه التجريد من إهمــال تام للتــعــامل مع الواقـع وعناصره.

● آخر اتجاهات القرن العشرين

ولقــد ســمح التنوع الهــائل فى الاتجـاهات الفنيــة - خــلال السنوات الماضية - للفنان أن يختار من بينها ما يلائمه فى التعبير عن شخصيته ، كما أتاح له الحـرية فى المزج فـيـمـا بين الاتجاهات وتخليق أشكال خاصة لاتنتمى بوضوح إلى اتجاه بعينه ، فهو قد يجمع فى عمل واحد ما بين الواقعية والسيريالية، أو الرمـزية والتـجـريدية ، أو عناصـر من الفنون القديمة والبدائية وقد صاغها فى قـالب حـديث . وكل هذا المزج والتـوليف يعتمـد فى النهاية على شـخصيـة الفنان وقدرته على الانتخاب والاختيار .

وهكذا أصبح كل فنان يسـعى نحـو استحداث صياغات جديدة مبتكرة لا تلتزم بأسلوب مـحـدد المعـالم ، وفى الوقت ذاته ذابت الفوارق بين أنواع الفنون التشكيلية، فـأصبح من الممكن تجـسـيـد عـمل فنى بواسطة التصوير النحتى مثلا ، أو النحت التصويرى الذى لا هـو نحت صرف ولا هو تصــوير خـــالص ، وإنما هـو شكل تم تخليطه وتوليفـه من عناصـر الفنين ، كـما برز على ســاحــة الإبداع أيضــا الشكل المجسم أو العمل الفنى المركب الذى يتآلف من عناصر عديدة مثل الأشكال المستديرة




قطعة من الأرض

ذات الحجم مع عناصر مرسومة وملونة ، وإضاءة مسلطة بطريقة معينة . تلك الحدود المستقرة التى تلاشت بين أشكال الفنون ، وتلك العلاقات المميزة للاتجاهات الفنية المعروفة التى اختلطت وتزاوجت ، كل ذلك قدم للفنان التشكيلى فى أواخر القرن العشرين نموذجا فريدا غير مسبوق للامكانيات الفنية الواسعة التى سوف يترك لموهبته الحرية والقدرة على الاختيار والتجريب دون قيود .

● فن التكنولوچيا المعاصرة

لاجدال فى أن الفنان التشكيلى هو دائما مرآة لعصره ، فهو فى إبداعه إنما يعكس روح زمانه وملامح مجتمعه ، ولقد كان للثورة التكنولوچية والصناعية التى عمت العالم العربى والأمريكى تاثير واضح على ابداع الفنانين ، سواء أكان ذلك من ناحية الموضوعات التى تناولوها وألقت الضوء على سمات العلاقات الإنسانية فى المجتمع الصناعى ، أو من ناحية الخامة الفنية أو الوسيط الذى يجسد به الفنان ابداعه ، ولقد ساهمت التكنولوچيا المعاصرة فى تخليق مواد جديدة لم يعرفها الفنان من قبل كالخامات البلاستيكية أو المعادن الجديدة وغيرها ، ولقد أقبل الفنان على استعمال تلك الخامات ليس فقط لسهولة تطويعها لأفكاره وإنما لأنه رآها أكثر تمشيا وانسجاما مع الحياة المعاصرة.

كما كان اكتشاف أجهزة الڤيديو والكومبيوتر وأشعة الليزر داعيا لاستفادة الفنان المعاصر من امكانياتها الكبيرة فى إبداع تختلط فيه أنواع الفنون التشكيلية مع الفنون التعبيرية مؤلفة لشكل جديد يمكن إضافته لأنواع التعبير الفنى .

وأصبح مألوفا اليوم فى قاعات عرض الفنون الأوربية والامريكية أن تشاهد معرضا فلا تجد فيه عملا فنيا مألوفا كلوحة أو تمثال ، وإنما تجد مكانا مظلما تلمح فيه أضواء وتسمع أصوات وتتحرك من حواليك أشكال من كل الاتجاهات لتعيش حالة من الإثارة والمتعة الجديدة على حواسك البصرية والسمعية فى آن واحد .

وتجسد الأعمال الفنية للفنان الأمريكى المعاصر «چاك دولهاوسن » نموذجا فريدا لأشكال الفنون المستحدثة فى أمريكا، والتى ترتبط ارتباطا مباشرا بملامح المجتمع التكنولوجى المعاصر، وعلى الرغم من أن لوحاته يتم تعليقها على الحائط كأية لوحة تقليدية، فإن سطحها يمتلىء بمجموعة من الأسلاك والوصلات

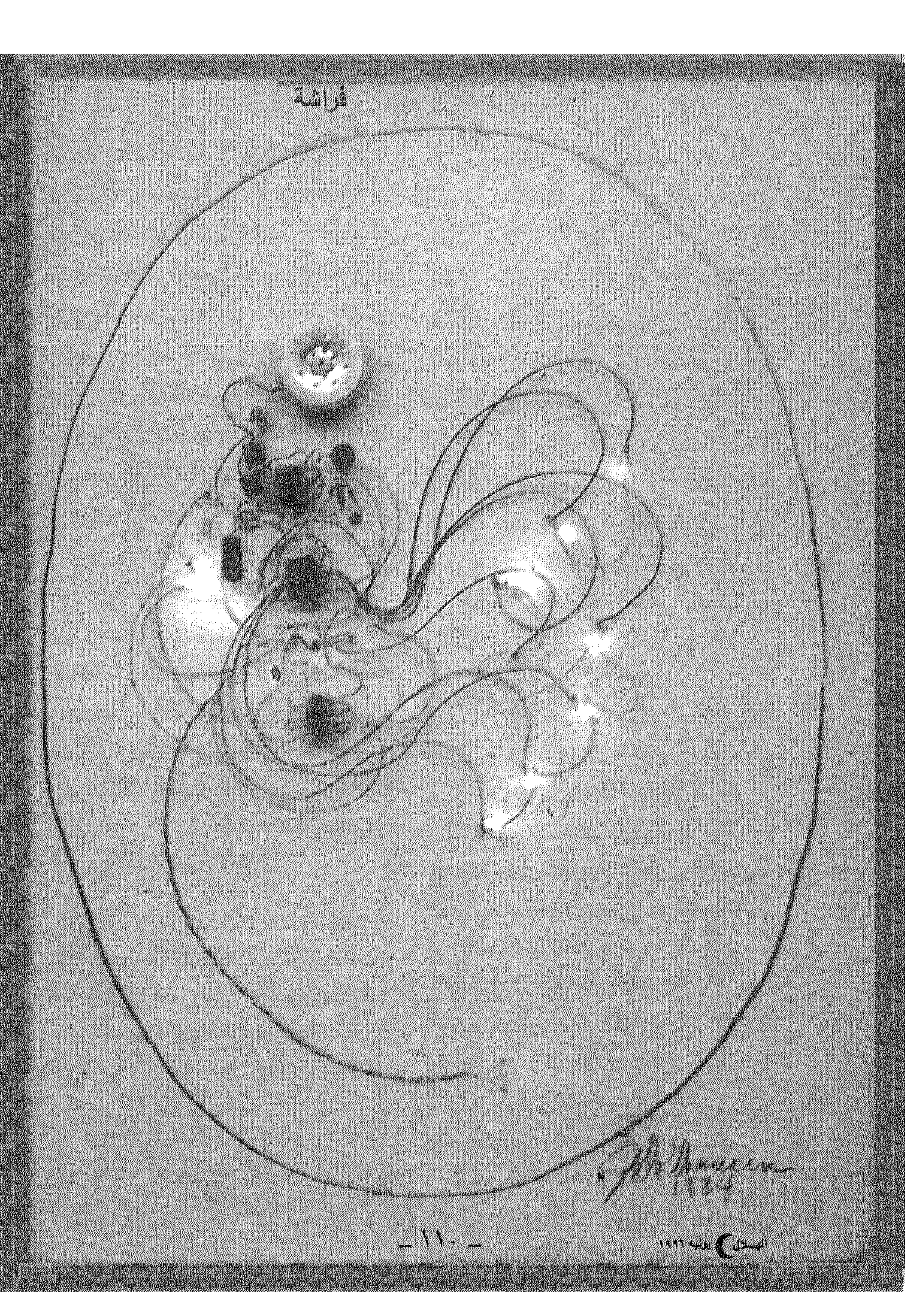
والدوائر الكهربائية، وحين يقترب منها المشاهد على مسافة معينه محسوبة فإن اللوحة تبدأ في العمل، فتضيء اللمبات وأجزاء من السطح وتقوم بدورة تشغيل كهربائية منتظمة أو غير ثابتة كما يمكن أن يصاحب الضوء بعض الأصوات التي تصدر عن احتكاك بعض الأجزاء، وعلى خلفية اللوحة ومن وراء الأسلاك تجد خطوطا وألوانا قام برسمها الفنان معبرا عن موضوع معين ، أو لكي يوحي به كما في لوحته التي أطلق عليها «فراشة» أو لوحته المسماه «سجادة» إن هذا الشكل الجديد للعمل التشكيلي لايفتقد لمقومات العمل الفني الجاد، فهو يحمل نفس القيم الفنية التي ستظل دائما وراء نجاح كل عمل فني ، وكل ما هناك أنه حدثت تغيرات في الوسائط المستخدمة بما يتلاءم مع روح العصر ويتمشى مع نوعية الحياة الحديثة.

● الفن في مصر خلال القرن القادم

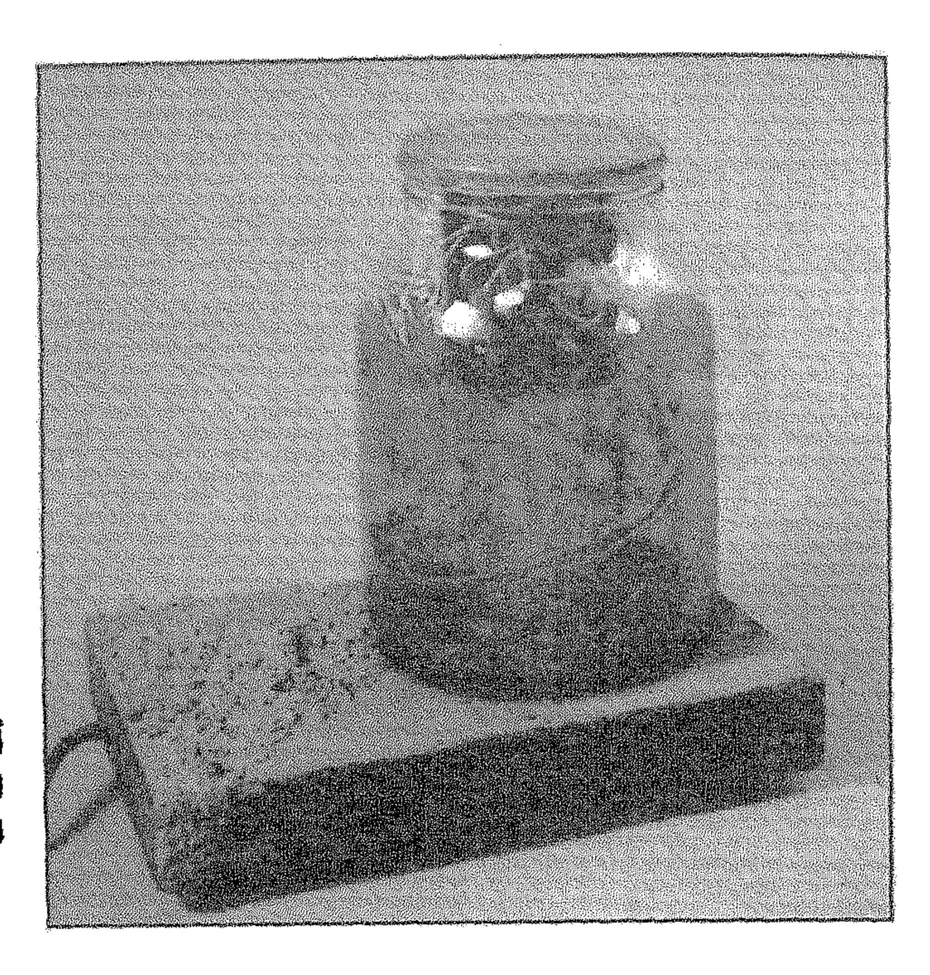
وفي بلدنا الذي لم يزد عمر الحركة الفنية التشكيلية الحديثة فيه على مائة عام فقط فإنه لم تتبلور فيها بعد رؤية خاصة واضحة نظرا للظروف الثقافية والاجتماعية والسياسية التي يمر بها المجتمع المصري، فهو مازال في حالة إعادة بناء حضاري لكل مقوماته لكي يكون مجتمعا صحيحا سليما يتمتع بما تملكه المجتمعات الأخرى التي سبقتنا في طريق التقدم الحضاري، فهو في حالة تتأرجح ما بين الصعود تارة والهبوط تارة أخرى، فلقد فاجأته الحياة الحديثة منذ أوائل القرن وكان يعيش في ظلمات القرون الوسطى ، فاختل توازنه الثقافي وخاصة في ظل التقدم الكبير للمجتمعات الأوربية والأمريكية وقوة تأثرها الثقافي بفضل وسائل الاعلام والاتصال السريعة، ولقد بدت في مصر خلال منتصف القرن العشرين ملامح تطور سريع و أخذ بأسلوب الحياة الحديثة في جميع المجالات الاقتصادية والسياسية والثقافية ، ولكن الخطوات التي اتخذت في سبيل التطوير والتحديث لم تستمر طويلا، وها نحن أولا منذ السبعينيات نعيش حالة من النكوص الحضاري ساهمت في حدوثه عوامل كثيرة ومعقدة نأمل أن يستطيع مجتمعنا تخطيها وتجاوزها .

وكما ذكرنا فإن الفن هو مرآة صادقة لأحوال المجتمع ، وصورة حية تجسد ما يعيشه من أحداث وما يعانيه من تناقضات، وهكذا فإن الفن التشكيلي في مصر يعكس لنا خلال قرن من الزمان نموذجا لعدم الاستقرار الثقافي واختلاطا في المفاهيم ربما يمتد أثره إلى بدايات القرن القادم.

وعلى الرغم من ظهور مواهب فنية



فراشة



أحلام ليالي الصيف

اثبتت قدرتها على الإبداع الفنى الأصيل كمحمود مختار وجمال السجينى فى النحت ومحمود سعيد وعبد الهادى الجزار وحامد ندا فى التصوير ، وغيرهم قليلون، فإن الحركة الفنية مازالت فى مفترق الطرق، ولم تخلق لنفسها تيارا قويا يستطيع أن يفرض نفسه ويؤكدها على ساحة الإبداع الفنى العالمى، فلقد تأرجحت تلك الحركة الناشئة بين مخزون ثقافى وتراث فنى ممتد عبر تاريخها القديم ، وبين اغراء تقليد الاتجاهات الاجنبية والتيارات الفنية الغربية رغبة فى مجاراة الحديث والانتماء إلى اشكال العصر، ولكى تتوازن تلك الحركة وتصبح قادرة على ابداع فن تشكيلى له قيمة حقيقية وأصيلة يضاف إلى رصيد الإبداع الإنسانى فإنها تحتاج إلى توازن ثقافى وثقة في النفس ، وقدرة على الاختيار والانتخاب بما يكفل لها استقلالية النظرة وتفردها . وذلك بالطبع لن يحدث لخلية واحدة من خلايا الكيان الثقافى ، وانما هو توجه عام يتبناه المجتمع وتكون له آثاره على جميع انواع الفنون ووسائل التعبير المختلفة.

شعر :

عبد الكريم دندى - دمشق



أنا فى بحر عينيك ارتحلتُ — أطوّف حول سرك ما حييت

يدافعنى إلى شطيك شوق — ويقعدنى عن الإبحار نعت

إذا غاض العطاء مع التدانى — فأى محبة صارت رفضت

أهامسك الكلام حديث وجد — وبى فرح الطفولة مذ نويت

ألوذ اليك من تعبى ويأسى — لأقتبس الهناءة ما أقمت

يحيرنى دلالك حين أدنو — ويذهلنى هتافك ان نأيت

عرفتك دوحة فيحاء تعطى — وحسبى من عطائك ماجمعت

أطامن هاجسى شعراً وأسلو — على هضبات صدرك إن قلقت

يراودنى الحنين على التلاشى — ويصلبنى الى الابداع صوت

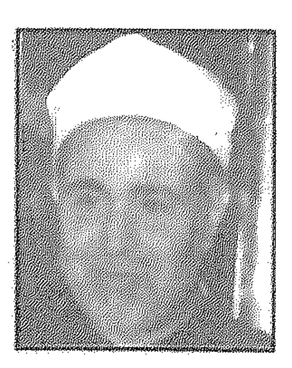
حسوت سلافة الفرح المصفى — فماد بى السبيل وما ارتويت

أعاين وجهك القدسى وهجا — يطهر كل مأزرة صنعت

تمور بخاطرى الدنيا نشيدا — يترجم فرحتى فيما حظيت

أذيع قصيدتى وامد صوتى — والتمس السعادة حيث شئت

أقوال معاصرة



د . سيد طنطاوى

ياسر عرفات



محمود درويش

● «ختان الإناث عادة وليست عبادة »

فضيلة شيخ الازهر الدكتور سيد طنطاوى

● «الجميع يرتكبون أخطاء»

الرئيس الفلسطينى ياسر عرفات

● «باق فى حيفا »

وصية الأديب الفلسطينى

أميل حبيبى

● «إذا كنا نلعب » مع اسرائيل » فشروط اللعب لسان بلسان ، لاطائرة ضد طائر»

الشاعر محمود درويش فى وداع محمود درويش

● «حرية الصحافة تتعرض لامتهان خطير »

فيديريكو مايور

مدير عام منظمة اليونيسكو

● «اذا توقفت عن الكتابة مت »

جابرئيل جارسيا ماركيز

الأديب الكولومبى الفائز بجائزة نوبل

● «الديمقراطية ليست شيئا يوضع فى الدولاب ، ويقفل عليه إلى الأبد»

كرس باتن – آخر حاكم بريطانى لهونج كونج

● «بلا صداقة ، نحن أموات »

الممثل الأمريكى الأسود

مورجان فريمان

● «السجن الحقيقي هو تلك الاكاذيب التي تم صبها فى أذاننا كقرع الطبول طوال جيل »

كين سارو – ويوا

الكاتب النيجرى الذى أعدم شنقاً

● «التهديد الذى نشكله ليس للكرة الأرضية وإنما لجنسنا البشرى»

جيمس لفلوك

العالم فى الجغرافيا الطبيعية

السينما

قفزة إلى الأمام

الأمر العجاب أن ما حدث قبل مائة عام يتكرر هذه الأيام ، والإنسانية على مشارف القرن الأول من الألفية الثالثة بعد الميلاد .

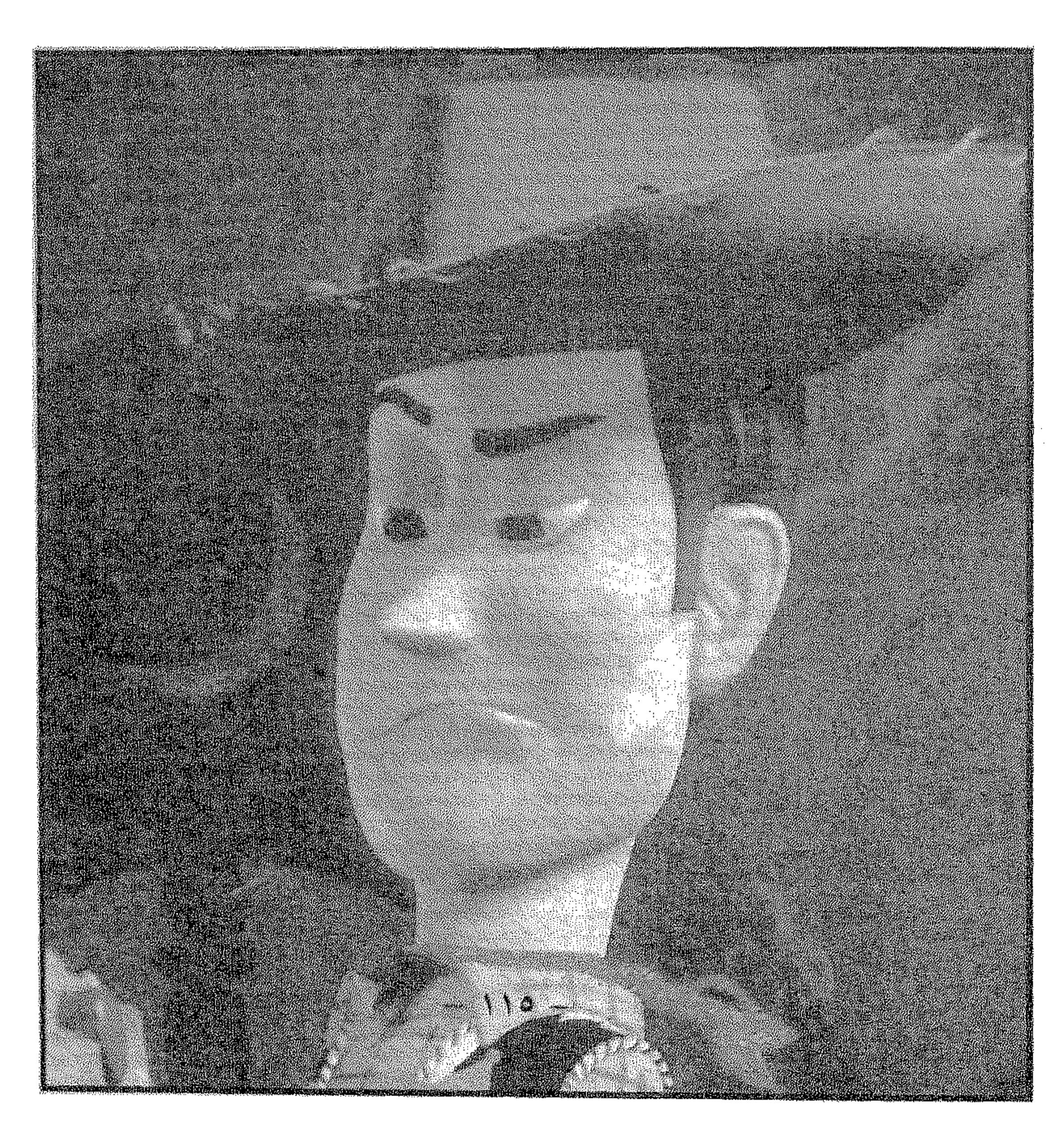


عام ٢٠٠٠

بقلـم :

مصطفى درويش

ففى فجر تاريخ السينما ، والقرن التاسع عشر لم يبق منه سوى خمسة أعوام ، أفسح بعدها الطريق للقرن العشرين ، تحركت الصورة على شاشة بيضاء معلقة على حائط بالصالون الهندى فى مقهى باريسى مطل على شارع كابوشين .



وكان تحركها أمام نفر قليل من المشاهدين لا يزيد عن ثلاثة وثلاثين ، بعضه جلس مذهولا مما يرى ، وبعضه الآخر حاول الفرار ما أن بدأ القطار يدخل محطة سيوتا فى أحد الافلام العشرة المعروضة ، وكلها بلا استثناء ، كانت غير روائية ، من ذلك النوع الذى عرف فيما بعد بالفيلم التسجيلى ، وكانت مكونة من لقطة واحدة ، مدتها لا تزيد عن بضع ثوان .

والغريب من أمر ذلك العرض ، وغيره من العروض التالية ، أن أحدا ممن شاهدوها لم يرد على باله ، أن تحرك الصورة ، إنما يؤذن بميلاد لغة مبتكرة ، وفن جديد سيكون لهما أثر كبير فى مستقبل قريب .

فالشىء الذى لاشك فيه ، إنه فيما عدا نفر قليل ، لم يسأل أحد نفسه ، على امتداد اثنى عشر عاما ، عما يمكن ان يكون لتحرك الصورة من التأثير فى مسار جميع الفنون بلا استثناء .

ولو كان ذلك النفر المعاصر لتحرك الصورة قد اجهد نفسه قليلا بالبحث والتفكير والتعمق فى ظاهرة التحرك هذه ، لكان من الممكن أن يتنبأ بأنها ستذهب بالفنون - وكانت ستة فى ذاك الحين - مذاهب لم تخطر لأحد على بال .

● مولد فن

ولربما كان تنبأ بميلاد فن جديد ، ذلك الفن الذى أطلق عليه الناقد الايطالى «ريشيوتو كانودو» الفن السابع .

وكان ذلك فى العام السابع من القرن العشرين ومع ذلك الاعتراف المتأخر بالسينما فنا سابعا ، أخذ ذلك الفن الوليد يتقدم رويدا ، رويدا ، حتى حقق من الرقى شيئا كثيرا !

فما أن انتهت الحرب العالمية الأولى ، حتى كانت عروض الأفلام قد انتقلت من الأسواق والمعارض والساحات الى دور أشبه بالقصور .

وحتى كانت أفلام مصنع الأحلام فى هوليوود ، قد غزت العالم ، مكتسحة أمامها إنتاج بلاد كان لها فى صناعة السينما شأن كبير . وما لبثت الأطياف فى الأفلام أن تعلمت النطق والعزف والإنشاد .

فراحت تتكلم كأحسن ما يكون الكلام، وتعزف وتنشد كأحسن ما يكون العزف والانشاد .

وما لبثت أن تلونت الأفلام .



الرحلة إلى القمر

ومـا لبـثت أن تسللت الى البيـوت ، بفضل التليفزيون ، فالفيديو ، فالهوائيات.

● التاريخ يعيد نفسه

ومـرة أخـرى ، هاهو ذا القـرن الذى شهـد تحول السينما الى فن جماهيرى ولغة عالمية ، يقترب هو الآخر من نهايته ، ليس بينه وبين القرن الواحد والعشرين سوى خمسة أعوام .

ومرة أخرى ، كأن التاريخ يعيد نفسه، يثور التساؤل عن أشياء كثيرة ، من بينها مستقبل الصورة المتحركة ، وما عسى أن تكون الاتجاهات التى ستدفع اليـها ،



السينما الآن

بحكم دخول الإنسانية عصر السرعة فى المواصلات ، والإنسان الآلى ، والحاسبات الالكترونية (الكومبيوتر) ، حيث يمكن تعبئة المعلومات بملايين الملايين ، ثم استرجاع ماهو مطلوب منها فى عشر معشار الثانية ، بل وربما فى زمن أقل من ذلك بكثير ، ونقلها بواسطة الأقمار الصناعية الى أى مكان يشاؤه الإنسان .

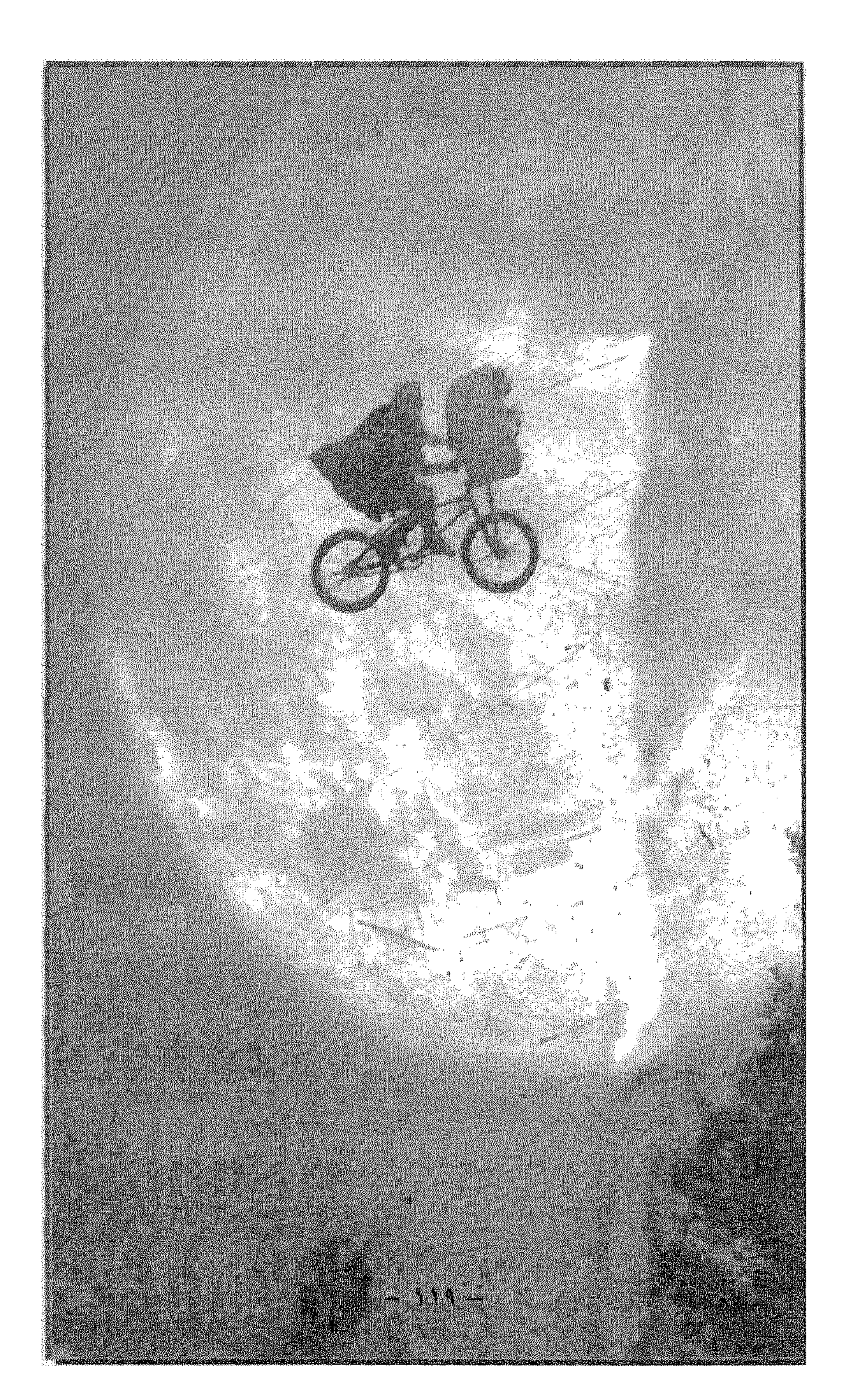
ومرة أخرى هذا التساؤل ، لا يلقى اهتماما إلا من قبل نفر قليل .

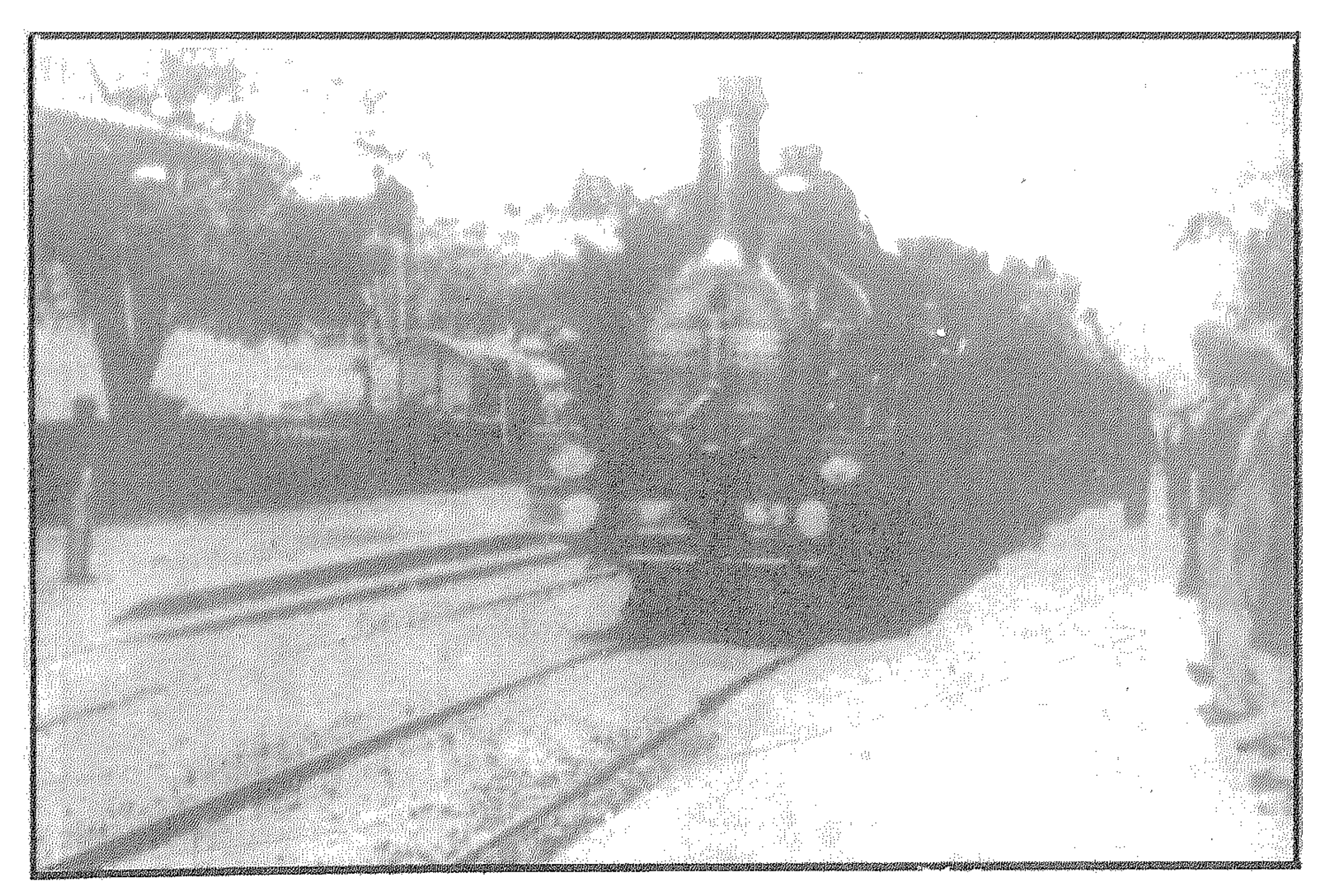
● تنبؤ وتفاؤل

وربما كان من اصطناع الدقة والحذر، الا نتنبأ هنا فى مصر بشيء متصل بفن السينما ومستقبله ، حتى بعد خمسة أعوام، وذلك لاننا لا نملك الأدوات التى تبيح لنا هذا التنبؤ ، خاصة وأن السينما عندنا متعثرة ، لم تواكب ، لسوء الحظ ، القفزات الكبرى فى علم وفن صناعة الأطياف ، وما أكثرها ، فى زماننا الحافل بجلائل الاختراعات .

ورغم ذلك ، وفى محاولة تطلع الى مستقبل فن السينما ، بعد خمسة أعوام ؛ أرانى مستبشرا خيرا .

فالرقابة على فن السينما ، تحت تأثير «الانترنت» واختراعات أخرى نرى تباشيرها منذ الآن ، ستصبح عديمة





قطار يدخل المحطة قبل ١٠٠ عام

الجدوى ، مثلها فى ذلك مثل سور الصين العظيم ، تحت تأثير القنابل الذرية والصواريخ العابرة للقارات .

والأكيد أن التحرر من نير الرقابة ، مؤداه بحكم اللزوم ، انتصار حرية التعبير عن معاناة الإنسان المعاصر بواقعية ، آفاقها بدون حدود وشطآن .

بيوت المستقبل

والأكيد .. الأكيد أن بيوتنا ستتحول .. بفضل الانترنت وما شابهه من اختراعات، الى مراكز إلكترونية كاملة ، شاملة للترفيه والتعليم .

وهكذا ، سيكون فى وسعنا ، ونحن ندخل القرن الأول من الالفية الثالثة ، أن نرى على شاشات كبيرة فى بيوتنا من الأفلام مانشاء ، وقتما نشاء .

وهذا لا يعنى أن دور العرض فى سبيلها الى الانقراض كالديناصورات .

فكما حدث للعروض من ارتقاء فى الربع الأول من القرن العشرين ، ستشيد دور سينما مجهزة بشاشات عريضة تعرض عليها الأفلام بطريقة الايماكس أو



سينما الخيال العلمى الآن

الاوبنماكس (أى الصورة فى اقصى مداها) .

● عرض واحد يكفى

وأغلب الظن أن عرضها سيجرى بوسيلة الارسال ، عن طريق الأقمار

وشىء كهذا ، يعنى توفير المبالغ الطائلة التى تنفق عادة على عمال العرض فى دور السينما ، وعلى طبع نسخ الأفلام، وعددها بالمئات ، إن لم يكن بالآلاف ، كما هو الحال مع معظم أفلام مصنع الأحلام.

إذ يكفى أن تعرض نسخة واحدة فى مدينة ، لتكن لوس انجلس أو لندن أو باريس ، ثم يجرى إرسال معلومات تلك النسخة الى قمر صناعى ، يكون همزة الوصل بين الفيلم ، وبين شاشات العرض أينما كانت ، كل ذلك فى وقت واحد ، وبوضوح رؤية غير مشوب بأى عيب .

وختاما ، فلا يبقى لى الا أن أقول أن الفن السابع ، مقبل مع بداية القرن القادم على تحولات مذهلة ، ليس فى وسعنا أن نتنبأ بتأثيرها إلا فى أقل القليل .

أما الكثير ، فأغلب الظن ، إنه قد يفاجئنا ، وعلى غير انتظار .

قصة :

لحظة بكاء

بقلم :
حسين عيد

بريشة
سميحة حسنين



(١)

شببنا على أطراف أصابع أقدامنا إلى أقصى ما نستطيع ، أنا وأخى وأختى التى تكبرنا بعامين . معلقين صرنا هناك ، على درابزين الطابق الثالث ، كحيوانات صغيرة مصبّرة ، مسمرين بفعل تحذيرات الام المشددة ، التى تمنعنا من النزول . نحملق إلى بير السلم . يدهشنا ما يجرى بأسفل .. ميزنا أولا صوت أمنا جهيرا قويا كما تعودنا ، غطت عليه زمجرة صوت خشن لم نفهمها ، وسرعان ما صفعتنا

صرختها حين استغاثت :

- الحقونى يا خلق !

سقطت قلوبنا هشة فى أقدامنا ، وحين ضاع صوت الأم وسط الصخب، فجعتنا وحدتنا ، فانهمرت دموعنا مدرارا، وارتفعت نهنهاتنا رفيعة ممطوطة ، تقطعها شهقات مفاجئة ..

لم نهدأ إلا حين رأينا أمنا بعيوننا ، وهى تصعد فى حضن أخى الأكبر ، برفقة بعض جيراننا ، فمسحنا دموعنا بأصابعنا الصغيرة ، وأشرقنا !

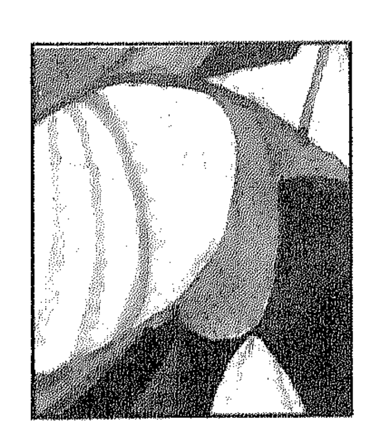
(٢)

إلتفت الجمع حول الأم فى صالة شقتنا القبلية . كانت تتصدر الكنبة الطويلة الممتدة الى يمين الباب مباشرة ، فى فراغ بين نهايتها والحائط المقابل ، انحشرنا ، نتابع ما يجرى صامتين . رأينا وجهها الأسمر محتقنا ومعالم الغضب ظاهرة عليه . إلى يمينها جلس أخونا الأكبر بجسمه العريض وإلى جواره زوجته ، وعلى الجانب الآخر جلست أختنا الكبرى وابنها البكر ، وبدت فى أماكن أخرى وجوه مألوفة لبعض الجيران .

إنجذبت عيناى إلى أزرار بذلة أخينا الصفراء اللامعة . كنت أحب أن أطفىء لمعتها بأصابعى ، ثم أبعثها وامضة من جديد حين أحكها بقماشة نظيفة . سمعته يقول ، بعد أن هدأت الأصوات :

- لم نزلت إليه ؟!

كان الحديث يدور حول العم الذى يسكن بدروم البيت . ومضى فى



خيالى بجسده الضخم ووجهه المدور وأنفه الأفطس . بدا باشا فى وجوهنا ، كما ألفناه .

دارت نظرات الأم بين الحاضرين . أيقنا أنها تبحث عنا . إنكمشنا فى وقفتنا . إستقرت علينا وجلة حانية . قالت :

- إشترى الحاج الأرض وبنى البيت وتركه يسكن مجانا ..

هفت رائحة مسك . هلت صورة الأب بالجبة والكاكولا والعمامة البيضاء . رأينا الأم تنكس عينيها .. « هل كانت تخفى أحزانها ؟!»

واجهت الجمع بجسارة :

- العبء كبر بعد موته . كان لازم أقول له يدفع إيجار ..

تدخلت جارتنا ، الست أم سامى ، ساكنة الشقة البحرية بالدور الثانى :

- كان ابنك ..

قاطعتها الأم ، وهى تهز رأسها :

- انه جبار .. كاد يقتلنى ، لولا وصول ابنى بالصدفة ..

تذكرنا صرخة الأم . تخيلت جسم العم عملاقا ، ينتفخ ، يتضخم ، يتمدد ، حتى يسد مدخل الباب ، يجثم على الأم يكاد يكتم أنفاسها ..

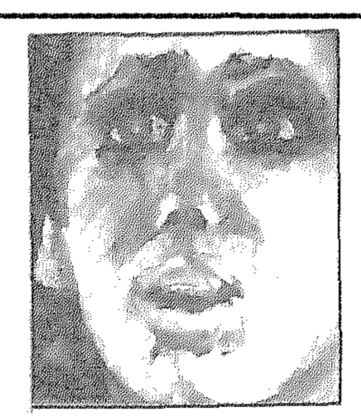
نهضت الست أم سامى :

- أظنه سوء تفاهم وسينتهى .. حسدكم الناس !

إستأذنت ، فوقف بقية الجيران . تحركوا نحو الباب ، يرافقهم صوت الأم بنبرات هادئة حزينة :

- رجل جبار .. جبار!

غاضت عيناى بالدموع . فكرت أن أندفع إليه ، اتحداه . أهاجمه ، كما تحدى سندباد وحش البحار ، فتنظر إلى الأم باكبار !



(٣)

وسط نهار اليوم التالى ، كنت أنا وأخى تحت سرير أمنا النحاسى المرتفع ، أحكى له مغامرات السندباد وأسرح معه بخيالى إلى بلاد بعيدة ، حين سمعنا طرقا مرتفعا على باب الشقة ، وصوت الباب يفتح ، ثم صيحة أختنا سريعة جزعة :

- عسكرى يا أماه !!

قفزنا الى باب غرفتنا الموارب . تابعنا أمنا تجفف يديها فى فوطة حمراء ، متوجهة الى العسكرى الذى سد فتحة المدخل ، ردد سؤاله خشنا مرتفعا :

- إنت الست انصاف ؟!

هبت رياح خوف مباغتة ، وبانت نذر مهددة ..

أومأت الأم برأسها ، فتدافعت كلمات الرجل :

- أنت مطلوبة فى القسم ، لأنك تعديتى على أحد من السكان ..

ضربت الأم صدرها جزت على أسنانها تلفتت حولها حائرة . أمسك بنا رعب أعمى ، شعرت بأخى يلتصق بى..

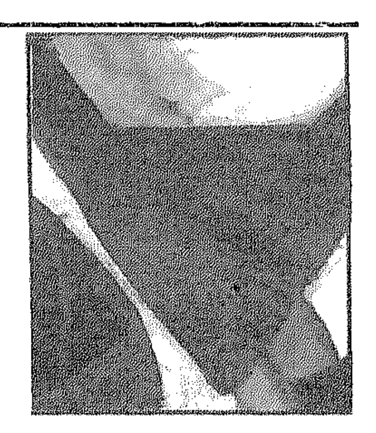
تناولت طرحتها السوداء من فوق الكنبة . لفت أطرافها على رأسها وكتفيها ، وكمن تحدث نفسها :

- أكثر من عشر سنوات لم يسمع أحد لنا صوتا إلا بالمعروف ..

سلطت عينيها علينا :

- إياكم أن تفتحوا الباب ، حتى أعود !

أغلقت الباب وراءها أنصتنا إلى وقع خطواتها



وهى تتبع الشرطى أسقط فى يدنا . صرنا محاصرين فى جب عميق كفئران ، والعدو يترصد خطأنا فى الخارج !

(٤)

عادت أمنا من قسم الشرطة بصحبة أختنا الكبري . خلعت طرحتها السوداء وطبقتها عدة طبقات رأينا وجهها عابسا ، وقد تدلت بعض حبات عرق على جبهتها سمعنا صوتها خافتا :

- إتهمونى إنى تعديت على شقة ساكن بالدور الأول فى غيابه ، وكسرت زجاج شراعة الباب ..

رأتنا ننظر إليها باشفاق واجمين . تنبهت قالت بصوت غريب : - إطمئنوا ، لم يحدث لى أى شيء .

نظرت الى ثلاثتنا ، وأشارت إلي حجرتها :

- إدخلوا . العبوا هناك ..

جرجرنا أنفسنا بصعوبة ، كنا واثقين أنها تحاول أن تخفف عنا وكنا نعرف أنها لم تخلع الملابس السوداء منذ وفاة الأب ، لكنها المرة الأولى التى نراها بهذا الحزن .. أغلقنا الباب . قال أخى :

- نتصارع ؟!

أشحت عنه . وانصرفت أراقب شبحى الأم وأختنا الكبرى من وراء زجاج باب الحجرة المغمش وهما تتهامسان سمعت صوت نشيج قريب . إلتفت . رأيت أختنا تبكى وتسح دمعاتها على خديها . رفعت إلى عينيها . تساءلت :

- لم يؤذ أمنا ؟!

عرفنا من تقصد ، ولم نعرف بما نجيب ..

فجأة جلجل صوت الأخ الأكبر هادرا :

- أيظن أنه لا يوجد رجال وراء المرحوم ؟!

لعله وصل الآن ، ثائرا مما حدث ، لأننا سمعنا أمنا تقول :

- أقعد يا ابنى استعذ بالله

- بالأمس حاول قتلك، واليوم لفق محضر تعد ..

- أقعد يا ابنى .. ربنا كبير .

باخ اللعب . رأينا شبح الأخ ، من وراء الزجاج ، يلتصق بهما ، فتتشكل سحابة داكنة ، تمتد وتتسع ، لتبتلع كل الأشياء حولنا ، حتى تمتنع الرؤية !

(٥)

كيف مرت تلك الأيام ؟!

كيف انقضت ؟!

أمنا دجاجة وادعة أمام وحش كاسر . وكنا كتاكيت مشاكسة، أخذتنا تحت جناحيها وحذرتنا ، والحت فى تحذيرنا مرارا وتكرارا ، بالابتعاد عن طريق العم وأولاده ، وعدم الانصياع الى إغراء اصطحابهم الى أى مكان مهما قرب أو بعد . ونتيجة لذلك لم يعد مسموحا لنا بالنزول الى الحارة أو اللعب مع أولاد الجيران . ولم تتوان الأم فى فرض رقابة مشددة علينا ، بدءا من نظراتها ، إذا ما بدر من أى منا تصرف لا يرضيها . وكنا نعى أنها تخفى راء تلك النظرات عقابا قاسيا لمن تسول له نفسه أن يتهاون فى الطاعة أو يتمرد !

هكذا انزوينا فى شقتنا ، وندرت زيارات أمى التى كانت تقوم بها سابقا للجيران وبالتالى قلت زياراتهم لنا ، فأصبح إغلاق باب شقتنا هو القاعدة ، بعد أن ظل مفتوحا ، طوال اليوم لسنوات طويلة ، خلال حياة الأب . وتدريجيا ، أصبحنا محاصرين بين جدران غرفة الأم ، وصار ملعبنا مستطيلا ضيقا من الأرض تحت سريرها النحاسى العالى ، خاصة عند مجىء زائر ، فاذا الأم تلاحقنا بعينيها ، فنجر أذيالنا إلى حجرتها، حتى لا نتابع أحاديث الكبار !

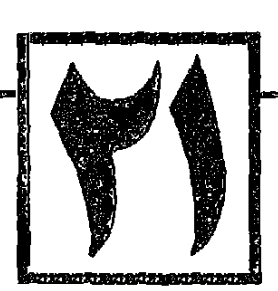
حتى جاء يوم ، سيظل معلقا فى ذاكرتنا بعد ذلك ، لسنوات طويلة، ولن يتيسر لنا أن ننساه .. كنا كما تعودنا فى تلك الأيام ، تحت السرير نلهو، تاركين الأم مع أختنا الكبيرة تتحدثان ، حين سمعنا صوتا أجشا يتردد ، خيل إلينا أنه يأتى من أغوار بعيدة . نسينا لهونا . تسللنا فرادى كفئران مذعورة . توقفنا على باب الحجرة المفتوح . إشرأبت رءوسنا فغرت أفواهنا . رأينا أمنا الكبيرة أنصتنا لصوتها مختنقا تنفلت منه بصعوبة كلمات مبطئة متحشرجة :

- سأبحث .. عن .. سكن .. بعيد !

إنخرطت تنشج ، فاهتز جسمها بعنف . كانت تحرص أن يظل نشيجها مكتوما فى صدرها ، حتى لا يصل إلينا صوت انتحابها .. مذهولين كنا ، غير قادرين على تصديق ما نرى ..

للمرة الأولى ، كانت تبكى !!





رؤية مسرحية

مفتاح المسرح

بقلم : فوزية مهران

هل يتصدع الفن المسرحى في القرن القادم ؟!

إن مجرد خروجنا من بيوتنا لمشاهدة المسرح والالتقاء بجموع من الناس هو رغبة فى المعرفة أكثر وفى احتضان تجارب الآخرين والاستمتاع بمشاعر إنسانية والمشاركة - وهى لذلك عملية تحرر كاملة

هل يمكن الحياة بلا مسرح ؟!

فى عالم تزلزله الانقسامات والفتن والحروب .. تلهبه ضربات الطبيعة واختلاف درجات الحرارة أو تصاعدها وتفجر البيئة ..

تروعه الانتفاضات والهبات الغريبة ، وتوحش عمليات القتل والإبادة .

تبهره الاكتشافات العلمية وترهقه ألعاب الكومبيوتر وفساد شبكات الانترنت وأمراض العصر .

عالم تديره تغيرات هائلة في القيم والأخلاق والسلوك مفارقات في الايقاع وتفاوت مستوى المعيشة وتنوع أسباب الموت

مسرح حى على مسرح الحياة وفى أرض الواقع ملىء بالمتناقضات وألوان الصراع أعتى من الأساطير القديمة وقصص الغابرين - والمسرح كيف يكون ؟

هل يتصدع الفن المسرحي في القرن القادم في عالم مليء بالثقوب والاختراقات ينهار وهو يعاني من الإسفاف والهبوط أم يستمر فى المقاومة وقد تدوي علي خشبته صيحة فلاحنا الفصيح من جديد.

هل يندثر المســـرح أم يزدهر في العشرينات الأولي من القرن الجديد ..؟

يظل أبا للفنون ومركز الثقل والجاذبية

أم ينتقل الى مواقع أخرى تبعا لتقنيات جديدة ؟

ترى هل يذوى الفن المسرحى ويفنى تماما فى الفن السينمائى ويشاهد المتفرج تصويرا للعرض المسرحى القديم أو الحديث ، وقد لاتكتفى السينما بتسجيل المسرحية وأداء الممثلين بل تقدم إخراجا سينمائيا لها وتنطلق بامكانياتها الساحرة لتصوير الأماكن الحقيقية التى يجرى فيها المشهد أو الحدث . ويمكن أن تعد إضاءة خاصة بها وتختار أثناء العرض ألوانا من الضوء والانعكاسات .. وتتدخل فى السرد بلقطات سريعة متتالية .. أو تلعب لعبتها الكبرى فتغير البطلة أو الممثل - طريقة «السيبستار» العودة بالممثلة الراحلة والتى مازال الناس يذكرون طريقتها فى الأداء أو الإغراء وذلك من خلال تغذية جهاز كومبيوتر بمئات الصور السينمائية للنجمة .

المسرح يمكن أن يتخلى عن كل شىء إلا الممثل ولكن هل يمكن أن نتصور مسرحا بلا جمهور ؟

المسرح يتوجه الى جمهور .. جماعة .. كيان هائل من البشر تسرى بينهم مشاعر وأفكار .. وتثار اسئلة وتعلو أحلام وينبثق من بينهم تيار للوعى وتوحدهم لحظة إنسانية واحدة .

فهل يتوجه المسرح فى المستقبل الى فرد .. أو أفراد متفرقين .. معزولين فى غرف مغلقة .. معتمة أو شاحبة الضوء .. والقبلة فيها جهاز كمبيوتر أو شاشة الانترنيت .

وهل يعزل العمل المسرحى عن غايته وتصدعه حدة المفارقة أن يكون ساحة للابداع ومكانا للتأمل والاهتمام ، ومقام بهجة ومعاناة وملتقى للمشاركة والاقتراب والدفء الإنسانى فإذا به شىء عرضى يمكنه أن يأتى أو يتلاشى بمجرد لمس زر صغير ولايقوم بعمله أو مهمته .

لقد جاءت مسرحية «الشقيقات الثلاث» لتشيكوف قبل الثورة الروسية «جاءت مثل نبوءة ثورية» ..

جاءت معبرة عن الحركة الداخلية لأبطالها وعمق معاناتهم ومشاعرهم .. جاءت برقيتها ولغتها الشاعرية مثل عاصفة تدعو إلى التغيير وتطلع الناس الى حياة جديدة والرغبة فى التخلص من الركود والترهل الاجتماعى والسياسى والملل واللامبالاة وتحقير العمل .

المسرحية تنتقل من المعاناة الذاتية الى آلام أمة بأسرها ومأساة الإنسانية . الشعور بالعجز والترهل وأناس يعيشون

بلا دور أو هدف ودون أن يعرفوا لماذا يعانون على هذا النحو .

يقول أحد الشخصيات ،هل بإمكاننا أن نبدأ حياتنا من جديد ونحن علي وعي بما نريد أن نحققه ؟

لنفرض أن في إمكان الواحد منا أن يستخدم حياته الماضية كمسودة لحياة أخري جديدة ونحاول أن نعيد النظر في أسلوب حياتنا ..

وبعد مئات السنين ستقوم حياة جديدة .. ويجب أن نعمل ونعاني اليوم حتي يتسني لهذه الحياة أن تقوم ..،

وتسرى نغمة منعشة - الشقيقات الثلاث مازلن وحيدات يعانين .. ولكن «يجب العمل وأن نبدأ من جديد» ..

أليست مسرحية ونبوءة حقا .. لمجتمعات كثيرة فى العالم الآن . ولواقع العصر الحديث ..

نحلم بالحب .. بالعمل .. بمجاوزة إحساس العجز والهوان إلى آفاق الحرية والوسع ومعانقة الحياة .

هل يتوقف هذا النوع من المسرحيات .. الذى يوقظ الهمة ويثرى الضمير والوجدان ويدفع بنا المساندة والاقتراب والعمل الخلاق .

لقد فوجئت ذات ليلة فى نهاية السبعينات بأن تذاع مسرحية الشقيقات الثلاث نقلا عن التليفزيون الفرنسى وقد أعدها الكاتب المسرحى «أداموف» .

التليفزيون وتطوير الفكر

أحسست بالفعل بجدوى التليفزيون وأهميته فى إثراء تجاربنا ومعرفتنا وتطوير فكرنا ونحن نجلس داخل بيوتنا .

لكن لو قدر لنا أن نعيش الى مطلع القرن الواحد والعشرين .. وامتلاك مثل هذه الشبكة السحرية - الانترنيت - وهو ضرب من المستحيل - العصر القادم لأصحاب الأموال والأرقام الخيالية - ولكنه فرض مجازى يمكننى عقد دراسة مقارنة لذات المسرحية فى أماكن عدة ... وهى فرصة للباحثين والدارسين ومن يتابعون تراث الإبداع المسرحى .. وهذه من أهم نتائج هذه الاختراعات الحديثة .

هل تظل نبوءة .. وتحدث فعلها على أرضها .. وتبشر بعهد جديد .. أم تنوح على التمزق الذى حدث .. وشق جسد الأوطان والاقتتال تصبح مجرد بكائية

رؤيـــة مســـرحيــة

محزنة داخل الحجرات وبين الجدران وتؤجج الوحدة والانعزال والضيق ؟

ويتوقف أثر «فعلها» المسرحى الجميل وتصاعد لحن الأمل ، رغم المعاناة .. علينا دائما أن نبدأ من جديد .

وثمة خطورة محدقة أكبر وأشد .. شبكة الانترنيت العصرية المتقدمة .. يمكن أن تتحول الى أداة شر ودائرة سوء . لقد قررت حكومة اليابان أن تتدخل لمكافحة الجرائم التى يرتكبها المشتركون فى خدمة هذه الشبكة - وتكليف وحدة من الشرطة بتعقب الذين يرسلون الصور الفاضحة والعبارات المبتذلة .

بل وفكروا .. كأكبر دولة منتجة للكومبيوتر - فى إرسال فرقة بوليسية للتدريب بمنظمة الانتربول .

وهكذا تتحول وسيلة اتصال عصرية لاتؤدى الغرض منها وتصبح أداة انزواء واعتزال بل وتنقلب الى شبكة للجريمة وملهاة فى أيدى العابثين ومحترفى الفساد.

والأمر يسير الى منحنى خطير .. فمن الذى سيمنع ويصرح .. ما القوة التى ستراقب وهل توضع رقابة أم وصاية .. وهل يصل البوليس الى داخل الحجرات؟

وهل تتولى كل دولة هذه المسألة أم أن هناك تنظيما عاليا «وأبا روحيا» أو «أخا كبيرا» يهيمن على الرؤى والعقول وداخل الأجهزة وجدران البيوت .

ليس عبثا ماقاله بطل مسرحية «ضحايا الواجب» ليوجين يونسكو: «المسرحيات التى كتبت من عصر الأغريق القدماء وحتى العصر الحديث ليست أكثر من إثارة ومسرحيات بوليسية .

كلها عبارة عن تحقيق يفضى إلى نتائج طيبة - أو لغز يتم حله فى المشهد الأخير !!

ويستمر البطل فى صيحته : «حتى الكلاسيكيات ليست أكثر من مسرحيات متقنة «الحبكة» والقص فيها على الطريقة البوليسية أيضا .

أيونسكو وبيكيت وأداموف وغيرهم أحدثوا ثورة على المسرح بالفعل . وابتعدوا عن منطق أرسطو وعناصر الدراما التقليدية من الحبكة والشفقة والتطهير .

قدموا رؤية جديدة وتحليلا جديدا .. وحسب تقدم العلوم والمنطق الرياضى الحديث أعادوا اكتشاف منظومة الدراما بعيدا عن منطق السببية والواقعية أو

الواقعية الاشتراكية .

وعن طريق الحلم يمكن اكتشاف الحقيقة فى اليقظة .. وعن طريق السخرية ومزج الضحك بالمأساة يمكننا الوصول الى نسق جديد من التصور .. وكشف قوى التناقض :

يحكى لنا أداموف أنه رأى مشهدا صغيرا - «ألقى إليه بوهج الحقيقة الدرامية فى الأشياء العادية من حياة كل يوم» .

رأى شحاذا ضريرا يعبر الطريق بمفرده وفتاتين جميلتين تمران من أمامه تغنيان بأغنية قديمة .

يقول أدركت مدى عزلة الإنسان - وحدته - فقدان التواصل بين الناس . ذلك النوع من التفكير النقدى الحديث .. كان كفيلا بتحريك مشاعر إيجابية وإيقاظ الروح ودفعنا للحوار .. للاقتراب والمشاعر المشتركة .

والمفروض فى الآلات الحديثة أن تسهم فى راحة الإنسان وتسهيل سبل العيش وإطلاق المزيد من قدراته الإبداعية والإنسانية .

ولكن هى نفس الآلات التى تباعد بينهم وتمزقهم وتجعلهم جزر موحشة متفرقة ومتباعدة - ومنطوية على ذاتها - والكل يدع الآلة تنتقى له وتدفع عنه .. وتوصل إليه الطلبات والصور المرئية وأسباب الوحدة والاكتئاب .

المسرح سيستمر

أعتقد أن الفن المسرحى سيقاوم وسيعمل من يحبون المسرح على بقائه وتطويره .. ونشر رسالته .

ربما بعض الحكماء والأطباء يعالجون أمراض القرن الجديد من الاكتئاب والبلاهة وفقد القدرة على الاتصال .. بمشاهدة المسرح الحى .. ليعودوا الى دائرة الإنسانية .

قد يتجه المسرح الجديد الى التاريخ .. ليس بقصد الغوص داخل أحداثه .. ولكن من أجل تحريك مجرى التاريخ الحديث . وإلهام الناس على الفعل والحركة وإيجاد صيغة حقيقية للتحول والتغيير .

من أجل أن نكشف عن مناطق القوة والدعم للتقدم وعلى مستوى إنسانى ويلهم حركتنا فى اللحظة التاريخية الآنية .

الأمل معقود على الشباب .. القدرة على التصور والتجريب حتى على مادة كلاسيكية .

فى السنوات الأخـيـرة من القـرن العـشـرين قـدم المخـرج العـربى «جـواد الأسـدى» مع فـريق مسـرحى من شبـاب المسرح .. رؤية جديدة لمسرحية «هاملت» وسماها شباك أوفيليا .

ومن خلال تلك النافذة شاهدنا الخيانة والجريمة – كنا جميعا هناك من الشهود والحضور .

تمت المأساة تحت أعيننا ..

الأمل مـعـقـود على مـثـل هذه الفـرق المسـرحيـة المدربة ويصـبح المسـرح بيتـهـا وعائلتها ومنبر فكرها .

من يدرى ربما شب من بينهم فـتى عـربى وقـدم لنا «شـبـاك بيـريز» حـيث شـاهدنا المذبحـة التى جـرت والجـريمة المدبرة للبنان.

المستقبل مرهون بقوة شباب المسرح

وإذا كنا شـاهدنا فى منتـصف القـرن العـشـرين صـيـحـة الشـبـاب المسـرحى الغـاضب وشعـار زعيمـهم «انظر خلفك فى غضب» .

فـأظن أن العـالم فى بدايات القـرن الحادى والعشرين سيشهد حركة مسرحية شـابة تتـخـذ لهـا شـعـارا دالا «انظر الى الأمام فى أمل» .

مـجـمـوعات ودوائر مسـرحـيـة تقاوم بطريق الفن والابداع – ويقدمون عملهم – فى أى مسـاحـة خـالية – مـقـهى – سـاحـة فضـاء – جـراج – جرن فى القرية – قاعة عرض لوحات تشكيلية .

قـد يغـيـروا ويطوروا فى التـقـنيـات المسـرحـيـة – فى الأداء والحـركـة وإيجـاد النص أو استلهامه واستكماله على مراحل وفترات ..

و لكنهم يتـمـسكون بقـيـمـة العـمل المسـرحى كـضـرورة حـيـاة وأداة نضـال وتحرر ووسيلة اتصال بين الناس .

هذه المجـمـوعـات المسـرحـية المثـقـفـة الواعـيـة قـد تشـارك فى تأليف جـمـاعى وتنطلق من فكرة – من حـــادثة – من موقف معين وقد نصل الى مسرح المخرج المؤلف

وقـد شـاهـدنا بداية شـروق هذا الأمل الجديد فى ومضات وأظنها تكتمل حلقاتها وتستقوى فى العصر القادم .

تبـرق ذاكـرتى لفـتـيـة قـدمـوا عـمـلا جماعيا فى عيد بورسعيد القومى – منذ أكثر من عشر سنوات –

فرقة من الباحثين والشعراء والمغنيين والمؤدين .. بحثوا عن تاريخ «الفرما» ذلك الموقع الفريد على البحر وفكرة شق القناة...

كانوا يقدمون أشخاصا حقيقيين .. وأفرادا بسطاء تبدت بطولتهم ساعة المعارك والمحن .

وهكذا انطلقوا من فكرة .. ومن قلب المدينة المناضلة وتاريخها ..

وجاءوا بأصحاب البطولة .. تركوهم يتحدثون بأنفسهم على المسرح ويسردون ماحدث بطريقتهم - استمعنا الى بطل منهم «محمد مهران» كافح الانجليز اثناء العدوان وأرادوا أن يمثلوا به لجسارته وشجاعته .. «فقأوا عينيه - وهو يعمل مديرا للمتحف الوطنى ببورسعيد الآن - يقف فى جلال ويحكى .. وكل ليلة يصل إلى أسلوب أفضل للسرد .

ويتفاعل معه جمهور الحاضرين . والناس بحر متلاطم من المشاعر الوطنية ونبض البطولة والفداء .

كذلك السيدة زوجته .. كانت ممرضته، وقفت على المسرح .. تحكى كيف سألتها زميلة لها - لماذا الاهتمام ؟ هل تشفق عليه ..

وتجيبها ببساطة : بل هو الحب والاحترام - لأنه بطل ضحى بنور عينيه دفاعا عنا ..

ويعلق - أنه حمدا لله أن بقى له نعمة السمع ..

فاستمع الى أجمل كلمات الحب والتقدير - وكان أن تزوجها .

وكل ليلة يتقدم السرد الدرامى ويتعمق وينفذ الى نفوس الناس .

(ترى هل سجلت الثقافة الجماهيرية هذه التجربة الرائدة - وماذا جرى للفريق؟) .

وكانت لنا تجربة فى النصف الأخير من الستينات ..

أخرج «عبد العزيز مخيون» مسرحية الصفقة لتوفيق الحكيم - فى قريته بأبى حمص بالبحيرة .

الممثلون من الفلاحين والأطفال فى القرية يحفظون عن ظهر قلب حوار توفيق الحكيم السلس الجميل - ويؤدونه مع ذويهم أثناء التدريب . كانت ليلة مجيدة ومحملة بالوعد .

تعطل الميكروفون المعلق على شجرة فى الجرن - ولأن الممثلين من الفلاحين كانت الشحنة لديهم أقوى من أن يمكنهم التوقف أو الانتظار .

انطلقوا فى ارتجال مؤثر مسترسل أضفى الكثير من العمق والقوة فى بناء المسرحية .

ثم موقفهم من النهاية ورفضهم النهاية التى وضعها توفيق الحكيم - وهذا الحل القدرى الذى يقع فجأة فيحافظ على فتاة القرية .

وثورتهم لكرامتهم فى أنهم يجب أن يعرفوا كيف يحافظون على ابنتهم وهى خطيبة المجند الذى يحارب من أجلهم . لايعرفون كيف ولكن لابد أن يفكروا ويجدوا طريقة (لقد أخبرنى نجيب محفوظ بمدى تأثر توفيق الحكيم بهذه التجربة عندما كتبت عنها فى حينها . مدى شروده وتفكيره الى درجة تصاعد الدموع الى عينيه) .

كلها ومضات وتجارب ومؤشرات لمستقبل حركة المسرح فى بلادنا فى القرن الجديد .

وأملنا فى الشباب وخصوصا تلك التجربة الهائلة التى أقدم عليها د. حسين عبد القادر وإشرافه على مسرح الغد وفرقه الشابة والورشة الفنية التى تدربوا فيها ثم انطلاقهم فى حركة قوية .. ستأتى ثمارها فى المستقبل .

وهم هناك فى كل مكان - يستعدون ويجربون .. ويدرسون يبحثون عن بريسكا لدى توفيق الحكيم .. وعن معجزة أهل الكهف فى الأشعار .. هل هى شهيدة .. قديسة .. أم مجرد إمرأة أحبت . يبحثون عن «شرف العائلة» .

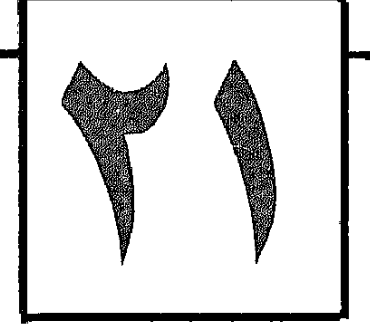
وداخل العنبر وعن إيزيس وأوزوريس والحكايات الشعبية ويسبحون فى الواقع والأحلام والتاريخ إذ لايمكن العيش بدون مسرح .

أداة تحرر ومعرفة .. وتجربة تصوغ الإنسان من جديد . مازال الهدف لديهم (أنه يجب العمل دائما من أجل ترقية وجدان الناس وإثراء روحهم وتجربتهم .. ودعوتهم للتفكير .. للعمل .. للمشاركة وحسن الأداء والعمل) .

مفتاح المسرح لم يفقد بعد .. يجده كل من يحب ذلك العالم المليء بالبهجة والمعاناة ، كل من يريد النفاذ الي جوهر الإنسانية والرغبة في العيش النبيل وتبادل الخبرة والمعرفة مع الآخرين .. والعمل علي توحد الثقافات وإقامة العدل والسلام للجميع .

وهو مفتاح العالم الجديد .

مصر والعـــالم فى القـــرن



آخـــــــر الاكتشـــــافات
فى نهاية القرن العشرين

عقل عاطفى .. فى المخ

بقلـم : ليلى الجبالى

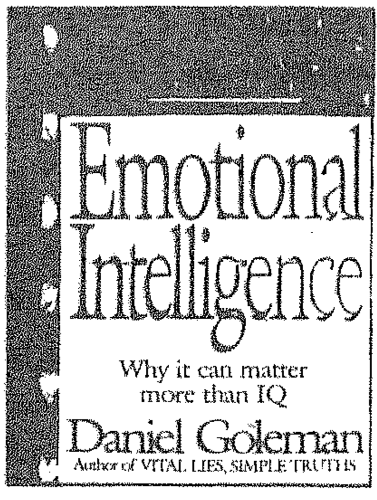
□ مَنْ لى بانسانٍ ليْسَ عبداً لعاطفته فى مُهجة قلبى وعينى سأحفظُه وفى أعمق أعماقى .. مثلك أنت !

« هاملت لصديقه هوراتيو »

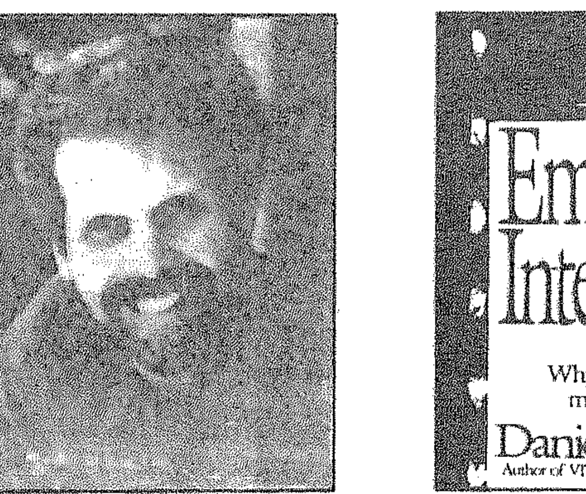
لا جدال أن القرن العشرين الذى أشرف على نهايته، وكأنه فى سباق « ماراثون العلم »، ليسلم شعلته النارية إلى القرن الحادى والعشرين .. هو قرن احتشد منذ بدايته بثورات علمية بدأت بثورة الفيزياء، وصولا الى ثورة الكومبيوتر. ثم ثورة البيولوجيا الجزيئية بشقيها الوراثى والعصبى، ثم بدأت ثورة جديدة أخيرة، هى ثورة « المعلومات » التى سوف تستمر لتصبح فى القرن القادم شريان الحياة فى كل مجال .. وبالعلم استطاع الانسان أن يقفز من قرن إلى قرن قفزة هائلة فى حياته العقلية، وبفضل « المخ » نراه يخطو خطوة خطيرة فى استكشاف المجهول فى دهاليز وأسرار هذا « المخ » ذاته، المعجزة الالهية التى تدير مملكة الانسان الذهنية والعاطفية .

• العـــواطف تلعب دورا مهمـــا فى شـــفاء المرضى ..

• هــــذا القرن .. قرن القلق وعصــــر مرضى الاكتئاب ..



غلاف الكتاب



دانيال جولمان

وقبل أن ندخل فى موضوع آخـــر الاكتشافات العلمية فى « المخ »، اليكم هذه القصة : « حكت لى صديقة قصة انفصالها عن زوجها، وكيف وقع فى حب امرأة أخرى تصغرها فى السن، وفجأة أعلن أنه سيغادر المنزل ويذهب ليعيش مع المرأة الأخرى، وبعد هذا الانفصـــال، عاشت صديقتى عدة شهور من المشاحنات مع زوجها حول الشقة، والأموال، ورعاية الأولاد . لكنها - على حد قولها - بدأت تشعر بالاستقلال مع مرور الوقت، وتتمتع بالسعادة لأنها باتت تملك قرارها بيدها، وحين قالت : « وأنا حاليـــا لم أعد أفكر فيه على الإطـــلاق، إغرورقت عيناها بالدموع » .

يقول « دانيـــال جولمان » مؤلف كتاب « الذكاء العاطفى » بعد روايته هذه القصة : « كان من الســهل أن تمر هذه اللحظة دون ملاحظة، لكنها تدل بمفهوم علماء «المخ والأعصـــاب» على أن هذه السيدة تشعر بالحزن، رغم ما تحمله كلماتها من مضمون عكسى، فالمعانى التى عبرت عنها تتقطر من كلمات مطبوعة على صفحة فى « الدماغ »، بعضها جاء من فعل (العقل العاطفى)، وبعضها من (العقل المنطقى) وبمعنى واقعى جدا، أن لكل إنسان عقلين، (عقل يفكر) و (عقل يشعر)، ولكل من العقلين سُبل مختلفة اختلافا أساسيا للمعرفة المتداخلة التى تبنى حياتنا الذهنية، فالعقل المنطقى هو طريق الفهم

والإدراك .. وهو الأكثر أهمية فى تفكير الإنسان وقدرته على التدبّر والفعل. وإلى جانب هذا العقل هناك نظام آخر « للمُخ »، لمعرفة الدوافع التى غالبا ما تكون دوافع غير منطقية. هذا النظام يسميه علماء المخ والجهاز العصبى (العقل العاطفى)، وقد أثبتت آخر الأبحاث العلمية أن هذا (العقل العاطفى)، يسيطر على سلوكنا بقدر كثافة مشاعرنا

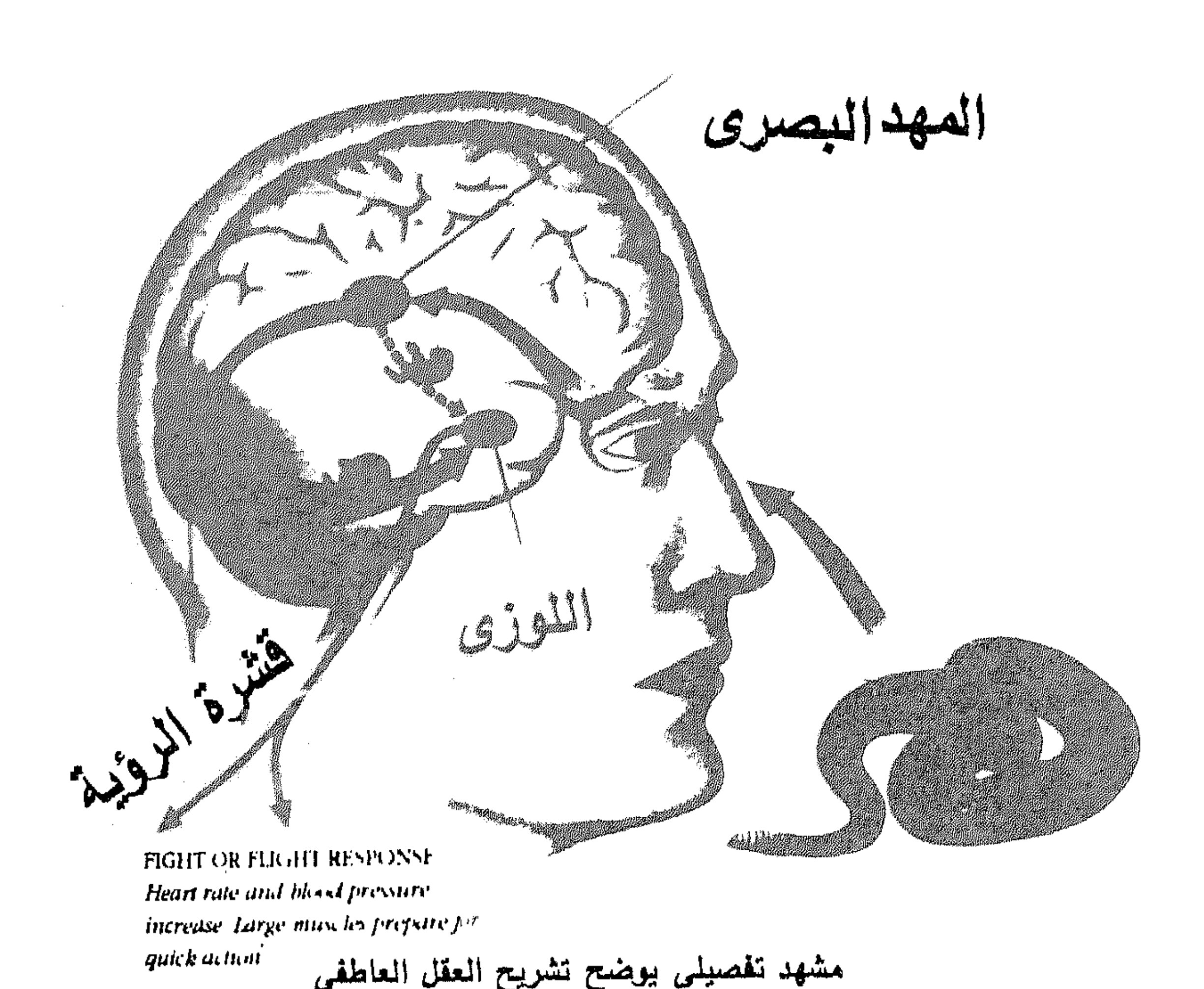
هذان العقلان (العاطفى والمنطقى) يعملان معا فى هارمونية وثيقة تتداخل معرفتهما، ليقودا حياتنا فى توازن معقول، فالعاطفة تغذى عمليات (العقل المنطقى) وتمده بالمعلومات، ويقوم (العقل المنطقى) بتنقية مُدخلات العواطف، وقد يعترض عليها أحيانا، والعقلان (المنطقى والعاطفى) كيانان شبه مستقلين، يعكس كل منهما عملية متميزة لكنها متداخلة فى دورة من دورات المُخ الكهربية، فالمشاعر ضرورية للفكر، والفكر ضرورى للشعور، ولكن .. اذا تكثفت العواطف وتخطت قمة التوازن بينها وبين العقل المنطقى، عندئذ يتحكم (العقل العاطفى)، وتصبح له الهيمنة الكاملة واليد العليا مكتسحا (العقل المنطقى) ومنتصرا عليه .

فما معنى هذا ..؟ وما الذى يحدث فى « المخ » ..؟ وما هى آخر الاكتشافات العلمية الجديدة فى هذا المجال ..؟

يقدم لنا « دانيال جولمان » الحاصل على درجة الدكتوراه من جامعة هارفارد فى مجال سلوكيات « المخ » الإجابات على هذه الأسئلة فى كتابه المهم « الذكاء العاطفى » The Emotional Intelligence ، الذى صدر فى الولايات المتحدة فى أكتوبر عام ١٩٩٥، وكان من أهم عشرة كتب صدرت فى أمريكا، ناقش «جولمان» فيه قضية علمية جديدة تماما تطرح موضوعات مختلفة من بينها : دور العاطفة فى حياة الإنسان، وتشريح التحول العاطفى، وطبيعة الذكاء العاطفى، وجذور الوجدان، وتغير الطبع بالتدريب العاطفى لأن الطبع ليس قدرا ثابتا، والأمية العاطفية والضريبة التى يدفعها الأمى عاطفيا، وغيرها من الموضوعات التى لم يسبق بحثها علميا وعلاقتها بوظائف خلايا « المخ » .

● عقلان .. لا عقل واحد

أحسب أن القارىء سوف يندهش من هذه المعلومة التى تؤكدها الأبحاث العلمية الجديدة من أن لكل إنسان منا عقلين لا عقلا واحدا لكن حصيلة الحقائق العلمية المهمة التى توافرت لدى العلماء اليوم حول دنيا « المخ » العاطفية تؤكد ذلك، فقد أهملت الأبحاث العلمية على مدى سنين مجال العواطف، وتركتها أرضا مجهولة لم يكتشفها أحد بالعلم السيكولوچى، وها هو ذا العلم على مشارف القرن الحادى والعشرين يجيب أخيرا على تلك الأسئلة الملحة والمحيرة عن النفس الإنسانية، فيما يخص أكثر الجوانب غير المنطقية (بالمخ)،



مشهد تفصيلى يوضح تشريح العقل العاطفى

بعد أن رسم العلماء خريطة دقيقة لعواطف الإنسان، واستطاعت آخر الاكتشافات العلمية أن تجعل من هذه الخريطة تحديا للبيولوچيين الذين ظلوا مقتنعين برؤية ضيقة للذكاء، مرتكزة على مفهوم أن مُعامل الذكاء (I Q) هو من المعطيات الوراثية لا يمكن تغييره بالخبرة الحياتية .. وأن الملكات الفطرية التى يتمتع بها إنسانٌ ما هى إلا قَدَرٌ ثابت فى الحياة .

لكن « دانيال جولمان » ينفى هذا تماما، ويقدم بالدليل العلمى ما يثبت أن لكل إنسان عقلين (عقل يفكر) و (عقل يشعر) أو (عقل منطقى)، و (عقل عاطفى) .. وأن هناك ذكاء عاطفيا يبدأ منذ سنوات الطفولة الأولى، هو حجر الأساس الذى يشكل شخصية الإنسان طوال حياته، أما التكنولوچيات بالغة التطور فقد ساعدت بدورها على تصوير المخ، ومن ثم استطاع العلماء تفسير الكيفية التى تعمل بها خلايا المخ المعقدة عندما نفكر، وعندما نشعر، وعندما نتخيل أو نحلم، هذا الوضوح غير المسبوق حول الدور الحاكم (للعقل العاطفى) فى سلوكيات الإنسان أصبح اليوم فى بؤرة الدراسة.

● اكتشاف هزّ الدوائر العلمية

وكبداية نمسك بطرف الخيط، فنرجع

إلى أول اكتشاف علمى اقتحم أبواب عواطفنا المغلقة داخل « المخ » ، ليفتح الطريق أمام علماء المخ والجهاز العصبى لاكتشاف ذلك المجهول الذى أصبح معروفا اليوم علميا (بالعقل العاطفى)، كان ذلك عندما وقع فى يد (د. روبرت آدار – Robert Adar) فى عام ١٩٧٤، خريطة بيولوچية منقحة للجسم فى معمل بكلية طب جامعة روتشستر، اكتشف فيها أن جهاز المناعة يمكن أن يتعلم بالخبرة الحياتية مثل « المخ » . أحدث هذا الاكتشاف هزة علمية هائلة فى الأوساط العلمية، ذلك لأن الحقيقة التى كانت مستقرة قبل هذا الاكتشاف هى، أن المخ والجهاز العصبى المركزى هما فقط اللذان يمكن أن يستجيبا للخبرة الحياتية بتغير سلوكهما، لكن اكتشاف « روبرت آدار » أكد علميا أن هناك عددا من المسارات لا حصر لها، يتصل الجهاز العصبى المركزى من خلالها بجهاز المناعة فى ممرات بيولوچية تربط كلا من (العقل والعواطف والجسد) ثلاثتهما معا برباط لا ينفصل .

تُرى ! هل يعرف الكثيرون منا أن جهاز المناعة فى أجسامنا هو عقل الجسد؟ ثمة حقيقة علمية يؤكدها عالم الجهاز العصبى « فرانسيسكو ڤاليرا » الأستاذ بمعهد البوليتكنيك بباريس، تقول، أن الجسد يشعر بما ينتمى إليه وما لا ينتمى، ذلك لأن خلايا المناعة تجرى مع الدورة الدموية عبر الجسم كله، وخلال رحلتها هذه تتصل بخلايا الجسم الأخرى، فالخلايا التى تتعرف عليها تتركها وتمضى فى مسيرتها، أما اذا لم تتعرف عليها هاجمتها بما يترتب عليه إما حمايتنا من الڤيروسات والبكتريا والسرطان، أو اذا أخطأت فى التعرف على بعض خلايا الجسم، أصابتنا بعض الأمراض مثل أمراض الحساسية وغيرها من الأمراض.

وكان الأطباء البشريون، واخصائيو التشريح، والبيولوچيون، يعتقدون من قبل أن (المخ والجهاز المناعى) كيانان منفصلان لا يستطيع كل منهما التأثير فى عمليات الكيان الآخر، غير أن اكتشاف «روبرت آدار» أجبرهم جميعا على تغيير نظرتهم العلمية، والنظر من جديد إلى تلك الروابط بين الجهاز العصبى المركزى، وجهاز المناعة. وليس أدل على الاعتراف بتلك الروابط، ذلك العلم الجديد المعترف به اليوم فى الأوساط الطبية واسمه علم (السيكوعصبى المناعى) -Psychoneu roimmunology) أو (P N I)؛ وهو أخطر ما توصل إليه العلم فى بحوث « المخ » التى تجرى فى الفترة الأخيرة، وكما نرى من اسمه، كيف يعترف الطب اليوم بهذه الروابط بين (النفس، وجهاز الغدد الصماء العصبى، وجهاز المناعة).

ومن أهم الأبحاث الجديدة أيضا ما قامت به مجموعة كبيرة من الباحثين اكتشفت من خلالها أن الناقلات الكيماوية فى كل من (المخ) و (الجهاز المناعى) هى أكثر الناقلات كثافة فى المناطق العصبية التى تقوم بتنظيم العواطف، وكان أقوى دليل على وجود مسار طبيعى مباشر يسمح للعواطف بالتأثير على الجهاز

المنـاعى ، النتيجة التى توصـل إليها « ديفيد فلتون David Felton » - أحـد زملاء « روبرت آدار »، بعد أن لاحظ تأثير الانفعالات القوى على الجهاز العصبى اللاإرادى الذى ينظم كل العمليات الحيوية، من كمية الأنسولين التى تُفرز لحفظ مستويات ضغط الدم، إلى نقاط الالتقاء التى يتخاطب فيها الجهاز العصبى اللاارادى مباشرة مع الغدد الليمفاوية، والفاچات، وخلايا جهاز المناعة .. أى .. اكتشاف الاتصال المؤكد بين الأعصاب وخلايا المناعة .

● سيد المخ الحاكم ..!

ومن خلال دراسات الميكروسكوب الإلكترونى، اكتشف العلماء، تشابكا عصبيا بين نهايات أعصاب الجهاز اللاارادى (الذاتى)، وخلايا جهاز المناعة، تعمل كنقاط اتصال طبيعية تسمح لخلايا الجهاز العصبى بإرسال ناقلات الأعصاب Neuro Transmitters ، لتنظيم الخلايا المناعية، وقد اعتبر هذا الاكتشاف إكتشافا ثوريا ، بحق إذ لم يعد هناك أى مجال للشك من أن خلايا المناعة فى جسم الإنسان، ما هى إلا أهداف للرسائل القادمة من الأعصاب، ولكى يثبت - ديفيد فلتون - مدى أهمية نهايات الأعصاب فى أداء جهاز المناعة، قام بخطوة متقدمة أخرى، أجرى تجارب على الحيوانات أزال فيها بعض الأعصاب والعقد الليمفاوية والطحال حيث يتم تخزين وصنع الخلايا، ثم أحضر فيروسات استخدمها فى اختبار كفاءة جهاز المناعة، فـإذا به يكتشف نقصا هائلا فى الاستجابة المناعية للفيروس فيما أثبت أن جهاز المناعة بدون نهايات الأعصاب Neuro Endings لا يستجيب كما ينبغى لتحدى الفيروس أو البكتريا المهاجمة، أى أن الجهاز العصبى لا يتصل فقط بجهاز المناعة فى الجسم، بل هو ضرورى وأساسى لكى يقوم هذا الجهاز المناعى بأدائه السليم، وأثبتت الأبحاث أيضا أن هناك طريقا رئيسيا يربط العواطف بجهاز المناعة عبر تأثير الهرمونات التى تُفرز عندما يتعرض الإنسان للضغط العصبى وهى هرمونات (الأدرينالين والكورتيزول والبرولاكتين، والأندورفين، والمورفينات الجسمية Natural Opiates Beta ، والإنكافالين)، ولأن العلاقات بين العواطف الإنسانية وجهاز المناعة فى الجسم علاقات مركبة، فقد تبين أن إفراز هذه الهرمونات داخل الجسم يؤدى إلى كبح وظائف خلايا المناعة فتضعف مقاومتنا للأمراض، واكتشف العلماء أيضا الكيفية التى يرتبط بها (المخ وجهاز القلب الوعائى Cardo Vascular) بجهاز المناعة بما لا يدع مجالا للشك فى وجود هذه الروابط كحقيقة علمية مؤكدة .

هكذا نرى أن انفعالاتها هى السيد الحاكم فى حياتنا .وقد نضرب مثلا بانفعال الخوف فى حالة إصابتنا بمرض ما . فعندما نكون مرضى يحتل الخوف تفكيرنا ونتحول - كما يبين دانيال جولمان - من القوة إلى الضعف عاطفيا، لأن صحتنا الذهنية كانت ترتكز على وهم أنها

دائما صحة ذهنية منيعة . لكن المرض وخاصة الخطير منه ينسف هذا الوهم، وفجأة نشعر بضعفنا، وأننا بلا حول ولاقوة . والواقع أن الأطباء - للأسف - يتجاهلون تأثير العواطف على المريض، ولايدركون أن عدم الاهتمام بكل الدلائل التى تؤكد أن حالة الانسان العاطفية تلعب فى معظم الأحيان دورا مهما فى مسيرة شفائه .

والحديث عن العقل العاطفى فى المخ، يشير الينا للوقوف عند تعريف «جولمان» له : إنه . «الشعور .. وما لهذا الشعور من تفكير متميز، وأنه الحالات السيكولوچية والبيولوچية، وهو مجموعة النزعات الانسانية الفاعلة، فضلا عن مئات الانفعالات الأخرى التى لها امتزاجاتها، واختلافاتها، وكمونها .. بالاضافة إلى كثير من المشاعر الرقيقة التى لانجد لوصفها أى كلمات .» . والعواطف هى التى تقود أفعال البشر وسلوكياتهم .

فاذا تأملنا انفعال الغضب مثلا، نجد أن الدم يندفع إلى الأيدى مما يسهل لها القبض - مثلا - على سلاح وارتكاب جريمة قتل، أو الاعتداء بالضرب على خصم . ومع انفعال الغضب تزداد ضربات القلب وتتولد دفقة من الهرمونات مثل الأدرينالين تؤدى إلى انبعاث طاقة قوية تساعد على القيام بأفعال عنيفة . فاذا انتقلنا إلى انفعال الخوف، نجد أن الدم يندفع إلى عضلات التركيب العظمى مثل الساقين ليسهل لهما الهروب . وينسحب الدم من الوجه فيصبح لونه أبيض شاحباً، وتقوم دوائر المخ الكهربية فى مراكز المخ العاطفية بإثارة فيض هائل من الهرمونات تجعل الجسم فى حالة استنفار عام .

(أهو الحب .. ؟
أم تمرير الچينات ؟!)

سوف نتأمل معا بعض القصص ومغزاها بصيغة «العقل العاطفى» فهذه مثلا قصة آخر اللحظات فى حياة «جارى ومارى چين» الزوجان اللذان كانا يكرسان حياتهما كاملة لابنتهما «آندريا» البالغة من العمر أحد عشر عاما . كانت الأسرة تستقل قطارا من مدينة بايو بولاية لويزيانا ومعهما «آندريا» المصابة «بالشلل الدماغى» تجلس على مقعدها المتحرك . وفجأة مر القطار على جسر متهاو، فانقلب فى النهر . كان أول مافعله الأبوان، بذل كل جهودهما وهما فى غمرة الكارثة، لانقاذ ابنتهما، بينما كانت مياه النهر تندفع داخل عربة القطار . وبشكل أو آخر استطاعا دفع آندريا من خلال نافذة ليتلقفها رجال الانقاذ .. بعدها غاصا الأبوان فى قاع النهر مع عربة القطار واختفيا إلى الأبد .. » .

هذه القصة ترمز لمعنى التضحية . فقد ضحيا جارى ومارى چين بحياتهما من أجل إنقاذ ابنتهما . ومثل هذه النماذج

من تضحيات الآباء - لاشك- قد تكررت بعدد لاحصر له فى تاريخ الانسانية . وهنا نجد ثمة منظورين مختلفين لمثل هذه التضحيات. فمن منظور البيولوچيين التطوريين، هى دوافع عاطفية تخدم نجاح عملية التكاثر البشرى،وذلك من خلال تمرير چينات الفرد إلى الأجيال المتعاقبة، لكنها من منظور الوالدين اللذين اتخذا قرارا يائساً فى لحظة أزمة، ليست سوى تضحية لامعنى لها سوى «الحب» .

فقد اكدت الأبحاث العلمية الأخيرة أن العواطف بكل ما تندرج تحتها من فئات أساسية وهى : (الغضب، والحزن، والخوف، والمتعة، والحب، والدهشة، والاشمئزاز، والخجل)، هى التى تحرك قدراتنا الذهنية الخامدة، ومن ثم تحدد أفعالنا فى الحياة . وبهذا المعنى يكون «الذكاء العاطفى» هو الذكاء الحاكم، أى القدرة التى تؤثر تأثيرا عميقا على إمكانياتنا إيجاباً وسلباً وهذه الكفاءة العاطفية تبدأ منذ «المهد» كما انتهى إلى ذلك (د . بيرى برازلتون Berry Prazil-ton) أستاذ طب الأطفال فى جامعة هارڤارد، بعد إجراء اختبارات على عدد كبير من الأطفال، أثبت فيها أن ماهية نظرة الطفل الأولى للحياة تتكون فى «المخ» من عناصر الذكاء العاطفى التى تشكل كيانه الانسانى نفسيا وسلوكيا مدى الحياة . ويؤكد «برازلتون» أن نجاح الأسرة أو المدرسة فى تنشئة أطفال يشبون أشخاصا ناجحين فى الحياة، لايتوقف على حصيلة ما يتلقونه من معلومات أو بقدرتهم الفائقة على القراءة والاطلاع . إنما يتوقف على المعايير العاطفية والاجتماعية التى تترسخ فى المخ منذ المهد ، أما الأطفال الذين يفتقرون الى الذكاء العاطفى لأنهم لم يتدربوا عليه منذ طفولتهم هم أولئك الفاشلون فى دراستهم، الذين ينتقلون من مرحلة عمرية إلى أخرى وفى صحبتهم الفشل والعقد النفسية - ذلك لأن كل ما كان يحدث بين آبائهم من تغيرات سلبية فى سلوكهما معا ومع أطفالهم يغرس فى «المخ» محتوى عاطفى يتحول مع التراكم إلى تكوين وقدرات ورؤية للحياة تستمر معهم طوال العمر .

ولأن المخ فى الدماغ ينمو فى السنوات الثلاث أو الاربع الاولى من حياة الطفل فيصل حجمه الي ثلثى حجمه الكامل فى تلك الفترة .. لذا تصبح المفاتيح العاطفية الاساسية لتدريب المخ فى هذه الفترة من العمر مهمة للغاية.

ولنضرب مثلا بقصة أخرى يحكيها : دانيال جولمان ...

... مارتن طفل فى الثانية من عمره .. تتركه امه فى دار الحضانة نهارا اثناء عملها مع غيره من الاطفال فى مثل سنه. أراد مارتن ان يلعب مع طفلة صغيرة زميلته فى الحضانة كانت تجلس بالقرب

منه . اخذ يداعبها برفق، لكن الطفلة بدأت تبكي. اقترب مارتن منها اكثر محاولا تهدئتها فأمسك بيدها واخذ يطبطب عليها، لكنها استمرت تصرخ وتبتعد عنه. وفجأة اخذ مارتن يضربها على يدها، وكلما زاد بكاؤها، تحول الطفل الصغير الى وحش، فظل يضربها بقسوة ضربا متصلا وهو يصرخ (إخرسي .. إخرسي)

إن تحليل علماء المخ والجهاز العصبي لهذا السلوك القاسي من الطفل الصغير جدا «مارتن» قد حدث لانه لم يتدرب على الذكاء العاطفي في اسرته، بل ما فعله مع الطفلة المسكينة، هو نفس ما يلقاه من والديه من سوء المعاملة والعقاب الجسماني هذا السلوك منذ الطفولة الاولى مرآة لما تدرب عليه «مارتن» في اسرته .. فهو لم يتعلم الدوافع الاخلاقية التي تمحو الانفعال المتسم بالقسوة المفرطة .

ثمن الحياة العصرية

أليس هذا القرن العشرون الذي يشرف على غلق ابوابه على سنواته المائة المنصرمة هو بحق قرن القلق ..؟!

ألم يحمل في طيات سنواته مرضا اصبح وباء كاسحا في جميع أنحاء العالم؟ هو مرض الاكتئاب ..؟ هذا المرض اللعين له علاقة وثيقة (بالعقل العاطفي). لقد انتشر الاكتئاب مع انتشار الوسائل العصرية .

عاشت أجيال هذا القرن جيلا بعد جيل مخاطر كثيرة ومعاناة، تزايدت مع التقدم العلمي والتكنولوچي وتزايد معها الشعور الكاسح باليأس وافتقاد الامل في المستقبل. حروب مدّمرة هنا وهناك، وقيم انسانية تغرق في بحور الدم، وذاتية المصالح تحتل مواقع المصلحة العامة والانتماء للانسانية والحب. وعلى الرغم من افتراض ارتفاع نسبة مرض الاكتئاب مع التقدم في سنوات العمر، فإن الظاهرة المعاصرة هي انتشار مرض الاكتئاب بين صغار السن ، وفقا لأبحاث « د. ديفيد كوبفر David Copfer » استاذ السيكولوجي في كلية طب جامعة بيتسبرج -Pittsburg - التي اثبتت ان الضغوط العاطفية في السن المبكر يمكن ان تؤثر على نمو الجهاز العصبي الذي يؤدي الى الاكتئاب.

وتشير الاحصاءات العلمية الى ان نسبة مرض الاكتئاب كان (١٪) بين الامريكيين الذين ولدوا عام (١٩٠٥)، اما الذين ولدوا منذ عام ١٩٥٥، ارتفعت نسبة مرض الاكتئاب بينهم الى (٦٪) عندما بلغوا سن الرابعة والعشرين. والذين ولدوا في الفترة ما بين عام ١٩٤٥ و ١٩٥٤، كان احتمال تعرضهم لحالات الاكتئاب قبل بلوغهم سن الرابعة والثلاثين تزيد (عشر مرات) عن اولئك الذين ولدوا بين عام ١٩٠٥ و ١٩١٤ .. وثبت ان بداية الاحداث التي تؤدي الى الاكتئاب في كل جيل من هذه الاجيال قد حدثت في سن مبكرة

جدا. وفى دراسة شاملة على اكثر من (٣٩,٠٠٠ شخص)، ظهر نفس الاستعداد فى بورتريكو وكندا، وايطاليا، والمانيا، وفرنسا، وتايوان، ولبنان، ونيوزيلاند.

وتقول هذه الدراسة ان نسبة مرض الاكتئاب فى بيروت ارتفعت ارتفاعا هائلا مع الاحداث السياسية، حيث وصلت الذروة خلال الحرب الأهلية اللبنانية .

ماذا ..؟ مع الوداع ... !

هكذا نرى كيف تغيرت النظرة الى الطبيعة الانسانية بفضل العلم وقدرات المخ المذهلة على اكتشاف اسراره ذاته بمخ العلماء . تغيرت النظرة من تجاهل قوة العواطف فى تحديد مسار حياتنا والتركيز فقط طوال السنوات الممتدة على العقل وحده . لكن العلم يثبت اليوم من خلال ابحاثه حقيقة ومركز واهمية العواطف الانسانية، ليصل الى جذور الوجدان، واسباب الاختلافات السيكولوچية بين البشر فإلى جانب علم الوراثة الحديث الذى يشكل ثورة علمية خطيرة كشفت عن العوامل الوراثية لكثير من الأمراض الوراثية التى تمتد جذورها الى مئات الاسلاف.. يبرز اليوم على ساحة التقدم العلمى المذهل المتجه نحو ابواب القرن الحادى والعشرين، اكبر مشروع علمى فى تاريخ البشر، وهو مشروع الطاقم الوراثى البشرى المعروف باسم الجينوم البشرى – genome – (تشترك فيه كل من امريكا، وانجلترا، والمانيا، وفرنسا، وايطاليا، وروسيا، والدانمرك، واليابان.) هذا المشروع سوف يمكن الانسان من فك شفرة اسرار وجوده، ويحدد امكانياتنا كأفراد من النوع البشرى– Homo Sapiens – مختلفين عن غيرنا من الكائنات الحية الاخرى. كما سيلعب اخطر دور فى تشخيص امراض الانسان والسيطرة عليها . ومن خلاله سوف يصل الطب الى مرض الهوس الاكتئابى وغيره من الامراض الوراثية الخطيرة كلما عثر العلماء فى هذا (الطاقم الوراثى) على الچين الخاص به . كما سيؤثر ايضا على معظم علوم البيولوچيا فى القرن القادم، ويكثف تحليل القضايا الاجتماعية والاخلاقية لعلم وراثة الانسان.

والي جانب هذا التقدم المذهل في الاكتشافات العلمية الحديثة التي سوف يتسلمها القرن الحادي والعشرون، هذه النظرة الجديدة الي قدرات مخ الانسان –المعجزة الالهية– الذي يحتوي عقلا عاطفيا يؤكد ان مشاعرنا تشكل كل صغيرة وكبيرة في رسم واتخاذ قراراتنا بصورة اكبر بكثير مما يتخذه عقلنا وحده. من هنا ندرك كيف ذهب العلماء بعيدا عن الحقيقة قبل هذه الاكتشافات العلمية الأخيرة ، حين أكدوا فقط على قيمة وأهمية العقل المجرد بمقياس معامل الذكاء (IQ) فى حياة الانسان وكأنه قدر ثابت لا يتغير، في حين ان الثابت الوحيد في هذه الحياة هو التغير. وها هو ذا العلم يثبت اخيرا ان الذكاء العقلي وحده لا يعني شيئا اذا غاب الذكاء العاطفي او إن شئنا الدقة نقول «العقل العاطفى»..

كتاب الجيب الكومبيوتر

القراءة .. والليزر

بقلم : محمود قاسم

نحن نعيش فى عصر الترانزستور .

ويعنى هذا أن الناس صارت تميل إلى استخدام الصور المصغرة من الآليات ، والمخترعات الحديثة ، فلا شك إن استخدامها أسهل وأسرع ، وأكثر راحة .

وما ينطبق على شكل الكتاب فى التاريخ البشرى ، ينطبق أيضا على اختراع ضخم مثل الراديو أو التليفزيون ، ففيما قبل كانت أجهزة المذياع بالغة الضخامة ، تشغل حيزا أشبه بالدولاب فى البيوت ، والآن فان مسجلا صغيرا يعمل بوحدات الترانزستور يمكن ان يقوم بوظائف هذا المذياع الدولاب ، وبشكل اكثر كفاءة ، فهو يمكن أن ينام فى احضانك ، ويسامرك طيلة الليل ، يغنى لك ويحاورك ويسمعك أخبار السياسة والعلم والزعماء دون أن يصيبه الملل .

وفيما قبل كان الكتاب معقد الشكل ، مكتوبا فوق ورق متناثر ، وبقايا كائنات بشرية . ثم جاءت الطباعة لتقدم الكتاب، في صورته الحديثة وجاء القرن العشرون ليكون أهم سماته هو كتاب الجيب الذي يمكن للمرء قراءته فى أى مكان يريد، بالاضافة إلى سهولة حمله، والتعامل معه، مما وسع من دائرة علاقة الناس بالقراءة.

وفى السنوات الاخيرة ، ومع التطور التقنى الحاد فى كل انحاء العالم ، حاول التقنيون ادخال اشكال جديدة على الكتاب، وفى النصف الأول من الثمانينات ظهر ما يسمى «بالكتاب الكاسيت» . ووضع الناشرون أيديهم على قلوبهم . فكل ما اتسم به هذا النوع الجديد من الكتب

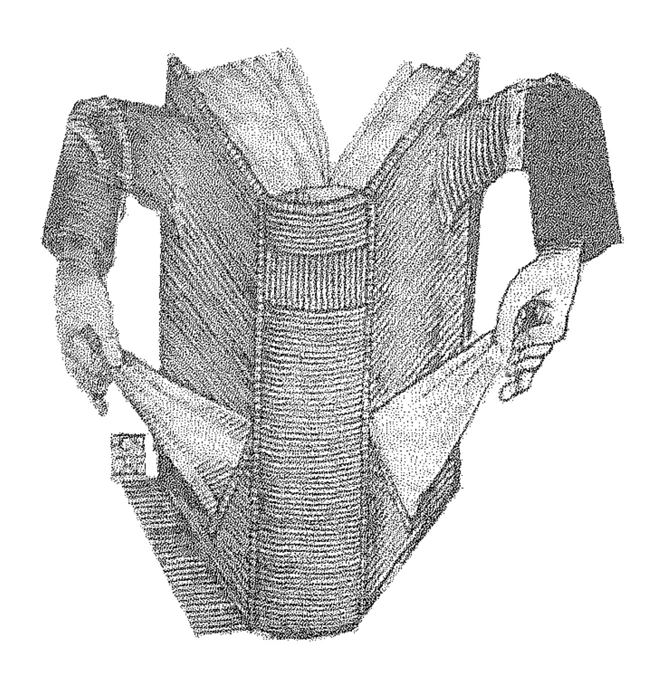
يهدد صناعة الكتاب ، فمن قبل كان يمكن للقارىء أن يطالع ما يكتبه المؤلف من كلمات مسطورة فوق صفحات الكتاب ، أما الكاسيت فهو يمكنه أن ينقل هذه الكلمات المسطورة إلي مسموعة وبصوت الكاتب نفسه . وفى الكثير من الاحيان يمكن أن يكون بصوت ممثلة سينمائية ذات صوت جذاب من طراز كاترين دينيف ، وممثل متميز الصوت مثل الان ديلون

وقد فتحت «الهلال» هذا الملف فى عدد مارس ١٩٨٤ بمناسبة قيام بعض شركات الكاسيت الفرنسية بطباعة عدد كبير من الكتب الكاسيت، من تأليف الروائية مرجريت دوراس ، بعضها بصوتها ، والبعض الآخر بصوت كاترين دينيف وصوفيا لورين ويبدو أن التجربة قد لاقت نجاحا مؤقتا ، تصور الكثيرون على أثره إنها سوف تعيش طويلا ، فتكررت على أيدى أدباء مشهورين مثل سيمون دو بوفوار قبل وفاتها ، وفرانسواز ساجان ، ولوسيان بودار ، وآخرين .

غلبت سلفستر ستالوني

بل إن نجاح هذه التجربة قد ولّد ظاهرة جديدة بالغة الغرابة ، فقد اكتشفت ممثلات السينما أن التأليف عملية سهلة للغاية ، فكتبن روايات سجلتها على شرائط كاسيت ، ثم فى كتب ، وانتقلت هذه الظاهرة إلى مصر فقدمت بعض المؤسسات تجارب عابرة لأدباء كبار ، وكان توفيق الحكيم من أشد المتحمسين لها . وقرأ بصوته بعض أعماله الشهيرة.

ولكن ، ما لبثت التجربة أن تعثرت ، وبدت أشبه بكل تقليعة تظهر فجأة ، ثم



تختفى مثلما ظهرت، وفى زمن ازدهار الفيديو ، حاولت مؤسسات أخرى الاستفادة من هذا النجاح ، فظهر «الكتاب الفيديو كاسيت» ، وقيل أن الناس تعشق الصورة ويمكنها أن ترى مؤلفها وهو يروى لها وقائع رواية بنفسه، ولكن عمر هذه التجربة كان أقصر مما يتصور ، بل من الكتاب الكاسيت .

وادرك المهتمون ان عملية القراءة الطبيعية العادية أمر بالغ التعقيد ، وانها ذات خصوصية معينة، لايمكن تطويرها بواسطة التقنيات ، وليس لها بديل أيا كانت جاذبية هذا البديل . ولنعطى لذلك مثالا قريبا ، فمنذ شهرين نشرت روايات الهلال رواية بوليسية تحت عنوان «قنبلة فى نيويورك» لمارى هيجنز كلارك وهى عمل تقليدى للغاية قياسا إلى كمية الاثارة الذى يتمتع به أى فيلم من أفلام الحركة المعروفة الان فى أسواق السينما والفيديو ومع هذا فان كمية مبيعات هذه الرواية فى

طبعتها الامريكية قد تجاوز العشرة ملايين. أي ما يعادل مشاهدى فيلم ضخم من أفلام سلفستر ستالونى، أو كيفن كوستنر. وقد اخترنا هذا المثال للاشارة كيف أن عملية القراءة بالغة التعقيد . ولم تجد من يفسر استمرارها فى مجابهة كل وسائل المنافسة ، ورغم محاولات التقنيين لتطوير القراءة ، أو لتغييرها كسلوك والاستفادة من الجولات التى كسبتها الوسائل المنافسة .

ومن الواضح أن عملية القراءة بشكلها التقليدى جداً هى آخر ما وصل إليه الانسان فى شكل العلاقة مع الكلمة الساحرة ، سواء كلمة إبداعية ، أو بحثية أو نقدية . وإن ما حدث فقط هو ظهور المنافسة من وسائل أخري . كأن تقول ان الانسان بشكله الحالي هو أفضل ما وصلت إليه نظريات النشوء والارتقاء لملايين السنين القادمة إلا إذا قام علماء الهندسة الوراثية بالاسراع بتوليد الانسان السوبر قبل الموعد المحدد له بوقت طويل .

وفى الأعوام الأخيرة ظهرت اسطوانات الليزر ، أو اسطوانات C.D.Rom الليزر التى أمكن للخبراء أن يجمعوا فيها عشرات الألوف من الصفحات، وعدد كبير من الكتب والمراجع. وظهر أمل جديد لدى التقنيين أن يصنعوا البديل المؤكد للكتاب المقروء . فعن طريق الكومبيوتر يمكنك أن تحتفظ بمكتبة ضخمة من الكلمات والصور ، يمكن الرجوع إليها بأسهل طريقة ممكنة، وكل ما على الباحث عن كتاب، أو حتى سطر ، أو كلمة بعينها فى أحد الكتب ، أن يدوس على زر ما ، وبواسطة برمجته ، يظهر ما يوده على الشاشة

● ميلاد غريزة الكومبيوتر

وسرعان ما هلل المناصرون للرأى القائل بأن هذه الاسطوانات، وشاشات الكومبيوتر سوف تغير شكل المستقبل إن لم يكن ذلك قد حدث فعلا، وأن الصورة التقليدية المعروفة الآن للكتب والمكتبات سوف تذهب بدون رجعة ، وقد فتحت الهلال هذا الموضوع فى عدد سبتمبر ١٩٩٥ من خلال رؤية جان فافيه الرئيس الحالى للمكتبة الوطنية بباريس . ولاشك أن هناك تجارة رابحة الآن فى صناعة هذه الاسطوانات ، وجدت طريقها إلى المؤسسات المعلوماتية العربية ، فراحت تتنافس فى حفظ كل المعلومات وتسويقها على المستوى الشعبى ، واعتبار أن المستقبل سيكون إلى جانب هذه الاسطوانات، وما ستشهده من تطور فى السنوات القادمة القريبة أو البعيدة، باعتبار أن الكومبيوتر سيدخل البيوت كلها أسوة باجهزة التليفزيون ، فقبل ربع قرن فقط ، لم تكن كل البيوت المصرية تعرف التليفزيون ، والآن ينتشر فى أكثر الغرف ، وفي اماكن لم يكن أحد يتخيل أن يدخل اليها وبالصورة الملونة .

إذن ، فسوف تضير اسطوانات C.D سلعة شعبية فى أقرب وقت ممكن ، بل وستصير بالغة البدائية قياسا إلى التطور المذهل الذى يحدث يوميا فى أنواع الاجهزة وكفاءتها ، ثم فى أساليب حفظ المعلومات وطرائق تسويقها ، والرجوع إليها . وقد شهدت شبكة الانترنيت طفرات

مجنونة فى نقل هذه التجمعات اللانهائية من المعارف للمشتركين فيها وأيضا لغير المشاركين

ولو تابعت الشغف المجنون لدى هواة الاتصال بالكومبيوتر ، وعدد الساعات التى يمكن أن يجلسها محترف أو هاو أمام الجهاز ، ومدى الجاذبية التي يحدثها هذا الجهاز فى الانسان الذى يتعامل معها لاستطعت أن تتعرف على غريزة جديدة تولدت لدى البشر موازية لغريزة القراءة ولتوهمت منذ اللحظة الأولى أنها أقوى فى سطوتها على صاحبها من القراءة على مدمن الكتب والاطلاع ففى مفرداتها أجواء إثارة ، ولغة الصورة والصوت وعالم التخيل .

لكن السؤال هو هل هذه الغريزة الجديدة ستؤثر على القراءة ؟

تكمن الاجابة من خلال تعبير الغريزة الموازية .. الذى ذكرناه أنفا فنحن لم نقل غريزة بديلة أى أن الجلوس أمام شاشة الكومبيوتر لساعات والتعامل مع البرامج والمعرفة أيا كان اسم هذه الظاهرة الجديدة التي لم نعرف أن أحدا قد قام بتسميتها . هذا الجلوس لن يلغى لدى الناس عملية القراءة التقليدية ، خاصة الابداعية منها سواء لنفس الشخص الذى عرف لذة التعامل مع معلومات الكومبيوتر، وشبكاته ، أو الذى لم يدخل بعد إلى هذا العالم .

فمثل هذا الكم اللا متناهى من المعلومات الموجود فى الاسطوانات ، وسهولة الحصول عليه ، أشياء لا تعنى أبداً أنه يمكن أن تحل مكان القراءة التقليدية فقراءة قصيدة أو الاستمتاع بمفرداتها وأجوائها قد يكون له معنى مختلف ومجسد على الاسطوانة، ويمكن الاستفادة بكل التجارب السابقة أن تقوم ممثلة من طراز رغدة بقراءة قصيدة قصيرة قرضتها أو كتبها شاعر آخر. وقد يصاحب الإلقاء موسيقي ، وخلفية معينة من المشاهد لكن كل هذا لن يغنى عن القراءة العادية .. واليكم الاسباب :

● الكتاب الكومبيوتر

روعة الكلمة هنا أنها نسبية لكل أمرىء وتعكس قدرته الخاصة على تخيلها وهذا أمر قديم سبق نقاشه ، و الانسان يرفض دائما أن يجعل الآخرين يتخيلون الكلمة نيابة عنه . وهو بالغ الانانية فى هذا الشأن لذا فكما فشلت تجربة «الكتاب الكاسيت» ، و«الكتاب الفيديو كاسيت» فيما يتعلق بالابداع . فان الأمر مآله إلى اسطوانة C.D الكتاب الابداعى ، خاصة ما يتعلق بالرواية أو الشعر . باعتبار أن الكلمة المكتوبة هى أساس العمل ، وهى وحدة التخيل الأولى لدى الكاتب والقارىء معا

وأبسط دليل على هذا ما حدث منذ فترة قريبة فى عالم الموسيقى ، فقد تصور المهتمون بالموسيقى أن ظاهرة «الفيديو كليب» سوف تبقى طويلا في عالم الغناء وهلل المتحمسون لها كثيراً وتكالبوا عليها وجذبت كبار مخرجى السينما ، خاصة في مصر، ثم سرعان ما بدأت تفقد رونقها المنتظر ويكفى ان تجلس أمام محطة موسيقية من المحطات الكثيرة فى القنوات الفضائية لتشاهد مجموعات

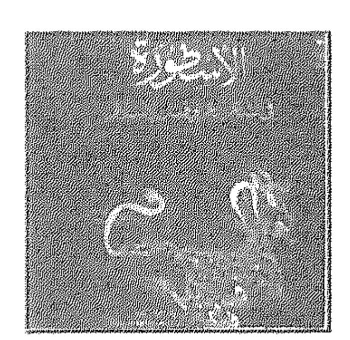
الاغانى التى تم تصويرها بهذه الطريقة وبعد خمس اغنيات فقط ، تحسس رأسك ، وحاول أن تقيس درجات التصدع والتقبل إذا كانت هناك اجهزة لرصد ذلك وسوف تكتشف أنك لن تستطيع أن تواصل السماع ، ولا الرؤية . وسرعان ما سوف توجه انظارك إلى محطة أخرى تبدو تقليدية فى شكل الأغنية المبثوثة ، حتى ولو كان ذلك من مطربين معاصرين ، مثل التون جون ، أو مايكل جاكسون وآخرين.

من المؤكد أن عمر هذه الاسطوانات سيكون طويلا أكثر مما ينبغى بالنسبة للكتب المعلوماتية والبحثية وسوف يستفيد البشر كثيرا منها وسيتم اختصار الازمنة القادمة ويكون ابن القرن الواحد والعشرين أسعد حظا منا جميعا فى هذا الشأن وستتعادل تجربته المعرفية عشرات الاضعاف مع قرينه من أبناء القرن العشرين لكن من المؤكد أن عمر هذه الاسطوانات فيما يتعلق بالكتب الابداعية سيكون بالغ القصر ، ربما أقصر مما نتصور ، صحيح انه قد يطول عن عمر الكتاب الكاسيت بواقع أن أجهزة الكومبيوتر تطور نفسها بسرعة مجنونة بينما الاجهزة الجديدة لن تتوافر بسهولة لدى كل الناس .

أمام هذا الأمر فان التقنيين لن يقفوا، بالتأكيد ، عاجزين واعتقد إنهم سيصنعون كتبا مختلفة فكما ظهر فى الفترة الأخيرة المترجم الفورى الذى يضم الاف الكلمات ، بلغات عديدة ، هذا المترجم الذى يتطور بسرعة هائلة فسوف يظهر «الكومبيوتر الكتاب» أو فلنقل بتخيل وتعبير أصح «كتاب الجيب الكومبيوتر» وهو بكل بساطة أشبه بالمترجم الكومبيوتر الذى نعرفه الآن لكنه سيجمع شكل الكتاب، بمعنى أن المرء يمكنه فتحه إلى نصفين مثلما يفتح الكتاب . وعن طريق ازرار خاصة يمكنه قراءة الرواية أو ديوان الشعر . وسيكون شكل الكتاب هنا مناسب للابداع أكثر من الكتب المعلوماتية وسوف يكون بسيطا للغاية ، بلا موسيقى أو صور فى الخلفية شكل الصور المتعارف عليها إلى جوار القصائد أو فى بعض الروايات

وسوف يجمع هذا الكتاب بين كل الميزات العادية للقراءة الكلاسيكية ، وبين الكتاب فى شكله المتطور . وهذا النوع من المؤلفات لايمكن قراءته بواسطة استرجاع صفحة معينة ، ولكنه يقرأ بالتسلسل العادى ، وستكون هناك شبكة انترنيت متطورة ، تنقل للقارىء ، مباشرة أحدث الاصدارات فيقرؤها بلغاتها الأصلية ، وسرعان ما سيشهد ، هذا الشكل تطوراً مجنوناً ، حيث يمكن لأى قارىء فى العالم أن يقرأ أى رواية جديدة بمجرد صدورها من المطابع (سيتغير شكل المطابع بالتالى عن الصورة التي نعرفها حاليا) اى أن القارىء العربى يمكنه أن يقرأ الآن أحدث رواية صدرت فى هلسنكى أو طوكيو ، باعتبار أن هذا الكتاب الكومبيوتر يضم في داخله مترجما فوريا .

لن يظهر هذا النوع من الكتب المتطور جدا قبل خمسة عشر عاما وهو ليس من ضرب الخيال بل انه بعد عدد من السنوات إذا قام شخص ما بتصفح هذا العدد ، فسوف يتهم كاتبه بسقم الخيال ، باعتبار أن ما سيتحقق قد يفوق كل تخيل.



اسم الكتاب : الأسطورة فى الشعر العربى قبل الإسلام
المؤلف : د. أحمد إسماعيل النعيمى
الناشر : سينا للنشر

إذا كان مارجليوث وطه حسين حاولا أن يدخلا هذا العالم الثرى من خلال اللغة والتاريخ والتشكيك فى بعض نماذج الشعر الجاهلى فإن د. أحمد إسماعيل النعيمى يؤسس من خلال كتابه القيم «الأسطورة فى الشعر العربى قبل الإسلام» لقراءة عبر الأسطورة والفكر والمعتقدات الدينية، والتى تركت أثراً كبيراً فيما بعد على الاسلام ذاته..

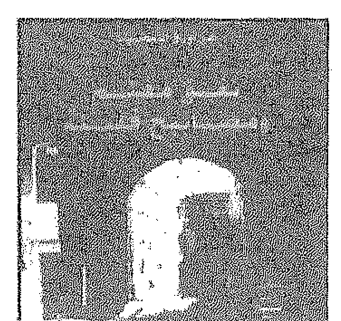
والأسطورة بوصفها انتاجاً للعقل الجمعى الانسانى، ورموزا احتفظت بها الذاكرة آلاف السنين، تمتلك الحضور الدائم وتمثل جانبا مهما من جوانبه النفسية والعاطفية، فمن خلالها تطور العقل البشرى فى اتجاه اكتشاف الظواهر الطبيعية وتحليل ماهيتها

وقد استعان النعيمى فى كتابه (الذى يقع فى ٣٦٨ صفحة من القطع المتوسط) بمنهج الدراسة التحليلية بغرض الكشف عن الصلة بين النتاج الشعرى والأمور الشعائرية والطقوس البدائية التى تشكل جوهر الأسطورة ولبها.

واعتمد أيضاً على مناهج أخرى مثل المنهج النفسى لبيان مدي تأثر هذا النوع من النتاج الفنى بنفسية (مبدعه) وما صلته بالجامعة المنتمى إليها، والمنهج التأريخى لتحديد الظاهرة المدروسة، وبيان مؤثرات هذا العصر، والمنهج الفنى الكفيل بتتبع القصيدة وقدرتها على النقل، واتجاهات قصصية لها أثر أيضا فى التغلغل وراء الصور الفنية لايجاد الربط بين الشكل والمحتوى الأسطورى.

كل هذه المناهج استند الباحث عليها للخروج بدراسته الموزعة على خمسة فصول رئيسية ومسبوقة بتمهيد ومودعة نتائجها فى خاتمة تلاها ثبت بالمصادر والمراجع المعتمدة.

مكتبة الهلال



اسم الكتاب : نفق معتم ومصابيح قليلة
المؤلف : فاروق عبدالقادر
الناشر : المركز المصرى العربى

«من أوراق التسعينات» هى الجملة التمهيدية التى وضعها الناقد الكبير قبل عنوان كتابه الجديد «نفق معتم ومصابيح قليلة» الذى يواصل من خلاله مشروعه النقدى بعد «أوراق الرماد والجمر» و«أوراق الرفض والقبول».

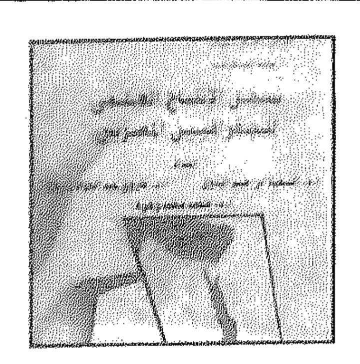
فى أوراق التسعينات يصحبنا الناقد فى رحلة طويلة شاقة يقف عند أهم ملامح الابداع المصرى والعربى، فيعرض ويناقش الأعمال الاخيرة لعبدالرحمن منيف ولطيفة الزيات وبهاء طاهر وإبراهيم أصلان ومحمد البساطى وحيدر ويوسف الشارونى وفتحى غانم ومحمد شكرى وأمين معلوف ونبيل سليمان وسواهم من القصاصين والروائيين.

وفى المسرح يعرض ويناقش أعمالا لسعد الله ونوس والفريد فرج وسواهما.

ويحتفى فاروق عبدالقادر أيضا بالكُتّاب الجدد الذين يقدمون أعمالهم الأولى ، فيفرد لهما قسما خاصاً فى كتابه (الذى يقع فى ٥٢٨ صفحة من القطع المتوسط) كما يكتب فى وداع جمال حمدان ويحيى حقى وعبدالله غيث وجابرا إبراهيم جابرا .. ولاتقف نظرته عند المبدعين فقط بل تشمل النقاد أيضا فيناقش دراسات على الراعى وشكرى عياد ومحمود أمين العالم وجورج طرابيشى،، ويناقش أعمالا يراها مهمة ودالة على المشهد الثقافى العربى الراهن لأحمد بهاء الدين وطارق البشرى ومحمد عودة وعلاء الديب وخالد محيى الدين وانجى أفلاطون.

أما القسم الذى أسماه «مواجهات» فيضم أهم المعارك التى خاضها خلال تلك السنوات من عقد التسعينات الذى يراه - حقا - نفقا معتما ومصابيح قليلة.

أما السيرة الذاتية الثقافية التى قدم نفسه فيها وقدم الكتاب الجميل بها فهى عبارة عن منظومة صادقة تعبر عن وجه فاروق عبدالقادر المضىء.



اسم الكتاب : سجل الانتاج العلمى للجغرافيين المصريين
المشرف: أ. د. محمد عبدالغنى سعودى
الناشر : المجلس الأعلى للثقافة

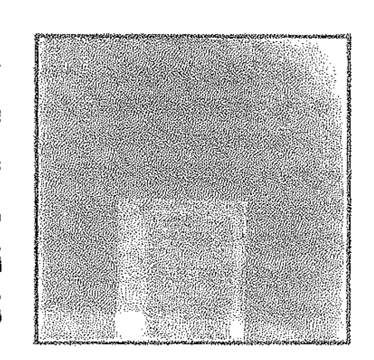
فى عام ١٩٧٦ أصدر المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بمناسبة العيد المئوى (البلاتينى) للجمعية الجغرافية الطبعة الأولى من سجل الانتاج العلمى للجغرافيين المصريين، ثم تولت لجنة الجغرافيا فى المجلس الأعلى للثقافة عام ١٩٨٤ اصدار الطبعة الثانية..

أما الطبعة الثالثة فقد صدرت عن لجنة الجغرافيا فى المجلس الأعلى للثقافة مؤخراً.. لتصنيف الجديد والحديث من الانتاج العلمى للجغرافيين المصريين. وكانت الطبعة الأولى من هذا السجل قد حصرت ببليوجرافيا بالانتاج العلمى المنشور بالاضافة إلى الرسائل العلمية للماجستير والدكتوراة حتى عام ١٩٧٤.

أما الثانية التى نشرت عام ١٩٨٤ فقد حوت عدداً يصل إلى ألف وخمسمائة وثمانية وثمانين عنوانا من الإنتاج العلمى للجغرافيين المصريين باللغات العربية والانجليزية والفرنسية وذلك بزيادة نحو ٤٦٪ عن الانتاج الذى سبق نشره.

وجاءت الطبعة الثالثة التى أعدها الأساتذة الدكاترة السعيد إبراهيم البدوى وفاروق عبدالجواد شويقة ومحمد محمد زهرة وأشرف عليها الاستاذ الدكتور محمد عبدالغنى سعودى لتشمل عدد ألفين وثمانين وأربعمائة من العناوين أى بزيادة قدرها ١٥٦٪ على الطبعة الثانية و٣٤٠٪ عن الطبعة الأولى.

وقد شملت الطبعة الجديدة عدة كشافات. وضعت فى نهاية السجل، كى يستعان بها فى سرعة الوصول إلى البطاقات الببليوجرافية فى أى مجال يراد الكشف عنه صدر الكتاب فى ٣٦٤ صفحة من القطع المتوسط .



المواعظ والاعتبار
فى ذكر الخطط والآثار
لتقى الدين المقريزى
حققه : د. أيمن فؤاد السيد
نشر : مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامى

صدور هذا الكتاب حدث ثقافى مهم ، فها هى ذى مسودة كتاب المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار لتقى الدين المقريزى المتوفى سنة ٨٤٥ هـ ، ١٤٤١م ، بخط يده تطبع وترى النور ، وتخرج المخطوطة الى القراء المحفوظة فى مكتبة متحف طوب قابى سراى باسطنبول تحت رقم ١٤٧٢ .

ويقوم د. أيمن فؤاد السيد بتحقيقها ، وتنشرها مؤسسة هدفها نشر المخطوطات المهمة ، وتدفع الى القيم من التراث الى سياق حضارة اليوم الإنسانية الشاملة .

وهذا الكتاب واحد من أهم المصادر فى تاريخ مصر وجغرافيتها، ويقدم هذا النص فرصة تصويب أخطاء طبعة بولاق التى صدرت عام ١٢٧٠ هـ ، ١٨٥٣م ، ويوفر لنا هذا الكتاب القيم قائمة تفصيلية وأوصافا دقيقة للقصور والجوامع والمدارس والخوانق والحارات والدور والحمامات والخانات والأسواق والوكالات التى وجدت فى عاصمة مصر خلال تسعة قرون .

يقول محقق الكتاب د. أيمن فؤاد السيد .. «فى أثناء عملى وجدت مصورا لمخطوطة الخطط ، وعندما درست هذه المخطوطة وجدت الضبط الصحيح والتصويب الكامل لكل الأخطاء التى تسربت إلى طبعة بولاق وهى بخط المقريزى نفسه .... وهذه المسودة تفيدنا فى التعرف على أسلوب القدماء فى التأليف ، فإذا كنا نملك عددا من المؤلفات بخطوط مؤلفيها ولكن نادرا ما وصلت الينا مسودات أعمالهم »

وكتاب الخطط غنى عن التعريف فهو يقدم مدن مصر وأقاليمها المختلفة باعتبارها عاصمة العالم الإسلامى وبؤرته الثقافية والسياسية ، ويقدم كل مايتصل بالقاهرة مسقط رأسه ، فلم يترك أثرا إلا وصفه وحكى تاريخ بنائه وماصادفه من تغييرات ، ولم يكتف باستنطاق الحجر بل تناول أيضا البشر ، وروى سير حياة الأمراء والكبراء وساكنى الحارات والخانات والتكايا .

ويذكر الكاتب الفرنسى كاتيرمير .. «لاتوجد مدينة شرقية يمكن أن تفخر بمؤلف يبلغ مرتبة «الخطط» من حيث الاكتمال كما هو الحال مع القاهرة ».

إميل حبيبى

مفارقة الأديب السياسى

بقلم : ابراهيم فتحى


إميل حبيبى

يرتبط اسم إميل حبيبى الكاتب الفلسطينى الذى يحمل الجنسية الاسرائيلية بالمفارقة . فأدبه الفنى العميق غائر الجذور فى التراث الشعبى العربى، معاد للصهيونية ولكن تصريحاته السياسية تنحنى أمام قهر الواقع وتحاول التكيف مع الاختلال فى ميزان القوى بين الشعب الفلسطينى واسرائيل، انه كاتب قد حصل على جائزة القدس وهى أرفع وسام أدبى من الدائرة الثقافية لمنظمة التحرير الفلسطينية فى يناير ١٩٩٠ ثم حصل على جائزة اسرائيل العليا فى الأدب من وزارة الثقافة الاسرائيلية فى مايو ١٩٩٢ .

وقد رحل فى ٢ مايو ١٩٩٦ وفى قمة بقايا تصريحاته المتفائلة عن مستقبل التفاهم بين الفلسطينيين ودولة اسرائيل وعن مزايا الواقعية السياسية، على حين كان الاجتياح الاسرائيلى لجنوب لبنان وتهجير نصف مليون لبنانى من أراضيهم وبيوتهم فى عنفوانه كما كان الفلسطينيون فى غزة والضفة الغربية يعانون من وطأة حصار التجويع والاذلال.

ويبدو ان إميل حبيبى المنظِّر السياسى كائن هش لا مكان له فى تيارات الفكر العميقة، انه ينتهج طريقا مرصوفا بشعارات من قبيل احن الرأس للعاصفة دعها تمر. ليس أمامنا الا الخيار بين الحل الردىء والحل الأردأ، دعوا الفلسطينيين وشأنهم ليحلوا مشاكلهم مع الاسرائيليين

ومن المفارقات المرة أن إميل حبيبى

الأديب ظل يوجه سهام السخرية الى صدر هذا المنحى فى الفكر والسلوك ويصيبه فى مقتل. فالسياسة التى تترقرق فى الاعمال الأدبية لإميل حبيبى تسير فى اتجاه معاكس للسياسة المعلنة على لسانه فحينما تكون «السياسة» ملامح لشخصيات حية، ودوافع للفعل أو للاحجام عن الفعل، وإخلاصا لمسار الواقع المعاش فانها يمكن أن تتناقض مع السياسة المجردة فى ذهن الكاتب. وهناك حالة معروفة فى الأدب العالمى هى حالة بلزاك الذى كان يدافع باعتباره سياسيا عن «الملكية الشرعية» وطبقة كبار الملاك بينما كانت رواياته تفضح تعفن ما يؤيده فى مقالاته.

ولنأخذ عملا من أروع أعمال إميل حبيبى هو «الوقائع الغريبة فى اختفاء سعيد أبى النحس المتشائل». و«المتشائل» صفة عائلية وهى تحت كلمتين هما المتشائم والمتفائل، وتنطبق على فصيلة كاملة من البشر، وعلى مذهب كامل فى السلوك، فإذا أصابه مكروه فى يومه يحمد الله على أن الأكره منه لم يقع.

وإذا مزقت العاصفة ابنا وعاد بلا رأس ولا أحشاء وهو فى شهر عرسه فإن الأم المتشائلة تصيح، «مليح إن صار هكذا، وما صار غير شكل» فأى شكل بعد هذا الشكل يمكن ان يكون أسوأ منه؟ ولكن فلسفة «التشاؤل» فى الصراع العربى الاسرائيلى تعتبر أن هناك دائما ما هو أسوأ . فالسوء بلا قرار، وبعض الشر أهون من بعض.

وينطبق ذلك فى المحل الأول على الذين بقوا فى فلسطين بعد نكبة ١٩٤٨ وكان إميل حبيبى من أبرزهم . لقد ولد فى حيفا عام ١٩٢١ ومات فى حيفا، وأوصى أن ينقش على شاهد قبره «باق فى حيفا» ولكن ما الذى بقى فى حيفا من حيفا؟ وتحفل روايتا إميل حبيبى «إخطية» و«خرافية سرايا بنت الغول» بذكر تهويد حيفا واشباح الماضى الهائمة فى حياتها وذكريات الماضى الفلسطينى الجميلة والحنين الى حيفا فى حيفا. وكان وضع «الاقلية العربية» فى اسرائيل ينطبق عليه كما جاء على لسان المحامى العربى فى رواية «إخطية» بيت الشعر القديم.

القاه فى اليم مكتوفا وقال له

إياك إياك أن تبتل بالماء.

فمذابح العرب على أيدى الصهاينة أصبح اسمها حرب التحرير، وتضع الرواية على لسان القاضى الاسرائيلى قوله: لم يتهمنا متهم قبلكم باننا ألقينا بعرب حيفا فى بحر عكا وهم مكتوفون بل تركنا أيديهم طليقة . فمن غرق منهم فلأنه لا يحسن السباحة. ولايحق لكم أن تلومونا على ذلك .. ويمن القاضى على العرب بان النازية لم تدع اليهود يهربون (وهو كاذب فى ذلك) بينما الصهاينة تركوا العرب يهربون من بلادهم احيانا . وتعلن فى الرواية وزارة العدلية الاسرائيلية ردا على اتهامات منظمة العفو الدولية، ان المعتقلين الفلسطينيين هم الذين يعذبون أنفسهم بأنفسهم ويكسرون أرجلهم . ويفقأون عيونهم بأيديهم لكى يشوهوا سمعة الاحتلال الاسرائيلى الرحيم فى العالمين.

وفى «سرايا بنت الغول» يدوى صوت المذيع الاسرائيلى أن دوى المدافع الاسرائيلية وأنات الجرحى العربية اجتمعت فى أذنيه سيمفونية رائعة».

● تناقضات حادة!

وتحفل أعمال إميل حبيبى الأدبية بلوحات متعددة الألوان لما عاناه الفلسطينيون داخل اسرائيل، ولنضالهم ضد القهر والحرمان من كل الحقوق وتسرى فى هذه اللوحات روح ساخرة تصور التناقضات الحادة فى هذه الأوضاع الفاجعة . إن الذين ألقاهم الاسرائيليون فى اليم مكتوفى الايدى كان عليهم النضال لكسب ابسط الحقوق الأدبية . لقد أصبحوا فى هذا الفرع المحلى من الجحيم مواطنين - رغم انوفهم مع الدولة الصهيونية مواطنين من الدرجة الثانية محرومين من كل شىء، مجبرين على التعامل مع مؤسساتها. وذاقت الاقلية العربية المضطهدة ويلات الحكم العسكرى المباشر. وملاحقات تحديد الاقامة والتنقل والتشريد والأعتقال.

وكان الحزب الشيوعى الاسرائيلى الذى يتبنى الخط السوفييتى ولا يعتنق الصهيونية . ويؤيد التقسيم بين دولتين يهودية وفلسطينية ويرفض التوسع الاسرائيلى «سيدين عدوان ١٩٥٦ و ١٩٦٧ ويؤيد الحقوق العربية» ملاذا للكثيرين من أفراد الاقلية العربية ومن المعروف أن إميل حبيبى كان من أبرز مؤسسى هذا الحزب ذى الاغلبية العربية (راكاح).. وظل إميل حبيبى أسيرا فى قفص الخط السوفييتى زمنا طويلا . ولن نقف عند ماركسية إميل حبيبى قبل نكبة ١٩٤٨ ، فقد كان عضوا فى عصبة التحرر الوطنى الفلسطينية وهى حركة نضال قومى يسارية عريضة لا تضم الا العرب وحدهم تأسست فى ربيع عام ١٩٤٣ تم تبلورت فى حزب شيوعى فلسطينى، وكان محررا فى جريدة «الاتحاد» ثم رئيسا لتحريرها بعد النكبة، كما أصدر فى عام ١٩٤٦ مجلة المهماز الاسبوعية التى لم تعش طويلا.

ويبدو أن (راكاح) كان التنظيم الوحيد المتاح امام العرب للدفاع عن الحد الأدنى من الحقوق وتقديم المطالب الحيوية اليومية التى كانت مهددة والاحتجاج على كل ضروب القهر وانشاء اشكال للتنظيم النضالى وخلق صحافة ودور نشر عملت على حماية اللغة العربية والثقافة القومية من المحو والانقراض وعلى تعميق الوعى القومى.

وقد أسهم إميل حبيبى فى كل جوانب ذلك النشاط . وأصبح نائبا عن الحزب فى الكنيست الاسرائيلى طوال عشرين عاما.

وتدل كتابات إميل حبيبى على أنه كان وثيق الصلة بالحركة العمالية الفلسطينية فى مدينة حيفا، واشتغل هو نفسه فى مهن عمالية قبل أن يتفرغ للكتابة والنضال السياسى. فلم تكن يساريته كتبية تقوم على استظهار النصوص ، بل كانت قبل أن يضرب بها عرض الحائط بعد إطاحة بريسترويكا جورباتشوف بمسلمات الخط السوفييتى، طريقة فى الحياة والعمل وسط

عشيرته وتتجلى فى كتاباته الأدبية على وجه الخصوص قبل أن يمشى فى درب الآلام وحيدا لا يصحبه إنس ولا جن فالسياسة فى كتاباته الأدبية ترديد لأصداء «جاماتى» لمكسيم جوركى «نحترق لنضىء السبيل» ، وهو يروى اسطورة «الشاب دانكو» ، حينما ضلت العشيرة فى شعاب غابة كثيفة، الاشجار متشابكة ـ الأغصان تحجب الشمس عن العيون ظلام دامس ورطوبة شاملة تطفىء كل شعلة.

● حديث عن جمع الشمل

وقد وقع الاختيار على دانكو أو إميل حبيبى لكى يقود العشيرة الواقعة فى اسر الظلام فمد يده الى صدره واستله من حنايا ضلوعه مشعلا وهاجا يضىء السبيل الضائع ثم سقط صريعا فحين اشتد الظلام فى يونيه ١٩٦٧. يكتب إميل حبيبى سداسية الايام الستة، ست قصص قصيرة تتحدث عن جمع الشمل بعد أن سقطت فلسطين كلها بين مخالب اسرائيل ويلتقى الاغراب بأصحابهم وأحبابهم والسيف على رقابهم جميعا . فالعلاقة بين ابناء فلسطين موصولة وثيقة الذين داخل الصدفة الاسرائيلية منذ زمن بعيد والذين احاطت بهم الصدفة بعد ١٩٦٧ وتطول القامات فى اللقاء وتصبح الرءوس فوق الضربات. ان الانطواء وانحناء الظهر هو قطع الصلة بالتاريخ بالماضى . فالماضى ليس زمنا ان الماضى هو جميع الاهل والاصدقاء هو النحن والهوية، واعادة الروابط بالماضى تنتشل الناس من حاضرها وتبشر بالرجوع واستعادة الكنوز واستعادة الوطن وعودة النائى الغريب الى أهله. ولن نجد أثرا للخط السوفييتى عن طبقة عاملة اسرائيلية تقدمية تتحالف سلميا مع طبقة عاملة عربية ضد اليمين الاسرائيلى والعربى فى رسائل الفتيات المقدسيات الثلاث (فى قصة الحب فى قلبى) اللواتى اعتقلن بتهمة تهريب السلاح أو التستر على تهريبه وما ثار حول اعتقالهن وتعذيبهن وحشرهن مع نسوة سقاطات وعن اطفاء السجائر المشتعلة فى اجسامهن البضة. وتقطر رسالة «فيروز» وهى إحداهن بتدفق الحياة وتطاير رذاذها رغم القضبان. فكل مكان فى حيفا تقدس بدماء المذبوحين ويظل يتقدس.

وإذا انتقلنا الى رائعة إميل حبيبى «الوقائع الغريبة فى اختفاء سعيد أبى النحس المتشائل» وجدنا محاكاة ساخرة لرواية «كانديد» لفولتير . وهى بدورها سخرية من فلسفة التفاؤل عند «لايبنتس» الذى يعتبر عالمنا أفضل العوالم الممكنة وكل شىء فيه على أفضل حال.

وتسخر الرواية من انتهازية سعيد، وتكيفه مع أوامر الغزاة فهو يجيب زوجته عن اسئلتها قائلا إن الثوريين هم ناس يكفرون بالنعمة . نعمة الغالب على المغلوب بالحياة، ويكفرون بالله لأنهم يدعون القدرة

على تغيير المكتوب، وهو يعلن إنه مخلص للدولة الاسرائيلية ولأمنها ولقوانينها ماهو معلن منها وما سوف يعلن، ولكنه يتلقى اللكمات والضربات والركل بالاحذية داخل السجن ويجد نفسه متربعا وحيدا على رأس خازوق بلا رأس فى كابوس يحط على صدره ليلة بعد ليلة بلا انقطاع . خازوق فى كابوس . وماذا سيحل به لو ظهر إنه ليس بكابوس بل خازوق واقع؟ وهل هناك فى رأى إميل حبيبى طريق بديل للخازوق، خازوق المهادنة والتكيف والاستسلام؟

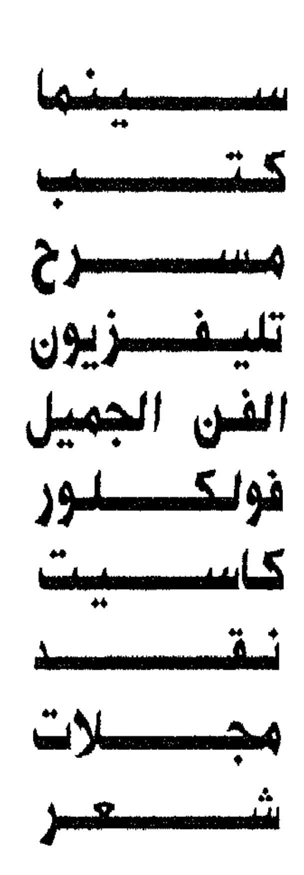
يقول حبيبى فى الرواية إن الذى لا يريد أن يقعد على الخازوق يجب عليه أن ينزل الى الشارع.

والشارع يملؤه الناس الذين يحتل الحلم الفلسطيني وجدانهم وخيالهم ففى «إخطية» او الخطيئة وهى رواية أصدرها عام ١٩٨٥ . يشير الاسم الغريب الى ما أشاعه الاعداء عن خطيئة من تجيء أنثى بعد تعاقب الإناث من نفس البطن وتستدعى خطيئة الوأد وخطيئة من لا تلد الا البنت بعد البنت ولا تنجب نسلا من رجال، وقد تكون غرابة الاسم ناشئة من الاختلاط الكبير فى اسماء مدن فلسطين وقراها وشوارعها بين عربية وعبرية. وسرايا (١٩٩١) قبل إخطية. فتاة أحبها البطل فى صباه ثم شغلته همومه عنها فأهملها حتى عادت وظهرت له فى شيخوخته. كأنها الفتاة التى اختطفها الغول وتبناها واسكنها قصره فى أعالى الجبل. وذهب ابن عمها يبحث عنها فى البرارى وكانت مشهورة بجدائل شعرها الطويلة فظل يناديها سرايا يابنت الغول. دلى لى شعرك لأطول . وقد كان وكل من إخطية وسرايا . شخصيات متعددة فى إهاب مفرد، وهما مصنوعتان من مادة الحلم الفلسطيني الذى يظل يراود الأعين والقلوب مهماتكن الأهوال.

● عدوان اسرائيلي علي العرب

وفى الحقيقة إن الادب الرائع لإميل حبيبى يتجاوز العثرات السياسية. ولن نجد له كتابات أدبية بعد مواقفه الاخيرة التى يصفها البعض بالاستسلام . وهل يمكن القول أن أهل فلسطين أو آهل يافا ادرى بشعابها حينما تكون القضية الفلسطينية قضية كل شعب عربى وبعد ان سال الدم العربى مدرارا من الطعنات الاسرائيلية فالدور الاسرائيلى فى المنطقة عدوان على كل البلاد العربية وليس شأنا فلسطينيا فحسب. ودون تبرير لتصريحاته السياسية الأخيرة فان إميل حبيبى كاتب عظيم ينتمى الى الادب العربى، ويضيف اليه الكثير، وتتألق رؤيته فى أعماله معبرة عن الحاجات الجمالية للشعب الفلسطينى وتراثه فى ارتباطهما بالمحيط العربى الاشمل.

من الهلال إلى الهلال







ندوة

تبعية أكاديمية

■ حققت جامعة القاهرة كشفا علميا بارزا يستحق الذكر والفخر.

واستطاعت كتيبة من الباحثين والباحثات فى مركز الدراسات الآسيوية التابع لكلية الاقتصاد والسياسة ان تزيح الستار عن السر الذى يثير العالم ويبهره كل يوم وهو التفوق الآسيوى الخارق فى تحقيق الديمقراطية والتنمية معا.

وخلال ستة عشر بحثا مفصلا أثبت هؤلاء ان الفضل الأول والأخير فى المعجزات يعود الى حكيم صينى عاش منذ اكثر من الفى عام هو «كونفوشيوس» وان روحه وتعاليمه هى التى تقف وراء معجزة اليابان الرأسمالية الليبرالية ووراء معجزات النمور الصغيرة بما فيها «ماليزيا المسلمة»! بل وتقف ايضا بنفس القدر وراء ما حققته الصين وفيتنام الاشتراكية، وذلك انها روح موضوعية قدسية لا تفرق بين الآسيويين مهما كانت اللغة أو الجنسية أو العقيدة.

وطوال ثلاثة ايام من العرض والجدل والنقاش المحتدم لم يأت ذكر لأى ثورة أو انتفاضة أو حركة تحرير أو حرب عادلة او

عدوانية. ولم يرد اسم آسيوى واحد لزعيم أو قائد أو حكيم أخر لم يرد قط اسم صن بات صن ، أو ماوتسى تونج او شواين لاى خلال مناقشة الديمقراطية والتنمية فى الصين ولم يذكر هوشى منه أو جباب أو فان فام دونج او حرب الثلاثين عاما.

ولم يعترف بالطبع بأى فضيلة لكيم ايل سونج فى كوريا الشمالية لان الديمقراطية والتنمية اختصرت على الجنوب.

ولم تستثن الهند إلا قليلا، وجاء ذكر غاندى ونهرو على عجل، واستبعدت انديرا لأنها اجهضت التنمية والديمقراطية بتأميم البنوك وإلغاء معاشات المهراجات الذين لايحتاجونها، ولأنها اعلنت الطوارىء ضد معارضة يمينية زحفت نحو العاصمة ودعت الجيش والبوليس الى العصيان المدنى!

ولم يعترض او ينتقد احد من الاساتذة المعقبين فيما عدا كاتب معروف شهد احدى الجلسات ولم يلق اعتراضه اى اهتمام.

وقد انشئت كلية الاقتصاد والسياسة لتكوين كوادر مصرية وطنية تقدميه ولتمد الدبلوماسية والاقتصاد بفكر وتطبيق خلاق ومعاصر .. ويبعث الاسى والأسف ان تنتهى الى هذه الرجعية والتبعية الفكرية وتنقل نقلا حرفيا عن الغرب.. وعن اسوأ ما فيه.

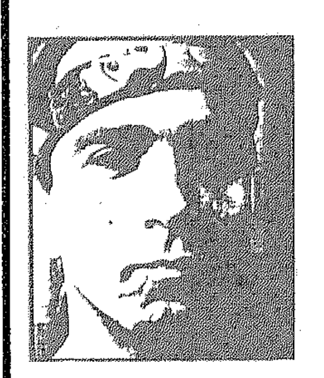
● د. محمد متولى حسين

مسرح

نيات طيبة ونتائج هزيلة

■ شاهدت فى مسرح الجمهورية عرض «المقابلة الأخيرة» من تأليف وإخراج وليد عونى، حاول العرض أن يقدم رؤية فنية تشكيلية بوسائل المسرح الراقص لتاريخ حياة فناننا الكبيرة تحية حليم، فهل نجح ؟

لا شك أن النيّات طيبة جدا، ولكن واقع العرض هزيل للغاية، فهو فى نفس الوقت الذى يحاول فيه أن يقدم لنا لغة



وليد عونى

جسدية حسية متحررة إذا به يعوق ما أراد بتلك الزحمة التى شغل بها فضاء الخشبة بلا مبرر، والحركات شبه الآلية للراقصين بما لا يجعل لها دلالة إيقاعية أو تشكيلية بالنسبة للعرض الذى أراد أن يكون مركبا . وقد تتراوح هذه الآلية بين الميكانيكية فى استيحاء « المسرح الراقص » الألمانى، ومحاولة تقديم اسكتش راقص للتراث النوبى الذى أحبته تحية حليم بصورة خاصة، ولكن ذلك كله يظل تلفيقا يعوزه بشكل واضح تصور فنى متماسك تستشف منه وجهة نظر العرض .

فلو كان هذا التصور واضحا لدى مؤلف العرض ومخرجه، لكان الأداء مختلفا بشكل جذرى . ولكن غياب هذا التصور الواضح هو الذى أدى الى تعويق العرض لما أراد أن يقدمه : رحلة التحرر والاكتشاف الحسى المتوهج لدى فنانة تشكيلية يذكرنا زواجها من أستاذها الراحل حامد عبد الله برواية « عشيق الليدى تشيترلى » لـ « د. هـ . لورنس » حينما يصحبها ابن الفقراء بجزيرة المنيل إلى ثراء حياة البسطاء المنتجين فى تربة مصر العريضة.

يعوق العرض هذه الرحلة الاستكشافية الحسية بتلك المجموعات الزائدة من الراقصين الذين يذكروننا بتضخم العاملين فى الجهاز الحكومى. فكيف نشاهد عملية التحرر الحسى لفنانة تشكيلية وسط هذه الزحمة العشوائية للراقصين والراقصات ؟!

وما هو مبرر ازدحام الخشبة بكل ذلك الكم من الديكورات ؟!

لو أن الرؤية الفنية للعرض كانت متماسكة واضحة لاقتصد فى الديكورات وفى أعداد الراقصين والراقصات ولعمقت الدلالة الاشارية لإيقاع كل حركة مؤداة فى علاقتها بسائر أدوات السينوغرافيا، ولكان الايقاع الراقص بالضرورة أكثر تكثيفا وتعبيرا عن الدراسة المتأنية الدقيقة لما يريد أن يقول بلغته الخاصة، ولكنها ربما كانت مأساة خواء العروض التى

أصبحت - للأسف - تجد مشجعين لها فى المسرح العربى الراهن، ولعل أعمال محمد إدريس الأخيرة فى تونس مثال واضح على ذلك .

مأساة غياب النص المسرحى الحقيقى وغلبة الارتجالات التلفيقية باسم التجريب الحر، وهو ما أرى أنه على العكس تماما من حرية التجريب لأن هذه الأخيرة تقدم بديلا نقديا، ومن ثم متجاوزا لتقنيات المسرح العربى، ورؤاه التقليدية .

أما هذا الذى شاهدناه فلا يرقى إلى أكثر من تمارين ضعيفة لتلامذة مبتدئين فى أحد المعاهد المسرحية .. خسارة .

● د. مجدى يوسف

مجلات

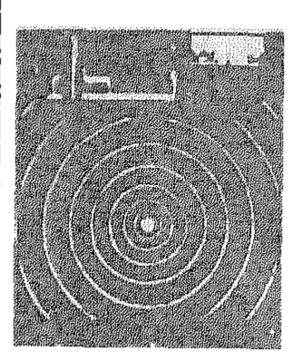
«المجلات الصغيرة»

ظاهره لافتة للنظر فى خضم حياتنا الثقافية النشيطة - لعل الثقافة هى الشيء الوحيد الذى يدعو للأمل ، إلى حد ما على الأقل ، فى قلب واقع اجتماعى وسياسى ، قومى ووطنى تستشرى فيه مظاهر التردى والهوان - هى ظاهرة عودة ما أسميه «المجلات الصغيرة» إلى الصدور بتواتر ملحوظ .

ليست هذه الظاهرة جديدة ، ولعلنى اعتبرها من البذور المخصبة أو الآليات الحافزة على الحركة والحيوية ، دليلى على هذا مجلات طليعية كان لها - ومازال - أثرها الفعال فى تطور وتجديد' رؤانا وأساليبنا الأدبية والفكرية ، مثل «التطور» (أنور كامل) فى آخر الثلاثينيات وأول الاربعينيات، و«المجلة الجديدة» (رمسيس يونان) فى الأربعينيات المبكرة .

ولعله من الطريف - والمفيد - أن أحصى ، بقدر ما تسعفنى الذاكرة ويدعمنى الأرشيف الشخصى ، هذه المجلات الصغيرة منذ آخر الاربعينيات : «البشير» (بهيج نصار ، محمود أمين العالم ، بدر الديب) .

ولعله لم يصدر منها إلا عددان من ٢ إلى ٩ أكتوبر ١٩٤٨، فإذا كنت مخطئا فاننى أدعو كل من لديه خبر يقين إلى تصحيحى ، ثم أجد فترة انقطاع تدعو للتفكير منذ «فصول»



غلاف النداء

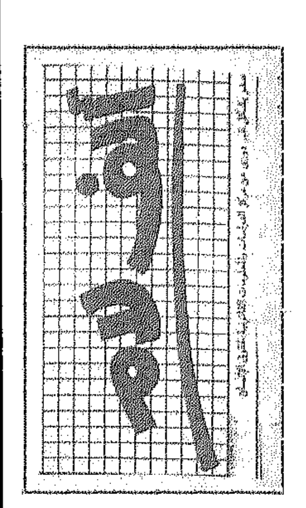


د. شكرى عياد

(فتحى غانم) فى ١٩٤٨ أيضا حتى انحسار «فترة الازدهار» الثقافى تحت الوصاية الأبوية الناصرية ووقوع كارثة ١٩٦٧ ، حيث صدرت أقوى وأفعل هذه المجلات الصغيرة ، حتى الآن ، فى تقديرى وهى ، كما لايخفى ، «جاليرى ٦٨» (ابراهيم منصور ، أحمد مرسى ، ادوار الخراط ، جميل عطية وكوكبة أخرى لامعة ومتغيرة) ٨ أعداد ، من ابريل / مايو ١٩٦٨ إلى فبراير ١٩٧١ وقبلها «الثقافة الجديدة» (محمد الجندى) عدد واحد فى١٩٧٦ ، «إضاءة ٧٧» (جماعة إضاءة ٧٧ - حلمى سالم ، ماجد يوسف ، حسن طلب ، جمال القصاص وآخرون) ١٤ عددا من يوليو ١٩٧٧ إلى نوفمبر ١٩٨٨ ، «كتابات» (رفعت سلام وآخرون) ٩ أعداد من مايو ١٩٧٩ إلى نوفمبر ١٩٨٤ ، «الفكر المعاصر» (عبد السلام رضوان) عددان من مايو ١٩٧٩ إلى العدد الثانى (غير المؤرخ)، «الكراسة الثقافية» (أمجد ريان) عددان من يونيو ١٩٧٩ إلى مارس ١٩٨٠ ، «الثقافة الوطنية» (محمد الجندى ؟) عددان من يناير ١٩٨٠ إلى يناير ١٩٨١ ، «خطوة» (سيد بحراوى وإسماعيل العادلى ويحيى الطاهر عبدالله ويوسف ابورية) ٧ أعداد من ديسمبر ١٩٨٠ الى يونيو ١٩٨٥ ، «مصرية» (عبد العزيز جمال وآخرون) ٩ أعداد، عددها الأول غير مؤرخ - ٧٩ أو٨٠ - إلى أكتوبر ١٩٨٠ ، «النديم» (محمد ابراهيم مبروك وآخرون) ٤ أعداد من يونيو ١٩٨١ إلى مايو ١٩٨٥ ، «أدب الغد» (خالد الجويلى وآخرون) عددان من ابريل ٨٣ إلى فبراير ١٩٨٤ .

بعد هذا التواتر فى فترة ماسمى بـ «ثورة الماستر» حينما حجبت أى قمعت مجلات الدولة الناصرية (الطليعة ، الفكر ، القصة ، الشعر ، الكاتب وغيرها) صدر من «الكتابة السوداء» عدد وحيد لا أظن أنه سوف يثنى (أحمد طه وجماعة أصوات: عبدالمنعم رمضان ، عبد المقصود عبد الكريم ، محمد عيد ابراهيم) فى سبتمبر ١٩٨٨ .

حتى نأتى إلى الموجة الأخيرة : «الكتابة الأخرى » (هشام قشطة) ١٣ عدداً حتى الآن من مايو ١٩٩١ حتى فبراير ١٩٩٦، «الأربعائيون» (عبد العظيم ناجى ، ناصر فرغلى وآخرون) ٤ أعداد - حتى الآن - من يناير ٩٢ إلى شتاء ١٩٩٤ ، «الجراد»



(أحمد طه وآخرون ، ثم جرجس شكرى وآخرون) صدر منها حتى الآن ٣ أعداد من مارس ١٩٩٤ إلى يناير ١٩٩٦ ، وأخيرا الأعداد الواحدة حتى الآن من «زرقاء اليمامة» و «ألف لام» و«النداء»

أترك للقارىء وللباحثين مهمة استخلاص دلالة هذا الإحصاء الذى إن أعوزته الدقة الكاملة أو الشمول الكامل فلعله يحفز إلى الاستكمال والتصحيح ، والأهم، إلى التفكير ومحاولة تفهم الآليات الثقافية (اجتماعية «وفردية» على السواء) التى حكمت أو أسهمت فى تكون هذه الظاهرة.

وفى تقديرى أن «ثورة الماستر» و«جاليرى ٦٨»كان لها ما يبررها بل ما يحتم صدورها، حين ظل القمع الساداتى وما تلاه وصاحبه من استشراء الانفتاح وعقابيلة وانحسار «الثقافة الرسمية» عاجزة كلها عن كبح الحيوية الثقافية الشعبية أو تجفيف «نبع الإبداع الذى لا يغيض» فى هذا البلد، أما المجلات الثلاث الأخيرة الصدور فعلى ترحيبى بتعدد منابر النشر بل ومطالبتى بأن تزداد وأن تتحرر تماما من قيود قوانين من شأنها أن تكبل الإبداع وأن تعوق تدفقه المنشود والمكبوت معاً، إلا أنها حتى الان، فيما يبدو، لا تأتى بجديد حقاً، وما تنشره كان من الممكن ببساطة أن تتضمنه المنابر أو «المجلات الكبيرة» التى تصدر تحت مظلة الدولة، ومع ذلك فلها حضورها وفعاليتها وقدر من الحرية نتمنى أن يتسع باطراد، مثل فصول (جابر عصفور) و «ابداع» (أحمد عبد المعطى حجازى) و«القاهرة» (غالى شكرى) و«أخبار الأدب» الاسبوعية (جمال الغيطانى) و«الهلال» العريقة. و«الثقافة الجديدة» (هيئة قصور الثقافة)، فضلا عن «روز اليوسف» و «صباح الخير» .

وعلى الهامش: أليس من المحزن قليلا أن تظهر هذه المجلات (وخاصة «النداء» بما وراءها من قامات أدبية وفنية شامخة) فى ثوب يذكرنا بصحف العشرينيات الفقيرة العارية من أى جمال فنى فى الإخراج، على الرغم من قوة مادتها، وعلى اختلاف «ممكن» فى تقييمها؟

● إدوار الخراط

صيغ قديمة وواقع متغير

ينبغى الاشارة: أن اصدار مجلة جديدة تعنى بالهم الثقافى، لابد لها من أن تحدد منذ البدء خياراتها ورؤاها، واسئلتها التى سوف تطرحها على مجمل تغير الواقع، وكيف ستجيب عبر منهجها النقدى، وانتمائها للابداع الجيد، وثقافتها الجديدة والتى تسعى من خلالها اكتشاف الواقع، وموقفها من الحرية وفعل الحرية باعتبارها نهاية الامر المطلب الاسمى لكل ثقافة حرة.

علينا ان نؤكد ان مجتمعنا العربى «بالذات المصرى» مفتوح على احتمالات كثيرة، ويعيش ثقافة ازمة تدفع به الى الهامش بعد ان كان المركز. حدثت هذه الازمة نتيجة تراكم تاريخى تختلط فيه البداية بالنهاية، وتبرز من الماضى قيم السلفية، وتعيش هذه الثقافة ثنائيات لا حل لها يبدو فى القريب، ويسيطر ذلك الاعلام المغيب للوعى ليثبت الواقع ويعيد انتاج ما انتج سلفا، وبالتالى تعيش الثقافة العربية فى الواقع الراهن أزمة تاريخية.

اصدار مجلة جديدة يعنى مساهمة فى بلورة الحوارات، واعادة صياغة لغة الكتابة واعلان القطيعة تماما (بدون اى التباس) مع مجمل الثقافات القديمة التى تعيش خواءها.

اصدار مجلة جديرة يعنى المساهمة فى كشف تيارات الابداع المختلفة (شعرا ونثرا ونقدا وفكرا) وتمهيد الارض وتكوين الذوق العام لاستقبال هذه الكتابة حتى تكتسب شرعية الوجود وتحقيق السعى نحو المعرفة والعدل والحرية.

اذن مجلة جديدة تعنى (الانتماء للابداع وللتجارب الجديدة والاشتباك مع هموم الثقافة المستنيرة) واقامة الحوار مع اهم تيارات الحداثة عند الآخر، ومعرفته).

يحضرنى فى هذا السياق مجلات «الكاتب المصرى» التى صدرت فى اربعينيات هذا القرن وكيف اقامت جسرا مع مذاهب الفكر الفاعلة فى الثقافة الاوربية، وايضا مجلة «المجلة»

تحت رئاسة راعيها الكاتب الكبير، «يحيى حقى»، حتى مجلة «الرسالة» وكذلك مجلة «الثقافة» القديمتين قدمتا انجازهما فى اطار الرؤى الرومانسية التى كانت سائدة.

ومجلة «مواقف» التى اصدرتها جماعة «شعر» وكيف بلورت اسئلة الشعر الحديث واحتفت بالرؤى الناهضة التى تواجه النص السائد والمكرس، ثم كانت فى الثقافة المصرية مجلة «جاليرى ٦٨» التى لم يكن لها إلا ان تصدر فى هذا الوقت بالتحديد من منتصف الستينيات لتواجه هزيمة مروعة، وشعارات سياسية فارغة تفارق مأساة الواقع، وتواجه كتابة خاوية تدور فى خوائها القديم، واستطاعت هذه المجلة ان تقدم عبر سعيها الكتابى الكثير من المواهب والكثير من تيارات الحداثة التى مهدت الطريق لميلاد كتابات اخرى بديلة، وايضا لا يمكننا ان نغفل الدور الفاعل لمجلة «الآداب» البيروتية فى عز نهضتها فى الخمسينيات والستينيات .

اذن... ما الذى يجعل اصدارات بعينها، وحين صدورها تبدو خارج زمن الكتابة؟

رأينا الواقع المصرى يزدحم بالاصدارات (جرائد ومجلات، ونشرات، وعلى كل لون) بعضها يرى «ان الثقافة الوطنية تجربة انسانية متفردة يستحيل نقلها خارج بيئتها الاصلية» ...

«زرقاء اليمامة» . ورأينا مجلة تطرح تصورا قديما عن العقل والفكر عبر مواد تجاوزها الزمن وحركة التاريخ مثل «النداء» وجريدة ثقافية هى «ألف لام» يبدو ان احلام من شاركوا فى اصدارها كانت اكبر من امكانات الواقع والتنفيذ والمشاركة الضمنية. ومجلة تأخذ فى اعتبارها وهمها الاساسى اكتشاف المواهب الجديدة بين نجوع مصر مغفلة ان لا مواهب حقيقية بدون تقديم ثقافة مستنيرة «أخبار الادب». ومجلة ترى انجاز الابداع المصرى على طول تاريخه فى كل اشكاله الجذرية لايتلاءم مع غضب جيل مغاير «حدى فى رفضه للآباء».

الذين لم يورثوه سوى الانهيارات وضياع اليقين.. «الجراد».

وتظل «الكتابة الاخرى» رغم قصيدة النثر التى تنشرها وباستثناء قليلة تمتلك مغامراتها الحقيقية طامحة للتعبير عن حساسية جديدة بالفعل.

ما البديل؟

تختلط الرؤى بشكل محزن، ولفقر الواقع تغيب الصيغ التى تعبر عن المسار الحقيقى لمجمل فنوننا الجديدة.

ينبغى ان اؤكد ان البديل يصاغ ويتشكل ربما فى سؤال ما لينتزع من المجهول وسائط تعبيره تلك التى تحمل على صفحاتها النقد والنص وفعل الحرية «لا تنطلق من فراغ بل من تراكم التجربة الانسانية عامة، والعربية خاصة».

حتى نستطيع ان نطلق عليها جديدة، وان نصفها فى كل الاحوال بأن لها رؤية ، وبأنها تختط لها طريقا جديدا.

● سعيد الكفراوى

فن تشكيلى

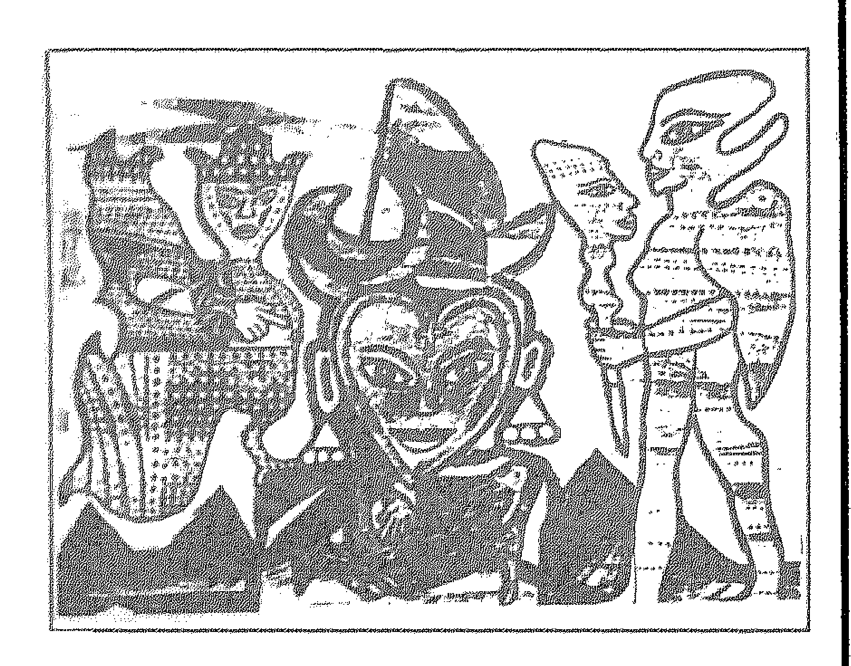
خيالات فنجان القهوة

قارئة الفنجان تنظر فى فنجانها وتحكى حكايات حدثت، لتؤكد لنا أنها صادقة. ثم تحكى حكايات على وشك الحدوث لنحتاط، ثم حكايات عن المستقبل لنستبشر خيرا، هذا ماتراه قارئة الفنجان بعد أن ترتب الرموز التى صنعتها الصدفة، ونوع البن وطريقة إعداده.

أما إذا نظر فنان تشكيلى فى فنجان القهوة فماذا سيرى؟ وماذا سيختار مما رأى ليعيد تقديمه لنا على اللوحة؟

هذا مايمكن أن نراه الآن فى معرض الفنان داوستاشى،


عصمت داوستاشى



الذى يقدم لنا خيالات فنجان القهوة فى معرض، ويؤكد أنها خيالات وليست حكايات، وهذا تأكيد على الجدية التشكيلية فى تناول الموضوع.

والذى يبدأ فى تأمل فنجان القهوة والتجول داخل القنوات البيضاء المشقوقة بين كتل البن، واقتناص الأشكال والرموز واختزانها، ثم إعادة صياغتها بالحذف وبالاضافة والابداع، حتى يتم تقديمها فى لوحة هى مقطع ذو إطار من مساحة بلا حدود. وقد اقتصرت المجموعة التى تنتمى إلى رسوم الفنجان فى هذا المعرض على أربع لوحات فقط، ربما حالة (الجاليرى الخاص) هى التى فرضت تقديم هذه النماذج القليلة من حيث الكم على مسمى المعرض (خيالات فنجان القهوة) لكنها كانت كافية للتعبير عن بداية هذه التجربة المرئية فى هذه اللوحات، والمتابع لحركة الفن التشكيلى المصرى يلاحظ أن موضوع رسوم فنجان القهوة كان مصدرا لالهام كثير من التشكيليين، حامد ندا ومحمد عبله وعاصم شرف.. وآخرين، وليس مصادفة أن ينتمى هؤلاء الفنانون فى أعمالهم المرسومة إلى المدرسة

التعبيرية المصرية، ولكن كل منهم تناوله بشكل مختلف عن الآخر، ثم أصبح هذا البحث البصرى علامة مميزة فى مسيرته الفنية. داوستاشى من هؤلاء الفنانين الذين ينتمون للمدرسة التعبيرية المصرية وعلامة مميزة فيها، من حيث التصنيف العام لأعماله المرسومة، لكن تميزه الشخصى يتجلى فى العالم الذى ينهل منه ويعبر عنه ويقدمه. وهذا يتضح فى المجموعتين اللونتين بالمعرض، فمشاهد هذه الأعمال مشاهد للوحة موضوع معشق بالرموز، لوحة محكمة البناء داخل إطارها، تشعر أنها مستمدة من طلسم سحرى، أو من تميمة لمنع الحسد، أو لارسال هاتف أو لجلب محبوب، لوحات سحر وتصوف. ترتبط اللوحة بمسماها، الذى لاينفصل ولا يفسر ولا يضلل عن المشاهدة، بل المسمى جزء مكمل للعمل التشكيلى، سواء قرأت العنوان قبل المشاهدة أو بعدها ، تبقى اللوحة كائن سحرى (حجاب) يعبر عن عالم داوستاشى الداخلى الشديد الخصوصية.

هذا المعرض هو الاربعون بعد أكثر من ثلاثين عاما من إثراء الحياة التشكيلية المصرية، عمل فيها منتميا لعالم التشكيل الشمولى المعاصر متجاوزا فترة الانقطاع الشرقى عن التطور الاكاديمى للفن، وفى الوقت نفسه متجاوزا سهولة الفن التلقائى الساذج، مستلهما الرسوم الجدارية على واجهات منازل البسطاء، ورموز الوشم وطلاسم السحر، وتشكيلات الخط العربى، وأسلوب التكوين المتماسك على الجداريات الفرعونية، والعشق الصوفى لوحدة الوجود. والمشاهد المتخصص لأعمال داوستاشى يلاحظ المنهج اللاسريالى فى أعماله، حيث يسيطر على اللوحة بناء محكم، كان الاستثناء له فى هذا المعرض لوحة (الفارس فى الاتجاه الخطأ) حيث تم رسمه فى اللوحة عن عمد.

فى المكان الخطأ، أما باقى التكوينات فتسيطر عليها المفاهيم الحيوية، الراغبة فى تغيير الردئ، والمنتظرة فى صوفية وحب لاقامة علاقات جمالية أكثر توحدا وتكيفا مع العالم الباطنى للمتناقضات.

● مصطفى المسلمانى

«داوستاشى يلوذ بروح مصر فى صومعته بالعجمى»

لم تقرأ البخت .. أو ترجم بالغيب .. لكنك تكشف الطالع .. وتستشرف المستقبل .. وترثى الحاضر .. فى فنجانك القاتم .. والساحر ، الذى وسع مصر قلباً وتاريخا وحضارة .. فنجانك الذى حوى قهرها ، ومرها ، وصبرها الأبدى الصامت.

فنجانك المقلوب يا إنسان .. كقفة الودع .. ومخلة الساحر .. وصندوق الدنيا .. تمد فيه عينيك ويديك ، وقلبك الدامى .. ليخرج من جدرانه الملساء والصماء .. أهرامنا القانية المنكسرة والحزينة ، وكودية الزار الحائرة ، المتهدلة الثدى .. الغانية .. المستكينة .. وثعبانك المرقط .. ونسرك المقهور والمهضوم .. وديكك المحلق المحتبس بصرخة الموت .. وذقون شيوخك الأسيويين المنحدرين من فوق جدران المعابد .. ورمسيس العظيم يعلقهم كالعرجون من شعورهم .. والحاهم تنفض التراب العالق فى نعاله !! وطائر النصر ، والشوق يقف فوقها .. مغردا، ومنتصرا للنور والتنوير والحرية .. وفتاتك البكر !! بسوادها الحُر فى لوحة «القلب البسيط يرفض كل هذا التعقيد» تقاوم البغاء .. والعُقاب .. والعنقاء .. والثعبان .. ورأس الكبش الغبى!. كل ذلك الخضم .. فى أنساقك البليغة البسيطة .. الموحية والمعبرة.. المحملة بالروح الصوفى المصرى ، وعلى مقربة من لوحة القلب وعلى جدران « قاعة سلامة بالمهندسين» تقبــع لوحة « الكف وجه الحقيقة » حيث تؤكد ثانية – يا شيخ الطريقة – انك تلمس اللب ، وتسحب من الجِب .. رأس وكف وهلال ونجمة بيضاء ، فوق عيون لا تعكس أرضا.. أو ناسا ..

أو سماء !! ومحيط أشكالك الخضراء مكبلة بخيوطها السوداء.. على أرضية قائظة وأسهم متعارضة متنافرة .. مُضرجة حمـــراء !! ويجمع كل ذلك ، شفاه وجوهك البيضـــاء .. « لون الموت ورائحته » !!

عالمك ساحر بديع .. خليق بفنان مصر .. وروح مصر - الهندسة والبناء والضوء المشع من داخل الأشكال واللون الصافى الصريح - تلك الروح المتصلة دائما وأبداً منذ نقوش «الاوستراكا » فى البدارى ونقاده وعمره الى جدران وخبايل طيبة وتل العمارنة .. ومقابر النوبيين وواحاتهم الغارقة خلف السد ، التى شددنا الرحال اليها ونحن فى ميعة الصبا .. وعبث بروحها وفنها شذاذ الآفاق ..!!

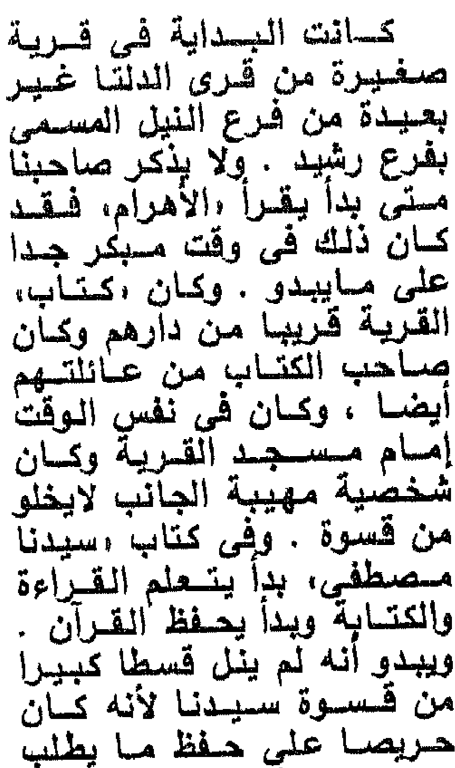
إلا أنت يا عصمت !! فقد قنصت روح الحقيقة والبقاء الأبدى ، ومزجته بنقاء وبلاغة قبط مصر وأضفت لها من رحيق النور والصفاء لدى أهل مصر المسلمين .. وسعة وحيوية وبصيرة البحر المتوسط .. يا مصرى .. يا سكندرى. وليس ذلك بغريب عليك - وهذا حق أصيل لك غير منقوص - فقد كشفت وأزلت الغبار عن وجه حقيقى لمصر فى زمن اجتهد الجميع أن يطمسوا ذلك الوجه ، وتلك الروح - بقصد أو بدون والأمر يستوى - واستنفرت طاقتك الإبداعية والروحية للقيام بدور .. قام به يوماً ما درويش للموسيقى ، وحقى وسعد الخادم ويونس للثقافة الشعبية الوطنية ، وإدريس وحمدان لإحياء الجذور المصرية .. وتواصلت بكل الرفق والحب والسماحة البليغة الممتنعة - على الكثيرين - وتجاوزت عوالم الصدق عند الجزار وسعيد العدوى وحامد ندا وراغب عياد وغيرهم الى ما هو أرحب وأشمل وأعمق .. فهنيئاً لك حريتك .. ومعتزلك .. وصومعتك العامرة بالعجمى .

● د . مصطفى مهدى

التكوين

لكنه الفلسفة



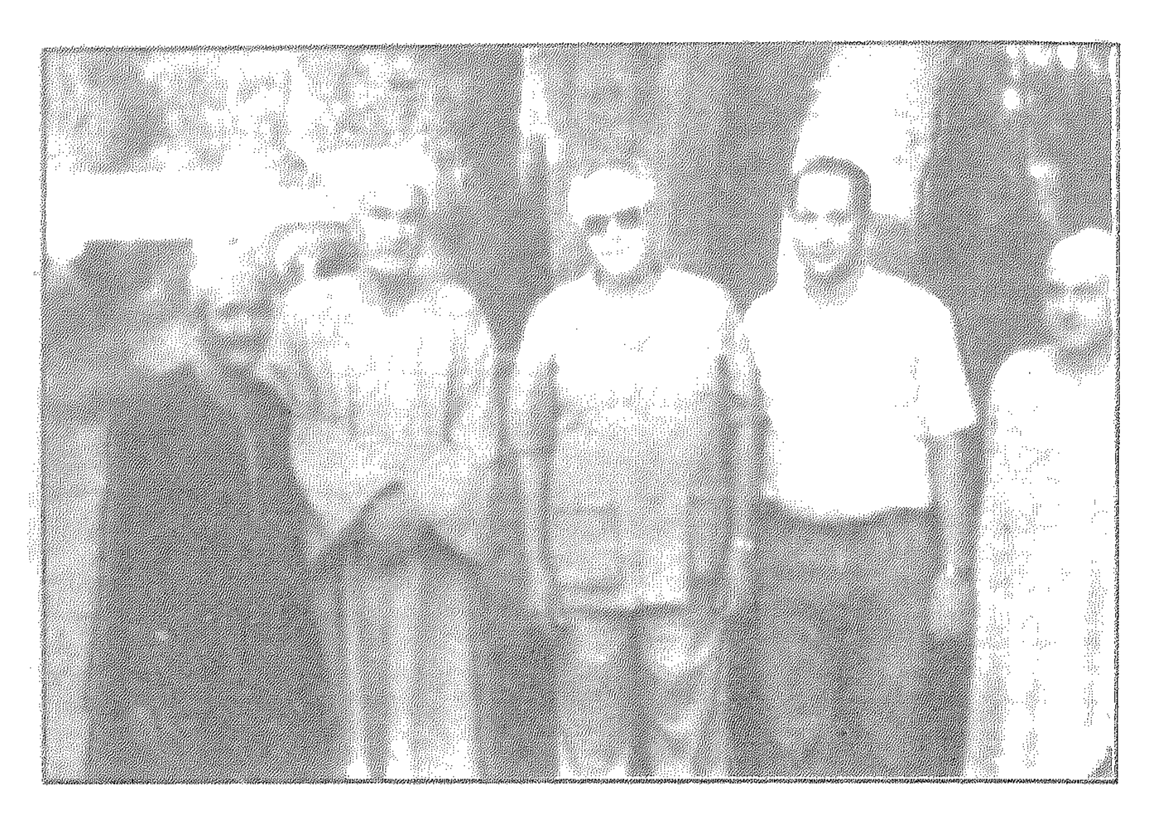


كانت البداية فى قرية صغيرة من قرى الدلتا غير بعيدة من فرع النيل المسمى بفرع رشيد . ولا يذكر صاحبنا متى بدأ يقرأ «الأهرام» فقد كان ذلك فى وقت مبكر جدا على مايبدو . وكان «كتاب» القرية قريبا من دارهم وكان صاحب الكتاب من عائلتهم أيضا ، وكان فى نفس الوقت إمام مسجد القرية وكان شخصية مهيبة الجانب لايخلو من قسوة . وفى كتاب «سيدنا مصطفى» بدأ يتعلم القراءة والكتابة وبدأ يحفظ القرآن . ويبدو أنه لم ينل قسطا كبيرا من قسوة سيدنا لأنه كان حريصا على حفظ ما يطلب منه حفظه وأداء ما يطلب منه أداؤه .



د. يحيى الجمل

ولكن إقامته فى كتاب القرية لم تستمر لأنه سافر مع أخيه الى عاصمة الدلتا «طنطا» حيث التحق بمدرسة لتحفيظ القرآن يديرها شيخ مهيب ، ينتمى بأصوله إلى قرية مجاورة . وكانت مدرسة هذا الشيخ ذات شهرة واسعة فى قسوتها من ناحية وإجادتها من ناحية أخرى ومتابعتها للصبية متابعة تجعلهم لايلتفتون لغير واجباتهم وقراءتهم واكتشف فتانا فى نفسه مبكرا حبه للأدب وشغفه بقراءة كتبه ، وساعد على إنضاج ذلك ماكان يسمعه من حوار هادىء أحيانا ومحتدم أحيانا بين أقاربه الكبار الذين كانوا يدرسون فى طنطا إما فى المدرسة الثانوية - وفي مقدمتهم أخوه الكبير - أو في الجامع الأحمدى ، وهم الكثرة من بنى عمومته وآخرين من أهل القرية الذين يدرسون فى طنطا والذين كان يطلق عليهم آنذاك وصف «المجاورين» كان فتانا يسمع تلك الحوارات ويصغى لها إصغاء واعيا . وكانت الحوارات تدور حول المعركة بين الرافعى والعقاد أو حول مدرسة طه حسين وكان اسم «الرسالة» وأحمد حسن الزيات وكتاب الرسالة تتردد فى تلك الحوارات والفتى ينصت الى ذلك كله ويحاول أن يستوعب بعضا منه .



صورة مع أولاد العم فى القرية (كفر حجازى - منوفية)

وفى طنطا بدأ يتردد على مكتبة البلدية وبدأ يقرأ كثيرا من الكتب إلا أنه مازال يذكر حتى يومنا هذا بعد أكثر من خمسين عاما كتابا من بين تلك الكتب لم يبرح ذاكراته هو كتاب «المآسى التاريخية الكبرى» لمؤلفه حسن الشريف ، وكان الكتاب يدور حول أحداث الثورة الفرنسية وما حدث فيها من فظائع وما ارتكب باسمها من جرائم وما سال بسببها من دماء .. ومازال الفتى يذكر كيف قرأ ذلك الكتاب بنهم وكيف انتهى من قراءته فى أيام معدودات ، وكان فى تلك المكتبة قسم للآثار الفرعونية كان الفتى يتردد عليه ويعجب بهؤلاء الأجداد العظام فى غير وعى ولا إدراك واضح . وعلى أى حال فإن المكتبة كانت تعنى أساسا بالنسبة له الإطلاع والقراءة ، أما التماثيل فكان يراها عرضا فى غير إبطاء ولا تدقيق .

وفى حوارات أقاربه الكبار كان اسم درينى خشبة أيضا يتردد وقال قائل إن

التكـــوين

ذلك الكاتب الكبير كان له ابن شقيقة وكان دريني خشبة يريد لابن شقيقته تكوينا أدبيا فدفعه دفعا الى حفظ كتاب «كليلة ودمنة» لابن المقفع وسمع أخوه ذلك وأراد من الفتى أن يحفظ كليلة ودمنة أيضا في وقت لم يكن فيه قد انتهى من حفظ القرآن في مدرسة الشيخ عبد الحميد قشطه . وأغراه أخوه بأن يعطيه قرشا عن كل صفحة يحفظها من كليلة ودمنة» وكان القرش آنذاك «يساوي ثروة ضخمة»، بدأ فتانا في حفظ بعض الصفحات ولكنه لم يستطع أن يسير في الشوط حتى نهايته .

وكان قد حفظ ستة وعشرين جزءا من القرآن ولم يبق له إلا أربعة أجزاء فقط عندما أرادت الأقدار أن تغير طريقه وأن ترسم له اتجاها آخر ..

كانت مدرسة تحفيظ القرآن التي يتردد عليها من المدارس المعدودة في عاصمة الدلتا ولكن صاحبها كان بالغ القسوة وقال نال الصبي من تلك القسوة ذات مرة نيلا شديدا دون ذنب جناه في تقديره وإن كان ذنبه لا يغتفر في نظر الشيخ.. ضبطه الشيخ وهو يضع رواية «الزير سالم أبو ليلة الهلالي» في غلاف المصحف وهو يقرأ فيها ويطربه الشعر فيهز رأسه ويعلو صوته قليلا ويلاحظ الشيخ من أمره ما يلاحظ ، ثم يصحبه في عنف وقسوة الى حيث «الفلكة» لكي يلقى جزاء لم يكن يحلم به .

وأصر على ألا يذهب إلى ذلك المكان بعد اليوم .

وجاء أبوه ولم تجد معه كل المحاولات نفعا . إنه لن يستمر في ذلك الطريق ولماذا لايذهب الى المدارس الابتدائية كما فعل بعض أقاربه ممن هم في مثل سنه .

وقد كان ..

وكان العام الدراسي يوشك أن ينتصف ولم يكن هناك من حل إلا أن يدخل «مدرسة أهلية» وكانت المدارس الخاصة في ذلك الوقت ينظر إليها على أنها في درجة أقل من المدارس الأميرية على عكس ماهو حادث الآن . وكانت مصروفات المدارس فيها أقل من مصروفات المدارس الأميرية .

ودخل الصبي السنة الأولى في مدرسة ولي العهد الابتدائية في طنطا ولكنه بعد ذلك دخل السنة الثانية في مدرسة الجمعية الخيرية الإسلامية ، واجتاز امتحان القبول بتفوق وحصل على المجانية التي كانت تتجدد كلما كان ترتيبه الأول على زملائه .

ولما دخل أخوه الجامعة ولم يكن هناك آنذاك غير جامعة فؤاد الأول في القاهرة انتقل معه الى القاهرة .. ودخل أخوه كلية

الحقوق ودخل هو السنة الرابعة الابتدائية . في مدرسة شبرا الأميرية .

وكـــان من أوائل الناجـــحين فى الابتدائية وحصل على مجانية التفوق أيضا عند دخوله مدرسة شبرا الثانوية .

وفى مدرسة شبرا الثانوية بدأ تكوينه الحقيقى يأخذ أبعاده . وكانت السنوات الخمس التى قضاها فى تلك المدرسة هى البوتقة الحقيقية التى انضجت شخصيته والتى حددت الى مدى بعيد مسار حياته .

ولعله يحسن به قبل أن يستطرد فى الحديث عن «شبرا الثانوية» أن يتحدث عن أسرته التى نشأ فيها والتى كان لها من غير شك أثر كبير فى تكوينه النفسى .

أسرتى

كان الثانى بين إخوته. وكان أبوه رجلا طيبا مسالما يفيض حنانا وكانت أمه سيدة ذات شخصية قوية وشكيمة . كان الأب هو مصدر الحنان وكانت الأم مصدر الضبط والربط على عكس ما يشيع فى مثل هذه العائلات البسيطة ذات الجذور الريفية والتى تنتمى الى الطبقة المتوسطة.

وكانت أمه هى وحيدة أمها . وكانت شديدة التعلق بها على نحو غير عادى . وكانت جدته تلك على قدر من اليسر وكانت تنتمى الى عائلة كبيرة فى قرية على الناحية الأخرى من فرع رشيد ، وقد رغبت تلك الجدة الى ابنتها أن تحتضن هى ذلك الصبى الذى رزقت به ولم تمانع الأم وانتقل الصبى وهو لم يبلغ العامين الى دار جدته ، ولم يكن لتلك الجدة من شاغل يشغلها غير ذلك الطفل فأغدقت عليه من حنانها وساعدها ما حباها به الله من ثروة على أن تبالغ فى تدليله وتلبية طلباته . ولم تكن تلك الطلبات ، على أى حال تتجاوز مايطلبه صبى صغير مدلل ، وقضى الصبى مع جدته سنوات ثلاثا لم يكن يعرف فيها غير أنها أمه . فلما انتقلت تلك الجدة الى جوار ربها اعتصره حزن عميق وأحس أنه فقد أمه وفقد ينبوع الحنان الذى كان يتدفق ليملأ طفولته دفئا وحبا فلما فقدها وفقد معها ذلك كله أحس كأنه سقط من حالق .

ولم يعوضه عن حنان تلك الجدة وحبها شىء قط فقد كانت أمه عندما انتقل ليعيش معها غريبة عليه وكانت الى جوار ذلك مشغولة بالابن الأول وبابنة أخرى رزقتها والصبى يعيش فى كنف جدته .. انتقل الى حيث وجد شركاء له ينازعونه فى اهتمام تلك الأم الثكلى التى حزنت على أمها حزنا ليس بعده حزن وظلت تجتر هذا الحزن سنوات طوالا الى أن كبر أبناؤها وصاروا رجالا وسيدات وهى لا تفتأ تذكر أمها ، بل وتبكى عندما تذكرها، ومما لاينساه صاحبنا قط ما كانت تقوله أمه من أنها تجد راحة نفسية عندما تذهب لتزور قبر أمها وانها ما

التكـــوين

كانت تجد مثل تلك الراحة فى دار أبيها حيث زوجات الآب والعديد من الإخوة غير الأشقاء. وفى داخل الأسرة الصغيرة فقد كان الفتى يلاحظ كثرة «النقار» بين أمه وأبيه وكان يحس احساسا مبهما بأن حياتهما ليس فيها كثير من الوفاق وإن كان فيها كثير من الإحساس بالمسئولية نحو الأبناء .

وقد تأثر الفتى بذلك كله تأثرا نفسيا شديدا جعله أقرب الى الانطواء وأقرب الى الحزن وأقرب الى سوء الظن بالحياة والأحياء .

وكان يحس أن أمه تعطى أخاه الكبير من حنانها وعطفها واهتمامها أكثر بكثير مما تعطيه له إن كانت تعطيه شيئا من ذلك كله فيما كان يحس به ولعل ذلك مما دفعه الى محاولة إثبات نفسه فى الدراسة والتفوق فيها ومما دفعه الى القراءة وتوسعة آفاقه .

ومنذ صغره وهو يحس بنوع من المسئولية نحو إخوته ونحو عائلته ونحو ذاته . فى شهور الصيف التى كان يقضيها مع الأسرة فى القرية كان يذهب الى الحقل ، وكان والده يكلفه ببعض الحسابات مع المستأجرين أو مع المزارعين وكان يقبل على ذلك راضيا سعيدا شاعرا بقدر من الأهمية .

جدته والقرية وكتاب القرية ومدرسة تحفيظ القرآن فى طنطا وأخوه وأصدقاء أخيه وحواراتهم ومناقشاتهم وحنان أبيه وشدة أمه هذه هى المكونات النفسية لصاحبنا الذى ننتقل معه الآن إلى مدرسة شبرا الثانوية .

فى ثانوية شبرا

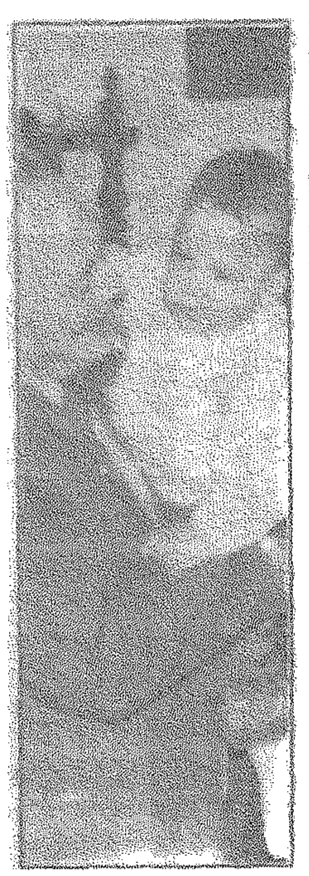
وهنا دخل فى طور جديد من حياته .

فى شبرا الثانوية بدأ يجمع مع الاهتمام بالأدب الاهتمام بالسياسة وشارك فى أول مظاهرات فى حياته وانضم الى شباب الحزب الوطنى (كان ذلك قبل الثورة - الحزب الوطنى الذى كان يرأسه حافظ رمضان ودخله فتحى رضوان ليبث فيه روحا جديدة) وعقد صداقات مازال بعضها مصاحبا له حتى الآن .

فى مدرسة شبرا الثانوية كان عوده الأدبى قد اشتد نوعا ما ، وبدأت قراءاته تتنوع ولم تنته تلك المرحلة إلا وكان قد كتب أول مقال له فى صحيفة «المصرى» بعنوان «جمهورنا وفن الخلود» وكان المقال عن استقبال الجمهور المصرى لفيلم «هاملت» وكان ذلك عام ١٩٤٨ . وفى التوجيهية - وهى سنة اختتام الدراسة الثانوية - اجتاز امتحان مسابقة اللغة العربية وكان من أوائل الناجحين وحصل لأول مرة فى حياته على مكافأة مالية



صورة لزفاف ابنته مع الأسرة



مع الحفيد

قدرها عشرون جنيها بالتمام والكمال وكانت هذه الجنيهات العشرون آنذاك - منذ نصف قرن - تساوى فى قوتها الشرائية بضع مئات من الجنيهات .

وكان فى السنة الثالثة الثانوية عندما رأس الجمعية الثقافية فى المدرسة وكانت الجمعيات الثقافية فى المدارس الثانوية آنذاك خلية من خلايا النشاط الطلابى الخصب تقيم الندوات وترتب المسابقات وتصدر المجلات المدرسية وغير ذلك من الأنشطة الثقافية ، وقد انتخبه الطلبة رئيسا للجمعية التى كانت رئاستها قبل ذلك وقفا على طلاب القسم الأدبى من السنة الخامسة .

وفى مدرسة شبرا الثانوية أيضا بدأ اهتمامه بالحياة العامة عندما اتصلت اسبابه بأسباب بعض شباب الحزب الوطنى وبدأ يتردد على اجتماعات ذلك الحزب وعرف حافظ رمضان وعبد الرحمن الرافعى وعبد العزيز الصوفانى وفتحى رضوان وعلى منصور وعرفه هؤلاء جميعا فقد كان من الشباب المتحدث القادر على الخطابة والإبانة الممتلىء حماسا ورغبة فى العمل العام . ومازال بعض رفقاء هذه المرحلة من مراحل العمر يتواصلون ويتوادون ويتزاورون ويلتقون

التكـــوين

فى بعض الأفــراح وفـى غـيــر قليل من المآتم لعل آخـرها جنازة المرحـوم الدكـتـور عـصـمت سـيف الدولة الذى كـان من أبرز أمـثلة تلك الفـتـرة والذى تواصلت مـعـه العــلاقـة بعـد ذلك - بين مـد وجـزر رغم الأرضية القوية الواحدة المشتركة ، والذى ودعه صاحبنا من أسابيع ولم يكن يتصور أن وداعه سيهزه على النحو الذى هزه أو أنه كان سينتحب كما انتحب وهو يحس أن جزءا غاليا وعزيزا من جدار الحياة قد انهار .

وانتـهت الدراسـة الثـانوية وقـد وضـع رجله فى عـالم السـيـاسـة ووضـع رجله فى عالم الأدب .

وكـذلك فـإن قلبـه قـد نبض فى تلك الفـتـرة بحب عـذرى صـامت مـا أظن أن فتيان هذه الأيام يعرفون أو يقرون شيئا مثله .

كانت الفتاة تسكن فى الشارع الذى يؤدى الى مدرسة شبرا الثانوية وأظن أن أسـمـه كـان شـارع طوسـون وكـانت كل صباح تتجه الى شارع شبرا لتنتظر أو أوتوبيس المدرسـة وكـان يراها كل يوم تقريبا وهو ذاهب الى المدرسة وهى ذاهبة تنتظر الأوتوبيس وقـد اشغلت قلبـه وذهنه جميعا .

تجـربة فى الأدب وتجـربة فى السـيـاسـة وتجربة فى الحب خاضـها صاحبنا جميعا وهو فى المدرسة الثانوية قبل أن ينتقل الى الجامعة ليدخل كلية الحقوق .

القانون حرفتى !

ولم يكن اختياره لكلية الحقوق محل تردد طويل .. كـانت المقارنة القـائمـة فى ذهنه بين قسم الفلسـفـة فى كليـة الآداب وكلية الحقوق وانتهى بينه وبين نفسه الى مقولة طيبـة وعـاقلة أيضـا ، قـال «لتكن الفلسـفـة هوايتى وليكن القانون حرفـتى» ومـازالت هذه المقولة صحيحة حتى الآن . إنه ليـقـرأ الفلسـفـة ويقـرأ الأدب ، وإن مكتبته الخـاصـة فى منزله لتمتلىء بكتب الأدب والفلسفة أما كتب القانون فمكانها مكتبة العمل وحتى فى مكتبة العمل فإن كتب الفلسفة والأدب تزاحم كتب القانون .

وإنه ليـذكـر نقـاشـا بينه وبين المرحـوم الاسـتـاذ الكبـيـر توفـيق الحكيم وقـد كـان شـديد الإعجـاب به وقـد قـرأ كل مـا كـتـبـه الحكيم وإن كـان قـد تأثر تأثرا خـاصـا ببعض رواياته وكتبه وفى مقدمتها كتاب «زهرة العمر» الذى هو عبارة عن مجموعة من الرسـائل الرائعـة التى يصـف فـيـهـا الحكيم مــعـــاناته فى تكوين نفـســه فى باريس وكـيـف ذهب لدراسـة القـانون ثم ابـتـعـد عنهـا وغـرق فى الأدب والفن حـتى أذنيــه إنه ليـذكـر أنه قـال للحكيم لقـد حـسـمت الصـراع لمصلحـة الفن والأدب وكـان ذلك إثراء وإغناء للأدب أمـا أنا فلم أستطع أن أحسم هذا الصراع ومـازلت

أعيش فيه . وبعد حوار طويل قال له الحكيم إن المنطق هو الذى يغلب على تكوين ذهنك ورغم وجود بذرة الأدب والفن فى أعماقك إلا أن تلافيف العقلانية تحيط بك ومن هنا كان اختيارك للقانون وسيرك فيه بل وتحقيقك فيه شوطا ليس بالقصير ولو كان الفن والأدب هما الغالبين عليك لحسمت الصراع فى وقت مبكر كما حسمته أنا ثم أليس من الجميل أن يكون هناك بين القانونيين أدباء ؟!

على أى حال انتهى من دراسته الثانوية ودخل الجامعة واختار كلية الحقوق وأحب الدراسة فيها ووجد فيها متعة عقلية لا حدود لها ، ولكنه مع ذلك كان يعيش بهواه فى مكتبة الجامعة المركزية التى هى فى الأساس مكتبة كلية الآداب وكان كثير التردد عليها كثير القراءة فيها .

وفى تلك الفترة بدأ يتردد على مجلس العقاد يوم الجمعة من كل أسبوع .

وكان المرحوم الدكتور نظمى لوقا هو أحد أساتذته فى مدرسة شبرا الثانوية ، ونظمى لوقا وزوجته كانا من أقرب المقربين للعقاد ، وأخذه استاذه الى عبّ العقاد لما آنس فيه الإقبال على الأدب وعلى الفلسفة ولما عرف أنه قد قرأ أغلب ما كتبه العقاد وأنه تابع - رغم حداثة عمره - المعارك الأدبية التى خاضها العقاد أو تلك التى نشأت بين تلاميذ العقاد آنذاك وفى مقدمتهم سيد قطب وتلاميذ الرافعى وفى مقدمتهم سعيد العريان ، وكانت مجلة الرسالة هى النافذة والمائدة التى اطلع فيها على ذلك كله .

وأصبح من رواد جلسة العقاد الدائمين وأحبه الاستاذ الكبير والتفت إليه وإن لم يكن يعجبه فيه أنه كان من شباب الحزب الوطنى ذلك أن شباب الحزب الوطنى كانوا ينظرون الى سعد زغلول نظرة لاترضى الاستاذ العقاد ، ولم يكن العقاد مقتنعا بمصطفى كامل ، ولكنه كان شديد الاعتزاز بخليفته محمد فريد .

وفى جلسة العقاد عرف الكثيرين ، عرف الكثيرين من الاساتذة الكبار أمثال عثمان أمين وزكى نجيب محمود وعلى أدهم وعرف من الأجيال التالية انيس منصور ولبيب شقير وعبد الفتاح الريدى وعز الدين اسماعيل وغير هؤلاء . وهؤلاء كثيرون وكانت تلك الجلسة الأسبوعية أشبه بمائدة غنية حافلة بأطايب الفكر. ولاشك أن ما كان يستمع إليه من حوارات ومناقشات كان له أثر كبير فى تكوينه العقلى .

ومازال يذكر حتى يومنا هذا ذلك الحوار الذى جرى بين الاستاذ العقاد والصفوة من تلاميذه فى جلسة كانت تبدأ بعد انتهاء الجلسة الأولى حيث كان يبقى البعض فى الشقة المقابلة التى كان يقيم فيها عمر العقاد ابن شقيقه وقد يتناولون شيئا خفيفا من الطعام ثم تعود جلسة العقاد للالتئام من جديد بعدد أقل كثيرا

التكــوين

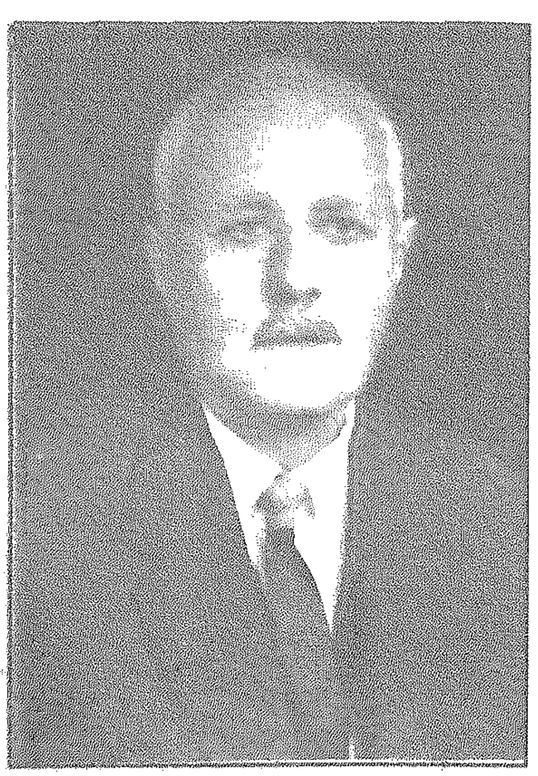
من العدد الذى يؤم الصالون فى الصباح وقبل صلاة الجمعة التى لم يكن أغلب رواد الندوة من الحريصين عليها . مازال صاحبنا يذكر ذلك الحوار الذى جرى فى أعقاب منح العقاد جائزة الدولة التقديرية فى الأدب . وكان طه حسين هو أول من حصل عليها فى العام السابق مباشرة . ولما تحدث العقاد فى الاحتفال بدأ كلمته بعبارة «دولة الحكم تكرم دولة العلم» أو ما يشبه هذا المعنى ولم يتطرق فى كلمته - كما فعل طه حسين وأطنب - إلى شكر جمال عبد الناصر ولما سئل العقاد عن ذلك أعرض عن الإجابة فلما ألح عليه بعض تلاميذه واطمأن هو قال :

إذا كان لابد من شكر فإنه كان على عبد الناصر أن يشكرنى وليس العكس . وعجبنا جميعا لهذا الجواب وأصابنا نوع من الوجوم وعدم الفهم وتطلعنا الى الاستاذ فى تساؤل عما يقصد فقال : بعد ألف عام ماذا يبقى من العقاد وماذا يبقى من عبد الناصر ؟ يبقى العقاد كاملا ويبقى من عبد الناصر أنه أعطى العقاد جائزة الدولة التقديرية . إلى هذا المدى كان اعتداده بنفسه يفوق الخيال .

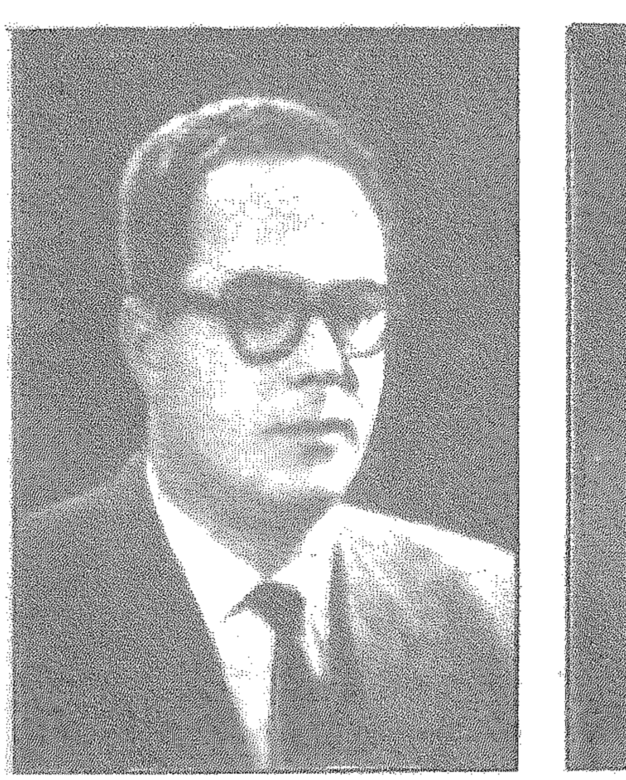
وبدأ يتردد على الندوات واللقاءات الأدبية الى جوار حرصه على المشاركة مع شباب الحزب الوطنى - حزب فتحى رضوان قبل الثورة - وفى لقاءات ذلك الحزب توثقت علاقاته مع مجموعة من الشباب كانت حياتهم جميعا ترتبط ببعض ارتباطا وثيقا فيه نوع من الصوفية والغيبية ومازال حتى يومه هذا يعيش بعض هذه العلاقات . واحد منهم الى جوار الصداقة أصبح أخا له فى النسب والآخر شريكه فى العمل يلتقى به كل يوم فإن لم يلتق به يوما أحس كأن شيئا ينقصه. والآخرون يلتقون عادة عندما يودعون راحلا من الجيل القديم التفوا جميعا وهم يودعون فتحى رضوان والتفت غالبيتهم وهم يودعون عصمت سيف الدولة الذى رحل فجأة ودون سابق إنذار .

وكان إلى جوار الندوات الأدبية ولقاءات الحزب الوطنى السياسية حريصا على متابعة محاضراته فى كلية الحقوق بغير قليل من الجدية والاهتمام .

كان يجد فى محاضرات القانون متعة عقلية وكان يحرص على متابعة الاساتذة المحاضرين بسمعه وبصره ولم يكن يلجأ إلى كتابة المحاضرات من أفواه الاساتذة كما كان يفعل البعض من الملتزمين من الطلاب والذين كانوا عادة فى الامتحانات يتقدمون غيرهم من الطلاب ورغم أنه كان فى المقدمة دائما إلا أنه لم يكن دائما من الطلاب العشرة الأوائل رغم أن ترتيبه عند دخول الكلية كان الثالث بين المتقدمين من أوائل التوجيهية كان أول المتقدمين الى الكلية هو وصديقه يحيى



والدى عبد العزيز عبد الفتاح الجمل
الذى ساعد كثيرا فى تكوينى



استاذ بكلية الحقوق فى الشباب

الغطريفى الذى وصل الى منصب نائب رئيس مجلس الدولة منذ سنين وكانت الثانية اسمها ماجدة ولا يدرى ماذا صار من أمرها إلا أنها على اى حال لا وجود لها فى عالم القانون على قدر ما يعرف .

أساتذتى الكبار

وتتلمذ على يد ذلك الجيل من الاساتذة العظام فى كلية الحقوق الذين ذهبت غالبيتهم العظمى الى جوار ربها ولم يبق منهم إلا القليل القليل . وممن شغف بهم الطالب وأحبهم وإنه ليكتفى بذكر من ذهب الى جوار ربه استاذه حسين خلاف، واستاذه عبد الوهاب خلاف، ولا صلة قربى بين الاثنين رغم وحدة اللقب . كان الأول استاذا للاقتصاد والمالية العامة وكان واسع الاطلاع جم التواضع محبا للأدب وقد ارتبط صاحبنا حتى آخر ايام حياته رغم أنه كان قد ترك الجامعة وشغل عدة مناصب منها منصب الوزارة ومنصب السفارة ولكن صلته به استمرت مع ذلك حتى أخر حياته .

وان صاحبنا ليذكر أنه وقد صار هو بدوره وزيرا فى منتصف السبعينيات أيام الرئيس السادات أنه قابل استاذه وحاول أن يقبل يده إلا أن استاذه حال بينه وبين ذلك بقوة وعنف جعلته ينزل على رغبته. أما الشيخ عبد الوهاب خلاف رحمه الله- فقد كان استاذا للشريعة الإسلامية وقد درس صاحبنا عليه أصول الفقه فى السنة الرابعة ومازال رغم مرور السنين الطوال

التكــــوين

يذكر جرس صوته القوى وبعض عباراته القوية الجريئة الساخرة وانتقاداته المرة للأوضــاع انذاك وآرائه الجـريئـة بالغـة التحرر والاستنارة .

مازال صاحبنا يذكر ماقاله الشيخ خلاف فى المدرج ذات يوم وهو يتساءل عن ماهية الربا المحرم شرعا ، قال رحمه الله :

من كان يقرض من ولماذا ؟ .

ومن الآن يقرض من ولماذا ؟ .

فى الماضى كان الغنى يقرض الفقير لكى يجد قوت يومه أو لباس عياله أو ليسد حاجة من حاجاته الضرورية وإذا اقتضى المقرض من المقترض فى هذه الصور وأمثالها فائدة على ما أقرضه من مال فذلك هو الربا المحرم شرعا وصاحبه فى النار خالدا فيها .

فإذا نظرنا لما يحدث الآن- والكلام له رحمه الله- وجدنا الأمر مختلفا تماما .

إن الفقير يقرض الغنى .

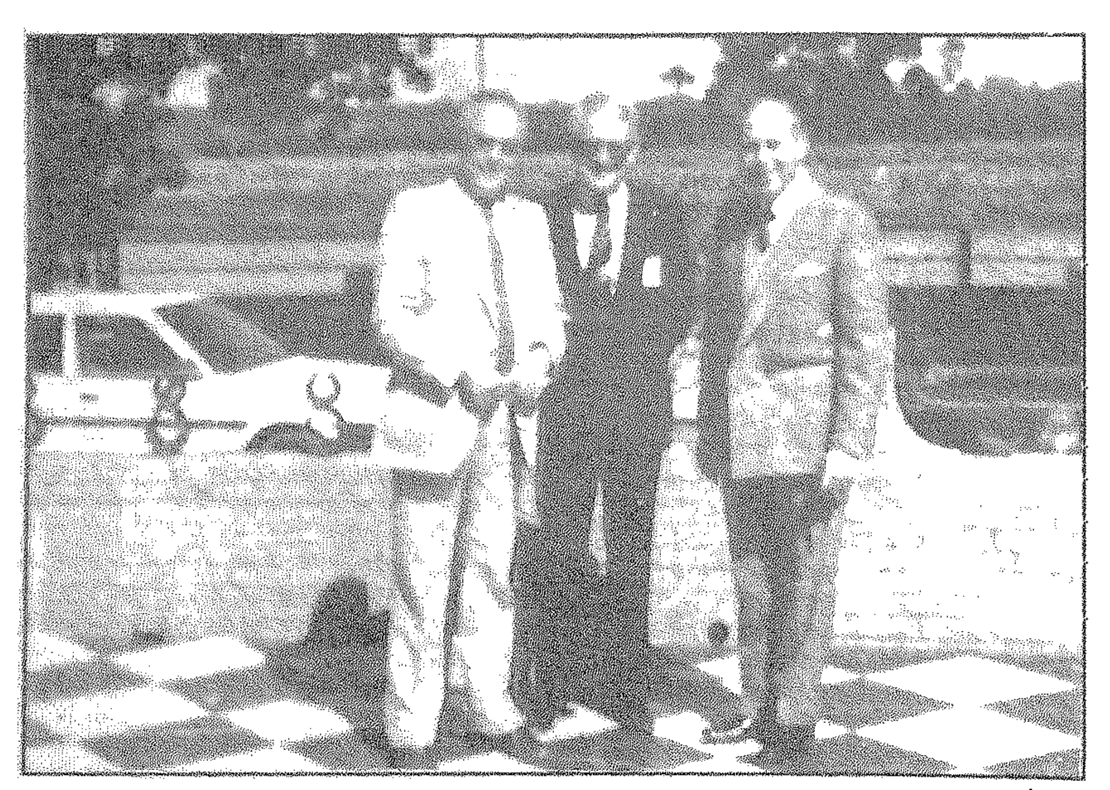
واشـــــرأبت أعناقنا فى تطلع واستفسار: كيف يقرض الفقير الغنى ؟

وقال الشيخ الجليل: نعم يقرض الفقير الغنى . عبد الوهاب خلاف وعلى الخفيف والقللى ووديع فرج - وكلهم كانوا من اساتذة كلية الحقوق آنذاك فى نهاية الأربعينيات- يضعون مرتباتهم فى البنك . والبنك يجمع هذه الأموال والودائع من الفقراء والمتوسطين لكى يقرض عبود باشا لكى يقيم مصنعا ضخما للأسمنت فى السويس . (وكان المثل واقعيا فعلا آنذاك) ولكى يحقق من وراء إقامة المصنع الألوف والملايين من الأرباح. فهل إذا جاء البنك وأخذ من عبود فائدة على هذا القرض الذى سيوظفه فى الانتاج ويحقق من ورائه طائل الأرباح كان ذلك هو الربا المحرم .. لا وألف لا ، ثم أردف فضيلته يرحمه الله أعوذ بالله من العقول العفنة ، ولم نكن ندرى ماذا يقصد آنذاك .

وغير حسين خلاف وعبد الوهاب خلاف كان هناك الكثير من الاساتذة الأفاضل الذين ذهبوا الى الدار الآخرة بعد أن أدوا رسالتهم كأحسن مايكون الأداء وبقى من هذا الجيل اثنان أو ثلاثة مد الله فى عمرهم ومتعهم بالصحة وجعلنا أوفياء لهم فى زمن قل فيه الوفاء .

وفى السنة الرابعة وهو فى كلية الحقوق كانت جماعات الفدائيين قد بدأت نشاطها فى منطقة قناة السويس التى كانت محتلة بالقوات البريطانية . وكانت للحزب الوطنى مجموعة من هذه المجموعات التى تعمل هناك ولم يكن صاحبنا بعيدا عن هذه المجموعة وإن لم يتح له أن يشارك مشاركة فعلية ذلك أن حريق القاهرة فى ٢٦ يناير ١٩٥٢ دهم الجميع وأدى الى اضطراب كل الحسابات.

وفى ذلك اليوم كان فى الكلية وكان محاضرهم هو المرحوم الدكتور أمين بدر



مع أديب الجادر ود. محمد فائق أعضاء مجلس المنظمة العربية لحقوق الإنسان

استاذ القانون التجارى وكان عبقريا فى مادته وطنيا فى مشاعره بالغ الاعتداد بنفسه وبعمله الأكاديمى . وألقى الدكتور بدر كلمة وألقى هو أيضا كلمة فى طلاب السنة الرابعة ثم تفرق الجميع ومازال يذكر أنه هو وصديقه فتحى حسين خرجا من الجامعة واتجها الى شبرا سيرا على الأقدام ، وأنهما شاهدا آثار الحريق والتدمير الذى حدث وهما فى طريقهما عرجا على مكتب على منصور المحامى ومن قادة شباب الحزب الوطنى ليعرفوا منه الأخبار وليعرفوا منه أيضا ماذا يجب على الشباب الوطنى أن يفعله فى تلك الظروف ثم واصل هو وفتحى مسيرتهما إلى شبرا .

وأقيلت وزارة الوفد وأعلن الأحكام العرفية التى أظنها لم ترفع إلا لماما ، منذ يومها وحتى الآن .

وانطفأت حركة المقاومة وانتظم صاحبنا فى دراسته مع زملائه . وكان آخر العام .

وفى يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢ أعلنت نتيجة الليسانس وكان من الناجحين المتقدمين .

وفى يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢ مات عميد الكلية المرحوم حامد فهمى.

وفى يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢ قامت الثورة.

وانتهت بذلك سنوات التكوين ، وبدأت بعد ذلك ثمار التكوين .

● تزوير التــــــراث ●

نشرت بعض الصحف تصريحا لرئيس جامعة الأزهر الدكتور أحمد عمر هاشم ، أعلن فيه إنشاء مركز للدراسات الإسلامية وتنقية التراث بجامعة الأزهر .. وأوضح الدكتور هاشم أن المركز سيتولى إزالة كل دخيل ومدسوس أو ضعيف من داخل كتب التراث فى العلوم الدينية والإنسانية .

وهذا خبر خطير ومفزع من الناحية العلمية .

فالحقيقة أنه بالنسبة للتراث الإنسانى بكل فروعه ، ومن ضمنها فرع الدين، فإن هناك إجماعا عالميا بين دارسى التراث وهو عدم العبث به وتركه كما هو بنصه المخطوط الذى وصل إلينا .

وكل ما يفعله المحققون هو إضافة تعليقاتهم فى الهوامش (أو الحواشى) ويطبع الكتاب التراثى كاملا غير منقوص كما ورد فى مخطوطاته .

علما بأن المحققين يختلفون فيما بينهم فى تحقيق النص الواحد ، وذلك لاختلاف الرؤى والاجتهادات .

ان التراث مثل الآثار تماما لاينبغى العبث به ، ولايصح تزويره وإنى أخشى إذا أخذنا بهذا المبدأ أن يقوم البعض بكشط رسوم المعبودات الفرعونية من على جدران المعابد الأثرية ، واستبعاد عشرات أو مئات من كتب التراث العربى .

فتحى حافظ أحمد الحديدى
(دارس للتراث)

● اقتراحــــــات ●

تسعدنى فى مطلع كل شهر قراءة باب التكوين، واقترح كتابة – فى أحد أركان الصفحة – الأعمال الكاملة التى انتجها ضيف الباب كل شهر .

كما أتساءل عن عدم سخاء المجلة فى اصدار الأعداد التذكارية للمجلة وخاصة العدد المئوى (الذى صدر بمناسبة مرور مائة عام على المجلة) والذى لم أجده فى معرض الكتاب للسنة الرابعة .

وهل بالإمكان أن تعطينى مجلتنـــا الحبيبة نبذة مختصرة عن الكاتبة الأمريكية هيلين كيلير .

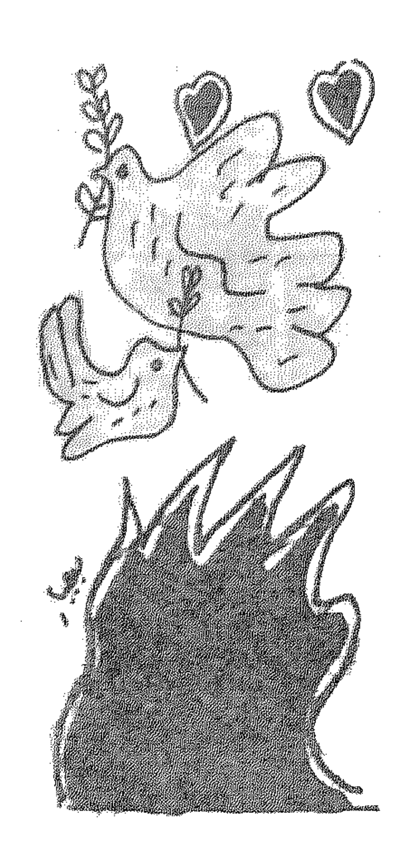
عاطف عبدالجواد على - مدرس لغة انجليزية
مدرسة الباسل الاعدادية - الفيوم

● تعليق :

- هيلين كيلير ، كتبت عنها مجلة الهلال غير مرة ، وتستطيع الرجوع إلى تلك الكتابات ، أما الأعداد التذكارية فتحكمها مناسباتها ، وقد نفد العدد المئوى وربما أعدنا طبعه ، والأمور مرهونة بأوقاتها ..

● السـلام الحائر ●

سلام : طيور
تجرد زيتوننا من غصون محبته
وترفرف فى النار خضراء قبل حلول الظلام !
طيور : غناء
يرصع راية أعلامنا بمسامير أقدامه فى ضلوع
تضاء بصوت هنا
وهناك الصدى، والسكون ببحر ينام !
غناء : نداء
من الخالدين لأهل الفناء ، يغيب ويأتى
يرطب أوجاعه باحتمالين
ينصب خيمته فى المهب ، ويفتح للريح باب الكلام !
نداء : رجوع
إلى أول الوقت قبل الوقوف على آخر الموت
قبل التحلل فى وتر الفوت
قبل التفرق فى منخل الصمت بين السما والرغام !



عبدالرحيم الماسخ - سوهاج

أنت والهلال

● عـودة واعتذار ●

عدت ياشعر ليس لى منك بد .. عودة الإلف للأليفين حمد
لا تلمنى إذا تمردت يوما .. ياصديقى ، فليس ذلك جحد
إننى طائر الحنين أغنى .. موطناً واهناً بعينيه وجد
لطخت وجهه المنير بذل .. ألجمت ثغره الذى كان يشدو
الملايين من بنيه تعانى .. ولدفع العناء لاتستعد
أكتفت فى شعار : «نحن فداك .. نحن درع يقيك بل نحن جند»
أين من يزعمون زورا هواه .. هل لمن تعشقون ياقوم ود ؟!
فالعشيق الجميل أضحى أسيرا .. حطموا قيده له استردوا
هل تقاسمينى الجراح ؟ أفدنى .. أيها الشعر ، هل لنا منك رفد ؟
ياندیمى ويارفيق شبابى .. أنت للعدل سيفه أنت عضد
إن للنار فى قوافيك وقد .. فى قلوب الطغاة كالشهب تغدو
كن سهاماً وطهر الأرض منهم .. لا حياة لمن بنا يستبد

درهم جبارى - سان فرانسيسكو - كاليفورنيا

● مارقة فى ضيق المسافة ●

وكنت لمحتها تمرق فى المسافة الضيقة من فتحة باب الخارج حتى تلج باب غرفة الضيوف ، وهو فى أثر خطوتها المتعجلة ، توقف على عتبة الباب ، نظر وغمز لى بعينه وحاجب عينه الأيمن ثم دلف وأوصد عليهما الباب .

- شفت !!

قالت محدقة فى وجهى كأنها تسبر أغوارى ، وأخذت تصف بنبرات مملوءة بالوله المفتعل والحنين الكاذب ، الفرق بين بنات هذه الأيام والبنات على أيامها .

- وهل كنا نتصور أن نزور شباناً فى بيوتهم !!

عباراتها كانت تميل إلى الاختصار ، وتذوب مقاطعها فى وقدة

أنفاسها الملتهبة ، يبدو جسدها كأنما مستسلما تحت وطأة خمول مختمر بالرغبات الحارة ، ولوهلة تسيل الأمور فى مجرى جنونى هادر ثم فجأة وبدون سبب ظاهر يتغير مجرى الريح ... وكأن الريح هى التى اقتلعتنى من جوف المقعد المريح، جرفتنى متوجها للباب مباشرة ، النور يوشوش أسفل عقب الباب ومن ثقب المفتاح ، وفى غمرة اضطرابى ، طرقته طرقتين سريعتين وفتحته عن آخره .... من أول نظرة وقعت فى عينيها ، واتصلت عيوننا فى نظرة واحدة طويلة ساهمة مرعبة ، والجالس بجوار البنت ملتصقاً بها ، لم تتح له المفاجاة تبديل وضعه .... ومرت أزمان ، قبل أن تنكفىء بوجهها فوق ساعدها المفرود على ركبتيها ، وتغرق فى النشيج الحار .

عصام الدين الزهيرى

● الشاعر الأشقر .. محمد الأسمر ●

لم يكن الشاعر محمد الأسمر أسمر اللون كما يوحى بذلك اسمه بل كان أشقر البشرة ولما سئل فى ذلك قال : ان علماء البلاغة يطلقون علّى هذا النوع من التسمية المغايرة لواقع الحال بالتلميح، أما إذا انعكست الآية ويسمى صاحب اللون الأسمر بالأبيض فإن هذا يصبح نوعا من التهكم والسخرية منه .. والجدير بالذكر أن لقب الأسمر ينتشر بكثرة فى المغرب والشام . ومن المصادفات التى وقعت فى حياه الشاعر محمد الأسمر انه ولد يوم ٦نوفمبر سنة ١٩٠٠ وتوفى فى نفس يوم مولده سنه ١٩٥٦ .. ولد محمد الأسمر فى دمياط وبها تلقى تعليمه الابتدائى وتأثر فى نشأته الأولى بشعراء الربابة وهم يرددون قصة «أبوزيد الهلالى» ثم التحق بمعهد دمياط الابتدائى وحفظ الكثير من قصائد الشعر فصقلت موهبته ولما بلغ العشرين التحق بمدرسة القضاء وظل بها ثلاث سنوات ثم الغيت هذه المدرسة فالتحق بالأزهر، واثناء دراسته به عمل مصححا بجريدة «السياسة» التى كان يصدرها حزب الأحرار الدستوريين ، وفى سنة ١٩٣٠ تخرج فى الأزهر وحصل على شهادة العالمية وعين بمكتبة الأزهر حيث أتيح له أن ينهل من أمهات الكتب العربية ودواوين الشعر القديمة والمعاصرة ثم أسندت إليه مراجعة الكتب الجديدة وإبداء الرأى فيها من الناحية الدينية والاجتماعية قبل التصريح بنشرها كما اختير عضوا بلجنة نصوص الأغانى بالاذاعة ثم عضوا بلجنة الشعر بالمجلس الأعلى للفنون والآداب .. قضى الأسمر الشطر الأكبر من حياته بالمجتمع القاهرى الذى عبر عنه



بعمق ونفاذ بصيرة فتناول فى أشعاره كل ماله صلة باهتمامات الناس ليصوغه فى قالب شعرى رصين فكان إذا حل بمنتدى شعرى شعر الحاضرون وكأن زهرة نضرة قد نبتت لتوها فى أفق المنتدى .. كان للأسمر فضل كبير على كثير من شعراء عصره خاصة من كان منهم فى أول عهده بنظم الشعر فيأخذ بيدهم ويقوم شعرهم ويمهد لهم السبيل لنشر أشعارهم فى بابه الذى كان يحرره بجريدة الزمان بعنوان «ركن الأدب» .

محمد أمين عيسوى - الاسماعيلية

● توصيات مؤتمر المجتمع اللغوى للدورة الثانية والستين ●

١ - يوصى مؤتمر المجمع وزراء التعليم فى الأقطار العربية بتعريب التعليم الجامعى واتخاذ الخطة الكفيلة لتحقيق ذلك .

٢ - يوصى المؤتمر بأن تعنى الدولة بإنشاء هيئة عامة للترجمة لنقل العلوم والتقنيات الحديثة إلى اللغة العربية .

٣- يوصى المؤتمر بضرورة الاهتمام الفائق باللغة العربية من حيث مادتها ومناهجها وأساليب تقديمها وأوقاتها المخصصة لها مع الاهتمام بإعداد المعلم القائم عليها ورعايته .

٤ - يوصى المؤتمر الحكومات العربية بضرورة الإسراع باستصدار تشريع يحظر كتابة اللافتات الأجنبية بحروف عربية .

٥ - يوصى المؤتمر بتدريس اللغة العربية فى جميع الكليات الجامعية والمعاهد العليا وأن تكون مادة أساسية .

٦ - يوصى المؤتمر وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية بالتزام اللغة العربية الصحيحة .

٧ - يوصى المؤتمر وزارات الإعلام فى الأقطار العربية بإعداد العاملين بها إعدادا لغويا صحيحا .

٨ - يوصى المؤتمر باستعمال الأعلام الجغرافية العربية الأصيلة ، وضبطها

والنطق بها نطقا صحيحا فى الدوائر التعليمية والإعلامية ، مع العناية بتحقيق ذلك على الخرائط المعدة له .

٩ – يوصى المؤتمر رجال الدولة وجميع المسئولين فى البلدان العربية أن يلتزموا اللغة العربية الصحيحة فى جميع خطبهم وبياناتهم .

١٠ – تبلغ هذه التوصيات إلى جميع وزراء التعليم والإعلام والثقافة فى مصر والأقطار العربية للأخذ بها وتنفيذها .

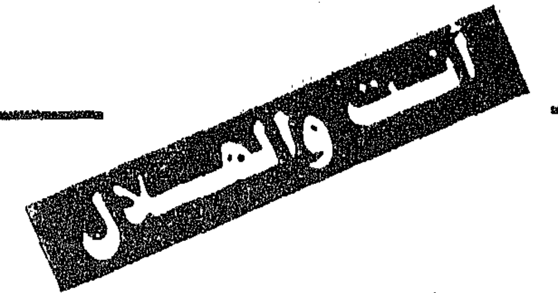
● لكن بشـــــر ●

تـذوبـيـن بـيـن الـشـــذا والـزهـر ★ تـضـيـعـين بين السـنا والـقـمـر
ومـــا بـين ظـنـى ، وآه الـتـمـنـى ★ تـعـــودين فـى ذبـذبـات الـوتـر
فـيـقـتـلـنـى فـيك سـحـر الـعـيـون ★ ويـبـعـــثـنـى دلـهـا .. والحـور
رأيـتـك أنـثـى .. عـلـى الـقـلـب هـلـت ★ بـطـهـر الملائك ..لـكـن بـشـر
شـفـاهك يـخـتـال فـيـهـا الـكـريز ★ وعـبـر الـثـنـايا .. شـعـاع عـبـر
تـزغـرد فـى وجـنـتـيك الـورود ★ وزرقـة بـحـر .. بـطـرف فـتـر
فـلا زلت أحـيـا .. بـذكـرى لقـاء ★ تـشـكـل عـبـر عـبـيـر الـقـدر
فـحـرنـا .. وصـرنـا كـأنـا فـراش ★ تـحـتـرق بالـوجـد .. لـم يـصـطـبـر
نـرفـرف فـوق الـلـهـيـب حـيـارى ★ كـطـيـف بـدا لحـظـة .. واسـتـتـر
أفـقـنـا وكـنـا .. مـع الحـلـم ذنـبـا ★ مـع الـشـوق نـخـطـر .. أنـى خـطـر
مـشـيـنـا كـأنـا .. عـلـى الـغـيـم سـرن ★ تـبـسـم فـى نـاظـريـنـا الـسـهـر
رحـلـنـا .. وفـى الـقـلـب حـل اشـتـيـاق ★ لـيـجـمـعـنـا .. فـى الـلـيـالـى الأخـر

محمد عبدالوهاب جنيدى

● هى والضـــيـاء ●

عانق الضوء جسـمها ولهـانا ... وطـواها بسـاعديه حنانا
لف أعطافهـا وقبل منهـــا ... كل ما كان سـافراً ومصانا
واحتوى صدرها يهدهد بالأنفاس ... نهـدا مفزعاً حيـــرانا



وهفا ضاحكاً إلى القمر الوضاء يرنـــو ولا يريم مـــكانا

سال تبراً يموج فى وجنتيهـــا وغدا فـوق شـــعرها ألوانا

تارة فضة وطوراً نضـــاراً وأصيلاً مذهبــــاً نشوانا

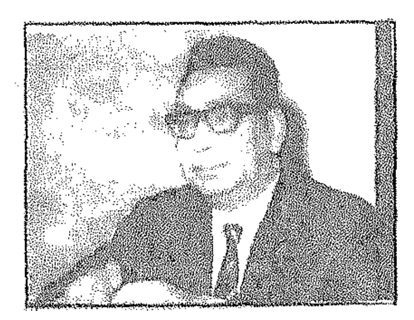
خلتها والضياء يســـبح منها فى نعيم زبرجـــداً فتانا

ومرايا من مرمر ضـــج فيها راقص الضوء فاستحالت جمانا

محمود عبدالعزيز عبدالمجيد - كفر الشيخ / ش دار البلدية

تنويه

نشرت فى العدد الماضى صورة للدكتور فؤاد مرسى على سبيل الخطأ فى موضوع «تطور الفكر الاقتصادى المصرى صفحة ٤٦ وننشر الصورة الصحيحة.


فؤاد مرسى

● أمين الخـــــــولى ●

بدأ حياته الأدبية والفكرية بعد تخرجه مدرسا بمدرسة القضاء الشرعى عقب تخرجه فيها سنة ١٩٢٠ ورئيساً لتحرير مجلة القضاء الشرعى ثم استقبل فى أوربا مرحلة جديدة من تكوينه الثقافى وبعد ان رسخت جذوره فى البيئة العربية والإسلامية واستوعب علوم العربيـة والإسلام رواية ودراية وعاد إلى مصر فاستأنف التدريس فى مدرسة القضاء الشرعى إلى أن أغلقت فانتقل إلى كلية الآداب بجامعة القاهرة حيث أسس فيها مدرسة جديدة أصلت بمناهج البحث ورسخت تقاليده واستشرف تلاميذه فيها إلى آفاق عالمية رحبة فكانوا هم أيضا نمطا فريدا متميزا من الجامعيين كما شغل منصب المستشار الفنى لدار الكتب المصرية والمدير العام للثقافة بوزارة التربية والتعليم مع عضويته بجامعة القاهرة ومجمع اللغة العربية وأمامته لمدرسة الأمناء ورياسة تحرير مجلتها الأدب لعشر سنين ومن أعماله الخالدة (مناهج تجديد – فن القول – فى الأدب المصرى – مالك بن الأنس – المجددون فى الاسلام – من هدى القرآن –رسالة الأزهر فى القرن العشرين – صلة الاسلام بالمسيحية)

وما حقق من كتاب المغنى فى العدل والتوحيد وانساب الأشلاف للبلاذرى وما قدم من بحوث أدبية إلى المؤتمرات الدولية وانتقل إلى رحاب الله يوم الأربعاء ٩ / ٣ / ١٩٦٦ وله من المؤلفات ٧٠ كتابا ودفن فى بلدته شوشاى – مركز أشمون بمحافظة المنوفية .

رجب عبدالحكيم بيومى الخولى – القاهرة





الكلمة الأخيرة

أبى يغزو وأمى تحدث

بقلم : د. محمود الطناحى

هذا مثل شائع من أمثال العرب ، وأصله فيما ذكر ابن الأعرابى : أن رجلا قدم من غزوة ، فأتاه جيرانه يسألونه عن الخبر ، فجعلت امرأته تقول : قتل من القوم كذا ، وأسر كذا ، وجرح كذا ، والرجل صامت لا يتكلم ، فقال ابنها متعجبا : « أبِي يغزو وأمى تحدث » هكذا رواه المفضل بن سلمة ، والميدانى ، ورواه الزمخشرى « وأمى تُحبر » والتحبير : التزيين ، ثم قال : يُضرب لمن يفتخر ببلاء غيره .

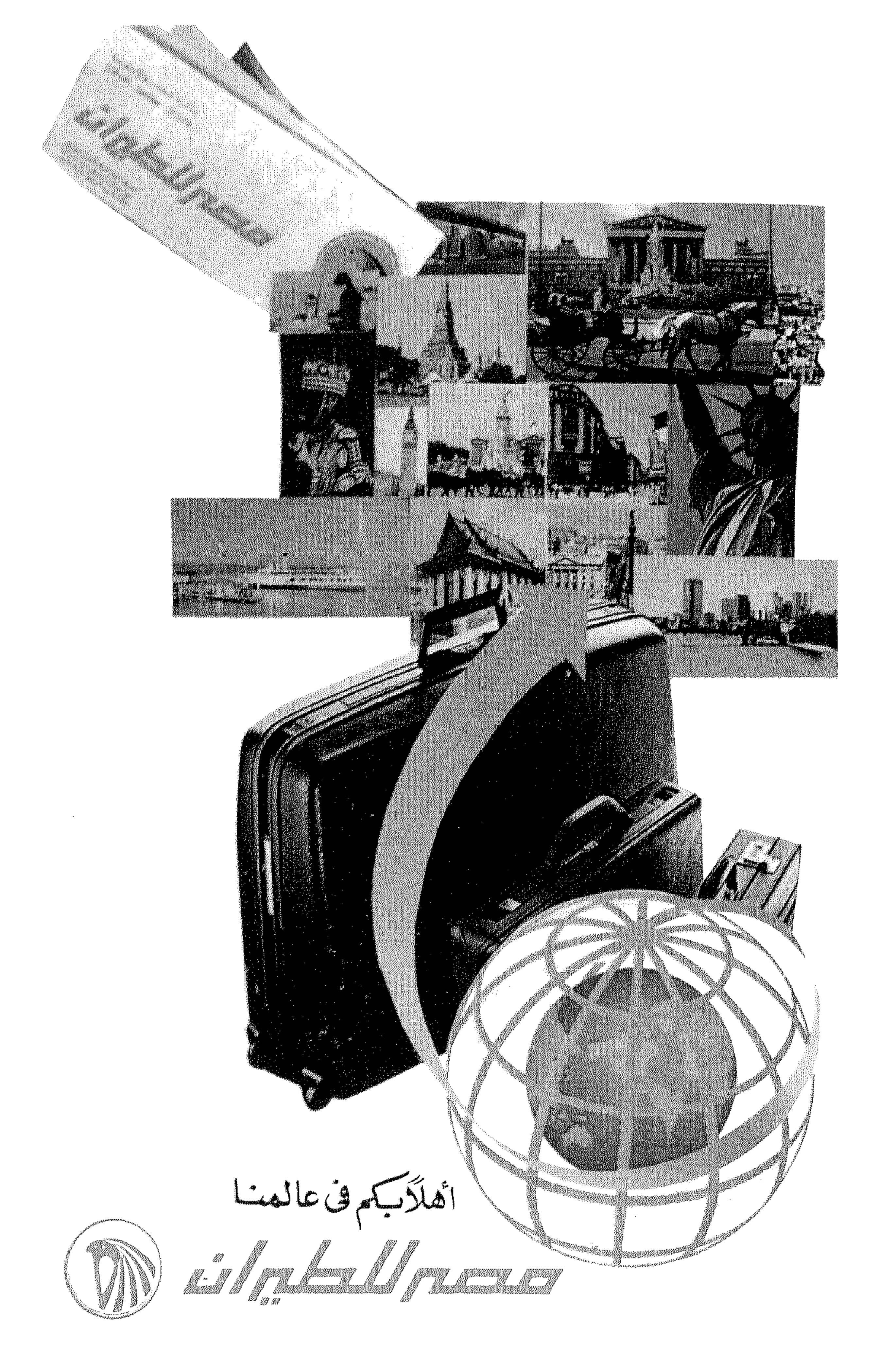
وأنت ترى أيها القارىء الكريم وأنا أرى معك تصديق هذا المثل كل يوم فيمن يتحدثون كثيرا على ألسنة غيرهم ، ويحملونهم ما لم يحملوا ، ويقوِّلونهم ما لم يقولوا ، وكثيرا ما يضيفون الى ذلك كلاما آخر عن أنفسهم هم ، معتدلين أو مبالغين.

وقد ذكرت هذا حين قرأت عقب وفاة شيخ المجمعيين الدكتور ابراهيم بيومى مدكور كلمة بالأهرام لأحد أساتذة الجامعة ، نعى فيها الدكتور مدكورا ، ذاكرا بعض مآثره وآثاره ليخلص بسرعة الى الحديث عن نفسه هو وتلاميذه هو ، ثم رآها فرصة ليضع كتفه بجوار كتفه ، وهامته إلى هامته ، فيذكر خلافه معه فى الرأى والقضايا الفلسفية الكبرى .

وذكرت هذا المثل أيضا يوم حصل فارس الرواية العربية نجيب محفوظ ، على جائزة نوبل العالمية ، وانطلقت أقلام المُنظِّرين والمتفلسفة ، تحلل وتفسر ، وتستنطق الأديب الكبير بما لم يقله ، بل إن بعضهم ألبسه « برنيطة » فرد فنه الروائى الى فلان الانجليزى ، أو فلان الفرنسى ، والرجل ساكت لا ينطق ، مجامل لا ينفى ، وكأنه يقول فى نفسه « لا والله ليس الطريق هنالك ! » . على أن أديبا من هؤلاء الأدباء أعطى لنفسه خصوصية عجيبة بنجيب محفوظ ، فهو لايزال يشعرنا بأنه الأقرب والأحظى عند الأستاذ ، وأنه مستودع سره ، ومستراح ضميره ، ويقول مرة : أبى نجيب ، ومرة : عمى نجيب ، ثم يتمادى فيرد أدبه الى أدبه ، ويقرن فنه بفنه ، ويباعِد ما بينهما !

ويذكر تلاميذ الأستاذ العقاد وجلساؤه أن ذلك الكتاب الذى كتبه هذا الأديب الشهير والصحفى الكبير عن « صالون العقاد » فيه تزيد غير قليل على العقاد ، وأن قدرا كبيرا من المكتوب إنما هو عن الكاتب لا عن العقاد ، هكذا قالوا والعهدة عليهم ، فإنى لم أجالس العقاد رحمه الله، وقد فاتنى بذلك خيرٌ كثير .

على أن هذا كله يذكرنا بمثل عربى آخر ، هو قولهم : « سَيْرَيْنِ فى خُرْزَة » والسير معروف وهو من الجلد يُصنع منه النعال ، ويُضرب هذا لمن يجمع حاجتَين فى حاجة واحدة ، وما أصدق العرب فى أمثالها وحِكَمها !


أهلاً بكم فى عالمنا
مصر للطيران

طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع ـ المطابع ٨ ، ١٠ ، ١٣ شارع ١٧ المنطقة الصناعية بالعباسية ـ المكتبات ١٠ ، ١١ شارع كامل صدقى بالفجالة ـ ٤ شارع الإسحاقى بمنشية البكرى ـ روكسى بمصر الجديدة ـ القاهرة ت : ٢٨٣٥٥٥٤ ـ ٩٠٨٤٤٤ ـ ٢٥٨١١٩٧ ج . م . ع / فاكس ـ 202/2596650